موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة ص
حتى
سورة فصلت

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1- 10 حال الكافر وتعنته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-12-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة أو البيان آية من آيات الله الدالة على عظمته :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الأول من سورة ص، بسم الله الرحمن الرحيم:

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

صاد حرف من حروف الهجاء، أشار بعض المفسرين إلى أن في ذكر هذا الحرف لفت نظر للإنسان، أي يا أيها الإنسان هل فكرت في هذه الحروف التي تخرج من فمك؟ هل فكرت في هذا الجهاز الصوتي الذي أودعه الله فيك، الله جلّ جلاله يقول:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

من ثمانية وعشرين حرفاً تتكلم آلاف الكلمات، في بعض معاجم اللغة أكثر من ثمانين ألف مادة، والمادة كما تعلمون تتفرع إلى كلمات كثيرة، العين واللام والميم مادة، منها فعل ماض، وفعل مضارع، وفعل أمر، واسم فاعل، واسم مفعول، واسم مكان، اسم زمان، اسم تفضيل، اسم آلة، صفة مشبهة باسم الفاعل، فعل ثلاثي، رباعي، خماسي، سداسي، فعل مجرد، فعل مزيد، كلها مادة واحدة، ثمانون ألف مادة في بعض معاجمنا، وأصل كل هذه الكلمات ثمانية وعشرون حرفاً.

الإنسان يعبر عن معان دقيقة جداً من خلال اللغة، واللغة مكونة من ثمانية وعشرين حرفاً، فلك أن تعد اللغة أو البيان آية من آيات الله الدالة على عظمته، فالصاد تفخيم السين، والطاء تفخيم التاء، والضاد تفخيم الدال، حروف انفجارية، حروف صفير، حروف همس، مقاطع، حروف لين، حروف متحركة، حروف مَبنَى، حروف معنى، حروف مد، حروف صوت، اللغة من آيات الله الدالة على عظمته، اللغة أداة اتصال بين أفراد النوع، لولا اللغة كيف بإمكانك أن تعبر؟ أن تنقل مشاعرك وأفكارك لبني البشر؟ شيء صعب، بكلمة واحدة يفهمها الناس جميعاً، يفهمون مرادك.

الله عز وجل شاءت حكمته أن يخلق الأشياء من مواد بين أيدينا :

على كل ليس القصد أن نغوص في معاني اللغة، وفي فلسفة اللغة، وفي تفسيرها النفسي والاجتماعي، الهدف أن الإنسان حينما يتكلم كل حرف كما قال علماء اللغة وعلماء الطب أو علماء التشريح، كل حرف تصنعه سبعة عشر حرفاً، فكلمة من خمسة أحرف، وجملة من خمس كلمات، وكلمة من خمس جمل، ومحاضرة من آلاف الجمل، هذا اللسان يتحرك تارة يلتصق بسقف الحلق، تارة يأنف، تارة يفلطح، تارة يلتصق بأسفل الفم، تارة يأتي بين الأسنان وأنت لا تدري، فربنا عز وجل يقول:

(ص)

أي هذه الآية الدالة على عظمة الله عز وجل، هناك معنىً آخر هو أن الله عز وجل شاءت حكمته أن يخلق الأشياء من مواد بين أيدينا، لماذا خلق الإنسان من طين؟ الطين بين أيدينا، هل هناك جهة في الكون تستطيع أن تجعل هذا الطين إنساناً؟ مئة وأربعون مليار خلية في الدماغ هذه استنادية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية تتم فيها المحاكمة والتفكر والتذكر والتصور والاستدلال والاستنتاج والمقايسة، ومركز السمع والبصر والحركة والإدراك. وهناك قلب وأوعية وشرايين وأوردة وأعصاب حس وأعصاب حركة وأعصاب ملساء مخططة، وعظام ومفاصل وأشياء معقدة جداً لا يزال العلم حتى الآن عاجزاً عن إدراك عظمة خلق الإنسان، هل في الأرض جهة تستطيع والطين بين أيدينا؟

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ)

[سورة السجدة: 7]

هذه البيضة موادها الأولية بين أيدينا، ما يأكله الدجاج تراه بعينك ماذا يأكل؟ هل في الأرض جهة تستطيع أن تجعل من طعام الدجاج بيضة؟ الحليب نشربه كل يوم، ومواده الأولية بين أيدينا، ماذا تأكل البقرة؟ تأكل حشيشاً، هل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تصنع من الحشيش حليباً؟ كل مشتقات الحليب مادة أساسية لحياتنا، هذا هو الإعجاز.

الإعجاز في الخلق :

ربنا عز وجل شاءت حكمته أن يصنع شيئاً مواده الأولية بين أيدينا، نحن عاجزون ولكن الله جلّ جلاله يتجلى على الشيء فيجعله شيئاً بالغ التعقيد عظيم النفع.

هذه الزهرة التي تبهج النفوس هي من التراب، الألوان وتناسبها والرائحة العطرة من أين جاءتها؟ اللون الأصفر مع اللون الأخضر، تدرّج ألوانها، دقة تصميمها، روعة شكلها من أين جاءت؟ من

التراب، هذا هو الإعجاز، النبات شيء معجز، الحيوان الصغير، البيضة كيف تصبح بعد أيامٍ عدَّة صوصاً، كائناً يتحرك ويرى ويسمع ويصوت ويأكل، جهاز هضم، جهاز تنفس، جهاز دوران، جهاز عضلي، جهاز عصبي، عينان، أذنان، كل هذا من بيضة، كيف تحولت هذه البيضة إلى هذا الصوص؟ هذا هو الإعجاز، طعام الدجاج يصبح بيضة والبيضة تصبح صوصاً.

والإنسان نقطة من ماء مهين يصبح كائناً سويّاً، الأجهزة التي في الإنسان لا يستطيع الإنسان أن يعقلها، المعجزة أن تكون معافىً سليماً، حينما نستمع من بعض الأطباء الكرام عن أعراض المرض نسبة كذا ارتفعت ونسبة كذا هبطت، معناها أن الإنسان حينما يشعر بصحة وعافية، معناها آلاف الأجهزة وآلاف النسب الدقيقة جداً هي منظمة في دمه وفي عضلاته وفي غدده الصماء، هذا هو الإعجاز.

كل هذه الأمثلة مهدتُ بها لهذا المثل، و(ص) هذا الحرف بين أيديكم، هو بين أيديكم وأمثاله بين أيديكم، والحروف الهجائية كلها بين أيديكم اصنعوا القرآن الكريم، فيه نظام تشريعي كامل، نظام صحي كامل، إخبار عن الماضي، إخبار عن المستقبل، آيات دالة على عظمته، بيان، وبلاغة، وعلم، وخبر صادق، وحكم، وأمر ونهي، وحلال وحرام، وحكمة وموعظة، وتاريخ ومستقبل، كله في هذا الكتاب، هذا هو الإعجاز.

أي إذا تجلى ربنا على الحروف صارت قرآناً، تجلى على الطين صار إنساناً، تجلى على هذه المواد أصبحت وروداً وأزهاراً، تجلى على هذه النطفة فصارت إنساناً سوياً كاملاً.

العلماء أوردوا حول كلمة (ذي الذكر) معانيَ كثيرة :

الذي أردت أن أمهد لكم به هو أن القرآن من هذه الحروف، وهذه الحروف بين أيديكم.

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

القرآن هو الذي يُقرأ. كتاب الله عز وجل، الكتاب هو القرآن والقرآن هو الكتاب، إذا كتبته فهو كتاب، وإذا قرأته فهو قرآن كلام خالق الكون، لكن:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

العلماء أوردوا حول هذه الكلمة معانيَ كثيرة:

1 ـ ذي الذكر أي أنك إذا قرأته وطبقته رفع الله لك ذكرك :

أول معنى أن هذا القرآن ذي الذكر أي ذي الشرف، أي إذا قرأته أيها الإنسان شرفت بين الناس، إن الله رفع بهذا القرآن أقواماً ووضع به آخرين، إذا تعلمت تلاوته تشرف بين الناس، إذا فهمت معانيه تشرف بين الناس، إذا طبقته تحلّق في سماء القرب، من أي طريق أخذته يعلو بك القرآن.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

هذا مستنبط من قوله تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 4]

الإنسان قد يكون خاملاً مغموراً لا أحد يعرفه، فإذا قرأ القرآن وتعلمه، إذا تلا القرآن، إذا أحكم القرآن، إذا فهم معاني القرآن، إذا طبق القرآن رفعه الله في أعلى عليين.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

كل من يأخذ به يشرف عند الله وعند الناس، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلّمَهُ))

[البخاري عن عثمان بن عفان]

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

2 ذي الذكر أي ذي الشرف بذاته لا لغيره :

شيء آخر: ذي الذكر أي ذي الشرف بذاته لا لغيره، المعنى الأول أنك إذا قرأته، إذا تلوته، إذا جّودته، إذا فهمت معانيه، إذا طبقته رفع الله لك ذكرك، كبار قراء القرآن الكريم لهم حرف كغيرهم ولكن الناس ينسون حرفهم ويلتفتون إلى تمكنهم من كتاب الله عز وجل، لذلك إذا أردت أن ترتفع فتعهّد هذا الكتاب تلاوة وفهماً وتطبيقاً، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

كل من تعلمه يرفعه الله عز وجل، المعنى الثاني: ذي الذكر أي شريف بذاته، أي فيه من الإعجاز اللغوي والبياني والأدبي، فيه من الإعجاز العلمي والتشريعي والتاريخي والإخباري الشيء الذي لا يصدق، معنى إعجاز: أي يعجز البشر لو اجتمعوا عن أن يأتوا بآية منه، وقد تحدى الله البشر بذلك فقال:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

[سورة الإسراء: 88]

فهو يشرف من تعلمه وهو شريف بذاته، هذا المعنى الثاني من معاني:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

3 ـ ذي الذكر أن به ذكراً لكل ما تحتاجه :

ومعنى ذي الذكر أيضاً أن به ذكراً لكل ما تحتاجه، مستنبط هذا من قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

كتاب تام كامل، تام في عدد الموضوعات التي عالجها، وكامل في طريقة المعالجة، أي تام وكامل، منهج كامل لا يحتاج إلى منهج آخر، لهذا أي زيادة أو حذف كفر بالقرآن الكريم لأنه كلام الله عز وجل، كل ما تحتاجه في شأنك مع الله، في شأنك مع أهلك، في شأنك مع الناس، في زواجك، في بيعك وشرائك، في مهنتك أو حرفتك.

بل إن العلماء يقولون إن في القرآن الكريم إشارات بليغة إلى أصول العلوم كلها، إلى الأصول لا إلى التفاصيل، حينما قال الله عز وجل:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

هذه إشارة لطيفة إلى علم الذرة، كل مادة خلقها الله عز وجل لو حللتها لوجدتها تنتهي إلى ذرات، والذرة نواة وكهارب وكهرباء، هذا للذكر.

4 ـ ذي الذكرأي فيه ذكر لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا :

وبعضهم قال:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

أي فيه ذكر لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، الله عز وجل ذكّرنا وذكر لنا في كتابه الكريم ما يتعلق بذاته. بالمناسبة الإنسان بعقله يؤمن بأن لهذا الكون خالقاً، لكن من هذا الخالق؟ ما اسم هذا الخالق؟ لماذا خلق؟ ما الحكمة من خلقه؟ هذا جاء في القرآن الكريم، قال لك الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة إبراهيم: 19]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

5 ـ ذي الذكرأي فيه ذكر لما عجز العقل عن إدراكه :

بيَّن لك من خلق، ولماذا خلق، وماذا بعد الخلق، وماذا بعد الموت؟ هذا كله بيّنه الله عز وجل، إذاً فيه ذكر لما عجز العقل عن إدراكه، الشيء الذي أدركه العقل بذاته شيء جيد، لكن كل ما عجز العقل عن إدراكه جاء القرآن وذكره لهذا العقل، فهناك تكامل بين تفكر العقل في السماوات والأرض وبين تلاوة القرآن، العقل له مهمة والنقل له مهمة، العقل يتأمل في الخلق ويستنبط بعض الحقائق، والعقل يقرأ القرآن فيكمل به ما فاته بعقله.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

6 ـ ذي الذكرأي فيه تذكير لك أيها الإنسان بمهمتك بحقيقتك بما ينتظرك من مسؤولية:

فيه تذكير لك أيها الإنسان بمهمتك، بحقيقتك، بما ينتظرك من مسؤولية، من حساب، من عقاب، من جنة أو نار، والقرآن فيه إجمال معجز، علماء البلاغة يقولون: الكلام بين الإيجاز المخل والإطناب الممل، فهناك إطناب مملّ يمله السامع، وهناك إيجاز مخل لا يفي بالغرض وأيضاً يتأذى منه السامع، كلام ليس له معنى، لشدة اختصاره، لكن كلام الله عز وجل إعجازه في إيجازه، وإيجازه ليس مُخِلاً، وإطنابه ليس مملاً.

الحديث عن كتاب الله حديث يطول، وكل إنسان بنفسه تصور عن هذا الكلام بقدر تأمله في هذا الكلام، بقدر حضوره مجالس العلم، بقدر اهتمامه بهذا الكلام، اهتمامك واستماعك وتأملك يحددان حجم معرفتك بهذا الكلام.

الكافر موقفه من كلام الله عز وجل موقف المكذب المتأبي المستكبر :

قال تعالى:

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

لكن هذا القرآن على عظمته، وهذا القرآن على علوّ شأنه، وهذا القرآن على أنه حبل الله المتين، على أنه الصراط المستقيم، على أنه النور، على أنه البيان، على أنه البرهان، على أنه كتاب الهدى، على أنه المنقِذ، على أنه المنهج، على كل ذلك:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

معنى العزة هنا: التأبِّي، هم يرفضون تلاوته، يرفضون فهمه، يرفضون أن يَذْعنوا أنه كلام الله عز وجل، تأبى نفوسهم ذلك، عزة الشيطان هذه، عزة الكفر، عزة الاستكبار.

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

[سورة الأنعام: 26]

المؤمن موقفه من كلام الله عز وجل موقف المصدِّق، موقف المستأنس، موقف المقبل، موقف المهتم، موقف المعتقد، لكن الكافر موقفه من كلام الله عز وجل موقف المكذب المتأبي المستكبر.

(فِي عِزَّةٍ)

أي هناك إباء عن سماعه، وعن فهمه، ألا ترون معي أن إنساناً كافراً مهما حاولت أن تسمعه القرآن يتأبى، يبحث عن أغنية يطرب لها، مهما حاولت أن تسمعه شريطاً فيه تفسير لا يرضى إطلاقاً، هذا هو التأبِّي، وهذه هي عزة الشيطان، لكن كما قال عليه الصلاة والسلام حديث رائع جداً:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة ألا يا رب مكرِم لنفسه وهو لها مهين))

[أخرجه السيوطي وابن سعد عن أبي البجير]

في القرآن الكريم كلام هداية ورشد فنظامه نظام نفسي :

تخيل الكافر أنه إذا تأبت نفسه عن هذا الكلام، هذا كلام لا يصلح لهذا الزمان، هذه غيبيات، قال أحدهم: يقول فلان يحمل رتبة علمية عالية القرآن ليس علمياً، ليس فيه علم، بعضهم قال: ليس فيه تناسق موضوعي بين آياته، هذا الذي يجرح في كلام الله يتوهم أن ليس في القرآن موضوعات موحدة، من قال لك أن كلام الله كلام مدرسي أو أنه كلام جامعي، كلام هداية ورشد، نظامه نظام نفسي، فتارة يصف لك مشهد من مشاهد يوم القيامة، وتارة يلفت نظرك إلى آية من آيات الله عز وجل، وتارة يبيّن لك حكماً شرعياً، وتارة يتحفك بخبر تاريخي، وأخرى يخاطب عقلك، ومرة يخاطب قلبك. القصد أنك إذا قرأت هذه السورة أن تنتقل من الضياع إلى الهدى، من الشرود إلى الوجدان، من الشقاء إلى السعادة، فنظامه نظام نفسي، ومن قال لك أنه كتاب جامعي لا بدّ من فصول، هذا الذي يقول ذلك يتوهم أن فصل عن بني إسرائيل فيه فهرس، فصل عن الزكاة، فصل عن الصيام، طبيعة النفس لا

ترتاح إلى هذه التفصيلات الجامدة، لكن السورة هي هداية متكاملة من أمر إلى نهي إلى موعظة إلى حكم إلى خبر إلى آية إلى مثل إلى شاهد وهكذا.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

يرفضون سماعه، يرفضون الإذعان له، تأبى نفوسهم أن يطبقوا أوامره ونواهيه هم فوق ذلك، في عزّة أي في تأبٍّ عنه وفي شقاق لمن أنزل عليه، يكرهون النبي عليه الصلاة والسلام لأنه قيّد حرياتهم، لأنه وضعهم أمام مسؤولياتهم، لأنه ذكرهم بالآخرة، لأنه جاء بمنهج تفصيلي فيه اِفعل ولا تفعل، هم يحبون أن يفعلوا ما يشاءون، لذلك هم في عزة واستعلاء وتكبر عن قبول هذا القرآن وما فيه من عقائد، من أوامر، من أخبار، وشقاق لمن أُنزل عليه.

بقدر ما ينطوي قلب المؤمن على حب للنبي بقدر ما ينطوي قلب الكافر على كره له:

حال المؤمن مع القرآن حال التعظيم، حال التصديق، حال الهداية، وحال الحب لمن أنزل عليه، هو الذي أنقذنا، هو الذي هدانا، هو الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، هو الذي عرفنا بربنا، هو الذي عرفنا بالفضائل، هو الذي كان أسوة لنا، فبقدر ما ينطوي قلب المؤمن على حب للنبي عليه الصلاة والسلام بقدر ما ينطوي قلب الكافر على كره له، يظهر هذا من فلتات لسانه، من استهزائه، من سخريته أحياناً، يظهر هذا إذا ذكر النبي باسمه فقط، هذا استخفاف بالنبي عليه الصلاة والسلام.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

لذلك اعتقدوا أن البشر على اختلاف مللهم ونحلهم واتجاهاتهم وأعراقهم وأنسابهم وقومياتهم وأجناسهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم هم رجلان: مؤمن وكافر، مؤمن بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر والقدر، وملتزم بشرعه مُحسن إلى خلقه، منوَّر سعيد، والآخر كافر بالله وبأسمائه وبوحدانيته وبكماله، كافر بكتابه ورسوله، بقضائه وقدره مقطوع عن الله عز وجل، متفلت من أوامره، مسيء لخلقه، شقي، في عمًى، الناس رجلان: مؤمن وكافر.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

يرفع قدر المؤمن ويعلي شأنه، يذكره بربه، يذكره بآخرته.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

لكن هؤلاء الذين كفروا الذين هم في عزة وشقاق لقد أهلكنا قبلهم أمثالهم، أهلكنا أقواماً كثيرين أمثالهم، الكافر دائماً يخاف بعينه، يرى أنه قوي وأنه غني فيعتدُّ بقوته وغناه، ويكذب الرسل، ويسخر من

دعوات الحق، لكن المؤمن يفكر، يعقل، يتأمل، يقرأ القرآن ويعمل عقله فيه، يفكر في خلق السماوات والأرض، يحجم نفسه، يصدق، يطيع، يقبل، يخاف.

حال الكفار :

أحياناً يتكلم بعض الأشخاص كلمة أشعر أنها تقطر كِبراً، وكأن الدين شيء صغير وهو عظيم جداً، يقول: أنا رجل علم، ولو كنت رجل علم!!! القرآن الكريم لو أمضيت كل حياتك في فهم دقائقه ما أحطّتَ بها، النبي عليه الصلاة والسلام العالِم يمضي سنوات طويلة لينال مرتبة علمية إذا هو فهم بعض الأحاديث الشريفة.

يا أيها الأمّي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، كلما تقدم العلم كشفوا جانباً من عظمته، كشفوا جانباً من أن هذا الذي جاء به كيف جاء به، لم يكن هناك معطيات حينما كان النبي فكيف جاء به.

يا أيها الأمّي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

قال هؤلاء الكفار إنهم في عزة في تأبٍّ وشقاق لمن أنزل عليه القرآن، أهلكنا قبلهم أمثالهم، أهلكنا قبلهم أقواماً كثيرين تطاولوا وتكبروا وكذبوا وفخروا، ولكن حينما جاء وقت العقاب، وقت البلاء لو رأيتهم يا محمد:

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

أحياناً شخص خارج عن القانون يتبجح ويتعالى ويسخر من كل شخص، يريد أن يضبطه، هذا حينما يقع في قبضة العدالة لو رأيته في قفص الاتهام وهو ذليل، بصره نحو الأرض، حينما يعذّب يصيح يتوسل ينادي لو رأيته، كل كبره تلاشى، كل عنجهيته تلاشت، كل غطرسته تلاشت، الكافر يخاف بعينه.

أنا أعرف والله أناساً كثيرين يأتيهم مرض عضال فإذا هم كالأطفال، يصيحون، يولولون، يصرخون بويلهم، يلطمون وجوههم لمرض أوهمهم أن الأجل قريب، أين شخصيتك القوية! أين كبرك! أين استخفافك بالدين! أين احتقارك للمؤمنين الصادقين! أين كل هذا، لذلك:

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا)

قال بعض العلماء: نادوا بالتوبة، أو نادوا بالاستغاثة، إما أنهم يستغيثون الله عز وجل، وإما أنهم أعلنوا توبتهم ولكن بعد فوات الأوان.

يوم القيامة ليست الساعة ساعة خلاص هذه الساعة ساعة عقاب :

هذه ما معناها:

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

هذه كلمة منحوتة أساسها: وليس الحين حين مناص، أي من باب التقريب: إنسان ارتكب جريمة واقتيد إلى السجن وحكم وثبتت عليه الجريمة وصدر القرار بإعدامه واستأنف الحكم، وحكمت المحكمة التي هي أعلى بتصديق القرار واستأنف الحكم عند النقض وحكمت محكمة النقض بإعدامه وصدق الحكم من رئيس الجمهورية وسيق للإعدام وهو على حبل المشنقة بدأ يتوسل، نقول له هذا التوسل لا يجدي الآن، فات الوقت، وقت التوسل والبكاء والاسترحام والعويل، افعل ما شئت؛ لك أن تضحك، لك أن تبكي، لك أن تنهار، لك أن تتجشم، افعل ما شئت لا بدّ من تنفيذ الحكم، هذه الساعة لا تنفع.

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

وليست الساعة ساعة خلاص، هذه الساعة ساعة عقاب، هذه الساعة ساعة إنزال البلاء، فالإنسان كما كنت أقول لكم دائماً قضية الإيمان ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، لا بدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان، بقيت قضية الإيمان أن تؤمن بعد فوات الأوان، القصة كلها هذه أن تؤمن وأنت شاب، أن تؤمن وأنت صحيح، أن تؤمن وأنت قوي، أن تؤمن وأنت غني.

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

وليست الساعة هذه الساعة ساعة خلاص من هذا العذاب، هذه ساعة عذاب لا ساعة خلاص، ساعة إنزال العذاب لا ساعة خلاص من هذا العذاب، أي أيها المؤمن لا تنظر إلى كبر الكافر، إلى عجرفته، إلى استعلائه، إلى رده للحق، إلى تأبيه عن قبول الحق، لا تعبأ، لو تنظر إليه وهو ينادي ويستغيث، لو تنظر إليه وهو على فراش الموت.

حال الكافر وهو على فراش الموت بعد فوات الأوان :

إنسان أمضى كل حياته وهو يكسب مالاً من طرق غير مشروعة عن طريق الملاهي والقمار حتى جمع ثروة طائلة تقترب من ألف مليون، جاءه ملك الموت وطالت فترة نزاعه، أولاده أحضروا له بعض أهل العلم، سأل أحدهم ماذا أفعل؟ فقال له هذا الرجل وهو صادق فيما يقول، قال: لو أنفقت هذه

الملايين التي تقترب من ألف مليون أنفقتها كلها لا تنجو من عذاب الله، أين كنت حينما كنت شاباً؟ أين كنت حينما كنت متألقاً؟ لماذا غفلت عن الله عز وجل؟ لماذا نسيت أمر الله؟ لماذا نسيت هذه الساعة؟

(فَنَادَوْا)

صرخوا، استغاثوا، استنجدوا، إما أنهم أعلنوا التوبة وإما أنهم طلبوا المعونة وهذا يحدث دائماً، لو ركب أكثر الكفار طائرة وأصابها خطر قريب من سقوطها، انظر إلى الركاب كلهم يقول: يا الله، بعضهم كان ينكر وجود الله، مرة ركب خبراء بطائرة كلهم ملحدون، دخلت الطائرة في جيب هوائي فهبطت فجأة واضطربت اضطراباً كبيراً، فإذا بهؤلاء الملحدين يقولون: يا الله أنقذنا.

(فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

هذا المتكبر انظر إليه وهو يعاني سكرات الموت، انظر إليه وهو يعاني من الضيق.

(فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ* وَعَجِبُوا)

هنا الحقيقة: ليس العجب أن يأتيك رسول من عند الله عز وجل قد أنزل عليه كتاب، العجب ألا يأتي الرسول، لأن خالق الكون كامل ومن لوازم كماله ألا يدع خلقه بلا أمر ونهي، الأب كامل من لوازم كمال الأب (تقريباً للمعنى) إذا رأى الأب ابنه منحرفاً يسكت الأب؟ لا لكن الأب الكامل دائماً ينصح أبناءه، يأمرهم وينهاهم، يقدم لهم النصائح والإرشادات والبيان والتوضيح والنصح لا بدّ من ذلك، فهم قالوا:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ)

النبي سيد البشر تجري عليه كل خصائص البشر :

حسناً لو جاءك منذر من الملائكة أول كلام تقوله: هذا ملك وأنا بشر، أول كلمة تقولها لو أنه يُحس بإحساسنا لما أمرنا، لو أن الله ركّب فيه الشهوات التي عندنا لما استقام كما ترونه، الله عز وجل أرسل رسولاً من أنفسنا، يحس بما نحس، ويحب ما نحب، ويكره ما نكره، ويغضب كما نغضب، وينسى كما ننسى، ويتألم كما نتألم، لذلك قالوا لأن النبي تجري عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر، لو لم يكن بشراً لما ركب الله فيه شهوة النساء، شهوة المال، وشهوة العلو في الأرض، لولا أنه يشعر بالحر والبرد والجوع والعطش، لولا أنه يغضب لما كان في هذا المستوى الرفيع.

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

لأن دعوته تتعارض مع شهوتهم، لأن دعوته تتعارض مع رغباتهم، قالوا:

(هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

إذا الإنسان دعا إلى الله عز وجل وقال من يعارضه أو من يجرحه له بهذا النبي أسوة حسنة، ساحر كذاب؛ سيد الخلق وحبيب الخلق، وقد يسأل سائل: لماذا أثبت الله تخرصاتهم في القرآن الكريم؟ أثبتها لتكون تسلية لكل من دعا إلى الله عز وجل بعد هذا النبي عليه الصلاة والسلام، من أنت؟ إذا تهجم الناس عليك وجرّحوك، وانتقدوا علمك، وقللوا من شأنك، ونظروا إليك نظرة ليس كما ينبغي، لك في هذا النبي العظيم الذي هو سيد الخلق وحبيب الحق أسوة حسنة.

أدلة تؤكد على وحدانية الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ*أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

العجاب أبلغ من العجيب، أقول طويل وطُوّال، من بلغ حداً في الطول مفرطاً يقال له: طُوّال، عجيب وعجاب، شيء لا يصدق إله واحد للعالم كله، طبعاً ألا ترى الانسجام، ألا ترى الوحدة، ألا ترى أن الكون كله ينطلق من مبادئ ثابتة، من بنية واحدة.

الإنسان، مثلاً الآن معمل في كندا يصنع دواءً مسكناً يشحن إلى استراليا، يأتي طبيب في استراليا يصف هذا الدواء لمريض يعاني من آلام في الرأس فتسكن آلامه، ماذا نستنبط من هذا؟ أن الذي خلق الإنسان في كندا هو الذي خلقه في استراليا، الخالق واحد، البنية واحدة، الخصائص واحدة، يتعلم طبيب جراح تشريح الجسم البشري في فرنسا ويعمل في الهند، حينما يفتح البطن هنا يوجد شريان، يوجد هنا وريد، وهنا يوجد عصب حسي، وهنا يوجد عصب حركي، هنا انتبه الغدة، درست هذا في فرنسا فكيف طبقته في الهند؟ لأن البنية واحدة، ألا ترى أن لهذا الكون خالقاً واحداً.

بل إن هناك تشابهاً في بعض الأجهزة بين الإنسان والحيوان، الخروف ما منكم واحد إلا وقف عند القصاب فيرى كليتين ومعدة والمري والأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة، الكبد والقلب، العضلات، الدماغ ولكن هناك فرق في الدماغ، لكن هناك تشابه كبير بين خلق الحيوان وخلق الإنسان معناه أنه خالق واحد.

بل إن هذا التوافق بين بنية الطعام وبين بنية أجهزة الإنسان، هذا الحليب لهذا الإنسان، القمح غذاء كامل، سوق القمح غذاء للحيوان، التبن غالٍ جداً، الغذاء الأول للحيوان من صمَّم هذا؟ سوق القمح للحيوان والثمرة للإنسان، ألا ترى هذا التوافق!

(أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

إله واحد، خالق واحد، مشرِّع واحد، قرآن واحد، بنية في الخلق واحدة، هذه وحدة الوجود.

حياة الجاهلية :

قال تعالى:

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ)

الملأ عِلية القوم، أعمدة الكفر، وجهاء المجتمع، العتاة، الطغاة.

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا)

الصورة جميلة جداً، إذا وقف واحد عند بائع مثلاً فقال له: بكم هذه الحاجة (وبذهنه أن ثمنها ألف ليرة)، فقال له: ثمانون ألف، فيقول له: امش، هذا الجواب، ما أعجبه هذا الكلام لأنه غير منطقي وغير واقعي، سعر غير معقول، فكلمة امش أبلغ من المساومة.

فهؤلاء الكفار حينما استمعوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى كلمة التوحيد، بدل أن يقفوا ويصغوا ويتأملوا ويعقلوا ويستفيدوا ويستجيبوا ويثنوا على النبي خيراً، بدلاً من كل ذلك قالوا له: امش.

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ)

على اللات والعزى، لأنهم لا تكليف لهم منها، ليس هنا غض بصر، هنا مسموح الزنا والخمر والربا والغصب والظلم، ومسموح أن يكون للشخص عشر زوجات، والعشر رجال لزوجة واحدة هكذا كانت الجاهلية، حياة كلها فوضى وظلم، وغصب للأموال والأعراض، انغماس في الوحول.

الكافر يفسر كل صدق واهتمام وحرارة إيمانية بالمنافع المادية :

قال تعالى:

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

هذه مؤامرة علينا من أجل انتزاع الميزات، من أجل تحويل الناس عن هذه البلدة، دائماً الكافر نظرته اقتصادية، مهما كنت متألقاً، مهما كنت غيوراً، مهما كنت صادقاً، مهما كنت متحمساً، يفسر الدعوة أن له مقصد مادي، هدفه المادة، دائماً الكافر يفسر كل صدق واهتمام وحرارة إيمانية يفرغها بالمنافع المادية، لذلك:

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

يراد بكم، أي له خلفية (بالتعبير الحديث)، له خلفية انتبه، انتبهت لِمَ قال كذا، ماذا قال؟ دعاك إلى الله، هذا يسعى إلى الزعامة، أو يسعى إلى جمع الأموال، أو يسعى إلى جمع الناس، دائماً الكافر لأنه سيئ

يكون سيئ الظن، ما ذاق طعم الإخلاص، ما ذاق طعم الخدمة الخالصة، ما ذاق طعم القرب من الله عز وجل، فدائماً يفسر ما عند الناس على ما عند نفسه.

(إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ* وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آَلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

أي هناك خطة ماكرة تراد لكم، يراد لكم أن تزول عنكم هذه الميزات، هذه المكتسبات، هذه الشهوات.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآَخِرَةِ)

آخر ملة اليهودية والنصرانية، ما سمعنا أنه إله واحد بل هناك ثلاثة، باللغة العامية من أين طلع لنا هذا بالإله الواحد؟

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآَخِرَةِ)

تعجب الكفار من إنزال الوحي على محمد عليه الصلاة والسلام :

يقولون واحد وقلتها لكم مرة سابقة، داعية شاب تحلق الناس حوله، وأعجبوا به من إخلاصه وصدقه، فزعزع مكانة الكبار، فمرة أراد بعض الكبار أن يسفهه فحضر مجلسه، فلما انتهى مجلسه قال له: يا هذا ما سمعنا بهذا، قال: هل حصلت العلم كله؟، قال: لا، فقال: هذا من الشطر الذي لم تحصله.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآَخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)

هذا مفتري.

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

الآن الآيات دقيقة جداً، يقول الله عز وجل:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا)

أي هو نشأ معنا، من أين جاءته النبوة؟ من أين جاءه الوحي؟ هو حينما كان يتعبد في غار حراء أين كنتم أنتم؟ كنتم غارقين في ملذاتكم وشهواتكم، في الخمور والنساء والربا والسفر والصيد، أين كنتم حينما كان يتعبد الله عز وجل؟

هذا يحدث في كل زمان، الإنسان يكون تابعاً لشهواته غارقاً فيها، إذا إنسان ظهر وأكرمه الله بالعلم، يقول متى أصبح هذا كذلك؟ أين كنت حينما كان هو عاكفاً على تحصيل العلم، وحينما كان يمضي الليل في التهجد أين كنت أنت؟ كنت غارقاً في السهرات المختلطة، وفي القيل والقال والأخذ والرد، وفي إضاعة المال، والانغماس في الشهوات.

إن آمنت أن القرآن كلام الله من خلال إعجازه تؤمن أن الذي جاء به هو رسول الله:

قال تعالى:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي)

هم ما قرؤوا القرآن، لو قرؤوا القرآن وتأملوا في آياته لعرفوا أنه معجز، وأن هذا الكلام المعجز الذي جاء به نبي قولاً واحداً، القضية دقيقة جداً، إن آمنت بهذا القرآن بأنه كلام الله من خلال إعجازه تؤمن بالتبعية، أن الذي جاء به هو رسول الله، لأنك لم تؤمن بالقرآن لم تقرأه، لم تتدبر آياته، لم تقف عند معانيه لذلك هان عليك تكذيب النبي، لو أنك آمنت بالقرآن لآمنت بالنبي، لأن طريق إيمانك بالنبي إيمانك بالقرآن الكريم، وطريق الإيمان بالقرآن الكريم كشف إعجازه، تؤمن به من إعجازه، وتؤمن بالنبي من القرآن الكريم، فقال تعالى:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي)

شكّوا أن هذا كلامي، ما آمنوا بأنه كلامي، ما رأوا إعجازه، ما رأوا إحاطته، ما رأوا أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حينما لم يروا هذه الرؤية شكوا في الذي أنزل عليه.

أحد أكبر الأسباب التي يسوق الله العذاب من أجلها هو أن يعود الإنسان لعبوديته :

شيء آخر:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

الإنسان الكافر بالله مادام في صحة جيدة، ومادمت الدنيا مقبلة عليه، ومادام في حرز حريز، ومادام في بحبوحة وفي مكانة، وله أهل وأولاد والأمور تجري على ما يريد يتعالى، يستكبر، يتأبى، أما إذا أذاقه الله العذاب يصبح إنساناً آخر، لو أنهم ذاقوا العذاب عذاب الشرك لزال عنهم الشك، لذلك أحد أكبر الأسباب التي يسوق الله العذاب من أجلها هو أن يعود الإنسان لعبوديته، يزول عنه كبره، الإنسان أيّ عضو من أعضائه، أي جهاز من أجهزته، أي غدة صماء، مركز توازن السوائل، مركز تعيير الملح، مركز تنبيه الرئتين لو تعطل هذا المركز هل بإمكانك أن تنام الليل؟ لا تستطيع.

أعرف رجلاً أصيب مركز تنبيه الرئتين النومي بتلف، لا يستطيع أن ينام لأنه إذا نام يموت فوراً، جاءه ابنه من أمريكا ومعه دواء نادر، هذا الدواء عليه أن يأخذه كل ساعة، يضطر أن يأخذه الساعة التاسعة والعاشرة، أربع منبهات يصحو الحادية عشر، أربع منبهات يصحو الساعة الثانية عشر، أربع منبهات يصحو الساعة الواحدة يأخذ حبة، الساعة الثانية حبة، الساعة الثالثة حبة، الساعة الرابعة حبة،

الساعة الخامسة حبة، الساعة السادسة حبة حتى يستيقظ، فإذا نام يموت، لأن مركز تنبيه الرئتين النومي في الجملة العصبية تخرب، في الإنسان عشرات الغدد الصماء لو تغير معيارها.

مركز توازن السوائل لو اختل الإنسان يدع مكتبه التجاري، يدع تدريسه، يدع عيادته، يدع متجره، يدع كل شيء، يجب أن يبقى بين الصنبور والمرحاض، يشرب عشرين ثلاثين لتر ماء ويبولهم هذا إذا تخرب مركز السوائل فقط، يا ترى مركز توازن يحتاج إلى أدوات يتحرك على أساسها، ثلاث قنوات لو تخربت الإنسان لا يقف، لا يستطيع أن يقف وحده، عاد طفلاً، الإنسان إذا عصى الله على ماذا يعتمد؟!!

الكفار لو عرفوا أن القرآن كلام الله لما شكوا في رسالة النبي :

قال تعالى:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

سمعت هذا أن إنساناً يدفع لرجل عشرة آلاف ليرة في الشهر لأن مستقيمه أصابه شللاً، فالعضلات التي تطرح الفضلات خارج الجسم هذه العضلات أصيبت بالشلل، فلا بدّ من إنسان بآلة أو بأداة ينزلها له، عشرة آلاف ليرة بالشهر، لو أصيب مستقيمه بالشلل أصبحت الحياة لا تطاق، لو أن قناة الدمع سُدت يفيض الدمع يحفر الدمع أخدوداً لأن الدمع مادة قلوية، حياة الإنسان تصبح جحيماً لو سُدت إحدى قنوات العينين الدمعيتين، لو تعطلت إحدى كليتيه. ماذا أقول لكم عن الأمراض، هناك معاجم للأمراض، آلاف بل مئات الألوف من الأمراض، قال:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

لو ذاقوا عذابي، لو ذاقوا عذاب الشرك لذهب عنهم الشك، يشك ويتحفظ ويقول: أنا لا أقبل، لا أعتقد بها، من أنت؟

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

* * *

من أنت؟ كلام خالق الكون، عندما الإنسان تحدثه نفسه أن لا يقبل آية، أو لا يقبل حكماً ويكون أحمق، هذا ليس كلام بشر بل هذا كلام خالق البشر، دقيقة الآية:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي)

لو أنهم عرفوا القرآن أنه كلامي لما شكوا في رسالة النبي، وعلى كل لو أنهم ذاقوا العذاب لما وقفوا هذا الموقف، إذاً العذاب يحتاجونه.

تعريف العبد :

قال تعالى:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

هل بإمكانهم أن يمنعوا عن النبي رحمة الله عز وجل؟ الله عز وجل إذا أعطى أدهش، وإذا أعطى لا ينتظر تزكية أحد، ولا يرد على اعتراض أحد، إذا أعطاك الله لا يعبأ لا بتزكية الناس ولا بذمهم، فهما سيان هو أعطاك وانتهى الأمر.

(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

هم الذين يعطونك هذا القرآن، هذا الوحي، هذا القرب.

(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)

ليمنعوا عنك الوحي تفضلوا امنعوا عنه الوحي، لو أنهم ملكوا السماوات والأرض فارتقوا في السماوات ومنعوا عن النبي الوحي والقرآن إذاً هم آلهة، هم عبيد ضعاف.

(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ* جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ)

كلهم عبيد لله عز وجل، مهزومون، مقهورون، هذا تعريف العبد، العبد مهزوم مقهور إلا إذا اعتصم بالله عز وجل، فالله جلّ جلاله يرفع له ذكره.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 11- 18 صفات المؤمن وصفات الكافر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-12-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى يُعزّي النبي عليه الصلاة والسلام ويواسيه ويطمئنه :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة ص، ومع الآية الحادية عشرة، بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ*وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ*إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يُعزّي النبي عليه الصلاة والسلام، معنى يعزيه بمعنى أنه يطمئنه، بمعنى أنه يؤنسه، لا، أنت يا محمد لست وحدك المُكذَّبُ، أقوام كثر أتوا قبل قومك وكذَّبوا رسلهم كما كذبك قومك، لست أنت وحدك المُكذَّبْ فالأنبياء الذين جاءوا قبلك كُذِبوا كما كُذِبت.

الإنسان أحياناً حينما تأتيه مشكلة وهذه المشكلة متكررة أرتاح، لا لأن هذه المشكلة ليست مشكلة ولكن هذا من سنة الله في خلقه، منذ أن خلق الله الإنسان هناك كفر وإيمان، وبين الكفر والإيمان معركة أزلية أبدية في أي عصر، الناس رجلان مؤمن غر كريم وفاجر لئيم، وبين المؤمن والفاجر معركة مستمرة.

أي حدث يفسره المؤمنون تفسيراً نابعاً من إيمانهم ومن تدينهم ومن عقيدتهم، والحادث نفسه يفسره الكفار تفسيراً نابعاً من لؤمهم ومن بعدهم ومن جفوتهم ومن حرصهم على الدنيا، فالإنسان يجب ألا يتفاجأ إذا دعا إلى الله وعارضه المعارضون، ما ينبغي أن يفاجأ إذا تمسك بأهداب الدين وانتقده المنتقدون، ما ينبغي أن يصعق إذا سلك طريق الإيمان وأقام من حوله من أهل الدنيا حوله النكير، هذا وضع طبيعي جداً، المؤمن الصادق يوطن نفسه على أن الحق والباطل لا يلتقيان، ولا يتهادنان، ولا يمكن للباطل أن يتوافق مع الحق، الحق حق والباطل باطل، لكن الحق واحد، والباطل متعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

بين الكفر والإيمان معركة أزلية أبدية في أي عصر :

الخط المستقيم واحد، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم، المستقيم الآخر يأتي فوقه تماماً، فالحق واحد، لو جلست مع المؤمنين في شتى العصور، لو أتيح لك أن تجلس مع مؤمنين من شتى العصور، من مختلف الأمكنة، من مختلف الأزمنة، من بيئات متنوعة، من مستويات مختلفة، مؤمن غني، مؤمن فقير، مؤمن مثقف ثقافة عالية، مؤمن غير مثقف، مؤمن مدني، مؤمن ريفي، مؤمن من أسرة عريقة النسب، مؤمن من أسرة ضعيفة النسب، الإنسان المؤمن له صفات وله قيم وله طباع وله أخلاق لكها تصب في حقل الإيمان، بينما الكافر له منطلقات وله تفكير وله طريقة في التعامل وله قيم وله تصورات كلها تصب في حقل البعد عن الله عز وجل، لذلك هذه الكلمة:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ)

قبل قليل:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ*إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)

[سورة الصافات: 171-172]

هذا قانون ثابت، واليوم:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

الذين بنوا الأهرامات.

(وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

ما يجمع أهل الكفر جميعاً أنهم انقطعوا عن الله عز وجل واتبعوا الشهوات :

ما الذي يجمع بين هؤلاء الأقوام جميعاً؟ أنهم انطلقوا من شهواتهم، حينما انطلقوا من شهواتهم كذبوا بالحق، لأن الحق يحد من شهواتهم، كذبوا الحق واتبعوا شهواتهم، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

صفات دقيقة:

(يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً)

[سورة الأعراف: 45]

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

[سورة الدخان: 9]

في شك من القيم الثابتة، في شك من العقيدة الصحيحة، دائماً في تشكك، يقول لك: لست أدري، ولماذا؟ لست أدري، لست أدري، سمة الشك من سمات أهل الكفر، سمة الصد عن سبيل الله من سمات أهل الكفر، سمة يبغونها عوجاً من سمات أهل الكفر، فيجمعهم جميعاً أنهم انقطعوا عن الله عز وجل واتبعوا الشهوات:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

[سورة مريم: 59]

المؤمنون في كل زمان ومكان لهم صفات واحدة والكفار لهم صفات واحدة :

من لوازم هذا الاتجاه:

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

المصائب، المحن، الآلام، الكوارث الطبيعية، لهذا يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

[سورة الإسراء: 58]

كأن الله عز وجل يبين أن كل هؤلاء الأقوام انطلقوا من منطلق واحد، انقطعوا عن الله عز وجل، وانقطاعهم عن الله عز وجل جعلهم يتبعون الشهوات، أو أن اتباعهم الشهوات جعلهم ينقطعون عن الله عز وجل، إما أن تجعل اتباع الشهوات سبباً وترك الصلاة نتيجة، أو أن تجعل ترك الصلاة سبباً واتباع الشهوات نتيجة، أو أن تقول هناك علاقة ترابطية بين اتباع الشهوات وترك الصلوات، هؤلاء الأقوام كلهم جمعهم الكفر، ملة الكفر واحدة، وأنت إذا التقيتَ بكافر فالكافر هو الكافر في تفكيره، في ماديته، في أنانيته، في تفسيراته الأرضية، في كبره واستعلائه، الصفات مشتركة، المؤمنون في شتى الأقطار وفي كل زمان ومكان لهم صفات واحدة، والكفار لهم صفات واحدة، أي أن الإنسان إما أن يتصل بالله عز وجل، وبهذا الاتصال تصطبغ نفسه بالكمال فهو منصف، فهو متواضع، فهو حليم، فهو غيور، فهو رحيم، فهو كريم، الصفات الخُلُقية كلها نابعة من الله عز وجل، مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

معنى (الأحزاب) :

إنسان موصول ومع هذه الصلة انضباط شرعي، ومع الانضباط الشرعي إحسان للخلق، ومع الإحسان سلامة من الله عز وجل وسعادة في الدنيا والآخرة، كلام مختصر مفيد: إما اتصال بالله عز وجل وقبل الاتصال معرفة، تعرفه فتتصل به، فتنضبط بأمره ونهيه، فتحسن إلى خلقه فتَسلم في الدنيا وتسعد في الدنيا والآخرة، أو عدم معرفة الله عز وجل إذاً أنت لست موصولاً به، وحينما لا تتصل بالله عز وجل هناك الشهوات، قوى قوية جداً، تندفع إلى إرضاء الشهوات، طبعاً فيما يصح وما لا يصح، فيما يجوز وما لا يجوز، الاندفاع في إرواء الشهوات يأتي إلى العدوان، ينتهي بالعدوان، والعدوان إساءة ومع الإساءة يوجد عقاب ومع العقاب ألم، فالكلام واضح كالشمس، معرفة اتصال، إحسان انضباط، سلامة سعادة، جهل انقطاع، عدم انضباط، شهوات، طغيان، شقاء في الدنيا والآخرة، هذا الجمع:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

ما معنى أولئك الأحزاب؟ أي هؤلاء الأقوام الأقوياء الذين يملؤون السمع والبصر، في كل مجتمع بشري هناك دول قوية جداً، مرهوبة الجانب لأن معها سلاح نووي، مشيئتها نافذة في العالم كله، سفيرها محترم جداً لأنه يمثل دولة عظمى، قال:

(أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

هؤلاء الأقوياء الذين كفروا وانقطعوا وأساءوا دمرناهم، فأي قوم آخرون إذا كفروا كفرهم، وانحرفوا انحرافهم، وتكبروا تكبرهم لا بدّ من أن يلقوا المصير نفسه.

معنى هؤلاء الأحزاب: يعني هؤلاء الذين يملؤون السمع والبصر، هؤلاء الذين كانوا أسياد الدنيا، هؤلاء الذين كانوا مسيطرين، هؤلاء الذين كانت كلمتهم نافذة في كل بقاع الأرض، هؤلاء دمرناهم.

(أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

أي كانوا متحزبين، يجتمعون، يخططون، يتآمرون على الضعفاء، ينهبون الثروات، يأخذون الغلات، يسيطرون على أسماع الناس، ينقلون الأخبار التي ترضيهم، يضعون في التعتيم الأخبار التي تزعجهم، هؤلاء المسيطرون، هؤلاء الأحزاب دمرناهم، وأهلكناهم، وجعلناهم أحاديث.

العقاب لا للتكذيب بل للانحراف :

قال تعالى:

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

أي ما منهم واحد إلا وقد كذب الرسل، وحينما كذب الرسل استحق العقاب من الله عز وجل، معنى ذلك أن التكذيب يتبعه الانحراف، والانحراف يتبعه العقاب، فالعقاب لا للتكذيب بل للانحراف، الإنسان إذا كذب نبي الله عز وجل، ومن لوازم تكذيب نبي الله عليه الصلاة والسلام عدم اتباع منهجه، والإنسان إذا لم يتبع منهج النبي ولا منهج القرآن سوف يأخذ ما ليس له، ويعتدي على الآخرين لذلك الله عز وجل يعاقبه.

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

أي الإنسان ألا يستطيع أن يستقرئ من التاريخ أن كل قوم كذبوا رسلهم واتبعوا شهواتهم وعتوا وطغوا وبغوا حاسبهم الله حساباً عسيراً، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

الأحداث وحدها تنبئك بالأخبار، ممكن أن تستخلص حقائق من أحداث متعددة، والإنسان مع نفسه إذا أراد أن يستقرئ حوادث من أقوام متباينة شيء، وإذا أراد أن يستقرئ الحوادث من قوم واحد شيء، وبإمكانه أن يستقرئ الحوادث من حياته شيء آخر، أي أنت كلما أقبلت على الله عز وجل شعرت بالتوفيق، شعرت بالسعادة، كلما ابتعدت عن الله عز وجل شعرت بالقلق، شعرت بالتعسير، فالتيسير والتعسير، الإقبال والإدبار، التوفيق وعدم التوفيق، هذه مشاعر متناقضة، فأنت ألا تستطيع أن تستنبط من حوادثك اليومية أنك اليوم صليت الفجر في جماعة وقرأت القرآن وأقبلت على الله عز وجل إذاً يومك يوم آخر فيه التوفيق والراحة، فيه الطمأنينة والاستقرار، فيه قوة الحجة، فيه سداد الرأي، فيه الحكمة البالغة، وحينما فاتتك صلاة لفجر في جماعة خرجت من بيتك لا تلوي على شيء، في ضياع، في قلق، في حمق أحياناً، ألا يمكن أن تستقرئ حينما أكلت المال الحلال بارك الله لك فيه، وحينما أكل الإنسان مالاً حراماً أتلفه الله، حينما اعتززت بالله أيدك الله ونصرك، حينما تعتز بغير الله يقهرك يخذلك.

من صفات الكفر :

إذاً استقرئ أنت، يمكن أن تستقرئ الحقائق من الحوادث التي تجري معك شخصياً، أنا كنت أعبر عن هذا بالتعبير الشائع: عندما الإنسان يفهم على الله عز وجل يقطع نصف الطريق، أي لماذا فعل الله بك هكذا؟ لأنك فعلت كذا، لماذا وُفِّقتَ؟ لأن نيتك كانت طيبة، لماذا جاء التعسير؟ لهذه المخالفة، لماذا نشب خلاف في البيت؟ لأن البصر قد أطلق في الحرام، لماذا سعدت في البيت؟ لأن هناك غض للبصر، ألا

يمكن أن تستقرئ بين كل موقف وقفته وبين النتائج قاعدة هذا هو المؤمن، فكره جوال دائماً، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

يجمعهم جميعاً الصد عن سبيل الله، يجمعهم التكذيب برسالات الأنبياء، يجمعهم الصد عن سبيل الله، يجمعهم اتباع الشهوات، يجمعهم يبغونها عوجاً، يجمعهم بل هم في شك، يجمعهم بل هم يلعبون، الشك واللعب، الصد عن سبيل الله وابتغاء الأمور بشكل أعوج غير سليم هذا كله من صفات الكفر.

آيات قرآنية تؤكد أن الإنسان إذا كذب سوف يجد العقاب :

قال تعالى:

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

أما هؤلاء الذين يكذبون كما كذب الذين من قبلهم، هؤلاء الذين ينحرفون كما انحرف الذين من قبلهم، هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله كما صدّ آخرون عن سبيل الله من قبلهم، هذا ماذا ينتظرهم؟ ينتظرهم العذاب أيضاً.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 4-6]

ألا تستنبطون من كل هذه الآيات، ومن كل هذه الحوادث حقائق أن الإنسان إذا كذب سوف يجد العقاب، مهما كان قوياً، مهما كان جباراً، مهما كان عنيداً، مهما كان متعجرفاً، العجرفة والصلَف والكبر والقوة، أولئك الأحزاب وقد دمرهم الله عز وجل.

دلائل ساقها الله تعالى تبين أن الأقوياء في الأرض مهما علا شأنهم يدمرهم الله تعالى:

قال تعالى:

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ *وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

مثلاً: لو أن هناك رافعة على أساس الجذب المغناطيسي الكهربائي، سطح من الحديد محاط بوشيعة فيها تيار كهربائي، هذه الرافعة يمكن أن تحمل عشرات الأطنان من الحديد، إذا أراد العامل على هذه الرافعة أن يسقط الأحمال كلها ما عليه إلا أن يضغط مفتاحاً يقطع التيار عن هذه الرافعة، فإذا كل هذه الأحمال تقع فجأة.

من باب التقريب الله عز وجل، الأقوياء في الأرض مهما علا شأنهم، هؤلاء الأقوياء في المشرق كيف تفككت عراهم، وكيف انهارت أبنيتهم، وكيف أصبحوا شذر مذر، وكيف أصبحوا مضغة في الأفواه، وكيف تداعت هذه القلاع التي يظن أنها لا تتداعى، هذه من الدلائل التي ساقها الله عز وجل، قال:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

معنى فواق: أي الإنسان إذا أراد أن يدوس نملة فرضاً يحتاج ضربتين أم ضربة واحدة؟ نملة صغيرة مع أن قتلها حرام بالمناسبة، لكن إنسان جاهل لو أراد أن يدوس نملة ليقتلها، وهو رجل وزنه ثمانين كيلو طويل عريض، ونملة صغيرة، كم ضربة تحتاج كي تموت؟ واحدة، لكن هناك حيوان يحتاج إلى ضربتين وثلاثة، يقول لك: أهلكني حتى قتلته، أما نملة، صرصور صغير.

(مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

معنيان لكلمة (فواق) :

هؤلاء الأقوام مهما علا شأنهم، مهما قوي عودهم، مهما علا ذكرهم:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

لا تحتاج إلى صيحة ثانية، لا تحتاج إلى إعادة، الفواق هنا بمعنى الإعادة، أي على الله كن فيكون، زل فيزول، كن، زل كلمة واحدة:

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

الأمر سهل جداً، على أن الإنسان قد يطغى، قد يتكبر لكن هو في قبضة الله عز وجل، قلبه بيد الله، يقال لك سكتة دماغية، أحياناً وفاة بلا سبب، الإنسان ضعيف جداً، حياته متوقفة على عشرات الأجهزة، وعشرات الغدد، وعشرات المراكز العصبية، وعشرات الدسامات، وعشرات المراكز المتوازنة، فالإنسان المعجزة أن يكون سليماً.

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

المعنى الآخر لفواق، العيادة فواق ناقة، أي لا تكن طويلة بل قصيرة، فواق الناقة إذا حلبتها وتركتها فترة قصيرة كي تحلبها ثانية، هذه الفترة اليسيرة هي الفواق، أي مدة ربع ساعة أو ثلث يمكنك أن تحلبها مرة ثانية من أجل أن تطعم وليدها، فالفواق فترة قصيرة لا يوجد راحة طويلة بين حلبتين بل راحة قصيرة، حتى هذه الراحة القصيرة لا تكون حينما يأخذ الله الكفار. أحياناً الإنسان ضربة وتريحه، أما عندما ربنا عز وجل يأخذ هؤلاء الكفار ضربة واحدة ليس في أثناءها راحة أبداً إلى أن يقضي عليهم.

المعنى الأقرب للمنطق: ما لها من فواق أي ما لها من إعادة، صيحة واحدة، كلمة واحدة للتأكيد، ضربة واحدة ما لها من فواق، ومع هذا فالكفار دائماً يستهزئون.

الكافر يخاف بعينه لأنه عطل فكره أما الإنسان العاقل فيخاف بفكره وعقله :

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الكافر يخاف بعينه، لأنه عطل فكره إذا يخاف بعينه، أما الإنسان العاقل فيخاف بفكره وعقله، الإنسان العاقل يتوقع الشيء قبل مجيئه، لكن الإنسان الجاهل، المعنى المناسب لـ:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

أي لا تحتاج إلى إعادة، هذا هو واقع الإنسان، الزلزال مثلاً تجد عمارة طويلة عريضة خلال تسع وخمسين ثانية أصبحت كتلة من الرمل أو من الإسمنت المطحون، بأشخاصها، برجالها، بنسائها، بأطفالها، بديكوراتها، بأثاث البيوت، حتى بالأموال، يوجد زلزال مصر في بعض العمارات يسكنها طبقة غنية جداً، وجدوا بين الأنقاض حقائب فيها أموال طائلة، فيها حلي، فيها ألماس، إنسان جالس فجأة وجد نفسه تحت الأنقاض.

مرة باخرة غرقت في البحر الأحمر، إنسان راكب درجة أولى في غرفة خاصة فجأة وجد نفسه في أعماق البحر، الإنسان ضعيف يركب طائرة يقال: مات جميع ركابها؛ بخبر من ثلاث كلمات، ثلاثمئة وخمسون راكباً وقد مات جميع ركابها، يحترقون ولا يبقى لهم أثر إلا الصندوق الأسود الذي فيه

تسجيلات آخر مكالمة، باخرة تجدها في أعماق المحيط، باخرة معروفة لكم وهي التيتانيك قيل عنها أنها لا تغرق، وقال بعض الحمقى: إن القدر لا يستطيع أن يغرقها، لأنها مصممة تصميماً عجيباً، من أشهر البواخر في أول رحلة لها من أوربا إلى أمريكا، كان على ظهرها أثرياء العالم، أساسها ومسابحها ونواديها الليلية والرقص والموسيقا والمطاعم والغرف والأجنحة، كل الحضارات في هذه الباخرة، وفي أول رحلة لها اصطدمت بجبل ثلجي شقها شطرين فغاصت، هذا رد السماء للأرض.

فالإنسان أحياناً يركب باخرة أو طائرة أو سيارة، أحياناً ينهار منزل.

(مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

صبر النبي على قول المكذبين وعلى تصديهم للحق بأمر من الله :

الإنسان ضعيف، ما انهار بيته ولكن مرض، الله عنده آلاف الأدوية، ومع كل هذا هؤلاء قالوا:

(وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

القط هنا النصيب، أي عجل نصيبنا من العذاب، أين العذاب؟ هذا قول استهزاء.

(عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

متى يا سيدنا (خلّي) العذاب يأتي ونخلص لسنا مرتاحين، حينما يأتي العذاب تراه يصيح كالكلاب، فالعاقل هو الذي يفكر ويعقل ويبحث عن منهج الله عز وجل، ويطبق أمر الله عز وجل، ويتصل بالله عز وجل حتى إذا ما جاء العذاب شعر أنه في مأمن من العذاب.

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

الله عز وجل يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يصبر على قول هؤلاء المكذبين، على أقوالهم، على تخرصاتهم، على استهزائهم، على تصديهم للحق.

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أيها الأخوة الكرام، قبل أن نمضي في الحديث عن قصة هذا النبي الكريم، وفي الحديث عن نبي يأتي بعده سيدنا سليمان، هاتان القصتان تتمحوران حول محور واحد، ما هو هذا المحور؟ المؤمن بشكل عام له نشاطان: نشاط في العبادة، ونشاط في العمل الصالح.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 19- 29 التوازن بين التعبد وبين خدمة الخلق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-12-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستفهام يحمل على التشويق أو على إبراز الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة ص، يقول الله عز وجل:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

أولاً: (هل) حرف استفهام، وهذا الاستفهام يحمل على محمل التشويق، على محمل التنبيه، على محمل لفت النظر، أو يحمل على محمل الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم، في القرآن الكريم غيب متعلق بالماضي، وغيب متعلق بالحاضر، وغيب متعلق بالمستقبل، وهذه الحقائق التي وقعت والتي تقع والتي سوف تقع هذه غيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنبئنا بها فهذه دلالة من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

أنت لا تعرف هذه القصص، ولا تعرف ما جرى، هل أتاك نبأ الخصم؟ لم يأتك به أحد، فمن أين جاءك إذاً؟ من الله عز وجل وأنت رسول.

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ)

إما أنها تحمل على التشويق، أو تحمل على إبراز الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم، وأن هذه الأخبار وتلك القصص التي وردت في القرآن الكريم إنما تخبرنا عن صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وعن أحقّية رسالته إلى العالمين.

التوازن بين التعبد وبين خدمة الخلق هو الأسلوب الأمثل والسلوك الأقوم :

قال تعالى:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ)

الخصم هذه للمفرد وللمثنى وللجمع، شخصان خصم، وأشخاص خصم، وشخص خصم، من اللذين تخاصما؟

(إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

سيدنا داود كان قابعاً في محرابه يصلي، أو كان قابعاً في محرابه يقرأ التوراة، أو يسبح الله عز وجل، فهذا النبي العظيم كان في خلوة من خلواته مع ربه - حينما جاء رسول أذربيجان ووصل المدينة ليلاً لم يجد من المناسب أن يطرق باب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فذهب إلى المسجد، في المسجد سمع رجلاً يناجي ربه يقول: يا ربي هل قبلت توبتي فأهنئَ نفسي أم رددتها فأعزيها، هذا الرسول قال له: من أنت يرحمك الله، قال: أنا عمر، قال: أنت عمر، ألا تنام الليل يا أمير المؤمنين، فأجاب إجابة رائعة، قال: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي وإن نمت نهاري أضعت رعيتي - معنى ذلك أن الإنسان لا بدّ له من حالين: أن يكون مع الخلق تارة، ومع الحق تارة، فإن بقي طوال وقته مع الخلق مات قلبه، وإن بقي طوال الوقت مع الحق قلّ عمله، فمن أجل أن تجمع بين حياة القلب وبين وفرة العمل الصالح لا بدّ أن تكون مع الحق متعبداً ومع الخلق محسناً.

سيدنا داود له ساعة مع ربه، له ساعة يخلو فيها مع ربه، كما مهدت لكم في درس سابق، هاتان القصتان في مجموعهما متكاملتان، نبي آثر العبادة على العمل الصالح فترك الأولى، ونبي آثر العمل الصالح على العبادة فترك الأولى، ومن مجموع القصتين يتضح: أن التوازن بين التعبد وبين خدمة الخلق هو الأسلوب الأمثل والسلوك الأقوم.

لكل قصة مغزى يتجه إلى القصد النبيل الذي أراده الله عز وجل :

ربنا عز وجل لعلمه بأن هذا النبي الكريم يؤثر جانب التعبد على جانب خدمة الخلق أراد أن يلفت نظره، أراد أن يضعه في ظرف يكشف له تركه للأولى، فجعل له هذه القصة، سيدنا داود وهو في محرابه، والمحراب مكان العبادة، مكان محاربة الشيطان، أوجه غرفة في البيت كما تروي كتب اللغة، أي أشرف غرفة يقال لها محراب، أو أشرف مكان في الغرفة يقال له محراب، فالإنسان يذكر الله عز وجل ويتعبد في مكان طيب طاهر بعيد عن الضوضاء سماه الله عز وجل محراباً، ومنه سمي المحراب في المسجد محراباً لأنه أشرف مكان في المسجد، فالله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام يقول له:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا)

معنى تسوروا أي تسلقوا سور المحراب، ما دخلوا عليه من بابه ولكن تسوروا، قال بعضهم أنه منعهم من دخول محرابه، فجاءه هذان الشخصان فتسورا المحراب.

بالمناسبة هناك أقوال كثيرة جداً حول هذه القصة، بعضهم قال: اللذان دخلا المحراب ملكان طاهران، وبعضهم قال: إنهما رجلان حقيقيان، وبعضهم قال: إنهما ملكان في صورة رجلين.

دائماً وأبداً القصة لها مغزى، وفيها تفصيلات، وفيها تفصيلات لم تذكر، فيها تفصيلات ذكرت وتفصيلات لم تذكر، فالتي لم تذكر لا حاجة لها إطلاقاً، وينبغي أن نسكت عما سكت عنه الله، لو أن فيها فائدة لذكرها الله عز وجل، فالجزئيات والتفصيلات التي لم تذكر لسنا بحاجة إلى ذكرها، ولا إلى البحث عنها، ولا إلى التنقيب فيها. والتفصيلات التي ذكرت نكتفي بها، لكن بعيداً عن التفصيلات يجب أن نتجه إلى الكليات، يجب أن نتجه إلى القصد النبيل الذي أراده الله عز وجل من هذه القصة، إذا قرأنا قصة في القرآن ووضعنا أيدينا على مغزاها أو على الهدف الكبير التي أراده الله منها فقد قرأناها، أما إذا ضعنا في تفاصيل الجزئيات، وفي روايات الإسرائيليين، وفي تخرصات المتأولين، أي إذا دخلنا في هذه التفاصيل ننسى الهدف الكبير الذي وراء هذه القصة.

هناك آيات كثيرة تؤكد أن بعض الأنبياء خافوا :

بعضهم قال: ملكان، بعضهم قال: رجلان، بعضهم قال: ملكان في صورة رجلين، على كل ربنا عز وجل سماهما خصمين، أي شخصان مثلا أمام سيدنا داود.

(إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ)

قيل فزع منهما لأنهما دخلا عليه في وقت غير مناسب، أو لأنهما دخلا عليه بطريقة غير مناسبة ففزع منهم، وهذه القصة تثبت أن الأنبياء يفزعون، وهناك آيات كثيرة تؤكد أن بعض الأنبياء خافوا.

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى*قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

[سورة طه: 67-68]

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)

[سورة القصص: 21]

إذاً لولا أن صفات البشر تجري على الأنبياء لما كانوا سادة للبشرية:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الكهف: 110]

أي يخاف مثلما يخاف الناس، ويجزع كما يجزعون، ويتألم كما يتألمون، ويحب كما يحبون، ولكنْ سمَا عن سقطات البشر وعن أوحال البشر، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، إنسان لا يجوع إذاً ليس له أجر لكن يجوع ويصبر، إنسان لا يخاف ليس له أجر في خوض المعارك لكن يخاف على حياته فيضحي بها.

لكل قصة مغزى عميق :

هذان الملكان على قول، أو هذان الرجلان على قول آخر لم يدخلا إليه من باب محرابه، ولم يدخلا إليه في الوقت المناسب، بل تسورا المحراب، فلما تسورا المحراب فزع منهم، فالفزع يسقط على الأنبياء، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[مسلم عن أنس بن مالك]

على كلٍّ القصة لها مغزى عميق هو أن في الإنسان شيء كامن في نفسه، هذا الشيء الكامن قد لا يظهر، لكن في ظروف معينة وفي شرائط معينة هذا الشيء الكامن يظهر، يخرج إلى السطح.

حدثني أخ كان في مصر أثناء الزلزال، طبيبان في مستشفى متعمقان في علمهما، أنيقان في مظهرهما، وديعان في معاملتهما، لما وقع الزلزال واحد ترك المستشفى واتجه نحو الإسكندرية، والأخر بقي يعمل أربعاً وعشرين ساعة حتى تورمت قدماه، في المظهر والشهادة والعلم والكياسة متشابهان، ولكن هذا الزلزال كشف حقيقة كل منهما، واحد ضحى بنفسه وقدم علمه سخياً لكل المصابين، وواحد نجا بنفسه وآثر سلامته على إسعاف المصابين.

فالقصة فيها مغزى عميق، كل إنسان في نفسه شيء كامن، هذا الشيء الكامن لا يتبدَّى إلا في بعض الظروف، لو أن الإنسان ساكن مع زوجته وحده ووالدته في بيت آخر، يمكن ألا يظهر إيثاره للحق، لكن أحياناً تنشأ خصومة بين الزوجة والأم، هنا يظهر موقف الزوج إما أن ينحاز إلى أمه انحيازاً أعمى، وإما أن ينحاز إلى زوجته انحيازاً أعمى، وإما أن يقف الموقف الحقيقي ويعطي كل ذي حق حقه، لولا هذه الخصومة لما ظهر ما في النفس من كمال أو نقص، هذا معنى قول الله تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

كل إنسان يوضع في ظروف دقيقة جداً، أي الإنسان يكشف، هذا يدعي الكرم يوضع في ظرف فيظهر أنه بخيل، هذا يدَّعي أنه بار بوالديه فيوضع في ظرف معين فيظهر أنه عاق لوالديه، هذا يدَّعي حب الله عز وجل يضعه الله في ظرف فيه إغراء شديد فيميل مع الشهوة ويظهر أن ادعاءه كان كاذباً، لا بدّ من أن تمتحن، قل ما تشاء، صف نفسك بأي صفة، ادَّع ما تشاء، حدثنا عن نفسك ما تشاء، الله عز وجل وحده يتولى كشف الحقائق عن طريق ظروف دقيقة دَقيقة، صَعبة صعبة يجتازها الإنسان.

النبي معصوم عن الخطأ :

قد يترفع الإنسان عن أخذ مبلغ مال حرام ويتبجح ويقول: أنا نزيه وأنا كذا، وهو ليس كذلك، يعرض عليه مبلغ كبير يقبل، معناه أن ادعاءه كان كاذباً.

مغزى القصة أن كل إنسان لا بدّ من أن يُفتن، ومعنى يفتن أي يكشف على حقيقته، تقول ما تشاء والله يتولى كشف صدقك أو عدم صدقك.

فهذا النبي الكريم كان في عبادته، وكان في تلاوته، وكان في تسبيحه، وكان في استغفاره، وكان في خلوته، وضع في ظرف صعب فجأة رأى نفسه أمام رجلين في محرابه ففزع منهم، طمأناه فقالا لا تخف لن ننالك بأذى.

(قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ)

نحن خصمان، أي اعتدى بعضنا على بعض.

(فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

طبعاً ما ترويه بعض التفاسير من أن هذا النبي الكريم كان في محرابه، فإذا بطائر يطير أمامه، ثم وقف أمامه على المحراب فإذا كوة في المحراب نظر منها، فإذا امرأة على جانب كبير من الجمال كانت تغتسل، فوقعت في نفسه وملأ عينيه منها، ثم علم أنها زوجة أحد قواده، فأرسل إلى قائد الجيش أن قدّمه قدمه واجعله يموت حتى آخذ زوجته، هذه قصة لا أصل لها، هذه قصة ساقطة ومعظم المفسرين أنكروها، هذه من قصص بني إسرائيل، فلذلك أتمنى وأرجو ألا يلتفت أحد إلى هذه القصص التي دخلت علينا من كتب بني إسرائيل، نبي كريم معصوم عن الخطأ.

معنى النبي أنه معصوم، هذا فعل الساقطين، هذا ليس فعل عامة الناس بل أقل من ذلك، لكن هذا النبي العظيم أراد الله عز وجل أن يكشف حقيقته الراقية.

كلمة خلطاء أوسع من شركاء :

قال:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

أي ضمها إليّ حتى أتكفل إطعامها.

(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

أي غَلَبني، تكلم أول خصم، سيدنا داود اكتفى بقول الخصم الأول ولم يطلب من الآخر أن يقرّ بذلك، ولم يطلب من الآخر أن يدافع عن نفسه، فما كان من هذا النبي وقد كان غارقاً في سعادة قربه من الله عز وجل، كان غارقاً في تسبيحه وتلاوته وتحميده، فأراد أن ينهي هذه القضية على عجل وأن يفصل بينهما فقال:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)

ظلمك ظلماً صارخاً.

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الخلطاء هم الشركاء، والزوجان شركاء وخلطاء، والمسافران خلطاء وشركاء، أي كلمة خلطاء أوسع من شركاء، فأي إنسان خالط إنساناً لفترة طويلة أو قصيرة، جليلة أو حقيرة، خالطه في سفر قريب، خالطه في عمر مديد، زوجته وهي شريكة حياته.

الإنصاف من علامات الإيمان :

الآن هذه حكمة أنطق الله بها هذا النبي الكريم:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

إذاً الخليط قد يبغي على خليطه، يأخذ ما ليس له، أو يقدم أقل مما يأخذ، أي هناك عدوان جلي وعدوان خفي، فإذا بذل أحد الشريكين جهداً أكثر من الأخر فقد بغى على شريكه، وإن أخذ من الأجر أكثر من الآخر فقد بغى على شريكه، حتى إن الآية أوسع بكثير من هذه المعاني، في التعامل اليومي أنت بائع وهذا شارٍ، هذان خليطان إن أخذت منه زيادة على السعر الحقيقي فقد بغيت عليه، وإن حاول أن لا يعطيك شيئاً من أرباحك فقد بغى عليك، أي علاقة بين اثنين إذا بغى أحدهما على الآخر فهذان متخالطان بغى أحدهما على الأخر، فقال هذا النبي الكريم وقد نطق بالحكمة:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أما الاستثناء رائع فقال:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

الله عز وجل استثنى المؤمنين من أن يبغي بعضهم على بعض، فإذا بغى بعضهم على بعض فقد انسلخوا من صفة الإيمان، هذا كلام أيها الأخوة دقيقٌ دقيق، نحن المعنيون بهذا الكلام، أي أنت مؤمن لا لأنك تصلي وتصوم فقط، أنت مؤمن لأنك تقف عند الحدود، لا تأخذ ما ليس لك، تنصف الناس من نفسك، تعطي الناس حقهم دون أن تتعبهم في ذلك، تأخذ ما لك فقط ولا تأخذ ما ليس لك، أي أنت

منصف، من علامات الإيمان الإنصاف، من علامات الإيمان الوقوف عند حدود الشرع، فإذا أخذت ما ليس لك، وإذا بغيت على خليطك وإذا تطلعت إلى ما لا تستحق فأنت لا تدري أنك انسلخت من الإيمان.

الدنيا دار امتحان :

قال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

أي ما أقلهم، فالإنسان إذا شارك إنساناً ليس مؤمناً الأصل أنه لن ينصفه، الأصل أنه يبغي عليه وهذا نص قول الله عز وجل، المؤمن فقط هو الذي لا يبغي، المؤمن فقط هو المنصف، المؤمن هو وحده الذي يأخذ ما له ويدع ما ليس له، لكن غير المؤمن يأخذ ما له وما ليس له، يبغي على خليطه وعلى قرينه وشريكه وزوجته ومن حوله وعلى جيرانه.

يبدو أن هذين الرجلين اختفيا فجأة، حينما اختفيا فجأة تيقن داود أنهما ليسا برَجُلين، وهذه القصة التي رؤياها له ليست حقيقية إنما فتنة فتنه الله بها.

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

إذاً أنت ممتَحَن دائماً، اعلم هذه الحقيقة أنت دائماً ممتحن، ممتحن بالعطاء، ممتحن بالمنع، ممتحن بالضغط أحياناً، ممتحن بالإغراء أحياناً، ممتحن بخليط، ممتَحَن بشريك، ممتحن بجار، ممتحن بزوجة، ممتَحَن بولد، أنت ممتحن. الدنيا دار امتحان.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

يبدو أن النبي حينما اختفى هذان الرجلان المتسوِّران أو الملَكان، حينما اختفيا فجأة، استمع للأول وحكم عليهما بأن الثاني ظالم ظلماً صارخاً ولم يلتفت إلى قول الطرف الآخر ولم يسأله ولم يستمع إلى إقراره، ثم اختفى الأول والثاني فجأة فعرف هذا النبي الكريم أن الله جلّ جلاله قد امتحنه.

من صفات المؤمن أنه كثير الأوبة إلى الله عز وجل فهو تواب أواب أواه :

قال تعالى:

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

بعضهم قال: الركوع يجزئ عن السجود، وبعضهم قال: هذا سجود مجازي، على كل المؤمن من صفاته أنه كثير الأوبة إلى الله عز وجل، كثير العودة إليه، كثير الرجوع له، تواب أواب أواه.

(فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ)

الله عز وجل يؤدبنا جميعاً، يعني ترك الأولى لفت نظره بين حاله فغفرنا له ذلك.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

زُلفى أي مقرَّب، هذا النبي الكريم كان مقرّباً إلى الله عز وجل، وحسن مآب أي له يوم القيامة عودة حسنة، يبدو أن أعظم نعمة ينعم الله بها على الإنسان أن يهيئ له عودة حسنة إليه، هناك عودة سيئة جداً، هناك إنسان دنياه ترقص ولكن إذا جاءه ملك الموت كان الموت مصيبة في حقه، لكن المؤمن واهنٌ راقع لكن له عند الله عز وجل وهذا هو ظنه عودة حسنة.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

في الدنيا العمل مقدم على المتعة الروحية :

الآن جاء العتاب الإلهي:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

هنا السؤال: إذا عُزي الهوى إلى نبي فأي هوى هذا؟ إذا عزي الهوى إلى ساقط معروف أنه الهوى المنحط، إما إذا عزي الهوى إلى نبي عظيم أيّ هوى هذا؟ هو أن يحب الله عز وجل، أي حبه لله عز وجل ورغبته بالقرب منه، خلوده إلى الذكر، إلى التسبيح، إلى التحميد هو الذي صرفه عن أن يحكم بين الناس بالعدل، إذاً هو مُلام عند الله عز وجل، وقد ترك الأوْلى لكن ليس كما يتوهم بعض الساقطين من أن هواه إلى ما يهواه الناس عادة هو الذي صرفه عن الحق، لا.

قلت لكم في بداية القصة وفي الدرس الماضي أن هذا النبي الكريم ترك الأوْلى، بمعنى أنه لم يوازن بين أن يكون مع الحق وأن يكون مع الخلق، بل آثر أن يكون مع الحق على أن يكون مع الخلق، فلما جاء الوقت المناسب ليكون مع الخلق حكم سريعاً واستمع من واحد ولم يستمع من الآخر وأنهى القضية ليعود إلى ما كان عليه.

ظن بعضهم من أن النعجة هنا هي امرأة، هذا قول ضعيف جداً، لأنه أن يكون عنده تسع وتسعون امرأة ويطمع في امرأة أحد قواده، كما قلت قبل قليل هذه رواية إسرائيلية دخلت إلى كتب التفسير.

مشكلة حقيقية بين رجلين، أو مشكلة افتراضية بين مَلَكين، مشكلة حقيقية بين رجلين إن قلنا رجلين منعا من الدخول فتسورا المحراب، وإن قلنا ملكين تسورا المحراب والمشكلة افتراضية، المغزى أن هذا النبي حكم سريعاً وعاد إلى مُصلاّه وإلى محرابه وإلى متهجده وإلى تسبيحه وتحميده وتلاوته.

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

حقيقة الدنيا أنها دار عمل والآخرة دار جزاء، فالسرور الروحي مكانه الحقيقي في اليوم الآخر، أما في الدنيا العمل مقدم على المتعة الروحية، إذا لم يكن عمل فإذا فرغت فانصب، اقرأ واذكر وتهجد وصلِّ واستغفر وسبِّح واحمد وكبّر وهلّل، هذه عبادة والعبادة لها شأنها في الإسلام، أما إذا خيرت بين عبادة (نفل) وخدمة فاختر الخدمة.

سبيل الجنة هو العمل الصالح :

سيدنا ابن عباس كان في معتَكَفه، دخل عليه رجل رآه كئيباً، قال له: ما لي أراك كئيباً؟ قال: والله هي ديون لزمتني لا أطيق وفاءها، قال: لمن هي؟، قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك، قال: إن شئت، فخرج من معتَكفه، فقال له رجل: أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا والله، ولكن سمعت صاحب هذا القبر وأشار إلى النبي عليه الصلاة والسلام يقول: والله لأن أمشي مع أخي في حاجته خيرٌ لي من أن أعتكف شهراً، وفي قول: سنة.

معنى ذلك أنك إذا خُيِّرت بين عمل صالح وبين اعتكاف أو ذكر أو تلاوة يجب أن تختار العمل الصالح، لأنك جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، والدليل أن الإنسان حينما يموت يقول: رب أرجعوني لعلي أعمل صالحاً، لكن العمل الصالح لا يكون إلا بالذكر، ما لم يكن لك صلة بالله وإقبال عليه لن تنطلق إلى العمل الصالح، إذاً لا بدّ من الموازنة كما بدأت القصة، لا بدّ من أن توازن بين العمل الصالح وبين التعبد، والإنسان لو أنه نظم وقته فجعل لله وقتاً ولعباده وقتاً ولأهله وقتاً ولجسده وقتاً، أعطى كل ذي حق حقه، إن لزوجك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً فأعطِ كل ذي حق حقه.

(فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

سبيل الجنة هو العمل الصالح، فلو أن الإنسان ترك الناس وانسحب من المجتمع وقبع في صومعة وتعبّد الله عز وجل الآن ضلّ الطريق إلى الله، لأن الطريق إلى الله في خدمة الخلق، الآخرة دار نعيم مقيم، الآخرة دار سعادة روحية أبدية ثمنها هذه الدنيا، فلو تعجل هذه السعادة الروحية قبل أوانها فقد ضل طريقها، هذه السعادة الروحية ثمنها العمل الصالح، ثمنها طلب العلم، ثمنها تعليم العلم، ثمنها خدمة الخلق، فإذا عزفت عن خدمة الخلق وطلب العلم وعن تعليم العلم وقبعت في مكان تتعبد ربما ضللت السبيل إلى الله عز وجل.

الطريق إلى الله عز وجل أساسه العلم والعمل، هذا كلام دقيق، فكل من ترك العمل واعتمد على ذكره أو اعتمد على عبادته من دون عمل كانت مرتبته في الآخرة أقل بكثير من مرتبة العاملين، لقوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأنعام: 132]

الطريق الموصل إلى الله عز وجل هو الطريق الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

إذاً نحن نريد دائماً أن نصحح مسارنا، الخطر أن ينطلق الإنسان بقناعات ليس لها دليل، فهذا سلك هذا الطريق، آخر سلك غيره يا ترى أي طريق هو المجدي؟ أي طريق موصل إلى الله عز وجل؟ الطريق الموصل إلى الله عز وجل هو الطريق الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً... فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي))

[الترمذي عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ]

اختلاف بين جوهر الدين وبين ما آل إليه الدين، قد يصبح الدين في آخر الزمان حركات ورقص وحضرات، وقد يصبح أناشيدَ وطرباً، وقد يصبح فكراً فقط، فمن أدرك هذا الزمان فقال: عليكم بسنتي. عُودوا إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، الإسلام واسع جداً وفيه جانب علمي، وجانب سلوكي، وجانب عملي، وجانب انفعالي، فإذا ظننته أنه قلباً فقط فقد ضللت السبيل، سلوك فقط ضللت السبيل، فِكْر فقط ضللت السبيل، يجب أن تجمع بين الفكر وبين القلب وبين العمل، فكر متشبع بالعقيدة الصحيحة، تصوّر صحيح عن كل قضية في الدين، قلب مفعم بالإيمان من حب وإنابة وتوكل وتواضع، وسلوك منضبط وفق الشرع، فمن رجَّح السلوك وغفل عن قلبه فقد ضل سواء السبيل، من رجَّح القلب وترك العمل الصالح فقد ضل سواء السبيل، من اعتنى بعقله وفكره على حساب انفعالاته وسلوكه فقد ضل سواء السبيل.

الحق هو الشيء الثابت والباطل هو الشيء الزائل :

نحن في هذه القصة المقصود التوازن، تحقيق التوازن بين متطلبات العقل والقلب والسلوك، قلب وعقل وسلوك هذه القوى الثلاثة مجتمعة فإذا طغت إحداهما على الأخرى فقد تركنا الأولى، وربما انحرف بنا هذا التولي عن التوازن إلى ما لا تُحمد عقباه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

معنى ما خلق السماوات والأرض باطلاً، الشيء الباطل هو الذي يعاكس الحق، عندنا الحق والباطل، نعرف الحق بأنه الشيء الثابت فالباطل الشيء الزائل، جدار اِبْنِهِ على الشاقول يدوم طويلاً، اِبْنِهِ بلا شاقول لا بدّ من أن يقع، فكل شيء بني على أساس من طاعة الله عز وجل فهو حق، أما إذا بُنِي على معصية فهو باطل، فالباطل الشيء الزائل، الحق الشيء الهادف، الباطل الشيء العابث، إذاً الباطل ما كان زائلاً وعابثاً أي لعباً، عمل بلا هدف وبلا أصول، بلا أصول سيقع وبلا هدف سيتلاشى بحكم انقضائه.

إذاً ما هو الباطل؟ الشيء الزائل، أيُّ نظرية قائمة على الباطل لا بدّ من أن تزول ولو عمرت سبعين سنة، تتداعى وحدها، هناك اعتقاد باطل، هناك عادات باطلة، هناك شروط باطلة، هناك قوانين باطلة، الشيء الباطل ليس له أساس من الحق، والشيء الباطل ليس له هدف، هدفه محدود جداً، هدفه عبث لعب، فربنا عز وجدل منزه عن أن يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، خلقهما بالحق والحق هو عكس الباطل، لكن هؤلاء الذين ظلموا وكفروا يظنون أنه خلقهما باطلاً.

القرآن يبين لنا أن الدنيا لم تُخلق عبثاً :

قال تعالى:

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

أي هناك شيء أساسي جداً يفترق به أهل الحق عن أهل الباطل، يعتقد أهل الباطل أن الدنيا خلقت هكذا عبثاً، لماذا نحن هنا؟ لا ندري، قرأت في كتاب بالمقدمة لماذا نحن هنا؟ لا ندري لماذا نحن هنا، القرآن ينبئك يقول لك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الكهف: 7]

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

القرآن ينبئنا، أما إذا قلت: لا أدري ولا أعلم والدنيا خلقت عبثاً فهذا ظن الذين كفروا، هذه عقائد أهل الكفر.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

ظن الذين كفروا أن الله يعامل المؤمن كما يعامل أهل الفسق والفجور :

ثم يقول الله عز وجل:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ)

معقول إنسان آمن بالله وعمل عملاً صالحاً واستقام على أمره الله عز وجل يعامله في دنياه كما يعامل أهل الفسق والفجور، كما يعامل الكفار، كما يعامل المنحرفين، ذلك ظن الذين كفروا.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم: 35]

آيات تؤيد أن الفاسق والفاجر يبتليه الله ويدمره ويمحق ماله ويشقيه :

هنا يقول الله عز وجل:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

ثم إن الحوادث التي بين أيدينا والتي حولنا تنبئنا بهذه الحقيقة، مستقيم له معاملة خاصة، مستقيم له حفظ خاص الله عز وجل يحفظه ويؤيده ويوفقه وينصره ويسعده، والفاسق والفاجر الله عز وجل يبتليه ويدمره ويمحق ماله ويشقيه، وبين أيدينا آيات تؤيد هذه الحقائق:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

لذلك الله عز وجل يقول:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

هذا القرآن فيه خبر عن كل شيء، أي أنت كإنسان هذا القرآن خطاب لك، يعرّفك بحقيقة الدنيا، يعرفك بحقيقة نفسك، يعرفك ماذا بعد الموت، ماذا كان قبل الموت، يعرفك بالطريق إلى الله عز وجل، يعرفك بطريق الإيمان بالله، بطريق القرب منه.

القرآن الكريم لا تقطف ثماره يانعة إلا إذا عملت بأحكامه :

هذا الكتاب كتابنا المقرر، هذا الكتاب تعليمات الصانع، هذا الكتاب حبل الله المتين، هذا الكتاب هو الصراط المستقيم، هذا الكتاب هو الدستور، هذا الكتاب كتاب مذكرة إيضاحية للإنسان، فلذلك:

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ)

كله خير، إن قرأته خير، إن حفظته خير، إن أتقنت تلاوته خير، إن فهمته خير، إن عملت به خير، ولكن لا تقطف ثماره يانعة إلا إذا عملت بأحكامه.

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)

أي قراءة مع تدبر، قراءة مع تبصر، قراءة مع تأمل، قراءة مع مدارسة، أما هذه القراءة:

((رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

الإنسان يتلو ويعصي، يتلو ولا يتقيد بالشرع، يتلو ويأكل مالاً حراماً:

((رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ*وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

هذه قصة أخرى، لكن هذه القصة تقع في الطرف الأخر، نبي كريم ابن هذا النبي الكريم سلك سلوكاً آخرَ حينما آثر حب الخير على ذكر الله عز وجل، فالقصد هو التوازن.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 30- 40 قصة سيدنا سليمان عليه السلام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-12-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لما ورد في الدرس الماضي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة ص ومع الآية الثلاثين، ربنا سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن قصة سيدنا داود، وقد بينت لكم في الدرس الماضي أن هذا النبي الكريم ترك الأولى في أدق التعبيرات، الله سبحانه وتعالى جعله خليفة في الأرض، وكان في خلوته في أوج إقباله، في قمة استمتاعه، في قمة صفائه، امتحنه الله عز وجل بقضية تتعلق بأهل الأرض، فاستمع إلى أحد الطرفين ولم يستمع إلى الطرف الآخر وألقى حكمه ليعود إلى محرابه ومصلاه، هذا الموقف فيه ترك للأولى، لأن النبي الكريم داود عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الأرض ومهمته الأولى أن يحكم بين الناس بالعدل.

في هذا الأسبوع قلت: هذه القصة كيف نستفيد منها في حياتنا؟ هذه القصة كيف نطبقها تطبيقاً عملياً؟ استعرضت بعض الصور المنتزعة من حياتنا، بعض القصص التي سمعتها أو التي عاينتها، فوجدت أن المؤمنين بالذات أحياناً الخطاب يوجه إلى عامة الناس، أحياناً: يا أيها الناس اعبدوا ربكم، أحياناً يا أيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم.

هناك توجيهات خاصة بالمؤمنين، فالمؤمنون إذا قرؤوا هذه القصة ما تطبيقاتها العملية في حياتهم اليومية؟

لو أن أماً استيقظت قبل الفجر بساعة وصلت قيام الليل، ثم أذن الفجر فصلت صلاة الفجر، ثم جلست لتقرأ القرآن، هل هناك عمل أعظم من هذا العمل؟ لاشك أنه عمل جليل، لقول الله عز وجل:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً*وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً)

[سورة الإسراء: 78-79]

سلوا هذه المرأة في الساعة السادسة تعبت فآوت إلى فراشها وأيقظت أولادها وتركتهم وشأنهم، الغرفة باردة، ليس لهم طعام الفطور، لم تهتم بهندامهم ولا بلباسهم، وبدأت تعطي التوجيهات وهي مستلقية على سريرها، يا ترى هذه المرأة إذا قرأت قصة هذا النبي الكريم ماذا عليها أن تفعل؟ إن الله جعلها

أمّاً، وجعل هؤلاء الصغار أولادها، فلأن تعتني بأولادها فتوقظهم وتطعمهم وتدفئ لهم الغرفة وأن تصلي الفجر في وقته وأن تتلو القرآن، أما أن تصلي قيام الليل في وقت مبكر وأن تصلي الفجر وأن تأوي إلى فراشها وأن تهمل مهمتها الأولى في الحياة فقد تركت الأولى، وتركت ما أعده الله لها من رعاية وخدمة لأولادها ونسيت مهمتها الأولى، أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة.

أمثلة من الحياة تؤكد أن لا شيء يعلو على أداء المهام التي أوكلها الله إلينا في الحياة:

أحياناً أستمع إلى قصة أم ربَّت أولادها خير تربية، وضَحَّت من أجلهم، قال لي أحدهم: إن زوجتي لا تخرج من البيت أحياناً إلا مرة وهي تعنى بأولادها، هذا هو التطبيق العملي لهذه السورة.

أنت ما مهمتك؟ أنت طبيب، أنت مهندس، إن لم تكن واقفاً ساعة إنجاز السطح لعل أحدهم يأخذ الحديد، لعل أحدهم لا يضع الإسمنت الكافي في غيبتك فإذا هذا البناء ينهار ويقضي على خمسة عشر إنساناً، فإذا قلت: أنا كنت أتلو القرآن، أنا مشغول بقراءة القرآن، أنا مشغول بأحاديث النبي العدنان، نقول له: لا، أنت مهندس يجب أن تكون على رأس عملك في الوقت المناسب وفي المكان المناسب، لأن الله أوكلك بهذا الأمر واستخلفك في هذا العمل.

طبيبة مولدة، أضرب لكم بعض الأمثلة، اتصلت بها المرأة التي على وشك الولادة، أعلمت أنها قاب قوسين، صلت قبل العصر أربعاً وصلت العصر ودعت الدعاء، وجاءت إلى المستشفى فإذا بهذه المرأة قد ولدت، طالبتهم بالأجر. أضرب هذه الأمثلة لينتبه المؤمنون إلى أنه لا شيء يعلو على أداء مهمتهم التي أوكلها الله إليهم في الحياة، فأصحاب المهن جميعاً لو أهملوا مهنهم، لو أهملوا إتقان عملهم، لو أهملوا أشياء أودت بحياة أناس طيبين وادَّعوا أنهم يحبون الله ورسوله وهم في صلاتهم خاشعون، وهم يذكرون، وهم يفعلون هذا كله لا يعفيهم من مسؤوليتهم تجاه الله عز وجل.

أضرب لكم هذه الأمثلة لأنها كلها واقعية، امرأة خرجت من بيتها لشيء يرضي الله تركت أولادها في البيت، وقد انطفأت الكهرباء أشعلت لهم الشمع، هذه الشمعة ذابت حتى أحرقت جلال المائدة فاحترق البيت ومات الصغار، هذه أمٌّ مُوَكَّلة بأولادها، هذا مهندس موكَّل بإنجاز هذا البناء فإن أهمله يقع البناء ويحاسَب عند الله لأنه متسبب بالقتل، وهذا طبيب أوكله الله بهؤلاء المرضى فعليه أن يرعاهم الرعاية الكافية ولا يعفيه من المسؤولية لا هو ولا غيره قوله: أنا أحفظ القرآن، أنا أقرأ هذا البحث الفلاني.

قصة داود مفادها أن الله عز وجل لا يقبل النوافل قبل إتقان العمل:

القاضي الذي له مجالس علم يحضرها لكنه لا يقرأ الأضابير قراءة متأنية، يسرع في حكمه هذا محاسب عند الله ولو أنه يحضر مجالس العلم، ولو أنه يقرأ كتب الدين، ولو أنه يحفظ القرآن، أنت قاضٍ ينبغي أن تقوم بمهمتك خير قيام، يجب أن تقرأ المذكرات مُذكرة مذكرة، يجب أن تحللها، ينبغي أن تقرأ القوانين قبل أن تُصدر حكماً، لأن عدل ساعة خير من أن تعبد الله ثمانين عاماً.

الكلام ليس موجهاً إلى عامة الناس، الكلام موجه إلى الأخوة المؤمنين، أي أنت ما مهمتك في الحياة؟ ما وظيفتك؟ بماذا أقامك الله؟ أنت أب؟ أنت أم؟ أنت معلم؟ أنت طبيب؟ أنت صيدلي؟ لا ينبغي لصيدلي أن يعطي الدواء دون تعليمات، يقول ازدحام شديد ما فرغت لكتاب التعليمات، أحد أخواننا الكرام صيدلي غاب عن صيدليته وضع إنساناً مكانه، هذا الإنسان أخطأ في إعطاء الدواء، هذا الدواء كاد أن يودي بحياة المريض، دواء لا يجوز استعماله داخلياً، يخرش الجهاز الهضمي، استعماله خارجي والوصفة داخلي، هو دواء آخر.

أضرب لكم هذه الأمثلة لأن إنساناً يقول: أنا مع الله، أنا أحفظ القرآن، أنا أحضر مجالس العلم، أنا أتابع هذا الموضوع الديني، أنا أحب اللهَ وهو يُهمِل عملَه، لأن الله جَعَلَه في الأرض خليفة، ففي هذا الموضوع هو خليفة، الطبيب أمينٌ على صحة الناس، والمحامي أمينٌ على قضايا الناس، والصيدليُّ أمين على إيصال الدواء إلى أصحابه بشكل دقيق.

فهذه قصة سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مفادها أن المؤمن يتقن عمله، وكأن الله عز وجل لا يقبل نوافله قبل إتقان عمله، كأن الله عز وجل لا يقبل منه نوافل العبادات قبل أن يؤدي ما عليه من واجبات، إذا فهم المسلمون دينهم هذا الفهم، إذا عقل المسلمون دينهم هذا العقل كانوا في حياة أخرى غير هذه الحياة.

ترى القوانين التي وضعها الله عز وجل يا أيها الأخوة الأكارم لو أن إنساناً ملحداً طبقها لقطف ثمارها، الإتقان سرّ نجاح الإنسان، لو أن إنساناً لا يعرف الله وأتقن عمله لأقبل الناس عليه ولاغتنى، وهذا أليق بالمؤمن من باب أولى.

إذا أتقنا عملنا وانتظمت حياتنا صّحت عبادتنا :

إذا كان لهذه القصة مغزىً، إذا كان لهذه القصة حقيقة يستفاد منها هي أن الإنسان يجب أن يتقن عمله، وإذا أتقنا أعمالنا ارتقينا، ارتقى المسلمون وأصبحوا سادة وللشعوب قادة، أما إذا أهملوا أعمالهم فإن

عباداتِهم ليست مقبولة، النبي عليه الصلاة والسلام رأى شاباً يصلي في النهار، قال: من يطعمك يا بني؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك.

هذا المجتمع يجب أن يقوم على أسس سليمة، هذا المجتمع يجب أن يقوم على الإتقان، كل إنسان يجب أن يتقن ما أقامه الله به، إذا أتقنا وانتظمت حياتنا صّحت عبادتنا، وصحّ إقبالنا، وصحّت وجهتنا، أما أن نهمل، أحياناً يقع خطأ كبير يودي بحياة مريض، أحياناً المحامي لا يقرأ مذكرة خصمه لضيق الوقت فيكتب مذكرة ضعيفة، هذه المذكرة الضعيفة تسبب في أن يصدر القاضي حكماً ليس لمصلحة موكله، وفي هذا الحكم ظلم وجَور، والقاضي لا يدري لضعف مذكرة المحامي، والمحامي لا يدري لأنه لم يقرأ مذكرة خصمه قراءة جيدة.

يا أيها الأخوة الأكارم، ربنا عز وجل لأنه يعلم أن مجتمع المؤمنين ربما يصاب بمثل هذه الأمراض فجعل هذه القصص تشريعاً لهم، أذكركم بالدرس السابق وهو أن الله عز وجل حينما قال:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)

معلم دين اختصم إليه طفلان صغيران في الصف الأول، ضاقت نفسه بهذه المهنة فطردهما معاً، أتدري أيها المعلم أن هذا الطفل الصغير الذي ظن فيك العدل وجاء يشكو إليك صديقه أنت حينما طردته وأعرضت عنه ولَّدْتَ فيه عقدة قد ترافقه طوال حياته؟ لا تدري.

أنا سمعت عن رجل من كبار الفلاسفة الفرنسيين، بل يرأس حزباً علمانياً في فرنسا وهو معروف عند الناس جميعاً، سبب إسلامه قبل أربعين عاماً أنه كان أسيراً وجاء أمر بقتل الأسرى، وكلف جندي مغربي بقتله، قال المغربي: أنا لا أقتل أسيراً لأن ديني يمنعني من ذلك ولم يقتله، كلمة سمعها هذا الفيلسوف المفكر قبل أربعين عاماً انتهت بإسلامه، أنت لا تدري بكلمة لا تلقي لها بالاً ترقى بها عند الله درجات علية، وأنت لا تدري بكلمة من سخط الله لا تلقي لها بالاً يهوي بها الإنسان في جهنم سبعين خريفاً.

أن تبنى الحياة على أساس إتقان الأعمال هذا الذي أراده الله من قصة سيدنا داود:

إذا أردت للمجتمع الإسلامي أن ينهض، إذا أردت لهذا المجتمع أن يستعيد مجده التاريخي، أن يكون عزيزاً، أن يكون حراً، أن يكون قوياً ينبغي أن تُبنى الحياة بناءً صحيحاً، أن تبنى الحياة على أساس إتقان الأعمال، هذا الذي أراده الله عز وجل من قصة سيدنا داود حينما قال:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الهوى إذا عزي إلى نبي كريم فإنما هو الهوى المقدس وهو حب الله عز وجل، الميل إليه، الشوق إلى مناجاته، حتى هذا إذا منعك عن القيام بواجبك وعن أن تنفذ مهمتك وعن أن تتقن عملك هذا الهوى العلوي، الهوى المقدس يغدو حجاباً بينك وبين الله والدليل:

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

حقيقة الدين :

هذه الآية تذكرني بآية مفيد أن نسمع تفسيرها الآن، ربنا عز وجل خاطب المؤمنين فقال:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

أنتم أيها المؤمنون تبغضون من؟ لا شك أن المؤمن يبغض الكافر، يبغض الفاسق، يبغض الفاجر، يبغض المرابي، يبغض الزاني، يبغض شارب الخمر.

أيها المؤمنون، إذا حملكم إيمانكم إلى بغض هؤلاء، وبغض هؤلاء حملكم إلى أن تأكلوا أموالهم بالباطل توهماً منكم أن الله يرضى عنكم أنتم واهمون، إنني لا أرضى عنكم إلا إذا أحسنتم إلى هؤلاء، لأن إحسانكم إليهم يقربهم مني ومنكم.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

يجب أن نفهم الإسلام فهماً عميقاً، يجب أن نفهم هذا الدين فهماً صحيحاً، يجب أن تتبع سنة النبي جملة وتفصيلاً، الذي يؤخر الدين، الذي يجعل الناس يخرجون من دين الله أفواجاً بدل أن يدخلوا هو أن المسلمين ظنوا أن دينهم عبادات وتركوا المعاملات، ظنوا أن دينهم صلاة وصيام وحج وزكاة ونسوا أن دينهم إتقان في أعمالهم، صدق في أقوالهم، إخلاص في نواياهم، هذا هو الدين.

(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

أراد الله عز وجل أن يستنبط المؤمنون التطبيقات العملية من قصة سيدنا داود عليه السلام:

يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ* كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

هذه الآيات تم شرحها في الدرس الماضي، لكن تدبُّر الآيات هذا الذي أريده منكم في هذا الدرس، تدبر الآيات أن تبحث في تطبيقاتها العملية، أي هذه القصة لِمَ جعلها الله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة؟ أيريد الله عز وجل أن نعرف أن هناك نبياً اسمه داود؟ وماذا يفيدنا ذلك؟ وأن هذا النبي امتحنه الله عز وجل، وأن رجلين أو ملكين تسورا عليه المحراب واختصما إليه، واستمع إلى الأول وأصدر حكمه المبرَم ولم يستمع إلى الثاني، ثم اختفيا فجأة فظن أن قد فتناه فاستغفر وخر راكعاً وأناب، أيريد الله عز وجل أن يعرفني بهذا القصة وما شأني بها؟ وماذا أستفيد منها؟ وماذا يعنيني أن هذا النبي فعل كذا وكذا؟

لكن الله عز وجل حينما جعل هذه القصة قرآناً يتلى إلى يوم القيامة أراد من المؤمنين أن يدَّبروا هذه القصة، والتدبر أن يكشفوا مغزاها، أن يكشفوا خلفياتها، أن يكشفوا مقصد الله منها، أراد الله عز وجل أن نستنبط التطبيقات العملية منها، فلذلك القصة الأولى قصة سيدنا داود من أجل ألا تشغلنا عباداتنا عن أداء واجباتنا، ولا سيما بالحرف التي تتعلق بها سلامة الإنسان، بالحرف التي يمكن أن يكون الإهمال مودياً بحياة الإنسان.

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)

بقدر معرفتنا بالله عز وجل نقدس الهبة التي وهبنا الله إياها :

الآن قصة تابعة للقصة الأولى ولكنها في موضوع معاكس، قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ)

قد نقف عند كلمة (وهبنا)، الله سبحانه وتعالى حينما يهب إنساناً طفلاً، غلاماً، ولداً، بنتاً، انتبه إلى العبارة وهبنا هذه هبة الله عز وجل، هذه هدية الله عز وجل، وكلما ارتقى الإيمان يؤمن الرجل أن بناته هدية من الله عز وجل، لا يتبرم بامرأته إن أنجبت له البنات إنها هبة الله عز وجل، وبقدر معرفتك بالله عز وجل تقدس هذه الهبة التي وهبك الله إياها، كان النبي عليه الصلاة والسلام يضم ابنته فاطمة عندما كانت صغيرة إلى صدره الشريف يقبلها ويشمها ويقول: ريحانة أضمها وعلى الله رزقها، المؤمن هكذا يستقبل الفتاة المولودة بهذه الطريقة، بهذا الترحيب.

أعرف رجلاً عنده سبع بنات، كلما اقترب موعد الولادة كلف كل بنت أن تحضر هدية ثمينة لأمهم ليستقبلوا بها المولودة الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، هدية الله عز وجل.

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ*أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[سورة الشورى: 49-50]

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ)

شيء آخر، إذا وهب الله عز وجل الإنسان غلاماً نجيباً أخلاقيّاً متفوقاً في دراسته، من أدبه مع الله عز وجل أن يعزوَ هذا إلى الله، لا يقل أنا ربيته واعتنيت به، لولا أنا لم يصبح رجلاً، هذا كلام الجهل لأن الله عز وجل قادر أن ينجب النجيب من غير النجيب، قادر أن ينجب من النجيب المعتوه، فالإنسان إذا جاءه ولد صالح لا يدّعي أنه بذكائه وحنكته وتربيته جعله صالحاً، ليَعْزُ الفضل إلى صاحب الفضل وهو الله عز وجل، هذه هبة.

كلما كثرت إنابتك إلى الله علا مقامك عند الله :

قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ)

هو نِعْمَ العبد، وكلمة نعم العبد من صيغ المدح، تقول: نِعْمَ العبد فلان وبئس العبد فلان، هذه صيغة مدح في اللغة العربية، فالله سبحانه وتعالى يثني عليه، بماذا أثنى عليه؟ قال:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أوّاب على وزن فعّال، صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي كثير الأوبة إلى الله، الإنسان أحياناً يقول: بالشهر أصلّي صلاة مُتْقنة، من سنتين بكيت مرة، وهناك إنسان يبكي بالأسبوع مرات عديدة، وإنسان يبكي باليوم مرات عديدة، فكلما كثرت إنابتك إلى الله علا مقامك عند الله، وكلما كثر خشوعك في صلاتك ارتقيت مرتبة هذه العبادة، فهذا النبي الكريم سليمان الحكيم:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

هنا المشكلة من نوع آخر، قال:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

الصافنات جمع صافنة وهي الخيل إذا وقفت اعتمدت في وقفتها على رجل واحدة وتركت الأخرى سائبة، هذه وقفة تقفها الخيل أحياناً، والذين يحبون الخيل ولهم مراس ولهم خبرات، منظر الخيل وهي تقف هذه الوقفة تثني رجلها اليسرى وتعتمد على يدها اليمنى، فهذه الوقفة سميت في القرآن الصافنات، فعرضنا عليه بالعشي أي قبل الغروب.

سيدنا سليمان شغله العمل الصالح عن عبادة ربه :

قال تعالى:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

الجياد من الجودة في الركض واقتحام الأهوال، هذا النبي الكريم شغله العمل الصالح وخدمة الخلق وتدريب الخيل استعداداً للجهاد في سبيل الله ونشر الحق، أعمال جليلة، ما من عمل أعظم عند الله من أن تنشر دين الله، ما من عمل أعظم عند الله من أن تهدي الخلائق إلى دين الله، ما من عمل أعظم عند الله من أن تهيئ الأسباب لنشر الحق في الخافقين، فهذا النبي الكريم كان يمرن الجياد لتستعد لمواجهة الحروب القادمة، فيبدو أن انهماكه في تدريب الجياد وانهماكه في تضميرها، وانهماكه في هذا العمل الجليل؛ عمل تهيئة أسباب الجهاد، هذا العمل جعله كما قال بعض المفسرين: جعل صلاة العصر تفوته حتى توارت بالحجاب، ما التي توارت بالحجاب؟ الشمس، شبهت الشمس بامرأة ثم توارت عن الأنظار لأنها تحجبت، وهذه صورة بلاغية في القرآن الكريم.

(حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

أحياناً الإنسان يقول البحر أكل الشمس، كيف أكلها؟ شبه البحر بإنسان والشمس قرص فأكلها عند الغياب، هذه صورة.

فهذا النبي الكريم شغله العمل الصالح عن عبادة ربه، والده شغلته عبادته عن العمل الصالح، هذا شغله العمل الصالح عن عبادة ربه حتى توارت بالحجاب.

(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

هذا واقع، أحياناً تلتقي بأخ كريم، والناجحون في حياتهم وفي دعوتهم يقعون في هذا المطب، من عمل إلى عمل، من لقاء إلى لقاء، من كلمة إلى كلمة، من خطبة إلى خطبة، من جمع أموال لأيتام فقراء من الصباح وحتى المساء تضعف عبادته، يضعف ذكره، يضعف إقباله على الله عز وجل، تصبح أعماله الصالحة الجليلة على حساب عباداته المفيدة، هذا الإنسان يصح أن يقرأ هذه القصة، قصة سيدنا سليمان الحكيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

مثال عن كذب الروايات الإسرائيلية التي ليست مقبولة ولا أصل لها :

قال تعالى:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ *فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

بعضهم فسّر الخير بأنه الخيل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.))

[متفق عليه عن ابن عمر]

أي إما أنه أحب الخيل لا لذاتها وإنما لأنها مطية المجاهدين، أو انشغل في تدريبها وتضميرها تهيئة لقتال الكفار والمشركين، على كل انشغل بالعمل الصالح الجليل عن عبادة ربه الجليل. أراد أن يكفر عن ذنبه، كلكم يعلم أن في أكثر التفاسير روايات إسرائيلية ما أنزل الله بها من سلطان، من هذه الروايات أن هذا النبي الكريم حينما شعر أنه انشغل بهذا العمل الجليل عن صلاة العصر فقال:

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

قطع أرجلها ورقابها انتقاماً منها لأنها شغلته عن صلاته، قرأت أقوالاً عديدة لكبار المفسرين ينكرون هذه الروايات، ويقولون لا أصل لها، وإنها من كذب الروايات الإسرائيلية، وأنه لا ينبغي أن تتسرب تلك الروايات التي رواها بنو إسرائيل عن أنبيائهم إلى كتب التفاسير، لأن نبياً عظيماً لا يعقل أن ينتقم من حيوان أعجم لا ذنب له لتقصير وقع به، ولأن نبياً عظيماً لا يمكن أن يتلف المال، هذه الخيل مال وفي ذبحها تقطيع أرجلها ورؤوسها هذا إتلاف للمال، وإتلاف المال حرام في الإسلام وفي كل الأديان. فهذه القصص إن سمعتموها أو قرأتموها هذه قصص ليست مقبولة، ولا أصل لها إلا من كتب بني إسرائيل.

بعض ما قاله كبار المفسرين حول هذه القصة :

لكن مفسرين عديدين أمثال الزمخشري وغيره قالوا: إن هذا النبي الكريم حينما رأى نفسه قد ضيع صلاة العصر من أجل هذا العمل الجليل لقد أتعبها وشغلته عن طاعة الله، فقال:

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

أي مسح لها أعناقها من شدة التعب، ومسح لها سوقها تكريماً لها ومواساة لها، وقد سمعت من أكثر من خبير بالخيل أن الخيل إذا ركضت ومسح لها صاحبها سوقها وأرجلها هذا إكرام لها ومواساة لها، هذا ما قاله كبار المفسرين حول هذه القصة.

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

أي أجهدها فواساها، أجهدها فمسح عرقها.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

كما أن الله سبحانه وتعالى يعلم أن في نفس هذا النبي رغبة في العبادة يرجحها على خدمة الخلق، فأرسل له الملكين أو الرجلين ليمتحن بهما، كذلك هذا النبي يعلم الله عز وجل وهو العليم الحكيم أن في نفس هذا النبي الكريم رغبة في العمل الصالح تزيد في أداء عباداته لذلك فتن بهذه الطريقة.

إذا نظرنا إلى مقام النبوة يمكن أن تكون سيئات المقربين حسنات الأبرار :

أما كلمة:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

هذه الآية حيرت المفسرين، لاشك أنه في القرآن الكريم آيات قليلة من المناسب أن نكل تفسيرها إلى الله، هذا لا يمنع أن نقول الله أعلم بمراده من هذه الآيات، أما ما ترويه بعض الكتب من أن هذا النبي الكريم ضيع خاتم الملك وجاء شيطان فأخذ هذا الخاتم وتمثل شخصيته وضاعت منه الخلافة والملك مدة طويلة هذه قصة ساقطة لا تقف على قدمين، وليست مقبولة إطلاقاً. إلا أن بعضهم قال: حينما شعر أنه قصّر في حق نفسه مع الله، إن صحّ أن الكرسي علم، كان الجسد الذي ألقي على كرسيه أي حجاباً بينه وبين الله عز وجل.

هذه هي الفتنة، فإذا أردنا أن نوسع هذا المعنى هي سهلة جداً، الإنسان حينما يخطئ يشعر أنه محجوب، حينما يخطئ يشعر أن الطريق إلى الله غير سالك، حينما يخطئ يقف إلى الصلاة فلا يشعر أن له على الله إقبال بل يشعر بالخجل، والخطأ نسبيّ، هذه كلمة دقيقة جداً، أي الإنسان العادي إذا صلى وغض بصره وحرر دخله وأحسن إنفاق ماله يشعر أنه في الأوج، لكن كلما ارتقت مرتبته ازدادت حساسيته وازداد حسابه.

هناك مثل حينما يقرأ طالب في الصف الرابع نصاً أدبياً ويخطئ عشرة أخطاء، قد نعد قراءته جيدة، نص غير مشكول وهو في الصف الرابع، فلا نوقفه إلا عند الغلطة الكبيرة إذا رفع المفعول به نقول له قف هذه غلط، أما الحركات الداخلية ضبط عين الفعل هذه الأخطاء لا نعدها عليه لأنه في مستوى متدني، أما إذا كان في الصف السابع أو الثامن نحاسبه على بعض حركات الكلمات الداخلية، فإذا أصبح في صف متقدم في المرحلة الثانوية نحاسبه على كل الأخطاء، أما إذا كان طالب أدب عربي في الجامعة نحاسبه على ضعف العبارة، نقول هذه الكلمة ليست مناسبة الأوْلى أن تقول كذا، وهذا الحرف لا يأتي بعد هذه الكلمة، كلمة أعجب بي لا من، كلمة دعا إلى لا دعا لي، فكلما ارتقى مستوى الطالب اتسعت الدائرة التي يحاسب بها.

فإذا نظرنا إلى مقام النبوة يمكن أن تكون سيئات المقربين حسنات الأبرار، مثلاً عمل يرتكبه نبي فيعاتب عليه ويرتكبه مؤمن فيثاب عليه، الأمر دقيق جداً، الآن الكلام دقيق لأنه متعلق بنبيين كريمين، فإخلاصٌ ما بعده إخلاصٌ، إنابة ما بعدها إنابة، حب ما بعده حب، شوق ما بعده شوق، بذل وتضحية إلى أقصى درجة، لكن حينما رجّح داود عليه السلام كفة العبادة على كفة العمل الصالح ترك الأوْلى

فعاتبه الله عز وجل، وحينما رجحت كفة العمل الصالح عند النبي سليمان عليه السلام على كفة العبادة ترك الأولى فعاتبه الله عز وجل.

في الإسلام نواح علمية ونواح انفعالية ونواح سلوكية :

هاتان القصتان جعلهما الله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، من أجل أن يتخذ المؤمنون هاتين القصتين نبراساً لهم في حياتهم، فلا ينشغلوا بالعمل الصالح عن عبادة ربهم، وقد ذكرت لكم في درس سابق أن أروع كلمة سمعتها في هذا المجال من أصحاب النبي عليهم رضوان الله قول سيدنا عمر، لما جاءه رسول أذربيجان ليلاً في منتصف الليل، وكره هذا الرسول أن يطرق باب الأمير في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ذهب إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي ويناجي ربه ويقول: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزِّيها، ما رأى شكله، فقال له: مَن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر، قال: يا سبحان الله، يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل، فقال عمر رضي الله عنه: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.

أي رعيتك لها عندك حق، ونفسك لها عندك حق، وهذا معنى إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، لليل أعماله وللنهار أعماله، للصلاة طعمها وللعمل الصالح طعمه، فإذا اكتفيت بالصلاة ولم تعمل صالحاً أتيت يوم القيامة مفلساً، وإن اكتفيت بالعمل الصالح ولم تتقن صلاتك جَفَّ قلبك وانعكس هذا على عملك، تماماً كشحن هذا البطارية، إن شحنتها بالعبادة أعطتك قوة بالأداء، فإن لم تشحن ضعفت قوتها، يصح هذا المثل جيداً، أنت بطارية، العبادة تشحنها والحركة النشيطة تظهرها، فإن قصرت في شحنها ضعفت حركتها، وإن أجهدتها في الحركة دمرتها، لا بدّ من شحنها ومن تدريبها، لو أنها لا تعمل تتخرب، لا بدّ من أن تشحن ولا بدّ من أن تعمل، فالعمل يصونها والشحن يقويها.

هاتان القصتان متكاملتان، يجب أن نتوازن بين العبادة والعمل بشكل أو بآخر، في الإسلام نواحٍ علمية، وهناك نواحٍ انفعالية، وهناك نواحٍ سلوكية.

النواحي العلمية ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، أنت كمؤمن لا بدّ من أن تكون عالماً، عقيدتك، إيمانك بالله، بوجوده، بوحدانيته، بكماله، الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، الإيمان بالأنبياء والرسل والكتب، هذا كله لا بدّ منه، هذا الجانب الاعتقادي العلمي الفكري، لكن عندنا جانب آخر الجانب الانفعالي، لا بدّ من أن يكون لك قلب يتأثر، ينبض بالحب، ينبض بالشوق لله عز وجل، لا بدّ

من سلامة قلبك، ولا بدّ من كمال قلبك، لا بدّ من حال ترقى به، لا بدّ من شعور تأنس به، ولا بدّ من عمل صالح ترقى به عند الله عز وجل لقول الله عز وجل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: 132]

المؤمن كثير الإنابة إلى الله عز وجل :

إذاً هناك ثلاث خطوط يجب أن تتحرك عليها جميعاً، خط الإيمان والعقيدة والفكر والحقائق والعلم، وخط الأحوال الطيبة والرقي النفسي، وخط العمل الصالح، التوازن هو المطلوب.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

حينما آثر العمل الصالح على عبادته شعر بالحجاب، الحجاب أشعره أنه قد فتن، وأنت أيها الأخ الكريم بالمناسبة حينما تشعر أنه بينك وبين الله حجاب ابحث عن شيء فعلته لا يرضي الله، هذا الشيء قد يحجبك عن الله وأنت لا تدري، قال:

(ثُمَّ أَنَابَ)

المؤمن كثير الإنابة إلى الله عز وجل، قال:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

اليوم في الخطبة ذكرت لكم أن ربنا عز وجل ضرب للناس مثلاً:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

[سورة الكهف: 54]

عندنا نبيٌّ أبوه كافر، هناك نبي ابنه كافر، وهناك نبي امرأته كافرة، وهناك كافر زوجته صدِّيقة، فرعون، وهذا أيضاً من كل مثل، هناك نبي ملِك هذا درس بليغ، ما هذا الدرس البليغ؟ الدرس البليغ أنه ليس في الأرض كلها علم إلا ويمكن أن يوظف في الحق، حتى لو كنت ملِكاً يمكن أن تكون في أعلى درجات الإيمان.

النبي سليمان طلب الملك ليكون له قوة في نشر الحق :

في القرآن قصص أخرى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً*إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً*فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: 83-85]

المغزى الآخر لهذه القصة أنه لا يمنع إنساناً أن يكون ملكاً من أن يكون في أعلى درجات الإيمان والقرب من الله عز وجل، والشيء الآخر أن هذا النبي العظيم حينما سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده هو قولاً واحداً فوق أن يطلب الملك لذاته، لا يطلب الملك لذاته إلا من أحب الدنيا، لكن هذا النبي طلب الملك ليكون له قوة في نشر الحق، وهناك مستويات عليا في الإيمان قد تطلب المال لا حباً في المال ولا من أجل المال، من أجل أن يكون هذا المال عوناً للناس على نشر دينهم. قد تطلب قوة تنصف بها المظلومين، بهذه الطريقة يحمل قول النبي الكريم:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ*فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ)

الريح مسخرة لهذا النبي الكريم، بإمكانه أن ينتقل عبرها لمسافات بعيدة جداً في وقت قصير جداً.

بعض من عطاء الله تعالى لسيدنا سليمان عليه السلام :

قال تعالى:

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)

سيدنا سليمان عُلِّم منطق الطير، وسخر الله له الريح، وهذا الذي تسمعونه عن بساط الريح لهذا النبي الكريم يمكن أن يركب متن الريح وينتقل بها إلى مسافات شاسعة.

تروي الكتب قصة رمزية أن هذا النبي كان عنده رجل ودخل ملك الموت، فصار ملك الموت يحدُّ الطرف بهذا الرجل، هذا الرجل خاف، قال: يا سليمان الحكيم من هذا الذي ينظر إليّ؟ قال: ملك الموت، فاستعاذ به أن ينقله إلى طرف الدنيا الآخر عن طريق الريح، فنقله إلى طرف الدنيا الآخر، وبعد أيام جاءه ملك الموت وقبض روحه هناك، فلما قال سليمان لملك الموت: لماذا فعلت هذا؟ قال: كنت أنظر إليه وأستغرب أنا مأمور بقبض روحه هناك فما الذي جعله عندك، الإنسان لا بدّ من أن يلقى أجله مهما احتال عليه. وسخر الله له شيئاً آخر:

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

كلكم يعلم أن الشياطين أوتوا قدرات فائقة، الشيطان أقدر من الإنسان على قطع المسافات الشاسعة.

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ *وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

شياطين مقيدون، وشياطين يتحركون.

(هَذَا عَطَاؤُنَا)

فالله إذا أعطى أدهش، وفوق كل هذا العطاء حرية في التصرف.

الانضباط والعمل الصالح يحتاجان إلى معرفة بالله :

قال تعالى:

(فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

أنت أحياناً تمنح إنساناً ميزات تقول له: لكن انتبه هذا استخدامه عن طريقي، هذا يحتاج إلى موافقة مني، وتحريك هذا الشيء يريد أمر مسبق بيومين، هذا ليس عطاء، قال:

(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

يضاف إلى هذا المعنى أنه لولا أن هذا النبي كان في المستوى اللائق، ومن الحكمة، ومن العلم، ومن الرحمة بحيث أنه لو أطلقت يده لما فعل إلا الحق، أنت أحياناً يكون عندك ابن بمستوى رفيع جداً من الفهم والكياسة والذكاء والأدب والورع والخوف من الله لا تحاسبه، تقول له: يا بني أنا سأسافر افعل ما تشاء، هذا المحل استلمه بع واشترِ واصرف كما تشاء وادفع لمن تشاء، كلمة افعل ولا تفعل على مشيئتك هذه شهادة من الله على أن هذا النبي أوتي من الرحمة والعلم والعدل والحكمة لو أطلقت يده ما فعل إلا الحق، هذا معنى هذه الآية:

(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ*وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

كان قريباً من الله عز وجل، معنى ذلك أن القربى من الله عز وجل هي كل شيء، القرب يحتاج إلى انضباط وعمل صالح، والانضباط والعمل الصالح يحتاجان إلى معرفة بالله، تعرف الله فتستقيم على أمره تحسن إلى خلقه تقترب منه تشعر بالسعادة.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

وفي درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى قصة أخرى من قصص القرآن الكريم وهي قصة سيدنا أيوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 41- 66
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-01-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

القصة لها مغزيان أساسيان العبرة والتثبيت :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة ص، ومع الآية الواحدة والأربعين، في الدرسين السابقين كانت الآيات حول نبيين كريمين، الأول سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، والثاني سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكل نبي من هذين النبيين الكريمين كان له قصة بليغة يمكن أن تضيء الطريق أمام المؤمنين، واليوم نبي ثالث هو سيدنا أيوب عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام.

الحقيقة أن قصصاً كثيرة جداً جداً وردت في التفاسير معظمها أو جلّها مقتبس من روايات إسرائيلية ما أنزل الله بها من سلطان، فأعوذ بالله من أن نتورط في رواية هذه القصص التي ليست مقبولة ولا معقولة ولكن نبقى في حدود ما قال الله عز وجل، ماذا نفهم من كلمة عبدنا؟ أو لماذا أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يذكر قصة أيوب؟ الله عز وجل قال:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة يوسف:111]

فالقصة فيها موعظة، والقصة فيها تثبيت.

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: 120]

فالقصة لها مغزيان أساسيان: العبرة والتثبيت، أنت إذا سمعت قصة مؤمن لاقى في سبيل الله ما لاقى ثم جاء الجزاء والتكريم والشفاء والتقريب، هذه القصة بحدّ ذاتها تعطيك دفعاً قوياً في طريق الإيمان.

هناك جانب فكري وجانب نفسي في كل قصة :

القصص التي تنطوي على عِبَر وعلى أمثلة لها فائدتان: الفائدة الأولى أن تستقي منها حقيقة، هذه الحقيقة الفكرية، والفائدة الثانية أن تكتسب منها قوة نفسية، أنت أيها المؤمن إذا سمعت عن رجل استقام على أمر الله، آثر جانب الحق، أعطى لله، منع لله، بذل في سبيل الله الشيء الكثير وضاقت به الدنيا ثم فرج الله عنه وأكرمه وجازاه خير الجزاء، هذه قصة فيها شيئان: فيها حقيقة، وفيها قوة نفسية.

(وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: 120]

يمكن أن تكون الدعوة إلى الله أساسها قصص واقعية جرت مع أناس قدَّموا لهذه الدعوة نماذج جيدة وواضحة، من هذا القبيل نستنبط حقيقة ونعطي المستمع قوة نفسية، هناك جانب عقلي وجانب انفعالي، جانب فكري وجانب نفسي في كل قصة، والجانب الفكري:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة يوسف:111]

الجانب النفسي:

(وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: 120]

فالله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام واجه من المحن ما واجه، وواجه من الصعاب ما واجه، واجه معارضة، واجه تآمراً، واجه إخراجاً، واجه تنكيلاً، فالنبي يريد الله عز وجل أن يثبته، أن يقويه، قال:

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ)

لذلك كتطبيق عملي أنت أحياناً تستمع إلى قصة فيها مغزى كبير، إما فيها حقيقة صارخة تؤكد عدالة الله، أو تؤكد رحمة الله، أو تؤكد أن الأمر بيد الله وحده، أو تؤكد أن هذه الآية القرآنية حق لا بدّ من أن تقع، وتؤكد وعد الله أو تؤكد وعيده، أيَّة قصة تؤكد ما في القرآن الكريم هذه إذا قرأتها يمكن أن تقرر فيها حقيقة ويمكن أن تقوي بها نفوساً.

العبرة أن تمتلك معنويات عالية وروح قوية تتحمل كل المضايقات :

الإنسان أحياناً أكثر ما يعيش بحالته النفسية، حالته النفسية تقوى أو تضعف، القصص التي تبين عدالة الله عز وجل وتؤكد أن العاقبة للمتقين، وتؤكد أن الله لن يتخلى عن المؤمنين، وتؤكد أن الله سينصرهم وسيعلي قدرهم.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

مثل هذه القصص إذا رويت قويت بها معنويات المؤمنين.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 146]

أردت من هذه المقدمة أن حالة المؤمن أساسية، المؤمن له حالة نفسية، هذه الحالة إما أن تقوى وإما أن تضعف، ما الذي يقويها؟ أن يستمع إلى قصة مغزاها أن زيداً آثر جانب الله فأكرمه الله ونصره وأيده ورفع شأنه، وأن عَمراً آثر شهوته أو مصلحته فخذله الله عز وجل وخسر الدنيا والآخرة.

إذاً القصة لها جانب تقريري وجانب تأثيري، جانب عقلي وجانب نفسي، الجانب النفسي يقوي، أحياناً الإنسان يتحمل المشاق لكن معنوياته عالية، يتحمل بعض المضايقات لكن معنوياته عالية، فالعبرة أن تمتلك معنويات عالية وروح قوية تتحمل كل هذه المضايقات.

من معاني العبودية :

النبي عليه الصلاة والسلام واجه من المعارضات والمشاكسة ومن التكذيب ومن السخرية ومن الإيذاء، ومن التنكيل بأصحابه الشيء الكثير، فربنا جلّ جلاله يخبره عن نبي كريم اسمه أيوب لاقى في جنب الله ما لاقى ومع ذلك إنا وجدناه صابراً.

أحياناً الإنسان يتأثر لبعض الآيات تأثرّاً انفعالياً، أنت مستسلم لأمر الله، مستقيم على أمر الله، محب لله، جاءت الأمور على غير ما تريد لم تقل كلمة واحدة بل ما زدت عن أن شكرت الله، عن أن حمدته، عن أن رضيت بهذا الذي أصابك الله به، رضيت بقضاء الله وقدره، رضيت بحظك من الله عز وجل، كنت صابراً صبراً جميلاً، هذا النبي الكريم قدوة لنا معشر المؤمنين.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ)

كلمة عبدنا أرقى مرتبة، الآن في الجامعات أعلى شهادة الدكتوراه، في أعلى منها أن يكون معه جائزة نوبل بالعرف الحديث، أعلى مرتبة في الأرض في حقل الدين، في علاقة الإنسان بربه، في عالم الحقائق، في عالم القرب من الله، في درجات المؤمنين عند الله، ما هي أعلى مرتبة؟ قال: أعلى مرتبة أن تكون عبداً لله، العبودية لله تعني أن تكون خالص الانصياع لله، الطاعة مع الانصياع مع الحب مع التوكل مع الرضا، معاني الطاعة، معاني الاستسلام، معاني التفويض، معاني التوكل، معاني الحب، معاني الشوق، إذا بلغت غاياتها، إذا ألغيتَ وجودك، ألغيتَ هوى نفسك فهذا معنى من معاني العبودية، فربنا عز وجل رفع هذا النبي إلى أعلى درجة حينما قال:

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا)

لذلك الإنسان إذا قرأ القرآن وقرأ قوله تعالى: يا عبادي، العلماء قالوا: هذه إضافة تكريم وتشريف، أي أن الله عز وجل كرمنا فنسبنا إلى ذاته.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 35]

كلمة عباد تعني هنا أن هذا الإنسان عرف عبوديته لله عز وجل وتتحقق بها فانطلق من خلالها.

المؤمن مخير في المباحات أما في العبادات فقد التغى اختياره أمام اختيار الله له :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

أنت كمؤمن عبد لله متحقق في عبوديته لله إذا قضى الله ورسوله أمراً ليس لك خيار، أنت لك خيار أن تشتري هذا البيت أو لا تشتريه، أن تسافر إلى هذه الجهة أو إلى هذه الجهة، أنت مخير كمؤمن في المباحات، أما في العبادات والطاعات والأمر والنهي ألغيتَ اختيارك أمام اختيار الله لك.

يبدو أن هذا النبي العظيم كان متحققاً أكمل التحقق بعبوديته لله عز وجل، فكان خالص الخضوع لله، خالص الحب له، خالص الصبر على قضائه، خالص الاستسلام له، خالص الرضا بقضائه والقبول بقدره.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ)

كما قلت قبل قليل هذا النبي ابتلاه الله، بعض المفسرين قالوا: ابتلاه الله بماله وأهله وصحته، والإنسان كما تعلمون حينما يبتلى بجانب من جوانب حياته يجمع كل طاقاته ويواجه هذه المشكلة، أما متى يسقط في يده؟ حينما تأتيه المشكلات من كل جانب، من صحته ومن ماله ومن أهله، هكذا ورد في بعض التفاسير، أي ابتلاه الله ابتلاء شديداً، وبالمناسبة الإنسان يمكن أن يكون مطيعاً لله عز وجل وينطوي على حب لله عز وجل وهو في الرخاء، هذا لا يكفي، يعني:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت]

مستحيل أن يصل المؤمن إلى جنة عرضها السماوات والأرض دونأن يمتحنه الله

حقيقة أضَعُها بين أيديكم أنتم كمؤمنين، مستحيل أن يصل المؤمن إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أن يُعطى عطاءً أبدياً سرمدياً، أن يصل إلى أعلى درجات النعيم وهو في الدنيا في الرخاء، في البحبوحة، لا بدّ من أن يمتحنه الله عز وجل، لا بدّ من أن يبتليه الله عز وجل، امتحاناً يُظهر إخلاصه ويُظهر حبه ويظهر ثباته.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

حتى حينما جاءت موقعة الخندق كما تعلمون، وجاء الأحزاب من كل جانب، وما لم يجتمع في الجزيرة العربية كلها قبل هذا جيش يعد عشرة آلاف مقاتل في تاريخ الجزيرة، كلهم جاؤوا لا ليحاربوا محمداً وأصحابه، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام كله، جاؤوا ليُنهوا كلمة الدين، جاؤوا ليبيدوا المسلمين، إذاً جاؤوا من كل جانب.

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)

[سورة الأحزاب: 10]

وفي آية أخرى، حتى إن اليهود في ظهرهم نكلوا بوعودهم ونقضوا عهدهم مع النبي عليه الصلاة والسلام فأصبح المسلمون محاصرين من كل جانب، وأصبح الإسلام كله والدين كله والرسالة كلها مجرد ساعات ليس غير، إلى أن قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، الله عز وجل قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب: 11]

محور الدرس اليوم أن الإنسان ممتحن :

الله عز وجل يعطي المؤمن صحة فيشكر الله عليها، يأتيه شبح مرض وبيد الله الشفاء ماذا يقول في المرض؟ يعطيه مالاً فيشكر الله عليه، يحرمه المال أحياناً ماذا يقول في الحرمان؟ يعطيه ما يعطيه فيمتحنه، ويأخذ منه ما يأخذ فيمتحنه، فنحن ممتحنون في الخير والشر، في العطاء والمنع، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وإدبارها، في القوة والضعف. إذاً محور الدرس اليوم أن الإنسان ممتحن.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

لا بدّ من أن تمتحن إما بالعطاء وإما بالمنع، إما بالقوة وإما بالضعف، إما بالصحة وإما بالمرض، إما بالغنى وإما بالفقر، إما بإقبال الدنيا عليك وإما بإدبارها عنك.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ)

ماذا قال؟ قال:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

هذه الآية لها معان كثيرة، أقول من معانيها، وحينما أقول من معانيها أعني بعض المعاني التي تحتملها، ماذا يفعل النبي؟ يدعو إلى الله، يرسخ الإيمان، وماذا يفعل الشيطان؟ عمل الشيطان دائماً

مناقض لعمل النبي، الشيطان يبث الضلال، يبث البغضاء، يغري بالفاحشة، يأمر بالفاحشة، يخوف، يضيق، فدائماً عمل الأنبياء في واد وعمل الشياطين في واد آخر.

مهما أسأت الظن بنفسك فهذا عمل جيد ومهما أحسنت الظن بإخوانك فهذا عمل جيد:

يمكن أن نفهم هذه الآية أن هذا النبي الكريم كلما دعا إلى الله رأى الشيطان يغري أتباعه فيصرفهم عن طريق الحق، الإنسان إذا كان له دعوة إلى الله ورأى شخصاً يحاول أن يفسد عليه المدعوين، أن يصرفهم إلى الدنيا، أن يشككهم بالدين، أن يزهدهم بالآخرة، أن يحببهم بالدنيا، أن يبث الشبهات والشكوك، هذا الإنسان يكون قد أصاب الداعية بإيذاء شديد، ليس الإيذاء مادياً لكنه إيذاء روحي من نوع آخر.

إذاً يمكن أن نفهم من هذه الآية أن هذا الشيطان نصب الشباك لأتباع هذا النبي ليصرفهم عن دعوته، وليحبب إليهم الدنيا، وليدفعهم إلى المعاصي، فهذا نوع من إيذاء هذا النبي الكريم.

(أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

النصب هو التعب، والعذاب معروف، بعضهم قال: لا، حينما ابتلاه الله عز وجل هذا الابتلاء في ماله وصحته وأهله، ماذا قال الشيطان لأهله؟ لو أنه على حق ما أصابه ما أصابه، فهذا إيذاء. إذا إنسان مؤمن امتحنه الله عز وجل ببلاء، فالذين حوله إذا شمتوا به، أو استنبطوا من هذا البلاء أنه ليس على حق، وأنه يستأهل ذلك هذا من أشد أنواع الأذى للمؤمن.

لذلك نستفيد من هذه النقطة في هذا الدرس إلى تقرير حقيقة، أن الإنسان ليس له حق كمؤمن إن رأى أخاه قد ابتلاه الله بشيء أن يستنبط أن الله يعاقبه، وأن الله ما أصابه بما أصابه إلا لذنب اقترفه، هذا الاستنباط يؤذي المؤمنين، لذلك أكمل صفة في المؤمنين أنه إذا نزل بلاءٌ بإخوانهم يُحسِنون الظن بهم، ويظنون أنه تَرقِية إلى الله عز وجل، لكن إذا نزل البلاء بساحة المؤمن فالمؤمن يجب أن يتهم نفسه.

القاعدة: إن جاء البلاء إلى المؤمن عليك أن تتهم نفسك أشدّ الاتهام، ولا تحسن الظن بها، ولا تبرئها، أما إذا نزل البلاء بأخيك المؤمن فعليك أن تحسن الظن به، هذه قاعدة، مهما أسأت الظن بنفسك فهذا عمل جيد، ومهما أحسنت الظن بإخوانك فهذا عمل جيد.

إيذاء النبي أيوب وكيف أن الشيطان مسه بنصب وعذاب يحمل على محملين :

إذاً عند البلاء لا تحسن الظن بنفسك بل أحسِن الظن بالآخرين، هذا هو الموقف الكامل لا كما يفعله بعض الناس كلما جاءته مصيبة يقول: هي رفع لي عند الله، هي ترقية لدرجاتي عند الله، فإذا ألمت مصيبة بأخيك المؤمن اتهمته في دينه.

فإيذاء هذا النبي الكريم وكيف أن الشيطان مسه بنصب وعذاب يحمل على محملين: إما أن الشيطان لسعيه في إضلال البشر ولإبعادهم عن طريق الحق ولإغرائهم بالدنيا وصرفهم عن الآخرة وتشكيكهم في هذه الدعوة وإلقاء الشكوك في نفوس أتباعه هذا إيذاء وأي إيذاء!

إنسان افتتح مدرسة ليعلم الناس الحق، فإذا كان في البلدة دعوة لإلغاء العلم وإلى التزهيد به، وإلى إغراء الناس بالمال وصرفهم عن هذه المدرسة، هؤلاء الذين يدعون هذه الدعوة المناقضة هم في الحقيقة يؤذون صاحب هذه المدرسة، هو يريد أن يعلم الناس والآخرون يصرفونهم عن العلم، هو يريد أن يهذبهم والآخرون يريدون أن يسقطوهم في وحول الشهوة، هذا نوع من الإيذاء.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

بالمناسبة الإنسان أحياناً تأتيه مصيبة فيظنها أبدية، مع أن الله جلّ جلاله قادر دائماً أن يجعلك تنسى هذه المصيبة، كيف أنه يخلق المرض كذلك يخلق الشفاء، كيف أنه يخلق العسر يخلق اليسر، كما أنه يخلق الفقر يخلق الغنى، الغنى له أسباب والفقر له أسباب، الصحة لها أسباب والمرض له أسباب، أحياناً الناس كلهم يعملون ضدّ الإنسان، ما القصة؟ كلهم يعادونه، فإذا رضي الله عز وجل كلهم يكرمونه، فربنا عز وجل قادر على كل شيء، لذلك من علامات النفاق اليأس من رحمة الله، القنوط من رحمة الله.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 35]

المؤمن لا يقنط لكن الكافر يقنط :

المؤمن لا يقنط، المؤمن وهو في أشد الحالات، وهو في أشدّ المصائب يأمل بعفو الله ورحمته وإكرامه، لكن لا يقنط إلا الكافر، لا ييأس إلا الكافر، فالله عز وجل على الرغم من أن هذا النبي كان في محنة وفي شدة في ماله وأهله وصحته لم يقنط.

الإنسان أحياناً إذا ألمَّ بصحته ما ألمَّ، الأهل يعتنون، الأولاد يعتنون، في مال مقابل الأطباء والتحاليل والأدوية، فمصيبة واحدة يمتصها الإنسان أحياناً، يوجد مشكلة مع الأهل والصحة طيبة والدخل جيد

تنحل، يوجد مشكلة بالمال لكن هناك تفاهم زوجي وسرور وصحة، لكن أن تأتي المصائب من كل جانب من جهة الأهل والمال والصحة هذا شيء يعجز عن تحمله عامة الناس، لكن الأنبياء لمعرفتهم بالله عز وجل ولإقبالهم عليه ولرؤيتهم أن الفعل فعله، وأن اليد يده، وأن لا فاعل إلا الله هذا كله يجعلهم يتقبلون كل هذه المصائب، والدليل حينما انتهى الامتحان ونجح هذا النبي، الإنسان أحياناً يمتحن لينظر كيف تقول، يا ربي لك الحمد أنا راضي.

حدثنا أخ طبيب قال: كان عندنا في المستشفى مريض مصاب بمرض خبيث في أمعائه، كلما دخل عليه عائد يعوده يقول له: اشهد أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، أيام ثلاثة وتوفاه الله، هذا نجح نجاحاً باهراً، ولو أن حياته قد انتهت، هناك بعد الحياة جنة عرضها السماوات والأرض.

المشكلة أن المصيبة تأتي ليسمع الله منك يا رب لك الحمد، يا رب أنا عبدك وابن عبدك وابن أَمَتِك ماضٍ فيّ قضاؤك نافذ فيّ حكمك، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تُنزل بي سخطك، أو تَحلّ بي غضبك، ولك العتبى حتى ترضى ولكن عافيتك أوسع لي. العبرة أن تقف هذا الموقف.

لذلك الله عز وجل بعد أن أصاب هذا النبي ما أصابه من محن ألمت بصحته، لكن ما يصفه الواصفون أن كل جسمه قيوح، الأنبياء مبرؤون من هذه المصائب، هذا يمثل دين الله عز وجل، أي مبالغات وقصص ما أنزل الله بها من سلطان لا تعبئوا بها ولا تلتفتوا إليها، أكثر التفاسير قيمة أنْكَرَها وأسقطها من حسابه، قال: هناك امتحانات امتحن الله بها هذا النبي الكريم جملة لا تفصيلاً، هناك بلاء.

استنبط العلماء من هذه الآية أن هناك علاجاً داخلياً وعلاجاً خارجياً :

أحيانا الإنسان يعاني من معارضة قومه ومن سعيهم لإحباط رسالته معاناة أشد من معاناة المرض، فإذا كان هذا النبي يدعو إلى الله وينشر الحق، والشيطان ينصب لأتباعه الشباك ليحبط إيمانهم وليصرفهم عن دينه وليشككهم في نبيهم فهذا أذى وأي أذى للنبي، قال:

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

معنى (اركض برجلك) أي اضرب الأرض برجلك، فلما ضربها نبع ماء اغتسل منه فشُفي كل شيء وشرب منه، أي جعل الله الشفاء في هذا الماء الذي نبع من ضرب قدمه في الأرض.

(هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

هناك أطباء استنبطوا من هذه الآية أن هناك علاجاً داخلياً وعلاجاً خارجياً، مغتَسل: علاج خارجي، وشراب: علاج داخلي، على كل حينما آن الأوان وشاءت مشيئة الله أن يشفى وأن يصح وأن يرتد إليه

أهله معظمين مبجِّلين انتهى كل شيء، الله عز وجل قادر دائماً وأبداً أن يجعل من المصيبة التي أضنت وآلمت ذكراً.

(هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ*وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

أهله التفوا حوله، وصحته عادت كما هي، وردّ الله له ماله، بماذا استفاد من هذه المصيبة؟ أنه امتحن فنجح.

شعور المؤمن أن

البلاء من عند الله وهو صابر على قضاء الله وقدره هذا الشعور مسعد:

قال تعالى:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

شعر بمشاعر خاصة مع هذه الآية:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

الله عز وجل يعلم أن هذه القضية مزعجة، أحياناً الإنسان تأتيه مشكلة لا يحتملها، يا رب هل ترى؟ نَعم الله يرى، يعلم حجم المصيبة ومدى الإيذاء، ومدى الضرر، ومدى الضيق، والله يقدر الليل والنهار، لذلك سيدنا إبراهيم قال: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي، ويعاب من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم، عندما يشعر الإنسان أن الله سبحانه وتعالى يرى ويسمع ويعلم، وأن هذا من عند الله، وهو صابر على قضاء الله وقدره هذا الشعور وحده مُسعِد.

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

تروي التفاسير أن هذا النبي حلف يميناً أن يضرب بعض أهله مئة ضربة، فقال:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً)

أي مجموعة حشيش فيها مئة عود واضربْ بها ضربة واحدة ولا تحنث.

الآية التالية تعطينا رخصة للتكفير عن اليمين بطريقة لا تؤذي الآخرين :

قال تعالى:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

الإنسان أحياناً يحلف يميناً، يرى الخير في عدم إنفاذها ماذا يفعل؟ قال العلماء: هذه آية تعطينا رخصة للتكفير عن اليمين بطريقة لا تؤذي الآخرين، أي هو حَلَف أن يضرب مئة ضرب، قال له: خذ بيدك

ضغثاً أي عرقاً من النخيل فيه مئة عود واضرب به ضربة واحدة، هذه الضربة الواحدة تقابل مئة ضرب.

(وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أيضاً نأخذ هذه الآية على مجملها من دون تفاصيل كما وردت في كتب بني إسرائيل، يمكن أن نستفيد من هذه الآية أن الإنسان أحياناً يتمكن من أن يحقق يمينه بطريقة لا تؤذي ولا تترك أثراً سيئاً في الآخرين.

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

هذه إنا وجدناه صابراً، لذلك الناس دائماً كلما ألمَّ بهم مكروه يقولون: يا صبر أيوب، أصبح هذا النبي الكريم مضرب المثل في الصبر.

كلمة (الصبر) لها معانٍ كثيرة :

الحقيقة كلمة الصبر لها معانٍ كثيرة، من معانيه أن الإنسان حينما يسلك طريق الإيمان الله عز وجل يعرضه لظروف معينة ولأزمات ولمشكلات، هذه كلها من أجل أن ترفع من مستوى إيمانه، كلها من أجل أن تقوي عوده في الإيمان، من أجل أن تقوي يقينه بالله عز وجل، دائماً وأبداً المصيبة تأتي إذا أصابت المؤمن واستفاد منها تذهب عنه وقد زادته إيماناً وحباً لله عز وجل.

السيدة فاطمة سألها النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا بك يا بنيت؟ قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده لا تدع المؤمن وعليه من ذنب.

اعتقدْ هذا الاعتقاد أن كل مصيبة إنْ في صحتك، أو في أهلك، أو في مالِك، طبعاً هذا خطاب للمؤمنين، تأتي وترحل، إن جاءت ورحلت وكنت صابراً ورضيت بقضاء الله وقدره، ماذا تترك في نفسك هذه المصيبة من آثار إيجابية؟ تزداد بها معرفة بالله عز وجل، وتزداد به حباً، مثلاً جهة قوية أرادت بالإنسان مكروهاً، أنت ليس لك أحد، لا تملك أن تدفع هذه المصيبة، لا تملك إلا الدعاء، فدعوت الله عز وجل بقلب مخلص، صليت الليل فدعوت الله عز وجل، أنت ما كنت لتفعل هذا لولا هذه المصيبة، ما كنت لتقف هذا الموقف، ما كنت لتصلي الليل وتتهجد، لتسأل الله في أثناء الليالي تقول: يا رب ليس لي سواك، هذه القوة الغاشمة التي تريد بك مكروهاً تراها بقدرة قادر على خلاف نواميس الأرض تنصرف عنك، أو تأتي قوة أخرى فتصرفها عنك، ماذا حصل؟ ازداد إيمانك بأن لا إله إلا الله، وأن الأمر كله بيد الله، ولا نافع ولا ضارّ إلا الله، ازداد إيمانك بأن الأمر بيد الله، وازداد إيمانك بأن الله

سمعك في دعائك، وازداد حبك له، اعتقد هذا الاعتقاد أي مصيبة تترك مزيداً من معرفة الله، ومزيداً من الحب له، هذا إذا أصابت المؤمن.

الكافر بين مصيبة القصم ومصيبة الردع :

يمكن أن نفسر هذا الموضوع بالشكل الآتي: هناك مصائب تصيب أهل المعاصي والفجور، وهناك مصائب تصيب أهل الإيمان والحبور، مصائب أهل العصيان عقاب وهي نوعان: مصائب قصم ومصائب ردع، كما قال الله عز وجل:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود: 36]

الإنسان أحياناً قد يبلغ من الكفر والانحراف والإصرار على إيذاء الناس درجة بالغة، عندئذ هذا لا تنفعه إلا مصيبة القصم، ربنا عز وجل يبطش به، الآية الكريمة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

أنا سمعت قصصاً كثيرة عن أناس شريرين يحبون إيقاع الأذى بالناس، تراهم بحادثٍ أصبحوا قِطعاً ثلاث، هذه مصيبة قصم، الإنسان إذا أراد إطفاء نور الله عز وجل، إذا أراد إيقاع الأذى بالمؤمنين، إذا أراد أن يمنع دعوة إلى الله عز وجل، إذا أراد أن يلصق تهمة بإنسان بريء، إذا أراد أن يصرف الناس عن طريق الحق، هذا يتعرض لغضب الله الشديد وقد يبطش الله به، هذه مصيبة القصم، وأحياناً يكون في هذا الإنسان بقية خير، تأتيه المصيبة من نوع الردع، مصيبة مؤلمة جداً قد تفقده بعض أعضائه، قد تفقده بعض حواسه. فالكافر العاصي الفاجر المنحرف بين مصيبة القصم ومصيبة الردع.

مصائب المؤمنين :

لكن المؤمنين لهم مصائب من نوع آخر:

1 ـ المصيبة الأولى مصيبة المؤمنين مصيبة دفع إلى باب الله يكون هناك تقصير :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 155]

المؤمن يخاف، يفتقر فقد لا يملك قوت يومه، يفلس وأحياناً تبور تجارته فيضطر إلى دريهمات يقترضها من بعض الناس، وقد يفقد بعض أولاده، وقد يحرق الله بستانه يقول لك المحصول تلف كله، بعد كل هذا:

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة: 155-156]

النبي عليه الصلاة والسلام قال مرة: إن لله ما أعطى وله ما أخذ، كلام بليغ عظيم له ما أعطى وله ما أخذ، شيء أعطاني الله إياه ثم استرده مني، فهذا الذي بيدي عارية مستردة، فلذلك هذه المصيبة الثانية، المصيبة الأولى مصيبة المؤمنين مصيبة دفع إلى باب الله، يكون هناك تقصير، من قصر بالعمل ابتلاه الله بالهمِّ، يكون هناك عبادة شكلية وصلاة صورية، تساهل ببعض الطاعات تقصير في الصلوات تلاوة القرآن عنده شكلية ليس فيها عمق ولا خشوع، من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهمِّ، مصيبة المؤمنين مصيبة دفع، في تقصير، سرعة بطيئة وفي خير، إذا أحب الله عبده ابتلاه.

2 ـ المصيبة الثانية مصيبة الرفع للمؤمنين :

المصيبة الثانية مصيبة الرفع، هو مستقيم وسرعته عالية في طريق الإيمان، لكن يمكن أن يرقى عند الله إلى درجات أعلى، فلذلك إضافة إلى إيمانه وإخلاصه وإلى أعماله الصالحة يحمِّله الله بعض المتاعب كي يكون مثلاً أعلى في تحمله إياها وصبره عليها، هذه مصيبة الرفع، فالمؤمن بين الدفع والرفع، إما أنه يدفعه إلى بابه، وإما أنه يرقى به.

3 ـ المصيبة الثالثة مصيبة الكشف للأنبياء :

أما الأنبياء المكرمون هؤلاء تنطوي نفوسهم على خير وعلى حب وعلى كمال لا يظهر إلا بالمصائب، فأنَّى للنبي الكريم أن يظهر ما عنده من حب للآخرين، من رحمة بهم، من حلم على أعمالهم، لولا أنه ذهب إلى الطائف على قدميه مع سيدنا زيد دعاهم إلى الله عز وجل، فسخِروا منه وكذبوا دعوته وبالغوا في إيذائه وشتموه وضربوه، جاءه جبريل قال: يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يُخرج من أصلابهم من يوحده.

هذا الذي حصل، إذاً هناك خمسة أنواع من المصائب، مصيبة القصم ومصيبة الردع للعصاة، ومصيبة الدفع ومصيبة الرفع للمؤمنين، والكشف للأنبياء.

الأنبياء وصفهم الله بصفتين صحة الرؤية وصلاح العمل :

ثم يقول الله عز وجل:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾

أولي الأيدي أي أولي القوة، والأبصار الرؤية، هؤلاء الأنبياء وصفهم الله بصفتين: الأولى أنهم أصحاب بصيرة نافذة، والثانية أن لهم أعمال صالحة جليلة، أجمل وأدق وصف، إذا صحت رؤيتك وصح عملك فأنت في المقدمة، صحة الرؤية وصلاح العمل.

﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾

أي الدار الآخرة دائماً يعيشونها، دائماً ماثلة أمام أعينهم، إذا كان الإنسان غافلاً فمن شقاء الإنسان أن يغفل عن الدار الآخرة وأن يعيش الدنيا وحدها، لكن من نعم الله على الإنسان أن تكون الآخرة دائماً في ذهنه، دائماً يذكرها، دائماً يعمل لها، دائماً يتقي عذابها.

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾

أي أنهم يذكرون الدار الآخرة هذا شأن ثابت من شؤونهم.

﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾

أي أن الله عز وجل اصطفاهم على العالمين، هم خيرة خلقه، لذلك هذا مدح لهم، فأية قصة لا تليق بهم تجعلهم كعامة الناس، أية قصة تجعلهم يثأرون لأنفسهم أو يُقبلون على شهواتهم هذه قصة مرفوضة من أصلها لأن الله نفاها عنهم.

وصف قريب لأذهان الناس في الجنة :

قال تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ*هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

الآن ربنا عز وجل بعد أن ذكر بعض الأنبياء ذكر سريع ووصفهم بأن لهم بصائر نافذة وأعمال صالحة جليلة، ثم وصفهم بأنهم مع الدار الآخرة دائماً لا ينسونها، وهم مُصطفَون أخيار، يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾

تكريماً لهم، إذا الإنسان كان مدعواً وله شأن كبير طبعاً الأبواب مفتحة له قبل أن يأتي، أما إذا إنسان عادي حينما يأتي يطرق الباب فيفتح له، فتفتيح الأبواب له قبل أن يأتي تكريم كبير له من الله عز وجل.

(جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ *مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

أي جلسة مريحة جداً، وطعام نفيس، وحورية تملأ القلب سروراً، هذا وصف قريب لأذهان الناس في الجنة، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا)

جلسة مريحة جداً، أحياناً ريش نعام مريح.

الفرق بين مرتبة أهل الجنة ومكانة أهل النار :

قال تعالى:

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)

أنفس أنواع الفاكهة وأطيب أنواع الشراب.

(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

أي من سنِّهم، وقاصرات الطرف هذه الحورية لا تنظر إلى غيره، ولا تطلع إلى غيره، تقصر طرفها عليه.

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ)

الإنسان في الدنيا في قلق يقول: غداً أكبَر، الكِبَر مقلق، الفقر مقلق، وأحياناً يكون في منصب حساس يقول لك: عليّ ضغط، لي منافسون، في الآخرة ليس هناك قلق، وما هم منها بمخرجين، ليس هناك مرض وليس هناك غم ولا حزن، أما الذين طغوا في الدنيا:

(إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ* هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)

أسْوَأَ رجعة.

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ* هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

الشراب يغلي، والنفس تعافه، الإنسان هل يستطيع أن يشرب شراب غسالة، بقايا الإنسان إذا غسل، هل يمكن أن يشرب الإنسان ما يحصل من تنظيف أنفه، هذا الغساق شيء لا يحتمل، حار يغلي ومنفِّر إلى أقصى درجة.

أهل الجنة على سرر متقابلين في محبة وود على عكس أهل جهنم في عداوة وبغضاء:

قال تعالى:

(هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآَخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ)

أنواع منوعة من أنواع الشراب التي لا يسيغها الإنسان ولا يحتملها.

(هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)

أهل الجنة على سرر متقابلين، في محبة وود وأنس ولطف وسرور، أهل جهنم بالعكس في عداوة وبغضاء.

(هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ)

يتلاومون، أنتم ضلَّلتمونا، أنتم علمتمونا الانحراف، أنتم دللتمونا على المنكر، أنتم أقنعتمونا أنه ليس هناك إله، دائماً الحوارات في جهنم كل طرف ينحي باللائمة على الطرف الأخر.

(قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ*قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ)

ربنا عز وجل وصف لنا في قرآنه الكريم مشاهد من يوم القيامة :

آخر فقرة في الدرس:

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)

أثناء الحوار والخصومات وتقاذف التهم في جهنم، ولا مرحباً بكم بل أنتم لا مرحباً بكم، أين فلان؟ هناك فلان مستقيم صالح يخاف الله عز وجل ويتلو آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، يمضي الليل راكعاً وساجداً، يقدم للناس المعونات، يدعو إلى الله، يرحم الناس، هذا عند أهل الكفر شرير، هذا إنسان شِرِّير. في أثناء نقاش أهل النار وهم في النار يتصايحون قالوا:

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)

أين فلان، وفلان، وفلان؟

(أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ)

هؤلاء الذين كانوا يعدونهم أشراراً هم في الجنان الآن، يتنعمون في الجنة، على سرر متقابلين، يأكلون ويشربون وهم في ظل الرحمن ينعمون، قال:

(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

كما أن أهل الإيمان قال: إنه كان لي قرين فاطّلع فرآه في أصحاب السعير، كذلك أهل النار: أين فلان الذين كنا نعده من الأشرار، هذا مؤمن، هذا راقٍ مستقيم يخاف الله عز وجل، ربنا عز وجل وصف لنا في قرآنه الكريم مشاهد من يوم القيامة، هذا الوصف قبل أن يأتي رحمة بنا، أي يا عبادي انتبهوا، هذه المواقف سوف تقفونها، هكذا أهل الجنة وهكذا أهل النار، فالإنسان في الدنيا ليكن مع أهل الإيمان، ليكن مع الأتقياء الأبرار، ليكن مع المؤمنين الطاهرين، مع المستقيمين العابدين، مع الأولياء الذين يحبون الله عز وجل، وإلا فمصيره معروف.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 65- 88، التوحيد والفطرة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-08

بسم الله الرحمن الرحيم

نهاية العلم التوحيد :

أيها الأخوة الأكارم، الإيمان ينتهي بك إلى التوحيد، إذا وحدت فقد استرحت وأرحت، لذلك قيل: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، نهاية العلم التوحيد ألا ترى مع الله أحداً.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، لكن التوحيد يحتاج إلى جهد، إلى جهد في معرفة الله من خلال خلقه، ومن خلال كونه، آياته القرآنية، من خلال أفعاله، فإذا تعمقت في الإيمان ووصلت إلى عقيدة صحيحة قطعية يقينية أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، وأن أي شيء يقربك من هذه الحقيقة هو الخير المحض، وأن أي شيء يبعدك عن هذه الحقيقة هو الشر المحض.

الصلاة تقرِّب، الصيام يقرب، العمرة تقرب، الحج يقرب، غض البصر يقرب، الكسب الحلال يقرِّب، ضبط اللسان يقرب، الغيبة تُبعِد، النميمة تبعد، إطلاق البصر يبعد، المال الحرام يبعد، الاتفاق في المعصية يبعد، في الكون كله حقيقة واحدة، لكنك ترى وتسمع آلاف الأسماء، وآلاف الأقوال، وآلاف المعتقدات، وآلاف الحركات، هذا الذي تراه كما قال سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

أهمية التوحيد :

بشكل أو بآخر، وحوش كاسرة مفترسة مخيفة كلها مربوطة بأزمة بيد جهة، هذه الجهة فيها كل الكمال، فيها العدل والإنصاف والرحمة، فأنت علاقتك مع من؟ إن جعلت علاقتك مع هذه الوحوش فالقضية صعبة جداً، تعيش حياة الخوف والقلق والنفاق والتمزق والتبعثر والتشرذم، أما إذا جعلت

علاقتك مع هذه الجهة التي تملك هذه الوحوش تستريح وتريح، هذا هو التوحيد، تجاوزت هذه القوى الظاهرة إلى من أعطاها القوة، تجاوزت هذه المتحركات إلى من حركها، تجاوزت هذه المكونات إلى من كونها، تجاوزت هذه المخلوقات إلى من خلقها، تجاوزت هذه الأحداث إلى من أحدثها، هذا هو التوحيد.

لذلك أنت بالتوحيد سعيد، أنت بالتوحيد مطمئن، لأن علاقتك مع جهة واحدة، أحياناً يقول لك: تجارتي مريحة جداً، لماذا؟ يقول لك: أنا لي زبون واحد مرتاح معه، كل بضاعتي يأخذها ويدفع لي ثمنها نقداً بدون مماطلة، التجارة مع إنسان واحد مريحة جداً، لكن مئتا زبون هذا كذاب، وهذا يدفع وهذا لا يدفع، شيء متعب، أي هذا مثل من واقع التجار، موظف له خمسة أو ستة رؤساء هذا قال له: سافر، وهذا قال له: لا تسافر، هذا قال: بكّر وهذا لا تبكّر، يتمزق هذا الموظف، أما إذا موظف له مدير واحد شيء مريح جداً انتهت كل مشاكله، علاقته مع واحد.

لذلك التوحيد لماذا مريح؟ لأن كل مشاكلك مع جهة واحدة، لا تحتاج إلى أن تحلف له يمين، هذا الإله يعرف، ولا يريد وصل أنك دفعت إلى الجامع، كنت مضغوطاً فصبرت عرف ذلك، يعلم السرّ وأخفى، يعلم ما تبدي وما تخفي، يعلم ما تعلن وما تضمر، يعلم دوافعك الحقيقية تماماً، الأهداف الدقيقة، في شيء تعلنه أنت غير صحيح، هذه الرغبات الباطنة التي تحرك الأفعال يعلمها الله عز وجل، فعندما الإنسان يوحد يرتاح، لا يخاف أحداً، ولا يرجو أحداً، ولا ينافق، ولا يجامل، ولا يتملق، ولا ترتعد فرائصه من تهديد هدد به، ولا ينام مغموماً من وعيد وعد به، لأن حاله يقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى
فلرب أمر مسخـِط لك في عواقبه رضـا
ولربما ضاق المضـيق ولربما اتسع الفضـا
الله يفعل ما يشـاء فلا تك معترضـا
الله عوّدك الجمـيل فقس على ما قد مضـى

* * *

آيات قرآنية تؤكد على التوحيد :

أنا أؤكد على التوحيد.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

أخوة يوسف ماذا فعلوا؟ أرادوا أن يلقوه في غيابة الجب وقد ألقوه ليموت ويستريحوا منه، فقال له ربنا سبحانه وتعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة يوسف: 15]

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 21]

سيدنا موسى، فرعون قال: أنا سأذبح كل أبناء بني إسرائيل، هذا الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره، والله غالب على أمره.

افهم كل شيء من خلال لا إله إلا الله عندئذ لا تقهر ولا تتمزق هذا هو جوهر الدين:

يا أخوة الإيمان، إذا علمت أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أصبحت علاقتك مع الله، أما إذا علمت أن زيداً ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وعُبيداً ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن هذا هو التمزق، هذا هو الشرك، هذا هو الشرك الذي يشلّ الإنسان، الذي يمزقه.

(وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)

لأنه لا إله غيره، أما ما تزعمون هم آلهة مزورة، هم أصنام، أحجار، لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لا يرفعون ولا يخفضون، لا يرزقون ولا يمنعون، ليس في يدهم شيء، الواحد لا إله إلا هو، القهار أمره نافذ.

مثلاً يقولون هذه الجهة تملك سلاحاً نووياً، وهذه الدولة دولة قرار، أي عاصمتها عاصمة قرار هذا مصطلح حديث، الله عز وجل قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس:24]

افهم كل شيء من خلال لا إله إلا الله، عندئذ لا تقهر، ولا تتمزق، ترى أن الإله بيده كل شيء، وعليك أن تعبده وكفى، عليك أن تطيعه وعليك أن تنتظر الخير منه، هذا هو جوهر الدين.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

هذا الإله الواحد الذي لا شريك له، القهار الغالب على أمره، فضلاً عن ذلك هو رب العالمين، كلمة رب فيها معنى التربية، التربية فيها حب، التربية فيها رحمة، التربية فيها حكمة، التربية فيها علم، التربية فيها تيسير لهدف نبيل، هذا معنى رب العالمين، أنا قلت قبل أيام أن الله عز وجل أعطانا عقلاً أداة معرفة الله، أعطانا كوناً يدل عليه، أعطانا فطرة تكشف الخطأ، أعطانا شهوة تدفعنا إليه، أعطانا اختياراً يثمن العمل، أعطانا قوة نحقق بها اختيارنا، أعطانا شرعاً نزن به العقل والفطرة، لو أنه أعطانا كل هذا وتركنا حتى يأتي الأجل، هو إله عظيم وعادل حكيم ولكن أين التربية؟ التربية حينما تختار شيئاً الله عز وجل يعاقبك على ذلك، يعاقبك، يحذرك، ينذرك، يضيق عليك، يشدد عليك حتى تعود إليه، إذاً هو يربيك.

الله عز وجل يكثر على الإنسان الوسائل كي يعرفه ويقبل عليه :

لا أعتقد أن واحداً من أخواننا الحاضرين إلا وله مع الله خبرات في هذا الموضوع، مثلاً هذه لأنني فعلت كذا، وهذه لأنني أخطأت هذا الخطأ، وهذا لأنني تجاوزت حدي، فحينما تشعر أن إلهاً حكيماً خبيراً يلاحظ أعمالك ويرقبها وهو لك بالمرصاد، ويعالج ويضيِّق ويشدِّد ويُكرم ويشجِّع عندئذ هو رب العالمين.

خطر في بالي مثل يقرب هذا المعنى وهو معنى الربوبية، مدير ثانوية مثلاً في النظام الداخلي كل طالب غاب أسبوعين يفصل، هذا المدير طلب الدوام ما تكلم للطلاب كلمة ولم ينصحهم وما حذرهم وما أنذرهم، إلا أنه عنده قوائم الدوام، فكلما رأى طالباً تجاوز غيابه خمسة عشر يوماً أصدر قراراً بفصله، هذا عدل وهذا تطبيق للنظام ولا يحاسب المدير على ذلك، لكن هناك مدير رحيم فضلاً عن أنه حازم، غاب الطالب يوماً واحداً استدعاه طلب منه تقريراً أو وليه، وشدد عليه، وكتَّبه تعهداً حتى لا يكررها، خلال سنة لم يدع طالباً أن يغيب أسبوعين، يعالجه من أول الأمر، فهذا بالإضافة إلى أنه مدير حازم هو مربٍّ حكيم.

فربنا عز وجل لم يعطنا الاختيار وتركنا نغلط ثم عند الموت حاسبنا إلى جهنم، ليس هكذا، بل إنه من أول غلطة هناك حساب، في حساب وتحذير وإنذار، وهناك معالجة وتضييق وتشديد، وهناك إكرام أحياناً، أحيانا عن طريق رؤيا مخيفة، عن طريق رؤيا سارة، عن طريق صديق أمين صادق مخلص،

عن طريق داعية، عن طريق خطيب مسجد، عن طريق كتاب يقرؤه، فالله عز وجل يكثر عليك الوسائل كي تعرفه وكي تقبل عليه هذه هي التربية، لذلك:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

العزيز هو الفرد الذي يحتاجه كلُّ مخلوق في كلِّ شيء، أدق تعريف للعزيز يحتاجه كل شيء في كل شيء، ليس هناك غيره، كل شيء في كل شيء، لا ينال جانبه، أمره هو الغالب، لكن إذا عدت إليه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه العزيز الغفار، إن عُدْتَ إليه قبلك.

الإنسان كائن معقد جداً إذا سار على منهج الله عز وجل يستقر ويسعد نفسياً :

قال تعالى:

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

أنا في طريقي كنت في عقد قران، وفي طريقي إلى هذا المسجد قلت كلمة: نبأ عظيم؛ أي إنسان جمع كل أمواله واشترى بها أرضاً ليشيد عليها بناءً ويربح منها، قرأ في الجريدة أخباراً منوعة رياضية وسياسية واقتصادية، إقلاع الطائرات ووصول البواخر، أسعار العملات، ثم قرأ خبراً مقداره سطر واحد فقفز من مجلسه قرأ أن هناك قرار استملاك الأرض، هذا نبأ عظيم، هذا خبر ليس ككل الأخبار.
مثلاً المؤمن شعر أن هذا القرآن، أحياناً الإنسان بحكم العادة يحضر خطب الجمعة، يحضر مجالس علم، إذا حضر عقد قران يسمع كلمة خطيب الحفل، يقول لك: يا أخي والله إنها كلمة لطيفة، إذا كان الدين بالنسبة لك قضية ثانوية، نشاط اجتماعي من جملة النشاطات الاقتصادية والثقافية والترفيهية أيضاً أنت لك أخوان، القضية أخطر من ذلك، سعادتك كلها تتوقف على علاقتك بهذا الدين، علاقة تصديق وتطبيق إذاً تسعد، علاقة عدم تصديق وعدم تطبيق تشقى، فقل هو نبأ عظيم.
الإنسان أحياناً يكون ببعثة ومعلقاً آمالاً وأحلاماً على نيل الشهادة، أحياناً تأتيه رسالة عادية: أُلغي إيفادك إلى البلد، هذه رسالة غير عادية، يتلقى مئات الرسائل من أهله، سؤال وجواب عن دراسته وصحته وأحواله ومجاملات وسلام وكلام هذه رسائله، أما هذه رسالة خطيرة ألغت إيفاده، هذا نبأ عظيم.

أنا أضرب أمثلة، إذا كنت ترى الدين أنك تفهمه فهماً خطيراً الدين مصيري، سعادتك الأبدية مبنية على هذا الدين، استقرارك النفسي، صحتك النفسية في الدنيا، توظيفك في العمل أنت كائن معقد جداً، هناك ضغوط كثيرة يوجد عواقب، يوجد انفعالات، يوجد إغراءات، يوجد نشاطات،، يوجد صراعات،

أنت ككائن معقد جداً إذا سرت على منهج الله عز وجل تستقر وتسعد نفسياً، والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

هذا النبأ عظيم، ستبنى عليه سعادتك في الدنيا والآخرة، يبنى عليه استقرارك، يبنى عليه زواجك، يبنى عليه معاشك ورزقك، قل هو نبأ عظيم.

النبأ العظيم :

لذلك لا تظن أن إنساناً سمع خطبة جمعة، أو حضر مجلس علم، قرأ صفحة من القرآن قضية خطيرة جداً، الله عز وجل يضعك عند مسؤولياتك، يضعك عند مهمتك في الدنيا، فالإنسان:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة   وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

* * *

يقولون إن الكاتب العظيم تقرأ قصته فلا تنام الليل، أما الكاتب التافه تقرأ قصته وتتثاءب وتنام، عالَجَ موضوعاً خطيراً بعمق عجيب، وضعك عند مهمتك، قل هو نبأ عظيم.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ*وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ*وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم:59-61]

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

الناس مقبلون على مُتعها، على شهواتها، على مباهجها، على بيوتها، على تنظيم البيوت، على تزيين البيوت، على إنشاء المزارع، على اقتناء المركبات، على الاقتران بالزوجات، هذا همُّ الناس، أما النبأ العظيم في غفلة عنه، يحسبون حساباً لكل شيء إلا الموت، يحسبون حساباً حينما يولد يسجلون له طلباً للهاتف، أي يحسبون حساباً لعشرين سنة قادمة، أما ساعة المغادرة، ساعة النزول في القبر، ساعة الانتقال إلى الدار الآخرة هذا هو النبأ العظيم.

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

ما جاء به النبي من عند الله إنما وصله عن طريق الوحي :

كأن النبي عليه الصلاة والسلام، أو إن الله عز وجل أمر النبي أن يبلغ الناس أن هذا الذي أقوله عن الله عز وجل هو وحي ليس من عندي، والدليل:

(مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

عندما قال ربنا عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)

[سورة البقرة: 30]

هذا الحوار بين حضرة الله عز وجل وبين الملائكة حينما أعلمهم بخلق مخلوق مكرَّم عليه وحيد، مخلوق أمر الملائكة أن تسجد له وإبليس رفض أن يسجد وقال: أنا خير منه، هذا الحوار وهذه المحاجة وهذا التساؤل وهذا الموضوع بكامله من أين جاء به النبي؟ كيف عرفه؟ عن طريق الوحي.

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ* مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ*)

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان عقلاً وهذا العقل بإمكانه أن يصل إلى الله :

قال تعالى:

(إِنْ يُوحَى إِلَيَّ)

إن حرف نفي، أي ما يوحى إليّ:

(إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

معنى النذير أنه يعلمك شيئاً، إن لم تستجب له هناك عقاب أليم، وهناك شقاء أبدي.

(إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

الآن ربنا جلّ جلاله يحدثنا عن قصة خلق العالم، وقبل أن نأتي على تفصيلاتها لا بدّ من مقدمة قصيرة، هو أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان عقلاً، وهذا العقل بإمكانه أن يصل إلى الله من خلال آياته الكونية والتكوينية والقرآنية، وهذا العقل بإمكانه أن يصل إلى أن هذا الكلام كلامه عن طريق الإعجاز، وبإمكانه أن يصل إلى أن هذا الذي جاء بالقرآن رسوله، فبالعقل تؤمن بالله خالقاً ورباً ومسيِّراً، تؤمن به واحداً وموجوداً وكاملاً، تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، تؤمن بنبوة الأنبياء والكتب السماوية، كل هذا بالعقل.

لكن العقل بمثابة ميزان له طاقات تحد من قدرته، هذا الميزان تقدر طاقته القصوى بعشرين كيلو، أو ثلاثين، فهناك موضوعات لا يستطيع العقل معرفتها بذاته مستحيل، كيف بدأ الله العالم؟ ما كان، الله عز وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

الإيمان لا يصح إلا بالعقل لا بالتقليد :

الإنسان لم يكن موجوداً، كل شيء عجز العقل عن إدراكه أخبره الله به، إذاً في الإسلام معقولات ومنقولات، يقين استدلالي ويقين إخباري، شيء يجب أن تفكر به فإن لم تفكر به لا يقبل منك، الإيمان بالله بالعقل ولو قلدت به لم يقبل منك، لو قُبِل التقليد بالإيمان لأصبحت كل الفرق الضالة على حق، ما ذنبي أنا قلدْتُ فلاناً، الإيمان لا يصح إلا بالعقل لا بالتقليد، فالإيمان بالعقل، الإيمان بالله وبرسالة أنبيائه وبأنبيائه بالعقل، لكن الموضوعات التي يعجز العقل عن إدراكها لأنها فوق طاقته، العقل أساسه الاستدلال، أساسه شيء مادي أمامه يستنبط منه شيء مغيب عنه، الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فِجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير.

هذا الاستدلال العقلي، فالعقل من شيء مادي إلى شيء مغيب عن الإنسان، هناك شيء ظهرت عينه وأثاره مثل نار تشتعل أمام عينيك وفوق النار دخان، فهذه النار ترى عينها بعينيك وترى آثارها بعينيك؛ اللهب والدخان، هذا اليقين الحسيّ، لكن رأيت جداراً ومن فوق الجدار دخان تقول: لا دخان بلا نار، هذا اليقين الاستدلالي، لا دخان بلا نار.

لكن جاءك رجل وهو صادق عندك مئة بالمئة وقال: نشب حريق في المكان الفلاني، أنت لا رأيت النار ولا آثارها لكنه أخبرك أن هناك حريق، فأول يقين يَقين حسي، ثاني يقين يقيْن استدلالي، ثالث يقين يقيْن إخباري، فيما يتعلق بذات الله يقين إخباري، فيما يتعلق بأصل الكون وقصة الحياة الدنيا وبدء الخليقة يقين إخباري، فيما يتعلق بعد الموت يقين إخباري، فيما يتعلق بالكائنات غير المرئية كالجن والملائكة يقين إخباري، هذه تسميها مسموعات، تسميها أخباراً، تسميها يقيناً إخبارياً، تسميها إيماناً تصديقيّاً، الأسماء كلها ذات مسمى واحد، أما المعقولات التي أنت مكلف أن تعقلها بذاتك، ولا يقبل منك أن تقلد بها. إذاً الإيمان فيه معقول وفيه منطوق، فيه استدلال وفيه تصديق، فيه تأمل وفيه مسموع.

قصة خلق العالم :

الآن ربنا عز وجل يحدثنا عن قصة خلق العالم، لو أنت قرأت شيئاً آخر خلاف هذا الشيء لك جواب واحد، ربنا عز وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

أنتم لم تكونوا معي، كنت أضرب مثلاً أن إنساناً جالس بمجلس في سهرة وقال: أنا في سنة الثلاثين أخذت محلاً في الحميدية، دفعت فروغه عشرة آلاف، عنده وَلَد وُلِد بعد شراء المحل بخمس عشرة سنة قال له: لا أنت أخذته بعشرين ألفاً بابا، قال له: أنت كنت معي وقتها؟ أنت لم تكن موجوداً حينئذ، عندما يريد الإنسان أن يتنطع ويتحدث عن قصة خلق الكون لم يكن موجوداً.

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

ففيما يتعلق بأصل الوجود، بقصة نشوء الحوادث، بخلق الإنسان هذا يقين إخباري تصديقي، فيما يتعلق بكائنات لا نراها بالعين تصديقي، الحديث عن ذات الله وعن علمه وعن قدرته تصديقي، الحديث عن اليوم الآخر تصديقي، أما الحديث عن وجود الله عقلي استدلالي وعن أسمائه وعن صفاته، فربنا عز وجل الآن يذكر لنا في القرآن ما يعجز العقل عن إدراكه بذاته، عقلنا يعجز عن إدراك هذا الشيء بذاته، الله عز وجل يخبرنا عنه فيقول:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ)

كلكم يعلم أن المَلَك رُكّب من عقل بلا شهوة، المَلَك مخلوقات نورية تسبِّح الله دائماً، لم تُكلف، ليس فيها شهوات، والحيوان ركب من شهوة بلا عقل، الملك ليس له حساب والحيوان ليس له حساب لأنه لم يكلف.

الإنسان إذا عرف الله واستقام على أمره أصبح فوق الملائكة :

الإنسان رُكّب من عقل وشهوة، فإن سما عقله على شهوته سما فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، الإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل يرتكب من الجرائم، في فرنسا قبل أيام ظهرت رغبة أن يعاد العمل بالحكم بالإعدام شنقاً، السبب أن هناك شباب يغتصبون فتيات صغيرات ثم يقتلونهن، مجرم اغتصب ثلاث فتيات وعمرهن ست سنوات ثم قتلهن،عندما ينقطع الإنسان عن الله عز وجل يصبح مجرماً كبيراً، يمكن أن يدمر أمة من أجل مصالحه الشخصية، وعندما يرتقي الإنسان يسبق الملائكة بكثير، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

ما من مخلوق يلحق الإنسان إذا عرف الله، أما الذي أعرض عن الله عز وجل أحقر مخلوق خير منه، النبي الكريم حدثنا عن رجل له جار، سافر هذا الجار وأوصاه بزوجته فخانه بها، كلبه قتله، فلما بلغ النبي القصة قال: خان صاحبه والكلب قتله، والكلب خير منه. فعندما ينقطع الإنسان عن الله ويتبع

شهوته يصبح مجرماً كبيراً دون الحيوان، فإذا عرف الله واستقام على أمره أصبح فوق الملائكة، فربنا عز وجل خاطب الملائكة:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ)

من تراب.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

التسوية أي هذا التنظيم.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين: 4]

أي هذا المِفْصَل، لولا المِفْصَل لا تستطيع أن تأكل إلا كما تأكل الهرة، يجب أن تنبطح على الأرض وتلعق الصحن ليس هناك غير هذه الطريقة، إذا ألغينا هذا المفصل، لو أن الإنسان يمشي على أربع لما أمكن أن يبني الحضارة، أما طلاقة يديه جعلت هذه الحضارة، إذاً: الإنسان يداه طليقتان ويمشي على رجلين.

السرّ في هذه النفخة أنها من روح الله عز وجل :

في الرأس، في الدماغ، في العينين بمحجرين تقيهما كل خطر، في هذا الأنف فوق الفم إذا كان الطعام فاسداً الأنف يعطي إنذاراً، هذا اللسان، هذا البلعوم في أحسن تقويم.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

من طين، انظر إلى تمثال من الشمع يضعه بائعو الأقمشة في محلاتهم التجارية، وانظر إلى إنسان من لحم ودم فيه حياة، انظر إلى وردة طبيعية تفوح بالرائحة وانظر إلى وردة اصطناعية من ورق أو بلاستيك، أين الثرى من الثريا؟! قال:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

فالسرّ في هذه النفخة من روح الله عز وجل، صار هناك دماغ يفكر ويحاكم، لو أن إنساناً مات لو صعد إنسان على سرير وتحت السرير ميزان، حينما تخرج روحه إلى السماء يا ترى كم غرام نقص وزنه؟ ولا غرام ولا ميلي غرام ولا ميكرو غرام، ومع ذلك العين لا ترى، الأذن لا تسمع، الدماغ لا يفكر، المعدة لا تهضم، الرئتان لا تخفقان، القلب لا ينبض، ما الذي حدث؟ ما هذا الذي خرج منه؟ العين تبصر الألوان، تبصر جمال الجبل الأخضر، تبصر جمال البحر الأزرق، تبصر جمال وردة فواحة، تشم رائحة عبقة، تعبر تتكلم، يضحك يبكي يخطب يبيِّن يفسِّر يؤلِّف يتحرك، الإنسان كائن راقٍ جداً فإذا ذهبت روحه أصبح مخيفاً، الغرفة التي ينام فيها الميت تبقى أياماً بل أسابيعَ بل شهوراً مهجورة

في البيت، قبل أيام كان هو مصدر أنس البيت، هو الأب إذا دخل هبّ له أولاده فرحين، ما الذي حدث حينما سحبت هذه الروح؟ أصبح مخيفاً، هذه النفخة.

ربنا عز وجل حينما أعطى الإنسان عقلاً وشهوة كرّمه وكلفه وجعله خليفته في الأرض:

قال تعالى:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

الموت بالعكس الروح انسحبت وأصبح جثة هامدة، إن كان في الصيف يحتاج إلى حمض الكلور وإلا خرج منه روائح كريهة، أنا في الحج والعمرة كنت أستغرب لماذا الجنائز يصلّى عليها بعد العشاء، هناك الجنائز في كل وقت، أنا أعجب في الشام العصر آخر وقت، المغرب ليس هناك جنائز لشدة الحر، لا تبقى الجثة في الحنوط أكثر من ساعات وإلا تتفسخ، هذا الإنسان كان مصدر أنس بالنظافة والأناقة والعطور الفواحة، فإذا مات سحبت النفخة منه، ما الذي حدث؟ تفسّخ، وليس من رائحة أكره من رائحة الإنسان إذا تفسخ، يعرف هذا حفارو القبور إذا دعوا أن يفتحوا على ميت بعد فترة، رائحة لا تقابل.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

انظر إلى الطفل حينما يولد نضرة سعادة، البيت كله فيه جمال وأنس، لكن لعبة من نفس الحجم لا حياة فيها.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

هذا سجود تكريم لا سجود عبادة، إن الإنسان مكرم، والإنسان هو المخلوق الأول، والإنسان هو المخلوق المسخَّر له الكون من أجله، فربنا عز وجل حينما أعطاه عقلاً وشهوة كرَّمه وكلفه وجعله خليفته في الأرض.

الإيمان انصياع لله عز وجل والكفر استكبار :

قال تعالى:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ)

إبليس ليس مَلَكاً، هذا اسمه استثناء منقطع، إذا قلت حضر الطلاب كلهم إلا المدرس، المدرس ليس طالباً لكنه اجتمع مع الطلاب في وجود الحضور فحضروا ولم يحضر، فالاستثناء منقطع، معنى استثناء

منقطع أي ليس المستثنى منه من جنس المستثنى، أي ما بعد (إلا) ليس من جنس ما قبل (إلا)، والدليل سجد الملائكة كلّهم وهذا توكيد أول، و(أجمعون) توكيد ثاني.

(إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

لذلك الكفر أساسه استكبار، المؤمن:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

الإيمان انصياع لله عز وجل، والكفر استكبار، قال:

(إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

هنا الخلق مباشر من الله عز وجل، الله عز وجل يخلق عن طريق سبب، نحن حينما نخلق من أب وأم عن طريق سبب أرضي، لكن سيدنا آدم خلق من قبل الله عز وجل مباشرة.

أكبر عقوبة ينالها مخلوق أن يبعد عن رحمة الله :

قال تعالى:

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

أي أنت أكبر من أن تنصاع لهذا الأمر؟

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

لذلك قالوا أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي، (أنا) قالها إبليس فأهلكه الله، و(نحن) قالها قوم بلقيس نحن أولو قوة وبأس شديد فانهار ملكها، وقال قارون: إنما أوتيته على علم عندي، أنا عندي كذا، أنا حجمي المالي كذا، أنا أملك كذا، أنا أفعل كذا هذه كلمة مهلكة، وفرعون قال: أليس (لي) ملك مصرَ، إذاً أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي.

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

أي أن أكبر عقوبة ينالها مخلوق أن يبعد عن رحمة الله.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين: 15]

آيات قرآنية تبين اللعنة التي أصابت إبليس وكل من تبع إبليس :

أكبر مكافأة لمخلوق أن يتجلى الله عليه، إذا تجلى الله عليه أنساه كل شيء، إذا تجلى الله على قلب المؤمن، إذا شعر المؤمن أن الله يحبه وأنه بعين الله، وأن الله يحفظه هذا الشعور لا يوصف، الشعور الآخر شعور الطرد من رحمة الله، اللعنة.

(لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة البقرة: 161]

(فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ)

[سورة النحل: 106]

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ)

[سورة النساء: 52]

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

العلماء قالوا: فاخرج من رحمتي أو فاخرج من الجنة.

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

هذه اللعنة أصابت إبليس وكل من تبع إبليس، كل من استجاب لإبليس وائتمر بأمر إبليس، واستجاب لوسوسة إبليس عليه لعنة الله، إنما ذلك الشيطان يخوف أولياءه فإذا استجبت وخفت وتركت طاعة الله عز وجل حفاظاً على مصالحك فعلى هذا الإنسان اللعنة من الله لأن إبليس ملعون وكل من تبعه ملعون.

مهمة إبليس رئيس الجن :

قال تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ* قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

معناها أن إيمان إبليس بالله ليس منجياً، غير كافي.

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

لذلك إبليس منذ أن خلقه الله وإلى يوم الدين هو حي، حياته مستمرة، هذا طلبه من الله، لكن الجن يموتون ويتزوجون، أما إبليس رئيس الجن حياته مستمرة.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

أنا مهمتي يا رب:

(لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

أنا مهمتي أن أبعدهم عنك، أن أزيِّن لهم الدنيا، أن أوقع بينهم العداوة والبغضاء، أن أجعلهم يحبون الدنيا، أن أجعلهم يحبون المعاصي، أن أزين لهم كل المعاصي، أن أبعدهم عن كل الطاعات، هذه مهمته، لكن إبليس يفهم فقال: يا رب أفعل هذا:

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء لا أستطيع أن أفعل معهم ذلك، هؤلاء حينما اعتصموا بك وأطاعوك واستعاذوا بك وأخلصوا لك انتهت مهمتي معهم.

إبليس لا يغوي إلا الغاوي ولا يزين المعصية إلا لمن يحب المعصية :

قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

[سورة إبراهيم: 22]

إذاً إبليس لا يغوي إلا الغاوي، لا يزين المعصية إلا لمن يحب المعصية، لكن المؤمن في حرز حريز وحصن منيع، المؤمن حينما يطيع الله عز وجل أبعد عنه سلطان إبليس، حينما يطيع الله عز وجل أبعد عنه وسوسته.

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 201]

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

[سورة الفلق: 1-2]

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء الذين أخلصوا لك يا رب أنت خلصتهم من وساوس الشيطان، خلصتهم من كل هم وحزن.

الدين مغروس في فطرتنا وما هذا الكتاب إلا ليذكرنا بالدين :

قال تعالى:

(قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ)

الله جلّ جلاله لا يقول إلا الحق، هو حق ولا يقول إلا الحق.

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

الإسلام دين الفطرة من دون تكلف، من دون تصنع، المنطق يدل على الله عز وجل، العقل يدل عليه، الفطرة تدل عليه، الحوادث تدل عليه، القرآن يدل عليه، الراحة النفسية لها علاقة بالإيمان، أحياناً تحس أنها دعوة متكلفة فيها شد ومط، تجد الأفكار فلسفة غير طبيعية، الأفكار كلها مؤوَّلة، هذه دعوة باطلة، كل شيء فيه تكلف وتزوير وتأويل دعوة باطلة هذا الحق لا يحتاج إلى تأويل ولا إلى تزوير ولا إلى كذب، ولا إلى صخب وضجيج، الحق هو الفطرة، الحق هو العقل، الحق هو الواقع، الحق هو ما يألفه الناس ويرتاحون إليه، لذلك:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ *إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*)

الدين مغروس في فطرتنا، وما هذا الكتاب إلا ليذكرنا بالدين.

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

البطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان :

كما أقول لكم دائماً قضية الإيمان ليست على النحو التالي، ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، قضية الإيمان متى تؤمن؟ لأنه لا بدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان، فالبطل ليس الذي يؤمن، بل الذي يؤمن في الوقت المناسب، أما فرعون آمن في الوقت غير المناسب، أيُّ مخلوق سوف يؤمن لكن بعد فوات الأوان، إذاً بطولتك أن تؤمن قبل فوات الأوان، أن تؤمن وأنت شاب، وأنت صحيح، وأنت شحيح، وأنت قوي، وأنت غني، فكرك مُتَّقد، عضلاتك مفتولة، الدنيا مقبلة عليك هذا وقت الإيمان، ليس بعد الثمانين ليس هناك شيء.

أحدهم قال لي: الدولاب ماسح والعداد قالب، ليس في هذا الوقت تؤمن، ليس هناك شيء، ليس هناك شيء تخاف منه أو تخاف عليه، ملّتَ الحياة والأكل والشرب، الآن تبحث عن الإيمان؟ يجب أن تؤمن وأنت شاب بأن ريح الجنة الشباب.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

أي دعوة فيها تأويل، فيها شدّ الآيات، تأويل متكلف، فيها تغيير الحقائق ليس هذا هو الحق، الحق فطري، الحق تسمعه فترتاح له، الحق يؤيده الواقع، الحق تؤيده الفطرة، الحق يؤيده العقل، الحق يؤيده النقل، الحق ينتشر سريعاً، الحق ترضاه النفوس، تطمئن له النفوس، أما التكلف والتأويل والتزوير، وما أنا من المتكلفين:

((إني تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أخرجه أحمد عن حديث العرباض بن سارية]

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

هذه فيها تهديد، إذا الحق لم يعجبك فسوف ترى، سوف ترى أن هذا الذي ذُكِّرت به هو الحق، هناك جنة ونار، وهناك نار أبدية، وهناك حساب، وهناك صراط مستقيم، وهناك قبر، هناك عذاب في القبر.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 46]

هذه آية في أصل عذاب البرزخ، القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، يوجد موت والموت حق، وعذاب القبر حق، والجنة حق، والنار حق، والصراط حق، والحوض حق، وكل ما ورد في هذا القرآن حق، فهنيئاً لمن عرف الحق قبل يوم الحق، إذا عرف الحق قبل يوم الحق استعد لهذا اليوم، فإذا كذبه فسوف يعرفه لكن بعد فوات الأوان.

(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (01-20): تفسير الآيتان 1- 2 ، الإخلاص والطاعة لله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-01-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من تنزّل القرآن منجّماً على النبي الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الزُمَر، ومع الآية الأولى:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

كلمة تنزيل، قال بعض العلماء: تختلف عن كلمة إنزال، الإنزال يُفْهَمُ من هذه الكلمة أن القرآن أُنزلَ دفعةً واحدة، وكلمة تنزيل يفهم منها أن القرآن أُنزل مُنَجَّماً، على حسب الحوادث والمناسبات، ولحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل أنزل القرآن دفعةً واحدةً على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، ثمَّ أنزله منجَّماً بحسب الحوادث والمناسبات.

وبعض العلماء يرى أن من رحمة الله في تنزيل القرآن منجَّماً، أن التشريع إذا جاء على إثر حادثةٍ، هذه الحادثة تدعو إلى التساؤل، ويقع الناس في حيرةٍ من أمرهم، ماذا يفعلون؟ يأتي حكم الله عزَّ وجل، هذا أبلغ في نفوس المؤمنين، وأوقع من أن يأتي حكمٌ مجرَّدٌ لا علاقة له بحياتهم، ولا بالأحوال التي يعيشونها، هذه واحدة.

والشيء الثاني: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام سيواجه صعوباتٍ كبيرة، ومعارضاتٍ واسعة، فإذا كان القرآن يتنزَّل على قلبه على مُدَّةٍ طويلةٍ فهذا أعون على تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام، فشاءت حكمة الله أن يتنزَّل القرآن منجَّماً على النبي الكريم.

شيءٌ آخر: هو أن كل الأحداث التي وقعت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، والتي في ضوئها نزل تشريعٌ حكيم، أو نَطَقَ النبي عليه الصلاة والسلام بتوجيهٍ كريم، هذه الأحداث ليست مقصودةً لذاتها، المقصود لذاته هو التشريع الإلهي والسُنَّة النبويَّة، فكلُّ الأحداث التي وقعت إنما يراد منها أن يكون القرآن حُكْمَاً، وسنَّة النبي عليه الصلاة والسلام تشريعاً.

كل الأحداث التي وقعت في عهد النبي ليست مقصودةً لذاتها إنما المقصود التشريع :

حينما أنزل النبي جيشه في معركة بدر في موقعٍ ما، وجاءه الحُباب بن المنذر رضي الله عنه وهو من أصحاب رسول الله، وسأله: يا رسول الله أهذا الموقع أوحاه الله إليك، أم هي المكيدة والمشورة والرأي؟"

كلامٌ دقيقٌ في أعلى درجات الأدب، إن كان هذا الموقع أوحاه الله إليك فهذا من عند الله وهو حق، أما إذا كان هذا الموقع من قِبَل الرأي والمشورة والمكيدة فليس بموقعٍ مناسب، أليس الله قادراً على أن يوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالموقع المناسب؟ بلى، أليس الله قادراً على أن يلهم النبي عليه الصلاة والسلام بالموقع المناسب؟ بلى؛ ولكن هذا الحدث وقع ليقف النبيُّ الموقف الكامل ممن قدَّم له نصيحة مخلصة.

إذاً النبي علَّم أصحابه، وعلَّم أمَّته من بعده، وعلَّم العلماء والأمراء من بعده أنه: إذا جاءتكم نصيحةٌ مخلصة أساسها الغيرة على الدين فاستجيبوا لها، والنبي عليه الصلاة والسلام استجاب لهذا الرأي، ونقل الجيش إلى الموقع الذي ارتآه سيدنا الحُباب بن المنذر.

إذاً هذا التشريع، هذا الموقف الكامل، هذه القدوة التي وقفها النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان لها أن تكون لو لا هذا الذي جرى، إذاً هذا الذي جرى ليس مقصوداً لذاته، المقصود لذاته أن يكون النبي في تصرُّفاته مشرِّعاً، وفي مواقفه كاملاً.

حينما أمَّرَ النبي عليه الصلاة والسلام أنصارياً على بعض أصحابه في سريَّةٍ، وفي الطريق تغاضبوا، وأمر هذا الأمير أن تُضْرَم نارٌ كبيرة، وقال لأتباعه أو لمن معه: "اقتحموها ألست أميركم؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله". وقف أصحابه متردِّدين، بعضهم قال: علينا أن نقتحمها، وبعضهم قال: إنما آمنا بالله ورسوله فراراً منها، كيف نقتحمها؟" حينما عادوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما أمرهم أميرهم، قال عليه الصلاة والسلام: والله لو اقتحمتموها لا زلتم فيها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في معروف.

إذاً يجب أن نؤمن أن كل الأحداث التي وقعت في عهد النبي، والتي في ضوئها، أو على إثرها، أو في مناسبتها تنزَّل قرآنٌ كريم، أو نطق النبي بحكمٍ هو من قبيل السنة، أو من قِبيل الوحي غير المتلو، هذه الأحداث ليست مقصودةً لذاتها، إنما المقصود التشريع، والاقتداء بسنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، هذه حكمة من حكم الله في أن القرآن نزل منجَّماً، فكلَّما نشأت مشكلة عند أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وتوجَّهوا إلى النبي بسؤال، جاء حكم الله عزَّ وجل، فالحكم الذي يتنزَّل إثر مشكلةٍ، أو حادثةٍ،

أو قضيَّةٍ، أو مُعْضِلةٍ يكون أوقع في النفس مما لو تنزَّل الحكم بلا سببٍ، وبلا مبرِّر، وبلا مناسبةٍ، تجعله حُكماً عظيماً في نفوس أصحاب النبي.

القرآن ليس من قِبَل البشر بل من عند خالق البشر فهو كتابٌ لا ريب فيه :

إذاً كلمة تنزيل توحي، أو نشعر من خلالها أن القرآن نزل منجَّماً بحسب الوقائع والمناسبات، على مدَّةٍ مقدارها ثلاثة وعشرون عاماً.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ)

هذا الكتاب، إن قلنا: قرآن فمن فعل قرأ، وإن قلنا: كتاب فمن فعل كتب، فهذا الذي نزَّله الله على النبي عليه الصلاة والسلام سمَّاه الله تارةً قرآناً لأنه يُقْرَأ، وسمَّاه الله تارةً كتاباً لأنه مكتوبٌ:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)

دائماً يقولون: الرسالة شرفُها من شرف المرسل، كلَّما عظُمَ المرسِل عظُمَت الرسالة، ادخل إلى مكتبةٍ أيها الأخ الكريم ترى فيها عشرات الألوف من الكتب، كتبٌ في شتَّى العلوم، والآداب، والفنون، قديماً وحديثاً، لمؤلِّفين مشاهير، ولمؤلِّفين مغمورين، كتبٌ تبحث في كليَّاتٍ، كتب تبحث في جزئيَّات، كتبٌ فيها ضلالات، كتبٌ فيها هنات، كتبٌ فيها صواب، الكتب لا تُعَدُّ ولا تحصى، ولكن أيها الأخ الكريم ألا ينبغي أن تشعر أن القرآن شيءٌ آخر؟ إنه من الله العزيز الحكيم، كل الكتب مهما تنوَّعت، ومهما اختلفت كلها من تأليف البشر، والبشر:

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ. وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[ابن ماجة عن أنس]

الإنسان ليس معصوماً، إذاً ما من كتابٍ على وجه الأرض إلا يؤخَذ منه ويُرَدُّ عليه، ما من كتابٍ على وجه الأرض إلا وفيه حقائقُ وأغلاط، لماذا؟ لأن المؤلِّف الغلط مركَّبٌ في طبعه، لكنك إذا تلوت كتاب الله عزَّ وجل، وهذه حقيقةٌ كُبرى إذْ يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا القرآن ليس من قِبَل البشر؛ بل من عند خالق البشر، لهذا ورد في بعض الأحاديث الشريفة أن:

((فَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[أخرجه الدرامي عن شهر بن حوشب]

كم هي المسافة كبيرة جداً بين المخلوق والخالق، بين الحادث والمُحْدِث، بين الحديث والقديم، بين إنسان سبقه عدمٌ وينتهي إلى عدم، محدودٍ في تفكيره، محدودٍ في علمه؛ وبين خالق البشر، فلذلك حينما نمسك بكتاب الله فهذا كتابٌ لا ريب فيه، وهذا كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا

كتابٌ هو نورٌ مبين، وحبل الله المتين، كل من اقتدى بهديه نجا وسعد، وكل من جعله خلف ظهره ساقه إلى النار.

الأسماء التي سمَّى الله بها نفسه أسماءٌ حسنى والله هو الاسم الجامع لكل هذه الأسماء:

قال تعالى:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)

من هو الله؟ صاحب الأسماء الحسنى:

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

[سورة الإسراء: 110]

فكل الأسماء التي سمَّى الله بها نفسه أسماءٌ حسنى، والله؛ هو الاسم الجامع لكل هذه الأسماء، أو هو عَلَمٌ على الذَّات كما يقول علماء التوحيد، أي أنَّ اسم اللطيف، مع اسم الرحيم، مع اسم القوي، مع اسم الغني، مع اسم الرزَّاق، مع اسم الوهَّاب، مع اسم الرافع والخافض، والمعزِّ والمذِّل، هذه كلُّها مجموعةٌ في كلمة: الله، وتعليقٌ طفيفٌ جانبي هو: أن بعض الأسماء الحسنى منها الضار والنافع، والمُذل والمعز، والخافض والرافع، قال علماء التوحيد: لا ينبغي أن تقول: الله ضار؛ بل يجب أن تقول: هو الضار النافع، هو المعطي المانع، هو الخافض الرافع، هو المعزُّ المذل، لماذا؟ لأن الشرَّ المَحْضَ لا وجود له إطلاقاً في أفعال الله تعالى، إذا ضرَّ الله عزَّ وجل فلينفع، وإذا أخذ فليعطي، وإذا أذلَّ فليُعِز، وإذا خفض فليرفع، وإذا قبض فليبسط، أسماء الله حُسنى، مثلها بشكلٍ أو بآخر؛ فكيف أن الطبيب الأب، أبٌ طبيبٌ يجمع بين الرحمة والعلم، إذا أجرى عمليَّةً لابنه فهو يفتح البطن ليستأصل المرض، الشرُّ موظَّفٌ للخير، ما يبدو لك شراً هو في حقيقته خير، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

إذا تحدَّث الله عن أفعاله استخدم ضمير الجمع لأن أفعاله تتجلى فيها كل أسمائه :

إذاً تنزيل هذا الكتاب من الله، من صاحب الأسماء الحسنى، من صاحب الصفات الفضلى، من الذات الكاملة، من الواجب الوجود، من العليم الحكيم، من العزيز الرحيم، من اللطيف الخبير، من الغني القوي، كلَّما ذكرت اسم الله عزَّ وجل فاستعرض أسماءه الحسنى، فكل أسمائه الحُسنى داخلةٌ في أفعاله، أي فعلٍ يفعله الله عزَّ وجل فيه كل أسمائه الحسنى، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة حينما يقول الله عزَّ وجل متحدِّثاً عن ذاته بضمير الجَمْع:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

[سورة يس: 12]

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً)

[سورة الإنسان: 23]

إذا تحدَّث الله عن ذاته استعمل ضمير المفرد، كأن يقول: " إنني أنا الله "، أما إذا تحدَّث الله عن أفعاله استخدم ضمير الجمع، لأن أفعاله تتجلى فيها كل أسمائه، وإذا تحدَّث الله عن ذاته استخدم ضمير المفرد، قال:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

ما معنى العزيز؟ قال علماء اللغة: العزيز الشيء النادر، أما إذا وُصِفَ الله بأنه عزيز فهو الواحد الأحد، الفَرد الصمد، الذي لا مثيل له، ولا شريك له، الواحد.

معنى العزيز و الحكيم :

قال علماء اللغة أيضاً: العزيز الشيء الذي تشتدُّ الحاجة إليه، أما إذا وصِفَ الله باسم العزيز فهو الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيءٍ، إذا وصفنا الشيء بأنه عزيز، يقول لك: هذه البضاعة عزيزة، أي تشتدُّ الحاجة إليها، أما إذا وصِفَت ذات الله جلَّ جلاله، إذا وصف الله ذاته بأنه عزيز معنى ذلك أن كل شيءٍ - وكلمة شيءٍ هي أشمل كلمةٍ تشمل كل شيء - أن كل شيءٍ يحتاجه في كل شيء، ويندر وجوده، أما إذا وصِفَ الله بأنه عزيز فهو الواحد الذي لا ثاني له، ولا مثيل له، ولا شريك له، ولا نِدَّ له، وإذا وصِفَ الله بأنه عزيز فهو الذي يصعُبُ الوصول إليه أو يستحيل الوصول إليه، لكن يمكن أن تصل إليه من دون أن تحيط به.

إذاً كلمة عزيز تعني أنه فردٌ، وأن كل شيءٍ بحاجةٍ إليه، وأن الإحاطة به مستحيلة، تصل إليه ولا تحيط به.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

(مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الحكيم الذي يضع كل شيءٍ في مكانه الصحيح، ومن أدلَّة وجود الله عزَّ وجل أن في الأرض أشياء متحرِّكة، نجدها في مكانها الصحيح، وكلُّكم يعلم أنه لا ترجيح بلا مُرَجِّح، فكل شيء في مكانه الصحيح معنى هذا أنه يوجد عقل أول، فمفتاح الكهرباء يوضَع في مكانٍ مناسب، لو وضِعَ في أعلى الحائط، نحتاج إلى سلَّم للوصول إليه، فهذا المكان غير حكيم، لو وضِع في أسفل الحائط نحتاج إلى انحناء، هذا

مكان غير حكيم، أما لو وجدته في مكانٍ قريبٍ من مستوى كَتِفِ الإنسان، ومن مستوى يديه فهذا المكان مرجَّح، من الذي جعله في هذا المكان؟ إنسان عاقل، فلا ترجيح بلا مرجِّح، كل ما في الكون يدلُّ على حكمةٍ بالغة.

دقّق في خلقه؛ وضع العينين في محجرين، وضع الأنف فوق الفم، وضع الفم وجعل حركته في الفك السفلي، وضع الأذنين جانبيتين، ولماذا أذنان؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا عينان؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا فمٌ واحد، ولسانٌ واحد؟ لماذا يدان ولماذا المفاصل؟ لو دقّقت في خلق الإنسان، أو في خلق الحيوان، أو في خلق النبات، لوجدت حكمةً ما بعدها حكمة.

هذه التفَّاحة حجمها مناسب، لونها مناسب، رائحتها مناسبة، قِوامها مناسب، نُضجها مناسب، أيام قطفها مناسبة، أي صفةٍ من صفاتها لو دقّقت فيها لوجدت أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، هو الحكيم، فصفة الحكيم دليلٌ قطعيٌّ على وجود الله عزَّ وجل، وعلى صفاته، وعلى أسمائه.

معنى كلمة الحق :

هذا الكتاب بيَّن ربنا عزَّ وجل أنه تنزيلٌ، نزل منجَّماً، من عند من؟ من الله خالق السماوات والأرض، من الله مُبدع الكائنات، من الله ذي الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى..

(مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

أي أنَّ هذا الكتاب من الله العزيز الحكيم، قال:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

ما معنى كلمة الحق؟ الحق هو الشيء الثابت، ما هو الشيء الثابت؟ هو الشيء الهادف، فأنت إذا بنيت جداراً بشاقولٍ، هذا الشاقول أخذ وضعه الكامل، فهذا الجدار لا يسقط لأن بناءه صحيح، نقول: بني الجدار بالحق، أي وفق أسسٍ صحيحةٍ، وفق قواعد ثابتة، لأنه بني بهذه الطريقة فهو لا يسقط، بُني ليبقى، فكل شيءٍ صحيح، وكل شيءٍ أساسه صحيح، وكل شيءٍ بني وفق قاعدةٍ صحيحة هذا هو الحق.

الله هو الحق، الحقيقة الأولى في الكون هي الله عزَّ وجل، فكل شيءٍ فعلته وفق توجيه الله، وفق منهج الله، وفق أمر الله هو شيءٍ صحيحٌ، ودائمٌ، فالحق هو الشيء الثابت، فأي خللٍ لابدَّ من أن يُكْشَف، أي مبدأٍ ليس صحيحاً، فالواقع لا يؤكّده، وهذا المبدأ إذاً سوف ينهار، لا يبقى إلا ما هو حق، إلا ما هو مرتبطٌ بالحق، إذاً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الله عزَّ وجل هو الحقيقة الكُبرى و ليس هناك حقيقة غيره :

أولاً: أنزلناه عليك بالحق، إنك أهلٌ لأن يُنزَّل عليك الكتاب، الله جلَّ جلاله اصطفى الأنبياء على عِلمٍ، فبالحق أنزلناه وبالحق نزل، أي هو حقٌ وقد أُنْزِلَ عليك بالحق، فهو الحق دائماً وفي القرآن حقائق، في القرآن قواعد، في القرآن سُنَن، في القرآن أوامر، في القرآن نواهٍ، في القرآن توجيهات، هذه كلُّها حق، الحق ملابس لها، معنى حق أنها صحيحة، وأن الواقع يؤكِّدها، وأنها تفسِّر الواقع، هي تفسِّره والواقع يؤكِّدُهَا، فإذا أردت أن تقرأ كتاباً لا خطأ فيه، ولا غلط، ولا تناقض، ولا خلل، ولا رَيْب، ولا شك، ولا نقص، ولا مبالغة، ولا اضطراب، ولا خللٍ فاقرأ القرآن..

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الحقُّ اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجل، فإذا قال الله شيئاً فكلامه حق لأن الواقع يؤكِّده، وكلامه يفسِّر الواقع، إذا سَنَّ الله شيئاً فهو حق، لأن تتالي الأيام، والشهور، والسنوات لا يمكن أن تنقض هذا الذي سنَّه الله عزَّ وجل..

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)

[سورة الأنعام: 34]

كلمة حق واسعة جداً، فالله عزَّ وجل هو الحقيقة الكُبرى، ليس هناك حقيقة غيره، تشريعه حق، أفعاله حق، كلامه حق، أوامره حق، نواهيه حق، الأهداف التي رسمها لنا هي الحق لأنها هي الواقعة، إذاً كل هذه المعاني يمكن أن تستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

فالإنسان حينما يقرأ كتاباً ثمَّ يكتشف أن فيه أغلاطاً كثيرة، أو حينما يُضلَّل ثم يصحو، أو حينما تتسرَّب إليه معلوماتٍ مغلوطة يبني على أساسها سلوكه، ثم يكتشف أنها مغلوطة، يصاب بخيبة أمل كبيرة جداً، أما إذا قرأ القرآن، وحلَّق فيه، واستنبط منه الأحكام، ونفَّذ توجيهاته، وائتمر بأمره، وانتهى عما عنه نهاه، يشعر بطمأنينة لأنه مع خالق الكون، مع الذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا يزول، مع الأزلي الأبدي، مع الحقيقة المُطلقة، مع الشيء الثابت، مع الشيء الهادف.

أروع تفسير للحق أن يُفْهَم بالطريقة المخالفة :

أروع تفسير للحق أن يُفْهَم بالطريقة المخالفة، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

خلقناهما بالحق، الحق إذاً مناقضٌ للعب، اللعب عملٌ عابث، الحق عملٌ جاد، عملٌ هادف، عملٌ له هدفٌ كبير، إذا لعبت فاللعب شيءٌ عابث، وشيءٌ طارئ، وشيءٌ زائل، لكنَّك إذا عملت عملاً جاداً، هذا الشيء عملته ليبقى، ووراء بقائه هدفٌ كبير، فكأن من معاني كلمة (الحق) الشيء الهادف، وحينما قال الله عزَّ وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

إذاً الحق عكس الباطل، الباطل الشيء الزائل، إذاً الحق الشيء الثابت والشيء الهادف، ثابتٌ خُلِقَ ليبقى ولا يزول أبداً، وله هدفٌ كبير، إذاً من هنا نستنبط أن هذا القرآن ما فيه من حقائق ثابتة، كلَّما تقدَّم العلم أثبت حقائق القُرآن، كلَّما تقدَّم العلم اقترب من حقائق القرآن، ما ورد في القرآن من أوامر، ومن نواهٍ، ومن تفاسير، ومن تبيين، ومن توضيح هو الحقُّ مئة في المئة، لأنه من عند الخالق.

أحياناً تشتري آلة معقَّدة، فمن هي الجهة الوحيدة التي إذا قالت لك: هذا المفتاح لهذا الهدف؟ من هي الجهة الوحيدة التي يُعدُّ كلامها صحيحاً مئة في المئة؟ إنها الجهة الصانعة، لذلك إذا اقتنيت آلةً وأردت أن تعرف ملابساتها، وطريقة عملها، وطريقة صيانتها، فعليك بتعليمات صانعها، وأنت إذا قرأت القرآن فأنت مع تعليمات الصانع الخالق، مع النشرة التفصيليَّة البيانيَّة لسر الكون، ولأسباب الخلق، ولأهداف الخلق.

ما دام هذا القرآن حقٌ، أو ما دام هذا القرآن حقَّاً من عند الله عزَّ وجل بكل ما فيه فعليك أن تعبده، قال الله تعالى:

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

المعنى الواسع لكلمة عبادة :

قبل أن نقول له: أخلص له الدين، نقول له: اعبد الله مخلصاً، العبادة أيها الأخوة انصياع الجوارح لأمر الله، الإنسان له ظاهر وله باطن، له جوارح وله قلب، له شيء مُعْلَن وله شيء مُضْمَر، عبادة المضمر، عبادة السر، عبادة القلب هي الإخلاص، وعبادة الجوارح طاعة ظاهرة لله عزَّ وجل، فالشيء العظيم، الشيء الذي إذا وصلت إليه وصلت إلى كل شيء، المرتبة التي إذا بلغتها بلغت كل شيء، السلوك الذي إذا فعلته حقَّقت من خلاله وجودك، واثبت ذاتك، وحقَّقت المراد الإلهي من خلقك هو أن تعبد الله.

يا أيها الأخوة الأكارم، ينبغي أن نفهم هذا الأمر فهماً موسَّعاً، سبحان الله؛ كيف تقلَّص وأمر هذا الدين إلى صومٍ وصلاةٍ وحجٍ وزكاة، مع أن هناك في الدين آلاف الأوامر والنواهي؟ أن تعبد الله عزَّ وجل أي أن تتبع منهج الله الذي نزَّله على النبي عليه الصلاة والسلام، وكلُّكم يعلم أنك إذا قرأت أحكام الفقه،

وجدت الفقه يدخل معك في كل حياتك، ويدور معك في كل حركاتك وسكناتك، بدءاً من علاقتك بنفسك، إلى علاقتك بربِّك، إلى علاقتك بجسدك، إلى علاقتك بأهلك، إلى علاقتك بأولادك، إلى علاقتك بأصولك وفروعك، إلى علاقتك بجيرانك، إلى علاقتك بزملائك، إلى علاقتك بالمخلوقات - بالبهائم - إلى علاقتك بالنبات، إلى علاقتك بمجتمعك، إلى علاقتك بمن حولك، بمن فوقك، بمن دونك، هذا منهج الله عزَّ وجل، فكلمة..

(فَاعْبُدِ اللَّهَ)

تعني أنَّ عليك أن تطيعه في كل ما أمر، وأن تدع كل ما نهى عنه، لا تسمَّى عابداً إلا إذا أخذت الإسلام كلَّه كلاً متكاملاً، أما أن تأخذ منه ما يعجبك وأن تدع ما لا يعجبك، وأن تأخذ من الإسلام بعض العبادات التي لا تكلّفك شيئاً، وأن تقيم على بعض الشهوات التي حرَّمها الله عزَّ وجل، فليست هذه عبادة الله عزَّ وجل.

عبادة الله عزَّ وجل: طاعةٌ طوعيَّة، تطيعه عن حبٍ، وعن حريَّة اختيارٍ، لذلك فرَّق العلماء بين العَبيد وبين العِباد.

الفرق بين العَبيد و العِباد :

العبيد هم المقهورون، كلُّنا عبيدٌ لله، حياتنا متوقّفة على هذه الأنفاس، فلو انقطعت لانتهت حياتنا، حياتنا متوقفةٌ على هذا القلب، فلو توقَّف لانتهت حياتنا، حياتنا متوقّفة على لُقيماتٍ نأكلها، على كأس ماءٍ نشربه، حياتنا متوقفة على أهلٍ نعيش معهم، على أولاد نستعين بهم حينما نكبر، إذاً حياتنا متوقفةٌ على إمداد الله لنا، فنحن عبيد، العبيد مقهورون بالعبوديَّة.

ولكنَّ المؤمنين فضلاً عن أنهم عبيدٌ لله هم عِباد الرحمن، عرفوه فأقبلوا عليه بمحض اختيارهم، عرفوه فأحبُّوه فأطاعوه، عرفوا عظمته فخضعوا لها، عرفوا كماله فأحبُّوه، عرفوا أنه هو الواحد الأحد فأخلصوا له، هذه العبادة، العبادة شيء والعبوديَّة شيء.

أن تكون حياتك متوقّفة على إمداد الله فأنت عبدٌ لله، وجمع العبد عبيد، أما أن تتعرَّف إليه، وأن تقبل عليه طائعاً، أن تقبل عليه مختاراً، أن تأتيه بمبادرةٍ منك، أن ترى وحدانيَّته فتُخلص له، أن ترى جماله فتحبَّه، أن ترى كماله فتميلُ إليه، هذه عبوديَّة، وجميع هؤلاء الذين يعبدونه بهذه الطريقة عِباد وليسوا عَبيد، لذلك كل الخلق عبيدٌ للرحمن، ولكن عباد الرحمن قلائل، هم الذين عرفوه فأقبلوا عليه.

إذاً أنت عليك أن تعبده في الظاهر، وأن تُخلص له في الباطن، القلب يعبده بالإخلاص، والجوارح تعبده بالطاعة، طاعةٌ في الظاهر وإخلاصٌ في الباطن، هذا هو سرُّ وجودك، وهذه هي مهمَّة وجودك،

وهذا هو الهدف من وجودك، وإذا ارتقيت إلى هذه المرتبة ارتقيت إلى مرتبة ما بعدها مرتبة، وإذا ارتقيت إلى مرتبة العبوديَّة فقد حقَّقت ذاتك، إذا ارتقيت إلى مرتبة العبوديَّة فقد حقَّقت المُراد من خلقك.

أيها الأخوة الأكارم، النفس الإنسانيَّة لا ترتاح إلا إذا شعرت أنها في مجال العبوديَّة، لذلك روي عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أن الله جلَّ جلاله حين الإسراء والمعراج، أو عندما بلغ سِدرة المنتهى قيل له: اطلب يا محمَّد، فقال عليه الصلاة والسلام: اللهمَّ اجعلني عبداً لك، أي أن العبودية أعلى مرتبة.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

وأنت الآن بإمكانك أن تصل إلى أعلى مرتبةٍ، ولا سبيل إليها إلا بالطاعة لله عزَّ وجل، أنت كعبدٍ عليك أن تعبد الله، لذلك هناك آيات كثيرة تحث على العبادة، قال الله عزَّ وجل:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

المؤمن حينما عرف الله عزَّ وجل أضحت لديه قضيَّةٌ واحدة وهي أن يطبق أمر الله :

أحياناً الإنسان يتطلَّع إلى مرتبة فوق مرتبة العبوديَّة، يُناقش، ويحاكم، وينتقد، من أنت؟ أنت عبدٌ لله، أنت عليك مهمَّةٌ واحدة هي أن تعبده، اعبده وكفى، اعبده وتنتهي مهمَّتك حينما تعبده، فإذا عبدته انتظر فضله، لذلك (بَلْ) حرف إضرابٍ تنفي ما قبلها وتثبت ما بعدها:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

المؤمن حينما عرف الله عزَّ وجل أضحت لديه قضيَّةٌ واحدة، هذه القضيَّة التي تشغله، وتقلقه، ويهتمُّ لها، إنما هي أن يبحث دائماً عن أمر الله، يبحث عن حكم الله، ما الذي يُرضي الله أن يفعله؛ فيما إذا تزوَّج، إذا باع، إذا اشترى، إذا سافر، إذا أقام، كل نشاطٍ من نشاطاته، كل حركةٍ من حركاته، يبحث فيها جميعها عن أمر الله ليطبِّقه، هذه مهمَّتك..

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا طاعتهم له :

قال تعالى:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا طاعتهم له، العباد يتفاوتون فيما بينهم بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة فقط.

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

لو أن الله عزَّ وجل قال: الدين له، لكانت العبارة تؤدي معنىً عاماً فقط، أما (له الدين) فيها قصر، أي أن خضوع الإنسان لا ينبغي أن يكون لغير الله، لأن غير الله ليس مؤهَّلاً، لأن غير الله ضعيف، لأن غير الله جاهل، لأن غير الله لا يسع العباد إطلاقاً، يجب أن تعبُد من إذا سألته أجابك، من إذا استعنت به أعانك، من إذا ناجيته سمِعك، من إذا طلبت منه أعطاك، يجب أن تعبُد الغني، أن تعبد القوي، أن تعبد القديم، أن تعبد الأبدي، أن تعبد الإله الواحد الذي لا إله غيره؛ أما إذا عبدت مخلوقاً ضعيفاً كالمستجير من الرمضاءِ بالنار، وإذا عبدت جهة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً فلأن لا تملك لك شيئاً فمن باب أولى.

النفس البشرية ينبغي ألا تكون إلا لله :

الآية دقيقة المعنى جداً:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ)

أي أن الدين الحق والخضوع لا يكون إلا لعظيم، الخضوع للقوي، وليس في الكون قوياً إلا الله، الخضوع للعليم والله هو العليم، الخضوع للحكيم والله هو الحكيم، الخضوع للمهيمن، للجبَّار، للقهَّار، أسماء الله الحسنى كلُّها هي في مجموعها كلمة الله، إذاً:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

له الدين:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

كلمة: ألا لله الدين الخالص، أي له الخضوع كله، لو أنك خضعت لإنسان ضيَّعت نفسك، واحتقرت نفسك، هذه الجوهرة الثمينة والنفس البشرية ينبغي ألا تكون إلا لله، فشبابك ينبغي ألا يفنى إلا في طاعة الله، عِلمك ينبغي ألا يكون لغير الله، مشاعرك ينبغي ألا تكون لغير الله، ولاؤك ينبغي ألا يكون لغير الله، وكذلك مشاعرك، إخلاصك، طاعتك، شبابك، عمرك، مالك، لأن أية جهةٍ تخلص لها هذه الجهة ضعيفة وفقيرة، وقد تكون لئيمة، لا تعرف لك قدراً، ولا تعرف لعملك قيمة، فإذا عرفت لا تستطيع أن تكافئك..

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

قس عليها كل شيء، فالجهة التي هي من دون الله لو قدَّرت عملك هي جهةٌ ضعيفة وأنت ضعيفٌ مثلها، لا تملك لك نفعاً ولا ضراً، لذلك:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

خضوع النفس ينبغي ألا يكون لغير الله :

هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)

[سورة المدثر: 56]

ليس هناك إنسان أهلٌ لأن تطيعه، ماذا يقول لك إذا أطعته؟ شكراً لك، هذه الكلمة ماذا تنفعك؟ لو أنك أفنيت عمرك من أجله، فماذا بإمكانه أن يفعل ليكافئك؟ هل بإمكانه أن يؤخِّر أجلك؟ لا يقدر، هل بإمكانه أن يصرف عن إنسانٍ مرضاً ساقه الله إليه؟ لا يقدر، هل بالإمكان أن يطيل عمره؟ لا يقدر، هل بالإمكان أن ينجيه من عذاب الله؟ لا يقدر، إذاً أنت علاقتك مع الله، فالدين خضوع النفس ينبغي ألا يكون لغير الله، أن تخضع لمخلوق، أن ترضي مخلوقاً، أن تخلص لمخلوق، أن تَهَبَ المخلوق حبَّك وولاءك وطاعتك، أن تفني من أجله شبابك، أن تنهي من أجله عمرك!! هذا المخلوق هو أقل من أن يستحقَّ ذلك..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

أي أن الجهة التي تستحقُّ أن تكون أنت لها هي الله، فعمرك، وشبابك، ومالك، وفكرك، وعلمك، وعضلاتك، ووقتك، الجهة التي إذا وهبتها كل شيء أعطتك كل شيء هي الله عزَّ وجل، إذا وهبتها كل ما عندك أعطتك سعادةً في الدنيا وجنَّةً إلى أبد الآبدين هي الله عزَّ وجل..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

اللهُ عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم وأن يطهِّركم لتسعدوا في جنَّته فالله له أمر ونهي:

هذه الدعوى الفارغة، هذه الفلسفة الناقصة والنظرة الزائغة التائهة لهؤلاء الأصنام:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

هذه فِرْيَةٌ وأكذوبةٌ فنَّدها الله عزَّ وجل، لأن الإنسان أحياناً يفلسف شِرْكَه، يقول: هؤلاء نحن نعبدهم حتى نتقرَّب إلى الله بهم، قال تعالى حكاية عنهم:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

لماذا يتَّجه الإنسان لغير الله؟ هل من سبب؟ لأن غير الله عزَّ وجل لا يطلب منك إلا الولاء، ثم افعل ما تشاء، أعلن له الولاء يرضى عنك، إن أعلنت له الولاء وفعلت ما تشاء أنت وغيرك، عندئذٍ يكثر أتباع من هم من دون الله عزَّ وجل فيسعون كما يسعى القطيع ويرضون كما يرضى، أما الله عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم، يريد أن يطهِّركم لتسعدوا في جنَّته، فالله له أمر ونهي، لا يرضى عنك إلا إذا كنت مستقيماً، لا يرضى عنك إلا إذا كنت مُنصفاً، لا يرضى عنك إلا إذا كنت محسناً، لا يرضى عنك إلا إذا كنت كاملاً، لذلك السير في ركاب الناس سهل جداً، هذا الشخص متى يرضى عنك؟ إذا أعلنت له الولاء، وافعل بعدها ما تشاء فيرضى عنك، لكن الله عزَّ وجل يعلم السرَّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، لا يرضى عنك إلا إذا كنت كاملاً، إلا إذا كنت مستقيماً، فلذلك:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

فهذه دعواهم وهم فيها كاذبون.

اللهَّ عزَّ وجل أعطى الإنسان فكراً ليرقى به إلى الله :

قال تعالى:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

أي سوف يحكم بينهم، سوف تنطق جوارحهم بأعمالهم، إن اللهَّ عزَّ وجل أعطى الإنسان فكراً ليرقى به إلى الله، ليتعرَّف به إلى الله، فلمَّا أعرض عن الله استخدمه في فلسفة الباطل، في تزيين المُنْكَر، في تغطية الانحراف، في فلسفة الكفر والشِرك، فهؤلاء يوم القيامة يختِمُ الله على أفواههم، ويأمر جوارحهم وجلودهم أن تنطق بأعمالهم، فلذلك إذا كان يوم القيامة كان الأمر مختلفاً عما كانوا عليه في دنياهم.

إدانتهم من أنفسهم:

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

إذاً هؤلاء بهذه الدعوى كاذبون، وبهذه الدعوى كافرون، الإنسان أحياناً يفلسف الشِرْك، يفلسف عبادة غير الله بأنه (نعبدهم ليقرِّبونا)، قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

هو كاذبٌ بهذه الدعوى، كافرٌ بالله عزَّ وجل.

تنزه الله سبحانه عن الزوجة والولد :

قال تعالى:

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

طبعاً هذا شيء افتراضي، لو أن الله عزَّ وجل أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلُق ما يشاء، ولكنَّه تنزَّه عن الزوجة والولد.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 1-4]

هو نزَّه نفسه عن ذلك، فأي ادعاءٍ أو أي اعتقادٍ بأن له ولداً من خلقه، هذا كفرٌ صريحٌ يجب أن نعرفَ حجمه..

(سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

في درسٍ قادمٍ إن شاء الله عزَّ وجل نبدأ بقوله تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

أي أننا من خلال هذه الآيات التي تمَّ شرح بعضها، فالذي ينبغي أن نقف عنده هو أن نعبد الله مخلصين، من الداخل إخلاص، من الخارج طاعة، فإذا أطعت الله عزَّ وجل في كل ما أمر به، وفي كل ما نهى عنه، فقد عبدته، وإذا أردت بهذه الطاعة وجهه الكريم فقد أخلصت له، وإذا فعلت ذلك حقَّقت

عبوديَّتك لله عزَّ وجل، وإذا فعلت ذلك حقّقت المُراد من وجودك، وإذا فعلت ذلك نِلتَ خيري الدنيا والآخرة، وإذا فعلت ذلك سعدت في الدنيا وفي الآخرة.

المؤمن متوحِّد أما الفاسق فمُبَعْثَر ومشتَّت :

مركز الثِقل في الآيات السابقة..

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

والتعقيب المهم..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

أي ينبغي ألا تدين لغير الله، ينبغي ألا تخضع لغير الله، ينبغي ألا تتجه لغير الله، ينبغي ألا تُفني شبابك لغير الله، ينبغي ألا تَتَعلّم لغير الله، ينبغي ألا تُعَلّم لغير الله، ينبغي ألا تكون لك أهدافٌ بعيدةٌ عن إرضاء الله عزَّ وجل، هذا هو الإيمان، هذا هو التوحيد، التوحيد أن تتوحَّد وجهتك، وأن تتوحَّد نواياك، وأن تتوحَّد أعمالك كلُّها لهدفٍ واحد وهو الله، لذلك قال بعض العلماء: " إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ". هذا هو الدين، والإنسان إذا وحَّد، وإذا جمع طاقاته كلها، وصبَّها في حقل واحد، فعندئذٍ يرتاح ويحقق غاية وجوده.

المؤمن متوحِّد، الفاسق مُبَعْثَر، مشتَّت، الحديث القدسي الشريف:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

فليس بحياة الناس اثنينيَّة، بل توحُّد، في عملك، وزواجك، وتجارتك، ودراستك، وعنايتك بجسمك، وتربية أولادك، وحتى وقت لهوك هذا كلُّه وفق منهج الله، كله في سبيل الله، إن أعطيت وإن منعت، إن رضيت وإن غضبت، إن وصلت وإن قطعت، كل حركاتك، وكل سكناتك المؤمن الصادق يبتغي منها وجه الله عزَّ وجل، أعود وأكرر المؤمن موحَّد، يعيش في انسجام، في راحة نفسيَّة، ليس لديه تبعثر، ولا تشتُّت، لأن شِرك مضنٍ وعاقبته ضياع ثم بوار.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

على الإنسان أن يعقد العزم على شيئين؛ طاعة الله والإخلاص له :

وبعد: المؤمن حينما يتعرَّف إلى الله، ويرى من كمالاته التي لا نهاية لها، وحينما يعقد العزم على طاعته في كل شيء، وهو إذا وصل إلى هذه وتلك - إلى معرفته وطاعته - فالتعبير الشائع: فتح الله على قلبه، ووصله الله عزَّ وجل، فإذا وصله وصل إلى كل شيء، سعد بكل شيء، رضي عن كل شيء، القصْد والغاية أن تعيش هذه الحياة هادفاً، ذا هدف يسمو بك ويرقى، أن تعيش بسلامةٍ وسعادة، وأن يكون لك عملٌ يصلُح للعرض على الله عزَّ وجل، فلنعقد العزم على شيئين، على طاعته والإخلاص له، وهذا واجبنا نحو ذواتنا وهو حق لله علينا. فإذا فعلنا الذي علينا عندئذٍ كافأنا الله بالذي لنا، كافأنا بخيرٍ ما بعده خير، توفيقٍ ما بعده توفيق، سعادةٍ ما بعدها سعادة، استقرارٍ ما بعده استقرار، توازن ما بعده توازن، سرور ما بعده سرور، هذا الذي عناه الله عزَ وجل بقوله:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وهذا الذي عناه الله بقوله:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

وكذلك:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (02-20): تفسير الآية: 3- 4، الكون والآيات الكونية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات الكونية التي تحدث عنها القرآن تأخذ حَيِّزاً واسعاً جداً في كتاب الله :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة الزُمَر، ومع الآية الرابعة، الآية الرابعة أيها الأخوة آية قرآنية تتحدث عن الكون، وقبل أن نمضي في شرح هذه الآيات بتوفيق الله وبعونه، أحب أن أقف قليلاً عند الآيات الكونية.

يا أيها الأخوة الأكارم، لو قرأتم القرآن بأجزائه الثلاثين لوجدتم أن حجم الآيات الكونية حجمٌ كبير، تأخذ الآيات الكونية التي تحدث عنها القرآن حَيِّزاً واسعاً جداً في كتاب الله، ألم يسأل أحدكم هذا السؤال: لماذا ذكّرنا الله بهذه الآيات؟ ما الهدف من ذلك؟ الإنسان العادي العاقل إذا تكلم فلكلامه قصدٌ واضح، ربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ*خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

الآيات الكونية في القرآن الكريم ما ذكرها الله تعالى إلا لتكون وسيلة لمعرفته سبحانه:

سؤالٌ كبير وسؤالٌ خطير: لماذا هذه الآيات الكونية؟ الجواب البسيط هو: أن الله سبحانه وتعالى لا يدرَك بالحواس، قال تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام: 103]

ولكن العقول تتعرف إليه، الشيء اللطيف في الموضوع أن الشيء إذا ظهر وآثاره فسبيل الإيمان به الحواس، هذا اليقين الحسي، إذا رأيت عينَ النار ودخانها يكفي أن تنظر إليها وتقول: هذه النار، أما إذا غابت ذات الشيء وبقيت آثاره، فسبيل الإيمان به الاستدلال العقلي، ربنا جل جلاله ذاته غابت عن حواسّنا، ولكن آثاره بادية لنا، آثاره في كل شيء، في أنفاسك، في تفكيرك، في أحاسيسك، في طعامك، في شرابك، في مسكنك، في لباسك، في أهلك، في أولادك..

في كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد

* * *

هذه كلها تنطق بوجوده، تنطق بكماله، تنطق بوحدانيته، تنطق بأنه هو الخالق، هو الرب، هو المسيِّر، لذلك لما ذكر ربنا عز وجل هذه الآيات الكونية في قرآنه الكريم، ما ذكرها إلا لتكون وسيلة لمعرفة الله، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

فما من طريقٍ إلى الإيمان بالله إلا من خلال آياته، لأن ذات الله غابت عن حواسِّنا، قال:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي)

[سورة الأعراف: 143]

أي أن طبيعتك المادية لا تحتمل أن تراني.

الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى :

قال تعالى:

(وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

[سورة الأعراف: 143]

إذاً لا سبيل إلى معرفة الله عن طريق الحواس، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، ليس بشيءٍ ولا متبَعِّضٍ ولا متجزئٍ، فهناك وصف لله عظيم جداً، لكن هذا الكون يدل عليه، ربما كان هذا الكون إن صح التعبير مظهراً لأسماء الله الحسنى، ربما تجسَّدت إن صح التعبير أسماء الله الحسنى بهذا الكون، فأنت إذا تأمَّلت في الكون وصلت إلى الله، الأجانب تأملوا في الكون، لكن ما وصلوا إلى الله، لأنهم حينما تأملوا في الكون أرادوا النفع المادي، هدفهم مادي، وصلوا إلى أهدافهم بأعلى درجة، ولكنَّهم ما عرفوا الله، لكن المؤمن إذ تأمل في الكون لا ليخترع اختراعاً ويسجله في دائرة حفظ المُلكية الأدبية، وليربح منه ألوف الملايين، لا، ولكن يتأمل في الكون ليتعرَّف إلى خالق الكون، لأنك إذا تعرَّفت إلى خالق الكون صرت إنساناً آخر، قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

[سورة طه : 123]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

فهل تريد أكثر من ذلك؟!!

التدين فطري :

ألا يضل عقلك، ألا تشقى نفسك، وألا تندم على ما فات، وألا تخشى مما هو آت؟ هذه أعلى درجة بالسعادة النفسية، ألا يضل عقلك، وألا تشقى نفسك، وألا تندم على ما فات، وألا تخشى مما هو آت.

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

[سورة طه : 123]

كم هناك من ضلالات في البشر؟ ملايين مُمَلينة - إن صح التعبير- تعبد البقر من دون الله، ملايين مُمَلْيَنَة تعبد آلهة نُحِتَت من الحجر في شرق آسيا، ضلالاتٌ وأوهامٌ، التدين فطري أيها الأخوة، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه)

[سورة الروم: 30]

إقامة وجهك للدين حنيفاً هي الفطرة، أي أن نفسك مهما تحركتْ، مهما سعيت إلى السعادة لن تجدها إلا بالله، ربما لاح لك في أول الحياة أن المال هو كل شيء، ربما بدا لك أن المرأة هي كل شيء، ربما ظننت أن العلو في الأرض هو كل شيء، ولكن في منتصف مسيرتك في الحياة ترى أن المال شيءٌ وليس كل شيء، وأن اللذة شيءٌ وليست كل شيء، وأن العلو في الأرض شيءٌ وليس كل شيء، ولكن إذا اقتربت ساعة المُغادرة، المغادرة بلا عودة، إذا اقتربت ترى أن المال ليس شيئاً، وأن اللّذة ليست شيئاً، فالبطولة أن ترى هذا في مقتبل حياتك، وإذا كانت هذه الرؤية لا بُدَّ منها في وقتٍ ما، فالبطولة أن تراها في وقت مناسب، أن تراها وأنت مقبلٌ على الدنيا، حتى تتعرف إلى الطريق الصحيح.

تعاملنا مع الكون يجب أن يكون تعاملاً نفعياً وتعاملاً معرفياً :

إذاً ربنا سبحانه وتعالى جعل الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، فحيثما وَرَدَ في القرآن ذِكْرُ الكون فالقصد الكبير أن تتأمل في الكون، لا من أجل أن تنتفع منه كشأن أهل الكفر، إذا تأمَّلت من أجل أن تنتفع منه فلا مانع إذا اقترن النفع مع الهدى، والذي يدل على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما نظر إلى هلال، قال:

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[رواه أبو داود عن قتادة]

يا الله! أي أن هذا الهلال يرشدني إلى الله وينفعني في الدنيا، وقِس على الهلال كل شيء، ابنك الذي أمامك، خيرٌ لك ينفعك إذا شاء الله ذاك، وهو يرشدك إلى الله عزَّ وجل، كأس الماء، رغيف الخبز، الوردة التي خلقها الله إكراماً لك، تشم رائحتها، تنتعش برائحتها الفوَّاحة، وتدلُّك على الله.

ولكن أيها الأخوة الأكارم، أتمنى على الله أن تقنعوا أن الهدف الأول من خلق الكون هو أن تتعرف إلى الله عن طريق التفكر فيه والاعتبار منه، الهدف الثاني هو أن تستفيد منه، لو أن الإنسان استفاد من الكّون من دون أن يتعرف إلى الله عزَّ وجل، ماذا أقول لك، لا أستطيع أن أعبر لك عن فكرة دقيقة، لكني أقول: لو معك شيك بمليار، وأنت استخدمته كمسودة ثم مزَّقته، يا ترى هذه الورقة الصغيرة أيهما أشد قيمةً أن تأخذ ثمنها مليوناً أم أن تستخدمها كورقة مسودة ثم تمزِّقها؟ أنت حينما تنتفع بالكون ولا تتعرف إلى الله من خلاله فحالك كمن استخدم الشيك كمسودة، هذا النفع محدود في الدنيا، حتى ولو وصلت إلى القمر، لو غُصت في أعماق البحار، لو ملكت أعظم الأسلحة، لو تحكَّمت بالعالم كله، أليس هناك موت؟ سبحان من قهر عباده بالموت، أليس هناك نهاية؟ لا بد من نهاية، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

إذاً هذا الكون نتعامل معه بنوعين من التعامل؛ تعامل نفعي، وتعامل مَعرفي، التعامل النفعي تنتفع به ما دُمت حياً ترزق، تنتفع به ما دام قلبك ينبض، تنتفع بطعامه، بشرابه، بحدائقه، بمبانيه، بمقاصفه، بجباله الخضراء، بسواحله الجميلة، تنتفع به، تنتفع بهذه المُخترعات، مركبة فارهة، يَخْت جميل، طائرة ضخمة، مقاصف جميلة، بساتين، قصور شاهقة، وسائل حديثة، تنتفع به كله، ولكن ماذا بعد الموت؟ هنا المشكلة، لو أن الحياة الدنيا هي كل شيء، لكان الذين انتفعوا بالكون هم أذكى الأشخاص، ولكن لأن الحياة الدنيا ظلٌ زائل، وعاريةٌ مستردة أمدها قصير، وشأنها حقير، فمن أقبل عليها إقبال النهم، من اتَّجه إليها اتجاه اللهفان، فوجئ بعد نهاية المطاف أنها ليست كل شيء، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان، هي الحياة الحقيقة.

ثلاث طرقٍ سالكةٍ إلى الله عزَّ وجل طريق خلقه وطريق كلامه وطريق أفعاله :

ما قولك أن يقول الإنسان عند الموت:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر: 24]

لي قريب ترك ثروةً طائلة، قال لامرأته قبل أيام من موته: أقبلنا على التافِه وتركنا الثمين. متى عرف ذلك؟ بعد فوات الأوان، الثمين أن تعرف الله، الثمين أن تغتني حياتك بالعمل الصالح، يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً، والله سؤال خطير وسؤال محرج، يا ربي، أنت إذا أوقفتني أمام خلقك، أنت إذا أوقفتني أمام هؤلاء المؤمنين الذي باعوا أنفسهم في سبيل الله، وسألتني: ماذا قدَّمت؟ ماذا فعلت؟ ماذا تركت؟ كل شيءٍ تفعله للدنيا يبقى في الدنيا.

يا أيها الأخوة الأكارم، لماذا الإيمان؟ من أجل العمل، ولماذا العمل؟ من أجل السعادة، أنت لا تسعد إلا مع الله، والله لا يقبلك إلا بعملٍ صالح..

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 32]

ولن تعمل صالحاً إلا إذا آمنت به، وكيف تؤمن به؟ من فهمك لهذه الآيات التي بثَّها الله في الكون، إذاً يمكن أن تؤمن بالله من خلال خلقه، ويمكن أن تؤمن به من خلال أفعاله، آياته الكونية، أو آياته التكوينية، ويمكن أن تؤمن به من خلال كلامه، ثلاث طرقٍ سالكةٍ إلى الله عزَّ وجل، طريق خلقه، وطريق كلامه، وطريق أفعاله.

لا زال الفكر حتى الآن عاجزاً عن إدراك ذات الله تعالى :

ربنا عز وجل في آياته القرآنية حَدَّثَنَا عن آياته الكونية، قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

قبل أن نقول بالحق، نتوقف عند كلمتي (السماوات والأرض) أي أنك إنسان مكرم، أنت المخلوق الأول، أنت الإنسان الذي أعطاك الله قوةً إدراكية، فهذا كأس الماء لا يدرك، تشربه ولكنه لا يدرك، هذه الطاولة تستعملها ولكنها لا تدرك، الحيوان كذلك لا يدرك، هرةٌ صغيرة في بيتك مثلاً، كم تعرف من قضايا العالم؟ يا ترى هذه الأزمات الطاحنة بالعالم هل عندها علم بها؟ أطعمها قطعة لحمٍ رضيت وانتهى الأمر، هذه هي حالة الحيوان، خُلِقَ ليأكل ويشرب، المَلَك خلق ليسبِّح، لكنك أنت أيها الإنسان رُكِّبْتَ من عقلٍ وشهوة، فحينما أعطاك هذه القوة الإدراكية، فشيءٌ مؤلمٌ جداً أن تستخدم هذا الفكر البشري الذي يعدُّ أعقد ما في الكون فيما لا نفع فيه - أنا أعني ما أقول - إنه أعقد ما في الكون، رغم ذلك فلا زال هذا الفكر عاجزاً عن إدراك ذاته.

ثم إن هناك أسئلة كثيرة، اسألوا عنها الأطباء، لا يزال تحول الصوت مبهماً مجهولاً، أنت سمعت صوتاً، هذا الصوت تطرَب له، وذاك الصوت يكاد يخرجك من جلدك، فكلاهما ذبذبات، وكلاهما موجات، حتى الآن العلم عاجزٌ عن أن يدرك كيف تفرق الأذن بين النغم وبين الضجيج؟ تدخل إلى

شلالٍ، صوتٌ صاخب ولكنك تطرب له، تدخل إلى معملٍ تشعر كأن وخزاً في أذنك، هذا صوت وهذا صوت، العلم لا يزال يحبو، لا يزال كما قال بعض العلماء: " لم تبتل بعد أقدامنا ببحر العلم ".

كيف يتحول هذا الإحساس الكيميائي إلى ذوْق؟ هذا الطعام طيب، هذه النكهة طيبة، حتى الآن ليس معروفاً، كيف تتذكر؟ فرضيَّات، مثلاً إن في ذاكرتك الشمية ثمانمئة رائحة، تشم هذه الرائحة، تفكر لعدة ثوان ثم تقول: هذه رائحة الياسمين، أو فيها يانسون، أو في هذه الرائحة مثلاً عنبر، من قال لك ذلك؟ قال بعض العلماء: إن هذه الرائحة التي شممتها قد عرضت على ثمانمئة رائحةٍ في أقل من لمح البصر، ثم أثناء العرض توافقت ما يشبهها، وهنا تقول: هذه ياسمين.

أحياناً تنظر إلى رجل قد رأيته قبل أربعين عاماً مرةً واحدة، تقول له: أنت فلان، فما هذه الذاكرة؟ كم تتسع؟ إلى صور، إلى مشمومات، إلى محسوسات، إلى مُدركات، سبعون مليار صورة، قال بعض العلماء: هو الحد الأدنى لذاكرة الإنسان، سبعون ملياراً، فهذه القوة الإدراكية هل سخرتها لتتعرف بها إلى الكون؟!!

البطولة أن تتعرف إلى الله من خلال الفكر :

هذا الفكر - لكي لا أخرج عن الموضوع - أليس من الجهل والعار أن تستخدمه لهدفٍ تافه؟ فإنسان يشتري كمبيوتراً، ثمنه خمسة وثلاثون مليوناً يستعمله طاولة يضع عليها جهاز الهاتف؟! لا، قد يقوم مقامه طاولة ثمنها خمسة آلاف أو أقل، خمسة وثلاثون مليوناً تجمِّدها من أجل أن تضع فوقها جهاز هاتف! هذا إنسان غير عاقل، يبدو أن هذا المثل صارخ وحاد، لا، الذي يستخدم فكره وهذه الطاقة الإدراكية الكبرى في كسب المال فقط، أو في الاحتيال على الناس، أو في الإيقاع بينهم، أو في السطو على أموال الناس، أو في السيطرة عليهم، من دون أن يستخدمه في معرفة الله، فو الله أنه مغبون، ألم يسمِّ الله يوم القيامة بيوم التغابن، ما هو يوم التغابن؟ الإنسان الذي قَصَّرَ في معرفة الله يشعر أنه مغبون، فالإنسان يومئذٍ يبكي ولو أجريت السفن في دموعه لجرت..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي* يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ*)

[سورة الحاقة: 25-33]

أي أن هذا الفكر لم يستخدمه في معرفة الله، استخدمه في كسب المال، في الإيقاع بين الناس، في الاحتيال، استخدمه في السيطرة على العالم، ليس هذا هو الذكاء، البطولة أن تتعرف إلى الله، لو ملكت العالم كله فالربح محدود، ولو كان العالم كله يأتمر بأمر رجلٍ واحد لا بد من أن يموت، ولا بد من أن يحاسب على كل دمعةٍ سالت لدى الشعوب المقهورة، وعلى كل قطرة دمٍ سالت من أجل كسب الأموال، والثروات، والسيطرة، لذلك المؤمن العاقل حينما يمتن الله عليه بالهداية، يرى أنه قد حصَّل شيئاً ما حصَّله أحدٌ من أهل الدنيا، ما قاله بعض الأئمة رضوان الله عليهم: " لو يعلم الملوك ما نحن فيه - والله لم يبالغ، لا والله - لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف ".

الإنسان في حياةٍ إعدادية لحياةٍ أبدية :

تتعرف إلى خالق الكون، وتهتدي بهداه، وتحقق الهدف الذي من أجله خُلِقت، وأنت في طريقك إلى الجنة، هذا هو المُلْك، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

إذا فلان مساحة بيته ألفا متر، فما هذا الكلام، ليس من المعقول؟ ويقع وسط غابات مساحتها عشرة آلاف متر مربع، وله بكل مكان قصر جميل، وله يخت، ما هذا المُلك العظيم؟ ربنا العظيم قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

فعندما تؤمن فلك عند الله ملكٌ كبير، الله عزَّ وجل خلقك لحياةٍ عُليا أبدية، وجاء بك إلى حياة دُنيا إعدادية، نحن في الإعداد، نحن في حياةٍ إعدادية لحياةٍ أبدية، فالشقي معه هذه السَنَد أو هذا الشيك، استعمله كورقة مسودة ومزقه، هذا الشيك بمليون أو بألف مليون بالعملة الصعبة، حينما يكتشف أن هذا شيك بألف مليون دولار، استخدمه مسودة ثم مزقه، يمكن أن يموت من القهر، هذه حالة الكافر يوم القيامة ولكن لا موت يومها، بل حسرات وعذاب..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

الكون من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً ما حجم الكون؟ هناك سؤال محرج: هل أنت موقن يقيناً يشبه يقينك بوجودك أن هذا كلام الله؟ إذا كنت كذلك فإن الله عزَّ وجل يقول:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

إنني الآن أرجو الله أن أتمكن من أن أقرب لكم فكرة عن الكون، الكون في بعض التعاريف الحديثة فيه مليون مليون مجرة، درب التبَّانة هي مجرتنا، المجموعة الشمسية، التي هي الشمس وأحد عشر كوكباً منها الأرض، تبدو نقطة صغيرة على هذه المجرة، تصور شكلاً مغزلياً والمجموعة الشمسية بأكملها نقطة على هذه المجرة، المجموعة الشمسية طولها مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، ما معنى سنة ضوئية؟ أي أن الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فالقمر مثلاً يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، أي أنه إذا صدرت أشعةٌ من القمر نراها في الأرض بعد ثانية، القمر بعده ثانية والشمس بعدها ثماني دقائق، الشمس بعدها عنا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، ضوءها يصلنا بعد ثماني دقائق فقط، المجموعة الشمسية كلها - أحد عشر نجماً - قطرها ثلاث عشرة ساعة ضوئية، أما درب التبانة فطوله مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، المجرة أمرها مذهل، بعض المجرات المتوسطة فيها مليون مليون نجم، كل هذا الكون من أجلك بنص القرآن الكريم:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

إعجاز الله في خلق الكون :

لا أريد أن أجعل الدرس درس علوم، لكن لا بُدَّ من ذلك، أقرب نجم ملتهب يبعد عن الأرض أربع سنوات ضوئية، أما المنطفئ، القمر وهو أقرب نجم يبعد ثانية ضوئية، أما الملتهب كالشمس فأربع سنوات ضوئية، الشمس ثماني دقائق، وعليك اليوم أن تجري حساباً بالآلة الحاسبة إن شئت، فهذا النجم الذي يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، لو ضربت المسافات وحولتها إلى الكيلو مترات، وقسمتها على مئة بالساعة، وقسمتها على أربعٍ وعشرين ساعة باليوم، وقسمتها على ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً بالسنة، من أجل أن تصل إليه بمركبة أرضية تحتاج إلى ما يقارب الخمسين مليون عام، هذا النجم الذي هو أقرب نجم ملتهب إلى الأرض، أربع سنوات ضوئية فقط، بمركبةٍ أرضية سرعتها مئة كيلو متر بالساعة، تحتاج إلى أن تصل إليه إلى ما يقارب من خمسين مليون عام، وكل عمر الإنسان ستين سنة، فكيف بنجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية؟ فكيف بمجرة المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية؟ فكيف ببعض المجرات ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية؟ اسمع قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

فهل تعرف حجم الكون؟ هل تعرف معنى مليون مليون مجرة؟ هل تعرف أن المجرة فيها مليون مليون نجم؟ هذا خلق الله، والله سبحانه قال:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس: 101]

كذلك، الله عز وجل قال:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

[سورة يوسف: 105]

الإيمان أن يجتمع في قلبك تعظيمٌ وحبٌ وخوف :

كثير من الناس غافلون، أكبر مرض هو الغفلة والأمل، غافل عن الله، متأمل في الدنيا، هذا مرض خطير، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

هو الخالق، هل من خالقٍ غير الله؟ ما من إلهٍ إلا الله الواحد القهار، هذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده؟ ألا يستحق أن تخافه؟ قال:

((يا رب! أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقك، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أنا ذكرت هذا النص للفقرة الأخيرة منه: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، الآلاء من أجل التعظيم، والنَعماء من أجل الحُب، والبلاء من أجل الخوف، فينبغي أن تعظِّمَهُ بقدر ما تحبه بقدر ما تخافه، الإيمان أن يجتمع في قلبك تعظيمٌ وحبٌ وخوف، من الأمراض الوبيلة التي لا يحتملها الإنسان أحياناً، من الزلازل والبراكين، من الفيضانات، من الصواعق، من الرياح العاتية، من بأس الإنسان.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

وتستمعون ماذا يجري في بعض البلاد من بأس شديدٍ يفعله الإنسان بأخيه الإنسان، أجل بأس شديد، فهذا البلاء من أجل أن تخافه، هناك أمراضٌ وبيلة، فهناك قهرٌ، هناك إذلالٌ، هناك فقرٌ، هناك فقرٌ مدقع.

العبادة الأولى هي التفكُّر في خلق السموات والأرض :

إذاً العبادة الأولى هي التفكُّر في خلق السموات والأرض.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وصلنا إلى كلمة (بالحق)، معنى بالحق: أي هذا الكون مبني على عِلم إلهي، هذا الكون إذا كان فيه مليون مليون مجرة، وبكل مجرة مليون مليون نجم أو أقل أو أكثر، تقريباً هذه النجوم متفاوتة في الحجم، فشمسنا تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي أن مليون وثلاثمئة ألف أرض تدخل في جوف الشمس، وشمسنا نجمٌ ملتهبٌ متوسِّط، وهناك شموس تكبره بملايين المرات.

تصوَّر حجم الكواكب والنجوم، تصور عددها، تصور الفراغات فيما بينها، تصور ساحة مدرسة مساحتها تعدل خمسين متراً بخمسين متراً، فيها كرات صغيرة، فيها عشرين كرة ملقاة في هذه الساحة، هذا حجم الفراغ الكوني إلى الكواكب في الكون، فالأرض فيها فراغات بينية، لو دخلت - كما يقول العلماء - في ثقبٍ أسود لأصبحت بحجم البيضة، الأرض تتكون من خمس قارَّات، وأربعة أخماسها بحر، بحجمها الكبير، لو دخلت في ثقبٍ كوني أسود لألغيت الفراغات البينية، وأصبحت في حجم البيضة، وبقي وزن الأرض نفسه، إذاً الكون بالمسافات بين الكواكب متجاذب تجاذباً حركياً..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

بعدد مجرَّاته، بعدد نجوم المجرة الواحدة، بالفراغات بين المجرات، بالفراغات بين النجوم في المجرة الواحدة، بالفراغات بين الذرَّات، هذا الكون متجاذب تجاذباً حَرَكِيّاً.

قوة التجاذب في الكون من آيات الله الدالة على عظمته :

هل تستطيع ولو كنت من أعلم العلماء بالفيزياء أن تأتي بقطعتي مغناطيس متفاوتتين بالحجم، وأن تضعهما على سطحٍ صقيل، وأن تضع بينهما كرةً صقيلة، بحيث يتكافأ جذب الكتلتين فتستقر في الوسط؟ لن تستطيع ذلك، لن تستطيع مهما جهدت، أن تجعل هذه الكرة الصقيلة على سطح صقيل تستقر بين الكتلتين المغناطيسيتين، لو تحركت ميكروناً واحداً تنجذب إلى جهة أخرى، تصور كتلتين ليستا في حجمٍ واحد، معنى ذلك أنها تحتاج إلى حسابات أكثر، ولو كانت بحجوم مختلفة هناك حسابات أخرى، لو كانت خمس كتل وبأحجام مختلفة فالحساب أصعب وأصعب، لو كان بالفراغ، لو كان ملايين

الملايين من الكتل فكلها متحركة، إن مستقرها صعب، فكيف وهي متحركة؟ ملايين الكتل كلها متجاذبة حركياً وكلها تتحرك في الفراغ، والمحصلة استقرار حركي، توازن حركي، هذه قوة التجاذب:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

هل هناك أعمدة؟ قالوا: لو أن الأرض خرجت من جذب الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس، كم نحتاج؟ قال: نحتاج إلى مليون مليون كبل من الفولاذ المضفور، قطر كل كبلٍ خمسة أمتار، وكل كبل يتحمل قوة شد تقدر بمليوني طن، أي أن الأرض مربوطة بقوة جذب للشمس تعادل مليوني طن ضرب مليون مليون، أي بألفي مليار طن الشمس تجذب الأرض، كل هذا الجذب من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاث ميليمترات في كل ثانية، في أثناء حركتها حول الشمس تنحرف ثلاثة ميليمترات في كل ثانية فتشكل مداراً مغلقاً حول الشمس وتدور، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

كل كوكبٍ في الكون يدور ويرجع إلى مكان انطلاقه، لأن مساره مغلق.

معنى كلمة (بالحق) :

ربنا عزَّ وجل بكلمة واحدة وصف الكون كله، قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

وإليك فيما يلي معنى (بالحق)، في أشياء كثيرة في موضوع المجرات، فأنا قد هيَّأت لكم بعض الحقائق، أولاً تصور أن الكون ليس متحركاً، ما معنى بالحق؟ لولا الذي هو عليه من الحركة لانتهى الكون، كلمة بالحق أي مبني على علم، لو أن الكون كَفَّ عن الحركة، ما دام هناك قوى تجاذب بين المجرات والنجوم، الأكبر يجذب الأصغر، إلى أن يصبح الكون كتلةً واحدة، نحن أين نصير؟ أرضنا ذرة وسط جسم لا يعلم إلا الله حجمه.

إذاً لولا الحركة، لأن الحركة ينشأ عنها قوة نابذة، هذه القوى النابذة تكافئ القوى الجاذبة، توازن حركي، فإذا أمسك أحد ما وعاء ماء وأداره، فالماء لا يندلق، حينما صار الوعاء في الأعلى تحت الماء فارغ، لماذا بقي الماء في قعر الوعاء؟ شيء عجيب!! لا، ليس عجيباً لأنه حين الدوران تنشأ قوى نابذة، فلولا حركة الكون لأصبح الكون كتلةً واحدة، فما معنى بالحق؟ أي أن الكون خلق وفق علم، علم دقيق.

الأغرب من ذلك، إن الأرض مثلاً في دورتها حول الشمس، سرعتها متبدلة بحسب مكانها في مسارها، فمسار الأرض حول الشمس إهليلجي - ليس دائرياً - معنى ذلك أن هناك قطراً أعظمياً وقطراً أصغرياً، حينما تقترب الأرض من القطر الأصغري تزيد سرعتها، لئلا تنجذب إلى الشمس، ولو أنها زادت من سرعتها فجأةً واحدة لقيل: هنا كانت مدينة اسمها باريس، لو أن الأرض رفعت سرعتها فجأةً لانهدم كل ما عليها، لما بقيت عليها مدينة ولا قرية، ولكن الله لطيف، يزيد سرعتها شيئاً فشيئاً، بالتدريج، وهذا ما يسمونه بالتسارع، تسارعها بطئ، وحينما تخرج من دائرة قطرها الأصغر، تعود إلى سرعتها البطيئة أيضاً بالتدريج.

فما معنى بالحق؟ أي وفق علم، هذا علم الله عزَّ وجل، هذا الذي سمَّاه الفلاسفة العقل الأول، تصميم رائع.

خلق الله عز وجل الأرض وما يتعلق بها بالحق أي وفق العلم :

هذه الأرض تستمد الحرارة والضوء من الشمس، لو أنها لا تدور حول نفسها، لانتهت الحياة من على سطحها، هذا الوجه مقداره ثلاثمئة وخمسون درجة، وهذا الوجه مئتان وسبعون درجة تحت الصفر، ولكنها حين تدور، فبهذا الدوران يصبح جوُّها معتدلاً، لو أنها توقفت عن الدوران لانتهت الحياة..

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي وفق علم، فلو دارت على محورٍ موازٍ لسطح دورانها حول الشمس - مستوي دورانها - دارت هكذا يميناً مثلاً والشمس من هنا، كأنها واقفة، لو أنها دارت هكذا، والشمس من هنا، نصفها الأول مع الشمس دائماً وأبداً، ونصفها الآخر من دون شمسٍ دائماً وأبداً كأنها واقفة، من الذي صممها أن تدور بمحورٍ ليس قائماً تماماً، مائلاً على مستوي دورانها؟ هو الله عزَّ وجل.

إذاً لو أيقنت أن الأرض لو كفت عن الدوران لانتهت الحياة، ولو أنها دارت على محورٍ موازٍ لمستوي دورانها حول الشمس لانتهت الحياة، ولو أنها دارت على محور قائمٍ مع مستوي دورانها لانتهت الحياة، ولانعدمت الفصول، هذه المنطقة صيف إلى أبد الآبدين، وهذه شتاء إلى أبد الآبدين، النبات يحتاج إلى حرارة وبرودة، وإلى طقس متبدل ورياح، أما ميل محورها جعل هذه المنطقة في الأرض تتعرض لأشعة الشمس وتكون عليها عمودية، هنا مائلة، هنا صيف، هنا شتاء، فلمَّا وصلت الأرض إلى هذه الجهة، الآية انعكست، عمودية في الجنوب مائلة في الشمال، إذاً دورتها حول محورٍ ليس موازٍ لمستوي دورانها (بالحق)، ودورتها حول محورٍ مائلٍ كذلك (بالحق).

حجمها (بالحق)، لو كان حجمها أكبر لكان الإنسان وزنه أكبر، فالإنسان على القمر، فالذي شاهد الإنسان على القمر بصور متحركة، رأى كيف أن رائد الفضاء لما ضغط ضغطة على قدمه ارتفع مترين، لأن وزن الإنسان على سطح القمر سدس وزنه على الأرض، كلما كبر الحجم زادت الجاذبية، فمن خلق الجاذبية؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

من جعل الأشياء تنجذب إلى الأرض؟ الله عز وجل.

الماء أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

معنى بالحق وفق العلم، معنى بالحق وفق الحكمة، بحكمةٍ ما بعدها حكمة، هل تصدق أن بالماء ظاهرة واحدة لو انعدمت لانعدمت الحياة؟ الماء شأنه كشأن أي عنصر يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة، كأي عنصر، إلا أن الماء يتميَّز بأنك إذا بَرَّدته إلى درجة (4+) تنعكس الآية، يزداد حجمه مع تبريده تحت هذه الدرجة، فمن يصدق أن حياة الأحياء متوقفةٌ على هذه الخاصَّة؟

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

فلو قلنا: أن الماء كلما برَّدناه أو برد انكمش، لارتفعت كثافته، وإذا ارتفعت كثافته غاص في أعماق البحار، فمثلاً قطعة الثلج، لو زادت كثافتها لغاصت في أعماق الماء وعليه فالبحار المتجمدة كلما تجمد سطحها غاصت إلى أسفلها، بعد حين بناءً على ما سبق تصبح البحار كلها متجمِّدة، وبعد حين ينعدم هطول الأمطار، فينعدم النبات، فينعدم الحيوان، فينعدم الإنسان، هذه الحياة أساسها خاصَّة موجودة في الماء، لا تزال تحيِّر العلماء.

فهذا الماء إذا أراد أن يتمدد لا شيء يقف في وجهه، الآن أحدث عملية في تفتيت الصخور هي حقنها بماء ثم تبريد الماء، صخر من أقسى العناصر، الماء إذا تمدد يفلق الصخر كما يقولون، من أعطى الماء هذه الخاصة؟ الماء لا يُضغط، ثمانمئة طن بمكبس على متر مكعب ماء لم ينضغط ولا ميلي، الماء لا يضغط وإذا تمدد لا شيء يقف في وجهه هذا معنى:

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

[سورة الطارق: 11-13]

ما الذي صَدَّعها؟ تجمُّد الماء، ما الذي قلب الأرض من صخور إلى تربة؟ تجمد الماء:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ*إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

[سورة الطارق: 11-13]

بعض من دلالات معنى (بالحق) :

إذاً هناك أشياء بالكون مذهلة أيها الأخوة، هذا معنى بالحق؛ أي بالحكمة. حدثني أخ من مدة قال لي: كنا بفنلندا وكانت درجة الحرارة أربعين تحت الصفر، قلت له: هناك آية كونية، هل انتبهت لها؟ قال: لا، لم انتبه لها. قلت له: أنت بهذه المنطقة الباردة ممكن تضع قفّازات في يديك صوف أو جلد، وممكن أن تغطي رأسك بقطعة من الصوف، ويمكن أن تضع على رأسك شيئاً يقيك البرد، ويمكن أن ترتدي ألبسة قدم سميكة جداً، قال لي: هذا صحيح. قلت له: هل بإمكانك أن تغطي عينيك من أجل ألا يصيبهما البرد؟ قال: لا. قلت: فلمَ لم يجمد ماء العينين في درجة تحت الصفر؟ ثم قلت: الله عزَّ وجل أودع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمُّد، وهذه من دلالات معنى بالحق، أنت مخلوق بالحق.

أي أن خلقك أساسه على علم، أساسه فيه حكمة، أساسه فيه رحمة، أساسه فيه لُطف، أبرع طبيب أسنان هل يتمكن من قلع سن لطفل دون أن يبكيه؟ يقول لك: أخدِّره بالبنج؟! لكنه يصرخ صوت عند وخز الإبرة لأنها أصعب من قلع الضرس، أما ربنا لطيف إذا أراد أن يبدل أسنان الطفل، تجد الطفل وهو لا يشعر رأى قطعة قاسية مع الطعام، ما هذه؟ سني، كيف هذه السن سقطت من جذرها بالتدريج دون أن يشعر الطفل، الله عز وجل لطيف.

المطر فيه لطف، لو كانت كل بَرَدَة تزن خمسة كيلوات، لما بقي على الأرض أي شيء سليماً، البرد حجمه صغير، المطر حجمه لطيف، فكل شيء بلطف الله عزَّ وجل، وكلٌ برحمة الله عز وجل وتدبيره.

عثروا بقمة جبل بأعلى جبال بالهند، على نبع ماء، ليس لهذه الظاهرة في الفيزياء تفسير إلا أن يكون لهذا النبع مستودع في جبل أعلى منه لأن بعض الوحوش تعيش في قمم الجبال، فهناك رحمة من الله سبحانه وعلم وحكمة ولطف، هذه ظاهرها تفسرها (بالحق)، أي أن كل أسمائه الحُسنى داخلة في خلقه.

الكون أوسع بابٍ لمعرفة الله وأقصر طريقٍ إليه :

قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

كلمة الحق اسمحوا لي أنا أشعر أن كلمة (بالحق) تعني وفق العلم، وأنها وفق الحكمة، وأن هذه السماوات والأرض خلقت لهدفٍ كبير ليس فيها عَبَث، مأخوذٌ هذا من قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

اللعب شيء مخالف للجد، اللعب هو الشيء العابث، عمل بلا هدف، تجد إنساناً يلعب لعبة، لا فائدة من ورائها، يفضي خمس ساعات ويقول بعدها: والله غلبتك مرتين. فماذا أفاد منها؟ عمل غير جاد، عمل عابث، ليس وراءه هدف، لكن بالحق خلاف اللعب، بالحق خلاف الباطل، أي أنها خلقت لتبقى ولهدفٍ كبير، إذاً كلمة بالحق تعني الكون مخلوق وفق علم، ووفق رحمة، ووفق حكمة، ووفق لطف، ووفق قوة، ولهدفٍ كبير، وبعيداً عن الزوال.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

وبعد فهناك أشياء في الكون والله أيها الأخوة ساعاتٌ طويلةٌ، وأشهرٌ عديدة، وسنواتٌ مديدة، لا تكفي للحديث عن عظمة الله من خلال الكون، كتابٌ مفتوح، اسمعوا مني هذه الكلمة: الكون أيها الأخوة أوسع بابٍ لمعرفة الله وأقصر طريقٍ إليه، أوسع باب وأقصر طريق:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

خشية الله تعالى تحملنا على طاعته :

ربنا عزَّ وجل قال:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: 53]

وربنا عزَّ وجل قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ *خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

لا إله إلا هو إلى أين تمشون؟ فأنى تصرفون، وإن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات، لكن الذي أرجوه من الله عزَّ وجل أن يعمل أحدكم فكره في الكون وهو يأكل مثلاً ويطرح على نفسه آلاف

الأسئلة، وكذلك عندما يشرب كأس الماء، فاللتر ببعض البلاد النفطية يكلف ستة ريالات تحلية، ستة ضرب ثلاث عشرة ليرة، حوالي مئة ليرة تقريباً، مئة ليرة ثمن تحلية لترٍ من الماء، كأس الماء من جعله حلواً عذباً فراتاً، ذلكم الله رب العالمين، يمكن أن تأخذ العبرة من كأس الماء، من خصائص الماء، من الهواء اللطيف، فالهواء لا يحجب الرؤية ولكنه يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طناً، الهواء شيء عظيم إذا تحرك وزادت سرعته على مئتي كيلو متر بالساعة صار إعصار، لا يذر شيئاً أمامه، الهواء لطيف، والماء لطيف، تفكر في الطعام والشراب، في ابنك، في خلقك، فأنت محاط بآيات، إذا تأملت بها عرفت من خلالها عظمة الله عزَّ وجل، فإن هذه الخشية حملتك على طاعته..

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (03-20): تفسير الآية: 5- 6، طبيعة الإنسان وتذليل الأنعام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة (بالحق) كلمة هادفة لأن الله حق :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الزُمَر، ومع الآية الخامسة، ربنا جلَّ جلاله يقول:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

كلمة الحق كلمةٌ دقيقة جداً، لو قلت: حَكَمْتُ بالحق، أي حكمت بالعَدل، لو قلت: قلت حقاً، أي قلت صدقاً، لو قلت: خلق الله السموات والأرض بالحق، أي خلقها لهدفٍ كبير.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

لو قلت: خلق الله السموات والأرض بالحق، أي خلقها خلقاً ثابتاً، لأن خلق الله أساسه العِلم فخلقه ثابت، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

[سورة ص: 27]

فيتضح لكم من هذه الأمثلة أن كلمة الحق إن جاءت مع القول تعني الصدق، أي القول المطابق للحقيقة، إن جاءت إخباراً فهي مطابقةٌ للواقع، إن جاءت في معرض الخلق أي أنه خلقٌ له هدفٌ كبير، إن جاءت في معرضٍ آخر أي بعيدٍ عن اللعب والعَبَث، فكلمة بالحق كلمةٌ هادفة لأن الله حق، إذا قلت: وفَّقت بينهم بالحق، أي بالحكمة، إذا قلت: فعلت الحق، أي فعلت ما يرضي الحق، لأن الله هو الحق.

كلمة الحق تدور مع السياق حيثما دار :

كلمة (بالحق) دقيقة لأن لها معان كثيرة بحسب السياق، فمن أول معانيها أن الشيء إما أن يقوم على عِلم، وإما أن يقوم على جهل، فإذا قام شيءٌ على جهلٍ فلا بد من أن ينهار، إذا قام مذهبٌ على أساسٍ من الجهل، أو على أساسٍ من الهوى، أو من المصلحة فهذا المذهب لا يلبث أن ينهار، لأنه قام على مصلحة، أو قام على جهل، أو قام على هوى.

أما إذا قام على الحق، أي أنه قام على أسس علميَّة، والعلم علاقاتٌ ثابتة، الشيء الحق هو الشيء الذي بُنْيَ على علم، وكل شيءٍ بني على علم يحمل طابع الاستمرار، إذاً الشيء الحق هو المستمر، الباطل هو الذي سينهار، جدارٌ بني على الحق، بني وفق الشاقول، وضِعَت المواد بشكلٍ مدروس وكافٍ هذا الجدار لا يقع، أما إذا بني من غير شاقول، أي بني مائلاً، والمواد غير جيِّدة فهذا الجدار لا بد من أن يسقط، فبادئ ذي بدء أن الشيء الحق هو الذي بني على أسسٍ علميَّة.

ربنا سبحانه وتعالى بكل شيءٍ عليم، لذلك خلقه كامل، خلقه كامل لأنه عليم، عَلِمَ ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذا الشيء أُسِّسَ بالحق، أي أسِّسَ لهدفٍ نبيل، لا تؤسَّس الملاهي لهدفٍ نبيل، لكن الجامعات مثلاً تؤسَّس لترسيخ الحقائق ولترسيخ القيَم، نقول: هذه الجامعة أُنْشِئت بالحق، جامعةٌ أساسها الحقيقة والفضيلة، أما الملهى فقد أُسِّسَ بالباطل، لإفساد النفوس، لترويج الباطل، لتزيين المعصية.

كلمة الحق إذاً لها معانٍ كثيرة، إذا وردت مع الخَلَق أي أن هذا الكون بني على علم، على علم الله عزَّ وجل، وأن هذا الكون خُلِقَ لهدفٍ نبيل، لهدفٍ كبير.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

هذا الكون خُلِقَ ليبقى، لأن الإنسان خُلق ليبقى بمعنى أنه خُلِقَ لجنَّةٍ عرضها السموات والأرض، لو أن الإنسان خُلق لأمدٍ قصير وبعد ذلك ينتهي كل شيء، فهناك إذاً سؤالٌ كبير، إن هذه الأعمار القصيرة لا تستأهل كل هذا الكون، لكن الإنسان خُلق ليبقى في جنَّةٍ عرضها السموات والأرض، كلمة بالحق في اللغة أي لابس الحق خلق السموات والأرض، وكلمة الحق تعني الله جلَّ جلاله، إذاً إذا فعلت شيئاً بالحق أي فعلته وفق أمر الله، وفعلته بما يرضي الله، وفعلته لهدفٍ نبيل، وفعلته بعيداً عن اللعب والعبث، وإذا قلت الحق قلت قولاً صادقاً مطابقاً للحقيقة، وإذا قلت: بني هذا الشيء وفق الحق أي على أسسٍ علميَّة، فكلمة الحق تدور مع السياق حيثما دار.

كل أسماء الله الحُسنى ظاهرةٌ في خلق الله عزَّ وجل :

ربنا جلَّ جلاله يقول:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي أن هذا الكون العظيم ليس من أجل أن تعيش سنواتٍ معدودة وينتهي كل شيء، هذا الكون العظيم ينبئُك أن بعد هذه الحياة الدنيا حياةً أبديَّة تسوَّى فيها الحسابات، هذا معنى بالحق، خُلق وفق أسسٍ علميَّة، خُلق لهدفٍ نبيل، خُلق الكون ليكون للإنسان دليلاً إلى الله عزَّ وجل، وليبقى الإنسان في جنَّة الله

إلى أبد الآبدين، خُلق وفق الحكمة، خُلق وفق الرحمة، خُلق وفق أسماء الله الحُسنى لأن الله هو الحق. وذكرت لكم في درسٍ سابق: أن كلمة السموات والأرض هي التعبير، القرآن الذي يرادف الكون، الكون ما سوى الله، وفي القرآن تأتي كلمة السموات والأرض لتعبِّر عن كل شيءٍ سوى الله، والخَلق بالحق، تأمل وانظر، يجب على المرء أن يصل إلى الحق من خلال خلق الله عزَّ وجل، لأن الحق لابس خلق الله، فتصل إلى الحق، إلى الذات الكاملة كمالاً مطلقاً، خلق هذا الكون يعبِّر عن العَدل، وعن الرحمة، وعن اللطف، وعن القدرة، وعن الجَمَال، وعن القهر، كل أسماء الله الحُسنى ظاهرةٌ في خلق الله عزَّ وجل، وبعدُ:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ)

الشيء المكوَّر هو الشيء المنحني، الشيء المُلْتَف، فالأرض كرة، فإذا قابلت الشمس أصبح نصف سطحها منيراً، وخط النور خطٌ منحنٍ، فإذا دارت الأرض انتقل الخط المنحني من النور إلى الظلام، فكأن النور يدخل في الظلام بشكلٍ منحنٍ، وهذه الآية فيها إشارةٌ لطيفةٌ إلى كرويَّة الأرض، قد يسأل سائل: لماذا لم يذكر الله في القرآن الكريم آيةً قطعيَّة الدلالة تشير إلى أن الأرض كرة؟ لأن هذا الأعرابي، الذي عاش زمن نزول القرآن الكريم، يرى الأرض مُنبسطة، فإذا جاءت آيةٌ قطعيَّة الدلالة تبيِّن أنها كرة، فقد لا يحتمل عقلك ذلك، وإذا أغفل القرآن كرويَّة الأرض نهائياً، نأتي نحن وقد رأيناها كرة فنتعجَّب، خالق الكون ألا يعلم أنها كرة؟! لمَ لمْ يخبرنا؟ فهذا الموضوع موضوعٌ حسَّاسٌ جداً، ولذلك جاء التعبير عنه بطريقة الإشارة لا بطريقة العبارة.

الحكمة من عدم تفصيل النبي الكريم للآيات الكونية التي وردت في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

[سورة الحجر: 19]

وليس في الهندسة شكلٌ هندسي يمتدُّ الخطُّ عليه إلى ما لا نهاية إلا الكرة:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

[سورة الحجر: 19]

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

[سورة النازعات: 30]

الدُحية هي الكرة، والتكوير هو الالتفاف والانحناء، فتداخل الليل بالنهار لا يكون إلا في شكل الكرة، لو أن شكل الأرض مكعَّبٌ ودارت حول نفسها فإن الضوء يأتي فجأةً، ويغيب الضوء فجأةً، لأن المكعَّب له

حروف، لكن الشكل الكروي شكل متصل ليس له حروف، إذاً إذا دار هذا الشكل الكروي تداخل الليل والنهار، ولا يتداخل الضوء والظلام بفعل دوران حجمٍ من الحجوم إلا إذا كان كرةً، فهذه إشارةٌ لطيفة من الله عزَّ وجل إلى أن الأرض كرةٌ كما هي في الحقيقة.

وقد يعجب الإنسان إذ يرى أن النبي عليه الصلاة والسلام قد فصَّل آيات التكليف تفصيلاً شديداً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُفَصِّل في الآيات الكونية، وقد يسأل سائل ما السبب؟ الجواب: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام بوحي من الله عزَّ وجل امتنع عن بيان تفاصيل هذه الآيات الكونيَّة، لماذا؟ لأنه لو فسَّرها تفسيراً بسيطاً يتناسب مع عقول من كان حوله لتساءلنا نحن لأن هذا التفسير البسيط لا يرضينا، ولو فسَّرها تفسيراً عميقاً يتناسب مع حقيقتها لعجب أصحابه من هذا التفسير، ولكن الآيات الكونيَّة في القرآن الكريم تركها النبي عليه الصلاة والسلام، ليكون التقدُّم العلمي في كل عصرٍ هو الذي يكشف خبايا هذه الآيات وإعجازها.

القرآن الكريم معجزةٌ مستمرَّة :

كتاب القرآن الكريم معجزةٌ مستمرَّة، لأنه كلّما تقدَّم العلم، وكلّما حلّق في أجواء المعرفة، وكلّما خاض في أعماق الأسرار، وجد أن القرآن أشار إلى هذا، فإلى أمدٍ قصير كان الكتاب الأول في علم الأجنَّة - الكتاب الأول الذي يُدَرَّس في معظم جامعات العالَم - يبيِّن أن تشكيل العَظم يأتي بعد تشكيل اللحم، لكن القرآن يذكر عكس ذلك.

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

[سورة المؤمنون: 14]

العظم قبل اللحم، ثم يخرج أستاذٌ في جامعةٍ غربيَّة ليقول لطلابه: خبراً كأنه مفاجأة، أو كأنه قنبلة، ويخبرهم أن كل شيءٍ تعلّمتموه عن تسلسل تشكيل الأنسجة في الجنين غير صحيح، والصواب هو هكذا، فيقوم طالب مسلم ويقول: يا أستاذ هذه الحقيقة أشار إليها القرآن من قبل، لا يصدِّق ما يسمع، فطلب القرآن، وطلب ترجمته، فإذا الآية تقول:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

[سورة المؤمنون: 14]

فما كان من هذا الأستاذ إلا أن أعلن إسلامه، لأن هذه الحقيقة التكوينية لا يمكن إلا أن تكون من عند خالق الكون.

كلَّما تقدَّم العلم كشف حقيقة ذكرها القرآن الكريم :

ربنا عزَّ وجل قال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 19-21]

الآية واضحة، كلمة مرج، مرج الشيء أي اضطرب، والبرزخ هو الحاجز، فالآية مفهومة لكن الواقع لا يؤكِّدها، بحران متصلان ولا سيما عند المضائق، البحر الأحمر مع البحر العربي، البحر المتوسِّط مع المحيط الأطلسي، البحر الأبيض المتوسِّط مع البحر الأسود، وبين كل بحرين مضيق، فما معنى هذه الآية؟ إلى أن اكتُشِفَ من خلال الأقمار الصناعيَّة، ومن خلال تصوير البحار من طبقات الجو العُليا، أن هناك ألواناً متباينة في البحار، تباين الألوان لفت نظر العلماء إلى أن هذا الماء غير ذاك الماء، هذا الماء له كثافة، وله مكوِّنات، وله درجة ملوحة، وله درجة حرارة، غير ذاك الماء، والدليل تباين الألوان، فلمَّا وصلوا إلى هذه المناطق الحرجة بين البحار وجدوا أن هذا البحر لا يطغى على ذاك البحر، وأن ذاك البحر لا يطغى على هذا البحر والأمر عجيب، فكلَّما تقدَّم العلم كشف حقيقة ذكرها القرآن الكريم، وعندما قال ربنا عزَّ وجل:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

هذه (كلٌ) كلمة مبهمة، وإذا كان الإبهام في اللغة يعني الشمول تقول: إنسانٌ عربي، هذه معرفة، أما إذا قلت: إنسان فهي نكرة، والكلمة إذا كانت نكرةً اتَّسع معناها، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

أي كل شيءٍ خلقه الله عزَّ وجل يدور في مدارٍ وفي فلكٍ يسبح، من الذرَّة وإلى المجرَّة، وقد تعجب العلماء لماذا تنجب هذه الأسرة أطفالا ذكوراً وتلك أطفالاً إناثاً؟ ففي نهاية المطاف اكتُشِفَ أن تحديد جِنْس الجنين يتعلَّق بالحوين لا بالبويضة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[سورة النجم: 45-46]

فقط،

(مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

العلم يصحُّ ويتقدَّم إذا وافق القرآن :

ربنا عزَّ وجل وصف السماء بصفةٍ واحدة فقال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

معنى هذا أن كل شيء في الكون يدور في مسار مغلق، لو كان المسار حلزونياً لما رجع إلى مكانه، فكل نقطةٍ تنطلق منها الأرض لا بد من أن تعود إليها بعد عام، فمسار الأرض مُغْلق، إذاً نحن أمام كتابٍ يُعدُّ إعجازه مستمرَّاً، فكلّما تقدَّم العلم اقترب من القرآن الكريم، ومن ضعف الإيمان أن تفرح إذا جاء في القرآن آيةٌ تطابق حقيقةً علميَّة، هذا من ضعف الإيمان، لكن ينبغي أن تفرح إذا وردت حقيقةٌ علميَّةٌ مطابقةٌ للقرآن، بالعكس العلم يصحُّ ويتقدَّم إذا وافق القرآن، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثى)

[سورة آل عمران: 36]

هذه آية موجزة، فإذا أردنا أن نجري مساواةً مُطلقةً تامةً بين الرجل والمرأة، فهذا مخالفٌ للقرآن الكريم، طبيعة المرأة بتفكيرها، ونفسيَّتها، وقدراتها الخاصَّة، ونَمط حياتها، حتى وبنيتها تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثى)

[سورة آل عمران: 36]

فأي نظامٍ اجتماعي، أو نظامٍ اقتصادي، يقيم مساواةً تامَّةً في العمل، والأجور، وما إلى ذلك بين المرأة والرجل فهذا مخالفٌ للحقيقة، مخالفٌ للواقع، أي نظريَّةٍ تقوم على جهلٍ فلا بد من أن تنهار، هذه ليست في الحق ولا من الحق، إذاً أي نظامٍ يُوضَع خلاف بنية النفس لا ينجح، ولا يستمر، ولا بد من أن ينهار، هناك أمثلة كثيرة جداً تدلُّ على أن هذا القرآن فيه إعجازٌ مستمر.

كلَّما تقدَّم العلم اقترب من القرآن الكريم لأنه كتابٌ من عند خالق الكون :

الشيء الثابت أنه كلَّما تقدَّم العلم اقترب من القرآن الكريم، لأنه كتابٌ من عند خالق الكون، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والباطل هو الشيء المتغيِّر، فأحياناً يكون كاتب عظيم الشأن لكنه ما أحاط بكل العلوم، ما من كتابٍ من صنع البشر إلا والزمن يكشف بعض أغلاطه، أبداً، اقرأ مقالةً قبل خمس سنوات ترى فيها أشياء غير صحيحة، وفي وقتها بدت لك صحيحة، أما الآن فطبيعة التطوُّر تكشف خطأها، فهذا الشيء ثابت ـ أنا قرأت مرَّةً كتاباً لعالِمٍ جليلٍ جليل كبيرٍ كبير، يقول: إن الإنسان إذا

أكل فبخار الطعام يصعد إلى الدماغ. وكأن البطن جوف متصل، هذا شيء مناقض للعلم، لكنه طبعاً لا يؤاخذ لأن معطيات العلم وقتها لم تكن تسمح له أن يعرف الحقيقة.

فهناك علماء أفتوا بأن التدخين حلال، اليوم ذكرت في الخطبة أن الدخان فيه أشياء خطيرة جداً، أول شيء أن الكريَّة الحمراء عند المدخنين تحب أول أكسيد الكربون أكثر مما تحب الأوكسجين، فإذا دخَّن المرء فإن هذا الغاز السام يتعلَّق بالكريَّة الحمراء، وقلَّل من قدرتها على حمل الأوكسجين، فالإنسان الذي يدخِّن يشعر بوهنٍ في قِواه، لياقته البدنيَّة أقل مما سواه، قدرته على بذل الجهد أقل من غيره، هذا أول شيء.

الشيء الثاني: هذه المادَّة في التبغ تسبِّب رفع ضربات القلب، من خمس عشرة إلى عشرين ضربة، تسبِّب لزوجة في الدم، هذه تجعل الإنسان معرَّضاً للإصابة بجلطات دمويَّة، الضغط يرتفع خمس عشرَةَ ضربة بالمئة عن ضغط الإنسان غير المدخِّن بالضبط، فأحياناً الشعيرات التي في الأطراف تُسَد بفعل الدخان، وإذا سُدَّت توقَّفت التروية، فاسودَّ العضو فلا بد من بتره، وبالقصبة الهوائيَّة أهدابٌ تتحرَّك نحو الأعلى دائماً، فأي شيءٍ غريب دخل إلى القصبة، فهذه الأهداب تدفعه نحو الأعلى، لكن إذا دخَّن الإنسان أصيبت هذه الأهداب بالشلل. ذكرت اليوم بالخطبة أكثر من ثمانية بنود خطيرة؛ بعضها يصيب الدم، بعضها يصيب القلب، بعضها يصيب العضلات، بعضها يصيب الأعصاب، هناك رجل عالم رأى أن الدخَّان مباحٌ وليس في التدخين حرج، فحينما قال هذا الكلام لم تكن معطيات العلم بين يديه، إذاً ما من إنسانٍ من بني البشر إلا ويغفُل عن بعض الحقائق، فإذا كُشِفَت له الحقائق عاد إلى الصواب، هذا القرآن الكريم هل رأيتم فيه شيئاً كشف العلم خطأه؟ مستحيل لأنه كلام خالق الكون، تشعر بكل خليَّةٍ في جسمك، وبكل ذرَّةٍ في دماغك أن هذا القرآن كلام الله.

الله عز وجل سخّر الشمس :

قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ)

كلمة سخَّر، الشمس مسخَّرة لمن؟ أنت أيها الإنسان بنصِّ القرآن الكريم ترى أن الكون مسخَّرٌ لك، فأيهما أعظم شأناً عند الله المُسَخَّر له أم المسخَّر؟ المسخَّر له، إذاً أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرَّم الذي سخَّر الله لك ما في السموات والأرض، إذاً:

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ)

هذه الشمس النجم الملتهب، الذي يمدُّ الأرض بالحرارة، يمدُّها بالضوء ويمدُّها بأشياءٍ لا نعلمها، ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

حجم الشمس يزيد عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، أي أن مليون وثلاثمئة ألف كرة أرضية تدخُل في جوف الشمس، وجوف الشمس تزيد حرارته عن ستة ملايين درجة، بينما سطح الشمس لا يتجاوز العشرين ألف درجة، لو أُلقيت الأرض في جوف الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، هذه الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، لهيب الشمس يخرج عن سطحها إلى أكثر من نصف مليون كيلو متر، وفي بعض الحالات مليون كيلو متر، أجل، لسان اللهب الذي يخرج من الشمس يزيد طوله عن مليون كيلو متر. وبين الأرض والشمس ما يزيد عن مئة وستَّةٍ وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، الشمس مسخَّرة، لو أنها انطفأت فجأةً، لأصبحت الأرض قبراً متحرِّكاً، لأن الأرض من دون شمس تصل حرارتها إلى درجة الصفر المُطلق، والصفر المطلق مئتان وسبعون درجة تحت الصفر، وفي هذه الدرجة ربَّما توقَّفت الذرَّات عن الحركة، وإذا توقَّفت عن الحركة تلاشى الجسم وانتهى، كل جسم له ذرَّات، والذرَّة فيها نواة وكهارب، وأساس الحياة هي الحركة الدائمة.

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

من قواعد التفكير أن يفكِّر الإنسان بالشيء وعدمه :

إذاً الله عزَّ وجل سخَّر الشمس، وهناك أقوامٌ عبدوا الشمس من دون الله، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

[سورة فصلت: 37]

في آسيا أقوام عبدوا البقر، وأقوام عبدوا الشمس، والأولى أن يعبد الإنسان خالق الشمس والقمر، وأن يعبد خالق هذه الأنعام التي سُخِّرت لنا.

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ)

الإنسان كيف يفكِّر؟ من قواعد التفكير أن يفكِّر بالشيء وعدمه، تصوَّر الأرض بلا شمس انتهت الحياة، الحياة تنتهي فجأةً، تصوَّر أن الشمس أقرب إلى الأرض مما هي عليه.

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

هذه المسافة مسافة دقيقة جداً، لو أنها زادت لاحترق كل ما على الأرض، لو أنها ابتعدت لمات كل ما على الأرض من شدَّة البرد، إذاً الحجم مناسب، والمسافة مناسبة، والحرارة مناسبة، والأرض حجمها مناسب، ودورتها مناسبة، ومحورها مناسب، وسطوحها المائيَّة الواسعة جداً مناسبة، لولا هذا المُسَطَّح المائي الضخم لما كانت الأمطار، لو كانت أربعة أخماس الأرض قارَّات يابسة والخمس بحر، البحر لا يكفي عندئذٍ لإنزال الأمطار، لكن أربعة أخماس سطح الأرض بحر، وشمس، وتبخُّر، ورياح من أجل أن تنعقد الأمطار، فتبنت الزرع والكلأ، وكما قال الله عزَّ وجل:

(مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

[سورة النازعات: 33]

الكون نصبه الله عزَّ جل ليكون أداةً للتعريف به :

قال تعالى:

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

معنى هذا أن الكون له نهاية، وهذا هو الزمن، الشيء له بعد طولي هو الطول، وله بعدان سطحيَّان هو الطول والعرض، له بعدٌ حجمي هو الارتفاع والعمق، ولكل شيءٍ بعدٌ زماني هو حركته، الشيء إذا تحرَّك نتج عنه الزمن، فالأرض بدورتها حول الشمس ينشأ العام، بدورة الأرض حول نفسها ينشأ النهار والليل، بتنقُّل الأرض على مسارها حول الشمس تنشأ الفصول، فالحركة أساس الزمان، لذلك:

(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

فهذا الكون نصبه الله عزَّ جل ليكون أداةً للتعريف به:

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[سورة الانفطار: 1-4]

انتهت الحياة الدنيا، وبقي يوم الدين.

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

[سورة الانفطار: 5]

الكون تنتهي وظيفته مع انتهاء الدنيا ويبدأ الحساب :

هذا الكون تنتهي وظيفته مع انتهاء الدنيا، ويبدأ الحساب، نحن في دار ابتلاء، وهناك أدلّة عظيمة وكثيرة ومتنوِّعة، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

وبعد هذه الأدلّة، وبعد انقضاء العمر، لا بد من وقفةٍ بين يدي الله عزّ وجل ليحاسب فيها الإنسان، إذاً:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

معنى هذه الآية أن الأرض كرة، ومعناها تدور حول نفسها، ومعناها أنَّ الشمس متألّقة، وهي منبع الضوء والحرارة، ومعناها أن الأرض لها دورة حول نفسها ودورة حول الشمس، هذا كلُّه مستفاد من قوله تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

من أدقِّ تعريفات (العزيز) :

من أدقِّ تعريفات العزيز، إذا قلت: هذا الشيء عزيز، أي يحتاجه الناس جميعاً، مادَّة أوليَّة، الخيوط مثلاً، يقول لك: هذه مادَّة أوليَّة، السكر في أكثر الصناعات الغذائيَّة، فالشيء العزيز الذي تشتدُّ الحاجة إليه، والشيء العزيز، يقول لك: هذه بضاعة عزيزة أي نادرة، قليلة، والشيء العزيز هو الذي يندُر وجوده، والشيء العزيز المنال هو الذي يصعب الوصول إليه، إذا وصفت الأشياء بأنها عزيزة، فتشتدُّ الحاجة إليها، ويقلُّ وجودها، ويندر وجودها، ويصعب الوصول إليها.

أما إذا وصفنا الذات الإلهيَّة، وصفنا الله بأنه عزيز كما وصف نفسه، نقول: يحتاجه كل شيء في كل شيء، هذا الافتقار، يحتاجه كل شيء في كل شيء، أنت أحياناً تحتاج شخصاً لشيء واحد، يعطيك مالاً، شخص يعالجك، الأشخاص تحتاجهم في حاجةٍ واحدة، لكن الله عزَّ وجل تحتاجه في كل شيء، لست أنت وحدك بل كل المخلوقات بل الكائنات كلُّها؛ الجماد، والحيوان، والإنسان، يحتاجه كل شيء في كل شيء.

وإذا قلت: يندر وجوده في الأشياء، الله عزَّ وجل لا ثاني له، لا شريك له، لا نِدَّ له، لا مثيل له.
والمعنى الثالث: أنه يستحيل أن تحيط به، يمكن أن تصل إليه بعقلك، يمكن أن تتصل به بنفسك، أما أن تحيط به فهذا مستحيل.

التفرقة لا وجود لها عند الله عزَّ وجل فالبشر جميعاً مدعوّون لفضل الله عزَّ وجل :

ربنا عزَّ وجل يقول:

(أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

مع كل هذه العظمة هو غفَّار، هذا اسمه متكاملاً، هو عظيمٌ عظيم لا مثيل له، لا ثاني له، لا شبيه له، لا شريك له، يحتاجه كل مخلوق، كل شيء في كل شيء، يستحيل الوصول إليه، ومع ذلك خلقكم ليغفر لكم.

(أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

لو تأمَّلت في خلق السموات والأرض لوجدت أن الله عزيزٌ غفَّار، أي أنه عظيم ومن جهةٍ ثانية خلقك ليغفر لك.

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

فالتفرقة لا وجود لها عند الله عزَّ وجل، البشر جميعاً مدعوّون لفضل الله عزَّ وجل، لا طبقيَّة، كل البشر مخلوقون للجنَّة، لو أن الله عزَّ وجل - كما يزعم بعض الجهلة - خلق النار وخلق لها من يدخلها، وخلق الجنَّة وخلق لها من يدخلها، فكان هذا يتناقض مع هذه الآية:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

من طبيعةٍ واحدة، لذلك طبيعة الإنسان واحدة، والإنسان إذا كان جاهلاً يطغى.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

هذه طبيعته، إذا كان في غفلةٍ عن ربِّه وشعر بقوَّته، أو بغناه، أو بتفوقه، يطغى، هذه حقيقة بالإنسان، وهذه من طبيعة الإنسان.

طبيعة الإنسان :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: 6]

طبيعة الحياة الدنيا أنه لن تصل إلى شيء إلا ببذل جهدٍ كبير.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: 6]

طبيعة الإنسان أنه مبتلى.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

لو تتبعتم طبيعة الإنسان من خلال القرآن، فالإنسان.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

الإنسان خُلِق من عجل، الإنسان خُلق ضعيفاً، الإنسان حادث.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

الإنسان مبتلى، الإنسان كادح، الإنسان أوتي القدرة على الإدراك، فيه قوَّة مدركة، الإنسان علَّمه الله البيان، الإنسان كما قلت: عجول، يطغى أن رآه استغنى، خُلِقَ البشر جميعاً من طبيعةٍ واحدة، هذه الطبيعة لصالحهم، لصالح إيمانهم، لصالح إقبالهم على الله، لصالح تحقيق الهدف الكبير الذي خُلِقوا له في الدنيا.

الإنسان مبدع ومشرِّع وفرد لا ثاني له والإنسان مريد وهذا كلّه تكريمٌ للإنسان :

قال تعالى:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

هذه الآية دقيقة جداً، خذها من الناحية الماديَّة، تجد شركة في شمال كندا تصنع دواء، هذا الدواء يُصدَّر إلى جنوب أستراليا، فيه مادَّة مسكِّنة، يأخذه إنسان في جنوب أستراليا، وبين البلدين بحارٌ شاسعة، وهناك انقطاعٌ بين البلدين، ومع ذلك المادَّة الفعَّالة في شمال كندا تؤثِّر وتفعل فعلها في جنوب أستراليا، معنى هذا أن بنية الإنسان واحدة، بنية جسمه واحدة.

وربنا عزَّ وجل في خلقه إشارتان، الإشارة الأولى أنه واحد، الأساس واحد، وفي خلقه تنويع، ربنا عزَّ وجل واحد وواسع في وقت واحد، فكل إنسان له شكل، وله لون، وله نبرة خاصَّة، وله رائحة جلد خاصة، وله قُزحيَّة خاصَّة، وله زمرة دمويَّة خاصة، وله زمرة نسيجيَّة خاصَّة، وله بصمة خاصَّة، هذه هويَّة، رائحة جلده هويَّة، لا يتشابه إنسانان في الأرض برائحة جلدهما، القُزحيَّة توقيع. أحدث بحث علمي الآن، شكل القزحيَّة لا يشركك فيه أحد، حتى الآن توجد أجهزة، أقفال لا تُفتح إلا على شكل قزحيَّتك، تضع عينيك على القفل فيفتح الباب، لأن الإنسان ينفرد بنسيج خاصٍّ في قزحيَّته، وينفرد ببصمةٍ خاصَّة، وينفرد بتركيبٍ دمويٍ خاص، وينفرد برائحةٍ خاصَّة وبنبرةٍ صوتيَّةٍ خاصَّة، هذه كلّها

هويَّات له، فالإنسان فرد تكريماً له، الله جعله فرد لا شبيه له، وهذا من اسم الله جلَّ جلاله " الواسع ".

فتكريماً للإنسان جعله فرداً، وجعله مختاراً، وجعل الإنسان فوق هذا وذاك مشرِّعاً، أي أعطاه آيات احتماليَّة ظنيَّة الدلالة، فالإنسان يجتهد باستنباط الأحكام، إذاً سمح الله له أن يكون مشرِّعاً، حينما كلَّفه أن يجتهد من نصوصٍ ذات طابع كُلِّي جاءت الأحكام التفصيليَّة، وسمح للإنسان أن يُبدع لأن طبيعة الكون فيها إمكان لأن تبدع؛ لديه مورِّثات، لديه كروزومات، وعنده أشياء كثيرة، تجد أنهم اخترعوا وردة سوداء، اخترعوا أشجاراً مقزَّمة، اخترعوا أشجاراً مُعَمْلَقة، أجروا تطويرات كثيرة جداً، هذا ليس سبقاً من الإنسان، لا إنه بعلم الله، ربنا عزَّ وجل صمَّم الكون بطريقةٍ تمكن الإنسان من أن يبدع بها، فالإنسان مبدع، والإنسان مشرِّع، والإنسان فرد لا ثاني له، والإنسان مريد، هذا كلُّه تكريمٌ للإنسان.

المرأة من حيث التشريف والتكليف مساوية للرجل تماماً لكنها تختلف عنه بالبنية :

قال تعالى:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

المرأة من طبيعة الرجل، نفسٌ بشريَّة فُطِرَت كفطرته، وكُلِّفَت بما كُلِّف، طُلبَت بالإسلام والإيمان، مشرَّفة ومكلَّفة، لها مشاعر، لها أحاسيس، كل ما يحسُّ به الرجل تحس به المرأة، إذاً هي مخلوق، والدليل أنَّ الله عزَّ وجل قال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: 195]

إذاً المرأة من حيث التشريف والتكليف مساوية للرجل تماماً، لكن من حيث البنيَّة الفيزيولوجيَّة والبنية النفسيَّة تختلف عنه باختلاف مهمَّتها في الحياة، لذلك قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

الله عزَّ وجل سخَّر لنا الأنعام :

الله عزَّ وجل قال:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

الضأن، والماعز، والبقر، والإبل، ذكور وإناث صارت ثمانية، هذه مسخَّرة، أخٌ كريم ذكر لي، في بعض القرى المحيطة بدمشق بقرةٌ جمحت وخرجت عن تذليلها، فقتلت رجلين وجرحت أربعة، فاضطُّر صاحبها ـ وقد دفع ثمنها سبعين ألف ليرة ـ أن يمسك مسدَّساً ويطلق عليها الرصاص لتقف عند حدِّها، هذه قصَّة عميقة جداً، لو أن البقر كله أصبح متوحِّشاً لاضطرب شأن الإنسان واختلت بعض معاييره، من جعل البقرة مذلّلة؟ تعطيك الحليب، لحمها تأكله، وجلدها تستعمله، وضَرْعُها تتغذَّى منه، والألبان أساسٌ في قِوام حياة الإنسان؛ السمن، والجبن، واللبن، والحليب، والقشطة، والزبدة، أصناف منوَّعة جداً، تجد على المائدة عشرة أصناف كلُّها أساسها اللبن، تحضر عقد قران فيقدِّمون لك بوظة في الصيف، هذا من الحليب، في الشتاء محلاية من الحليب، كثير من الأكلات أساسها الحليب، معظم الحلويات أساسها الحليب، إذاً الله عزَّ وجل سخَّر هذه الأنعام.

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

الأنعام كلها مذلَّلة وهذه من نعم الله عزَّ وجل :

التذليل، لو أن الله عزَّ وجل ركَّب طِباع الضبع في الأغنام، هل تستطيع أن تحضرها إلى البيت في العيد؟ يلعب بها الصغار؟ لا يستطيعون، لو أنه سبحانه لم يذلِّلها لما استفدنا منها، إذاً هي مخلوقة تكريماً لنا، وفيها شيء قد لا تنتبه إليه، هو أنها منذ البدء مذلَّلة، مخلوقة مذلَّلة، قال:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: 42]

انظر إلى الجمل، فهو يزن ثلاثة أطنان أحياناً، أو طنين، أو طناً ونصف الطن تقريباً، لو كان غير مذلّل لدمَّر ما حوله، تجد طفلاً صغيراً يقوده، ينيخه شابٌ يافع، ويركب عليه ويمشي به لأنه مذلّل، الأنعام كلها مذلَّلة، هذه من نعم الله عزَّ وجل، فعندما يقرأ الإنسان قوله تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: 42]

ألا يشعر بعظمة هذه الآية؟ ألا يمتلئ قلبه امتناناً لله عزَّ وجل أن الحيوان مذلّل؟ معنى (أنزل) إذاً أي سخَّر لكم، تفضَّل عليكم، الله عزَّ وجل عظيم، فإذا أعطى شيئاً فهو بمعنى أنزل، يقول لك: أنا تنازلت عن حقي أي هناك نزول، الفضل ينزل من الأعلى، هذا معنى:

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

علم الأجنَّة وحده يكفي كي تؤمن بالله عزَّ وجل :

هذا الطفل الصغير، أي إذا أُتيح للإنسان أن يقرأ علم الأجنَّة، فعلم الأجنَّة وحده يكفي كي تؤمن بالله عزَّ وجل، فالطفل الصغير تراه كائناً جميل الصورة، له جمجمة، صندوق عظمي مغلق بمفاصل ثابتة، فيه تحرُّك بسيط ليمتص الصدمات، لو لم يكن هناك مفاصل بشكل خطوط منكسرة في الجمجمة لكان الطفل أول ما يقع على الأرض ويكسر رأسه يكسر، لكن أنت تسمع رنين رأسه على الأرض بشكلٍ صارخ، ومع ذلك ينجو من كسر الرأس، هذا بفضل وجود مفاصل بشكل خطوط منكسرة متداخلة، فإذا تلقى صدمةً تداخلت هذه المفاصل وامتصَّت الصدمة، والآن أحدث الأجهزة تبنى على هذه الطريقة، تجد فيها شيئاً من المرونة، وذلك لامتصاص الصدمات، تصميم من؟ وهذا الدماغ الذي فيه مئة وأربعون مليار خليَّة سمراء لا تُعرف وظيفتها بعد، وأربعة عشر مليار خليَّة قشريَّة فيها المحاكمة، والتفكُّر، والتذكُّر، والتخيُّل، والتصوُّر، ومركز السمع، والبصر، والرؤية، والحركة، وتوازن السوائل، والتوازن الحراري، ومركز الغدَّة النخاميَّة، موصول بها مئة وخمسون ألف عصب، ملكة الجهاز الهرموني، تفرز اثني عشر هرموناً، ملكة تسيطر على كل الغدد الصمَّاء في الجسم وزنها نصف غرام، مربوطة مع الجهاز العصبي بمئة وخمسين ألف عصب، تفرز مادَّة واحدة هي هرمون النمو مؤلَّف من مئة وثمانية وثمانين حمض أميني، والحمض الأميني أعقد تركيب كيماوي، ويجب أن يكون بالدم عشرة ميكرو غرام من هذا الهرمون لينمو النمو الطبيعي، وإلا يتعملق الإنسان أو يتقزَّم، أجل هذه النُخاميَّة تفرز اثني عشر هرموناً؛ هرمون النمو، والهرمون الجنسي، هرمون الثدي، إفراز الحليب، هرمون توازن السوائل، هرمون التوازن الحراري، أشياء لا يعلمها إلا الله.

الله عزَّ وجل يلفت نظرنا إلى آياته في أجسامنا :

قال تعالى:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)

أساسه نطفة صارت جمجمة، وأعصاباً، وخلايا عصبيَّة، وصار مخاً ومخيخاً، وبصلة سيسائيَّة، ونخاعاً شوكياً، وأعصاباً محوريَّة، أعصاب حركة، وأعصاب حس، وأوردة وشرايين، وقلباً، ودسَّامات محكمة تماماً، وثقب بوتال ينغلق عند الولادة، وتكون لديه دورة صغرى ثم تصير دورة كبرى، ورئتان، وشُعَب هوائيَّة، ومعدة فيها خمسة وثلاثون مليون عصارة هاضمة، تفرز لتراً ونصف اللتر من حمض كلور الماء، وهذا الحمض يتم الهضم به، وحتى الآن السؤال المحيِّر: لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟ أنت أحياناً تأكل أبوات،وهي عبارة عن معدة الخروف، فلماذا معدة الخروف هضمتها معدة

الإنسان وبينما معدتك لم تنهضم ذاتها؟ هذا سؤال كبير، لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟ فالله عزَّ وجل يلفت نظرنا إلى آياته في أجسامنا:

(خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ)

نطفة، هذه النطفة عبارة عن حوين يتألَّف من رأس وعنق وذنب، إذا دخل إلى البويضة التصق بها، فيه مادَّة نبيلة لها غشاء رقيق يتمزَّق الغشاء، وهذه المادَّة تؤثِّر بجدار البويضة، تثقبه وتدخل، ثم تغلق البويضة الباب، لقد اكتفت بواحد، لا تعدُّد أزواج عند البويضَّة، دخل أقوى حوين، الحوين فيه مورِّثات، الحوين فيه خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، أجل خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة في الحوين، وخمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة في البويضة.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

وبعد ذلك يجري الانقسام، تنقسم البويضة الملقَّحة إلى عشرة آلاف قسم دون أن يزيد حجمها، فهي تسير داخل أنبوب، والأنبوب رقيق، ودقيق جداً لو زاد حجمها لحبست، وفي الرحم يزداد حجمها؛ من نطفةٍ، إلى علقةٍ، إلى مضغةٍ مخلَّقةٍ، وغير مخلَّقةٍ، إلى عظمٍ، إلى لحمٍ، إلى طفلٍ صغير يبكي، ويبارك الأحبة لبعضهم، رزقوا مولوداً، طفل له عينان، وله أذنان، وله شعر، وله أنف، وله فم، وله لسان، وله يدان، وله أصابع، وله سُلاميَّات، يتحرَّك، يبكي، يضحك، يشرب حليباً، والطريق سالك ومفتوح، يحتاج إلى من ينظفه بعد ذلك، انهضم الحليب، فكل الآيات بين أيدينا، بين أيدينا جميعاً.

الظلمات الثلاث :

قال تعالى:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

ظلمة غشاء الجنين، الغشاء الذي يحيط بالجنين هذا هو الخلاص، وظلمة الرَحِم، وظلمة بطن المرأة، البطن مظلم، بداخله الرحم، بداخل الرحم الجنين.

الرحم هذا العضو في المرأة، حجمه سبعة ونصف سنتيمتر مكعَّب، أي كالإجاصة تماماً، بعد الحمل يكبر حجمه ويأخذ كل حيِّز البطن، لكن كيف يخرج الجنين؟ قال تعالى:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

هناك هرمون يأمر عظم الحوض فيتباعد، الولادة عمليَّة في منتهى التعقيد، لو درستم عِلم الأجنَّة وعلم الولادة شيءٌ لا يُصدَّق، الجهاز العظمي، الحوض يتمفصَّل ويتباعد قال:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

تجد أن الطفل الصغير رأسه تقريباً قريب من عرض كتفيه، له نسب غير نسب الكبير، لو كان رأسه بحجم كتفيه لما استطاع الخروج، لكن له شكل انسيابي تقريباً يخرج بواسطته.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

قلب الأم المؤمنة وحده آيةٌ من آيات الله عز وجل :

قيل: إن الرحم عندما يضغط جراء الطلق فلو أن الطريق مفتوح أمامه لقذف الطفل اثني عشر متر، أقوى عضلة في النوع البشري هي عضلة الرحم، هذا الرحم يتقلّص تقلُّصاً خفيفاً لطيفاً ليخرجه شيئاً فشيئاً، بعد أن يولد يتقلّص الرحم تقلُّصاً شديداً، قالوا: هذا التقلُّص الشديد من أجل أن يغلق عشرات ألوف الأوعيَّة الدمويَّة التي فُتِحَت، الطبيب أو القابلة تضع يدها على الرحم فتراه كالصخر فتقول: ولادة سليمة، الرحم بعد الولادة يصبح صخرياً، تقلُّصه قبل الولادة تقلُّص لطيف لئلا يموت الطفل، بعد الولادة تقلُّص عنيف، العلماء قالوا: لو انقلب حال هذه التقلُّصات لماتت الأم ووليدها، لو كان التقلُّص قبل الولادة تقلُّصاً حادّاً لمات الطفل، ثم بعد الولادة لو كان التقلُّص لطيف لماتت المرأة من النزيف، فتصميم من؟ تصميم الله عزَّ وجل، هذا خلق الله، قال:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

هذا هو الله، هذه أفعاله، هذا خلقه، يتبدَّى من خلال خلقه علمه، وحكمته، وخبرته، ورحمته، ولطفه، ومحبَّته، هناك حيوانات تأكل أطفالها، لكن الإنسان مكرَّم، ربنا عزَّ وجل أودع في قلب الأم رحمة ما بعدها رحمة، قلب الأم وحده آية من آيات الله، طبعاً أعني المؤمنة، قلبها وحده آيةٌ من آيات الله عزَّ وجل.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

لا إله غيره، إلى أين أنتم ذاهبون؟

كل الخير والسعادة من طريق الإيمان :

قال تعالى:

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

فأين تذهبون؟ السعادة من هنا، السعادة، والسلامة، والراحة النفسيَّة، والطمأنينة، وسعادة الآخرة، والبرزخ، والقبر، والتوفيق في الدنيا بالزواج، وبالعمل، وبالصحَّة، كل الخير من طريق الإيمان، وهو والكافر يسير بالعكس، فإلى أين يمضي؟ إذا رأى الوالد ابنه وقد هيَّأ له أسباب الدراسة في مدرسة من أرقى المدارس، وأعطى له كل لوازمه، ثم رأى الوالد ابنه يمشي في طريق آخر يقول له: إلى أين ذاهب؟ تعال إلى هنا، إلى أين تجري؟ إن هذا الطريق الذي أنت فيه طريق اللهو والضياع، هنا طريق العلم، طريق المستقبل، ربنا عزَّ وجل قال:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

لا إله إلا هو، لا إله غيره، فأنَّى تصرفون؟! والآياتِ الأخرى نتابعها إن شاء الله تعالى في الدرس التالي يقول الله عزَّ وجل:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

هذه الآية إن شاء الله نؤخِّرها إلى درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (04-20): تفسير الآية 7 كل إنسان محاسب على عمله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلائق خلقوا ليكونوا كسيدنا محمد ولكن الله أعطاهم الاختيار :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة من هذه السورة، يقول الله جل جلاله:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

الله جل جلاله فيما رواه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي عن ربه، يقول:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً))

[مسلم عن أبي ذر]

لو أن الخلائق منذ آدم وإلى يوم القيامة كانوا كسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تقوى وصلاحاً، مع أنهم خلقوا ليكونوا كسيدنا محمد، ولكن الله أعطاهم الاختيار، لو أنهم فرضاً كانوا جميعاً كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً))

[مسلم عن أبي ذر]

الإنسان وجوده ليس ذاتياً هو مفتقر للآخرين لكن الله تعالى لا يتعلّق وجوده بجهةٍ أخرى:

تصور أعتى العتاة، أشد المجرمين إجراماً، أبعدهم عن الله عزَّ وجل، لو أن الخلائق كلها كانت كإبليس، قال:

((مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

هذا الحديث القُدسي يفسر إلى حدٍ ما قوله تعالى:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

الله عزَّ وجل غني، واحدٌ أحد، فردٌ صمد، وجوده لا يتعلّق بغيره، أما نحن كبشر وجودنا معلقٌ بغيرنا، نحن مفتقرون إلى الله في وجودنا، وفي استمرار وجودنا، وفي سلامة وجودنا، وفي كمال وجودنا، بل الأعظم من ذلك في ضعفنا أننا مفتقرون إلى شخصٍ من بني جلدتنا، فالله عزَّ وجل أودع في الرجال حاجة إلى نظائرهم، والعكس صحيح، إذاً الإنسان وجوده ليس ذاتياً، هو مفتقر، لكن الله عز وجل لا يتعلّق وجوده بجهةٍ أخرى، لذلك:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

الإيمان تصديق وإقبال أما الكفر فتكذيب وإعراض :

لكن من شأن الغني أنه يستغني، ومن شأن الغني أنه يتعالى، ومن شأن الغني أنه يتباعد، لكن الله عزَّ وجل مهما تحدثت عن قوته، وعن استغنائه، وعن علمه، وعن كماله، فهو قويٌّ ولكنه كامل، لذلك أسماء الله الحسنى يتجه بعضها إلى أن يؤكّد فكرةً أساسيةً وهي أن الله قويٌّ، وغنيٌّ، وخبيرٌ، وسميعٌ، وبصيرٌ، لا يعجزه شيء، ولا ينأى عن علمه شيء، وفي الوقت نفسه الله جلَّ جلاله رحيمٌ، وكريمٌ، وودودٌ، ولطيفٌ، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، إذاً أسماء الله الحسنى بعضها يؤكّد قوته، وبعضها يؤكّد كماله، إذاً فالله غني..

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

لكن لأنكم مطلوبون للرحمة، لأنه خلقكم ليسعدكم، لأنه خلقكم ليرحمكم.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

لأنه خلقهم لسعادةٍ أبديةٍ، لأنه خلقهم لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، لأنه خلقهم ليتفضَّل عليهم، لأنهم مطلوبون لرحمته لا يرضى لعباده الكفر.

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

بعد فالسؤال الذي يطرح نفسه، ما الكفر؟ الكفر التكذيب والإعراض، التكذيب صفة عقلية، والإعراض صفة نفسية، بل إن الإعراض من نتائج التكذيب، إذا كذَّبْتَ أعرضت، إذا استنصحت إنساناً، ثم رأيت أنه لا يفقه شيئاً، هل تنفذ نصيحته؟ لا، الإعراض عن تنفيذ نصيحته من لوازم عدم تصديقك إيَّاه، فالكفر في حقيقته تكذيبٌ بما جاء عن الله عز وجل، والإنسان حينما يكذّب بما جاء عن الله عزَّ وجل فمن لوازم التكذيب الإعراض، لكن ماذا يقابل الكفر؟ الإيمان، الإيمان تصديق والتفات وإقبال، الإيمان تصديق وإقبال، الكفر تكذيب وإعراض، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، فالآن شأن معظم المسلمين إيمانهم إيمان التمنِّي، هم غارقون في شهواتهم، غارقون في متعهم، بعيدون عن تطبيق منهج ربهم، ومع ذلك لسانهم كثيراً ما يرجو الله أن يدخلوا الجنة، يا رب أدخلنا الجنة، يا رب نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، يا رب لا تعاملنا على عملنا، هكذا المسلمون، العاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي.

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي :

طبعاً هناك مظاهر إسلامية كأن تلبس لباساً إسلامية، وتمسك سبحة، وتعلِّق في بيتك آيات قرآنية، والله هذا شيء جميل، لكن يا ترى هل في تعاملك التجاري ربا؟ يا ترى علاقاتك الاجتماعية فيها اختلاط؟ يا ترى هل عندك ورع؟ هذا هو التحلي وذاك هو التمني، والنبي عليه الصلاة والسلام نفى أن يكون الإيمان تمنياً ونفى أن يكون تحلياً، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الإيمان أيها الأخوة أن تؤمن بالله، أن تؤمن بوجوده، وأن تؤمن بوحدانيَّته، وأن تؤمن بكماله، والإيمان بالله عزَّ وجل يتأتَّى من جهدٍ، أجل جهد، فهل هناك إنسان ينال درجة دكتوراه وهو نائم؟ يقول لك: سنوات وسنوات وأنا أسهر الليالي؛ أدرس، وأطالع، وأراجع، وأدقق، وأمحِّص، وأكتب، وأراجع، وأعيد الكتابة، وأعرضها على أستاذي يقول لي: أعد هذا الفصل، ما نال لقب دكتور ولا أضاف على اسمه (د) أثناء التوقيع إلا بعد أن أمضى سنواتٍ وسنوات يقرأ، ويطالع، ويمحِّص، ويبحث، ويحصي.

هكذا الإيمان؟ لكن هذه الدكتوراه من أجل سنوات معدودة، الإنسان يعيش بعدها عدة سنوات؛ سنتين، ثلاثاً، خمساً، عشرَ سنواتٍ، ثلاثين وبعد ذلك يقال لك: المرحوم الدكتور فلان، فالدكتور يموت بعد ذلك،

طبعاً درجة دكتوراه، أو ماجستير، أو ليسانس، أو شهادة عليا، ليست مرتبة علمية بسيطة، حتى الشهادة الثانوية ألا تحتاج إلى جُهد؟ تريد إيماناً، إيماناً يستحق صاحبه دخول الجنان، من دون جهد؟ من دون مجلس علم؟ من دون تفكُّر؟ من دون تأمُّل؟ من دون دراسة؟ من دون مطالعة؟ من دون تعلم؟! فهذا مستحيل.

لذلك من ظن أن الإيمان قضية تصديق فقط فهو مخطئ، هذا الإيمان التصديقي لا يقف على رجلين، لا يصمد أمام امرأةٍ جميلة، لا يصمُد أمام مبلغ كبير، أمام مبلغ من المال، يقولون لك: تداعى إيمانه، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عما يكون آخر الزمان قال لك:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ))

[أحمد عن أبي هريرة]

اقرأ القرآن تجد أن حيزاً كبيراً جداً في آيات الله كلُّها موجهةٌ إلى إيقاظ الفكر :

هذا الإيمان التصديقي، والله أنا أسلمت والحمد لله، أشهد ألا إله إلا الله، من دون جهد، من دون بحث، من دون تمحيص، من دون تأمُّل، من دون تفكُّر، من دون طلب علم، من دون أن تجلس على ركبتيك ساعة أو أكثر في مجلس علم تستمع إلى تفسير كتاب الله، فالذي يضنُّ بنفسه أن يستمع إلى الحق أنَّى له أن يؤمن؟

على كلٍ من أجل أن تؤمن إما أن تستمع إلى الحق جاهزاً، بأن تحضر مجلس علم، وإما أن تقرأ، وإما أن تتأمَّل، لا بدَّ من طريقة بل من طرق عديدة لاكتساب المعارف، ربما كان أقرب إلى نفسك حضور مجالس العلم، وربما كان أقرب إلى نفسك قراءة القرآن الكريم وقراءة التفاسير لمعرفة معانيه الدقيقة، وربما كان أقرب إلى نفسك التفكُّر في خلق السماوات والأرض، على كلٍ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، خلقه يدلُّ عليه آياته الكونية، وأفعاله تدل عليه آياته التكوينية، وكلامه يدلُّ عليه آياته القرآنية، اقرأ القرآن تجد أن حيزاً كبيراً جداً في آيات الله، كلُّها موجهةٌ إلى إيقاظ فكرك..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

الله أشار إلى التفكُّر.

أهمية العلم وقيمته :

الله أشار إلى التلاوة: يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار..

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

[سورة فاطر: 29]

وأشار إلى العلم.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل:43]

أشار إلى طُرق العلم الثلاثة، طريقة أخذه عن أهله..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل:43]

وطريقة التفكر في خلق السماوات والأرض، وطريقة طلبه مشافهةً، أو مطالعةً، أو تأملاً.
إذاً الإيمان يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى وقت، لكن ثمار الإيمان كبيرة جداً، المؤمن مستنير، إيمانه يحرسه عن أن يقع في انحرافٍ أو خروج عن منهج الله عزَّ وجل، وإذا بقي على الطريق المستقيم سعد في الدنيا والآخرة، قال سيدنا علي رضي الله عنه:" يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق".
مرة سألت طُلاَّبي قلت لهم: من يذكر لي اسم رجلٍ غني عاش في عام ألفٍ وثمانمئة وسبعة وستين في دمشق وله عندي علامةٌ تامة، ففكروا ملياً، وانتظرت دقائق، فلم تنجدهم ذاكرتهم باسم رجلٍ غني عاش في تلك الفترة في دمشق، فلم يجيبوا، فقلت لهم: وأنا معكم لا أعرف، لكن سيدنا علي يقول: " يا بني مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".

العلم أساس العمل والعمل أساس السعادة :

لا يرفعك إلا طلب العلم، ولا يعلي شأنك إلا أن تكون عالماً، والله جل جلاله لم يعتمد أيَّة قيمة اعتمدها الناس في التفاضل فيما بينهم، هناك قيَم كثيرة، المال قيمة، والصحة قيمة، والشأن قيمة، والوسامة قيمة، والغنى قيمة، هذه قيمٌ زائلة؛ ولكن الله سبحانه وتعالى اعتمد قيمة العلم، قال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

وقال:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

[سورة طه: 114]

فأنت حينما تحضُر مجلس العلم، أو حينما تتلو كتاب الله، أو حينما تفكّر في خلق السماوات والأرض، فأنت في طريق العلم الموصل إلى الله.

ويجب أن تعلم أيها الأخُ الكريم علم اليقين أن هناك أشياء ثلاثة توصلك إلى الله، أولها العلم، وثانيها العلم، وثالثها العلم، أي العلم وحده ولا شيء آخر إلا العلم، لأن العلم أساس العمل، والعمل أساس السعادة، ثلاث مراحل، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

العبادة طاعة أساسها معرفة تفضي إلى سعادة، الهدف الكبير أن تسعد بالقُرب من الله عزَّ وجل، ولن تسعد بقربه إلا إذا كنت عند نهيه وأمره، ولن تطبِّق أمره وتتنحَّى عن نهيه إلا إذا عرفته، لهذا ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

ما استقرّ الإيمان في قلب مؤمن إلا أكّد نفسه بالعمل الصالح :

إذاً نحن يجب أن نؤمن حقاً، أما الإيمان التصديقي فهو إيمان العجائز، إن نفع صاحبه في حينٍ من الدهر إلا أنه الآن لا ينفع، لماذا؟ لكثرة الشهوات، والفِتَن، والضلالات، والموبقات، والضغوط، والإغراءات، نحن في آخر الزمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر، أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، قالوا: ولم؟ قال: لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

أي أن الإيمان التصديقي من دون بحث، من دون دَرس، من دون تأمُّل، من دون تفكُّر، من دون طلب علم، من دون بذل جهد، هذا الإيمان التصديقي لا يقف أمام الشهوات، ولا يكفي، ولذلك تفاجأ أن كثيراً من المسلمين يقعون في أعمالٍ منحرفةٍ أشدَّ الانحراف، يقلّدون أهل الكفر؛ في حفلاتهم، وفي أحزانهم، وفي تجارتهم، وفي حركاتهم، وفي بيعهم وشرائهم، لماذا؟ لضعف إيمانهم، في زمن الفِتَن، وزمن الشبهات، وزمن الضلالات، وزمن الضغوط، وزمن الإغراءات، لا يستطيع الإيمان الشكلي، ولا الإيمان العفوي، ولا الإيمان التصديقي، ولا إيمان التقليد أن يعصمك من المعصية، أساساً في ظروف،

الانعطافات الخطيرة في المجتمعات لن تجد حلاً وسطاً، إما أن تؤمن أدق الإيمان، وأعمق الإيمان، وأشد الإيمان كي تنجو؛ وإما أن تنساق مع التيَّار الذي ينتهي إلى جهنم وبئس المصير.

فالقضية ليست سهلة لأن المعاصي حولك من كل جانب، والإغراءات تلوح برّاقة من كل جهة، يكفي أن تخرج من بيتك إلى عملك، هناك فتنٌ ما بعدها فتن في الطريق، ما الذي يجعلك تغضُّ بصرك عن محارم الله؟ هو الإيمان، ما الذي يحملك على أن تكون صادقاً؟ هو الإيمان، ما الذي يحملك على أن تتحرى الحلال في كسبك؟ هو الإيمان، فالإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقِوام الضمائر، وأساس العزائم، وبلسم الصبر عند الشدائد، الإيمان هو كل شيء، الإيمان تصديق، ومع التصديق إقبال، وبعد الإقبال عمل صالح، ما استقر الإيمان في قلب مؤمن إلا أكَّد نفسه بالعمل الصالح، لذلك ما من آيةٍ في كتاب الله في الأعَمّ الأغلب ذَكَرَت الإيمان إلا واتبعته بالعمل الصالح..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة الآية: 7]

لأن الإيمان من دون عمل كالشجر بلا ثمر، الإيمان بلا عمل جنون، والعمل بلا إيمان لا يكون، فنحن نُريد أن نؤمن، فعلينا إذاً أن نخصِّصَ وقتاً للإيمان، وقتاً لطلب العلم، وقتاً لقراءة القرآن، وقتاً كما أمرنا الله عزَّ وجل للتفكُّر في الأكوان.

طريق الإيمان هو طريق التفكر :

كيف تعرف الله؟ الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، مستحيل، فحواسك أعجز من أن تعرفه..

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

[سورة الأعراف: 143]

إذاً، مستحيلٌ بهذا المخلوق الحادث المادي العاجز أن يرى ذات الله عزَّ وجل، لكن كل ما حولك في الكون يدلُّ عليه، فطريق الإيمان هو طريق التفكر، التفكُّر له جانب، بعد أن تتفكَّر وتوقن بوجوده، وبكماله، وبوحدانيته، عندئذٍ يتيسر لك أن تعبده، ويأتي القرآن يقول لك: افعل ولا تفعل، القرآن له وظيفة، والكون لو وظيفة، الكون يدعوك إلى الإيمان به، والقرآن يدلك على طريقة عبادته، فأنت بالكون تعرفه وبالقرآن تعبده، وخلاف ذلك فهلاكٌ محقق، لأنه ليس أمامك حل وسط، فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

الناس رجلان، تقسيمات البشر الآن لا تعدُّ ولا تحصى، يقول لك: عرق آري، عرق سامي، هذا من الأنجلو ساكسون، هذا أوربي، هذا أسيوي، هذا إفريقي، هذه شعوب دول الشمال دول الجنوب، الدول

المتقدمة والدول المتأخرة، القوى العاملة القوى المستغلّة، تقسيمات لا تنتهي ولا تعد ولا تحصى، وهذا منتمٍ وهذا غير منتمٍ، وهذا خلفيته كذا، وهذا انتماؤه كذا، كن على صعيد الحقيقة لا تجد إلا تقسيمين؛ مؤمن وكافر، مصدق مقبل، مكذب مدبر، متصل منضبط، محسن منقطع، متفلّت مسيء.

((فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي ابن عمر]

التقابل في القرآن الكريم :

الناس رجلان ليس هناك تقسيم ثالث، مؤمنٌ فهو على الطريق الصحيح، على المنهج الصحيح، مؤمن يحقق الهدف من وجوده، يسعى إلى طاعة ربه. لذلك التقابل في القرآن: الذين آمنوا والذين كفروا، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين كفروا اجترحوا السيئات، وربنا عزَّ وجل يطمئن عباده، فيقول لك:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

أهكذا تظن أيُّها الإنسان؟ هذه سذاجة، منتهى السذاجة، منتهى الغباء، منتهى الجهل أن تظن أن الذي آمن بالله عزَّ وجل، وتعرَّف إلى أمره ونهيه، وطبَّق أمره واجتنب نهيه، وتقرَّب إليه بالأعمال الصالحة، ووجده الله حيث أمره وفقده حيث نهاه، من السذاجة أن يعامل هذا المؤمن كما يعامل الفاسق، كما يعامل الكافر، كما يعامل المسيء، كما يعامل العاصي، فهذا الظن من السذاجة..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

مصادر الإيمان ثلاثة والطرائق ثلاث و هذا هو الإيمان :

الله عزَّ وجل قال في آية أخرى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق: 9-10]

هذا الذي ينهى عن الصلاة، هذا الذي يحارب دين الله عزَّ وجل، هذا الذي يريد أن يطفئ نور الله، دعك من كلامه، دعك من فلسفته، دعك من مَنطقه، دعك من حُججه، دعك من منطلقاته، انظر إلى أفعاله تجد الدناءة، والأنانية، والتناقُض، والكَيل بمكيالين، هذا الإنسان هو أقل من أن تلتفت إليه، هو أحقر من أن تصغي إلى كلامه.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق: 9-10]

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

[سورة العلق: 11-12]

انظر إلى شهامته، انظر إلى ورعه، انظر إلى رحمته، انظر إلى مروءته، انظر إلى عطفه، انظر إلى لطفه، انظر إلى صدقه، انظر إلى إنصافه هكذا.

أيها الأخوة، تقسيمان، الناس رجلان مؤمن بالله؛ إما من طريق آياته الكونية، أو من خلال آياته التكوينية، أو بفعل آياته القرآنية، هذه المصادر، الطرائق: إما تفكراً، وإما دراسةً، وإما استماعاً، يمكنك أن تستمع للحق جاهزاً، طبخة جاهزة، يمكن أن تعدها أنت، تتأمَّل، فالمصادر ثلاثة، آياته الكونية والتكوينية والقرآنية، الطرائق ثلاثٌ؛ المدارسة، الاستماع، التأمُّل، هذا هو الإيمان، فالإيمان جهد، الإيمان معرفة، الإيمان بحث، الإيمان يقين..

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت: إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما

* * *

قول الشاعر هذا إيمان مع تردد وارتياب لا يكون، هذا ليس إيماناً.

الإيمان ليس معه ارتياب وتردد بل هو يقين :

الإيمان ليس معه ارتياب وتردد، ليس معه ظنّ، بل هو يقين:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

ولا يقول:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

عندنا علم اليقين، وعندنا عين اليقين، عندنا حق اليقين، علم اليقين: أن ترى دخاناً وراء جدار، فتحكم يقيناً وأنت بهذا تحكم مئة بالمئة أن هناك ناراً، إذ لا دخان بلا نار، هذا علم اليقين. فإذا تحرَّكت إلى خلف الجدار ورأيت بأم عينك لهيب النار، هذا ما اسمه؟ هذا عين اليقين. فإذا لا سمح الله ولا قدَّر أصابت النار جلد الإنسان، وصاح من شدة ألمه، هذه حق اليقين؛ علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

لذلك، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات فإذا رأى أن العبد قد انقطع رزقه وانقضى أجله ألقى عليه غم الموت فغشيته سكراته فمن أهل البيت الضاربة وجهها والممزقة ثوبها والصارخة لويلها، يقول ملك الموت: مم الجزع وفيم الفزع، ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم ولبكوا على أنفسهم.

الله عز وجل قدَّم الموت على الحياة لا تقديماً زمنياً بل تقديماً رُتَبيَّاً :

أحياناً يتوفّى للإنسان قريب، هذا القريب حالته المادية جيدة، من وفاته جاءهم ميراث ضخم حل بعض مشكلاتهم وتنفرج أمورهم، فينسوا أنهم سيموتون نتيجة، وتشغلهم دنياهم، ثم يفاجئهم بالموت..

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة   فـاعلم بأنك بعدها محمـول

* * *

أيها الأخوة، التفكُّر في الموت ليس تشاؤماً، هو عين الواقعية، أحياناً الإنسان يقول لك: أنا واقعي وينسى أنه سيموت، أنا واقعي، أنا رجل علم ويتناسى الموت، العلم يقول لك: لا بُدَّ من أن تموت، والواقع يؤكّد ذلك، وما دام أن هذا أخطر حدث بحياتك، أجل أخطر حدث نهاية الحياة فلا بدَّ من الاستعداد له، بل إن الله عز وجل في القرآن الكريم قدَّم الموت على الحياة، لا لأن الموت قبل الحياة، الموت بعد الحياة، يحيي ويميت، هذا الترتيب الزمني، لكن قدَّم الموت على الحياة لا تقديماً زمنياً بل تقديماً رُتَبيَّاً، قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

انفتاح العام الدراسي شيء لطيف جداً، الخيارات كلُّها أمام الطالب؛ لكن أداء الامتحان شيء مصيري، ليس هناك حالة ثالثة، إما ناجح وإما راسب، فلذلك أخطر حدث بحياة الإنسان هو انتهاء حياته، لأن حياته رأسمالِه الوحيد، حياته سبب سعادته الأبدية أو شقائه الأبدي، فأن تنتهي الحياة على نحوٍ معيَّن هذا شيء خطير جداً، فلذلك المؤمن يعرف أن أثمن شيءٍ يملكه هو الوقت.

نحن الآن مدعوّون إلى طاعة الله فإن لم نستجب فالله عزَّ وجل يستبدل قوماً غيرنا:

الإيمان الإيْمان الإيمان أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

متاعٌ قليل، العظيم يقول لك: متاعٌ قليل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التوبة: 39]

نحن الآن مدعوّون إلى طاعة الله، فإن لم نستجب فالله عزَّ وجل يستبدل قوماً غيرنا، هذه المعاني كلها ساقتها لكم الآية:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

لا تمُنّ على الله إسلامك ولا تمن عليه إيمانك هو يمنُّ عليك أن هداك للإسلام :

قال تعالى:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

[سورة الحجرات: 17]

لا تمُنّ على الله إسلامك، ولا تمن عليه إيمانك، هو يمنُّ عليك أن هداك للإسلام.

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

يقول بعضهم: أأنت تدعوني لأصلي؟ فماذا جاءنا من الصلاة، ويقول آخرون: وها نحن قد صلينا فماذا له عندنا أيضاً؟ هذا كلام الناس، الله عزَّ وجل غني عنك، وعن صلاتك، وعن صيامك، وعن حجك، وعن زكاتك، وعن عبادتك كلها، وعن طاعتك:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[سورة الروم: 44]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

[سورة فصلت الآية: 46]

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

لكن لكماله، ورحمته بكم، وحرصه على سعادتكم، ولأنه خلقكم ليسعدكم، خلقكم ليرحمكم.

الله خلق الكون وسخره للإنسان تسخير تعريفٍ ليؤمن بالله وتكريم ليشكره على نعمه:

قال تعالى:

(وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

فأنت مخلوق من أجل أن يسعدك الله، فإذا أنت قبلت هذا العرض العظيم، وسرت في طريقه القويم، وسعدت بإيمانك، فقد حققت مراد الله من خلقك، إذاً يرضى عنك، ويشكر لك إيمانك به واستقامتك على أمره:

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

ولذلك فالله عزَّ وجل لما خلق الكون، خلق الكون وسخره لهذا الإنسان تسخير تعريفٍ وتكريم، فردّ فعل التعريف أن تؤمن به، ورد فعل التكريم أن تشكره على نعمائه، فإذا آمنت به وشكرته، فقد حققت المُراد من وجودك، إذاً ينتهي العلاج، وهذا مصداق قوله تعالى:

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 174]

لذلك دقق الفكر والنظر: أنه إذا جاءت الأمور على خلاف ما تريد، فهذه إشارة من الله إلى أنَّك لست على الخط الصحيح، فالخط الصحيح أن تؤمن وأن تشكر، والشكر عمل، والدليل قول الله عز وجل:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

[سورة سبأ: 13]

يجب أن نؤمن وأن نعمل صالحاً شكراً لله على منحة الوجود والإمداد والهداية :

إذاً الخط الصحيح والمنهج القويم أن تؤمن وأن تعمل صالحاً شكراً لله على منحة الوجود والإمداد والهداية، إن لم تكن كذلك فقد خرجت عن الطريق الصحيح، وعندئذ ليتحمَّل الإنسان ما يسوقه الله له، أعرابيٌ جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي أَمْراً فِي الإِسْلَامِ لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ...))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِيهِ]

نظر الأعرابي وقال: أريد أخف من ذلك. فقال له: إذاً فاستعد للبلاء، أمر سهل أن تطبق عملياً، أحد الناس قال لمهندس: الحديد المخصص للبناء كثير، أريده أقل. لا مانع إذاً فتهيَّأ لسقوط البناء، هذا علم،

الإسمنت له حجم مُعين والحديد له كمية معينة، تريد أقل من الكمية فلا مانع ولكن استعد لهبوط البناء أن يقع فوق رؤوس أصحابه، علم، قال: أريد أخف من ذلك. فقال له: إذاً فاستعد للبلاء. إذاً نحن إذا تعاملنا مع الله عزَّ وجل لنتعامل وفق القرآن الكريم وعندها نرتاح، قواعد واضحة، ربنا عزَّ وجل التعامل معه تعامل بكلام ثابت، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

[سورة إبراهيم: 27]

التعامل مع أصحاب الأمزجة المتغيِّرة شيء متعب جداً، لا تعرفه على أيِّ حال هو يتصرف، لكن ربنا عزَّ وجل كلامه واضح، قوانينه واضحة، قرآنه واضح.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

إن اتبعت هدى الله لا يضل عقلك ولا تشقى نفسك :

الآية واضحة مثل الشمس.

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس: 62-63]

آمن بالله واستقم على أمره.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه:124]

انتهى الأمر:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

شيء عظيم، إن اتبعت هدى الله عزَّ وجل لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تخف مما هو آت، ولا تندم على شيءٍ فات، فهل هناك أرقى من هذا، هذا كلام الله عز وجل.

الشكر قبله إيمان والإعراض قبله كفر :

إذاً:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

الشكر قبله إيمان والإعراض قبله كفر، والكفر تكذيبٌ وإعراض، والإيمان تصديقٌ وإقبال، أجل تكذيب وإعراض كفر، تصديقٌ وإقبالٌ وإيمان، لذلك فالله عزَّ وجل قال في بعض الأحاديث القدسية فيما رواه النبي عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

والنبي حدثنا بقصة رمزية، أن أعرابياً ركب ناقته وعليها شرابه وزاده، وانطلق بها في الصحراء، أراد أن يستريح في ظل نخلةٍ فأفاق فلم يجد الناقة، أيقن بالهلاك لأن عليها زاده وشرابه، فجلس يبكي حتى غفلت عينه، ثم أفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه قال: " يا ربي أنا ربك وأنت عبدي ". فقال عليه الصلاة والسلام: لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته.

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا فَتَسَجَّى لِلْمَوْتِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةَ الرَّاحِلَةِ حِينَ بَرَكَتْ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا هُوَ بِرَاحِلَتِهِ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

لذلك:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد عَنْ عقبة بن عامر]

((إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

السكينة التي تتنزَّل على قلب المؤمنين خيرٌ من الدنيا وما فيها :

والله عزَّ وجل قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: 54]

فالإنسان يفتخر بمحبة إنسان قوي، يقول لك: انظر هذه صورة لي معه، تعشينا مع بعض، زارني بالبيت، يعلِّق صورته على الحائط، تفتخر بإنسان ولا تفتخر بالواحد الديان!! لكن الله قال عن قوم:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: 54]

الله يحبك، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

هو يوادّك، الله ودود، كنت في حفل قران، ذكرت لأخ جالس إلى جنبي نص الدعاء؛ يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ هذا الذي لم يعرف الله عزَّ وجل، لو ملك أغلى ثروةً في العالم، سيأتي الموت وتنتهي هذه الثروة إلى ورثته، لو كنت أقوى رجل، لو كنت أغنى رجل، لو كنت أذكى رجل، لو كنت أكثر الناس حظوظاً في الدنيا، يأتي الموت فينهي كل شيء، فمن هو السعيد؟ الذي عرف الله عزَّ وجل، لذلك إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه؛ ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين. هذه السكينة التي تتنزّل على قلب المؤمنين خيرٌ من الدنيا وما فيها.

الآية التالية قاعدة أساسية في تعامل الله مع خلقه :

قال تعالى:

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

هذه قاعدة أساسية في تعامل الله مع خلقه، كل إنسان محاسَب على عمله، لا يؤخذ إنسانٌ بجريرة إنسان، لا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى، أبداً، بل كل نفس بما كسبت رهينة.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

النبي قال:

((يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً))

[أخرجه أحمد و الشيخان و الترمذي عن أبي هريرة]

لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً أصحابه:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إن صحَّت علاقتك مع الله هذا هو الإيمان، علاقتك مع الله فقط، فراقب الله عزَّ وجل في خلوتك وفي جلوتك، في سرك وفي جهرك، في بيتك وفي طريقك، وفي عملك، وفي بيعك وشرائك، هذا هو الإيمان.

آيات تؤكد أن أفضل إيمان المرء أن تعلم أن الله معك حيثما كنت :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء:1]

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

[سورة الأنفال: 24]

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق: 16]

أفضل إيمان المرء أن تعلم أن الله معك حيثما كنت.

أدلة من القرآن الكريم تؤكد أن كل إنسان يحاسَب على عمله :

إذاً:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

كل إنسان محاسب، والله هناك أدلة، فامرأة فرعون قالت:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

قد تكون امرأةٌ في أعلى درجات الإيمان ولها زوجٌ فاسقٌ فاجر، والعكس صحيح، فاعتبره على كلٍ:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

عمه، عم النبي،

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

سلمان الفارسي (سلمان منا آل البيت) هذا الإسلام، فالإسلام ليس فيه تفرقة.

من أيقن أن الله يعلم وسيحاسبه لا بد من أن يستقيم على أمر الله :

قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

نعمة الأمن هذه من نصيب الذي عرف الله عزّ وجل واستقام على أمره ولم يقع في ظلمٍ دقيقٍ أو جليل.

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أخواننا الكرام،إذا الإنسان أيقن أن الله يعلم، وأيقن أنه سوف يحْشَرُ إليه، وأيقن أنه سيحاسبه، لا بد من أن يستقيم على أمر الله، أنت إذا أيقنت أن بشراً يعلم ما عندك: فإذا استوردت بضاعة، بعثت نسخة للمالية، وتقدم حساباتك وتذكر الصفقة، لأنهم يعرفونها، إذا أغفلتها تعرض تجارتك لخطر، أنت تتعامل مع إنسان أخذ صورة عن استيرادك، وتعترف بكل ما يتعلق بالصفقة، لماذا؟ لأنك موقن أنه يعلم وسوف يحاسب، وقدير، فربنا عزّ وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

إذا آمنت أن علمه يطولك، وأنك سوف تنتهي إليه، وسوف يحاسبك، فتستقيم على أمره، لذلك الناس يتعجبون من المؤمن، لماذا هو مستقيم إلى هذه الدرجة؟ بعضهم يقول له: لا تحتاج لكل هذا!! العَجَب بالعكس، عليهم أن يعجبوا ممن يعصي الله، كيف يعصيه؟! كيف سيقابله؟ كيف سيقف بين يديه؟ ماذا يقول له؟!

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس: 65]

يوم القيامة الأمر كلّه مسجل علينا والأعمال تعرض على صاحبها بكل تفاصيلها :

لذلك المصير إليه:

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

عملك، حجم عملك، نواياك، مؤدَّى عملك، مضاعفات عملك، آثار عملك، كله في علم الله عزَّ وجل، فإن قلت: أنا لست متذكراً.

(أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)

[سورة المجادلة: 6]

احذر فليس لك أن تنسى، والأمر كلُّه مسجل عليك، والأعمال تعرض على صاحبها بكل تفاصيلها، قال بعضهم:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

[سورة المطففين: 7]

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

[سورة المطففين: 9]

ما معنى مرقوم؟ أي أن الكتاب مرقَّم، ولا تستطيع أن تخفي صفحة منه، هذا معنى، والمعنى الثاني من الرَّقْم وهي الصورة، المخالفة مع صورتها، الدفتر مرقَّم والمخالفات مصورة.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

الإنسان يريد من الله الكرامة والله يطلب منه الاستقامة :

لذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، أرجحكم عقلاً من كان وقَّافاً عند كلام الله، أنت تريد من الله الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة.

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

يعلم نفسك على حقيقتها.

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ)

معنى (وازرة) من الوزر وهو الحمل، (لا تزر) لا تحمل نفسٌ حاملةٌ حمل غيرها، هذا المعنى الدقيق.

لا تحمل نفسٌ حاملةٌ حمل غيرها، كل إنسان محاسب على عمله.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نعرض صفة الإنسان:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (05-20): تفسير الآيتان 8-9 المصائب والنعم والعلم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

كل ما يسوقه الله جلَّ جلاله لعباده في الدنيا إنما يسوقه لهم من أجل أن يقرِّبهم إليه:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة الزُمَر، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

أولاً: كلمة الضُر، ليس في أفعال الله سبحانه في الكون ضرٌ مقصودٌ لذاته، هذه أول حقيقة، ولأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، لأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأسماؤه حسنى، وخَلَقَ الخلق ليرحمهم..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

ما دام الأمر كلُّه بيد الله؛ لا حركة، ولا سكنة، ولا فعَّال إلا الله، الذي أراده الله يقع، والذي لم يرده لا يقع، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، الذي وقع أراده الله، وإرادة الله متعلّقةٌ بالحكمة المُطلقة، وحكمته متعلّقةٌ بالخير المطلق، إذاً الشر غير موجود، شرٌ مقصودٌ لذاته لا وجود له في أفعال الله تعالى في الكون إطلاقاً، لكن الشر نسبي، الأب حينما يعالج ابنه قد يضيِّق عليه، هذا التضييق من وجهة نظر الابن تضييق وشر؛ لكن من وجهة نظر الأب تربيةٌ وفضل، فيجب أن نعلم علم اليقين أن كل ما يسوقه الله جلَّ جلاله لعباده في الدنيا، إنما يسوقه لهم من أجل أن يقرِّبهم إليه، والدليل قول الله عزَّ وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

الله عزَّ وجل إذا ساق عذاباً لعباده فمع العذاب لطفٌ كبير يمسَّهم مسَّاً خفيفاً :

كلمة (الضُر) ليست بالمعنى المطلق، بل بالمعنى النسبي، أي أنها ضرٌ بالنسبة للإنسان المقصِّر العاصي، لكنها بالنسبة إلى الله جلَّ جلاله تربيةٌ، وفضلٌ، ومعالجةٌ، ونعمةٌ باطنة، كما فسَّرها المفسِّرون.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

النقطة الثانية:

(وَإِذَا مَسَّ)

الإنسان أحياناً يمس مكواة ليرى أنها جاهزة للاستعمال، ماذا يفعل؟ يضع لعاباً على إصبعه، ويضع يده في أقلِّ مساحةٍ وفي أقل زمنٍ، هذا هو المس، أي أقل مساحة وأقل زمن مع مواد مخفّفة، فالله عزَّ وجل إذا ساق عذاباً لعباده فمع العذاب لطفٌ كبير، لا يصيبهم بالعذاب بل يمسَّهم مسَّاً خفيفاً..

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ)

أما الإنسان المقصود في الآية هو الإنسان الذي أودع الله عزَّ وجل فيه خصائص، أودع فيه شهوات، أعطاه عقلاً، أعطاه فطرة، هذا الإنسان كمواد أوليَّة قبل أن يعرف الله جعل له خصائص، فإذا عرف الله عزَّ وجل فله خصائص أخرى، مثلاً.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 19-21]

المُصلي له صفاتٌ خاصَّة تختلف عن الإنسان العادي :

بحكم حفاظه على حياته، بحكم حبِّه لوجوده، ولسلامة وجوده، ولاستمرار وجوده، ولكمال وجوده، يخاف؛ شديد الخوف، شديد الفزع، شديد الحِرص، فالغرائز التي أودعها الله فيه، وحبُّ ذاته، وحبُّ كمال ذاته كل هذه المعطيات يجعله شديد الخوف، شديد الجزع، شديد الهَلَع، شديد الحرص..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 19-21]

ثم قال سبحانه وتعالى:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 22]

المُصلي له صفاتٌ خاصَّة، لأن المصلي اتصل بالله عزَّ وجل فقوي على ضعفه الذاتي، قوي على قلقه بالاعتماد على الله، قوي على ضعفه بالاتكال على الله، قوي على جهله بأنه استعان بعلم الله، قوي على حيرته بأنه استهدى الله عزَّ وجل، لذلك فالإنسان ضعيف لكنَّه باتصاله بالله قوي، الإنسان جاهل لكنه إذا اتصل بالله يصبح عالماً، الإنسان خائر القِوى، شديد الخوف، لكنَّه إذا اتصل بالله يلقي الله في قلبه السكينة.

الإنسان قبل أن يعرف الله أودِعَت فيه خصائص كل هذه الخصائص لمصلحته :

إذاً في الآية مراكز ثِقل، كلمة (مسَّ) تعني أن الله لطيف، فإذا ساق العذاب لعباده ليس القصد أن يعذّبهم، بل القصد أن يردَّهم، لذلك يأتيهم العذاب مُلَطّفاً، والعوام لهم كلمة أحبُّها: " الله يبلي ويعين ". هذا معنى المس، أي أنه مسٌ خفيف، الإنسان يصاب بالمرض، لكن يلقي الله في قلب من حوله الرحمة عليه، فيهبّون لمساعدته، أحياناً يصاب بفقر، لكن يلقي في قلوب الآخرين حبَّ معاونته، فربنا عزَّ وجل إن ساق العذاب يجعل مع العذاب يُسراً، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

[سورة الشرح: 6]

لم يقل: إن بعد العسر يسراً، بل قال:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

أولاً أفعال الله عزَّ وجل فيها كل أسمائه، فالله قوي، وقهَّار، وجبَّار، لكن لطيف، ورحيم، وودود، وعفو، وغفور، فكل أسمائه داخلةٌ في كل أفعاله، لذلك:

(وَإِذَا مَسَّ)

الإنسان هذا المخلوق قبل أن يعرف الله أودِعَت فيه خصائص، كل هذه الخصائص لمصلحته، لكنها في الوقت نفسه حياديَّة، فهذا المحرِّك في السيارة مثلاً، أيعقل أن يكون إنسان ركب مركبة ووقع له فيها حادث وتدهورت، ويقول: يا أخي هذا المحرِّك إنما صُنِعَ من أجل أن ألقى هذه النتيجة، لا، صُنِعَ هذا المحرِّك كي تستعمله وفق الأصول، وكي تحقّق من خلاله أهدافك من هذه المركبة، لكنك حينما قُدَّتَ هذه المركبة قيادةً غير حكيمة، ولم تكن منتبهاً ولا واعياً حينما قدتها، بل كنت غارقاً في الشراب، فنقلتك إلى الوادي، وأصابتك بما أصابتك مثلاً، فلا تقل: المعمل حينما صنع هذا المحرِّك إنما صنعه ليؤذيني، لا ثم لا.

جميع أنواع الحظوظ التي أودعها الله في الإنسان حظوظٌ حياديَّة :

لذلك الحظوظ كلُّها، جميع أنواع الحظوظ التي أودعها الله في الإنسان حظوظٌ حياديَّة، يمكن أن ينتفع بها في آخرته، ويمكن أن يهوي بها في جهنَّم، والحظوظ تماماً كدرجات أو دركات، درجاتٌ إلى الجنة يرقى بها، ودركاتٌ إلى النار يهوي بها، المال هو نفسه يمكن أن يكون سلّماً إلى الجنَّة، والمال نفسه يمكن أن يكون دركات إلى النار، وكذلك الأولاد، فالكافر مثلاً لا ينجب إلا ولداً كافراً في الغالب لأنه هو الذي ينشئهم ويربيهم..

(إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)

[سورة نوح: 27]

أجل، يُنَشِّئُ ابنه على معصية الله، ينشِّئه على أن هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان، هكذا يُلقي في روعه، فالولد، المال، الصحَّة، الذكاء كل هذه الحظوظ حياديَّة، بإمكانك أن ترقى بها إلى الله، وبإمكان الإنسان أن يهوي بها إلى النار، فلذلك:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ)

الإنسان فيه شهوات من أجل أن يرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، فإن لم يرقَ بها إلى رب الأرض والسماوات، ومارسها بطريقةٍ غير شرعيَّة، قادته إلى الظلمات، وإلى نار جهنَّم، لذلك النبي الكريم يقول:

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بسهوةٍ..

((أَلا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثَلاثًا أَلا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

هذا الإنسان إذا عرف الواحد الديَّان تجلت عنده صفات أخرى، لذلك فرَّق العلماء بين الفطرة وبين الصبغة، الفطرة أن تحبَّ الخير، الفطرة أن تحبَّ العدل، لكن الصبغة أن تكون عَدْلاً، الصبغة أن تكون خَيِّراً، فكل إنسان مفطورٌ فطرةً عاليةً، لكن المؤمنون وحدهم اصطبغوا بالكمال الإلهي، هذا الذي يمكن أن يقال في كلمة الإنسان المشار إليه في الآية الكريمة:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

أروع ما في هذه الآية أن الضُر يكشف زيف الإنسان ويجعله وجهاً لوجهٍ أمام فطرته:

الإنسان دائماً يتأمَّل نفسه، هل صفاته تشبه الصفات التي أوردها الله في القرآن الكريم قبل أن يؤمن؟ الإنسان قتور، الإنسان جَحود، الإنسان كَفور، الإنسان كما قال الله عزَّ وجل: عَجول، الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً، هذه صفات الإنسان قبل أن يعرف الله عزَّ وجل، أما إذا عرفه فصفاته تتبدَّل تبدُّلاً جذرياً. وبعد فالله عزَّ وجل رب، وهو خالق، هو مسيِّر لكنَّه ربُّ العالمين، ومعنى رب العالمين أنه يربي النفوس، أجل يربيها، فإذا اختارت ما يؤذيها، اختارت طريقاً ضالاً، أو اختارت طريقاً يودي بها إلى النار لا يدعها على حالها، لا يتركها هملاً، بل يربيها تربية تعود عليها بالخير، فمن هنا يأتي الضُر.

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

أروع ما في هذه الآية أن الضُر يكشف زيف الإنسان، ويجعل الإنسان وجهاً لوجهٍ أمام فطرته، فطرته مؤمنة، الإنسان حينما فطره الله عزَّ وجل فطره فطرةً لا تسكنُ ولا ترتاحُ إلا بمعرفة الله، فعند المؤمنين شعور عجيب، يقول لك: بعدما تبت إلى الله ارتحت، كلام صحيح، كلامٌ صحيحٌ مئة في المئة لأن فطرة الإنسان لا تطمئن ولا ترتاح إلا بطاعة الله، إذا أطاعت الله عزَّ وجل شعرت أنها في حرزٍ حريز، وفي حصنٍ حصين، وأنها بأعين الله عزَّ وجل، إنها برعايته، إنها تحت مِظَلَّة رحمته، هذا الشعور لا يقدَّر بثمن.

لذلك قالوا: " إن الله يعطي الذكاء والقوَّة والجمال والمال للكثيرين من عباده، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين".

والله أيها الأخوة، في نفس المؤمن من مشاعر الرضى عن الله عزَّ وجل الكثير الكثير، ومشاعر الثقة برحمة الله، ومشاعر الطُمأنينة إلى عدالة الله، ومشاعر أن الأمر كله بيد الله، وأن علاقته مع جهةٌ واحدة، هذه المشاعر تملأ قلبه سعادةً، في حين أن أهل الدنيا لو حصَّلوا من المال الشيء الوفير، ومن الصحَّة، ومن الذكاء والقوَّة والجمال، فإذا فقدوا الإيمان فقدوا كل شيء، لذلك في المناجاة يقول الإنسان: " يا ربِّ ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ ".

الإنسان الكامل هو الذي يعرف حجمه قبل أن يُحَجِّمَهُ الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

الإنسان وهو في بحبوحة يتحدَّث عن قوَّته، عن ماله، عن شأنه، عن ذكائه، عن خبرته، لكن إذا ألمَّت به المكاره قال: يا رب يا رب. أنت أحياناً تلتقي مع إنسان له شأنٌ رفيع في المجتمع، كأن يشغل منصباً رفيعاً مثلاً، وله رتبة عالية، فإذا رأيته مريضاً وجدته عبداً لله عزَّ وجل، ويتضرع قائلاً: يا رب، فتقول في سرك: لم أكن أسمعه يقول هذا الكلام من قبل، بل كان يعتدُّ بنفسه، وقد حدَّثني أخ عن رجل من أشدِّ الرجال قسوةً، ومن أشدِّهم قوَّةً، ألمَّ به مرضٌ عُضال فزاره أصدقاؤه فإذا هو كالطِفلِ الوديع، قلت: سبحان الله، ما الذي أعاده إلى فطرته؟ هذا المرض أعاده إلى فطرته، فالإنسان الكامل هو الذي يعرف حجمه قبل أن يُحَجِّمَهُ الله عزَّ وجل، الله يُحجِّم، لأن الله عزَّ وجل مربٍ، فأنت إذا عرفت حجمك كنت في بحبوحة، لقوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

أما إذا لم تعرف الله، وتبجّحت بقوّتك، وذكائك، وخبرتك، وعلمك، وأسرتك، ومالك، وأجهزتك، وبيتك، يأتي التحجيم من الله عزَّ وجل ليعرِّفك بعبوديَّتك، لذلك:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

الإنسان في أثناء المصيبة تُنْزَعُ منه كل الأقنعة المُزيَّفة، المال قناع مزيَّف، هناك مصائب لا يحلُّها المال، أنا كنت مرَّة عند طبيب فجاءه هاتف من أهل مريض، أنهم مستعدون للذهاب إلى أي مكان في العالم يرشدهم إليه لعلَّه تُجرى له عمليَّة، والمبلغ مهما كان كبيراً ندفعه، قال لهم: والله لا أستطيع، الحالة متفاقمة جداً وليس لها علاج لا عندنا ولا في أي مكانٍ آخر، فأين المال؟ ما قيمة المال؟!!

الإنسان كما يُبْتَلى بالمصائب يُبْتلى بالنعم :

بالمناسبة: إذا اعتمد الإنسان على ماله، فالله عزَّ وجل يعالجه معالجة لا ينفع فيها المال، إذا اعتمد على قوَّته يضعه بظرف لا تنفع فيه القوَّة، فكل شيء أنت معتمد عليه، ومتكئ عليه، فكأنك تجعله إلهاً من دون الله، الله عزَّ وجل لأنه رب العالمين لا بد من أن يتدخل في حل مشكلة، وهذا الذي تعتمد عليه لا يجديك نفعاً أبداً، الآن:

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

[سورة الأنبياء: 35]

الإنسان كما يُبْتَلى بالمصائب يُبْتلى بالنعم، قال تعالى:

(إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)

يُمْتَحَن بالنعمة ويُمتحن بالنقمة، يمتحن بالعطاء ويمتحن بالمنع، يمتحن بالإمداد ويمتحن بالقبض وبالبسط. لكن المؤمن يرى أن منع الله عطاء، أجل المنع من الله عين العطاء لأن الله عزَّ وجل يحمي صفيَّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام.

(إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)

هذا الإنسان قبل أن يعرف الله يعيش لحظته فقط، قوي، يقول لك متفلسفاً: الإنسان كلَّما ضعف تفكيره يخاف بحواسِّه فقط، وكلَّما نما تفكيره يخاف بفكره، فالطالب ما دام بعيداً عن زمن الفحص تجده مهملاً ولا يدرس، يلهو مع أصدقائه، مع أهله، فمتى يشعر بوطأة الامتحان؟ في أيَّام الامتحان فقط، أما الطالب العاقل يخاف ضياع الفرصة لا بالظروف المعاصرة والظروف الآنيَّة؛ بل يخاف من مداهمة المستقبل، فالمؤمن دائماً يخاف إن كان قوياً أو ضعيفاً بفكره، وغير المؤمن فهو الذي يخاف إن بحواسِّه فقط، فهذا عندما شفاه الله عزَّ وجل من مرضه، أو أزال عنه الفقر إلى الغنى، أو واجهه شبح مصيبة فأزاحها عنه، رجع إلى ما كان عليه من قبل تمرداً وغطرسة.

المصائب التي يسوقها الله عزَّ وجل للإنسان تذكير له باقتراب الأجل :

اليوم ذكرت قصَّة بليغة جداً، ومناسبة جداً لدرسنا، أنه بينما كان شخص يقود سيَّارته وإلى جانبه زوجته، تعرَّض لأزمة قلبية حادَّة، عند وقوفه أمام إشارة المرور، فارتمى على المقود، لأن الله عزَّ وجل لطيف جداً، مرَّ صديقه في الوقت المناسب، فحملوه من فوره ووضعوه على المقعد الخلفي، وقاد صديقه السيارة إلى مستشفى وأدخلوه غرفة العناية المشدَّدة، وبعد سويعات استيقظ فطلب مسجِّلة، فذكر في هذه المسجِّلة اعترافاته، وقال: المحل الفلاني فروغه كذا مليون ليرة وهذا ليس لي ولكن لإخوتي، أنا اغتصبته منهم غصباً، اعترف، والأرض الفلانيَّة، والبستان الفلاني كذلك، وذكر كل ما عليه من حقوق كان قد اغتصبها بسبب هذه الأزمة التي ألمَّت له، وبعد أيَّام تخرَّج من المستشفى، وعادت له صحَّته وقوَّته، فقال: أين الشريط؟ أعطوني إيَّاه، أخذه وكسَّره، وبعد ثمانية أشهر جاءته أزمة أخرى فأودت به ومات معتدياً، مغتصباً، مشغول الذمة.

هذه القصَّة نقلتني إلى شيء عِشْتُهُ حينما كنت في التعليم، فالتيار الكهربائي كان في بعض الأقبية ليس مستمراً بل كثيراً ما ينقطع، وفي الساعة الثانية عشرة تُطْفَأ الكهرباء، طبعاً كان عندنا تقليد لطيف أنه في الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق تطفأ لثانيةٍ واحدة ثمَّ تعود، أي إشارة أنه اقترب وقت انقطاع التيار الكهربائي فانتبهوا، أما الإشارات الضوئيَّة فلها وميض، فاللون الأخضر يومض وميضاً أي أسرع فستصبح الإشارة حمراء، فكل هذه المصائب التي يسوقها الله عزَّ وجل للإنسان تشبه انقطاع التيار لمدة ثانية وهي تذكيرٌ بأن اللقاء قد اقترب فهل أنت مستعد أيها العبد؟ فمثلاً شَيْبُ الشعر، يقول الله عزَّ وجل: عبدي كبرت سنُّك، وانحنى ظهرك، وضعُف بصرك، وشاب شعرك، فاستحي مني فأنا أستحي منك، لقد اقترب اللقاء، فإذا تجاوز الإنسان عتبة الأربعين فقد دخل في مدارج الآخرة، والإنسان إذا بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرَّه فليتجهَّز إلى النار، الأربعين فما بعدها سِنُّ معرفة الله، سِنُّ التقرُّب إليه، وإن كان ما يفعله الشاب في شبابه يوازي أضعافاً مضاعفة ما يفعله الكَهل في كهولته، والشيخ في شيخوخته، لأن الله عزَّ وجل قال: أحبُّ ثلاثاً وحبي لثلاثاً أشد، أحبُّ الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، هذا شيء لا يُقدَّر بثمن:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد عن عقبة بن عامر]

(إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)

الكافر إذا خوَّله الله نعمةً نسي ما كان يدعو إليه :

ذات مرَّةٍ قُدّم للنبي عليه الصلاة والسلام لحم شاةٍ، قسم منه مشوي وقسم مطبوخ، وخبز شعيرٍ، وتمرٌ وبُسْرٌ ورُطَبٌ، فبكى وقال: لحمٌ، وخبزٌ، وتمرٌ، ورُطَبٌ، وبسَرٌ؟! إن هذا هو النعيم الذي نُسأل عنه يوم القيامة.

يا أيها الأخوة، إذا كنت بصحَّة طيِّبة، فصحَّتك هذه نعيم، السؤال عنها: كيف استعملت هذه الصحَّة؟ في طاعة الله أم في معصيته؟ إذا كان عندك وقت فراغ فهذا نعيم تسأل عنه يوم القيامة، هذا الوقت كيف أمضيته؟ إذا كنت في طمأنينة لست مُلاحقاً، فهذه نعمة كبيرة جداً، حر تتحرَّك أينما تريد، تسافر، تقيم، لست خائفاً، نعيم الأمن ماذا فعلت به؟ هل استخدمت الأمن للتمادي في المعاصي، أم استخدمت الأمن الذي تنعُم به في المبالغة في الطاعات؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر:8]

نعمة الصحَّة، ونعمة المال، ونعمة الفراغ، ونعمة الأمن، ونعمة القوَّة، هذا كله من نعيم الدنيا. لكن الكافر إذا خوَّله الله نعمةً نسي ما كان يدعو إليه، ينسى حاله عندما كان يتوسل إلى الله عزَّ وجل، لا أعتقد أنَّ هناك إنساناً تلمُّ به مصيبة إلا ويناجي ربَّه، لكن البطل هو الذي يبقى عند ندائه، عند عهده، يا رب أنا أعاهدك إن نجَّيتني من هذه الورطة لأكونن من الصادقين، لأكونن من الطائعين، لأكونن من المؤمنين، لأكونن من التائبين، لأكونن من القانتين، فلمَّا نجَّاه منها عاد إلى ما كان عليه، ليته اكتفى بذلك، بل:

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

الآية دقيقة، الله عزَّ وجل ساق له الشفاء على يد طبيب، فجعل هذا الطبيب ندَّاً لله، يا سيدي هذا الطبيب ليس له مثيل، لولا هذا الطبيب الذي تولى معالجتي لعاجلني أجلي، هكذا يقول لك.

الله عزَّ وجل هو الذي يستحقُّ وحده العِبادة :

قال تعالى:

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

عنده قضيِّة شائكة جداً، والله ألهم محامياً مخلصاً خدمه فيها، فربحت دعواه، هذا المحامي لا مثيل له، لو كان غيره لخسرت دعوانا، قل: الله عزَّ وجل. قل: الله عزَّ وجل ساق لي هذا المحامي ليدافع عني،

وألهمه الحجَّة، وألهم القاضي الإنصاف، فالإنسان حينما تأتيه مشكلة ويدعو الله عزَّ وجل، فيزيح عنه هذه المشكلة ينسى، فيعزو هذا النجاح إلى أشخاص، لذلك: ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد:

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

هناك رأي آخر وهو رأي قوي: حول موضوع الند لله وسيأتي بيانه فيما بعد، فالله معبود، الله عزَّ وجل الذي يستحقُّ وحده العِبادة، معنى العبادة الخضوع التام، الحب الكامل، الإخلاص الشديد. ولكن إذا كان الله عزَّ وجل هو المعبود الذي يستحقُّ العبادة، وهو المعبود الذي ينبغي أن تطيعه، وأن تخلص له، وأن تفني شبابك من أجله، وأن تمضي العمر كلَّه في طاعته، وأن تنفق المال في سبيله، وأن تجلس على ركبك السَّاعات الطوال لتحصيل العلم الذي يريده، وأن تخدم خلقه فهذه عبودية فقط. لكن إذا فعلت هذا مع غير الله عزَّ وجل، كأنَّك جعلت هذا الشيء نداً لله عزَّ وجل، فإذا أخلصت لامرأةٍ مثلاً وأنت ترى كل السعادة في الزواج منها، حتَّى أمرتك بمعصية الله فاستجبت لها، فأنت جعلتها نداً لله عزَّ وجل، أو إذا أخلصت لإنسانٍ، ورأيته قوياً، وبإمكانه أن يرفعك وإذا غضب عليك بإمكانه أن يخفضك، فأنت جعلت هذا الإنسان ندّاً لله، حينما جعلت طاعته فوق طاعة الله عزَّ وجل، فليحذر الإنسان، فأحياناً يرى أشخاصاً، أو أشياء، أو شهوات، أو قيَماً ترتفع في نظره فتكون ندّاً لله عزَّ وجل، فلا يعزو الخير الذي أصابه لله عزَّ وجل.

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ)

بل رأى أن هذه الأشياء هي من القوَّة، والجمال، والتأثير في حياته بحيث إذا أطاعها سَعِدَ في الدنيا والآخرة.

الإنسان إذا أشرك أضلَّ نفسه عن الله وأضلَّ غيره :

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

الند طريقٌ غير سالك، لديك طريق وحيد سالك هو طريق طاعة الله، هذا الطريق سالك إلى الله، أما أي طريق آخر فهو مسدود، لو تعلَّقت بإنسان، هذا الإنسان ليس عنده ما يرضيك، ليس عنده سعادة تُسعدك، ليس عنده قوَّة تعينك، ليس عنده أنوار تنوِّر قلبك، طريقٌ مسدود، الطريق الوحيد طريق الله عزَّ وجل، هذا الطريق سالكٌ لرحمته، سالكٌ للسعادة، فالإنسان إذا تعلَّق بغير الله، وأطاع غير الله، أضلَّ نفسه عن الله، وسار في طريق مسدود.

لذلك لو فرضنا من باب التمثيل أن لك مبلغاً كبيراً جداً في مدينة حلب، وهو جاهز للدفع بمجرَّد أن تصل إلى هذه المدينة، وذهبت إلى محطَّة القطارات، والقُطر كثيرة، فقطار إلى حِمص، وقطار إلى درعا، وقطار مثلاً إلى بيروت، وقطار إلى تدمر فرضاً، وفي قطار إلى حلب، قطار حلب هو أهم قطار بالنسبة لك، لأنك إذا ركبته ووصلت إلى فلان قبضت المبلغ الكبير، أما القطارات الأخرى فليس لك بها فائدة، وطريقها لا يوصلك لحلب مسدود، فلو ذهبت إلى بلدةٍ على عكس حلب، فلن تجد شيئاً، ولن تقبض أي شيء وقد تفوتك الفرص، فالإنسان حينما يتَّجه إلى غير الله عزَّ وجل لا يفقه شيئاً، الإنسان إذا أشرك أضلَّ نفسه عن الله، وأضلَّ غيره..

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ)

متاع الحياة الدنيا محدود :

أطاع زيداً فقبض مبلغاً كبيراً مكافأةً على هذه الطاعة، قد يكون مبلغاً كبيراً جداً، فاشترى البيت الفخم، واشترى المركبة الفارهة، وتمتَّع، واشترى مزرعة، وتمتَّع وبذخ بهذا المال الكبير لكن الله عزَّ وجل يقول له:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)

أي أن كفرك الذي أورثك هذا المال تمتَّع به قليلاً:

(إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

سيدنا إبراهيم قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

[سورة البقرة:126]

الله عزَّ وجل قال:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة:126]

فهذه متعة محدودة.

آيات قرآنية تؤكد أن متاع الحياة الدنيا قليل :

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

الله الله؛ ما أدق معنى هذه الآية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّار)

[سورة إبراهيم: 30]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِين)

[سورة القصص الآية: 61]

التمايز بين الناس يظهر جليّاً بعد العرض على الله :

قال تعالى:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)

هي أيَّام معدودة، وبعد فإذا عاش إنسان ثمانين سنة، السنة ثلاثمئة وخمسة وستين يوم ضرب ثمانين، تُعَد الأيام، كم مرَّة دعي إلى وليمة؟ كم مرَّة قام بنزهة؟ كم وكم كله معدود ومحدود، يقول لك مثلاً: قضيت مع زوجتي أربعين سنة فهذا عمر مديد، ولكن انقضى:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)

الإنسان عندما يكون قوياً، أو غنياً، أو له علاقات اجتماعيَّة نامية جداً، لكن في معصية الله كل هذا محسوب عليه، مسجَّل عليه، وكلها أشياء معدودة بعد الحساب العَسير، وأما إذا صَبَرَ الإنسان على طاعة الله فقد تفوته بعض المُتَع الرخيصة، والمباهج الشيطانيَّة، لكن ضمن الجنَّة، وبالحقيقة الآن بالتعبير الحديث الأوراق مختلطة، أي أن المؤمن شخص عادي، قد يكون موظَّفاً، مدرِّساً، طبيب له عيادته، بيته متواضع، زوجته، أولاده مثله، وهناك ناس أقوى منه، وأغنى منه، وناس لهم شكل أوسم منه، لكن حينما يقوم الناس لرب العالمين، يقول الله عزَّ وجل:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

[سورة يس:59]

في أثناء العالم الدراسي كل الطلاب يتشابهون، كلهم يلبسون لباس الفتوة ويدخلون إلى المدرسة، وإن كانت جامعة كلّهم يلبسون بدلات الدراسة الجامعية ويذهبون إلى الجامعة، منهم كسول، ومنهم مجتهد، ومنهم عبقري، وبعضهم فلتة من فلتات الزمان، وبعضهم كتلة غباء، مشكّل، فمتى يُعْرَفون؟ بعد

الفحص، أثناء العام الدراسي فظاهرهم واحدة؛ فهذا اللباس الموحَّد، والحركة نحو الجامعة، وحضور المحاضرة والاستماع يوحد بينهم، لكن هذا يدرس، وذاك كسلان، متى يُكْشَف الأمر؟ بعد الامتحان.

ربنا عزّ وجل نقلنا نقلة مفاجئة إلى نموذج آخر :

نحن في حياتنا كأننا في العام الدراسي، لكن يوم القيامة تعرف نتيجة الامتحان، ستعرف نعم الله العظمى عليك، عندما ترى أقوى الناس وأغنى الناس في حسرة كبيرة جداً، في خسارة كبيرة جداً، وأنت ربحت الدار الآخرة، أن هذا لهو الفوز المبين والفوز العظيم:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

ثم إن ربنا عزّ وجل نقلنا نقلة مفاجئة إلى نموذج آخر، هذا الإنسان سويعاتي، أي أنه تأتيه المشاكل فينهار، يقع في اليأس والقنوط، وأحياناً ينتحر، تأتيه الدنيا فيرقص، أمره عجيب، الخير يجعله خفيفاً، والشر يجعله يئوساً، وإذا ساق له الله عزّ وجل بعد الشر خيراً ينسى الله، ينسى دعاءه وتبتُّله، ينسى ترجِّيه لله عزّ وجل، يجمِّع الأموال يريد ليفجر أمامه..

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

فإذا هذا الإنسان الكفور، الجحود، الذي يعيش لحظته، ويعطّل فكره، ويعطّل قيمه كلها، ويعيش لذاته، فهل ذاك التائه يوازي هذا الإنسان العابد؟

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ)

هل يستوي هذا مع ذاك؟ إنسان يحضر مجالس العلم ليتعرَّف إلى الله، يقرأ القرآن، يصلي الصلوات الخمس، له دعاؤه، له أوراده، له أذكاره، يغض بصره، يضبط لسانه، يضبط يده، يضبط دخله، يضبط إنفاقه، من مجلس علمٍ إلى مجلس علمٍ، من طاعةٍ إلى طاعة، من خيرٍ إلى خير، من عبادةٍ إلى عبادة، من منزلة إلى منزلة، يقرأ القرآن فيبكي، يصلي فيبكي، ينفق ماله حباً بالله عزّ وجل، هذا الإنسان المُحب، العابد، الطائع، المُتّقي، المخلص، أيعقل أن يستوي مثلاً أفلا تذكرون؟!

التؤدَةُ خيرٌ كلُّها إلا في عمل الآخرة ليست خيراً إنها تقصير :

قال تعالى:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ)

القنوت الانقطاع، أي انقطع لطاعة الله:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة:111]

لقد باع عمره، باع وقته كله، يا سيدي: كم الزكاة؟ قال له: عندكم أم عندنا؟ قال له: ما عندنا وما عندكم، فكم دين لديه؟ قال له: عندكم واحد من الأربعين، أما عندنا العبد وماله لسيده. يقاس عليها أن الوقت كلُّه لله، كل طاقاتك لله، كل خبراتك لله، بيتك لله، مركبتك لله، مالك لله، أنت في زمن الامتحان، أنت الآن في حياة إعداديَّة، لذلك لا خير في الإسراف لكن لا إسراف في الخير، والتؤدَةُ خيرٌ كلُّها، إلا في عمل الآخرة ليست خيراً إنها تقصير، وإنها بطء..

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ)

أي في أطراف الليل:

(سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ)

دائرة المرئيات محدودة أما دائرة المسموعات فكبيرة جداً :

نحن على أبواب شهر رمضان، عندنا كل يوم صلاة التراويح، فإذا أكل أحدكم فليأكل أكلاً خفيفاً ولا يكثر، لكي يصلي صلاة فيها خشوع لله عزَّ وجل، لكي يشعر أن التراويح ولو كانت عشرين ركعة فهي خفيفة عليه، لو ملأ بطنه لما استطاع أن يصلي، فاكتفى بأكله الخفيف لكي يقوى على الصلاة، وقف بين يدي الله عزَّ وجل عشرين ركعة، ساعة وربع الساعة، واستمع إلى جزء من القرآن الكريم، وتأمَّل في الآيات التي رتلها الإمام، وشعر كأن الله يتلوها عليه، وركع وسجد، واستمع إلى درس علمي قصير، وعند الفجر كذلك، وصلى الظهر في المسجد، وكذلك العصر، ودائماً يقرأ القرآن، يذكر الله عزَّ وجل، يغضُّ بصره، يضبط سمعه ولسانه، هذا الإنسان له عند الله شيءٌ كثير، لذلك:

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ما لا عينٌ رأت، دائرة المرئيَّات محدودة جداً لكل واحد منَّا، ولا أذنٌ سمعت، المسموعات أكبر منها بمليون مرَّة، بمئة مليون، أنت رأيت كم مدينة في العالم؟ سبعة أو ثمانية، تسمع بالأخبار كم مدينة؟ مئات بل ألوف، تسمع أيضاً عن المجرَّات؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، الله قال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ)

[سورة السجدة: 17]

لم يقل: لو تعلم، بل قال: لا تعلم، أي لا يمكن أن تعلم..

(مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

فهذا الذي:

﴿ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾

المؤمن يخشى الله ويحاسب نفسه على الدرهم :

أحياناً يأتيك زبون بسيط إلى متجرك أو محل عملك فاحذر من غشيم، قال لي واحد بالمناسبة: إنه كان يلف محرِّكات ـ والله هذه الحادثة أرويها لأنها واضحة جداً ـ قال لي: أحياناً أفتح المحرِّك، وطبعاً صاحبه لما أحضره ظنَّ أنه محروق ويحتاج إلى لف، والشرط بيننا خمسة آلاف، أفتح فأجد أن المحرِّك فيه طاق محروق، فبالكاوية بدقيقتين أنهيه، قال لي: لما لم أكن أعرف الله عزَّ وجل، كنت أغلق المحرِّك ثم يأتيني صاحبه بعد يومين فآخذ منه خمسة آلاف، مثلما اتفقنا، بعدما اصطلحت مع الله وتبت إليه، صرت أطلب منه خمسة وعشرين ليرة، ألم تقل لي: خمسة آلاف؟ نعم ولكن تبيّن أنه العطل بسيط، هو لا يعلم ما بداخله، يعلم أنه توقَّف عن العمل، فغلب على ظنِّه أنه محروق، فجاء به إليك، فانظر إلى المؤمن، من هذه الحادثة هناك ملايين، المؤمن يخشى الله، يحاسب نفسه على الدرهم.

لي قريب عنده محل ـ مطعم تقريباً ـ قال لي: مرَّة دخل شخص معه ظرف رماه وهرب، كتب فيه: أنا أكلت ذات مرة عندك ولم أدفع ثمن الطعام. فيظهر أنه عرف الله عزَّ وجل، وأدرك أنه لزمت ذمته دين فرمى هذا الظرف الذي فيه الرسالة وفيه مبلغ من المال، قال لي: ولكن حسب التعرفة القديمة:

﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾

تجد إنساناً مؤمناً يبذل من ماله، من وقته، يرجو أن يرضى الله عنه، يرجو أن يتجلَّى الله على قلبه، يرجو أن ينجِّيه الله من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فرحمة الله عزَّ وجل واسعة، رحمته واسعة جداً، خلقنا ليرحمنا:

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

[سورة هود:119]

العلم هو الطريق الموصل إلى الله :

هنا يوجد سؤال دقيق: لماذا هذا الإنسان تصرف على نحو ما جاء بالآية التالية:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

الله قال له عندما ضل بالنعمة التي أولاه الله إياها:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

ولماذا الثاني هذا شأنه مع الله سبحانه:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

فما الذي جعل الأول في هذه الحال المتناقضة المُزرية، وجعل الآخر في هذه الإنابة والإقبال والخوف والرجاء؟ جاء الجواب:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

معنى هذا أن الأول لا يعلم، والثاني يعلم، معنى هذا أن العلم طريقٌ وحيدٌ إلى الله عزَّ وجل، العلم هو الطريق الموصل إلى الله..

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

التوبة من دون علم مستحيلة لذلك العلم طريق وحيد إلى الله عزَّ وجل :

هذا الإنسان الضال، الشارد، تأتيه الدنيا فيرقص، تذهب عنه فينتحر مثلاً، يكشف الله عنه المصيبة فينسى أنه دعا ربَّه، ويكفر، ويشرك، ويضل نفسه عن سبيل الله، كل هذه الأمراض الوبيلة في عقيدته، في سلوكه، أساسها أنه لا يعلم؛ وهذا الإنسان القانت آناء الليل، الساجد، القائم، الذي يحذر الآخرة، ويرجو رحمة الله عزَّ وجل لأنه يعلم، إذاً إذا أردت أن تكون من الذين رضي الله عنهم، من الذين استقاموا على أمره، من الذين أنابوا إليه، من الذين وقفوا عند حدوده، من الذين أحبُّوه، من الذين باعوا أنفسهم في سبيله، فعليك بالعلم.

المشكلة الملحة الآن أن الإنسان الشارد كيف يتوب؟ إذا كان مقتنعاً بأن سلوكه الضال صحيح، وليس لديه معصية، فهذا لا يتوب، لماذا؟ لأنه لا يعلم، أجل لا يتوب إلا إذا تعلَّم أن هذا العمل مخالف للشرع، معنى هذا أن حتى التوبة من دون علم مستحيلة، أحياناً تلتقي مع أشخاص غارقين بالمعاصي ويقولون: ماذا فعلنا؟ هكذا كل الناس، من قال لك أنا غلطان؟ فهذه مشكلة مدمرة بالنسبة له، هو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، لذلك العلم طريق وحيد إلى الله عزَّ وجل، ما في طريق ثانٍ إلا العلم.

فالإنسان إذا ما طلب العلم، يظن أنه تعلم، إذا حضر خطبة الجمعة، الخطبة لها طعم غير الدَرس، الخطبة فيها جذب الإنسان إلى طريق معرفة الله، فأحياناً يضعون إعلانات تدعوك إلى الانتساب إلى هذه المدرسة، وإن هذه المدرسة لها منهاج خاص، لها تفصيلات، بيان القرآن، والسُنَّة، والفقه، والسيرة، فيجد فيها العلم حقاً، فالإنسان لا يكفيه أن يحضر خطبة فقط، لا بد من طلب العلم، إذاً:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

العلم المقصود هو العلم بالكُلِّيات الذي يقودنا لمعرفة الله ومعرفة منهجه وسرِّ وجوده:

بالمناسبة: بعض التفاسير فيها إشارة لطيفة إلى أن العلم الذي أراده الله هنا ليس العلم بالجُزْئِيَّات، أحياناً تجد شخصاً يحمل دكتوراه بالفيزياء، فهل يعلم بنصِّ هذه الآية، إن العلم إذا لم يأخذ بك إلى طاعة الله ليس علماً، العلم المقصود هنا العلم بالكُلّيات، العلم الذي يقودك إلى معرفة الله، ومعرفة منهجه، ومعرفة سرِّ وجوده، ومهمَّتك في الحياة، العلم الذي يحملك على طاعة الله هو العلم المطلوب، فليس كل إنسان نال شهادة عُليا، اختصاص معيَّن، صار عالِماً حسب نص هذه الآية:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

شخص اغترب وأقام في بلد ما، فالأساس أن يعرف لماذا هو في هذه البلدة التي جاءها طالباً؟ أو جاءها تاجراً، أو جاءها سائحاً، هذا سؤال كبير جداً: لماذا أنا هنا في هذه البلدة؟ فهناك جزئيات تواجهه مثلاً ثيابه، تنظيف ثيابه، أدواته، محفظته والحفاظ عليها، هذه أشياء ثانويَّة لو أنك أتقنتها وغابت عنك مهمَّتك الأولى في هذه البلدة ما عرفت شيئاً.

لذلك يقول الله عزَّ وجل بعدها يوجِّهنا:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

أي أنه لا بد من طاعة الله، فإذا حال أحدٌ بينك وبين طاعته، لا بد من أن تبحث عن مكانٍ تطيع الله فيه، هذا معنى:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

على الإنسان أن يرتحل من أرض يُعصى الله فيها إلى أرض يُطاع الله فيها وليس العكس:

ليس لك عذر، إنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ، إذا ضاقت بك الدنيا في مكان فعليك أن تتحوَّل إلى مكانٍ آخر تطيع الله فيه، أما المشكلة الآن أن الإنسان يكون في بلدة تُقام فيها شعائر الله عزَّ وجل، وفيها مجالس العلم متوفرة، وفيها بقيَّةٌ من حياء، بقيَّةٌ من دين، فيها روحانيَّات كثيرة جداً، من أجل المال فقط يزهد بكل هذا ويضع نفسه في بؤرةٍ فاسدة إذ يرحل إلى بلد أجنبي ويزهد في دينه وعلمه:

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

فمن الصعب لطالب أُرْسِل بعثة إلى الخارج ولم يعلم مقدار الخطورة التي سيتعرض لها، إذا كان الشخص غير متزوِّج، أو كان إيمانه ضعيفاً فعليه خطر كبير جداً، أرسل أحدهم لي رسالة وقال لي فيها: والله كل ما قلته صحيح، فمقاومة الإنسان للشهوات صعب جداً إذا كان إيمانه ضعيفاً، لم يكن في حصن حصين من الإيمان والتقوى.

إذاً على الإنسان أن يرتحل من أرض يُعصى الله فيها إلى أرض يُطاع الله فيها، ولكن الناس هذه الأيام انعكس حالهم، تجدهم واقفين في طابور طويل ينتظرون تأشيرات الخروج لكي يذهبوا لبلاد ترتكب فيها المعاصي على قارعة الطريق، أجل على قارعة الطريق، فعلى الإنسان أن يختار أيضاً المكان المناسب لدينه، المكان الذي إذا نشأ أولاده رآهم قرَّة عين، فكيف بهؤلاء الذين يغتربون إذا فاجأته ابنته مع صديق يهودي مثلاً، وطلبت منه أن تتزوجه لأنها تحبه، فماذا تكون النتيجة وقتها؟ ألا يتقطَّع تقطيعاً ويتمزق حسرة لاغترابه، ولذلك يقول تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لقد آمنتم بأن الله عزَّ وجل هو خالق الكون، وأنه خلقكم للدنيا كي تعرفوه، فهذا إذاً منهجه:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان بلا عمل جنون والعمل بلا إيمان لا يكون :

الآن:

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

عليك أن تتحرَّك للعمل، يقول بعضهم: الآن آمنت، نقول بدورنا: فلا بد أن تعمل صالحاً، إن آمنت، فأين الحركة؟ إن آمنت، فأين الالتزام؟ آمنت، فأين الطاعة لله عزَّ وجل؟ الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، الإيمان بلا عمل جنون، والعمل بلا إيمان لا يكون:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

تحرَّك، ماذا تنتظر؟ إلى متى أنت باللذَّات مشغولُ؟

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: 16]

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

لا نقدر يا أخي فلا مجال للعمل والتقوى، نقول له إن الله تعالى قال:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

دقة القرآن، أنت في مكان صعب، وكثير من أهل أوروبا الشرقيَّة هاجروا إلى هذه البلاد فراراً بدينهم، والله أغناهم في هذه البلاد.

الصبر وأهميته :

قال تعالى:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

والله مرَّة التقيت مع شخص فرَّ بدينه من تركيا، زمن مصطفى كمال أتاتورك، فذكر لي أنه الآن يملك خمسة وثلاثين دونماً، وبيوتاً، ومحلات تجاريَّة، وقال لي: لما جئت كنت لا أملك شيئاً. ولكن الله عزَّ وجل أكرمه ورزقه، فمعنى:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

أي ليس لك حُجَّة، إذا لم تستطع أن تطيع الله في هذا المكان فتحوَّل عنه إلى مكانٍ آخر:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

والله يرزقك.

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

الصبر لا بد منه، الإيمان والصبر والسماحة، الصبر تحمُّل، والسماحة إنفاق، الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، الصبر يعني أنك مكلَّف وعندك نوازع، فالنوازع إذا تعارضت مع الدين تقمعُها في سبيل الله، هذا هو الصبر، فكل إنسان يصبر، صلاة الفجر تحتاج إلى صبر النوم أريح للنفس، غض البصر يحتاج إلى صبر، الإنفاق يحتاج إلى صبر، طبعك أن تقبض المال، والأمر التكليفي أن تنفق المال، طبعك أن تنظر والأمر التكليفي أن تغضَّ البصر، طبعك أن تتكلَّم والأمر التكليفي أن تسكت، طبعك أن تأخذ والأمر أن تعطي، هذا الصبر، طاعة الله تحتاج إلى صبر:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

الآيات تتحدث عن ثلاثة أنواع من الناس وهم الجاهل والمؤمن والمُؤمن العاقل :

صارت الآيات تتحدث عن ثلاثة أنواع من الناس: الجاهل، المؤمن، المؤمن العاقل:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ)

هذا نموذج أول؛ الإنسان الجاهل غير المؤمن، سويعاتي، يعيش لحظته، يعيش واقعه من دون تفكير، معطّل تفكيره، ما تعرَّف إلى الله عزَّ وجل، الخير يستخفُّه، والشر يُقْعِدُهُ، والمعروف ينساه، هذه صفات الكافر، وإذا حصَّل من هذه الدنيا مالاً وفيراً فهذا المال يستمتع به إلى حين، ثم يحاسب حساباً عسيراً، أما المؤمن قانتٌ، منقطعٌ لله أناء الليل:

(سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

لأنه عَلِم:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

أصحاب العقول:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي انتقلوا من السماع إلى التطبيق، من الإيمان للعمل، من التلقّي للإلقاء:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

ففي الدنيا لمن آمن واتقى سعادة، وفي الآخرة الأجر بلا حدود وبغير حساب:

(وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (06-20): تفسير الآية: 10 العبودية لله والتوحيد.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عزَّ وجل نسب العِباد إلى ذاته تكريماً لهم وتشريفاً :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة الزُمَر، ومع الآية العاشرة وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

أولاً كلمة قل، أي يا محمد قل لهم فإنما أنت مبلّغ، الشيء الثاني:

(يَا عِبَادِ)

طبعاً هناك ياء محذوفة تخفيفاً، فبالأساس يا عبادي، (قل يا عبادِ)، الله عزَّ وجل نسب العِباد إلى ذاته تكريماً لهم، تكريماً وتشريفاً، (قل يا عبادِ)، وكلكم يعلم أن كل إنسان عبدٌ لله شاء أم أبى، من العبودية بمعنى: أنه مقهور، أي أن حياة الإنسان ليست ذاتية، حياته متوقفة على ظروف كثيرة جداً بيد الله عزَّ وجل، فما من عضوٍ، ما من حاسةٍ، ما من جهازٍ، ما من غُدَةٍ، ما من عضلةٍ، ما من خليةٍ، ما من نسيج إلا بيد الله، والأمراض لا تعدُّ ولا تحصى، النُسُج بيد الله، هذه النسج قد تنمو نمواً عشوائياً، وحتى هذه الساعة لا يزال العِلم عاجزاً عن إدراك سبب هذا المرض. هذه الغدد الصمَّاء أوزانها ضئيلة، لكن لها أعمالٌ خطيرة، فلو أن غدةً تعطّلت، لانقلبت حياة الإنسان إلى جحيم، هذه الأعضاء؛ القلب، الرئتان، الكليتان، المعدة، الأمعاء، الدماغ، العمود الفقري، الأعصاب، آلاف آلاف الأمراض، آلاف آلاف أنواع الخَلَل التي إذا أصابت أحد الأعضاء، أو أحد الأجهزة، أو أحد الأطراف، أو أحد النُسُج، أو إحدى الخلايا انقلبت حياة الإنسان إلى جحيم.

كلّ إنسانٍ هو عبد لله بمعنى أنه مقهور :

هذا الجهاز، جهاز المناعة الذي يكثر الحديث عنه اليوم لوجود مرضٍ يضعف هذا الجهاز، نقصٌ في جهاز المناعة المُكْتَسَب، هذا المرض يجعل حياة الإنسان جحيماً، إذاً فكل إنسان عبد لله عزَّ وجل، لكن الإنسان إذا عرف الله؛ عرفه من خلال الكون، من خلال القرآن، من خلال أفعال الله عزَّ وجل، من خلال الاتصال بالله عزَّ وجل، إذا عرف الله عزَّ وجل وقدَّره حق قدره، وأتى إليه طائعاً، منيباً، راجعاً،

مقبلاً، تائباً، هذا عبدٌ من نوعٍ آخر، هذا العبد جمعه عباد، وذاك العبد جمعه عبيد، فكل إنسانٍ مؤمناً كان أم كافراً هو عبد لله بمعنى أنه مقهور:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

[سورة الأنعام: 18]

العباد مقهورون بالموت، ما من إنسان إلا ويموت؛ عظيماً كان أو حقيراً، غنياً كان أو فقيراً، عالماً كان أو جاهلاً، قوياً كان أو ضعيفاً، كل مخلوقٍ يموت، فالإنسان مقهور بالموت، لكن العبد الذي أراده الله عزَّ وجل، هو ذلك العبد الذي أتاه طائعاً، الذي عرفه وهو في صحةٍ تامَّة، وفي بحبوحة، وفي مقتبل حياته، في شبابه، ريح الجنة في الشباب، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي. ذاك هو العبد، فربنا عزَّ وجل إذا قال:

(قُلْ يَا عِبَادِ)

أي يا محمد خاطب هؤلاء الذين آمنوا بي.

المؤمن كلما ارتقى إيمانه تعامل مع الله تعاملاً صادقاً وأصغى أذنه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

الله عزَّ وجل كما تعرفون يخاطب الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين؛ يا من آمنت بالله خالقاً، يا من آمنت به مُرَبِّيَاً، يا من آمنت به مسيِّراً، يا من آمنت بوحدانيِّته، يا من آمنت بكماله، يا من آمنت بعظمته، بحكمته، بلطفه، برحمته، بقوته، بعدله، بغناه، يا من آمنت بأنه أعد لك حياةً:

((فيها ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

هذا الذي آمن:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لا أعرف أن أحداً من الناس إذا كان ماشياً في الطريق وقال له شخص: يا أخ، أو يا فلان الفلاني إلا ويلتفت حوله، ألا يتَّجه إليه، إنسان إذا خاطبك، وأحياناً طفلٌ صغير يقول لك: يا عم كم الساعة؟ تستحي أن تسكت، تستحي أن لا ترد عليه، وقد تكون حاملاً في يدك اليسرى حاجة ثقيلة تنقلها إلى اليد الأخرى وتقول له: الساعة كذا، والإلهُ العظيم خالق الأكوان يخاطبك فاستمع إليه: فهنا السؤال الوجيه: يا أيها المؤمن إذا قرأت هذه الآية ألا تشعر بشيء؟ ألا تشعر أنك معنيٌ بالخطاب؟ ألا تشعر أن الله يخاطبك؟ يطلب منك إلهك، ربك، خالقك، مربِّيك أن تصغي بسمعك إليه:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

لذلك فالمؤمن كلما ارتقى إيمانه أُرْهِفَت أحاسيسه، كلما ارتقى إيمانه تعامل مع الله تعاملاً صادقاً، كلما ارتقى إيمانه أصغى أذنه.

علامة إصغائك إلى نداء الله توبتك :

الآية الكريمة التالية هي من أروع الآيات:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

علامة إصغائك إلى نداء الله توبتك، علامة الإصغاء التوبة، فإن لم تتب أنت لم تصغ إلى الله عزَّ وجل،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ)

والذي يستمع إلى الحق ولا يستجيب فكأنه ما استمع إليه، وتراهم يستمعون إليك وهم لا يسمعون:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

[سورة الأنفال: 21]

الضال لا يسمع، مرة ضربت مثلاً أن إنساناً يقف على كتفه عقرب، والعقرب لدغتها قاتلة في أغلب الأحيان، قاتلة، أجل لدغتها قاتلة، وقال لك رجل: انتبه أيها الأخ العقرب على كتفك، فأنت إن استمعت إلى كلامه وبقيت هادئاً متوازناً، وابتسمت في وجهه وقلت له: أنا أشكرك على هذه الملاحظة القيِّمة، وأنا ممتنٌ من حرصك على سلامتي. يا ترى أهذا الكلام يدل على أن المتكلم سمع ماذا قال المُنَبِّه؟ لا والله، فما دام بقي هادئاً، وبقي مطمئناً، وابتسم ابتسامة مجاملةٍ، وقال للذي نبَّهَهُ: أشكرك على حرصك على سلامتي، فهو لم يعرف: ما معنى عقرب؟ ولا عرف أين هي العقرب؟ رغم أنه سمع الكلام ولكنه لم يدرك محتواه، والحق أن مقياس صحة السماع الاستجابة، فهنا:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم: 4]

علامة إيمان أحدكم أنه إذا قرأ أية آيةٍ مُصَدَّرَةٍ بـ (يا أيها الذين آمنوا) يصغي ويستجيب:

طبعاً هنا:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

أنتم معنيّون بالخطاب، بل إن علامة إيمان أحدكم أنه إذا قرأ هذه الآية، أو أية آيةٍ مُصَدَّرَةٍ بـ: (يا أيها الذين آمنوا) يصغي ويستجيب، أما إن لم يستجب فهو لم يصغ، وإن لم يصغ فما قرأ القرآن، رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، تعلموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، كل علمٍ وبالٌ على صاحبه ما لم يعمل به.

((والعلم علمان: علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم))

[الجامع الصغير عن جابر]

أجل، حجة عليه، إذاً:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

الآن ما هو الأمر؟ الأمر:

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

فاتقوا فعل أمر، والمضارع يتَّقي، والماضي اتَّقى، واتقى فعل ماضٍ مزيد، على وزن افتعل، مجرَّده وقى، أي قِ نفسك من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بطاعة الله، كلمة وقى فيها شيئان، فيها خوف من خطر، وفيها حركة لدرء هذا الخطر، نفهم من كلمة وقى أن إنساناً أدرك خطراً وبحث عن سبيلٍ للخلاص من هذا الخطر.

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي أطيعوه كي تسلموا من عذاب الدنيا، اتقوا عذابه بطاعته، ولك أن توسِّع معنى هذه الآية؛ أي اتق الاضطراب النفسي بطاعته، اتق الشرك بالتوحيد، اتق الكفر بالإيمان، اتق اضطراب النفس بتوجيهها إلى الله، اتق خسارةً محققةً في التجارة بتطبيق منهج الله، اتق شقاءً زوجياً بتحكيم القرآن والسنة في زواجك، اتق سقوطك بين الناس بتعلُّقِكَ بمكارم الأخلاق، هكذا، فكلما أطعت ربك في جهةٍ حصَّلت نتائج باهرة من جهةٍ أخرى.

يجب ألا نخالف قوانين وسنن الله عز وجل ونحترمها ونتخذها مقياساً :

بالمناسبة نحن على أبواب رمضان، ورمضان شهر التقوى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

لعلكم تتقون الله، لعلكم تطيعونه فتستحقون سلامة الدنيا وسعادتها، وسلامة الآخرة وسعادتها.

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الأمر واسع جداً، اتقِه في صحتك، مستحيل أن ترى إنساناً يطلب من الله الصحة وهو يخالف القوانين التي قنّنها الله عزَّ وجل، من يعرف هذه القوانين؟ الطبيب، أسمع أحياناً من أخوان كرام أن والده يدخِّن تدخيناً كثيفاً، أسمع من بعض الأخوان أن والده لا يعبأ بكل تعليمات الطبيب، ثم يصاب فجأةً بمرضٍ عضال، فيقول: يا رب ماذا فعلت؟ نقول له بدورنا: لقد فعلت كل شيء، خالفت القوانين التي قننها الله عزَّ وجل، أنت خالفت السُنَن التي سَنَّها الله عزَّ وجل، حتى في أمر صحتك ما لم تأخذ بهذه القوانين وتحترمها وتتخذ هذا مقياساً، فأنت لست متقياً الله عزَّ وجل.

لذلك النبي علمنا أن الإنسان إذا نام على سطح غير مسوَّر، فوقع فدقت عنقه مات عاصياً، والنبي عليه الصلاة والسلام مرةً قال لأصحابه: من كان جَمَلُهُ حروناً فلا يصحبنا. ولقد ركب صحابيٌ ناقة حروناً، فرمته من على ظهرها فدقت عنقه، والنبي لم يصل عليه لأنه مات عاصياً، الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة: 195]

ويقول أيضاً:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

[سورة النساء: 29]

بعض توجيهات النبي الكريم في الطعام والشراب والزواج والنظافة وما إلى ذلك :

الآن نبدأ بالجسم، فإذا لم يطبق إنسانٌ تعليمات الطبيب، ولم يعتن بصحته، لأن رأسماله صحته، هي رأسماله في الدنيا، ومطيَّتُهُ إلى الآخرة، إذاً اتقوا ربكم أي نفذوا التعليمات النبوية، النبي الكريم له طب نبوي، وتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في الطعام والشراب والزواج والنظافة وما إلى ذلك كثيرة، فمثلاً النبي الكريم قال:

((أبن القدح عن فيك ثم تنفس))

[الجامع الصغير عن أبي سعيد]

((كان إذا شرب تنفس ثلاثاً))

[الجامع الصغير عن أنس]

التعليمات النبوية دقيقة جداً، قال:

((إذا شرب أحدكم فليمص مصاً، ولا يعب عباً، فإن الكباد من العب))

[الجامع الصغير عن ابن أبي حسين مرسلا]

قال:

((بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ))

[الترمذي عن مِقْدَام ابْن مَعْدِي كَرِبَ]

التعليمات واسعة جداً، تعليمات متعلّقة بصحتك، تعليمات متعلقة بزواجك، تعليمات متعلقة بتربية أولادك:

((سووا بين أولادكم في العطية))

[أخرجه الحارث عن عبد الله بن عباس]

تعليمات متعلقة بجيرانك، تعليمات متعلقة بمن هم فوقك، بمن هم دونك، بمن هم حولك، تعليمات متعلّقة بالمخلوقات.

((إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ فإذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتلة، وَإذا ذبحتُم فأحْسِنُوا الذَّبحَ..))

[مسلم عن شداد بن أوس]

إذا عرفت الله وآمنت به فلا شيء يقدم على معرفة أمره :

تجد الشرع كيفما تحرَّكت اهتم ببيان الأحكام شرعية: من أوامر، ومن نواهٍ، ومباحات، ومندوبات، وفروض، وسنن، فالله يخاطبك:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

وأنا أرى من السذاجة وضيق الأفق أن يمسخ الدين عند بعض الناس إلى صلاةٍ وصيامٍ وحج وزكاة، الدين آلاف التعليمات، الدين منهج تفصيلي دقيق جداً يعلّمك كيف تقلّم أظافرك، يعلّمك كيف تدخل على أهلك بعد سفر، يعلّمك كيف تتاجر، كيف تُعامل، كيف تجاور، كيف تلهو، كيف تعامل أولادك، لذلك فالعلم ضروري، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وطلب الفقه حتم واجب على كل مسلم، كيف تطيع الله إن لم تعرف أمر الله؟ بعد أن آمنت بالله لا شيء يقدَّمُ على معرفة أمره، معرفته مقدمة على معرفة أمره، لكن إذا عرفته وآمنت به فلا شيء يقدم على معرفة أمره، إنك بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، أنت آمنت بالله، آمنت به، طبعاً لم تؤمن الإيمان الكامل ولكن آمنت به، ما دمت قد آمنت به ابحث عن أمره كي تُطيعه، هكذا الآيات:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

اتق:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء:9]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)

[سورة البقرة:282]

الإنسان إذا آمن بالله لا شيء في حياته يعلو على معرفة منهج الله :

ابحث عن آلاف الحالات، آلاف المآسي التي سببها دينٌ غير مكتوب، خصومات، حالات طلاق، فساد أُسَر، لأن الناس خالفوا هذه التعليمات، شارك شريكاً بلا عقد، ديَّن بلا سند، اتفق اتفاقاً شفهياً بلا وثيقة خطّية، فالأيام كشفت خسارة هذا المشروع، فالشريك غير المكلّف بأعباء مالية ينسحب، يقول لك: أنا ليس لي علاقة. فتنشأ الخصومات والدعاوى والقضاء، فكل شيء سجِّله، وأنت بعد أن آمنت بالله لا شيء يعلو على معرفة منهج الله، بعد أن آمنت بالله لا شيء يعلو على معرفة الأحكام الفقهية، وكيف تعرفها من دون أن تأتي إلى بيوت الله لتتعلم، كيف تكون طبيباً وأنت لم تعرف أين كلية الطب؟ كيف تكون مهندساً زراعياً ولا تعرف أين مكان كلية الزراعة؟ كيف؟ بيت الله فيه تعليمٌ، وفيه عبادةٌ، وفيه ذكرٌ، لذلك فالإنسان إذا آمن بالله لا شيء في حياته يعلو على معرفة منهج الله، معرفة أمر الله، معرفة نَهي الله، معرفة دستور الله، معرفة قانون الله، معرفة سُنَّة الله، فهي منهج كامل.

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

اتق الله في علاقتك به، اتق الله في علاقتك بالناس، اتق الله في علاقتك بالمخلوقات جميعاً، فالنبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم، رأى رجلاً يذبح شاةً أمام أختها، فغضب غضباً شديداً وقال: هلا حجبتها عن أختها، أتريد أن تميتها مرتين؟ أحياناً بائعو السمك الطازج يأخذون هذا السمك مباشرةً وينظفونه، بينما لا تزال هذه السمكة حيةً تتحرَّك، يفتح بطنها ويخرج أحشاءها، وهذا خلاف المنهج الإلهي، هذا خلاف السُنَّة، بائع الدجاج أحياناً يذبح الفروج ويضعه في طبقٍ من الماء الذي يغلي لكي ينتف ريشه، عذبه مرتين لأنه جاهل، فالإنسان عندما يؤمن بالله عزَّ وجل بدراسة منهج الشرع يعلم عندئذٍ أن اللحم إن لم يذكى، فكل المواد السامَّة والموبوءة والمجرثمة في الدم، فالذبيحة إن لم تذكى لا ينبغي أن نأكلها، لذلك لحم لا تعرف مصدره لا تأكله، ذبح في بلادٍ أجنبيةٍ لا يعرفون الله عزَّ وجل، حيث الدابَّة تصعق صعقاً كهربائياً ليزداد وزنها اثنين أو ثلاثة كيلو، وزن الدم الذي لم يخرج منها، فتأتينا معلَّبة بعلب، فمفروض على المسلم أن يعرف ماذا يُدخِل لفمه، وهذا منهج الإسلام الذي لا بد من دراسته وفهمه.

الحد الأدنى أن نعرف أمر الله سبحانه :

أصعب شيء بالحياة أن يمسخ الدين إلى صلاةٍ وصيام وحجٍ وزكاة، الدين منهج تفصيلي، تعليمات الصانع واسعة جداً، بالقرآن أولاً، وبالسُنَّة ثانياً، باجتهاد الفقهاء ثالثاً، وبالقياس رابعاً، هناك مصادر

تشريعية، وهناك علماء فطاحل أفذاذ، الإمام أبو حنيفة صلَّى صلاة الفجر بوضوء العشاء واستنبط من قول النبي:

((يا عُمير ما فعل النُّغير))

[البخاري عن أنس]

استنبط سبعين حكماً فقهياً. فكيف يزهد الإنسان في أحكام الفقه؟!

ذكرت لكم في درس الفقه من قبل عن موضوع الكفاءة في الزواج، فالذي أعرفه أن معظم حالات الشقاق الزوجي والخصومات أساسها عدم الكفاءة بين الزوجين، فالكفاءة بحث مُهم، ثم يأتي بحكمه الشرعي، أن امرأةً إذا تزوجها شابٌ غير كفء لها، من حقها أن تطالب القاضي بالتفريق بينه وبينها، إلا في حالةٍ واحدة إذا حملت منه، إذاً كم هذا المخلوق الذي في بطنها غالٍ على الله؟ كم في الطلاق بعد إنجاب الأولاد من جريمةٍ بحق الأولاد؟ إذا حملت الأم أُلغي موضوع الكفاءة حفاظاً على صحة هذا الجنين، صحته النفسية، إذا نشأ في الدنيا وأمه مطلقة وأبوه مشغولٌ عنه، فهذا تضييعٌ للإنسان.

فالحقيقة موضوع الفقه موضوع خطير جداً، فالإنسان عندما يحضر مجلس علم يتعلم أمور دينه، نحن في دروس الفقه بفضل الله عزَّ وجل نتكلَّم في موضوعات الخطبة، موضوعات الطلاق، موضوعات ستر العورة، موضوعات الوصية، موضوعات الإرث، موضوعات النَفَقة، هذه كلها موضوعات يعاني الناس منها جميعاً، فالحد الأدنى أن تعرف أمر الله، وبماذا يأمر الله سبحانه؟ وما هو حكم الله عزَّ وجل لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

أنت ليس لك خيار مع طبيب يقول لك: تحليل، ولا تجرؤ أن تناقشه أساساً، وإن ناقشته قد يغضب، فأنت مع طبيب لا تجرؤ أن تناقشه بينما تناقش خالق الكون، ومع مهندس لو قال لك: أحضر طنين من الحديد محلزن اثنا عشر ميلي، فلو قلت له: مالنا قليل واكتفِ بثلاثة ميلي فإنه يطردك من مكتبه، هذا علم بناء، ينهار البناء، لماذا أنت مع طبيب، ولماذا جئت بالمهندس، تتأدب بتعليماته ولا تناقشه، وبينما مع خالق الكون مع الذي خلقك ولم تكن شيئاً، مع الذي صوَّرك، مع الذي أودع فيك العقل والنفس والشهوة والاختيار، مع الذي صممك بهذا الخلق الكامل تناقش وقد تعترض.

ما من مخالفةٍ لمنهج الله إلا ووراءها جهل :

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين: 4]

أنت آلة، بأبسط معنى، بالمعنى البسيط البديهي الساذج، أنت آلة معقدة ولك صانع وأصدر تعليمات، فمثلاً لماذا إذا اشتريت آلةً معقدة، جهاز كمبيوتر، فأنت تقول للبائع: أريد التعليمات؟ ثم ترجمها، فلماذا هذا الحرص الشديد على ترجمة التعليمات؟ يجيبك: الجهاز ثمين ولا مجال للتهاون، إذا استعملناه خلاف التعليمات نخربه، نترجمها، ثم تنتظر شهراً لكي تترجم التعليمات دون أن تستعمله، لأنك تريد أن تحافظ على سلامته، فهو باهظ الثمن.

فهل أنت رخيص على الله؟ تطلق بصرك في الحرام، تتزوج زواجاً غير إسلامي، خطبة ثم قرأنا الفاتحة وعقد غير قانوني، وصار الخطيب يدخل متى يشاء ويجالس الخطيبة ويتحدث إليها بما يريد، هذا خلاف الشرع، وتنشأ المآسي، اذهب إلى القصر العدلي، اذهب إلى السادة المحامين وانظر كم مشكلة عندهم، ستة آلاف أو سبعة آلاف قضية في كل محكمة وكلها جراء مخالفة الشرع، إن كان الأمر بالزواج، وإن كان بعقود الشراكة، فإنك تجد تساهلاً، فأحياناً تجد أخوين اشتركا في معمل، مصروفهما غير مسجَّل في قيود المعمل، هذا أخذ سيارة كبيرة وهذا أصغر، النساء اختلفن: لماذا اشترى أخوك هذه السيارة بهذا الثمن؟، ثم تنشأ خصومة كبيرة في الأسرة، ثم قطيعة كاملة، بعد ذلك انهيار الشركة، لأنه تم على خلاف الشرع.

أكاد أقول أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو، ما من مأساةٍ على وجه الأرض إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، وما من مخالفةٍ لمنهج الله إلا ووراءها جهل، لذلك اعتبر الجهل عدوك الأول.

كل مشكلات الأمة أساسها الجهل الذي يؤدي إلى عدم تطبيق منهج الله عزَّ وجل :

نحن لنا أعداء تقليديون، اللهم اهزم الصهاينة، نسأل الله أن يهزمهم والصهاينة باقون ويتغطرسون، ولكن نحن إذا طبقنا منهج الله عزَّ وجل هزمناهم لأن الله تعالى يقول:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة: 123]

وهو ناصرهم، فكل مشكلات الأمة أساسها الجهل، الذي يؤدي إلى عدم تطبيق منهج الله عزَّ وجل، فالمرأة مثلاً إذا خرجت من بيتها متزيِّنة وخروجها على هذا النحو مخالفة صريحة لمنهج الله تعالى فإنها عندئذٍ فسدت وأفسدت.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

[سورة الأحزاب: 33]

أي إذا خرجتُنَّ:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

[سورة الأحزاب الآية: 33]

كم مشكلة الآن تقع في المحلات التجارية من تساهل المرأة في حديثها مع البائع؟

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

[سورة الأحزاب: 32]

(وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

[سورة النور: 31]

الثياب التي تبرز مفاتن المرأة هذه كلها محرمة.

من علامات قيام الساعة أن يرفع الحياء من وجوه النساء :

حدثنا أخ طبيب مؤمن قال: أنا أعمل في مجال الأمراض التناسلية، ففي العشر السنوات الأخيرة ارتفعت الإصابات عشرة أضعاف لأن إثارة الشهوات في الطريق صارخة وسُبُل الزواج مغلقة، خالفنا منهج الله عزَّ وجل، لذلك كِدت أقول: كلما رخص لحم النساء ارتفع لحم الضأن، وكلما قلَّ ماء الحياء قل ماء السماء.

فمن علامات قيام الساعة أن يرفع الحياء من وجوه النساء، لا حياء، تُحِدُّ النظر إليك عليك أنت أن تتحجب منها، هذا الذي بقي عليك، تُحِدُّ النظر إليك، يرفع الحياء من وجوه النساء، وترفع النخوة من رؤوس الرجال، تراه يمشي مع زوجته وهي في أبهى زينة ويفتخر بها، وكأنه يقول: هذا اختياري وقد أحسنت انتقاءها، انظروا، ليس لديه نخوة، وترفع الرحمة كذلك من قلوب الأمراء، فلا نخوة في رؤوس الرجال ولا حياء في وجوه النساء ولا رحمة في قلوب الأمراء، فأنا أشعر أن كلمة:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أنت مؤمن اشعر أنها مادة دستورية إلهية لا بدَّ من إنفاذها، وتعمل في عمل تجاري، هل تعرف حكم الله في هذا العمل؟ هل تبيع بضاعة محرمةً في الأصل، أخي هذا عملي والشغل عبادة، من قال لك ذلك؟ أن تبيع أشياء فاسدة تفسد الأخلاق وأن تقول لي: الشغل عبادة؟! أن تبيع مجلات مثلاً كلها تغضب الله عزَّ وجل فيها صور منحرفة، أخي أنا لدي مكتبة ومضطر لأن أبيع جميع ما يصدر من كتب ومجلات، ما معنى مضطر، هذا كلام فارغ، نحن نريد بيتاً مسلماً، حرفة صحيحة شرعية، راجع حساباتك، حرفتك التي أنت فيها هل ترضي الله أم تغضبه؟ نحن إذا لم نبع الدخان في المكتبة تنخفض الغلة للنصف، فنحن مضطرون لبيع دخان، يجب أن تجد لنا فتوى لهذه، يقول ابن عباس: "أيرتكب

أحدكم أحموقته ويقول: يا ابن عباس يا ابن عباس". فهذا الأمر ليس من شأننا، راجع نفسك هل في ببيتي غلط؟ وهل بخروج زوجتي غلط؟ هل بلباس بناتي غلط؟ هل بتجارتي غلط؟ هل بعملي غلط؟ هل بوظيفتي غلط؟ أنا يا ترى هل أعين الظالم؟ وهل أقبض مالاً حراماً؟ هل بتجارتي بضاعة محَرَّمة؟ هل في بيتي انحراف؟ هل فيه شيء لا يرضي الله؟!!

المؤمن إنسان كامل وأمين ومُخلص ويطبِّق منهج الله في كل حياته :

يدعو:

((يا رب، يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لذلك تجد دعاءه مختاراً، أدعية منمَّقة، أدعية بليغة على السجع، صوت نبراته حادَّة ولكن دونما استجابة، ندعو ويعلو صوتنا لكن لا استجابة، سيدنا زكريا حدثنا الله عنه قال:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

[سورة مريم: 3]

أنت لو كنت صادقاً بإمكانك ألا تحرِّك شفتيك، بإمكانك أن تتوجه إلى الله بقلبك، تقول له: يا رب افعل كذا، أعني، ارزقني، ويستجيب لك، أي إذا لم يكن تعاملك مع الله مباشرةً، إن لم تدعه سراً وعلانية، ليلاً ونهاراً، في أعقاب الصلوات وفي السجود، إن لم تسأله سلامة الدنيا والآخرة، فكيف تشعر أنك مؤمن؟ أنا أركز على عنصر الإيمان فيك، فأنت لا شك أنك مؤمن، ما الذي جاء بك إلى هذا البيت بيت الله؟ إيمانك. فإيمانك جاء بك إلى هذا البيت، إلى هذا المسجد، إذاً مادمت مؤمناً فينبغي أن تستمع لقول الله عزَّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أحد أخواننا الكرام المحامين، والله أنا أُكْبِرُهُ وأعجب به، قال لي: جاءني رجل يطلب توكيلي في قضية، قلت له: يا أخي هذه القضية شملها قانون العفو وأنت لا تحتاج إلى محامٍ إطلاقاً، يكفيك أن تقدم طلباً إلى المحكمة الفلانية، فيصدر الحكم لصالحك. ما إن انتقل إلى محامٍ آخر حتى أوهمه أن القضية خطيرة جداً وهذا الذي قال لك ذلك لا يفهم شيئاً، إلى أن ابتزَّ منه عشرين ألف ليرة. وبالطبع القضية منتهية بالعفو، فجاءني هذا المحامي من بعد وقال لي: يقولون عني إنني ساذج، قلت له: والله هذا وسام شرف بحقك.

سبب تخلّي الله عنا أنه قد هان أمر الله علينا فهنا على الله :

هذا هو المؤمن، المؤمن لا يكذب، المؤمن لا يغش، المؤمن لا يحتال، المؤمن لا يأكل مالاً حراماً، أجل هذا المؤمن، كلمة مؤمن صفة كبيرة، وبالتعبير التجاري شيء عظيم، إنسان صادق، إنسان كامل، إنسان أمين، إنسان مُخلص، يطبِّق منهج الله في كل حياته، أما التغرير بالناس والمخاتلة، والغش، والخداع، وعبارات المجاملة، التي هي نفاق صريح، كانت سبباً لتخلّي الله عنا، لقد هان أمر الله علينا فهنا على الله، هذا مختصر مفيد.

إذا أردتم أن تفهموا السبب الذي من أجله تخلى الله عن المسلمين في العالم هو: أنه هان أمر الله علينا فهنا على الله. ألفٌ ومئتا مليون مسلم، أكثر من خمس سكان العالم، وكلمتنا ليست هي العُليا، وليست عليا، المعنى معروف، مُقَدَّراتنا ليست بأيدينا، هان أمر الله علينا فهنا على الله..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

ولقد لقينا هذا الغَي، أصدق الله يَصْدُقك، لله رجالٌ إذا أرادوا أراد، فأنت مؤمن تخاطب الله، استقم على أمره واسأله المعونة والتوفيق، ولكن هناك تقصير كثير، فعلى كل إنسان ولو رأى حوله المقصرين كُثُراً فعليه أن يستقيم، عليه أن يتلو قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

[سورة المائدة: 105]

المؤمن يطبق شرع الله تعالى في كل أفعاله :

هناك سؤال ملحٌّ أيها الأخوة، وهو سؤالٌ كبير: أليس في القرآن الكريم وعود كثيرة جداً للمؤمنين، ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: 55]

كل هذا تحقيقه على الله، وعلى العباد:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

فليس عند الناس عبادة ولا طاعة ولا يرجون لله وقاراً، فمصمم أزياء يهودي بفرنسا، إذا صمم زياً للنساء يكشف كل مفاتنها، نحن نتبعه خطوةً خطوة، هؤلاء المسلمون اقرأ عليهم السلام، مصمم أزياء

يهودي يتحكم بأعراضنا، يتحكم بزي نسائنا، يفرض علينا الانحراف تحت اسم الموضة، فتقول إحداهن: هذا هو الدارج في هذه السنة؛ أما المؤمنة فلا تبالي بكل هذا، طاعة الله فوق كل شيء، هذه الموضات تحت قدمها، ليقل عنها الناس ما يقولون، طاعة الله فوق كل شيء، وقبل كل شيء، هكذا كانت الصحابيات، " يا فلان اتق الله بنا فنحن بك نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام " هكذا كانت الصحابية تقول لزوجها إذا خرج يرتزق.

قرش من حلال فهذا يبارك الله لك فيه، فيه بركة، فبين التجار وكلهم مسلمون قاعدة أصبحت قانوناً هي: إذا لم نكذب لا نبيع، هذه آية أم حديث؟ من قال هذا الكلام، إذا لم نكذب لا نربح؟ كذلك بعض المحامين: أخي إذا لم نكذب لا يأتينا بدل الأتعاب، هذا كله كلام الشرك، أما علمت أن على الله رزقك، هناك محل بمدينة بالشمال، فإذا كان بالمدينة تلك مئة مطعم فتسعون من هذه المطاعم تقدم الخمور، إلا هذا المحل وغيره قليل، فقد كتب صاحبه عند مدخله: الخمر ممنوعٌ بأمر الرب والرزق على الله. تأتي إلى المحل الساعة العاشرة فهو مليء، الثانية عشرة مليء!! وكذلك الساعة الواحدة مليء، والثانية ظهراً، والرابعة عصراً كذلك ثم الخامسة تجد الازدحام ملموساً، والآن أكثر محلات الأرمن صار أصحابها يكتبون: ممنوع شرب الخمر بأمر الرب. فالجماعة يريدون أن يربحوا، وسبيل الربح بيد الله تعالى، ونحن نريد مؤمناً هكذا، مؤمناً يطبق شرع الله تعالى.

على المؤمن أن يلغي الغش والكذب من حياته :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

للذين أحسنوا في هذه الدنيا، يا ترى الحسنة في الدنيا مطلقة، والمطلق على إطلاقه، ومعنى مطلقة أن الحسنة في الدنيا والآخرة:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

محسن، أخ يلف محركات، يأتيه محرك أجرته خمسة آلاف، فتحه فرأى فيه طاقاً مقطوعاً، لحمه في خلال خمس دقائق، جاء صاحبه فطلب منه صاحب المحل خمساً وعشرين ليرة فقط، وهو موطّن نفسه أن يعطيه خمسة آلاف ليرة أجرة لفه، فتبين لصاحب المحل أنه ليس محروقاً بل مقطوع، فلحمه وقال له: أجرته خمس وعشرون ليرة فقط، هذا شأن المؤمن، وصاحب المحرك أخوك، فكيف تأكل ماله بالباطل؟ حبّذا لو ألغينا الكذب في حياتنا، وألغينا الغش في تعاملنا، حتى في المهن الراقية أصبح فيها غش، حتى في المهن التي لا يرقى إلى صاحبها الشَك صار فيها ابتزاز بسبب ضعف الإيمان، طبيب

ووراءه ممرضة فقال لها: قولي له: عملية قيصرية لصالح المستشفى، وهي ولادة عادية تكلّف ثلاثة آلاف، والقيصرية بستة عشر ألفاً، لصالح المستشفى، صار الإنسان يشك لعل هذه الولادة غير قيصرية؟ ولكن هكذا جاء التوجيه، حتى في المهن الراقية التي أصحابها فوق الشبهات إن لم نؤمن بالله انزلقنا إلى الابتزاز، فكيف يرضى الله عنا؟ كيف يرحمنا؟ كيف ينصرنا ونحن نعادي بعضنا بعضاً؟ يبتز بعضنا أموال الآخرين؟ يغش بعضنا بعضاً؟

الإنسان المؤمن لا يزهد ببلاد الإسلام بل يبقى في هذه البلاد محافظاً على دينه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)

أي أن طاعة الله لا يعلو عليها شيء، فإذا كنت في هذا المكان لا تستطيع أن تطيع الله فيه فتحوَّل إلى مكانٍ آخر، التعلق بالأرض على حساب دينك هذا سلوك وثني، سلوك غير صحيح، الأرض التي ترفع رأسك بها، الأرض التي تطيعُ الله بها هي أرضك، فنحن والحمد الله في بلدٍ تقام فيه شعائر الله، من أجل دُريهمات يغادر الإنسان المؤمن الطيِّب بلده إلى بلدٍ آخر تنتهك فيه الحرمات على قارعة الطريق..

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

يفرح أن البلاد رخيصة وكلها متنزهات وحدائق خضراء، يقول لك: الحاجات متوافرة بشكل عجيب، المواصلات، البيوت الجاهزة للإيجار ميسَّرة، ولكن حينما يرى أن ابنته مثلاً أحبت يهودياً في بلاد الغرب، وأنها تنحرف انحرافاً خطيراً، عندئذٍ يعتصر قلبه من الألم، ولكن لا ساعة مندم بعد فوات الأوان، فالإنسان المؤمن لا يزهد ببلاد المسلمين، لا يزهد ببلاد الإسلام، وليبقَ في هذه البلاد محافظاً على دينه، وليجعل خبرته في خدمة هذه البلاد، يجعل ذكاءه في خدمة هذه البلاد، أما قالوا لك: مئتان وسبعون ألف طبيب يعملون في بلاد الغرب من أصل عربي، فهؤلاء نخبة المجتمع، الأدمغة تعمل لصالح الغرب، فشيء مؤلم أن الإنسان يسخر طاقته، وعلمه، وذكاءه، وخبرته، وينقل أمواله إلى هناك كي تعود علينا مؤامراتٍ وأسلحة فتاكة.

الصابر يرى أن يد الله تعمل في الخفاء والأمر كله بيده وأفعاله كلها يحمد عليها :

يا أيها الأخوة الأكارم:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

من هو الصابر؟ هو إنسان يعرف الله، يعرف أن الله يعالجه، فمثلاً بشكل أو بآخر، راقب طفلاً صغيراً على كرسي طبيب الأسنان، تجده يبكي، يتحرك حركات عشوائية، يمسك يد الطبيب، أحياناً إذا كان بلا تربية يسب الطبيب، راقب إنساناً راشداً تجده ساكت، الآلام شديدة، البنج ممنوع بالنسبة له لأسباب معينة، يعالج من دون بنج، يشد على الكرسي ولا يصيح، وبعد ذلك يشكر الطبيب ويعطيه أجرته كما يريد، انظر إلى العقل، الطفل يصيح ويسخط ويغضب، والكبير يسكت ويصبر، أي أن الصبر علم، لمَ الكبير صبر لأنه يعرف أن العملية لمصلحته، يعرف أن الطبيب عالم، والطبيب خبير، والطبيب دقيق، وهذا العمل بمجمله مع آلامه لصالحه، ويقول: وجع ساعة ولا كل ساعة.

فهذا إذاً سلوك الإنسان الراشد، فكل إنسان لا يصبر يعني أنه أحمق، لا يعرف الله أبداً؛ أما الصابر فهو يرى أن يد الله تعمل في الخفاء، يرى أن الأمر كله بيد الله، يرى أن أفعال الله كلها يحمد عليها، لذلك قالوا: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه.

((عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْراً وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْراً))

[أحمد عَنْ صُهَيْبٍ]

فالمؤمن شيء عجيب، مثل المنشار على الحالتين شاكر، إذ أكرمه الله يقول: يا رب لك الحمد هذا فضلك علي، وإذا الله سلبه نعمة يا رب لك الحمد أنا أستحق، وأنت مربٍ، وأنت عالم، وأنت عادل، وأنت رحيم، وأنا طوعُ إرادتك، إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى ولكن عافيتك أوسع لي. والله شيء جميل، لا تجد عند المؤمن حالات انهيار عصبي، تجد بالغرب أن أعلى نسب الانتحار في السويد، وهذا جهل فادح، إن لم تأته الدنيا كما يريد ينتحر، بينما المؤمن تجده يحتاج الكثير الكثير ومع ذلك يرجو الله، ويدعوه، ويصبر على قضائه وقدره، فلذلك:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

معنى التوحيد :

من هو الصابر؟ هو الذي يعرف الله، يعرف أن الأمر كله بيد الله، لا بيد زيد ولا بيد عُبيد، ولا عند فلان ولا عند علان، لا أحد يقدر إلا الله، أما هؤلاء فهم مجرد صور، مثلاً إن تلقى أحدٌ ضربةً بعصاً، والعصا بيد إنسان، هل يصب نقمته على العصا، يحقد عليها؟ لا، يجب أن يحقد على من ضربه بها، فإذا كان من ضربه بها إنسان عظيم وعادل ورحيم، معناها أنه هو الغلطان، انظر كيف التسلسل، إن جاءتك مصيبةٌ على يد إنسان، هذا الإنسان أداة بيد الله، العصاة بيد الله، فالله عزَّ وجل عادل ورحيم وحكيم، معنى ذلك أن شيئاً ما من عند نفسي أنا، والمؤمن دائماً يتَّهم نفسه، ليس عنده حقد إطلاقاً، يعلم

أن الله بيده كل شيء، الإمام الشعراني قال: "أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي". معناها أن الإنسان أموره كلها بيد الله، عليه أن يصدق مع الله، عليه أن يصطلح معه، عليه أن يتوب إليه، عليه أن يصلح فيما بينه وبين الله، اعمل لوجهٍ واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، هذا هو التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

راقب الله عزَّ وجل، ناجه، اسأله، ادعه، اقرأ كتابه، احضر مجالس العلم، تعلَّم أحكام الفقه، تعلم مواقف الصحابة من أجل أن تهتدي بهديهم، أن تستنير بنورهم، أن تقفو أثرهم، أن تخطو خطوهم.

إذاً:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ*وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

أيها الأخوة الأكارم، نحن مقدِمون على شهرٍ فَضيل، على شهرٍ كريم، ما من شهرٍ في القرآن الكريم ذكر اسمه إلا رمضان حصراً، هذا الشهر دورةٌ سنوية، دورةٌ سنوية روحية لقفزةٍ إيمانية، أجل قفزة، فأنا أتمنى على كل أخ كريم أن يفرغ نفسه في هذا الشهر لله عزَّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (07-20): تفسير الآيات: 11-15، الإخلاص والطاعة والخوف من الله تعالى. `

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مخلوقٌ من أجل أن يعبد الله :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع من سورة الزُمَر، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

الآية التي قبلها:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ* قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ*)

الذي يبدو أن كل شيءٍ مسخَّرٌ لشيء، فالماء مسخَّرٌ للأرض، والأرض مسخَّرةٌ للنبات، والنبات مسخَّرٌ للحيوان، والحيوان مسخرٌ للإنسان، والإنسان مسخرٌ لمن؟ لله عزَّ وجل، ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له؛ وفي أثر آخر: خلقتك لنفسي كل شيء لك فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب.

أنت مخلوقٌ من أجل أن تعبد الله، الله عزَّ وجل قال:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة: 30]

الإنسان مزوَّدٌ من بين جميع المخلوقات بقدرةٍ إدراكيَّة تميِّزه عن بقيَّة المخلوقات :

أنت أيها الإنسان خليفة الله في الأرض، آية دقيقة جداً،

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

أنت خليفة الله في الأرض، وخليفة الله في الأرض من لوازمه، أو من أولى خصائصه، أو من أوَّل واجباته أن يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، وهل تصدِّق أن خلق السماوات والأرض من أجل أن تعرف الله، وإليك الدليل النقلي:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ)

[سورة الطلاق: 12]

علّة خلق السماوات والأرض أن تعلم:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

أنت أيها الإنسان مزوَّدٌ من بين جميع المخلوقات بقدرةٍ إدراكيَّة، هي التي تميِّزك عن بقيَّة المخلوقات، الطعام والشراب تتساوى فيه مع بقية المخلوقات، النوم، العمل، المُتعة، الملذَّات، كل المخلوقات على نوعٍ أو على شيءٍ من خصائص الإنسان، إلا أن الإنسان يتميَّز على بقية المخلوقات بهذا العقل الذي زوَّده الله به، فالقوة الإدراكيَّة إن لم نستخدمها فقد احتقرناها، والدليل أن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: 130]

هذا الذي لا يفكِّر، لا يعقل، لا يطلب العِلم، لا يبحث عن سر وجوده، لا عن مهمَّة وجوده، هو الذي يعيش على هامش الحياة، يأكل ويتمتَّع كما تأكل الأنعام، هذا الإنسان احتقر نفسه، ما عرف قيمتها.

عبادة الله عزَّ وجل لها معنيان معنى الخضوع ومعنى الحُب :

شيءٌ ثابت أنك المخلوق الأول..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب:72]

أنت المخلوق المكرَّم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: 70]

فأنت خليفة الله في الأرض، وأنت المخلوق الأول، والمخلوق المكرَّم، وأنت الذي قبلت حمل الأمانة، وأن كل شيءٍ خُلِقَ من أجلك:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

أنت مخلوقٌ لماذا؟ من أجل أن تعرفه، من أجل أن تصل إليه، من أجل أن تُقبل عليه، من أجل أن تسعد بقربه، من أجل أن تكون نموذجاً للمخلوقات، فلذلك جاء الأمر الإلهي:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ)

مرَّة ثانية: عبادة الله عزَّ وجل لها معنيان، فيها معنى الخضوع وفيها معنى الحُب، فالذي خضع لله عزَّ وجل ولم يحبَّه ما عبده، والذي أحبَّه ولم يخضع له ما عبده..

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه هذا لعمري في المقال شنيعُ

لـو كان حبُّك صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ يـطيعُ

***

العبادة طاعة وحُب :

يا أيها الأخ الكريم، ينبغي أن يبقى في ذهنك أن العبادة هي في الأساس طاعة ومَيْل، طاعة بلا مَيل تسمى طاعة، وميلٌ بلا طاعة يسمَّى نفاق، لأن الإيمان بلا عمل جنون، والعمل بلا إيمان لا يكون، إذاً العبادة طاعة وحُب، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم: 30]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ - هذه الطاعة - حَنِيفاً، هو الميل أي مائلاً، أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فيا أيها الأخوة الأكارم، بنفوسنا حاجة لا يلبِّيها إلا الإيمان، وبعقولنا فراغ لا يملؤه إلا الإيمان، بنفوسنا خلل لا يقيمه إلا الإيمان، لو تعلَّمت وارتقيت إلى أعلى درجات العلم، إن لم تؤمن ففي هذا العلم نقص صارخ، لو وصلت إلى أقصى الغايات إن لم تؤمن تبقى مضطرباً، فكيف أن الإنسان مفطور فطرة سويَّة، فهذه الفطرة لا ترتاح ولا تطمئن إلا بطاعة الله. الإنسان قبل أن يؤمن في قلق، وخلل، وانهيار، وتعتريه ردود فعل عنيفة وتشاؤم، كما يعتريه جبن وهلع، والنفس لا تستقر ولا تتوازن ولا تسعد ولا تطمئن إلا بمعرفة الله وطاعته، لذلك أنت إذا آمنت بالله، واستقمت على أمره فقد أرحت نفسك وأرحت الناس، استقرَّت نفسُك.

الطاعة من ثمارها الطمأنينة والسكينة :

كل واحد منكم أنا أسأله هذا السؤال: وازن بين حالتك قبل أن تصطلح مع الله، وبعد أن اصطلحت مع الله؟ قبل أن تصطلح هناك أمراضٌ نفسيَّةٌ كثيرة؛ هناك خلل، هناك قلق عميق، هناك تشاؤم، أما إذا عرفت الله عزَّ وجل تشعر براحةٍ ما بعدها راحة، ما هي هذه الراحة؟ راحة الفطرة، فالفطرة مثلاً مركبة ضع فيها وقوداً غير البنزين، تجد أنها اضطربت، المحرِّك لم يعمل أو ينفجر، أما إذا وضعت

لها الوقود الذي صُمِّمَ لها فإنها تعمل بانتظام، الوقود المصمَّم لهذه المركبة يجعلها تعمل بانتظام، تستريح بها وتريح الآخرين، أما استعمالك وقوداً آخر فقد يؤدي إلى انفجار المحرِّك، أو قد تبقى متوقفة، أو قد يعمل ببطء، وقد يعمل ويقصر عمره، أما إذا أردت أن يعمل وفق الخطَّة المرسومة فاستعمل له الوقود المناسب.

وكما قلت لكم: فأنت كإنسان من أرقى المخلوقات، لك عقلٌ وهو قوَّةٌ إدراكيَّة، يعدُّ الدماغ الذي هو أداة العقل أعقد ما في الكون، ولك نفسٌ حسَّاسةٌ دقيقةٌ، لها قوانين، ولها مبادئ، فإذا حدَّت عن مبادئها عذَّبتك هي قبل أن تُعَذَّب يوم القيامة، أمراض الكآبة التي تعاني منها المجتمعات الغربيَّة، الشقاء الزوجي وأسبابه المعصية، شقاء الشباب، شقاء الفتيات، شقاء الزوجات، شقاء الأزواج، هذا الشقاء أساسه المعصية، فالمعصية ندفع ثمنها باهظاً دون أن نشعر، والطاعة نقبض ثمنها دون أن نشعر، فالطاعة من ثمارها الطمأنينة، هذه السكينة التي وصفها الله عزَّ وجل في القرآن الكريم، من أجل هذا كلّه قال:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً)

العبادة هي الطاعة، بالمناسبة: لا يمكن للعبد أن يطيع الله عزَّ وجل إلا إذا عرف حقائق ثابتة، أولها وأهمها أن الله موجود، هناك بعض الأشخاص وجود الله ليس داخلاً في حساباته، يتحرَّك ويتصرَّف وقد يغفل عن وجود الله، فحينما يكيدُ للآخرين، حينما يكيد لإنسانٍ مؤمن، هو يتصرَّف ويظن أن الله غير موجود، وكأن الله لا ينتقم منه، ولا يدبِّر له كيداً هذا إن اعتقد بوجوده..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

أخطر شيء في الحياة التكذيب العملي :

كل إنسان يؤذي، يتطاول، يعتدي، يطغى، يبغي، يأخذ ما ليس له، يلصق تهمة ببريء، يبتزُّ أموال الناس، فلو قال: لا إله إلا الله، هو يتصرَّف على أساس أن الله غير موجود، أما لو أيقن بوجوده لاختلف كل فعله، وقد قلت في الخطبة اليوم: إن أخطر شيء في الحياة التكذيب العملي، التكذيب القولي قلّما تجد في العالَم الإسلامي من يكذِّب حقائق الدين، فمستحيل أن يقول لك إنسان: الله غير موجود. لكن عشرات، بل مئات، بل ألوف، بل مئات الألوف، بل ملايين من المسلمين يتصرَّفون وكأن الله غير موجود، نحن نريد أن يشعر المؤمن أن الله موجود، بل وأن يوقن حقاً أنه موجود..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

نسي الثانية: وَأَكِيدُ كَيْداً:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 30]

معنى ذلك أن الإنسان إذا تصرف على أساس أن الله غير موجود فهو غير مؤمن، ولو قال بلسانه: أنا مؤمن.

ضربت مثلاً: أنت زرت طبيباً، عالجك، ثم وصف لك وصفة، صافحته وقلت له: شكراً لك يا دكتور، أو يا حكيم، وصفته باسم الطبيب، وصافحته، وضغطت على يده، ونقدَّته أجرته، لكن لمجرَّد أنك لا تشتري الدواء الذي وصفه لك فهو لا يرقى عندك إلى مستوى الطبيب الناجح، عدم شرائك الوصفة تكذيبٌ لعلمه، ولو طبَّقت كل أساليب التعظيم، والتبجيل، والاعتراف بالفضل، والتوقير، هذا كلُّه لا يقدِم ولا يؤخِّر. إذاً أنت لن تعبد الله إلا إذا آمنت بوجوده، وإلا إذا كان إحساسك بوجوده دائماً.

الإيمان الصحيح يكون في الرخاء كما في الشدة :

في البيع مثلاً، قد تبيع امرأة وقد تستغلُّ جهلها، وقد تبيع طفلاً صغيراً فإن استغللت صِغَرَهُ، وجهالته، وبعته بضاعة سيئة بثمن مرتفع، فاعلم علم اليقين أنك تبيع هذه البيعة وكأن الله غير موجود، فالإيمان بالله ليست كلمة تقولها، إبليس قالها وهو الكافر الأول:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

هذا الاعتراف الشكلي لا قيمة له، بل إن الالتجاء إلى الله عزَّ وجل وقت الشدَّة أيضاً لا قيمة له، إن لم تكن مستقيماً على أمره في أيام الرخاء فلن يفيدك، كل مخلوق حينما يُسْقَطُ في يده يرجو الله عزَّ وجل، هذا شيءٌ طبيعي جداً، حتى الكفَّار، حتَّى الملحدون، إذا ركبوا في البحر، أو ركبوا طائرةً وأصبح الخطر قريباً، يقولون: يا الله.

نحن نريد إيماناً مستقرَّاً في الرخاء، نريد أن تشعر أن الله موجود في حركاتك وسكناتك، في نشاطاتك، فلا بد من أن تؤمن أن الله موجود، وأن الله واحد، ما من إله آخر، ولن تجد إنساناً على وجه الأرض بإمكانه أن يفعل شيئاً لا نفعاً ولا ضُرَّاً أبداً، الأمر كلُّه بيد الله، موجود، وواحد، وكامل؛ وعادل، رحيم، حسيب، بالمرصاد، رقيب، سميع، مجيب، قدير، هذا الإيمان أن تؤمن به موجوداً، أن تؤمن به واحداً، أن تؤمن به كاملاً هذا الإيمان الصارخ، الواضح، الملموس، الذي يتغلغل في كيانك كلِّه، هذا الإيمان الذي يحملك على طاعة الله.

تراقب الله، لا تقبل درهماً حراماً، ولا مثقالاً من درهم لأن الله يراقب، ولا تبتعد كثيراً، أنت إذا كنت في حضرة إنسانٍ تُجِلّه لا تستطيع أن تفعل أمامه شيئاً لا يرضيه، هذا مع إنسان، وأحياناً الإنسان يُراقب، ويقال لك: هذه الصالة مراقبة فاحذر. مرَّة دخلت إلى محل تجاري، وجدت جهاز تلفزيون أمام مدير المَحل، وعلى الشاشة صورة مُحاسب، سألته فقال: المحاسب فوق، هذه كاميرا المراقبة، هذا إذاً مراقبٌ دائماً لا يستطيع أن يفعل شيئاً خلاف تعليمات المدير، فإذا إنسان راقب إنساناً تجد أن هناك انضباطاً، فكيف لو شعرت أن الله رقيبٌ عليك؟

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء:1]

الإنسان مخلوق لله عزَّ وجل وما أفدح خسارته إن باع نفسه لغير الله عزَّ وجل :

إذاً: العبادة هي طاعة مع الحُب، لأن الله عزَّ وجل خلقك من عدم فهذه نعمة الإيجاد، وخلقك وأمدَّك بكل ما تحتاجه فهذا مقام الربوبيَّة، وسيَّرك لصالحك هذا مقام الألوهيَّة، فالله عزَّ وجل هو الجهة الوحيدة الذي ينبغي أن تمحضَهُ كل الحب، كل الولاء، فالإنسان مخلوق لله عزَّ وجل، وما أفدح خسارته إن باع نفسه لغير الله عزَّ وجل.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة:111]

ذكاؤك، طلاقة لسانك، خبرتك، عضلاتك، وقتك، علمك، مالك أن يكون مبذولاً لجهة غير الله؟! فأنت الخاسر الأكبر، حقاً أنت الخاسر الأكبر إذا وظَّفت حظوظك التي منحك الله إيَّاها في سبيل الشيطان، أو في سبيل الدنيا، فالإنسان ينبغي أن يكون لله، هذا أول معنى..

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ)

العبادة هي الطاعة مع الحُب، ولتعلم أن لكل عضو فيك عبادة؛ فالقلب له عبادة، الأعضاء لها عبادة، العين تعبد الله بأن تغضَّ عن محارم الله، الأذن تعبد الله، العين تعبد الله بشيئين؛ بشيء إيجابي وشيء سلبي، فالإيجابي أن ترى آيات الله - أُمرتُ أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً - يجب أن ترى آثاراً عظيمة لله عزَّ وجل، وأن تغضَّ عن محارم الله وهذه الناحية السلبية، هذه عبادة العين. الأذن هذا الجهاز المعقَّد الذي يَحَار به الأطبَّاء، وحتى هذه الساعة الأطبَّاء لا يعرفون الفرق بين النَغَم وبين الضَجيج؟ وكيف أن هذه الأذن تستمتع بالنغم، وتنفر من الضجيج؟ قنوات، واتصالات، وعظيمات، وغشاء طبل، ومرونة بالغة في هذا الغشاء، وقناة ملتوية، وصيوان متعرِّج ليجمع الأصوات، الأذن وحدها تحتاج إلى مجلَّدات من أجل أن تستمتع بالصوت.

الإنسان له ظاهر وله باطن ظاهره خاضعٌ لأمر الله وباطنه مخلصٌ لله :

هذه الأذن تعبد الله بها بأن تُصغي إلى الحق، وتعبد الله بها بأن تَمْتَنِعَ عن سماع الغناء، فالأذن تعبد الله بها، والعين تعبد الله بها، واليد تعبد الله بها، وهذا اللسان تعبد الله به، وهذا الدماغ تعبد الله به، تعمله في الحق لا بالباطل، وهذه الأجهزة حتى رجلك يمكن أن تعبد الله بها بأن تذهب بها إلى المساجد، وأن تبتعد عن كل مكانٍ لا يرضي الله عزَّ وجل:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

فالجوارح تعبده بأن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، لكن القلب يعبده بالإخلاص، فدائماً الإنسان له ظاهر وله باطن، ظاهره خاضعٌ لأمر الله، باطنه مخلصٌ لله، فقد تجد مؤمنين يطيعان الله عزَّ وجل، أيهما أعلى عند الله؟ أعلاهما الأكثر إخلاصاً، والإخلاص محصِّلة الإيمان، التوحيد ينتهي بك إلى الإخلاص، رؤية ربوبيته تنتهي بك إلى الإخلاص، رؤية مقام الألوهيَّة تنتهي بك إلى الإخلاص، فمحصلة الإيمان بالله خالقاً، ورباً، ومسيِّراً، محصِّلة الإيمان بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، محصِّلة رؤية يد الله وحدها تعمل في كل شيء، محصِّلة كل هذا الإيمان أن تخلص لله عزَّ وجل:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

الدين يعني الخضوع، فلانٌ دان، الدينونة الخضوع، أنا مدين لفلان، فالدين في الأساس الخضوع، فالدين لله، الخضوع لله، فمن خضع لغير الله عزَّ وجل فقد أخطأ الهدف وضلَّ الطريق، خضوعك لا ينبغي أن يكون إلا لله وحده، لا يليق بك أن تعبد غير الله، ليس في الكون كلّه جهةٌ تستأهلُ أن تُعْبَدَ من دون الله..

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)

[سورة المدثر:56]

الإنسان لا يخضع إلا لمن هو أعظم منه وأعظم العظماء الله جلَّ جلاله فالله تعالى مطلق:

الدين هو الخضوع لله، فالإنسان يخضع لمن؟ لو تصوَّرنا إنساناً يحمل شهادة عُليا، وعيِّنَ في مكان المدير فيه يحمل ابتدائيَّة، هل يخضع هذا لهذا؟ مستحيل، يتنافسان، يتطاول عليه لأنه دونه، ولو كلَّفنا رتبة متدنية أن تقود رُتَباً عالية، هل يخضعون له؟ لا يخضعون له، بل يستعلون عليه، ينتقدونه، أما المجنَّد فإنه أمام من أعلى منه رتبة يخضع، مثلاً طالب أمام أعلى شهادة علميَّة يخضع، فالإنسان لا يخضع إلا لعظيم، من طبيعة الإنسان أنه لا يخضع إلا لمن هو أقوى منه، لمن هو أعلم منه، لمن هو أكمل منه.

فالله عزَّ وجل مُطْلَق، ما معنى مطلق؟ أي نهاية القوَّة، القوَّة غير المحدَّدة، قوة البشر محدودة، أما الله عزَّ وجل قوَّته غير محدودة، عدالته غير محدودة، معنى مطلق أي أنه في كل شيء أعلى شيء، فمن هو الذي ينبغي أن تخضع له؟ هو المطلق؛ علمه مطلق، قدرته مطلقه، رحمته مطلقة، لطفه مطلق، فالإنسان لا يخضع إلا لمن هو أعظم منه، أعظم العظماء الله جلَّ جلاله، ملك الملوك الله جلَّ جلاله، أحكم الحاكمين الله جلَّ جلاله، أحسن الخالقين الله جلَّ جلاله، فله الدين، فالإنسان يكون مغبوناً كثيراً لو خضع لغير الله، لأن غير الله عزَّ وجل عاجز، ضعيف، والله عزَّ وجل يعلم والبشر لا يعلمون..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة:19]

الله عزَّ وجل قوي والبشر ضِعاف، الإنسان تحت رحمة الله عزَّ وجل، فكل شخصيَّته اللامعة تنتهي لو تعطَّلت أعضاؤه، لو تخثَّرت نقطة دمٍ في شرايين دماغه لانتهى، فالإنسان قوي بالله، لكن من دون إمداد الله هو ضعيف، عالِم بالله، إذا حجب الله عنه علمه صار جاهل، حكيم بالله إذا سلب منه لُبَّه أصبح أخرق:

(لَهُ الدِّينَ)

انظر إلى الآية ما أروعها وما أدق معناها:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

علو الهمَّة والطموح والتنافس من الإيمان :

الإنسان لا ينبغي أن يقبل بالمرتبة الدنيا، علو الهمَّة من الإيمان، لماذا هو في الدنيا يحب الأكمل؟ لو اشتريت حاجة فيها خلل، تقول للبائع: أبدلها إذا سمحت. لماذا؟ لأنك تحب الكمال، لو كانت حاجة سعرها رخيص، لو كانت الأسطر غير متوازية، إذا سمحت بدله لي، أحياناً يكون الغلاف الخارجي الذي سوف ترميه بعد قليل غير مستقيم، فتقول: أرجوك أبدله لي. هذه طبيعة النفس أنها تحب الأكمل، ما دام الإنسان يحب الكمال فعليه أن يحب الله عزَّ وجل لأنه هو الكامل، وهو صاحب الذات الكاملة:

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

لماذا أنت في الدنيا تحب الكمال؟ تحب البيت الأوسع، إذا خطبت تختار الأجمل، إذا اشتريت دكَّاناً تختار الأكمل؟ لماذا في كل حاجاتك تختار الأجدر والأغلى والأقوى والأثمن؟ لأن هذا من طبيعة الإنسان، مفطورٌ على حب الأكمل، فلماذا نحن نبتغي الكمال في الدنيا ونقنع بمرتبةٍ وراء باب الجنَّة كما يقول الجهلاء في الآخرة؟ لمَ لا يكون الإنسان عالي الهمَّة؟ ورد عن النبي الكريم أن:

((علو الهمة والمروءة من الإيمان))

[أبو داود عن من العهود المحمَّديَّة]

وكذلك الطموح من الإيمان، الله عزَّ وجل قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

هنا التنافس، أما أهل الدنيا يتنافسون في بيوتهم، في ولائمهم، في ألبستهم، في مركباتهم، في قصورهم، في حدائقهم، في أرصدتهم، في بَذْخِهم، في لهوهم، في فجورهم؛ لكن أهل الإيمان يتنافسون في طاعتهم لله عزَّ وجل، يتنافسون في طلبهم للعلم.

الأفعال كلها فِعل الله أما الشيء الذي يُحَرِّك الأعمال فهي النوايا الطيِّبة والإخلاص:

المؤمن غَيُور، لكن هذه الغيرة يحبُّها الله ورسوله، يغار من أخوانه أن يسبقوه، يتنافس مع أخوانه ولكن تنافساً شريفاً، تنافس مع أخيك، كن أنت الأول في حفظ كتاب الله، في فهم كتاب الله، في تعليم كتاب الله، في توظيف طاقاتك في سبيل الله، هذا الذي يطلب الأدنى يخالف الفطرة، فطرة الإنسان تطلُب الأعلى، قال:

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

مع هذه الآية نصل إلى نقطة دقيقة جداً وهي: أن الأفعال من الله عزَّ وجل، لماذا ربنا عزَّ وجل قدَّر على يد هذا الإنسان عملاً ما، ولم يقدِّر على يد إنسان آخر؟ لماذا أعطى هذا ومنع ذاك؟ قال: الأفعال كلها فِعل الله، أما الشيء الذي يُحَرِّك الأعمال هي النوايا الطيِّبة، والإخلاص لله عزَّ وجل، فالمؤمنان يرتقيان عند الله بحسب إخلاصهما لا بحسب أفعالهما لأن أفعالهما من الله عزَّ وجل، فكلَّما نويت عملاً صالحاً الله عزَّ وجل قدَّر لك هذا العمل، فكأن الأعمال التي أجراها الله على يديك تعبِّر عن نواياك، تعبر عن طموحك، تعبِّر عن إخلاصك، إذاً:

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

ومع هذا الأمر العظيم أن يعبد النبيَّ ربَّه، وأن يكون الأول أيضاً، قال:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يخاف الله ويخشاه كما يُخَبِّرُ الله عنه:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذاً هذا مقياس دقيق لا أن يدعي أحدٌ أنه مؤمن، فإن علامة إيمانك خوفُك من الله.

إذا أردت أن تعرف مستوى إيمانك فانظر إلى مستوى خوفك من الله عزَّ وجل :

انظر فبعض الناس أحياناً يأكلون الأطعمة دون غسلها، لكن الطبيب لكثرة ما يرى من أمراض إنتانيَّة، التهابات أمعاء، من أوبئة تنتقل عبر الجراثيم، من أوبئة تنتقل بسبب القذارة، فهو حريص حرصاً بالغاً على تنظيف يديه، وأوانيه، وحاجاته، هذا الخوف من العدوى وانتقال المرض جاءه من علمه، فكلَّما ارتقى العلم ارتقى معه الخوف أبداً، الخوف مؤشِّرٌ على العلم، إذا ازداد خوفُك فهذا يدل على ازدياد علمك، لأن الجاهل لا يخاف.

أنا أضرب هذا المثل من باب الطرفة: مرَّة طالب قال لي في الصف: أنا لا أخاف من الله، قلت له: معك الحق ألا تخاف من الله، قال: لماذا؟ قلت له: لأن الطفل الصغير الذي عمره سنتان أحياناً يأخذه أبوه معه إلى حقل الحصاد، وقد يمر أمامه ثعبانٌ كبير لو رآه رجلٌ راشد لخرج من جلده خوفاً، أما هذا الطفل الصغير يضع يده عليه، لماذا لا يخاف؟ لأنه لا يُدرك، فالذي لا يدرك لا يخاف.

وأنت ترى أن مهندس الكهرباء يعرف ما معنى التيار العالي، فيقول لك: هذا يفحِّم الشخص أي يجعله كالفحم، إذاً قد يحترق إنسان ويتفحَّم بسبب جهله، فكلَّما ازداد العلم ازداد معه الخَوف، فإذا أردت أن تعرف مستوى إيمانك فانظر إلى مستوى خوفك من الله عزَّ وجل، هل تعلم أن الله سيحاسب الخلق أجمعين؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

هل عندك يقين أن لكل سيِّئةٍ عقاباً؟ وأن الله عزَّ وجل بالمرصاد؟ وأن الله عزَّ وجل كان عليكم رقيباً؟ وأنه..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

وأنه لا ظُلم اليوم:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

هكذا إيمانك؟ إذا كان إيمانك هكذا فلتطمئن.

كلَّما ارتقى إيمان الإنسان يرتقي خوفه :

الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه وقف مرَّةً مع صديقٍ له في ظل بيت، فإذا بهذا الإمام يجرُّ صديقه إلى الشمس، قال له صديقه: لماذا، فهنا ظل؟ ثم قال أبو حنيفة: " هذا البيت مرهونٌ عندي، وإني

أكره أن أنتفع بظلّه "، فهذا هو الورع. النبي عليه الصلاة والسلام - فيما تروي بعض الكتب - انقطع عنه الوحي أسبوعاً أو أكثر، فقلق النبي، قال: يا عائشة لعلّها تمرةٌ أكلتها من تمر الصدقة، رأى تمرةً على سريره فأكلها، ثم شك لعلّها من تمر الصدقة؟ قال: يا عائشة لعلّها تمرةٌ أكلتها من تمر الصدقة، فعلامة الإيمان الخوف، لكن بعضهم يقول متهاوناً: لا تدقّق، فهذا ضعيف الإيمان، الإبرة دون الخَط الأحمر، لا تدقّق فالله لن يحاسبنا، سيدي الحال صعب، ماذا نفعل؟ نحن بزمان صعب، الله يعفو عنا، هذه الكلمات معناها أن الإيمان ضعيف جداً، لكن الإنسان لو عرف الله حق المعرفة لحاسب نفسه حساباً عسيراً، إذاً هذا هو الخوف.

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

من اصطاد عصفوراً لغير مأكلةٍ فإنه مسؤول عند ربه، هذا العصفور يأتي يوم القيامة وله دويٌّ كدوي الرعد، يقول: يا رب سله لمَ قتلني؟ فالذي يقول لك أنه اصطاد عشرة آلاف طير، وعلى الطريق تفسَّخوا فألقى بها جميعاً، ولكن قضى يومين رائعين في متعة الصيد، فهذا لا يعرف الله عزَّ وجل، فهو يستمتع بإيقاع الأذى بالحيوانات والطير، وبإتلاف المال، الحيوان مال أتلفته بلا فائدة، أما لو كان الإنسان على سفر، وأشرف على الموت جوعاً، واصطاد طائراً وأكله، هذا الطائر شعر أنه قدَّم شيئاً ثميناً لهذا المخلوق الأول، أما أن تقتله بلا سبب، طبعاً العلماء حكموا على أن الصيد إذا كان لغير مأكلةٍ فهو حرام، لأن فيه إتلاف مالٍ أولاً، وإيقاع الأذى بلا سبب ثانياً، فكلّما ارتقى إيمان الإنسان يرتقي خوفه، فالقضية سهلة، في تعاملك اليومي، في البيع والشراء.

المؤمن من شدَّة خوفه من الله يُضَحِّي بما فيه شك :

كلمة لا تدقّق هذه كلمة المنافقين، بل كل شيء دقّق فيه، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، ألا تكفي هذه الآية:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

والمؤمن من شدَّة خوفه من الله يُضَحِّي بما فيه شك:

((إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

شككت بمبلغ بينك وبين صديق لك قل له: أخي أن تقول أنت مسامح لا أريد، فالأسلم لك ألا تقع بالظن دائماً واجعل نفسك تتعامل باليقين، أو سَجِّل ما لك وما عليك، أو خذ إيصالاً، لكن شككت فهذه قد تودي بك وبالمال.

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

((دَخَلَت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ ربطتها، فلم تُطْعِمها، ولم تَدَعْها تأكُل مِن خَشَاش الأرض))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

الله يحاسب من أجل هرة، إنسان ألقى هرَّةً من الطابق السابع، ضاق بها ذَرْعاً، ألقاها إلى الأرض فماتت، فَفَقد توازنه فجأةً، الله كبير وحسابه دقيق، وربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

البطولة أن تؤدي ما عليك تجاه الحق :

عندما يؤذي الإنسان المخلوقات فلا بد أنه ملاقٍ جزاءه، إذا كان إيذاء الهرَّة سبباً لدخول النار، فكيف بإيذاء الإنسان المُكَرَّم؟ أن تخيفه، أو أن تأخذ ماله، أو أن تذلّه، أو أن تغتابه، أو أن تنال منه، أو أن تُحْرِجَهُ، هذا كله محاسبٌ عليه الإنسان:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذا كان هذا حال النبي فما حال أمَّته من بعده؟ النبي وما أدراكم ما النبي، المخلوق الأول، الذي عرف الله، الذي أحبَّه، الذي أمضى كل حياته في طاعته، وفي خدمة خلقه، وفي نشر دينه، يخاف إن عصى الله عذاب يومٍ عظيم، فنحن إن لم نخف فنحن مرضى، الذي لا يخاف من الله مريض يحتاج إلى معالجة، لذلك:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

من المخلّط؟ هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، " ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلّط، من لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله"، مقياس استقامتك يبدو جلياً وأنت وحدك، مقياس استقامتك فيما بينك وبين الله، أخي والله أنا عليَّ دين وقد أديته والحمد لله، أنا صاحب ذمَّة. فأنت كتبت على نفسك سند، أو إيصالاً، وعليك شهود، وخصمك يقظ وصعب، فلما أديت الدَّين فعملك هذا سلوك مدني، لكن هل تعلم ما هي الأمانة؟ إنسان أعطاك مئة ألف ولم يعلم أحد بذلك، ولم يأخذ منك إيصالاً، وتوفّاه الله، ولست مُداناً أمام أحد، ولا يستطيع أحدٌ في الأرض أن يسألك

سؤالاً واحداً، جئت بالمال وطرقت باب الورثة، وقلت لهم: لوالدكم عندي هذا المبلغ خذوه. هذه الأمانة.
ألا تكون مداناً أمام الخلق بأية وثيقة، أما حينما يكون الإنسان مداناً للخالق، فإذا دفع فقد دفع خوفاً من الخلق، لكن البطولة أن تؤدي ما عليك تجاه الحق، لذلك فالصيام هو عبادة الإخلاص، الآن الحمد لله الوقت لطيف، لكن تذكَّروا أيام الصيف، الصيام في شهر آب أو تموز، النهار سبع عشرة ساعة، الإنسان دخل إلى الحمَّام وفيه حنفية، ما الذي يمنعه أن يشرب؟ إيمانه أن الله مطلعٌ عليه.

كل أمرٍ موجَّهٌ إلى النبي موجَّهٌ إلينا بالتبعيَّة :

غض البصر، ليس في الأرض كلّها أمرٌ وَضْعِيّ ولا قانون يأمر بغضِّ البصر، إنك إن سرت في الطريق ورأيت امرأةً سافرةً فغضضت بصرك عنها، ما الذي حملك على ذلك؟ إيمانك بالله، إخلاصك له، حبُّك له فقط، فشاءت حكمة الله أن ينفرد الدين من بين كل الشرائع بأوامر، فمن أخذ بها فقد أكَّد إخلاصه لله عزَّ وجل، إذاً:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)

النبيَّ قدوةٌ لنا، حقاً هو قدوة لنا، النبي أُمِرْ أن يعبد الله، أُمر أن يخلص له، أُمر أن يكون متفوِّقاً وتفوَّق، يعبِّر عن ذاته، يخاف إن عصى ربَّه عذاب يومٍ عظيم، هو قدوةٌ لنا، كل أمرٍ موجَّهٌ إلى النبي موجَّهٌ إلينا بالتبعيَّة:

(قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ)

هذا أمر:

(فَاعْبُدُوا)

فعل أمر، هل هذا أمر فقط؟ قال العلماء: هذا أمر تهديد، أي اعبدوا من شئتم وما شئتم وسوف تدفعون الثمن باهظاً، عندما يربط إنسان مصيره بإنسان آخر فهو يقامر بسعادته الأخرويَّة، هذا الذي عبدته من دون الله لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا رزقاً ولا حفظاً، ولا تأييداً ولا نصراً، وإن ملك من باب الافتراض قد لا يستجيب لك، وإن استجاب قد لا يسمعُك، فمثلاً شخص مليء يعطيك، لكن وأنت في وضع حرج كأن تكون في مكان منقطع، فكيف تتصل به؟ لو اتصلت به ولم يستجب فماذا تفعل؟ إنك لم تستفد شيئاً، إذاً:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

كل السعادة في معرفة الله وكل التوفيق في الاستقامة على أمره :

أما الإله فإذا آمنت أن ما سوى الله لا يملك لا النفع ولا الضرَّ، ولا الموت ولا الحياة، ولا الرزق ولا التوفيق، ما من مشروعٍ على وجه الأرض إلا ويحتاج إلى توفيق، ويؤتى الحذر من مأمنه، ولا ينفع ذا الجَد منه الجَد، أي في التعامل مع الله ليس هناك ذكي أو غير ذكي.. إذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كلِّ ذي لبٍ لُبَّهُ..

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لبٍ لبَّه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

إذاً أنت علاقتك مع الله وحده، حتَّى لو استطعت أن تنتزع من فم النبي حكماً لصالحك، ولم تكن محقَّاً، لا تنجو من عذاب الله..

((.....ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عن أم سلمة]

علاقتك مع الله فقط، فهو معك في بيتك، في غرفتك، في سفرك، في معاملاتك، في حساباتك، يمكن تضيف صفراً على السند وفلان في غفلة، فيصير المبلغ مئة ألف بدلاً من عشرة آلاف:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

معكم بعلمه، فإذا كنتم مؤمنين معكم بتوفيقه، مع كل مخلوقٍ بعلمه، أما إذا كنت مؤمناً به مستقيماً على أمره هو معك بالتأييد، والنصر، والتوفيق، والحفظ، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ كل السعادة في معرفة الله، كل التوفيق في الاستقامة على أمره، وانظر كيف أن الأمور تدور لصالح المؤمن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

آيات كثيرة تؤكد أن الأمور تدور لصالح المؤمن :

آياتٌ كثيرة فيها:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت: 30-31]

(فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ)

أي اعملوا وكثِّروا، افعلوا ما تشاءون كل شيء بثمنه:

(فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

الإنسان يخسر بيتاً أحياناً لكن قد يعوِّضه، هناك تجَّار فلَّسوا خمس مرَّات، بعد التفليسة ينهض ويشتغل، فكل خسارة من الممكن أن نتلافاها، أو من الممكن أن نربح بعدها فهي ليست خسارة، لكن الخسارة الحقيقيَّة أن يخسر الإنسان ذاته، يقول لك واحد إنه فلَّس، فتقول له: الله كريم أنت خيرك للأمام، ما شي الحال، يرجع ويشتغل، يتدين مبلغاً، يتاجر، يربح، يوفي ديونه يتحسن حاله، أما إذا مات فقد انتهى.

أكبر خسارة أن تخسر ذاتك :

أكبر خسارة أن تخسر ذاتك، فما معنى خسارة الذات؟ عندما يأتي الإنسان إلى الدنيا ويغادرها دون أن يعرف الله، ودون أن يستقيم على أمره فقد خسر نفسه في الآخرة، أي أنه استحقَّ النار، فالإنسان حينما يخسر مكانه في الجنَّة، وأنت كإنسان خُلقت للجنَّة، فإذا لم تُؤمن خسرت هذا المقام في الجنَّة وهو أكبر خسارة، أكبر خسارة على وجه الأرض أن تخسر مقامك في الجنَّة، أي خسرت ذاتك، خسرت نفسك:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ)

فالله عزَّ وجل جعلك أباً، جعل لك زوجة، لك أولاد، لك بنات، لك أصهار، هؤلاء في الأساس من أجل أن يكونوا زادك إلى الله عزَّ وجل، من أجل أن تهديهم إلى الله، أن تعينهم على دينهم، فالكافر وجد نفسه أنه كان ضالاً مُضِلاً، فاسداً مُفْسِداً، منحرفاً وحمل ابنه على الانحراف، لذلك فوق مصيبته أنه ضال مُضل، تقول ابنته لرب العزَّة: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخِل أبي قبلي، لأنه كان سببي.

فيوم القيامة ليست المشكلة مشكلتك وحدك، مشكلة الإنسان وذريَّته، ابنه علَّمه في مدارس أجنبيَّة، نشأ على الاختلاط، والانحراف، والزنا، لكن نال مرتبة دكتوراه، ولابنته قال كذلك: أنا لا أحب أن أقيِّد حريَّتها، أطلقتها، هي تقرر تتخذ قراراً بشأن مصيرها. أطلق لابنته حريَّتها ففسدت وأفسدت، فيوم

القيامة هؤلاء الأولاد الذين كانوا من الممكن أن يهتدوا إلى الله لو كان أبوهم مؤمناً ما زاغوا وما ضلوا، فأبوهم حملهم على الكفر.

والله حدَّثني شاب كان أبوه يدفعه إلى شُرب الخمر، وإلى ارتياد أماكن اللهو، وإن لم يفعل كان يعنِّفه، هذا أب؟! قال:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وأهليهم؛ خسر زوجته، أولاده، بناته، كلُّهم في ضلال، لأنه هو كان ضالاً مُضلاً، فاسداً مفسداً.

أثمن ما في الدنيا معرفة الله وطاعته :

الإنسان بعدما يتزوَّج تكبر مسؤوليته عن نفسه وعن أسرته، فمن الممكن أن تكون زوجته زاده إلى الآخرة إذا حملها على طاعة الله، إذا علَّم ابنه القرآن، إذا نشَّأَهُ على حب النبي العدنان، إذا علَّمَهُ السيرة النبوية، إذا ضبط سلوكه، راقبه، وجَّهه، هذَّبه، نصحه، أكرمه، زوَّجه وهو في ريعان الشباب مبكراً، أما أن يقول: أخي أنا نِشأت عصامياً، وأحب أن يكون ابني عصامياً، فهل كلامه هذا آية أم حديث؟ صعب أن يكون عصامياً وحده، فأنت مقتدر وعليك زواج ابنك، أعرف أشخاصاً عندهم عشرات البيوت، وأولادهم يحتاجون إلى غرفه فلا يعطوهم، أنا نشأت عصامياً، وكل أب مقتدر ولا يزوِّج ابنه فسيُحاسب عند الله عزَّ وجل، وإذا ابنه زلَّت قدمه فهذا في صحيفة الأب، الأبوَّة مسؤوليَّة:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

هذه الخسارة الحقيقيَّة، أما أننا إذا فقدنا بيتاً، أو احترق بيت، احترق محل، تجارة فلَّست، صفقة غرقت في البحر، فهذا الشيء يعوَّض، أما الخسارة الحقيقيَّة هي عندما يكتشف الإنسان أنه ضيَّع أثمن ما في الدنيا، لذلك قال بعض العارفين: " مساكين أهل الدنيا جاءوا إلى الدنيا وخرجوا منها ولم يعرفوا أثمن ما فيها ". أثمن ما فيها معرفة الله وطاعته، فالغنى والفقر بعد العرض على الله:

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ)

طبقات من النار:

(وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ به عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

ربنا يبيِّن لنا مشاهد الآخرة الآن :

هذه المشاهد ذكرها الله عزَّ وجل في القرآن قبل الأوان لتكون عبرةً لنا، كما لو سَرَّبنا الأسئلة لصالح الطلاب، انتبهوا لهذا الفصل، ربنا يبيِّن لك مشاهد الآخرة الآن، وهذا وضع الكافر في جهنَّم فاحذر:

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

أدركوا أنفسكم، أنقذوها، وكثيراً ما كنت أضرب هذا المثل: كنت مرَّة في العمرة، لي صديق حدَّثني بقصَّة جرت في بلاد العمرة، أن رجلاً من أطراف جدَّة، عنده أرض باعها لمكتب عقاري، هذا المكتب استغلَّ جهله وأخذها بثمن بخس، عمَّروها بثلاثة وعشرين طابقاً، أول شريك وقع من أعلى طابق فدقَّت رقبته، الشريك الثاني مات بحادث، الثالث فكَّر، أن الاثنين ماتا وانقصفا قصفاً، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتَّى وجده، ونقده الفَرق، وأخبروه أن أرضك ثمنها ثلاثة ملايين ونحن أخذناها بنصف مليون، أنا لي الثلث، هذا الفرق، وسامحني، فقال له هذا البدوي: " ترى أنت لحَّقت حالك".

فيا أيها الأخوة، أدركوا أنفسكم وأنقذوها قبل فوات الأوان، الذي عليه ذمم سابقة فيها حسابات غير مضبوطة، أو أكل مالاً حراماً، أو وضع يده على محل ليس له، الآن الحياة فيها بحبوحة، ما دام القلب ينبض الأمور تُحَل، لكن بعدما يموت الإنسان انتهى كل شيء، وبالموت يُخْتَم عمله ويحاسب حساباً عسيراً:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ*لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (08-20): تفسير الآيات: 16-20، البشرى والعبادة الخالصة لله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الخسارة الحقيقية هي التي تبدأ بعد الموت :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة عشرةَ من هذه السورة، يقول الله عزَّ وجل بعد أن حدثنا في هذه السورة الكريمة عن العبادة الخالصة لوجهه الكريم، فقال جل شأنه:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

كما قلت في الدرس الماضي: أشد أنواع الخسارة الخَسارة التي ليس بعدها تعويض، والخسارة الحقيقية التي يخسرها الإنسان في وجوده، حينما يشعر ساعة فراق الدنيا أنه خسر الدنيا وخسر الفرصة الوحيدة التي كان من الممكن أن يستغلها ليسعد إلى الأبد، فهذه هي الخسارة، أما لو خسر ماله كله، لو خسر مسكنه، لو خسر أحد أكبر مقوِّمات حياته، هذه خسارةٌ تعوَّض، وخسارةٌ تنتهي عند الموت، ولكن الخسارة الحقيقية هي التي تبدأ بعد الموت، الخسارات التي يعانيها البشر مهما عظمت تنتهي عند الموت، لكن خسارة الدار الآخرة تبدأ بعد الموت، فشتانَ بين الخسارتين، أن تخسر كل شيء، وألا تملك شيئاً، بل يعاني الإنسان من عذابٍ لا ينتهي هذه خسارة، أما أن يخسر شيئاً ويأتي الموت فينهي هذه الخسارة فهذه ليست خسارة.

العمل من لوازم العقيدة الصحيحة :

صار المعنى أن الإنسان إذا لم يُدخل موضوع الموت في برنامجه اليومي فقد ضل ضلالاً مبيناً، وإذا تصرَّف على أن هذه الحياة هي كل شيء، وقد بيَّنت في الدرس الماضي هذه النقطة الدقيقة، فدعونا من الأوهام، أو مما يعتقد بعض الناس، السلوك اليومي إما أن يؤكّد أنك مؤمن بالدار الآخرة أو لا يؤكّد، فالذي يتصرف على أساس أن الدنيا هي كل شيء، وإذا اعتدى على أموال الناس وكأن الله غير

موجود، فهناك تصرُّفات تؤكّد عدم الإيمان بالله، وهناك تصرفات تؤكد عدم الإيمان باليوم الآخر، فالعقيدة الصحيحة هي العقيدة التي تنقلِب إلى عمل، أو العقيدة التي يؤكّدها العمل، فالعمل من لوازم العقيدة الصحيحة، والعمل أيضاً يؤكّد العقيدة الصحيحة. ماذا في الآخرة؟

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

الظلل أي الطبقات، أي طبقاتٌ من النار من فوقهم، وطبقاتٌ من تحتهم، وهي طبقاتٌ بعضها فوق بعض، والإنسان في الدنيا يشعر بألم الحريق، يبقى أياماً معدودات لا يطيق هذا الألم، والحريق في الدنيا مس وليس حريقاً مباشراً، وليس بقاءً في الحريق إلى ما شاء الله، بل لحظات فهذا كلام الله عزَّ وجل، والله جل جلاله يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

أي كيف يصبرون على هذه النار المحرقة؟!!

الاثنينية واضحة والله عزَّ وجل جعل الحياة مثانيَ والقرآن مثاني :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا)

الطاغوت صيغة مبالغة من طغى، والطاغوت هنا هو الشيطان، والإنسان بشكلٍ أو بآخر إما أن يتَّبع وساوس الشيطان، وإما أن يهتدي بإلهامات الملائكة، فالإنسان رحماني أو شيطاني، إما مع الحق رحماني، أو مع الباطل شيطاني، مع الشهوة شيطاني، مع المبدأ رحماني، مع الإحسان رحماني، فمع الإساءة شيطاني، مع الإخلاص رحماني، مع الخيانة شيطاني، فهذه الاثنينية واضحة والله عزَّ وجل جعل الحياة مثانيَ، والقرآن مثاني، أهل إيمانٍ وأهل كفرٍ، أهل حقٍ وأهل باطل، أهل إحسانٍ وأهل إساءةٍ.

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

أيضاً في هذه الآية دعوة إلى اجتناب سلوك سلبي، والإقبال على الله عزَّ وجل بكل سلوك إيجابي، فالمؤمنون من خصائصهم ومن لوازمهم أنهم يجتنبون الطاغوت أن يعبدوها، والعبادة كما مرَّ بنا من قبل هي: غاية الخضوع مع غاية الحُب، فالجهة التي تخضع لها والتي تحبها تعبدها وأنت لا تدري، ولو كان لسانك موحداً، فإذا أمرك إنسان بمعصيةٍ فخضعت له وأحببته، وبقي حبه في جوانحك أمداً طويلاً، فهذا الحُب وهذا الخضوع هو العبادة، فالجهة التي تستحق العبادة في الكون هي الله عزَّ وجل،

فإذا اتجهت إلى مخلوقٍ مما سوى الله ومحَّضته حبك وخضوعك واستسلمت له فأنت تعبده وأنت لا تدري، إذاً المؤمنون يجتنبون الطاغوت أن يعبدوها.

في الآية التالية بشرى يسوقها الله لعباده :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

في هذه الآية بشرى يسوقها الله لعباده، والقرآن الكريم فيه بشارات للمؤمنين، فالمؤمن إذا قرأ القرآن وقرأ ما وعد الله به المؤمنين يستبشر ويطمئن، لكن هناك بُشرى من نوع آخر، هو أن المؤمن يشعر شعوراً واضحاً مركزاً أن الله سبحانه وتعالى أعد له خيراتٍ كثيرة في الدنيا والآخرة، هذا الشعور يجعله يطمئن ولو كان واقع المؤمن بعيداً عن شعوره، لكن ما دام الله عزَّ وجل قد طمأنَهُ بعطاءٍ في الدنيا وعطاء في الآخرة، هذا يعطيه ما يسمَّى في التعبير الحديث " معنويات مرتفعة "، فالبشارة هذه قولية من كتاب الله عزَّ وجل، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي بشارةٌ نفسية في إشعار المؤمن أنه مكرمٌ عند الله عزَّ وجل، وأن عطاءً كثيراً ينتظره في الدنيا وبعد الدنيا.

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

أي عادوا إليه، ناب وأناب بمعنى رجع، أناب إلى الله بمعنى رجع إلى الله:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان:15]

أي اتبع سبيل من عاد إلى الله، كيف يعود الإنسان إلى الله عزَّ وجل؟ أي أنه كلما عرض له موقف يرجع إلى حكم الله فيه، هذا معنى العودة، واجه مشكلة في بيته، في تجارته، في عمله، في قبض المال، في إنفاق المال، في إرواء بعض الشهوات، في أي نشاط؛ نفسي، اجتماعي، جسمي، عقلي، هذا النشاط يعود بنفسه إلى حُكم الله في هذا الأمر، سمع قصةً يعود إلى القرآن، قرأ مقالة عن أن هذا الدواء يُطيل العمر، يعود للقرآن لِيجد أن عمر الإنسان لا يزيد ولا ينقص، وفي عقيدته، وفي سلوكه، وفي نشاطاته وفي كل أحواله، يعود إلى حُكم الله في كتاب الله، وليس من صفات المؤمن أنه إذا رأى حكماً لله عزَّ وجل ابتعد عنه، لقول الله عزَّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

الآية التالية تحمل عدة معانٍ :

الشيء الدقيق حقاً - الآن دخلنا في لُبّ الموضوع - الشيء الدقيق أنك عبد، العبد جاهل والله هو الذي يعلم، العبد فقير والله هو الغني، العبد ضعيف والله هو القوي، جاءك خطاب من الله هو القرآن الكريم، فموقف العبودية أن تعود إلى هذا الكتاب في كل أمر يعرض لك، فهُمُّ المؤمن الأول أن يتحرَّى أمر الله عزَّ وجل ليقيِّمَهُ، بعد أن عرف الله، واطمأنت نفسه لوجود الله، ولكمال الله، ولوحدانية الله، ولأنه رب العالمين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، بعد أن اطمأنت نفسه له همٌّ واحد، في كل حركة، في كل سكنة، في كل تصرُّف، في كل إقدام، في كل إحجام يعود إلى أمر الله، هذا معنى:

(وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

أي عادوا إليه ليعرفوا أمره ونهيه في كل أحوالهم، هذا معنى.

المعنى الثاني: عاد إليه بمعنى أقبل عليه، لو أن الإنسان كان أمام عِدّة أشخاص، ثم تركهم جميعاً واتجه لشخصٍ آخر، نقول عاد إلى فلان، ترك هؤلاء وعاد إلى فلان، فأناب تحمل معنى الرجوع إلى حكم الله، القرآن هو الحَكَم، هو الفَيْصَل، هو الدستور، هو المنهج، هو القاعدة، هذا إذاً رجوع.

فمثلاً لاحظ موظفاً حريصاً على منصبه، ويريد أن يبت في أمر في معاملة ما، فالقوانين كلها في مكتبه، فإذا شك في قضية يقول لصاحبها: انتظر وتعال غداً، فيعود إلى القوانين السابقة يطالعها، هذا المواطن حينما طلب منه هذه الموافقة سأل الموظف نفسه عندئذٍ: يا ترى سمحت بها القوانين؟ أيُسْمَح للمدير العام أن يوافق أم لا ؟ فالإنسان الحريص على سلامة قراراته يعود إلى التشريعات الثابتة، والمؤمن الحريص على سلامة علاقته مع الله عزَّ وجل كلما عرض له أمر يعود إلى حكم الله فيه، إذاً كل إنسانٍ لا يُبالي كثيراً في حكم الله عزَّ وجل، فهذا إما من ضعف إيمانه أو من انعدام إيمانه، أما المؤمن فقد أناب إلى الله.

المؤمن يعود دائماً إلى الثوابت والقرآن هو الثابت :

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

وإليك آية أخرى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان:15]

عاد إلّي، فالقضاة أحياناً كثيرة يعودون إلى نصوص القوانين يراجعونها، الأطباء كذلك، يأتيهم مريض، فبعض الأطباء وأنا أعرفهم كثيراً ما يعود إلى المراجع أمام المريض، ليصفوا له هذا الدواء، فهذا الدواء أله تأثيرات جانبية؟ فيعود الطبيب إلى مراجعه ليكتب الوصفة بشكل صحيح، فالطبيب الحريص على سمعته وعلى أداء واجبه أداءً طيباً، يعود دائماً إلى المراجع المُعتمدة في تشخيص المرض ووصف الدواء، والقاضي الحريص على سلامة حكمه يعود دائماً إلى اجتهادات محكمة النقض، ليرى ما إذا كان هذا الحكم موافقاً لاجتهادات المحكمة أم ليس موافقاً، فهذه العودة، وأن تعود إلى المراجع الثابتة، أن تعود إلى الثوابت، وربنا عزَّ وجل قال في كتابه:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

[سورة إبراهيم:27]

من معاني هذه الآية أن القرآن هو القول الثابت، أي أنه كلامٌ قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فيه الحق هو الفَيْصَل، هو الحَكَم، هو الرأي الصحيح، إن الحكم الصحيح في القرآن الكريم فقط، إذاً المؤمن يعود دائماً إلى الثوابت والقرآن هو الثابت، فأي قضيةٍ، أية فكرةٍ، أية مقالةٍ، أية خطبةٍ، أية نظريةٍ، أي مذهبٍ عرض له أو قرأه، يرجع إلى القرآن فيقبلها أو لا يقبلها، إذاً:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

أنابوا أي عادوا في كل ما يعترضهم من أحكام ومن نظريات ومن مبادئ عادوا إلى كتاب الله، و"أنابوا" بالمعنى الثاني: أنه عاد إلى الله مقبلاً عليه.

الله عزَّ وجل جاء بنا إلى الدنيا من أجل أن نعمل عملاً يصلح للعرض عليه :

وقد ذكرت اليوم في الخطبة مما يمس هذا المعنى: أن الإنسان لماذا ينفق؟ لأن الله عزَّ وجل خلق الإنسان ليسعده، فلو أردت أن تسقي نبتة - مثل بسيط - فهذا الماء الذي تُلقيه على النبتة أيتناسب مع كرمك أم مع قوة احتمال النبتة؟ ولو أن إنساناً عنده نبتة صغيرة فصب عليها ماء غزيراً دافقاً، فقد أتلفها، يا ترى الماء الذي ينبغي أن أعطيه لهذه النبتة يتناسب مع كرم المُعْطِي أم مع احتمال المُعْطَى؟ لا شك مع احتمال المُعْطَى.

فالإنسان جاء إلى الدنيا من أجل ماذا؟ من أجل أن يؤهِّلَ نفسه لعطاء الله عزَّ وجل، كيف يؤهِّل الإنسان نفسه لعطاء الله؟ بالعمل الصالح، ضربت من قبل مثلاً قريباً، لو تصورنا قائد جيش، وعنده مجنَّد، فبين رتبة المجند ورتبة قائد الجيش مسافةٌ كبيرةٌ جداً، ربما كان الضبَّاط الأمَرَاء لا يستطيعون أن يقابلوه، وإذا أرادوا وأصروا هناك إجراءات طويلة وطلبات، وعلى رؤسائهم أن يعلّقوا على هذه الطلبات، لكن جندياً أنقذ ابن هذا القائد من غرقٍ مُحَتَّم، وضَحَّى وخاطر بحياته لينقذ ابنه، هذا العمل الذي فعله المجنَّد

يجعله يدخل عليه في أية لحظة، ما إن يقول هذا الجندي للحاجب قل للقائد: فلان بالباب. حتى يقال له: تفضَّل. ما الذي جعل هذا الجندي يدخل إلى صاحب هذه الرُتبة العالية جداً متى أراد ومتى شاء؟ ما الذي جعله؟ عمله الطيِّب.

هذا المثل يمكن أن يوَسَّعَ قليلاً، فالله عزَّ وجل جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تعمل عملاً يصلح للعرض على الله، من أجل أن تعمل عملاً بإمكانك أن تقبل به على الله، فهذه (أنابوا إلى ربهم) أي عملوا أعمالاً صالحة استطاعوا بها أن يقبلوا على الله عزَّ وجل، والله عزَّ وجل غني، غنيٌّ عنا جميعاً ولكنه يحب التوابين ويحب الصالحين.

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً))

[مسلم عن أبي ذر]

فكيف تتقرب إلى الله وهو الغني عن كل أعمالك؟ تتقربُ إليه بخدمة عباده، هؤلاء كلهم عباده، فإذا خدمتهم، أطعمتهم، أنفقت عليهم، دللتهم على الله، ترأَّفت بهم، أنصفت في حقهم، قرَّبك الله إليه، فهذا توضيح للمثل، إذ بإمكان هذا المُجَنَّد الصغير أن يدخل على هذا القائد الكبير متى شاء، لماذا؟ لأنه كاد أن يضحي بحياته من أجل إنقاذ ابن هذا القائد، هذا العمل العظيم يجعله يقبل على قائده متى شاء.

المؤمن وقَّاف عند كتاب الله ولا يتحرك عشوائياً :

هذا المثل لو أردنا أن نوسعه وأن نطبقه على علاقة المؤمن بربه، أعماله الصالحة كلها من أجل أن يكتسب ثقة الله لِيحبُّه، هذه الثقة التي هي كنزٌ عظيم كما وصفها النبي الكريم، هذه الثقة برضاء الله عنك هي التي تعينك على الإقبال على الله، هي التي تدفعُك إلى الاتصال به، إذاً معنى أنابوا إلى الله، أي عملوا أعمالاً صالحة أقبلوا بها على الله، هذا المعنى الثاني. والمعنى الأول: أنابوا إلى الله كلما اعترضهم أمرٌ قال: قفوا لنسأل القرآن عن حكمه في هذا الشيء، فالمؤمن ليس شارداً، ليس دابةً غير منضبطة، إنه إنسان مكرَّم، تحكمه الشرائع، تحكمه القيَم، تحكمه المبادئ، فالقرآن قيَّدَ المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه، لذلك قيل عن سيدنا عمر: كان وقَّافاً عند كتاب الله، يروى أن عبداً أساء إساءة بالغة لسيده، فلما غضب سيده، قال العبد: يا سيدي لقد قال تعالى:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

قال: قد كظمت غيظي، قال العبد:

(وَالْعَافِينَ عَنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران: 134]

قال: قد عفوت عنك، ثم قال العبد:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

قال: أنت حرٌ لوجه الله، فالمؤمن وقّاف عند كتاب الله، لا يتحرك عشوائياً، لا تحركه شهواته، ولا أحقاده، ولا مزاجه العصبي، تحركه مبادئ الشرع، لهذا ترى الناس يطمئنّون للمؤمن، لا يخافونه، وفي الحديث القدسي: يا موسى خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني، المؤمن لا يخافك ولا يخيفك، لا يخاف إلا الله، إذاً لا تخف منه لأنه مقيَّد بالشرع، لن يأكل مالاً حراماً، لن يغشَّك، لن يكذب عليك، فلو سألت المؤمنين إذا تعاملوا مع مؤمن يرتاحون له أشدَّ الراحة، هذه الراحة نابعة من أنهم واثقون من استقامته، ومن خوفه من الله، ومن وقوفه عند كلام الله.

البشرى نصِّية نصّ عليها القرآن والسنة الشريفة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى)

البُشرى كما قلنا: بشرى نصِّية نص عليها القرآن والسنة الشريفة، يقرأ آية فيها بشرى..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 30]

وهذه بشرى..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

وهذه بشرى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وهذه بشرى رابعة:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

هذه بشرى.

البشرى نصية ونفسية :

البشرى نَصِّيَة، وهي في الوقت نفسه بشرى نفسية، تجد المؤمن مرتاحاً، فمعنوياته عالية جداً، وشعوره أن الله يحبه ويغنيه عن كل شيء، فهو غني ولو كان فقيراً، والغني غير المؤمن فقيرٌ ولو كان غنياً، المؤمن مطمئنٌ ولو أحدقت به الخطوب، وغير المؤمن خائفٌ ولو ملك كل أسباب القوة، شيء عجيب، هذا العجيب هو المؤمن مطمئن، وجميع الخلق أحياناً يتنكرون له لأنه على حق، والكافر بيده أسباب كل القوى ومع ذلك خائف، قلبه فارغٌ من الأمن، بل ممتلئٌ رُعْبَاً، المؤمن الفقير غنيٌ في نفسه مع أنه فقير في يديه، غير المؤمن فقير في نفسه، ولو كان غنياً فيما بين يديه.

(فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ)

البشرى إذاً نصيةٌ ونفسية، والإنابة؛ عن طريق الرجوع إلى أحكام الشريعة هذه إنابة أولى، وعن طريق الإقبال على الله على أثر العمل الصالح هذه إنابة ثانية، وهؤلاء المؤمنون الصادقون:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

لهم صفة أخرى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

أي إذا الله عزَّ وجل وصف الدنيا ووصف الآخرة، يتَّبعون طريق الآخرة، وصف أهل الجنة ووصف أهل النار، يسلكون سبيل أهل الجنة وأحسن القول، أمر ونهى، يأخذ بأمر الله ويدع ما نهى الله عنه، فحينما يخيَّر بين شيئين يختار أرضاهما لله عزَّ وجل.

المؤمن كلما عرض له شيئان يختار أقربهما وأرضاهما لله عز وجل :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

من أبسط معاني هذه الآية إذا الله عزَّ وجل أمر ونهى، فالعبد حينما يتَّبع الأمر اتَّبع أحسن القول، وحينما اجتنب النهي انتهى عن أسوأ القول، وإذا الله وصف أهل الجنة وأهل النار، يتبع سبيل أهل الجنة، وإذا الله عزَّ وجل وصف السابقين السّابقين ووصف أهل اليمين يسلك سبيل السابقين، كلما عرض له شيئان يختار أقربهما إلى الله عزَّ وجل وأرضاهما لله.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

الاستماع سهل، كلكم يستمع وأنا أستمع معكم أحياناً، والتكلُّم أيضاً سهل، وكلكم له لسانٌ طليقٌ في الدعوة إلى الله، لكن العبرة أن كل مستمع لا جدوى من استماعه إن لم يُطَبِّق الذي استمعه، وكل متكلمٍ

لا جدوى من كلامه إلا إذا طبَّق ما يقول، فما كل مستمع مرضيٌ عند الله عزَّ وجل، وما كل متكلمٍ مرضيٌ عند الله عزَّ وجل، لا المتكلم يرقى بكلامه ولا المستمع يرقى باستماع، ولكن المستمع إذا اتَّبع:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

إذا اتبع أحسن القول هذا هو المستمع المثالي الذي أراده الله عزَّ وجل.

المستمع المثالي هو الذي يتبع أحسن القول :

كذلك في آية أخرى يشير الله عزَّ وجل إلى أنَّك إن لم تلتزم بما استمعت فلست عند الله مستمعاً، الآية الكريمة:

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ)

[سورة الأنعام: 36]

وفي آية أخرى أيضاً يؤكِّد هذا المعنى فبعضهم يستمع ولكنه لم يسمع، أجل استمع ولم يسمع، كيف؟ كنت أضرب على هذا مثلاً، أنك لو قلت لأحد: إن على كتفك عقرب. فقال لك: أنا شاكر لهذه الملاحظة، وأنا مدين لك بالفضل لهذه البادرة الطيِّبة التي ذكرتها لي، وأنت إنسان كريم وفاضل. ولم يبادر لإزاحة العقرب التي على كتفه؟! معناها أنه لم يفهم ماذا قيل له، ما دام يجامله وهو هادئ ومرتاح، ويثني على ملاحظته القيِّمة، وعلى مبادرته الطيِّبة، فهذا لم يستمع لم يفهم قول القائل، فالمعنى أن الاستماع ليس أن تُصْغي والدليل:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

علامة الإصغاء هو السلوك:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

فإذا كان إنسان بحاجة ماسة لبيت، وبلغه أن هناك بيتاً ثمنه مئتا ألف، وهو يبحث عن بيوت من شهرين وأقل بيت بخمسمئة ألف، فالبيت بمئتين، لكن الدلال بالمخيم مثلاً وهو ساكن بالمهاجرين، والمواصلات سَيِّئة جداً، فلما يعلم أن هذا البيت ثمنه مناسب جداً ويخاف أن يسبقه أحد، فهو حينما يتوجه على قدميه مشياً إلى صاحب البيت، هذا دليل على أنه فهم الموضوع تماماً، فكل إنسان يتحرَّك بعد الاستماع يعني أنه قد سمع، وكل إنسان لا يتحرك فالمعنى أنه لم يسمع ولو أبدى إصغاءً مثالياً، ولو أثنى وشكر وقال: تباركنا واستفدنا.

أجمل ما في الآية أنك إن تبت إلى الله عزَّ وجل فقد صغى قلبك إلى هذا الحديث :

أحياناً تُجالس إنساناً تقول له: هذه حرام، وهذه حلال، وآخرة، وجنَّة. تجده يقول: والله تباركنا، والله كأن النبي زارنا عندما تكرمت بهذه الزيارة يا سيدي، الله يبارك فيك ويخليك لنا. ولا تجده مغَيِّراً شيئاً من أفعاله؛ دخلٌ حرام، واختلاطٌ، ولكن لسانه أحلى من العسل، فهل هذا استمع؟ والله لم يستمع إطلاقاً. وأحياناً الإنسان يستمع إلى محاضرة، إلى خطبة جمعة، إلى درس تفسير، إلى درس فقه، إلى درس سيرة، فالمقياس الدقيق الدّقيق أنه إذا لم يستجب بعد هذا الاستماع فهو لم يستمع، فقط موجات صوتية لامست غشاء الطبل، والغشاء تحرَّك، ونقل أصواتاً مُقَطَّعَة إلى الدماغ، بينما هو يغط في أحلام أخرى، أما قوله تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

أي إذا تُبت فقد سمعت، وإلا فأي شيءٍ تسمعه؛ محاضرة، درس تفسير، درس سيرة، درس حديث، إذا كنت قد أثنيت على المتكلم، وعلى علم المتكلم، يا أخي ما هذه الطلاقة؟! واستفدنا، وتأثرنا، وخشعت قلوبنا، ونسأل الله أن يجزيه الخير. وأنت أنت لا غيرت ولا بدَّلت، دخلك دخلك، إنفاقك إنفاقك، علاقاتك علاقاتك، غيبتك غيبتك، لم تغير شيئاً، فهذا هو عدم الاستماع، وأجمل ما في الآية أنك إن تبت إلى الله عزَّ وجل، فقد صغى قلبك إلى هذا الحديث، وإن لم تتب فأنت لم تستمع ولو وقفت الموقف الأمثل في الاستماع.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

الاستماع الحقيقي والإصغاء الحقيقي هو الذي يتبعه عمل :

فالإنسان قبل أن ينام ينبغي أن يُحاسب نفسه حساباً عسيراً، فقد استمعت اليوم إلى خطبة، والخطيب قال: أن أي مبلغ تنفقه الله جلَّ جلاله يعوضه عليك، وأي مبلغ تنفقه يعلمه الله، وذكر الخطيب حول الإنفاق الشيء الكثير، إن لم تنفق فلم تستمع إلى الخطبة ولو حضرتها، ولو كتبت بعض الفقرات والآيات، ولخَّصت، وحدثت بها الناس مراراً، وقلت: أنا سجَّلتها كلها عندي بنقاطها الدقيقة، الموضوع شامل، الخطيب استوعب الموضوع بكامله. خير إن شاء الله، فأنت فلم تنفق شيئاً؟ إذاً أنت لم تستوعب الموضوع، هذه النقطة الدقيقة:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

إن طبَّقت، معناها استوعبت، إن طبَّقت، معناها استمعت، إن طبَّقت، معناها أصغيت، الاستماع الحقيقي الذي يتبعه عمل، الإصغاء الحقيقي الذي يتبعه عمل، التأثُّر الحقيقي الذي يتبعه عمل.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

بالمناسبة بين الاستماع وبين التطبيق كما بين لفظ ألف مليون وامتلاك ألف مليون، المسافة بين الاستماع وعدم التطبيق وبين الاستماع والتطبيق هي المسافة نفسها بين أن تقول: ألف مليون ولا تملكها وبين أن تقولها وتملكها، هذه المسافة، قال:

(أولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

لهذا فالعلماء فرَّقوا في أمة محمد بين أمة التبليغ وأمة الاستجابة، فهذا الوهم الذي شاع بين المسلمين أنهم أمة محمدٍ وهي أمة مرحومة، من قال لك: إن أمة محمدٍ كلها مرحومة؟ من قال لك ذلك؟ المرحومة المستجيبة والدليل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

كنتم. أي أنتم يا أمة محمد، فمعنى كنتم بمعنى أصبحتم، أي أصبحتم:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

ما نريده هو إسلام ملتزم لا إسلام شكلي :

طبعاً هذه الآية مكتوبة على مقر جامعة الدول العربية في القاهرة، كتبوا آيتين، الأولى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

[سورة آل عمران: 103]

والثانية:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

والله شيء جميل، آيتان هما محورا هذه الجامعة، لكن أكمل تلاوة الآية:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: 110]

فإذا أمرت هذه الأمة بالمُنكر ونهَت عن المعروف، فماذا بقي من خيريَّتها؟ لم يبق شيء، كلام ربنا واضح، فالإنسان عندما يتمسَّح بألفاظ لا تعني شيئاً، يذكر آيات هو بعيد عنها، أحياناً تجد على واجهة المحل التجاري:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

خيرٌ إن شاء الله، فهل الغلّة هي الفتح؟ أو يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، في الداخل كذب، وغش، واحتيال، ولديهم تدليس بالبيع، وعندهم بضاعة محرَّمة، ويحلفون أيْمَاناً كاذبة، ما قيمة:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

مع كل هذه المخالفات؟ أو أحياناً يضع السائق المصحف على مقدِّمة السيَّارة ويسب بالدين طول النهار، ما قيمة هذا؟ قلنا إن هذه النماذج البشعة القذرة بالحياة سوءة بين المسلمين، فنحن نريد مسلماً ملتزماً.

فرق كبير بين أمة التبليغ وأمة الاستجابة :

إذاً نحن خير أمةٍ إن أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، فإذا أمرنا بالمُنكر ونهينا عن المعروف فلسنا خير أمةٍ، ولسنا من أمة محمدٍ المرحومة، أمة محمدٍ المرحومة هي أمة الاستجابة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم)

[سورة الأنفال: 24]

أما أمة التبليغ، أي أن كل طالب أخذ شهادة ثانوية وتبلّغ فروع الجامعة وعلاماتها فهل صار يحمل ليسانس؟! لا، تبلغ أن العلامات الفلانية تؤهله دخول كلية الطب، الفلانية هندسة، الفلانية صيدلة، الفلانية حقوق، آداب، تبلّغ العلامات، ولكن لم ينتسب للجامعة، ولا داوم، ولا درس، ولا قدَّم فحص، ولم يأخذ ليسانس، فنحن نقول: هل كل واحد تبلّغ قرار إدارة الجامعة بعلامات الكليَّات صار مجازاً؟ لا، ما صار مجازاً وهو مازال طالباً في الثانوي، أما الذي يدخل للجامعة ويستجيب، ويدرس، ويقدم فحصاً، وينجح هذا صار مجازاً، فالميّزات لا لمن بلّغوا قرار الإدارة، بل لمن اجتازوا فحص الليسانس، فالنقطة دقيقة جداً، هكذا انتماء شكلي، انتماء تاريخي لهذه الأمة، أصبحنا أمةً مرحومة بلا عمل، بلا انضباط، بلا استقامة، هذا شيء لا يكون ولن يكون.

البطولة في الإسلام الالتزام :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

لذلك فرِّق بين إنسان له ثقافة إسلامية وبين إنسان مهتدي إلى الله، المهتدي شيء، والمثقَّف ثقافة إسلامية شيء آخر، فقد عُقِد مؤتمر إسلامي فقال لي أحد الحاضرين، وهو قد عقد المؤتمر في آسيا، وأذَّنَ المغرب ثم العشاء وبعض الحضور لم يصلوا المغرب، فهذا يعني أنه عضو فخري، أو عضو فكري فقط. وانتماؤه للإسلام انتماء وراثي.

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

[سورة النساء: 103]

أحياناً إنسان يحمل فكراً إسلامياً لكنه لا يصلي، يحمل فكراً إسلامياً ولكن دخله حرام، يحمل فكراً إسلامياً لكنه ليس ملتزماً بالإسلام، فالبطولة الالتزام:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

أولو الألباب، أرجو أن تتصور معي علبة فخمة جداً مغلفة بورق هدايا ثمين، وعليها شريط حريري معقود ببراعة ومهارة، فهذه العلبة مظنة شيء ثمين، عقد ألماس مثلاً، أو ساعة ذهبية، أو أقلام فاخرة جداً، أن فيها شيئاً ثميناً، سبائك ذهبية، فلما فتحتها لم يكن فيها شيء، فليس فيها لُب، فالإنسان قد يكون له مظهر فقط، ولكنه من داخله خواء.

الهدى استقامة :

القصة معروفة: دخل رجل طويل القامة عريض المنكبين، يرتدي زياً فخماً مفخماً إلى مجلس علم، وكان المتكلِّم يشكو ألماً مُمضّاً في رجله وحوله تلامذته، وقد مد رجله لعذرٍ بالغ، والنبي عليه الصلاة والسلام ما مد رجليه قط، والدرس كان عن صلاة الفجر، فلما دخل عليه - والقصة تروى عن أبي حنيفة - استحيا وثنى رجله، فلما انتهى الدرس سأله وقال: يا سيدي كيف نصلي إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال أبو حنيفة: عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفةٍ رجله. فطبعاً إذا ما كان كلام الإنسان سديداً يسقط من نظر الآخرين:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

الهدى استقامة، فليس الهدى فلسفة وتنطُّع، وليس الهدى صف كلام.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

فرِّق بين الثقافة وبين الهدى، عليك أن تبحث عن الهدى، وأنا أقول لأخواننا دائماً: تريد الفتوى أم التقوى، فلكل معصية فتوى - فالأمور مدبَّرة - أية معصيةٍ هناك من يفتي بأنها حلال، تريد التقوى، استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك، البطولة بالتقوى، بتقوى الله عزَّ وجل، إذاً:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

انظر (الذين) من هم؟

تعريف المهتدي :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا)

أولاً ابتعد عن كل مظان المعصية:

(وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

في عقيدتهم وفي أحكامهم وفي إقبالهم:

(لَهُمُ الْبُشْرَى)

بشرى نصيحة أولاً بنصِّ القرآن ثم بشرى نفسية:

(فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ)

اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله، واستمعوا القول، واتبعوا أحسنه:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

إذاً من الممكن أن نعرف المهتدي بأنه إنسانٌ ابتعد عن المنكر كلية، وتقصَّى أمر الله في كل أحواله، وعمل صالحاً، وأقبل على الله، وما خُيِّرَ بين شيئين إلا اختار أرضاهما لله عزَّ وجل، هذا المهتدي. ممكن إذاً أن تعرِّف المهتدي بالتعريف التالي: استقامة تامة، أعمال صالحة، اتصال بالله، ابتغاء مرضاة الله، هذا المهتدي بنص هذا القرآن الكريم:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

الآية من الآيات الأساسية في نفي مفهوم الشفاعة الساذج الذي يعتقده مُعظم الناس :

أما إذا لم يجتنب الإنسان الطاغوت؛ بل كان مع طواغيت الإنس والجن، تعامل معهم، واستجاب لهم، وائتمر بأمرهم، وفعل ما يريدون، وأرضاهم وأسخط الله عزَّ وجل، هذا جانب أول، أما الجانب الآخر فهو لم يعد إلى الله في أحكامه، بل اتبع أهل الدنيا، اتبع أهل الضلال، اتبع الأحكام الوَضعية، اتبع مصالحه المادية، لم يُنِب إلى الله بل أناب إلى مصالحه، وحينما يستمع القول يتبع أحسنه للدنيا، إذا خُيِّرَ بين أمرين دنيوي وأخروي، اختار الطريق الدنيوي، فعن هؤلاء قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

أيها الأخوة، هذه الآية من الآيات الأساسية في نفي مفهوم الشفاعة الساذج الذي يعتقده مُعظم الناس، نعم أقول المفهوم الساذج لدى الكثيرين، الشفاعة حق ولتعلم أن بمفهومها الصحيح، وقد وردت في الكتاب والسُنة لكن بمفاهيم دقيقة جداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يشفع إلا لمن مات غير مشركٍ بالله، لا شركاً خفياً ولا جَلياً، فإنسان دخل الجامعة، ودرس، قد تأتيه بعض المُساعدات، قد تأتيه بعض المكافآت، بقي له علامتان لينجح، هناك قرار بإضافة هاتين العلامتين، فما دمت أنت في الجامعة لك ميِّزات كثيرة منها المساعدة أو قل: الشفاعة، أما إذا لم تنتسب أصلاً فهذه الآية واقع عليك حكمها ونافذٌ بك:

(أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

شفاعة النبي محمد ينالها المؤمنين الصادقين :

إذا كنت خارج الجامعة كلياً، ميزات الكتب المجَّانيَّة ليس لك الحق فيها، مساعدتك بعلامتين كي تنجح ليس لك حق بهما، اللباس المجاني ليس لك فيه حق، ارتياد المكتبة والاستعارة منها ليس لك حق فيها، وكثير من الميزات لا ينالها إلا من كان ضمن الجامعة، فإذا كانت الشفاعة من بعض الميزات التي خَصَّ الله بها النبي ليشفع للمؤمنين، إذاً لا ينالها إلا المؤمنون الصادقون، أما أن ينالها شاربو الخمر، ومرتكبو الحرام، أصحاب الدخل الحرام، يريدون كل ما يفعلون ويتَّكلون على شفاعة النبي لهم يوم القيامة، فهذا هو الحمق بعينه، وإجابة هؤلاء هذه الآية:

(أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

أفأنت - يا محمَّد - تنقذ من في النار. طبعاً هذا استفهام إنكاري، أي أنت لا تنقذه، ولا تستطيع إنقاذه:

(أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

الذين عبدوا الطاغوت:

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

مشهد آخر من مشاهد أهل الجنَّة :

لكن الذين اتقوا، مشهد آخر من مشاهد أهل الجنَّة..

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ)

قصور في الجنة، وجنَّات تجري من تحتها الأنهار، أنهارٌ مما لذَّ وطاب، فواكه، حور عين، كلها في الجنة:

(غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)

أي:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 111]

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

الله عزَّ وجل وعده حق، لذلك أخباره كأنَّك تراها، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

هذا حديث قديم، قصة قديمة جداً قبل آلاف السنين، لكن لأن الله أخبرك عنها يجب أن تعتقد بوقوعها كأنَّك تراها الآن.

أيُّ شيءٍ ذكره القرآن وصحَّ عن النبي هو حقٌ من عند الله عزَّ وجل :

لما ربنا عزَّ وجل قال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: 116]

جاء هذا الخبر عن المستقبل بصيغة الماضي، وقال علماء البلاغة: هذا الماضي الذي يؤكِّد تحقق الوقوع، فالله إذا حدثنا عن شيءٍ مستقبليٍ بالفعل الماضي، وعن شيء غائب عنا بفعل رأى، معنى ذلك أن كلام الله عزَّ وجل حق، ووعده حق، والجنة حق.

فأثناء تلقين الميت: ويقال اعلم أن الجنة حق، وأن النار حق، أي واقعة لا محالة، ثابتة، لن تفاجأ بشيء خلاف ما قرأت في القرآن، اعلم أن الجنة حق، والنار حق، وعذاب النار حق، والصراط حق، والحَوض حق، أيُّ شيءٍ ذكره القرآن وصحَّ عن النبي عليه الصلاة والسلام هو حقٌ من عند الله عزَّ وجل.

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)

الآية التي بعدها إن شاء الله تعالى ندرسها في الدرس القادم:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (09-20): تفسير الآيات 21-23، فضل تلاوة القرآن والاستماع إليه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم في توجيهه للنفوس البشريَّة ينوَّع

من أجل أن تتعرف النفس إلى الله تعالى:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة الزُمَر ومع الآية الواحدة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

القرآن الكريم في توجيهه للنفوس البشريَّة ينوَّع، فتارةً يذكر آيةً كونيَّة، وتارةً يذكر مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وتارةً يذكر حُكماً شرعياً، وتارةً يذكرُ خبراً من أخبار الأقوام السابقة، كل هذه الأساليب من قصَّةٍ، إلى مثلٍ، إلى وعدٍ، إلى وعيدٍ، إلى خبرٍ، إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، إلى آيةٍ كونيَّةٍ دالَّةٍ على عظمة الله عزَّ وجل، من أجل أن تتعرف النفس إلى الله، وأن تُقْبِل عليه، وأن تسعد به. آيةٌ من الآيات الكونيَّة:

(أَلَمْ تَرَ)

كلمة (ألم ترَ) تعني أن هذه الآية تحت سمع كل إنسان وبصره، آية مرئيَّة، الصغار والكبار يرونها، لكن المشكلة أن الإنسان بشهوته أصيب بعمى البصر والبصيرة، إذا انغمس في شهواته الماديَّة غفل عن الآيات الكونيَّة.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

[سورة يوسف: 105]

الماء آية كونيَّة دالَّة على عظمة الله :

شيء مألوف، الأمطار نزلت، منخفض جوي قادم متمركز فوق قبرص ـ مثلاً ـ الأمطار بلغت ثمانية وثلاثين ميليمتراً في دمشق ـ مثلاً ـ نحن إذا قرأنا هذه المعلومات ولم ننتبه إلى الذي أنزل المطر وقيَّض لنا هذه الأنهار تسيل بها الأمطار، نكون قد غفلنا عن الله عزَّ وجل، ففي بعض الأقطار في إفريقيا

مضى عليها سبع سنوات وهي تعاني من الجفاف، النباتات أكثرها يبس، والحيوانات على وشك الموت جوعاً وعطشاً، فحينما يكون الجفاف في أرضٍ ماذا نفعل؟ لو اجتمعنا وقررنا، هل بإمكان جهةٍ في الأرض أن تتخذ قراراً بإنزال المطر؟ أليست هذه آيةٌ كونيَّةٌ دالَّةٌ على عظمة الله؟ أليست هذه من نِعَمْ الله العظمى؟

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان، طبعاً لو أن السماء لم تمطر؛ الينابيع تجف، والأنهار تجف، والأشجار في البساتين تعطش ثم تيبس، تغلو الأسعار، كلّما قلَّ الإنتاج النباتي ارتفعت أسعاره، فإذا ارتفعت أسعاره وقعت مشكلات لا يعلمها إلا الله، فحينما يتفضَّل الله علينا بهذه الأمطار فهذا يعني أن هناك رخاءً اقتصادياً، واعتدالاً في الأسعار، ووفرة في المواد.

وبالمناسبة: الأمطار هذا العام غزيرة الحمد لله، البارحة قرأت بنشرة جويَّة أن المعدل بلغ في دمشق أكثر من مئتين وخمسين ميليمتراً، في حين أن معدلها العام مئتان وثمانية عشر، ووصل في العام الماضي إلى ثلاثمئة وخمسين مليمتراً، فهذا فضل من الله عزَّ وجل.

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان، كل حياتنا على الماء، الماء نشربه، والماء نسقي به مزروعاتنا، والماء نسقي به الحيوانات الأهليَّة التي نحن في أشد الحاجة إليها، والماء نستخدمه استخداماتٍ للتنظيف، واستخدامات صناعيَّة، وقِوام حياة البشر على الماء، وقد قال الله عزَّ وجل:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأنبياء: 30]

موضوع المياه الجوفيَّة آية من آيات عظمة الله :

هذا الماء العذب الفُرات لو أردنا أن نحليه بطرقٍ صناعيَّةٍ فكل لتر يكلّف خمسين أو ستين ليرة، ينزل من السماء عذباً زلالاً، يسكنه الله في ينابيع في مواصفات غاية الدقَّة، تجد الماء الموصول بماء الينبوع عذبٌ فرات سائغٌ شرابه، صافٍ لا طعم، لا رائحة، لا لون.

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

هناك ينابيع في العالم غزارتها في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب، نهر الأمازون غزارته في الثانية ثلاثمئة ألف متر مكعَّب، نبع الفيجة عندنا ستة عشر متراً مكعَّباً في الثانية الواحدة، فهذه المدينة على أنها مترامية الأطراف، ذات كثافة سكَّانية، فكلها تشرب من هذا النَّبع، ويمتدُّ هذا النبع إلى مسافاتٍ شاسعة، والدراسات القديمة تبين أن النبع يمتد إلى حمص تقريباً، ومن الشرق إلى سِيفِ البادية، ومن

الغرب إلى ما تحت جبال لُبنان، أما مكان التصريف في قرية عين الفيجة، وهناك من يقول: إن حوض هذا النبع يمتد إلى بلاد أخرى وهي أبعد من سوريَّة، فمن أنزل هذا الماء من السماء:

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

أإلهٌ مع الله؟ في إندونيسيا أربعة آلاف جزيرة، لكل جزيرةٍ ينبوعٌ خاصٌ بها، وإذا قلت: جزيرة وليس فيها جبل، يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا النبع ممدَّدةٌ أنابيبه تحت سطح البحر إلى جبلٍ في اليابسة أعلى من هذه الجزيرة، هذا قانون فيزيائي ـ قوانين الأواني المستطرقة ـ إن رأيت نبعاً في جزيرةٍ مسطَّحة ليس فيها جبال، فاعلم علم اليقين أن هذا الماء العذب الزلال تمتدُّ أنابيبه تحت سطح البحر إلى جبالٍ في اليابسة، هناك الخزَّانات، وهناك من يقول: إنه في بعض الجزر الكبرى لبريطانيا، نهر التايمز كل أمطار بريطانية لا تكفي لغزارته، العلماء يقدِّرون أن مستودعات هذا النهر في أوروبا وليس في بريطانيا، هذه التمديدات تحت سطح البحار من يجريها؟ من يمدِّدها؟

طبقات الأرض سخرها الله لجمع مياه الأمطار :

إن موضوع المياه الجوفيَّة آية من آيات عظمة الله، وكذلك موضوع الآبار، موضوع الطبقات التي سخَّرها الله لجمع هذه المياه؛ طبقات نفوذة تقوم بدور المصفاة، طبقات كتيمة تقوم بدور القَعْر، طبقات من الصخور المعدنيَّة من أجل أن تذوب هذه المعادن، يقولون لك: هذه مياه معدنيَّة، ولتعلم أن المياه المُحَلاَّة في بعض بلاد النفط لا تصلح للشرب، لأنها محلاة، لأنها ماء مقطَّر، ولا يمكن أن نستخدمها إلا إذا خلطناها مع بعض مياه الآبار، لأن المياه ينبغي أن تكون معدنيَّة، أي فيها نسبة من المعادن.
فالأسنان بحاجة إلى كلور، الكلور نجده في مياه الشرب مُذاب بنسب طبيعيَّة دقيقة، الإنسان بحاجة إلى اليود من أجل الغدَّة الدرقيَّة، فإذا قلت: مياه معدنيَّة، أي أن الله عزَّ وجل جعل طبقات الأرض بعضها مصافٍ، وبعضها قعر، وبعضها لإذابة بعض المعادن في الماء، فكأس الماء الذي تشربه لو ذهبت به إلى المحللين لرأيت فيه المنغنيز، والحديد، والكالسيوم، وجدت فيه الفوسفات، وجدت معادن كثيرة جداً محلولة في مياه الشرب، صُنع من؟ وفي آية أخرى ربنا عزَّ وجل يقول:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 22]

أي أن الله عزَّ وجل لو كلَّفنا أن نخزن الماء الذي نحتاجه في عام واحد، لاحتجنا إلى بيتٍ يساوي بيتنا تماماً، الذي ساكن في مئة متر مربَّع، يحتاج إلى مستودع مساحته مئة متر مربَّع، لكي يزن فيه الماء لاستهلاكه لمدة عامٍ بأكمله. إذاً موضوع الماء وحده من الموضوعات الكُبرى الدالَّة على عظمة الله عزَّ وجل.

موضوعات للتفكر في خلق الله سبحانه :

من خلق هذه المسطَّحات من البحار الواسعة؟ لماذا كانت اليابسة خمس الأرض؟ هذه نسبة مدروسة من عند حكيمٍ عليم، لولا هذه المسطَّحات البحريَّة لما تبخَّر بخار الماء، ولما كان سُحُباً، ولما هَطَلَ أمطاراً أنبت به الزرع والزيتون وبقية النباتات والأشجار، إذاً البحار لماذا هي مالحة؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة، لماذا هي تشغل أربعة أخماس اليابسة؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة، لماذا أشعَّة الشمس تبخِّر هذه المياه؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة، من أودع في الهواء خاصَّة حمل بخار الماء؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة.

الهواء من خصائصه أنه يحمل بخار الماء، لكن هذا الهواء الذي يحمل بخار الماء يحمله بنسبٍ متفاوتةٍ تتناسب مع حرارته، فمتر مكعَّب الهواء إذا كان بدرجة ثلاثين مثلاً يحمل خمسة غرامات ماء، بخار ماء، فإذا هبط مثلاً إلى العشرين يتخلى عن غرامين من الماء، إذا هبط إلى الخمسة يتخلى عن أربعة غرامات، ولولا هذه الخاصَّة في الهواء لما كان المطر.

المطر ما هو؟ هواءٌ مشبعٌ ببخار الماء لامس جبهةً باردة فانكمش هذا الهواء، وعصر هذا البخار الذي يحمله فصار مطراً، فالهواء العادي فيه بخار ماء، لكن السحاب بخار ماء أكثف من البخار الشفَّاف، أما إذا واجهت هذه السُحُب طبقات باردة فانكمشت، وتخلَّت عن بخار مائها فأصبح مطراً، فإذا واجه المطر منطقةً باردةً أصبح ثلجاً، الثلج له فوائد، والمطر له فوائد، بخار الماء له فوائد، موضوعات لا مجال للحديث عنها بالتفصيل، ولكن كلُّها موضوعات للتفكُّر، موضوعات تثير فكر الإنسان.

أحياناً يرى الإنسان على النافذة طبقة من الضباب، من بخار الماء، لأن الطبقة الخارجيَّة طبقة باردة، لامست الهواء الذي خلف النافذة فانكمش الهواء، وعبَّر عن انكماشه بذرَّات من بخار الماء تعلق على زجاج النافذة، إذاً مبدأ أن الهواء يحمل بخار الماء، هذا المبدأ دقيق جداً، مبدأ أن الهواء يحمل بخار الماء بنسبٍ متفاوتة بحسب حرارته، فكلَّما اشتدَّت حرارة الهواء تحمَّل بخار الماء أكثر، وكلَّما قلَّت حرارته تخلَّى عن حمولاته فكان المطر، أو كان ما يسمَّى بالضباب، الضباب بخار ماء، لكن بنسبة أعلى من النسبة العاديَّة.

على كلٍ هذه موضوعات، التبخُّر موضوع، حمل الهواء لبخار الماء موضوع، الأمطار موضوع، المسطَّحات المائيَّة موضوع، مبدأ التبخُّر موضوع، الأمطار تنزل بشكل حبَّات صغيرة موضوع، تنزل بنسب متفاوتة موضوع، ثم كيف تغور في الأرض، كيف تصبح ينابيع، والينبوع خزان دائم طوال العام، كأن الله عزَّ وجل يدعونا، قال:

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان، أليست هذه الآية بين يديك؟ ألا تراها كل عام؟ ألا تسمع بها؟

قيمة الأماكن بمياهها :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

ينابيع، ما قيمة دمشق بلا نبع الفيجة؟ والله لو جفَّ هذا النبع لهبطت أسعار البيوت إلى الرُبع، ولقد سمعت أنّ بعض المدن خارج دمشق جفَّت المياه فيها منذ أعوام مضت فهبطت أسعار البيوت، وأصبحت هذه المنطقة ليست مرغوبة، ما قيمة السُكنى من دون ماء؟ إذاً قيمة الأماكن بمياهها، يقولون: مصر هبة النيل، ودمشق هبة بردى، هي هبة الله عزَّ وجل في الأصح، حمص فيها العاصي، كل مدينة فيها نهر تشرب منه، وتسقي منه مزروعاتها، به ينبت النبات والكلأ وما إلى ذلك.

(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)

ما هذا الزرع؟ إنه يُسقى بماءٍ واحد، الفستق ثمن الكيلو ثلاثمئة وخمسون، أو أربعمئة، وكيلو الفجل أرخص بالطبع، والماء واحد، نباتات متفاوتة في الطعم، بستان فيه أجاص، فيه درَّاق، فيه تفاح، فيه مشمش، فيه جوز، كل ثمرةٍ لها طعمٌ، ولها شكلٌ، ولها رائحةٌ، ولها قِوامٌ، ولها تغليفٌ، ولها حجمٌ، ولها وقت إنباتٍ، ولها وقت إزهارٍ، تفاوت عجيب جداً والماء واحد.

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

[سورة الرعد: 4]

آية النبات من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)

فهذه الألوان تراب، ما هذا التراب؟ معادن، فكيف أصبحت هذه التفّاحة صفراء؟ يقول لك: هذه كولدن، هذه ستاركن أي حمراء، هذه دبل رد ـ هذه كلها أسماء أجنبيَّة ـ فمن أعطاها هذا اللون؟ من أعطاها هذا الحجم؟ من أعطاها هذا الطعم؟ من أعطاها هذه الرائحة؟ من أعطاها هذه القِشرة؟ من أعطاها هذا العرق تتغذَّى منه؟ من صمَّمها هذا التصميم؟ يُسقى بماءٍ واحد، وبعد حين هذا النبات يهيج أي ييبَس.

(فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً)

إذا اصفرَّ النبات، وييس، وتكسَّر، جاءت الرياح فقذفته في أطراف البلاد:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

آية النبات؛ بذرة فيها رشيم حي، بعض النباتات الغرام فيه سبعون ألف بذرة، سبعون ألف بذرة تزن غراماً واحداً، كل بذرة فيها رشيم وسويق وجذير، محفظة غذاء، والرُشيم كائن حي، كشفوا في الأهرامات قمحاً من عهد الفراعنة، ولمَّا زرعوه نبت، هذا القمح مخزَّن في الأهرامات ستة آلاف عام، وهذا الكائن الحي لا يزال على قيد الحياة، موضوع البذور وحده شيء مذهل لا يصدَّق.

هناك جذور مجنَّحة تطير عَبْرَ القارات، بذور الغابات مجنَّحة، هناك بذور المراعي على شكل حلزون يغرس في التربة، ثم تنتقل البذور في هذا الحلزون إلى أن تغرس تحت سطح الأرض، وأنت لا تدري، هذه كل الرعويات، وهذه البذور تقاوم مقاومة شديدة كل الأعراض الجويَّة، الإنسان أحياناً يأكل بعض الأطعمة وقد لا يمضَغُ البذر، يخرج كما هو، اللحم يذوب في حَمض كلور الماء، ما من شيءٍ إلا ويذوب في المعدة، حتى لو جئنا بقطعة لحم ووضعناها في كرة حديديَّة مثقوبة، وأطعمناها لإنسان، هذه القطعة من اللحم تصبح كالحليب بفعل حمض كلور الماء الموجود في المعدة، لكن البذر لا يتأثَّر أبداً، يخرج كما دخل، لماذا؟ لأن هذا البذر مُعَد للزراعة يجب أن يقاوم كل العوامل، فتجد بذرة صغيرة لها رشيم، لها سويق، لها جذير، لها محفظة غذاء إذا أصابتها رطوبة ونور نبت الرُشيم.

البذور أيضاً من إعجاز الله تعالى :

هذا الشيء بين أيديكم، ائت بحبَّات الفاصوليا، أو حبَّات القمح، أو حبَّات العدس، ضعها على قطن مبلَّل في غرفة الجلوس، وانظر كيف ينمو الرشيم، فإذا بالبذرة فارغة، ونما الرشيم من هذه المحفظة الغذائيَّة، فمبدأ البذرة في الأرض ما هذا المبدأ؟ والشيء الغريب أن كل خصائص النبات مخزونة بالبذرة، أحياناً الإنسان يتحدَّث عن خصائص البذرة ساعة، كل الخصائص؛ أن هذا النبات يُزْهِر في الوقت الفلاني، يحتاج إلى ماء غزير، يحتاج إلى ماء قليل، يحتاج إلى تيار رياح، أصحاب المزارع، أصحاب البساتين، خبراء بخصائص النبات.

كل نبات له طبع، كل نبات له وقت للنمو، وقت للإزهار، وقت للإثمار، هذه الثمرة غير هذه الثمرة، حتى أحياناً بعض الخضراوات يقول لك: هذه طماطم أو بندورة، هذه معدَّة للعصير، هذه نسيجها اللحمي كثيف، هذه للسفر، هذه شكلها كُروي، هذه فيها حموضة، آلاف الصفات لهذه الخضراوات مودعة في البذور، كروموزونات، مورِّثات، افتح هذه البذرة هل ترى هذه الخصائص؟ هذه البذرة تقاوم المرض الفلاني، هذه البذرة تتحمَّل البرد، هذه البذرة تعطي عطاءً مديداً، هذه تعطي عطاءً قصيراً، هذه تعطي عطاءً كثيفاً وتنقطع، هذه الطباع التفصيليَّة التي استنبطها العلماء ـ علماء الزراعة ـ من هذه البذور أيضاً هي بحث قائم بذاته.

(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)

طبعاً ألوانه، وأشكاله، فهناك ثلاثمئة نوع من العنب، عندنا خارج دمشق في مركز زراعي عنده ثلاثمئة نوع من أنواع العنب فقط، ويوجد ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع من القمح، ما من محصولٍ حقلي، ما من شجرٍ مثمر، ما من خضار إلا ولها أنواع تفوق الحصر، الإنسان يحتاج لعصير البرتقال، فهناك برتقال خاص للعصير كلُّه ماء، تحتاج إلى برتقال تأكله كفاكهة، هناك برتقال خاص للمأكل، برتقال حلو الطعم، برتقال له لون أحمر داكن، فالبرتقال أنواع، الليمون أنواع، الحمضيات أنواع، التفاحيّات أنواع، اللوزيات أنواع، كليات الزراعة لديها معلومات دقيقة جداً في هذا الموضوع، ومع هذا لا زلنا في أولويات العلوم.

ظاهرة النبات وحدها ظاهرةٌ تكفي لمعرفة الله :

أما هذا النبات كيف يغوص جذره في أعماق الأرض؟ بعض الأشجار تغوص جذورها في التربة ثلاثين متراً نحو الأسفل، تبحث عن الماء، بعض الأشجار تتجه جذورها في الصحارى إلى العُمق، لكن في الأماكن الرطبة إلى السطح، تجد الجذور ممتدَّة أُفقياً وليس عمودياً، فهذا الجذر يدخل في الصخر أحياناً، ينتهي بقلنسوة، وهذه تنتهي بأشعار، فهذه القلنسوة فيها مادَّة تذيب الصخر من أجل أن يأخذ المعادن المُذابة بالماء، هذه المعادن المذابة بالماء تصعد إلى الورقة كَنُسِغ صاعد، في الورقة تتفاعل مادة اليخضور مع الآزوت الذي يمتصه النبات، مع ثاني أكسيد الكربون الذي هو محصلة تنفُّس الإنسان والمحروقات، مع بعض شِلاَّت الحديد فتصنع هذه الورقة النسغ النازل.

النسغ النازل سائل عجيب، فليس في عالَم الإنسان سائل تحقنه يصبح خشباً، أو حديداً، أو كوشوكاً بآن واحد، مستحيل وهو سائل واحد، هذا السائل ـ النسغ النازل ـ يصبح تارةً ثمرةً، وتارةً ورقةً، وتارةً جذراً، وتارةً جذعاً، وتارةً زهرةً، كلُّه من النسغ النازل، فظاهرة النبات وحدها تكفي لمعرفة الله.

أنت تحتاج إلى شيء تليِّف فيه جسمك أثناء الاستحمام، هناك نبات خاص له وجه ناعم لأصحاب الجلد الناعم، وله وجه خشن لذوي الخشونة الجلدية، تحتاج إلى نبات تنظِّف به ما بين الأسنان، هناك خِلَّة، تحتاج إلى نبات تنظِّف الأسنان كالسواك، تحتاج إلى نبات من أجل الأصبغة، الأصبغة مأخوذة من النبات، تحتاج إلى مادَّة مَرِنَة، الكوشوك أصله نبات، مادَّة خفيفة كالفلين، تحتاج إلى نبات حدود بينك وبين جارك، هذه نباتات حدوديَّة كلها أشواك، تحتاج نبات مظلَّة أمام البيت، فهو نبات مهمَّته المظلَّة، مظلَّة دائريَّة، دائمة الخضرة، كثيفة، أوراقها صغيرة تتراقص مع الرياح، جذعها مستقيم، تشعر أن هذا النبات ليس له أي وظيفة أخرى إلا أن يكون مظلَّةً لك. نبات من أجل خشبه، فهذا خشب خاص للأثاث

المنزلي، يقول لك: هذا زان غالي الثمن، هناك خشب الكندي خاص بالنوافذ لأنه يتحمَّل المطر، والرياح، والعوامل الجويَّة ولا يتأثر، ولو وضع الخشب الزان مكانه يفتل، أخواننا النجارون يعرفونها، خشب شوح ليِّن، خشب قاس للأثاث، خشب له رائحة ورديَّة، أنواع منوَّعة من الخشب، بلغني أنه يوجد مئة نوع من الخشب.

خشب للاستعمال الصناعي مئة نوع تقريباً، خشب جميل جداً فاتح اللون كخشب السنديان، جميل لونه أشقر وفيه خطوط رائعة جداً، خشب كأنه حديد كالزان، خشب ليِّن كالشوح يستعمل في الكبريت وأقلام الرصاص، خشب من أجل صناعات أخرى، فهذا النبات نستخدم خشبه، وذلك نستخدم زهرته، كالزهرة، وآخر نستخدم جذره فالجزر جذر، وغيره نستخدم أوراقه فالملفوف أوراق، تارةً الأوراق، تارةً الزهر، تارةً الجذر، تارةً الأغصان، تارةً الجذع، نباتات زينة، ورود، أبصال، شيء لا ينتهي.

ملخص سريع لما ورد معنا من آيات كثيرة دالة على عظمة خلق الله سبحانه :

توجد نباتات أواني مطبخ، جاءت لي إلى المسجد أخ قدَّمها لي، آنية مثل النحاس تماماً، في نباتات مسابح، حبات مسبحة مثقوبة، ما عليك إلا أن تضع الخيط فيها، كلها نباتات، ولا يزال البحث مفتوحاً، في إفريقيا نباتات مفترسة، إذا مرَّ فوقها الحيوان التقمته وأكلته، وهي نبات، والجزر المرجانيِّة قيل إنها نباتات، البحر الأحمر كله جُزر مرجانيَّة وهي نبات.

على كلٍ فظاهرة النبات وحدها ظاهرةٌ تكفي لمعرفة الله، ظاهرة البذور وحدها تكفي لمعرفة الله، ظاهرة أن هذا النبات يأخذ غاز ثاني أكسيد الكربون الذي هو سام بالنسبة لنا، نطرح هذا الغاز كمادَّة سامة، ويأخذها النبات كمادة غذائيَّة أساسية ويطرح الأوكسجين، هذا التوازن من صمَّمه؟ الذي يعدُّ لك سُماً هو للنبات غذاءً، والذي يطرحه النبات هو لك مادَّة منعشة، إنه الأوكسجين، لذلك ينصح أصحاب العلل الرئويَّة، المصابون بالربو أن يسيروا تحت أشجار الصنوبر، فإذا مشى الإنسان في غابة في النهار يشعر بنشاط لأن هذا النبات يطرح الأوكسجين دائماً، فكأنك واضع على أنفك كمَّامة مليئة بالأوكسجين.

(أَلَمْ تَرَ)

أليست هذه الآيات دالَّة على عظمة الله؟

(أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

قرب دمشق ينبوع الفيجة، أرادوا أن يقلّدوا تصميم ربنا عزَّ وجل، فأنشؤوا مستودعات لهذه المياه، على عمق أربعمئة متر تحت سطح الأرض، من أجل أن يُحْفَظ الماء برونقه؛ لا طعم، ولا رائحة، ولا لون، ولا تفسُّخ.

دورة حياة النبات تشبه دورة حياة الإنسان :

قال تعالى:

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

وبعد نزول الأمطار تتم هذه الدورة النباتية، أن أيّ شيء تزرعه ينبت أولاً غضّاً طرياً، جميلاً، يزهر، يثمر، ثم ييبس، يتحطَّم، تذروه الرياح، وأنت كذلك، فانظر إلى الطفل الصغير؟ كتلة من الحيويَّة، جميل الصورة، يكبر، ويكبر، ويكبرْ، بعد هذا تجد أنه مال إلى الضعف، ثمَّ تقرأ نعوة الإنسان على الجدران، دورة، نحن بضعة أيَّام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منَّه، كل واحد منا له صور تذكارية وهو صغير، فانظر إلى صورته عندما كان طفلاً فهل هو مثل الآن؟ ليست هناك أية نسبة، وهكذا الأيام، قال سيدنا عمر بن عبد العزيز: الليل والنهار يعملان فيك.

وأوضح مثل على هذا الكلام: خذ صورةً لك وأنت طفل، وخذ صورة لك وأنت في الأربعين وضعهما بجانب بعضهما البعض، هذا فعل الزمان؛ "الليل والنهار يعملان فيك فإذا كنت عاقلاً فاعمل فيهما"، الأعمال الصالحة، حتى لا تندم على هذه الدنيا، لئلا يقول الإنسان: يا ليتني قدَّمت لحياتي.

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون: 99-100]

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

أي أن الإنسان المؤمن هداه الله للإسلام، واستقرَّ عليه، والتزم الأمر والنهي..

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

القلب الرحيم من علامات الاتصال بالله :

أين جواب أفمن؟

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

الحقيقة الآية دقيقة، عندما اختار الإنسان الحق شرح الله له صدره، فالقلوب بيد الله عزَّ وجل يقلّبها كما يشاء، إنك إذا اخترت الحق شرح الله صدرك للحق، وإن اختار الإنسان الباطل فعندئذٍ يجد قلبه قاسياً كالصخر؛ أجل ومن اختار الباطل، من اختار الشهوة، من اختار الدنيا، من اختار المادَّة، من اختار الدنيا على الآخرة، كان قلبه قاسياً كالصخر وويلٌ لهذا القلب.

أطلّت الآن علينا قضيَّة دقيقة، أن علامة الاتصال بالله القلب الرحيم، وعلامة الانقطاع عن الله القلب القاسي، فهو أكبر مؤشّر لاتصالك بالله أو لبعدك عنه، الموصول بالله يرحم الخَلق، والمقطوع عن الله يقسو عليهم، وإيَّاكم أن تصدِّقوا مؤمناً متصلاً بالله بإمكانه أن يؤذي مخلوقاً، أو يكون سبباً في شقاء مخلوق، هو كلُّه خير، رحمته دفعته إلى الخير، وذاك قلبه القاسي حمله على الشر، إن رأيت إنساناً يقسو، يظلم، يأخذ ما ليس له، يبني سعادته على أنقاض الآخرين، يبني غناه على فقر الآخرين، يبني حياته على موت الآخرين، يبني أمنه على خوف الآخرين، إن رأيت هذا الإنسان فاعلم عِلم اليقين أنه مقطوعٌ عن الله عزَّ وجل، لأن انقطاعه عن الله سبَّب له قسوة قلبه، لذلك قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

إذا شرح الله صدر الإنسان لمعرفة الحق والثبات عليه فهذه نعمة كبيرة :

المقطوع عن الله إذا ذكَّرته بآيات الله يَضْجَر، لا يحب أن يسمعها، لو أنه وهو يبحث عن الأخبار في المذياع مرَّ بتلاوة للقرآن الكريم، لا يحتمل أن يصغي له ولا ثانية واحدة، على الفور يحرك المؤشر إلى الغناء..

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

لا يحتمل أن يسمع ذكر الله، ولا أن يدخل بيوت الله، ولا يحب مجالسة المؤمنين، هناك كراهيَّة ثابتة عند أهل الدنيا للمؤمنين، لأن المؤمن يذكِّره بتقصيره، المؤمن المستقيم يذكِّره بانحرافه، بخيانته، بكذبه، المُصلي بتركه للصلاة، الذي يغضُّ بصره بمعصيته بإطلاق بصره، فلماذا يكره أهل الدنيا المؤمن؟ لأنهم يرون أخطاءهم من خلاله، يرون انحرافهم، وتقصيرهم، وضياعهم، وشقاءهم من سلوكه واستقامته.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

هذه الآية مؤدَّاها أنك مخيَّر، فإذا اخترت طريق الحق شرح الله صدرك له، فلا ترتاح إلا في المساجد، لا ترتاح إلا في طاعة الله عزَّ وجل، لا ترتاح إلا بالإنفاق، لا ترتاح إلا بغض البصر، لا ترتاح إلا بالصدق والأمانة والاستقامة، لا ترتاح إلا بنصيحة المُسلمين ما دمت قد اخترت رضوان الله عزَّ وجل

يشرح الله لك صدرك، فيقبل الحق ويثبُت عليه، البطولة أن تثبت، شرح الصدر معناه قبول الحق والثبات عليه، لأنك اخترت الحق.

فإذا اختار الإنسان الباطل يضيق صدره من ذكر الله، من تلاوة القرآن، من الموت، لا يستطيع أن يصلي صلاة الجنازة، يقف خارج المسجد يدخِّن، وكم رأيت بأُمِّ عيني عشرات من المُسلمين إذا شيَّعوا جنازة وقد دخلت إلى المسجد ليُصلَّى عليها، وليُصلَّى الظهر قبل الصلاة عليها يقفون خارج المسجد لا يحتملون، لا يحبون ذكر الله، ولا مساجد الله، ولا بيوت الله، ولا القرآن، ولا أي شيء يذكِّرهم بالآخرة، منغمسون في الدنيا.

إذاً إذا شرح الله لك صدرك لمعرفة الحق وللثبات عليه فهذه نعمةٌ ما بعدها نعمة، تؤكّدها الآية الكريمة:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات: 7]

الآية التالية تتحدَّث عن القرآن الكريم أنه أحسن الحديث :

ثمَّ يقول الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

هذه الآية تتحدَّث عن القرآن الكريم، أنه أحسن الحديث، هو الغنى الذي لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، هو الكتاب المحكم الذي لا ريب فيه، ولا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه.

((فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى كَلامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الدارمي عن شَهْر بن حوشبٍ]

فكم هي المسافة كبيرة جداً بين الخالق والمخلوق؟ هي نفسها بين كلامه وكلام خَلْقِهِ، فهو أحسن الحديث، فأجمل حديث تتحدَّث فيه كتاب الله، فمن الممكن أن تتوجَّه من خلاله الوجهة الصحيحة، وأن تتعظ من خلاله، بهذا الحديث توجّه وتفكّر، فيه نبأ من قبلكم، خبر ما بعدكم، حكم ما بينكم، فيه آيات دالّة على عظمة الله، فيه أخبار الأمم السابقة، فيه أحكام شرعيَّة، فيه توجيهات تربويَّة، فيه نظرات مستقبليَّة، فيه وعد، فيه وعيد، فيه بشارة، فيه نذير، فيه كل شيء، هو أحسن الحديث ولا تنقضي عجائبه، كلّما زدته فكراً زادك معنىً.

الصفات المُطلقة للقرآن قاسمٌ مشتركٌ بين آياته كلّها :

لا تنقضي عجائب القرآن، تجد الإنسان أمضى أربعين سنة مع هذا الكتاب ولا يملّه، يتلوه أناء الليل وأطراف النهار، وكلّما قرأ آية كشف الله له معنىً لم يكن يعرفه من قبل، الشيء العجيب فيه أن القرآن غَني، والذي يقرؤه يشعر بالغنى، مبادئ أساسيَّة من قِبَل خالق الكون، مقياس دقيق تقيس فيه كل نظريَّة، كل شيء وافق القرآن صحيح، وإن خالفه فهو باطل، وطلع الفجر انتهى الأمر، إنه كلام الخالق، هو:

(أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً)

كل آياته يشبه بعضها بعضاً في الخير، في الصِدق، في الصواب، في التسديد الصحيح:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء:9]

كل الآيات الكريمة في مستوى واحد؛ من الدقَّة في التعبير، من الإعجاز، من الروعة، من البيان، من العُمق، من الصحَّة، من الصواب، الصفات المُطلقة للقرآن قاسمٌ مشتركٌ بين آياته كلّها، هذه الصفات توضح معنى " متشابهاً "، أي أن هذه الآية ولو كانت في المواريث فهي دقيقة جداً، تشبه الآيات الكونيَّة، هذه الآية الكونيَّة تشبه آيات التشريع، كلُّها دقيقة، وكلُّها صحيحة، وكلُّها نافعة، وكلُّها خيِّرة، وكلُّها مُباركة، هذا معنى "متشابهاً"، يشبه بعضها بعضاً في الخير.

معنى كلمة (مثاني) :

قال تعالى:

(مَثَانِيَ)

وصفٌ لأهل الجنَّة وأهل النار، وصفٌ للحق وللباطل، للدنيا والآخرة، للخير والشر، لما قبل الموت وما بعد الموت، فدائماً القرآن فيه اثنينيَّة، هذا معنى أول.

المعنى الثاني: أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتوضِّحها، القرآن ليس متناقضاً، الآيات توضِّح بعضها بعضاً.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر:99]

أي يقينٍ هذا؟ قال: هو الموت، من أين عرفنا ذلك؟ قالوا:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)

[سورة المدثر:47]

أتانا الموت، فالآية الأولى توضِّحها الآية الثانية، فمعنى مثاني أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتوضِّحها:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

[سورة البقرة: 223]

معنى (أنَّى) موضَّحة بآيات ثلاث أخرى، فالآيات الثلاث توضِّح معنى أنَّى، وأنَّى توضِّح معنى الحرث، فإذا قرأت القرآن كلَّه واستوعبته استيعاباً جيداً تجد أن كل آيةٍ تفسِّر أختها، وهذا أعلى أنواع التفسير أن تفسِّر القرآن بالقرآن.

فكلمة (متشابهاً) أي تشبه الآيات بعضها بعضاً في الخيريَّة، والصدق، والدقَّة، والإعجاز، والكمال، والبَرَكَةِ، والعظمة. و(مثاني) إما أن القرآن فيه اثنينيَّة؛ الخير والشر، الحق والباطل، الجنَّة والنار، الدنيا والآخرة، أو كل آيةٍ تنثني على أختها فتوضِّح معانيها.

المؤمن يقرأ القرآن وهو يتفاعل مع الآيات :

قال تعالى:

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

أي أن المؤمن إذا قرأ آيات العذاب بكى، أو تباكى، أو اقشعرَّ جلده، يتأثَّر لأنه يصدق هذا الكتاب، أشد أنواع الكفر التكذيب العَملي؛ أي ألا تبالي بالقرآن، أن تتخذه وراءك ظِهريّاً، أن تهجره، أن تقرأه دون أن تعمل به؛ لكن المؤمن يتعامل معه بصدق، يتعامل مع القرآن بواقعيَّة، فإذا وصف الله عذاب أهل النار انخلع قلبه، واقشعرَّ جلده، وأصابته الخَشْيَة، فإذا قرأ أحوال أهل الجنَّة..

(ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

فالمؤمن بين خشيةٍ ورجاء، بين خوفٍ ورجاء، بين وعدٍ ووعيد، بين وعدٍ بالجنَّة ووعيدٍ بالنار، فالمؤمن يقرأ القرآن وهو يتفاعل مع الآيات.

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ)

هناك معنى آخر: إذا خفت من وعيد الله عزَّ وجل فتبت إلى الله، واصطلحت معه، واستقمت على أمره، فإن القرآن يصبح ربيع قلبك، وجلاء همِّك، ونور بصرك، به تطمئن، به ترتاح، بتلاوته تتفاءل، القرآن صاحبه غَنِيّ.

بالمناسبة: من تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتَّى يموت، فما من شيءٍ يُزعج الرجل في خريف حياته إلا الخَرَف، يسقط اعتباره الاجتماعي، يتطاول عليه من حَوله، يسخرون منه، يتندَّرون به، لكنَّه إذا قرأ القرآن في شبابه متَّعه الله بعقله حتَّى يموت، والله ألتقي مع أناس في الخامسة والتسعين، يقول لك:

الحمد الله، لا يعيد القصَّة مرَّتين، فمنذ صغره حفظ القرآن، احفظ كتاب الله يحفظك، هناك أمراض تصيب الشيوخ المتقدِّمين بالسن، تضيق شرايين الدماغ فيخرف، أما هذا الذي يقرأ القرآن دائماً، ويصلي دائماً هو في نشاط دائم، ونحن عندنا قاعدة تتعلق بالجسم وهي أن العضو الذي لا يعمل يَضْمُر، فإذا الإنسان كُسِرَت يده ثم وُضِع حولها الجبصين، ستة أشهر تقريباً، إذا نُزِعَ الجبصين تصبح عضلاته ضامرة، العضو الذي لا يعمل يضمُر، والدماغ عضو، فإذا نشَّطته بالقرآن لا يضمر، فهل هناك أجمل من إنسان عمره تسعين سنة ولا ينسى؟!

فضل تلاوة القرآن :

والله سمعت عن رجل عاش في هذه البلدة قرابة مئة عام، وكان يعلِّم ثلاثة أجيال، كان يقول لمن يراه في الطريق من تلاميذه: يا بني لقد كنت أنت تلميذي أعرفك جيِّداً، وكان أبوك تلميذي، وكان جدُّك تلميذي، بدأ في التعليم في الثامنة عشرة من عمره، ومات في السادسة والتسعين وهو على رأس عمله، وكان مديد القامة، منتصب القامة، أسنانه في فمه، الآن في الخامسة والثلاثين أسنانه محشوة لم تبقَ سن واحدة سليمة في فمه، أما ذلك صاحب القامة المنتصبة فسمعه مرهف، وبصره حاد، يقال له: يا سيدي ما هذه الصحَّة؟ يقول: "يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكِبَر، من عاش تقياً عاش قوياً".

فهل هناك أغلى من الصحَّة؟ ثمنها الطاعة لله عزَّ وجل، استقم على أمر الله، هذه العين التي تَغُضُّ عن محارم الله، أو التي تسهرُ في سبيل الله، فالله أكرم وأعز من أن يفجعك بها، هذه الأذن التي تستمع الحق وتصغي إليه، فالله أكرم وأعز من أن يصيبك بها، ترثك ولا ترثها، كما قال النبي:

((اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا))

[من رياض الصالحين عن ابن عمر]

والله أسمع حكايات عن بعض الخرفانين، يضع أمَّه على كرسي مربوطة من أطرافها، قلت له: لماذا؟ قال: لئلا تأكل من غائطها.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً)

[سورة النحل: 70]

هناك حالات خرف لا تحتمل، الإنسان يأكل الغائط، أما المؤمن الذي نشأ في طاعة الله، شَبَّ على طاعة الله، هذا ينتظره خريفٌ مشرق، كلَّما ازداد عمره سنة ازداد تألُّقاً، وازداد مكانة، وازداد عقلاً، وازداد وضاءة، وازداد شخصيَّة قويَّة، وقد يتوفَّاه الله عزَّ وجل وهو في أوج مكانته، تجده إنساناً مرموقاً، المؤمن عزيز غالٍ على الله عزَّ وجل، لذلك من تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت، هذه

ضمانة، تلاوة القرآن ضمانة لخريف عمرك، نور للقلب، والقرآن أيضاً نورُ البصر، وفيه جلاء الهَم والحزن.

القرآن الكريم هو كتابنا المقرَّر طوال حياتنا :

قال تعالى:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

لذلك فهذا القرآن الكريم كتابنا المقرَّر طوال حياتنا، إنه غنىً لا فقر بعده، ومن آتاه الله القرآن فظنَّ أن أحداً أوتي خيراً مما أوتي فقد حقَّر ما عظَّمه الله، فالذي الله آتاه القرآن حفظاً، أو تلاوةً وتجويداً، أو فهماً وتفسيراً، أو عملاً، والأكمل أن تتلوه مجوَّداً، وأن تفهم تفسيره، وأن تعمل به، وهو كتابنا، هذا الذي آتاه الله القرآن اجتباه الله إليه:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً)

في الخير:

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

المسلمون حينما تخلَّفوا جعلوا هذا الكتاب فقط للمآتم، بعض المسلمين يقولون لك إذا سمعوا قرآناً يتلى: هل مات أحد؟ شيء مؤلم والله، لا يتلى هذا الكتاب إلا عند الموت فقط، اقرأه وأنت حي يا أخي، وأنت في أوج شبابك افهمه، لذلك حضور هذا المجلس في سبيل ماذا؟ في سبيل فهم هذا الكلام كلام الله عزَّ وجل.

درجات تلاوة القرآن :

قال تعالى:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

كيف يهديك الله؟ هذا كتابه، إذا أردت أن تُحَدِّث الله فادعه، وإذا أردت أن يحدِّثك الله عزَّ وجل فاقرأ القرآن، والتلاوة درجات ذكرها الإمام الغزالي بالإحياء، أولى الدرجات أنك إذا استمعت إلى كتاب الله فكأنَّه يُتلى عليك من قِبَلِ الله عزَّ وجل، وكأن هذا الآيات أُنْزِلت لتوِّها، طريَّة، وأنت كلَّما ازددت استقامة، وبذلاً، والتزاماً، وإقبالاً ازددت سعادةً بكتاب الله، فالإنسان إذا قرأه:

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

[سورة الإسراء: 78]

بعض العلماء قال: (قرآن الفجر) صلاة الفجر في المسجد، عندما تقف وتستمع إلى كتاب الله في صلاة الفجر يضاعف انشراح صدرك، نحن من فضل الله عزَّ وجل صلاة الفجر عندنا على مدار العام فيها ختمة بأكملها، من الأول من شوال إلى العشرين من شعبان يُتلى كتاب الله بأكمله في الفجر، إذا إنسان داوم على الفجر فمعنى ذلك أنه يستمع إلى كتاب الله كلّه خلال عام، وفي رمضان نعيده مرَّة ثانية والفضل لله عزَّ وجل، وأرقى حالة للتلاوة أن تتلو القرآن في صلاةٍ قائماً في المسجد، أعلى درجات الثواب أن تتلو القرآن في صلاةٍ قائماً في المسجد، ومثله أن تستمع له، بأن تكون مأموماً، فقراءة الإمام قراءةٌ لك، فالإنسان عندما يصلي التراويح ويصلي الفجر، ماذا يفعل؟ يستمع إلى كتاب الله يُتلى عليه فيزداد انشراحاً كما يزداد ثواباً:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل للآية التي بعدها:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 23-26 ذات الإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مؤلفٌ من نفسٍ و جسدٍ و روح :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من سورة الزُمَر، ومع الآية الثانية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

هذه الآية رأيت من المناسب أن نَمُرَّ عليها مرةً ثانية.

أولاً أيها الأخوة: ذات الإنسان موضوعنا، فالإنسان مؤلفٌ من نفسٍ، ومن جسدٍ، ومن روح، الجسد هذا القالب المادِّي، الجسد يحتوي النفس، أما أنت فذاتك هي نفسك، فحينما قال الله عزَّ وجل:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة التغابن: 4]

نفسك التي بين جنبيك، هذه النفس لا تموت، تذوق الموت ولا تموت، هي خالدةٌ مخلَّدة ؛ إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، هذه النفس هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي التي تحب، هي التي تبغض، هي التي ترقى، هي التي تَسْفُل، وما الجسد إلا قالبٌ ماديٌ لها، تتحرك من خلاله، تنتقل بالرجلين، تبطش باليدين، ترى بالعينين، تسمع بالأذنين، تنطق باللسان، الفكر جهازٌ موضوعٌ تحت تصرُّفها، جهاز استشاري، فإذا أعملته عرفت الحقيقة، فإذا قال الله عزَّ وجل:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة التغابن: 4]

أي النفس التي في صدرك، ومقر النفس في كل الجسد لكن مركزها في القلب، فحينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[البخاري عن النعمان بن البشير]

بعضهم قال: قلب النفس، وبعضهم قال: قلب الجسد.

الروح قوة محركة :

على كلٍّ:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الحج: 179]

المقصود هنا النفس، لسنا في صدد الدخول في تفاصيل بُنْيَة الإنسان من جسمٍ، ومن روحٍ، ومن نفس، الروح القوة المحرِّكة تماماً، فمن باب التشبيه والتقريب والتوضيح فإما الروح كالكهرباء في الآلة، إذا قطعت توقفت الآلة، المكيف يتوقف، البرَّاد يتوقف، المدفأة تتوقف، المسجلة تسكت، فالروح إذاً قوةٌ محركة، روح من الله عزَّ وجل، عند الموت يقطع الله عن هذا الجسد روحه.

كانت له عينان تتألقان، وتبصران، وتريان الأشياء بألوانها، وأحجامها، وأشكالها، ودقائقها، وتستمتعان، مئة وثلاثون مليون عصية، وسبعة ملايين مخروط، وعشر طبقات شبكية، وتسعمئة ألف عصب، وجسم بلوري، وسائل زجاجي، وقُزحية، وقرنية، وأجفان، وعضلات مائلة، فجأةً تُلقيها في القُمامة، العين لا تؤكل تلقى.

هذا اللسان كان ينطق: أعطنا سندويش لسانات، كان يتكلم، صار قطعة لحم لا قيمة له.

وهذه الكلية تقوم بأدق الأعمال، تصفِّي الدم، فيها طريق طوله مئة كيلو متر، يعبره الدم في اليوم خمس مرات، من أجل أن يتنقى مما علق به من فضلات الاحتراق الخَلَوي، فإذا هي كلية لا قيمة لها بعد الموت.

إذاً الروح هي القوة المحركة، بشكل أدق من ذلك، الإنسان ما دام حياً فهو في بيته مصدر أنس، جاء أبي، وجاء بابا، إذا مات يخافون منه، ماذا فقد؟ فقد الروح، كان مصدر أنس، كان يملأ البيت بهجة، وسروراً، وعطاءً، له مكانته، له تخطيطه، له عطاءاته، الكل ينتظره، الكل يأنس به، الكل يتقرَّب منه، فإذا خرجت روحه خافوا من الغرفة التي هو فيها، وبعد الموت تبقى هذه الغرفة مشؤومة لشهر أو شهرين، خافوا منها، هنا مات، فهذه الروح إذا سحبت أصبح الجسد جيفةً، انتهى، فالجسد بالغ التعقيد، بعضهم قال: الجسد إذا حللناه إلى مواده الأولية فيه حديد يكفي لصنع مسمار، فيه كلس يكفي لتبييض بيت دجاج، فيه مواد دهنية تكفي لصناعة لوح من الصابون، فأنت كجسد قيمتك ثمن لوح صابون، ثمن مسمار، الخلاصة، لوح صابون، ومسمار، وقليل من الكلس يكفي لدهن بيت دجاج، وسبعون بالمئة ماء، وانتهى الأمر، هذا هو الجسد.

أفضل نعمة أن يكون الإنسان مهتدياً بهدى الله عزَّ وجل :

أما النفس فشيء عظيم، الكون كله مسخرٌ لها، هي التي تعرف، هي التي تُحِب، هي التي تبغض، هي تؤمن أو تكفر، هي تنافق، هي تكون قذرة، هي تكون نظيفة، هي تكون أخلاقية أو لا أخلاقية، الوفاء والخيانة، الصدق والكذب، الاستقامة والانحراف، الإحسان والإساءة، كلها صفات النفس، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

البارحة قلت: الإسلام كله، والإيمان كله، والدين كله، والحياة كلها، ملخصة في كلمتين حسن الخلق، فمن زكّى نفسه استحق الجنان، ومن لم يزكّها استحق النيران، لذلك في القرآن:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هذه الآية:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

إذا اختار الإنسان الحق، إذا اختار الحقيقة، إذا اختار ما عند الله، إذا اختار الجنة، إذا اختار أن يمشي على أمر الله، فمكافأةً له، أن ربنا سبحانه وتعالى يعينه على هذا القرار الخطير فيشرح صدره للإيمان، تجده يحب المساجد، يحب أهل الله، يحب المؤمنين، يحب القرآن، يحب السُنة النبوية، يحب أن يخدم الناس، يحب أن يعطي، يحب أن يتصدَّق، يحب أن يجلس مع مؤمن، ينزعج جداً لو التقى بكافر، ينزعج من مُزاح رخيص، ينزعج من موقف فيه قسوة، ينزعج من خيانة، ينزعج من كذب. وهو حينما اختار هذا الاختيار الراقي فربنا أعانه على نفسه، فشرح نفسه للإسلام، فهو على نور من ربِّه، الأمور واضحة جداً أمامه، واضحة وضوح الشَمس، كل شيء واضح؛ بشكله، بحجمه، بمكانه، بخطورته، بمفعوله، بفائدته، بمقدماته، بنهاياته، هذه نعمةٌ عظمى أن تكون مستنيراً، ما من نعمةٍ تفوق أن تكون مهتدياً بهدى الله عزَّ وجل، لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فاتتك الحقيقة العُظمى فاتك كل شيء.

الكفر والفسوق والعصيان تمجُّه النفس لأنه يتناقض مع طبيعتها وفطرتها

ربنا عزَّ وجل يتحدث عن قلب النفس، القلب البشري، حينما يختار الحق، حينما يختار الصدق، حينما يختار الوصول إلى الله، فربنا عزَّ وجل يشرح الله له صدره، والإنسان المؤمن بمجلس علم تجده يرتاح

ويقول لك: ارتحت كثيراً وانبسطت نفسي، كنت متضايقاً فارتحت وانشرحت، كنت في ضيقٍ ففرِّج عني، كنت في يأسٍ فأشرق في نفسي الأمل، كنت في حيرةٍ فاهتديت إلى ذاتي، كل هذا الذي يقوله المؤمنون حقٌ وصواب، لأن الله عزَّ وجل شرح الله صدورهم بالإسلام، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات:7]

الكفر والفسوق والعصيان تمجُّه النفس، لأنه يتناقض مع طبيعتها، يتناقض مع فطرتها، تصور من باب الأمثلة: غابة فيها حفر عميقة، فيها أشواك، فيها أفاعٍ، فيها عقارب، فيها أشجار مثمرة، فيها كل شيء ولا يوجد فيها ضوء، فلو سار الإنسان في هذه الغابة، قد يقع في الحفرة، قد تلدغه الأفعى، قد يصطدم بشجرة، قد تجرح أعضاءه الأشواك، فإذا كان مزوداً بمصباحٍ قوي الضوء، كل شيء واضح أمامه، صدقوني المثل ينطبق على حالة المؤمن تمام الانطباق:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

[سورة الأنفال:29]

الأمور واضحة، المؤمن لو أعطوه ملك الدنيا على أن يعصي الله فإنه لا يعصي الله، لأنه يعرف أن الدنيا لا قيمة لها، تنتهي بالموت وتبقى المعصية، إن الميِّت ترفرف روحه فوق النعش تقول: "يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرُم فأنفقته في حِلِّهِ وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي".

انقضاء الدنيا بكل ما فيها من لذائذ و متاعب وبقاء الموقف الذي اختاره الإنسان :

اللذائذ تنتهي وتبقى التبعات، والمتاعب تنتهي وتبقى الإكرامات، فحينما كنا بالمدرسة قبل عشرين أو ثلاثين عاماً كرَّموا الأوائل بحفلة ضخمة جداً، فقلت: هؤلاء الأوائل تعبوا أثناء العام الدراسي ونسوا تعبهم وبقي التكريم، تكريم، واحتفالات، وبعثات، وكل شيء، وحينما يعودون يحصلون على أعلى المناصب، هؤلاء انقضت متاعبهم وبقيت ثمار عملهم؛ والذين أمضوا العام الدراسي في الكَسَل، والسهرات الفارغة، والكلام السخيف، والمُتَع الرخيصة، هذه اللذائذ الأرضية انقضت وبقيت تبعة إهمالهم وكسلهم، وهكذا الدنيا، الدنيا تنقضي بكل ما فيها؛ بلذائذها وبمتاعبها، ويبقى الموقف المشَرِّف، ويبقى الموقف الذي فيه خزيٌ وعار، هذا أو ذاك:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

هذا الكون له خالق، فلا ينبغي أن تهتدي بغير الخالق، هناك اتجاهات، وتوجيهات، وكُتُب، ومبادئ، ونظريات، هذه كلها من صنع الفكر الذي أودعه الله في الإنسان، هذا الفكر طاقة هائلة جداً بإمكانها أن

تغيِّر الحقائق، أن تزيِّف، أن تحوِّر، أن تبدِّل، لكن نور الله عزَّ وجل حقٌ صُراح، فبطولتك أن تكون على نورٍ من ربك، ماشٍ بتوجيهات الصانع، ماشٍ بتعليمات صانع هذه الآلة، ليست لديك مشكلة، لا أعتقد أن إنساناً عنده جهاز معقد غال جداً - كمبيوتر - له صديق حميم تاجر، له جار صاحب محل تجاري صغير أو كبير، يمكن أن يسأل هؤلاء عن إصلاح هذا الكمبيوتر، يسأل الخبراء، يسأل خبير الشركة، مقر الصيانة، لأن هذه الشركة هي الجهة الوحيدة المخوَّلة بإصلاح هذا الجهاز، وأنت لك إله، فلتكن على نورٍ من ربك.

القلب البشري أصل النفس الإنسانية :

الإنسان شهوات، طموحات، حاجات، صراعات، فيه فكر، ونفس، ولديه حاجات أرضية، وشهوة جنسية، وعنده شهوة العلو في الأرض، و شهوة للطعام والشراب، مجموعة قيَم، ومبادئ، وشهوات، والإنسان كائن معقَّد جداً فهل يعقل أن يتحرَّك بلا هدى؟ بلا توجيهات الصانع الذي أبدعه؟!

(فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

هذا نموذج، قلبٌ بشري اتصل بالله، أولاً: اختار الحق، اختار ما عند الله، اختار الجنة، فاتصل بالله، فربنا عزَّ وجل تجلَّى على هذا القلب فشرحه، صار مُنشرح الصدر، متفائلاً، أنت؛ اجلس إلى رجلين؛ رجل مؤمن، ورجل غير مؤمن، تلمح في كلام المؤمن الثقة بالله، تلمح الطمأنينة، تلمح الرضى، تلمح المعنويَّات المرتفعة، تلمح الراحة، تلمح الاستسلام، تلمح التفويض، تلمح التوكُّل.

ثم اجلس إلى إنسان غير مؤمن؛ تلمح السُخط، التبرُّم، الشكوى، القلق، الخوف، القهر، الحرمان، فهذا القلب البشري الذي هو أصل النفس، إن أراد الحقيقة واتصل بالله عزَّ وجل، شرح الله له هذا القلب فأقبل على مجالس العلم، ارتاحت نفسه في بيوت الله، سكنت نفسه بتلاوة القرآن، اطمأنَّ قلبه بذِكر الله، أحبَّ المؤمنين، أحبهم حباً شديداً، عاش معهم، تبادل وإيَّاهم المشاعر الصادقة، تبادل وإيَّاهم التناصح، تبادل وإياهم المودَّة، المؤمن يعيش بين أحباب، بينما أهل الكفر، والله، يعيشون بين أعداء، هم كالذئاب، وكما سمعت عن الذئاب من أن أحدهم ينام بعينٍ ويبقي العين الأخرى مفتوحة خوفاً من ذئبٍ آخر ينقضُّ عليه، إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، مجتمع الكفر مجتمع الذئاب، بينهم عداوة تفوق حدّ الخيال.

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

[سورة الحشر:14]

أما المؤمنون فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

علامة إيمان الإنسان محبته الشديدة للمؤمنين :

علامة إيمانك محبتك الشديدة للمؤمنين، علامة إيمانك أنك تؤثرهم على نفسك ولو كان بك خصاصة، علامة إيمانك أنك تفرح إذا أصابهم الخير وكأنه أصابك أنت، تتألم أشد الألم إذا أصابهم مكروه وكأنَّه أصابك أنت، مسرَّاتهم مسرَّاتك، آلامهم آلامك، قضيَّتهم قضيَّتك، هذه علامة الإيمان، إذا كانت قضية أخيك المؤمن كقضيتك فأنت مؤمن، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة:188]

معناه أنّ هذا المال الذي هو لأخيك عزاه الله إليك فقال لك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

[سورة البقرة:188]

لأن حق الأخوة أن تحافظ على ماله وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله، أو عن العدوان عليه من باب أولى، فهذا شرح الصدر.

رأسمال الإنسان عند الله قلبه السليم ونواياه الطيِّبة ونفسه الطاهرة :

فأنا أقول لكم وأعني ما أقول: الذي يشدُّ المؤمن إلى الدين ليس فقط القناعات، وليس المبادئ فقط، لكن أيضاً هذه السكينة التي ينزلها الله على قلوب المؤمنين لتزيدهم إيماناً إلى إيمانهم، فهناك نقلة نوعية في حياة المؤمن قبل الإيمان وبعد الإيمان، قبل الإيمان ضياعٌ، وشقاء، وتعاسة، وقلق، وتشاؤم، وخوف، وقهر، وحرمان، وانحطاط في التفكير، وفي المطالب، وفي التصرفات، وبعد الإيمان سمو، وارتقاء، لذلك ورد في الحديث الشريف:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[أخرجه الطبراني عن حسين بن علي]

أنت بقلبك، والدليل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88-89]

قلب سليم، رأسمالك عند الله قلبك السليم، نواياك الطيِّبة، نفسك الطاهرة، حبك للآخرين، المؤمن متألِّق، أخلاقي، حيي، خجول، أديب، منصف، متواضع، هذا الإيمان، الإيمان صبغه بصبغة الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)

[سورة البقرة: 138]

هذه صبغة الله.

قلوب الكفار أشد قسوة من الحجر الصلد :

وبعد؛ فأما القلب الذي أراد الدنيا، أراد الشهوة فانقطع عن الله عزَّ وجل، فما صفته؟ قال:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

قلب كالحجر.

(وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

[سورة البقرة : 74]

فقلوب الكفار أشد قسوة من الحجر الصلد.

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

فالإيمان قضية كبيرة جداً، قلبك يكون مؤمناً، قلبك يكون مصطبغاً بالكمال الإلهي، قلبك يكون رحيماً، قلبك يكون متواضعاً منصفاً، هذه صفات النفس، لأن القلب مركز النفس كما قلت قبل قليل:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الحج: 179]

فالعقل عقل النفس للحقيقة، مركزه القلب، فهناك قلبان قلب الجسد، هذا الجسم الصنوبري، الذي له أذينان، وبطينان، ودسَّامات، وشريان أبهر، وشريان تاجي.. الخ، والثاني قلب النفس الذي أودعه الله في الصدر فقال:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة التغابن: 4]

علامة حياة المؤمن أنه يتألَّم لأخطائه :

إذاً عندنا قلبان، قلبٌ موصول وقلبٌ مقطوع، القلب المقطوع قاسٍ، مُتَصخِّر، قلب لا يرحم، قلبٌ لا يخاف الله، لا يرجو ما عند الله، قلبٌ جلمود، قلبٌ فيه كبرٌ، قلبٌ فيه ضغينةٌ، فيه حقدٌ، فيه حسدٌ، فيه رغبة أن يعيش وحده ويموت الآخرون، وقلب المؤمن قلبٌ رحيمٌ، طبعاً بالمقابلة، فيه كل الصفات العكسية لقلب الكافر.

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

أحياناً أخ كريم يكلمني قائلاً: أنا حينما تزلُّ قدمي أتألّم ألماً شديداً، فأقول له: بخٍ بخٍ هذا محض الإيمان، لأن المؤمن من سرَّته حسنته وساءته سيِّئته، قلبه حيّ، أحياناً الطبيب يجد النبض صفراً، يكون القلب هبط ضغطه إلى درجة لا يسمع خفق نبضته، فيطلب الطبيب مرآه ويضعها على فم المريض، فإذا انطبع على المرآة شيء من بخار الماء معنى هذا أن فيه نَفَساً، ويطلب أحياناً مصباحاً، يفتح عينه ويشعل المصباح في عينه، فإذا ضاقت القُزَحية معناه عند المريض فعلٌ مُنعكس، القزحية لم تضق، وبخار الماء لم يجده على المرآة، والنبض صفر، والتخطيط خط مستقيم، والدماغ مستقيم، فيقول لأهل الميِّت: عظَّم الله أجركم، انتهى الأمر.

فالدماغ إذا كان التخطيط خطاً مستقيم معناه مات الدماغ، وإذا كان تخطيط القلب مستقيماً فمعناه مات القلب، ووقف، ولا يوجد بخار ماء، ولا توجد أفعال منعكسة، المعنى أنه انتهى.

وقلب المؤمن فيه نبض، فيه حياة، علامة حياة المؤمن أنه يتألَّم لأخطائه، تسوؤه سيِّئَته، وتسرُّه حسنته، أما إذا فعل الإنسان السيئات، وافتخر بها، وتبجح بها، وذكرها للناس، فهذا انتهى، وقل له: عظَّم الله أجركم، لا أمل فيه إطلاقاً.

الإنسان حكيم قلبه :

لذلك:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود: 36]

الجماعة انتهوا، حينما لا تبالي بالذنب فالقلب ميِّت، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لَو لَم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَلَجَاءَ بقوم يُذْنِبُونَ))

[مُسلِمٌ عن أبي أيوب خالد بن يزيد]

هذا الحديث يحتاج إلى تفسير، على ظاهره المعنى خطير جداً، هذا القلب البشري إذا فعل ذنباً ولم يشعر بهذا الذنب إطلاقاً فمعنى هذا أنه ميت، أما إذا شعر بذنبه فهذا جيِّد، فهذه علامة الحياة، إذا شعر المذنب أنه أذنب، وندم، واستغفر، وتألم، فهذه علامة أن قلبه حي، فيه نبض، فيه حياة.

فيا أيها الأخوة،سيدنا عمر يقول: " تعهَّد قلبك ". والإنسان حكيم قلبه، يراقب قلبه؛ فيه حسد؟ فيه حقد؟ فيه ضغينة؟ فيه شرك؟ هل يعلّق الآمال على بني البشر؟ هل يرجو ما عند الله أم ما عند الناس؟ هل تؤلمه حسنات المؤمنين؟ أيحسدهم ؟ هل يفرح لخيرٍ أصابهم؟ يراقب نفسه لأنه يوم القيامة رأسمالك الوحيد قلبك الذي بين جنبيك، فإن كان هذا القلب سليماً فأنت من أهل الجنة، وإن كان مليئاً بالضغائن والحسد والكبر والبُعد والاستعلاء فالقضية خطيرة جداً.

أمراض الجسد تنتهي عند الموت لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت :

مشكلة أمراض الجسد تنتهي عند الموت، لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، ما دام لديه طعام، وشراب، وسهرات، وحفلات، ومسلسلات، ولقاءات، وسفر، ورحلات، وصفقات، وأرباح، واختلاط، ونساء كاسيات عاريات، فهو غارق بالشهوات، فإذا جاء مَلَكُ الموت - الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا - فكل أمراض القلب يبدأ فعلها الخطير حين نزول القَبر، لهذا فالقبر حفرةٌ من حفر النيران أو روضة من رياض الجنان.

(أفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ)

فأيضاً بعضهم قال: إن المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، سابح، فإذا دخل الأسواق تعكَّر، نساءٌ كاسيات عاريات، بضائع جميلة، الأسعار غالية، دخله محدود، فشرُّ البلاد أسواقها، بينما حين يدخل بيت الله عزَّ وجل، التوجيه إلى الله، توجيه للدار الآخرة، القِيَم، الحقائق، غذاء العقول، غذاء القلوب، تجليَّات الله عزَّ وجل، تحفهم الملائكة، تغشاهم الرحمة، تنزل على قلوبهم السكينة، ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده، فهذه اللقاءات في بيوت الله عزَّ وجل هذه رياض الجنان.

القلب المقطوع عن الله عزَّ وجل متكبِّر قاسٍ تعليقاته لاذعة :

القلب المقطوع عن الله متكبِّر، قاسٍ، تعليقاته لاذعة، يُحرج غيره، لا يعترف بالحق، يكيل بمكيالين دائماً، يعامل ابنه لا كما يعامل الصانع، أنا وقفت في محل تجاري ورأيت بعيني صاحب المحل عنده صانع وابنه يعملان في المحل فحمَّل الصانع أثواب قماش، أول ثوب، الثاني، الثالث، الرابع، قال له الصانع: معلمي أصبحت لا أقدر، قال له: أنت شاب، حَمَلَ ابنه حاجة ثقيلة فصاح به: احذر ظهرك يا بني. فنظرت ملياً فوجدته خلال دقائق يكيل بمكيالين، وغير المؤمن أيضاً معاملته مع ابنته غير معاملته مع كنته، أمه بخلاف حماته، والده ليس كعمه، والصانع ليس كابنه، يكيل دائماً بمكيالين، إذا باع يزيِّن البضاعة، إذا اشترى يذم البضاعة لينزِّل السِعر، إذا باع فالمديح زائد، فهذا شأن القلب المقطوع عن الله عزَّ وجل.

الويل لكل قلب متكبر جبار :

(فَوَيْلٌ)

ما معنى ويلٌ ؟ أي هلاك ينتظرهم، إذا راكب أحدهم مركبة، وكان الطريق منحدراً شديداً، وينتهي هذا المنحدر بمنعطف حاد، تسعون درجة، وهو نازل بسرعة كبيرة جداً، اكتشف أن المِكْبَح مُعَطَّل، ماذا يقول؟ يقولون لك: وَلوَلَ، أي أيقن بالهلاك، فكل قلب مقطوعٍ عن الله عزَّ وجل، كل قلبٍ متكبرٍ، كل قلبٍ جبَّارٍ، كل قلبٍ فيه الضغائن، فيه الحَسد، فيه البُعد، فيه القسوة، فيه الظُلم، هذا القلب الويل له، أي أن الهلاك ينتظره.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

بالمناسبة القلب القاسي الذي امتلأ شهواتٍ لا يحب ذكر الله، لا يحبُّ مجالس العلم، لا يحب تلاوة القرآن، لا يحب موعظةً، لاحظ إذا كانت هناك جلسة والحديث فيها عن التجارة، أو عن أمور أخرى تستمر الجلسة حتى الساعة الواحدة ليلاً، ولو أن أحدهم تكلم كلمة حق، لصار عندهم جميعاً مواعيد وارتباطات، عجيب حينما يبدأ ذكر الله عزَّ وجل تشمئزُّ من ذكر الله قلوب الكفار، لا يريدون سماعه لأن قلوبهم منكرة.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

أما المؤمن فإنه يستمع، يرحِّب، ينسى تأخر الوقت أو فواته لأنه منسجم، أما غير المؤمن فهو يتضايق.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

في ضلال مبين، ضلاله واضح للعيان وضوح الشمس، في ضلال بعيد.

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

أقول لكم هذه الحقيقة: من تشرَّفَ قلبه بمعرفة الله وتلاوة القرآن لا يستطيع أن يهبط مستواه الثقافي - فلا يقرأ مثلاً قصة من ثمانمئة صفحة، أحداثها كلها مفتعله وفارغة، وملخص كل هذه القصة كلمتان - فوقته أثمن، فإذا تشرَّف قلبك بمعرفة كتاب الله عزَّ وجل لا تستطيع أن تتعامل مع كتابٍ آخر، هذا كتاب الخالق، فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، مسافة كبيرة جداً، النَظم المُعجز، الأدب الجَم..

(أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

[سورة النساء: 43]

لا تخدش حياء أحد، مثلاً:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المعارج: 31]

إشارات ذكيَّة، نَظم مُعجز، كلام موجز، كلام دقيق مُحكم، الكلمات تختار بشكلٍ رائع جداً، أحسن الحديث، بينما لهو الحديث الكلام الفارغ الذي لا طائل منه.

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)

كتاب فيه تنويع، قصة، مشهد، خبر، تاريخ، آية كونية، حُكم فقهي، مثل، هذه كلها تُعطي النفس شوقاً وإقبالاً لعلة التنويع والإحكام.

آيات القرآن الكريم يشبه بعضها بعضاً في الحكمة والدقة والإعجاز والنظم :

قال:

(كِتَابًا مُتَشَابِهًا)

كل آياته يشبه بعضها بعضاً في الحكمة، وفي الدقة، وفي الإعجاز، وفي النظم، متشابهة، كل الآيات متشابهة لا تستطيع أن تفضِّل آية على آية، ولا مشهداً على مشهد، ولا سورة على سورة، ولا مقطعاً على مقطع، ولا جزءاً على جزءٍ، نظم متشابه، كله في منتهى الرَوْعَة ومنتهى الدقة، لكن المؤمن قد ينكشف له وجه الإعجاز في بعض الآيات، ولا ينكشف له وجه الإعجاز في آياتٍ أخرى، فإذا أقبل على هذه الآيات، لا لأن هذه أرقى؟ لا، فالكتاب في مستوى واحد من حيث الإتقان، الإعجاز، الدقة، الإحكام، البلاغة، الصواب.

هذه الآيات علامة للمؤمنين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، فالمؤمن إذا قرأ آيات الرحمة أو قرأ آيات العذاب يقشعر جلده، يقول لك: جلدي اقشعر، أو يقول لك: نَمَّلَ بدني أي شعر بصدمة انفعالية جعلت جلده يقشعر من شدة الخشوع، وأحياناً تأتي آيات البشارات؛ بشرى وراء بُشرى، وصف أهل الجنة وهم في الجنة يتنعمون، تطمئن النفس، إذاً هذا الكتاب متشابه، مثانٍ، أي فيه وصف أهل الجنة وأهل النار، الدنيا والآخرة، الخير والشر، والإيمان والكفر، الإخلاص والخيانة، أي فيه صور متناقضة أو مفاهيم متباينة لأهل الكفر والإيمان، أو أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرُها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

[سورة القدر: 1]

آية ثانية:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 67]

إذاً وأنت في ليلة القدر ينبغي أن تقدِّر الله حق قدره، من التقدير والتعظيم، فكل آيةٍ تنثني على أختها فتفسرها، هذا معنى كلمة "متشابهاً"، هذا معنى " مثاني ".

رحمة الله عزَّ وجل هي غاية الغايات :

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

أي إنّ القلوب لتصدأ قيل: وما جلاؤها؟ قال: ذكر الله.

ذكر الله يطمئن القلب، والإنسان سعادته بقلبه، قد يتوافر له كل شيء ويفقد رحمة الله عزَّ وجل فلا يجد شيئاً، وقد يفقد كل شيء ويجد رحمة الله عزَّ وجل فلا يشعر أنه فقد شيئاً، فرحمة الله عزَّ وجل هي غاية الغايات، قال:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

هذا العقل المستنير، والقلب المطمئن، والجسد الليِّن في الطاعات، كله طاعات، عينه تغض عن محارم الله، وأذنه لا تستمع إلا إلى الحق، ولسانه لا ينطق إلا بذكر الله، ويده لخدمة الناس لا للبطش، ورجله ليأتي إلى المساجد، فأعضاء الإنسان ليِّنة في الطاعات.

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

أي أنَّ هذا الهدى ليس مِلك أحد، ولكن كل واحدٍ بإمكانه أن يصل إليه، ففي العصور الوسطى كان رجال الدين المسيحي يبيعون صكوك الغفران، ويبيعون قِطَعاً في الجَنَّة، بأوراق تسجيل رسمية (طابو)، فجاءهم رجلٌ خبيث جداً أراد أن يشتري منهم النار، استغربوا ما هذه الصفقة؟! فما شأنك بها؟ هذه رغبتي، فاشتراها بثمنٍ بخس، الجنة كانت غالية جداً يشترونها شراءً بالمال، بعد أن اشتراها أذاع بين الناس: لا تشتروا شيئاً في الجنة فأنا اشتريت النار وأغلقتها. فاضطر الذين باعوه النار أن يشتروها منه ثانية بأعلى الأثمان - وقد وقعت هذه القصة فعلاً - بعد أن باعوه جهنم اشتروها منه ثانية، فقد أوقف لهم البيع كله.

فهذا الهدى ليس مِلك أحد، إنه من عند الله يعطيه من سأله، قال:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

من يشاء من عباده، كل من شاء الهدى ودفع ثمنه وصل إليه:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ)

[سورة المائدة: 12]

سلعة الله هي جنته ورحمته، ألا إن سلعة الله غالية.

رحمة الله عزَّ وجل لها ثمن ثمنها :

1 ـ تقوى الله :

رحمة الله عزَّ وجل لها ثمن، ثمنها تقوى الله..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الحجرات: 10]

هذا أول ثمن.

2 ـ طاعة الله و الرسول :

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة آل عمران: 132]

ثاني ثمن.

3 ـ إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة النور : 56]

ثالث ثمن.

4 ـ الإنصات عند سماع القرآن الكريم :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الأعراف: 204]

رابع ثمن.

5 ـ الإحسان :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الأعراف: 56]

خامس ثمن.... الخ، أثمان واضحة.

تفاضل العباد عند الله عز وجل بطاعتهم له :

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال؟

((اللهم إني أسألك .. موجبات رحمتك))

[الطبراني عن شداد بن أوس]

الموجبات، اطلب الموجبات، لو فرضنا " أب مَلِك "، طلب منه ابنه - ضربت مرة هذا المثل- طائرة خاصة، فقدمها له، فالقضية سهلة جداً، هذا يخت في البحر، هذا يخت، قصر هذا قصر، لكن بعد ذلك طلب هذا الابن أن يكون أستاذاً في الجامعة فقال له: هذه ليست لي، هذه عليك، فهذا الابن عليه أن يطلب موجبات هذه المرتبة العلمية، موجباتها يدخل الجامعة، موجباتها الكُتب، موجباتها الأساتذة، فأن تسأل رحمة الله بلا ثمن فهذا سؤال فيه حُمق، النبي عليه الصلاة والسلام سأل رحمة الله لكن سأل معها موجباتها، فالأمر بمنتهى البساطة وفيه وضوح، علاقتك مع الله تشبه القوانين، أتحب أن تلقى الله عزَّ وجل؟ أن تتصل به؟ فالقضية سهلة كثيراً:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

تحب أن ترتاح نفسك؟ القضية سهلة:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

تحب حياة طيبة؟

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

اقرأ القرآن تجده كله قوانين، كل شيء له ثمن، فأنت ادفع الثمن وخُذ النتيجة، لا يوجد زيد وعُبيد، كلنا عباد الله عزَّ وجل، الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عربيٍ وأعجمي إلا بالتقوى..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

لا يوجد تمايز إطلاقاً إلا بالعمل، فكلنا عباد الله، نتفاضل عند الله بطاعتنا له.

الهدى مبذول لكل الناس :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

أيْ هذا الهدى، قلب ليِّن، عقل مستنير، جسد ليِّن بالطاعة، نفس متفائلة، واثق من الله، راضٍ عن الله، متوكِّل على الله، مستسلم لأمر الله، موحِّد، أعصابه مرتاحة، ليس عنده أية مشكلة، هذا الهُدى بمجموعه، الجانب الفكري، والنفسي، والجسمي، والاجتماعي، والعلاقات، والمهن، والزواج..

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

فالهدى مبذولٌ لكم يا عبادي، فأحياناً يكون مثلاً هناك بثٌ إذاعي، كل واحد أحضر جهاز استقبال يسمع الإذاعة، فاشترِ الجهاز واسمع فالبث موجود للكل، مبذول للكل، ما عليك إلا أن تقتني جهاز استقبال فتسمع الأخبار أو القرآن، البث مستمر، فالهدى مبذول، أما أن يقول: أخي حتى يهدينا الله، كلام مضحك، الله هداك وانتهى الأمر، الهدى مستمر، عليك أنت أن تستقبل الهدى، الهدى مستمر، ألا تصلي؟ الله لم يكتب لي الهدى بعد، من قال لك ذلك؟ هذا كلام شيطاني، الهدى مبذول، واتقوا الله ويعلمكم الله، عليك أن تستقبل الهدى، ولكنك تحتاج إلى جهاز الاستقبال، فتحتاج إلى قلب، قلب فارغ من الشهوات، ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه، قلب فارغ من الشهوات ليستقبل الهدى من الله عزَّ وجل.

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

الإنسان المعرض عن الله إنسان مضل ضلالاً جزائياً مبنياً على ضلال اختياري :

فإذا رأى الله عزَّ وجل إنساناً معرضاً عنه، مصراً على الدنيا، هذا الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، فهذا ماله من هاد، هذا منتهٍ، أحياناً يرى المؤمن أشخاصاً بعيدين جداً عن الله عزَّ وجل، لا يبالي أحدهم من أين يكسب المال؛ من حرام؟ من حلال؟ همه كله أن يجمع المال، ظُلم، عدل، قسوة، عدوان، احتيال، كيفما كان الحال فهو يريد المال، فهذا ميت منتهٍ، لا خير فيه إطلاقاً، فالذي لا يبالي أطاع ربه أم عصاه، أغضب ربه أم لم يغضبه، كله عنده سيَّان، هذا إنسان ميت.

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

من أصرّ على الدنيا و مالها الحرام يتقي نار جهنم يوم القيامة بوجهه :

الآن تطالعنا آية مؤلمة جداً، الإنسان أحياناً يُدْفَع إلى النار، ماذا يفعل؟ فلو أن مدفأة مشتعلة ومتوهِّجة وإنسان دُفِعَ إليها، تجده يتقي النار بيديه، أخف من حرق الوَجه، أما إذا كان مقيِّد اليدين ودُفع إلى النار، فبماذا يتَّقيها؟ بأكرم أعضائه وهو وجهه، إنسان يتقي النار بوجهه؟!! وإذا ضرب فإنه يتقي الضربة بيده، أحياناً بكتفه، أما إذا اتقى الضربة بوجهه فهذه حالة مؤلمة جداً، قال: هؤلاء الذين أصروا على الدنيا، وأصروا على مالها الحرام، وانقطعوا عن الله عزَّ وجل، وأعرضوا عن طلب العلم، وابتعدوا عن الحق، هؤلاء قال تعالى في وضعهم:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ)

لأن يديه مغلولتان، الأغلال في يديه وفي عنقه، يُرمى في النار، يتقي هذا الوهج وذاك الجَمْرِ بوجهه.

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

أحياناً تجد شخصاً يكسب مالاً حراماً ويفتخر ويقول: دَبَّرت حالي، يظن حاله ذكياً، هذا مُنتهى الغباء، منتهى الحمق، منتهى الجهل، تأتي ساعة يقال له: ذُق جزاء ما كنت تكسب:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

[سورة التوبة: 35]

كلّ شي له ثمن :

فهنا:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

تصور حالك، فأنت في كل حركاتك وسكناتك مراقب مصوَّر، صورة وصوت، ثم اقتيد الإنسان ليحاكم، عرضوا عليه الشريط، لماذا فعلت كذا؟ هذه ممنوعة، لماذا فعلت كذا؟ ؟ حدثونا عن رجل من الأغنياء، هو غني كبير وجاءته المَنِيَّة، أولاده خافوا عليه من أنكر ونكير - وهي قصة رمزية- طلبوا من شخص فقير جداً أن ينام مع والدهم ليلة في القبر لعله يؤنس وحشته وأعطوه مبلغاً كبيراً، فحينما قدم الملكان لهذا القبر رأيا رجلين، غريب هذا الموضوع، يوجد اثنان، هذا سمع حركة فخاف، فحرَّك رجله، فقالوا: هذا حي وليس ميتاً، نبدأ به، وكان يلف نفسه بكيس من الخيش وقد ربطه على جسده بحبل، فسألاه: من أين هذه الحبل؟ قال لهم: من البستان، كيف دخلت للبستان؟ نزلوا فيه ضرباً إلى أن

أرهقوه من الضرب، كيف دخل للبستان بدون إذن ليحضر هذا الحبل؟ فلما خرج من القبر في اليوم الثاني قال لهم: أعان الله والدكم إذا كان كل ماله حراماً.

فكل شيء له ثمن، الذي يقبض مالاً حراماً، يخدع الناس، يغتصب بيوتاً، يغتصب أراض، يكذب، يحتال، يغش، يبيع أشياء كلها من نوع سيئ جداً بمواصفات عالية، يلعب بالحسابات حسب هواه ويدعي بهذا العمل بأنه ذكي، فهذا كله محرم بالإسلام، وتقريباً أكثر البيع غش، والتاجر يرى نفسه ذكياً لأنه قدر أن يجمع ثروة طالة، وأنشأ بناية، واشترى سيارة، وضحكته ملء فيه، يظن نفسه عمل عملاً عظيماً، فانظر:

(ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

انتبه، لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن أربع؛ عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟ أما المال فمن أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ الله عزَّ وجل يجمع العباد يوم القيامة فيقول لأحدهم: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا ربي أنفقته على كل محتاجٍ ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله: يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك، ويقول لعبدٍ آخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا ربي لم أنفقه على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي. فيقول الله عزَّ وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزَّاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم.

على الإنسان أن يحرر دخله ويضبط جوارحه و يستقيم في سلوكه فيرتاح ويسعد :

إذا إنسان جمع مالاً حلالاً وأطاع الله عزَّ وجل، فالله عزَّ وجل يكرمه بأن يحفظ له أولاده من بعده، فهذه الآية:

(ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

قال عليه الصلاة والسلام لرجل: قل آمنت بالله ثم استقم ". قال: " أريد أخف من ذلك ". فقال النبي الكريم: " إذاً فاستعد للبلاء ".

فأنا أتمنى وأرجو الله عزَّ وجل ألا يفرح الإنسان بكسب حرام، لا يفرح بشيء ليس له، فهذا الذي يجمع الأموال حراماً تترجم مصيره الآية التالية:

(إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)

[سورة النساء: 10]

فالإنسان عليه أن يحرر دخله، ويضبط أعضاءه، وجوارحه، ويستقيم في سلوكه وعمله فيرتاح عندئذٍ ويسعد.

من أساء و انقطع عن الله عز وجل يأتيه العذاب من حيث لا يشعر :

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

فالخزي في الدنيا عذاب كبير، الإنسان يعيش بكرامته، يعيش بمكانته، يعيش بحسن سيرته بين الناس، يعيش بثناء الناس عليه، أما إذا فُضِح، ومزَّقته الألسنة، ونهشته الأفواه، وأصبح في الحضيض، في الوحل، في مزبلة التاريخ، فأمره والله مشكلة، المشاكل مصيبة في الدنيا قبل الآخرة، فهؤلاء الذين أساؤوا وانقطعوا عن الله عزَّ وجل أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، يتفاجأ من جهة أمنه، ويؤتى الحذر من مأمنه.

(فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 27-31، الأمثال في القرآن الكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-04-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى ذَكَرَ قصصاً كثيرة في القرآن الكريم ليتذكر الناس :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الحادي عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة والعشرين من هذه السورة، والذي يليها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

من معاني هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ذَكَرَ قصصاً كثيرة، فذكر نبياً كريماً له امرأةٌ كافرة، وذكر امرأةً في أعلى مستويات الإيمان صِدِّيقَة، وزوجها كافر، وذكر نبياً كريماً وله ولدٌ كافر، وذكر ابناً نبياً كريماً وله أبٌ كافر، فكل من يدَّعي أن بيئته هي سبب تقصيره، وأن وراثته التي ورثها عن أبويه هي سبب تقصيره فهو واهم، وإذا ادَّعت الزوجة أن زوجها لا يريد الدين وهو سبب تقصيرها فهي كاذبة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

سيدنا يوسف كان شاباً وسيم الطلعة، وكان في بلدٍ بعيدٍ عن بلده، وفي قصر عزيز مصر، وراودته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال، هو شابٌ أعزب، وسيم الطلعة، في قصرٍ منيف، والتي أمرته سيدته، وليس من صالحها أن يفشو الخَبَر، وهناك أكثر من عشرة دوافع تدفعه إلى أن يقترف هذه المعصية، ومع ذلك قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

كلّ حجَّةٍ مزعومةٍ يزعُمها الإنسان لتكون مبرِّراً له في تقصيره أبطلها الله جلَّ جلاله :

إذاً هؤلاء الأنبياء، وهؤلاء الصديقون بأوضاع مختلفة، لو أن إنساناً مَلَكَ القوَّة في بلدةٍ معيَّنة، وقال: أنا طبيعة عملي لا تسمح لي أن أكون مع المؤمنين. نقول له: سليمان الحكيم أوتي ملكاً لم يؤته أحدٌ من قبله ولا من بعده، ومع ذلك كان نبياً صالحاً، فالفقر ليس حجَّة، والأب الكافر ليس حُجَّة، والمرأة الكافرة

ليست حجَّة، والابن الفاسد ليس حجة، كل الحجج المزيَّفة التي يزعمها الإنسان عائقاً بينه وبين الإيمان ربنا جلَّ جلاله أبطلها بأمثلة كثيرةٍ وردت في القرآن الكريم.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

سيدنا إبراهيم نشأ في بيئةٍ كافرة، تعبد الأصنام، ومع ذلك..

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ)

[سورة الأنعام: 76]

والقصَّة عندكم معروفة إلى أن قال:

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة الأنعام: 79]

فكل حجَّةٍ مزعومةٍ يزعُمُها الإنسان لتكون مبرِّراً له في تقصيره أبطلها الله جلَّ جلاله، هذا مما نفهمه من قوله تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

المثل أسلوبٌ تربوي فعال :

معنى آخر للآية السابقة هو أن الله سبحانه وتعالى ضرب أمثلة، والمثل أسلوبٌ تربوي، والأمثال أنواع، هناك أسلوب التقرير، وهناك أسلوب التمثيل، وهناك أسلوب الصورة، وهناك أسلوب القصَّة، وهناك أسلوب الحوار، وهناك أسلوب الوَصف، وهناك أسلوب المَثَل، فالمثل الذي يضربه القرآن رائعٌ جداً، ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ما أبلغ هذا الكلام، ضع على ظهر حمارٍ كتاباً في الفيزياء، أو في الرياضيات، وبعد حينٍ اسأله عن معادلةٍ، بماذا يجيبك؟ فالذي يُحَمَّل الكتاب ولا يفهمه ولا يعمل به مثله كمثل هذه الدابَّة، ربنا سبحانه وتعالى ضرب مثلاً للكفَّار، قال:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

[سورة المنافقون: 4]

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 44]

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

[سورة الأعراف: 176]

أسلوب المثل أسلوبٌ رائعٌ جداً استخدمه القرآن الكريم واستخدمه النبي الكريم

في القرآن الكريم أمثلةٌ كثيرةٌ جداً، وحقيقة المثل أن المعاني المجرَّدة الدقيقة، حينما تجسَّد بمثلٍ حِسِّي تصبح واضحة كقول الشاعر:

من يهن يسهُل الهوان علـيه   ما لجــرح بمـيتٍ إيلامُ

***

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حســـود

كيف؟

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العودِ

***

فأسلوب المثل أن تجسِّد المعاني المجرَّدة بأمثلةٍ حسيَّةٍ، هذا أسلوبٌ رائعٌ جداً وقد استخدمه القرآن الكريم، واستخدمه النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديثه الكثيرة، وإذا أردت أن تدعو إلى الله عزَّ وجل فاعتمد هذا الأسلوب لأنه أسلوبٌ قرآني، وأسلوبٌ نبوي، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأرْض فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأيس مِنْهَا، فَأتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أيسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

وقد نطق بكلمة الكفر، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لله أشدّ فرحًا بتوبةِ عبدِه من أحدكم براحلتِه))

[مسلم عن أنس بن مالك]

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ الآية تحتمل معنيين :

1- أن في القرآن الكريم نماذج بشريَّة نجد مثيلها في كل عصر :

نقل الحقائق اختصاص وفن عظيم، تعلَّم من كتاب الله كيف ينقُل الحقائق للناس، مرَّةً بالتقرير، مرَّةً بالتصوير، مرَّةً بالحوار، مرَّةً بالوَصف، مرَّةً بالمشهد الكامل، مرَّةً بالقصَّة، مرَّةً بالمَثَل، فالآية تحتمل معنيين:

الأول: أن في القرآن الكريم نماذج بشريَّة نجد مثيلها في كل عصر، وفي كل مصر، لو زعمت امرأةٌ أنه لولا زوجها البعيد عن الدين لكانت امرأةً صالحة، نقول لها: أنتِ أم امرأة فرعون؟!

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

والذي له زوجة سيئة جداً ولها طلباتٌ غير شرعيَّة، فإذا استجاب لها، فالحجَّة قائمةٌ عليه، لقوله تعالى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

[سورة التحريم: 10]

لو أن إنساناً صالحاً، تقياً، نقياً، ورعاً، وابنه فاجر فاسد، لا ينبغي أن نتهم الأب من خلال الابن، الله عزَّ وجل ضرب مثلاً سيدنا نوح:

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ*قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

[سورة هود: 45-46]

وقد يكون الابن عظيماً، مستقيماً، طاهراً، وأبوه كافر مشرك، مثله في القرآن سيدنا إبراهيم:

(يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)

[سورة مريم: 43]

الولد أفضل من أبيه، فكم من ابن فاق والده، وكم من تلميذ سبق أستاذه، إذاً الله عزَّ وجل ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، جميع النماذج البشريَّة قد وردت في القرآن الكريم، سيدنا سليمان أُوتي الملك ومع ذلك كان نبياً عظيماً، ما منعه ملكه من أن يكون في أعلى درجات الإيمان والقرب من الله عزَّ وجل.

إذاً الحُجَّة التي يزعُمها المقصِّرون والعصاة وما أكثرها مرة، البيئة، والظروف، والمعطيات، والواقع السيئ، هي السبب، وتارة أخرى الفساد العام، والبلوى العامَّة، يتخذ قساوة والده ذريعة، وضعفه أمام زوجته حجة، هذه كلُّها حججٌ باطلةٌ عند الله عزَّ وجل، لأن الله جلَّ جلاله ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، هذا المعنى الأول.

2 ـ الله تعالى قرَّب إلينا المعاني الدقيقة المجرَّدة بأمثلةٍ حسيَّةٍ واضحة :

المعنى الثاني: أنه قرَّب إلينا المعاني الدقيقة المجرَّدة بأمثلةٍ حسيَّةٍ واضحة، فإذا أردت أن تدعو إلى الله عزَّ وجل فاعتمد أسلوب المثل الذي اعتمده القرآن الكريم كأسلوبٍ تربوي رائع التأثير، شديد الفعل في نفس المُستمع:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

يتمتَّعون بحريَّة إرادة، وحريَّة اختيار، وحرية كَسْب، ولا أحد يستطيع أن يجبرهم، أنت حينما تعتقد أنك مجبرٌ على أفعالك فقد انحرفت عقيدتك انحرافاً خطيراً، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إذا اعتقدت لثانيةٍ واحدة أنك مجبرٌ على أعمالك التكليفيَّة فقد ابتعدت عن العقيدة الصحيحة:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

حملت الأمانة، ومن لوازم حمل الأمانة أن الله أعطاك حريَّة الاختيار، وحريَّة الكسب، وأنك إذا ادَّعيت أنك مسير فهذا خطأٌ في فهمك، وانحرافٌ في عقيدتك، وهذا الادعاء لن ينجيك من الحساب والمسؤوليَّة يوم القيامة..

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

المستقيم حُجَّة على غير المستقيم، العفيف حجَّة على غير العفيف، المُخلص حجَّة على غير المخلص، فلماذا فلان استقام وأنت لم تستقم؟ لماذا فلان كان عفيفاً وأنت لم تَعُفَّ عن محارم الله؟ لماذا فلان كان مخلصاً وأنت لم تخلص؟ فربنا عزَّ وجل أعطانا حريَّة الاختيار، وأودع فينا الشهوات لنرقى بها صابرين وشاكرين إلى ربِّ الأرض والسماوات.

الله عز وجل اختار اللغة العربيَّة لأنها تتمتَّع بأعلى درجات الدِقَّة والرُقِيّ :

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

معنى عربي، يقال في اللغة العربيَّة: أعرب عن رأيه، أي بيَّن رأيه، فالقرآن العربي واسع البيان، وما اختار الله هذه اللغة العربيَّة إلا لأنها تتمتَّع بأعلى درجات الدِقَّة والرُقِيّ، ليس هذا في نظر العرب بل في نظر خصومهم، درسنا مادَّة فقه اللغة في الجامعة، وفقه اللغة يتحدَّث فيها أهل اختصاصها عن أقوال الأجانب في قيمة هذه اللغة العربيَّة التي أكرمنا الله بها، لذلك سيدنا عمر يقول: " تعلَّموا العربيَّة فإنَّها من الدين ".

فاللغة العربيَّة دقيقةٌ جداً في التعبير، أضرب مثلاً فعل نَظَرَ، هذا الفعل في اللغة العربيَّة له مفرداتٌ كثيرة، وكل لفظةٍ من ألفاظ النظر تعني النظر مع حالةٍ خاصَّة، وقلّما نجد هذه المعاني الدقيقة في بقيَّة اللغات الأخرى، فمثلاً إذا ظهر الشيء واختفى تقول: لاحَ، وإذا نظر وأعرض تقول: لَمَحَ، وإذا نظر وتمطى تقول: استشرفَ، وإذا نظر ودقّق بيديه تقول: استشفَّ، وإذا نظر مسروراً تقول: حَدَّجَ، إذا نظر مع المحبَّة تقول: حدَّج، وفي الحديث الشريف:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[فقه اللغة عن ابن مسعود]

وإذا نظر مع المتعة تقول: رَنَا، وإذا نظر مع الدهشة تقول: حَمْلَقَ، حتَّى ظهر حملاق العين، وتقول: بَحْلَقَ، وتقول: حَدَّقَ، وإذا نظر بعينه وأدرك بقلبه تقول: رأى، الرؤية تعني العلم، رأيت العلم نافعاً، وإذا نظر مع الخوف تقول: شَخَصَ..

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الأنبياء: 97]

طبعاً ليس هناك مجالٌ في هذه العُجالة أن نتحدَّث عن خصائص العربيَّة التي اختارها الله لغةً لكلامه..

(قُرْآَنًا عَرَبِيًّا)

أي واسع البيان، ولن يستطيع الإنسان أن يضع يده على دقائق النَظْمِ القرآني إلا إذا أتقن هذه اللغة العربيَّة، وعرف كيف تستعمل الأدوات، وكيف يكون التعبير، وكيف يكون الإيجاز والإطناب والاعتدال بينهما، وكيف يكون التصوير، وكيف يكون ضربُ المثل على كلٍ نظم القرآن، علمٌ قائمٌ بذاته، نظم القرآن، كيف نُظِمَت كلمات القرآن، وكيف صيغت جُمَلَهُ، وكيف جاءت أمثلته، وكيف وردت قصصه، فهناك دراسات مطوَّلة جداً عن أسلوب القرآن البلاغي.

على الإنسان أن يفهم القرآن الكريم في ضوء قواعد اللغة العربيَّة :

على كلٍّ ربنا عزَّ وجل قال:

(قُرْآَنًا عَرَبِيًّا)

وكلمة عربي نستنبط منها أن هذا القرآن لا يُفْهَمُ إلا إذا أتقنَّا هذه اللُّغة العربيَّة، أن نفهم القرآن على مزاجنا أو وفق أهوائنا هذا ليس من فهم القرآن في شيء، لابدَّ من أن نفهمه في ضوء قواعد اللغة العربيَّة، لذلك علماء العقيدة اشترطوا على المفسِّر أن يكون متقناً للغة العربيَّة، مسافاتٌ كبيرةٌ جداً بين كلمة وأخرى وحرف وآخر، فمثلاً: ربنا جلَّ جلاله يقول:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

[سورة هود: 6]

هذا قرآن، فكلمة دابَّة جاءت نكرة، ولم تأتِ معرفة، ما نوع هذا التنكير؟ إنه تنكير الشمول، أي أية دابةٍ على وجه الأرض على الله رزقها، لو قلنا: الدواب، قد نقصد الأهلية، الدواب البريَّة، الدواب البحريَّة، أما إذا قلنا: ما من دابَّةٍ، فنحن نكَّرناها تنكير الشمول، وأما كلمة من فتفيد استغراق أفراد النوع، فإذا دخلت إلى صف وقلت للطلاَّب: كلكم له عندي جائزة، شيء، فإذا غاب اثنان فإنهما لا يستحقَّان الجائزة، لأنك خاطبت الحاضرين، أما إذا قلت: ما من طالبٍ في هذا الصف إلا وله عندي جائزة، هذه المِن تفيد استغراق أفراد النوع، إذاً:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

نملةٌ على صخرةٍ صمَّاء، في ليلةٍ ظلماء على الله رزقها، وَعْلٌ في قمَّة جبال همالايا، في القمَّة هناك ينابيع، والشيء الذي يلفت النظر أنك إذا رأيت نبع ماءٍ في قمم الجبال، فلابدَّ من أن يكون مستودعه في جبلٍ أعلى، ولابدَّ من تمديداتٍ تحت الأرض،

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

فهمنا دابَّةٍ ومِن، أما

(ما من دابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلا)

النفي والاستثناء يفيدُ الحصر والقصر، أي الدواب على الله رزقها، ولا يعني أنه على الله وحده، على الله رزقها وعلى غير الله رزقها، أما إذا قلنا: ما من دابَّةٍ إلا على الله رزقها، صار هنا معنى الحصر، فمعنى الشمول، ومعنى استغراق أفراد النوع، ومعنى الحصر والقصر، لو قلنا: ما من دابةٍ إلا الله يرزقها، ليس على وجه الإلزام أن يرزقها أو لا يرزقها، أما

(إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

صار هناك معنى الإلزام، ربنا جلَّ جلاله ألزم نفسه برزق العباد، هذا القرآن نظمٌ ما بعده نظم، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات: 10]

تركيب اسمي، والتركيب الاسمي يفيد الاستقرار والاستمرار، بينما التركيب الفعلي يفيد الحدوث والانقطاع، تقول: دخل الطالب، دخل وانتهى دخوله، أما الطالب خلوقٌ، التركيب الاسمي يفيد الاستمرار والاستقرار، فمن صفات المؤمنين الثابتة أنهم إخوة؛ متحابون، متوادون، متناصحون، وكما قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

أما كلمة

(إِنَّمَا)

فدقيقة جداً، إنما تفيد القصر، أي ما لم تشعر بهذا الانتماء لمجموع المؤمنين فلست مؤمناً، ولم يقل: إنما المؤمنون إخوانٌ، الإخوان هم الأصدقاء، أما الأخوة من كانوا من أبٍ أو أم أو من كليهما، فربنا عزَّ وجل رفع مستوى الأخوة الإيمانيَّة إلى أعلى أنواع الأخوة وهي أخوَّة النسب، ومن نظم القرآن الدقيق قوله:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة: 188]

لا تأكلوا أموالكم، لو نقلت مبلغاً من هذا الجيب إلى هذا الجيب ماذا فعلت؟ هل المقصود بأموالكم أموالكم فعلاً؟ لا، المقصود بها أموال إخوانكم، لماذا قال الله:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

قال علماء التفسير: سمَّى الله أموال إخوانكم المؤمنين أموالكم من زاوية وجوب المحافظة عليها فقط، هي ليست لكم، هذا مال أخيك، لكن من زاوية وجوب المحافظة على مال أخيك كأنه مالُك، أحياناً تعطي مركبتك لإنسان وتقول له: أرجوك اجعلها مركبتك. بمعنى حافظ عليها، اعتن بها، لا تجهدها،

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

فأنت منهيٌ عن أن تأكل مال أخيك، إذا كان هذا المال مالك من زاوية وجوب المحافظة عليه، فلأن تمتنع عن أكله باطلاً من باب أولى.

إعجاز القرآن البلاغي :

والله لو مضيت في أن نقف على دقائق نَظْمِ القرآن الكريم ساعاتٍ طويلة، وأشهراً عديدة، وسنواتٍ مديدة، والله لا ينتهي الأمر، لأنه:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

[سورة الكهف: 109]

يجب أن نعلم أنه إذا درست قواعد اللغة العربيَّة، ووضعت يدك على إعجاز القرآن البلاغي والنَظمي، لشعرت أن هذا الكلام ليس كلام البشر، إنه كلام خالق البشر، لذلك قال النبي الكريم:

((فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الترمذي عن أبي سعيد]

(قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)

أحياناً الأفعال باللغة العربيَّة تكون لازمة، لازمة كأن تقول: نام الطفل، أو غضب أخي، هذا فعل يكتفي بفاعله، وهناك أفعال متعديَّة تحتاج إلى مفعول به، و أفعال ليست لازمة ولا متعديِّة إنها قاصرة، أي لا تتعدَّى إلا بأداة، تقول: نظرت إلى، بحثت في، عجبت مِن، هناك أفعال لابدَّ لها من أدوات، في القرآن الكريم الذي يلفت النظر أن بعض الأفعال تستعمل معها أدواتٌ غير أدواتها، لعلَّةٍ بلاغيَّةٍ أرادها الله عزَّ وجل كقوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)

[سورة النساء: 2]

هنا أكل أعطاه القرآن معنى ضَمَّ، ضمَّ المال إليه فكأنه أكله بالباطل، على كلٍّ المجال لا يتَّسع للإفاضة في الحديث عن إعجاز القرآن البلاغي، هذا كلُّه ينطوي بكلمة:

(قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)

معنى ذلك كلام غير الله عزَّ وجل ذو عِوَج، لا يستقيم أحياناً، ليس فيه دقَّة، ليس فيه عُمق، ليس فيه مصداقيَّة تقابل الواقع، لابدَّ من خللٍ، من اضطراب، لذلك قال الله عزَّ وجل:

(الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة: 1-2]

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

كلام القرآن المُعْجِز يدفع الإنسان إلى طاعة الله عزَّ وجل :

لعلَّ هذا الكلام المُعْجِز يدفعهم إلى طاعة الله عزَّ وجل، لعلَّ هذا البيان الدقيق، العميق، الواضح، المُعجز يدفعهم إلى طاعة الله عزَّ وجل:

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

فما من كتابٍ من دون استثناء من تأليف البشر إلا وتقف له على خَلَل، أو على عِوَج، أو على نَقْص، أبداً، قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

القرآن غير ذي عِوَج، غير ذي خَلل، من هذه الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم مثل الموحِّد ومثل المُشرك، قال:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

فأحياناً يموت الأب ويخلِّف أولاداً ولهم معملٌ ضخم، هؤلاء الأولاد متشاكسون، متنافسون، متباغضون، وعندهم موظَّفٌ يعمل في المعمل على عهد أبيهم، فكلُّ أخٍ من هؤلاء يعطيه أمراً مناقضاً للأمر الثاني، هو يتمزَّق إن أرضى زيداً أغضب عُبيداً، وإن لبَّى فلاناً قصَّر مع فلان، وإن انحاز إلى هؤلاء أثار حفيظة هؤلاء، فماذا يفعل؟ حياته كلُّها اضطرابٌ، وتمزُّقٌ، وصراعٌ، وحيرةٌ.

تصوَّر إنساناً في أعلى درجات الكمال عنده موظَّفٌ مخلص، يعيشان عمراً مديداً في وئامٍ، ووفاقٍ، وراحةٍ نفسيَّةٍ، وسرورٍ، وطمأنينةٍ، وانسيابٍ، وانسجامٍ، أمر واحد.

من أسباب سعادة المؤمن أن له أمراً واحداً ينصاع له وهو أمر الله عزَّ وجل :

لذلك أحد أسباب سعادة المؤمن له مرجع واحد، له أمر واحد ينصاع له وهو أمر الله عزَّ وجل، لا يخاف أحداً، لا يخاف إلا من الله، لا يرجو إلا الله، لا يخشى إلا الله، لا يعقِدُ الأمل إلا على الله، لا يخاف في الله لومة لائم، لا تحزنه الدنيا، حسبه الله ونِعْمَ الوكيل، لذلك حياة المؤمن حياة سعيدة ليس لأنه غني، قد يكون المؤمن فقيراً، ليس لأنه صحيح قد يكون مريضاً، ولكن سلامته النفسيَّة، مشاعره الداخليَّة مشاعر مريحة جداً، لأنه لا يرى مع الله أحداً، لا يرى مع الله متصرِّفاً، وإذا ارتقى لا يرى مع الله موجوداً، الله جلَّ جلاله لا وجود لغيره.

فالأحداث التي من شأنها أن تسحق الناس، وأن تقلقهم، وأن تضعهم أمام مسؤولياتٍ، وأمام تمزُّقاتٍ، المؤمنون في منجاةٍ منها، لأنه وحَّد، لا يرى مع الله أحداً، لذلك:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

أما الذي يخافُ من زَيد، ويخشى عبيداً، ويحسب حساباً لفُلان، ويأمل عطاء فلان، ويرضي هذا، ويغضب هذا، فحياته ممزَّقة، حياته مبعثرة، مشرذمة:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ)

مستسلم له:

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)

التوحيد وحده يضيف على حياة المؤمن طمأنينةً وسعادةً :

والله أيها الأخوة، التوحيد وحده في الدين يضيف على حياة المؤمن طمأنينةً وسعادةً لا توصف، لأنه يخاطب ربه فيقول: يا رب ليس في الكون أحدٌ سواك، تعلم السرَّ وأخفى، تعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، لا حول ولا قوَّة إلا بك، لا إله غيرك، لا رافع ولا خافض، ولا معزَّ ولا مذلَّ، ولا معطي ولا مانع، ولا قابض ولا باسط، ولا مغني ولا مفقر إلا أنت، فحينما أيقنت أنه لا إله إلا الله اتجهت إلى الله بكلّيتك، فسعدت في الدنيا وسعدت في الآخرة.

أحياناً الكفَّار يقولون: يا أخي لو أن هذا النبي مات وارتحنا منه، قال:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

فهناك تفكير ساذج عند مُعظم الناس، يظن أنه إذا مات فلان يرتاح ويرث أمواله، فهل أنت لن تموت بعده؟ أو ربما تموت قبله، شخص توفي من المحسنين ترك ألف مليون، أحد الورثة له نصيب كبير، عمل ليلاً نهاراً لأخذ نصيبه من هذه الثروة الطائلة، بعد عدَّة أشهر قبل أن يأخذ درهماً واحداً من هذا الإرث الضخم توفي وهو في الحَمَّام، فهذا الذي يقول: لو مات فلان لاسترحنا منه. هل أنت ضامن أن تعيش بعده؟ فالكفار كانوا يتمنَّوْنَ موت النبي عليه الصلاة والسلام.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ من معاني هذه الآية :

1 ـ ما من مخلوقٍ إلا وسيموت :

فربنا قال:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ)

أنت بشر، لأنه ما من مخلوقٍ إلا وسيموت، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت:

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفـــجر

والعمر مهما طـــال فلابد من نزول الـــقبر

* * *

فالموت حق، فالأنبياء ماتوا، والمؤمنون ماتوا، والكفَّار ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأصحَّاء ماتوا، والمرضى ماتوا، والأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والظالمون ماتوا، والمظلومون ماتوا ، وكل مخلوقٍ يموت:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

هم سيموتون أيضاً، يقول لك: مسكين مات، فهل أنت لن تموت؟ لا شماتة في الموت، فلان مات؟! وإنك ميتٌ معه، طبيب تراءى له أن مريضه سيموت بعد ساعتين، عاش ثلاثين سنة بعد هذه الكلمة، والطبيب مات بعد اثنتي عشرة سنة.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

2 ـ كلّنا عبيدٌ لله عزَّ وجل والله وحده الباقي :

المعنى الآخر: أن كلّنا عبيدٌ لله عزَّ وجل، والله وحده الباقي، وهو الذي سيحاسبنا جميعاً، وهو الذي سيُوقفنا أمام أعمالنا، لماذا فعلتم؟ لماذا لم تفعلوا؟

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

بطولة الإنسان أن يكون مع الحق المبين :

هنيئاً لمن كان على الحق، كل إنسان يدَّعي في هذه الدنيا أنه على حق، القضيَّة سهلة:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

[سورة المؤمنون: 32]

كل إنسانٍ يدَّعي أنه على حق، ومعه الأدلّة، ومعه البراهين، ومعه الشواهد، ويظن نفسه محور العالَم، والناس من حوله جَهَلة، أما البطولة أن تكون على الحق فعلاً، البطولة حينما ترجع إلى الله عزَّ وجل أن تكون مع الله، أن تكون مع الحق المبين، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل: 79]

يا محمَّد، البطولة أن تكون على الحق فعلاً:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

خير الإنسان منه و شره منه و يوم القيامة كل نفس بما كسبت رهينة :

هل يبقى الناس في اختلاف إلى الأبد؟ لا، كلٌ يدَّعي وصلاً بليلى هل نبقى مختلفين إلى الأبد؟ لا، لابدَّ من أن تنكشف الحقائق، لابدَّ من أن يظهر الحق، لابدَّ من أن يزهق الباطل.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء: 81]

لابدَّ من أن يقف الإنسان يوم القيامة ليحاسب عن أعماله كلها، أما في الدنيا فالإنسان قد يؤتى لساناً ذَرِباً، منطقاً، حجَّة، أما يوم القيامة.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

[سورة يس: 65]

فبشكل أو بآخر لو معك كيلو من الذهب الخالص، والناس جميعاً ظنُّوه معدناً خسيساً، لا تبالي بهم، ولو أوهمت الناس أن معك ذهباً خالصاً وهو معدنٌ خسيس، لا تفرح بهذا الإيهام، خيرك منك وشرُّك منك، سعادتك منك وشقاؤك منك، ويوم القيامة.

(يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

[سورة القيامة: 13]

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثّر: 38]

الموت مصير كل حيّ :

إذاً:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

وقد قالوا: سبحان من قهر عباده بالموت، فالإنسان له أن يقول ما يشاء، وله أن يفعل ما يشاء، ولكن لابدَّ من أن يموت، وبعد الموت يحكم الواحدِ الديَّان، من العلماء؟ يقوم العلماء أو يقوم بعضهم، فيقول الله عزَّ وجل: كذبتم تعلَّمتم العلم ليقال عنكم كذا، وقد قيل. فالإنسان له في الدنيا مظهر، وقد يوهم الناس بأن له مكانة رفيعة، ولكن عند الله عزَّ وجل لا مكانة له، فمن أدعية الصالحين: "اللهمَّ إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علَّمتني مني، اللهمَّ إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس فيه أحداً سواك، اللهمَّ إني أعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيءٍ يشينني عندك "..

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

أية حجَّةٍ يزعمها الإنسان داحضةٌ عند الله عزَّ وجل لأنه بيِّن له كل شيء:

يقول أحدهم: لعن الله الشيطان، والله هو وسوس لي يا أخي، يوم القيامة لا يغني الشيطان عنك من الله شيئاً:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

تكلَّم ما شئت، أما الحجَّة الدامغة فلله عزَّ وجل، يلقي اللوم على أبيه يقول: أبي هكذا ربَّاني، ما كنت بهذا الوضع، نقول هذا سيدنا إبراهيم كان أبوه كافراً، ويلقي التبعة على زوجته لولا زوجتي، هذا سيدنا لوط كانت تحته امرأة خائنة، تقول لولا زوجي، هذه السيدة آسيا كانت تحت جبار كافر، يحيل تقصيره على الفقر ويقول: لولا الفقر، سيدنا محمد كان فقيراً، قال:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَأُخِفْتُ مِنَ اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِعِيَالِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلا مَا يُوَارِي إِبِطُ بِلالٍ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

ذاق الفقر، وذاق الجوع، وذاق الخَوف، وذاق ترك الوطن، ليست لك حُجَّة، أية حجَّةٍ تزعمها داحضةٌ عند الله عزَّ وجل لأنه بيَّن لك كل شيء..

أشدّ الناس ظلماً لأنفسهم :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ)

أظلمُ صيغة تفضيل، أظلمُ أي أشدُّ ظُلماً، ما من إنسانٍ أشد ظلماً:

(مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)

قال عن الله شيئاً غير صحيح لمصلحةٍ ماديَّة، تكلَّم بالباطل لمصلحةٍ دنيويَّة، قال كلاماً ليس قانعاً به ليرضي زيداً أو عُبيداً، أخفى حقيقةً اتقاءً من فلان، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، هذا الذي يجرُّ الدين إلى أهوائه، يفسِّر الآيات وفق مِزاجه، يردُّ النصوص التي تكشف غلوَّه، هذا الذي يسخِّر النصوص لصالحه، هذا الذي يتَّخذ الدين مطيَّةً للدُنيا، هذا الذي يتخذ الدين ليعلو على الناس، ليأكل أموال الناس بالباطل، هذا الذي يتكلَّم على الله عزَّ وجل ما ليس بحق، يوهم الناس بأشياء لمصلحةٍ يريدها، قال: هذا ما من إنسانٍ على وجه الأرض ظلم نفسه كهذا الظلم:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

الظالم الثاني الذي جاءه الحق فكذَّب به، أعرض عنه، لم يبالِ به، فما من رجلين على وجه الأرض أشدُّ ظلماً مِمَّن زوَّر الحقائق الدينيَّة لمصلحةٍ شخصيَّة، كذب على الله، أو جاءه الحق الصريح فرفضه وكذَّب به ليحافظ على مكانته، أو على دخله، أو على ماله، أو على شأنه في المجتمع، هذان الرجلان أشد الناس ظلماً لنفسيهما.

استغلال الدين لأغراض الدنيا يفقده قيمته :

مرَّة ذكرت مثلاً وأعيده للفائدة: لو أحدنا معه شيك بألف مليون دولار، ظهر الشيك ورقة بيضاء، ظنَّ أن هذه ورقة ليستعملها لإجراء عمليَّةٍ حسابيَّة، فكتب عليها، ثم انتهى منها فمزَّقها، ثمَّ اكتشف بعد ذلك أن هذه الورقة التي مزَّقها قيمتها ألف مليون دولار، ماذا يفعل بنفسه؟ هذا الدين حينما تستغلّه لأغراض الدنيا، حينما تَجُرُّهُ لمصالحك ولأهوائك تكون قد جهلت قيمته، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

إذا أردت الدنيا فاطلبها في مظانِّها، اطلبها في التجارة، والصناعة، والزراعة، وفي الأعمال، لكن دع الدين في مكانه العلوي، دع الدين في صفائه، دع الدين في السماء ولا تنزله إلى الوحول من أجل دريهماتٍ تكسبها:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

لينتبه الإنسان، ويطلب الدنيا من مظانها لا من الدين، لترك الدين في عليائه صافياً نقياً طاهراً، ليفصل كل مصلحةٍ ماديَّةٍ عن الدين..

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[من الدر المنثور عن جابر بن عبد الله]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 32-35، أسعد الناس من صدَّق بالحقِّ وأشقى الناس من كذَّب بهذا الحق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-04-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس في الأرض كلّها إنسانٌ أشدُّ ظلماً من إنسان كذب على الله :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السادسة والثلاثين، يقول الله عزَّ وجل: وعودة إلى الآية:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

ليس في الأرض كلها، ليس في بني البشر كلّهم إنسان أشدَّ ظلماً من هذا الذي كَذَبَ على الله، دعا إلى الله، وكذب عليه، وقال عنه بغير عِلم، أو قال عنه صفاتٍ لا تَليق به تحقيقاً لمصالحه الماديَّة، الإنسان أحياناً يتكلَّم بلا عِلم، وأحياناً يعلم ويتكلَّم بخلاف ما يعلم، فرقٌ دقيق بين أن تقول ما لا تعلم، وبين أن تقول بخلاف ما تعلم، الأول جَهْل، أما الثاني فخطأ كبير، معنى ذلك أنك تريد إضلال الناس، فليس في الأرض كلّها إنسانٌ أشدُّ ظلماً وأفدح خسارةً من إنسانٍ تكلَّم عن الله بخلاف ما يعلم جرَّاً لمصلحةٍ، أو دفعاً لإساءةٍ، أو تحقيقاً لمكسبٍ، شيء خطير أن تلعب بدين الله، أن تلعب به من أجل مصالحك، أن تُغَيِّر الحقائق من أجل مكاسب دنيويَّة زائلة، أن تجعل هذا الدين العظيم في الوحول من أجل مصالح ماديَّة، أن تقول كلاماً يُرضي الأقوياء ولا يرضي الله، أن توهم الناس أن الحق هكذا.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

هناك متكلِّم، وهناك مُستمع، أشدُّ المتكلّمين ظلماً لنفسه، أشد المتكلمين خسارةً، أشد المتكلمين عذاباً، من تكلَّم إما بجهلٍ أو بخلاف ما يعلم، والثاني أشد إثماً، لذلك الإمام الغزالي يقول: " العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله بغير علم".

أشدّ المتكلمين ظلماً وخسارةً من تكلَّم على الله بغير علمٍ :

أنت حينما تلقي على الناس كلاماً غير صحيح، تبثُّ فيهم عقائد زائغة، توهمهم بأشياء غير واقعيَّة، بخلاف القرآن الكريم، بخلاف السُنَّة، أنت بهذا أفسدت عقول الناس، أفسدت بنيتهم النفسيَّة، أفسدت دينَهم، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

((إن هذا العلم دين فلينظر أحدكم ممن يأخذ دينه))

[كنز العمال عن أنس]

إذاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

هناك متكلِّم وهناك مستمع، أشد المتكلمين ظُلماً، أشدهم خسارةً، أشدهم عذاباً، من تكلَّم على الله بغير علمٍ، أو تكلَّم على الله بخلاف ما يعلم، هذا ضال مضل، الأول ضال والثاني مضل، فاسد مفسد، لأن الإنسان الذي يستمع، من الذي يبنيه؟ المتكلِّم يبني نفسه، فلو أوهمه أن أمَّة محمد صلى الله عليه وسلَّم أمةٌ مرحومة، وافعل ما شئت، النبي عليه الصلاة والسلام سوف يشفع لكم جميعاً، أي دافعٍ بقي عند الناس كي يستقيموا؟ أي دافع؟ أي دافعٍ بقي عند الناس ليكونوا أعفَّة؟ ليكونوا منزَّهين عن الغَلَط؟ انتهى، وقع الناس في الحرام، واعتدوا على بعضهم بعضاً، وأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، واعتدوا على أعراض بعضهم، كلُّهم يتأمل شفاعة النبي يوم القيامة، فهذا الذي بثَّ هذه الفكرة ماذا فعل؟

الضالُّون المضلون يتكلمون على الله بخلاف ما يعلمون :

هذا الذي يقول لك: إن الله كتب على الإنسان الكفر، فإذا جاء إلى الدنيا أجبره على المعاصي، فعصى تحقيقاً لمشيئة الله، وبعد أن ينتهي أجله يدخل جهنَّم إلى أبد الآبدين، هكذا شاءت مشيئة الله عزَّ وجل، أيُّ شيءٍ أبقيته في نفوس المستمعين من حُبٍ لله عزَّ وجل ومن تعظيمٍ لكمالاته؟ أين اسم العدل؟ أين؟

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

أين:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

أين فتيلاً؟ أين نقيراً؟ والقطمير.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء:47]

العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله بغير علمٍ، والضالُّون المضلون يتكلمون على الله بخلاف ما يعلمون.

الله جلَّ جلاله انتقى من صفات الذين يبلِّغون رسالاته صفة واحدة هي الخشية :

من هنا ربنا جلَّ جلاله قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

انتقى ربنا جلَّ جلاله من صفات هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله صفة واحدة، أنهم يخشونه، فلو أنهم خشوا غير الله لتكلَّموا بالباطل إرضاءً لهؤلاء الأقوياء، ولسكتوا عن الحق خوفاً منهم، فإذا تكلَّم الداعية بالباطل وسكت عن الحق ماذا بقي من دعوته؟ انتهت، لذلك هذا الوصف مترابط مع الموصوف ترابطاً وجودياً، فلو ألغي الوصف ألغي الموصوف:

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

استفهام إنكاري، ليس في الأرض إنسانٌ أشدُّ ظلماً، ولا أفدح خسارةً، ولا أكثر عذاباً، من إنسانٍ تكلَّم على الله بغير علمٍ، قل: لا أدري، الإمام أحمد بن حنبل من أقطاب العلماء في عصره، من المجتهدين الأربعة، جاءه وفدٌ من المغرب العربي ويبدو أنهم قطعوا شهرين في الطريق، جاؤوه بسبعةٍ وثلاثين سؤالاً فيما أذكر، أجاب عن سبعة عشر سؤالاً وقال: الباقي لا أعلم، استغربوا هذا الكلام لا يُعقل، الإمام أحمد بن حنبل لا يعلم، كيف؟ فقال لهم: "قولوا الإمام أحمد لا يعلم ".

أمانة، هذه أمانة التبليغ، أمانة التبيين، إن لم تكن واثقاً من أن هذه الآية تُغَطّي هذا الجواب، وهذا الحديث الصحيح يَدْعَم هذا الجواب، كيف تقول على الله ما لا تعلم؟ أو كيف تقول على الله بخلاف ما تعلم؟ الأول ضال الثاني مُضِل، الأول فاسد الثاني مُفسد، دائماً الله يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

اسأل يا أخي، فاسأل به خبيراً، كُن جباناً في الإجابة، نصف العلم لا أدري، ارفع رأسك وقل: لا أدري يا أخي، أمهلني، أنظرني، ودعني أتريَّث، دعني أفكِّر، دعني أتأمَّل، دعني أراجع، دعني أسأل، قبل أن تقول على الله ما لا تعلم، قبل أن تفسد بناء الإنسان، قبل أن تفسد عقيدته، قبل أن تفسد تصوّره عن الله عزَّ وجل.

أسعد الناس من تعامل مع القرآن تعاملاً جدياً على أنه كلام رب العالمين :

لذلك:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)

وشخصٌ آخر ليس أقلَّ من الأول، الثاني.

(وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

جاءه الحق من خلال القرآن، القرآن كلام الله، سمَّاه الله الصدق لأنه مطابقٌ للواقع، لأنه من لدن حكيمٍ خبير، لأنه من عند خالق الكون، لأنه كلام رب العالمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الصدق كذَّب به، قرآنٌ كريم فيه إعجاز، ابحث عن إعجازه، ابحث في نظمه، ابحث في إعجازه العلمي، في إعجازه الإخباري التاريخي، في إعجازه البياني، في إعجازه التربوي، ابحث في إعجاز القرآن، لو أن الناس جميعاً اجتمعوا على أن يأتوا بسورةٍ من هذا الكتاب لا يستطيعون، تحدَّاهم ربنا جلَّ جلاله:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

[سورة الإسراء: 88]

إذاً هذا صدق، فمن أسعد الناس من تعامل مع هذا الكتاب تعاملاً جدياً على أنه كلام رب العالمين، لكن هناك أشخاصاً كثيرين يتعاملون معه تعاملاً بعيداً عن الواقعيَّة، ولا يأخذون الأمر مأخذاً جدياً، فالقرآن فيه تهديد، وفيه وعيد، وفيه بشارة، وفيه أمر، وفيه نهي، يفعل ما يحلو له مخالفاً أمر القرآن، ولا يبالي، هذا أحد أنواع التكذيب الفعلي لكتاب الله عزَّ وجل.

المتكلِّم له حساب خاص والمستمع له حسابٌ خاص :

أنت بين أن تكون متكلماً أو مستمعاً، أحد حالتين؛ متكلِّم أو مستمع، المتكلِّم إذا تكلَّم بغير علمٍ أو بخلاف ما يعلم فالويل له، والمستمع إذا كذَّب بالقرآن الكريم وهو كلام الله، قطعي الثبوت، أو كذَّب بالسنَّة الصحيحة التي وردت عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فالويل له، فالويل للمتكلِّم بغير علمٍ أو بخلاف ما يعلم، والويل للمستمع إذا كذَّب بالحق لمّا جاءه، فلذلك المتكلِّم له حساب، والمستمع له حساب، المتكلِّم مهما أبان، وأفصح، وأجاد، وتشدَّق بالألفاظ، وألقى كلاماً ساحراً، واستخدم اللغة والبيان والبلاغة، مهما تكن عبارته طلِيَّة، وجملته متينة، وأمثلته صارخة، له حسابٌ عند الله خاص، حسابه هل أنت في مستوى ما تقول؟

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة: 44]

المتكلّم له حساب، يحاسبه الله عن مدى تطابق كلامه مع سلوكه، والمستمع له حسابٌ خاص، جاءك بآية ولا تبالي بها!! جاءك بحديثٍ صحيحٍ عن رسول الله ولا تبالي به!! أعطاك حُكْمَ الشرع في هذا الموضوع ولم تعبأ به، فعلت ما يحلو لك! فكأنّك كذَّبت.

أنواع التكذيب :

والتكذيب كما تعلمون نوعان: تكذيبٌ قولي وهو أن تقول له: هذا كذب، هذا لا يفعله أحد في العالم الإسلامي، لا يجرؤ إنسان أن يقول: هذه الآية غَلَط، ولكن حينما لا يطبِّق، وحينما لا يبالي، وحينما يتخذ القرآن مهجوراً، وحينما لا يعبأ بحكم الله عزَّ وجل، هذا كأنَّه كذَّب بالصدق إذا جاءه، المؤمن.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

حرام حرام انتهى الأمر، يا أيها الذين آمنوا، يخاطب المؤمن لأنه آمن بالله وهذا أمر الله، المؤمن له أن يبحث عن حكمة الأمر، لا مانع يمنعه لأن هذا من حقّه، لكن أن يعلّق التطبيق على معرفة الحكمة فليس عبداً لله عزَّ وجل، هذا الذي لا يطبِّق إلا إذا فهم الحكمة هذا ليس عبداً لله، لن تكون عبداً لله إلا إذا جاءك أمر الله عزَّ وجل فقلت: سمعاً وطاعةً يا رب، وحينما تندفع لتطبيق الأمر قبل معرفة حكمته يكافئك الله جلَّ جلاله بأن يلقي في قلبك حكمة هذا الأمر بعد تطبيقه، عندئذٍ تصبح عالِماً، فالذي يعلّق تطبيق الأمر على معرفة الحكمة هذا ليس عبداً لله عزَّ وجل، حرام حرام انتهى الأمر.

المؤمن حينما عرف الله وعرف أمره ونهيه صار اختياره وفق مراد الله عزَّ وجل :

همُّ المؤمن الأوحد أن يبحث عن أمر الله، فإذا وجده طبَّقه وانتهى الأمر، أما إذا أراد أن يدعو إلى الله عزَّ وجل وبحث عن حكمة الأمر والنهي ليقنع الناس، فهذا شيء طيِّب، عمل طيِّب، أما المؤمن فيكفيه عِلّةً لأي أمرٍ أنه أمر، فأنت في الخدمة الإلزاميَّة مع إنسان عريف يقول لك: نفِّذ ولا تناقش. فكيف مع خالق السماوات والأرض؟ كيف مع مُبْدِع الكون؟ كيف مع العليم الحكيم؟ الرحمن الرحيم؟ مع العَدْل؟ مع التواب؟ مع اللطيف؟ مع المهيمن؟ مع القدير؟ مع الغني؟ أتناقشه في أوامره؟ إذا بحثت عن الحكمة لا مانع؛ أما هذا الذي لا يطبِّق إلا إذا عرف الحكمة، فليس عبداً لله عزَّ وجل.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

أنت تختار بين هذا العمل وهذا العمل، بين أن تسافر إلى هذه البلدة أو هذه البلدة، هذا هو الاختيار، أما تختار أن تعصي أو ألا تعصي فهذا الخيار ليس للمؤمنين هذا لغير المؤمنين، المؤمن حينما عرف الله عزَّ وجل وعرف أمره ونهيه انتهى اختياره، صار اختياره وفق مراد الله عزَّ وجل.

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

تحبُّ الذي أحبَّه الله، تكره الذي أبغضه الله، توالي في الله، تعادي في الله، تُعطي لله، تمنع لله، تغضب لله، ترضى لله، هذا هو التوحيد، هذا هو الإيمان.

على الإنسان أن يفكر جيداً قبل أن يعصي الله عز وجل :

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

استفهام إنكاري، أي ليس في الأرض كلها إنسانٌ أشدُّ ظلماً، ولا أفدح خسارةً، ولا أشد عذاباً، ممن تكلَّم على الله بغير علمٍ أو بخلاف ما يعلم، الأول ضال والثاني مُضل، والظالم الثاني هو الذي كذَّب بالحق إذا جاءه، والتهديد.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

العقاب أليم جداً، والثمن فادح، والخَطْب جَلَل، فقبل أن تعصي فكِّر كثيراً، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى خاطب نفسه مرَّة فقال: " يا نفس لو أن طبيباً نهاكِ عن أكلةٍ تحبينها لا شكَّ أنكِ تمتنعين عنها، يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله؟ ". طبيب قال لك: هذه الأكلة لا تناسبك، هذا البيت عال لا يناسب قلبك، في اليوم الثاني تعرضه للبيع، فالموضوع ليس معه لعب، قلب، فطبيب نصحك بأن تبيع هذا البيت العالي، أو أن تمتنع عن هذه الأكلة التي تؤذي شرايينك، لماذا أنت تستجيب؟ حفاظاً على صحَّتك وتصديقاً لكلام الطبيب " أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله إذاً ما أكفرك! أيكون وعيد الله عزَّ وجل أشدَّ عندكِ من وعيد الطبيب؟ إذاً ما أجهلكِ ! ".

فالإنسان حينما يعصي يُدْمَغ حتماً إما بالكفر وإما بالجهل، إما كافر ما عرف أحقيَّة هذا الأمر الإلهي، أو جاهل بما ينتظره من عذابٍ أليم في جهنَّم وبئس المصير.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

النتيجة إلى جهنَّم، هذا الذي كَذَبَ على الله، وذاك الذي كَذَّبَ بالصدق، المُتكلِّم والمستمع، الثمن الباهظ عذابٌ أبدي في جهنَّم وبئس المصير.

المقارنة بين الصحابة الكرام ومصير هؤلاء الذين كذَّبوا النبي وعارضوه :

الآن:

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)

سيدنا الصديق صدَّق، الصحابة الكرام صدَّقوا، الآن انظر في مصير هؤلاء الذين كذَّبوا، وعارضوا، وأخرجوا النبيَّ من مكّة، وائتمروا على قتله، ونكّلوا بأصحابه، كيف أنهم ماتوا شرَّ ميتة، وكيف أنهم في مزبلة التاريخ؛ وانظر إلى أصحاب النبي رضوان الله عليهم حينما صدَّقوا، وحينما جاهدوا، وحينما صبروا، وحينما صابروا، وحينما رابطوا، وحينما أحبوا النبي، وحينما قدَّموا له الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، انظر إلى ألفٍ وخمسمئة عام بعد وفاتهم أو استشهادهم، كيف أن المجالس كلها تتعطَّر بذكرهم، سيدنا الصديق، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وسيدنا علي، وسيدنا عمر بن عبد العزيز، وسيدنا صلاح الدين، هؤلاء الأبطال العِظام، هل يفتر اللسان عن ذكرهم في أي مكان في العالَم الإسلامي؟

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ)

من سعادة الإنسان أن يستجيب للحق :

النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَصَدَّقَ بِهِ)

هذه الآية لها معنيان: إما أن النبي جاء بالصدق وصدَّق به، أو أن النبي جاء بالصدق والذي صدَّق به من أصحابه، قال:

(أولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

هنيئاً لهم، اتقوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، نجوا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، سَلِموا في الدنيا والآخرة، سَعِدوا في الدنيا والآخرة.

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)

فأنت من سعادتك أن تستجيب للحق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكم)

[سورة الأنفال: 24]

دعوةٌ لحياة القلوب.

المؤمن شخصيَّة فذَّة عرف الحقيقة الكبرى :

وازن بين مؤمن وغير مؤمن، تجد الفرق شاسعاً والفرق كبيراً، كموازنتك بين درَّاجة مثلاً وبين سيارة من أحدث موديل، هل يستويان؟ لا، ليست هناك أي نسبة، وازن بين حياة المؤمن المستقرَّة، حياة المؤمن المطمئنة، الذي يلقي الله على قلبه السكينة، موفَّق في أعماله، هدفه كبير، هدفه أكبر من حاجاته، مطامِحه أثمن من رغباته، يحكم نفسه ولا تحكمه، يقود هواه ولا ينقاد له، تحكمه القيم ويحتكم إليها من دون أن يسخِّرها أو يَسَخَرَ منها، هذا المؤمن، شخصيَّةٌ فذَّة عرف الحقيقة الكبرى، عرف الله، يتحرَّك وفق منهج، حياته بين حلال وحرام، ومباح ومكروه، ومندوب، ماشي على هدى.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

انظر إلى حياة المؤمن، انظر إلى أخلاقه العالية، انظر لصدق وعده، انظر إلى أمانته، إلى صدقه، إلى غَيْرَتِهِ، إلى عفَّته، إلى استقامته، إلى إنصافه، انظر إلى ورعه، انظر إلى دقَّته في التعامل هكذا صفات المؤمنين، هذه صبغة الله التي صبغ بها عباده المؤمنين، لذلك المؤمنون في شتَّى بقاع الأرض يلتقون، لأن الصفات واحدة، فتصوَّروا أطباء القلب في العام يلتقون على معلومات واحدة، كذلك المؤمنون يلتقون على حقائق واحدة، على قيَم واحدة، على أهداف واحدة، على وسائل واحدة، الحقائق التي آمنوا بها واحدة، والأهداف التي يسعون إليها واحدة، والوسائل التي يسلكونها واحدة، والقيَم التي تحكمهم واحدة، والأخلاق التي يتحلَّون بها واحدة، لذلك الإيمان عامل جَمْع وليس عامل تفريق، رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْهُ أمُّك، وشيء عجيب قد تلتقي مع مسلم في أقصى الدنيا، تشعر وكأنه أخوك النَسَبيّ، يا ربي ما هذا الشعور؟ من بلدٍ بعيدٍ بعيد لا يجمعني به شيء، كفى بالإسلام جامعاً لنا.

المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون :

المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششةٌ متحاسدون ولو اقتربت منازلهم، حياة المؤمنين حياة سعيدة جداً، أنت بين أحباب، بين أناس أوفياء، بين أناس مُخلصين، بين أناس متناصحين، بين أناس متسامحين، بين أناس متحابِّين، يكفينا سعادةً في الدنيا أننا نعيش مع أخوتنا المؤمنين في راحة، لو انطلقت إلى أخٍ لك في حرفةٍ من الحِرَف تكون مطمئناً فهو لن يكذب عليك، ولن يغشَّك، ولن يُدَلِّس، ولن يأخذ فوق حقِّه، ولن يخونك، مطمئن، لذلك النبي قال:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

لا مفاجآت في حياتك ولا غدر إذا صاحبت مؤمناً، دقّق في أحوال أهل الدنيا تجد أنهم يتلقون ضربات قاصمة من أصدقائهم لأنهم غير مؤمنين، حينما يتراءى للصديق أن مصلحته بتحطيم صديقه يحطّمه، أما المؤمن فوفي، لذلك قال الله تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة النور: 31]

معنى جميعاً أي لن تذوقوا طعم الإيمان، لن تقطفوا ثماره إلا إذا كنتم جميعاً مؤمنين، إذا عمَّ الإيمان فهذا شيء مريح جداً.

(أولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

هؤلاء هم المتقون، وإن الله مع المتقين، والمتقون لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتّقون، كلمة تقوى أي اتقى أن يعصيه، اتقى عقابه، اتقى شقاء الدنيا، الله عزَّ وجل قال:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

[سورة الطلاق: 2]

من عظمة القرآن الكريم أن كل آيةٍ فيه لها معنى في السياق :

من عظمة القرآن الكريم أن كل آيةٍ فيه لها معنى في السياق، فإذا نزعتها من السياق لها معنى آخر، فهذه الآية وردت في سورة الطلاق.

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

[سورة الطلاق: 2]

من يتق الله في تطليق زوجته، لم يطلّقها بالثلاثة مرَّة واحدة، بل طلقة واحدة، طلّقها في طهرٍ لم يمسَّها فيه، ما طلّقها في حيض، ما طلّقها لقضيّةٍ لا علاقة لها بها، طلّقها وَفْقَ السُنَّة، لم يكن طلاقه بِدْعِيًّا بل كان سُنياً ؛ طلّقها تطليقةً واحدة، طلّقها في طهرٍّ ما مسَّها فيه، طلّقها لموضوعٍ لها علاقةٌ به، هذا الطلاق إذا كان سُنِّيًّا يجعل الله لصاحبه مخرجاً لأن يعيدها إذا ندم على طلاقه، أما إذا طلّقها طلاقاً بدعياً سُدَّ عليه طريق أن تعود إليه:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

[سورة الطلاق: 2]

انزعها من سياقها، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، لأنه من تزوَّج المرأة لجمالها أذلّه الله، ومن تزوَّجها لمالها أفقره الله، ومن تزوَّجها لنسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين، من اتق الله في اختيار زوجته، جعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، من اتق الله في تربية أولاده؛ علّمهم، وهذّبهم، وأرشدهم، وبيَّن لهم، وأمرهم بالصلاة، واصطبر عليهم، ونشَّأهم تنشئةً

راقية، جعل الله له مخرجاً من عقوق الأولاد، وهو الشيء المزعج جداً، من اتق الله في كسب المال جعل الله له مخرجاً من إتلاف المال ؛ الحرائق، والمصادرات، وتدمير المال، والغرق، والحريق، من اتق الله في كسب المال جعل الله له مخرجاً من إتلاف المال، هذه الآية يُكْتَب عليها مجلّدات:

(أولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

الدنيا أساسها الكدح و الآخرة أساسها الإكرام :

هؤلاء الذين جاؤوا بالصدق وصدَّقوا به:

(أولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

اتقوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، اتقوا شقاء الدنيا وشقاء الآخرة، اتقوا أن يعصوا الله فاتقوا عذابه وعقابه، هؤلاء ما جزاؤهم في الآخرة؟ الأوائل.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

شيء عظيم، آيةٌ على إيجازها عظيمةٌ جداً، الدار الآخرة - الجنَّة - مبنيَّة على مبدأ، أي شيءٍ يخطر في بالك تجده أمامك، هذه الجنَّة.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ)

أما في الدنيا فيخطر في بالك مليون شيء ولا يتحقَّق، فالعين بصيرة واليد قصيرة، الدنيا مبنيَّةٌ على الكَدْح، الجهد.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: 6]

مبنيَّة على الجهد، مبنيَّة على التعب، مبنية على النَصَب.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

[سورة البلد: 4]

طبيعة الحياة الدنيا هي تَكَبُّد المَشاق، الإنسان لا يصل لبيت صغير وفيه بعض قطع الأثاث، ودخل يغطي نفقات خمسة أيام بالشهر، حتى يعاني الأمرين - كما يقولون -الحياة مبنيَّة على بذل الجهد، أما الآخرة:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

اطلب تُعْطَى يا عبدي.

الآخرة مبنيَّة على الطلب والدنيا مبنيَّة على بذل الجُهد :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات: 15-16]

ما آتاهم ربهم:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

دفع ثمنها في الحياة الدنيا، الطبيب يعمل لك تخطيطاً بخمسمئة، وإيكو بثمانمئة، ودخله في اليوم كذا عشرة آلاف، دفع ثمنها؛ ثلاث وثلاثون سنة دراسة، وكل يوم للساعة الواحدة ليلاً، ومطالعة، وتقديم أطروحات، وتدريب عملي، عندما يتعب الإنسان كثيراً في دراسته يصل إلى مركز مرموق، ودخل كبير، وجهد قليل، هل من حق الجاهل أن يقول: أنا مثله؟ لا، أنت لست مثله، هو دافع ثمنها، عندما كان يدرس أين كنت أنت؟ كنت تلعب، كل إنسان يدفع فيجد، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات: 15-16]

من قضَى عمره بخدمة الخلق و بنصحهم و إرشادهم استحق جنة الله عز وجل :

لكن:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

قضَى كل عمره بخدمة الخلق، قضى كل حياته بالنصح والإرشاد، وبذل المال، وبذل الوقت والخبرة، والنصح للمسلمين، ليله نهار، ونهاره ليل، يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

إنهم:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات:16-19]

دفعوا ثمنها، فالآخرة إذاً مبنيَّة على الطلب، الدنيا مبنيَّة على بذل الجُهد، على الكدح، على النَصَب، على التعب، أما الآخرة فمبنية على الطلب.

الإحسان يعنيّ إتقان العمل و الصدق و النصيحة :

تحضرني الآن صورة شخص كان جارنا في البيت، ولكن لم يكن يصلي، كان ضد الدين، أين هو الآن؟

(قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ*فَاطَّلَعَ فَرَآَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[سورة الصافات:54-55]

على الخاطر، أي خاطرٍ يخطر على بالك تراه أمامك، هذه الآخرة، هذه الآخرة يُزْهَد بها؟! امرأة طلبت من زوجها الصحابي طلبات لم تكن مألوفة وقتها، قال لها: " يا فُلانة إنَّ في الجنَّة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهنَّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهنَّ من أجلكِ ". هذه واضحة مثل الشمس.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

كن محسناً أيها الأخ، كلمة محسن مطلقة؛ أحسن في عملك، انصح المسلمين، ترأَّف بهم، ارحمهم.

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[كنز العمال عن أبي بكر]

أتقن عملك، الإحسان يعني إتقان العمل، الإحسان يعني الصدق، الإحسان يعني النصيحة، الإحسان يعني أن تربِّي أولادك، الإحسان يعني أن تعتني بمن حولك، الإحسان يعني أن يكون لك عمل طيِّب.

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

من كرم الله عزَّ وجل أنه ينسي التائب عمله السيئ في الآخرة:

(ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

كذلك ربنا رحيم، فالذي له جاهليَّة هذه تطوى وكأنها لم تكن، في الدنيا يذكرها، فإذا ذكرها تمزَّقت نفسه، الذي له جاهليَّة قبل التوبة، له انحرافات، له تجاوزات، له مُخالفات، له معاصٍ، هذه إذا ذكرها في الدنيا تمزَّقت نفسه، وذابت ألماً، ومن علامة الإيمان أنه يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار، يندم أشدَّ الندم على عمرٍ أمضاه في معصية الله.

يقول لي أحد الأخوة الأكارم: أنا ولِدت من جديد، لم أكن أعرف هذه السعادة إلا بعد أن تعرَّفت إلى الله، وُلِدْت من جديد.

(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا)

كل أعماله السيئة السابقة، حتَّى أشدُّها سوءاً هذه تُكفَّر عنه، ولا يذكرها الإنسان يوم القيامة.

(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فالإنسان أحياناً يكون له عمل طيِّب، وعمل سيئ، من كرم الله عزَّ وجل أن ينسيه عمله السيئ في الآخرة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

إذاً كان له جاهليَّة، في الجاهليَّة كان له عمل سيئ، وبعدما تاب إلى الله واصطلح معه صار له عمل طيِّب، فكرم الله يعني أن عمله السيئ يكفِّره عنه، ينسيه إيَّاه، يمحوه ولا يذكره، وأن عمله الطيِّب يجازيه عنه بأعظم الجزاء، الإنسان قد يتصدَّق بلُقمة يراها يوم القيامة كجبل أُحد.

العطاء هو الذي يبقى لا الذي يفنى و عطاء الله عطاء أبدي :

لذلك يجب أن تعلموا أيها الأخوة علم اليقين أن كلمة غني في قاموس الإيمان تعني من أكرمه الله بالأعمال الصالحة، تعني من أجرى الله على يديه الخَير، هذا هو الغني، لأن مال الدنيا يبقى في الدنيا، وكل هذه الأموال المنقولة وغير المنقولة مرتبطة بنبض القلب، فإذا توقَّف القلب كل هذه الأموال ليست له، ولا ساعته، ولا سِنُّه الذهبي، ينزعونه يقولون لك: الحي أولى. لا تملك شيئاً، ولا خزانتك الخاصَّة، لك مكتبة خاصَّة، لك زاوية خاصَّة، الألبسة الخاصَّة، الأدوات الخاصَّة، كل شيء يؤخَذ منك، إذاً ليس هذا هو العطاء، العطاء هو الذي يبقى لا الذي يفنى.

إذاً العمل السيئ قبل التوبة من كرم الله عزَّ وجل أن الله يكفِّره، والعمل الطيِّب بعد التوبة يعطيك الله عنه أعظم الجزاء، والأمر واضح وضوح الشمس، وما علينا إلا أن ننطلق إلى الله عزَّ وجل، ففروا إلى الله، انطلق.

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس: 58]

افرح بعطاء الله عزَّ وجل، افرح بمعرفة الله، افرح بمجلس علمٍ تحضره، افرح بآيةٍ تفهمها، افرح بعملٍ صالحٍ يجريه الله على يديك، افرح بشيءٍ تدَّخره لنفسك بعد الموت.

الفقر فقر الأعمال الصالحة :

بين أن يموت الإنسان فقيراً ليس له أعمال أبداً وبين أن يموت والعمل الصالح يسبقه؟ لذلك الفقر فقر الأعمال، سيدنا موسى ماذا فعل؟ حينما سقى للمرأتين تولّى إلى الظل وقال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص: 24]

أنا مفتقر لهذا العمل، فأنا أقول لكم أيها الأخوة: قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، هل تفرح بالدنيا أم بعطاء الله عزَّ وجل؟ بمعرفة الله؟ بطاعة الله؟ بعملٍ صالحٍ؟ الآيات إذاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ*وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أسعد الناس من صدَّق بالحقِّ إذ جاءه وطبَّقه :

إذاً كُن مستمعاً حقّاً، صدِّق بكلام الله واحمله محملاً جدياً، واعتقد أنه كلام خالق الكون، وأنه يترتَّب على طاعتك له عطاءٌ كبير، وعلى معصيتك لله - لا سمح الله - شقاءٌ كبير، وأن هذا الكلام الخطير كلام مصيري إن صحَّ التعبير، فأحياناً الإنسان يحضر جلسة فيقول لك: والله سُررنا. فالقضيَّة أخطر من ذلك، أخطر من السرور، أخطر من أنك أمضيت ساعةً في مسجد، القضيَّة متعلّقة بمصيرك الأبدي، متعلّقة بسعادتك الأبديَة، متعلّقة بسلامتك في الدنيا والآخرة، فالقرآن بين أيديكم إعجازه ظاهر، أمره ظاهر، نهيه ظاهر، وعده، وعيده، حرامه، حلاله، ما علينا إلا التطبيق.

وأقول لكم هذه الكلمة الختاميَّة: مهما كان كلامي واضحاً، أنا أُحاسَب على مدى التطبيق لا على مدى الفصاحة، وأنتم مهما كنتم مستمعين مهذَّبين، تصغون، لا تحاسبون على استماعكم بل على تطبيقكم.

أيها الأخوة، نحن وإياكم نحاسب بمقياس واحد، لا قيمة لكلامي إن لم أطبِّق، ولا قيمة لاستماعكم إن لم تطبِّقوا، والله حسيب كل إنسان، والسعيد من ترجم هذه القناعات إلى سلوك.

أنا والله يؤلمني أشدَّ الألم أن أرى أخاً ينتمي إلى مسجد، وتوجد عنده مخالفات كبيرة جداً في بيته، أو في عمله، أقول: يا رب هذا كيف يستمع إلى الدروس؟ كيف يتوازن مع نفسه؟ كيف يعيش في داخله هذا التناقض؟ فالإنسان متى يسعد؟ إذا ألغى التناقض من حياته، أنت مؤمن انتهى الأمر، المؤمن هذا سلوكه، وهذا نَمَطُ حياته، وهذا زواجه، وهذا عمله، في عمله صادق، أمين، أما مؤمن ينتمي إلى الدين

ويغشُّ الناس؟! أو يأخذ أكثر مما يستحق؟! أو يعتدي على أموال الناس بطريقةٍ ذكيَّةٍ ويصلي أول صف؟! والله هذه مستحيلة.

فهذه الآيات واضحة جداً، أسعد الناس من صدَّق بالحقِّ إذ جاءه، وطبَّق هذا الحق، فسعد به في الدنيا والآخرة؛ وأشقى الناس من كذَّب بهذا الحق، أما أظلم الناس فمن كَذَبَ على الله بعلمٍ أو بغير علم، ولا يقل عنه ظُلماً من كذَّب بالحق لمَّا جاءه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 36-41، من كان مع الله كان الله معه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-04-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تشمل كل مؤمن لكنها تشمل شمولاً أولياً النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السادسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

الآية الأولى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

في هذه الصيغة استفهامٌ تقريري، والاستفهام التقريري يعني أن الله كافٍ عبده..

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الله يكفي عبده، وعبده هو الذي عرفه؛ الذي عرف مقام الألوهيَّة، وعرف مقام العبوديَّة، عرف فقره وغنى ربَّه، عرف ضعفه وقوة ربه، عرف جهله وعِلم ربه، عرف أنه حادث وأن الله قديم، عرف حقيقة افتقار الإنسان إلى الله، وعرف عظمة الله عزَّ وجل، هذا العبد الذي عرف، وهذا العبد الذي أطاع، وهذا العبد الذي تقرَّب، هذا هو المقصود بقوله تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فبعد أن تعرف، وبعد أن تستقيم على أمر الله، وبعد أن تتقرَّب إليه، الله جلَّ جلاله ألا يكفيك؟ ألا يكفيك أمر الدنيا؟ ألا يكفيك أمر خصومك؟ ألا يكفيك أمر أعدائك؟ ألا يوفّقك إلى ما تحب وترضى؟ ألا ترى الأمور ميسَّرةً؟ هل يستطيع أحدٌ كائناً من كان أن ينال منك؟ كيف ينال منك وأنت مع الله، وكل من في الكون بأمر الله عزَّ وجل؟

هذه الآية تشمل كل مؤمن، لكنها تشمل - كما قال المفسِّرون - شمولاً أولياً النبي عليه الصلاة والسلام، فخصوم النبي، أعداء النبي، المشركون، الكفَّار لن ينالوا من النبي، لن يستطيعوا أن يطفئوا دعوة الله عزَّ وجل، لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً أمام هذا الدين العظيم، أمام هذا الطود الشامخ.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ آية تبث الطمأنينة في نفس المؤمن :

لذلك هذه الآية إذا عقلها المؤمن تبثُّ في نفسه الطمأنينة، أنت مع من؟ أنت مع الخالِق وخصومك مع المخلوقين، أنت مع الرازق وخصومك مع المرزوقين، أنت مع من بيده ملكوت السماوات والأرض، أنت مع مَن كل من في الكون دونه، دونه في القوة، قوتهم من قوَّته، لا وجود لهم أمام وجوده:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

أفيعقل أن تؤمن به وأن تستقيم على أمره وأن يخوِّفك من خصومك؟ وأن يحوجك إليهم؟ وأن يسلطهم عليك؟ وأن يجعل مصيرك بين أيديهم؟ لكن إن لم نعبده ربَّما كان ذلك، ربَّما كان المُقَصِّر فتنة للكافر، ربَّما سُلِّط الكافر على المؤمن، لكن إذا كان المؤمن عبداً لله بالمعنى الصحيح:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

انظر إلى التاريخ، سيدنا يوسف كان عبداً لله عزَّ وجل، ماذا فعل معه أخوته الذين حسدوه وكادوا له وألقوه في الجب؟ ماذا فعلوا معه؟ كان في النهاية أن دخلوا عليه فعرفهم.

(وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

[سورة يوسف: 58]

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة يوسف: 90]

الآية التالية تطمينٌ للنبي ولمن اتَّبعه وتطمينٌ للمؤمنين إلى يوم الدين :

أيها الأخوة الأكارم، هذه الآية لها تطبيقٌ عمليٌ في حياتنا اليوميَّة، أي أنك إذا كنت مع الله لا ينبغي أن تخاف أحداً، لا ينبغي أن تخشى أحداً، لا ينبغي أن تستجيب لتهديدٍ ولا لوعيدٍ، لأنك مع الذي من بيده ملكوت السماوات والأرض، أنت مع مَنْ؟ خصومك كلهم في قبضته أتخشى أناساً والله معك؟

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

[سورة التوبة: 13]

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الله يكفي عبده، وهذه الآية تطمينٌ للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن اتَّبع النبي، وتطمينٌ للمؤمنين إلى يوم الدين:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

انظر إلى المؤمنين، يكفيهم مؤونتهم، يكفيهم حاجاتهم، يؤويهم في بيوت، يزوِّجهم مؤمناتٍ طيِّباتٍ طاهرات، يرزقهم ذريَّةً صالحة، يُعْلِي شأنهم في الدنيا، ييسِّر أمورهم؛ أما إذا قصَّروا، أما إذا خالفوا، أما إذا خرجوا عن منهج الله، فيؤدِّبهم لأنه ربُّهم، يكفيهم إن عصوه بالتأديب، ويكفيهم إن أطاعوه بالتكريم، يكفيهم خصومهم إن اعتصموا به، يكفيهم إن أقبلوا عليه شقاء الدنيا، يكفيهم إن استجابوا له ما في الحياة الدنيا من متاعب.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

من كان مع الله كان الله معه :

يا أيها الأخوة الأكارم، هذه الآية لو عرفها المؤمنون حقَّ المعرفة، لو فهموا أبعادها، لو وضعوا أيديهم على مضمونها، لامتلأت قلوبهم طمأنينة لا يعلمها إلا الله، وما المتاعب التي يعاني منها المؤمنون إلا بسبب تقصيرهم في عبوديَّتهم لله عزَّ وجل، هم يعبدون الله في بعض الأمور ولا يعبدونه في أمورٍ أخرى، هم لا يرون الله واحداً، لا يرون الله بيده كل شيء، يخافون من أشخاصٍ كثيرين، يرجون ما عند الناس ولا يرجون ما عند الله، فالضغوط التي يتحمَّلها المسلمون بسبب تقصيرهم في عبوديَّتهم لله عزَّ وجل، لو أنهم عبدوه لكفاهم كل مؤْنة، لكفاهم أمر دنياهم، لكفاهم أمر آخرتهم، لكفاهم خصومهم، لكفاهم هؤلاء الذين يكيدون لهم، ولكم في تاريخ المسلمين خير دليلٍ على هذه الآية، كلَّما كان المسلمون مع الله كان الله معهم، وكلَّما انحرفوا إلى الدنيا، وإلى الشهوات، وإلى حظوظهم، كلَّما قصَّروا في تطبيق أمر ربِّهم، كفاهم الله أمر أنفسهم بالتأديب، يأتي التأديب:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

استفهامٌ تقريري، والله جلَّ جلاله عَلَمٌ على الذات، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، الله جلَّ جلاله يكفي نبيَّه وكل من اتبع نبيَّه، وكل مؤمنٍ إلى يوم القيامة، والأمر بيده وحده، إذا أيقنا بمضمون هذه الآية انتزعت هذه الآية كل خوف، استأصلت كل قلقٍ، انزاح عن قلب المؤمن كل همٍّ وكل حَزَن، لذلك، من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهم، و:

((الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الأمر بيد الله وحده :

أيعقل أن تكون مع الله ويسلمك إلى عباده الذين لا يحبُّهم؟! أن تكون مع الله ويحوجك إلى عبادٍ لؤَماء؟! أن تكون مع الله ويقوي أعداءك عليك؟! أن تكون مع الله وأن يجعل حاجتك إليهم! أن يذلّك بين أيديهم! أن يجعلك تستخزي أمامهم! أن يجعلك تخنع لسيوفهم وأنت معه؟! أليس الله بعزيز؟ هل تقتضي عزَّته أن تكون ذليلاً؟ ألا تقرأ دعاء الثناء كل يوم:

اللهمَّ اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولَّنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقِنا واصرف عنَّا شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، سبحانك إنه لا يذل من واليت - إنك عزيزٌ يا رب - ولا يعزُّ من عاديت".

لا يذل من واليت ولا يعزُّ من عاديت، أي أنك حينما تخشى الناس وأنت مستقيمٌ على أمر الله عزَّ وجل معنى ذلك أنك لا تعرف الله، لا تعرف ألوهيَّته، ولا تعرف ربوبيَّته، ولا تعرف وحدانيَّته، حينما ترى أقوياء يتصرَّفون، حينما ترجو ما عندهم، أو حينما تخشى بأسهم، أنت لا تعرف الله عزَّ وجل، هذه الآية لم تتحقَّق بها، لذلك تسرَّب الخوف إلى قلبك، تسرَّب القلق، تسرَّب الشعور بالقهر.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

تكون معه ولا يكفيك؟! تكون معه ويسلمك إلى أعدائك؟! تكون معه ويقهرك أمام خصومك؟! أهكذا أخلاق الله عزَّ وجل؟!!

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد: 7]

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً)

[سورة النور: 55]

كلام خالق الكون:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

حيثما ترى أن المسلمين مصابون يُسلَّط عليهم أعداؤهم، ينال أعداؤهم منهم كل نَيْل، يجب أن تعلم علم اليقين أن هناك نقصاً في عبوديَّتهم لله عزَّ وجل، لأنهم لو كانوا عبيده كما أراد لكفاهم كل مؤنَة، ولجعل كلمتهم هي العليا، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العُليا.

على كلّ مسلم أن يجعل همه أن يعبد الله حق العبادة و يتقيه حق التقوى :

فيا أيها الأخوة الأكارم، لنجعل كل همنا أن نعبده حقَّ العبادة، أن نتقيه حقَّ التقوى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

وجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده، جاهدوا حق الجهاد، واتقوا حقَّ التقوى، وأطيعوا حقَّ الطاعة، وآمنوا حقَّ الإيمان، وتحقَّقوا من عبوديَّتكم لله عزَّ وجل من أجل أن يكفيكم كل مؤْنَة، وحينما يبدو لبعض المسلمين أن الله تخلَّى عنهم، والله ما تخلَّى عنهم؛ ولكن أراد أن يؤدِّبهم، أراد أن يجعلهم مؤمنين حقَّاً، أراد أن يجعلهم مسلمين حقاً، أراد أن يدفعهم إلى أبوابه، أراد أن يحملهم على التوبة، أراد أن ينقذهم من شرور أنفسهم حينما سَلَّط عليهم أعداءهم:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

والعبد هنا كما قال معظم المفسِّرين: هو النبي عليه الصلاة والسلام، ألم تقف مكَّة كلها ضدَّه؟ ألم تأتمر على قتله؟ ألم تخرج أصحابه؟ ألم تُنَكِّل بهم؟ ما الذي حدث؟ في أول مواجهةٍ بين النبي وأصحابه وكفَّار مكَّة خاطب النبي قتلى قريش وهم أبطالها وصناديدها، قال: " يا عتبة بن شيبة، يا أميَّة بن خلف - خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً وهم قتلى - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس ". قالوا: " يا رسول الله أتخاطب قوماً جيَّفوا؟! ". قال: " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبونني ".

الكفار دائماً يخوفون بالذين من دونهم :

أيها الأخوة الأكارم، وأنت في أي زمان، وفي أي مكان، وفي أي وضع، مهما تكن الظروف حرجة، ومهما يكن أعداء الله أقوياء، ومهما ينطوون على حقدٍ دفين لا يعلمه إلا الله:

(َقدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

إذاً نحن مع كلمةٍ في هذه الآية:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

على مستوى أفراد وعلى مستوى جماعات، في أي مكان، في أي زمان، في أي حال، في أي ظرف، مهما يكن الظرف عصيباً:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

دَورُ الكفار دائماً أنهم يخوفون بالذين من دونهم، ويكفينا وصفاً دقيقاً لهؤلاء الذين يبدو أنهم أقوياء، وصفٌ دقيق، هم جميعاً دون الله في كل شيء، إذا تحقَّقت فلا وجود لهم إطلاقاً مع وجود الله، قوتهم مستمدَّةٌ من الله عزَّ وجل، حركاتهم وسكناتهم بيد الله عزَّ وجل، إقدامهم وإحجامهم بيد الله عزَّ وجل، ظهورُهُم واختفاؤهم بيد الله عزَّ وجل، بطشهم ولينهم بيد الله عزَّ وجل، هذا هو التوحيد، هذا هو الذي يجعل المؤمن شخصيَّة فذَّة، هذا الذي يُبعد المؤمن عن النِفاق، عن التملُّق، وعن الخوف، وعن الخنوع، هذا الإيمان..

من أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله :

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فهل كنت معه وأصابك الضيم؟ يا رب كيف أفتقر في غناك؟ وكيف أضل في هداك؟ وكيف أذلُّ في عِزِّك؟ وكيف أضامُ في سلطانك؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فهل تعرف إنساناً واحداً على وجه الأرض اعتصم بالله وخذله الله؟

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف لك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه و أرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

أتحب أيها الأخ الكريم أن تكون أقوى إنسانٍ على وجه الأرض؟ والله إن هذا في متناولك، كن مع القوي تكن قوياً، أتحب أن تكون عزيزاً؟ كن مع العزيز، أتحب أن تكون غنياً؟ كن مع الغني، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فجهةٌ من جهات الأرض إذا خدمتها لا تنسى خدمتك لها، لا تسلمك لخصومك، لا تُضَحِّي بك، لا تتخلَّى عنك، يقول لك: هذا من جماعتنا لا يتخلون عن بعضهم بعضاً، فخالق الكون، الذات الكاملة، العزيز، القوي، الرحيم، يتخلَّى عن المؤمن؟ يسلمه لخصومه؟ يجعل لخصومه سبيلاً عليه؟ أين قوله تعالى:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

فإذا كان لهم سبيل فلنقص في الإيمان، نقصٌ في العبوديَّة، نقصٌ في الطَّاعة، خروجٌ عن منهج الله، ضعفٌ في العقيدة، ضعفٌ في التوحيد.

تسلُّط أعداء الله على المسلمين صعقة من أجل أن يعودوا إلى الطريق الصحيح :

وهذا الذي نراه من تسلُّط أعداء الله على المسلمين، إنها صعقةٌ من أجل أن نصحو، أليس طبيب القلب يَصْعَقُ القلب لعلَّه ينبض؟ لعلَّه يتحرَّك، لعلَّ الحياة تدبُّ فيه، وكذلك هذه الشدَّة التي يعاني منها المسلمون لعلَّهم يصحون من غفلتهم، لعلَّهم يعودون إلى ربِّهم، لعلَّهم يقفون على أبواب ربِّهم تائبين، خاشعين، هذه هي الحكمة، ينبغي ألا نسيء الظنَّ بالله عزَّ وجل، ينبغي ألا نظنَّ أن الله تخلَّى عن المسلمين، ولو سمعت أن أعداءهم يقسون عليهم في مشارق الأرض ومغاربها.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

أما حينما يقصِّرون، حينما يعصون، حينما يشركون، حينما يعتمدون على أشخاصٍ لا يحبُّونهم:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

الحقيقة أيها الأخوة أنه تكشَّف لجميع المسلمين أن خصومهم لا يرحمونهم، وينطوون على حقدٍ دفين، فلذلك علينا أن نكون عبيداً لله حتى يكفينا الله كل مؤْنَة، حتى يكفينا كل خصومةٍ وكل شدَّةٍ نعانيها من خصومنا..

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

المؤمن الحق لا يخوِّفك إلا من الله وغير المؤمن يخوِّفك من أشخاص كثيرين :

إذاً شأن الكفَّار التخويف، أنت بإمكانك أن تمتحن الذي يكلِّمك أهو مؤمنٌ أم كافر؟ مؤمن أم مُشرك؟ مؤمنٌ أم عاصٍ؟ إذا طمأنك إلى أن الله لن يتخلَّى عن المؤمنين فهذه علامة إيمانه.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ*الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام : 81-82]

أما الذي يخيفك من زيد، أو من عُبَيْد، فيظهر لك قوَّته، وبأسه، وبطشه، ووعيده، أما الذي يدفعُك إلى معصية الله إرضاءً لزيدٍ أو عُبيد فاعلم علم اليقين أنه ضعيف الإيمان، إن لم نقل: عديم الإيمان، والدليل:

(وَيُخَوِّفُونَكَ)

المؤمن الحق لا يخوِّفك إلا من الله، وغير المؤمن يخوِّفك من أشخاصٍ كثيرين، هذا إيَّاك أن تغضبه، وهذا إياك أن تستفزه، وهذا إياك أن تعصي أمره ولو أمرك بمعصية، هذا كلام أهل الدنيا، هذا كلام الجُهَّال، هذا كلام الفُسَّاق، هذا كلام المشركين.

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

ويكفينا تعريفاً من الله بهؤلاء أنهم دون الله عزَّ وجل، أنت مع الله وخصمك مع من سوى الله، مع من هو دون الله عزَّ وجل لا بقليل ولكن بكثير.

الإضلال إذا عُزِيَ إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري :

الآن أيها الأخوة:

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

الإضلال كما تعلمون إذا عُزِيَ إلى الله جلَّ جلاله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، وأفضل مثالٍ يوضِّح هذه الآية: أن جامعة حريصة حرصاً لا حدود له على مستقبل طُلاَّبها، وعلى نجاحهم وتفوقهم، اكتشفت من خلال أوراق الدوام أن زيداً من الطلاَّب لم يداوم أبداً ولم يشتر كتاباً، ولم يحضر ولا محاضرة، ولم يتقدَّم إلى الامتحان، أرسلت له كتاباً تدعوه فيه إلى لقاء عميد الكليَّة، إلى التسجيل بشكلٍ استثنائي، محاولةٌ، واثنتان، وثلاث، وأربع، وخمس، وهذا الطالب مُصِرٌ على ألا يلتحق بالجامعة، وألا يشتري كتاباً، وألا يحضر أية محاضرة، وألا يؤدي امتحاناً، وبعد محاولاتٍ كثيرة ويائسة أصرَّ هذا الطالب على رفض الدراسة كلياً، عندئذٍ لابدَّ من صدور كتابٍ يُرَقِّم فيه قيد هذا الطالب، متى رقِّم قيده؟ ومتى أُخرجَ من الجامعة؟ بعد أن أخذ آلاف المواقف العنيدة المُصِرَّة على عدم قبول الدراسة، إذاً هذا الفصل، وهذا التَرْقيم، وهذا الإخراج من الجامعة هو نتيجةٌ حتميَّةٌ، وعند عُلماء المنطق تحصيل حاصل، نتيجة حتميَّة لاختياره الذي أصَرَّ عليه في عدم الدراسة.

فإذا أصرَّ الإنسان على اختيار الشهوة، أصرَّ على الدنيا وترك الآخرة، أصرَّ على شهواته وترك مبادئه، أصرَّ على مصالحه وترك قيَمَهُ، أصرَّ على أن يكون مع الشيطان وترك ربَّه، وقد جرت محاولاتٌ عدَّة ؛ تارةً بالنُصح، وتارةً بالتضييق، وتارةً بالمرض، وتارةً بالشدَّة، وتارةً بالفقر، وتارةً بالخوف، وكل هذه المحاولات لم تُجْدِ، وبقي مصراً على معاصيه، وشهواته، وضلالاته، عندئذٍ التحصيل الحاصل أن الله يضلُّه، فإذا أضلَّه الله لا تستطيع قوَّةٌ في الأرض أن تهديه إلى سواء السبيل، لأن الله بيده كل شيء.

الله جلَّ جلاله هو الذي خلقه، وهو الخبير به، وقد ساق له كل شيءٍ لعلّه يهتدي إليه، ومع ذلك أصرَّ على ضلاله، إذاً أضلّه الله، وإضلال الله إضلالٌ جزائي مبنيٌ على ضلالٍ اختياري، عندئذٍ لا تجدي معه نصيحة، ولا يستطيع أن ينقذه إنسان كائناً من كان.

من اختار العقل على الشهوة والقيَم على المصالح سيهديه الله ويزيده هدىً :

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ)

هذا الذي أراد معرفة الله، أراد أن يضع يده على الحقيقة الكبرى في الكون، هذا الذي سعى لمرضاة الله، هذا الذي طلب العلم، حضر مجالس العلم، استمع إلى تفسير القرآن، إلى بيان السنَّة المطهَّرة، إلى أحكام الفقه، إلى سيرة النبي وأصحابه، هذا الذي أراد أن يكون مؤمناً سلك مسالك الإيمان، حضر مجالس العلم، ارتاد بيوت الله عزَّ وجل، وقف عند كتاب الله، وقف عند أمره ونهيه، هذا الذي اختار الهدى على الضلال، اختار الآخرة على الدنيا، اختار العقل على الشهوة، اختار القيَم على المصالح، هذا الذي طلب الهُدى سيهديه الله ويزيده هدىً، لقوله تعالى:

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

[سورة الكهف: 13]

من هداه الله بعد أن أصرَّ على الهدى ليس في الأرض كلّها قوّةٌ تستطيع أن تضلّه :

هذا الذي هداه الله عزَّ وجل بعد أن أصرَّ على الهدى، وبعد أن طلب الهدى، ليس في الأرض كلّها قوّةٌ تستطيع أن تضلّه، لا نظريات، ولا مبادئ هدَّامة، ولا نظريات إلحاديَّة، ولا أناسٌ أقوياء تلتمع بين أيديهم سبائك الذهب، ولا أناسٌ أقوياء تلمَعُ بين أيديهم السياط اللاذعة، لا السياط اللاذعة ولا سبائك الذهب اللامعة بإمكانها أن تقوِّض الإيمان في نفس المؤمن.

فالذي اهتدى اهتدى، لو أن الأرض كلّها اجتمعت على أن تصرفه عن عقيدةٍ اعتقدها لا تستطيع، كل الضلالات في الأرض لا تستطيع أن تزيحه قيد أنملةٍ عن عقيدته الإسلاميَّة، كل ما في الأرض من ضلالات، من شُبَه، من نظرياتٍ هدَّامة، من مبادئ إلحاديَّة، من نظرياتٍ تريد أن تسلخ المسلم عن دينه، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وكل قِوَى الشر مهما ضغطت لا تملك شيئاً، فرعون قال:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا

وَأَبْقَى* قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[سورة الشعراء: 70-72]

تصور هذه الآيات خاضعة للتعرُّف عليها من خلال الممارسات اليوميَّة، مهما كان خصمك كبيراً إذا كنت مع الله لانَ لك، أو خَضَعَ لك، أو مكّنك الله منه، أو ألقى الله في قلبه الرُعْبَ منك، كيف؟ هذا فعل الله عزَّ وجل.

الله عزيزٌ ذو انتقام تقتضي عزَّته أن يعزَّ المؤمن و أن يذلَّ الكافر :

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ)

ما علاقة هذا الاسم العظيم بسياق هذه الآية؟ تقتضي عزَّته أن ينصر المؤمن، تقتضي عزَّته أن يرفع شأن المؤمن، تقتضي عزَّته ألا يحتاج المؤمن خَصْمِهِ، تقتضي عزَّته ألا يجعل للكافر على المؤمن سبيلاً، تقتضي عزَّته أن يذلَّ الكافر، تقتضي عزَّته أن يُعاقب الكافر، تقتضي عزَّته أن يُحْبِطَ عمل الكافر:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

ألا ترون في التاريخ كم هي المحاولات التي أرادت إطفاء نور الله؟ كم هي المحاولات التي أرادت استئصال الإسلام من جذوره؟ والمحاولات تجري..

(قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

ومع ذلك الله مع المؤمنين، وهذا الدين يزداد قوَّةً على قوَّة:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

استفهام تقريري، أي أن الله عزيزٌ ذو انتقام، تقتضي عزَّته أن يعزَّ المؤمن، وتقتضي عزَّته أن يذلَّ الكافر، تقتضي عزَّته أن يرفع شأن المؤمن، وتقتضي عزَّته أن ينتقم من الكافر.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

انتهاء مهمَّة المسلم عند طاعة الله عزَّ وجل :

إذاً الآيات:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

كن عبده وانتهى الأمر.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

تنتهي مهمَّتك عند طاعة الله عزَّ وجل، وعندئذٍ ترى رأي العين كيف أن الله يجري الأمور كلها لصالِحِك، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يؤيِّدك بنصرٍ من عنده، كيف أن الله سبحانك وتعالى معك بالنصر، معك بالتأييد، معك بالحِفظ، معك بالتوفيق، معك بالهداية.

الآية التالية أراد الله منها أن يقيم الحُجَّة على الكافر و المشرك :

الآن المعنى نفسه جاء بصيغةٍ أخرى، قال:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

هؤلاء الذين معكم في أعمالكم، في بيوتكم، حولكم، فوقكم، تحتكم، أقوى منكم، أضعف منكم، هؤلاء الناس اسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ سؤال إجابته فطريَّة، هو الله، فالذي يقول: ليس لهذا الكون إله قلَّةٌ قليلةٌ لا شأن لها إطلاقاً، لكن الكثرة الكثيرة يقرّون أن الله هو خالق السماوات والأرض.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

لكن إذا كان الله كما تقولون هو الذي خلق السماوات والأرض لماذا تخافون من دونه؟ لماذا تخشون هؤلاء؟ لماذا تحسبون لهم حساباً؟ هذا تناقض، أنبئونا إذا كان الله هو الخالق هؤلاء لا قيمة لهم، هنا أراد الله عزَّ وجل أن يقيم عليهم الحُجَّة.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

كلام مُطْلَق، والمطلق على إطلاقه، إن أردت أن تفهم هذه الآية في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الأصنام اللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى، هذه الأصنام التي عُبِدَت من دون الله، هذه الأصنام هل بإمكانها أن تدفع عنك ضُراً أو أن تجلب لك نفعاً؟

وإذا أردت أن تفهم هذه الآية في هذه الأزمان: الأشخاص الذين تظنُّهم أقوياء، وتظن أن بيدهم الحل والربط، هم عبادٌ لله عزَّ وجل ضعفاءٌ مثلك، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا بإذن الله عزَّ وجل، لكن الآية مطلقة شملتهم جميعاً:

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أيُّ جهةٍ صنماً كان أو شخصاً، جهة أو قوَّةً أو دولة، فهناك من يتوهَّم وجود دولة قويَّة جداً تحكم العالَم كلّه، هذا شركٌ بالله عزَّ وجل.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

[سورة يونس : 24]

أَمْرُنَا لا أمرهم.

سعادة الإنسان وشقاؤه من قِبَل الله عزَّ وجل :

إذاً:

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

دقِّقوا:

(إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ)

الأصنام أو الأشخاص أو الجهات الكبرى.

(إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ)

أجبنا؟ إذا كنت تؤمن أن الله خالق السماوات والأرض، وأن هذه الأصنام، أو أن هؤلاء الأشخاص، أو أن هذه الجهات القويَّة هي في قبضته، ومن خلقه، وأمرها بيد الله عزَّ وجل، هل هذه الجهات التي تعبدها من دون الله تستطيع أن تدفع عنك ضرَّاً أراده الله؟ أو أن تجلب لك نفعاً منعه الله؟

لا تنسوا أن الإمام الحسن البصري كان عند أحد ولاة يزيد بن معاوية، وقد جاءه كتابٌ من يزيد، يبدو أن هذا الكتاب فيه توجيهٌ لا يرضي الله عزَّ وجل، فوقع هذا الوالي في حرج شديد، إن أطاع يزيد أغضب الله، وإن أرضى الله أغضب يزيد، فماذا يفعل؟ كان إلى جانبه الحسن البصري، وهو من كبار التابعين، فقال: ماذا أفعل؟ أجابه الحسن البَصريُ إجابةً هي في الحقيقة قانون، قال له الحسن البصري: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

وهذه قاعدة يمكن أن تستخدمها كل يوم، إنسان قوي أمرك بمعصية قل: إنَّ هذا الإنسان لا يمنعني من الله إذا أرادني الله بضر، أما إذا أرادني بخير فلا يستطيع هذا الإنسان أن يمنع عني الخير، إذاً سعادتي وشقائي من قِبَل الله عزَّ وجل، هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

خير الإنسان من الله عز وجل :

إذاً هذه المناقشة الثانية.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ)

أي إذا أراد الله عزَّ وجل أن يعاقب إنساناً بمرضٍ عضال، ماذا يفعل الأطبَّاء؟ لا حل، الأطباء جميعاً يرفعون أيديهم مستغربين، مرضٌ لا حلَّ له، ماذا يفعل المال؟ المال لا يُجدي، ماذا يفعل أقرب الناس إليه؟ ماذا يفعلون؟ فإذا أراد الله بإنسانٍ ضراً، أهل الأرض جميعاً لا يستطيعون أن يحولوا بين الله وبين هذا الضُر، وإن أراد الله بقومٍ رحمة أهل الأرض جميعاً لا يستطيعون أن يمنعوا هذه الرحمة، إذاً خيرك من الله.

(قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

حسبي الله ونعم الوكيل هذه من الأوراد التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يذكرها، حسبي الله ونعم الوكيل.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران: 173-174]

الفرق بين المكان والمكانة :

الآن:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

ما الفرق بين المكان والمكانة؟ المكان الشيء المادي، والمكانة الشيء المعنوي، فلان في مكان كذا، في قمَّة جبل، في حضيض الوادي، في سهلٍ، في رابيةٍ، في تلَّةٍ، هذا هو المكان، أما المكانة؛ فلان له قناعاته يحتل مكانة المعارض للحق، فلان مكانته داعيةٌ إلى الله عزَّ وجل، فلان مكانته العمل الصالح،

فلان مكانته إيقاع الأذى بين الناس، المكانة التي تحتلُّها بحسب عقيدتك وقيَمك وقناعاتك هي المكانة وليست المكان، النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عزَّ وجل أن يقول:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أي استمروا على قناعاتكم، وعلى معتقداتكم، وتحرَّكوا من خلالها، واستمروا على شأنكم الذي بين الناس..

(إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

أهل الحق يعملون للحق، وأهل الباطل يعملون للباطل، أهل الحق يدعون إلى الله عزَّ وجل، أهل الباطل يدعون إلى الدنيا، يدعون إلى باطلهم، أهل الحق يدعون إلى الخير، أهل الباطل يدعون إلى الشر، أهل الحق يدعون إلى الوئام، أهل الباطل يدعون إلى الفِتَن..

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك :

النبي عليه الصلاة والسلام واثقٌ من النتائج، افعل ما تريد وأنا سأفعل وفق معتقداتي وإيماني، وسوف ترى من هو الخاسر، سوف ترون من هو الرابح ومن هو الخاسر، سوف ترون لمن العاقبة؛ للمؤمنين أم لغير المؤمنين؟ لمن النصر في النهاية، لأهل الإيمان أم لأهل الكفر؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف : 128]

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

أي إني عاملٌ على مكانتي، شأن المؤمن أنه يدعو إلى الخير، وشأن الكافر أنه يدعو إلى الشر، شأن المؤمن أنه يدعو إلى الله عزَّ وجل، شأن الكافر أنه يدعو إلى زيدٍ أو عُبيد، شأن المؤمن أنه يحب الإصلاح بين الناس، شأن الكافر يحب الفساد بين الناس، قال:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أي على ما أنتم عليه من قيَمٍ، واعتقاداتٍ، ومبادئ، وتصوُّرات، وأوهام، هذه مكانتكم، كل إنسان له دور في الحياة، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، إنسان عمله الخَير، عمله العَطاء، عمله الهُدى، عمله إكرام الخَلق، عمله بثُّ الفضيلة في الناس، إنسان عمله بث الرذيلة، الإيقاع بين الناس، سلب حريَّة الناس، سلب ممتلكاتهم، إيقاع الأذى بهم، هذه مكانة وهذه مكانة، وكما ورد في الحديث القدسي:

((أنا خلقت الخير والشر، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، وويل لمن قدرت على يده الشر))

[كنز العمال عن ابن عباس]

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

للفاسد المفسد عذابان؛ عذاب في الدنيا و عذاب في الآخرة :

ثم يقول تعالى:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)

عذاب مُخْزٍ:

(وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

عذابان، قال المفسِّرون: العذاب الأول في الدنيا، والعذاب الثاني في الآخرة..

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

يكاد المؤمن يعلم ما سيكون، لا لأنه يعلم ما سيكون ولكنه يعلم ما في كتاب الله من وعدٍ ووعيد، يكاد المؤمن يعلم ما سيكون لا لأنه يعلم ما سيكون؛ بل لأنه يصدِّق ربَّ العالمين، هذه الآية بإمكانك أن تتوقَّع أنه لكل فاسدٍ مفسدٍ، ضالٍ مضل، منحرفٍ، مؤذٍ، عذاباً في الدنيا مخزياً، وأن تتوقَّع له عذاباً في الآخرة مُقيماً، ماذا فعلت أنت؟ طبَّقت كلام الله عزَّ وجل؟ هذه الآية ألا تكفينا؟ ألا تكفي المؤمن أنه يعلم مصير أهل الدنيا؟ مصير إعراضهم؟ مصير غفلتهم؟ مصير انحرافهم؟ مصير معاصيهم؟ مصير فجورهم؟

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

افعلوا ما تشاؤون، لكم أن تفعلوا ما تشاؤون.

(إِنِّي عَامِلٌ)

على مكانتي أيضاً:

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)

الإنسان مخير :

أيها الأخوة الأكارم، إذا أردتم أن تعرفوا مصير المؤمن ومصير الكافر، للمؤمن خطٌ بيانيٌ صاعدٌ صعوداً مستمراً، لا يتوقَّف هذا الصعود حتى عند الموت، لأن الموت نقطة على هذا الخط، ويبقى الخط صاعداً، أما الكافر فقد يصعد خطُّه البياني صعوداً حاداً ليسقط من علٍ، لذلك:

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ *إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

الإنسان مخيَّر:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة القصص: 56]

هم مخيَّرون:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

إنك لا تستطيع أن تهديهم لأنهم مخيَّرون، إن لم يختاروا الهُدى لن يهتدوا، ولست مسؤولاً عن عدم هدايتهم، عليك البلاغ وعلينا الحساب.

الأمر بيد الإنسان وحده وكل النتائج له خيرها وشرُّها :

إذاً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

خيرك منك وشرُّك منك، طائرك معك، إن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها، إن آمنت فلنفسك، وإن لم تؤمن فعليها، إن استقمت فلنفسك وإن لم تستقم فعليها، إن طلبت العلم فلنفسك وإن أعرضت عنه فعليها، الأمر لك بيدك وحدك، وكل النتائج لك خيرها وشرُّها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ)

أي ليقرأه الناس، ليتدبَّره الناس، ليفهمه الناس، ليكون لهم مبشِّراً ونذيراً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ)

ليس لخاصَّتهم، ليس لفئةٍ قليلة، بل للناس جميعاً:

(بِالْحَقِّ)

بالقول الثابت.

الضلال عبءٌ على النفس يسحقها والهُدى يرفعها إلى أعلى عليين :

الحق ما طابق الواقع، الحق ما كان ثابتاً، وأنتم ترون أيها الأخوة كيف أن هناك مذاهب انهارت، وتبددت، وتقوَّضت دعائمها لأنها ليست حقَّاً بل هي باطلاً، والباطل كان زهوقاً كما قال الله عزَّ وجل، الحق ثابت، إلى يوم القيامة الحق هو الحق، لذلك هنيئاً لمن كان مع الحق، مع القول الثابت، مع الواقع، ليس في حياة أهل الحق مُفاجآت، لكن في حياة أهل الباطل آلاف المفاجآت، إحدى هذه المفاجآت أن الذي كان يعتقدونه صواباً منذ بضع عشرات السنين أصبح باطلاً، أصبح خرافةً، أصبح بيتاً من عنكبوت، أصبح بناءً هَشَّاً سُرْعَان ما تقوَّض.

إذاً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ)

إليه:

(فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ)

عنه:

(فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

انظر إلى عليها، الضلال عبءٌ على النفس، يسحقها، والهُدى مع اللام فلنفسه، يصبح الهدى ملكه هو ليرفعه.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

هم مخيَّرون، وأنت عليك البلاغ وعلينا الحساب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (14-20): تفسير الآيات 41-42، القرآن الكريم حبل الله المتين من تمسك به نجا ومن تركه هلك.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-04-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

تحدث الله جلَّ جلاله عن ذاته بضمير المُفْرَد :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع عشر من سورة الزُمَر ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

تعلمون أيها الأخوة أن الله جلَّ جلاله إذا تحدَّث عن ذاته تحدَّث بضمير المُفْرَد..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

أما إذا تحدث الله جلَّ جلاله عن أفعاله فيتحدث بضمير الجَمْع، لأن أفعاله فيها كل أسمائه، كل فعلٍ من أفعاله، فيه القدرة، وفيه الحكمة، وفيه العلم، وفيه الخبرة، وفيه الرحمة، وفيه اللطف، أفعاله فيها كل أسمائه.

القرآن الكريم حبل الله المتين من تمسك به نجا ومن تركه هلك :

قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)

والكتاب، كلمة كتاب إذا عُرِّفَتْ بال تعني إما القرآن الكريم أو تعني مطلق الكتب السماوية، ولكن حينما توجه الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فصارت كلمة الكتاب تعني القرآن الكريم بالذات.

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ)

القرآن الكريم ودعوة النبي للناس كافة، الإسلام لكل الناس، ليس حِكْرَاً على أناس، دين الله عزَّ وجل أعظم وأكبر من أن يحتكره إنسان، أو تحتكره جماعة، أو أن يحتكره زمانٌ أو مكان، أو فئة، دين الله لكل الناس، الله رب الناس وهم عبيده، وقرآنه لكل الناس، والقرآن الكريم كما تعلمون أيها الأخوة حبل الله المتين، فكل من تمسك به نجا، ومن تركه هلك.

من تعامل مع الله عزَّ وجل فلن يضلَّ أبداً :

ماذا تعني كلمة بالحق؟ قالوا: لابسَ الحق نزولَه، والحق الشيء الثابت الذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا يتحوَّل، ولا يتعدَّل، ولا يُلغى، ولا يجَدَّد، الحق هو الله عزَّ وجل واجب الوجود، كلامه هو الحق، أوامره هي الحق، نواهيه هي الحق، الحلال هو الحق، الحرام هو الحق فالحق أن يحَرَّم، فكل ما جاء في القرآن الكريم حقٌ من عند الله عزَّ وجل.

فالإنسان حينما يتعامل مع المتغيرات يتعثر، فالأنظمة الوضعية، والنظريات الوضعية، والمبادئ الوضعية، والمذاهب الوضعية، هذه كلها متغيرة، فإذا تعاملنا معها ففي حياتنا مفاجآتٌ كثيرة، وعثرات خطيرة، ومنزلقاتٌ مهلكة، لكنك إذا تعاملت مع الحق، مع الله عزَّ وجل، مع كلامه، مع قوانينه، مع تعليماته، مع أوامره، مع نواهيه، فإنك لن تضلَّ أبداً، ألم تقرؤوا قول الله عزَّ وجل:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

فهل هناك ثمرة أو نتائج أطيب من هذه النتائج؟ ألا يضل عقلك، وألا تشقى نفسك.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة : 38]

آية تبث في النفس الطمأنينة، هل هناك من آيةٍ تَبُثُّ في النفس الطمأنينة أكثر من هذه الآية؟ الماضي مغطَّى والمستقبل مغطَّى، لا خوفٌ عليه، لا يخشى مما هو آت في المستقبل، ولا يندم على ما فات، إذاً هذا الحق.

القرآن الكريم خطاب الله عزَّ وجل للناس كافة :

المؤمن الموفق، العاقل، الحكيم، هو الذي يسأل، هذا الخالق العظيم، الذي يدل خلقه على قدرته، ويدل خلقه على علمه، ويدل خلقه على كماله، أيعقل أن يدع الناس دون منهجٍ يسيرون عليه؟ يكون فيه تعليماتٍ، من أمرٍ ونهيٍ، من تبشيرٍ وتحذيرٍ، من بيانٍ لما سيكون، لما بعد الموت، من بيانٍ لما كان قبل أن يأتوا إلى الدنيا، لابُدَّ، وهذا القرآن خطاب السماء إلى الأرض، خطاب الله عزَّ وجل للناس كافةً.

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ)

فالإنسان يجب أن يعلم علم اليقين أن الخلق كلهم عند الله سواسية قال له: " يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ". أنت مطلوب أيها

الأخ الكريم في أي زمان، في أي مكان، من أي جنس، من أي عِرق، من أي أمة من أي خلفية، من أي انتماء، أنت إنسان مطلوب من قبل الله عزَّ وجل خلقك ليسعدك، ولا يزالون مختلفين.

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ*إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

[سورة هود: 118-119]

مخلوق كي يسعدك الله عزَّ وجل، جاء بك إلى الدنيا كي تكون الدنيا إعداداً للآخرة، جعلك في دنيا جعلك في حياةٍ دنيا إعدادية، لحياةٍ أخرى أبدية، ما جاء في هذا القرآن، منذ ألفٍ وخمسمائة عام لا يمكن أن يتبدل، ولا أن يتغير، ولا أن يطرأ عليه أي تعديل لأنه حق، والحق الشيء الثابت.

وهناك أمثلةٌ كثيرة: لو أن جداراً بني على الحق، بني على الشاقول، وحفرت له أساساتٌ عميقة، ووضعت مواد بنسبٍ ممتازة، هذا الحائط لا يقع، لأنه بُني بالحق، بُني ليبقى، أما إذا بني ولا أساس له فلابُدَّ من أن ينهار، إذا بني دون شاقول غالباً ما ينهار، وإذا بني بمواد ليست جيدة، أغلب الظن أنه ينهار، لأنه بني بالباطل.

كم أتى على الإسلام من مذاهب، واجتياحات من الشرق ومن الغرب، كم ظهرت من نظريَّات، كم ظهرت من مبادئ، كم ظهرت من مذاهب، هو كالطود الشامخ لأنه حق، ما من آيةٍ في القرآن الكريم يمكن أن يأتي وقتٌ ينقضها العلم، كلما تقدم العلم اقترب من القرآن الكريم، كلما تقدم العلم توافقت الآيات القُرآنية مع المنجزات العلمية الحقَّة.

القرآن يعبِّر عن الحقيقة والحقيقة التي جاءت في القرآن الكريم حقٌ ثابت :

إذاً كلمة

(بِالْحَقِّ)

هذه الكلمة يجب أن نشعر أنها كلمةٌ عميقةٌ جداً، القرآن يعبِّر عن الحقيقة، والحقيقة هي التي قنَّنها الله عزَّ وجل، السُنَّة التي سنَّها الله، الحقيقة التي جاءت في القرآن الكريم حقٌ ثابت، قال بعضهم: هذه الباء للملابسة، أي لابس الحق نزول هذا القرآن.

الإنسان يسعى للتعلق بشيء ثابت، ويتعلق بأشياء متغيرة، بأشياء لم تثبت صحتها، بأشياء لم تبن على أساسٍ صحيح، ولكن بُنيت على ظنون، بنيت على أهواء، بنيت على نزعات، لأن هذه الأشياء المبنية على الأهواء والنزعات والرغبات هذه تنهار، وقريباً ما تنهار ولو امتد بها الزمان، وبين أيدينا تجارب لأممٍ كثيرة بنت بناءً شامخاً على أساسٍ باطل، مهما امتدَّ الزمان هذا البناء قد انهار وتداعى وكأنه بيت العنكبوت، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء: 81]

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا*وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء: 80-81]

وما من سعادةٍ تملأ قلب المؤمن أكثر من أن يعتقد اعتقاداً صحيحاً مهما امتد الزمان، مهما ظهرت العوامل الخارجية يبقى دينك شامخاً، تبقى عقيدتك صحيحةً، يبقى تصوُّرك عن الكون والحياة والإنسان مطابقاً للواقع، والحقيقة العلم ما طابق الواقع، هذا كأس ماء إذا قلت عنه: إبريق ماء، فقد خالفت الواقع، وإذا قلت: كأس ماء فأنت مع الواقع، وهذا علم لأن هذا الكلام مطابقٌ للواقع.

وتعريف الجهل هو الكلام الذي يخالف الواقع، فكل دعوةٍ باطلةٍ تخالف الواقع، كل دعوةٍ موهومةٍ مزعومةٍ تخالف الواقع، الواقع هو الشيء الثابت، فالقرآن يطابق الحق ويطابق الواقع، ويوافق العقل، ويوافق الفطرة، ويوافق النقل، نقلٌ وعقل وفطرةٌ وواقع، إذا اجتمعت هذه العوامل الأربعة فأنت في دائرة الحق.

الناس في الدنيا مخيَّرون :

لذلك:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ)

من اهتدى إلى الحق.

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

هذه اللام للمُلْكِيَّة، أي شيء ثمين يُمَلَّك.

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ)

فالضلال كأنه صخرةٌ تسحق الإنسان.

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

الله هو الوكيل، أمرهم ليس بيدهم، أمرهم بيد الله، هم في الدنيا مخيَّرون، إن أرادوا أن يهتدوا فلهم ذلك، وإن أرادوا أن يضلوا فعليهم ذلك:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

دعوة النبي دعوة حق لكن الاستجابة لها ليست بيده بل بيد الناس :

لذلك في آيات أخرى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

دعوتك حق، لكن الاستجابة لها ليست بيدك بل بيد الناس، فإما أن يستجيبوا وهم مخيرون، وإما ألا يستجيبوا، إن استجابوا فلأنفسهم، وإن لم يستجيبوا فعليهم:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

الإسلام ألغى كل الانتماءات إلا انتماءً واحداً هو انتماء الحق :

عم سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام "أبو لهب" لم يؤمن.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

أما سلمان، قال:

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، الإسلام ألغى كل الانتماءات إلا انتماءً واحداً هو انتماء الحق، فإذا انتميت إلى الحق فكل من ينتمي للحق أخوك في الدين، فالإسلام أداة جمعٍ لا أداة تفريق، كل من تعرَّف إلى الله عزَّ وجل، وعرف منهجه، وطبَّق منهجه، تشعر أنه أخوك وأقرب الناس إليك، لأن نقاط اللقاء بينك وبينه كثيرة؛ العقيدة مشتركة، والقيّم مشتركة، والأهداف مشتركة، والمبادئ مشتركة، والسلوك مشترك، كلها قواسم مشتركة توحّد بين المؤمنين.

من الوكيل إذاً؟ الله جلَّ جلاله، أي أن أمرك بيده، هو الوكيل.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

لكن الوكيل الحقيقي هو الله.

الله سبحانه وتعالى مَلّكَ الإنسان نفسه تمليكاً مؤقتاً فعليه تزكيتها لا تدنيسها :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)

معنى يتوفّى، توفّيت الدين، أي أخذته بعد أن منحته، تمنح حاجة ثم تتوفّاها أي تسترجعها، إذاً من كلمة:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ)

أي أن الله سبحانه وتعالى مَلّكَكَ نفسك تمليكاً موقتاً ولابُدَّ من أن يستوفي هذه النفس، يستوفيها مرتين، يستوفيها مرةً وأنت نائم، هذه الوفاة وفاة النوم، ويستوفيها نهائياً عند الموت، هذا الشيء النفيس الذي منحت إياه، والذي جُعلت وكيلاً عليه، والذي جعل أمانةً في عنقك، والذي وكل إليك أمر تزكيته هي نفسك التي بين جنبيك، والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

أنت حامل أمانة، الأمانة نفسك التي بين جَنْبَيْكَ، هذه النفس إن زكّيتها سعدت بها إلى أبد الآبدين، وإن دنّستها شقيت بها إلى أبد الآبدين، هي الآن ملكك، وباختيارك، وتحت تصرُّفك، لكن الله جعل النوم استيفاءً لهذه النفس مؤقتاً، وجعل الموت استيفاءً لهذه النفس استيفاءً نهائياً، لذلك شعور الإنسان حينما يستيقظ كأنما بعث من جديد، أنت كنت ميّتاً بالتعبير القرآني، لكن الله سبحانه وتعالى ردَّ لك نفسك، لذلك ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته النبوية الشريفة:

((إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا))

[أحمد عن أبي هريرة]

الإنسان إذا أوى إلى فراشه لينام، عليه أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى وهو نائم يستوفي نفسه أي يسترجعها، موتٌ مؤقّت، النوم موت مؤقّت، فإذا كتب الله على هذه النفس الموت، لا يردُّها إليك في صبيحة اليوم التالي، آلاف الحوادث، لم يستيقظ على صلاة الفجر، وجدوه ميتاً، فإما أن يستمر هذا النوم أو الموت، فهو الموت الحقيقي، وإما أن تسترد النفس لتعيش يوماً جديداً.

الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه :

الإنسان العاقل عندما يستيقظ يقول:" الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا" دعاء نبوي.

سمح الله لي أن أعيش يوماً جديداً، ماذا ينبغي أن تفعل في هذا اليوم؟ ماذا ينبغي أن تفعل من الصالحات؟ الزمن شيء ثمين جداً، أنت زمن، أنت أيها الإنسان بضعة أيام، وكلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، أنت مستهلك، الزمن يستهلك الإنسان، إذا الإنسان ركب سيارة واتَّجه إلى مدينة، كلما قطع كيلو متراً المسافة تنقص، فالحقيقة نحن كلما عشنا شهراً أو سنة نقصت أعمارنا، فكلما كبرت صغرت، احسب كم بقي؟ اعمل عدّاً تنازلياً، كالمركبات الفضائية، سبعة، ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، صفر، والإنسان العاقل لا يقول: أنا عمري كذا، لا يسأل كم بقي له؟ إذا كان كما قال النبي عليه الصلاة - إذا كان عمري وفق المتوسط العام- "معترك المنايا بين الستين والسبعين"، إذاً بقي لي عشر سنوات، فكل إنسان ينبغي أن يسأل هذا السؤال الدقيق، وربما كان هذا السؤال قاسياً: يا نفس هل بقي بقدر ما مضى؟

الإنسان فوق الأربعين أغلب الظن الذي بقي أقل مما مضى، لأنه من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة.

يعمل الإنسان نزهة لو فرضنا ستة أيام، أول يوم والثاني والثالث والرابع التفكير إيجابي، لكن بالخامس والسادس التفكير سلبي؛ يفكر في جمع الأغراض، وتأمين العودة، فإذا دخل الإنسان في الأربعين، الأكمل أن يهيئ لملاقاة الله عزَّ وجل فما رأيت إنساناً أشد خسارةً ممن تخطى الأربعين وهو مقيمٌ على معصية الله عزَّ وجل، هذا الذي يجلس في المقاهي يلعب النرد، وهو في الخمسين أو الستين، يا ربي ماذا أبقى لآخرته؟! كيف سيلقاك هذا الذي لا يصلي؟ هذا الذي يطلق بصره في الحرام؟ هذا الذي يكسب مالاً حراماً؟ هذا الذي يكذب؟ هذا الذي يحتال على الناس ليأكل أموالهم بالباطل وهو فوق الأربعين، ماذا بقي له؟ كيف سيلقى الله عزَّ وجل؟

بطولة الإنسان أن يتهيأ للساعة التي لابدّ منها :

إذاً:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ)

انظر إلى النوم، النوم دليل، أنت في النوم ميِّت، لذلك النائم لا يحاسب، لأن الله أخذ منه نفسه، لا يحاسب مهما فعل، مهما تكلَّم، النائم في حكم الميت، موت مؤقَّت، ينام الإنسان بغرفة قميئة ومظلمة ويشعر بسعادة لا توصف، وينام في قصرٍ منيف ويشعر أنه بين الأفاعي والثعابين، يفيق مذعوراً،

معنى ذلك أن النفس منفصلة عن الجسد، لك نفسٌ هي التي تشقى، وهي التي تسعد، هذه النفس هي التي تلقى الله عزَّ وجل.

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

إذاً كل بطولتك أن تتهيأ لهذه الساعة التي لابُدَّ منها، كل بطولتك، كل ذكائك، كل عقلك، كل فوزك، كل نجاحك، كل فلاحك، كل تفوّقك أن تهيِّئ لهذا اليوم الذي لابُدَّ منه.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ*فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 8-10]

عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

الموت أكبر درس للإنسان :

كان من الممكن أن يأتي الناس إلى الدُنيا دفعة واحدة، وأن يغادروها دفعةً واحدة، عندئذٍ لا يتَّعظ بعضنا ببعض، الموت أكبر درس بين أيدينا، ما الموت؟ هذا الذي جمعته في سبعين عاماً، هذا الذي حصَّلته في ستين عاماً، هذا البيت الذي اشتريته، وهذا الأثاث الذي اقتنيته، وهذه المزرعة التي اعتنيت بها، وتلك السيارة التي ركبتها، وهذه الزوجة والأولاد الذين تعيش معهم، تفقدهم جميعاً إذا توقَّف نبض القلب، كل هذه الآمال مبنيةٌ على حركة القلب، فإذا توقف القلب كنت إنساناً فأصبحت خبراً، نعاك الأصدقاء والأهل، لذلك: " واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا.

على الجدران توفي فلان عميد أسرتهم، فلان الشاب، فلانة الشابَّة، حينما تقرأ هذه النعوات، أو تشاهد هذه الجنازات، الموت تخطَّاك إلى غيرك، لكن اعلم علم اليقين أنه سيأتي يوم يتخطَّى الناس إليك كما تخطَّاك إلى غيرك.

فالإنسان حينما يولد يبكي، وكل من حوله يضحكون، أما إذا جاء الأجل فكل من حوله يبكي، وهو يضحك، إذا كان لك عملٌ طيب لا يعنيك نوع الجنازة، ولا نوع المأتم، ولا مستوى الوليمة التي قدِّمت بعد الوفاة، ليفعلوا ما شاؤوا أنت مع ربك، أنت في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

ما رأيت إنساناً موفقاً وفالحاً وسعيداً إلا جعل هذه الساعة التي لابُدَّ منها، طالت أو قصرت نصب عينيه، ندخل إلى المسجد كثيراً لنصلي ولابُدَّ من أن ندخله مرةً واحدةً ليصلى علينا، ندخل قائمين وسوف ندخل ونحن على آلة حدباء محمولون، نخرج من بيتنا آلاف المرَّات إلا خروجاً واحداً لا عودة إليه، أهل الميِّت لا يقولون مساءً لمَ لم يعد فلان؟ انتهى الأمر، دفنوه ولن يعود، هذه الساعة التي لابُدَّ منها، فالله يقول:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

إلى أجل مسمى، أي كذا يوم، كذا أسبوع، كذا شهر، لك عند الله عدة أشياء، لك عنده هذه، إذا أعطاك إياها وانتهى أجلك استرد نفسك التي بين جنبيك.

الإنسان الآن مخيَّر أما حينما يتوفى الله النفس فلا يستطيع أن يفعل شيئاً :

لذلك:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

[سورة الفاتحة : 4]

الإنسان الآن مخيَّر بإمكانه أن يصلي أو ألا يصلي، بإمكانه أن يطلب العلم أو ألا يطلب العلم، بإمكانه أن يستقيم أو أن ينحرف، يُخلص أو يخون، يحسن أو يسيء، يصدق أو يكذب، مخير، أما حينما يتوفى الله النفس، خُتِمَ العمل، وانقضى الأجل، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر: 24]

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي*لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

[سورة المؤمنون: 9-100]

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ*أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ*قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ*رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ*قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي*إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ*فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ*قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ*قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ*قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ*أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[سورة المؤمنون: 104-116]

القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران :

إذاً نحن في النوم يتوفى الله أنفسنا، موتٌ مؤقَّت، وعند الموت الحقيقي يتوفى الله النفس توفِّياً نهائياً، إذاً نقدم على الله عزَّ وجل بأعمالنا، "يا قيس إن لك قريناً يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت، فإذا كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك "

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

[السيوطي عن أبي البحير]

لي صديق يعمل في معمل، صاحب المعمل يعيش حياةً فوق الخيال، أناقة ما بعدها أناقة، غنى، وبحبوحة، وأشياء جميلة ولطيفة، كل ألوان النعيم، جاءته المنية ووافاه الأجل في أيام الشتاء المطيرة جداً، اشترى له أولاده قبراً، فُتِحَ القبر فإذا فيه مياهٌ سوداء قد تفلَّتت من المجاري، فلما سُئِل ابنه ماذا نفعل؟ قال: ادفنوه، فالذي يعمل في معمله لا يصدِّق أن هذا معلمي الناعم، الطاعم، الأنيق، المرفَّه، الذي في بيته من العجائب والأناقات والأشياء اللطيفة ما لا يحصيها المحصي هنا ينام؟ هنا يوضع؟ هذا مصير كل مخلوق، لابُدَّ من هذه الحفرة.

أخ كريم دخل في مشروعٍ شعر أن هناك شبهة، فقال لي كلمةً لا أنساها، قال لي: أنا غنيٌ عن هذا المشروع المشبوه إنني أخاف من الله ساعة وضعي في قبري.

كل واحد لابُدَّ من أن ينزل في هذه الحفرة، فبطولتك وذكاؤك وتوفيقك أن تعدَّ لها، أن تجعلها مدَّ بصرك، أن تجعلها روضة من رياض الجنة؛ لكن الذي يأكل مالاً حراماً، ويعتدي على أعراض الناس، ويكذب، ويحتال، ويخرج عن منهج الله عزَّ وجل، يجعلها حفرة من حفر النيران فالقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

الموت سيفٌ مُسْلَطٌ فوق رقبة كل إنسان :

طبعاً الآية التي قبلها:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

ما دام الله عزَّ وجل أخفى عنا ساعة الموت يجب أن نكون في استعدادٍ دائم.

ما من ميتٍ إلا وفي ذهنه أنه سيعيش طويلاً، الموت يفاجئ، يموت أحياناً سكتة دماغية، أحياناً سكتة قلبية، أحياناً بلا سبب، موت مفاجئ، فما دام الموت سيفٌ مُسْلَطٌ فوق رقابنا، البطولة أن نستعد له، فالموت لا أحد ينكره، ولكنهم يتفاوتون بين مستعدٍ له، وغير مستعدٍ له، الإنسان حينما يستعد للموت لا يفاجأ به، كتب وصيَّته، حرر دخله من الحرام، ضبط جوارحه كلها، ضبط عينه، ضبط أذنه، ضبط يده، ضبط لسانه، ضبط بيته، زوجته حجَّبها، بناته ربَّاهم، أولاده ربَّاهم، إذا جاء الموت مرحباً بلقاء الله، قالت له: " واكربتاه يا أبتي " قال: " لا كرب على أبيكِ بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبة".

عظمة الإيمان أن الموت الذي يعده الناس أكبر مصيبة يراه المؤمن السعادة المطلقة:

أتمنى وأرجو الله عزَّ وجل ألا يكون نظركم للموت نظراً سوداوياً ولا تشاؤميَّاً، والله الذي لا إله إلا هو إذا آمنا حق الإيمان، واستقمنا على أمر الله، وعملنا صالحاً، يصيبنا ساعة الموت من السعادة ما نرى الدنيا كلها حقيرة:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِي*قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[سورة يس: 25-26]

أضرب مثلاً: إذا انتقل من يعيش في بيت صغير تحت الأرض، رطوبة، وضجيج، والمجاري مكشوفة، والأولاد كُثُر، إلى بيت كبير بأرقى أحياء دمشق، أثناء نقل الحاجات هل يتألم أو يحس بضيق؟ المؤمن حينما يأتيه أجله هذا عُرْسُهُ، الصحابة كانوا يفرحون بلقاء الموت، وما من صحابي أدركه الموت إلا وهو في أعلى درجات سعادته.

عظمة الإيمان أن الموت الذي يعده الناس أكبر مصيبة ويقول لك: مسكين مات، يراه المؤمن السعادة المطلقة.

رجل مؤمن وله دعوة إلى الله رآه تلميذه في المنام، قال له يا بُنيّ:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

يجب ألا نأخذ الموت بشكل مخيف، ولا بشكل سوداوي، خذ الموت وكأنه ساعة اللقاء مع الله، من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه، رجل صالح وهو على فراش الموت، وحوله أولاده، فقال لابنه: بني حضر عمك فقم وسلم عليه، الله عزَّ وجل أرسل له مَلَكَ الموت في صورة أحب الناس إليه، وكذا أنت يأتيك ملك الموت في صورة أحب الناس إليك، أحياناً يرى الميت في الرؤيا - والرؤيا حق - يطمئن

أهله، يقول: أنا في سعادة، أنا في خير، أنا في بحبوحة، نقرأ دعاء الميت: "اللهم أبدله أهلاً خيراً من أهله، وداراً خيراً من داره، وجيراناً خيراً من جيرانه، لقّه الأمن والبشرى والكرامة والزلفى، نقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس"، هكذا الدعاء، فكلمة موت عند الغافلين، عند الجاهلين، عند أهل الدنيا، لا تحتمل، كل رأسماله في الدنيا، كل مكتسباته في الدنيا، في الآخرة ليس له شيء، لذلك الموت عنده نقلة لا تحتمل، من النعيم إلى الجحيم، من العمار إلى الخراب، من كل شيء إلى لا شيء، شيء مخيف؛ لكنه عند المؤمن نقلةٌ من الدنيا المحدودة إلى آفاق السماوات والأرض، هكذا ورد في الحديث.

الله عزَّ وجل رحيم يعطي الإنسان إنذاراً مبكراً أن اللقاء قد اقترب فاستعد :

المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، ببطن أمه سبعمئة وخمسين سنتيمتراً مكعَّباً، محصور، يكبر، ينتقل من كندا، إلى أمريكا، إلى اليابان، يركب طائرات، يركب بواخر، ينتقل من قارة إلى قارة، أين حجم الأرض من حجم الرحم؟ مسافات كبيرة جداً.

فالمؤمن حينما ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الطفل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا.

الحقيقة عندما تكون آخر محطة بالحياة للإنسان هي الموت وهي محببة له، والله هذه سعادة كبرى، الشيء الذي يخافه الناس، ترتعد مفاصلهم منه، تستقبله أنت باطمئنان فأنت والله مؤمن، إنسان لا إيمان له أصابه مرض عُضال تجده انتهى، يسقط على الأرض، لأن لقي الله بلا عمل صالح؟! قال له: " يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً؟"، مرة: رجل يركب سيارته وبجانبه زوجته، أصابته أزمة، فانكفأ على مقود السيارة، لحكمةٍ أرادها الله كان إلى جانبه صديقه، قاد السيارة إلى المستشفى، دخل العناية المشددة، ثم انتعش قليلاً، فحينما صحا من نوبته طلب مسجلة، سجل حقوق الآخرين التي اغتصبها وأعادها لأصحابها، بعد عدة أيام شفي فقال: أين الشريط؟ أحضروه له فكسره، عاش ثمانية أشهر ثم جاءته أزمةٌ قاضية، هذه إنذار مبكر.

أخواننا الكرام ربنا عزَّ وجل رحيم، أحياناً يعطينا إنذاراً مبكراً، المصائب أحياناً إنذار مبكر، انتبه يا عبدي، لابُدَّ من اللقاء، حتى إن بعض العلماء قال: هذا الشيب، ضعف البصر، آلام المفاصل، بعض الأمراض، هذه كلها إشارات لطيفة من الله أن يا عبدي قرب اللقاء هل أنت مستعد؟ هذه الأمراض أمراض الشيخوخة أجهزة إنذار مبكّر، تقول للإنسان: قرب اللقاء هل أنت مستعد؟

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

الدنيا دار تكريم و عمل أما الآخرة فدار تشريف و جزاء :

المؤمن الحق لا يخاف من الموت، لا يتمنى الموت ولكن إذا جاء لا يخافه، لماذا لا يتمنَّاه؟ لأنه كلما ازداد عمره ازداد عمله الصالح، لقول النبي الكريم:

((خيركم من طال عمره وحسن عمله))

[أحمد عن أبي هريرة]

لا يتمنَّى الموت، أما إذا جاء فيلقاه بشجاعةٍ فائقة، وهو ينتظره لأنه موعد اللقاء مع الله عزَّ وجل، فكل هذا العمر لهذه الساعة، أضرب مثلاً: طالب درس في بلد أجنبي، فقير جداً، اشتغل بمطاعم، غسل صحوناً، حتى استطاع أن ينال شهادة الدكتوراه، وهو موعود بأعلى منصب ببلده، وبأجمل زوجة، وبأحسن بيت عندما يعود إلى الوطن، ألا يرقص قلبه فرحاً؟ انتهى عهد التعب، انتهى عهد الدراسة، عهد العمل الشَّاق.

فالانتقال من حياة متعبة إلى الجنة، إلى الإكرام، الدنيا دار تكريم أما الآخرة فدار تشريف، الدنيا دار عمل، الآخرة دار جزاء، فالموت شيء مُحَبَّب، لكن البطولة أن تستقيم على أمر الله، أن تضبط دخلك، تضبط سمعك، بصرك، لسانك، زوجتك، بناتك، أولادك، أن تستقيم على منهج الله، وتأكد أنك لا تخاف الموت، هذا الذي يخافه الناس يصبح عندك مُحَبَّباً مقبولاً، تشتاق إليه.

واكربتاه يا أبت ". قال: " لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه".

سيدنا سعد بن الربيع تفقَّده النبي عقب معركة أحد فلم يجده، كَلَّف صحابته أن يبحثوا عنه، انطلقوا إلى ساحة المعركة، رأوه بين القتلى ولكن في النزع الأخير، قال له أحدهم: " يا سعد لقد كَلَّفَنِي رسول الله أن أتفقَّدك، فأنت مع الأموات أم مع الأحياء؟ ". قال: " أنا مع الأموات، ولكن أبلغ رسول الله مني السلام - وهو في النزع الأخير - قل له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيِّكم وفيكم عينٌ تطرف". ليس لكم عذر أبداً، معنى ذلك أنه كان سعيداً جداً.

الموت عند المؤمن محبب أما عند الكافر فترتعد منه فرائصه :

اقرؤوا تاريخ الصحابة، اقرؤوا عن كل صحابي ساعة وفاته كان في جنة، في عرس، تحفة المؤمن الموت، نحن مؤمنون والحمد لله، الموت عندنا مُحَبَّب، أما العصاة، التائهون، الشاردون، المقصرون

الذين يرتكبون المعاصي ليلاً نهاراً، والله الموت يجعلهم ينسحقون سحقاً، ترتعد منه فرائصهم، لذلك هذه الآية من أدق الآيات، كل يوم عندنا موت مؤقت، لما تستلقي انظر إلى الدعاء:

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْهَا وَإنْ أرْسَلْتَهَا فاحْفَظْهَا))

[أحمد عن أبي هريرة]

استيقظت، الدعاء النبوي، الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور، تذكر قول النبي الكريم:

((ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

بشكل مختصر كلما استيقظت قل: لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً جديداً، هذا اليوم ماذا أفعل فيه؟ صلاتك، غض بصرك، صدقك، أمانتك، إتقان عملك، نُصْحَكَ للمسلمين، طلبك للعلم، التلاوة، سمح الله لي أن أعيش يوماً جديداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (15-20): تفسير الآيات 43-46، بطولة الإنسان أن يملك تصوُّرات صحيحة عن الله عزَّ وجل و عن النبي الكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-04-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّ جهةٍ سوى الله لا تملك نفعاً ولا ضراً :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية الثالثة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

أيُّ جهةٍ سوى الله لا تملك نفعاً ولا ضراً، لأن الله يُحيي ويميت، والله هو الرزَّاق، وهو المعز والمذل، هو المعطي والمانع، هو الرافع والخافض، هو القابض والباسط، هو الميسِّر والمعسِّر، هو المبتلي والمعافي، أية جهةٍ مما سوى الله لا تستطيع أن تفعل شيئاً، لا تملك النفع والضُرَّ لنفسها فضلاً عن الآخرين، لذلك أي اتجاهٍ من قِبَل الإنسان إلى جهةٍ سوى الله يعلّق عليها الآمال، يرجوها، يحذرها، يخافها، يخشاها، يطمع في عطائها، هذا نوعٌ من الشرك، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد. فلو أن الإنسان اتخذ من دون الله شفعاء، لو اتخذ رجل دين من أجل أن يشفع له عند ربِّه، وهو مقيمٌ على معصية، لا ينفعه ذلك أبداً، الدليل: لو أنك استطعت أن تنتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتوى لصالحك، من فمه الشريف، وهو سيِّد الخلق وحبيب الحق، والمعصوم، والذي يوحى إليه، ولم تكن محقّاً، لا تنجو من عذاب الله، والحديث الصحيح:

((.....وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عن أم سلمة]

إذاً سيِّد الخلق وحبيب الحق لا يستطيع أن ينفعك، ولا أن يمنع عنك عقاباً من الله عزَّ وجل إذا أراده الله، واستحققته بانحرافٍ أو بذنب، فكيف حال هؤلاء الذين يعلّقون الآمال على ما سوى الله؟ هم واهمون، هم جاهلون، سوف يُحبط عملهم، سوف يُخيَّب ظنُّهم، إنهم في طريقٍ مسدود، إنهم يتعلّقون بحبالٍ أوهى من خيط العنكبوت، إنهم لا يعتمدون على شيءٍ ثابت.

من أخذ بالأسباب و اعتمد عليها فقد أشرك :

لذلك أصعب شيءٍ في الحياة أن تضع الآمال في جهةٍ ثم تُخيِّب هذه الجهة ظنَّك، أن تعتمد على شيءٍ تظنه قوياً فإذا هو ضعيف، أن تنظر إلى الماء فإذا هو سراب، أن تظن أن هذا الإنسان القوي ينفعك فإذا هو أعجز من أن ينفعك، هذه الحالة اسمها خيبة الأمل، خيبة الأمل شيءٌ صعبٌ جداً، خيبة الأمل تشابه الإحباط، كأن تكون وضعت كل الثقة في زيد فخيَّب زيدٌ ظنَّك، علّقت الأمل على المال فجاءت مصيبةٌ لا ينفع فيها المال، هناك أمراض لو أنفقت المال كلَّه لا ينفعك شيئاً.

فربنا عزَّ وجل كيف يعالج المشرك؟ إن اعتمد على المال عالجه بقضيَّةٍ لا ينفع فيها المال، وإن اعتمد على قوَّته أتاه من نقطة القوَّة، من مأمنه يؤتى الحذر، إن اعتمد على علمه، إن اعتمد على قوَّته، إن اعتمد على ماله، إن اعتمد على خبرته، إن اعتمد على ذكائه، فلا ينجيك من الله إلا أن تكون في طاعته، لذلك لا ينفع حذرٌ من قدر، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل.

مهما كنت ذكياً ومتألّقاً، مهما تكن خبرتك واسعة وثقافتك شاملة، مهما تكن ممارساتك عميقة، لا تنفعك شيئاً إطلاقاً، إذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له، ينفعك مع الله أن تستقيم على أمره، وأن تخلص له.

من أخلص لله عز وجل نجا من عذاب الدنيا و عذاب الآخرة :

لذلك إذا أخذنا بالأسباب واعتمدنا عليها فقد أشركنا، وكأني أرى أن الذين يضعون ثقتهم بغير الله، فالله سبحانه وتعالى لا يعالجهم إلا من خلال هذه الجهة التي وضعوا فيها ثقتهم، يضع أمله في زَيد، الله جلَّ جلاله يُلهم زيداً أن يخيِّب ظنَّه، هذه معالجة، يضع أمله في المال، المال لا ينفعه، يضع أمله في هذه الجهة، فإذا هذه الجهة مصدر خسارته، فلذلك من اعتمد على غير الله ضَلّ، من اعتمد على ماله ضلّ، من اعتمد على قوَّته ضلّ..

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

هذا هو الدين، هذا هو الإيمان، أن ترى أنه لا إله إلا الله، لا موجود بحقٍ إلا الله، لا فعَّال بحقٍ إلا الله، لا معطي بحقٍ إلا الله، لا رازق بحقٍ إلا الله، لا مانع إلا الله، حينما تقطع الآمال من الخَلق تتجه إلى الحق، وإذا اتجهت إلى الحق سعدت في الدنيا والآخرة، فالإنسان إذا أخلص لله نجا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

المرجحات في الدنيا كثيرة لكن عند الله لا يُرَجِّحك إلا التقوى :

أبو لهب عم النبي لم تنفعه صلة القربى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

هل أبعد عن السعادة صهيبٌ وبلالٌ وسلمان؟ بلالٌ حبشي، وصهيبٌ رومي، وسلمانٌ فارسي:

((سلمان منا أهل البيت))

[لحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((نِعْمَ العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

هذه هي الحقيقة، هناك مُرَجِّحات في حياتنا الدنيا؛ المال مرجِّح، النَسَب مرجِّح، الذكاء مرجِّح، الوسامة مرجِّحة، القوَّة مرجِّحة، المنصب الرفيع مرجِّح، ولكن عند الله لا يُرَجِّحك إلا التقوى.

تفاضل الناس عند الله عز وجل بالتقوى :

هذه الآية على إيجازها، وعلى بلاغتها، لو عرفناها حقَّ المعرفة لحلَّت كل مشكلاتنا:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

الناس كلُّهم يتفاضلون بالتقوى، بطاعة الله، إذا أردت الكرامة فاستقم على أمر الله، إذا أردت التفوُّق فاستقم على أمر الله، إذا أردت الفوز فاستقم على أمر الله، إذا أردت النجاح فاستقم على أمر الله، إذا أردت الفلاح فاستقم على أمر الله..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

كل القيَم الدنيوية التي يتعامل بها الناس ويحاول أن يسمو بها كل إنسان متعالياً هي عند الله لا شيء..

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو

لها مكرم. ألا يا رب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله، ما له عند الله من خلاق. ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة. ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً))

[الجامع الصغير عن أبي البجير]

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

هذا واقع الناس، تجد أن كل إنسان يتكئ على شخص قوي، له منصب حسَّاس، ينفعه إذا جدّ الجد، هذا كله شرك.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا)

أيعقل أن تدخل إلى دار حكوميَّة، ولك قضيَّة متعلّقة بالمدير العام، وتتذلّل أمام آذن وتقول له: وقعها لي؟ تكون عندها قد أصابك المس، هل من الممكن أن تبذل ماء وجهك تذللاً أمام شخص لا يملك أن يوقّع هذه المعاملة أو هذه الأوراق؟ ولا يملك الموافقة عليها إلا المدير العام أهذا هو العقل؟ هذا مثل ضربته أبغي من ورائه مقولة: اعلم أن أمرك بيد الله، صحَّتك بيد الله، رزقك بيد الله، أهلك بيد الله، أولادك بيد الله.

الله عز وجل يحب المُلحين في الدعاء :

لذلك:

لا تســألنَّ بني آدم حاجة وســل الذي أبوابه لا تغلقُ
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حيــن يُسأل يَغْضَبُ

***

الإنسان يغضب إذا سألته، لكن ربنا جلَّ جلاله يغضب إن لم تسأله، إن الله يحب المُلحين في الدعاء، إن الله يحب من العبد أن يسأل ربَّه حاجته كلّها، إن الله يحبُّ من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، ما أروع المؤمن يسأل ربَّه في قيام الليل: يا رب أنا عبدك بين يديك، أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك.

ما أروع الإنسان عندما يستغني عن الخلق ليسأل الحق، فالله عزَّ وجل أكرم الأكرمين، لا تضع نفسك في موضع ضعيفٍ أمام الخلق، تذلّل للخالق، اطلب منه.

من لم يكن عبداً لله فهو عبد لعبد لئيم :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

فالإنسان يا أيها الأخوة إن لم يكن عبداً لله هو عبدٌ فعلاً لعبدٍ لئيم، يا ربي من لم يتحقَّق بالعبوديَّة إليك هو عبدٌ أسيرٌ لمن سواك، فشتَّان بين أن تكون عبداً لله وعبد الله حر، وبين أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، شتَّان أن تكون عبداً لله الذات الكاملة الأزليَّة الأبديَّة، وبين أن تكون عبداً لعبدٍ لا يقوى على أن يفعل معك شيئاً.

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 13]

أحياناً يضع الإنسان ثقته كلها في زوجته، تخيِّب ظنَّه، فإذا ضاقت به الأحوال، أو انصرف عنه الناس، أو كبرت سِنُّه، أذاقته ألوان الجفاء، وألوان الغلظة، إذا وضعت كل الثقة في إنسان ونسيت الله عزَّ وجل لن تأتي المتاعب إلا من هذا الإنسان.

هناك من يقول: " الدراهم مراهم ". هذا الإنسان علاجه مشكلة لا تحلُّها الدراهم، الإنسان في مقتبل حياته قد يرى المال كل شيء، في منتصف حياته يرى المال شيئاً ولكن ليس كل شيء، لكن قُبيل وفاته يرى المال لا شيء، كل شيءٍ هو طاعة الله عزَّ وجل، وكلما عرفت الحقيقة في وقت مبكِّر سعدت بها، وكلما عرفتها في وقت متأخِّر ندمت على تأخُّرك بها، أما إذا عرفتها بعد فوات الأوان فهذا أشدُّ أنواع الظلم، لأنه كما أقول لكم دائماً: قضيَّة الإيمان ليست أن تؤمن أو ألا تؤمن، لابدَّ من أن تؤمن، ولكن هذا الإيمان بعد فوات الأوان، البطولة أن تؤمن في الوقت المناسب، وأنت في مقتبل الحياة، وأنت شابٌ قوي، إن آمنت في هذه السن شكَّلت حياتك، اخترت زوجتك، اخترت حرفتك، اخترت أصدقاءك، نظَّمت علاقاتك، هذا كله يترتَّب وفق الشريعة في الوقت المناسب، أما إذا تأخَّرت:

((من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار))

[أبو الفتح الأزدي عن ابن عباس]

سعادة الإنسان تتجلى بإقامة علاقة طيبة مع الله في الدنيا :

إذاً:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

ما سوى الله، ما دون الله لا يعقل ولا يملك، لا يعرف الحقيقة الصافية، ولا يملك أن يدفع عنك ضُراً ولا أن يجلب لك نفعاً، لذلك مساكين هؤلاء الذين تعلَّقوا بما سوى الله، فاحتقارٌ لإنسانيَّتك أن تكون تابعاً لإنسان، لا يليق بك إلا أن تكون لله، لذلك السيدة عائشة حينما برَّأها الله عزَّ وجل قال لها سيدنا الصديق: " قومي إلى رسول الله فاشكريه " قالت: "والله لا أقوم إلا لله ". فتبسَّم النبي عليه الصلاة

والسلام وقال: " عرفت الحقَّ لأهله ". الله هو الأصل، إذا الإنسان أقام علاقة مع ربِّه طيِّبةً في الحياة الدنيا هذه كل السعادة، أنت على صلةٍ وثيقةٍ بخالق الكون، ما بينك وبينه عامر:

فليتــك تحلو والحياة مريرة　　　وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ　　　وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحَّ منك الوصل فالكل هيِّنٌ　　　وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

***

من اصطلح مع الله و أخلص لدينه كشف عنه الغمة و الظلمة :

الإنسان يتعلّق بأهله، فيطيعهم ويعصي الله، هؤلاء الذين أطاعهم وعصى الله من أجلهم سوف يفاجأ أنهم سينقلبون عليه، فالشيء الثابت أنك إذا تعلّقت بما سوى الله، خيَّب الله ظنَّك، وخسرت الدنيا والآخرة، الإنسان أحياناً يتعلّق بماله، المال لا ينفع، فهناك حالات كل الأموال الطائلة لا يمكن أن تعفي الإنسان من ألمٍ لا يحتمل.

حدَّثني أحدهم فقال: رجل غني يملك الجُزر، والسفن، والطائرات الخاصة، ولكنه أرق لا ينام، عولج من قِبل كل الأطباء ولم ينفع فيه دواء، إلى أن عرض على أحد الأطبَّاء الكِبار في الأعصاب أن يعطيه نصف ما يملك من هذه الثروة الطائلة على أن يجعله ينام كسائر الناس، هذا الطبيب طمع بالثروة الطائلة ووضع كل علمه في خدمته، ومع ذلك لم يفلح.

والقصَّة التي تعرفونها أن وزير هارون الرشيد حينما طلب الخليفة كأس ماء، قال: " يا سيدي بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منع عنك؟ " قال: "بنصف ملكي ". قال: " فإذا منع إخراجه؟ ". قال: " بنصف ملكي الآخر ".

الله عزَّ وجل على كل شيءٍ قدير، أنت في قبضته، أنت تحت رحمته، فالذكاء والعقل، والتوفيق، والنجاح، والرشاد، والفلاح، والتفوُّق، أن تصطلح معه.

إذا اصطلحنا مع الله، وأخلصنا ديننا لله، واهتدينا بهدي رسول الله، واتبعنا سُنَّة رسول الله، ثم قلنا: " يا رب اللهم إني أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين وربي، يا أرحم الراحمين ". إذا دعوت هذا الدعاء وكنت كذلك، الله عزَّ وجل أزاح عنك الغُمَّة، وكشف عنك الظُلمة، ونصرك على عدوِّك.

حاجة الدعاء إلى أنفاس طاهرة و إخلاص كبير :

لذلك الدعاء يحتاج إلى أنفاس طاهرة، إلى إخلاص، يحتاج إلى كسب حلال، أنت كن مستقيماً وسوف ترى العجب العُجاب، سوف ترى المستحيل، سوف ترى أنك أقوى الناس لأن الله معك، سوف ترى أنك أكرم الناس، سوف ترى أنك أغنى الناس، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، فكأن الله يعجب:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

إنسان بالخدمة الإلزاميَّة ووالده قائد الجيش ويخاف من تهديد عريف؟ معنى هذا هو أحمق، لأنه يستجيب إلى رتبة دنيا ويعصي رتبة عُليا، يمكن أن يعصي الله عزَّ وجل ليطيع مخلوقاً؟ هذا هو الجهل.

رتبة العلم أعلى الرُتَب والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك :

والله إن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيعُ أعداؤه المجتمعون أن يفعلوا به، لذلك اعتقدوا أن الجهل أعدى أعداء الإنسان، وأن طريق الجنَّة أساسه العلم، بالعلم تعرف الحق والباطل، الخير والشر، ما ينبغي وما لا ينبغي، ما يجوز وما لا يجوز، العلم ممر إجباري، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، إذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، إذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، حينما تستمع إلى تفسير القرآن الكريم، أو إلى نفحاتٍ إيمانيَّةٍ حول القرآن الكريم، أنت بهذا لا تستهلك الوقت بل تستثمره - هذا بمنطق التُجَّار - لأن العلم سلاح، والعلم حارس، والعلم قوَّة، والإنسان المتعلّم إنسان متميِّز، إنسان عظيم، رتبة العلم أعلى الرُتَب، الإنسان أحياناً يدمِّر حياته الخاصَّة بغلطة، يدمِّر زواجه بمعصية، يدمِّر تجارته بمال حرام، يدمِّر صداقاته بحُمق، فالعلم أساس، رتبة العلم أعلى الرُتَب، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

((أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَفْعَلُ))

[الترمذي عن زر بن حبيش]

((... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ..))

[ابن ماجة عن أبي هُرَيْرَةَ]

إذا سمح الله للإنسان أن يتعلم فهذه بشارة من الله.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

آية قرآنيَّة واضحة، قطعيَّة الدلالة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

مُلْكِيَّة الله عزَّ وجل أوسع أنواع المُلكيَّة :

إذا سمعتم الحق فهذه بُشرى:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

مُلْكِيَّة الله عزَّ وجل أوسع أنواع المُلكيَّة، أنت أحياناً تملك داراً ولا تسكنها، تملك الدار ولا تنتفع بها، وقد تنتفع بها ولا تملكُها، وقد تملكها وتنتفع بها لكن لا تملك مصيرها، قد يأتي تنظيم فيأخذها منك، إذاً قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع ولكن لا تملك المصير.

لكن إذا الله عزَّ وجل قال:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مُلكاً وتصرُّفاً ومصيراً، قال:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كل إنسان بملك الله عز وجل فعليه ألا يرجو غيره :

نحن في مُلك الله عزَّ وجل، ينظر الإنسان بعينيه لأن الله سمح له أن ينظر بهما، فإذا شاءت حكمته أن يفقد البصر فقده، ووقف الأطبَّاء حيارى أمام مرضه، سمح الله لك أن تمشي، فإذا سلب الله منك نعمة الحركة لا تملك إلا أن ترجو الله عزَّ وجل، سمح الله لك أن تذكُر، فإذا سلب الله منك الذاكرة لا تملك إلا أن تتضعضع له، سمح الله لك أن تسمع فإذا أخذ السمع لا تملك إلا أن تستجير به، سمح الله لك أن تنطق، فإذا أخذ النطق فلا يرده إلا هو، سمح الله لهذه الأجهزة التي أودعها الله فيك أن تعمل بانتظام، فإذا تعطَّلت تصبح حياة الإنسان جحيماً، أي عضوٍ إذا تعطَّل يمكن أن يستنفذ ثروتك كلَّها، وتدفع كل ثروتك وترجو الصحَّة وقد لا تنالها.

فنحن في قبضة الله عزَّ وجل أيليق أن نعصيه؟ أيعقل أن نخرج عن أمره؟ أيعقل أن نعاديه؟ مستحيل، لكن إذا أطعناه جاءتنا الدنيا والآخرة.

من آثر آخرته على دنيا ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

هو الذي يشفع:

(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)

[سورة البقرة: 255]

إذا أكرمك إنسان هل تظن أنه هو الذي أكرمك؟ لا والله، لولا أن الله سمح له أن يكرمك، لولا أن الله ألقى في روعه أن يكرمك، لولا أن الله ألهمه أن يكرمك، لولا أن الله خلقه وألهمه وسمح له أن يكرمك لما أكرمك، فأنت إذا جاءك الإكرام من إنسانٍ وكنت موحِّداً، ترى أن هذا الإكرام من الله عزَّ وجل، وهذا لا يمنعك أن تشكر الناس، لأنه:

((مَنْ لَمْ يشْكُر النَّاسَ لَمْ يشْكُر اللّه))

[أبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

لله الشفاعة جميعاً :

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)

[سورة البقرة: 255]

الشفع الجَمع، الاقتران، الله جمعك مع إنسان فيسَّر لك أمرك:

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ)

جمعك مع إنسان اشترى منك بضاعتك الكاسدة:

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ)

جمعك مع إنسان باعك صفقة رابحة، قل: لله الشفاعة، جمعك مع إنسان حلَّ لك مشكلة عويصة معيَّنة، قل: لله الشفاعة، جمعك مع طبيب هداه الله إلى تشخيص الداء تشخيصاً صحيحاً، وهداه إلى الدواء الصحيح فشفيت من مرضك، قل: لله الشفاعة جميعاً، أنت في مشكلة فجمعك مع محامٍ مخلص، ذهنه متفتِّح وموفَّق في عمله، فربح الدعوى، قل: لله الشفاعة جميعاً، جمعك مع زوجة طاهرة مستقيمة على شاكلتك، قل: لله الشفاعة جميعاً، رزقك ولداً صالحاً، قل: لله الشفاعة جميعاً، ليس بيدك، أحياناً تكون صالحاً جداً ولك ولدٌ طالحٌ جداً، هذا ممكن.

أي إنسان قدَّمَ لك خدمةً ينبغي أن تراها من الله من دون أن تقصِّر في شكره :

فكلمة:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)

[سورة الأنبياء: 27]

هبة، أب عنده ولد صالح فلا يتيه على الناس ويقول: هذه تربيتي، قل: هذا من فضل الله عليّ، لقد تكرَّم الله عليّ بهذا الابن الصالح، ماذا تفعل لو أنه غير صالح؟ أحياناً لا يجدي الكلام، ولا التربية، ولا الضغط.

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

فأنت متمتّع بصحَّة، فهذه الأجهزة من سمح لها أن تعمل بانتظام؟ لو أن أحدها أصابه الخلل أصبحت حياة الإنسان جحيماً، وهب لك ولداً صالحاً، زوجة صالحة، شريكاً صالحاً، جاراً صالحاً، وهب لك إنساناً أعانك على أمر دنياك، فأي إنسان قدَّمَ لك خدمة ينبغي أن تراها من الله عزَّ وجل من دون أن تقصِّر في شكر زيدٍ أو عُبيد الذي أسدى لك المعروف.

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

كلُّنا في مُلْكِهِ، مُلك تام، فحتى الإنسان عندما يستيقظ، يجب أن يوقن أن الله سمح له أن يعيش يوماً آخر، يوم بيوم، سمح لك أن تعيش هذا اليوم، هل أديت الصلوات؟ هل غضضت البصر عن محارم الله؟ هل أنفقت من مالك في سبيل الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نَهيت عن منكر؟ هل أصلحت بين اثنين؟ هل شفِعْتَ في نكاح؟ هل عُدَّتَ مريضاً؟ هل عطفت على مسكين؟ هل راعيت يتيماً؟ هل نصحت المسلمين؟ هل أزلت الأذى عن الطريق؟ هل ساهمت في بناء مسجد؟ هل ساهمت في بناء ميتم؟ ما دورك في الحياة؟ دور العطاء أم الأخذ؟ النفع أم الضر؟ دور الإحسان أم الإساءة؟ ما دورك؟ ما وظيفتك؟ ما مهمَّتك؟

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

هذه كلها مشاعر المؤمنين، أنا كما أقول: ليس هذا تفسيراً، هذه مشاعر إيمانيَّة حول الآيات القرآنيّة..

علاقة المشرك بالله علاقة سيئة فلا يرتاح للتوحيد :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

المشرك يضيق صدره إذا عزوت الأمور إلى الله، الأحداث التي تحيط بنا إذا فسَّرتها تفسيراً إلهياً ينزعج، أما إذا فسَّرتها تفسيراً أرضياً فيرتاح، إذا صوُّرت الأحداث وكأنَّها من فعل البشر يرتاح، أما إذا وجَّهتها على أنها من فعل الله عزَّ وجل فيتضايق، لأن علاقته بالله ليست طيِّبة، علاقته سيئة بالله عزَّ وجل.

فالمنافق لا يرتاح للتوحيد بينما المؤمن يرتاح للتوحيد، المنافق إذا جاءت المصيبة يقول: هذا من فعل الدهر، هكذا الدهر يومٌ لك ويومٌ عليك. لكن المؤمن إذا جاءته المصيبة يراها تنبيهاً من الله عزَّ وجل، يراها لفت نظرٍ كريم، يراها إنذاراً من الله عزَّ وجل، يراها معالجةً ربَّانيَّة، فرقٌ كبير بين أن تقول: هكذا الدهر، وهكذا الأيام، والدنيا مدٌ وجزر، ورفعةٌ وانخفاض، وعطاءٌ ومنع، وصحَّةٌ ومرض، وغنى وفقر. هذا كلام أهل الدنيا، أما إذا عزوت الأمور إلى الله عزَّ وجل فالمنافقون يتضايقون، قال:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ)

هو آمن بالدنيا فقط، ووضع كل ثقله فيها، وجعلها محطَّ رحاله ومنتهى آماله، فكيف تربطه بالآخرة فليس له فيها رصيد؟ الإنسان يفرح بشيء محصِّل فيه شيء، ويخاف من شيءٍ ليس له فيه شيء، الإنسان يدخل بيتاً يرحب أهل الدار به، إذا كان معروفاً عندهم، يكرمونه ويضيفونه، أما إذا دخل بيتاً لا يعرف فيه أحداً أبداً فيشعر بالحرج، فالمؤمن غريب عن الدنيا قريب من الآخرة، لذلك الآخرة تُثلِجُ صدره.

أهل الدنيا غرباء عن الآخرة ليس لهم في الآخرة شيء :

بينما أهل الدنيا غرباء عن الآخرة، ليس لهم في الآخرة شيء، لذلك يشمئزّون.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

شرك، تجد وجناتهم تألَّقت، تحرَّكت عيونهم حركة زئبقيَّة، أما إذا قلت: الأمور بالتوفيق فينزعج لأنه غير مستقيم، الأمور بطاعة الله ينزعج، فلان خسر لأن ماله حرام، ينزعج، لأنه يعلم أن له من هذا الحديث نصيب، فكلَّما عزوت الأمر إلى الله وإلى التوحيد يتضايق، وإذا عزوته إلى الدنيا وإلى أحداث الدهر يستبشر، فهذه علامة دقيقة جداً، فالإنسان إذا ارتاحت نفسه للتوحيد هذه علامة الإيمان، وإن ارتاحت نفسه للشرك هذه علامة النِفاق، ما الذي يسعدك؟ أن تكون الأمور كلها بيد الله إذاً أنت مؤمن، أما إذا كنت تنزعج أن تكون الأمور بيد الله فهذا من الشرك.

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

أرقى أنواع الدعاء أن يدعو الإنسان الله عز وجل بأسمائه الحسنى :

العلماء قالوا: إذا دعا الإنسان الله بأسمائه الحسنى فهذا من أرقى أنواع الدعاء، يا حي يا قيوم، يا رحمن يا رحيم، يا قوي يا عزيز، يا قوي يا متين، إذا دعوت الله بأسمائه الحسنى فهذا من الدعاء المُستجاب، والذي يستنبط من هذه الآية قول الله عزَّ وجل:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

أحياناً الإنسان يرى أنه على حق، والآخرون يرون أنه على باطل، هذا الخلاف من يحلُّه، ففي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال:

((سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ الصَّلاةَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ : كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَانَ يَفْتَتِحُ صَلاتَهُ: بِ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

[مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف]

أهل الحق وأهل الباطل مختلفون، لكن أحياناً المؤمنون يختلفون يا ترى الحق مع هؤلاء أم مع هؤلاء أم مع هؤلاء؟ احترنا يا رب، فالنبي عليه الصلاة والسلام علَّمك في دعاء صلاة الليل أن تسأل الله عزَّ وجل أن يهديك لما اختلف فيه من الحق، يا ترى الذكر؟ أم الحال؟ أم العمل؟ أم الصلاة على النبي؟ أم الحضرات؟ أم مجلس العلم؟ أم التلاوة؟ أم التفسير؟ أم العمل الصالح؟ أم الأحوال القلبيَّة؟ يا ربي أي شيءٍ يرضيك؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان يستفتح صلاته بهذه الآية:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ)

الله هو الحق، فهذا العبد مع الحق، الله يحكم بين المؤمنين فيما اختلفوا فيه، أو بين الناس، الله وحده هو الذي يعرف، يعرف الحق لأنه الحق، ويعرف النوايا، يعرف الأهداف، يعرف الخلفيَّات، يعرف الأشياء المتداخلة.

أعظم نعمةٍ يُنعم الله بها على الإنسان نعمة الهُدى :

لذلك:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

ليس في الكون كلّه جهةٌ مؤهَّلة أن تحكم ين الناس إلا الله، أنت قد يرضيك إنسان كلامه مثل العسل، لكن له فعلٌ كالصبر، يعتقد شيئاً ويتقي فيقول شيئاً آخر، يؤمن بالتَقِيَّة، لا تعلم عقيدته إطلاقاً، يقول لك ما ترضى به عنه، إذاً ليس إلا الله هو الذي يعرف الحقيقة، فعندما يقع الإنسان بحيرة وبإشكال، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ليتلو هذه الآية:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

في أمور خلافيَّة كثيرة:

كل يدَّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

***

كل جماعةٍ تدعي أنها على حق وأن سواها على باطل، إذا أكرم الله عزَّ وجل إنساناً بمعرفة الحق، والمنهج، والدليل، والتعليل، والمقاييس الصحيحة، وكانت عقيدته وعمله وفق الكتاب والسُنَّة، وفق ما كان عليه النبي وأصحابه، فهذا من نعمة الله الكُبرى، نعمةٌ كبرى ما بعدها نعمة أن تكون كما كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، فأنت من الفِرْقَةُ الناجية.

لذلك أقول لكم: إنَّ أعظم نعمةٍ يُنعم الله بها علينا نعمة الهُدى، أن تكون وفق الحق؛ عقيدتك، قيمك، تصوُّراتك، سلوكك، كسبك للمال، إنفاقك للمال، زواجك، تزويج بناتك، تزويج أولادك، مهنتك، كلها وفق الشرع، وفق المنهج الرباني، هذه النعمة العُظمى، وليست النعمة أن يكون مالك حراماً، وإنفاقه حراماً، وعلاقاتك الاجتماعيَّة فيها شبهات، وأنت في سن الخمسين، ماذا تنتظر؟

إلى متى و أنت باللذَّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدَّمت مسؤولُ

***

حقيقة ثابتة جداً، إذا أيقنتم أن الله يعلم وسيحاسب، إذا أيقنتم أنكم عرفتم منهج الله، وخرجتم عنه سوف تحاسبون، لا يمكن أن تعصوا الله.

طلب الفقه حتمٌ واجب على كل مسلم :

اضمنوا لي هذه الثلاثة: أن تعرفوا منهج الله؛ هذا حرام، هذا حلال، وهذا يحتاج إلى طلب علم، لأن هناك أشياء يقترفها الإنسان ولا يعلمها، يقول لك: أنا جاهل. الجهل نفسه معصية، الإنسان يحاسب على جهله، الجهل ليس عذراً، لا جهالة في الإسلام، كما لا جهل في القانون، هل تستطيع أن تقول للشرطي: لا أعرف أن السير في هذه الطريق ممنوع؟ هل يسمع منك ذلك؟ هذه الكلمة لا يقبلها منك، يقول لك: لا جهل في القانون، فكما أنه لا جهل في القانون لا جهل في الدين، فإذا كنت جاهلاً فالذنب أنك لم تتعلّم، لذلك:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المتناثرة]

طلب الفقه حتمٌ واجب، أول شيء يجب أن تعرف منهج الله، الشيء الثاني يجب أن توقن أنك إذا خرجت على منهج الله الله يعلم، الشيء الثالث يجب أن توقن أنك إذا خرجت عن منهج الله، الله يعلم وسيحاسب.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

إذا أيقنت بأن الله موجود، وهذا أمره، وهو يعلم، وسوف يحاسب، مستحيل أن تعصي الله، كما أنه مستحيل أن ترى شرطياً والإشارة حمراء، وتتجاوز هذه الإشارة، مستحيل.

العذاب الذي يعذّب الله به عباده في الدنيا عذابٌ قليل بالنسبة لعذاب الآخرة :

الآن:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

تصوَّر إنساناً يملك الدنيا، له ما في الأرض جميعاً، يملك أموال الأرض كلها، ورأى العذاب الذي وعده الله به، يتمنَّى أن يفتدي بماله كلّه هذا العذاب.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

على كلٍّ عندما يذكر ربنا عزّ وجل في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين أن هناك عذاباً لا يحتمل، وأن العذاب الذي يعذّب الله به عباده في الدنيا هذا عذابٌ قليل، والدليل قوله تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

فهذا الذي نراه بأعيننا، الأمراض الوبيلة، الآلام المُبَرِّحة، الفقر المدقع، الإهانة الشديدة، فقد الحريَّة أحياناً عشر سنوات، التعذيب، كل شيءٍ تراه عينك في الدنيا هذا عذابٌ أدنى فكيف بالعذاب الأكبر؟ والإنسان غالباً لا يحتمل عذاب الدنيا فكيف بعذاب الآخرة؟ الله عزَّ وجل قال:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

أما عذاب الآخرة، لو أن الدنيا كلها تملكها، لو أن الدنيا كلها في قبضتك ورأيت العذاب، قلت: خذوها وخلّصوني، لكن هذا لا يكفي.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

هذه الآيات إن شاء الله تحتاج إلى وقفة متأنيَّة.

أخطر شيء أن يتصوَّر الإنسان معلومات عن الدين غير صحيحة فيصعق يوم القيامة :

هذه:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

كل التصوُّرات عن الله غير صحيحة، أضرب مثلاً سريعاً: لك قضيَّة عند قاض، طمأنوك بأنك ستربح الدعوى، يوم الدعوى تفاجأ أن الحكم لم يكن لمصلحتك، والقاضي نزيه لا يقبل رشوة، وخسرت البيت، وخسرت الشركة، ما كنت تحسب لهذا الموقف حساباً.

هل تعلمون ما هو الجهل؟ الجهل ليس أن تكون فارغاً من المعلومات، الجهل أنت ممتلئ معلومات ولكن كلها خاطئة، عنده فكرة عن الشفاعة غلط، عن الله غلط، عن النبي غلط، وعن الشرع غلط، فمحشو معلومات كلها غير صحيحة، فهو يتحرَّك حركة خاطئة وفق معلوماته الغلط، أما متى يُصْعَق؟ حينما يرى أن كل هذه المعلومات والتصوُّرات غير صحيحة، لأن الواقع بخلاف ذلك، وهذه هي المشكلة.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

مثل آخر هناك أستاذ يدرس مادة صعبة، حل هذا الموضوع هديَّة ثمينة فيعطينا الأسئلة والمفاجأة أنه لم يعط الأسئلة، ورسب هذا الطالب، تفاجأ أن المعلّم نزيه، والقاضي نزيه، فتصوُّراتك عن المعلّم

والقاضي تصوُّرات خاطئة، دفعت الثمن باهظاً، أخطر شيء أن تتصوَّر معارف أو معلومات عن الدين غير صحيحة، هذا يؤكِّده قول الله عزَّ وجل:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة آل عمران: 154]

لا يعرفون الله، أحياناً يحتالون على الشرع، وكأن الله تنطلي عليه هذه الحيلة، أحياناً يقسم أيماناً معظَّمة وكلها كذب، أحياناً يعد نفسه ذكياً إذا أكل أموال الناس بالباطل، وكأن الله غير موجود، وكأن الله لا يحاسب، وكأن هؤلاء الذين أخذ أموالهم بالباطل ليس لهم رب يحاسبه، فالمشكلة أنك حينما تتصوَّر عن الله تصورات غير صحيحة سوف تُصْعَق يوم القيامة، أحياناً الإنسان في الدنيا يرتِّب أموره على أساس تصوُّر معيَّن، فيجد أن التصوُّر غير صحيح، ويدفع الثمن باهظاً.

قصَّة رويت لي: توهَّم رجل بسذاجة وبغباء أنه إذا خلع أسنانه كلها يعفى من الخدمة الإلزاميَّة، رفض عدد من الأطباء أن يلبي رغبته، وبعد ذلك قبِل طبيب هذا العمل، خلع كل الأسنان، ذهب وعرض نفسه على اللجنة الطبيَّة فاعتبروه متهرِّباً من الخدمة فضاعفوا له مدة الخدمة، وخسر أسنانه. هذا تصوُّر خاطئ خطأً شديداً.

التصورات الخاطئة أخطر شيء على الإنسان :

أخطر شيء على الإنسان تصورات خاطئة، كأن يعتقد أن أمة محمد مرحومة، فيغش، ويكذب، ويأكل مالاً حراماً، يأكل الربا ويقول لك: بلوى عامَّة، يشاهد مناظر خلاعيَّة يقول لك: بلوى عامَّة، ماذا نفعل؟ كل التيار هكذا، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً ولا يعفيك من العذاب يوم القيامة، أنت إنسان مخيَّر والمنهج واضح، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وسع النفس لا تقوله أنت، الله يقوله، الشيء الذي كلَّفك فيه من وسعك.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

يبيع حاجات محرمة، هذه الحاجات كلها ممنوعة عند الله عزَّ وجل، ويروج المعصية، ويروج المنكر، وكله يسجل في صحيفته.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

[سورة يس: 12]

يكشف الله عز وجل هذه الأعمال كلها يوم القيامة، إذا إنسان غلط مع فتاة، ووجد مثلاً مليون واحدة من ذريتها في صحيفته- أعوذ بالله- فلا يلومنَّ إلا نفسه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

سنَّ سُنَّة سيئة، فعلى مدى التاريخ بعد ألف سنة، ثلاثمئة وخمسون مليون إنسان تدمَّروا بهذه السُنَّة السيئة، يقول له: انظر إلى عملك يا عبدي.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

طلب العلم فرض على كل إنسان :

البطولة أن تملك تصوُّرات صحيحة عن الله عزَّ وجل، عن النبي، عن هذا الشرع، عن وجودك، عن سرّ وجودك، عن الهدف من وجودك، القضيَّة خطيرة تمس مصيرك، تمس سعادتك في الدنيا والآخرة، تمس سعادتك الأبديَّة، فلا يوجد شيء أخطر من ذلك الشيء.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

إذا باع الإنسان كل شيءٍ يملكه، باع بيته، معمله، سيارته، متجره، وأراضيه، وأخذ عملة مقابلها، إذا اكتشف أنها مزوَّرة، ألا يُصْعَق؟ ما أصعب هذا الموقف، كل شيء يملكه فقده بثانية واحدة وسيحاسب، فهو شريك مع المزوَّرين، فلكي لا يقع الإنسان في شر عمله، لكي لا يتفاجأ، حتى لا يصعق عليه أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد.

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المتناثرة]

ليس لك خيار، لا بد من طلب العلم، لا بد من معرفة حدود الشرع، معرفة الحلال والحرام، الخير والشر، ما يجوز وما لا يجوز، تعرَّف إلى الله من خلال الكتاب والسُنَّة، هذه القصص التي تسمعها من أشخاص غير مسؤولين لا قيمة لها، كل إنسانٍ يؤخذ منه ويُرَدُّ عليه إلا صاحب هذه القبَّة الخضراء، النبي معصوم، ما سوى النبي يؤخذ منه ويُرَدُّ عليه، علينا أن نأخذ من الكتاب والسُنَّة وما سواهما مرفوض مهما كان قائلها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (16-20): تفسير الآيات 47-52، ظلم النفس والغفلة عن الله سبحانه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

الظلم هو الشِرك بالله والظلم هو أن تظلم نفسك قبل أن تظلم الآخرين :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السادس عشر من سورة الزُمَر ومع الآية السابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

الذين ظلموا هم الذي أشركوا، لقول الله عزَّ وجل:

(يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

ظلمٌ عظيمٌ لهذه النفس أن تتوهم القوة فيما سوى الله، أن تتوهم العزَّة عند غير الله، أن تتوهم السعادة فيما سوى الله، معنى ذلك أنك ظلمت نفسك ظلماً شديداً وظلماً كبيراً، وخسرت خسارةً فادحة، فالظلم هو الشِرك بالله، والظلم هو أن تظلم نفسك قبل أن تظلم الآخرين، ما ظلمت الآخرين إلا بعد أن ظلمت نفسك، حينما أبقيتها جاهلة فتحَرَّكت حركةً عشوائية؛ أكلت مال هذا، وشتمت هذا، واعتديت على هذا، لأنك ظلمتها بأن جعلتها جاهلة، لم تعلمها، لم تعرِّفها بربها، لم تعرفها بمنهج ربها لم تخوِّفها من الآخرة، استرسلت معها، أعطيتها ما تشتهي، كانت هي التي تحكمك ولست أنت الذي تحكمها، قادتك ولم تقدها، احتكمت إليها ولم تحتكم للشرع، ظلمت نفسك، فحينما ظلمت نفسك ظلمت الآخرين، وحينما ظلمت الآخرين للآخرين ربٌ يأخذ بحقوقهم.

أشد أنواع الظلم ألا تعتني بنفسك ولا تزكيها :

أغبى إنسان هو الذي يظن أنه إذا أكل أموال الناس بالباطل فهذا عملٌ ذكي، إنه عملٌ يقع في أدنى درجات الغباء، لأن لهؤلاء الذين أكلت مالهم، لأن لهؤلاء رباً، رباً سيأخذ حقَّهم منك ولو بعد حين، فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا)

هذا الذي أشرك بالله، اعتقد أن زيداً بيده الأمر، عُبيداً بيده الرزق، فلاناً بيده العزَّة، بيده الرفعة، إذا اعتقدت أن إنساناً ما بإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك فهذا هو الشرك، والشرك ظلمٌ عظيم، لو أنك في طريقك إلى بلدةٍ لتأخذ منها مبلغاً كبيراً جداً، وركبت القطار، ثم فوجئت أن هذا القطار لا يتجه إلى هذه البلدة؛ بل يتجه إلى بلدةٍ على الطرف الآخر، أليس هذا ظلمٌ لك؟ ضاع عليك المبلغ، وفاتت عليك الفُرصة.

فحينما يتجه الإنسان لغير الله لن يجد شيئاً، كما لو تعلّقت بالسراب لن تجده شيئاً، ليس ماءً، فكل إنسانٍ اتجه إلى غير الله أشرك، أشرك شركاً عظيماً وظلم نفسه ظلماً عظيماً، الإنسان حينما يشرك سينفذ أمر هذا الذي توهَّمه عظيماً، سينفذ أمر هذا الذي توهَّمه قوياً، سينفذ أمر هذا الذي توهَّمه بيده الأمر، بيده الخير والشر، فإذا توجهت إلى غير الله وتوهمت أنه قادرٌ على أن ينفعك أو أن يضرك، وهو في الحقيقة لا ينفع ولا يضر فقد أشركت، وحينما أشركت ظلمت نفسك ظلماً عظيماً.

فحينما أشركت وظلمت نفسك ظلماً عظيماً الآن حركتك على غير هُدى، على غير منهج، سوف تأخذ ما لك وما ليس لك، وسوف تحاسب عن أعمالك في الدنيا وفي الآخرة، إذاً هذا هو الظلم العظيم، فالظلم أن تأخذ ما ليس لك، الظلم أن تعتدي على الآخرين، الظلم بل أشد أنواع الظلم ألا تعتني بنفسك، ربنا جلَّ جلاله يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

زَكَّاهَا عرفها بربها، زَكَّاهَا حملها على طاعة ربها، زَكَّاهَا حملها على الإقبال عليه حتى طهرت من الأدران، وتحلّت بالمكارم الإنسانية، فاستحقت جنَّة ربها، هذه الزكاة، علة وجودنا على وجه الأرض أن نزكي نفوسنا، آية صريحة قطعية الدلالة.

الإنسان حينما يظلم نفسه في الدنيا

تُكْشَفُ له الحقائق حينما يقدُم على الآخرة :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هذا الذي يشتغِل بنفسه، يطهرها من كل نقيصة، من كل انحراف، من كل درن، من كلِّ معصية، ثم يحليها بالكمال، يحملها على مكارم الأخلاق، يحملها على طاعة الله، على بذل الغالي والرخيص، هو يمهِّد لها السبيل كي تتصل بالله عزَّ وجل، فإذا اتصلت به زكت، وإذا زكت سعدت في دُنياها وفي

أخراها.

لكن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وهم في الدنيا، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، نائم، مخدَّر بالشهوات، من لقاء إلى لقاء، من صفقة إلى صفقة، من سَفَر إلى سفر، من بلد إلى بلد، فحياته مفعمة بالمباهج والمُتَع، فإذا اقترب الموت أو جاء الموت انكشفت له الحقيقة، عندئذٍ يُصْعَق، عندئذٍ يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا.

هذا الذي يظلم نفسه بالشرك، ويظلم نفسه حينما يبقيها جاهلةً، ويظلم نفسه حينما لا يحملها على طاعة الله، ويظلم نفسه حين لا يزكّيها، ويظلم نفسه حينما يبعدها عن طريق الحق، هذا حينما تُكْشَفُ له الحقائق حينما يقدُم على الآخرة، حيث هناك قيَم جديدة، وموازين جديدة، والإنسان يوزن بمدى معرفته بربه، بمدى طاعته له، بمدى إحسانه للخلق، كل مكتسباته، وكل إنجازاته، وكل ميزاته تتلاشى.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

حجم الفدية يوم القيامة يشير إلى حجم العذاب :

الآن يتمنى هؤلاء الذين ظلموا.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

ما في الأرض جميعاً، فلو فرضنا هناك من يملك حقلاً للألماس أو حقلاً للذهب، كم ثمنه؟ الذي يملك شارعاً بأكمله على الصفّين المحلات والمكاتب والمستودعات، يملك مدينة، الشركات الكبرى له، كل الشركات ذات الجنسيَّات المتعددة كلها له، فما معنى:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

كم هي أموال الدنيا؟ هذه الرساميل التي سُخِّرَتْ للشركات الكُبرى في العالم، كم هي؟ ما حجمها؟ ما حجم الإنفاق في العالم؟ ما حجم الدخل في العالم؟ ما ثمن الثروات في العالم؟ ما ثمن المواد الأولية في العالم؟

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

الإنسان لا يدفع إلا على قدر الشيء المُقابل، متى الإنسان يقول لك: ادفع مئة ألف وخلّصني، معناها أنه يعاني كثيراً، ادفع مئتي ألف، معنى ذلك أن العذاب أشد، ادفع كل أموالي وخلصني، معناها العذاب لا يحتمل، فلو أن إنساناً يملك ما في الأرض جميعاً؛ من بيوت، وأراضٍ، وعقارات، وشركات، ومواد أولية، ومعادن، وفلزات، وعاين عذاب النار يقول: خذوا مني كل ما بيدي وخلصوني من هذا العذاب. كم هو هذا العذاب؟

فهل يتخلَّى إنسان عن بيته مقابل عذاب بسيط تلقاه من إنسان؟ يقدِّم بيته كله الذي لا يملك غيره، إذا كان العذاب لا يحتمل، إذا حُكِمَ عشرين سنة مع الأشغال الشاقة، يتخلى عن بيته وعن أرضه وعن متجره يقول لك: خلصني فقط. الصورة دقيقة جداً، حجم الفدية يشير إلى حجم العذاب، فكلما كان العذاب أشد، كلما سخا الإنسانُ بما يملك افتداءً من هذا العذاب، فربنا عزَّ وجل بطريقةٍ غير مباشرة، أراد أن يبين لنا أن العذاب الذي سيلقاه الظالم المشرك الذي أبقى نفسه جاهلةً، الذي لم يحملها على طاعة الله، الذي تحرَّك حركةً عشوائية فاعتدى على حقوق الآخرين وجاء يوم القيامة ليحاسب على أعماله كلّها، هذا الإنسان لو أن الدنيا كلها بيده، لو أن أموال الأرض كلها بيده، لو أن كل ما في الأرض من مُمْتَلَكَات، كل شيء يُمَلَّك كان بيديه ورأى العذاب، لافتدى به نفسه.

الطَّامة الكُبرى أن تعتقد عقيدةً ثم تكتشف أن هذه العقيدة لا أصل لها :

قد يتلف أحد أعضاء الإنسان أحياناً، يقول لك: يجب أن أبيع بيتي لأصلح ما تلف، الإنسان في الدنيا يضحي بكل ما يملك من أجل أحد أعضائه، فكيف إذا واجه عذاباً لا يحتمل؟ هذه الآية:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

هذا كلام خالق الكون، هذا كلامٌ له أبعاده، هذا كلامٌ دقيقٌ جداً إذا تأَمَّلَهُ الإنسان عليه أن يبادر إلى طاعة الله، إلى تأدية الحقوق، إلى التبرئة من كلِّ ما عليه من ذمم، أن يُبادر إلى أداء الصلوات، أن يبادر إلى طاعة الله التامة في كل ما أمر، والانتهاء عن كل ما نهى عنه وزجر، لكن مركز الثقل في الآية:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

يوجد عند الإنسان قناعات، وتصوُّرات، يُصعق حينما يأتي الواقع ليؤكد له أن كل تصوراته خاطئة، أن كل ما كان يعتقده ليس صحيحاً هذه هي الطَّامة الكُبرى، هذا هو الإحباط الذي ما بعده إحباط، أن تعتقد عقيدةً ثم تكتشف أن هذه العقيدة لا أصل لها.

إنسان اعتقد عقيدة خلال خمسين عاماً ودعا إليها ودافع عنها ثم اكتشف أنها عقيدةٌ لا أصل لها، صُعِق، والأمر حمله على أن ينتحر، مفاجأة كبيرة جداً، عاش عمره وفق هذه المعطيات، وفق هذه المبادئ، وفق هذه التصورات، ثم اكتشف أنها غير صحيحة وأنها ضالة.

للآية التالية معنيان :

لذلك لكي لا يتفاجأ الإنسان هذه المفاجئة التي لا يحتملها، ربنا عزَّ وجل وأنت في الدنيا ومن خلال القرآن الكريم بيَّن لك أن أمام الإنسان الظالم مفاجأةً خطيرةً:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

العلماء قالوا: بدا لهم من الله، أي أنهم توهموا أن هذه الأعمال التي يفعلونها أعمال طيبة، ثم فوجئوا أنها أعمال سيئة، وأنها لا تُرضي الله عزَّ وجل، ولا بُدَّ من أن يدفعوا ثمنها باهظاً، توهَّموا أن هذا الذنب يمكن أن يتوبوا منه في المستقبل، ثم فاجأهم الموت، وماتوا على غير طاعة الله.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

توهموا أنهم يتوبون منه ثم فوجئوا أن الموت عاجلهم، هذا معنى.

معنى آخر، هو أن الإنسان يعتقد أن الله عزَّ وجل لن يحاسبنا هذا الحساب الدقيق، ثم يفاجأ أن كل أعماله سيحاسب عليها حساباً دقيقاً، الإنسان يتوهَّم أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لأمته، ثم يفاجأ أن هذه الشفاعة ليست لكل أمته، لمن مات غير مشركٍ، فأخطر ما في الإنسان، أو أخطر ما في عقيدته أن يعتقد اعتقاداً يُبنَى عليه عملٌ خطير ثم يفاجأ أن اعتقاده خاطئٌ وأن هذا العمل سيحاسب عليه، هذا شيء خطير جداً.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

فإذا توهمت أن هذا القاضي يمكن أن يحابيك في الحكم، فاطمأننت ولم تعبأ بخصمك، ثم فوجئت أن هذا القاضي لا يحابي أحداً، ولن يقبل منك أي شيء نظير أن يحكم لك، كان نزيهاً إلى أعلى درجة، هذه المفاجأة مفاجأة صاعقة، خسرت الدعوى، لأنه بدا لك منه ما لم تكن تحتسب، بدا لك أن هذا المدرس يمكن أن يعطيك الأسئلة فلم تدرس، ثم فوجئت أن هناك أسئلة دقيقةً دقيقة وأنك لم تحضِّر، وأنك خسرت عاماً بأكمله، هذا يسمونه الإحباط.

العاقل هو الذي لا يندم على فعلٍ فعله :

الإنسان يتوهم شيئاً ثم يفاجأ أن هذا الشيء غير صحيح، يعتقد عقيدة ثم يفاجأ أنها غير صحيحة، يتوهَّم توهُّماً ثم يتفاجأ أنه خسر خسارةً كبرى في هذا التوهُّم.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

فالعاقل هو الذي لا يندم على فعلٍ فعله، معناها في خطأ بالعقيدة، العمل مُنْعَكِس للفكر، الإنسان يتحرَّك وفق قناعات، يتحرَّك وفق معتقدات، يتحرَّك وفق مفاهيم، فإذا كانت المفاهيم والمعتقدات والتصورات

والقناعات غير صحيحة، الحركة إذاً غير صحيحة، أنت مخير، منحك الله عزَّ وجل العقل أداة معرفة الله، منحك الكون من خلاله تتعرف إليه، منحك فطرةً سليمة، منحك شرعاً حكيماً، منحك اختياراً، منحك شهوةً كقوةٍ محرِّكة، أعطاك كل مستلزمات التكليف، ثم أنت أعرضت عن هذه المستلزمات واعتقدت اعتقاداتٍ ليست صحيحة، وفي ضوئها تحرَّكت، ثم فوجئت أن هذه حركة خاطئة وأنك ستدفع ثمنها باهظاً، هذا معنى:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

المطلوب منَّا قبل أن نتحرك أن نجري جرداً لمعتقداتنا، جرداً لمفاهيمنا، جرداً لتصوراتنا، جرداً لقناعاتنا، هذه التصورات والقناعات والمفهومات والمعتقدات ينبغي أن تعرض على كتاب الله لأن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن تعرض على سُنَّة رسول الله، عملية تصحيح للمفاهيم، هل تعتقد أن إنساناً انتمى إلى هذا النبي الكريم وهو متلبسٌ بالمعاصي والآثام أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع له، هذا اعتقادٌ خاطئ، فالإنسان إذا اعتمد على هذه العقيدة، ولم يلتزم، ولم ينضبط، ولم يستقم، وقال: النبي الكريم يشفع لنا، ونحن من أمة محمد، هذا اعتقاد خطير أودى به إلى الهلاك، لذلك كل قضية تحقق منها..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

البطل والعاقل هو الذي يسير في طريقٍ عرف نتائجه قبل أن يصل إلى نهايته :

قبل أن تتحرَّك، قبل أن تُعطي، قبل أن تأخذ، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تَصِل، قبل أن تقطع، قبل أن تأخذ هذا الموقف قبل أن تنحاز إلى فلان أو إلى فلان، يجب أن تتحرَّك وفق الحقيقة والحقيقة ما طابقت الواقع، العلم ما طابق الواقع بدليل، فكل شيء غير مطابق للواقع هذا جهل، ليس الجهل أن تكون خالياً من المَعلومات، لا، فالإنسان وعاء، إذا كان هذا الوعاء فارغاً فالإنسان أُمِّي، أما إذا كان ممتلئاً مفهوماتٍ خاطئة، منطلقاتٍ خاطئة، تصوراتٍ خاطئة، هذا إنسان جاهل، كل إنسان يحتوي أو يمتلك معلومات غير صحيحة، علاقات غير صحيحة، مفاهيم خاطئة هذا إنسان يسمى جاهلاً.

عملية جرد المفهومات، والمعتقدات، والتصُّورات، والقناعات هذه عملية مهمة جداً، وأنت عندك

مقياس، المقياس هو كتاب الله عزَّ وجل لأن هذا الكتاب حقٌ بأكمله، قطعي الثبوت، لا شك في ثبوته، كله من كلام الله عزَّ وجل، وما فيه حقٌ صرِف.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

لئلا تقع هذه المفاجئة، لذلك البطل هو الذي يسير في طريقٍ عرف نتائجه قبل أن يصل إلى نهايته، هذا هو العَقل، العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

يقول من لا علم له: الله عزَّ وجل لن يحاسبنا، الله غفور رحيم ولكن الله عزَّ وجل قال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

مُلَخَّص القول أن أية فكرةٍ يسمعها الإنسان لا بُدَّ من أن يطلب عليها الدليل :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

الله غفور رحيم وعنده عذاب أليم، مُلَخَّص القول: أن الإنسان أية فكرةٍ يسمعها لا بُدَّ من أن يطلب عليها الدليل، لكن أن تكون أنت ضحية إنسان أخطأ، تلقيت شيئاً من دون تدقيق، من دون بحث، من دون دليل، تلقيته هكذا ولم تدقق به واعتمدته كعقيدة، وانطلقت منه، فإذا النتائج خطيرة جداً، هذا ليس عمل إنسان عاقل.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

أحياناً ينطلق الإنسان في أعمال غير صحيحة، غير صالحة، مأخوذ بقيَم معينة، مأخوذ بروح العصر، قد يكون في هذا فساد، هذا العمل فيه اختلاط، هذا العمل فيه إفساد ذات البَيْن، هذا العمل فيه إيقاظ للشهوات النائمة، فالإنسان أحياناً بدافع من قناعات معيَّنة ينطلق في نشاطات، ثم يفاجأ أن هذه النشاطات لا ترضي الله عزَّ وجل، لأن العمل الذي يقبله الله عزَّ وجل هو العمل الخالص، ما كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنَّة.

يوم القيامة يري الله الإنسان أعماله التي فعلها في الدنيا :

قال تعالى:

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

لو أن الإنسان أطلق لابنته الحُرِّيَّة، فخرجت سافرةً كما تشتهي ثم فوجئ أن قدمها زَلَّت وانحرفت، وهنا بدا له في الدنيا:

(سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

يوم القيامة يري الله الإنسان أعماله التي فعلها في الدنيا، كيف أنه سبَّب الفساد في الأرض، كان سبباً لفسادٍ عريض، أو كان سبباً لشقاءٍ كبير، وكل إنسان يتحرَّك على غير منهج الله عزَّ وجل، الله جلَّ جلاله يريه في الآخرة نتائج أعماله..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

[سورة يس: 12]

ندم يصيب الإنسان يوم القيامة، ندمٌ لا يُحتمل، الفُرصة انتهت، فرصةٌ واحدة استنفذها ولم يعرف ربَّه بها. ما دمنا أحياء، وما دام القلب ينبض فنحن في بحبوحة، التوبة سهلة، العودة إلى الله سهلة، والإصلاح سهل، الإنسان يفكِّر، يستخدم عقله الذي جعله الله له أداةً للمسؤوليَّة، هو مَناط التكليف، وأداة معرفة الله عزَّ وجل.

الدين لا يُختَصَر إلى الصلاة والصوم والحج والزكاة، الدين مجموعة كبيرة جداً من الأوامر والنواهي، الدين منظومة قيَم، الدين نظام كامل للإنسان، منهج فيه تفاصيل كثيرة جداً، فالمؤمن همُّه الأول أن يتعرَّف إلى الله أولاً، وإلى منهجه ثانياً، ثم يحمِل نفسه على تطبيق منهج الله ثالثاً، ليس هناك عملٌ أعظم من هذا العمل، معرفة الله أولاً، ومعرفة أمره ونهيه ثانياً، وحمل النفس على طاعة الله ثالثاً.

الخسران المبين :

قال تعالى:

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

الإنسان الجاهل يستهزئ أحياناً بالدين، يستهزئ بأهل الدين، يستهزئ بالمؤمنين، يستهزئ بالقيَم الدينيَّة، الإنسان الورع الذي لا يعصي الله عزَّ وجل، يُتَّهم باتهامات شتَّى، هذه الاتهامات أساسها استهزاء أهل الدنيا بأهل الإيمان، فهذا الذي استهزؤوا به أحاط بهم، هذا الذي استهزؤوا به وضعهم عند مسؤوليتهم، هذا الذي استهزؤوا به جعلهم يندمون على فِعْلَتِهم.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

الإنسان المؤدَّب لا يستهزئ، إذا لم يفهم شيئاً يسأل عنه، لو كان هو متلبّس بالتقصير ورأى إنساناً متفوِّقاً يحاول أن يقلّده، يحاول أن يسأله، أما أن يأخذ موقف الاستهزاء من كل إنسان تفوَّق، أو تعرَّف إلى الله عزَّ وجل، أو اعتقد أن طاعة الله هي كل شيء بالحياة، فهذا هو الخسران المبين.

الإيمان الفطري يدعو الإنسان إلى أن يلجأ إلى الله عند الشدَّة وهذا لا يكفي ولا يُنَجِّي:

قال تعالى:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ)

الإنسان هذا جنس الإنسان، الإنسان مركَّب بخصائص:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

خُلِقَ هلوعاً، خُلِقَ منوعاً، خُلق عجولاً، الإنسان له خصائص، من خصائص الإنسان غير المؤمن أنه إذا مسَّه ضرٌ دعانا، هذا إيمانه الفطري، الإنسان مؤمن بالفطرة، مهما كان بعيداً عن الدين، مهما كان بعيداً عن الله عزَّ وجل.

فالإيمان الفطري يدعو الإنسان إلى أن يلجأ إلى الله عند الشدَّة، هذا الإيمان لا يكفي ولا يُنَجِّي، لأنه إيمان عند الضرورة، عند المصائب، والدليل:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

الإيمان الذي يتأتَّى للإنسان عند المصيبة، ويدفعه إلى الالتجاء إلى الله عزَّ وجل، والابتهال له، والدعاء له، هذا الإيمان لا قيمة له ولا يجدي، الدليل أن الله سبحانه وتعالى إذا كشف عن هذا الإنسان هذه المصيبة عاد إلى ما كان عليه.

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا)

مرَّةً طائرة فيها رُكَّاب مُلحدون، فلمَّا هبطت في جيوب هوائيَّة واضطربت، وظنوا أنهم ميِّتون لا محالة، دعوا ربَّهم، إذا ركب الإنسان البحر، ركب طائرة، واجه خطراً شديداً، يجأر بالدعاء، ويستجير ويدعو الله عزَّ وجل، هذا الإيمان ليس كافياً، لأنه عندما ينجو يعود إلى ما كان عليه.

الإنسان الغافل عن الله عز وجل يعزو كل شيء إلى ذاته :

قال تعالى:

(ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

الإنسان في هذه الحالة ينسى الله عزَّ وجل، يحكي عن خبراته، عن ذكائه، عن الاحتياطات التي أخذها، عن خطّته التي رسمها، عن تدبيره الذي دبَّره، عن كَيده الذي كاده، عن مكره الذي مكره، وكأن الله غير موجود، هذه النعمة التي أنعمها عليه، هذا الفضل الذي أسبغه الله عليه يعزوه إلى ذاته.

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

وهذه الكلمة قالها قارون، قارون:

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ*وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ*قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص: 76-78]

أنت راقب الإنسان الغافل تجد أن كل أعماله يعزّوها إلى ذاته وكأنه صنعها، وكأنه خلقها، يفتخر بإمكاناته، بقدراته، بذكائه، بثقافته، باطلاعه، بخطته الحَكيمة، بمواقفه الشجاعة، دائماً يفتخر، أي أنه يعزّي أعماله إلى قدراته الذاتيَّة مع أنها فضلٌ من الله عزَّ وجل، هو طلب لكن الله حقّق، هو سعى لكن الله تفضَّل.

حظوظ الدنيا بأكملها موقوفة على طريقة التعامل معها :

قال تعالى:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

معنى الفتنة الامتحان. حظوظ الدنيا بأكملها؛ المال من حظوظ الدنيا، العقل الراجح من حظوظ الدنيا، الوسامة من حظوظ الدنيا، الأولاد من حظوظ الدنيا، الزوجة من حظوظ الدنيا، المرتبة الاجتماعيَّة العليَّة من حظوظ الدنيا، القوَّة من حظوظ الدنيا، حظوظ الدنيا بأكملها ليست نِعَماً وليست نِقَماً، إنها موقوفة على طريقة التعامل معها.

المال ليس نعمة وليس نقمة، كيف اكتسبته؟ وكيف تنفقه؟ إن اكتسبته من حلال وأنفقته في حلال أصبح نعمة، إن اكتسبته من حرام وأنفقته في حرام أصبح نقمة، فلذلك هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر:15-16]

جاء الجواب مع الردع:

(كَلَّا)

[سورة الفجر: 17]

كَلا أداة نفيٍ وردعٍ، أي يا عبادي ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً وإهانةً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، إن أعطيتكم المال فهو نعمةٌ موقوفةٌ على طريقة استعمالها، إن أعطيتكم الصحَّة فهي نعمةٌ موقوفةٌ على طريقة استخدامها، إن أعطيتكم القوة فهي ابتلاءٌ وامتحانٌ وفتنةٌ، هذه القوَّة كيف تستخدمونها؟

نِعم الله مطلقة :

إذاً:

(بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

حينما خوَّلناه نعمة مِنَّا، أي نعمة مطلقة، والمطلق على إطلاقه؛ المال نعمة، الصحَّة نعمة، الذكاء نعمة، القوَّة نعمة.

(بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

الله عزَّ وجل قال:

(لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

[سورة يونس: 14]

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة القصص: 105]

وهذا يذكِّرنا بقول الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر: 8]

قال العلماء: النعيم نعمة الصحَّة، نعمة الفَراغ، نعمة الكفاية، نعمة الطُمأنينة، نعمة الأمن، نعمة الأهل، نعمة المأوى، نعمة العَقل كل هذه النعم سوف تُسألون عنها، كيف أنفقتموها في الطاعات أم في المعاصي؟ لذلك يمكن أن نسمي حظوظ الدنيا درجات نرقى بها إلى أعلى عليين، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين، وهذا يذكِّرنا بقول الله عزَّ وجل:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ)

[سورة فاطر: 2]

أي إذا رحم الله عزَّ وجل إنساناً، هذا الإنسان يسعد في أصعب الظروف، يسعد وهو في بيتٍ قميء، يسعد وهو بين جدرانٍ لا تزيد عن حجم جسمه، يسعد بدخلٍ قليل، أما إذا أمسك الله عنه رحمته، يصبح المال وبالاً عليه ونقمةً عليه، ربَّما قُتِلَ من أجل ماله، أما إذا تخلَّت عنه رحمة الله عزَّ وجل الشيء الذي يراه الناس نِعَمَاً يراه هو نِقَمَاً..

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ)

[سورة فاطر: 2]

آيات تبين أن رحمة الله إذا جاءت أنستك كل شيء وإذا حُجِبَت عنك لم يعجبك شيء:

رحمة الله إذا جاءت أنستك كل شيء، وإذا حُجِبَت عنك لم يعجبك شيء، هذه الآيات التي تتعلَّق بهذه الآية:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر:15-16]

هذه آية:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر: 8]

هذه آية ثانية:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

هذه آية أخرى.

هناك قوانين ثابتة مطبَّقة على الناس جميعاً :

إذاً:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

عندما ترك الإنسان طاعة الله من أجل الدنيا، فهل الدنيا تمنَعُ عنه عذاب الله؟ لا تمنعه عنه، الإنسان عصى ربَّه من أجل هذا المال، فجمع مالاً وفيراً، فلمَّا جاء ملك الموت، ورأى الحساب الدقيق والعذاب الأليم، هذا المال الذي جمعه من معصية هل ينفعه الآن؟ لا ينفعه.

(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

هناك قوانين ثابتة، قوانين ثابتة مطبَّقةٌ على الناس جميعاً، فالإنسان الذي يؤثر دنياه على آخرته يخسرهُما معاً، والذي يؤثر آخرته على دنياه يربحهما معاً، فحينما يعصي الإنسان ربَّه من أجل المال، المال لا ينفعه، حينما يعصي ربَّه من أجل مرتبةٍ معيَّنة، هذه المرتبة لا تحميه من عذاب الله، إن الله سبحانه وتعالى يمنعك من كل شيء، لكن الشيء الذي اعتصمت به من دون الله لا يمنعك من الله عزَّ وجل.

الإنسان المسيء ينتظره من الله معالجات كثيرة والإنسان المُحْسِن له عند الله حياةٌ طيِّبة:

قال تعالى:

(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

معنى هذا أن الإنسان هو الإنسان، والقواعد التي يتبعها أو المواقف التي يقفها إذا كان جاهلاً وبعيداً عن الله عزَّ وجل هي هِي في كل زمان وفي كل مكان، لذلك قيل: ملَّة الكفر واحدة، الكافر هو الكافر في أي زمان وفي أي مكان، والذين كفروا بعضهم من بعض مواقفهم متشابهة، منطقهم متشابه، أفعالهم متشابهة، انحرافهم متشابه.

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

الحقيقة الإنسان رهين كَسْبِهِ، أنت لك عمل، لك عمل متعلِّق بحرفتك، متعلِّق ببيتك، متعلِّق بعلاقاتك الاجتماعيَّة، متعلِّق بلهوك، فالإنسان له عمل، إما عمل صالح أو عمل طالح، وعملك يحدِّد مصيرك الأبدي؛ إما إلى جنَّةٍ يدوم نعيمها، أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، وربنا عزَّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ)

هناك قوانين ثابتة، الإنسان إذا انحرف ربَّما دفع ثمن انحرافه باهظاً، الله عزَّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

معنى هذا أن الإنسان المسيء ينتظره من الله معالجاتٌ كثيرة والإنسان المُحْسِن له عند الله عزَّ وجل حياةٌ طيِّبة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

كسب الرزق قد يكون وراء أكثر المعاصي التي يقترفها الناس :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

معنى ذلك أن الإنسان عمله يحقق له في الدنيا وفي الآخرة، وربَّما كان في الآخرة وحدها، لكن في الدنيا وفي الآخرة هناك تكريمٌ للمؤمن، وهناك تضييقٌ على غير المؤمن.

(وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

ربَّما كان كسب الرزق وراء أكثر المعاصي التي يقترفها الناس، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هذا المال الذي كان وراء هذه المعاصي والآثام، لو أيقن الإنسان أن الرازق هو الله عزَّ وجل، وما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، إذا أيقنت أن الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين انتهى الأمر، أما إذا أيقنت أن الرزق متعلِّق بالذكاء، متعلِّق بالاحتيال، متعلِّق بعمل الإنسان الأخلاقي أو غير الأخلاقي، مثل هذا الإنسان ليس من المؤمنين الصادقين، ليس من الذين يتوسَّم فيهم الإيمان.

حينما يوقِن الإنسان أن الله هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين عندئذٍ لا يعصي الله أبداً :

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

الذي يكسب الرزق يا ترى يكسبه بذكائه فقط أم بتوفيق الله عزَّ وجل؟ أحياناً الإنسان يفقد شيئاً من عقله، انتهى، يفقد بصره ويكون في منصب رفيع جداً، انتهى، أحياناً هذه القدرات التي أودعها الله في الإنسان يفقدها، أحياناً الإنسان يفقد ذاكرته فيصبح أثر بعد عين، عند الإنسان مهارات معيَّنة، عنده حِرَف معيَّنة، هذه من فضل الله عزَّ وجل، أما أن يعزوها إلى ذاته، وأن يعتمد عليها من دون الله:

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الله هو الرزَّاق، لذلك قالوا: كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً، يحرص الإنسان على حياته ورزقه، وحينما يكون جاهلاً أو ضعيف الإيمان، حفاظه على حياته وعلى رزقه يحمله على معصية الله عزَّ وجل، ما النتيجة؟ النتيجة أنه يخسر الرزق وطاعة الله عزَّ وجل، أما حينما يوقِن الإنسان أن الله عزَّ وجل هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين عندئذٍ لا يعصي الله أبداً، لا يغشُّ الناس، لا يكذب عليهم، لا يحتال عليهم، لا يأخذ ما ليس له، الله عزَّ وجل يتفضَّل عليه بالطاعة، ويتفضَّل عليه بالرزق الوفير.

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (17-20): تفسير الآيات 53-61، حال المستكبرين وحال المتقين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

يخاطب الله تعالى في هذه الآية المُسرفين في المعصية :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية الثالثة والخمسين من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أيها الأخوة الأكارم، قال العلماء: هذه أرجا آيةٍ في القرآن الكريم، يخاطب الله المُسرفين في المعصية، ليس العصاة، بل المسرفين الذين فعلوا كل أنواع المعاصي، أو الذين فعلوا أكبر المعاصي، كل أنواع المعاصي إسراف، أو أكبر المعاصي إسراف..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

القانط لا يعرف الله، اليائس لا يعرف الله، القنوط كفرٌ بالله، اليأس كفرٌ بالله، أيها الأخوة، من لوازم المؤمن أنه بين الخوف والرجاء، فإذا زاد رجاؤه وقلَّ خوفه، خوَّفه الله عزَّ وجل، ربَّما لاح له شبحُ مصيبة، ربَّما حجبه الله عنه، وإذا زاد خوفه على رجائه قرَّبه الله إليه وطمأنه، والمؤمن الصادق يتراوح في حركته إلى الله عزَّ وجل بين الخوف والرجاء، يعبد الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، فالله سبحانه وتعالى إن خفته طمأنك، وإن اطمأننت ولم تخف منه أخافك، فإذا خفت وحدك لم يخفك الله عزَّ وجل، وإذا رجوته كان الله سبحانه وتعالى كما تريد وتحب.

ربط الرجاء بالعمل :

على كلٍ هذه الآية أرجا آيةٍ في القرآن الكريم، فكل إنسان يقع في معصية، تزل قدمه، ينحرف نحو مخالفةٍ، ثم يقعده اليأس:

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران: 175]

لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون، فهذه الآية يجب أن ترفع معنويَّات المؤمنين، بل ينبغي أن ترفع معنويات المُقَصِّرين، كل إنسان مقصِّر بإمكانه أن يتلافى قصوره، لكن هناك من يفهم هذه الآية ومثلها من آيات المغفرة والرجاء فهماً ما أراده الله عزَّ وجل، يقول لك: يقول الله عزَّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

إذاً هو لا يقنط، مقيمٌ على معصيةٍ ويرجو الله عزَّ وجل، هذا هو المعنى الذي ما أراده الله عزَّ وجل.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

ربنا جلَّ جلاله ربط الرجاء بالعمل، إذا كنت راجياً فعلاً بادر إلى العمل، بادر إلى التوبة، بادر إلى الاستقامة، بادر إلى العمل الصالح، توبتك، واستقامتك، وعملك الصالح يحقّق رجاءك، أما إذا رجوت الله عزَّ وجل وأنت على ما أنت عليه من مخالفات، ومن تقصير، ومن تجاوزات فهذا رجاء البُلْه، رجاء الحمقى، رجاءٌ ما أراده الله، كل رجاءٍ لم يُرْبَط بالعمل رجاءٌ أبْلَه، ورجاءٌ ساذج، ورجاءٌ ما أراده الله عزَّ وجل.

الرجاء هو ما قارنه العمل والله جلَّ جلاله لا يتعامل مع التمنِّيات :

ربنا عزَّ وجل يقول في آياتٍ أخرى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف:110]

علامة رجائك مبادرتك إلى العمل، إلى التوبة، إلى الطاعة، إلى البذل، إلى التوبة مما سلف منك من معاصي، إلى الائتمار بأمر الله عزَّ وجل، إلى التقرُّب إليه ببذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، لا تقل: أنا أرجو الله، وأنت على ما أنت عليه، هذا رجاء البُله، هذا رجاءٌ ساذج، هذا الرجاء الذي ما أراده الله، هذا ليس رجاءً بل هو تمنِّيات.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء:123]

الله جلَّ جلاله لا يتعامل مع التمنِّيات، ما من إنسانٍ على وجه الأرض إلا ويتمنَّى أن يكون غنياً، إلا ويتمنَّى أن يكون من أهل الجنَّة، التمني كلام فارغ، التمني لا يتعامل الله معه أبداً:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء:123]

تمنَّى ما شئت، أمنيتك لا ترفع عن مكانها شعرةً، لكن الرجاء هو ما قارنه العمل.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف:110]

الفرق بين العباد والعبيد :

إذا كنت ترجو الله حقّاً تتحرَّك، تُبادر، تقلع عن ذنبٍ، تبادر إلى عملٍ صالح، تلتزم طاعة الله عزَّ وجل، فإذا قلنا: إن هذه الآية أرجا آيةٍ في القرآن الكريم أي أن هذا الرجاء يتبعه العمل، والدليل:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

سنأتي بعد قليل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

يا محمَّد قل لعبادي، ربنا عزَّ وجل نسبنا إلى ذاته، نسبة تشريفٍ وتكريم، فليس شيئاً سهلاً أن تكون أنت من عباد الله.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

أنت الآن نَسَبَكَ الله إلى ذاته تشريفاً وتكريماً، لكن العباد جمع عَبد، والعبيد جمع عَبد، شتَّانَ بين العباد والعبيد، العبيد هم الذين قُهروا بعبوديِّتهم لله عزَّ وجل لحاجتهم إليه، أنت عبدٌ لله بمعنى أن حياتك متوقّفةٌ على هذا الهواء الذي تستنشقه، وعلى هذا الماء الذي تشربه، وعلى هذا الطعام الذي تأكله، وأنت بحاجةٍ إلى مخلوقٍ مثلك يُلَبّي ما فيك من دوافع، فأنت مفتقرٌ إلى فضل الله دائماً، بهذا المعنى أنت عبد، وجمع العبد عبيد.

لكنَّك إذا عرفت الله، وعرفت أسماءه الحسنى، عرفت وحدانيَّته، عرفت كماله، عرفت ما عنده من خير، فانطلقت إليه بدافعٍ ذاتي، بمبادرةٍ منك، طواعية من دون إكراه، من دون سَوْقٍ بمصيبةٍ، إذا فعلت ذلك فأنت عبدٌ لله، وجمع هذا العبد عباد وليس عبيد.

الله جلَّ جلاله تفضَّل وتكرَّم علينا ورفع من قدرنا وشرَّفنا حينما نسبنا إلى ذاته :

ربنا قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

الله جلَّ جلاله تفضَّل علينا، وتكرَّم علينا، ورفع من قدرنا، وشرَّفنا وكرَّمنا حينما نسبنا إلى ذاته، فهناك آلاف الموظَّفين في سلك الشرطة، مئات الألوف، ماذا يعمل؟ شرطي، لكن يقول لك: أنا شرطي الوزير، انتبه أنا لست شرطياً عادياً، يفتخر لأنه نُسِبَ إلى منصبٍ رفيع، هذا في الدنيا.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

ألا تكفيك هذه النسبة؟ يا رب كفانا فخراً أن نكون لك عبيداً، وكفانا اعتزازاً أن تكون أنت يا رب لنا رباً، نفتخر ونعتز، نفتخر أنَّا عبيدك ونعتز أنك ربُّنا.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

أحياناً توجد بالكلمات إيحات فيما بين السطور.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

أحياناً تخاطب إنسان ابن شخص عظيم، ما أعجبك سلوكه فتقول له: أنت ابن فلان - هذه الكلمة تكفي - أنت ابن فلان، أبوك له شأنٌ كبير، أبوك من وجوه الحي، أبوك من عليَّة القوم، أنت ابنه انتبه. أي إيَّاك أن تفعل شيئاً لا يليق بك، إياك أن تفعل شيئاً لا يليق بهذه النسبة إلى الله عزَّ وجل.

الله يُسترضى ولاسيما بالصدقة :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

إذا أدرك الإنسان وتذوَّق ما تنطوي عليه هذه الكلمة لذاب حبَّاً لله عزَّ وجل..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

ذلَّت قدمهم، شردوا، تاهوا، وقعوا في بعض المعاصي، ورَّطهم الشيطان، وقعوا في حبائل الشيطان، ما الحل؟ اليأس كفر، القنوط كفر، فما الحل؟ الحل أنه لا ملجأ منك إلا إليك، الحل يا رب ليس لي سواك.

إذا قال العبد يا ربُّ وهو راكع قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد يا رب وهو ساجد، قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو عاصٍ، قال: لبيك ثمَّ لبيك ثمَّ لبيك.

أحياناً الابن يخاطب أبوه، يكون ابن جيِّد جداً، الأب يستجيب له، لكن إذا ابن شارد، وبعيد عن هذا الأب، منحرف أشدَّ الانحراف، ورأى هذا الأب ابنه المنحرف قد أتى إليه تائباً، أتى إليه طائعاً، أتى إليه منيباً، والله السعادة والسرور الذي يشعر به أضعاف مضاعفة عن شعور الأب حينما يناديه أحد أولاده الأبرار، ولدٌ شارد، ولدٌ تائه، ولدٌ منحرف عاد إلى أبيه، لذلك إذا رجع العاصي إلى الله نادى منادٍ في

السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد. عوِّد نفسك يا أخي، كلّما حُجِبْتَ عن الله، كلّما زلّت قدمك، كلّما أخطأت، كلّما بدرت منك بادرةٌ لا تُرضي الله عزَّ وجل، عوِّد نفسك أن تُقبل على الله تائباً، عوِّد نفسك أن تستغفر، عوِّد نفسك أن تراجع نفسك، عوِّد نفسك أن تقول: يا رب ليس لي سواك، استرضي الله، الله يُسترضى ولا سيما بالصدقة..

((إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

((باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة))

[أخرجه البيهقي عن أنس]

الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع بيد الفقير.

ضالٌ وكافرٌ وجاحدٌ الذي يقنط من رحمة الله سبحانه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

إسراف تنوُّع أو إسراف شدَّة، إما أنه ارتكب معصية كبيرةً جداً، أو أنه ارتكب كل أنواع المعاصي، كلاهما إسراف.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا)

لا تقنط نهيٌ إلهي:

(وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

[سورة الحجر: 56]

ضالٌ، وكافرٌ، وجاحدٌ الذي يقنط، جاء الجواب:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

هل هناك ذنبٌ أكبر من رحمة الله؟ لا، هل هناك ذنبٌ أكبر من مغفرة الله؟ كلا، وسعت رحمة الله كل الذنوب.

تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنته   بعفوك ربي عفوك أعظمُ

* * *

إذا تاب الإنسان إلى الله تعالى يجب أن يحافظ على أول توبة :

لكن الإنسان إذا تعامل مع الله، مع الله ما في مزاح، ما في تسلية، أنت تعاملت مع الله، زلّت قدمك، انحرف سلوكك، تورّطت في معصية، وقعت في انحراف، فما عليك إلا أن تتوب، لكن إذا تبت توبةً نصوحَ أنسى الله حافظيك، والملائكة، وبقاع الأرض كلّها خطاياك وذنوبك، كأن هذه المعاصي لم تكنْ، وربنا جلَّ جلاله يُشْعِرُكَ بذلك، يشعرك أنه غفر لك، تشعر أنك خفيف، تشعر أن كابوساً أُزيح عن صدرك، تشعر أن الدنيا لا تسعك، يا ربي لك الحمد، أبداً يشعرك أنه غفر لك، أنه قبلك، تبت إليه فتاب عليك، تابوا فتاب الله عليهم، أقبلت إليه فقبِلك، تبت إليه فتاب عليك، قلت: يا رب، قال: لبيك يا عبدي.
عجبت لإنسان معه كل هذه التسهيلات ولا يستخدمها! معه باب التوبة ولا يخترقه، ولا يدخل منه! معه رحمة الله عزَّ وجل كيف ينساها؟! أمامه هذه الآية كيف يقنط، كيف ييأس؟! لكن أنا لا ألوم إنسان تاب إلى الله توبةً نصوحَ ثمَّ نَقَضَ التوبة، ثم تاب ثمَّ نقض التوبة، عندئذٍ كلّما نقض التوبة مرَّةً ضعفت إمكانيَّة توبته القادمة، كل نقض للتوبة يضعف مكانتك عند الله، أسهل توبة أول توبة، مهما تكن الذنوب كبيرةً، مهما يكن الانحراف خطيراً، مهما يكن حجم المعاصي واسعاً، أسهل توبة أول توبة، وتشعر أن الصُلح بلمحةٍ واحدة - الصُلْحَ بلمحة - يا رب اغفر لي ذنبي. يا عبدي قبلتك وغفرت لك، وتبت عليك.
لكن المشكلة عندما يتوب الإنسان ثمَّ يعود إلى الذنب الذي تاب منه، يشعر أن حجاباً صار بينه وبين الله، ثمَّ تاب مرَّةً ثانية وعاد إلى الذنب مرَّةً ثالثة، صار الحجاب أسمك، فكلّما نقض التوبة ثَخُنَ الحجاب، إلى درجة أنه ربَّما لا يستطيع أن يتوب بعد ذلك.
لذلك أيها الأخوة إذا تاب الإنسان منكم فليحافظ على أول توبة، عاهد الله عزَّ وجل، عاهد خالق الكون، عاهد ربَّ العالمين.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

على الإنسان ألا يقنط من رحمة الله لأن الله يغفر الذنوب جميعاً :

كلمة جميعاً ماذا تُعْرَب؟

(يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

أي كل الذنوب إن شئت أن تعربها حالاً، وإن شئت أن تعربها توكيداً، على كلٍ هي تأكيد، لا تقنط لأنه يغفر الذنوب جميعاً، لأنه:

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

هو وحده الغفور، وهو العاطي لا يَسْأل، وهو الكريمُ لا يبخل، وهو الغفور لا يَعْجَل، علامة أنك ترجو الله عزَّ وجل، علامة أنك أيقنت أن رحمة الله أوسع من ذنوبك.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

ما رأيت منظر ابن أمُّه حجبته، فضاق ذرعاً بحجابه عنها، ببعده عنها، فاندفع إليها ورمى نفسه على صدرها. هكذا ينبغي أن تكون، حينما تسجد لله عزَّ وجل، وتمرِّغ جبهتك بأعتاب الله: يا رب ليس لي إلا أنت، يا رب من يغفر إن لم تغفر؟ من يرحم إن لم ترحم؟ من يعفو إن لم تعفو؟ يا رب ليس لي إلا أنت، اغفر زلَّتي، وأقل عثرتي، واقبل توبتي، ارحم ضعفي، أعطني ولا تحرمني، أكرمني ولا تهني، آثرني ولا تؤثر علي، يا رب برحمتك أستغيث، يا رب رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين. يجب أن يكون للمؤمن ابتهالات إلى الله عزَّ وجل، ابتهالات، مناجاة، استغفار، استعطاف، ما في أحلى من عبد يستعطف ربَّه، ما في أجمل من عبد يستغفر ربَّه، يُعلن التوبة لله عزَّ وجل، باب الله مفتوح.

والله أيها الأخوة من أخلص لله في توبته، والله الذي لا إله إلا هو يلمُس النتائج ليس بعد ساعة، بل في اللحظة التي تاب فيها إلى الله عزَّ وجل، يشعر أن جبالاً جاثمةً على صدره قد أُزيحَت، يشعر نفسه خفيف، الذنب أثقال.

الهدى يرفعنا والضلال يسحقنا والبطولة أن نعود إلى الله ونصطلح معه :

قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

[سورة الروم: 44]

وزن يسحقُه، كلَّما انحرف الإنسان جاءت ذنوبه تسحقه، أما:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الهدى يرفعك، والضلال يسحقك.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

البطولة أن تعود إلى الله، أي أن تعود إلى أمره، قطار خرج عن سكَّته، انحرف، الحل أن يعود إلى الخَط، هذه المركبة خرجت بالوادي وتحطَّمت، البطولة أن تعود إلى خطِّ سيرها الصحيح، الحل الصُلْحُ مع الله.

والله يا أيها الأخوة ما يعانيه المسلمون اليوم في شتَّى بِقاع الأرض له حلٌ واحد، حلٌ واحد وهو الصلح مع الله، إن اصطلحوا مع الله، والله أيها الأخوة تُقْلَب جميع الموازين، تتغيَّر كل المعادلات، كل ما يراه

المسلمون اليوم من ضعفٍ، ومن خيبة أملٍ، ومن هجمةٍ شرسة تتلاشى هذه إذا كانوا مع الله، لأنه إذا كان الله معك فمن عليك؟ إن الله مع المؤمنين، إن الله مع المتقين، أي معهم بالنصر، معهم بالتأييد، معهم بالحفظ، معهم بالتوفيق، هذه كلُّها وعود لله عزَّ وجل..

(وَأَنِيبُوا)

كل البطولة أن تنيب إلى الله عزَّ وجل، لو أنك سمعت دروساً لعشر سنوات، لعشرين سنة ولم تطبِّق هذه الدروس، ولم تُتَرْجَم هذه الدروس إلى سلوك يومي، إلى أن تعقد العزم على طاعة الله، أن تُقْلِع عن كل المعاصي والآثام، أن تبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، الطريق إلى الله غير سالك، المعلومات لا تكفي.

العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إطلاقاً إنه وسيلة للسمو بالنفس :

أيها الأخوة، كلمة اسمعوها مني: العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إطلاقاً، إنه وسيلة للسمو بالنفس، فالعلم الذي لا يرقى بك ليس علماً، ربَّما كان الجهل أفضل منه، العلم الذي لا يُعْمَلُ به الجهل أفضل منه، لأن العلم الذي لا يُعْمَل به حجَّة على الإنسان، حجَّة قطعيَّة عليه.

هل أنبت إلى الله؟ هل عدت إليه؟ هل عقدت معه صُلْحَاً؟ هل أسلمت له وجهك؟ هل راجعت شؤون بيتك؟ شؤون عملك؟ علاقاتك الماليَّة؟ هل راجعت سلوك أولادك، بناتك، زوجتك؟ نوع تجارتك، نوع تعاملك؟ هل قيَّمت ما في البيت من أجهزة؟ هذا الجهاز حرام أم حلال؟ اسأل يا أخي، إذا حرام يجب أن تزيله، حلال اسأل عنه، لا تكن هكذا تعيش على هامش الحياة، كل شيء يحتاج إلى دليل، إلى برهان، إلى حكم شرعي، هذه التوبة الصحيحة، يا رب تبنا إليك؛ هذا كلام فارغ، تبت غيِّر، هذا التعامل ربوي، هذه الطريقة في البيع لا ترضي الله، هذه الأيمان كاذبة، هذا تدليس، هذا غش، هذه الحرفة كلُّها لا ترضي الله، البضاعة محرَّمة، هذه الحرفة مبنيَّة على إفساد الناس، فيجب أن تراجع مهنتك، تراجع بيتك، تراجع سلوك أولادك، سلوك بناتك، نَمَط خروج بناتك، ما في البيت من أجهزة قد لا ترضي الله عزَّ وجل، هذه هي التوبة، أما صلينا - من شاء صام ومن شاء صلَّى ولكنَّها الاستقامة - أنت فعلاً إذا كنت عدت إلى الله تكره أن تعود في الكفر كما تكره أن تُلْقَى في النار.

فأنا أقول لكم بصراحة: كلمة هنيئاً لا تُقال إلا لإنسان اصطلح مع الله، اشترى بيت، أخي تهانينا، سوف يتركه، تزوج، تهانينا، هذا شيء عارض كله، كل ما في الدنيا يزول لكنَّك إذا عرفت الله واصطلحت معه هذه هي التهنئة الحقيقيَّة، هنيئاً لك إيمانك، هنيئاً لك توبتك.

من كان مؤمناً وتلبس بمعصية فلا بد من علاج إلهي يرده لدينه :

قال تعالى:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

عُدْ إليه من المعصية، واستسلم له بالطاعة، ناب، أناب أي عاد، عاد إليه بعد أن شرد عنه واستسلم لأمره، هذا منهج الله عزَّ وجل، يا رب هذا كلامك أنا مؤمنٌ به، مؤمنٌ بكل ما فيه من أمر ومن نهي، من حلال ومن حرام، من وَعد ومن وعيد، هذا الكتاب كلامك وأنا مؤمنٌ به، وإن لم تفعلوا ذلك اسمعوا الآية، الآن جاء المؤيِّد القانوني:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

لحِّق نفسك، ما دمت في صحَّةٍ فأنت في بحبوحة، لحِّق نفسك قبل أن يأتي العذاب، قبل أن تأتي المعالجة، قبل أن تبحث عن إنسان يُنَجِّيكَ فلا تجده..

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

هنا توجد نقطة دقيقة، أيها الأخ الكريم يجب أن توقن يقيناً قطعياً أنك إذا كنت مؤمناً، وكنت متلبِّساً بمعصيةٍ يجب أن تؤمن بحتمية العلاج، حتمية العلاج فلا بد من أن يسوق الله إليك شيئاً يردُّك إليه، وهذه رحمته.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام:147]

تقتضي رحمته أن لا يردَّ بأسه عن القوم المجرمين، أبداً، الإنسان العاقل يخاطب نفسه: أنت مقيمة على هذه المعصية، وهذه المعصية، وهذه المعصية، لا بد من أن يأتي العلاج، لا بد، اسمع الآية:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

الإنابة إلى الله عزَّ وجل :

من يحب العذاب؟ من يحب المرض العُضال؟ من يحب الذُل؟ من يحب الافتقار؟ من يحب أن يكون مهاناً؟ هذا عذاب الله عزَّ وجل، وربنا عزَّ وجل يعرف أن يداوي في المكان الذي يوجعك، لو خسرت مئة ألف، مئتي ألف، نصف مليون؛ لا يهمني، هكذا يقول الغني لك، الله عنده علاج لهذا بنوع ثاني، عنده علاج لهذا الإنسان لا تحلّه الأموال إطلاقاً، كل إنسان يُعالج بطريقة، أفليس العقل أن نعود إليه قبل أن تأتي المصائب؟ أن نعود إليه في الوقت المناسب؟ أن نأتيه طائعين قبل أن نُساق إليه بالسلاسل، كلام طيِّب أيها الأخوة، كلام منطقي، كلام واضح، كلام رب العالمين.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

في البيت مخالفة؟ اقنع ابنتك أن تضع الحجاب، في البيت غناء؟ اقنع الأهل أن يقلعوا عن الغناء، في البيت مخالفات؟ اعرف كيف تتخلَّص منها، هذه هي الإنابة إلى الله عزَّ وجل، في علاقتك التجاريَّة علاقة ربويَّة؟ انتبه لها، في البضاعة بضاعة محرَّمة، في عندك علاقات اجتماعيَّة فيها اختلاط، انتبه، هذه هي التوبة، فليس الأمر صلينا تبنا، الصلاة سهلة، الضبط، ضبط الأمور.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

هذه الإنابة.

ربنا عزَّ وجل يسوق العذاب للإنسان إذا لم يتعظ يأتي العذاب الثاني بلا ممهِّدات :

قال تعالى:

(وَأَسْلِمُوا لَهُ)

لأمره ونهيه:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

الله وصف المؤمنين ووصف الكافرين، أنت طبِّق صفات المؤمنين، وصف أهل الجنَّة ووصف أهل النار، كن من أهل الجنَّة، أحسن:

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

أمر ونهى، تأتمر وتنتهي، وعد وأوعد، كن من الذين وعدهم ربُّهم لا من الذين أوعدهم، هذا معنى:

(أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

أعطى الرخص وأعطى العزائم، كن مع العزائم، وإن لم تفعلوا:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً)

بالمناسبة: أول عذاب له ممهِّدات، ثاني عذاب نهائي، ربنا عزَّ وجل يسوق العذاب للإنسان، إذا لم يتعظ يأتي العذاب الثاني بلا ممهِّدات، يأتي قصم.

(بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

انتهى الأمر.

سياسة ربنا مع المجرمين :

مرَّة ذكرت قصَّة من الممكن أن نستفيد منها: إنسان صار معه مرض عُضال، مغتصب محل تجاري، وهو بالإنعاش - العناية المشدَّدة - طلب مسجِّلة وذكر بالشريط أن هذا المحل ليس لي، هذا لإخوتي، الأرض الفلانيَّة، أعطى كل ذي حقٍ حقَّه، بعد عدة أيام شعر براحة لم يعد شيء في صدره، طلب الشريط ثم كسره، وعاد إلى ما كان عليه، بعد ثمانية أشهر بالتمام والكمال كانت القاضية، أول عذاب فيه ممهِّدات، أما الثاني قاصم، قصم، أول واحد فيه ممهِّدات:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

[سورة الدخان:15]

أحياناً ربنا عزَّ وجل يسوق العذاب ويرفعه، يعطيه نفس، ماذا تفعل؟ تأتيه كريزة فلا ينام منها، ثاني يوم ما في شيء، مغرم بالأفلام المعيَّنة، كريزة فما نام الليل، رفع العذاب:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً)

[سورة الدخان:15]

إذا ما استفدتم:

(إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

[سورة الدخان:15]

هذه سياسة ربنا مع المجرمين، يسوق العذاب مع المُمَهِّدات، ثم يُرْفَع العذاب لينظر ماذا يفعل هذا الإنسان؟ بعد أن يُرفع العذاب ويعود إلى ما كان عليه، يُساق له العذاب ثانيةً كحلٍ جذري، كقصمٍ، كاستئصالٍ.

المصائب إنذار من الله سبحانه لعباده :

قال تعالى:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

الإنسان لو أن الله عزَّ وجل ما ربَّاه، تركه، أنزل الكتاب على نبيِّه، وبُلِّغ الكتاب، ولم يأتمر بما أمر الله، ولم ينتهِ عما عنه نهى، والله عزَّ وجل أطلقه من دون علاج، من دون مصائب، من دون مشكلات، إلى أن جاء أجله فاستحقَّ النار، لو أن الإنسان هكذا عومل، لقال هذا الإنسان:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ* أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

يا رب لِمَ لَمْ تسبب لي مشكلة، الفت نظري، ذكرني، خوفني، حذرني، تصور لو أن ابناً وضعه أبوه في مدرسة، الابن قال لأبوه كلمة واحدة: ما عندي رغبة أكمِّل، فقال له: مثلما تريد. الأب لم يعارضه أبداً، فلمَّا كبر الابن رأى أصدقاءه أطبّاء، ومهندسين، وأشخاص مرموقين في المجتمع، ومتزوِّجين، وعندهم بيت، وأولاد، مكانة، لماذا أنا أصبحت وراء الناس؟ يعاتب أبوه، عندما قلت لك: يا بابا لا أريد أن أدرس، لماذا بقيت ساكتاً؟ لماذا لم تضربني؟ لماذا لم توبِّخني؟ لماذا لم تضغط عليَّ؟ لماذا لم تخوِّفني؟ يعتب على أبوه، لو أن الله عزَّ وجل لا يسوق العذاب لقالت هذه النفس:

(لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

لا، أرسلنا لك المصيبة تلو المصيبة، وكل هذه المصائب تذكير، وهي نذير، الإمام القرطبي في قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: 37]

من جملة النذير المصائب.

إذا ساق الله للإنسان مصيبة فيجب أن يتعامل معها تعاملاً إيمانياً :

أيها الأخوة الكرام المصائب إنذار من الله، نصيحةٌ لوجه الله إذا ساق الله للإنسان مصيبة فيجب أن يتعامل معها تعاملاً إيمانياً، أول سؤال يقول: الله غني عن تعذيبي، الله ليس له مصلحة أن يعذبني، لا بد من سببٍ يدعو إلى هذه المصيبة، ما هو السبب؟ لا بد من خطأٍ، لا بد من انحرافٍ، لا بد من تقصيرٍ، لا بد من كسبٍ حرام، اتهم نفسك ما شئت، وبالغ في اتهام نفسك.

(أَنْ تَقُولَ)

لئلا تقول:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

قصَّرت، ما عرفت الله حقَّ المَعرفة، ما قدَّرته حقَّ قدره، ما عرفت عظمته، ما عرَّفت نفسي به، ما حملتها على طاعته، ما قرأت كلامه، ما حاولت فهم كلامه، ما حضرت مجالس العلم، ما اتعظت بما وعظني به من مصائب.

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

أحياناً الإنسان في الدنيا تفوته ميِّزة، فاته شيء من الدنيا، يتأوه فتحس أن قلبه تقطَّع، يقول لك: محروق قلبي، هذا البيت ضاع من يدي، فلانة خُطِبت، كانت في بالي ولكنها خُطِبت، ما كان في مثلها، هي أنسب زوجة لي، ولكن راحت من يدي، تجده على زوجة أو على بيت محروق قلبه، فإذا كشف أنه

خسر الآخرة كلّها، خسر الأبديَّة كلّها، عذابٌ أبديٌّ سرمدي من أجل سنواتٍ عدَّة أمضاها في المعاصي، ألا يتألّم؟ لذلك:

((إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت))

[الجامع الصغير عن أبي موسى]

لا يوجد شعور يهز النفس كالندم :

قال تعالى:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

إذا واحد مثلاً فقير، معه شيك ولا يعرف قيمته، ألف مليون دولار مزَّقه ورماه، لو عرف أن هذا الشيك يحل له كل مشاكله يكون أغنى الأغنياء، بيده مزقَّه وألقاه في المهملات، ألا يشعر بالندم؟ هذا الندم صعب جداً، لا يوجد شعور يهزُّ النفس كالندم:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

لم أكن أعرف، عندما يرى إنساناً يحضر مجلس علم يقول له: تضييع وقت، كله كلام نعرفه، كلام يُعاد، نعرفه، اذهب وتسلّى قليلاً، بعدما عرف الحقيقة يقول:

(ِ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 37]

المسجد مبارك، هذا بيت الله، تعال وذكِّر نفسك، اشحن البطاريَّة، أعطها شحنة، جدِّد إيمانك، تذكَّر ربك عزَّ وجل، فإذا الإنسان أبقى نفسه جاهلة فرَّط في جنب الله، ما عرَّفها بربِّها فرَّط في جنب الله، ارتكب المعاصي فرَّط في جنب الله، قصَّر في واجباته فرَّط في جنب الله.

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

البطولة أن تضحك آخر الناس :

يقول لك: فلان أصبح شيخاً، مرحباً شيخ، إذا له رفيق صار شيخاً يريد أن يتسلّى، فعندما يستقم هذا الإنسان، أصدقاءه، أهله يقولون: أين الشيخ لم نره اليومين؟ يكون شاباً صغيراً يقولوا عنه: أين الشيخ؟ سخرية.

(وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

إذا أحب أن لا يختلط مع النساء يقتحموا عليه اقتحام، أين ابن خالتنا؟ نريد أن نرى الشيخ الصغير، يقولوا له: ماذا حدث هل سنأكلك؟

(وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

يسخرون، لكن هنيئاً لمن عرف الله عزَّ وجل وعاش في الدنيا كالغريب، بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء، أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير، ما في مانع إذا من حولك سخروا:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّار يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

البطولة أن تضحك آخر الناس، الكافر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 13]

يضحك، ويسترخي، يتابع الأفلام كلها، وسهرة مختلطة، وكل شيء وصل ليده قبضه، يقول لك: ضع في الخرج لا تدقّق، هذه شطارة، هكذا البيع والشراء، ألبسناها له، هكذا يظن:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 13]

الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر :

أما المؤمن:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 9]

عندما يأخذ الطالب جلاءه كله عشرات، كله جيِّدات، الأرض لا تسعه، يريد أن ينطلق إلى أهله ويريهم نتائجه وهكذا المؤمن، الكافر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 13]

أما المؤمن:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 9]

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّار يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

(أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

أي أن هذه المصائب التي ساقها الله لهذه النفس، لئلا تقول يوم القيامة: يا ربي لو أنك عذَّبتي، لو لفت نظري بمشكلة، بمصيبة، بمرض لكي أعرفك، يقول لك: ذكّرناك وأرسلنا لك المصائب ولم تتعظ.

الإنسان الذكي العاقل لا يوصل نفسه إلى طريقٍ مسدودٍ مع الله :

قال تعالى:

(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

هيهات:

ألا ليت الشباب يعودُ يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

* * *

هيهات، الزمن لا يرجع للوراء، عقارب الزمن لا تَرجع، أنت بين يومٍ مفقود، ويومٍ مشهود، ويومٍ ممدود، ويومٍ مورود، ويومٍ موعود، اليوم المفقود لا جدوى من الحديث عنه، لأنه مفقود، انتهى، ما مضى فات، والمؤمَّل غيب، والغيب لا تملكه، الماضي خرج من يدك، والغد لا تملكه، ماذا بقي أمامك؟ الساعة التي أنت فيها:

((ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، إذا استيقظ الإنسان يجب أن يوقن أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً، اعمل فيه قبل أن يعمل فيك:

(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

هيهات:

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

[سورة ص: 3]

أي ليس الحين حينَ مناص، عندما يرتكب الإنسان جريمة، ويحاكم، ويُحكم بالإعدام، ويُصدَّق الحكم، ويُساق للمشنقة، فهل الرجاء يُجدي؟ انتهى الرجاء، التوسُّل، التذلُّل، البكاء، النحيب، قد يبكي وقد لا يبكي، قد يتوسَّل وقد يظل ساكتاً، قد يقول: يا أولادي وقد لا يقول يا أولادي، كل هذا لن يجدي، لا بد من تنفيذ الحكم، الإنسان الذكي العاقل لا يوصل نفسه إلى طريقٍ مسدودٍ مع الله، قصَّر، وقصَّر.

ما من آية أعطانا الله فيها الرجاء إلا عقَّب بالخوف :

أنا والله أعجب عندما أرى شخصاً في الخامسة والخمسين أو في الستين من عمره ويلعب طاولة في القهوة، لا يصلي، هذا ماذا ينتظر؟ الموت محقَّق، الموت على الأبواب، من دخل في الأربعين دخل في

أسواق الآخرة. فماذا ينتظر؟ كيف سيواجه الله عزَّ وجل؟ عجيب أمر الناس، غارقون في الملاهي، غارقون في الأعمال الساقطة، غارقون في كسب المال الحرام، غارقون في الاختلاط، يطلقون أبصارهم في الحرام، يمتّعون أبصارهم بما حُرم عليهم أن يمتّعوا به أبصارهم، يا أخي الله غفور رحيم. هذا الكلام سذاجة، اسمع الآيات:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

آية ثانية:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

ما من آية أعطاك الله فيها الرجاء إلا عَقَّب بالخوف، صحيح الله عزَّ وجل:

(لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

لكن:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

الموت عرس المؤمن على عكس الكافر :

هذه ساعة الغفلة، الإنسان كل يوم يستيقظ مثل اليوم الماضي إلى ما شاء الله؟ لا، غير معقول، في يوم في خبر جديد، يقول لك: أصبحت ولم أستطع أن أرى، أتألَّم، يقول لك: أشعر بضيق، بذبحة صدريَّة، إذا إنسان مقيم على المعاصي كل يوم من الأيام في شيء جديد أمامه، أما إذا كان مقيم على الطاعات يا مرحباً بقضاء الله، في سرور لأن هناك استسلام لله عزَّ وجل، الموت تحفة المؤمن، الموت عُرس للمؤمن، الموت ساعة اللقاء مع الله عزَّ وجل، أما الشيء المؤلم الذي يهزُّ النفس إنسان مقيم على المعاصي، تكلّس عقله على أنماط من الحياة كلها مخالفات، كلها اختلاطات، سهرات، إطلاق بصر، مزاح رخيص مع النساء، كسب مال حرام، أساليب ملتوية في كسب المال في إنفاق المال، ثم فجأةً شعر أن عنده مرض عضال، وأنه قاب قوسين من القبر، والله الذي لا إله إلا هو يحسُّ بآلام لو وزِّعَتْ على أهل بلدٍ لكفتهم، الآن صار الطريق مسدود. فالإنسان وهو في بحبوحة، صحَّته جيِّدة، بمقتبل حياته، بشبابه، الله أسمعه الحق، فليستجب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكم)

[سورة الأنفال: 24]

دعوةٌ للحياة:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

هذا الذي كذب على الله، أشاع أن هذه ليست حرام، فيها فتوى يا أخي، ومعنى الآية ليس هذا، معناها كذا، جرَّ النصوص إلى أهوائه، جرَّ الآيات والأحاديث إلى تغطية انحرافاته، أي أنه كذب على الله، هذه قد أفتى فيها عالِم، أنت أفهم منه؟ لا ليس أفهم منه، هذه قضيَّة خلافية، هذه هكذا قال العلماء عنها، كل معصية يغطيها بحجَّة واهية، هذا كذب على الله.

حال المستكبرين يوم القيامة :

قال تعالى:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

وأي مُقام**!!**

(لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

من هو المتكبِّر هنا؟ الذي استكبر عن طاعة الله، رأى نفسه أكبر من أن يطيع الله عزَّ وجل، احتال على الأمر الإلهي بتفسيرات وتأويلات، وجرَّ النصوص إلى أهوائه، ولعب بالنصوص، وتحكَّم بها ولم يحتكم إليها، جواب الله عزَّ وجل:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي)

آياتي الكونيَّة، والقرآنيَّة، والحوادث، والأفعال، وشعر بانقباض مع المعصية، دليل هذه آية، وشعر براحة مع الطاعة دليل، آياته الكونيَّة، وآياته القرآنيَّة، وآياته التكوينيَّة، وآياته النفسيَّة، أراك مناماً مخيفاً، ما تأثَّرت، في آيات نفسيَّة، في تكوينيَّة، في قرآنيَّة، في كونيَّة، أربع أنواع من الآيات:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي)

آيةٌ تلو آيةٍ، كل آيةٍ أوضح من أختها، كل آيةٍ كفلق الصبح.

الإنسان إذا كذب على الله يسوَّد وجهه :

قال تعالى:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ)

هذه صدفة، وهذه هكذا الدهر يومٌ لك ويومٌ عليك، الله أرسل له مصيبة بدل من أن يستفيد منها قال لك: هكذا الدهر، الدنيا كر وفر، إقبال وإدبار، مد وجزر، يومٌ لك ويومٌ عليك. فرَّغ المصيبة من مضمونها، جعل المصيبة شيء يحدث دائماً..

(فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

ما عرفت الله عزَّ وجل:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

الإنسان إذا كذب على الله يسوَّد وجهه، وفي الدنيا إذا الإنسان كذب، ثمَّ كُشِفَ أنه كاذب لا يستطيع أن ينظر إلى الناس، يسقط من أعينهم، فكيف إذا كذب على الله؟ إذا كذب على إنسان وكَشَفَ أنه كاذب، وواجهه بكذبه يسوَّد وجهه، ويخفِضُ بصره، ويسقط من عين هذا الإنسان، فكيف إذا كذب على الله؟ لذلك:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

[سورة الصف: 7]

مصير الكاذبين على الله ومصير المتقين يوم القيامة :

ما في إنسان أظلم ممن كذب على الله، أوهم نفسه أن هذا الشيء غير حرام، يجوز، جرَّ النص إلى أهوائه، أوَّل الحديث تأويلاً باطلاً.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

معنى ذلك الكاذبون على الله مصيرهم إلى النار، أما المتَّقون:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ)

عرفوا ربَّهم في الدنيا، فازوا بمعرفته، فازوا بطاعته، فازوا برضوانه، فازوا بخدمة عباده، فازوا بالدعوة إليه:

(بِمَفَازَتِهِمْ)

الآن نجَّاهم الله بمفازتهم:

(لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

هذا الأمن الذي ما بعده أمن، يوم يفزع الناس، يوم يخاف الناس، يوم تملأ الحسرة قلوب الناس، يوم يندم الناس، يوم يُساق الناس إلى عذابٍ أبدي، هؤلاء المتَّقون الذين كانوا في الدنيا غرباء، الذين اتجهوا إلى المساجد واتجه الناس إلى الملاهي، اتجهوا إلى المساجد وقَبَعَ الناس في بيوتهم يتابعون المسلسلات

الخليعة والساقطة، اتجهوا إلى بيوت الله يُصلّون، ويقرؤون القرآن، تناصحوا، التزموا، وقفوا عند الأمر والنهي.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 15-16]

الفوز العظيم والفلاح يوم القيامة بتقوى الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ)

اتقوا أن يعصوا ربَّهم، اتقوا غضبه، اتقوا الكفر بالإيمان، اتقوا الشِرك بالتوحيد، اتقوا العقاب بالطاعة.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ)

فازوا، هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو التفوٌّق، هذا هو العطاء:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس: 58]

مصير المتقين كما ورد في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ*عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[سورة الصافات: 43-44]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ*لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ*سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

[سورة يس: 56-58]

المؤمن يوم القيامة ينتقل من ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

لا يحزنون على الدنيا، لأنهم انتقلوا من دار همٍ وتعبٍ، وتكليفٍ وعملٍ، وكدحٍ وجهدٍ، إلى دار تشريفٍ وتكريم، انتقلوا من الخراب إلى العمران، من ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة، من الهموم والأحزان إلى الجنَّة والرضوان..

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

إذا إنسان انتقل من بيت في أحد الأحياء المتواضعة الفقيرة، الضجيج، والازدحام، والطابق تحت الأرض، وضيِّق جداً، ومرافقه سيئة جداً، إلى أفخر بيت، أثناء الانتقال هل يشعر بحزن؟ أعوذ بالله، يرقص من الفرح، وهكذا المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، " واكربتاه يا أبت " قال: " لا كربَ على أبيكِ بعد اليوم غداً نلقى الأحبَّة محمَّداً وصحبه "، إذا كنت بطل كل من حولك يبكون وأنت وحدك تضحك، لا يهمَّك جنازة مقدَّرة أو ليست مقدَّرة، أنت نجوت من الدنيا وما فيها، هذه البطولة.

فالدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طمَّاعة عوِّدها القناعة

* * *

الآية التالية غطَّت المستقبل والماضي :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

معظم الناس ضحكت عليهم الدنيا، فإن كنت بطلاً فاضحك عليها، ضعها تحت قدمك، لا تعص الله فيها، لا تلن لأهل الكفر، لا تتخاذل أمام بريق المال، لا تضعف أمام النساء، الله خيرٌ وأبقى:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[سورة طه: 72]

(لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)

في الجنَّة:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ترك الدنيا، هذه الآية غطَّت المستقبل والماضي، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نأخذ قوله تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (18-20): تفسير الآية: 62-67، التوحيد والعبادة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ينبغي أن تخاف أحداً ولكن ينبغي أن تخاف الله وحده:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن عشر من سورة الزُمَر ومع الآية الثانية والستين:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

ما من آيةٍ في القرآن الكريم تبث الراحة النفسية كهذه الآية، أي شيءٍ خلقه الله عزَّ وجل بيده، لا يستطيع مخلوقٌ أن يتحرك إلا بأمر الله وبعلم الله، يستنبط من هذه الآية أنه لا ينبغي أن تخاف أحداً؛ ولكن ينبغي أن تخاف الله وحده، والله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى إذاً ينبغي أن تخاف من نفسك، لذلك هذا المعنى، لا يخافن العبد إلا ذنبه، خف أن تأكل حقوق الآخرين، خف أن تُذْنِب، لأنك إن أذنبت فكل شيءٍ خلقه الله عز وجل بيده، يُطْلِق ويقبض، ما من مثلٍ أقرب إلى توضيح هذا المعنى من أن وحوشاً كاسرةً مخيفة كلُّها مربوطة بأزمَّةٍ محكمةٍ بيد جهةٍ قويةٍ، عزيزةٍ، عادلةٍ، بصيرةٍ، سميعةٍ، فعلاقتك أنت ليست مع الوحوش، لأنها مملوكة ومربوطة، ولكن علاقتك مع الذي يملكها فإذا أطلق أحدها وصل إليك، وإذا منعه حجزه عنك.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

الشيء المخلوق بيد الله لا يتحرك إلا بأمره:

الأشياء المخيفة في الحياة كثيرة جداً، هناك أشخاص مخيفون جداً، هناك حيوانات مخيفة، هناك أعراض جوية مخيفة، هناك صواعق، هناك زلازل، هناك براكين، هناك سيول جارفة، هناك بأس الإنسان:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

[سورة الأنعام: 65]

الصواعق والقذائف:

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

[سورة الأنعام: 65]

الزلازل والألغام:

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

من مسلمات الإيمان أن كل شيءٍ تراه عينك بيد الله عزَّ وجل والله جلَّ جلاله أسماؤه حسنى، كل الكمالات عند الله عزَّ وجل، عدلٌ، ولطفٌ، ورحمةٌ، وقدرةٌ، وعلمٌ، لذلك:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

الشيء المخلوق بيد الله لا يتحرك إلا بأمره، حتى الأشياء الجامدة.

الدين كلُّه توحيدٌ وعبادة:

قال تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: 69]

حتى النار لم تعد ناراً، لذلك هذه الآية أو هذه الآيات التي نحن بصددها تتمحور حول كلمتين، حول التوحيد وحول العبادة، الدين كلُّه توحيدٌ وعبادة، الدين كله أن ترى أنه لا إله إلا الله، والدين كله أن تعبد الله وحده، وإذا شئت الدليل فالقرآن كله يدل عل هذين المعنيين:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي)

[سورة الأنبياء: 25]

التوحيد والعبادة، نهاية العلم التوحيد، نهاية العمل العبادة، إذا وحَّدت واستقمت فقد حققت المُراد من وجودك، إذا عرفت أنه لا إله إلا الله لن تعصيه، الذي يدعو إلى معصية الله أن ترى مع الله شركاء، أن تخاف من غير الله، أن ترجو غير الله، أن تحب غير الله، لا تستطيع أن تتقدم في مجالات الإيمان إلا بخطين؛ بخط التوحيد وخط العبادة، بعد هذه الآية هل هناك في الأرض قوةٌ تخيف الإنسان؟

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد عن أبي الدرداء]

هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

التوحيد والشرك:

كل الراحة النفسية في التوحيد، كل الضغط النفسي من الشرك، كل الطمأنينة من التوحيد، كل الخوف من الشِرك، كل التفاؤل في التوحيد، كل التشاؤم من الشرك، كل الرجاء في التوحيد، كل اليأس في الشرك لذلك:

(يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

الشرك أن تتجه بكل طاقاتك إلى جهةٍ لا تملك شيئاً؛ لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً هذا هو الشرك، الشرك أن تعقد الآمال على جهةٍ مفتقرةٍ مثلك، أن تطلب العَوْن ممن يطلب العون، أن تطلب الغنى ممن هو فقير، أن تطلب القوة من الضعيف، أن تطلب التوفيق ممن يحتاج إلى التوفيق هذا هو الشرك، الشرك أن تتجه إلى ما سوى الله، أن تتجه بقلبك، أو أن تعقد عليه آمالك، أو أن تتكئ عليه، أو أن تعتمد عليه، هذا هو الشرك.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

صغير كبير، جليل حقير، مخيف غير مخيف، كبير صغير.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

انتهى الأمر، والله عزَّ وجل كامل، إذاً مصدر الخوف فقط من أن تذنب، مصدر الخوف الوحيد أن تقع في ذنب، أن تأكل حق مخلوق، أن تتجاوز حدود الله عزَّ وجل، دقق في هذا الحديث الجامع المانع الموجَز البليغ: لا يخافن العبد إلا ذنبه، وإذا وقعنا في مشكلة، ولا يرجون إلا ربه، لا تخف إلا من ذنبك ولا ترجو إلا ربك، هذا هو الدين، هذا هو التوحيد، الموحِّد إنسان متميِّز، إنسان عزيز لا ينافق، لا يمدح مديحاً كاذباً، لا يتملق، لا يخنع، لا يذل، لأن الله عزَّ وجل كرمه بالتوحيد، أمره بيد الله، رزقه بيد الله، حياته بيد الله، موته بيد الله، ما من إنسانٍ يتمتَّع بالعزَّة كالمؤمن لأنه يرى أن أمره بيد الله، لا بيد زيدٍ أو عُبيد، ولكن الشرك يذل، المشرك ذليل، أحياناً تجد المشرك أذل من شاته أمام من هو أقوى منه، فهناك حالات من الشرك الإنسان يتألَّم أشد الألم لهذه الحالة المتردية عند الإنسان.

كل شيءٍ خلقه الله القوة الفاعلة فيه بإذن الله لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله:

قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

هو الخالق، ومن لوازم رحمته وعدالته أنه خَلَق ومَلَك، أحياناً يصنع سلاحاً خطيراً ويباع هذا السلاح، فإذا هو بأيدٍ غير أمينة، وبأيدٍ غير حكيمة، وبأيدٍ غير رحيمة، هذا السلاح الفتَّاك يؤذي أذىً كبيراً، لأن اليد التي تملكه ليست في مستوى العدالة والرحمة، فالجهة الصانعة صنعت ولكنها ليست مالكة لهذا السلاح بعد أن صنعته، لكن الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

هذه الآية مريحة، فعلى مستوى عقرب لا تستطيع العقرب أن تلدغ إلا من يأذن الله لها، على مستوى أفعى، على مستوى جرثوم، على مستوى فيروس، على مستوى حشرة، على مستوى حشرة تؤذي المزروعات بيد الله، وهو على كل شيءٍ وكيل، الأصح من ذلك أن كل شيءٍ خلقه الله القوة الفاعلة فيه بإذن الله، لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله، لخَّص علماء التوحيد هذه الحقيقة بقولهم: عندها لا بها. النار لا تحرق بذاتها، لا تحرق بالقوة التي أودعها الله فيها، هذه فكرةٌ مغلوطة، لا تحرق إلا إذا أراد الله لها أن تحرق، إذاً عند مشيئة الله بها.

وإذا أيقنت أن كل شيءٍ بيد الله عندئذٍ تشعر بالراحة، إنسان بإمكانه أن يوقع بك الأذى، فيعمي الله بصيرته فلا يرى المخالفة، يمكن أن يراها ويخلق في قلبه شفقة عليك، هذا الذي أمامك والذي يخشاه جميع الناس هو بيد الله، فإن شاء الله أكرمك وهو الشرير، وإن شاء الله تغافل عنك وهو الذكي، وإن شاء الله عرف الحقيقة ولكن ألقى في قلبه العطف عليك، فأنت إذا تعاملت مع بني البشر تأكَّد أنهم بيد الله عزَّ وجل حركاتهم وسكناتهم حتى خواطرهم، حتى مشاعرهم، حتى ميولهم، حتى رغباتهم بيد الله عزَّ وجل، فالتوحيد مريح جداً، التوحيد علاقتك مع جهة واحدة، هذا هو التوحيد.

فليتك تحلو والحياة مريــرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خــراب

* * *

الآية التالية تجعل الإنسان موحَّدَ الاتجاه لا مبعثر الاتجاه:

التوحيد أن ترضي الله وحده، التوحيد أن تعمل لوجهٍ واحد يكفك الوجوه كلَّها، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، وألا تعلّق على غير الله أملاً، حتى الإنسان أقرب الناس إليه، إذا عقد عليهم الآمال خيبوا ظنه، يقول لك: هذه زوجة مخلصة، اعتمد عليها قد يفاجأ أنها تنكّرت له، يقول لك: هذا الابن ادخرته لكبري يذهب إلى بلدٍ أجنبي ولا يعود إطلاقاً وانتهى لأنه اعتمد عليه، إيَّاك أن تعتمد على غير الله، إياك أن تثق بغير الله، إيَّاك أن تسعى لغير الله.

فلا يليق بك كإنسان مكرم، أن تعمل لصالح إنسان آخر، هذا لا يليق بك، هذا مما يحط من قدرك، أنت المخلوق الأول والمكرم تكون لحساب إنسان؟! إنسان ضعيف، إنسان جاهل، إنسان لئيم أحياناً،

(هو أهل التقوى وأهل المغفرة)

هذه الآية مريحة جداً، هذه الآية يشعر بها المؤمن بانتشاء، هذه الآية تجعله شجاعاً، هذه الآية تجعله عزيزاً، هذه الآية تجعله مطمئناً، هذه الآية تجعله موحَّدَ الاتجاه لا مبعثر الاتجاه.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

الأمطار بيده، إما أن يجعلها رحمة، وإما أن يجعها نقمة، قد تأتي الأمطار في وقتٍ غير مناسب تهلك المحاصيل كلها، الرياح بيده إما أن يجعلها نسيماً عليلاً، أو رياحاً تسوق السحب، وإما أن يجعلها رياحاً مدمرةً تدمر كل شيء، الولد بيده إما أن يجعله بركةً لوالديه وقرة عين لهما، وإما أن يجعله نِقمةً في حياتهما يشقيا به، الزوجة كذلك إما أن تكون جنة وإما أن تكون جحيماً، أعضاؤك، أجهزتك، حواسك كل شيءٍ بيد الله، المواد، خصائص المواد.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

شعور الضعف والخنوع هذه كلها مشاعر الشرك:

تبدأ بالجماد، الخصائص التي أودعها الله في الجماد لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله عزَّ وجل، الحيوان، نحن نفهم أن البقر حيوان ذلول، تجد أطفالاً صغاراً يسوقون البقر من مكان إلى مكان، يحلبون البقر، والبقرة حيوان وديع مستسلم أليف مذلل، لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل هناك مرضٌ يصيب البقر يجعله متوحشاً، فهذه البقرة الوديعة التي هي رمز العطاء تنقلب لعلةٍ أصابتها إلى وحشٍ كاسر، حدثني أخ أن بقرةً في بعض قُرى دمشق أصبحت متوحِّشة وقتلت رجلين وجرحت ثالثاً، فاضطر صاحبها أن يطلق النار عليها ليقتلها، وليريح الناس منها. فالحيوان مذلل من ذلله؟ الله عزَّ وجل، هذه الغنمة مذللة، الجمل مذلل، البقرة مذللة، أما العقرب غير مذلل، العقرب إن رأيته على جسمك تكاد تخرج من جلدك من شدة الخوف، وجملٌ يزن ستة أطنان لا تخاف منه بل تقوده، يقوده طفلٌ صغير، الأمر كله بيد الله.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

هذه العقيدة وحدها تبث في نفس المؤمن راحة ما بعدها راحة، مشاعر القهر التي يعانيها المشركون لا تُحتمل، مصيرك بيد إنسان لا يحبك ينوي أن يقضي عليك، هذا شعور القهر، شعور الضعف والخنوع هذه كلها مشاعر الشرك، لذلك أنت عليك أن توحِّد، فإذا وحَّدت عرفت الله عزَّ وجل.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

يحركه بأمره، لذلك إذا رأيت أهل الكفر والقوة يتحرَّكون فاعلم أن حركتهم وخططهم ومؤامراتهم استوعبتها خطة الله عزَّ وجل، فلا يفعلون إلا شيئاً أراده الله، إنهم لا يسبقون الله أبداً، ما فعلوا شيئاً ما أراده الله كل ما أراده الله وقع، وكل ما وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المُطلق، مثلاً يقول لك: الصهيونية العالمية تضع خططاً رهيبة وجهنمية ومدمرة للإنسانية كلها. لكن خطة الله استوعبتها، فلا يحقق من خططها إلا ما يسمح الله به، لذلك إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني.

الأمر كله بيد الله فعلاقتنا مع الله وحده:

يجب أن تؤمن أن جهة في الكون لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عزَّ وجل.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

أحياناً يقول لك: هذه القنبلة لم تنفجر. شيء غريب، نُزع فتيلها وارتطمت بالأرض ارتطاماً شديداً يكفي أن يفجرها، لكنها لم تنفجر لأنها بيد الله عزَّ وجل، فلان أصابته رصاصةٌ مرت جانب رأسه ولم تصبه، لأن هذه الرصاصة بيد الله وهو على كل شيءٍ وكيل، الحجر بيد الله، الرصاصة بيد الله، القذيفة بيد الله، الشظايا بيد الله، الأمراض بيد الله، الجراثيم بيد الله وهو على كل شيءٍ وكيل، ارتح، ونم، قال:

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلُّهن أمان

* * *

هل هناك من راحةٍ أبلغ من هذه الراحة أن ترى أن الأمر كله بيد الله؟ قال الله عز وجل: (ليس لك من الأمر شيء) قالها للنبي الكريم لسيد الخلق ليس لك من الأمر شيء، فإذا كان النبي سيد الخلق حبيب الحق ليس له من الأمر شيء، الأمر بيد من إذاً ؟ بيد الله، حتى النبي عليه الصلاة والسلام لو كنت طليق اللسان، واضح الحجة والبيان، ودافعت عن نفسك أمامه في قضيةٍ هو حكمٌ بينك وبين خصمك، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لصالحك، ولم تكن محقاً، لا تنجو من عذاب الله، علاقتك مع من إذاً ؟ مع الله وحده.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كلمة السماوات والأرض تفيد الكون، الكون كله مقاليده قال علماء التفسير: مفاتيحه.

القرآن والكون والأحداث كلها تدل على وحدانية الله:

أحياناً تجد باباً محكماً، متيناً، قوياً، مُدَعَّماً، يأتي إنسان معه مفتاح صغير وزنه عشرون غراماً فيفتح الباب، فالبطولة لا بالمطرقة بل بالمفتاح، فالله عزَّ وجل بيده مفاتيح كل شيء، الإنسان مفتاحه بيد الله، يرضى إذا شاء الله، يغضب إذا شاء الله، يحقد عليك إذا شاء الله، يعفو عنك إذا شاء الله، مفتاحه بيد الله، حتى الأجسام المادية، حتى الكواكب، كل شيء:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أمر هذا الكون بيد الله بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة، الذرة، الفيروس، النبي قال: لا عدوى. إذا الإنسان مرض بسبب العدوى، لا ينبغي أن يقول فلان عداني، لا، لأن هذا الفيروس أو هذا الجرثوم لا يستطيع أن يفعل فعله إلا إذا شاء الله، إذاً شاءت مشيئة الله أن يمرض الإنسان، إذاً لا عدوى، أمَّا الاحتياط واجب، إذا كنتم في بلدٍ فيه طاعون فلا تخرجوا منه، ولا تدخلوا إليه، شيء طبيعي نأخذ بالأسباب، أما إذا مرضنا لا ينبغي أن نقول: بالعدوى، النبي قال:

((لا عَدْوَى))

[البخاري عن أبي هريرة]

أن هذا الجرثوم بيد الله عزَّ وجل، قال:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أيَّةُ آياتٍ هذه؟ الآيات الدالة على وحدانيته، آيات التوحيد، الكون كلُّه يدلُّ على وحدانية الله، والقرآن كله يدلُّ على وحدانية الله، والأحداث كلها تدل على وحدانية الله.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

الآياتُ القرآنية والكونية والتكوينية كلُّها تدل على وحدانية الله عزَّ وجل:

المسلمون يوم بدر كانوا مفتقرين إلى الله عزَّ وجل.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران: 123]

ضعاف، قلةٌ قليلة، قلةٌ في العدد، وقلة في العُدَد، وضعاف وفقراء، لا رواحل ولا أسلحة، وقريش بأبطالها، وخيلها، ورجلها، وعدَّتها، وعتادها، وكل ما تملك جاءت لتحارب المسلمين فأذلَّها الله، واختلف الأمر يوم وقعة حنين.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: 25]

الآيات التكوينية تدلُّ على وحدانيته، والآيات الكونية تدل على وحدانيته، والآيات القرآنية تدل على وحدانيته، هذه آياتٌ قرآنية وكونية وتكوينية كلُّها تدل على وحدانية الله عزَّ وجل.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

لماذا ؟ معنى كفروا هنا أي لم يعرفوا، إما أنه لم يعرف الوحدانية، لم يعرف التوحيد، أو أنه ذُكِّرَ بالتوحيد فأبى إلا أن يشرك، على كلٍ لم يوحد، لم ير يد الله تعمل في الخفاء، مرةً قرأت آية في مسجد والله اقشعر جلدي، آية قرآنية مكتوب:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

هؤلاء الذين تخافهم أيها الإنسان يد الله فوق أيديهم، فانتهى الأمر، هؤلاء الذين يرعبونك، هؤلاء الذين يخيفونك، هؤلاء الذين تحسب لهم حساباً، هؤلاء الذين ترتعد فرائصك من ذكرهم، أقوياء طبعاً ؛ لكن يد الله فوق أيديهم، انتهى الأمر، انتهت قوَّتهم، وانتهى بطشهم، وانتهى بأسهم، وانتهى معهم كل شيء.

الإنسان إذا اعتمد على ما سوى الله يخيّب ظنه ويؤدبه عن طريقه:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

الكونية، بآيات الله التكوينية، بآيات الله القرآنية، الآيات الثلاث الكونية والتكوينية والقرآنية الدالَّة على وحدانية الله، الدالة على أن الأمر كله بيد الله، الدالة على أنه لا إله إلا الله:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

لماذا هو خاسر؟ لأنه اتجه بكل طاقاته إلى ما سوى الله، ما سوى الله فقير، اتجه إلى زيد ليغنيه وهو فقير، اتجه إلى عُبيد ليدعمه وهو ضعيف، اتجه إلى فلان ليشفيه وهو مريض، المشكلة الشرك هو أن تتجه إلى جهةٍ موهومة لا تملك شيئاً، والله بيده كل شيء، والله عزَّ وجل يؤدِّب دائماً الخلق، فكلما اتجهت إلى من سوى الله عزَّ وجل معتقداً أنه يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، وينفع ويضر، تأديبك لا بُدَّ من أن يكون عن طريق هذا الذي اعتقدت به القدرة، المشرك يفاجأ، فلان صاحبي، ويتمنَّى خدمتي، وينفذ لي كل طلباتي، تطرق بابه يتجاهلك ولا يقول لك: تفضل استرح، أين كل آمالك؟ الله ألقى في قلبه أن يشدد عليك لأنك اعتمدت عليه.

هذا ملخص الملخص، فهذا التوحيد لما تعتمد على ما سوى الله، الله يخيِّب ظنك ويؤدبك عن طريقه، أما إذا قلت: يا رب ليس لي إلا أنت انتهى، جاء الدعم.

الإنسان بين حالين لا ثالث لهما بين حال التخلّي وحال التولّي:

أنت في حياتك بين حالين لا ثالث لهما، بين حال التخلّي وحال التولّي، دائماً إما أن يتخلّى الله عنك وإما أن يتولاّك، إذ اعتمدت عليه تولاك، وإذا اعتمدت على نفسك أو على من سواك تخلى عنك، فأنت بين التخلية والتولية، مع التولية التوحيد ومع التخلية الشرك، إذا رأيت الله قد تخلى عنك، ووكلك إلى نفسك، وخيب ظنك، وجعلك في حالة إحباط ويأس، معناها أنت معتمدٌ على من سواه، أما إذا رأيت الله عزَّ وجل يوفق، ويدعم، ويحقق، فاعلم أنك معتمدٌ عليه.

الإنسان ضعيف، نقطة دم تجعله مجنوناً أو فاقداً لذاكرته، تنمو خلاياه نمواً عشوائياً يصاب بمرض ليس له دواء حتى الآن، لو بذل ألوف الملايين لا أمل في شفائه، أمراض تتحدى العلم الحديث، كل التفوق العلمي لا يجدي، فمثلاً الإيدز هذا مرض تحدى العصر كله، عقابٌ عاجل للفحشاء والمنكر. لذلك التوحيد مريح، المؤمن يتقلّب على فراش التوحيد، على فراش وثير، أما الكافر أو المشرك يتقلّب على فراش القلق والخوف، خائف من فُلان، موزَّع إن أرضى زيداً غضب عُبيد، وإن أطاع فلاناً غضب غيره، موزَّع، مبعثر، مشتت، دائماً في توزع وفي تبعثر، بينما المؤمن موحِّد، ثم يقول الله عزَّ وجل:

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

هل من الممكن أن تعبد غير الله؟ هل في الكون جهةٌ تستحق العبادة إلا الله؟ من الذي ينبغي أن يُعْبَد؟ الذي يلبيك إذا دعوته، والذي يستجيب لك إذا سمعك:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

إذاً هذا الذي لا يسمع لا ينبغي أن تعبده، هذا الذي لا يستجيب لا ينبغي أن تعبده، هذا الذي لا يقدر على أن ينقذك مما أنت فيه لا ينبغي أن تعبده.

التوحيد هو أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله:

ذكر لي أخ طبيب كريم أن حالات كثيرة جداً، يكون الشفاء ذاتياً بلا سبب، يسمّيه الأطباء الشفاء الذاتي، أما هو اسمه الحقيقي شفاء الله عزَّ وجل، وإذا مرضت فهو يشفيني، تجد هذا المرض تراجع بلا سبب، مع أن من طبيعته الازدياد، والانتشار، هذا هو التوحيد.

بالمناسبة لو أن الأسباب فعلت فعلها دائماً لنسي الإنسان ربه، لكن شاءت حكمة الله أن يعطّل الأسباب من حينٍ إلى آخر أو أن يلغيها، تحدث نتيجة بلا سبب، أو يكون السبب ولا تحدث النتيجة، لماذا؟ ليلفت الله نظرنا إلى أن الأسباب لا تخلق النتائج ولكنها ترافق النتائج. وأوضح سبب سيدنا عيسى بلا أب، والسيدة حواء بلا أم، وسيدنا آدم بلا أب ولا أم، والعاقر شاب، الأسباب مرةً تعطل، ومرةً تلغى، السبب موجود ولا توجد نتيجة، أو نتيجة بلا سبب، أحياناً في شرك الأسباب، تأخذ الحيطة، تعد العُدة، وتطمئن، ولكن يؤتى الحذر من مأمنه، حتى الإنسان لا يشرك بالله عزَّ وجل ويعتمد على الأسباب وحدها من دون الله.

لذلك فالتوحيد هو أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله، فلو أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، ولو لم تأخذ بها لعصيت، ما أشبه التوكّل أو التوحيد بطريق على يمينه وادٍ سحيق، وعلى يساره وادٍ سحيق، إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها سقطت في وادي الشرك، إن لم تأخذ بها سقطت في وادي المعصية، يجب أن تأخذ بها وأن تعتمد على الله وحده، هذا هو التوحيد.

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

لا يمكن للإنسان أن يعبد غير الله لأنه لا يوجد في الكون جهة تستحق العبادة إلا الله عزَّ وجل.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

من أسلوب القرآن الكريم أن يكون الخطاب للنبي والمقصود أمة النبي:

الحقيقة لا يتصور أن يشرك النبي عليه الصلاة والسلام، الشرك بعيدٌ عن الأنبياء بُعْدَ الأرض عن السماء، ولكن هذا من أسلوب القرآن الكريم، فقد خوطب النبي والمعني أمة النبي عليه الصلاة والسلام، كقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)

[سورة الطلاق: 1]

فالخطاب للنبي والمقصود أمة النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ)

هذه وَحْدَةَ التشريع:

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

معنى يحبطن عملك له معنيان؛ عمل طيب ولكن لغير الله، يأتي الإنسان يوم القيامة فلا يجد لهذا العمل أية قيمة.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا)

[سورة الفرقان: 23]

عمل أعمالاً جليلة لكنه ابتغى بها السُمْعَة، أشرك نفسه، أو ابتغى بها إرضاء من هم فوقه، هذا هو الشرك.

التوحيد يرقى بالعمل والشرك يحبط العمل:

يحكم القضاء حكماً عادلاً وهو مشرك، هذا الحكم سوف يراقب من قبل رؤسائه، وسوف يذهب إلى محكمة النقض، وسوف يدقق القاضي الأول في هذا الحكم، وسوف يرى ما إذا كان هذا الحكم نزيهاً أو غير نزيه، إذاً عليه أن يحكم بالعدل، وعليه أن يدقق في هذه القضية، وعليه أن يضع لقراره مسوغاتٍ قانونية حتى يضمن سلامة سمعته عند رؤسائه، هذا عمل طيب حكم بالعدل لكنه أشرك، أراد بالعدل إرضاء من هم فوقه.

طبيب يسارع إلى إسعاف مريض وهو يرى أن هذه الرحمة التي أظهرها ترفع من شأنه في المستشفى، وتجعله الطبيب الأول، ربما عُيِّنَ مديراً لهذه المستشفى، العمل طيب لكن فيه شرك. لذلك يوم القيامة يأتي أصناف من البشر يا رب تعلمنا العلم في سبيلك يقول الله لهم: كذبتم، تعلمتم العلم ليقال عنكم وقد قيل، خذوهم إلى النار، يا رب قرأنا القرآن في سبيلك. يقول: كذبتم، قرأتم القرآن ليقال كذا وكذا وقد قيل خذوهم إلى النار. معنى إحباط العملْ، العمل طيب، لكن أراد به صاحبه غير الله، إما أراد السمعة لنفسه، أو أراد إرضاء من هم فوقه فقد أشرك، وإذا أشرك كأن الله عزَّ وجل يقول: هل لك عندي شيء؟ أنت فعلت هذا الشيء من أجل الناس.

أحياناً الإنسان يطعم الطعام، وهدفه أن يعرض على الناس ما عنده في بيته وترتيباته وأناقة الطعام، لذلك موضوع الشرك دقيق جداً، يقول لك: أنا أمين أدفع ديناً جيداً، لا لست أميناً، فعليك سند، ودفعت السند لأن صاحب السند قوي وقد يقيم عليك الحُجَّة، قد يُشَهِّرَ بك بين الناس، قد يقيم دعوى عليك، قد يضعه في التنفيذ، دفع هذا السند كسلوكٍ آمنٍ مدنيٍ المصلحة أن تدفع هذا المبلغ، لكن الأمانة التي هي عبادة ألا تكون مداناً في الأرض إطلاقاً.

مثلاً إذا أعطاك أحدهم مئة ألف أمانة. ومات هذا الرجل، ولا يوجد إنسان على وجه الأرض يعلم بوجود المبلغ عندك، فإذا ذهبت إلى الورثة وقدمت لهم هذا المبلغ فأنت أمينٌ ورب الكعبة، هذه الأمانة، لست مداناً أمام أحد، لكنك خفت الله عزَّ وجل، وأديت هذا المبلغ إلى ورثته، هذه الأمانة.

فالشرك يحبط العمل، العمل طيب، إذا أردت بأداء الحقوق إرضاء الله عزَّ وجل، أردت بإسعاف هذا المريض إرضاء الله عزَّ وجل، أردت بهذا الحكم العادل إرضاء الله عزَّ وجل، هنيئاً لك أنت موحد، التوحيد يرقى بالعمل والشرك يحبط العمل، هذه واحدة.

المعنى الثاني: أنك إذا أشركت، خفت من فلان، أعطاك أمراً غير منطقي وغير لائق، وغير مناسب، وغير إنساني، وغير عادل، ونفذته، العمل سيئ، تلبست بعملٍ سيئ لأنك نفذت أمر إنسانٍ ظننت بإمكانه أن يؤذيك، أو أن يرفعك، فأحياناً العمل يسفل لأن الأمر سخيف، الأمر الذي جاءك سخيف وأنت خفت من الآمر فنفَّذت هذا الأمر فحبط العمل.

مقام العبودية:

أما المؤمن لا يفعل شيئاً لا يرضي الله عزَّ وجل وليكن ما يكن، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ كأن يكلفك بشراء مادة محرَّمة، مشروب مثلاً، اعتذر وقل: لا أحمله، مهما كلف الأمر، فإذا تلقيت أمراً مما سوى الله، ورأيت أن هذا الآمر مخيف، وبيده الخير والشر، ونفَّذت أمره حبط عملك، العمل سخيف وسيئ ومؤذٍ، أو أن العمل طيب ولكن النية لغير الله عزَّ وجل.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

أمامنا الآن آية عظيمة هي بيت القصيد إن صَحَّ التعبير.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

أي أنك أيها الإنسان أنت كعبد هذه مهمتك.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

لا تنصِّب نفسك وصياً على الناس، لا تنصِّب نفسك مسؤولاً عما يجري في الأرض، أنت عبد عليك أن تتقصى أمر الله عزَّ وجل وأن تطيع الله، فإذا أطعته جاءتك الخيرات من كل جانب، عليك إذاً أن تشكر، قال أحدهم لعبد: سيدك يريد أن يبيعك. قال له: يعرف شغله. قال له: أنا سأشتريك. قال له: تعرف شغلك. قال له: اهرب. قال له، أعرف شغلي. أحياناً الشغلة ليست شغلتك، الله عزَّ وجل يدبِّر الكون، فما شغلتك أنت؟ أن تعبده، فإذا عبدته جاءتك الخيرات، إذاً اشكره، عليك أن تطيع وتشكر، هذا اختصاصك، هذا مقامك مقام العبودية.

همُّ المؤمن بعد أن يعرف الله أن يبحث عن أمر الله:

أحياناً الشغلة ليست شغلتك، الله عزَّ وجل يدبِّر الكون، فما شغلتك أنت؟ أن تعبده، فإذا عبدته جاءتك الخيرات، إذاً اشكره، عليك أن تطيع وتشكر، هذا اختصاصك، هذا مقامك مقام العبودية.

ما أجملها الآية، (بل) حرف إضراب..

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

همُّ المؤمن بعد أن يعرف الله، همه الوحيد أن يبحث عن أمر الله؛ في بيعه، في شرائه، في زواجه، في تربية أولاده، في مسكنه، في علاقاته الشخصية، في علاقاته الاجتماعية، في أفراحه، في نزهاته، في كل أحواله، همُّه الأول أن يرضي الله.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هناك آية ثانية تشبهها:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف : 144]

تنتهي هنا مهمتك، أن تطيع الله وأن تشكره، لكن أحياناً تجد من ينصِّب نفسه مسؤولاً عما يجري في العالم، فهذا ليس معقولاً؟ فإله يتصرف، أنت تعاطف مع المسلم، أنت اخدم لكن لا تنقم، تشك برحمة الله، هذا ليس شغلك، لن تستطيع أن تثبت عدالة الله إلا إذا كان لك علمٌ كعلم الله، وأنت لا تعرف، صُلح الحديبية في ظاهره مهين ولكن في باطنه عاد بالخير العميم على المسلمين، في أحداث يصعب تفسيرها، في أحداث تفسيرها الظاهري مزعج جداً لا يحتمل، لا يقبل، الله عزَّ وجل متصرف، هو الفعَّال، هو الخالق، هو المربي، هو إله البشر جميعاً، هو أعطى القوي قوة، هو ضَعَّف الضعيف، ضَعَّف الضعيف لحكمة.

إذا استسلم الإنسان لله يكافئه الله بأن يكشف له الحِكَمَ البليغة من أفعاله:

قال تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 5-6]

هذا المسلم قصر فيحتاج إلى صعقة، صعقة صحوة، القلب عندما يتوقف، الأطباء يعطونه صعقة كهربائية، فإما أن يشتغل وإما الموت، هذا المسلم الميِّت ماتت نفسه يحتاج إلى صعقة، ففي صعقات

الآن قاسية جداً، هذا عمل الله عزَّ وجل، أنا علي أن أستقيم، علي أن أخدم، علي أن أتعاطف، ولكن ليس علي أن أنقم على الله عزَّ وجل، فأنت لست إله أنت عبد ضعيف علمك محدود..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

[سورة الإسراء: 85]

أنت لا تعرف فهنا استسلم، أنت ابذل جهدك واستسلم، طبعاً.

وسلم إلينا الأمر في كل ما يفعل فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

ولكن والله الذي لا إله هو إذا استسلم الإنسان لله، الله عزَّ وجل مكافأةً على استسلامه وعلى انصياعه وعلى عبوديته يكشف له الحِكَمَ البليغة من أفعاله، يرى أن الذي وقع لا بُدَّ من أن يقع ولو لم يقع لكان الله ملوماً، يرى أن كل شيءٍ وقع أراده الله بحكمةٍ مطلقةٍ بليغة.

في الطاعة جانب معرفي وجانب سلوكي وجانب جمالي:

قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

تعطيك حجمك الحقيقي، أنت حجمك أيها الإنسان أن تعبد الله وأن تشكره وأن لا تنصِّب نفسك وصياً على العالم، لماذا يجري ما يجري؟ أين الله عزَّ وجل؟ هذا كلام الضعف والجهل، الله موجود، كل شيء ينطق بوجوده، وكل شيء فعله الكفار بأمر الله وبإذن الله؛ لكن هناك استحقاق.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هذا شعارك، هذه مهمتك، هذا حجمك، تحرك بهذه الآية فقط، هذه الآية تحجمك، أنت كعبد مهمتك أن تعبد الله وأن تشكره، ليس لك مهمة ثانية أبداً، ارتح وريِّح، العبادة الطاعة مع الحُب، حبٌ بلا طاعة لا يكون، وطاعة بلا حب ليست عبادة، وحبٌ بلا طاعة ليست عبادةٌ، العبادة طاعةٌ مع حُب، الطاعة مع الحب تحتاجان إلى معرفة وتنتهيان بالسعادة، ففي الطاعة جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، الجمالي هو الهدف..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

والجانب المَعرفي هو الإيمان، والجانب السلوكي هو التطبيق.

الشرك أساسه ضعف العلم:

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

إذا كان في العمل خلل، معنى ذلك هناك نقص في المعرفة، فكلما وجدت خطأً، أو ضعفاً، أو انحرافاً، أو تقصيراً، يجب أن تعود إلى العلم، النقص في العلم ينتج عنه انحرافٌ في السلوك، فعلاج الضعف في السلوك أو علاج التقصير، أو علاج الخلل، أو علاج الخطأ أتي من تصحيح العقيدة، لذلك الشرك أساسه ضعف العلم، قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

تصور عَرِّيف بسبع أشرطة هدد جندياً، بينما طمأنه لواء، ولكنه خاف من تهديد العريف وصار يبكي، هو لا يعرف ما معنى لواء؟ لا يعرف ما هي العسكرية؟ ولا مدى سلطة اللواء قائد الفرقة، فكل إنسان يشرك معنى ذلك أنه لا يفهم شيئاً إطلاقاً، فهذا جاهل، فالله ماذا قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أشركوا لأنهم ما عرفوا الله عزَّ وجل، لو عرفوا قدرته، وعرفوا وحدانيته، وعرفوا أن كل ذرةٍ في الكون بيده، وكل خاصةٍ بيده، وكل قوةٍ بيده، لوحَّدوه ولاتجهوا إليه، ولكن لضعف علمهم أشركوا.

ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا أساسها المعصية والمعصية أساسها الجهل:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

العلماء وحدهم يخشون الله، ولا يخشى الله أحدٌ سواهم.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

مشكلة المشاكل الشرك، وسبب الشرك نقص العلم، ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا أساسها المعصية، والمعصية أساسها الجهل. الخطوة الأولى نحو السعادة في الدنيا والآخرة هي العلم، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، إذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

لو أُمرت وأنت الجندي أمرين متناقضين، أمر من عرِّيف وأمر من قائد الفرقة، فكَّرت، فنفذت أمر العريف، وعصيت أمر قائد الفرقة، أنت جاهل، وأحمق، ومعتوه، إذا أغضبت قائد الفرقة، فأنت لا تعرف مكانته وسطوته، إذاً لو وقعت بالشرك فهو نقصٌ في العلم، فعليك بالعلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، ..،فَلْيُكْثِرْ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ))

[الطبراني عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ]

إذا قلت، إذا بخلت نفسه بالمال، أو ضَنَّت بالسهر في سبيل الله معنى ذلك أنه لا يعرف الله، عليه إذاً أن يجَدِّد إيمانه بالله.

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى:

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا)

كل ما فيها:

(قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أي نزهوا الله عزَّ وجل، سبحانه عما يشركون، فهذه الآيات كلها حول شيئين، التوحيد والعبادة، والدين كله توحيد وعبادة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي)

[سورة الأنبياء: 25]

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، إذا أنت موحِّد ومستقيم جمعت الدين كله، وحزته من كل أطرافه، إذا وحدت وعبدت حققت المراد من وجودك، وكنت فائزاً وفالحاً وناجحاً ومتفوقاً وسعيداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 67-70، انحراف السلوك يقابل نقص المعرفة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

نقص المعرفة يقابله انحراف السلوك :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة والستين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، ما عرفوه حقَّ معرفته، كل أخطائهم، وكل شركهم، وكل انحرافهم، وكل معاصيهم بسبب نقص معرفتهم.

حقيقة تقول: نقص المعرفة يقابله انحراف السلوك، ما من سلوكٍ منحرفٍ، ما من إنسانٍ وقع في مخالفاتٍ، ما من إنسانٍ قصَّرَ في أداء واجبٍ، ما من إنسانٍ وقع فيما حرَّم الله إلا بسبب نقص معرفته، فهناك علاقةٌ طرديَّة متوازية بين العلم وبين السلوك، فربنا عزَّ وجل بعد أن حدَّثنا عن هؤلاء الذين أشركوا، هؤلاء الذين عصوا، بيَّن أنهم ما عصوا، وما أشركوا، وما قصَّروا، وما أساؤوا إلا بسبب أنهم ما قدَّروا الله حق قدره..

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

فإذا كان هناك طبيب يحمل أعلى شهادة في العالَم - بورد - وطبيب مبتدئ جداً، وعلمه محدود جداً، أنت حينما تتوَّجه إلى الطبيب الأقل معرفة، والأقلّ علماً، لا تعرف قدر الطبيب العالم، لما استغنيت عن العالِم واتجهت إلى الأقل علماً أنت ما قدَّرت علم الأول، لو قدَّرت علمه لاتجهت إليه، أنت أحياناً تتكلَّم كلاماً طيِّباً، ولكن السلوك يؤكِّد أنك لا تعرف الله، فحينما تعصي الله معنى ذلك أنك لا تعرفه، حينما تؤْثِر مرضاة إنسانٍ على مرضاة الله احكم على نفسك أنك لا تعرف الله، حينما تؤثر السلامة عن طريق معصيةٍ احكم على نفسك أنك لا تعرفه، لو عرفته حقَّ المعرفة، لو عظَّمته حقَّ التعظيم، لو قدَّرته حقَّ التقدير، لو عرفت قدره ما عصيته.

إذا عرضوا على الإنسان نماذج من البضاعة واختار أسوأها معنى ذلك أنه ما عرف قيمة أجودها، لو عرف قيمة أجودها لما اختار أسوأها، فأنت مع ما سوى الله عزَّ وجل تتجه إلى لا شيء، إلى جهةٍ لا

تملك شيئاً، لا نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً، لا تسمع، ولا تعقل، ولا تعطي، ولا تستجيب، ولا تنقذ، فإذا تركت خالق الكون، السميعَ البصير، الحيَّ القيُّوم، من بيده ملكوت كل شيء، واتجهت إلى ما سوى الله، أشركت، إذاً ما قدَّرت الله حقَّ قدره.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ أشركوا به.

ما من إنسانٍ وقع فيما حرَّم الله إلا بسبب نقص معرفته :

هناك معنى ضمني، أنت حينما أشركت بالله، حينما توجَّهت إلى غير الله، حينما علَّقت الأمل على غير الله، حينما خِفْتَ غير الله، حينما أرضيت غير الله عزَّ وجل أنت ما عرفت الله، لو عرفته لما تركته، لو عرفته لما توجَّهت إلى سواه، لو عرفته لما صرفت نفسك عنه.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ أشركوا به، إذ عبدوا غيره، هكذا التفسير:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ قصَّروا في واجبهم تجاهَهُ، وما قدروا الله حقَّ قدره إذ خالفوا أمره، وما قدروا الله حق قدره إذ انتهكوا حرماته، وما قدروا الله حق قدره إذ قصَّروا في معرفته، وما قدروا الله حق قدره إذ لم يعطوا كل ما يملكون في سبيل معرفتهم بالله عزَّ وجل.

من ازدادت معرفته بالله استقام عمله :

إذاً هذا مقياس دقيق، كلَّما رأيت نفسك تقصِّر، تُهْمِل، تتجرَّأ، تتجاوز الحدود، احكم على نفسك أنك لا تعرف الله، هناك نقصٌ في العمل بقدر النقص في المعرفة، النقص في العمل أساسه النقص في المعرفة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح قال:

((من ضن بالمال أن ينفقه وبالليل أن يكابده فعليه بسبحان الله و بحمده))

[الديلمي عن عبد الله بن حبيب]

معنى ذلك تسبيحه قليل، والتسبيح هو التنزيه والتمجيد، قلَّت المعرفة فقلَّ معها العمل، قلَّت المعرفة فقلَّت معها التضحية، قلَّت المعرفة فقلَّ معها الصبر، قلَّت المعرفة فقلَّ معها البذل، قلَّت المعرفة فقلَّت معها الطاعة، قلَّت المعرفة فقلَّت معها الخشية.

يجب أن تربطوا دائماً بين المعرفة وبين السلوك ، خطأ في المعرفة لابدَّ من أن يتبعه خطأ في السلوك، هناك خطأٌ في السلوك لابدَّ من أن يُعْزَى إلى نقصٍ في المعرفة، إن رأيت إنساناً منحرفاً احكم عليه أن معرفته بالله قليلة، إن رأيت إنساناً لا يعرف الله احكم عليه أنه لابدَّ من أن يخطئ، لأن ما في الداخل ينعكس على الخارج، وما في الخارج يؤكِّد ما في الداخل، وانتهى الأمر، هذا التلازم بين العقيدة والسلوك، أشركوا، وقصَّروا، وندموا، وعبدوا غير الله، وانكبوا على الدنيا، بعد كل هذه الأوصاف الدقيقة لانحرافاتهم، قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ عبدوا غيره، لو عرفوا الله ما عبدوا غيره، أنت بحاجة إلى مال، وجهتان الأولى تملك المال، والثانية لا تملكه، توجَّهت إلى التي لا تملكه، إذاً أنت لا تعرف من يملك المال، لما توجَّهت إلى الذي لا يملكه وتضعضعت أمامه أنت لا تعرف الرجال، ولا تعرف الأحوال، فاتجاهك يؤكِّد معرفتك.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، ما عرفوه حقَّ معرفته، ما استقاموا على أمره كما ينبغي، ما قدَّموا الغالي والرخيص من أجله كما ينبغي، كل الخطأ في العمل، كل التقصير في العمل، كل الانحراف في العمل أساسه نقص المعرفة، العلاج إذاً المعرفة، وكلَّما نمت معرفتك استقامت أحوالك، كلَّما زادت معرفتك استقام عملك، فدائماً حاسب نفسك.

الفصل بين العلم و العمل أخطر شيء في الدعوة إلى الله :

أخطر شيء في الدعوة إلى الله أن تفصل بين العلم وبين العمل، وأن ترى العلم هدفاً بذاته، لكن العلم وسيلة وليس هدفاً، فإذا جعلته هدفاً فقد وقعت في خطأٍ شنيع، العلم وسيلة وليس غاية، العلم وسيلة إلى العمل، قال بعضهم: " العلم الذي لا يثمر العمل الجهل أفضل منه، لأنه حجَّة عليك"، فهذه الآية:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

حينما أشركوا به ما قدَّروه حقَّ قدره.

الأرض في قبضة الله تعني أن :

1 ـ الأرض في حوزة الله و في ملك الله :

من الله عزَّ وجل؟ قال:

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

معنى هذا أن الشيء في قبضتي، أنه في حوزتي، أنا أملكه، وهو في قبضتي، مالك التصرُّف فيه، أولاً: في حوزتي، وثانياً: أملك التصرُّف فيه، الأرض كلُّها بما فيها وبمن فيها، وبما عليها وبمن عليها، الأرض جميعاً بقبضة الله عزَّ وجل، هي ملكه، ملك الله عزَّ وجل، هو الذي خَلَقَ، وهو المتصرِّف، وإليه المصير، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع وليس إليك المصير، ملكيَّة الله تامَّة، معنى:

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا)

كلمة جميعاً للتفخيم، الأرض جميعاً، وبعضهم قال: ما دامت الأرض في بعض الآيات سبعة أراضين، فجميعاً أي الأرض بكل طبقاتها حتَّى نواتها الملتهبة، بكل ما فيها من ثروات، من فِلذات، من معادن، ربنا عزَّ وجل قال:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه : 6]

هذه إشارة إلى أن هناك ثروات، هناك فلذات، هناك مناجم، هناك معادن، هناك بترول، هناك مناجم ذهب.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه : 6]

إذاً الأرض في قبضة الله تعني أن الأرض في حوزة الله، في ملك الله، ومُلْكِيَّة الله للأرض ملكيَّةٌ تامَّة، يملكها ويتصرَّف فيها وإليه مصيرها، هذه الملكيَّة.

2 ـ الله قادرٌ فيها على كل شيء :

المعنى الثاني: إن الله قادرٌ فيها على كل شيء، كل شيءٍ تتعلَّق به قدرة الله عزَّ وجل، قدرة الله تتعلَّق بكل شيءٍ على الإطلاق، قادرٌ أن يمحوها، قادرٌ أن يفعل بها ما يشاء، قادرٌ أن يغرقها بالماء، الماء يقدر أن يجعله رحمةً، ويقدر أن يجعله عذاباً، الماء أحياناً يدمِّر كل شيء، يُتْلِف كل المحاصيل.

الهواء قادرٌ على أن يجعله رياحاً منعشةً تسوق السحب، وقادرٌ على أن يجعله ريحاً مدمِّرةً، لا تذر شيئاً إلا أتت عليه، كل شيءٍ بقبضة الله، الأرض مستقرَّة بقدرة الله، وقادرٌ أن يزلزلها، البناء الذي استغرق بناؤه عشرين عاماً يصبح رُكاماً بلحظة واحدة.

فماؤها رحمةٌ أو عذاب، هواؤها رحمةٌ أو عذاب، بموجة صقيعٍ واحدة قادرٌ على أن يجعل كل الإنتاج الزراعي صفراً، أسود اللون، يقول لك: الصقيع أتلف ثلاثمئة مليون في خلال خمس دقائق، ما معنى

في قبضته؟ أي هو في حوزته ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً وضمن قدرته، قادرٌ أن يفعل بها ما يشاء، قادر أن تغور الينابيع فيموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، وقادرٌ أن يجعل الأرض القاحلة وقد ارتدت حلَّة قشيبة.

فما بين حمص والشام مسافة تعرفونها جميعاً، أرضٌ قاحلة، في هذا العام نسب الأمطار تضاعفت، الآن هي بساط أخضر بين حمص والشام، خضراء كلُّها، لأنه قادر أن تكون نسب الماء قليلة، قادر أن يضاعف هذه النسب، بعد أن يَئِس الناس من أن الأمطار في الشام باتجاه التناقص جاء عطاء الله مضاعفاً.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

كل شيء في حوزة الله تعالى ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً وضمن قدرته :

أي أن الأمطار بيده، الرياح بيده، البرودة والصقيع، أهل الساحل ما عرفوا الصقيع منذ ثلاثين عاماً، فجأةً في العام الماضي تسع درجات تحت الصفر على ساحل البحر، غير معقول إطلاقاً، الأمطار التي جاءت قبل أسابيع كانت أربعين ميليمتراً.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

الأمطار بيده، الرياح بيده، الصقيع والحر بيده، الشام معتدلة "مَصْيَف"، تأتيها موجات حر فتصبح كبلاد الحجاز شديدة الحرارة.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

الإنتاج جيِّد، حشرة يعجز في مكافحتها علماء الأرض، كل الإنتاج تجده يصاب بهذه الحشرة، ليس في العالَم كلّه مادَّة مضادَّة لهذه الحشرة، علماء ودول عاجزون أمام ذبابةٍ بيضاء، لا تبقي في الإنتاج الزراعي شيئاً.

مرَّة سألني أخ: هل على العسل زكاة؟ قلت: عليه زكاة، العلماء ألحقوه بالإنتاج الزراعي، وقالوا: زكاة العسل العُشر إذا كانت خلاياه طبيعيَّة؛ في الأكوار، وفي الأغصان، ونصف العشر إن كانت خلاياه خشبيَّة، فإذا في نفقه نصف العشر، قال لي: أكيد؟ قلت له: مثلما تحب أنت حر، إن لم تدفع الزكاة فُرَّاد النحل جاهز، أيضاً آفة تصيب خلايا النحل لا تبقي فيها ولا نحلة، أصابت هذه الآفة أكثر المناحل قبل سنوات، أتت عليها جميعاً، ما تلف مالٌ في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة، إنسان ذهب إلى بلد غربي - إلى أمريكا - لمهمَّة تطوير معلوماته الاختصاصيَّة، وعاد بعد ثلاثة أشهر محملاً بالهدايا الثمينة لزوجته الوفيَّة، ولأصدقائه، ولأمِّه، ولأبيه، ولجيرانه، أنجب بعد عامٍ من مجيئه طفلاً كالوردة، بعد أن أنجبت

زوجته هذا الطفل شعر بآلام، بانحطاط، بضَعف من طبيب إلى طبيب إلى طبيب، إلى أن أشار عليه بعض الأطبَّاء أن يجري فحصاً لمرض الإيدز، أجرى الفحص النتيجة إيجابيَّة، بقي يعاني آلام هذا المرض سنتين ثمَّ مات، وبعد موته ماتت زوجته التي أُصيبت بهذا المرض، والآن ابنه في مرحلة الوفاة، وله بنتٌ أنجبها قبل أن يسافر إلى أمريكا، زلّت قدمه، حُوصِر، وسُئل، وألقي عليه الحجر الصحي، وحقّق معه، زلّت قدمه في هذه البلاد - ألا يا ربَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً - قال قبل أن يموت: لو أن لهذا المرض دواء، وثمنه كل ما أملك لدفعته، لا من أجلي ولكن من أجل إنقاذ زوجتي الوفيَّة البريئة وابني الصغير. ولكن المرض حصد الأسرة كلّها، تستقيم أهلاً وسهلاً، لا تستقيم الإيدز جاهز.

طبيب أقام في فرنسا عشر سنوات، قال لي: أُجريت دراسة لبنات الهوى هناك، ثلاثون بالمئة أو أكثر مصابات بهذا المرض.

الاستقامة على أمر الله ضرورية في حياة كل إنسان :

الدين ضروري، العلم ضروري، من أجل سلامتك، فإذا كنت تتنزَّه بأرض فلاة، ورأيت كلمة (انتبه حقل ألغام) هل تشعر أن هذه اللوحة تحدُّ من حريَّتك أم أنها ضمانٌ لسلامتك؟ حينما تفهم الدين ضماناً لسلامتك فأنت فقيه، أما إذا رأيته حدّاً لحريَّتك فأنت لا تعرف شيئاً.

شابٌ من شباب هذه البلدة خطب فتاةً ملء السمع والبصر، وعقد قِرانه عليها في المحكمة الشرعيَّة، وأمضى معها سنةً وأكثر، في فترةٍ يسمِّيها الخُطَّاب من أمتع فترات حياتهم، الحديث عن غرفة النوم، وعن غرفة الضيوف، وعن موقع المَنزل، وعن ماذا يسمون أولادهم حينما يأتون؟ ثم شعر أن بإمكانه أن يشتري سيَّارةً وقد رخصت أسعارها، وشعر أنه بحاجة إلى رخصة قيادة، ذهب إلى الجهات المسؤولة ليحصل على هذه الرخصة، أحد الأوراق تحتاج إلى تبرُّع بالدم، ذهب ليتبرَّع بدمه، في اليوم التالي ألقي الحجر عليه - أنت مصاب بالإيدز- سنة وهذان العروسان يحلمان بأحلامٍ رغيدةٍ، ببيتٍ سعيدٍ، بأولادٍ نجباء، كان جريئاً وأخبر زوجته، فُسِخَ العقد فوراً عن طريق المُخالعة، وتألَّمت الزوجة أشدَّ الألم، وهو ينتظر الآن وفاته - هذه حصيلة المعصية، تحب نفسك استقم، تحب سلامتك استقم، الأمور واضحة وضوح الشمس.

فلذلك حينما تتجه إلى ما يغضب الله أنت لا تعرفه، والأدق من ذلك أنت لا تعرف مصلحتَك، إذا عصيته أنت لا تعرفه ولا تعرف ما يسعدك.

الله يحكم لا معقّب لحكمه له الخلق والأمر :

إذاً:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

الفيروس المسبب لهذا المرض خلقه الله عز وجل ليكون عقاباً عاجلاً، هؤلاء في أوروبا وأمريكا لم يرتدعوا، لا دين لهم، ولا قيم، ولا روادع، وما أبشع الإنسان حينما يرتدع عن الزنا لا خوفاً من الله عزَّ وجل؛ ولكن خوفاً من هذا المرض، ما أبشعه حينما يبتعد خوفاً على حياته، أو على سلامته، ولكن المؤمن يبتعد خوفاً من الله، شتَّان بين البُعْدَين، شتَّان بين العِفَّتين، عفَّة هي التَعَبُّد بعينه، وعفَّة هي الخوف بعينه.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

المعنى الأول: قبضته أي هي في حوزته وملكه، وملكيَّة الله تامة.

والمعنى الثاني: أن كل ما في الأرض، ما فيها ومن فيها، وما عليها ومن عليها، وما فوقها ومن فوقها، في قبضته أي في تصرُّفه، هو الذي يحكمها، وهو الذي يتصرَّف بها، ومشيئته هي النافذة، والله يحكم لا معقّب لحكمه، له الخلق والأمر.

3 ـ الأرض في قبضته أنه قادر على إهلاكها وإتلافها والذهاب بها :

المعنى الثالث لهذه الآية: أن الأرض في قبضته أنه قادر على إهلاكها، وإتلافها، والذهاب بها.

(وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)

[سورة المرسلات: 10]

متى؟ يوم القيامة.

مطوياتٌ أيضاً لها معنيان :

1 ـ أنها في تصرُّف الله عزَّ وجل :

قال:

(وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

معنى مطوياتٌ أيضاً لها معنيان، المعنى الأول: أنها في تصرُّف الله عزَّ وجل.

2 ـ أن هذه السماوات التي تبدو شيء لا يصدَّق :

والمعنى الثاني: إن هذه السماوات التي تبدو شيء لا يصدَّق مليون مليون مجرَّة تقريباً، في كل مجرَّةٍ مليون مليون نجم تقريباً، والفراغات البينيَّة بين النجوم شيء لا يُصدَّق.

تسخير الله عز وجل الكون للإنسان من أجل أن يعبده :

لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة:75-76]

بعد الشمس عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وتكبُر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، وهناك نجمٌ صغيرٌ صغير في برج العقرب لونه أحمر، اسمه قلب العقرب يتَّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

(وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

الله قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج: 1]

كل شهر في بُرج، برج العقرب فيه هذا النجم الصغير المتألِّق الأحمر، اسمه قلب العقرب، هذا النجم الصغير يتَّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، الذي عنده آلة حاسبة يحسب، احسب بينك وبين أقرب نجمٍ ملتهب أربع سنواتٍ ضوئيَّة، هذه المسافة تعني أنك إذا أردت أن تصل إليه بمركبةٍ أرضيَّة تحتاج إلى ما يقارب من خمسين مليون عام، يجب أن يكون عمرك خمسين مليون سنة من أجل أن تصل إليه.

سيدنا المسيح ولِدَ قبل ألف وتسعمئة سنة تقريباً، سيدنا موسى قبل ستة آلاف سنة تقريباً، سيدنا رسول الله قبل ألف وخمسمئة سنة تقريباً، فأين خمسون مليون سنة من أجل أن تصل إلى أقرب نجمٍ ملتهبٍ؟ فنجم القطب تحتاج إلى أن تصل إليه إلى أربعة آلاف سنة ضوئيَّة، أقرب نجم أربع سنوات، القطب أربعة آلاف سنة، إذا الأربع سنوات تحتاج إلى خمسين مليون سنة مسافة الطريق، فكم تكون الأربعة آلاف سنة؟ والعمليَّة تتم بسهولة بالآلة الحاسبة.

هناك عمليَّة معقَّدة، الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، اضرب ثلاثمئة ألف كيلو متر في ستين، بالدقيقة، في ستين، بالساعة، بأربعة وعشرين، باليوم، بثلاثمئة وخمسة وستين، بالسنة، بأربع

سنوات تستطيع أن تعرف كم تبلغ، الآن اقسِم على مئة كيلو متر سرعة سيَّارة، هذه بالساعة، على أربعة وعشرين باليوم، على ثلاثمئة وخمسة وستين بالسنة، أي حوالي خمسين مليون سنة تحتاج أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب، هذا النجم الملتهب أربع سنوات، القطب أربعة آلاف سنة، المرأة المسلسلة مليونا سنة، مجرَّة حديثة ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، هذه مواقع النجوم.

(وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

كل هذا الكون من أجلك، والذي خلق السماوات والأرض هو الذي خلقك، وسخَّر هذا الكون كله من أجلك وأمرك أن تعبده، لذلك قال سيدنا بلال: " لا تنظر إلى صِغَر الذنب ولكن انظر على من اجترأت.

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

ديننا دين توحيد :

ربَّما قال أحدكم - دائماً أركِّز على التوحيد - هذا هو الدين، ديننا توحيد، ما دام هناك شرك فهناك خوف، ومع الخوف هناك نفاق، مع النفاق هناك معاص، مع المعاصي هناك شقاء، أما إن كان هناك توحيد فهناك استقامة، مع الاستقامة راحة نفسيَّة، و عزَّة، و كرامة، رأسك مرفوع، لا تأخذك في الله لومة لائم، لا تخشى غير الله، ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، كل ما في القرآن يؤكِّد التوحيد.

وفي كل شيْ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

***

فعندما أراد أخوة يوسف به كيداً:

(فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ)

[سورة الصافات: 98]

ما استطاعوا لأن الأمر بيد الله عزَّ وجل

قصتا يوسف و موسى تؤكدان أن الأمر بيد الله وحده :

سيدنا موسى وضِعَ في صندوق وأُلقي في اليم، الله عزَّ وجل أمر أمَّه بأمرين، ونهاها نهيين، وبشَّرها بشارتين، قال:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

[سورة القصص: 7]

هذا أول أمر:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

[سورة القصص: 7]

هذا الأمر الثاني:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

[سورة القصص: 7]

نهيان:

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ)

[سورة القصص: 7]

هذه أول بشارة:

(وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

[سورة القصص: 7]

معنى هذا أن الصندوق بيد الله عزَّ وجل، وحركة الماء بيد الله، وحركة امرأة فرعون بيد الله، وميل قلبها بيد الله.

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا)

[سورة القصص: 9]

فرعون قتل كل الأطفال حتى لا يأتي طفل يقضي على ملكه، أما هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه فربَّاه في قصره وهو لا يدري.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

[سورة القصص: 8]

هذه لام المآل، ليست لام التعليل، انتهى الأمر أن هذا الطفل الذي أحبوه وربوه هو الذي قضى على ملك فرعون، الأمر بيد الله، قصَّة موسى كلُّها تؤكِّد أن الأمر بيد الله، قصة يوسف الأمر بيد الله.

أخطر شيء أن تكون مع غير الحق وأسعد شيء أن تكون مع الحق :

سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، هؤلاء الكفَّار الذين عادوا النبي، أخرجوه من بلده، نكّلوا بأصحابه، ائتمروا على قتله، ماذا كان في النهاية؟ هم ماتوا في معارك شهيرة وألقوا في القليب، والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام تألّقوا في سماء الدنيا، ونصرهم الله عزَّ وجل.

فأخطر شيء أن تكون مع غير الحق، وأسعد شيء أن تكون مع الحق، قال:

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)

بعد أن انتهت الأرض والسماوات:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

كل مخلوقٍ يموت، هذا صَعْقُ الموت، هذه سكرات الموت، لابدَّ من أن يذوقها كل حَي، كل نفسٍ ذائقة الموت، سيدنا الصديق رضي الله عنه عندما بلغه نبأ وفاة رسول الله بقي متماسكاً، وقال كلمةً لو لم يقل غيرها لكفته، قال: " من كان يعبد محمَّداً فإن محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ".
كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت.

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفـــجر

والعمر مهما طـــال فلابد من نزول الـــقبر

*** * ***

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فـإذا حملت إلى القبور جنازة فـاعلم أنك بعدها محمول

*** * ***

صدر قرار من الله عزَّ وجل بموت جميع الخلق مع وقف التنفيذ، متى؟ الله أعلم.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

لذلك، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الذي يقول: غداً من أجلي. فقد أساء صحبة الموت، غداً سأفعل كذا، أنت لا تعرف الموت، الموت يخطف الإنسان خطفاً، بلمح البصر، سكتة دماغيَّة، هناك كثير من حالات الوفاة المفاجئة، نام ولم يستيقظ، خرج و لم يرجع، دخل و لم يخرج، سافر ولم يرجع.

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

فسابقاً أوضَّحت أن بحياتك توجد مجموعة هموم، لا أحد منَّا لا هم له، زواجه هم، عمله هم، صحَّته هم، أولاده هم، تزويج أولاده هم، هناك مجموعة قضايا، وكل هم يشغل حيِّزاً من حياتنا، أحيانا يشغل بالمئة عشرة، أو بالمئة ستين، وربما هم لا يجعلك تنام الليل، يستحوذ على كل اهتمامك.
وقد يشغل حيزاً كبيراً من اهتمامك، وربما يشغل حيزاً قليلاً يمتدُّ أثره إلى أمدٍ طويل، بعضها إلى أمدٍ قصير، فأنت حيالها لك خيار؛ خيار قبول أو رفض، هذه الفتاة رفضتها - شيء جميل - هذه قبلتها، هذا العمل قبلته، هذا العمل رفضته.
لكن الإيمان الذي يشغل كل الحياة، في علاقتك مع جسمك يدخل الإيمان، هناك تعليمات الخالق، مع أهلك يدخل الإيمان، مع عملك يدخل الإيمان، مع أولادك، مع ربِّك، الإيمان يغطِّي الحياة كلَّها، ويغطي الوقت كلَّه، لكن أخطر ما في الإيمان أن موقفك تجاهه لا موقف قبول أو رفض، بل اختيار زمن فقط، لابدَّ من أن تؤمن ولكن إما أن تؤمن قبل فوات الأوان فتستفيد من إيمانك، وإما أن تؤمن بعد فوات

الأوان فلا تنتفع بإيمانك، الإيمان يشغل كل الحيِّز وكل الوقت، والخيار معه، فكيف لا نهتم به؟ كيف لا نرعى الإيمان؟ كيف لا نرسِّخ الإيمان؟ كيف لا نعمل على زيادة الإيمان؟ كيف لا نقتطع من زبدة وقتنا وقتاً لمعرفة الله مادام بهذه الخطورة؟

فأنا أتمنَّى أن تبرمج حياتك، وعملك، وضيوفك، وزياراتك وفق معرفة الله عزَّ وجل.

كل إنسان ينتظر يوم القيامة ماذا يُفعل به :

إذاً:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى)

أول نفخة نفخة الموت، النفخة الثانية نفخة البعث:

(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

هنا المشكلة، كل تعبك في الدنيا، سهر الليالي، غَضُّ البصر، إنفاق الأموال، حضور مجالس العلم، خدمة أهل الحق، خدمة الحق، الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، تلاوة القرآن، حجم عملك كلّه يظهر في هذه الساعة.

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

كلمة ينظرون تعني ينتظرون ماذا يُفْعَلُ بهم، إذا كان هناك مجموعة في السجن، وفتح الباب وقيل لهم: اخرجوا، فتجدهم يتساءلون: ماذا هناك يا ترى؟ يا ترى إفراج؟ تنفُّس؟ نقل لمكان آخر؟ لا نعرف، من شدَّة الخوف والرعب.

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

أنت الآن في بحبوحة، الآن بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن ترجع، بإمكانك أن تستقيم، بإمكانك أن تؤدي الحقوق، فإذا مات الإنسان وهو على معصية، وفي ذمَّته حقوق لم تؤدَّ، وفي ذمَّته واجبات لم تؤدَّ، وكان في حياته خلل، وجاءه ملك الموت وقبض روحه، ثمَّ نُفِخَ في الصور، وبُعِثَ من القبر، ووقف ينظر ماذا يُفْعَلُ به؟ أإلى الجنَّة أم إلى النار؟

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

الله عز وجل قطع حجة المعاندين إلى يوم القيامة :

يوجد سؤال فاتني أن أشير إلى جوابه، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

ولكن الله عزَّ وجل قال:

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

أي يا ترى في الدنيا أليست الأرض قبضته؟ في الدنيا أليست السماوات مطوياتٍ بيمينه؟ طبعاً، فلماذا قيَّد الله يوم القيامة؟ قال: لأن الدنيا فيها دعاوي كثيرة، كل إنسان يدَّعي أنه قوي وأنه يفعل ما يشاء، وربنا أشار إلى ذلك فقال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

[سورة يونس: 24]

الآن تجد أحدهم لا شيء ويقول لك: أنا أفعل، أعمل، أمنح، آخذ دعاوي كثيرة، لكن هل يستطيع أحدٌ يوم القيامة أن يدَّعي أن له فعلاً؟ فهذه المناقشة دقيقة، قال النمرود لسيدنا إبراهيم: من ربُّك؟ قال:

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

[سورة البقرة: 258]

أنا مثل ربِّك، أنا أحكم على إنسان بالقتل فيموت، أعفو عنه فيبقى حياً، سيدنا إبراهيم أوتي من الله الحكمة، فالمناقشة معه في هذا الموضوع طريق عسير، تركه كُلياً، وقال:

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة: 258]

هذا الجواب المُفْحِم، الحاسم، ففي الدنيا هناك من يدَّعي أنه يفعل ولا يفعل، يمكن الذين يملكون أسلحة الدمار الشامل يظنون أن العالم مصيره بيدهم، فهناك وهم كبير، ادعاء كبير، مع أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا أن يأذن الله عزَّ وجل، وهذا هو الإيمان، وكل ما تسمعون به مما يجري في العالَم هو بأمر الله، وكل خطط البشر تستوعبها خطَّة الله عزَّ وجل، ولا يستطيع أقوى الأقوياء أن يفعل شيئاً ما أراده الله، أيحسب الكافر أنه سَبَقَ الله عزَّ وجل؟ بمعنى أنه فعل شيئاً ما أراده الله، لا، هذا هو الإيمان، لكن المناقشة مع هؤلاء في هذا الموضوع يدخلنا في متاهة، لذلك الله عزَّ وجل قطع حجَّتهم إلى يوم القيامة.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

كما فعل سيدنا إبراهيم مع النمرود، قال له:

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

[سورة البقرة: 258]

قال له ولكن:

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة: 258]

فهُنا قطع الله حجة هؤلاء المعاندين.

يوم القيامة لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أن الأمر بيده :

لذلك بعضهم قال عن الآية الكريمة:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى: 53]

يا رب هي بيدك سابقاً ولاحقاً، فكيف صارت إليك؟ وبيد من كانت قبلك يا رب؟ سؤال محيِّر، العلماء قالوا: في الدنيا المؤمنون وحدهم يرون أن الأمور بيد الله، لكن أهل الدنيا؛ الكفّار، المشركون، المقصِّرون، ضعِاف الإيمان، يرون أن الأمر بيد زيد، بيد عُبيد، فربنا عزَّ وجل قال: أما يوم القيامة فلا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أن الأمر بيده:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى: 53]

هذا من باب المناقشة الحكيمة:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)

شرقت الشمس أي ظهرت، أما أشرقت بمعنى أنارت، شرقت ظهرت، أما أشرقت فنوَّرت، فإذا كان الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، فما هو النور؟ هو العَدْلُ، أي أن هذا اليوم يوم العدلِ تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، ورد في بعض الأحاديث أنه من علامات قيام الساعة موت كعقاص الغنم، أحياناً يأتي وباء يذهِب بأربعة أخماس القطيع خلال يوم، موتٌ كعقاص الغنم لا يدري القاتل لمَ يقتل؟ ولا المقتول فيمَ قُتِل؟ فبالفطرة الإنسان يُقْتَل إذا كان قاتلاً، يُقْتَل إذا أنشأ فساداً في الأرض، أما يُقْتَل فقط لأنه مسلم؟ لم يفعل شيئاً، لأنه مواطن صالح.

العاصي غبي لأنه قضى على سعادته في الدنيا والآخرة :

ما يجري في العالم الآن من الحروب الأهليَّة لا يدري القاتل لمَ يقتل؟ ولا المقتول فيم قُتِلْ؟ إذاً تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، يوم القيامة هذا يوم العدل:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)

الآن يوجد عدل، لك أن تقول في الدنيا ما تشاء، لك أن تفعل ما تشاء، ولكن كل شيءٍ تفعله سوف تحاسب عليه، هذا معنى العَدل، لذلك الأحمق والغبي يظنُّ أنه ذكيٌ إذا أخذ ما ليس له، وهو في منتهى الحمق والغباء لأنه لابدَّ من يومٍ تشخص فيه الأبصار، والآية الكريمة:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

فالأمور أمامنا، الدروس والمواعظ لا تنتهي، كل قصَّةٍ فيها حكمة وموعظة، العاصي غبي لأنه قضى على سعادته في الدنيا والآخرة، فمن باب الاستنباط لو أنك مفرطٌ في أنانيِّتك، لو أنك تحبُّ ذاتك أشدَّ الحب، عليك بطاعة الله طلباً لسلامتك.

طاعة الله عز وجل أساس النجاة يوم القيامة :

لا يوجد حل إلا طاعة الله عزَّ وجل، الأرض الآن امتلأت فِسقاً وفجوراً وفتنة، الفتن الآن يقظى، الدنيا خضرةٌ نضرة، أينما تحرَّكت نساءٌ كاسياتٌ عاريات، ما من كلمةٍ أبلغ من كلمة النبي عليه الصلاة والسلام، مرتدية لكنها عارية..

((كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ))

[أحمد عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو]

المؤمن في المسجد كالسمكة في الماء، المؤمن جنَّته داره وليست الطرقات، جنَّته داره، جنَّته مسجده، مكان فُسْحَتِهِ مكانٌ طلق لا معاصي فيه إطلاقاً، هذا المؤمن، أما إذا عاش مع الناس فالعصر الآن فيه فساد.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

لذلك هذه الآية فيها عزاءٌ لكل إنسان مظلوم، لابدَّ من أن تأخذ حقَّك من الذي ظلمك، ظالم، لابدَّ من أن تدفع ثمن الظلم باهظاً يوم القيامة، فكل إنسان يصل لهذا اليوم وهو معافى من قِبَل الله عزَّ وجل، ناج لا له ولا عليه هو إنسان واع، هذا الذي قاله سيدنا عمر: " أتمنَّى أن أموت لا لي ولا علي ". لأن الأمر خطير جداً.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ)

كل القيم التي يتفاضل بها الناس في الدنيا تسقط يوم القيامة إلا قيمة المعرفة والعمل :

صار هناك مقاييس جديدة، صار هناك مقياس وحيد هو مدى معرفتك بالله، مدى طاعتك له، مدى إحسانك إلى الخلق، قيم المال سقطت، قيم الذكاء سقطت، قيم الوسامة سقطت، قيم القوَّة سقطت، كل القيم التي تفاضل بها الناس كلُّها تحت الأقدام إلا قيمة المعرفة والعمل.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

علمك يرفعك، وعملك يرفعُك، مالك لا قيمة له، كنت ذكياً لا قيمة له، كنت وسيماً لا قيمة له، كل القيم تحت الأقدام إلا قيمة العلم والعمل هذا.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)

البطل هو الذي يملك جواباً لله عزَّ وجل عن كل شيءٍ فعله في الدنيا :

الآن:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

ما قولك أن كل حركاتك، وسكناتك، وكلامك، كله مسجَّل، ومصوَّر، وملوَّن، ثمَّ يُعرضَ هذا الفيلم عليك، لماذا قلت كذا؟ لماذا نظرت هكذا؟ لماذا أخذت هذا المبلغ؟ نحن في الدنيا إذا شعر الإنسان أنه مُراقب، إذا شعر أن هاتفه مراقب، يحسب ألف حساب، ويعد للألف ليتكلَّم كلمة واحدة إذا شعر أنه مصورَّ بآلةٍ خفيَّة، كيف يتصرَّف؟ أين يمشي؟ إلى أين يدخل؟ حتى لا يحاسب لم يترك دفتراً في محله، ولا ورقة، ولا فاتورة من أجل الماليَّة، خائف من موظَّف الماليَّة، يرجف إن وجد معه ورقة، أو مستنداً، مع إنسان ترتعد فرائصك فكيف مع الواحد الديان؟

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

هذه أعمالك، لماذا طلَّقتها؟ لماذا قلت هذا؟ لماذا اغتصبت هذا المكان؟ لَمَ لَمْ تعطي الأجير أجره؟ البطل هو الذي يملك جواباً لله عزَّ وجل عن كل شيءٍ فعله في الدنيا، عندك جواب؟ إذا معك الجواب فلا يوجد مانع، جواب لله عن كل موقف، افعل ما تشاء، اعملوا ما شئتم ولكن هيئ جواباً، لَمَ قلت لهذا المريض كذا؟ أردت أن توهمه، معنى ذلك أنها مسجَّلة، لَمَ قلت لهذا الموكّل كذا؟ هل القاضي يرتشي حتى قلت له: أنا أدبِّره، مفتاحه عندي، القانون واضح وهو لصالح الموكّل، لكنك أوهمته أن هذا القاضي صعب، ومفتاحه معي، كله مسجَّل، بالبيع وبالشراء كل شيء مسجَّل.

لكل إنسان كتاب أعمال يوم القيامة :

لذلك:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

قال العلماء: كتاب الأعمال. تقول لزميلات زوجتك: تعالين إلى هنا، تريد الاختلاط وتدعي أن دعوتك لهن خوفاً عليهن من البرد في الغرفة الثانية، لا ليس من أجل البرد، الله يعرف لماذا قلت هذا الكلام، حركاتك، سكناتك.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

نظراتك، كلماتك، كلُّه بعلم الله عزَّ وجل.

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

كله مسجَّل، فإذا إنسان أراد أن ينكر، تفضَّل هذا صوتك. مرَّة أحضروا جهاز رادار يكشف المخالفات، فهناك سائق ذهب للمطار وأسرع أكثر مما ينبغي، الجهاز الجديد صوره وأحضروه للتحقيق، ما ترك يميناً إلا وحلفه، ما كنت في المطار أبداً، أروه الصورة، وهذه أليست سيارتك؟ و أليس هذا رقمها؟ فالصورة تسكت، فلم يستطع أن يتكلَّم ولا كلمة، هنا كذلك الكتاب فيه، الله قال:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

[سورة المطففين: 9]

أولاً: صفحاته مرقَّمة، وثانياً: مع كل مخالفة صورتها:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

أولاً:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

يقول بين يدي الله: ما كنت أدري وما علمني أحد، أولاً ميزان العدل، ثم صحيفة الأعمال، ثم إقرار الأنبياء الذين بلَّغوك، أو نوَّاب الأنبياء وهم العلماء الذين شهدوا..

الشهداء هم :

1 ـ إما العلماء الذين شهدوا لك بالحق أو شهدوا عليك بالتكذيب :

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ)

الشهداء قال بعضهم: هم العلماء الذين شهدوا لك بالحق، أو شهدوا عليك بالتكذيب. شهدوا لك أو عليك، بلَّغك، بيَّن لك، شهدَ لك، أعطاك مشاهداته، أو شهد عليك بالتقصير والتكذيب.

2 ـ أو الذين بذلوا دماءهم من أجلك :

بعضهم قال: الشهداء فعلاً الذين بذلوا دماءهم من أجلك. هؤلاء الذين فتحوا البلاد، فتحوها من أجل نشر الحق، فلا أعرف لماذا هنا الصحابة استشهدوا؟ من أجلك، لماذا ذهبوا إلى أطراف الدنيا؟ إلى الصين؟ إلى شمال إفريقيا؟ إلى تركيًا؟ لماذا؟ ذهبوا لينشروا هذا الدين، فإذا هم قد بلَّغوك، فإن قلت: لا أعرف. لا إنك تعرف، الأنبياء أنزل عليهم الكتاب، والذين قاتلوا في سبيل نشر الحق شهدوا لك بالحق.

3 ـ أو الملائكة :

المعنى الثالث: الشهداء هم الملائكة. إما العلماء، أو الذين استشهدوا في ساحات المعركة، أو الملائكة، لقوله تعالى:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

[سورة ق: 21]

يسحبونه من رقبته، فإن قال: لم أفعل شيئاً. هذا شاهد عليك، لا تتكلّم ولا كلمة:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

[سورة ق: 21]

سائقٌ يسوقها، فإن قال: ليس أنا. يجاب: هذا هو الشهيد:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

[سورة ق: 21]

عدل الله يسكت الألسنة :

فهنا الميزان ميزان العَدْل، ووضع الكتاب كتاب العمل:

(وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

فلا يوجد ظلم:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر:17]

اسم الله العَدْل يتحقَّق يوم القيامة، الآن اعملوا ما شئتم، الآن هناك حرية اختيار ولكن كلّه مسجَّل، اعملوا ما شئتم.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

كل إنسان نال جزاءه الأوفى الكامل، لا يوجد ولا كلمة، لذلك قالوا: عدل الله يسكت الألسنة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (20-20): تفسير الآيات 70-75، الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء و الآخرة دار تشريف و تكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-06-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

من أيقن أن الله يعلم كل شيء و سيحاسبه لابد من أن يستقيم على أمره :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العشرين والأخير من سورة الزُمَر، ومع الآية الواحدة والسبعين، قال تعالى:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

الكون كله مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، لكن اسم العَدْلِ لا يتحقق كاملاً إلا يوم القيامة، لأن في الدنيا قوياً وضعيفاً، وغنياً وفقيراً، وصحيحاً ومريضاً، وظالماً ومظلوماً، ومغتصِبَاً ومغتَصَبَاً منه، ومفترياً ومفترىً عليه، هذه العلاقات التي فيها تجاوزٌ و اعتداءٌ على الحقوق هذه متى يفصل فيها؟ متى يعطى كل إنسانٍ حقه؟ الآية الكريمة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7]

مثقال ذرة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

كلام خالق الكون، مثقال ذرة، لو أنك أنقذت نملة وأنت تتوضأ - أنقذتها من الغرق - هذا عملٌ عظيم، لو أنك نزعت قشة من المسجد وضعتها في جيبك حفاظاً على نظافته، هذا عملٌ عظيم.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

إذا أيقن الإنسان أن له إلهاً بالمرصاد يرقُبُ عمله، ويعلم عمله، وسيحاسبه على عمله، لا بد من أن يستقيم، إنك مع إنسان من بني جلدتك، من بني جنسك، إذا أيقنت أنه يراقبك وهو أقوى منك وسيحاسبك، لا بد من أن تنصاع إلى أمره، راقب نفسك مع إنسان قد لا تراه ذا قيمةٍ في مقياس القيَم الإنسانية، ولكن لأنه أقوى منك، ولأنه قادرٌ على إيقاع الأذى بك، ولأنه يعلم ما تفعل، لا بد من أن تستقيم على أمره، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

من يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يوفّى أعماله كاملة و العكس صحيح :

ما عملك في الدنيا؟ أولاً: حرفتك، كيف تعاملت مع الناس بها؟ هل غششت المسلمين أم نصحتهم؟ هل شعرت أنهم بحاجةٍ ماسةٍ إلى هذه السلعة فرفعت سعرها أضعافاً مضاعفة كي تستغل حاجتهم؟ هل ذكرت لهم الحقيقة أم بالغت من أجل أن تأكل أموالهم بالباطل؟ عملك المهني جزءٌ من عملك العام، عملك في بيتك جزءٌ من عملك العام، عملك في لَهْوك جزءٌ من عملك العام، عملك فيمن حولك جزءٌ من عملك العام.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

الذي أعطى واتقى وصدق بالحسنى وفّيت أعماله كاملة، والذي كذَّب وتولى وبخل واستغنى وفّي عمله كاملاً، فلذلك لا ترى في الدنيا أشد حمقاً ولا أشد غباءً ولا أشد جهلاً من الذي يعمل السيِّئات وهو يظن أنه يُحسن صنعاً، من الذي يأكل أموال الناس بالباطل وهو الذي يظن نفسه ذكياً، هذا هو الغباء بعينه لأنه:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

الإنسان العاقل لا يرضى بالوهم المريح بل يبحث عن الحقيقة المُرَّة :

ما من حركةٍ، ولا سكنةٍ، ما من إساءةٍ، ما من إحسانٍ، ما من كلمةٍ طيبةٍ، ما من كلمةٍ سيئةٍ، ما من غمزٍ، ما من لمزٍ، ما من غيبةٍ، ما من نميمةٍ، ما من عدوانٍ، ما من نظرةٍ، ما من صيحةٍ، ما من إصغاءٍ إلا في كتابٍ دقيق، ويوم القيامة يُنْشَرُ هذا الكتاب ويحاسب الإنسان أشد الحساب، هذه حقيقة، إذا قبلت الحقيقة المرة حمدت الله عزَّ وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[سورة الشعراء:88]

هناك وهم مريح وهناك حقائق مُرَّة، الإنسان العاقل لا يرضى بالوهم المريح، بل يبحث عن الحقيقة المُرَّة، الوهم المريح ما يقوله عامة الناس: نحن أمة محمد أمة مرحومة، نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، الله يعفو عنا، الله يغفر لنا ذنوبنا، ما لنا إلا كرمه. هذا كلام لا يعني شيئاً، ولكن ربنا عزَّ وجل يقول:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

إذا الإنسان عرف الحقيقة ولو أنها مُرَّة، ولو أنها حَجَّمَتْهُ، ولو أنها وضعته في زاويةٍ ضيِّقة، ولو أنها وضعته أمام مسؤوليَّاته، هذه الحقيقة المُرَّة هي المنقذة للإنسان من مغبة عمله، هذه الآية:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

من دون استثناء، أنت ماذا عملت في الدنيا؟ كل إنسان له عمل، محسن أم مسيء؟ صادق أم كاذب؟ ناصح أم غاش؟ وتحابي أم تستقيم؟ لسانك رطبٌ بذكر الله أم طليقٌ بالفحشاء والمنكر؟ جوارحك، عينك، أذنك، لسانك، يدك، رجلك، كيف تتحرك في اليوم؟

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

امتحان كل إنسان فيما أعطاه الله :

والإنسان أيها الأخوة مُمْتَحَن:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

لا يوجد واحد من المؤمنين، لا يوجد واحد من بني البشر إلا وهو مُمْتَحَن، أحياناً تعرض له الدنيا من طريقٍ غير مشروع، والطُرُقُ المشروعة مغلقة في وجهه، ماذا يعمل؟ فإن صبر وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويا ربي لا أعصيك ولو أطبقت السماء على الأرض، لا أعصيك ولو قُطِّعْت إرباً إرباً، لا أعصيك ولو أكلت التراب. إن علم الله منك هذا الموقف أعطاك الدنيا والآخرة:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

لكن أتمنى أيها الأخوة أن يكون في علمكم أن إكرام المُحسن في الدنيا إكرامٌ تشجيعي لبقية المُحسنين، وأن عقوبة المسيء في الدنيا هي عقوبةٌ ردعيةٌ لبقية المسيئين، ولكن تأدية الحساب كاملاً، ولكن توفية النفس حقَّها، ولكن الحساب النهائي، ولكن الرصيد الكُلّي يوم القيامة.

الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء :

لذلك لو رأيت إنساناً مستقيماً وهو ضيِّق ذات اليد لا ينبغي أن تتهمه في دينه، لعل الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغةٍ بالغة أراد إرجاء إكرامه إلى يوم القيامة، وهذه الآية الدليل:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

وإن رأيت إنساناً مسيئاً وهو يتمتع بالصحة، والمال، والجاه، والقوة، لا ينبغي أن يَهُزَّكَ هذا الموقف، قل: لعل الله لحكمةٍ بالغةٍ بالغةٍ أراد أن يرجئ عقابه إلى يوم القيامة.

إن رأيت المحسن يثاب في الدنيا فهذا ثوابٌ تشجيعي لبقيَّة المحسنين، وإن رأيت المسيء يعاقب في الدنيا فهذا عقابٌ ردعيٌ لبقية المُسيئين، ولكن الجزاء الأوفى، وتوفية النفس حقها كاملاً، ورصيد الحساب، هذا يكون يوم القيامة، والدليل:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

لا ينبغي أن تجعل الدنيا دار جزاء إنها دار ابتلاء، إنسان طيب، حافظ القرآن، مستقيم، مات في مقتبل الحياة، ولم ير من نعيم الدنيا شيئاً، فالدنيا في الأصل دار ابتلاء..

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

لا تنتظر من الدنيا أن تكون دار جزاء، لكن اطلب من الله السلامة، لكن عافيتك أوسع لي، هكذا دعا النبي عليه الصلاة والسلام، فيجب ألا يهزك إنسان قوي وغني وعاص، ويزداد غنىً وقوةً، لقول الله عزّ وجل:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

[سورة الزمر : 196-198]

الله عز وجل يعلم السر و أخفى :

الله عزَّ وجل الذي يعلمه لا نعلمه نحن، يعلم السِرَّ وأخفى، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذا الإنسان من المناسب أن يعاجل بالعقوبة لعِلم الله به أن هذا العقاب لمصلحته، وهذا الإنسان من الحكمة أن تؤخَّر له العقوبة، وهذا الإنسان من حكمة الله أن يُتابعه على أدَقِّ الزلات، وهذا الإنسان يتركه الله عزَّ وجل بلا تأديبٍ ولا معالجة لحكمةٍ أرادها، أنت لا تستطيع أن تحكم على الأشياء بعلمك القاصر، ولكن الله عزَّ وجل هو العليم الحكيم، فدع هذا الأمر لله عزَّ وجل، لا يهزك إنسان يزداد قوةً وغنىً ومالاً وهو مقيمٌ على المعاصي كلها، ولا يهزك إنسانٌ مقيمٌ على طاعة الله جلَّ جلاله والدنيا صعبةٌ بين يديه، هناك حِكَمٌ لا نعلمها، الآية التي تحل هذه المشكلة:

(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

الجزاء الأوفى وتوفية النفس حقها كاملاً يكون يوم القيامة :

ما من إنسانٍ كان أشدَّ عداوةً للنبي عليه الصلاة والسلام من عكرمة بن أبي جهل، حارب النبي عشرين عاماً، نَكَّلَ بأصحابه، ما من إساءةٍ إلا فعلها في حقِّ النبي، وهو يزداد قوةً وشأناً.. الخ، ثم فتحت مكة، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بقتله ولو تعلّق بأستار الكعبة.

جاءت امرأته إلى النبي عليه الصلاة والسلام قالت: "يا رسول الله إن عكرمة قد هرب منك خوف أن تقتله فأمِّنه أمَّنَكَ الله ". قال: " هو آمن ".

ذهبت إليه فإذا هو على شاطئ البحر الأحمر ليسافر إلى الحبشة فراراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقنعته بأن النبي عفا عنه، عاد إلى مكة وقال: " إنها تقول إنك قد أمَّنتني ". قال: " نعم صَدَقَتْ ". القصة طويلة، وأصبح عكرمة بن أبي جهل من كبار الصحابة، وقد أبلى في القِتال أشد البلاء.

الله يعلم لو أن إنساناً قال: هذا ما شأنه؟ لماذا يزداد قوةً وهو ينكّل بأصحاب النبي؟ أنت لا تعلم ولكن الله يعلم، هذا إنسان فيه خير ولكنه كامن، لم يأتِ الوقت المناسب ليظهر هذا الخير، وله قصة طويلةٌ جداً في اليَرموك، وكيف أنه كسر غِمْدَ سيفه وترك فرسه الأشقر، ودخل في غمار المعركة يقاتل الكفَّار، حتى أن سيدنا خالد رضي الله عنه قال له: " إن قتلك يؤذي المسلمين ". فقال: " دَعْكَ عني لقد كان لك مع النبي مواقف ليست لي، دعني أكفِّر عن خطيئتي ".

فأنت لا تعرف إذا أعطى الله إنساناً مهلة لعلمٍ يعلمه وأنت لا تعلم ذلك، فعليك أن تستسلم، أنت لا تعلم ولكن الله يعلم، فإذا عاقب الله المسيء، هذا عقاب ردعي لبقية المسيئين، وإذا كافأ الله المُحسن، هذه مكافأة تشجيعية لبقية المحسنين، لكن توفية النفس حقها، والفصل الدقيق يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

مكافأة بعض المحسنين في الدنيا مكافأة تشجيعية لبقية المحسنين :

أحياناً يقدم الطلاب امتحاناً، والامتحان مصيري ويترتب عليه مستقبل الطلاَّب، و ربما كانت العلامات في الامتحان أساس دخول الجامعة، لو فرضنا أن مدرِّساً فحص طلاَّبه، وزَّع الأوراق بعد أن صححها، وكتب على السبورة السلم الدقيق، ووزع الأوراق على أصحابها، والطالب قرأ ما كتب، وقرأ السُلَّم، ونظر إلى العلامات التي نالها وفق السُلَّم، وجمع وطرح وقسَّم بأرباع العلامات، فإذا علامته تماماً كما يستحق دون زيادةٍ أو نقصان، انتهى الطلاَّب من مطالعة أوراقهم بعد التصحيح، وسأل الطلاب: ألا

لأحدهم سؤال؟ سكوتهم جميعاً دليل عدالته المُطْلَقة، لو أن هناك خطأً في التصحيح، وإجحافاً، وزيغاً، وجحوداً، وميلاً، وزيادةً، ونقصاناً، لرأيت الطلاّب قد قاموا من مقاعدهم، وأحدثوا جلبةً وضجيجاً، انظر إلى هذه الآية:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

كل إنسان يعرف عمله، كل منا له عمل، المهنة الواحدة تحتمل آلاف النماذج، هناك مهندس مُخْلِص، وهناك طبيب مخلص، وهناك محامٍ مخلص، و هناك مدرس مخلص، وهناك تاجر أمين صادق، و بائع، وموظف، المهنة نفسها تحتمل الزَيغ والاستقامة، الكذب والصدق، الرحمة والقسوة، العدل والظُلم، الإحسان والإساءة، كل إنسان يعرف عمله، فإذا الإنسان استقام على أمر الله، لا كذب ولا غش ولا أساء، ربنا عزَّ وجل ربما كافأه في الدنيا تشجيعاً له ولغيره، أما لو أنه لم يكافئه، فالمكافأة العظمى تنتظره يوم القيامة، الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

أعلم اسم تفضيل، مهما علمت هو أعلم، سيدنا الصديق مدحه رجل، فتوجَّه إلى الله عزَّ وجل، وقال: " يا رب أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون ". وهو أعلم بما يفعلون، الذي خفي عنك يعلمه الله عزَّ وجل، من توفية كل نفسٍ ما عملت..

الناس رجلان؛ متصلٌ بالله منضبطٌ بشرعه ومقطوعٌ عن الله بعيد عن شرعه :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا)

سيقَ، الإنسان حينما يلقى القبض عليه، ويقتاده المحضرون إلى التحقيق، أو إلى غياهب السجن، أو إلى العقاب الأليم، كلكم يعلم ما معنى كلمة سيقَ؟ سُئِل أحد العارفين بالله: كيف القدوم على الله؟ فقال أبو حازم: " أما العبد المؤمن فكالغائب رُدَّ إلى أهله، وأما العبد الكافر فكالعبد الآبق رُدَّ إلى مولاه.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

بالتعريف الدقيق الدقيق من هم الذين كفروا؟ الذي كذبوا وعصوا وأعرضوا، كذبوا بالحق لما جاءهم، كذبوا بما أوحاه الله إلى الأنبياء والمرسلين، كذبوا بهذا القرآن، ولأنهم كذَّبوا ما أطاعوا، ولأنهم ما أطاعوا فجروا وفسقوا وأخذوا ما ليس لهم، فالكفر له صفة داخلية وهو التكذيب، وصفة خارجية وهو الإعراض والمعصية، والناس رجلان؛ متصلٌ بالله، منضبطٌ بشرعه، محسنٌ إلى خلقه؛ مقطوعٌ عن الله،

بعيد عن شرعه، مسيء إلى خلقه، ولن تجدوا في الدنيا رجلاً ثالثاً أبداً، على اختلاف مشاربهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وانتماءاتهم، وأقوامهم، وأعراقهم، وعوائلهم.

موصولٌ بالله، منضبطٌ بأمره ونهيه، محسنٌ إلى خلقه، سعيدٌ في الدنيا والآخرة؛ منقطعٌ عن الله، مخالف أمره، مسيء إلى خلقه، شقيٌ في الدنيا والآخرة، هذا الذي كفر ما عرف الله عزَّ وجل، وكذَّب بالحق لمَّا جاءه، ولم يأتمر بما أمر الله، ولم ينتهِ عما نهى الله عنه، وأخذ ما ليس له، أعطى لنفسه كل شهواتها المشروعة وغير المشروعة، هذا هو الكافر ومات على الكفر.

القرآن الكريم فيه نبأ من قبلنا وخبر ما بعدنا :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا)

بعضهم قال: زمراً أي جماعاتٍ جماعات، وبعضهم قال: المرابون زُمرة، والزناة زمرة، والغشَّاشون زمرة، وشاربو الخمر زمرة، والأفَّاكون زمرة، والدعاةُ إلى الباطل زمرة، أنواع المعاصي الاعتقادية والقولية والسلوكية، هؤلاء زُمَر، فأصحاب دور اللهو هؤلاء زمرة، همُّهم الأول إفساد الأخلاق، الكذَّابون المفترون الذين يكيدون لدين الله عزَّ وجل زمرة، الشاذّون زمرة.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

إمعاناً في إذلالهم تُفْتَحُ أبوابها، متى؟ بعد أن يأتوها ويقفوا على أبوابها، بعد ذلك تفتح أبوابها.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

هذا من علم الغيب، هذا مما اختَصَّ به القرآن الكريم، القرآن الكريم فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، هذا الذي يتحدَّث القرآن عنه لم يقع بعد، ولكن رحمة الله بنا أن وضعت بين أيدينا هذه المشاهد، وهذه التفاصيل، وهذه المواقف، لنتخذ حذرنا من هذا اليوم الصعب.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا)

العقل أداة معرفة الله عز وجل :

عجيب الكون مسخر لكم تسخير تعريف وتكريم، العقل أداة معرفة الله، الفطرة تشعركم بخطئكم، الشرع بين أيديكم، الدعاة، العلماء الناصحون!! فالكون مع العقل مع الفطرة مع الشرع مع العلماء مع الدعاة مع الحوادث مع الانقباض النفسي مع التربية..

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

هنا المشكلة، الحُجَّة أقيمت عليهم، الإنسان أخذ من الله كل شيء، بقي عليه أن يستجيب له.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

[سورة التوبة: 38]

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِ رَبِّكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى :

الآيات الكونية، والآيات القرآنية، والآيات التكوينية، الكونية خلق الله، والقرآنية كلام الله، والتكوينية أفعال الله، وكلها آياتٌ دالةٌ على وجوده، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى كمالاته، وعلى وحدانيته.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

أمركم عجيب، كون ينطق بوحدانيته، ينطق بعلمه، ينطق بعدله، ينطق برحمته، ينطق بلطفه، ينطق بحكمته البالغة، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه إعجازٌ لا حدود له، سُنَّةٌ نبويةٌ ليس في الأرض بشرٌ كل كلامه حقائق إلا النبي عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله إلينا، وإلا بقية الأنبياء والمرسلين.

حديثان صحيحان، الأول رواه الإمام مسلم، والثاني رواه الإمام أحمد، في هذين الحديثين الشريفين يبين النبي عليه الصلاة والسلام أن في الإنسان ثلاثمئة وستين مفصلاً، ولو رجعتم إلى كتب التشريح الوصفي لوجدتم أن في الإنسان ثلاثمئة وستين مفصلاً، ومعطيات العلم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تُعطي هذا الرقم الدقيق، أليس هذان الحديثان الشريفان من الأدلة القاطعة على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام وعلى أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى؟ وأن النبي ليس إنساناً عبقرياً كما يصفه أعداء الإسلام إنه نبيٌ يوحى إليه؟ لأن العصر كله ليس في قدرته أن ينبئنا بعدد مفاصل جسم الإنسان، والحديثان صحيحان؛ الأول في مسلم، والثاني رواه الإمام أحمد، ولو عدنا إلى التشريح الوصفي لوجدنا مئة وسبعة وأربعين مفصلاً في العمود الفقري، ثلاثة وأربعون بالطرف العلوي ضرب اثنين، أربعة وأربعون بالطرف السفلي، اثنا عشر بالحوض، اثنان بالفك، مجموعها ثلاثمئة وستين مفصلاً، النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، هناك أدلة من كتاب الله عزَّ وجل تؤكد إعجازه، وأدلة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤكد أنه نبيٌ يوحى إليه، وهناك فطرة سليمة.

من عرف الله و استقام على أمره ارتاحت نفسه :

إذا عرفت الله عزَّ وجل، واستقمت على أمره، ترتاح نفسك، فإن لم تكن كذلك فأنت في ضيقٍ لا حدود له، فهذا دليل أيضاً، لا ترتاح نفسك إلا إذا أطعت الله عزَّ وجل، لا تسكن نفسك، لا يطمئن قلبك، لا تسكن نفسك إلا بطاعة الله، هذا دليل الفطرة، هناك دليل العقل، و دليل الفطرة، و دليل الحوادث.

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

هذا دليل ثالث، فهناك آيات كونية، و آيات قرآنية، و آيات تكوينية، الملائكة:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

في القرآن والسُنَّة حديثٌ طويلٌ عن يوم القيامة، وعن أهل الجنة، وعن أهل النار، وعن البرزَخ، وعن عذاب القبر، وعن الصَيْحَة، وعن النَفْخ في الصور، وعن الصراط، كله مذكور في القرآن الكريم:

(وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

والله الرسل جاءت، والكتاب بين أيدينا، والسُنَّة بين أيدينا، والكون ينطق بعظمة الله، وكل الحوادث تؤكِّد وحدانية الله.

الكون ينطق بعظمة الله و الحوادث تؤكِّد وحدانية الله :

أحياناً تسمع قصة تشعر بكل خليةٍ في جسمك أن الله كبير، وأنه موجود، وأنه عادل، وأنه يعلم، وأنه ينتقم من الظالم، وأنه يكافئ المحسن ويدافع عنه، العوام يعبِّرون عن هذا الشعور بكلمة: الله كبير. تسمع أحياناً قصة تهتز مشاعرك، يقشعر جلدك منها، الله موجود، هذه القصة آيةٌ من آيات الله.

مرة ذكرت قصة عن إنسان في طريقه إلى مكان، يمشي على طريق عريض في أيام الشتاء يقود سيارة، رأى كلباً صغيراً يَقْبَعُ على طرف الطريق طلباً للدفء - لأن الزفت يمتصّ الحرارة - فسائق هذه السيارة أراد أن يظهر لصديقه الذي إلى جانبه براعته في القيادة، فحاد عن منتصف الطريق ومال على هذا الكلب الضعيف وقص يديه، وأطلق ضحكة رنانة - أنه لم يقتله ولكنه قطع يديه فقط - يروي لي القصة الصديق الذي إلى جانبه وهو حيٌ يرزق وهو عندي صادق، قال لي: بعد سبعة أيام في الطريق نفسه، وفي السيارة نفسها، العجلة أصابها خلل، فتوقَّفَ على طرف الطريق، ورفع السيارة بالجهاز الذي في السيارة، وحَلَّ العجلة وأمسكها بيده، فكان هناك خطأ برفع السيارة فوقعت السيارة على العجلة، والعجلة على يديه من الرسغين، فهرست هذه العظام، ما إن وصل إلى المستشفى حتى

اسودت يداه، فلا بد من قطعهما من الرسغ بعد سبعة أيام، وراوي القصة حيٌ يرزق أعرفه، هو الذي كان في السيارة، الله كبير.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

في الدنيا ردع، أما في الآخرة فرصيد حساب، أحياناً تأخذ دفعة، لك مع شخص دين، فتأخذ دفعة في اليوم السابع عشر، دفعة ثانية، دفعة ثالثة، أما آخر دفعة فتكتب الرصيد، ثم يوقع، الرصيد يوم القيامة.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

الكون ينطق بوجوده، وكماله، ووحدانيته، والقرآن ينطق بوجوده، وكماله، ووحدانيته، والحوادث تنطق بوجوده، وكماله، ووحدانيته.

الله موجود ويعلم وسيحاسب :

أهم فكرة للاستقامة أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب. إذا أيقنت بهذه الأفكار لا بد من أن تستقيم على أمره، موجود..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

ويعلم:

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النحل: 91]

يعرف سلوكك، ونواياك، ومطامحك، وعقلك الباطن، والصراعات الداخلية، والخِطَط التي ترسمها، كله في علمه.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

عند الله مكرهم، أنت مكشوف عند الله عزَّ وجل، مادمت مكشوفاً كُن نظيفاً، مادمت مكشوفاً كن مخلصاً، مادمت مكشوفاً كن مطيعاً.

القوانين التي قننها الله عزَّ وجل طُبِّقت على الكافرين :

(قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

القوانين التي قننها الله عزَّ وجل طُبِّقت على الكافرين، مثلاً بالنظام الداخلي من يتخلّف عن الدوام في الجامعة أربعة أسابيع من دون عذر مبرر، يصدر قرارٌ بترقيم قيده من الجامعة، هذه قانون، هذه كلمة أي قانون، هناك طالب تخلف أربعة أسابيع عن الالتحاق بهذه الجامعة، فحقت عليه هذه الكلمة، أي انطبقت عليه هذه الكلمة، شملته هذه المادة، هذا المعنى..

(حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

هناك قوانين قننها الله عزَّ وجل، و سُنَن سَنَّها الله عزَّ وجل، هذه السنن وتلك القوانين:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

هذا قانون، هذا القانون حق على الكافر، أي انطبق على الكافر لأنه كذب بالحق، ولم يطع الله عزَّ وجل، واعتدى على الآخرين، فعدالة الله عزَّ وجل وحكمته وتأديبه يقتضي أن يعذِّبَهُ، هذا معنى:

(وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يوصل نفسه مع الله إلى طريقٍ مسدود :

الإنسان بعد أن يصل إلى هذا المكان لا ينفع لا البكاء، ولا العويل،

ولا الترجي، ولا الندم، ولا العتاب، انتهى، أخطر شيء في حياة الإنسان أن يوصل نفسه مع الله إلى طريقٍ مسدود، أي أن يموت كافراً، ما دام القلب ينبض فنحن في بحبوحة كبيرة جداً، ما دام فيه نبض، فهو حي، معنى هذا أن باب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، والصُلْحَة بلمحة، ما دام القلب ينبض وأنت حيٌ ترزق، بإمكانك أن تتوب من توِّك، من هذه اللحظة، وإذا تبت إلى الله توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيك والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياك وذنوبك، وإذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

أما بعد أن مات كافر، وختم عمله، وسيق إلى جهنم..

(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

هذا المكان المناسب، فالذي معه أمراض خبيثة، أين المكان المناسب له؟ المستشفى، هذا الإنسان مكانه الصحيح، المكان المناسب له المستشفى، أما الصحيح فمكانه النُزهة، مكانه الصحيح بيته، مكانٌ جميل يستمتع به.

الصورة المأساوية لأهل الكفر :

(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)

أبواب، من أي باب شِئْتُم، جهنم لها أبواب كثيرة، أبواب جهنم هي المعاصي، كل معصية هي بابٌ إلى النار.

(خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

تكبَّر على من؟ تكبر على الله، أبى أن ينصاع للحق، أبى أن يطيع الله عزَّ وجل، أبى أن يطلب العلم، أبى أن يأتمر بما أمر الله، أبى أن ينتهي عما نهى الله عنه، هذه الصورة المأساوية لأهل الكفر.

لن يتقي الإنسان الله إلا إذا عرفه وعندئذٍ يكافأ في الدنيا والآخرة :

لكن المؤمنين قال:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)

هؤلاء المتَّقون الذين عرفوا الله في الدنيا، فاتقوا أن يعصوه، اتقوا غضبه، اتقوا الشرك بالتوحيد، اتقوا الكفر بالإيمان، اتقوا المعصية بالطاعة، اتقوا غضب الله برضوانه.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

لن تتقي إلا إذا عرفت الله، تعرفه، تتقيه أن تعصيه، عندئذٍ تكافأ في الدنيا والآخرة.

الاختلاف بين سوق المتقين و سوق المجرمين :

(وَسِيقَ الَّذِينَ)

هناك آية أخرى تبين هذا السوق غير ذلك السوق، المتقون يساقون كالوفد، الوفد الرفيع المستوى حينما يأتي إلى بلدٍ بدعوةٍ رسميةٍ من عَلِيَّةِ القوم فيها، تجد السيارات جاهزة، والترحيب، والسجَّاد يفرش في الأرض، وكأس العصير في قاعة الشرف - فهكذا الوفود دائماً - تدخل بأبهى حلة، بأجمل مكان، بكل ترحيب، فسوق المتقين سوق الوفود، لا سوق المجرمين.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

هناك آية أخرى تبيِّن الفرق:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)

هناك دعاة إلى الله، وهناك محسنون، هناك من أنفق ماله، هناك من عبد الله، هناك من عمل الصالحات، أبواب العمل الصالح كثيرة جداً، المزكُّون، الحجاج، الصائمون، التائبون، العابدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، طلاَّب العلم، حُفَّاظ القرآن، الدعاة إلى الله، العلماء، المُجاهدون، هذه أبواب الخيرات زمراً.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا)

من باب التكريم:

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

من قبل مجيئهم، إذا كان وفد رفيع المستوى يصل ليجد من ينتظره ويكرمه، فالسجاد ممدود، وفتحت أبوابها، والأرض مفروشة، والأزهار متفتحة..

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

من قبل أن يأتوها إكراماً لهم، هذا الفرق حرف الواو..

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

إكراماً لهم..

المؤمن في الجنة في سلام أبدي :

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

أنتم في سلام، أنتم في سلامٍ أبدي، لم يبق مشكلة، الحياة كلها مشكلات، عندما يكبر الإنسان يعيش في قلق متسائلاً، يا ترى هل معي ضعف؟ معي نقص بالتروية؟ معي ضيق بالشريان التاجي؟ معي هبوط بأداء الكليتين؟ تصلب شراييني يا ترى؟ تشمع بالكبد؟ مليون خطر، لكن بالجنة انتهى لا توجد مشكلة.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

لا توجد مشكلة، لا بصحتك، ولا بزوجتك.

(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ)

كنتم في الدنيا طيبين، طابت نفوسكم بطاعة الله، طابت نفوسكم بمعرفة الله، وطابت بأعمالكم الصالحة، لأن نفوسكم طابت أنتم أهلٌ للجنة.

ملازمة القلق لأهل الدنيا لكيلا يتعلقوا بها :

(طِبْتُمْ)

قال بعضهم: طبتم بمعرفة الله. قال بعضهم: بطاعة الله. قال بعضهم: بعملكم الصالح. على كلٍّ المعاني كلها محتملة.

(طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

لا يوجد قلق إطلاقاً، لا يوجد إنسان في الدنيا إلا وهو يقلق، إن كان بمنصب رفيع يبذل جهده للحفاظ على منصبه، ويحسب ألف حساب لخصومه، وحُسَّاده، والوشاة، والمنافسين له، وإن كان ببيت فخم يخاف من نزع الملكية، وإن كان بمعمل فالقلق من معمل آخر منافس كيلا يخف البيع، دائماً هناك قلق، إن كنت ببحبوحة هناك قلق، إن كنت بصحة هناك قلق، هذا القلق يلازم الدنيا حتى الإنسان لا يتعلق بها، أما هناك:

(طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

إلى أبد الآبدين، فهذه الجنة الأبدية أيزهد بها من أجل سنواتٍ في الدنيا معدودة؟

الوقت و المال و الصحة عوامل السعادة في الدنيا للإنسان :

عوامل السعادة في الدنيا للإنسان؛ الوقت، والمال، والصحة، فالإنسان بأول حياته عنده وقت وعنده صحة ولكن لا يوجد عنده مال، يأتي بفترة عنده مال وصحة ولكن لا يوجد وقت، تأتي فترة ثالثة عنده وقت ومال ولكن لا توجد صحة.

بالضبط ثلاث مراحل؛ أول مرحلة المال، الصحة متوافرة، والوقت متوافر ولكن لا يوجد مال، فهذا الشاب ليس معه شيء، يأتي وقت يعمل ليلاً نهاراً، الصحة موجودة، والمال موجود ولكن لا يوجد وقت، لا يقدر أن يغيب عن محلّه ولا ساعة، بعد أن جمع ثروة طائلة، وسلَّم أولاده، وتقاعد، صار عنده وقت، ومعه مال ولكن أصبح في جسمه عشرون علة، هذه الدنيا.

أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري وتمرري وتضيَّقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي.

لاحظ الذي عمره تجاوز الستينات تجد خمسين علة بالجسم، لم يعد يتمتع بالحياة، هكذا طبيعة الدنيا كلها متاعب، لذلك لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربه.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ)

المؤمن في الدنيا يحمد الله على أنه عرف الله :

قد أتصور أنه لا توجد ذرة بجسم المؤمن يوم القيامة إلا ويحمد الله بها، والله المؤمن في الدنيا يحمد الله على أنه عرف الله، سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: "الحمد لله ثلاثاً؛ الحمد لله إذ لم تكن في

ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها ". ما دام دينك سليماً، لا تعصي الله، مستقيم على أمر الله، فأنت ملك من ملوك الأرض، أما يوم القيامة فيرى الجنة للأبد، لا توجد مشكلة، هو بالدنيا عرف الله..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ*فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ*إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

[سورة الطور: 26-28]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

خالق الكون في كتابه الكريم المُعجز أخبر الإنسان بأن هناك جنة و نار ووعد ووعيد :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

كلام خالق الكون، فهو يقول لك: هناك جنة وهناك نار، هناك عذاب وهناك برزخ، هناك قبر، وهناك صراط مستقيم، وهناك حوض، وهناك صحف تنشر، فهذا كلام ألا تأخذه مأخذ الجد؟ عجيب أمر الإنسان، كلام خالق الكون، الآن صدر قرار من خمس كلمات فرفع سعر السيَّارة مئة ألف ليرة، خمس كلمات فقط، معنى هذا أن الناس صدقوا، أنت تصدق إنساناً إذا أعطاك تصريحاً من خمس كلمات، فترتفع الأسعار وتنزل الأسعار بتصريح كلمات، وخالق الكون في كتابه الكريم المُعجز يقول لك: هناك جنة، وهناك نار، وهناك حساب، وهناك عذاب، وهناك سؤال، وهناك وعد، وهناك وعيد.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

من آثر طاعة الله على حظوظ نفسه ربح الدنيا و الآخرة :

الله قال هناك جنة. فهذه الجنة ولحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل المؤمنون يَرِدُون النار ولا يدخلونها، ورود النار أن ترى أهل النار، وأن ترى شدة العذاب لو لم تكن مؤمناً من أجل أن تزيد سعادتك في الجنة.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

أضرب مثلاً: طبيب لامع جداً يستقبل باليوم عدداً كبيراً من المرضى، وله دخل كبير بالآلاف، فمن أين جاءه هذا الدخل الكبير؟ من عمر مديد أمضاه في الجامعة حينما كان طالباً في الجامعة، سهر الليالي الطويلة، وتحَمَّل مشاق الامتحان، وهموم الدراسة، وصبر على الأساتذة، وعلى موادِّهم الصعبة، وكذا وما فيها من نعيمٍ مقيم أساسه..

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

نحن في الدنيا عرفنا الله، كان هناك شمس وقمر ونجوم، وليل ونهار، وكسوف وخسوف، ومطر ورياح، ونباتات، وحيوانات، واسماك، وأطيار، وخلق الإنسان، هذا كلّه فكَّرنا فيه، وهناك قرآن قرأناه، وحفظناه، وفهمناه، وحضرنا مجالس العلم..

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

وكان لنا زوجة، وربينا أولادنا، وعلمناهم القرآن، وحفظناهم القرآن، ودائماً أمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ودعونا إلى الخير.

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

هذا النعيم المقيم لأننا في الدنيا تعرفنا إلى الله، وفي الدنيا أطعنا الله، وفي الدنيا تقرَّبنا إلى الله، وفي الدنيا بذلنا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وفي الدنيا وضعنا أنفسنا تحت أقدامنا إرضاء لله عزَّ وجل، وفي الدنيا آثرنا طاعة الله على حظوظ أنفسنا، وفي الدنيا كظمنا غَيْظنا، وفي الدنيا أنفقنا مالنا..

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

فأي إنسان لو حقق نجاحاً كبيراً في الدنيا، كلما تمتع بثمرات نجاحه يتذكر الأيام الصعبة التي تجاوزها حتى أعدّ نفسه لهذا النجاح، لا يوجد إنسان ينجح نجاحاً ملموساً في الحياة إلا ويذكر دائماً الأيام الصعبة التي هيأ نفسه لهذا النجاح.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

اختلاف نظام الجنة عن نظام الدنيا :

نظام الجنة نظام آخر غير الدنيا، لهم ما يشاؤون، كلما خطر في بالك شيء تراه أمامك، هذا نظام الجنة، دار إكرام، هنا دار كدح..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الإنشقاق: 6]

الواحد منا لا يصل إلى بيت مؤلف من غرفة ومنافعها في مكان بعيد إلا بعد جهد جهيد، ويكافح طويلاً ليصل للزوجة، ويصل للمنصب، ويصل لدخل ثابت، هكذا الحياة، مبنية على الكدح، مبنية على بذل الجهد، مبنية على تحمُّل المشقة؛ أما الآخرة فمبنية على الإكرام، لهم ما يشاؤون إذاً معنى كلمة:

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

أي أن هذا النعيم المقيم ثمنه كان في الأرض معرفة بالله، وطاعة له، وإقبالاً عليه.

أساس الجنة العمل وليس الكلام :

الآن..

(نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

الجنة مبنية على العطاء بلا كَدْح، بلا سعي، بلا جُهد.

(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

معناها الجنة أساسها العمل وليس الكلام، العمل..

(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

الذين عملوا في الدنيا يستحقون هذا النعيم المقيم في الآخرة.

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)

والملائكة أيضاً حول العرش امتلأت قلوبهم حباً لله عزَّ وجل، وتعظيماً له، وتسبيحاً له.

(وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ)

بين الخلق كلهم.

الحمد لله رب العالمين ملخَّص مشاعر الخلق جميعاً يوم القيامة :

(وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ملخَّص مشاعر الخلق جميعاً يوم القيامة الحمد لله رب العالمين، لأن كل شيءٍ وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، فكل ما فعله الله محض خير، ولو بدا لنا أنه شر، هذا معنى قوله تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

كله خير، فهذا الكلام لسان حال كل الخَلق يوم القيامة، لذلك بعضهم يقول: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه. الشيء الذي يبدو لك مكروهاً هو محض فضلٍ ومحض خير.

(بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (01-20): تفسير الآيات 1- 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-06-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعدُ، فيا أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة غافر.

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم)

حم

1 ـ معنى حم:

و(حَم) كما يقول المفسِّرون: الله أعلم بمراده.

ويقول بعض المفسِّرين: إنها أوائل أسماء الله الحسنى.

ويقول بعضهم الآخر: إنها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ويقول فريقٌ رابع: إن القرآن الكريم قد نُظِمَ من هذه الأحرف، والأحرف بين أيديكم، فحينما تجلّى الله على هذه الأحرف فجعلها كلاماً مُعجزاً.

2 ـ الحروف المتقطعة من إعجاز القرآن:

إذاً دليل إعجاز القرآن الكريم، أن هذا القرآن الكريم الذي فيه إعجازٌ علمي، وإعجازٌ بياني، وإعجازٌ بلاغي، وإعجازٌ تشريعي، وإعجازٌ أخباري، إذا قرأت القرآن متدبّراً، وإذا قرأت القرآن متأمِّلاً تشعر أنه لا يمكن أن يكون هذا الكلام إلا كلام الله عزّ وجل، تؤمن أن هذا الكلام كلام الله من خلال إعجاز القرآن الكريم، فهو من حروفٍ بين أيدي البشر، وقد تحدّى الله البشر جميعاً على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، أو أن يأتوا بسورة مثله أو بسورة من مثله.

على كلٍ، هذه التوجيهات الأربعة في تفسير هذه الحروف وردت في تفاسير كثيرة، ومرّاتٍ كثيرة، إما أنك تفوّض أمر معناها إلى الله عزّ وجل، وتقول كما قال بعض المفسِّرين: الله أعلم بمراده، وإما أن تجتهد، وتقول: لعلّها أوائل أسماء الله الحسنى، وإما أن تقول: لعلّها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حامدٌ ومحمود، وإما أن القرآن الكريم من جنس هذه الأحرف، وقد يعلم قارئ القرآن

ومتدبّره أن فيه إعجازاً، ومعنى الإعجاز أن البشر مجتمعين يعجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا من حيث نظمه، ولا من حيث ما فيه من تشريعاتٍ حكيمة، ومن أخبارٍ صادقة، ومن إعجازٍ علمي، وإعجازٍ تربوي، وإعجازٍ تشريعي، إلى ما هنالك.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

أيْ أنّ هذا القرآن الكريم من عند الله العزيز العليم، فكلّما قرأت آية من آياته، وسورةً من سوره يجب أن تستحضر هذه الحقيقة، أنك مع كلام الله، وأنك مع كلام خالق الكون، أنك مع الكلام المطلق في صوابه، المطلق في صدقه، المطلق في بيانه، فكلّما نما إيمانُ الإنسان ينمو مع إيمانه تعظيمه لكلام الله عزّ وجل، المؤمن يتعامل مع كلام الله تعاملاً في أعلى درجات التقديس والتعظيم، تقرأ القرآن فتشعر بكل خليّةٍ من خلاياك، وبكل شعرةٍ في جسدك، وبكلِ نقطةٍ في دمك أن هذا الكلام كلام الله.

لكن إذا فهمت تأويل الآيات، ووضعت يدك على مواطن الإعجاز، ولمست عظمة النظم القرآني، ودقّة الصياغة البيانيّة، ودقّة الأمر والنهي، تعلم علم اليقين أن هذا القرآن كلام الله، ولا يكمل إيمان إنسان ما لم يتنامَ إحساسه بقدسيّة هذا الكلام، ولا يكون الإنسان مؤمناً ما لم يؤمن أن القرآن الكريم حقٌ من عند الله عزّ وجل.

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا

إذا كان يخطر في بال إنسانٍ أنّ في القرآن آية لا تصلح لهذا الزمان فهذا نوع من التكذيب، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

ذات مرّةٍ أخ قال لي: إن غضّ البصر صعب، قلت له: اسمع هاتين الآيتين.

الآية الأولى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

قال لي: هذا صحيح، قلت له الثانية:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

الأولى تكليفٌ واضح الدلالة، قطعي الدلالة، وهذا التكليف ليس متعلِّقاً بزمن دون آخر

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ)

في أي زمان، في أي مكان، والأجر الآن يزداد كثيراً، فكلّما كثرت الفتن، وكانت النساء كاسياتٍ عاريات ازداد الأجر، وغضُ البصر من وسع الإنسان، لقول الله عزّ وجل:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

أضعف ما في الإيمان أن تتوهّم شيئاً يخالف القرآن، إذا توهّم الإنسان أن بعض آيات القرآن التكليفيّة فوق طاقة البشر فهذا نوعٌ من أنواع التكذيب، وأنت لا تدري، حينما قال الله عزّ وجل:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

الذي يقول لك: ماذا أفعل ؟ الحياة صعبة، والناس كلُّهم هكذا، كل تعاملهم ربوي، ماذا أفعل ؟ إذا صدّقت كلام الله عزّ وجل حينما قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من الآية 279)

فعليك أن تستجيب لأمر الله وأن تكف عما يقوله الناس، وما يفعلونه.

ما من أمرٍ إلهيّ توعّد الله مخالفه بالحرب إلا موضوع الربا، فكلّما تنامى إيمان الإنسان تنامى معه إيمانُه بقدسيّة هذا الكلام، بأحقيّة هذا الكلام، لأن الكلام شرفه من شرف قائله.

((فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى كَلامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[من سنن الدارمي عن شهر بن حوشب]

شرف الكلام من شرف قائله، الإنسان العظيم يتكلّم كلمة، لهذه الكلمة أثر كبير جداً، فكلّما قلّت قيمة القائل قلّت معها قيمة القَول، وكلّما ارتقت قيمة القائل ارتقت معها قيمة القول، فإذا رأيت أن هذا الكلام كلام الله ؛ منهجٌ قطعي الثبوت، منهجٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقد صحّ إيمانك، والحقيقة هي أنّ ما تتخبّط به البشريّة اليوم، وما تعانيه البشريّة اليوم من أزماتٍ وأزمات، ومن ظلمٍ شديد، ومن أعمال عنفٍ لا تحتمل، كلها بسبب مخالفة منهج الله عزّ وجل، هذا المنهج من طبّقه سَعِدَ في الدنيا والآخرة، والدليل قول الله عزّ وجل:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذه الآية مُطلقة، ومطلق القرآن على إطلاقه، للتي هي أقوم في كل شيء ؛ طبّقه في علاقاتك الزوجيّة، طبّقه في كسب المال، طبّقه في إنفاق المال، طبّقه في كل نشاطٍ من نشاطات الإنسان:

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

أيها الإخوة قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه)

اتباع القرآن هدى، ومخالفته ضلال:

إذاً فليَعلم الإنسان أنّ كل أنواع الضلال بسبب عدم اتباع القرآن الكريم، كل أنواع الشقاء بسبب عدم اتباع القرآن الكريم، قال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

هذا الخوف الذي يأكل قلوب البشر، هذا القلق الذي ما بعده قلق، هذا الخوف من المجهول، هذا الخوف من المستقبل، هذا القلق المدمِّر بسبب عدم اتباع القرآن الكريم.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

فبعض الثمار اليانعة: أنك إذا اتَّبعت القرآن الكريم لا يضلُّ عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تخاف مما هو آت، ولا تندم على ما فات، فماذا بقي إذاً ؟ قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة يونس)

الشرك سبب للأمراض النفسية:

فسَّر النبي هذه الآية بأن هؤلاء الأولياء لا يحزنون إذا حزن الناس، ولا يخافون إذا خاف الناس.

إذّا: هناك خوف عامٌّ هذه الأيام، و حزن عامٌّ، نسمع أحيانا عن واحد بعيد عن الله نَجده كتلة من التشاؤم، كتلة خوف وقلق، يخاف من المجهول، يخاف من المستقبل، قال النبي عليه الصلاة والسلام حينما وصف أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون، إنهم لا يخافون إذا خاف الناس، لأن الناس عندهم شرك، ماذا يعني الشرك ؟ أي أن مصيرك بيد عدوّك، معنى هذا أن الشرك صعب جدا، شيء لا يحتمل، هذه الفكرة وحدها تسبّب أزمة نفسيَّة، وقد تسبّب أزمةً حتى في جسم الإنسان، في أعضائه الأساسيَّة، إذْ ترى أن مصيرك بيد إنسان ولابدّ من أن ينتقم منك، لابدّ من أن يأخذ منك كل شيء، لابدّ من أن يذلّك.

إذًا الشرك وحده يسبّب أشد الأمراض فتكاً بالإنسان، والتوحيد سر سعادة الموحِّد، إذ يعلم أن أمره كلّه بيد الله، وأن علاقته مع جهة واحدة، أما علاقة أهل الدنيا فمع آلاف الجهات، فاعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها.

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال]

فحقيقة الفلاح تكمن بالإيمان الحقيقي، وأذكركم دائماً بهذه الفكرة: قال لك إنسان: الدكتور فلان، فما معنى دكتور ؟ في العرف العالمي، وعرف الجامعات معنى دكتور أي أنه بلغ أعلى درجة في العلم تقريباً، لأن الليسانس أو الإجازة تعني أنه درس كل شيء في هذا العلم، أما الدكتوراه فتعني أنه أبدع في هذا العلم، قدّم بحثاً فريداً، قدّم شيئاً لم يُسْبَق إليه، فمعنى دكتور أن هذا مكث ست سنوات أو سبعًا ليعدّ أطروحة، وناقشها كبار العلماء ممن يحملون كبرى الشهادات مناقشة عالميّة، وكتب فصولاً، وأعاد فصولاً، وعنده شتى المراجع التي تتجاوز المئات، وبقي سنوات عديدة في كتابة هذه الأطروحة، هذا معنى دكتور، وقبلها تقدم لشهادة الماجستير، وقبلها تقدم لفحوص الدبلوم، وقبلها نال الليسانس، وقبلها نال الشهادة ثانويّة.. الخ، فكلمة دكتور تعني أن هذا الإنسان مرّ بمراحل علمية وأمضى سنوات طويلة في طلب العلم، وتجاوز وتخطّى عقبات صعبة جداً، وبلغ درجة عالية من التفوُّق.

لكن كلمة مؤمن هي هدف كلٍّ منا حقًا، فما معنى مؤمن ؟ أي أنّ هذه أعلى مرتبة في البشريّة، مؤمن بربّه، مؤمن بخالقه، متى آمن ؟ هل من الممكن إنسان يُعْطَى لقب دكتور دون أن يفتحَ كتاباً ؟ ولا قرأ رسالةً ؟ ولا سهر ليلةً ؟ هذا كلام فارغ، فإذا قلنا: فلان مؤمن، فمتى آمنت ؟ لابدّ من طلب العلم، لابدّ من تفكّرٍ في خلق السماوات والأرض، لابدّ من فهمٍ لكتاب الله عزّ وجل، لابدّ من اتباع الحق والابتعاد عن الباطل، هذا معنى مؤمن، فكلمة مؤمن أي أنّه وصل لإدراكِ أنْ يرى ما لا يراه الناس، يشعر بما لا يشعرون، إذا خاف الناس فهو لا يخاف، ألم يقل الله عزّ وجل:

(إنّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

هذا ضعفٌ في خلقه ولمصلحته.

(إذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إلا الْمُصَلّينَ)

(سورة المعارج)

معنى هذا أن المصلي الذي آمن بالله حقًا، واتصل به قلبًا وروحًا، هذا ليس جزوعاً ولا منوعاً، ولا هلوعاً.

(الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقّ مَعْلُومٌ (24) لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالّذِينَ يُصَدّقُونَ بِيَوْمِ الدّينِ (26) وَالّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إنّ عَذَابَ رَبّهِمْ غَيْرُ

مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(35))

(سورة المعارج)

إذاً: موطن الشاهد:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

أراك أحيانا تقول لي: أنا مؤمن، إلاّ أنني لا أراك متميِّزا عن بقية الناس، فأنت تخاف إذا خافوا، وتحزن إذا حزنوا، وتفزع إذا فزعوا، وتنهار أعصابك إذا انهارت أعصابهم، وتشعر بالقهر كما يشعرون، وتشعر بالحيف والظلم كما يشعرون، وأنه لا أمل لك في الخلاص، وأن المستقبل مُظلم كما يخيّم على الناس هذا الشعور السوداوي أفأنت مؤمن بعد كل هذا ؟!! لا ورب الكعبة، أنت تكون مؤمنًا ؛ إذا علمتَ حقّا أنّ الأمر كلّه بيد الله، وأن يدَ الله فوق أيديهم، مؤمن بأنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بعلم الله ومشيئته، مؤمن بأن كل ما يجري وفق عدالةٍ مطلقة، عرفت طرفاً منها، وغابت عنك أطرافها الأخرى ـ هذا المؤمن ـ أنت مؤمن إذا علمت أنّ الله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا بالخير، مؤمن بأن الله عزّ وجل حينما قال:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: من الآية 26)

فإن أيقنت حقيقة ما تضمنته الآية كنت مؤمنا.

تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ

إن الله تعالى لم يقل: والشر، بل قال:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

لأن إيتاء المُلك ونزع الملك، والإعزاز والإذلال خيرٌ مطلق، وما كلمة شر إلا مفهومٌ نسبي، فإذا رأى الأب ابنه على مشارف الامتحان يلهو بلعبةٍ، وربّما ضيّع مستقبله بأكمله أو على الأقلّ عامه الدراسي، فإذا حطّم الأب هذه اللعبة لإدراكه بخطورة هذا الامتحان، فتحطيم اللعبة في نظر العقل القاصر شر، أمَا هو في نظر الأب فمحض خير.

فربنا عزّ وجل يضحِّي بالأموال، يضحي بالمُمْتَلَكَات أحياناً، يضحي بحريّة الإنسان، و كأنه يقول لك أحدهم: بقيتَ عشر سنوات في معاناة قاسية.

حينما سلب الله حرية الإنسان عشر سنوات إذ أدخله مدرسة المعاناة، لكنه خرج بعدها إنساناً آخر ذا نظرة لوجوده صائبة مؤمنة، فالله عزّ وجل من أجل أن تؤمن، ومن أجل أن ترقى، ومن أجل أن تعرف، ومن أن تستقيم، ومن أجل أن تعرف سر وجودك، ربما يضيع جزءٌ من مالك، جزءٌ من حريّتك، جزءٌ من وقتك، هذه كلُّها مصائب هدفها صلاح النفس.

إذاً:

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

كيف يشهد الله أن هذا القرآن كلامه ؟

فشعور المؤمن يجب أن يرقى إلى مستوى إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما قال سيدنا سعد: **<< ثلاثٌ أنا فيهنّ رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس ؛ إحدى هذه الثلاث: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى.. >>.**

اليوم خطر لي أنه لو فرضنا أن واحدًا دخل إلى صف، وقد كُتِبَ على السبورة: غداً الساعة الأولى مذاكرة في الرياضيات، يا ترى هذا الكلام صحيح ؟ هذا الخط هل هو خط المدرّس ؟ الخط جيّد، وهو يشبه إلى حدٍ كبير خطّ المدرّس، لعلّه طالبٌ له خطٌ مشابهٌ لخطه كتب هذه العبارة، لكن ما الدليل القطعي على أن المذاكرة غداً الساعة الأولى ؟ غداً ! فحينما يأتي الغد، ويدخل أستاذ الرياضيات، ويقول للطلاب: ضعوا كل شيء في الأدراج، وافتحوا أوراق المذاكرة تمهيداً لإلقاء الأسئلة، فشأن هذا المدرّس يؤكِّد الكلام الذي كُتِبَ البارحة.

فالقرآن الكريم كلام الله، لكن كيف يشهد الله أن هذا الكلام كلامه ؟

1 ـ الحياة الطيبة والحياة المريرة:

ذكرت أن الحياة الطيّبة التي يحياها المؤمن هي شهادة الله له أن القرآن كلامه، فعندما قال ربنا عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

الحياة الطيّبة ذاتها التي هي من فعل الله عزّ وجل، وهي شهادة الله لك أيها المؤمن أن هذا القرآن كلامه. فإذا أعرض إنسان عن ذكر الله ؛ كأن ترك الصلاة، أو صلّى صلاة شكليّة، وأطلق بصره في الحرام، وأصبحت حياته قطعة من الجحيم، مشاحنة في البيت، وشقاء زوجي، وفي عمله متاعب متواصلة، ويعاني من إخفاقات، وإحباطات، والأمور كلها ضدُه، فتجده يقول: ما هذه الحياة المريرة ؟ فهذه المعيشة الضَنَك التي يحياها المُعْرِضْ هي شهادة الله لك أيها الإنسان أن القرآن كلامه.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: من الآية 124)

2 ـ أفعال الله مع العاصين والمنحرفين:

إذا تعامل إنسان تعاملًا ربويًا، وأمواله صُودِرَت، أو أُتْلِفَت، أو تعرض لخسائر فوق طاقته، وتألّم حتى العظم، هذا ما جرى معك من إتلاف المال وضياعه، شهادة الله لك بقوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرّبَا)

(سورة البقرة: من الآية 276)

أما إذا أنت تصدّقت، وتحاشيت أن تكسب كسباً حراماً، والله نمّى لك مالك، هذه التنمية للمال شهادة الله لك.

(وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ)

أيها الإخوة... لا بدّ أن يشعر كلّ منكم أن يجري في الأرض ما هو إلا تأويلٌ لكلام الله عزّ وجل، أنت معك كلام الخلق، فانظر لمجرى الأحداث المحيطة بك، أكاد أقول لكم: إن المؤمن يكاد يستشف الغيب، هو لا يعلم الغيب، ولا يعلمه أحد أساساً، لكن قوانين الله تعالى ؛ بل قل: سننه في خلقه، أنّ من كسب مالاً حراماً أتلفه الله، ومن اتقى الله أكرمه الله، من كان صادقاً وثق الناس به، من خان الناس أتلف الله ماله وحطّ مكانته، تكاد ترى أن هذه القوانين كلُها تجري، والأحداث كلُها تؤكِّدها.

إذاً: هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(بَلْ كَذّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس: من الآية 39)

3 ـ وقوع الوعد والوعيد:

تأويل القرآن الكريم الحقيقي وقوع وعده ووعيده، وَعَدَ الله عزّ وجل، فوقوع الوَعْد هو التأويل، أوْعَد ؛ فوقوع الوعيد هو التأويل، وعَد المؤمن بالنصر ؛ فالنصر هو التأويل، وعَد المؤمن بالحفظ ؛ فالحفظُ هو

التأويل، وعَد المؤمن بالتمكين فالتميكن هو التأويل، وعد العاصي بالعقاب فالعقاب هو التأويل، و الآن عود على بدءٍ - فعندما كتب المدرّس: غداً الساعة الأولى مذاكرة في الرياضيات، تأويل هذا الكلام يأتي يوم الغَد، حينما يدخل المدرّس ويقول: ضعوا الكتب في الأدراج، وافتحوا أوراق المذاكرات، الآن نبدأ مذاكرة، حينما بدأت المذاكرة هذا أدقُّ تأويلٍ لها، وأدقُّ تصحيحٍ، وقطْعُ الشكِّ باليقين:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

القرآن من عند العزيز العليم:

فكل واحد منّا إذا كان بوظيفة معيّنة، فأحياناً يأتيه كتابٌ من زميله محولٍ إليه مثلاً، وكتابٌ آخر من رئيس دائرة أيضا محال إليه تجده يهتم أكثر بكتاب رئيس الدائرة، فكلّما ارتفع مصدرُ الكتاب تجد الاهتمام به أكثر، لو جاءه كتاب موقع بالأخضر من الوزير يهتم اهتمامًا بالغًا فيه، ويمكن على الفور أن يترك كل أعماله، ويحاول تنفيذ هذا التوجيه، وإذا وقف أمام عقبة على الفور يستأذن، ويدخل، ثم يقول لمن يمنعه: الكتاب موجه من السيد الوزير، فماذا نفعل ؟
إذًا كلّما كانت جهة التوقيع ذات مستوى أعلى يصبح الاهتمام أكثر، فأنت عليك أيها المؤمن أن تشعر دائماً أن هذا القرآن.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

هذا الكتاب ليس ككل كتاب، نعم هو كتابٌ ولكنه كتاب خالق الكون، وبعد فمن هو العزيز العليم ؟

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ

ورد في كتب التفاسير أن سيدنا عمر رضي الله عنه، بلغه أن أحدًا ممن كان في صحبته قد سافر إلى بلاد الشام وانحرف، وارتكب بعض المعاصي، فسيدنا عمر أرسل إليه رسالة، و إليكم الخبر كما ورد.

قصة وعبرة:

روي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه افتقد رجلاً ذا بأسٍ شديد من أهل الشام، فقيل له: **" تتابع في هذا الشراب يعني انغمس في الشراب - "**، فقال عمر لكاتبه: **" اكتب: من عمر إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمد الله إليك - وهذا لشارب خمر "**. فإذا كان للإنسان صديق زلّت قدمه، ترك الصلاة، انحرف، ارتاد دور اللهو، شرب الخمر، فلا ينبغي أن يبتعد عنه، لا ينبغي أن يقول: هذا

الإنسان ضل وانتهى أمره، فأين أمَلُك بالله عزّ وجل ؟ انظر إلى هذا الخليفة العظيم عملاق الإسلام، لم يقل عن صاحبه: انتهى، بل أرسل له رسالة ـ قال له: **" أمّا بعد ؛ من عمر إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم:**

(حم(1)تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(2)غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

ثمّ ختم الكتاب وقال لرسوله: **" لا تدفعه إليه إلا إذا وجدته صاحياً ـ أما إذا كان سكران فاتركه ـ إذا وجدته صاحياً ادفعه إليه "**، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة ـ فدعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يُرَد ـ فلمّا أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول: **" قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه "**، فلم يبرح يردِّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع ـ أي أنه نزع عن شرب الخمرـ وتاب توبة نصوحًا، وحسُنَت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: **" هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم زلّ زلّة، فسدِّدوه وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا يكن أحدكم عوناً للشياطين عليه".**

القصّة بليغة فيها توجيه دقيق. فأحياناً أخ يترك الصلاة، وبعد ذلك ينغمس في الملذّات، إخوانه يبتعدون عنه لأنه ضل، لا، ثم لا. بل يجب أن تصلوه، وأن تزوروه، يجب أن تتفقّدوه ليشعر بالعطف، وبالرحمة منكم ويدري أن له إخوة يقبلون عثرته. يقال: إن الإمام مالك بن دينار كان يمشي في الطريق، فرأى رجلاً سكران وقد وقع مغمياً عليه، والزبد وآثار الخمرة على فمه، وهو يقول: **" الله الله "**، وهو في غيبوبة، فكبُر على هذا الإمام العظيم أن يخرج هذا الاسم من فمٍ نجس، فجاء وغسل فمه، فلمّا صحا من سباته قيل له: **" أتدري من الذي غسل فمك ؟ قال: لا، قالوا: الإمام مالك بن دينار بنفسه "**، يبدو أن الله سبحانه وتعالى أذِنَ له بالتوبة، فتاب توبة نصوحا، وصلّى الفجر يوما في المسجد الذي يصلي فيه مالك بن دينار.

فرأى مالك بن دينار الإمام العظيم إنسانًا يبكي أشدّ البكاء في صلاته، ولعله نسي ما جرى بالأمس القريب فقال: **" يا هذا من أنت ؟ "** قال: **" الذي هداني أخبرك بحالي "** فُيروى أن مالكًا رأى في المنام أن قائلاً يقول له: **" يا مالك طهّرت فمه من أجلنا فطهّرنا قلبه من أجلك ".**

أي أن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب لا ترد، إذا كان لك أخ ضَل، أو إنسان له ابن ضل، فدعاء الأب والأم وإخوته له بالهدى إذا صدر من قلبٍ مخلص، لعلّ الله سبحانه وتعالى يستجيب، ولعلّ الله سبحانه وتعالى يليّن قلب هذا الشارد.

على كلٍ، إنّ الإنسان إذا وقعت له مع أخٍ مشكلة، أو رأى أن أخاه قد زلّت قدمه فهو أمام خيارين ؛ إما أن يكون عوناً للشيطان عليه، يشهّر، يغتابه، يشمت فيه، ينشر الفضيحة بين الملأ جميعاً، فهذا الذي زلّت قدمه يزداد بُعداً وانحرافاً ومعصيةً وعناداً، ماذا فعلنا معه ؟ كنّا عوناً للشيطان عليه، أما إذا تلقّفناه

بالرحمة، وعالجناه بالصبر وكتمان الأمر، مع ستره، وعدم إذاعة سرّه، وزرناه ووصلناه، لعلّ قلبه يلين، ولعلّه يشعر بحب المؤمنين من إخوانه ووفائهم نحوه فيفيءَ إلى رشده.

سيدنا عمر جعل هذه الآيات الأولى من سورة غافر موضوعاً لرسالة بعث بها لصديقٍ له في الشام زلّت قدمه، وانغمس في شرب الخمر.

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

غَافِرِ الذَّنْبِ

إني أردت ولو لمرّةٍ واحدة أن تشعروا بقيمة دقّة اللغة العربيّة في فهم كلام الله عزّ وجل، ربنا قال:

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

1 - معنى الذنب:

الذنب: قالوا: ذَنَب الدابّة وغيرها معروف، الذنب معروف، الذنب من الذَنَب، ويُعبَّر به عن المتأخِّر والرَذِل من العمل، عملٌ متأخِّر فيه تخلُّف، َعملٌ رَذِل يعبّر عنه بالذنب، يقال: هم أذنابُ القوم، أي أن الإنسان السخيف والتافه، والحقير والمنحط، غير الأخلاقي، يوصف بأنه: من أذناب القوم، وفي تعبير حديث يقولون: هو من أذناب الاستعمار.

وعبّروا أيضا بالذنب عن الحبل، فقال تعالى:

(إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ)

(سورة الذاريات: من الآية 59)

وذَنَبَ الشيء أي أخذ بذَنَب الشيء، ويستعمل في كل فعلٍ عاقبته سيّئة، كل فعلٍ عاقبته سيئة يقال له: ذنب، هنا موطن الشاهد.

تعريف الذنب إذاً هو الفعل الذي له عاقبة سيئة، ربّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً، فأحياناً الإنسان تزل قدمه بساعة، أو أقل من ساعة، يتحمّل آلامًا، يتحمّل عواقب أمراض وبيلة، وأمراض عضالة ما لها شفاء، ألا يا رُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً.

فما هو الذنب ؟ هو فعل يندم عليه فاعله بعد حين، هو فعل له عواقب وخيمة، هو فعل مرذول محتقر بين الناس، هذا هو الذنب ؛ الخيانة ذنب، الكذب ذنب، العدوان على أموال الناس ذنب، العدوان على أعراضهم ذنب، فالذنب هو عملٌ عاقبته وخيمة، كيف أن الذَنَب شيء مسترذل محتقر، مؤخِّرة الشيء، عضوٌ تافة لا شأن له، فالذنب هو الفعل الذي له عاقبة وخيمة، هذا التعريف اللغوي.

إذا فعل الإنسان المنكر فالله عزّ وجل له بالمرصاد، أكل مالًا حرامًا فالله عزّ وجل له بالمرصاد، أنفق إنفاقًا في معصية الله فالله عزّ وجل سيعاقبه، إذاً كل عملٍ عليه تبعةٌ ومسؤوليّة، كل عملٍ له عاقبةٌ وخيمة هو ذنب ؛ أما العمل الطيّب فعاقبته طيّبة، فلو سلك إنسان الطريق الصحيح، و سلك في حركته اليوميّة وفق منهج الله عزّ وجل فليس لديه مشكلة، وليس له ما يخيفه، أما لو أكل مالاً حراماً، أو حلف يميناً كاذبة، أو زوّر وثيقةً، أو أدلى ببيان كاذب، ثم كُشِف أنه كذب فهذه مشكلة كبيرة جداً، لذلك:

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

2 ـ التوبة ملازمة للذنب:

أي إذا فعل الإنسان فعلاً له عاقبةٌ وخيمة، فالله سبحانه وتعالى في مثل هذه الظروف يذكّر عباده بالتوبة، فالتوبة كأنها حبلٌ يتمسّك به الغريق، كأنها صمّام أمان إذا ازدادت الضغوط على الإنسان، فلئلا ينفجر فعليه بالتوبة فهي نافذة النجاة، حبل النجاة لمن غرق في ذنوبه، وصمّام الأمان إذا ضغطت عليه سيئاته، والمنهج الصحيح يلوذ به إذا زلّت قدمه، فالتوبة تلازم الذنب، لأن كل بني آدم خطّاء، ذلك بأنّ الله أودع في الإنسان شهوات، ووضع له منهجًا، فإذا تحرّك وفق المنهج فشهواته قوى محرّكة تدفعه نحو الأمام، لكن هذه الشهوة لو تحركتَ من خلالها بخلاف منهج الله عزّ وجل فهناك العواقب وخيمة، فشهوة النساء هذه لها قناة نظيفة، وهي ما شرعه الله لعباده عن طريق الزواج، هذه الشهوة ليس لها مصرف إلا هذه القناة، بهذه القناة تجد زوجة طاهرة، مؤمنة، مستقيمة، تسعدك إذا نظرت إليها، تحفظك إذا غبت عنها، تطيعك إذا أمرتها، تنجب لك أطفالاً هم زهرة حياتك، هذه الأسرة تنمو، فإذا بالأطفال قد كبروا، ثم أصبحوا عوناً لأمّهم وأبيهم، فجاءك أصهار مؤمنون، انظر إلى أساس المشروع فهو مشروع رحماني، فكل ما ينتج عنه خيرٌ وبركة.

تجد إنسانًا شابًا نشأ في طاعة الله، تزوّج شابّة مؤمنة، هذه الأسرة بارك الله بها وعليها وفيها، تكونت أسرة صالحة رفدت المجتمع بعناصر طيّبة، هؤلاء الأولاد تربّوا تربية مؤمنة ؛ فهم صادقون، مخلصون، أمناء، ولو فرصنا أنهم تعلّموا فنالوا شهادات عُليا، أو امتهنوا حِرَفًا، تجدهم عندئذ صادقين في تعاملهم، وغدت هذه الأسرة مصدر سعادة للمجتمع، وهذه نتيجة طبيعية عندما أفْرغَت تلك الشهوة في هذه القناة النظيفة.

لكن لو انحرف الشباب بغرائزهم نحو الزنا، ونحو إشباع هذه الشهوة بعيداً عن الزواج، فلا بد أن تقع الأمراض التي تسمعون عنها ؛ أمراض الإيدز و تكثر المشاكل، والانحرافات، وحالات الطلاق، والشقاء الزوجي، وينفتح باب الجرائم واسعا، هذه كلها بسبب خروج الإنسان عن منهج الله.

فما هو الذنب ؟ هو مركبة فيها محرّك ولها مقود، المقود هو الشرع، المقود هو الاختيار، والشرع هو الطريق، والمحرّك يعطيك قوة اندفاع، قوة الاندفاع من دون طريق تتحطّم السيارة، ومن دون مقود مشكلة، فالمقود هو الاختيار، والطريق هو المنهج، فما دُمت أنت توجّه المركبة لكي تبقى على الطريق المعبّد فأنت في بحبوحة، وفي يسر، وفي أمان.

إذاً ما هو الذنب ؟ هو وجود شهوة وخروج عن المنهج، أما المركبة لو لم يكن فيها محرّك فليس هناك مشكلة، لكن هذا المحرّك فيها، وهو يعطيها قوة اندفاع، هذا الاندفاع يحتاج إلى طريق، يحتاج إلى مقود، وأنت مخيّر بالمقود، والطريق هو الشرع، فإذا أبقيت المركبة على الطريق المُعَبّد نجوت وسلمت، أما إذا غفلت، فالغفلة تسبّب انحراف المركبة عن الطريق الصحيح.

فالذنب في أصله هو وجود شهوة في الإنسان، والمنهج خرج عنه بسبب غفلةٍ، فالغفلة عن المقود، والخروج عن الطريق مع وجود هذه الشهوة هو الذنب بعينه، فحبُّ المال شهوةٌ، إذا حسُن التوجيه ؛ كَسَبه من حلال، وأنفقه في الحلال، لكن إذا قام باغتصاب المال، فقد أكل المال بالباطل، وعندئذٍ لا بد من العقاب، ما هو العقاب ؟ هو الآثار المدمِّرة للشهوة التي أخرجت صاحبها عن منهج الله عزّ وجل.

لكن ربنا عزّ وجل رحمةً بالإنسان قال له: أنا أعطيتك الشهوة، ومع الشهوة أعطيتك المنهج، وإذا زلّت قدمك فقد فتحتُ لك باب التوبة، وأوسعت لك باب الاستغفار، فما عليك إلاّ أن تعود إليّ، وأن تنيب إليّ، و إني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا.

" إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهّرهم من الذنوب والمعايب".

فأنت فيك شهوة، ولديك منهج قويم، ومقود تمسك به، ولو غفلت لحظةً وخرجت بك المركبة عن الطريق الصحيح، فمن الممكن أن تعود إليه، وترفعك رافعة وتضعك مع المركبة على الطريق، وكلّما ابتعدت عن الطريق تحتاج إلى قوّة أكبر كي تعيدك إلى الطريق.

إذاً: هذا هو الذنب، فالحذر الحذر، فإن أخذ الله لمن لم يرتدع أليم شديد.

حتى كلمة (منتقم)، ما معنى منتقم ؟ أيْ ينتقم من عباده الجامحين ليعيدهم إلى الطريق الصحيح، لا ليدمرهم و يسحقهم، وكلمة منتقم بحق الإنسان قد لا نرضاها، ولكنها إذا عُزيت إلى الله عزّ وجل فهي تعني أنّ المنتقم أن يعاقب عباده العاصين ليعيدهم إلى الطريق الصحيح، ويستقيموا بعد ذلك، إذاً:

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)

أيْ أنّهُ ما أمرك أن تتوب إليه إلا ليقبلك، وما أودع فيك الشهوة وهو يعلم أنه قد تزِّلُ قدمك، إلا سمح لك أن تتوب.

إذاً التوبة من لوازم الذنب، فالمؤمن مذنبٌ تواب، كلّما زلّت قدمه، كلّما قصّر، كلّما انحرف، كلّما غفل يقول: يا رب ليس لي إلا أنت. فعلى الإنسان أن يعوّد نفسه أن يكثر من التوبة.

((إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

ومعلوم أنّ النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا، لكن ذنبه غير ذنوبنا، فهو كلّما عرف الله في درجة، ثمّ ارتقت معرفته، رأى أن المعرفة السابقة تقصير في حقِه، وهناك تفسيرات دقيقة جداً للذنب في حقّ الأنبياء، ولهم تعاريف خاصّة بهم لا مجال لبيانها الآن، أما نحن إذا فعلنا شيئاً مخالفاً للشرع فهذا ذنب، وهو عمل عاقبته وخيمة، فمن هو العاقل ؟ هو الذي لا يعمل عملاً يندم عليه، لأن لكل سيئةٍ عقاباً.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)

مرّ إنسان على رجلٍ يمتطي دابّة، فلمّا قرأ: **"غافر الذنب "**، قال: **" قل يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي"**، فلمّا قلت له: **" قابل التوب "** قال: قل: **"يا قابل التوب تقبّل توبتي "**، قال: **" فلمّا قلت شديد العقاب "** قال: **" قل يا شديد العقاب اعف عني "** قال: **"فلمّا قلت ذي الطول "** قال: **" قل يا ذا الطول طل عليّ بخير "**، فقمت إليه.

فغافر الذنب، اللهمّ اغفر لي ذنبي، قابل التوب، اقبل توبتي، شديد العقاب، اعفوا عني، ذي الطول، يا رب أعطني من خيرك ومن بركتك.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

فقرات هذه الآيات متلازمة، أيْ أنْ تقول: الله غفور رحيم، من دون احتياط، من دون خوف، من دون توبة، هذا فهم خاطئ، غفور رحيم لكنّه شديد العقاب، انظر إلى آيات الدرس الماضي:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(55))

(سورة الزمر)

انظر مع:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

تجد أن:

(يَأْتِيَكُمْ العَذَابُ بَغْتَةً)

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

شَدِيدِ الْعِقَابِ

إذا لم ترجع في الوقت المناسب، ولم ترجع قبل فوات الأوان، ولم تتب إلى الله توبةً نصوحًا، فهو شديد العقاب، أي بقدر ما أنّ الله رحيم فهو شديد العقاب أيضا، فالمؤمن دائماً بين حالين، الحال الأول حال الخوف من الله، والحال الثاني حال الرجاء، فإذا غلب خوفه على رجائه اقترب من اليأس، وإذا غلب رجاؤه على خوفه اقترب من الانبساط، الانبساط موقف منحرف في علاقة المؤمن بربّه، أي أنه تساهل، وأخذ حريّته، ترك الخوف، ترك الوجل، لكن المؤمن بين الخوف والرجاء، يعبد الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، في توازن دائماً.

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

فهناك شهوة، وهناك منهج، وأنت مخيّر، غفلت قليلا فلا تقل: لا بأس، لا، و لتعلم أنك حينما غفلت خرجت عن المنهج وهذا هو الذنب، وإذا لم تقبل توبة الإنسان فهذه مشكلة كبيرة حقا، إذا وقع الإنسان في ذنب وليس بعده توبة ولا مغفرة فقد انتهى أمره إلى بوار، وابتلي بحال أشد، فقد كان في الصغائر فينتقل إلى الكبائر، السبب لأنه يئس، ولكن ربنا عزّ وجل قرن الذنب بالتوبة، كلّما أذنبت يا عبدي غفرت لك، كلّما أذنبت وتُبت من هذا الذنب تبت عليك وقبلته منك، المؤمن مذنبٌ توّاب، أيْ أنّه كثير التوبة يتوب عند كل ذنب، وعند كل غفلة، وعند كل تقصير، هذا معنى:

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

تصورّ لو أن الله عزّ وجل ليس تواباً ـ افتراضاً ـ وإنسان زلّت قدمه، ماذا يفعل ؟ من معصية إلى أكبر منها، حتى ينتهي به الأمر إلى جهنّم، لكن رحمة الله بنا أنه أودع فينا الشهوات، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ووضع المنهج، وأعطانا الاختيار، وكلّما خرجت هذه المركبة عن الطريق أعدناها إليه، فإذا وقعت مشكلة فهذه المشكلة يُصَحّح مسارها.

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

الله عزّ وجل عقابه شديد لأنه خبير، يعرف الإنسان من أي جهةٍ يتألّم منها، فمثلاً إذا نَمَتْ عند الإنسان كرامته، أو مكانته الاجتماعيّة، فهذا لا يعاقب بفقد المال، بل يعاقب أحياناً بجرح كرامته، المتكبر لا

يعاقب بإتلاف ماله، بل يعاقب بإهدار كرامته أحياناً، وإذا كان المال أثيراً عند الإنسان فهذا يعاقب بفقد ماله، بإتلاف ماله، فربنا عزّ وجل يعلم بالضبط ما الذي يؤلم الإنسان، فيأخذه من مأمنه، هذا معنى.

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

أحياناً مرض، وأدوية ما تزيد من حدةِ هذا المرض، وأدوية هذا المرض تزيد من حدة ذاك، تجد الآلام شديدة، ولا يُسمح بإجراء العمليّة، فقلبه لا يتحمّل البنج، وتجد الآلام لا تحتمل، فربنا إذا عالج مرض الإنسان فعلاجه شديد، يعالجه علاجا يرجعه إليه بالتمام والكمال.

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

أيْ أنّ عقابه أليم، ومثال ذلك أنه إذا أساء طالب في الصف فإن المعلم يُودّبه بضربة خفيفة، فإن لم يتأثّر وينزجر، ورجع وهو يضحك، فهذا العقاب الخفيف يجعله يزداد تماديًا، لكن إذا تلقّى عقابًا أليمًا إلى حدّ أثّر فيه وأوجعه فإنه يعلم عندئذٍ أن النظام حق، فربنا عزّ وجل إذا عاقب فعقابه شديد.

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

جزء من إيمانك خوفُك من الله عزّ وجل، فالله عنده أمراض لا تعد ولا تحصى يسلّطها على من يستحقها، عنده أمراض نفسيّة، وعنده أحياناً حزن يسلطه على العبد، فتجد أن الحزن أكل قلبه، وكذلك عنده همٌ والهم يسحق الإنسان، والهموم والأحزان ربّما كانت أشدّ من الأمراض، وقد يسلط عليه الخوف الذي لا يحتمل، أو القلق، أو يصيبه اختلال نفسه من داخلها الأمراض النفسيّة أو يبتليه بفقر مدقع، وذل وقهر، أو يسلط عليه أمراضا جسمية، وهذه كلها علاجات يعالج بها ما عند الإنسان من أمراض الخروج عن المنهج الرباني.

(غَافِرِ الذّنْبِ وَقَابِلِ التّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطّوْلِ)

ذِي الطّوْلِ

ذي الطول هنا: ذي الفضل، فمعنى الطول أيْ طال فضله كل مخلوقاته، أحياناً الإنسان يكون ماله قليلًا جداً، فلو أراد أن يتودّد للناس بماله فلن يستطيع، لكن الإنسان الأكثر مالاً فماله يطول كثيرًا من الناس، ولكنه لا يستطيع كل الناس، لكن ربنا عزّ وجل هو الخالق، وهو الغني، فخيره يطول كل الخلق، إنسان يقول لك: والله لم أعد أتحمّل، طاقة الاحتمال قلّت، الشاغر امتلأ، الميزانية أُغْلِقَت، فتحس أن الإنسان محدود، لكن ربنا عزّ وجل كن فيكون.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ، وَجِنّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقص ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

ذي الطول أيْ أنّ عطاءه واسع كثير يطول كل المخلوقات لأنه:

(لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ)

ليس من مسيّر آخر، وليس من إله آخر، الأمر كله بيده، هذا الإيمان الحق، والمؤمن لا يرى مع الله أحداً، لا يرى مع الله أحدًا إطلاقاً، فليس في الوجود إلا الله، والله كبير.

(غَافِرِ الذّنْبِ وَقَابِلِ التّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطّوْلِ)

تلازمُ فقرات الآية دقة وإعجاز:

هو غافر الذنب إذا أذنبت، كما أنه قابل التوب إذا تُبت، إذا أذنبت، ولم تتب فهو شديد العقاب، فانظر إلى التلازم بين الفقرتين.

(غَافِرِ الذّنْبِ وَقَابِلِ التّوْبِ)

أما إذا وقع ذنب ولم تصدر عن المذنب توبة، فالفقرة الثالثة:

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

أذنبت وتبت، فليس من عقاب، ودخلت في إطار:

(ذِي الطّوْلِ)

جاءت الخيرات في أربع حالات ؛ ذنب، ثم توبة، ذي الطول، ذنب بلا توبة: شديد العقاب، والثالثة شخص أذنب، ولم يتب فلا بد من عقاب، الرابعة شخص أذنب، وتاب فيتعرض لكرم الله، و يصيبه فضل الله، أجل إذا أذنبت، وتبت فالفضل من الله عميم، والخير وفير، والسعادة التي تملأ القلب مظللتك، أما إذا أذنب، ولم يتب فله عقاب أليم، فأنت إذًا مخيّر.

أحد الأعراب قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم: **" عظني ولا تطل "** - يعني أوجز- قال:

((قل آمنت بالله ثمّ استقم))

قال الأعرابي: **" أريد أخفّ من ذلك "** ـ هذه ثقيلة عليَ ـ فقال له اللهمّ صلّ عليه:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

[ورد في الأثر]

فالأمر واضح جداً مثل الشمس، هذا كلام أقوله لنفسي، ولكم في آنٍ واحد، تحب أن تستقيم فأهلاً وسهلاً، الاستقامة ثقيلة عليك، إن لم تستقم فهناك سلسلة من المتاعب لا يعلمها إلا الله، تبدأ بالجسم، وبالزوجة، وبالأولاد، وبالعمل، وبالمشكلات، بالتجارة، بالعمل المهني والوظيفي، وبالتعبير العامي، من هنا سد، ومن هناك سد، وهناك خطر، وهناك خطأ، إن استقمت فلمصلحتك، وإلا تفضّل وتحمّل متاعب الحياة.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ)

ترتيب رائع، غافر الذنب مقابلها ؟ الذنب يقابله العقاب، أما مع التوبة فيقابله " ذي الطول "، أي إن أذنبت، ولم تتب هو شديد العقاب، إن أذنبت وتبت إلى الله عزّ وجل ذي الطول، وبعد هذا.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أنتَ لِمَ لا تتوب ؟ خائف ممَّنْ ؟ مَن إله إلا الله ؟ وإذا كان الإنسان مقيمًا على معصية، وهو خائف من جهة أن يغضبها، معنى هذا أنه مشرك، ما من إله إلا الله عزّ وجل، فأنت ما الذي يمنعك من أن تتوب؟ هل تخاف أحداً مما سوى الله ؟

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

العلاقة كلها معه، أمرك كله بيده، أساساً ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه بيده، بيده مقاليد السماوات والأرض، بيده الأمر كله.

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

إذا كانت هناك موانع تحول من التوبة، وموانع من الاستقامة، وخوف من جهة، فمعنى هذا أن الإنسان في شرك، وأنه لديه خطأ في التصور وانحراف في العقيدة.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لو فرضنا أن إنسانًا أُجبر على معصية، فماذا بعد الموت ؟ بعده حياةٌ أبديّة، والمصير إلى الله، الدنيا دار ابتلاء لكن الآخرة دار جزاء، فالمصير إليه، إذاً ليست هناك مشكلة، حتى لو فقد إنسان حياته من أجل طاعة الله عزّ وجل فهو الرابح، لأنّه إليه المصير، ولو أن الإنسان ضحّى بحياته من أجل طاعة الله عزّ وجل، ودخل الجنّة فهو الرابح الأكبر، قال سبحانه:

(إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

آية في إيجاز وإعجاز:

فهذه الآية على إيجازها بليغة جداً.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(2)غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

غافر الذنب وقابل التوب معها، أي أنه عندما أودع فيك الشهوات علم أنه قد تزلّ قدمك، ففتح لك باب التوبة.

بقي علينا في الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (02-20): تفسير الآية 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-06-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة غافر، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ

1 ـ الجدال نشاط عقلي:

الجدال نشاطٌ عقلي، العقل في الأصل أودعه الله في الإنسان ليكون أداة معرفة الله، فلو أن الإنسان أعرض عن طريق الله عزّ وجل، واتبع طريق الدنيا، وطريق الملذات والشهوات، فلديه عقل وقوة إدراكية، وبإمكانه أن يستغل هذا العقل ويسخره لشهواته، ولمآربه، من هنا يأتي الجدال، لماذا قال الله عزّ وجل:

(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا(54))

(سورة الكهف)

لأن الإنسان في الأصل أعطي قوة إدراكية، أعطي عقلاً، بهذا العقل يسأل ويجيب، يستفهم، يدرك، يوازن، يقارن، يحاكم، يتصور، يتخيّل، ولهذا العقل قوة إدراكية كبيرة جداً، بل لست مبالغاً إذا قلت: إن أعظم شيءٍ مخلوقٍ في الكون هو العقل البشري، وهو عاجزٌ عن فهم ذاته.

هذا العقل البشري في الأصل الله زوّد الله به الإنسان مِن أجل أن يتعرف إلى الله، فماذا فعل المعرض عن الله ؟ ماذا فعل الذي أراد الدنيا ؟ أحب الدنيا، وأراد شهوات الدنيا، وأراد أن ينغمس في الملذات والمتع الرخيصة، رأى لديه عقلاً، وهذا العقل بإمكانه أن يفلسف انحرافه، وبإمكانه أن يغطي عدوانه بكلامٍ معسول، الكافر متفلسف دائماً، يرتكب أكبر الجرائم، ويقنعك أن عمله هذا مشروع، ويدّعي أنه عمل مشروع، فكيف أتيح له أن يغطي انحرافه ؟ كيف أتيح له أن ينفي رسالات الأنبياء ؟ عن طريق عقله التائه.

ربنا عزّ وجل أشار في آيات أخرى إلى أن العقل قد يضل، وقد يغتر، وقد يطغى، قال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20)ثُمَّ نَظَرَ(21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24)إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ(25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26)وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(27)لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ(28))

(سورة المدثر)

2 ـ العقل البشري يجادل حين يسيء الإنسان استخدامه:

إذاً العقل البشري متى يجادل ؟ إذا أساء الإنسان استخدامه، منحك الله العقل من أجل أن يرقى بك إلى الإيمان بالله، من أجل أن تتعرف إلى الله به، ولكن الإنسان الشارد أراد الدنيا، فمضى لاهثا وراء الشهوات، والمُتَع الرَخيصة، ثم هو يفكر بعقله تفكيرًا أحمق لفلسفة المعصية، لتغطية المعاصي، للإيقاع بأعدائه، لتكذيب رسل الله عزّ وجل، للطعن بإخلاص الأنبياء والمرسلين، للتشكيك في معجزاتهم التي جاؤوا بها بما فيها كتب السماء، للتقليل من أهمية الآيات الكونية التي تدل على عظمة الله عزّ وجل، للطعن بكل داعيةٍ مخلصٍ أراد نشر الحق من خلال دعوته وسلوكه ومن خلال علمه.

هذا العقل البشري أداةٌ خطيرةٌ جداً، إما أن تُوظّف للوصول إلى أسمى هدفٍ وغاية، وإما أن تودي بصاحبها إلى الدركات السُفلى في النار، كهذا المحرك الذي يوضع في المركبة، إنه يوضع في الأصل ليدفعها إلى أهداف صاحبها المشروعة، فإذا أراد صاحب المركبة أن ينحرف، فهذا المحرك يزيده هلاكاً لو خرج عن الطريق الصحيح، فيصير المحرك أداة هلاك.

3 ـ الجدال تشكيك في القيم الدينية:

فيا أيها الإخوة كلمة يجادل التي وردت في الآية تعني أن الإنسان يشكك في القيم الدينية، ينحو منحى السفه العقلي، فمثلاً: يقول لك عن الإنسان: إن الإنسانَ أخلاقي إذا كان ضعيفًا، أما إذا كان قويًا فلن يكون أخلاقياً، يطعن كذلك بكل القيم الدينية، يقول لك: هذا الدين شعور الضعف أمام قوى الطبيعة، والشعوب المتخلفة كلها تؤمن بالدين، أما الشعوب المتقدمة التي اتخذت العلم ديناً لها فلا تعبأ بالدين، فهذا الكلام كلام فيه جدل، فيه قلب الحق إلى باطل، فيه قلب الباطل إلى حق، كل شهواته غير المشروعة يفلسفها العقل البشري إذا ضل وانحرف، ولم يعمله صاحبه فيما خُلِقَ له، ويصبح أداة لتغطية كل انحرافٍ وكل جريمة.

إذاً:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ)

4 ـ آيَاتِ اللَّهِ:

تعلمون أيها الإخوة أن الآيات جمع مفردها آية، والآية العلامة، فهي علامةٌ على وجود الله، علامةٌ على كمال الله، علامةٌ على وحدانية الله، فالآيات التي تدل على الله عزّ وجل كثيرة، فالكون هذا كله آيةٌ دالةٌ على وجود الله وكماله ووحدانيته، وكلام الله عزّ وجل آياتٌ قرآنيةٌ تعرّفنا بالله عزّ وجل ـ أي علامات مقروءة ـ وحينما يقع الزلزال، وحينما تحدث الفيضانات، وحينما تأتي بعض الكوارث الطبيعية لأناسٍ ضلوا وأضلوا، وانحرفوا وانغمسوا في الملذات وظلموا، تشعر أن هذه الأفعالَ أفعالُ الله عزّ وجل أيضاً، وهي آياتٌ دالة على عظمة الله عزّ وجل.

إذاً: كلمة الآيات تعني الآيات الكونية، وكلمة الآيات تعني الآيات القرآنية، وتعني كذلك الآيات التكوينية، أي أفعال الله عزّ وجل، فكلها تدل على عظمة الله، فالذي يشكك بمصداقيتها، والذي يشكك بدلالتها، والذي يشكك بقيمتها، والذي لا يعبأ بها، والذي لا يلتفت إليها أشارت إليها الآية التالية:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)

5 ـ الكافر هو المجادِل في آيات الله:

هذه الآية دقيقة جداً تعرفنا أن أصل الدين معرفة الله، فأنْ يكفر إنسانٌ بالله شيءٌ طبيعيٌ جداً ومن لوازم الكفر بالله أنْ يستخف بآياته ؛ إنِ الكونية، وإنِ القرآنية، وإنِ التكوينية، فأنت الآن أمام مؤشر، مؤشر دقيق، فالذي يعظم آيات الله فهذا التعظيم علامة إيمانه، والذي لا يبالي بها، ويقلل أهميتها، يجعلها خارج اهتمامه، فهذا من علامات الكفر.

والكفر كما تعلمون أيها الإخوة تكذيبٌ وإعراضٌ، وبشكل أو بآخر يعني عدم رؤية عظمة الله عزّ وجل، أو قل: الكفر عمى يحجب صاحبه عن رؤية عظمة الله.

ما الذي يملأ عين الكافر وقلبه ؟ أشخاص أقوياء، أو أشخاص أغنياء، أو أشخاص يتمتّعون بقدرٍ عالٍ من الجمال، فهذا عندئذ إما أنْ أنه يؤله الأشخاص الذين نالوا حظوظاً كبرى من الله عزّ وجل، أو يؤله أشخاصاً آتاهم الله قوةً، أو يؤله أشخاصاً أتاهم الله مالاً، فهو ذائبٌ في هؤلاء محجوب عن الإيمان، وكان عليه أن يرى من خلال هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى هو القوي، وهو الغني، وهو الجميل، وهذا هو الإيمان.

الإيمان أن تتجاوز الخلق إلى الخالق، أن تتجاوز النعمة إلى المنعم، أن تتجاوز النظام إلى المنظِم، أن تتجاوز التسيير إلى المسيّر، أن تتجاوز الفاني إلى الباقي.

الفرق بين المؤمن والكافر:

وإذًا فما الفرق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر أمام شمس، يقول لك: هذه شمس، وهذا قمر، وهذه جبال، وهذه نجوم، وهذه أزهار، وهذه أطيار، وهذه أسماك، فهو لا يستطيع أن ينكر هذا الكون وما فيه من عظمةٍ، ومن جمالٍ، ومن نفعٍ، ومن خيراتٍ لا يحصيها إلا الله عزّ وجل ؟ أجل لا يستطيع، ولكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، أن المؤمن يخترق الكون إلى المكوِّن، يخترق النعمة إلى المُنعم، يخترق النظام إلى المُنَظِّم، يخترق التسيير إلى المسيّر ؛ أما الكافر فيقف عند الكون، وهذا مبلغه من العلم، هو مع النعمة لا مع المُنعم، هو مع الكون لا مع المكوِّن، هو مع النظام لا مع المنظِّم.

الله سبحانه وتعالى أخبرنا وقال:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

وقال الله عزّ وجل يصف أهل الكفر:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم)

فأبسط مثل: قد يستمع الكافر لنشرة جوية، فيقول لك مثلا: سيتعرض القطر إلى منخفض جوي متمركز فوق قبرص، وسيصل بعد عشرين ساعة، سرعته كذا، وهو منخفض مُمْطِر، لا يخطر في باله أبداً إلا أنه مُنْخَفَض، وبعد أيام هناك أمطار، ولكن المؤمن يرى من خلال هذه النشرة الجوية أن هذا المنخفض رحمة الله عزّ وجل، وأن الله هو الرزّاق، هو الذي ساق الأمطار لينبت النبات، ليكون متاعا لنا ولأنعامنا.

فالفرق فرق رؤية، فالكون هو كون، لا أحد بإمكانه أن ينكر وجود الكون، ولا مظاهر الكون، ولا خصائص الكون، ولكن الفرق الدقيق بين المؤمن وبين غير المؤمن هو أن المؤمن انتقل من الكون إلى المكوِّن، من النعمة إلى المُنعم، من التسيير إلى المسيّر، من النظام إلى المنظِّم، من الربوبية إلى الرب.

هناك نقطة مهمة جداً، ألا وهي أن الإنسان إذا أراد أن يفعل ما يشاء مما يحلو له، إذا أراد أن يقتنص الشهوات، ويفنى في خضمها، هذا الاتجاه نحو التمتع في الدنيا والانكباب على شهواتها لا يتناسب مع معرفة الله ومع الانضباط بشرعه، فلما يصر على المعاصي تجده يقلل من قيمة الدين.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه، كأن هناك علاقة ترابطية، إن كذّبت بالدين فعملك سيّئ، وإن كان عملك سيّئاً فلابد من أن تكذب بالدين.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

فالمرءُ بين حالين ؛ إما أن تتبع الهوى، وإما أن تتبع الله عزّ وجل فيما أمر ونهى، أي إما أنّ الإنسان رحماني، وهذا فضلٌ كبير، أو أنه شيطاني، وهو إما أن يتحرّك بوحيٍ من إلهامات الملائكة، وتوجيهات الأنبياء، وكلام الله عزّ وجل ؛ أو يتحرك بوسوسةٍ من الشياطين، وبدافعٍ من شهواته وغرائزه. إذًا: عندنا نموذجان اثنان لا ثالث لهما.

فلسفة الكفار في الدنيا:

إن الإنسان حينما أتاه الله عقلاً آتاه إياه ليتعرف من خلاله إلى الله، ليرقى به إلى الله، أما حينما اتجه إلى الدنيا، وأصر على شهواتها، سخّر عقله ليعنيه على فلسفة معصيته، وعلى إسكات خصومه، وعلى التحلل أو التحرر من كل قيدٍ أخلاقي، ومن كل قيدٍ اجتماعي، ومن كل قيدٍ ديني، يقول لك: الأخلاق نسبية، بذكاء يقول لك: يا أخي، ما تجده هنا حراماً أو عيباً، تجده في مكان آخر مقبولاً، إذاً الأخلاق عبارة عن أعراف.

حينما ينفي الإنسان القيم الثابتة في المجتمع البشري على مدى العصور والدهور فهذه أخطر فكرة، إنها فكرة خطيرة جداً، ثم هو يدّعي أن ليس في الأخلاق شيء ثابت، أي كل المجتمع الذي ألف أن هذا عيب، وهذا مقبول، بينما تجد مجتمعًا آخر يرفض ما أقره المجتمع الأول، فالعقل البشري حينما يعمل ببرمجة الشهوات ؛ لا ببرمجة الحقائق، حينما يتحرك الفكر البشري ليغطي الانحرافات والمعاصي يكون الجدل.

مثلاً: إنسان يحب الاختلاط، اسمعه ماذا يقول لك ؟ يتفنن في الحديث عن الاختلاط، وعن ميزات الاختلاط، فيقول لك: يهذب المشاعر، والمجتمع الذي فيه امرأة يصبح كل فرد فيه ينتقي كلماته اللطيفة، ويتحلى بأناقة خاصة، ويلهث وراء التنقيب عن ميزات الاختلاط، ولا يقول لك: إن هناك آلاف اللقطاء الذين لا أباء لهم من نتائج الاختلاط، هذا يغفله، اللقطاء يغفل أمرهم، أما التهذيب وانتقاء العبارات هذه

يبرزها، وهذه هي المجادلة، فهو يبحث عن منافع موهومة للمعاصي ويبرزها، يقول لك: الدين يجعل الإنسان متخلفًا، كل شيء حرام في حياة المسلم !! بيت المسلم مثل القبر، لأنّ كل لهو مثلا حرام، فهذه هي المجادلة.

إذا ضبط الأب أولاده يقول عنه: قمعهم قمعًا، وإذا أرخى الأعنّة لميولهم فهو عندهم أطلق الحرية لبناته، يقول لك: هذا أب ديموقراطي، إذا قد أطلق الحرية للبنات أصبح ديموقراطيًا، أما إذا ضبطهم بالأخلاق، وتابعهم صار قمعيًا، وبين قمعي وبين ديموقراطي مسافة كبيرة، هذه فلسفة الكفار.

هو يفلسف لك الزنا فيقول لك: هي راضية، يفلسف لك الربا، فيقول لك: هل من المعقول أن أجمِّد المال، ولا أربح منه ؟ يفلسف لك كل المعاصي.

دائماً المجتمع الكافر فيه كلام مزخرف يغطي كل المعاصي، هذه المجادلة، فهو يشكك بالقيم الدينية، وإذا كان انحرافه كبيراً فليس له إلا أن يشكك بوجود الله عزّ وجل، فيأتي لك بشبه مثل: فمَنْ الذي مات ورجع، وقال لك: هناك آخرة، فقد قال المعري:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

***

قال أحدهم لآخر: المصيبة ألا نجد جنة في الآخرة، ونكون قد تعبنا بهذه الدنيا على غير شيء، هذه المجادلة، أي أنّها سخريةٌ، وتشكيك، وعبث، واستهزاء بكلام الله إذْ لم يصدقه، فإذا قلتَ له: الله عزّ وجل يقول لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

يقول لك: أين أذهب بعيوني ؟ هذا كلام لا يسمع، ألم يقل الله عزّ وجل:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

فتجده يضعك بزوايا ضيقة: وماذا عليّ أن أفعل ؟ لا بد من الربا، ولابد من إطلاق البصر، ولابد من الاختلاط، لابد من فعل كذا وكذا، نحن يجب أن نعيش واقعنا، يجب أن نتفاعل مع الواقع، يجب أن نُدرك معطيات البيئة.

أحياناً يقول لك: بيئة، وأحياناً واقع، وحينا يقول: تفاعل، وحينا آخر علاقة ترابطية، هذه هي المجادلة، فلسفة عقيمة، وعبث بالعقول، لكنّ الله عزّ وجل أعطانا منهجًا، وهذا كلام خالق الكون، فالحذر الحذر من التمادي.

أذكر لكم واقعة هي صغيرة جداً، ولكن لها معنى كبير، إنسان يعمل في إصلاح السيارات، أمسك بشيء مما وضعته الوكالة أو المصنع لمحرك السيارة، ونزعه، وألقاه في الأرض، وقال: هذا ليس له لزوم، قلت له وقتها: ليس عندي استعداد أن استمع إليك إطلاقاً، شركة عمرها مئة سنة، وعندها خمسة آلاف مهندس، ويمكن أن تكون أنت على صواب، وهي على غلط ؟ مستحيل، فأنت لا تقبل من إنسان يعمل حديثاً في تصليح السيارات، ويلغي شيئًا بالسيارة كان المعمل قد وضعه، إنّ المعمل مبني على خبرة، مبني على علم، مبني على تجارب، لديه متابعة، مجموعة من المهندسين، فهل من الممكن لهذا العامل البسيط أن يكون رأيه أصوب ؟ أنا لا أصدّق، وأرفض ذلك واقعا و عقلاً.

الحَذرَ الحَذرَ من الإيمان الإبليسي

لتعلم أيها الإنسان أنّ هذا كلام الله عزّ وجل، كلام خالق الكون، إذا كان ليس عندك هذا اليقين، فقف، وابحث عن دليل قطعي على أن هذا الكلام كلام الله عزّ وجل، فاسلك الطريق الذي لا بد منه، إذ لابد من معرفة الله، هذه المعرفة السطحية التي لا تثمّر استقامة، أعجبني إنسان والله، وأدهشني إذ سمّى إيمان أولئك الناس: **" إيمان إبليسي"**، لأن إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص: من الآية 82)

إبليس هل أنكر وجود الله عزّ وجل ؟ لا، خاطب الله عزّ وجل وقال له: رب، وقال له: فبعزتك، ومع ذلك هو إبليس من قبل مقالته ومن بعدُ، فماذا يفعل ؟ كل معصية وموبقة.

كل إنسان إن لم يفض به إيمانه إلى طاعة الله فهذا إيمان إبليسي، ليس له قيمة إطلاقاً، الإيمان الصحيح هو الذي ينقلك إلى الطاعة، هو الذي يترجم بسلوك، هو الذي يفضي إلى مواقف، إلى عطاء، إلى منع، إلى غضب، أن تغضب لله، أن ترضى لله، أن تُعطي لله، أن تمنع لله.

لو أن إنسانًا رأى الشمس ساطعة في كبد السماء، وفكر، وفكر، وفكر، وفكر، ثم قال: الشمس ساطعة، خيرًا إن شاء الله، فهي ساطعة، أقررت بها أم لم تقر فهي ساطعة، إن قلت: ساطعة فهي ساطعة، وإن قلت: الشمس ليست ساطعة، فكلامك لا قيمة له لأنها ساطعة، فالذي يكتفِ بالإيمان بلسانه فقط ماذا فعل؟ نقول له: أنت ماذا فعلت ؟ اكتفيت أن تفوهت بكلمة الإيمان، وهذا الإيمان لم يترجم إلى سلوك ؛ بيتك غير إسلامي، عملك غير إسلامي، جوارحك منطلقة عشوائيا، لسانك أفعى تلدغ، بيتك غير منضبط. هذا انطبق عليه الحديث الشريف:

((وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

المجادلة استخدام العقل في غير ما خُلِقَ له:

إذاً: المجادلة عملية استخدام العقل في غير ما خُلِقَ له، بينما خُلِقَ، وأودع في الإنسان ليكون أداة معرفة الله، فإذا استخدمته للطعن بالتشريع الإلهي، للطعن بمصداقية القرآن، للتشكيك بقيمة الوحي، للتشكيك بكمال الأنبياء، للتشكيك بالدعاة الصادقين، إذا أردْت أن تستخدم العقل للتشكيك وللطعن فهذه هي المجادلة، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم، قال تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)

هنا معنى المجادلة، التكذيب، التشكيك، الطعن، التقليل، البحث عن المثالب، وحاشا أن توجد في كتاب الله، أما بالنسبة للمؤمن فعلى سبيل المثال، فالمؤمن ليس معصوماً، ولكن يغلب عليه الإيمان، يغلب عيه الورع، يغلب عليه حب الله عزّ وجل، إذا كان له قريبان ؛ قريب مؤمن وقريب غير مؤمن، تجد أن القريب المؤمن لا يرى من هذا المؤمن إلا الفضائل، القريب غير المؤمن إذا عثر على زلةٍ صغيرة، أو على غلطٍ قليل، أو على تقصير طفيف، هذا التقصير الطفيف يكبّره ويكبره، ويبالغ به ليجعله مجرماً، ويصوره تصويرا بشعا، لأن المؤمن حجة على غير المؤمن، فإذا أخطأ المؤمن، تجد أن أهل الدنيا يسارعون إلى نشر هذا الغلط، وإلى تكبيره وتفخيمه، فما الدافع إلى ذلك ؟ الدافع إلى ذلك أن الكافر عنده قلق عميق، وعنده شعور بالذنب مستمر، فإذا رأى المؤمن يغلط، فهذا الغلط يتخذه حجةً، فيقول على الفور: ألم أقل: إنّ كل أصحاب الدين هكذا، يكون له قريب له التزام ديني قليل، إذا غلط معه قريبه يتهم كل أهل الدين بالخطأ.

يستخدم الإنسان عقله لغير ما خلق له، يستخدمه أداة لتبرير غلطه، يستخدمه أداة لفلسفة المعصية، وتستخدمه كأداةٍ لتغطية الانحراف، إذا غَطّيْتَ الانحراف، وفلسفتَ المعصية، وبررت التقصير، فهذه هي المجادلة، وذو الجدال لا يستطيع ذلك إلا أن يطعن بالأنبياء، أن يطعن بالوحي، يقول لك: الوحي منام، هكذا تراءى للنبي، أو قد يسبغ هؤلاء وأهل الكفر على الأنبياء طابع العبقرية ليقللوا من شأن الوحي، فيقولون: يا أخي هذا محمد عبقري، ليس محمدً رسولاً، بل هو عبقري، وهذا بحث آخر، لكن الحق كل الحق أنّ محمداً رسولُ الله يوحى إليه، لا ينطق عن الهوى، هذا وصف الله له، وهذه حقيقة لا تعمى أمامها الأبصار، و لكن تعمى القلوب التي في الصدور، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

قال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

الله عزّ وجل يصف النبي بأنه يوحى إليه، وبأنه لا ينطق عن الهوى، وبأنه معصوم، ومع ذلك يرغب المجادلون بإسباغ صفة العبقرية على النبي عليه الصلاة والسلام ليقللوا من قيمة الوحي، ومن قيمة العِصمة، ومن قيمة التشريع حتى ينفوا الإسلام و النبوة، و يردوا القرآن.

أو يقولون لك: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام تعلم كل هذا العلم من بَحِيرَة ـ هذا الراهب الذي التقى به في الشام ـ فهل يعقل لطفل صغير خلال ساعة أن يتعلّم علمًا غزيرًا ؟ أو يُعقل أنّ هذا الإسلام العظيم، وكل ما فيه من علمٍ جاءنا عن طريق النبي بلقاء تم خلال هذه الساعة ؟ هذا شيءٌ مضحك.

حدثني أخ كريم، وهو أستاذٌ في الجامعة ـ دكتور في التاريخ ـ قال لي: إنه بعد تحقيق وتمحيص وجد أنّ: **" قصة بحيرة بقضها وقضيضها، جملة وتفصيلاً لا أصل لها في التاريخ إطلاقاً "**، وهذا رأي عالم باحث محقِق.

التفسير العلمي المحض للظواهر الكونية نوع من الجدال:

إذا استمعت لأهل الدنيا كيف يتحدثون، في محور واحد، الطعن والتشكيك والتقليل من أهمية الآيات الكونية، والآيات القرآنية، والآيات التكوينية.

مثلاً: لو قلت له: هذا الزلزال الذي حدث في بلد يعج بالفجور و الفسق، وإلى حدّ أنّ فيه نواديَ للعراة، ويفلسفون هذا كله باسم صناعة والسياحة المتفوقة جداً، ما معنى صناعة السياحة ؟ أي انحراف ما بعده انحراف، يقول لك: لا، ليس مصيبًا، فالزلزال عبارة اضطراب يحدث في القشرة الأرضية، كما يفسره العلم، ونقول بدورنا: لا يمنع أن تفسِّر الزلزال تفسيرًا علميًا، وأن يكون هذا التفسير العلمي موظّفاً كآيةً من آيات الله الدالة على أنه شديد العقاب.

المجادلة، أي أنه يطعن في الآيات الكونية، أو يقلل من قيمتها، أو يطمسها، أو يغفلها، أو لا يعجبه التفسير الذي تطرحه أنت من خلالها، هذه هي المجادلة، وأهلها كلُّ خصيم مبين.

أما الآيات القرآنية فيقول لك: إنّ الصحابة اختلفوا في بعض الروايات في قراءات القرآن الكريم، فلماذا هناك قراءات ؟ ويرى أنّ في القراءات مجالاً للطعن، أو يدّعي أنّ القرآن ليست موضوعاتُهُ موحدة، فيقول لك: عجيب يا أخي، فالآيات في سورة واحدة ذات موضوعات متنوعة، ليتها كانت مرتبة بحيث تدور الآيات في السورة الواحدة حول موضوع واحد فقط، هكذا يتمنى أن يكون هذا الكتاب منظمًا، فصل عن بني إسرائيل، فصل عن الكونيات، فصل عن الساعة، فصل عن الجنة، فصل عن النار، من قال لك: إن هذا الكتاب كتابٌ علمي ؟ هو كتابٌ هدايةٍ ورَشَد، وهو مرتب ترتيبًا يسمونه بالتعبير المعاصر: سيكولوجي ـ نفسي ـ مرتب ترتيبًا نفسيًا، الإنسان في السورة بحاجة إلى آية كونية، وخبر

عن أمة سابقة، ومشهد من مشاهد يوم القيامة، وحكم شرعي، كل ذلك آخذ بعضه برقاب بعض، ومنه التكامل، فالقرآن الكريم مرتَّب لا على أساس الموضوعات، بل على أساس حركة النفس، فالنفس تحتاج إلى شيء مُقْنِع، وإلى ردع، وإلى مخاطبة الوجدان، وإلى مخاطبة العقل، وإلى الأخبار الصادقة، والتفسير التاريخي الصحيح، فالنفس بحاجة إلى هذا كله في آية واحدة، لأنها في معرض تثبيت العقيدة و ترسيخ الإيمان.

كانت السورة من السور، وكأنها سور تحيط بالآيات، إحاطة سور البستان بالأشجار، فالبستان فيه أشجار مثمرة، وفيه خضروات، وفيه أزهار، فالزّهرُ ليس للأكل بل للتمتع بمنظره، والفواكه للطعام، والقمح قوت، والماء للشرب، فهذا هو البستان، فلماذا لا يوجد بستان كله ماء ؟ يقول لك: فلماذا تجد بستانًا كله أشجار حور، أو بستان كله زيتون ؟

أما البستان فهو بستان فيه زيتون، وفيه تفاح، وعنب، وجداول الماء السلسبيل، هكذا السورة، فأساس المجادلة هي عملية طعن بالآيات ؛ كل الآيات سواء منها: الآيات الكونية، والقرآنية، والتكوينية، حتى الزلازل والبراكين والحروب الأهلية لا يقبل إلا أن تفسَّر تفسيرًا أرضيًا، لا يقبل أن تكون آياتٍ دالةً على عظمة الله وعلى عدالته، كلما علّلت الأحداث الكبرى التي تجري في العالم على أن الله عزّ وجل بيده كل شيء وأنه هو المصرّف، وهذه مشيئته:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

والله عزّ وجل خبير، وهؤلاء كلهم عباده، يعاملهم وفق حكمةٍ مطلقةٍ، وفق ميزان عدلٍ كبير، فهذا التفسير لا يعجبه، بل يطعن بهذا التفسير، ويعترض، و يماري:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)

من أصول الدعوة: لا تناقش الكافر في الفروع:

لذلك إذا كان الإنسان كافرًا بالله فلا تحاول إطلاقاً أن تدخل معه بموضوعات فرعية، فهو كافر بالأصل، أصل الدين معرفة الله، هو لا يعرف الله، إذا كان لا يبالي بكل الآيات الدالة على عظمة الله ولا يعطيها قيمةً ويصم دونها آذانه فهذا من باب أولى إهماله.

وكأنّ هذه الآية فيها توجيه لنا، فأنت قبل أن تناقشه في التعدُّد، فدائماً أعداء الدين لا يذكرون سوى التعدد: أنتم عندكم تعدُّد زوجات، لا تناقشه في تعدد الزوجات، ناقشه في وجود الله، وإذا آمن بوجود الله ناقشه في الكتاب، إذا آمن في الكتاب فعندئذ من الممكن مناقشته، وقد يستجيب لنتيجة النقاش.

لدينا في الإسلام تسلسل وترتيب: أوّلا، لا جدوى من الإيمان بالأنبياء قبل أن نؤمن بالله، ولا جدوى من الإيمان بالكتاب قبل أن نؤمن بالله، فإذا آمنا بوجود الله ؛ آمنا به خالقاً، آمنا به رباً، آمنا به مسيّراً إلهاً، ثم آمنا بأن هذا القرآن كلامه من خلال الإعجاز، وآمنا بأن الذي جاء بهذا القرآن المُعْجِز هو رسول الله.

إذا سرنا بهذا الترتيب، الإيمان بالله أولاً ؛ الإيمان بالله موجوداً، والإيمان بالله كاملاً،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: من الآية 180)

ابحث في الإعجاز العلمي:

والإيمان بالله واحداً، هو واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في أفعاله، إذا آمنا بالله ؛ بوجوده وكماله ووحدانيته، ذاتاً وأفعالاً وصفاتٍ، فقد بات ممكنًا أن نؤمن بكلامه من خلال الإعجاز، وابحث فهناك إعجاز لا حصر له، قال تعالى:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2) فِي أَدْنَى الأَرْضِ)

(سورة الروم)

أدنى يقابلها أعلى، أدنى وأعلى، الروم التقت مع الفُرس في غَوْر فلسطين، وقبل مئات السنين فقط عرف أن أخفض نقطة في الأرض هي غور فلسطين، الآن معروف أنّ أخفض نقطة في البحر هي خليج مِرْيَانة في المحيط الهادي، وأخفض نقطة في اليابسة غور فلسطين، والتاريخ يؤكِّد أن المعركة التي جرت بين الفُرس وبين الروم كانت في غور فلسطين، ولم يكن معروفاً قبل مئة عام أن هذا المكان هو أخفض نقطةٍ في الأرض، فالله عزّ وجل قال:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3))

(سورة الروم)

غلبوا، غلبوا فِي بِضْعِ سِنِينَ، ففي الآية إعجاز إخباري، والإخبار في القرآن الكريم إخبارٌ عن الماضي.

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(44))

(سورة آل عمران)

من أين جاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الوقائع و أخبارها ؟ إنّ القرآن يردِّد دائماً كلمة فرعون عن حاكمًا لمِصْرَ، أما في قصة سيدنا يوسف فقداكم مصر:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ)

(سورة: يوسف: من الآية 50)

اسأل المؤرخين يخبروك أنّ الذين حكموا مصر هم الفراعنة، إلا في حقبةٍ يسيرة حكمها المُلوك، وحينما التقى سيدنا يوسف بملك مصر، لم يكن فرعون ملكاً، بل كانت أسرة الفراعنة منحّاةً عن الحكم معزولة ؛ فانظر إلى دقة القرآن الكريم.

مثلا: قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحج:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(27))

(سورة الحج)

الله لم يقل: بعيد، بل قال: عميق، لأن الأرض كرة، فكلما ابتعدت عن إحدى نقاطها صار الخط منحنيًا، وصار هناك بعدٌ عمق، واللهُ قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(27))

(سورة الحج)

بإمكانك أن تصل من خلال عقلك، وبالدليل العقلي المُطْلَق إلى أن هذا القرآن لا يمكن للبشر مجتمعين أن يؤلفوا مثله، فإذا آمنت بالله من خلال كونه على أنه موجودٌ وكاملٌ وواحد، وآمنت بأن هذا القرآن كلامه، وآمنت بأن الذي جاء بهذا القرآن رسوله، فعندئذ تؤمن أنّ أي شيءٍ أخبرك الله به هو الحق، فانتهى دور العقل الآن وجاء دور النقل، العقل حصان ركبته وأوصلك إلى باب القصر، إذا وصلت إلى باب القصر انتهى دور الحصان، ومن ثَمّ دخلت إلى القصر، فالعقل إذا أوصلك إلى الله، وإلى أن هذا القرآن كلامه، وإلى أن النبي رسوله، فعليك بخبر الكتاب و السنة (النقل)، ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: من الآية 30)

لا تأخذ دينك إلا من أهله الموثوقين:

هو آدم، إذاً نظرية داروين صارت تحت قدمك، لأنها خلاف القرآن، وإذا لم تكن متأكداً فارجع وجدد إيمانك بالقرآن الكريم، فإذا شككت بشيء جاء به القرآن فاعلم أنّ إيمانك بهذا الكتاب لم يكمل، ولا يزال ضعيفًا، أما إذا بلغ إيمانك بأن هذا القرآن كلام الله فأي شيءٍ آخر يتناقض معه تشعر أنه تحت قدمك، لأنه مناقضٌ لكلام خالق الكون.

الأمر تماماً كما لو أنك جئت بجهاز حاسب إلكتروني ثمنه ثلاثون مليونًا، ومعه تعليمات تقدر بألف صفحة ورسوم، ولك جار يعمل في بيع الألبان، وقال لك: هكذا يعمل، وكان كلامه خلاف التعليمات، فمن تصدق ؟ أيًا كان هذا الإنسان، قد يكون أخاك، قد يكون قريبًا منك، والمودة بالغة بينك وبينه، فإنك

في موضوع تصليح الجهاز وتشغيله تقول له: لا، فهذه ليست من اختصاصك، هذا شيءٌ لا تعرفه أنت، بل يحتاج إلى ذوي اختصاص، فهل يعقل أن أسلِم جهازًا ثمنه ثلاثون مليونًا وكله صمامات وكله دارات، وشيء معقد جداً، أفأسلمه لإنسان لا خبرة له بهذا الجهاز ولا بأمثاله، و لو كان أخًا أو صديقا حميمًا ؟

فأنت عندما تعرف أن للكون إلهًا عظيمًا، وهذا كتابه وهذه تعليماته، وأنت كائن بالغ التعقيد، وتعيش حياة في الدنيا محدودة، وفي الآخرة أبدٌ، فإنك لا تسلم نفسك إلا إلى منهج الله عزّ وجل وتلتزم به.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[كشف الخفاء]

((يا ابن عمر، دينَك، دينَك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

ما قولك أنك إذا صدّقت إنساناً، ولم تطالبه بالدليل في أمر دينك، واتبعت طريقاً غير صحيح فالعاقبة وخيمة، فلو كان دخلك حراما مثلاً، أو لو مارست هوايةً لا ترضى الله عزّ وجل على أنها مشروعة، بزعم زيد ودليل عُبيد، ثم فوجئت يوم القيامة أن زيدًا وعبيدًا لا يفقهان شيئاً، وأنهما ليسا مخوّلين أن يوجّهاك، وليس لهما عليك سلطان، وأنك تركت كتاب الله وراء ظهرك، واتبعت أمر أناسٍ جهلاء، أليست هذه خسارةٌ كبيرة ؟ قال تعالى:

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(الأنعام: من الآية 20)

فأنا متأكِّد أنك لا تسلم ساعتك لإنسان غير خبير، ساعة لا تسلمها، بل تحرص عليها، فكيف نفسك التي بين جَنْبَيك، كيف هذه النفس التي لا تملك أثمن منها ؟ لذلك أكبر خسارةٍ تحيق بك أن تخسر نفسك التي بين جنبيك ؛ أن تبقيها جاهلة، أن تبقيها عاصية، أن تحجبها عن أنوار الله عزّ وجل، وتنأى بها عن رضوانه، هؤلاء الذين تفوقوا في الدنيا، وغابوا عن معرفة الله ما نالوا شيئاً، لذلك أجمل دعاء أنا أكرره: **" يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ والله لم يفقد شيئًا ـ وماذا وجد من فقدك ؟ "** والله لم يجد شيئًا ـ فالدنيا سراب ؛ فهل من مدّكر ؟

إذًا عليك أولاً أن تؤمن بالله من خلال آياته الكونية، والتكوينية والقرآنية، فإذا آمنت بالله يجب أن تؤمن بكتابه، إذا آمنت بكتابه تؤمن برسوله، لأنه سيضع بين يديك السُنّة بتفصيلاتها، فإذا آمنت بالله وكتابه ورسوله من الممكن أن تدخل في فروع الدين، أما أن تدخل في فروع الدين قبل أن تؤمن بأصل الدين، هذا طريقٌ مسدود.

الشيء الذي يلفت النظر قوله تعالى:

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ

1 ـ لا يغرنّك التقلّبُ في النِّعم:

أحياناً تجد الإنسان من قِصَر بصره إذا رأى إنسانًا لا يصلي، أو لا يعتد بقيم الدين، ولا يعبأ بها، و مع ذلك يراه غنياً وقوياً ووسيماً وذكياً وطليق اللسان، ويستخدم ذكاءه للتشكيك بالدين، يستخدم وسامته لإغواء الطرف الآخر، يستخدم ماله مثلا للانغماس في المتع الرخيصة، فالمرء يحتار ويتساءل: يا رب هذا يعصيك، وهو ذو شكل وسيم فما أجمله ؟ والمال بين يديه وافرٌ طائل، وقد كلّف عرسهم ثلاثة عشر مليوناً، ورغم ذلك ليس لديه لا قيم ولا دين يردع، قال:

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

فإذا كانوا يتقلبون من بيت لبيت، ومن مركبة لمركبة، من بلد لآخر، ثم يقول لك: كلفتني السياحة ثلاثمئة وخمسين ألفًا، في عشرة أيام، كلها فنادق خمس نجوم، يتقلب من فندق إلى فندق، من بيت لبيت، من قصر لقصر، من مركبة لمركبة، معه أموال طائلة، وهو لا يصلي، ولا يقيم للدين وزنًا، مثل هؤلاء الأشخاص بلاءٌ شديد مرٌّ عند ضعاف الإيمان، ويحدثون فيهم اضطرابًا.

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

هنيئاً له، هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا، فلتعلم أنك إذا رأيت شخصًا عمره خمس وثلاثون سنة محكوم بالإعدام، وسينفذ فيه بعد أسبوع، ورأيت معه زجاجة عطر ثمنها ثلاثة آلاف ليرة، فهل تقول: هنيئاً له على هذه الزجاجة، إذا كان كذلك فأنت مغفل حقّا، غابت عنك الحقيقة كلها.

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

المؤمن إذا كان على خطّ طاعة الله فهو الفائز، فإذا لم تعرف نفسك فاعرفها.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

والله أيها الإخوة ـ هذا كلام ربما وجدتموه قاسياً ـ إذا كنت مستقيمًا، وّقافًا عند حدود الله، ضابطًا جوارحك، ضابطًا دخلك وإنفاقك، ترضي الله، تؤدِّي الصلوات، تصوم رمضان، تحج البيت، تؤدي زكاة مالك، تغض بصرك، بيتك إسلامي، عملك إسلامي، ورأيت كافرًا فاسقًا فاجرًا على مستوى رفيع

من الغنى و الثراء، قلت: هنيئاً له ولو بقلبك فأنت غفلت عن صواب وحقيقة، يقولون لك: والله يا أخي وضعه فوق الريح، ثراؤه فاحش، وهو يعرف كيف يعيش، فهذا القول عنه خطير عليك، خطير على كل من يسمعه.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

هذا هو الفوز، الفوز أن يراك الله حيث أمرك، في الساعة الثانية عشرةَ والنصف أين تجلس ؟ أنت في الجامع يوم الجمعة وليس في النزهة، فقد تجد شخصًا في وقت الصلاة يعدّ سيارته لأنه سينطلق بعد قليل إلى المنتزه، وليس للدين عنده أيّ اعتبار!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا)

(سورة الجمعة: من الآية 9)

فهو غافل عن هذه الآية، إنه ينظف سيارته الساعة الثانية عشرة تهيئةً للنزهة،َصلّى أم لم يصلِّ سيان، الاختلاط وعدمه عنده يستويان، دخل حرام، دخل حلال يقول لك: لا تدقق فالله غفور رحيم، فهذا جاهل كل الجهل، وإنّ الذين كفروا حينما يخرجون عن دائرة معالجة الله يُعطَوْن الدنيا، بالتعبير العامي: " خذوها وانمحقوا "، حينما يصرّون على كفرهم، وحينما ينكبّون على شهواتهم، وحينما يؤثرون الدنيا على مرضاة ربهم، عندئذٍ يُعطَوْن الدنيا:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196))

هذه آية في أواخر سورة آل عمران.

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

وهذه آية ثالثة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

2 ـ المسلم المستقيم أسعدُ الناس:

والله أيها الأخ الكريم، أيها المستقيم، أيها المصلي، أيها الصائم، يا من تغضُّ بصرك، يا من تحرر دخلك، يا من تضبط أعضاءك وجوارحك، يا من تجعل بيتك إسلامياً، وعملك إسلامياً، أيها الأخ الكريم يجب أن تشعر أنك أسعد الناس، وأن طاعة الله أكبر نعمةٍ أنعم الله بها عليك، وأن نعمة الهُدى لا تعدلُها نعمةٌ على وجه الأرض، فأن تكون مهتدياً فأنت الأسعد، والله عزّ وجل يقول:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(22))

(سورة الملك)

شخص أغمض عينيه، و يمشي في الطريق، وفي الطريق حفر فوقع في إحداها، وفي الطريق أكمات ارتطم فيها، وفيه مزالق انزلق فيها، فهل يستوي مع إنسانٍ مبصر يقظ يرى كل شيء ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

إنّ شابًا نشأ في طاعة الله، يخشى الله، يؤدّي صلواته، له مجلس علم، يسعى لهداية الخلق ؛ فهل هذا كشابٍ آخر من بيتٍ إلى بيت يلهو ويلعب، ومن انحرافٍ إلى انحراف، ومن فيلمٍ إلى فيلم، ومن مسلسل إلى مسلسل، كلامه بذيء، منحرف السلوك والأخلاق، يختلط بالفتيات، ويفعل كل الموبقات، أهذا كهذا؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

هذا مؤمن موعود وعدًا حسنًا من الله عزّ وجل.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: من آية 61)

أنا أشعر أن الأخ الكريم أنه يجب أن يقول إذا سألته عن أحواله: الحمد لله على نعمة الهدى، على نعمة معرفة الله، على نعمة طاعته، على نعمة السَيْر على منهجه، على نعمة البيت المسلم، لك زوجة مؤمنة هذه لا تقدَّر بثمن، تعينك على طاعة الله، فهذه النِعَم العظمى، هذه نعم، لأنها بحقّ سببُ الحياة الأبدية ؛ أما تلك التي سماها الله نَعمة ـ بفتح النون.

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

(سورة الدخان)

هذا المال، وهذا الجمال، وهذا الغني، وهذه القوة، هذه إن لم توظّف في طاعة الله كانت دركاتٍ إلى جهنّم، حظوظ النفس إما أنها درجاتٌ إلى الجنة أو دركاتٌ إلى النار، هي حيادية، وأنت توجهها، لذلك سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة يقول:**"الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني "** ديني سليم، فكل ما بعد ذلك سهل ـ صحابية جليلة رأت ابنها بين القتلى، وأخاها بين القتلى، وزوجها بين القتلى، وأباها بين القتلى، و مع كل هذا كانت تقول: **" ما فعل رسول الله ؟ "**، فلما علمت أنه بخير، قالت: **"كل مصيبةٍ بعدك هينة يا رسول الله "**.

نحن من باب أولى ؛ إذا كان دينك سليمًا، دخلك حلالًا، زوجتك محجّبة، أولادك أبرارًا، عملك مشروع وليس لديك غلط، وليس عندك مادة محرمة في تجارتك، وليس لديك طريقة محرمة بالتعامل، فإذا كانت هناك أزمات تواجهك في حياتك، فهذا مما لا بد منه مع كل الناس، مرحباً بقضاء الله وقدره، فالإنسانُ يمتحن بالبحبوحة وبالضيق، لم أسمع أحدًا جرّب سيارة في طريق نازل، بل يجرّبها في طريق صاعد، خاصة إذا أراد أنْ يختبر مدى قدرتها على التحمل، وأنت مؤمن لابد من أن تمتحن بالشدة أحياناً:

" أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدّري وتمرري وتضيقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ".

ألا تحب أن تكون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة مؤمناً صادقاً ؟ ألم يخطر ببالك ذات مرة أن الله عزّ وجل قادرٌ أن يخلق النبي وأصحابه المحبين له وحدهم في بلد، ولا يعكر حياتهم أو قيدتهم أحد ؟ كل أصحابه ؛ سيدنا الصديق وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان وسيدنا علي، وطلحة والزبير، والحسن والحسين، ولا أحد يعاديهم أو يعارضهم، أجل كان ذلك ممكنًا، فالله على كل شيء قدير، لكن إذا لم تكن هناك معارضة ولا متاعب، ولا جهاد، فالحياة عندئذٍ تصبح لا معنى لها، وأنت عندئذ لا ترقى إلى الله عزّ وجل.

3 ـ الهناء بعد التعب:

إنّ شخصًا تعب في دراسته إلى أن نال الدكتوراه، يقول لك فيما بعد: أنا في كل حياتي هانئ، فقد تعبت في الأيام السابقة، فلولا هذا التعب لم أبلغ هذه الراحة، هذه الراحة لن يصل إليها أحد إلا بعد اجتياز العقبات، واجتياز طريق الأشواك، والجنة التي وعد الله بها المتّقين لن يستحقها الإنسان، ولن يشعر بنعمها إلا إذا قد ابتليَ في الدنيا، وامتحن ودفع الثمن، فسلعة الله غالية، ولذلك فالمؤمن كلما ارتقى سلّم الإيمان واجهه الابتلاء، ويشعر أن الله سبحانه وتعالى لابُدّ من أن يرقِيه، ولكن مرة بالرخاء ومرة بالشدة، قال أحدهم، و ما أجمل ما قال:

بصُرتَ بالرّاحةِ الكبرى فلم ترَها تنال إلاّ على جسر من التعبِ

***

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

لا تغتر.

4 ـ ما هو الغرور ؟

ما هو الغرور ؟ الغرور أن تجد علبة بالأرض فتظن أن بداخلها ساعة، فتنكب عليها، فتجد العلبة فارغة. هذا الغرور، أي أن تظن الشيء بحجمٍ أكبر من حجمه الحقيقي، الغرور أن تنكب على علبةٍ، وأنت تحسب أن فيها قطعة ذهبية ثمينة، تفتحها فإذا هي فارغة، هذا هو الغرور، أن تغتر بالشيء، أي أن تراه بحجم أكبر من حجمه، الله عزّ وجل قال:

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

سيدنا إبراهيم.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

(سورة البقرة: من الآية 126)

يا رب ارزق المؤمنين فقط، فالله عزّ وجل قال:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة: من الآية 126)

قال الله:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

يا عبدي أأنت راضٍ بها ؟ فمتاع الدنيا قليل، ألا تطمع بما عندي من جنة ؟

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

خاتمة:

يا أيها الإخوة الكرام... أعظم نعمةٍ أنعم الله بها علينا أنه هدانا إليه، وعرفنا بذاته، وأعاننا على طاعته، فهذه نعمة ما بعدها نعمة، وما سوى ذلك فكل مصيبةٍ تهون أمام هذه النعمة، كل ضائقةٍ تزول، كل كربٍ ينتهي، كل مرضٍ إلى شفاء إن شاء الله، فالعاقل لا يجعل الدنيا أكبر همه، يجعل معرفة الله أكبر همه، بل يجعل طاعة الله عزّ وجل أكبر همه، فإذا فعل ذلك كان في رضوان الله عزّ وجل. فالله عزّ وجل ما منح النبي الكريم وأصحابه الكرام النصر والعز إلا بعد أن دفعوا الثمن، فالإنسان

أحياناً يجد متاعب في بيته، متاعب في عمله، متاعب في كسب الرزق، متاعب في الاستقامة، يقول لك: وقعت في حرج، فهذا لا بدّ منه، هذا الإحراج هو الذي يرقى بك إلى الله عزّ وجل، هذا الإحراج هو الذي يظهر شرفك عند الله وعند الناس، لكن هناك من يرضي الناس كلهم، قالوا: من استطاع أن يرضي الناس كلهم فهو منافق، دائماً يقع واقفاً وهذا يسمونه: العفريت النفريت، يدبر حاله، ويخرج سالما من كل مشكلة، بالطبع على حساب دينه، فهو مع هؤلاء ومع هؤلاء، يرضي كل طرف على حساب دينه، ليس هذا ذكاءً، فالذكاء أن تكون ذا مبدأ، ولك اتجاه واضح الهدف، تتمسّك بالشرع، وفي ذلك الفلاح والسعادة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (03-20): تفسير الآيات 4 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-06-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة غافر، ومع الآية الرابعة من هذه السورة، يقول الله سبحانه و تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ

1 ـ العقل أداة بحسب الاستعمال:

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن العقل البشري أعظم شيءٍ خلقه الله في الكَون، إنما خلقه من أجل أن يكون أداةً لمعرفة الله، فكيف يستخدمه الإنسان أداةً لتغطية الانحراف، وفلسفة الشرك، وترويج الباطل، وتبرير الخطيئة ؟ ذكرت مثلاً لعلّه يوضّح تلك الآية:

لو أن جهازاً طابعاً ـ آلةً طباعة ملوّنة ـ أي أنها تُعَدُّ قمّةً في بابها، لو أُعطيت لمهندسٍ فاستخدمها في اختصاصه لقفزت أعماله قفزةً نوعيّة، ولكانت هذه الآلة الطابعة الملوّنة ـ التي تظهر أدقّ الألوان ـ معواناً له في عمله، ولارتقى عمله درجاتٍ كبيرة ؛ ولو أن إنساناً اشترى هذه الآلة، واستخدمها في تزوير النَقد، ووقع تحت طائلة القانون والعقوبات، فأودِعَ في السجن، فالآلة هي هِي، عندما استخدِمَت لما صُنِعَت له، فارتقى َمن استخدمها، وحقق أرباحاً طائلةً، ولمع اسمه، واستخدمها إنسانٌ سيئ بأبشع استغلال، واستخدمها لغير ما صُنِعَت له، فأودِعَ في السجن وصُودرت أمواله كلها، فالآلة رفعت الأول، والآلة أهلكت الثاني.

فكيف يستخدم الإنسان عقله الذي هو في الأصل من أجل معرفة الله، من أجل أن يرقى إلى الله، من أجل أن يصل إلى الله، من أجل أن يتفنّن في خدمة الخلق، من أجل أن يُعْمِلَهُ في الأعمال الصالحة، من أجل أن يكون العقل أداةً لسعادةٍ أبديّة، العقل هوَ هو نفسه إذا استُخْدِمَ لغير ما صُنِعَ له، لغير ما خُلِقَ له، يغدو أداة شرٍ مستطير، وينحدر بصاحبه دركاتٍ في جهنّم.

إذاً: حيثما ورددت كلمة مجادلة فاعلم أنّه إنسان سيئ، اختار الدنيا، واختار الشهوة، فوجِئ أو رأى أن بيده عقلاً، بإمكان هذا العقل أن يقلِب الحق إلى باطل والخير إلى شر، فاستخدم العقل في فلسفة الشرك،

وفي تبرير الخطيئة، وفي تغطية الانحراف، فكانت المجادلة، فالمجادل إنسان ذكي، لكن يستخدم عقله لغير ما صُنع له، يستخدمه في وظيفةٍ لم يُخْلَقْ من أجلها ـ هذه الآلة الطابعة الملوّنة، الغالية جداً ـ حدّثني عنها أخ فقال لي: إن ثمنها مليون ليرة، آلة طابعة ملوّنة تظهر أدقّ الأوان، لو أن مهندساً يعمل في تصميم الأشكال عن طريق الأجهزة الحاسبة، فهذه التصاميم يتم إنجازها في دقائق، ثم إن أرسلها إلى تلك الطابعة يغْدُ هذا التصميم مجسّداً ملوّناً، فبهذا يكون المهندس قد ارتقى عمله، وقفز قفزات سريعة جداً، فحقّق أرباحًا طائلة، وحقّق اسمًا في البلد، وتألّق نجمه من خلال هذا الجهاز البالغ التعقيد، بينما هذا الجهاز نفسه لو استخدمه مزوّر عملةٍ، وأتقن التزوير، وضُبِطَ متلبّساً بجرمه، وأُودِعَ السجن، كانت هذه الآلة التي أعانته على التزوير سبباً لهلاكه.

2 ـ المنحرف يفلسف انحرافه بعقله:

فإذا رأيت في القرآن الكريم آيات تشير إلى المجادلة والمشاحنة، هؤلاء الذين يقلبون الحق إلى باطل، هؤلاء الذي يبرّرون أغلاطهم بذكاءٍ بارع، هؤلاء الذين يفلسفون المعاصي ويعطونها أسماء غير أسمائها، فإذا نافق الإنسان يسمّى مرنًا، وإذا كان متفلّتًا يسمى حضارة وحرية، وإذا كانت له أساليب ملتوية في جمع الأموال يسمّى ذكيًا ماهرًا، وإذا كان مجتمع فيه اختلاط يقول لك: هذا مجتمع راقٍ مخملي، فهذه كلّها أسماء من ابتداع العقل البشري، وأحياناً يعطونك فلسفة لكل معصية، وتبريرًا لكل خطيئة، وتغطية لكل انحراف، هذا الذي يجادل، هذا الذي يتحرّك بعقله حركةً معاكسة للقرآن الكريم هذا مجادل، هذا إنسان منحرف كمزوّر العملة، عثر على آلة تصوير ملوّنة رفيعة المستوى، فأعانته على عمله الإجرامي، فلمّا ضُبِطَ كانت هذه الآلة سبيلاً إلى دخوله السجن، لهذا قال الله عزّ وجل:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

3 ـ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

هو الذي كَفَر بالله، وكفر باليوم الآخر، وآمن بالدنيا، وآمن بالمادّة، وآمن بالمال فقط، واتخذ سبيل الشهوة طريقاً له، وجعل إلهه هواه، ولديه عقل، معه عقل مبدع خلاق، فاستخدم العقل لغير ما خُلِقَ له، استخدم العقل لجمع الأموال عن طريقٍ غير مشروع، استخدم العقل للوصول إلى رغباته الدنيئة ؛ فنصَب الحيل، ونصَب الشباك. إذاً العقل إنْ يستخدم استخداماً مشروعاً يرقَ بصاحبه، وإنْ يستخدم استخداماً غير، مشروع يهْوِ بصاحبه. العقل صار درجاتٌ إلى الجنّة، أو دركاتٌ إلى النار، سلّمٌ ترقى به أو منزلقٌ تهوي به، والعقل هوَ هو.

الحظوظ الدنيوية حيادية:

وهذا يذكِّرنا مرّةً ثانية بأن كل الحظوظ التي آتاك الله إيّاها في الدنيا ؛ كحظِّ العقل الراجح، وحظ المال، وحظ الجاه، وحظ القوّة، وحظ الذكاء، وحظ الوسامة، كل هذه الحظوظ حياديّة ترقى بها أو تهوي بها، طريقٌ إلى الجنّة أو منزلقٌ إلى النار، ولذلك فالإنسان مخيّر.

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِرًا وَإِمّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

بل إن من المعاني الدقيقة التي أكرم الله بها المؤمنين، أن كلمة (الشكر) من معانيها: أنْ تستخدم النعمة في الحق.فأنت إنسان لك ميّزات كثيرة، لأنك أنت إنسان عاقل، إنسان قوي في مقتبل حياتك، إنسان ذو مال، إنسان ذو جاه، إنسان ذو ذكاء، إنسان ذو بيان، طليق اللسان، قويُّ الحجّة، دقيق المعاني، كل هذه الحظوظ التي أكرمك الله بها بإمكانك أن ترقى بها إلى الجنة، والجنة تحتاج إلى عمل، والعمل هو استخدام الحظوظ ؛ فهذا إنسان يرقى إلى الله بإتقان صنعته، هذا يرقى إلى الله بإنفاق ماله، هذا يرقى بإنتاجه العقلي، يستخدم عقله في التعريف بالله عزّ وجل، هذا يستخدم قلمه الأدبي في تأليف كتبٍ تدلُّ على الله عزّ وجل، فهذه نقطة مهمّة جداً، فليس في الوجود إنسان بلا حظوظ. إنّ أصح من ذلك أن مجموع الحظوظ متفاوتة، الحظوظ منوّعة، هي متفاوتة بين الناس، لكن لو أجريت دراسة دقيقة دقيقة، متأنيّة متأنية، صابرة أو صبورة، لرأيت أن الإنسان في مجموع حظوظه يكافئ مجموع أي إنسانٍ آخر ؛ فراحة البال حظ، والدخل حظ، فإذا ارتفع الدخل قلّت معه راحة البال، وإذا انخفض الدخل ارتفعت معه راحة البال، فلو أعطينا راحة المال درجات، وأعطينا الدخل درجات، وجمعنا هذه الدرجات، لكان المجموع متكافئا عند معظم الناس.

ربنا عزّ وجل جعل الدنيا دار ابتلاء، ولم يَجعلها دار جزاء، لو جعلها دار جزاء لكان هيناً عليه أن يعطي كل إنسان كل الحظوظ في أعلى درجاتها، في درجاتها المُطْلَقة، فأحياناً تجد امرأةً تجمع بين النسب، والجمال، والغنى، وربّما كان اجتماع هذه الحظوظ لديها وبالاً عليها، فأن يصل الإنسان إلى المُطْلَق في الدنيا ربّما كان هذا سبب البلاء، فربنا عزّ وجل هو الذي وزّع الحظوظ.

الحظوظ الدنيوية موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، ويوم القيامة توزّع توزيع جزاء:

ولكن هذا يعطينا معنىً آخر، وهو أن الحظوظ في الدنيا موزّعة، لكن توزيعها توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة، لكن توزيع الآخرة توزيع جزاء، وأوضح مَثَلٍ الغنى والفقر، إنسان عاش ثمانين سنة ـ وهو عمر عالٍ، بينما النموذجي ستون سنة، الواقعي خمسة وخمسون سنة، سنأخذ إذًا عمر ستين سنة

لمثالنا هذا ـ إنسانان غنيٌ وفقير، عاش كل منهما ستين عاماً وتزامنا في فترة واحدة، واحد منهما تمتّع بالغنى الذي لا حدود له، فأكل ما لذّ وطاب، وسكن أفخر البيوت، وركب أجمل المراكب، وسافر، وتجوّل، أعطى نفسه كل شهواته ؛ وإنسان عاش في حرمانٍ وفقرٍ مدقع، فحياته خشنة، طعامه خشن، بيته قميء، ثيابه رثّة.

إنسانان، الأول امتحن بالغنى والثاني امتحن بالفقر، الغنى في حق الأول ابتلاء، والفقر في حق الثاني ابتلاء، لو تصوّرنا أن الغنيّ امتحن بالغنى فلم ينجح، فتاهَ بماله على عباد الله، وأنفق ماله على شهواتٍ لا ترضي الله، ومنعه أهلهَ ومستحقيه، والمال جعل صاحبه يزهو على عباد الله ؛ والفقير رضي بقسمة الله له، واستقام على أمر الله، واتّقى الله في كل حياته، إلى أن وافت المنيّة الرجلين.

ففي الآخرة ستنعكس الآية، الذي كان فقيراً، ونجح سيغدو غنياً إلى أبد الآبدين ؛ والذي كان غنياً فرسب سيغدو فقيراً إلى أبد الآبدين، هذا معنى قول سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله>>.**

لكن ما الذي يمنع من أن ينجح الغني في غناه في الدنيا فيغدو غنياً إلى أبد الآبدين ؟ ما الذي يمنعه ؟ ليس الفقير الصابر بأعظم أجراً من الغني الشاكر.

الإنسان يحتاج إلى تفكير، إلى أن يُعْمِلَ عقله، سيدنا نُعَيْم بن مسعود ـ نحن نقول: سيدنا من دون أن نشعر، جاء مع جيش أبي سفيان ليحارب المسلمين في المدينة، ثم أسلم، وصار صحابيًا جليلاً، وإنسانًا عظيمًا ـ إذًا: جاء مع الأحزاب ليقاتل النبي يوم الخندق، وقد بقي الحصار مستمرًا عشرين ليلةً، وفي إحدى الليالي أصابه أرقٌ، فخاطب نفسه، أجرى حوارًا ذاتيًا، قال: **<< يا نعيم، إنّك رجلٌ لبيب، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ لماذا جئت تقاتل هذا الرجل الصالح ؟ إلامَ يدعو هذا الرجل ؟ هل انتهك لك عرضاً فجئت تقاتله ؟ هل اغتصب مالاً فأتيت تقاتله، ماذا فعل ؟ إنه دعا إلى الله، إن أصحابه أناسٌ طيّبون أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر >>**، وهذه محاكمة لم تستغرق إلا دقائق، هذه المحاكمة انتهت إلى أنه اتخذ قراراً بأن يُسْلِم، قام في جُنح الظلام، وتسلل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فلمّا رآه قال: **" نعيم بن مسعود ؟ "** قال: **" نعم يا رسول الله، جئتك مسلماً "**، وأسلم، واللهُ عزّ وجل أجرى على يده وحده نصًار مؤزّرًا.

معركة الخندق من دون مبالغة تمّ فيها النصر على يدِ نعيم بن مسعود، كان ذكياً عاقلاً استخدم ذكاءه في أعلى درجة، فرّق الأحزاب وأوقع بينهم، وجعل بعضهم يشك ببعض، وجاءت الرياح فقلبت القدور، واقتلعت الخيام، وأطفأت النار، وكفى الله المؤمنين القتال.

لذلك هذا العقل الذي نتحدّث عنه به تسعد، وبه تشقى، تذكّر مثل الآلة، آلة غالية جداً، وفيها ألوان دقيقة جداً، يمكن أن تجني منها مئات الألوف بل والملايين، ويمكن أن تودعك السجن، والآلة هي نفسها، إن

استخدمتها فيما صُنعت له ارتقيت، وإن استخدمتها فيما لم تصنع له، فزوّرت بها العملة، ربّما أودى بك هذا العمل إلى السجن والهلاك.

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ(4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

1 ـ معركة الحق والباطل قديمة مستمرة:

الحقيقة معركة الحق مع الباطل معركة قديمةٌ ومستمرّة، الإنسان لا يفاجأ، فبالحياة حقٌ وباطل، هناك حّق اعتقادي، وحق سلوكي، وباطل اعتقادي ؛ آراء، ومذاهب، ونظريّات، وفلسفات كلُّها باطلة، وهناك سلوك أساسه الحق والاستقامة، وسلوك أساسه الانحراف، هناك معركةٌ قديمة ومستمرةٌ وأبديّةٌ بين الحق والباطل، فإذا كذّب كفّار قريش النبيّ عليه الصلاة والسلام، ينبغي ألاّ يحزن النبي، و إن حَزن فالله سبحانه وتعالى يواسيه، قال:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

فلست وحدك المكذّب، فيا أيها الأخ الكريم ؛ إذا دعوت إلى الله، ورأيت معارضةً، ورأيت من يسفِّه رأيك، رأيت من يخوّفك، رأيت من يقلّل من شأنك، هذه معركة قديمةٌ ومستمرّة، الحق دائماً يناهض الباطل، والباطل يناهض الحق.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ)

كل الذين تحزّبوا على أنبيائهم هم الأحزاب، هذه لا تعني أن الأحزاب كانوا فقط في عهد النبي، فالمفسّرون قالوا: الأحزاب، كل من تحزّب على نبيٍ فهو من الأحزاب.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ)

2 ـ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ

ليأخذوه ؛ إما ليقتلوه، وإما ليخرجوه، وإما لينهوا دعوته، أو يطفئوا نور الله في الأرض، أيْ أنّ أهل الباطل لا يتمنون الأماني فقط، بل يريدون أن تُطفأ كلمة الحق، لا يريدون للحق أن ينتشر، لا يريدون للفضيلة أن تعُم، لا يحبون الخير، إنهم يحبون الضلال، ويحبون الإضلال، يحبون الفساد، ويحبون

الإفساد، هذا شأن أهل الباطل ؛ وشأن أهل الحق أنهم يحبون الخير للناس جميعاً، فربنا عزّ وجل يواسي النبي، يطمئنه، يخفِّف عنه، يسَرّي عنه، قال له:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ)

لكن الله عزّ وجل بالمرصاد.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

(وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

3 ـ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ

كذلك حال أهل الباطل فهم أحياناً لا يكافحون الحق مجاهرةً، ولكن يواجهونه بأساليب ذكيّة جداً، هناك أسلوب أن يُجابه الرجل عدوه مجابهة، وأسلوب آخر أن يُفجّر الشرّ من الداخل، أي تجعل أهل الحق يتخاصمون فيما بينهم، إنسان يندسُّ بينهم ؛ يحرّف الحق، يزوّر الحقيقة، ويدّعي أنه من أهل الحق، فهناك أساليب ماكرة وخبيثة وذكيّةٍ من أجل إطفاء نور الله عزّ وجل، ومن أجل إنهاء أهل الحق.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

4 ـ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

لو أن إنسانًا تيسّر له أن يطّلع على تاريخ الفِرَق الضالّة في التاريخ الإسلامي بشكل واسع، لرأى أنها أكثر من أن تُعَد، وأكثر من أن تحصى، وكل فرقة بنت اعتقادها على فلسفة معيّنة، وعلى أدلّة معيّنة، وعلى كلام مُزَخْرَف، ونمّقوا، وزخرفوا، وأفسَدوا، وفي النهاية بقي الحق شامخاً، وكل هذه الفرق تداعت كبيت العنكبوت، الباطل باطل.. وليطمئن أهل الإيمان إلى إيمانهم وسلامة نهجهم:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

كان زهوقاً، بمعنى أن من شأن الباطل أنه زهوق، ما قال: كان زاهِقاً، بل كان زهوقًا، وزهوق على وزن فعول، هذه صيغة مبالغة، الباطل لا يقف على قدمين، للباطل جولةٌ، ثمّ يضمحل.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

والله عزّ وجل هو الموجود، وهو الحق.

(قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46))

(سورة طه)

فأين أنا ؟ معكما أسمع و أرى ؛ هذه الكلمة مطمئنة، الله موجود.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

جبالٌ بأكملها تزول من مكرهم.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

حتى إن بعض الآيات التي وردَت في القرآن الكريم من أن الناس جميعاً بما فيهم المؤمنون سوف يَردون النار، ورود النار لا يعني دخولها، الورود أن تقترب منها لترى مَن فيها، مِن أجل أن يتحقّق اسم الحق، فالإنسان كان في الدنيا، ورأى من اعتدى على حقوق الآخرين، من اعتدى على حياة الآخرين، من اعتدى على أعراض الآخرين، ربّما لم يحاسب في الدنيا، لكن اسم الله هو الحق، وهذا مثل بسيط:

لو أنك قرأت قصّة، أو شهدت عملاً مُمَثّلاً، ففي أول فصل قُتِل إنسان، وتمّت مشكلة، ووقعت جريمة، وأرخي الستار، هل تعتقد أن المسرحيّة انتهت ؟ فماذا إذاً حلّ بالقاتل ؟ ماذا حلّ بهذا الذي فعل هذه الجريمة ؟ المسرحيّة ناقصة، لو أن الستار أرخي فهذا فصل واحد، وبقيت فصول، فالحياة تمثِّل فصلًا واحدًا، والفصل الثاني يوم القيامة من أجل أن تسوّى الحقوق، أن يعطى كل ذي حقٍ حقّه، أن يؤخذ للمظلوم من الظالم، وللمعتدَى عليه من المعتدي، وأن ينال كل مظلومٍ حقّه، لذلك فالله سبحانه وتعالى بدأ الخلق، ثم يعيده لتُجزى كل نفسٍ بما تسعى، فإعادة الخلق من أجل الجزاء.

(كَذّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمّتْ كُلُّ أُمّةٍ بِرَسُولِهِمْ)

5 ـ نيّة الكافر شرٌ من عمله:

القضيّة برمّتها أنّ نيّة الكافر شرٌ من عمله، لو شققت على قلب الكافر لتمنّى أن يفنى الحق، وهذا عين الضلال كله. وألاّ يبقى على وجه الأرض من يوحِّد الله، لتمنّى أن يعمّ الضلال، لتمنّى أن يعمّ الفسق والفجور، فنيّة الكافر شرٌ من عمله، ونيّة المؤمن خيرٌ من عمله، لكن الله عزّ جل موجود، وبعضهم قال: الحمد لله على وجود الله، لأن خطّة الكافر مستوعبةٌ في خطّة الله عزّ وجل، فلا يقع منها إلا الذي يأذن به الله سبحانه وتعالى، لا يقع من خطّة الكافر إلا بالقدر الذي يأذن الله به، والله عزّ وجل أفعاله كلها خيرٌ مطلق، ولو بدا بعضها شراً بمقياس الناس، لكن الشرّ النسبي هو في الحقيقة خيرٌ مُطْلَق.

لا تيأس مهما عظُم العدو وطغى:

ربنا عزّ وجل علّمنا من خلال قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، فسيدنا موسى يحمل الأمر التكليفي، بينما سيدنا الخضر أعطاه الله سرّ الأمر التكويني، فالله عزّ وجل له أمر ونهي، وله أفعال، فبعض أفعاله أطلع سيدنا الخضر على سرّها، وعلّم سيدنا موسى الأمر التكليفي ؛ افعل ولا تفعل، الحلال والحرام، فربنا عزّ وجل أطلعنا على أن هذا الذي خُرقت سفينته، فهذا الخرق شرٌ في نظره، لكن بعد حين تكشّف أن هذا الشر النسبي هو خيرٌ مطلق نجت من المصادرة، فيا حبّذا هذا الخرق كي تنجو من المصادرة، وهذا الذي أنشأ بناءً من دون أن يأخذ أجرةً كان هذا هو الخير، والقصّة بين أيديكم في سورة الكهف، تُعَلِّمنا أن الفعل التكويني خيرٌ مطلق، لكن قد يبدو للإنسان شرّاً نسبياً، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

فالمؤمن مستسلم لله عزّ وجل، فعليه أن يتقصّى أمر الله عزّ وجل، وهو راضٍ بقضاء الله وقدره. أريد من هذه الآية أنك مهما سمعت عن كيد الكافرين، وعن خططهم الجهنّميّة، وعن نواياهم الشريرة، وعن أعمالهم الفظيعة، مهما سمعت لا ينبغي أن تضعف همّتك، ولا ينبغي أن تشعر بالوَهن، يقول لك: يا أخي انتهينا، لن تقوم للمسلمين قائمةٌ بعد اليوم، وتسمع منه: المستقبل مظلم، وأعداؤنا تملّكوا زمام الأمور، أمورنا بيدهم، هذا كلام يُلقى بعيدا، هذا من عمل الشيطان.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

فهذا الذي حدث في شرق الأرض، من كان يظن أنه يحدث قبل خمسة أعوام، والله لو أنّ أحدًا تنبّأ بحدوثه لأودع مستشفى المجانين، ثمّ حدث ما حدث، معنى هذا أن الله عزّ وجل موجود.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16))

(سورة الطارق)

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

(سورة الأنفال: من الآية 30)

مكر الله عزّ وجل يسمونه في البلاغة مشاكلة، يس هذا مكراً كمكر أهل الكفر والضلال، بل هو تدبير حكيم، لكنّه تدبيرُ حكمةٍ يردُ على مكرهم، تدبيرٌ يوقفهم عند حدّهم، تدبيرٌ يعلِّمهم أنه لا إله إلا الله.

وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

إخوة يوسف ماذا فعلوا ؟ بخطّةٍ جهنّميّةٍ أرادوا أن يتخلّصوا من أخيهم يوسف، طفلٌ صغير كالوردة أودِعَ في جُبٍ ليموت، احتمال الموت محقّق.

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

(سورة يوسف: من الآية 19)

وأصبح هذا الطفل المقهور شابا، ثم اكتهل، و صار عزيزَ مصر.

(قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف: من الآية 19)

ربُّنا عزّ وجل علّمنا فقال:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

هذه آية يجب أن تكون شعار كل مسلم

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

مهما سمعت من كيد الكفّار، مهما سمعت من خططهم الجهنّميّة، مهما سمعت من نواياهم الشريرة، مهما شعرت أنهم أقوياء، قال النبي عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم:

((لعلّه يا عدي إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة البابلية تحجُّ البيت على بعيرها هذا لا تخاف، لعلّه إنما يمنعك يا عدي من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم، وايم الله ليوشكنّ أن ترى القصور البابليّة مفتّحة لهم، لعلّه إنما يمنعك يا عدي من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ أناس فقراء ـ وايم الله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه))

[ورد في الأثر]

الحقيقة أن الخط البياني للدعوة الإسلاميّة كان في الحضيض لما قدم الرسول إلى الطائف، فالنبي ذهب ماشيًا على رجليه، وقطع ثمانين كيلو متراً ليدعو أهل الطائف، فكذّبوه، وسخروا منه، وتهجّموا عليه، واعتدوا عليه. وقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ناصر نبيّه))

[ورد في الأثر]

في الهجرة، ونحن في ذكرى الهجرة.

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

فبربّكم إنسان في دولة من دول العالم الخامس وليس الثالث، دولة متخلِفة جداً جِداً، ليس فيها شيء، صحراء وخيام، لو قلنا لأحد أفرادها: كيف بك أن تتصدَّر البيت الأبيض ـ في واشنطن ـ بماذا يتَّهمك ؟ بالجنون، النبي عليه الصلاة والسلام وهو مطارد، دمه مباح، مئتا ناقة لمن يأتِ به حياً أو ميّتاً، يلتقي بسراقة فيقول له:

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

مدينة كسرى العاصمة الأولى في العالم، والقسطنطينية العاصمة الأولى كذلك، عاصمتان للعالم فقط يوم ذاك، الأولى عاصمة كسرى: المدائن، والثانية القسطنطينيّة، والذي حدث في عهد عمر أن سراقة لبس سواري كسرى، إله يَعِدُ ويفي.

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: من الآية 41)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

فإذا اللهُ عزّ وجل وعد المؤمنين بالنصر فنحن علينا أن نطيعه فقط،، فما مهمّتي إذًا ؟ أنا لا أملك أن أمنع قِوى الشر أن تفعل ما تفعل، هذه بيد الله عزّ وجل، ولكني أملك أن أطيعه أولاً، فإذا أطعته ألهمني رُشْدِي، وأعانني، وقلب الموازين أمامي، أما إذا لم أطعه، وبقيت على مستوى العواطف، والثقافة الإسلاميّة، وعاطفة إسلاميّة، ولكن بدون تطبيق إسلامي على أيّ مستوى، ليس هناك تطبيق إسلامي لا في البيت ولا في المعمل، ولا على مستوى السلوك الفردي ولا الجماعي، عندئذٍ لا نستحق النصر.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

أين هم ؟ هؤلاء الذين ائتمروا على قتل النبي أين هم ؟ قُتِلوا في بدر، هؤلاء الذين كادوا للمسلمين أين هم ؟ كل الذين كادوا للمسلمين لم تقم لهم قائمة، وبقي الدين شامخاً كالطود، الله موجود، كلّما ضاقت نفسك قل: الحمد لله على وجود الله، اطمئن هذا دين الله، هذا دين الله لا يستطيع أحدٌ في الأرض أن ينال منه.

(فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

هكذا ينتقم الله من أدائه وينتصر لأوليائه:

ولماذا نحن نبتعد كثيراً ؟ فالأحداث التي من حولنا تؤكِّد هذه المعاني، أليس هناك بلاد خضراء كجنات النعيم، ذاقت حرباً أهليةً خمسة عشر عاماً ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

ألا ترى مدناً فسقت وفجَرَتْ فأصابها زلزالٌ فهزّ أركانها ؟ ألم تر الأعاصير تجتاح أجمل الولايات في بعض البلاد ؟ يقول لك: الخسارة بلغت ثلاثين مليارا في يومين، لم يبقَ شيءٌ على الساحل إلا وهُدِم، إعصار واحد، ترى الكوارث الطبيعيّة، الزلازل، البراكين، الحروب الأهليّة، بأس الإنسان، كلها عقاب إلهيّ.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

هناك أدلّة تاريخيّة، وأدلّة معاصرة، فهذا مرض الإيدز أليس آية من آيات الله عزّ وجل ؟ أحدث إحصاء أن هناك عشرين مليون إنسان يحمل هذا المرض في أمريكا، ويقول الأطبّاء: أغلب الظن أنه لن يصل الإنسان إلى مضادٍ لهذا المرض أبداً، لأنه عقابٌ إلهي لمن خرج عن فطرته الإنسانيّة، لكن ما أكثر العبر، وما أقلّ المُعْتَبرين، أنت مخيّر، إما أن تستقيم على أمر الله، ولك الاستقرار والتوازن، ولك النعيم، ولك التوفيق.

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(36))

(سورة التوبة)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(153))

(سورة البقرة)

هذه معيّة خاصّة أيها الإخوة، أي أنّه معك بالتأييد، معك بالحفظ، معك بالنصر.

واللهِ هذه آية لا أشبع من تكرارها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

مَن منكم يحب المرض يا أيها الإخوة ؟ مَن يحب القهر ؟ من يحب الذل ؟ من يحب التعذيب ؟ من يحب الفقر المُدْقِع ؟ من يحب الشقاء الزوجي ؟ من يحب أولادًا عاقِين ؟ هذا كله لا يحتمل، ربنا سبحانه قال:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

الله يعجب **!!**، هل تعتقد أيها الإنسان أنني سأعامل المؤمن المستقيم كما أعامل المُنحرف ؟ أو أنني سأعامل المنحرف كما سأعامل المستقيم ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

الأمر واضح جداً، إن أردت أن تستقيم لك الخير، لك الطمأنينة، لك الرضى، لك التوفيق، لك الحِفْظ، لك التأييد، لك السكينة، لك السعادة ؟ وإن خرجت عن أمر الله عزّ وجل ـ قال له: **" عظني ولا تطل "**، قال له:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

قال: **"أريد أخفّ من ذلك "**، قال:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

[ورد في الأثر]

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

1 ـ معنى: حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

قد يفهم بعضهم الآية فهماً ما أراده الله أبداً، فنحن قد قررنا في النظام الداخلي للمدارس أنّ كلّ من يتغيّب أسبوعين عن المدرسة يفصل، المادة رقم ثلاثة في النظام الداخلي للمدارس، فقد يغيب طالب يومًا، يومين، ثلاثة، خمسة، اثني عشر، ثلاثة عشر، أربع عشرة، لكن إذا غاب خمسة عشر انطبقت عليه المادّة الثالثة من النظام الداخلي فاستحقّ الفصل، هذا هو المعنى بالضبط، هذا المعنى الذي يليق بجلال الله عزّ وجل.

(حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ)

فالكلمة هي القانون، القانون الإلهي يقتضي بأن الذي يكفر سوف يعذّب في الدنيا والآخرة، ومصيره إلى النار.

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[من الجامع الصغير عن جابر]

2 ـ العذاب الدنيوي للكافر:

لذلك كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، القانون الإلهي والسُنّة الإلهيّة أن الذي يشعر أنه خسر نفسه يدخل في عذابٍ نفسي في الدنيا لا يُحْتَمَل، ثم يدخل في عذابٍ مادي لا يحتمل، هذا هو القانون الإلهي.

(وَكَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا أَنّهُمْ أَصْحَابُ النّار)

فربنا عزّ وجل حدّثنا عن سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّار وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

إن إنسانا في بعض المدن كان ثَمِلاً ـ شرب الخمرة حتى ثَمِل ـ فلمّا دخل البيت قتل زوجته وأولاده الخمسة، فلمّا صح سأل نفسه: ماذا فعلت ؟ فقتل نفسه، لأنه ما تحمّل هذه الجريمة، نفسك لها قوانين.

حدّثني رجل عن إنسان يقود مركبته الساعة الثانية ليلاً، وأب أرسل ابنه ليشتري له حاجة من البقاليّة تفتح إلى ساعة متأخّرة من الليل، فسائق السيارة دهس هذا الطفل الصغير، وأرداه قتيلاً، وعدا لا يلوي على شيء، ما أحد عرف القاتل، ولم يُكتب ضبط، ولم يلاحق من قِبَل الشرطة، يقول هذا الذي دهس الغلام: بقيت عشرين يوماً لم أذق طعم النوم، إلى أن أتصل بطبيب نفسي، الطبيب أدرك المشكلة ـ الشعور بالذنب ـ طفل وديع، يصبح تحت عجلات السيارة، وبالطبع ما أحد أدانه، وما أحد ضبطه، هذا الطبيب كان حكيماً فقال له: لن ترتاح نفسك إلا إذا أرسلت لأهل القتيل الديّة الكبيرة، لعلّك إذا دفعت هذا المبلغ الكبير أن تنام الليل ـ فلا أحد يعذّب المعتدي أو المخطئ، ولكنه يعذّب نفسه.

هناك عذاب في جهنّم، عذاب الحريق وهذا ثابت ويضاف إليه العذاب النفسي كذلك، أجل يضاف إلى عذاب الحريق، إلى عذاب النار التي تشوي الجلود عذاب النفس وهو شديد..

(وَكَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا أَنّهُمْ أَصْحَابُ النّار)

فالإنسان أحياناً يسرف في المعصية إلى أن يصل إلى طريق مسدود.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

(الّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلّذِينَ آمَنُوا رَبّنَا وَسِعْتَ كُلّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلّذِينَ تَابُوا وَاتّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

1 ـ الملائكةُ أنصحُ خلق الله إلى البشر، وأغشُّ خلق الله إلى البشر الشياطين:

هؤلاء مَنْ ؟ الملائكة، أنصح خلق الله إلى البشر الملائكة، وأغشُّ خلق الله إلى البشر الشياطين من غير الإنس، أنصح مخلوقٍ لك المَلَك، وأغشُّ مخلوقٍ لك الشيطان، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(59)أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(60)وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(61)وَلَقَدْ أَضَلّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(62)هَذِهِ جَهَنّمُ الّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(63)اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(64))

(سورة يس)

من جهتي كلّما رأيت إنسانًا يُشْنَق، أقول: هذا من عمل الشيطان، سار مع الشيطان فكان هذا مصيره، كلّما رأيت إنسانًا مودعًا في السجن لاقتراف الجرائم، المخدِّرات، القتل، السرقة، أقول: هذا من عمل الشيطان، الشيطان سوّل له هذه المعاصي فاستحقّ هذا المصير، كلّما وجدت شقاقًا زوجيًا غير محتمل أقول: أحد الزوجين مع الشيطان يسلك سلوك الشيطان، والشيطان يأتينا عن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن أمامنا، ومن ورائنا، عن أيماننا بالغلو في الدين، غلو الإفراط، وغلو التفريط، وغلو التعصُّب، غلو المنافسة غلو الحسد، غلو الطعْن، غلو الاعتقاد إلى درجة أن يقولوا: إننا وحدنا على حق، هذا غلو عن أيمانهم، وعن شمائلهم المعاصي، ومن بين أيديهم التجديد والتحديث، ومن خلفهم التمسُّك بالتقاليد غير الإسلاميّة، أربع جهات، لكن جهة العلو ـ جهة الاتصال بالله عزّ وجل ـ فهذه طريقٌ آمنةٌ وسالكة، وكذلك جهة العبوديّة لله جهة آمنة وسالكة. فهؤلاء الملائكة.

(الّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ)

2 ـ العرش:

هذه الكلمة وردت في القرآن الكريم، استوى على العرش كما قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم ـ عُلِم بهذه الآية ـ والكيف مجهول "**، أيْ نَكِلُ أمر تفسير العرش إلى الله عزّ وجل، لأننا لا نملك إمكانيّة تفسير هذه الكلمة.

بعضهم قال: **"بيتٌ في السماء، بيتٌ معمور يطوف حوله الملائكة كما هي الكعبة في الأرض**، فهذا ممكن، فأيّ تفسير للعرش قاصر، هذا مما استأثر الله بعلمه.

على كلٍ الملائكة.

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

دائماً عندنا في الدين منطقة اعتقاديه، ومنطقة تحقيقيّة، ومنطقة في أفكار الدين تصديقيّة، موضوع العرش والكرسي، وكذلك موضوع وجاء ربُّك، موضوع: يد الله فوق أيديهم، موضوع: استوى على العرش، موضوع: تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، موضوع: إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربُكم إلى السماء الدنيا، هذه كلها مجموعة آيات لا تزيد على عشر آيات متعلِّقة بذات الله عزّ وجل، العلماء الأجلاء وقفوا حيال هذه الآيات موقفين صحيحين، وموقفين غير صحيحين:

الموقف الأول الصحيح: فوّضوا أمر تفسيرها إلى الله، العرش معلوم، والكيف مجهول، لأن هذه مغيّبات، فالله أخبرنا أنه يوجد عرش في السماء، فليست لدينا إمكانيّة أن نصل له، ما عندنا إمكانيّة أن نعمل له تنظيرًا، مثلاً بالأشعّة نصورّه، بالطيف نصورّه، ليس من مجال، علمُنا قاصرٌ عن إدراك العرش، وأي تفسير للعرش لم يرد في الحديث الصحيح هو غير صحيح، فنحن في مثل هذه الكلمات الغيبيّة لا نملك إلاّ التطبيق، لأن الله عزّ وجل:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

السلف فوّضوا أمر هذه الآيات إلى الله، الخلف أوّلوها ـ وهذا شيءٌ جميل ـ قالوا: وجاء ربُّك ؛ أيْ جاء أمره، يد الله ؛ أيْ قدرته، سمعه وبصره ؛ أيْ علمه، نفسه ؛ أيْ ذاته، نزل بمعنى أن الله سبحانه وتعالى سمح لهذا العبد أن يُناجيه، هذا هو المعنى، فإما أن تفوّض، وإما أن تؤوِّل، أما الذين عطّلوا هذه الآيات، وأما الذين جسّدوها، جسّدوا، وعطّلوا فهم فرقتان ضالتان، نحن مع التفويض أو مع التأويل، ولسنا مع التعطيل ولا مع التجسيد. إذاً الملائكة:

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ)

لا نملك من شرح هذه الآية إلا ما وردت به السُنّة، فالنبي الكريم ما وصف تفاصيل حول العرش أو حمل العرش.

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)

3 ـ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

الملائكة كائنات نورانيّة دائمة التسبيح لله عزّ وجل، كما قال سيدنا علي: **<< رُكِّبَ المَلَك من عقلٍ بلا شهوة، ورُكِّبَ الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، ورُكِّبَ الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان >>.**

(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)

انظر إلى هذه الآية ما أدقّها !

(وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا

أحياناً يكون هناك علم ولكن ليست لديه رحمة، علم مع قسوة، فهذا شأن الإنسان، أحياناً ترى الرحمة البالغة، ولكن بلا علم، تصير مؤذية، فاجتماع الرحمة مع العلم عند الله فقط، وربنا عزّ وجل قال:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

فبقدر ما هو عظيم بقدر ما هو كامل، فعند الله تجد رحمة وعلماً، بقدر ما هو عليم هو رحيم، أفعال الله كلها تنظِمها رحمته وعلمه.

(رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)

هل هناك شيءٌ لا تسعه رحمة الله ؟ لا، هل هناك شيءٌ لا يسعه علم الله عزّ وجل ؟ أي شيءٌ تسعه رحمة الله عزّ وجل ويسعه علمه.

(فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

دعاء الملائكة للمؤمنين:

هذا دعاء الملائكة للمؤمنين.

لا يسعد الأبُ إلا إذا رأى ابنه سعيداً:

(رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وهذه بشارة للمؤمن إذا ربّى أبناءه تربيّة صالحة:

(أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور: من الآية 21)

والأب لا يسعد إلا إذا رأى ابنه سعيداً.

(رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ)

(فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

(سورة هود)

معنى هذا.

(وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(8)وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

كل مصائب الدنيا تهون، لكن احذر المعصية:

فإذا وصل الإنسان إلى دار السلام بسلام، إذا انتهت حياته إلى الجنّة، فقد فاز فوزاً عظيماً، مهما فاته من أشياء في الدنيا، لذلك سيدنا الصديق كُتِبَ عنه أشياء كثيرة.

لفت نظري مرّة هذه العبارة: **" ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط "**، فإذا أنت عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وسلكت الطريق إليه، وكان دخلك محدودًا، فلا بأس، إنا لله وإنا إليه راجعون، زواجك غير ناجح، لا مانع، الأولاد من الدرجة الوسطى، لا بأس ولا حول ولا قوة إلا بالله، خمس أو ست علل في جسمك، أفوض أمري إلى الله، فلو فاتك شيء من دنياك فقد وصلت أخيرًا إلى جوهر الحياة ونعيمها، والأمور بخواتيمها.

أما الذي أعطاه الله كل شيء، وحجب عنه معرفته، حجب عنه شرعه، حجب عنه الكمال، ما ربح شيئاً، هذا معنى القول الثابت: **" يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك "**. هؤلاء:

(وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

من هنا كان سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة قال: **<< الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>**، كله سهل، ما دام أني ما عصيتُ، وما خرقتُ حُجب الاستقامة، وما أكلت مالًا حرامًا، ما ارتكبت مُنكرًا، ما عملت السيئات، ما دُمتُ مستقيماً فكله يهون.

هذه المرأة الأنصاريّة التي رأت ابنها قتيلاً في أرض أحد، وبعد قليل رأت زوجها قتيلاً، ثم رأت أباها قتيلاً، رأت أخاها كذلك قتيلاً ـ هذا شيء فوق طاقة البشر، الزوج والابن والأب والأخ ـ قالت: **" ما فعل رسول الله ؟ "** قالوا: **" هو بخير "**، قالت: **"يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك تهون "**، ليست هناك أي مشكلة.

الإنسان إذا كان دينه سليمًا فالمشكلة يسيرة، هو مثلاً ساكن في بيت عالٍ، أو قبو بأجرة، ملك، كبير، صغير، ضمن المدينة، خارج المدينة، هذه ليست مشكلة، أجل، ليست هذه المشكلة، المشكلة أن تعصي

الله، المشكلة أن يكون الطريق مسدودًا، المشكلة أن يصل الطريق إلى النار فهذه هي المشكلة، بل هذه مشكلة المشاكل.

الأحوال مهما قست فكلُّها تمضي تنقضي إلى زوال، والموت يسوي بين جميع الناس، فالرياضي يموت، والإنسان الذي أهمل في نفسه يموت، والغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والحاكم يموت، والمحكوم يموت، والظالم يموت، والمظلوم يموت، كلهم يموتون ـ سبحان من قهر عباده بالموت ـ كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، المشكلة أن تقع في معصية، فقط هذه هي المُشكلة، لذلك: كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، إذا كنت مستقيمًا فأنت الفائز الأول، أنت الرابح، أنت المفلح، أنت الناجح، أنت المتفوّق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (04-20): تفسير الآيات 10 - 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-07-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من سورة غافر، ومع الآية العاشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

1 - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

كيف يكون الكافر حين يكشف الحقيقة يوم القيامة ؟

يبدو أن الإنسان يوم القيامة حينما يرى مصيره الأبدي، وحينما يرى أنه خسر كل شيء، خسر نفسه التي هي أمانةٌ في عنقه، لم يزكها، بل دسّاها، وقد قال الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

حينما يرى الإنسان الحقيقة التي كان غافلاً عنها، حينما يصبح بصره حديداً أي نافذاً، حينما يكشف له الغِطاء، حينما تضح الحقائق، حينما يبدو ما كان خافياً عنه، يصيبه من الألم ما لا سبيل إلى وصفه، حتى إنه ورد في كتاب الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر إلي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الجامع الصغير عن جابر، وفي إسناده ضعف]

فإضافة إلى عذاب الحريق، وإلى عذاب النار المادي، هناك عذابٌ نفسي لا يحتمل، فهؤلاء الذين كفروا، معنى كفروا أي كذبوا بالحق لما جاءهم، كذبوا وأعرضوا، الإيمان تصديق وإقبال، الكفر تكذيب وإعراض، هؤلاء الذين كفروا يصيبهم من الألم ما لا سبيل إلى وصفه، حتى أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

لا يحتمل الندم والخسارة أحدٌ:

أيها الإخوة... مشاعر الندم صعبة جداً، الإنسان إذا اكتشف فجأةً أنه خسر خسارةً كبيرة، الخسارة في الدنيا صعبة، خسارة المال صعبة، يكون التاجر يتمتع بصحةٍ تامّة، وله بيت، وله مركبة، وله متجر، وله مستودعات، ومعه أموال طائلة، يعقد صفقة من الصفقات فيخسر أرباحها، وقد يخسر جزءاً من رأس ماله، تراه بأحوالٍ لا توصف، الخسارة مؤلمة، خسارة جزءٍ من المال مؤلمة فكيف خسارة المال كله.

أطباء القلوب عندهم حالات كثيرة، أزمات قلبية حادة أساسها فقد المال، والإنسان يوم القيامة لم يفقد ماله، بل فقد نفسه، رأس ماله الوحيد لدخول الجنة تزكية نفسه، جاء إلى الدنيا وغفل عن الكون الذي سخّره الله تسخير تعريف، استخدم عقله على خلاف ما خلق له ـ كما قلت في الدرس السابق ـ استخدم عقله بخلاف ما خلق له، لم يعبأ بفطرته، نادته فطرته: لا تفعل، يا عبد الله لا تفعل. لم يستجب لنداء الفطرة، ولم يستمع لصرخة العقل، ولم ينظر إلى عظمة الكون، ولم يعبأ بهذا التشريع، ولم يستخدم حظوظه إلا في خلاف ما خلقت له، استخدم الشهوات لا ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، بل ليهوي بها إلى أسفل سافلين.

هذا حينما يكتشف الحقيقة ماذا يحصل له ؟ فتصور إنسانا باع بيته الذي في أرقى أحياء دمشق، وباع البُستان مع كل مستلزمات قضاء الإجازات، باع معمله، باع مركبته، باع المحلات، وقبض أثمانها عملةً، وذهب ليضعها في المصرف فإذا هي مزيّفة، ففي هذه اللحظة بماذا يشعر ؟ الصعقة لا تحتمل، الخسارة صعبة جداً، الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا.

هذا العمر ثمين، ربنا عزّ وجل أقسم بالعصر، لأن الإنسان زمن، والإنسان يستهلكه الزمن، كلما مضت الأيام والأسابيع والشهور والسنوات استهلك الإنسان، فإذا اكتشف بعد فوات الأوان أنه خسر كل شيء، خسر نفسه التي بين جنبيه، هذه النفس كان من الممكن أن يعرفها بالله، كان من الممكن أن يحمِلها على طاعة الله، كان من الممكن أن يستخدم ماله، ووقته، وصحته، وعقله، ولسانه، وبيانه، وذكاءه، وخبرته في الأعمال الصالحة التي هي ثمن الجنة، كل هذا لم يحصل، جاء إلى الدنيا، وكان في غفلةٍ شديدة، انهمك في الشهوات، ثم فوجئ أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه عن كل شيء، الألم الذي يتحمله هذا الإنسان لا سبيل إلى وصفه، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّار)

يا أيها الإخوة، الإنسان صحا في الوقت المناسب فهذه نعمةٌ لا تقدر بثمن، فما من نعمةٍ أثمن من أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، ما دمنا أحياء نُرْزَق، ما دام القلب ينبض، ما دام في العمر فُسْحَة، فنحن مدعوون إلى معرفة خطر مهمتنا.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

ما كان ظلوماً جهولاً حينما حملها، أما إذا حملها، ولم يؤدِّها كان ظلوماً جهولاً.

يا أيها الإخوة... كل شيءٍ يعرفنا بالله ؛ الكون، القرآن، العقل، الفطرة، الحوادث، الحالة النفسية، كل شيءٍ يعرفنا بالله عزّ وجل، فإذا غفل الإنسان عن الله، وكذب بالحق لما جاءه، وأعرض عن الله عزّ وجل.

الكفر بين المفهوم الواسع والمفهوم الضيق:

أيها الإخوة ما دام الحديث عن الكفر، الحقيقة أن الكفر مصطلح واسع جداً، له مفهوم واسع، ومفهوم ضيّق.

توضيحاً لهذه الحقيقة: كلمة سيارة لها مدلول واسع، ولها مدلول ضيّق، إذا قال واحد: أنا اشتريت سيارة، ماذا نفهم ؟ أنه اشترى مركبة مصنوعة من الحديد لها محرك، تعمل على الوقود السائل، لها مقود، هذا معنى سيارة، فكيف ربنا قال:

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ)

(سورة يوسف: من الآية 19)

هذه السيارة بالمعنى الواسع، أي شيءٍ يسير اسمه سيّار، ومؤنثه سيارة، إذاً: الكلمة لها معنى واسع، ولها معنى ضيق.

الكفر الاعتقادي:

فكلمة الكفر معناها الضيّق أن تكفر بوجود الله، أن تكذِّب بوجوده، أو أن تكذب بأحد أسمائه، أو أن تكذب بكماله، أو أن تكذب بوحدانيّته، لا أعتقد على وجه الأرض إلا قلةٌ قليلة تنفي وجود الله عزّ وجل، ومع ذلك في ضمائرهم، وفي عقلهم الباطن، وفي فطرتهم شعورٌ أن الله موجود، ولكن هذا الذي يؤمن بوجود الله، ولا يؤمن بوحدانيته ؛ يرى آلهةً كثيرةً، كل شخص مهم يراه إلهاً، كل شخص قوي يراه إلهاً، يعبده من دون الله، فهذا أحد أنواع الكفر الذي أساسه الشِرك.

كفر، فما رأى أن الله سبحانه وتعالى إضافةً إلى أنه موجود هو واحد، إلهٌ في السماء، وإلهٌ في الأرض، ما رأى هذه الحقيقة، رأى آلهةً من دون الله، خاف منها، أطاعها في معصية الله، عبدها من دون الله، رجا رضاها، سعى إليها، ثم يكتشف فجأةً بعد فوات الأوان أنها لم تكن شيئاً، لم تكن شيئاً على الإطلاق، لا إله إلا الله، لا رافع ولا خافض، ولا معزّ ولا مذل، ولا معطي ولا مانع، ولا قابض ولا باسط إلا الله، لذلك ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

فهذا الكفر، الكفر بوجود الله، أو الإيمان بالله والكفر بوحدانيته، أو الإيمان بالله والكفر بكماله، أو الكفر ببعض أسمائه، هذا كله كفر، لكن الكفر يأخذ دائرة واسعة جدا ودائرة أضيق، أحد أنواع الكفر أن يُعْرِضَ الإنسان عن ربه، أن يغفل عنه، قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة التوبة: من الآية 80)

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا(142))

(سورة النساء)

هذه الآية تشير إلى معنى واسع جدا من معاني الكفر، الإعراض عن الله عزّ وجل، أي أراد الدنيا ولم يرد الآخرة، أراد الشهوة ولم يرد نداء العقل، أراد المُتْعَة ولم يرد السعادة التي تتأتّى من الاتصال بالله عزّ وجل، فالكفر يفهم بشكلٍ ضيق من أنكر وجود الله، من أنكر وحدانيته، من أنكر كماله، من أنكر بعض أسمائه، من أنكر بعض أوامره، والإنسان إذا رأى أن الصلاة مضيعةٌ للوقت فهو كافر، إذا رأى أن للذكر مثل حظ الأنثيين شيء لا يتوافق مع روح العصر، أين العدالة ؟ هذا كفر.

عندنا كفر اعتقادي، عندنا كفر سلوكي، لو أنه أمسك بالمصحف، وألقاه على الطاولة بشكلٍ مهين فقد كفر، هناك كفر اعتقادي، وكفر سلوكي، فموضوع الكفر يحتاج إلى تفصيل، وقد عولج في مدارج السالكين في بعض دروس جامع العثمان، الكفر له تعاريف، له حدود، له أنواع، له دوائر، له مستويات، على كلٍ أضيق تعاريفه أن يكفر الإنسان بوجود الله، أو أن يكفر بوحدانيته أو بكماله، أو أن يكفر ببعض أسمائه، أو أن يكفر بأوامره.

تارك الصلاة يسمى تارةً عاصياً، وتارةً يسمى كافراً، إذا ترك الصلاة إنكاراً لفرضيتها فهو كافر، وإذا ترك الصلاة تساهلاً وتقصيراً ونسياناً فهو عاصٍ، وشتان بين المرتبتين، فكلمة كفر لا ينبغي أن نستخدمها بلا تحفُّظ، كلمة كبيرة جداً، ومن أدق ما يفعله بعض الناس هم أنهم، أو من أبشع ما يفعله بعض الناس حينما يستخدمون هذه الكلمة من دون تحديد، فالتكفير سلوكٌ غوغائي، السرعة في تكفير الناس سلوكٌ لا يتّسم بالمنطق ولا بالتؤدة، ولا بالتعقّل، ولا بالموضوعية، فالكفر كلمة واسعة جدا، كما أن كلمة سيارة يمكن أن تطلق على كل شيءٍ يتحرك.

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ)

(سورة يوسف: من الآية 19)

هذا المفهوم الواسع للسيارة، مفهومها الضيّق هذه المركبة الآلية التي تعمل بمحركٍ انفجاريٍ أساسه الوقود السائل، فالكفر يتسع هذا المفهوم ليشمل المعرض عن الله.

فلو فرضنا مدرّسا ملء السمع والبصر، طويل القامة عظيم الهامة، واضح النبرة، طليق اللسان، جذّاب الشخصية، يقف ويشرح الدرس، وطالب يتلهّى عن درسه، وعن شرحه، وعن بيانه بألعابٍ سخيفةٍ يجريها على ورقٍ أمامه، نقول: هذا الطالب المُتَلَهّي عن قيمة هذا المدرس كافرٌ بقيمة درسه، لأنه لا يعبأ بهذا الدرس، وينصرف عنه إلى أعمالٍ أخرى، فهذا معنى واسعٌ جداً من معنى الكفر.

الإعراض عن الله عزّ وجل والالتفات إلى الدنيا، عدم الاهتمام بأمر الله ونهيه وعده ووعيده، عدم المبالاة بالحرام والحلال، عدم المبالاة بكسب المال، عدم المبالاة بإنفاق المال، عدم المبالاة بإقامة الحدود، عدم المبالاة بالائتمار بما أمر، وترك ما نهى الله عزّ وجل، هذا معنى موسّع من معاني الكفر.

المعنى الضيق الذي أنكر وجود الله، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر كماله، أو أنكر أحد أسمائه، أو أنكر فرضية أحد أوامره.

عندما يقول لك الإنسان: لماذا نوزّع الإرث بين الذكر والأنثى بنسبة واحد إلى اثنين، هذا شيء غير منطقي وغير عادل ؟ هل تدري أن هذا الكلام يعني الكفر، لأن الله عزّ وجل حينما يقول:

(فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ)

(سورة النساء: من الآية 176)

هذا تشريع من قِبَل خالق الكون، وأنت تقول: هذا تشريع غير منطقي، وغير واقعي، ولا يتناسب مع العدالة الاجتماعية، مع أن المرأة تشكِّل نصف المجتمع، هذا كفر.

الكفر العملي:

عندنا شيء آخر، هذا الكفر اعتقادي، وعندنا كفر قولي فالإنسان أحياناً من دون أن ينبس ببنت شفة، من دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، لو أنه يصلي، ويصوم، ويفعل كل الطاعات، لكن إذا اعتقد أن ما يجري في هذا الكون لا عدالة فيه، ولا رحمة فيه، وأن القوي يأكل الضعيف، وأن الضعيف لا مكان له في هذا العالم، إذا أصابته هذه الأفكار السوداوية بسماعه أخبار ما يجري في العالم، المسلم مضطهد، المسلم لن تقوم له قائمة بعد اليوم، العالم كله يفعل ما يفعل ضد المسلمين، أين الله ؟ أين رحمته ؟ أين عدالته ؟ أين وعده ؟ أين كذا ؟ مشى في هذا الطريق، واعتقد هذا الاعتقاد فو الله الذي لا إله إلا هو هذا الاعتقاد نوعٌ من الكفر، كفرت بأنه إله، عددت أقوياء العالم هم الآلهة كفرت بأن الله سبحانه وتعالى

عادل، فعددت أن الحق ليس لصاحب الحق، ولكن للقوي، وأن الضعيف مقهور ومأكول. لذلك هناك خطر شديد أن الإنسان يتلقى معلومات دون أن يعرضها على القرآن الكريم، دون أن يعرضها على الذكر الحكيم، دون أن يعرضها على كلام رب العالمين، فهناك خطر كبير أن يتصور الإنسان أن ليس في الكون عدالة، الله عزّ وجل قال:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 59)

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[الجامع الصغير عن البراء]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(فَوَ رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

هذا الإيمان، هذا القرآن.

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

لا تقل: لو أني فعلت كذا، وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنك كلمة لو تفتح عمل الشيطان.
معنى الكفر معنى خطير، يضيق حتى ينصب على من ينكر وجود الله، أو ينكر وحدانيته، أو ينكر أسماءه، أو ينكر كماله، أو ينكر بعض أوامره، هذا كفر اعتقادي.
وهناك كفر قولي، فما قولكم عن الذي يقول: الله عزّ وجل يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس، هذه كلمة يقولها معظم الناس، هل تصدقون أن هذه الكلمة كفر ؟ إنك تتهم عدالة الله، تتهم حكمة الله، تتهم عِلم الله، قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن كلمة لو تفتح عمل الشيطان، فعندنا كفر اعتقادي، في كفر قولي.

الكفر السلوكي:

وهناك نوعٌ من أنواع الكفر هو من أخطرها ومن أخفاها، هو الكفر السلوكي، وأوضح مثل عليه: لو أنك زرت طبيباً، وعالجك، وشخص المرض، وكتب الدواء، ووقفت معه موقفاً في غاية الأدب والاحترام والشكر والعرفان، ولكن في قرارة نفسك لم تعبأ بعلمه، ولا بمهارته، فامتنعت عن شراء الدواء، هل تصدق أن عدم شراء الدواء نوعٌ من أنواع الكفر بهذا الطبيب، ما قلت شيئاً، ولم تنطق بكلمة، ولم تنبس ببنت شفة، بل امتنعت عن شراء الدواء.
فإلهنا وربنا، وخالقنا يقول:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

عبد مؤمن، ولا يوجد الآن عبد، أي لو جاءك إنسان فقير، إنسان أخلاقه عالية، إيمانه عالٍ، وخطب ابنتك، لم تعبأ لا بأخلاقه، ولا بإيمانه، ولا باستقامته ؛ بل أردت المال، فلما جاءك خاطبٌ آخر رأيت عنده المال الكثير والجاه العريض، ولم تعبأ برقة دينه، ولا بتركه للصلاة، فزوجته، هل تدري أنك لم تقل: صدق الله العظيم، الله عزّ وجل ينبئك أن المؤمن ولو كان عبداً خيرٌ من الكافر ولو كان غنياً، لم تعبأ بهذا، فكيف تقول: صدق الله العظيم ؟ فحينما يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

فإذا قلت: أين أذهب بعيني ؟ ألم تقرأ قوله تعالى:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

كأن الله سبحانه وتعالى كلّفك ما لا تطيق، وكأنك تكذب هذه الآية:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

إذا توسعنا بمفهوم الكفر وجدنا شيئًا مخيفا، فإذا اعتقد الإنسان، أو تكلم، أو سلك سلوكا ينطوي على تكذيبٍ بما في القرآن الكريم، فلو اعتقد وقال: والله داروين معه حق، فانظر كيف أن المخلوقات تطورت، هل تصدقون أن الذي يؤمن بما قاله داروين هو كافر، لأن الله يقول حينما بدأ الخلق بدأه بآدم وحواء، فإذا اعتقدت أن الخلق بدأ بالقرد، فهذا نوعٌ من أنواع الكفر بكلام الله عزّ وجل.

تقرأ نظرية داروين، تقرأ نظرية فرويد تجده يقول لك: الجنس هو كل شيء، ونظريّات الماديين: المادة كل شيء، وما سواها سراب، فإذا قرأ الإنسان كتبا في المذاهب، وفي المعتقدات، كتبا في علم النفس، فلو أن طبيبا في علم النفس، بعض الأطباء النفسيين يرون الصحة النفسية أن يكون لهذا الشاب صديقة ـ رفيقة ـ فينصحه أن ينطلق، أن يكون له صديقة، أن يذهب إلى السينما، أن يفعل، وأن يترك، فهذا الطبيب ماذا يفعل ؟ طبيب مختص بالنواحي النفسية، ينصح مرضاه المصابين باضطرابات نفسية أن ينطلقوا في الحياة كما يفعل أهل الغرب، فأين الدين ؟ أين القرآن ؟ أين الحديث الشريف ؟ فهذا الطبيبٌ النفساني الذي ينصح مرضاه بالانطلاق في الحياة، وبارتياد دور اللهو، وباصطحاب الفتيات لكي يتوازن، لكي يمتلك الصحة النفسية، هذا الطبيب يكفر بكلام الله عزّ وجل، فأين غض البصر ؟ أين عدم الاختلاط ؟ أين أداء الصلوات ؟

والله البارحة سمع عن طبيبٍ مؤمن يعالج مريضاً نفسياً قال له: أنت بحاجة إلى مجلس علم، وإلى حفظ القرآن، وإلى أن تصحب إخوة مؤمنين، وإلى أن تعمل الصّالحات، وإلى أن تخرج من عزّلتك، والله بقيت ساعات وأنا أثني على هذه الطبيب المؤمن، هذه هي الصحة النفسية ؛ أن تعرف الله عزّ وجل، أن تعرف منهجه، أن تندفع إلى طاعته، أن ترتاد بيوت الله عزّ وجل، أن تطلب العلم، أن تقرأ القرآن، أن تحفظ القرآن.

كلمة كفر واسعة جداً، يكفي ألاّ تعتقد بصواب آية، أو بصواب تشريعٍ إلهي، أو بصواب توجيهٍ إلهي، أو بصواب حقيقةٍ في القرآن قد وردت، فهذا نوعٌ من أنواع الكفر.

لذلك ليس معنى أن فلانا كافر أي علمه قليل، فكلمة كفر كلمة كبيرة جداً، حينما تعتقد أن هذه الآية غير مناسبة لهذا الزمان فهذا كفر، كفرٌ من النوع الواسع.

مثلاً: حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

أي شركٍ هذا ؟ هذا الشرك الخفي الذي لم ينجو منه إلا القليل، كما أن هناك شركاً خفياً يمكن أن يتلبّس ببعض المؤمنين، كذلك هناك كفرٌ خفي، كأن يكون هذا الأمر لست قابضه بالتعبير الدارج، لم تقتنع كثيراً به، ليس معقولا، هذا نوعٌ من أنواع الكفر، ولكن ليس الكفر الأكبر الذي يصح أن نقول لصاحبه: كافر.

مرة سئل رجل يحبّذ التعليم المختلط، وهو محسوبٌ على أنه داعية، قال: هذا التعليم يهذّب المشاعر، ويزيل هذه الحواجز، وهذا الشيء الكبير يصبح صغيرا، هو لا يدري ما يقول، هذا كله مخالفٌ لكلام الله عزّ وجل، هذا أحد أنواع الكفر، وعندما تفكر تفكيرا خلاف كلام الله عزّ وجل قطعي الثبوت، هذا اتجاه فيه كفر، ولكن لا يسمى صاحبه كافرًا، لكن هذا الكلام فيه كفر، فكما أن هناك شركا أكبر، وهو أن تعبد بوذا من دون الله، هناك شرك أصغر، وهو أن تعتمد على زيد من دون الله عزّ وجل، هذا شرك، كذلك إنكار وجود الله عزّ وجل كفر، إنكار وحدانيته كفر، إنكار كماله كفر، إنكار أحد أسمائه كفر، إنكار أحقية أوامره كفر، ولكن إذا لم تفهم شيئًا، لم تقتنع به، هذا تفكير فيه كفر، ولكن لا يسمى صاحبه كافراً.هؤلاء الذين ماتوا وهم كفار.

بالمناسبة الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: من الآية 48)

حتى هذه الآية أوّلها المفسرون: ما لم يتب، إذا تاب يغفر له الشرك، الذي وردت فيه آياتٌ كثيرة من أن الله لا يغفره، كيف لا يغفره ؟ إذا مات مشركاً، فالإنسان قد يفكر فيكفر بتفكيره، قد يتكلّم فيكفر بكلامه، هذا الصحابي ـ الذي كان صحابياً ـ ودعي إلى المشاركة في الجهاد، وكان ابن زوجته غلاماً صغيراً يافعاً ممتلئاً حماساً، ورأى أن عمه تقاعس عن الإعداد للجهاد، فذكر له قصة سيدنا عبد الرحمن بن عوف، ذكر له ما فعله عثمان بن عفان، ماذا فعل أصحاب رسول الله ؟ فما كان من هذا الذي كان صحابياً إلا أن قال ـ دققوا بما قال ـ قال: لو أن محمدا صادقٌ فيما يقول لكنا شراً من الحُمُر.

هذه الكلمة كلمة كفر، فابن زوجته عمير قال له": **والله يا عمّاه، ما على وجه لأرض رجلٌ بعد رسول الله أحب إليّ منك، والآن قلت كلمة الكفر، وسأذهب إلى النبي لأقول له ما قلت "**، لم يعبأ بقوله، تكلّم هذا الطفل الصغير ـ عُمير ـ في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي استدعى عمه، قال له: مقالةٌ قلتها "، قال له: **" ما قلت شيئاً، هذا الطفل كاذب "**، ولم يمض وقتٌ قليل حتى جاء الوحي النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

(سورة التوبة: من الآية 74)

قال كلمة، فهناك اعتقاد كفر، وكلام كفر، وسلوك كفر، فهذا الذي يحتقر المقدّسات، أو يحتقر كتاب الله عزّ وجل ؛ يضعه في مكانٍ غير لائق، فهذا سلوك فيه كفر، نحن مهمتنا أن نلتمس عذراً للناس، وأن ننصحهم، لا أن نوزع عليهم ألقاب الكفر، فهذه ليست مهمّتُنا، وأحد العلماء قال: **" نحن لسنا قضاةً، ولكننا دعاة "**، لسنا أوصياء على الناس، لا تفكر أبداً أن توزّع هذا اللقب على الناس، هذا من أكبر الكبائر، من كفّرَ مؤمناً فقد كفر، هذا ليس من شأن الناس، هذا من شأن الله، أما إذا تحدّثنا عن أنواع الكفر ؛ الاعتقادي، والسلوكي، والقولي، فمن أجل أنفسنا، لا من أجل أن نقيم الناس بهذا، أنت عليك من نفسك، لذلك ما من مرضٍ استشرى بين المسلمين كتقاذف هذه التُهَم، وتراشق كلمة كفر، حتى إن بعض المتطرفين كفروا المجتمع الإسلامي كله، هكذا بلا تؤدة، وبلا تعقّل.

2 ـ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ

هؤلاء الذين ماتوا كفاراً ـ حديثنا الآن ليس على أنواع الكفر المخففة، والمفاهيم الموسعة ـ الذين ماتوا كفاراً، أي ختم عمله وهو كافر، هذه هي المشكلة، هؤلاء حينما تنكشف لهم الحقائق، وحينما يبدو لهم حجم الخسارة التي مُنُوا بها، حينما يرون مصيرهم الأبدي، حينما يرون أن الدنيا مرّت كلمح البصر، ساعة، الدنيا ساعة جعلها معصية، جعلها كفراً، جعلها شركاً، جعلها جريمةً، جعلها انحرافاً، ساعة مضت كلمح البصر، والأبد لا ينتهي، هؤلاء يصابون بآلامٍ لا حدود لها، ينادون وهم في النار، هم ماذا فعلوا ؟ مقتوا أنفسهم.

فتصور إنسان له محل تجاري، له بيت، عنده أولاد، عنده زوجة، عنده مركبة، مستور، يعيش حياة هادئة مستقرة، جاء إنسان فأغراه بأن يتاجر بالمخدرات، فقال له: ماذا تريد من كل هذه الأشغال، فمليون ليرة تحصل عليها في خلال أسبوع، فاقتنع، فسلك معه هذا الطريق، ألقي القبض عليه وحوكم، فحكم بالإعدام، أو حكم عليه فرضاً بالسجن ثلاثين عاما، وهو في السجن ماذا يتمنى أن يفعل بهذا الذي دلّه على هذه التجارة ؟ يتمنى أن يمزقه إرباً إرباً، يتمنى أن يقطعه قطعاً قطعا، هذا المقت، هذا الألم الشديد.

لكن لو أن إنسانا لم يدله أحد على هذا، فهو ومن بنات أفكاره، فكر أن هذا العمل مربح، فسلك به، ثم وقع في مغبّة عمله.

بالمناسبة، وإن كان هذا التعليق خارج الدرس، صدر قانون جديد للمخدارت، يحكم بالإعدام على من يتّجر بالمخدرات لو أن إنسانا لم يدله أحد، بل هو اختار هذا السلوك، فألقي القبض عليه، ودفع ثمن خطئه، ألا يتألّم من نفسه ؟ ألا يشعر بغبائه ؟ ألا يشعر بجريمته ؟ ألا يشعر بأن الشيطان قد تلبّسه ؟

حينما تكره نفسك إذا فعلت عملاً سيئاً، هذا الألم لشديد الذي لا حدود له من الذات، أو من الإنسان الذي أضلّك قال: هذا الألم الشديد، هذا المَقت، هذه الكراهية، هذا البُغض الذي لا حدود له.

أحياناً يقول لك واحد: والله أتمنى أن أفرمه فرما، لأنه قد سبّب له مشكلة كبيرة.

مرة عنده أحدهم صانع، هذا الصانع وقع في مشكلة، فطرده شر طردة، أخبر بعض الجهات على مستودعاته، فجاءوا، وجعلوه يدفع مبلغ ستمائة أو سبعمائة ألف، والقصة من عشرين سنة، فما كان منه إلا أن أطلق النار على هذا الموظّف عنده، وارتكب جريمة من شدة الحقد الذي نشأ في نفسه تجاه هذا الموظف، معنى ذلك أن الإنسان إذا كان شعر أن هذه الجهة، أو هذا الإنسان سبب له متاعب كبيرة جداً لا حدود لها، يتألم، يتمنى أن يقطِعه إرباً إرباً، انظر إلى الآية:

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ)

يوم القيامة وهم في النار، وهم يستصرخون فيها.

(لَمَقْتُ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

3 ـ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ

لمَ كان ربنا يدعوكم عن طريق الأنبياء، عن طريق الدعاة، عن طريق الخطباء، عن طريق العلماء، عن طريق الآيات الكونية، الآيات القرآنية، عن طريق الحوادث، عن طريق الفِطرة، عن طريق المنامات، لمَ كان يخوفكم، يدعوكم، وأنتم لا تبالون، لا تأبهون، لا تعتبرون، غارقون في أوهامكم، في شهواتكم، في معاصيكم، ربنا عزّ وجل رحيم، حريصٌ على هدى البشر، قال:

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

تصور، ولله المثل الأعلى، أبا عاقلا عالما حكيما، له ابن، الأب خبر الحياة، وعرف حلوها ومرها، وعرف ما تنطوي إليه، دعا ابنه إلى طلب العلم، إلى الدراسة، إلى تحصيل مراتب عُليا ؛ هذا الطفل أبى، وسها، ولها، وغفل، وأمضى الوقت الثمين في أشياء سخيفة، الأب يتألم أشد الألم، يكاد يعتصر قلبه، يكاد ينطلق لسانه، وهو ساكت، بعد أن كبر هذا الطفل، رأى نفسه ضائعاً بلا عمل، بلا مكانة، بلا مرتبة، في الطرقات وأصدقاؤه في مراتب عالية، لهم بيوت، ولهم مكاتب، ولهم أعمال، ولهم مكانة، فهذا الشاب بعد أن كبر تألم ألماً لا حدود له، فشكا إلى أبيه ذلك، فقال له: يا بني، أنت الآن متألم، أنا حينما كنت أدعوك إلى طلب العلم، وإلى بناء مستقبلك، وكنت أراك غافلاً وساهياً ولاهياً كنت أتألم ألماً أضعاف ألمك، ولكنني كنت أعلم النتائج، ولكن أنت كنت في غفلة.

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

إذ تدعون: أي حينما كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون، فالإنسان لا يظن أن القضية سهلة، إذا حضر مجلس علم، والإنسان حدثه بالحق، عليه مسؤولية، حضرت خطبة مسجد، وهذا الكلام كان دقيقا، آيات واضحة تدل على وجوب الإيمان بالله، أعطاك حكما فقهيا، أعطاك موقف صحابي، أعطاك آية كونية، لا تقل: والله تسلينا، والله شيء جميل، والله قضينا وقتا لطيفا، لا، القضية أخطر من ذلك، قضية مصير، فلذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ(10)قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ

الموت الأول موت العدم.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

والموت الثاني بعد المجيء إلى الدنيا، والحياة الأولى حياة الولادة، والحياة الثانية البعث يوم القيامة.

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ)

وهذا أوجه تفاسير هذه الآية:

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

ممكن ؟

(ذَلِكُمْ)

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

أي ما أنتم فيه من عذاب، ما أنتم فيه من عذاب الحريق، ما أنتم تعانون من آلامٍ توصف..

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

1 ـ التفسير الأرضي للحوادث ينافي التوحيد:

أي شيء إذا سمع التفسير على أن الله فعل ولم يفعل، هذا التفسير لا يعجبه، يعجبه أن زيداً فعل، وزيد لم يفعل، فإذا الأمور كلها فسرتها تفسير أرضي ؛ الدول العظمى، والدول الصغرى، وفلان وعلان، وزيد وعبيد، إذا فسرت الأمور على أن أشخاصاً يتحركون، وأن الأمر كله بيدهم، وأنهم يغضبون، وأن

يرضون، وأنهم يرفعون ويخفضون، يعطون ويمنعون، يصلون ويقطعون، إذا رأيت الأمر كذلك ترضى وتؤمن، أما إذا فسرت لك الأمور تفسيراً توحيدياً إلهياً، الأمر كله بيد الله، لم تكن ترضى، تقول: هذا التفسير غيبي، هذا التفسير قديم لا يتفق مع معطيات العصر ـ شيء جميل ـ قال:

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

البطولة أيها الإخوة ليست في أن تعرف ما حدث، ولكن البطولة في أن تفسِّر ما حدث، فكل إنسان بإمكانه أن يستمع لكل الأخبار، وهذا شيء سهل، فيشتري صحيفة، ويقرأ فيها كل ما جرى في العالم، يقرأه يوماً بعد يوم، لكن البطولة ليس في معرفة الأخبار، ولكن في تفسيرها تفسيراً توحيدياً، البطولة أن ترى يد الله فوق أيديهم، البطولة أن ترى يد الله تعمل في الخفاء، البطولة أن ترى عدالة الله، البطولة أن ترى أن الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، الدنيا دار عمل لا دار جزاء، البطولة أن ترى موقع الحياة الدنيا من الآخرة الأبدية.

القدرة على التفكير هي من أعظم منجزات المؤمن، تفكيره الصحيح لما يجري، هذا التفكير التوحيدي المبني على كلام الله وكلام رسوله هذا يريح، يريح الإنسان من الضغط، من الحيرة، يرحه من الشرك، يريحه من القهر، يريحه من الشعور بالظلم، كل هذه المشاعر تزول عن المؤمن.

2 ـ الشرك سبب للأمراض النفسية:

الشيء الثابت الآن ما من مرضٍ عضويٍ إلا وله أسباب نفسية، وما من ألمٍ نفسيٍ أشد من أن ترى أن أمرك بيد عدوك، وأنه لن يرحمك، ولن يعطيك سؤلك، هذا الاعتقاد وحده يسبب أشد الأمراض فتكاً، أما المؤمن فيرى أن الأمر كله بيد الله، وأنه عليه أن يطيعه، وليس عليه شيءٌ آخر.

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

انتهى الأمر، أنا علي بعد أن عرفت أن الله موجود، وأن الله كامل، وأن الله واحد، عليّ أن أتعرف إلى أمره ونهيه، فإذا طَبّقت الأمر انتهى الأمر.

أنا أتألّم لما يصيب المسلمين، أتألّم لكن لا أملك إلا أن أشعر أن الله سبحانه وتعالى أرحم مني، الأمر بيده، عليّ أن أعمل، وأن أسعى، وأن أقدم كل معونة ؛ ولكن لا علي أن أنقم على الله عزّ وجل، هذا دليل الجهل، ويمكن لك أن تقدم مساعدة لإنسان مصاب، أما أن ترى أن هذا المرض شيء يتنافى مع الرحمة الإلهية فهذا هو الجهل بعينه.

الملخص: ما من إنسان على وجه الأرض إلا وبإمكانه أن يعلم ما يحدث، لكن المؤمن يتميّز بأنه يفسر ما يحدث تفسيراً صحيحاً، العبرة بالتفسير، فأقرب مثل لنا، بعض البلاد التي بجوارنا عانت من الحروب الأهلية ما عانت، يمكن أن تفسِّر ما عانت تفسيرات كثيرة لا تنتهي، ولكن التفسير الصحيح الوحيد:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

هذا تفسير خالق الكون، وفي ألف تفسير، في تفسير عربي، تفسير دولي، تفسير طائفي، وأخيراً هناك تفسير نسواني أصابتها عين ـ هذه تفاسير كثيرة جداً، البطولة أن تعرف تفسير القرآن.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من الآية 59)

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

لا يعجز اللهَ شيءٌ:

أقرب شيء لنا الآن مرض الإيدز، اقرأ عنه، تجد أن كل العلماء يبحثون عن مصلٍ لهذا المرض، بينما ربنا عزّ وجل أراد من هذا المرض أن يكون عقاباً إلهيّاً للمنحرفين، فالعلاج ليس في المصول، بل في التوبة إلى الله عزّ وجل، فالمهم أن تعرف حكمة الله من هذا المرض الذي تحدّى العصر كله، عشرون مليون إنسان يحمل هذا المرض في أمريكا وحدها، والنتائج مخيفة جداً، هذا عقاب السماء للأرض.

باخرة من أعظم البواخر في العالم ـ اسمها تيتانيك ـ بُنِيَت بناءً لا سبيل إلى وصفه، بنيت على طبقتين، وحواجز عرضية، فأي خلل أصابها يكفي القبطان أن يغلق المنافذ، وانتهى الأمر، لذلك قيل في نشرة صنعها: " إن هذه السفينة لا يستطيع القدر أن يغرقها "، هكذا كتبوا، وشاءت حكمة الله أن يركب في هذه السفينة أغنياء أوروبا، وقدروا قيمة الحلي التي على نساء الأثرياء بأرقام فلكية، فيها كل شيء، فحضارة أوروبا كلها في هذه السفينة ؛ المسابح، المطاعم، دور اللهو، المنتجعات، غرف النوم الفخمة، وفي أول رحلةٍ لها بين أوروبا وأمريكا ارتطمت بجبلٍ ثلجي شطرها شطرين، استغاثت كل السفن التي

حولها، ظنوا أنها تحتفل، فلم ينجدوها، فغرقت، وقبل سنة عرفوا مكانها، فقال أحد القساوسة وقتها: هذا درسٌ بليغ من السماء إلى الأرض.

أرسلوا مركبة حديثة جداً في رحلة فضائية ـ مركبة فضائية حديثة جداً اسمها المتحدي ـ بعد أن انطلقت بسبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب، يجب أن تفهم على الله عزّ وجل، من تتحدون ؟ الأحداث لا ينبغي أن تفهمها فهماً أرضياً، البطولة أن تفهمها فهماً توحيدياً، البطولة أن ترى أن الله بيده كل شيء، وأن هؤلاء الذين تراهم على السطح ما هم إلا دمى الله عزّ وجل يحركهم، والدليل قوله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

علاقتك فقط مع الله.

إذاً:

(ذَلِكُمْ بِأَنّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيّ الْكَبِيرِ)

إذاً: الشرك زائد الكفر = أحد أسباب العذاب الأبدي.

أخطر شيء على الإنسان أن يشرك، وطبعاً.

(ذَلِكُمْ بِأَنّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا)

الشرك هو السبب.

مرة ضربت مثلا، ويجب أن أعيده الآن: لو أن إنسانا له مبلغ كبير جداً في حلب، يجب أن يكون الساعة الثانية عشرة كي يقبضه، فإن لم يكن في هذا الوقت ضاع منه المبلغ، مبلغ كبير بالملايين، ذهب إلى محطة القطارات، ركب قطار حلب، فمن الممكن له أن يرتكب مائة غلطة في هذا القطار، ممكن أن يقطع درجة أولى، ويجلس درجة ثالثة، ليس منتبها، ممكن يجلس في جهة معاكسة للقطار يدوخ، يختار غرفة فيها رُكّاب سيئو الأخلاق، ممكن، يغيب عنه أن المركبة فيها طعام، وهو يتلوى من الجوع طوال الطريق، ممكن، لكن كل هذه الأغلاط تغفر لأنه في طريقه إلى حلب، وسيقبض المبلغ، أما إذا اتجه إلى محطة القطارات، وركب قطاراً متجهاً إلى درعا مثلاً، هذه غلطة لا تغفر، لأنه يمشي بعكس اتجاهه، ولو كان القطار فخما، لو كان فيه أرقى أنواع الفخامة، لكنه ارتكب غلطة لا تغفر.

عندما يتجه الإنسان إلى الله عزّ وجل الله يحل له كل مشاكله، أما إذا اتجه لغيره فلا يوجد شيء عند غيره، إن الله لا يغفر أن يشرك به، ولما أشرك الإنسان أي اتجه إلى لا شيء، اتجه إلى عباد ضعاف، فقراء، بخلاء، لؤماء، فالخطأ أن تعتقد الهدف هناك، وأن تتجه اتجاهاً معاكساً، فالمشرك ليس له طريق إلى الله عزّ وجل، لا يرى الله، يرى زيدا وعبيدا، يرى فلانا وعِلانا، يرى المال إلهًا، يرى اللذة إلهًا،

يرى هذا البيت يجب أن يبقى فيه مهما كلف الأمر، ولو على حساب دينه، فالطريق إلى الله أمام المشرك مسدود، لهذا:

(إنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: من آية 48)

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

3 ـ فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

الله عليٌ علواً ما بعده علو، وكبيرٌ كبراً ما بعد كبر، فما معنى الله أكبر ؟ ليس أكبر من كل شيء فهذا المعنى بسيط جداً أما هو فأكبر مما أعرف، مهما عرفت عن الله فهو أكبر، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعرف الله إلا الله، الأنبياء أشد الخلف معرفة بالله، لكن معرفتهم نسبية، هذا معنى قولنا: الله أكبر، أي أكب مما عرفت، مهما عرفت عن الله فهو أكبر، مهما عرفت عن رحمته فهو أرحم، مهما عرفت عن قدرته فهو أقدر.

نجم يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وبينهما مئة وستة وخمسون كيلو مترا !! نجم يكبر الشمس بمئة مليون مرة، والشمس تكبُر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة !! مسافات، الأرض بحجمها الحقيقي إذا دخلت في ثقبٍ أسود في الفضاء يصبح حجمها كالبيضة والوزن نفسه، الأرض كلُّها يمكن أن تضغط بحجم بيضة، كم هي الفراغات البينية في المادة ؟

إذاً:

(فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

عليٌ علوًا ما بعده علو، وكبيرٌ ما بعد كِبر.

(هُوَ الّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ)

هُوَ الّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ

الناس بالبديهة والفطرة يقولون لك: الله كبير، لأنه رأى آية، نحن لو نظرنا إلى ما حولنا فحياتنا الدنيا طافحة بالآيات ؛ آيات كونية، آيات قرآنية، آيات تكونية، فالبحران:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

هذه الآية حيّرت مفسرين خلال ألف عام، أين البرزخ ؟ فهذا البحر الأحمر، وهذا المحيط الهادي، فأين البرزخ ؟ الآن اكتشف بالمراكب الفضائية حينما رأوا خطاً بين البحرين ـ خط لونيا ـ اكتشفوا أن كل

بحر له مكوّناته، له كثافته، له ملوحته، له خصائصه، وأن مياه هذا البحر لا تبغي على البحر الآخر، وبينهما حاجز وهمي لم يعرف حتى الآن طبيعته، بين الأحمر والعربي، بين الأبيض والأطلسي، بين الأسود والأبيض بالبوسفور، بمضيق باب المندب، وبمضيق جبل طارق.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

الآيات لا تعدُّ ولا تحصى ؛ آيات في الكون، آيات في خلق الإنسان، آيات في النبات، آيات في الحيوان، فالله عزّ وجل قال:

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ)

آياته، هذا الجسم أكبر آية من آياته، دقق كيفما تحولت ترى عظمة الله عزّ وجل.

(وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (05-20): تفسير الآيات 14 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة غافر، ومع الآية الرابعة عشرَ، وهي قوله تعالى:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

1 ـ الإخلاص أساس العمل:

الآية الكريمة تشير إلى الإخلاص، والإخلاص أساس العمل، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّمَا الأعْمَالُ بالنِّيّاتِ))

[صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب]

أي أن قيمة العمل من خلال نيّته فقط، وليس من خلال شيءٍ آخر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ:

((أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[الجامع الصغير عن معاذ]

((درهمٌ أُنْفِقَ في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهمٍ أنفِقت في رياء))

[ورد في الأثر]

الإخلاص ينفع معه قليل العمل وكثيره ؛ والرياء لا ينفع معه لا قليل العمل ولا كثيره.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

وقالوا: الله عزّ وجل لا يتقبّل من العمل إلا ما كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنَّة.

والإنسان أيها الإخوة، بفطرته يشعر ما إذا كان مخلصاً أو غير مخلص، إن كان مخلصاً شعر أن الله قد قبِلَه، وأن الله عاد عليه بالسكينة، وعاد عليه بالتجلي، وكأن ثمن إخلاصه يقبضه عاجلاً لا آجلاً، أما إذا صلّى الإنسان، وعمل الصالحات، وقرأ القرآن، ودعا إلى الله، وما شعر بشيء، ففي عمله خللٌ خطير، وفي إخلاصه نقصٌ كبير، إذا صليت، وصمت، وقرأت القرآن، وعملت الصالحات، وما شعرت بشيء، ما شعرت بالقُرب، ما شعرت بالطمأنينة، فهذه علامة خطيرة ؛ إمّا على خلل العمل، أو على ضعف

الإخلاص.

قد يكون العمل صحيحاً، وفق الكتاب والسُنّة، ولكن لا تشعر بسعادةٍ معه، إذاَ: هناك خللٌ أو نقصٌ في الإخلاص، قد يكون الإخلاص جيداً، ولكن العمل ليس كاملاً، فلن تقطف ثمار العمل إلا بشرطين، أن يكون العمل موافقاً للكتاب والسُنّة، ومعنى هذا أنه لا تعفيك نيّتك الحسنة من محاسبة الله عزّ وجل، فالله عزّ وجل أنزل هذا الكتاب، وشرّع لنا الشرائع من أجل أن نطبّقها، لا من أجل أن نلقيها وراء ظهورنا، ونقول: نوايانا طيّبة، هذا كلام غير مقبول، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

2 ـ قد يكون دعاء الإنسان ربّه بغير إخلاص:

مخلصين: حال، معنى ذلك أننا قد ندعو الله عزّ وجل، ولسنا مخلصين، قد ندعو الله ونتّكئ على أموالنا، قد ندعو الله ونتكئ على مكانتنا، قد ندعو الله ونعتمد على زيد أو على عُبَيد، هذه دعوةٌ ليست مخلصةً لله عزّ وجل، ما دام هناك جهات أرضيّة تعتمد عليها فأنت في دعوتك لست مخلصاً، لذلك أن تقول: يا رب، مهما قلت يا رب الله عزّ وجل ناظرٌ إلى قلبك، القلب كما قالوا: منظر الرب، فإذا نظر الله إلى قلبك فرآه فارغاً إلا منه، فارغاً إلا من الاعتماد عليه، والتوجُّه له قَبِلَ عملك.

فيا أيها الإخوة الأكارم لا تنسوا هذه الآية:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

لا تفرحوا بكثرة العمل، افرحوا بالإخلاص الشديد، كلّما زاد إخلاصك ارتقت مرتبتك عند الله، فهذه الآية أمرٌ إلهي:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

والإنسان.

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

هو يعلم ما إذا كان مخلصاً أو غير مخلص، هو يعلم ما إذا كان يدعو الله وحده، أم يدعو الله بلسانه، وقلبُه معتمدٌ على زيدٍ أو عُبَيد.

أحياناً الإنسان يعتمد على عمله، إذا اعتمد على عمله، ورآه منجياً له من عذاب الدنيا والآخرة، هذا الاعتماد على العمل يُضعف الإخلاص لله عزّ وجل، لذلك قد يرى عمله قليلاً لا يغنيه، ولا يسمنه من جوع.

ما طريق الإخلاص ؟ ـ التركيز اليوم عن الإخلاص، فقد تحدّثنا في الدرس الماضي عن موضوع الكفر، الكفر الاعتقادي، والكفر القولي، والكفر العملي، والكفر بمعناه الواسع، ومعناه الضيّق، أمّا الإخلاص، كيف أُخْلِصُ ؟

3 ـ كيف أُخْلِصُ ؟

أيها الإخوة الأكارم، لا تستطيع أن تخلص ما لم توحِّد، إذا رأيت أن الله وحده بيده كل شيء، وأنه لا رازق إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا معزّ إلا الله، لا مذلّ إلا الله، لا باسط إلا الله، لا قابض إلا الله، أمره كلّه بيده، كأن مؤشِّر الإخلاص يتحرّك مع مؤشّر التوحيد، فكلّما ارتفع مستوى توحيدك ارتفع مستوى إخلاصك.

فكلمة إخلاص من أين تأتي بها ؟ السوق فيه كل شيء، فهل بإمكانك أن تشتري الإخلاص من السوق ؟ الإخلاص محصِّلة التوحيد، أي أن حجم إخلاصك بحجم توحيدك، كلما ازددت توحيداً ازددت إخلاصاً، إذاً: العمل لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصاً.

الرياء مدخلٌ من مداخل الشيطان:

الحقيقة كما قلت لكم في درسٍ سابق: الإنسان قد يؤتَى من عن يمينه، الشيطان حينما ييأس أن يأتيك من أمامك بدعوى التجديد، والتحلل من القيم الدينيّة، وحينما يخفق من أن يأتيك من ورائك ؛ التمسُّك بالتقاليد البالية غير الإسلاميّة، وحينما يخفق من أن يأتيك من شمالك في دعوته إلى المعاصي والآثام، ليس له إلا جانبٌ واحد، وهو أن يأتيك من يمينك.

إذاً: في حلقات المؤمنين، في تجمُّعات المسلمين، وأنت في المسجد، وأنت بين إخوانك، وأنت تصلي، وتقرأ القرآن، وتحجُّ بيت الله الحرام، تصوم رمضان، وأنت في عباداتك، وأنت في طاعاتك، قد يؤتَى الإنسان من الشيطان.

من أين يأتي ؟ من الرياء، الرياء أحد مداخل الشيطان على الإنسان، قال عن شخص، وخلال أربعين سنة ما ترك الصفّ الأول خلف الإمام، في يوم من الأيّام لم يُدرِك الصف الأول، فقال: ماذا يقول الناس عني، وقد صليت في الصف الثاني ؟ ففُهِم أن هذه الأعوام الأربعين التي صلّى فيها في الصف الأول لا مخلصاً لله عزّ وجل، ولكن لينتزع إعجاب الناس.

نحن إذا تحدّثنا لأخوتنا المؤمنين عن الإخلاص، أن نقول لهم: إياكم أن تسرقوا، إياكم أن تزنوا، هذا كلام لا معنى له إطلاقاً في بيوت الله، لأن الذي يرتاد المساجد مسلماً يجتنب الكبائر، ولكن من أن يؤتى؟ من الصغائر، يؤتى من ضعف الإخلاص، ألا تذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الشيطان يئس أن يُعْبَد في أرضكم، ولكن رضي بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[البيهقي عن معاذ]

وفي رواية أخرى:

((رضي بالتحريش بين المؤمنين))

[مسلم عن جابر]

الشيطان لا يستطيع أن يصل إلى المؤمن إلا عن يمينه، من عن يمينه من جانب دينه، إما بوساوس، وإما بمبالغات، وإما بالغلو في الدين، وإما بالرياء، وإما بضعف الإخلاص، وإما بالخوف من الناس، وإما برغبته الجامحة في انتزاع إعجاب الناس.

4 ـ الإخلاص أن لا ترى مع الله أحداً:

هناك مزلقٌ خطير أيها الإخوة. عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ))

[ابن ماجه عن أبي هريرة]

فكل ما أرجوه في هذا الدرس التركيز على الإخلاص، فأنت لماذا تأتي إلى بيت الله ؟ لئلا يقال عنك أنك تخلّفت عن درس الجمعة ؟ هذا ضعفٌ في إخلاصك، ليرضى عنك زيد ؟ ليراك عُبَيد ؟ ليقال عنك من روّاد هذا المسجد ؟ يجب أن تحرّر النيّة.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

كلّما ارتفع مستوى الإخلاص يئس المؤمن من رضى الناس، لا يعنيه رضاهم، ولا غضبهم، ولا سخطهم، ولا قربهم، ولا بعدهم، والإنسان حينما يستجدي الثناء والمديح فهذا ضعفٌ في إخلاصه، أما حينما يرى أن الله الذي خلقه راضٍ عنه.

فليتك تحلو و الحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خراب

***

الإخلاص أن لا ترى مع الله أحداً، أن لا ترجو غير الله، الإخلاص بتعاريفه الدقيقة: أن لا ترجو غير الله، أن لا تخاف غير الله، أن لا تطمع في غير فضل الله، أن لا ترجو قرب غير الله، أن لا تخشى غير الله، أن يكون الله ورسوله أحبّ إليك مما سواهما، فلذلك من ضعف الإخلاص أن تؤثر خلقه عليه، لهذا قال الله عزّ وجل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

يا أيها الإخوة، الإنسان حينما تستهلكه الدنيا يأتي إلى المسجد، ينطلق إلى عمله، يبيع ويشتري، يداوم في مكتبه، يمارس نشاطاته، يجلس مع أهله، ينطلق إلى نزهة، ينطلق إلى سهرة، إلى لقاء، ولا يجلس ليتأمّل نفسه، ليراجع حساباته، ليفحص عمله، ليعتني بقلبه، هذا الإنسان الذي يستهلكه الوقت، وتستهلكه المشاغل، هذا في الأعمّ الأغلب يضعف إخلاصه، لأنه دخل في دوّامة، دخل في متاهة الانشغال، واللقاءات، والعمل، فلابدّ للإنسان من ساعةٍ يخلو بها مع ربّه، يفحص عمله، يتأمّل نواياه، يفحص إخلاصه، تَبَيّنَ مقاصده، هل هي مقاصد نبيلة ؟ لأنه:

((درهمٌ أُنْفِقَ في إخلاص خيرٌ من ألف مئة درهمٍ أنفق في رياء))

[ورد في الأثر]

فربنا سبحانه وتعالى يقول في الآية الرابعة عشرة:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

5 ـ لَهُ الدِّينَ

لا تخضع إلا لله:

كلمة له الدين، إذا قلنا: الدين له معنى، وإذا قلنا: له الدين لها معنى آخر، إذا قُدِّم الخبر على المبتدأ فهذا يفيد القصر، أي أن الدين وحده له، أو الدين له وحده، أي أنك لا ينبغي أن تخضع لغير الله، لأنك إنسان مكرّم ؛ الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن ؟ لله عزّ وجل، أنت المخلوق المكرّم، أنت المخلوق المكلّف، أنت المخلوق الذي سخّر الله لك السماوات والأرض، أنت المخلوق الذي حملت الأمانة، لا يليق بك، ولا يحسن بك، ولا ينبغي لك أن تكون خاضعاً لغير الله، أن تدين بالولاء لغير الله، أن تدين بالخضوع لغير الله، أن تدين بالحبِّ لغير الله.

الخضوع لله، الحب لله، الطاعة لله، الإخلاص لله، لذلك الإنسان أحياناً يصبر، ولكن لا يصبر لله، يكون فوقه شخص ظالم قوي جبّار، يسحقه سحقاً، يقول لك: ماذا نفعل ؟ فهذا ليس صبراً تؤجَر عليه، لكن الصبر الذي تؤجر عليه كما قال الله عزّ وجل:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(7))

(سورة المدثر)

أن تكون في أعلى درجات القوّة، وبإمكانك أن تسحق خصمك، ومع ذلك تصبر لله عزّ وجل. إذاً:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

الدين الخضوع، الإنسان هل يخضع لغير المنطق ؟ إذا قلت لكم: اثنان واثنان يساويان خمسة هل تسكتون ؟ اثنان واثنان أربعة، كلكم يسكت، هذا أبسط مثل، إذا تكلّم متكلِّمٌ بمنطق، بواقع، إذا خاطب العقل، إذا خاطب القلب، إذا جاء بالأدلّة، جاء بالبراهين تجد أن النفس تخضع، فالنفس من طبيعتها أنها لا تخضع إلا للحق، لا تعجب إلا بالكمال، أحياناً قد يكون الإنسان متلبّسا بالنقص، ولكنه يحب الكمال، فالذين يسرقون يقسمون السرقة بالعدل بينهم ـ يقول له: اقسم بالعدل، فحينما أخذت هذا المال هل أخذته بالعدل ؟ هذا يؤكِّد لنا الفرق بين الفطرة والصبغة، الإنسان مفطور على فطرة عالية، على فطرة طاهرة، على فطرة نقيّة، لكنّه دنّسها بأفعاله.

لذلك كل الناس تقريباً لو أنه لم يعدل يحبُّ العدل، لو أنه لم يرحم يحبُّ الرحمة، لو أنه لم يحسن يحبُّ الإحسان، بل إن أفسق الرجال إذا أرادوا الزواج يبحثون عن امرأةٍ عفيفةٍ طاهرة ليتزوّجوها، لأن هذه فطرة، فالإنسان في الأصل لا يدين إلا للحق، لا يخضع إلا للعلم، لا يخضع إلا للكمال، لا يقبل إلا الدليل، لا يقبل إلا التعليل، فهذا الدين دين الله.

لا تخضع لمخلوق مثلك:

والله عزّ وجل هو الذي خلق العقل، فهل دينه غير معقول ؟ هو الذي خلق المنطق، فهل دينه غير منطقي ؟ هو الذي خلق الكون فهل دينه غير واقعي ؟ هو الذي فطر النفس البشريّة، فهل دينه يتناقض مع الفطرة ؟ هذا مستحيل، ما دام هذا الدين دين الله، وما دام الذي خلق الإنسان هو الله، ما دام الذي ركّب الفطرة في الإنسان هو الله، ما دام الذي أودع العقل في الإنسان هو الله، إذاً من باب أولى، ومن اليقين القطعي أن يتطابق دين الله مع بنية البشر ؛ مع فطرة النفس، ومع عقل الإنسان، ومع الواقع، ومع المنطق، إذاً الدين هو دين الله، والإنسان ينبغي أن يخضع لله، وأيّ خضوع لغير الله فهذا ضعفٌ في الدين.

لذلك أيها الإخوة، بالكلام الواضح، أنت أيها الإنسان لا يليق بك، ولا ينبغي لك، ولا يحسن لك أن تجيِّرَ لغير الله، أن تخضع لغير الله، أن تُحْسَب على غير الله، أن تكون تبعاً لغير الله، أن تكون ذنباً لإنسان، أن تكون أداةً بيد إنسان، أنت حر **"متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ "** أنت حر، فإياك أن تخضع لمخلوقٍ في معصية الله، إياك أن تكون امتداداً لإنسان، ظلاً لإنسان، أداةً بيد إنسان، أداة رخيصة، فهناك أشخاص كما أقول كالمنديل، تُمْسَحُ به أقذر عمليّة، ثمّ يُلقى في سلة المُهْمَلات، إياك أن تكون ذلك، كن حراً، اربط نفسك بالحق، لا تخضع إلا لله، لا تطع مخلوقاً في معصية الله، لا تلن إلا لله، لا تمرِّغ جبهتك إلا في أعتاب الله، لا تذلّ لإنسان.

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثُلُثا دينه))

[ورد في الأثر]

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

(سورة التوبة: من الآية 13)

إذاً:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

فأنت بمن تتعلّق ؟ تطمح لمن ؟ تُعلِّق الآمال على من ؟ كلُّهم مخلوقات، كلهم لا يملكون لك نفعاً ولا ضراً، ولا تنسوا هذه القصّة التي أقولها كثيراً:

كان الحسن البصري عند أحد ولاة البصرة، وقد جاءه توجيهٌ لتوّه من يزيد ـ من خليفة المسلمين ـ فهذا التوجيه يبدو أنه يتعارض مع حكم شرعي، لو نفّذ هذا التوجيه لوقع في الظلم، فسأل الإمام الحسن البصري: **ماذا أفعل، هذا كتاب يزيد، وتنفيذه لا يرضي الله، ماذا أفعل ؟** أجابه إجابةً جامعةً، قاطعةً، مانعة، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله".**

أي ضغط يأتيك، هذا الذي يضغط عليك عبدٌ لله، في قبضة الله، بيدِ الله، الله جلّ جلاله يمنعه منك، لكنّك إذا أطعته، ولم تكن مخلصاً لله لا يمنعك من الله، إذا أراد الله أن يعالج، إذا أراد أن يؤدِّب، إذا أراد أن يردّك إليه لا يستطيع أحدٌ أن يمنعك منه، هذه القصّة على قصرها وعلى إيجازها احفظوها، **" إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

فأي إنسان ضغط عليك، أي إنسان لوّح لك بالعقاب إذا لم تفعل، أو أي إنسان أغراك بالمال على شرط أن تعصي الله، المؤمن الصادق لا ترهبه سياط الجلاّدين اللاذعة، ولا تغريه سبائك الذهب اللامعة، لا سبائك الذهب اللامعة سيضعف أمامها، ولا سياط الجلادين اللاذعة يذلُّ أمامها، لا يخضع إلا لله كما فعل بلال رضي الله عنه:

" أحدٌ أحد، فردٌ صمد".

هذه الآية دقيقة جداً:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

أخلص دينك يكفك القليل من العمل.

أحد العارفين بالله توفّاه الله عزّ وجل، رآه أحد تلامذته فقال: يا سيدي، ما فعل الله بك ؟ **" قال: " يا بني طاحت تلك العبارات هذه المحاضرات البليغة، هذه الخطب الرنانة، هذه الكتب المؤلَّفة، هذه الدراسات، هذه البحوث طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعاتٍ ركعناها في جوف الليل ".**

الإخلاص الإخْلاص، مع الإخلاص ينفع قليل العمل، ومن دون الإخلاص لا ينفعك لا قليل العمل ولا كثيره.

((درهمٌ أنْفِقَ في إخلاص خيرٌ من ألف مئة درهمٍ أنفق في رياء))

[ورد في الأثر]

إذاً:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

لا تعدُّدَ في الحقّ:

مخلصين، لأن الدين له وحده، لأنه ينبغي أن يكون الدين وحده لله، لأنه خالق، وأنت مخلوق، هل يليق بك أن تخضع لمخلوقٍ آخر مثلك ؟ هل يليق بك أن تكون تبعاً لمخلوق ضعيفٍ جاهل، لئيمٍ، شهواني، أناني ؟ لا، فأشقى الناس الذين ربطوا مصيرهم بمصير بشَرٍ، لكن أسعد الناس هم الذين ربطوامصيرهم بالله عزّ وجل وبالحق، فأي مبدأ غير مبدأ الدين مبدأ غير صحيح، لأن الحق ليس فيه تعدُّد، نقطتان ووصلت بينهما بخطٍ مستقيم، هذا الحق، نريد خطاً مستقيماً آخر بين هاتين النقطتين ينطبق على الأول، خط ثالث ينطبق على الثاني، خط رابع ينطبق على الثالث، فالحق لا يتعدّد، والدليل:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)

مفرد.

(وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

إذاً: لا تعدُّد في الحق، الحق واحد.

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إِلا الضّلالُ)

(سورة يونس: من الآية 32)

لا حل وسط، إما أن تكون مع الحق ؛ وإما أن تكون مع الباطل، أما الباطل فيتعدّد، بين نقطتين يمر مليون خط منحنٍ، ومليون خط متعرّج، ومليون خط منكسِر، ولا حدود لعدد الخطوط المُنكسرة والمنحنية التي تمرُّ بين نقطتين، إذاً الباطل يتعدّد، الحق واحد، لذلك قالوا: لا يمكن أن تنشِب معركةٌ بين حقين، لأنهما متطابقان، أما إذا نشبت معركةٌ بين حقٍ وباطل فسرعان ما تنتهي، لأن الله مع الحق، وإذا كان الله مع أحد الأطراف قلب كل الموازين.

أما إذا كانت المعركة بين باطلين فما أطولها، عندئذٍ تتحدّث عن الأقوى، وعن الأذكى، وعن الأكثر خداعاً، وعن الأكثر حكمةً، وعن الأكثر ممارسة وتدريباً، وقيادةً، واستعداداً، وقوّةً، وصموداً.

المعركة بين الحق والحق لا تكون لأنهما متطابقان، وبين الحق والباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما إذا نشبت معركةٌ بين باطلين فما أطولها، عندئذٍ تتحدّث عن كل شيء، إلا أن الله سبحانه وتعالى ليس مع أحد الطرفين، لأنهما ليسا على حق.

إذاً: ما دام الدين له وحده ؛ لأنه خالق، لأنه رب، لأنه مسيّر، إذاً أي دينٍ آخر قطعاً باطل.

(إنّ الدّينَ عِنْدَ اللّهِ الإِسْلامُ)

(سورة آل عمران: من الآية 19)

ولو تتبّعتم كلمة الإسلام في القرآن الكريم، لوجدتم أن الأنبياء جميعاً مسلمون ـ دقِّقوا ـ افتحوا المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الأنبياء جميعاً مسلمون، بل إن فرعون مات مسلماً، بمعنى أنه آمن بالذي آمنت به نبو إسرائيل، معنى هذا أن الدين عند الله الإسلام، لا دين إلا دين واحد، هو الحق، أيّ دينٍ آخر، أيّ ولاءٍ آخر، أيّ اتجاهٍ آخر، أيّ عقيدةٍ أخرى، أيّ سلوكٍ آخر هو باطل، وليس حقّا. إذاً:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

6 ـ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

لا تحسبوا حساباً للكافر، الكافر لا يستطيع أن يفعل معكم شيئاً، لأن الله عزّ وجل مع المؤمنين، كلكم يذكر أن سيدنا سُراقة حينما تَبعَ النبي عليه الصلاة والسلام في أثناء الهجرة، حينما رأى النبي وكان من أوائل الذين يقتفون الآثار، فلمّا أدرك النبي وصاحبه، أمسك بيده على رمحه ليرمي النبي ويأخذ الجائزة، ساخت قدما فرسه في الرمل، فعرف أنه ممنوع.

(يَا أَيُّهَا الرّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النّاس)

(سورة المائدة: من الآية 67)

قال: **" يا هذان ادعوا لي ربكما أن يخلصني "**، دعا له النبي فانطلقت فرسه، لمعت أمامه الجائزة مرّة ثانية، فانطلق نحوهما فساخت قدما فرسه مرّةً ثانية ـ القصّة معروفة عندكم، وذكرتها في خطبة سابقة ـ لكن موطن الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له:

((يا سراقة، كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

ما هذا الكلام ؟ النبي مطارد، النبي شريد، طريد، مهدورٌ ردمه، خائفٌ على نفسه من القتل ويقول لسراقة:

((يا سراقة، كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

ما هذا الكلام ؟ وبالفعل دارت الأيام دورتين، وسيدنا عمر في آخر عهده بالخلافة جاءته رسل سيدنا سعد بن أبي وقّاص ومعهم الغنائم، فإذا من بين هذه الغنائم تاج كسرى، وسوارا كسرى، وثياب كسرى، قال: **أين سراقة ؟** جاءوا بسراقة، وضعوا على رأسه تاج كسرى، وألبسه سواراه، وتحقّقت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام، وقال سيدنا عمر: **" بخٍ بخٍ أعيرابيٌ من بني مدلج على رأسه تاج كسرى ".**

ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال الله عزّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

ماذا قال ؟

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: من الآية 55)

أما نحن فلسنا كذلك، فقال الله عزّ وجل:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

إذاً:

(لَهُ الدِّينَ)

لا تدِن إلا لله عزّ وجل:

(وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

هم في قبضة الله عزّ وجل، حيثما قرأت في القرآن الكريم أن الله عزّ وجل يؤكِّد أن الكفار لن يسبقوه، معنى لن يسبقوه أي لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لا يرضاه ولا يريده، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لا يريده، وليس بإمكانهم أن يتفلّتوا من قبضته، فالكافر الذي تخافه هو بيد الله.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدّرَجَاتِ)

رَفِيعُ الدّرَجَاتِ

أي أن أسماؤه حسنى، صفاته فضلى.

ثلاث حقائق في الإيمان:

أقول لكم دائماً: الإيمان يرتكز على ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الله موجود ولا أول لوجوده، أي أنه قديم، ولا نهاية لوجوده باقٍ على الدوام، لأن وجوده لا يقوم على غير ذاته، إنه صمد.

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ(1)اللّهُ الصّمَدُ(2))

(سورة الإخلاص)

هذه أول حقيقة، حقيقة الوجود، الله موجود، وجوده قديم، ووجوده لا نهاية له، مستمر، وجوده ليس متعلِّقاً بغيره، وجوده ذاتي، هذه أول حقيقة.

الحقيقة الثانية: الله واحد، واحدٌ في ذاته، ليس معه إلهٌ آخر، واحدٌ في صفاته، ليس من صفةٍ في المخلوقين ترقى إلى صفة الله عزّ وجل، واحدٌ في أفعاله لا أحد يفعل معه شيئاً، لا فعّال معه إطلاقاً، هذه الحقيقة الثانية.

الحقيقة الثالثة: موطن الشاهد، الله عزّ وجل كامل كمالا مطلقا، أي أن القاضي لو حكم تسعين حكما عادلا، وأخطأ في عشرة أحكام، يغلب علينا أن نقول: قاضٍ عادل، لأن الإنسان نسبي، لكن الله عزّ وجل مطلق، إذا قلنا: إنه عدل، أي ما من تصرُّف في الأرض، وفي الكون منذ أن خلق الله الوجود وإلى يوم القيامة فيه ظلمٌ لمخلوق، هذا معنى أن الله عزّ وجل عدل عدالة مطلقة، فربنا عزّ وجل ليس في أسمائه حل وسط، ولا في أسمائه نسبيّة، أسماؤه مطلقة. إذاً:

(رَفِيعُ الدّرَجَاتِ)

مهما تحدّثت عن رحمته فهو أرحم، مهما تحدّثت عن لُطفه فهو ألطف، مهما تحدّثت عن قدرته فهو أقدر، مهما تحدّثت عن علمه فهو أعلم، مهما تحدّثت عن عدله فهو أعدل.

(رَفِيعُ الدّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ)

العرش ما سوى الله عزّ وجل في بعض التفاسير ـ وهذه الآية من الآيات التي أوكل بعض العلماء تفسيرها إلى الله عزّ وجل، فيها تأويلاتٌ كثيرة، ولكن هذا العرش ليس في متناول أيدينا، وليس له آثارٌ نتعرّف إليه من خلالها، إذاً هو محض إخبارٍ من الله عزّ وجل، والأكمل أن نفوّض أمر حقيقة العرش إلى الله عزّ وجل، وإذا أردنا أن نؤوّل العرش فهو مُلْكُ الله عزّ وجل.

(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

فالأنبياء ما كانوا عباقرةً ولا أذكياء، وليسوا مصلحين، إنهم صفوة الله من خلقه، أوحى الله إليهم، وكلّفهم أن يبلّغوا رسالته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، في حالات سروره، وفي حالات غضبه لا ينطق إلا بالحق، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ:

((اكْتُبْ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ))

[أبو داود]

لأنه مكلّف بتبليغ الرسالة، ولأن الله كلفه بإبلاغ الرسالة عصمه من أن يخطئ، فكلامه تشريع، عمله تشريع، صمته تشريع، بعضهم قال: النبي عليه الصلاة والسلام مشرّعٌ وهو ساكت، لأنه مرّة كان عند أحد صحابته الذين ماتوا، وهو مسجّى على السرير سمع النبي عليه الصلاة والسلام امرأةً تقول: " **هنيئاً لك أبا السائب، لقد أكرمك الله** "، هذا كلام غير صحيح، لو أنها قالت: أرجو الله أن يكرمه، فهذا كلام طيّب والدعاء مقبول، أما أن تقول: لقد أكرمك الله، على وجه الجزم، فهذا اسمه تألٍ على الله، فالنبي لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً، عن خَارِجَة بْن زَيْدِ بْن ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: **رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ**، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[البخاري]

إذاً: الجزم ليس من صفات الموحِّدين، كيف فلان ؟ والله يبدو أنه صالح، والله أعلم، هذا ليس طعناً فيه، كل إنسان يتألّم، وينزعج من هذا الوصف يكون جاهلا، يبدو لي أنه صالحٌ، والله أعلم.

ألم تسمعوا يوم الاثنين الماضي أن رملة بنت أبي سفيان، أم حبيبة زوج عبيد الله بن جحش، الصحابي الجليل، الذي هاجر إلى الحبشة، ماذا فعل هناك ؟ ارتدّ عن دينه، وعاقر الخمرة حتّى مات، وخيّرها بين أن يطلِّقها وبين أن تتنصّر.

إذاً: القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، أما على وجه الجزم لا ينبغي أن تقول: فلان من أهل الجنّة. هذا تألي على الله. إذاً:

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

الأنبياء صفوة البشر:

الأنبياء صفوة الله من خلقه، تعريف النبوّة سهل: النبي إنسانٌ لا ينقطع عن الله طرفة عين، المؤمن ساعة وساعة، والقصّة المعروفة عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم]

عَن أَبِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَنَامُ عَيْنِي وَلَا يَنَامُ قَلْبِي))

[مسلم]

(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

لكن من يشاء، على من اصطفاهم، هم صفوة الخلق، هم قِمَم البشر، هم المعصومون المنزّهون، المخلصون.

(لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ

إذاً: نحن مخلوقون لهذا اليوم **يوم الجزاء** نحن في دار بلاء، نحن في دار عمل، نحن الآن في المدرسة، لكن النتائج سوف تصدر يوم القيامة، لهذا يقول سيدنا علي: **<<الغنى والفقر بعد العرض على الله>>.**

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ)

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ

كلُّ إنسان يبدو يوم القيامة على حقيقته:

الإنسان في الدنيا يتجمّل، له حقيقة وله مظهر، له مخبر وله مظهر، بإمكانه أن يتظاهر بالغنى وهو فقير، يتظاهر بالعلم وهو جاهل، يتظاهر بالصلاح وهو مُجْرِم، في الدنيا في مجال، لكن يوم القامة تبدو على حقيقتك من دون زيفٍ أو تزوير.

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الكهف: من الآية 48)

فالإنسان مهما طلى نفسه بطلاءٍ مزيّف، مهما تظاهر في الدنيا، مهما تظاهر بالصلاح، مهما تظاهر بالورع، مهما حَسَّنَ سمعته، مهما كان منضبطاً أمام الناس، إذا كان له خلوة لا ترضي الله هو ساقطٌ من عين الله، لا تنسوا هذين القولين: **" من لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله ".**

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلِّط))

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

مكشوف، أحد العارفين قال:

والله لو علموا قبيح سريرتي لأبى السلام عليّ من يلقاني

***

1 ـ الحقيقة المهمة أن تكون عند الله كبيرا ولو كنت في الدنيا صغيرا:

من رحمة الله بنا في الدنيا أن ولحكمةٍ بليغةٍ ورحمةٍ عميمةٍ يظهر من الإنسان الجميل، ويستر القبيح، الله من أسمائه الستّير، الإنسان يبدو للناس بأجمل مظهر، يبدو للناس بأنعم طريق، سلوك متوازن، هادئ، فيه اتّزان، فيه قبول، لكن الإنسان قد يكون له حقيقة ثانية لا ترضي الله عزّ وجل، هذا ساقطٌ من عين الله.

بالمناسبة أيها الإخوة، لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطّم أضلاعه خيرٌ له من أن يسقط من عين الله.

قد تكون فقيرا، هذه ليست مشكلة، لكنك عند الله كبير، قد تكون ضعيفا، عاملا على آلة كاتبة، موظّفا صغيرا في الدرجة العاشرة، وراء الباب، وضِعْتَ تحت الدرج، لكن قد تكون عند الله كبيراً.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قد يكون لك منزل في أطراف المدينة، غرفة واحدة، لكنك عند الله كبير، لكن المشكلة أن يسقط الإنسان من عين الله، الإنسان يتقرّب إلى الله بالطاعة، بالاستقامة، بخدمة الخلق، بالنيات الطيبة، بحب الخير، بسلامة الطويّة، ببراءة السَجيّة، بهذا يتقرّب، أما إذا كان له مظهر فخم وهو خبيث الطويّة، سيئ النيّة، يغدر، يتآمر، يتحايل، له وجهان ؛ وجهٌ يرضي، ووجهٌ لا يرضي، فهذا ساقطٌ من عين الله، لا تبحث عن قيمتك عند الناس لا قيمة لها إطلاقاً.

أنا أقول هذا المثل دائماً: لو أن معك كيلو معدن، وكنت أذكى الأذكياء، وأوهمت الناس أنه ذهب، وهو من أرخص المعادن ـ حديد ـ لو أوهمت الناس بطلاقة لسان، وبذكاءٍ بارع، وباحتيالٍ، وبحنكةٍ أنه ذهب، فصدّق الناس أنه ذهب، وهو ليس ذهباً، من هو الخاسر ؟ أنت، ماذا ينفعك أن يظنّ الناس أن هذا المعدن ذهب، وهو ليس ذهباً ؟

لو أن هذا المعدن كان ذهباً خالصاً، واتهمك الناس جميعاً بأنك لا تملك إلا هذا المعدن الخَسيس، هل يهمُّك ذلك ؟ قيمته فيه، أي أن خيرك منك وشرُّك منك، سعادتك منك وشقاؤك منك، لا تلتفت لأقوال الناس فيك، والذي يهتم كثيراً بالمظاهر هذا إنسان شقي، فالعظماء يحتاطون، رحم الله عبداً جَبَّ المغيبة عن نفسه، ولكن أن تؤلِّه الناس، وتخشى ذمّهم، وتخشى انتقادهم، ولا تنام الليل إذا هُزّت سُمْعَتُكَ، هذه المبالغة الشديدة هذه ضعفٌ في إخلاصك، فإذا كان الله راضٍ عنك فهو القصد الأخير والأول، ثم ليقُل الناس ما شاءوا أن يقولوا، وقد قيل: **"من عرف نفسه ما ضرّته مقالة الناس فيه ".**

إذاً:

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

2 ـ لا ينفعك شيء بغير استقامة وعمل صالح:

أقول لكم هذه الكلمة والله من قلبٍ مخلص لكم: مهما تكلّمت أنا أحاسب حسابا خاصا، أحاسب هل أنت مصدِّقٌ لما تقول ؟ فمهما بدوت لكم متكلِماً بارعاً، لا قيمة لها عند الله ما لم أطبّق ما أقول، وأنتم مهما أصغيتم، وداومتم، لا قيمة لسماعكم ما لا تلتزموا، أنا سوف أُحاسب، المتكلِم سوف يُحاسَب، والمستمع سوف يُحاسَب، المتكلِم لا ينفعه أن يكون كلامه فصيحاً، بل ينفعه أن يكون عمله مستقيماً، والمستمع لا ينفعه إصغاؤه، بل ينفعه تطبيقه، فلا يكفي أن تنضمّ إلى المسجد، ولا يكفي أن تحضر مجالس العلم، لابدّ من التطبيق، وأنا أيضاً معكم لا يكفيني أن أنطلق في الحديث عن الله عزّ وجل، لابدّ من أن أكون عند مستوى القول، وإلا سيندم الإنسان يوم القيامة ندماً شديداً.

إذاً:

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

فالإنسان مع أخيه الإنسان يغيّر، يسحب ورقة من الإضبارة، يسحب ضبط الشرطة، يزوّر، يضيف، يغيّر التواريخ، يغيّر التواقيع، يأتي بشهود كاذبين، الإنسان يغيّر ويبدِّل، لكن الإنسان مع الله عزّ وجل بارزٌ على حقيقته، مكشوف، ليس في إمكانه أن يفعل شيئاً، ولا أن يبدِّل شيئاً، ولا أن يغيّر شيئاً، ولا أن يمحو شيئاً، ولا أن يضيف شيئاً أبداً.

(لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

وأبلغ من ذلك أن الله عزّ وجل يعلم السرّ وأخفى، يعلم ما أسررت، وما يخفى عنك أنت، طبعاً، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم ما خفي عنك أيضاً.

في بعض التفاسير:

ينادي منادٍ يوم القيامة:

(لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)

يأتي جواب الخلق جميعاً:

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

3 ـ الإيمان خيارُ وقتٍ:

أيها الإخوة، واليوم الحالي قبل يوم القيامة، ونحن في هذا العالَم، ونحن في هذا الواقع، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهّار، لكن هذه الحقيقة يراها المؤمنون، ولا يراها الكفّار، الكفّار يرون فلانا صاحب البيت الأبيض هو أقوى الأقوياء، يرون فلانا صاحب الأسلحة الفتّاكة، هذه الحقيقة، ولكن يراها المؤمنون في الدنيا ولا يراها الكفّار، أما هذه الحقيقة نفسها يوم القيامة يراها جميع الخلق، هذا هو الفرق. نعود إلى القول: إن قضية الإيمان قضية وقتٍ ليس غير، فإن لم تؤمن الآن فلابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ليس لك خيار، مهما عتا الإنسان وطغى وبغى أيكون كفرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

ومع ذلك حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

أسلم، معنى هذا أن الإيمان قضية وقت، هذا هو الذكاء، هذا هو العقل، إن لم تؤمن الآن لابدّ من أن تؤمن، ولكن الحسرة إن آمنت بعد فوات الأوان لا ينفعك هذا الإيمان شيئاً.

فالسؤال إما أن تعرف جوابه وأنت على طاولة الامتحان، أو أن تعرف الجواب بعد الامتحان، تخرج، وتأخذ الكتاب، وتقرأ، وإذا عرفت هذا بعد الامتحان فلا قيمة لهذه المعرفة، أما البطولة أن تعرف هذا وأنت على طاولة الامتحان، إذا القضيّة قضيّة وقت.

إذا كان الشيء متعلِّقا بالوقت فالعقل، والمنطق، والذكاء، والحِنْكة، والتفوُّق، والفوز، والنجاح يأمرك أن تفعله الآن، لا تقل: سوف، سوف سلاح إبليس، وقيل: هلك المسوّفون، والشيطان إذا أراد أن يأتيك عن يمينك يقول لك: سوف تتوب، وكل إنسان يعلِّق توبته على حدث قادم إنسان جاهل، قد لا يبلغ هذا الحدث.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (06-20): تفسير الآيتان 17 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-07-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة غافر، ومع الآية السابعة عشرَة، وهي قوله تعالى:

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

1 ـ كسبُ الإنسان:

لو وقفنا عند كلمة: بما كسبت، ما كسب الإنسان ؟ بعضهم قال: كسبه عمله، العمل حتمي، ما من إنسان إلا وله عمل شاء أم أبى، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى بادئ ذي بدء سخّر السماوات والأرض من أجل الإنسان، وفضلاً عن ذلك أعطى الإنسان قوّةً إدراكيّة ليبحث، وينقِب، ويهتدي، ويستفيد من خيرات السماوات والأرض.

والحقيقة الدقيقة أن خيرات السماوات والأرض في الأعم الأغلب لا يُنتَفَع بها مباشرةً، فالنبات لابدّ من أن يُزْرَع، البئر لابدّ من أن تُحفَر، المعادن لابدّ من أن تُستخرج، المَسْكَن لابدّ من أن يُبنى، النباتات القطنيّة لابدّ من تُغْزَل، والخيوط لابدّ من أن تُنْسَج، والنسيج لابدّ من أن يُخاط، لحكمةٍ بالغةٍ جعل الله خيرات الأرض لا يُنتفع بها مباشرةً إلا إذا بُذِلَ من أجلها جهدٌ بشري أساسه العلم.

إذاً: عندنا أرض فيها خيرات كثيرة، وهناك إنسان أعطاه الله قوّة إدراكيّة، قوة بحث، وتنقيبا، واستنتاجا، وكشفا، واختراعا، ولابدّ من جهدٍ بشري من أجل أن تصبح هذه المواد نافعةً، هذه حقيقة.

2 ـ حاجات الإنسان:

الحقيقة الثانية: الإنسان ممكن، معنى ممكن أي يمكن أن يكون وأن لا يكون، فإذا كان يمكن أن يكون على نحو ما هو عليه أو على نحوٍ آخر، شاءت حكمة الله أن يجوع الإنسان، أن يكون هذا الجسد بحاجة إلى طعام وشراب، هناك حاجات أساسيّة ثلاث ؛ الأولى حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب حفاظاً على

وجوده، وحاجة الإنسان إلى الطرف الآخر ـ إلى الجنس الآخر ـ حفاظاً على وجود نوع البشر، وحاجة الإنسان إلى الذِكْرِ أو بقاء الذكر.

أول حاجة هي كلّما شعر الإنسان بالجوع اندفع إلى الطعام والشراب، كلّما شعر بحاجته إلى الطرف الآخر اندفع إلى الزواج، كلّما شعر بحاجته إلى تأكيد ذاته، وتخليد اسمه اندفع إلى البطولة أو التجاوزات.

إذاً: هناك دوافع فطريّة لابدّ من تلبيتها، جوع الإنسان يدفعه إلى أن يعمل، عمله منصبٌّ على تحويل هذه الخيرات التي أودعها الله في الأرض، إلى خيراتٍ يستفاد منها.

إذاً: الإنسان بفطرته، ببنيته النفسيّة، بطبيعة المواد في الأرض، بطبيعة قوّته الإدراكيّة لابدّ من أن يعمل، من خلال العمل يُبْتَلَى الإنسان.

مهّدت لكم الموضوع على الشكل التالي: الأرض مسخّرة، لكن خيراتِها تحتاج إلى جهد بشري، الإنسان فيه دوافع ؛ دوافع إلى الطعام والشراب، دوافع إلى الجنس الآخر، دوافع إلى تأكيد الذات، هذه الدوافع تجعله يعمل من أجل أن يأكل، لولا دافع الجوع لما رأيت بناء قد بني، ولا بئراً قد حُفرَت، دافع الجوع هو الذي يحرّك البشر، إذاً: هناك اندفاع نحو كسب الرزق، واندفاع نحو استكمال شقّ الإنسان بشقِه الآخر، واندفاع نحو تخليد ذكره وتأكيد ذاته، وهذه الاندفاعات الثلاثة تقتضي أن يكسب الإنسان المال، من خلال تحويل المواد الأوليّة إلى موادٍ قابلة الانتفاع.

إذاً: هو يعمل شاء أم أبى، ما في خيار، ما دمت تحسُ بالحاجة إلى الطعام فلابدّ من أن تعمل، من خلال العمل يُبتَلَى الإنسان، يبتلى بالاستقامة أو بالانحراف، يبتلى بأنه لابدّ من أن يعمل، من خلال العمل يكذب أو يصدق، يُخْلِص أو يخون، يدلِس أو يُحْكِم، لابدّ من أن يُمتحن، فكل إنسان له عمل، سمّاه القرآن كسب، هذا الكسب سوف نحاسب عليه في الآخرة حساباً دقيقاً.

فمن الغباء بالإنسان أن يتوهّم أن الأمور هكذا، والله أكلنا هذا المال والحلال على الشاطر، هذا كلام في منتهى السذاجة، في منتهى الغباء، الإنسان محاسب، لأن الله عزّ وجل عدالته تقتضي أن يحاسب العباد جميعاً.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

نحن أيها الإخوة في دار ابتلاء وانقطاع ـ دقِقوا في هاتين الكلمتين اللتين قالهما النبي عليه الصلاة والسلام يصف فيهما الدنيا ـ دار ابتلاءٍ وانقطاع.

3 ـ الدنيا دار امتحان:

نحن في دار امتحان، نمتحن بكل شيء:

نُمتحن بالإيجابيات كما نمتحن بالسلبيات.

نمتحن بالخير كما نمتحن بالشر.

نمتحن بالعطاء كما نمتحن بالحرمان.

نمتحن بإقبال الدنيا كما نمتحن بإدبار الدنيا.

نمتحن بالصحّة كما نمتحن بالمرض.

نمتحن بالقوّة كما نمتحن بالضعف.

نمتحن بالمال كما نمتحن بالفقر.

كل طورٍ يطرأ عليك هو امتحانٌ من الله عزّ وجل.

لكن الله يعلم من أنت، إلا أن حكمة الله عزّ وجل من الامتحان أن تعرف من أنت، لأن الإنسان أحياناً يتوهّم أنه مؤمنٌ كبير، وربنا عزّ وجل يعلم أن إيمانه أقلّ من ذلك، يضعه في ظرفٍ دقيق فيظهر بحجمه الحقيقي، فالامتحان تعريفٌ لأنفسنا، وتعريفٌ لمن حولنا بنا.

فلذلك كل واحد منّا له عمل، فلان مثلاً خطّط للحرب العالميّة الثانية، التي ذهب ضحيّتها خمسون مليون إنسان، هذا عمله، إنسان أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما فقتلت ثلاثمائة ألف إنسان في ثلاث ثوانٍ، هذا عمله، عمله تدميري.

الأنبياء ماذا فعلوا ؟ أعطوا الخلق كل شيء ؛ أعطوهم الحب، أعطوهم الإيمان، أعطوهم الاتصال بالله عزّ وجل.

4 ـ ما عملك في الدنيا ؟

أكبر سؤال أن تسأل نفسك أنت أيها الأخ الكريم: ما عملك ؟ جئت إلى الدنيا، وسوف تخرج منها، ما العمل الذي يُربَط باسمك ؟ أعمال عظيمة، أو أعمال إجراميّة، أو أعمال تافهة، أو أعمال خسيسة، أو أعمال نفيسة، أو أعمال إيجابيّة، أو أعمال سلبيّة، أو أعمال خيريّة، أو أعمال أساسها الإفساد، أو أعمال أساسها رأب الصدع، فهذا السؤال الخطير: ما عملك ؟ ماذا تفعل ؟

نبدأ:

هل أنت أبٌ مثالي ؟ هل حرصت على تربية أولادك ؟ هل حرصت على أن تخلِف من بعدك أفراداً طيّبين صالحين ؟

أنت ابن: هل أنت ابنٌ بار ؟

كزوج، هل أنت زوجٌ مثالي أخذت بيد زوجتك إلى الله ورسوله ؟

كزوجة، هل أنتِ أيتها الأخت زوجة مثاليّة تطبقين ما أمر الله به، وأمر رسوله به ؟

الإنسان له دور اجتماعي، بادئ ذي بدء هذا أب، هذا ابن، هذه زوجة، هذا إنسان تاجر، لكن التجارة لها صفات.

((إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا))

[من الجامع الصغير عن معاذ]

فلان موظّف: هل تقوم بواجباتك كموظّف ؟ هل أنت في خدمة هذا المواطن، أم أنك تخلق له العقبات والمشكلات كي تبتزّ من ماله ؟ عمل هذا الموظّف أنه يخلق للمواطنين المشكلات كي يبتزّ أموالهم، هذا عمله، ربّما كان هذا العمل ترضى عنه في الدنيا، لأنه يجلب لك مبلغاً أكبر من دخلك الحقيقي، ولكن ما قولك إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل وسألك: لماذا فعلت هكذا بعبادي ؟

أنت مدرّس: هل أعطيت هؤلاء الطلاب حقهم، أم اضطررتهم إلى دروسٍ خاصّة ؟ لم تعلِّمهم علماً كافياً، لم تصحِّح لهم وظائفهم، لم تجر لهم اختبارات صحيحة، حتى اضطر الأهل إلى دروسٍ خاصّة يدفعون عليها مبالغ طائلة.

أنت طبيب: هل نصحت هذا المريض ؟ هل راقبت الله عزّ وجل وأنت تعالجه، أم آثرت أن تكبّر حجم مشكلته كي تجعله يرتبط بك دائماً ؟

أنت محام: أنت مقتنعٌ أن هذه الدعوى لن تنجح، كيف أقنعت الموكِّل بأنها تنجح ؟ من أجل أن تأخذ مالاً ليس مشروعاً ؟

كل واحد منا له دور اجتماعي في أسرته ؛ هذا أب، هذا ابن، هذا أخ، هذه زوجة، هذا زوج. وهناك دورٌ مِهَنِي ؛ أنت تاجر، عندك معمل مواد غذائيّة، هل تخشى الله عزّ وجل في أطفالنا ؟ هل تضع في هذه المواد مواد من الدرجة الخامسة ليست جيدة، مواد فاسدة، ولا أحد يعلم ؟ لكنك تراقب الله عزّ وجل، أن الله الذي خلقك، وأكرمك بنعمة الوجود، ونعمة الإيجاد، ونعمة الهدى والرشاد يراقبك ماذا تفعل ؟ ما نوع المواد التي تضعها في هذه الصناعات الغذائيّة ؟

فكل واحد له دوران دور أسري، ودور مهني ؛ فالتجارة مهنة، والصناعة مهنة، والزراعة مهنة، والطب مهنة، والهندسة مهنة، والتدريس مهنة، والمحاماة مهنة، والوظيفة الإداريّة مهنة، كل واحد بعمل، فإما أن يحسن، وإما أن يسئ، إما أن يكذب، وإما أن يصدق، إما أن يخلص، وإما أن يخون.

هناك خيانة على مستوى اللون، لو قال لك إنسان: انتق أنت لي اللون الذي تحبُه، فأنا لا أعرف، فانتقيت له اللون الكاسد، وأقنعته أن هذا أجمل لون، هذا لون السنة، وهو ليس كذلك، هذه خيانة.
أنت من خلال عملك إما أن تصدق، وإما أن تكذب، إما أن تُخلص، وإما أن تخون، إما أن تنصح، وإما أن تغُش، هذا عملك، هذا هو أنت، وهذا لا يبدو في هذه الدنيا صارخاً، ولكن عندما يقترب الإنسان من أجله يبدو عمله صارخاً.
إن الإنسان اسمه مرتبطٌ بعمله، ما نوع عملك ؟ وشتّان بين المؤمن والكافر، خذ حرفةً واحدة، راقب بها المؤمن، كيف ينصح ؟ كيف يصدق ؟ كيف يخلص ؟ كيف يرحم المسلمين ؟ كيف يحرص على مصالحهم ؟ كيف يرأف بهم ؟ وراقب الكافر كيف يقسو عليهم ؟ ويبتزُّ أموالهم، ويكذب عليهم، ويدلِس، ويقنعهم ليأخذ أموالاً طائلة ؟
الدسّام، هناك دسّام ثمنه خمسة آلاف، ودسّام ثمنه ستون ألفا، قال له: قل له ركّبنا لك الدسّام الذي ثمنه ستون ألفا، لن يعرف المريض، وهو ثمنه خمسة آلاف، هذا عمل الإنسان، هذا العمل يوم القيامة سوف يظهر، سوف يظهر جَلِيّاً، كل إنسان يعرف بحرفته كيف يصدق أو يكذب ؟ ينصح أو يغش ؟ يدلِس أو يستقيم ؟ ينحرف أو يعطف ؟
إذاً: أيها الإخوة أخطر شيء في الحياة هو عملك.
" يا قييس، إن لك عمل تُدْفَن معه وأنت ميّت، ويُدفن معك وهو حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك ".

العبادات الشعائرية والعبادات التعاملية:

فأنت لك عمل، والناس سبحان الله كما يقولون: **" ألسنة الخلق أقلام الحق "**، الإنسان عمله ظاهر ومكشوف، والناس يلهجون بالثناء عليه إن كان مستقيماً، إن كان صادقاً، ويطعنون به وبأقواله وأفعاله إن كان منحرفاً، فأخطر شيء أن الإنسان يتوهَّم الدين بسذاجةٍ وغباء أنه صلاة وصوم، فالصلاة والصوم من أركان الإسلام، لكن الصلاة والصوم والحج تشبه تماماً ساعات الامتحان، ويسبق هذه العبادات الثلاث تسعة أشهر عاماً دراسيّاً.
فالعبادات نوعان: عبادات تعامليّة، وعبادات شعائريّة، العبادات الشعائريّة من صومٍ وصلاةٍ وحج لا معنى لها إطلاقاً، ولا قيمة لها، ولا تقدّم ولا تؤخِّر إن لم يكن الإنسان في عباداته التعامليّة مستقيماً على أمر الله عزّ وجل.

والله أيها الإخوة، لو استقام الناس على أمر الله، لو عرفوا ربّهم حقّ المعرفة لعدوا للمليون قبل أن يكذبوا، قبل أن يغشوا، قبل أن يدلِسوا، قبل أن يوهموا، قبل أن يبتزوا أموال بعضهم بعضاً.
تجد من علامات فساد المجتمع أن الذي يأكل أموال الناس بالباطل يُعدُّ ذكياً، يعدُّ شاطراً، الذي يكذب عليهم، ويقنعهم يعد متفوّقاً ؛ لكن المستقيم هو عند الله له شأنٌ كبير، والإنسان العاقل هو الذي يبتغي العزّة لا عند الخلق، ولكن عند الحق، يبتغي المكانة الرفيعة عند خالقه من خلال إخلاصه، واستقامته على أمر ربّه.
الإنسان له عمل، حاسب نفسك، عملك في بيتك، هناك أب مُهمل، هناك أم مهملة، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[الجامع الصغير عن أنس، وفي سنده ضعف]

فامرأة تعتني بأولادها، تعتني بتلبية حاجاتهم، بتربيتهم، بالسهر على مصالحهم، بالحِرص على نفسياتهم، بتوجيههم التوجيه الصحيح، هذه يمكن أن تلقى الله بهذا العمل، يمكن أن تدخل المرأة الجنّة إذا كانت أماً مثاليّة، والأمومة المثاليّة عملٌ تلقى المرأة به ربَّها.
الأبوّة المثاليّة عملٌ يلقى به الرجل ربّه، ممكن أن تلقى الله بأولادٍ ربّيتهم تربيةً صالحةً، وجّهتهم توجيهاً صحيحاً، جعلتهم أناساً صالحين طيّبين، نشؤوا على مكارم الأخلاق، يمكن أن تلقى الله بهذا العمل، البنوّة المثاليّة يمكن أن تلقى الله بها.
الآن عملك المهني: أقول هذا كثيراً، وقد أعدت هذا على مسامعكم كثيراً: حرفتك، رزقك، عملك المهني، إذا كان في الأصل مشروعاً، ومارسته بطريقةٍ مشروعة، وابتغيت به كفاية نفسك، وكفاية أهلك ومن يلوذ بك، وابتغيت به خدمة المسلمين، ولم يشغلك عن فرضٍ، أو عن واجبٍ، أو عن طاعةٍ، أو عن مجلس علمٍ، هذا العمل المهني ينقلب إلى عبادة، ويمكن أن تلقى الله به، ويمكن أن تدخل به الجنّة، ليس الشرط أن يكون الناس كلُّهم دعاةً إلى الله، كل إنسان بحسب دوره الاجتماعي.
أصحاب الحرف إذا أخلصتم في حرفكم، وابتغيتم بها خدمة المسلمين، ولم تأخذوا مالاً زائداً عن الحد المعقول، ولم تشغلكم هذه الحرف عن طاعات ولا واجبات، ولا عن طلب العلم، فهذه الحرف تنقلب إلى عبادات هناك وأنتم لا تشعرون، حتى إن العلماء قالوا: المباحات إذا ابتغي بها وجه الله انقلبت إلى عبادات.
درس اليوم: اسأل نفسك هذا السؤال: ما نوع عملك في الدنيا ؟
أنا أطمئن إخوتنا الكرام أنك إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر فيما استعملك، لا تكذب، هناك هراءٌ كثير ـ إن لم تكذب لا تكسب المال ـ كلامٌ فارغ، الله سبحانه وتعالى هو الرزّاق ذو القوّة المتين.

((من حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا، وأقرب مما يتقي))

[من كشف الخفاء عن أنس]

أيّ إنسان يبتغي كسب المال من خلال المعصية فهو أحمقُ كبير، لأنه يخسر شيئين، يخسر طاعة الله عزّ وجل، ويخسر المال، والدنيا بين أيديكم، ما أفلح عاصٍ لله عزّ وجل، ما أفلح كاذب، ما أفلح غاش، يجمع المال شيئاً فشيئاً فتأتي مصيبة تمحقه جميعاً.

قال لي رجلٌ احترق محله: والله فيه ثمانية ملايين من البضاعة، ثم دمعت عينه، وقال لي: لعلي في الثلاثين عاما الماضية أكلت أموالاً غير مشروعةٍ، جمّعها الله لي، واحترقت هذه البضاعة. مشكلة الإنسان أحياناً يكسب المال الحرام شيئًا فشيئًا، يجمعها الله، حتى إذا أصبحت مالاً كبيراً في لمح البصر يذهب، والشواهد كثيرة، والأمثلة كثيرة، كل شيء يقع تحت سمعنا وبصرنا هو في الحقيقة وراءه مشكلة، وراءه ذنب، وراءه محاسبة دقيقة، وراءه قِصاص، وراءه جزاء، لكن البشر لا يعلمون، الله وحده يعلم لماذا تلف مال فلان ؟ لماذا فلّس فلان مثلاً ؟ لماذا محق الله البركة من مال فلان ؟ أنت لا تعلم كيف كسب المال ؟ إذاً: ربنا عزّ وجل يقول:

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[من سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

5 ـ انتبه إلى عملك فإنه أخطر شيءٍ:

والإنسان لا ترتاح نفسه، ولا يطمئنُ قلبه، ولا يسعد في دنيا إلا إذا كان مصطلحاً مع الله، والله سبحانه وتعالى طيّبٌ ولا يقبل إلا طيباً، والأخطاء مع البشر من الصعب أن تُغفر إلا أن يغفر البشر، لكن الأخطاء مع الله عزّ وجل سهلٌ مغفرتها، هذه بينك وبين الله، لكن ما كان بينك وبين البشر صعبٌ أن تُغفر.

فكل إنسان أيها الإخوة ينتبه لعمله، أولاً أن لا يكون عمله غير مشروع، أن لا يكون عمله مبني على إيذاء الآخرين، على سلب ما عند الآخرين، ما يكون عمله مبنيا على الكذب أو الخِداع أو الغش، ما تكون البضاعة التي يبيعها محرّمة، ما تكون الطريقة التي يستخدمها طريقة غير مشروعة، ينتبه لعمله، لأن عمله هو الذي يعطيه مكانته عند الله عزّ وجل.

وما في عمل مهني للإنسان إلا وهو سَلّمٌ ترقى به إلى الله، أو دركاتٌ تهوي به إلى النار، أبداً ؛ حرفتك، دورك في الأسرة، أبوّتك ـ هناك أبوة فاسدة، وأمومة فاسدة، وبنوّة فاسدة ـ دورك في أسرتك، ودورك في مهنتك.

أنت الآن موظّف، يجب أن تكون مخلصاً لربِّ العمل، هذا الوقت وقته، أنت الآن رب عمل، يجب أن تكون منصفاً مع العمال أو مع الموظّفين، أن تعطيهم حقّهم، أن لا تستغل حاجتهم كي تنمّي على أكتافهم ثروةً طائلة، كل إنسان محاسب، دورك الاجتماعي، لك دور اجتماعي ؛ أنت جَد، الجد مَظَنّة صلاح، مظنة إنصاف، حرمت فلانة، أعطيت فلانة لنزوةٍ شخصيّةٍ هذه تحاسب عنها.

يا أيها الإخوة الكرام... أخطر ما في حياتنا أعمالنا، بها نرقى أو بها نهوي، بها نسعد أو بها نشقى، بها تكون درجاتٍ إلى الله عزّ وجل، ومن خلالها تكون دركاتٍ إلى النار، فكل إنسان يراجع نفسه، الحياة الدنيا قصيرة، والإنسان في دار ابتلاء.

في أول الدرس قلت: نحن في دار ابتلاء وانقطاع، معنى انقطاع: أن الموت يأتي فيلغى غنى الغني، ويلغي فقر الفقير، ويلغي قوّة القوي، ويلغي ضعف الضعيف، ويلغي مرض المريض، ويلغي صحّة الصحيح، فالموت أنهى كل شيء، وبقي العمل.

الشيء المؤلم أن الإنسان بعد الموت تنقطع منفعة ماله، وتبقى تبعه هذا المال، تنقطع المنفعة وتبقى التَبِعَة، الميّت ترفرف روحه فوق النعش فتقول: **" يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حلِّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم والتبعة علي ".**

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

[الترمذي]

السؤال صعب، صعب جداً، إذا قيل لإنسان: تعالَ إلينا بعد يومين، لا ينام الليل، لماذا يريدونني ؟ ماذا قلت ؟ لا ينام إطلاقاً، إن قيل له: تعال بعد يومين لنسألك، هذا سؤال بشر لبشر متعب ومخيف، فكيف بخالق البشر الذي يعلم السرَّ وأخفى، ولا تخفى عليه خافية ؟ فالإنسان السعيد الذي طويّته كعلانيّته، سريرته كعلانيّته، سرُّه كجهره، خلوته كجلوته، ما عنده ازدواجيّة، ما في قلبه على لسانه، ما يقوله بلسانه يُحِسُّ به في قلبه، أما الأساليب الماكرة، الاتجاهات المنحرفة فهذه كلها خطيرة في الحياة.

أيها الإخوة الأكارم، احرص على أن يكون عملك في طاعة الله، احرص على أن يكون في مرضاة الله، لأن ربنا عزّ وجل إذا غضب:

(إنّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

والله لا يتسع المجال لأذكر لكم قصصاً واقعيةً نعيشُها جميعاً.

(إنّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

الله سبحانه وتعالى إذا انتقم كان الشيء الذي لا يُعقل، فالعاقل هو الذي يخاف الله عزّ وجل، فالكذب الذي هو شائعٌ بين الناس كله محاسبٌ عليه.

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[من مسند أحمد عن أبي أمامة]

لو ألغي الكذب من حياتنا لكنّا في حالٍ آخر غير هذا الحال، وربنا عزّ وجل كل أسمائه الحسنى الكون مظهرٌ لها، الكون مظهرٌ لعلمه، مظهرٌ لقوّته، مظهرٌ لقدرته، مظهرٌ للطفه، مظهرٌ لرحمته، إلا اسماً واحداً، هذا الاسم الواحد لا يتحقّق إلا يوم القيامة، وهو أنه عدلٌ، الآن هناك قوي وضعيف، هناك ظالم ومظلوم، هناك مريض وصحيح، متى تسوّى الحسابات ؟

الحظوظ في الدنيا توزّع توزيع ابتلاء:

بالمناسبة: ربنا عزّ وجل يوزّع الحظوظ في الدنيا ـ انتبه لكلمة حظوظ ـ المال حظ، الوسامة حظ، الذكاء حظ، الزوجة الممتازة حظ، الأولاد الأبرار حظ، المنزل الواسع حظ، المركبة الوطيئة حظ، السمعة الطيّبة حظ، القوة والصحة الطيبة حظ، هذه الحظوظ توزّع في الدنيا توزيع ابتلاء، كل إنسان مبتلى بما أعطاه الله، ومبتلى بما حرمه الله، في الوقت نفسه مبتلى بما أعطاه، مبتلى بما حرمه، لكن الحظوظ يوم القيامة تُوزّع توزيعاً آخر، لا توزّع توزيع ابتلاء، بل توزّع توزيع جزاء، ربّ غني ابتلي بالغنى فلم ينجح، وربّ فقيرٍ ابتلي بالفقر فنجح، فعاش الفقير إلى أبد الآبدين غنياً، وعاش الغني إلى أبد الآبدين فقيراً، فالدنيا لا قيمة لها.

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له

***

أنت دقِق، حتى أخذ شقفة شهادة يقول لك: ذاب بذرُ مخّي، حتّى عيّنوه مكث خمس سنوات بعد مسابقة، وبعدما تعيّن ظهر له أن المعاش لا يكفي، فاشتغل في عمل إضافي، حتى اشترى بيت صغيرا في طرف المدينة بمساحة ستين مترًا، حتى أمّن الأثاث لزمه سنتان، حتى تزوّج، بعد هذا اشتغل في

التجارة، جاءه دخل جيّد، غيّر البيت، غيّر الأثاث، زيّن البيت، اشترى سيارة، صار عمره خمسة وخمسين عاما بدأت متاعب الصحّة، وهكذا الحياة.

شروط اللذة الدنيوية:

مرة قلت لكم كلمة: إن السعادة ـ عفواً، اللذّة، دعك من السعادة لأنها هي بالقرب من الله عزّ وجل ـ لذّات الدنيا تحتاج إلى شروط ثلاث: تحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى مال، وتحتاج إلى صحّة، الإنسان يمر في الحياة بثلاثة أطوار:

الطور الأول هناك وقت وصحّة، ولكن لا مال منتوف ما عنده شيء إذاً: ليس سعيدا، لأن لا مال معه.

الطور الثاني: هناك مال وصحّة، ولكن لا وقت، تجد أحياناً مائتي بيت بالمصائف فارغة، أصحابها مشغولون بأعمالهم التجاريّة، المال موجود، والصحّة، ولكن ليس هناك وقت.

يأتي الطور الثالث صار في وقت، والمال وافر، ولكن لا توجد صحّة، تجده يحمل حقيبة أدوية، هذه هي الدنيا، هذه الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

أن تغتر بها، أن تراها بحجمٍ أكبر من حجمها الحقيقي، هي صغيرٌ جداً، تافهةٌ، يقول سيدنا علي عن رسول الله: **<<فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.**

كان النبي اللهمّ صلّ عليه لا يتّسع بيته لصلاته ـ في قيام الليل ـ ونوم زوجته، فكان إذا صلّى قيام الليل رفعت السيدة عائشة رجليها ليتمكّن أن يصلي هذا سيّد العالمين، هذا يكفي، هذا أكبر شاهد، الدنيا لا قيمة لها، القيمة لطاعة الله عزّ وجل.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

الغنى والفقر بعد العرض على الله:

يقول سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>**، فالذي نجمِّعه سنتًا سنتًا، يأتي ملك الموت فيأخذه دفعة واحدة، وقف قلبه، غير معقول، يأتون بمرآة، ويضعونها على فمه، هناك آثار تنفُّس؟ لا يجدون شيئًا، يأتون بمصباح شديد على عينه، هل انكمشت القزحيّة ؟ لم تتحرّك، القلب وقف، والقزحيّة ما تأثرت بالضوء، والمرآة لم تتأثر بالتنفُّس، عظّم الله أجركم، أخذوا الساعة من يده، في فمه

سن من الذهب سحبوه منه، يقولون لك: الحي أولى، هذه الدنيا، كل شيء جمّعه في حياته يفقده في ثانيةٍ واحدة.

إذا كان الرجل ماشيا في طريق، ورأى بناء على العظم، وله بيت، فماذا يقول للناس ؟ أنا آخذ هذا البيت، فكيف رأيتموه، هل هو جيّد ؟ شيء طبيعي جداً إذا اشترى بيتا ببناء على العظم، ومررت مع صديقك تقول له: هذا البيت أنا اشتريته، أخذته قبليًا غربيا، ثالث طابق، وكذلك فيه مصعد، ومساحته مائتان وخمسون مترًا، لماذا إذا مرّ الواحد أمام مقبرة لا يقول: أنا لي بيت هنا ؟ هذا البيت أثبت من ذاك، البيت الذي اشتريته قد لا تسكنه، أما البيت الأخير فلابدّ من أن تقطن فيه، والدليل: النعي كله يكتب: **" وسيشيّع إلى مثواه الأخير "**، هذا المثوى الأخير حق، فالبطل العاقل الذكي الذي يعمل لهذا القبر، هو يتاجر، ويعمل، وينشط، لكن كله وفق منهج الله عزّ وجل، حتى إذا جاء ملك الموت كان مستعدّاً لهذا اللقاء.

الموت أسعدُ لحظات المؤمن، وأسوأ لحظات الكافر:

لا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يُنكر الموت، ولكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن هو أن المؤمن يستعدُ له، بينما غير المؤمن يأتيه الموت فجأةً، وأروع شيء في الحياة أن لا تفاجأ، المؤمن لا يفاجأ بالموت، لأنه يستعد له من خمسين عاماً، **"مرحباً بالموت، حبيبٌ جاء على شوق "** هكذا قال أحد الصحابة ـ المؤمن الصادق المستقيم يستعد للقاء الله منذ أن عرف الله، كل موقف يزنه ؛ هل يرضي الله؟ هل في عملي شائبة ؟ أما غير المؤمن يفرح، ويمرح، والموت عنده كارثة.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(سورة الزخرف)

الموت من دون توقُّع شيء صعب جداً، وهذا يعرفه الإخوة الأطبّاء، عندما يعالجون مرضى على وشك الموت يجدونهم في ذعر واضطراب، أما لو قرأت سيرة أصحاب رسول الله لوجدت العجب العجاب، هم في أسعد حالاتهم حينما دنا أجلهم. **"واكربتاه يا أبتِ "**، قال: **"لا كرب على أبيكِ بعد الموت غداً ألقى الأحبّة محمّداً وصحبه"**.

أحد الصحابة قال: **" والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي "**، فهو يمشي بأقصى سرعة، والباب مفتوح، وكلنا عند الله سواسية، لا أحد أحسن من أحد، **"يا سعد، لا يغرّنك أنك خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له "**.

لا ينفع نسب يوم القيامة:

فتقييم الناس هذه سقطاتٌ جاهليّة، أي إنسان، كن ابن من شئت، واكتسب أدباً، الأنساب ليست لها قيمة أبداً.

((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

[كشف الخفاء]

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ))

[من مسند الإمام أحمد]

أما الأنساب لها قيمة مع الإيمان، قال النبي الكريم:

((الشرف معوان))

[ورد في الأثر]

أما بلا إيمان.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

و هو عم النبي.

((سلمان منّا آل البيت))

[الجامع الصغير عن عمرو بن عوف]

سيدنا بلال دخل على عمر بن الخطّاب كثيراً، وزعيم قريش واقفٌ على الباب لم يؤذَن له، فلمّا دخل عليه عاتبه، قال له:**<< زعيم قريش يقف ببابك ساعاتٍ طِوال، وصهيبٌ وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان ؟ " قال له:"أنت مثلهما ؟ أين هم منك وأين أنت منهم ؟ >>.**

النقطة الدقيقة: أننا كلنا سواسية، فافتخار الناس بأموالهم، بأحسابهم، برتبهم الاجتماعيّة بشهاداتهم، هذه كلها للدنيا، القرآن ما اعتمدها إطلاقاً.

إذاً: التركيز على العمل، قل لي ما نوع عملك أقل لك من أنت، وأخطر شيء عملك، صلاة جوفاء، وصيام أجوف، وحج سياحة لا يلغي العمل السيئ، العمل السيئ في دكّانك، في مكتبك، في عيادتك، في

مكتبك الهندسي، في صفّك، في وظيفتك، هنا عملك، هنا يبدو إسلامك، هنا يبدو إيمانك، إذا كنت ذا عملٍ طيّب فصلاتك مقبولة، تقف لتصلي ترى الطريق سالكاً إلى الله، ترى أن الله يتجلّى على قلبك، لأنك إنسان خيّر، طيّب، صالح، أما إذا كان فيك غش، وكذب، واحتيال، وحرمان، و كسب مال غير مشروع، وإنفاق غير مشروع، وأعمال سيئة لا ترضي الله عزّ وجل، وأنت حريصٌ على مظاهر الدين، فهذا لا تقدّم ولا تؤخّر..

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ

1 ـ الدنيا مملوءةٌ ظلمًا:

إذا امتلأت الأرض ظلماً وجوراً كما قال عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمَهْدِيُّ مِنِّي، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، أَقْنَى الْأَنْفِ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ))

[أبو داود وأحمد]

معنى هذا أحياناً تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، والأشياء بين أيديكم، في كل أنحاء العالم الظلم والجور، تمتلئ ظلماً وجورًا.

2 ـ لا ظلمَ يوم القيامة:

أما يوم القيامة:

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

هذه (لا) نافية للجنس، ونفي الجنس أبلغ من نفي المُفْرَدِ، أحياناً يقول لك واحد: عندك رغيف خبز ؟ إذا قلت له: لا، فقد يكون عندك كعك، قد يكون عندك معكرونة، قد يكون عندك أطعمة أساسها القمح، أنت لحرصك على أن تنفي له تقول، له باللغة الدراجة: جنس الخبز ما عندي، نفي الجنس أبلغ من نفي المُفْرَد، وهذه (لا) إعرابها: لا النافية للجنس، تنفي الجنس، الاسم الذي يأتي بعدها مبنياً على الفتح هو اسمها، و(لا) نافية للجنس.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

أي لا يمكن أن يتصوّر أي نوعٍ من أنواع الظلم أبداً، تأخذ حقّك الكامل، فما دام هناك ميزان دقيق، وعدالة فلا ظلم.

أنا قلت لإنسان اليوم: تصوّر لو أنك راكب مركبة والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطيان واقفان بجانبه على دراجتين، وسيارة فيها نقيبان من الشرطة، فهل تمشي والإشارة على الأحمر ؟ مستحيل ـ وأنت مواطن عادي طبعاً ـ لا تمشي، لأن الذي أصدر هذا القانون يطولك بعلمه، وتطولك أيضاً بقدرته، هناك حجز، وغرامة كبيرة، فأنت مع إنسان إذا أيقنت أنك لن تفلت منه تطيعه، فليت الإيمان بالله يرقى إلى مستوى الإيمان بإنسان أمامك قوي، مع إنسان من بني جلدتك لن تتخطّى الإشارة الحمراء، ما دام الإنسان يحاسبك حساباً عسيراً، فإذا أيقنت بوجود الله، أيقنت أنه سيحاسب، لأن الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

احذر فإن علم الله وقدرتَه يطولانِك:

لماذا ؟

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

ذكر اسمين من أسمائه، له تسعة وتسعون اسماً، ما ذكر إلا اسمين، لأن هذين الاسمين يكفيان كي تستقيم على أمر الله، إذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب، انتهى الأمر، لابدّ من أن تصدق، نسخة من البيان أرسلت إلى الماليّة، سألوك: ما الذي استوردته في هذه السنة ؟ أنت تعرف أن هناك نسخة عندهم، فلا يمكن أن تكذب أبداً، لأنك لو كذبت ستُكْشَف فوراً، إذا أيقنت أن الله يعلم، وأنه سيحاسب فلابدّ من أن تستقيم على أمره.

يا أيها الإخوة الكرام، إذا كان للإنسان معصية مقيم عليها فلابدّ أن في إيمانه خللاً، أن يقينه بعلم الله ضعيف، أو أن يقينه بمحاسبة الله ضعيف، لو أيقن يقيناً قطعيًّا أن الله يعلم، وسيحاسب لا يعقل أن يعصي الله عزّ وجل.

الآية دقيقة جداً:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

أي أن علّة وجودكم أن تعلموا.

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

يعلم ويقدر، أي أنه يعلم وأنت في قبضته، مستحيل تعصيه، فإذا عُصِيَ الله عزّ وجل فلضعفٍ في إيمان الإنسان إن بعلمه أو بقدرته.

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

ماذا أترك ورائي من عملٍ بعد الموت ؟

اسأل نفسك: ما نوع الكسب الذي أكسبه ؟ ما نوع العمل الذي ألقى الله به ؟ إذا ذُكِر اسمي بين الناس ماذا يقال عني ؟ أحياناً يقال: فلان أكبر دجّال، فلان ليس نظيفًا، فلان سارق، هذا عمله، فلان ابن حرام، فلان مؤذٍ، فلان كذّاب، هذا يسموه بادئ الرأي، أي النظرة الأولى، فكل إنسان له عمل، باستقامته وبحرصه على طاعة الله يلمع اسمه في سماء المعرفة.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

عندما تتقصّى طاعة الله عزّ وجل فلها مكاسب كثيرة في الدنيا، منها أن الله سبحانه وتعالى يرفع شأنك، صار لك مكانتك العالية، لك هيبتك، محبوب، والبطولة لا أن تمدح في حضورك، بل أن تمدح في غيبتك، فعلامة العمل الطيّب أن الناس يثنون عليك في غيبتك.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

هذه (لا) نافية للجنس.

(إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

سريع الحساب: لأن الحساب طويل يحتاج إلى جهد جهيد، لكن ربنا عزّ وجل كن فيكون، والآن اخترعوا أجهزة تعطي حساباً سريعة، يقول لك: قفزة نوعيّة في الحسابات، ربنا عزّ وجل سريع الحساب، كل شيء جاهز.

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

بقيت آيةٌ واحدة، وهي قوله تعالى:

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ)

1 - يَوْمَ الْآزِفَةِ:

سُمِّي يوم القيامة يوم الآزفة من الفعل أزِفَ أي اقترب، كل آتٍ قريب، طبِّقوا هذا أول رمضان، بقي عليه ثلاثون يوما، تمضي الأيام سراعاً، ويأتي العيد، العيد الكبير بقي عليه شهران وعشرة أيام، تمضي الأيام سريعاً، يأتي العيد الأضحى، دخلنا في الصيف، صيف وحر، يأتي الشتاء، تركّب المدافئ، ترتدي المعاطف، وأنت في الشتاء يأتي الصيف، كنا بالسبعينات، أول سنة الثمانين، ألف وتسعمائة وثمانون، مضت الثمانينات، الآن بالتسعينات، مازال هناك عام الألفين وما بعده، وهكذا تمضي الحياة، الوقت من خصائصه أنه يمضي سريعاً.

فليسأل الواحد منا نفسه: كيف مضت هذه الأربعون سنة ؟ هذه الخمسون، هذه الخمسة والثلاثون ؟ يقول لك: البارحة كنا صغارًا، والإنسان يقول: يا ولد لا تحتاج إلى هذا، معنى هذا أنه ولد، ولا يزال يرى نفسه صغيرا، الأيام تمضي سريعاً، الموت على الطريق، محطّة، والقطار ماشٍ، والموت آخر المحطّة.

إذا ركب الرجل قطار الزبداني، انطلق من محطة الحجاز، دخل في منطقة الوادي، بعد هذا وقف القطار تفضلوا بالنزول، آخر المحطّة، ما دمنا متحرّكين والهدف ثابت فكل متوّقع آت، فربنا عزّ وجل سمّى يوم القيامة يوم الآزفة، لأنها تأتي قريباً، أحياناً تجد نعيًا واحدا على الجدران، انتهى، كتاب وانطوى، قصّة وانتهت، كان شخصا صار خبرا على الجدران، انتهى، وبقي عمله، الآن الموت، البرزخ، ثم يوم القيامة، فالإنسان لا يغتر بالدنيا.

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ)

سُمِّيَت الآزفة لأنها قريبة جداً.

(إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ)

2 ـ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ

من شدّة الخوف.

(كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

3 ـ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

ما من إنسان له معك علاقة حميمة بإمكانه أن ينقذك، وليس هناك شفيعٌ يشفع لك عند الله عزّ وجل في العمل السيئ الذي اقترفته، انظر للآية فما أوضحها.

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ)

لو أن إنسانًا ـ كما أقول هذا كثيراً ـ استطاع أن ينتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام حكماً لصالحه، وهو ليس محقّا، لا ينجو من عذاب الله ـ انتزعه من رسول الله ـ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه]

لا تنجو، فلا أحد يتّكئ على أشخاص، ولا على نَسَب، ولا على قرابات، نصيحة لوجه الله، إيّاك أن تعتمد على نسب، ولا على قرابة، ولا على ولاء، ولا على اتصال، لو أن لك صلة بالنبي عليه الصلاة والسلام ما بعدها صلة، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لصالحك، ولست محقّا بكلامك لا تنجو من عذاب الله، فما قولك ؟

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ، وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي))

[متفق عليه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ، ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ))

[متفق عليه]

فكذلك الآن في الدنيا إذا تلبّس إنسان بمشكلة كبيرة فيها مساس بأشياء كبرى في حياتنا، تجد أن كل الوسطاء ينسحبون، يقولون لك: لا نقدر، هذه شيء فوق طاقتنا، وهذا في الدنيا، كموضوع مخدّرات أو غيره، فالكل ينسحبون، يجب أن يلقى العقاب العادل، فكيف مع الواحد الديان ؟

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآَزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (07-20): تفسيرالآيات 19 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-07-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة غافر، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

1 - يوم الآزفة:

يوم الآزفة أحد أسماء يوم القيامة، سُمِّيَت كذلك لقرب مجيئها، لأن كل متوقع آت، وكل آتٍ قريب، الشيء الذي سيأتي ربما يُعَدُّ بقصر الزمن قد أتى، والدليل آية تقول:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من الآية 1)

أتى، ما دام هذا الأمر سيأتي، هو في حكم أنه قد أتى، هذا معنى الآزفة.

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ)

2 - إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ

من شدة الخوف والقلق.

(كَاظِمِينَ)

3 - كَاظِمِينَ

أي لا يستطيعون أن يتحرّكوا، ولا أن يتكلّموا، لأن الله سبحانه وتعالى وضعهم في موضع المسؤولية.

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

4 - مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

الإنسان في الدنيا له جماعة، له أقارب، له أصدقاء ربما يعينوه على محنته، ولكن يوم القيامة الناس يأتون فرادى، ما من حميمٍ ينقذهم، ولا شفيع يشفع لهم، هذه الآية شُرحت في الدرس الماضي، ثم يقول الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذه الجُزْئِيّة.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

1 ـ لا يعلم خائنة الأعين إلا الله:

أي يعلم الأعين الخائنة، العين أحياناً تسرق النظر، فإذا سرقت النظر إلى ما لا يحلُّ لها فقد خانت الأمانة، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض يستطيع أن يعلم خيانة العين أبداً، وهذا يقودنا إلى أن بين التشريعات الوضعية والأوامر الإلهية نقاط مشتركة، وهناك نقاط مختلفة، فهناك مجموعة أوامر يحرّمها الشرع وتحرمها القوانين، لكن الشرع أحياناً ينفرد بأوامر، ما من قانونٍ على وجه الأرض يحرمها على الإطلاق، إلا أن الدين ينفرد بتحريمها.

إذا استرق الإنسان النظر إلى امرأةٍ لا تحل له، فما من تشريعٍ أرضي يحرم عليه ذلك، بل ما من جهةٍ أرضيةٍ بإمكانها أن تكشف هذه المخالفة، لأن خيانة العين يصعب ضبطها من قِبَل البشر، فقد يكون الإنسان في مكانٍ، وليس معه أحد، وبإمكانه أن ينظر، ولا يعلم هذه النظرة إلا الله، قد يكون مع جمعٍ غفير وبإمكانه أن يُسارق النظر دون أن يشعر به أحد، فالله سبحانه وتعالى ذكر جزئية من جُزئيات النظر لكنها بليغة في مدلولها، فإذا كان الله عزّ وجل يعلم خائنة الأعين فما قولك بالذي فوق خيانة العَين؟ وهذا يقودنا إلى أن الله سبحانه وتعالى في بعض آيات القرآن الكريم يقول:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْض مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

هذه الآية دقيقة جداً، عِلّةُ خلق السماوات والأرض أن تعلم أن الله يعلم، لأنك إذا علمت أن الله يعلم قطعت أربعة أخماس الطريق إلى الله.

ما الذي يجعل الإنسان يُقدِم على المعصية ؟

ما الذي يجعل الإنسان يُقدِم على المعصية ؟ شعوره غير الصحيح أن الله في السماء لا يراه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت))

[الجامع الصغير عن عبادة بن الصامت، وفي إسناده ضعف]

إذا شعرت أن الله معك، إذا أيقنت أن الله يعلم انتهى الأمر، لا يستطيع الإنسان العاقل أن يعصيَ من يعلم المعصية، هل تستطيع أن تخالف أمراً من إنسانٍ قوي مُطّلع عليك ؟ لا تستطيع.

إذا كنت لا تستطيع أن تخالف أمراً لبشرٍ مطّلعٍ عليك إذا عصيته، وهو قادر على أن يعاقبك إذا فعلت ذلك، أنت مع إنسان تقف موقف الالتزام، فكيف بك مع الله سبحانه ؟

فعلة هذه الآية، أي سبب مجيء هذه الجزئية هي أن الإنسان إذا علم أن الله يعلم قطع نصف الطريق إلى الله، أو قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، لأن من لوازم العِلِم الخَشْيَة، إذا كنت مُرَاقبًا فأنت ملتزم، إذا كانت اتصالاتك مراقبة إذاً أنت منضبط، إذا كانت حركاتك مراقبة فأنت مستقيم، هذا من لوازم العلم الذي يحصل للإنسان.

إذاً: ربنا سبحانه وتعالى جاء بجزئيةٍ صغيرةٍ صغيرة إذا وقفت عندها، وعرفت مدلولها وأبعادها عندئذٍ تلتزم، فالعينُ يمكن أن تسترق النظر، ولا يستطيع أحدٌ على الإطلاق أن يعلم استراق نظرها إلى ما حرّم الله، ولكن الله وحده يعلم، إذا علمت أن الله يعلم، انتهى الأمر.

من لوازم هذا العلم الاستقامة على أمر الله، إذاً: أن يكون علمك بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض، هذا شيء كبير جداً، لذلك يفترق الناس هنا، فالمؤمنون يعلمون أن الله يعلم، فيلتزمون أمر الله، وينتهون عما نهى الله ؛ وضعاف الإيمان يغيب عنهم أن الله يعلم، فيقترفون المعاصي والآثام، ثم تأتي المصائب والمُلِمّات جزاءَ اقترافِهم هذه المعاصي.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

إذاً: هذا الأمر لا يعلمه إلا الله.

معنى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ

المعنى الأول:

بعضهم قال: الآية موجهة إلى نظر الإنسان إلى المرأة التي لا تحلُّ له، فيستطيع أن ينظر إليها دون أن يشعر به أحد، وهو في جمعٍ غفير، أو يستطيع أن ينظر إليها، وهو منفردٌ لا يراقبه إلا الله عزّ وجل.

المعنى الثاني:

وقال بعضهم: هذه الآية متعلقة بغمز العَيْن، أحياناً يكون الاتفاق بين شخصين، حركة يسيرةٌ بجفن العين أو بحركة العين، أحياناً يحرّك الإنسان بؤبؤه نحو اليمين، أي افعل كذا، أو نحو الشمال، أو نحو الأعلى، لا تفعل، تحريك بؤبؤ العين هذه الحركة اليسير اللطيفة هي ما تعنيه الآية الكريمة:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

أي الغمز.

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: إذا رأيت، وقلت: لم أر، أو إن لم تر، وقلتَ: رأيت، هذه خائنة الأعين، أي أنّ الله عزّ وجل أتى بحالةٍ دقيقة، جزئيةٍ يسيرةٍ من فعل العين، والله يعلمها، فإذا كان يعلم خائنة العين فما قولك بما فوق ذلك ؟

إذاً يجب أن تعلم أن الله يعلم، لأنك إذا علمت أن الله يعلم تلتزم أمر الله، وتلتزم شرعه، فإن التزمت أمره وشرعه سعدت في الدنيا والآخرة، كأنها تعني أنك بداية يجب أن تعلم أن الله يعلم، إن لم تعلم أن الله يعلم ربما وقعت في المعاصي والآثام.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

المعنى الرابع:

وقال بعض المفسرين: خائنة الأعين هي النظرة الثانية، النظرة الأولى نظرة الفجاءة، لك والثانية عليك، فهذه الخائنة، العين تخون متى ؟ في النظرة الثانية، في الأولى لا تعلم، فوجئت بهذا المنظر، أما النظرة الآثمة فهي النظرةُ الثانية، فعَنْ أبي رَبيعَة عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَفَعَهُ قَالَ:

((يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ))

[الترمذي]

خائنة الأعين هي النظرة الثانية.

المعنى الأول: حينما تسترق العين النظرة إلى امرأةٍ لا تحل له، لو كنت وحيداً يعلم هذه الخيانة، ولو كنت في جمع غفير، فإذا ما غفلوا عنك استرقت النظر، فإذا ما نظروا إليك غضضت البصر، هذه المخالفة لا يعلمها إلا الله، هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: أن خائنة العين هي غمز العين، أي إنْ أعطيت إشارةً بعينك يميناً أو شمالاً، نحو الأعلى، أو نحو الأسفل، وأنت تريد شيئاً، وقد لا يشعر بك أحد.

أحياناً يكون الضيف جالسًا أمامك، يلتفت نحو النافذة تعطي إشارة لابنك بعينك أن هيّئ الضيافة، بعينك فقط ـ وقد اخترنا الشيء الخير الطيّب، أما الشيء الشرير فالإنسان محاسب عليه ـ فغمز العين هي خائنة الأعين، واستراق النظر إلى المرأة الأجنبية دون أن يعلم أحدٌ من بني البشر هي خيانة العين.

تلخيص معاني خائنة الأعين:

كنت أذكر وأكرر كثيراً: أن الطبيب المؤمن له أن ينظر إلى موطن الداء في المريض، ولو كان امرأةً، إلا أن الله وحده يعلم، ولا أحد سواه إذا استرق النظر إلى مكانٍ آخر لا يعالجه، ولا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يكشف هذه المَعْصية، بإمكانه أن ينظر إلى موطن الداء، وهذا حقٌ له لإنقاذ هذه المريضة، أما إذا نظر إلى مكانٍ آخر لا يحل له، فمن يعلم هذه المخالفة ؟ لا يستطيع لا الزوج ولا الأقارب ولا المرافق لهذه المريضة أن يكشف هذه الخيانة.

قل عن الطبيب، وقل عن القاضي حينما يريد أن يتأكد من شخصية امرأةٍ له أن ينظر إليها، من يعلم أن هذه النظرة تهدف إلى معرفة شخصية هذه المرأة، أو نظرتُهُ فيها هدفٌ آخر، من يعلم ذلك ؟ الله سبحانه وتعالى.

الإنسان أحياناً يتعامل بحكم العمل مع امرأةٍ، لكن مَن يعلم أن نظرته إليها بالحَدِّ الأدنى مع غَضِّ البصر، أم أن نظرته إليها متعلقة بهدفٍ آخر؟ هذه خيانة العين، هذه بعض المعاني.

فالمعنى الأول استراق النظر.

والمعنى الثاني الغمز.

والمعنى الثالث أن تقول: ما رأيت وقد رأيت، خنت بهذه النظرة، أو أن تقول: رأيت، وما رأيت.

والمعنى الرابع: النظرة الثانية، الأولى لك والثانية عليك.

إذا كان الله يعلم خائنة الأعين فما فوقها أولى بالعلم:

ما أراد الله بهذه الجزئية الصغيرة من عمل العين إلا ليؤكد لك ما فوقها، أي أنك مكشوفٌ أمام الله عزّ وجل، مكشوفة حركاتك وسكناتك، وخواطرك ونواياك، وما تطمح إليه، وما يدور في خلدك، وما يخفى عنك، إذا علمت أن الله يعلم قطعت نصف الطريق، أو أربعة أخماس الطريق إلى الله عزّ وجل. وأفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان، اعبدْ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، يا رب اجعلنا نخشاك حتى كأنّا نراك، وهذا ما يعبّر عنه بعض العلماء بحال المراقبة، المؤمن الصادق يشعر أنه مراقبٌ من قبل الله عزّ وجل، لذلك يستحيي أن يأتي بمعصية، فهو مراقَب، تحت المراقبة الشديدة، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إنّ رَبّكَ لَبالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُ السِّرّ وَأَخْفَى(7))

(سورة طه)

يعلم السر الذي أسررته، والذي يخفى عليك يعلمه، عَلِمَ ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

يمكن أن نقول: إن مشكلتك مع الله هي بين أن تعلم أنه يعلم، أو تتوهم أنه لا يعلم، قال تعالى:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(16))

(سورة ق)

أيْ أقرب إليه من روحه.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

هو معكم بعلمه.

هذه المعاني ملخّصها أن تعلم أن الله يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم فبحكم فطرتك، وبحكم خوفك، وحبك لسلامتك، وحبك لوجودك، ولسلامة وجودك، ولاستمرار وجودك، ولكمال وجودك، بدافع فطرتك تستقيم على أمر الله.

الفرق بين رجلين: إنسان مستقيم وآخر غير مستقيم، المستقيم يعلم أن الله يعلم، ويعلم أن الله يعلم وسيحاسب، ولأنه لا مفرّ من محاسبة الله عزّ وجل فلا بد من أن يستقيم، كيفما شاء لا بد من أن يستقيم؛ أما غير المستقيم فيتوهّم أن الله في السماء، وأنه خلق الخلق، وترك بعضهم لبعض، هذا قد يكون وهمًا، وقد يكون هذا الوهم عن وعيٍ أو عن غير وعيٍ.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

1 ـ الإنسان بين لطف الظاهر وخبثِ الباطن:

أقرب الناس إليك قد يُبدي لك من البشاشة، والمودة، واللطف، والتقرب، وهو يخفي في صدره الخبث واللؤم، والحقد والحسد، وما إلى ذلك، مَن الذي يعلم هذا القلب، وما ينطوي عليه ؟ قيل في بعض الآثار: **عبدي طهّرتَ منظر الخلق سنين، أفلا طهّرت منظري ساعة ".**

منظر الخلق بيتك، غرفة الاستقبال، ثيابك، مركبتك، هذا منظر الخلق، لكن منظر الرب هو قلبك الذي في صدرك، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فهنيئاً لمن كان طيّب السريرة، هنيئاً لمن كان بريئاً عند الله عزّ وجل، فهو يحاسب على ما في قلبك، لذلك فالإنسان صاحب النيات الطيبة، البريء، المستقيم الذي لا ينوي الغش لأحد، هذا القلب الثمين هذا أثمن شيء تملكه، والدليل:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

فهل هذا قليل ؟ أن تملك قلباً سليماً ليس فيه حقدٌ، ليس فيه حسدٌ، ليس فيه ضغينةٌ، ليس فيه تآمرٌ على أحد، ليس فيه غِلٌ على أحد المؤمنين، ليس فيه توجيهٌ لإيقاع الأذى بفلان ؟ هذا القلب السليم هو أثمن ثروةٍ تملكها، بل هذا القلب الثمين هو أثمن مكسبٍ تكسبه من الإيمان.

الإيمان قيد الفتك، المؤمن يعلم أن الله يعلم، لذلك لا يستطيع أن ينوي الشر لأحد أو يوقع الشر به، الإيمان يُلجِمُهُ، يعلم أن لهذا الإنسان إلهاً سيحاسبه، الله وكيله، الله وكيلك، كلمة الله وكيلك، كلمة يألفها الناس كثيراً، يرددونها كثيراً، ولكن هذه الكلمة لو عرف الناس معناها لصعقوا، لو عرف الناس معناها لعدُّو للمليون قبل أن ينووا السوء لأحد، الله وكيل الخلائق.

الشيء الثاني:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

2 ـ لا يعلم النياتِ إلا الله:

هذا الذي يتزوج امرأةً وفي نيّته أن يطلقها بعد حين، ولم يقل لها ذلك حينما خطبها، فمن يكشف هذه المعصية الكبيرة ؟ الله جل جلاله، قد تخطب ويحصل الإيجاب والقبول، وتأتي بشاهدين، وتسمي المهر، وهذه أركان الزواج الشرعي، لكن في نيّة الزوج أن يمضي مع هذه المرأة ما دام مسافراً في

بلاد الغرب، فإذا أزمع العودة طلّقها، وانتهى الأمر، مَن يعلم هذه النية المخالفة لحقيقة الزواج، وهي نية التأبيد ؟ الله جل جلاله.

هذا الشريك المفتقر إلى خبرة الشريك الآخر، شارك إنساناً ذا خبرة، وفي نيته أن يكسب منه هذه الخبرة، فإذا تمّ له هذا الكسب فكّ الشراكة، وألقاه خارج المحل، مَن يعلم ذلك ؟ الله جل جلاله.

الزوج الذي ينوي تطليق امرأته بعد حين دون أن تكون مذنبة، إلا لمصلحةٍ عند الزوج.

وهذا الذي يتزوّج امرأةٍ ليأخذ جنسية معينة، تصدقه هي، وهو بمجرد أن يأخذ البطاقة الخضراء يطلقها، من يعلم ذلك ؟ الله جل جلاله، فإذا أراد الإنسان أن يخفي عن الناس شيئاً، فالذي يخفيه لا يخفى على الله، لا تخفى على الله خافية، هذا أكبر معين على الاستقامة، حينما تعلم أن قلبك مكشوف، صفحة مبسوطة أمام الله عزّ وجل، لذلك لا يفرح المؤمن إلا إذا كانت نياته طيّبة، ولا يسعد إلا إذا رأى نيّته سلمية.

أحياناً تجد أشخاصًا ينطوون على خبثٍ كبير، من دلائل خبثهم أنهم يسيئون الظن بمعظم الناس، فهنيئاً لمن كانت نيته سليمة، وبعض الخبثاء يتهمونه بالشر، وهو ليس كذلك، لذلك قالوا: الحمد لله على وجود الله ـ وجوده نعمة ـ الله موجود، ويعلم، وسيكافئ، وسيعاقب، فأنت علاقتك مع الله عزّ وجل.

القلب السليم:

لذلك أثمن شيءٍ أيها الأخ الكريم تملكه القلب السليم الذي لا ينطوي على حقدٍ، ولا على حسدٍ، ولا على ضغينةٍ، ولا على تآمرٍ، ولا على نيةٍ سيئةٍ، ولا على فعلٍ قبيحٍ، هذا هو القلب السليم محصلة الإيمان، هو الذي تسعد به في الآخرة، كل شيءٍ في الدنيا يزول، ويبقى القلب السليم، والآية واضحة جداً:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

أيْ أنّ الملايين المُمَلْيَنَة ـ إن صح التعبير ـ والألوف المؤلّفة من العُمْلات الأجنبية، إذا مات الإنسان يتركها، ولا يبقى من ذخيرته للآخرة إلا القلب السليم، والقلب السليم محصلة طبيعية للإيمان، فإنك إن آمنت بالله ؛ آمنت بوجوده، وآمنت بوحدانيته، وآمنت بكلامه، وآمنت بأنه يعلم، وهو مُطّلع لا تخفى عليه خافية، وآمنت أنه سيحاسب فقد استقام أمرك، و فزت ورب الكعبة.

أنا لا أبالغ: إذا أيقن أحدكم أن الله موجود، وواحد، وكامل، ويعلم وسيحاسب، فلا يمكن أن يعصيه، وكل إنسان يعصي الله فهو لا يعصيه إلا لخللٍ في هذه الفِقرات، آمنت بوجوده موجود، وآمنت بأنه كامل، أي عادل، وآمنت بأنه واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في صفاته، وآمنت بأنه يعلمُ، وآمنت

بأنه سيحاسب، لا يمكن لإنسان ينطوي على ذرة عقلٍ واحدة أن يعصي الله، ولا يعصي اللهَ إنسانٌ إلا لخللٍ في هذه المُسَلّمات ؛ في وجود الله، ووحدانيته، وكماله، وعلمه، ومحاسبته.

الظالم في قبضة الرحمن:

ما من إنسان يرتكب معصية إلا ويتوهّم أنه سينجو من العقاب، من عقاب البشر، لو علم أنه لا ينجو من عقاب رب البشر إطلاقا لاستقام.

دخل رجل إلى بيت، وكان جندياً في حملة قمع فتنة، فأبيحت لهم المدينة قائد الحملة أباح المدينة للجنود فدخل جنديٌ إلى بيت ـ والقصة قديمة حدثت في العصور العباسيّة ـ فرأى زوجاً وامرأته وطفلين، فقتل الرجل وأمر المرأة أن تعطيه كل ما عندها، أعطته سبعة دنانير ذهبية، فقتل الولد الأول، فلما رأته جاداً في قتل الثاني أعطته درعاً مذهبة، أعجبته الدرع **درع مطلية بالذهب غالية جداً** فلما رآها، وقلّبها قرأ عليها بيتين من الشعر، فلما قرأهما وقع مغشياً عليه، قرأ على هذه الدرع:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي   الأرض أسرف في القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضــي   الأرض مـن قاضي السماء

***

إذا نجا إنسان ظالم من قبضة الرحمن فهذا الدين لا معنى له أبداً.

(وَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

إذا أيقنتم أيها الإخوة أن الله سبحانه وتعالى لا بد من أن يحاسب، إنْ في الدنيا، وإنْ في الآخرة، ليس الشرط أن يحاسب في الدنيا ؛ لكن بعض الذنوب كما قال عليه الصلاة والسلام، يعجّل الله لفاعلها العقاب في الدنيا، من هذه الذنوب عقوق الوالدين، ومن هذه الذنوب البغي ـ أي الظلم ـ فالظالم وعاقٌ الوالدين وقاطع الرحم، قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، والبغي، هذه الذنوب الثلاثة يعجّل الله لأصحابها العقوبة في الدنيا، فإذا أيقنّا جميعاً أن كل خطيئة مسجلة، ولها حساب خاص، ولن تمحى إلا بتوبةٍ نصوح، فما من إنسان ينطوي على ذرة عقل يقدم على معصية أبداً.

فإنْ أكلَ هذا المالَ الحرام أتلف الله ماله، وأتلفه مع ماله.

حدثني أخ كريم بواقعة قصيرة: شخص يقتني مركبة جديدة، تَعَطّلَت، فذهب إلى مرآب لإصلاحها، فصاحب المرآة شعر أن صاحبها جاهل، فطلب منه مبلغا كبيرا غير معقول ـ عشرة أضعاف ما يستحق ـ فلما عاتبه جاره، وهو من إخوتنا الأكارم قال له: أنت لا تعرف كيف العمل، هكذا العمل ـ أي افتَخَرَ

بهذه الطريقة في ابتزاز أموال الناس ـ ثم أخذ عشرة آلاف ليرة، بينما العمل الذي قام به لا يزيد أجره على ألف ليرة، لكن استغل جهل هذا الإنسان، وقال عليه الصلاة والسلام:

((غبن المسترسل ربا))

[الجامع الصغير عن أنس وعن جابر وعن علي]

المسترسل الجاهل، أي غشيم، بالتعبير الدارج.

((غبن المسترسل حرام))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة]

لصاحب المرآب هذا ابنٌ يعمل في مخرطة، بعد أيامٍ أربعة دخلت نثرة فولاذٍ في عين هذا الابن، فاضطر أبوه أن يأخذه إلى بلدٍ مجاور، وأن يدفع ستة عشر ألف ليرة، أجرة عملية سحب هذه الشظية الصغيرة.

لو يعلم الإنسان أن كل مالٍ يكسبه حراماً لا بد من أن يدفع الثمن باهظاً، جزاءً وفاقاً، وأن كل علاقةٍ مشبوهة، وأن كل بغيٍ، وأن كل عدوانٍ لا بد من جزاءٍ له، إن عاجلاً أو آجلاً، لذلك يجب أن تعلم أن الله يعلم، ويجب أن تعلم أن الله سيحاسب، وأن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً، وعلاقتك مع الله وحده، وكل إنسان يحاول أن يتبرك بأشخاص طيبين على أساس أن هذا الطيب ينقذه من عذاب الله فهذا جاهل، لا يستطيع النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق وحبيب الحق أن ينقذك من عقاب الله عزّ وجل.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

لو حكم لك النبي، وهو سيّد الخلق، ولست محقاً فلن تنجو من عذاب الله، فما قولك بما دون النبي ؟ النبي عليه الصلاة والسلام على علو شأنه وعظم مقامه وهو سيد البشر، لا يستطيع أن ينجيك من عقاب الله إذا كنت منحرفاً، فهل في الكون كله إنسانٌ بإمكانه أن ينقذك ؟ هذا وهمٌ، لذلك أخطر شيء في الحياة أن يكون في ذهن الإنسان تصوّراتٌ غير صحيحة، وأوهامٌ لا تقف على قدميها.

بين العلم والشك والوهم والظن:

قالوا: العلم علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوعٌ بصحتها، عليها دليل، مطابقة للواقع، هذا تعريف دقيق، لو أن هذه العلاقة ليست مقطوعاً بصحتها، دخلنا في الوهم والشك والظن، وإذا كان يقينك بهذه الحقيقة أو

بهذه المقولة ثلاثين بالمائة فهذا وهم، وإن كان اعتقادك بأن هذه الفكرة صحيحة خمسين بالمائة فهذا شك، وإذا كانت ثمانين بالمائة فهذا ظن، وإنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً، لا بد من أن تعتقد اعتقاداً قطعياً، وأعلى درجة باليقين هو القطع.

إذا هناك: وهمٌ، وشك، وظن، و غلبة ظن، ويقين، وقطع، إذا استطعت ألاّ تعتقد إلا بالحقائق المقطوع بصحتها فافعل، كل عقيدة زائغة فهي أوهام، وتصورات ما أنزل الله بها من سلطان، استقيت من زيد من عُبيد، وهو شخص غير ثقة، غير متحقق، من دون دليل، واعتقدت بها وتحرّكت من خلالها، فهذه مصيبة كبيرة ؛ أن تعتقد اعتقاداً زائغاً تنطلق منه، القطعُ مرتبةٌ فوق الوهم والشك والظن وغلبة الظن واليقين.

مطابقةٌ للواقع، إن لم تطابق الواقع فهي الجهل، من هو الجاهل ؟ كل الناس يظن أن الجاهل هو الإنسان الذي لا يعلم، لا والله، ذاك الأمي، الجاهل هو الإنسان المُمْتَلِئ بالمعلومات غير الصحيحة، يعلم، ولكن كل معلوماته غلط، هذا هو الجاهل، فالجهل عدم مطابقة الوصف للواقع.

ومن دون دليل صار تقليدًا، فإذا استطعت أن تبتعد عن التقليد، وعن الجهل، وعن الوهم، وعن الشك، وعن الظن، واعتقدت اعتقاداً مقطوعاً به مطابقاً للواقع عليه دليل، فقد انطلقت انطلاقاً علمياً.

راجع كل معلوماتك، راجع كل معتقداتك، راجع كل تصوراتك، راجع كل المفهومات التي تملكها، اعرضها على القرآن والسنة، فهناك أوهام، وكذلك أفكار كلها خاطئة، تصورات غير صحيحة، هذه المعاني حول:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

أيْ أنّ الله يعلم، فإذا علم فسوف يحاسب، وإذا أيقنت بأنه يعلم، وسيحاسب فلا بد من أن تستقيم، وكل إنسان عنده مخالفة أو معصية يكون لذاته كالمُحَلِّل النفسي، عليه أن يُرجِعها إلى ضعفٍ في يقينه بوجود الله، أو بعلمه، أو بعدالته، أو بأنه سيحاسب. لذلك:

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ

1 ـ بين المفتي والقاضي:

لماذا يقضي بالحق ؟ قال: لأنه يعلم، ولأنه قادر، هناك شخص يعلم مَن هو صاحب الحق ؛ ولكنه ضعيف مستضعف لا يقدر على أن ينفِّذ قناعاته، وهناك إنسان قادر على أن ينفّذ، ولكن لا يعلم من هو

المحق، ولكن الله جل جلاله يعلم ويقدر، فالقضاء يحتاج إلى علم وإلى قدرة، والفرق بين المفتي والقاضي هو أن المفتي يعطيك الفتوى من دون إلزام، أما القاضي فيحكم، ويقضي، ولديه قدرة على التنفيذ، يأمر بالسجن فيسجنه، فالفرق بين المفتي والقاضي أن كلاهما عالم، ولكن المفتي عالم ليس لديه سلطة، أما القاضي فهو عالم لديه سلطة، فالقاضي يقضي وينفِّذ، أما المفتي فيقضي ولا ينفِّذ، فيقول لك: حكم الشرع في هذا كذا، لكن لا يقدر أن يلزمك فعلَ ما يأمر به، لأنه لا سلطان لديه، قال الله عزّ وجل:

(وَاللّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ)

2 ـ وَاللّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ

لأنه يعلم ولأنه يقدر، وبالحق، والحق هو الشيء الثابت الهادف، قال الله عزّ وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(16))

(سورة الأنبياء)

بين الحق واللعب:

ما هو اللعب ؟ هو العَبَث، وكل مع عبث لعب، ولكن العمل الحق هو العمل الذي ينتهي إلى هدفٍ نبيل، والحق هو الشيء الثابت، الحق عكس الباطل، الباطل الشيء الزائل.

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فمثلاً: المُعتقدات الباطلة تهاوت كبيت العنكبوت، فأقوى القوى دعمتها، ومع ذلك سقطت.

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

فالباطل من شأنه أنه زاهق، وليس زاهقاً، بل زهوق، و زهوق صيغة مبالغة.

(وَاللّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

3 ـ وَاللّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنّ اللّهَ هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ

لا يعلمون ولا يقدرون.

(إِنّ اللّهَ هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ)

ربنا عزّ وجل يحَذِّرنا في هذه الآيات من العقاب في اليوم الآخر، ولكن هناك إشارة أخرى إلى أن العقاب قد يكون في الدنيا.

(أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ

1 ـ لابد من التفكر في الأقوام الذين كانوا قبلنا:

أكبر دليل على ذلك أهرامات مصر، من ذهب إلى مصر، ودخل الأهرامات، يعرف كم كان الفراعنة أقوياء، وكم كانوا متفوقين في العلوم، فالشمس لا تدخل الهرم إلا في يومٍ واحد، فمن يقدر أن يصنع الآن نافذة لها زاوية لا تتوافق مع ميل الشمس إلا في يومٍ واحد من أيام السنة ـ هو يوم وفاة فرعون ـ فمن يعلم اليوم أسرار التحنيط ؟ لقد زرت مصر، ورأيت في متاحفها الشيء الذي لا يصدق، أطْعِمَتُهم قبل ستة آلاف عام، لحومُهم، خبزُهم، أدواتُهم، حليُّهم، مركباتُهم كلها كما هي، فأن تبقى المعادن سليمةً أمرٌ معقول، أما الطعوم، اللحوم، حتى الخبز، خبز الفراعنة منه نماذج قبل ستة آلاف عام، وتبقى على حالها، إذًا: لقد تفوقوا تفوقاً كبيراً، ربنا عزّ وجل يقول:

(أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ)

الأنباط في الأردن، مدينة بأكملها محفورةٌ في الجبل ؛ بيوت، وقصور، ودور محاكم، وحمّامات، وأماكن لهو، كلّها منحوتة في الجبال، قاعة الملك عشرات الأمتار طولاً وعرضاً وارتفاعاً، منحوتةٌ في جسم الجبل، وهي صالةٌ تشبه مكعباً نظامياً كله منحوت في الصخر نحتًا، مع الأعمدة والتيجان، شيء لا يصدق، نحن كل حضاراتنا اسمنت، وكلها سوائل، تصب اليوم فتجف غدًا، أما هذا الحفر فهو الأمر الذي لا يصدق.

ربنا عزّ وجل يقول:

(أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)

2 ـ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ

ففي قلعة صلاح الدين مسلةٌ صخرية، أيْ جبل من الصخر، حُفِر الجبل، وبقيت مسلة قاعدة لجسرٍ متحرّك يصل إلى القلعة، تنظر إلى هذه المسلة ارتفاعها ثلاثون مترًا، فالجبل حُفِر، وبقيت هذه المسلة الصخرية، ولا تزال حتى الآن، فتشعر أن الأمم السابقة قدّموا أشياء عظيمة، وكان لهم حضارات

كبيرة، وكانوا متفوقين، في علومهم، وفي أموالهم، وفي سلطانهم، وفي ممالكهم، ومع ذلك عصوا فدمّرهم الله عزّ وجل:

(أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدّ مِنْهُمْ قُوّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْض)

الشيء الذي يدعو للعجب أن الأهرامات بُنِيَت في مكان صحراوي، لا يوجد فيه صخور إطلاقاً، المنطقة كلها رمال، فمن أين جيء بهذه الحجارة ؟ من جنوب مصر من أسوان، فكيف حُملت ؟ زنَةُ كل حجر ثمانون طنًا، تسعون طنًا، فأي مركبٍ حمل هذا الحجر ؟ وكيف انتقل هذا الحجر من شَطِّ النيل إلى موقع الأهرامات ـ فهناك مسافة تبلغ حوالي عشرين كيلو مترًا، أو خمسة عشر كيلو مترًا بين شط النيل وموقع الأهرامات ـ وبعد أن وصل إلى هذا الموقع، كيف ارتفع إلى هذا العلو الشاهق ؟ بأي طريقة ارتفع ؟ شيء عجيب، فالأهرامات لا تزال أحد عجائب الدنيا السبع، هذه إشارة لنا، فاعتبروا يا أولي الألباب.

(كَانُوا هُمْ أَشَدّ مِنْهُمْ قُوّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْض)

ومع ذلك.

(فَأَخَذَهُمْ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

3 ـ فَأَخَذَهُمْ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ

هناك جهة قوية تدّعي أنها سيدة العالم، فمن السهل على الله سبحانه أن يأخذها الله بذنوبها، ولو ادعت أنها القوة الوحيدة في العالم، ربنا عزّ وجل قال:

(حَتّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ(24) وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَار السّلَام)

(سورة يونس)

القُوَى الأولى كيف تداعت كبيت العنكبوت، فكذلك يمكن أن تتداعى القوة الثانية.

إذاً:

ربنا عزّ وجل قال:

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145))

(سورة الأعراف)

احذروا غضبَ الله وسخطه بسبب الذنوب والمعاصي:

إذا عم الفسق في بلدنا فنحن مهددون من قِبل الله عزّ وجل، فإذا انتشر الفساد، واتسعت دائرةُ الفسق والإباحية، والزنا، والخمور، والمخدارت، فقد عم الفساد، وإذا أصبح الطريق يَعُجُّ بالكاسيات العاريات المائلات المميلات فهذا هو البلاء، فإذا ظهر الفساد فليتوقع الإنسانُ العقاب الإلهي.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

صواعق، وكذلك الصواريخ.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الزلازل والألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

أو الحروب الأهلية، وهذه ثالثة الأثافي، وهي الأشد.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الحروب الأهلية بإسبانيا دامت أربعين عامًا، شيء مخيف، ولم تَدَع شيئاً، فإذا كان فساد، وزنا، وخمور، ومخدِّرات، وأكل مال بالباطل، وعدوان، وتفلُّت، وإباحية، وانحلال، هذا كله داهية فاقرة، ولا ينجو من عذاب الله إلا من استقام على أمر الله، ونصح.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا)

كن صالحًا مصلِحا في زمن الفساد:

لم يقل: صالحون، بل قال:

(مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

وفرقٌ كبير بين الصالح والمُصلِح، الصالح في ذاته، أنا لا أؤذي أحداً، هذا لا يكفي، فيجب أن تنطلق في الدعوة إلى الله، في الأمر بالمعروف، في النهي عن المُنكر، يجب أن تسهم في إصلاح المجتمع، وأقل شيء على مستوى أسرتك، تجد رجلًا يرتاد المساجد، الصلاة في أول صف ـ والله شيء جميل ـ ونساؤه كاسياتٌ عاريات، يقول لك: لا يوجد فيهم دين، زوجتي ليس فيها دين، وبناتي مثلها أيضاً، وأنت أليس لك علاقة بهذا الموضوع ؟ فهو ليس له علاقة.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

فهذا الذي لا يتصدّى للدعوة إلى الله، ولا يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آثم، وهناك أساساً حديث شريف لا أذكر نصه الدقيق:

((أن الله عزّ وجل أرسل ملائكة ليهلكوا قرية، قالوا: يا رب إن فيها رجلا صالحاً، قال: به فابدؤوا، لمَ ؟ قال: لأنه كان لا يتمعر وجهه للمنكر))

[مشكاة المصابيح عن جابر قريبا من هذا اللفظ]

أما المؤمن فيصلح أهله، يصلح إخوانه، يصلح زملاءه، يصلح جيرانه بلسانه، وإحسانه، ونصحه، وصلته، ومودته، يسلك كل الطرائق، فإذا كان الإنسان مستقيمًا ومصلحًا فهذا الذي ينجو من عذاب الله، لذلك قال الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

4 ـ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ

الكافر أحياناً يهيّئ احتياطات لبقائه، كل هذه الاحتياطات تتلاشى، أين هي ؟ تلاشت أمام غضب الله ونقمته.

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ

لا حصون، ولا أموال، ولا شيء من هذا القبيل، يقول بعض الشعراء:

أفنى شَبَابَكَ كَرُّ الطرفِ وَالنَفس   فَالمَوتُ مُقتَرِبٌ وَ الدَهرُ ذو خُلَس

لا تَأمَنِ المَوتَ في طرفٍ ولا نَفسٍ   وَإِن تَمَنّعتَ بِالحُجّابِ وَ الحَـرَسِ

فَما تَزالُ سِهامُ المَوتِ نــافِذَةً   في جَنبِ مُدّرعٍ مِنها وَ مُتّــرِسِ

أراكَ لَستَ بوَقافٍ ولا حَـــذِرٍ كَالحاطِبِ الخابطِ الأعوادَ في الغَلَسِ

***

هؤلاء الذين أهلكهم الله عزّ وجل، وكانوا أشد قوةً وآثاراً في الأرض، والذين أخذهم الله بذنوبهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا

ذلك الإهلاك:

(بِأَنَّهُمْ)

بسبب أنهم:

(كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا)

فكفروا ؛ كذبوا، أعرضوا.

التكذيب مراتب:

التكذيب مراتب كما تعرفون أيها الإخوة، هناك تكذيب أقل خطراً من تكذيب، التكذيب هو خطراً هو اللفظي، كأن تقول لهذا الداعية: هذا الكلام غير صحيح، لم أقتنع به، فيأتيك بالدليل لأنك تحاوره، أما التكذيب الخطير فهو التكذيب السلوكي، أيْ تستمع بأدب، وتشكره، وأنت لا تقتنع بحديثه، تسير مع الشهوات، هذا التكذيب العملي لا يُكشف، لذلك التكذيب الأخطر هو التكذيب العملي السلوكي، فتلاحظ أن سلوك هذا الإنسان لا يتفق مع ما يقول، فهو يدّعي أنه مؤمن، ويفعل فعل الكُفار، يدعي أنه مستقيم ويأكل أموال الناس بالباطل، يدعي أنه ورع، وهو مع النساء الكاسيات العاريات، يدعي أنه صاحب حق، ويأكل ما ليس له، هذا هو التكذيب الخطير، فلا تعتقد أن لهذا الشرع قوةً تنفذه.

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

أحيانًا تسمع بزلازلَ، براكين، فيضانات، حروب، قتل، تعذيب، شيء لا يحتمل، هذا:

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

(ذَلِكَ بِأَنّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ إِنّهُ قَوِيّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (08-20): تفسير الآيتان 23 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-07-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى عليه السلام مع فرعون:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة غافر، ومع الآية الثالثة والعشرين، وبدءاً من هذه الآية تبدأ قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، ولهذه القصّة دلالاتٌ كثيرة، ومن الناس مَنْ يتوهّم أن هذه القصّة تكرّرت في القرآن كثيراً، فالحقيقة أنها لم تتكرّر، ففي كل مرّةٍ وردت فيها هذه القصّة كانت المناولة ـ بالتعبير الفني ـ من زاويةٍ خاصّة، فربنا جلّ جلاله من خلال هذه القصّة أراد أن يسلي النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يحذّر أعداءه.

فالقصّة كما تعلمون حقيقةٌ مع البرهان عليه، والحقائق المجرّدة لا تفعل في النفس فعل القصّة، لأن القصّة أحداثٌ وقعت، لكن هذه الأحداث تعني شيئاً يستنبط منها حقائق، هذه الحقائق لماذا تترسخ في النفس ؟ لأنها مستمدّة من الواقع، فلذلك قالوا: القصّة حقيقةٌ مع البرهان عليها، فربنا جلّ جلاله من خلال قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون أراد أن يثبّت النبي، وأن يسليه، وأن يحذّر المشركين من مصير فرعون الذي يأخذ بعضهم دوره.

قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى)

1 ـ مِن رحمة الله بالعباد إرسالُ الرسل:

الحقيقة لأنّ الله جلّ جلاله صاحب الأسماء الحسنى، لأنه ذاتٌ كاملة، خلق الخلق في أبدع تكوين، ولكن رحمته تقتضي أن يُعْلِمَ الإنسان حينما يغفل وينبّهه.

تعلمون أيها الإخوة أن الإنسان مكلّف، الكون كلّه مسخّرٌ له، وعقله مسخّرٌ له، وفطرته مسخرةٌ له، والشهوة التي أودعها فيه من أجل أن تدفعه إلى باب الله عزّ وجل، وحرية الاختيار التي منحه إيّاها من أجل أن يكون عمله ثميناً.

الكون والعقل والفطرة والحريّة والشهوة هذه كلِها مقوّمات التكليف، ومع ذلك كلِه ربّما ضلّ الإنسان سواء السبيل، وربما غفل عن ذكر الله، وربما ألهته الدنيا، وربّما اتّبع شهوته، فرحمة الله بالخلق

تقتضي أن يرسل إليهم رسولاً، أن ينزّل عليهم كتاباً، ولأن كل إنسان يستطيع أن يتلقى عن الله وحيَهُ، فتلقي الوحي يحتاج إلى أشخاص قمّة في الطُهر، وقمّةٌ في الحُب، وقمّةٌ في العلم، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(آل عمران)

إذاً: الفكرة هي أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرّمه أعظم تكريم ؛ منحه الكون، ومنحه العقل، و منحه الحريّة، منحه الشهوة، منحه الفطرة، ومع كل هذا قد يغفل الإنسان، قد يسهو، قد تضلّه أهواؤه، قد يتبع شهواته، قد تطغى عليه الدنيا، قد يُشْغَلُ بالمال فتقتضي رحمة الله عزّ وجل أن ينبّه هذا الإنسان الغافل، أن يذكّره لأنه رب العالمين.

2 ـ لابد للرسول من معجزة دالة على صدق رسالته:

كيف يذكّر الله البشر ؟ لابدّ من رسول، أيمكن أن يخاطب الله كل البشر ؟ إنهم لا يستطيعون تلقِي الوحي، لابدّ من واحدٍ منهم اصطفاه الله عزّ وجل على عِلم، هذا الذي اصطفاه الله على علم يوحي إليه، فينبئ الناس بأنه رسول من عند الله عزّ وجل، لأن هذا الرسول معه منهج، معه أمرٌ ونهي، افعل ولا تفعل، هذا المنهج يُعَطِّل على أهل الأهواء أهواءهم، يعطِّل على أهل الشهوات شهواتهم، يحدُّ من حريّة الفُجّار والكفّار، ماذا يفعل الفُجّار والكفّار ؟ يقولون: لست مرسلاً، وأنت كاذب، فكيف يؤكِّد لهم هذا النبي المُرسل أنه رسول ؟ لابدّ من المعجزة.

إذاً: المعجزة شهادة الله لرسوله بأنه رسوله، يعطيه شيئاً يعجز عنه كل البشر، وشيئاً مما نبغ فيه أهل العصر، كل عصرٍ تفوّق في موضوع ؛ ففي عهد سيدنا موسى عليه السلام كان السحرة هم المتفوّقون، وفي عهد سيدنا عيسى عليه السلام كان الطبُّ هو المتفوِّق، وفي عهد النبي عليه الصلاة والسلام كانت اللغة، والبلاغة، والفصاحة، والشعر في المحل الأول، إذاً كيف يثبت الله للبشر أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ لابدّ من أن يعطيه معجزة، وكلمة معجزة تعني أن البشر جميعاً يعجزون عن أن يأتوا بمثلها، إذاً: المعجزة شهادة الله عزّ وجل لهذا النبي بأنه رسول من عند الله.

بين المعجزة والكرامة:

بالمناسبة: خرق العادات للأنبياء معجزات، لكن خرق العادات للأولياء ليست معجزات، إنما هي كرامات، الشيء الدَقيق هو أن المعجزة ينبغي أن تُنْشر، وينبغي أن تُبلّغ، وينبغي أن يُتحَدّى بها، لكن الكرامة هذه خاصّة للولي، ولا يجوز أن يتحدّث بها، ولا يجوز أن ينشرها، ولا أن يجعلها أساساً

لدعوته، هذه نقطةٌ دقيقة، فالكرامة إعلامٌ من الله عزّ وجل لهذا المؤمن أنك بأعيننا، وهي ردٌ السماء على طاعة المخلوق، لكن الكرامة خاصّةٌ بالولي لا ينبغي أن يتاجر بها، ولا أن يُتحدّى بها، ولا أن تُنشر، لأن كل الناس بإمكانهم أن يكذّبوها، ولا يستطيعون تصديقها إلا أن تكون بنصٍّ قطعي الثبوت.

إذاً: قال الله سبحانه وتعالى في الآية الثالثة والعشرين:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا)

3 - بِآيَاتِنَا

بآياتنا، يمسك العصا، فإذا هي ثعبانٌ مبين، ينزع يده، فإذا هي بيضاء للناظرين، هذه معجزات، ولكن الله سبحانه وتعالى كرّم أمة محمد صلى الله عليه وسلّم بمعجزةٍ مستمرّة، المعجزات السابقات معجزاتٌ حسيّة، أيْ أنّها تقع وتنتهي، كعود الثقاب يتألّق ثمّ ينطفئ، ويصبح خبراً يصدّقه مصدّق، ويكذّبه مكذّب، لكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزةٌ عقليّةٌ بيانيّة منذ أن بُعِثْ وإلى يوم القيامة، كلّما تقدّم العلم كشف عن جانبٍ من إعجاز القُرآن العلمي، القرآن معجزةٌ مستمرّة تؤكّد للبشر جميعاً أنه كلام الله، وأن هذا الذي جاء به هو رسول الله.

إذاً:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(23)إِلَى فِرْعَوْنَ)

الآيات العلامات، العلامات الدالّة على أنه رسول، فأن تصبح العصا ثعباناً مبيناً هذه آية، وأن ينزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين هذه آية، وأي دليلٍ، وأي علامةٍ على صدق نبوّة النبي هي آيةٌ من الآيات.

أنواع الآيات:

وتعلمون أن الآياتِ أنواعٌ ثلاث: آياتٌ قرآنيّة تدلُ على أن هذا القرآن كلام الله من خلال الإعجاز، وآياتٌ كونيّة تدلُ على أن هذا الخلق خلق الله عزّ وجل، وآياتٌ تكوينيّة هي أفعال الله عزّ وجل، نحن دائماً مبهورون بآيات الله، فتارةً الآيات كونيّة، وتارةً تكوينيّة، وأخرى قرآنيّة، ولذلك ما حجّتنا في عدم توجُهنا إلى الله ؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من الآية 282)

الله جلّ جلاله يعلِمنا من خلال آيات الكون، ويعلِمنا من خلال آيات القرآن، ويعلِمنا من خلال أفعاله التكوينيّة.

إذاً: معنى الآيات هنا العلامات الدالّة على نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

4 ـ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ

لابد من العلم:

السلطان المبين الحُجّة، فالله عزّ وجل أكرم الإنسان بالعقل، والعقل غذاؤه العلم، والعلم أحياناً يغذّي العقل، ويضعه أمام مسؤولياته، لذلك إذا تعلّم الإنسان، فكلّما ازداد علماً ازداد صلاحاً، كلّما ازداد علماً ازداد قرباً، كلّما ازداد علماً ازداد انضباطاً، كلّما ازداد علماً ازداد رُقياً، كلّما ازداد علماً ازداد سموّاً، العلمُ أساسٌ في كل شيء، **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

فسيدنا موسى إضافة إلى الآيات التي أيّده الله بها، والتي هي معجزات، فلو أنه نزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، ولو أنه ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، ثم تكلّم موسى، إضافة إلى هذه الآيات الحسيّة كان له حجّة قويّة، وكان واثقًا، وهو يتكلّم، لذلك قال تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 82)

وما من مؤمنٍ إلا ومعه حُجّة، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه.

الإنسان يتصل بالله عزّ وجل، يتعرّف إلى كتاب الله، يدقِق في آيات الكون، ثمّ لا يكون معه حجّة قاطعة مقنعة للأشخاص التائهين ؟!! فهذا لا يصحُ أبداً، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلّمه.

لذلك أيها الأخ الكريم لا تكن عابداً فحسب، بل كن عالماً، كن عابداً عالماً، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي]

العابد مقاومته هشّة، سريعاً ما ينتكس، سريعاً ما يتراجع، لضغطٍ طفيف يترك دينه، لإغراءٍ قليل ينساق مع شهواته، لكن العالِم لو أن الناس جميعاً كفروا لا يكفُر، لو أن الناس جميعاً أشركوا لا يشرك، لو أن الناس جميعاً ضعفوا لا يضعف.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران: من الآية 146)

لذلك أيها الأخ الكريم العلم سلاح، قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **<< يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرُسُكَ وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >>**، والمثل بين أيديكم.

مرّة قلت لطلابي: من يأتيني باسم غنيٍ عاش في دمشق عام ألفٍ وثمانمائة وثلاثٍ وستين، وله مني علامةٌ تامّة ؟ فكّروا مليّاً، فلم يفلحوا في الإجابة، قلت لهم: وأنا لا أعرف، لكن من منّا ينسى الإمام الشافعي، الإمام أبا حنيفة، سيدنا عمر، سيدنا صلاح الدين، هؤلاء الذين قدّموا علماً، أو قدّموا جهاداً، أو قدّموا قيادةً ؟ لذلك المال يذهب **" مات خزّان المال وهم أحياء لكن والعلماء باقون ما بقي الدهر "**، من هم العلماء ؟ أنتم ينبغي أن تكونوا علماء.

(أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(63))

(سورة يونس)

القضيّةُ في منتهى البساطة، فليس في الإسلام كهنوت أبداً، وليس فيه طبقة رجال دين، ليس فيه إلا مؤمن ومسلم، فإذا قرأت القرآن، ووعيت القرآن، وطبّقت القرآن فأنت وليٌّ لله عزّ وجل.

(أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(63))

(سورة يونس)

تعرّف إلى الله، واستقم على أمره، وانتهى الأمر، القضيّة في منتهى البساطة، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللّهِ الثّقَفِيّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، حَدّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ:

((قُلْ رَبّيَ اللّهُ، ثُمّ اسْتَقِمْ))

[الترمذي]

الإسلام فيه شيئان: فيه معرفة، وفيه تطبيق، فيه عقيدة، وفيه سلوك، فيه إيمان وفيه عمل، والله عزّ وجل قرن الإيمان والعمل الصالح في أكثر من مئتي آية.

(الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة البروج: من الآية 11)

الدين لا يحتاج إلى تعقيد، نحن عقّدناه، الدين بسيط، فهو دين الله، ولأن هذا الدين لكل الناس قاطبة، يكفي أن تؤمن بالله عزّ وجل خالقاً، ومربيّاً، ومسيّراً، موجوداً، حكيماً، واحداً، عليماً، قوياً، قديراً، وهذا أمره بين يديك، هذا القرآن وتلك السُنّة، وهذه الأحكام الفقهيّة، فلذلك الولاية في متناول كل إنسان، وكل إنسانٍ مكلّفٌ أن يكون ولياً لله، أجل، مكلّف.

(أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

(سورة يونس)

(لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

مما سيأتي

(وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

عما مضى، فهي آيةٌ تغطِّي الماضي والمستقبل، لا خوفٌ عليهم من المستقبل لأن الله ناصرهم، وهو آخذٌ بيدهم كلّما تعثّروا، وإذا توفّاهم الله فإلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ولا هم يحزنون على الدنيا الفانية التي.

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

هيّنة على الله، مشى النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فرأوا شاةً ميّتةً، فعَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ الَّذِينَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّخْلَةِ الْمَيِّتَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حِينَ أَلْقَوْهَا ؟ قَالُوا: مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَالدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[سنن الترمذي]

ألقوها في الطريق، لا قيمة لها إطلاقاً، لا ثمن لها.

هل لك علمٌ تقف به أمام التحديات والشهوات:

إذاً: السلطان المبين العلم، والسؤال هو: هل معك دليل يقف كالطود الشامخ أمام ملحدٍ، أو أمام فاجرٍ، أو أمام مشكِّكٍ على أن الله موجود ؟ هل معك دليل ؟ أيْ هل فكّرت في الكون ؟ هل فكّرت في خلقك ؟ هل فكّرت في طعامك ؟ هل فكّرت في شرابك، هل فكرت في ظاهرة النبات ؟ هل فكرت في المخلوقات التي خلقها الله عزّ وجل ؟ هل فكرت في أطيار السماء ؟ هل فكرت في أسماك البحار ؟ هل فكرت في هذا الهواء اللطيف ؟ في هذا الماء العذب السلسبيل ؟

معك دليل على أن الله موجود، وأنه واحد لا شريك له، وأنه كامل له الأسماء الحسنى ؟ هذا الإيمان، أما إيمان العجائب أي المعجزات الحسية، فهذا الإيمان إذا صلح في زمن ما، فالآن لا يصلح لكثرة الشهوات، وكثرة الضلالات، وكثرة الشُبهات، وكثرة المبادئ الهدّامة، وكثرة الفِتَن، وكثرة الانحرافات، فالآن لا يصمد إلا الإيمان القوي، لأن الشهوات كثيرة جداً، وهي كلُّها مستعرة، والفتن يقظة،

والطرقات كلُّها موبوءة، والمداخيل كلُّها مشبوهة، والانحرافات كلها على أشدُّها، من الذي يصمد في هذا الزمان ؟ فعليكم بالإيمان وعضوا عليه بالنواجذ تفضوا إلى النعيم الدائم.

إذاً: السلطان المبين هو العلم، ولكن هل من الممكن لك أن تتعلّم من دون مجلس علم ؟ هل من الممكن يقول إنسان: أنا طبيب، وهو لم يدخل الجامعة أبداً ؟ فالعلم إذًا من أجل أن تستقيم، من أجل أن تعرف الحق من الباطل، من أجل أن تعرف الخير من الشر، من أجل أن تعرف الحلال من الحرام، من أجل أن تعرف الخير من الشر لابدّ من أن تعلم، والعلم يحتاج إلى وقت، لذلك أنا أعْتَبُ على أخ قبل عملاً، وألغى كل وقت فراغه، هذا العمل خسارةٌ كبيرة، العمل الذي لا يسمح لك أن تطلب العلم هذا ليس عملاً، هذا استعباد، كيف تتعرّف إلى الله، إذا خرجت قبل الشمس وعدت بعد منتصف الليل ؟ أين أولادك ؟ وأين زوجتك ؟ وأين طلب العلم ؟ وأين مهمّتك في الحياة ؟

أيها الإخوة الأكارم، لا ينبغي للأعمال أن تمتصّ كل وقتنا، لا ينبغي لأعمالنا أن تأكلنا، وأن تستهلكنا، وأن تلقينا فتاتاً بعد أن نُستهلك، انظر إلى إنسانٍ استهلكه العمل حتًى قارب الموت، ماذا لديه من رصيد؟ عندئذٍ يتحسّر على هذه الأيام الطويلة التي أمضاها في جمع الدرهم والدينار، الإنسان يغادر الدنيا، وليس معه شيء، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل أن نغادرها كما دخلناها حفاةً عُراةً.

إذاً ما من أخ كريم إلا وينبغي أن يكون له مَشْرَب، مشربٌ يشرب منه، منهلٌ ينهل منه، مصدرٌ يتعلّم منه، وليكن مصدرًا موثوقًا تتعلم منه أمر دينك.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((يا ابن عمر، دينك، دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

وجودك، مصيرك الأبدي متوقِف على فهمك لكلام الله عزّ وجل، سعادتك في البيت أساسها المعرفة، توفيقك في التجارة أساسه الاستقامة، فالإنسان مهما كان ذكياً، مهما كان خبيراً يُؤتَ الحذِر من مأمنه، لا ينفع حَذَرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء، لذلك من أجل أن تسعد في بيتك، ومن أجل أن تنجح في عملك، ومن أجل أن تطمئنّ نفسك، ومن أجل أن تجد ذاتك، من أجل أن تعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، والحلال من الحرام لابدّ من طلب العلم.

فالأنبياء معهم سلطانٌ مبين، وأنت هل معك سلطان مبين ؟ لا أقول لك على مستوى الأنبياء، ولكن أليس لك نصيب من هذه الآية ؟ معك حجّة ؟ لو أن صاحب بدعةٍ ناقشك، أو صاحب شبهةٍ أفحمك هل معك الحجّة ؟ هل أنت مطمئنٌ إلى ما أنت معتقدٌ به ؟ هل أنت مطمئنٌ وموقنٌ بأنه لابدّ من جنّةٍ أو نار ؟

لابدّ من حياةٍ أبديَّةٍ فيها نعيمٌ أو شقاء ؟ هل تعلم أن الإنسان بلا منهج لا قيمة له ؟ وأن الله عزّ وجل حينما قال:

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

قدّم تعليم القرآن على خلق الإنسان ليشعرنا بأن الإنسان لا قيمة لوجوده بلا منهج لا أحد يسعد بلا منهج إلا الدابّة، أما المؤمن فسعادته معرفة الحلال والحرام، علم ما يجوز وعلم ما لا يجوز، شيء مستحب وشيء مكروه، شيء مندوب وشيء مكروه كراهية تحريميّة، فالإنسان بلا منهج إنسان ضائع، حتى لو جعل مبدأ اللذّة مبدأ له، ينقلب مبدأ اللذّة إلى مبدأ للشقاء، وهؤلاء الذين أطلقوا لشهواتهم العنان أين هم ؟ في النهاية ينتحرون، الإنسان لو تبع شهوته إلى أقصاها يشعر بتفاهته، لكن لا يحس بقيمته الإنسانيّة إلا إذا عرف ربّه، عندما يعرف الإنسان ربنا عزّ وجل، ورفعنا لك ذكرك، لكنه قد يكون إنسانًا تافهًا، سخيفًا، في هامش الحياة فإذا استقام على أمر الله، وأقبل عليه، وتعرّف إليه رفع الله مكانته، وجعله علماً من أعلام الدنيا، جعله شخصيّةً مرموقة تهفو إليها القلوب، أليس هذا حاجةً أساسيّةً عند الإنسان ؟ أن يكون ذا أهميّة، أن يشعر بقيمته في مجتمعه، هناك من يشعر بقيمته من خلال البطولات، وهناك من يؤكِّد ذاته من خلال التجاوزات، المؤمن من خلال البطولات ؛ أما غير المؤمن من خلال التجاوزات، قال:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(23)إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ)

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ

فرعون معروف، قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

ادّعى الألوهيّة، وأمر الناس أن يعبدوه من دون الله، وهامان هو المنتفع الأول من فرعون، فالمنتفع يحاسَب كما يُحاسَب الأول، وفي أكثر الآيات ذُكِرَ هامان مع فرعون، ما دام قد انتفع من فرعون فليلقَ نفس المصير، ما دام قد انتفع مع فرعون فعليه من وزر فرعون.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(23)إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ)

قارون ليس له علاقة، قارون أحد كبار الأغنياء في عصر فرعون، لكن الإنسان إذا أراد الدنيا، وأرادها من طريق المال، طبعاً حريّته كما يراها في اقتناص المال ؛ فالشهوات تتناقض مع المَنْهَج الإلهي، لذلك تجد الأقوياء والأغنياء غير المؤمنين هؤلاء كتلةٌ واحدة، طبعاً الأغنياء أحياناً يفجرون،

لكن الغني المؤمن هو المثل الأعلى للغنى في مجتمعه، فالغنى ربّما كان قوّةً للمؤمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْمُؤْمِنُ الْقوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضّعِيفِ))

[مسلم]

إذا اللهُ عزّ وجل آتى الإنسان المال، بهذا المال ممكنٌ أن يتقرّب إلى الله، ممكن أن يحل مشكلات كبيرة جداً، ممكن أن يسهم في إسعاد آلاف الأسر، لكن إذا تحدّثنا عن الأغنياء في مجالس العلم فالمقصود بهم الأغنياء غير المؤمنين، المنحازون إلى شهواتهم، الغارقون في ملذّاتهم، الذين إذا أنفقوا المال أنفقوه إسرافاً وتبذيراً ـ فهل يعقل أن يكلِف عرسٌ خمسةً وعشرين مليونًا في ليلة واحدة، هل هذا معقول ؟ وآلاف الشباب يجرون بحثًا عن غرفةٍ يسكنونها ـ إن أنفقوه أنفَقوه إسرافاً وتبذيراً، وإن أمسكُوه أمسكوه بخلاً وتقصيراً.

أتعجبُ لسلوك الغني غير المؤمن، ينفق مئات الألوف، ألوف الألوف، الملايين على ملذّاته، أما إذا دعي إلى عملٍ صالحٍ قدّم عشر ليرات، إن أنفقوه أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، وإن امسكوه أمسكوه بخلاً وتقتيراً.

لذلك قارون في خندق فرعون، فرعون وهامان وقارون في خندقٍ واحد، هذه كتلةٌ تعارض الحق، لأن الحق يتناقض مع شهواتهم، يتناقض مع طموحاتهم الدنيويّة، شيءٌ طبيعيٌ جداً أن يكذِّبوه.

(فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذّابٌ)

فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذّابٌ

فالإنسان بدل أن يصغي إلى الحق ويستوعبه، ويحاكم هذه الحقائق، ويحكم عليها بأنها حقائق، بدل ذلك يقول: هذا كلام فيه سحر، هذا كلام غَيْبِي.

لو عرضت الحق على أهل الدنيا، أو عرضت الحق على الأقوياء أو الأغنياء غير المؤمنين لقالوا عنه قولاً باطلاً، و لكان كلامهم سقطًا سخيفًا، إنه دفاعٌ عن أنفسهم، يتّهمون الحق بأنه سحر كي يتخلّصوا من المسؤوليّة.

(فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذّابٌ)

لماذا أثبت الله عزّ وجل تُهَم أعداء أنبيائه في القرآن:

وقد يسأل سائل: لماذا أثبت الله عزّ وجل هذه التُّهَم بأنبيائه في القرآن ؟ فالكفار قالوا: ساحرٌ كذّاب، فلماّذا أثبت الله في القرآن هذه التهم الموجّهة لأنبيائه، وأصبحت قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ؟ والنبي قالوا عنه: ساحرٌ مجنون، وقالوا عنه: شاعر، وقالوا عنه: كاهن، وقالوا عنه ما قالوا، فلماذا أثبت الله كلامهم في القرآن الكريم ؟

قال بعض العلماء: إنما أثبت هذا الكلام ليكون النبي قدوةً لمن بعده من الدعاة، فإذا عُورض الإنسان، أو جوبه، أو نوقش، أو انتقص من قدره، أو اتُّهم اتهاماتٍ باطلة، له في النبي عليه الصلاة والسلام أسوةٌ حسنة.

(فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالْحَقّ مِنْ عِنْدِنَا)

فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالْحَقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

لمّا جاءهم موسى بالحق من عندنا.

(قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

1 ـ فرعون يقتل ذكور بني إسرائيل:

لأن فرعون فيما مضى رأى في الرؤيا ـ كما تروي الكتب ـ أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلْكِهِ، لأنه جبّارٌ في الأرض، ولأنه علا علواً كبيراً فأمر بقتل أطفالهم كلهم، أية امرأةٍ من بني إسرائيل لابدّ من أن تحضر ولادتها قابلةٌ تنتمي لفرعون، فإذا كان غلاماً ذبحته ـ وكُتب ضبط بالموضوع: لقد تمّ ذبحه ـ يبدو أن هذا الأمر انتهت فورته، وتراخى، وخفت متابعته مع مرور الزمن، لكن العبرة أن الطفل الذي سيقضي على فرعون ربّاه في قصره، وهذه موعظةٌ كبيرة، الإنسان ضعيف، والإنسان في قبضة الله.

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

ففرعون قتل أبناء بني إسرائيل لئلا تُحقّق الرؤيا، لكن الطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاه في قصره، من أجل أن تكون هذه موعظة بليغة لنا، فموسى لمّا كبر وأرسله الله إلى فرعون، ودعاه إلى الإيمان بالله.

قال تعالى:

(اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

أعاد الكَرّة، كأن هذا الأمر جُمِّد، ثمّ أُعيد العمل به مرّةٌ ثانية قال:

(قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ)

2 ـ فرعون يستحيي نساء بني إسرائيل:

وأما النساء من بني إسرائيل فأبقوهُنّ أحياءً للخدمة، هذا معنى استحياء النساء، أن تبقى المرأة حيّةً من أجل أن تُسْهِمَ في خدمة فرعون.

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

وذُيلت الآية أخيرًا تذييلاً بكلمات هي قانون إلهي لا يتبدّل ولا يتغيّر.

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

1 ـ خطة الكفار مآلها الفشل:

مهما رسم الكافر من خطّةٍ، ومهما دَبّرَ من مؤامرةٍ ليقضي بها على الدين، إن هذه الخطّة سوف تبوء بالفشل، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحمي دينه، وهذا الإسلام العظيم لولا أنه دين الله لكان ينبغي له أن ينقرض من مئات السنين، لكن لأنه دين الله عزّ وجل فلن تستطع قِوى الأرض مجتمعةً أن تقضي عليه، والآن تقريباً قوى الأرض كلها تتجه للقضاء عليه، وأنا أبشّركم أنهم لن يستطيعوا، وأن هذا الدين من عظمته أنه كلّما ضغطوا عليه ازداد قوّةً، والحديث في العالَم كله هذه الأيام عن الدين الإسلامي، في القارات الخمس، أرادوا أن يكيدوا له فقوّى الله مكانته في النفوس.

أنت تريد، وأنا أريد، لكن الله يفعل ما يريد، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا يُحَقّقُ من خطط الكفّار إلا بالقدر الذي يتوافق مع خطة الله عزّ وجل.

ربنا عزّ وجل يوظِّف الشر للخير، هذه حقيقة أساسيّة، فهناك إنسان شرير يريد أن يوقع أشدّ الأذى بالآخرين، هذا الإنسان الشرير يسمح له بأن يعبّر عن الشر الذي في نفسه، لكن هذا الشر الذي في نفسه

يوظِّفه الله للخير، لذلك الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه، **" إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني "**، وأوضح آية:

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْض وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِي الأَرْض وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

يعني أنه وظّف شر فرعون.

(سورة القصص)

إذا قوّى الله الكافرَ على المؤمن، فذلك من أجل أن يقوي إيمان المؤمن، وأن يرقى به إلى مستوى رفيع، هذا قانون، لذلك اطمئنوا.

قال تعالى:

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلّا فِي ضَلَالٍ)

أيْ أنّ كيدهم لا يُحقّق غاياته، ويضل عن هدفه، لو أنك أطلقت سهماً على هدف، فانحرف هذا السهم ولم يصب الهدف، نقول: ضلّ السهم، فكأن كيدهم سهمٌ أخطأ الهدف.

2 - إِنّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلّا فِي ضَلَالٍ)

(إِنّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16)فَمَهّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

خطط محكمة منسّقة، قوى لا نهاية لها، كلها من أجل أن تقضي على الإسلام.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(ولا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

هنيئاً لمن كان مع الله، هنيئاً لمن كان مع المؤمنين، هنيئاً لمن كان مع الحق، والويل لأعداء الدين، لا لشيء إلا لأن الله جلّ جلاله سوف يمحقهم.

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

(أَقِمْ الصّلاةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا(80)وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

لكن أيها الإخوة، ادعوا الله عزّ وجل أن يقوّينا على أنفسنا، حتّى نستحقّ أن ينصرنا على أعدائنا، لأن الله عزّ وجل يقول:

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد: من الآية 7)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

(سورة الروم)

كونوا مؤمنين، وانتظروا نصر الله عزّ وجل، كونوا كما يريد الله عزّ وجل ليكون الله لكم كما تريدون.

"عبدي، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد".

إذاً: هذه الآية مُطمئنة:

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

احفظ هذه الآية:

(إِنّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16)فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبّهُ)

جرأة فرعون على الله ورسله:

يبدو أنّ مَنْ حول فرعون نصحوه بألاّ يقتله، لعلّه رسول، ولعلّه يدعو ربّه، فيأتيك عذابٌ يا فرعون، قال: أنا لا أخاف.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبّهُ إِنّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ)

ففرعون ادّعى أنه إله، وقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

وأمرهم أن يعبدوه، فهذا موسى سينغِّص عليه هذه الدعوى، فيشتِّت الناس عنه، لذلك قال:

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

1 ـ الفساد بمنظور فرعون:

الفساد في نظر فرعون أن ينصرف الناس عنه، إذا انصرف الناس عن عبادته فهذا هو الفساد.

2 ـ كيف يتغطرس الإنسان وهو ضعيف في قبضة الله:

طبعاً الكافر لا يرى الله عزّ وجل، لا يرى أنه في قبضة الله، يرى نفسه أنه قوي، وكلّما تعمّق الإنسان في العِلم شعر بضعفه، وشعر بافتقاره، وشعر أنه في قبضة الله، وشعر أنه عبدٌ ضعيف، هذا الذي يقول: أنا، هل علم هذا الإنسان أن خثرةً صغيرةً صغيرة من الدم لو تجمّدت في إحدى أوعية الرأس لَشُلّت حركته، أو لأصيب بالعمى، أو لاختلّ توازنه، أو لذهبت ذاكرته، كيف يقول الإنسان: أنا، وهو ضعيف ؟

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

فكل إنسان يتفلسف أحياناً، حتى لو كان على باطل، حتى لو كان ضالاً مُضِلاً، حتى لو ادّعى الألوهيّة يتفلسف، يقول:

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ)

3 ـ الإنسان يفلسف كفره وفلسفته:

الإنسان منطقي، واللهُ أعطى الإنسان فكرًا ليتعرّف به إلى الله، لكنه ينحرف و يكفر، فإذا كفر بالله يستخدم فكره ليفلسف كفره، فإذا أراد الإنسان أن يكفُر أو أن يشرك، استخدم الفكر نفسه الذي هو أداة لمعرفة الله، استخدمه استخدامًا آخر لغير ما خُلِق له، استخدمه للبحث عن حجج واهيةٍ لكفره وفِسْقِهِ، وهذا معنى المجادلة التي وردت في القرآن الكريم.

(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا(54))

(سورة الكهف)

مرّة قلت لكم: آلة تصوير ملوّنة غالية جداً، يمكن أن تستخدم استخداماً جيداً فيغتني صاحبها اغتناءً كبيراً، ويمكن أن يستخدمها لتزوير العملة فتنتهي به إلى السجن، والآلة واحدة، إن استخدمها في المخطّطات والتصميمات، لمع نجمه في سماء البلدة فاغتنى واشتهر ؛ أما إذا استخدمها لتزوير العملة، وكُشِفَ أمره ألقي في غياهب السجن، عن طريق هذه الآلة الواحدة الملوّنة.

وكذلك الفكر يمكن أن ترقى به، فتتعرّف إلى الله من خلاله، وتزداد به قرباً وله طاعةً، فتسعد وتسعِد، وإما أن يستخدم الفكر نفسه لفلسفة الشرك، والكفر، والنفاق، فيكون الفكر سبباً لهلاك الإنسان.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

إذاً: الكافر، أو مدعي الألوهيّة، أو المشرك كل منهم يتفلسف، ويقول لك: أنا على حق، وهذه مبادئ، وهذا تقدُّم، وهذه إنسانيّة، وهذه مبادئ العدل، وهذه قيم، وهذه مُعْطَيَات، وهذه بيئة، عنده فلسفة لكنها فلسفة باطلة، لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

(سورة يونس: من الآية 32)

فلا يوجد إلا حق واحد، إن لم تكن مع الحق فأنت مع الضلال، إذا لم تكن أفكار الإنسان ومعتقداته وتصوُّراته وفق القرآن فهو ضال، قولاً واحداً بكل تأكيد، بالحجّة الدامغة، ليس مِنْ حلٍّ وسط، إمّا أن تكون مع الحق، وإما أن يكون الإنسان ضالاً، فإذا دعا إلى ضلاله صار مضلاً، فهذا إذًا إمّا أن يكون ضالاً أو مضلاً، فاسدًا مفسدًا، فليس هناك مبدأ آخر، فالله واحد، والحق واحد، والقرآن واحد، والدين واحد، والمبادئ واحدة، أما إذا اعتنق أفكارًا ليست في كتاب الله فهي ضلال قولاً واحداً.

والمؤمن إذا هُدِّد، وإذا تآمر عليه المتآمرون، وإذا توعّده المتوعِّدون ليس له إلا الله، يا رب ليس لي إلا أنت، أنت قصدي، إني مغلوبٌ فانتصر، أحد الملوك الصالحين وهو نور الدين الشهيد، الذي أجرى الله على يديه النصر، سجد لله عزّ وجل وقال كلمة لولا أنها وردت عنه لما كنت أقولها لكم، قال له: **" يا رب من هو نور الدين الكلب حتّى تنصره ؟ انصر دينك "** أنا لا شيء، انصر دينك يا رب، إني مغلوبٌ فانتصر، فانتصر لدينك ـ والله سبحانه وتعالى أجرى على يده النصر المؤزّر، نصراً عزيزاً، فالمؤمن ليس له إلا الله عزّ وجل إذا كان ضعيفًا مستضعفًا، وأعداؤه أقوياء وتوعّدوه، وهدّدوه.

(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

ماذا يفعل سيدنا موسى ؟

(وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

الطاغية المتكبر لا يؤمن باليوم الآخر:

لو أن الإنسان آمن بيوم الحساب لاستقام على أمر الله، من المستحيل أن تجد إنسانًا يؤمن أن بعد الموت حياةً أبديّة، وأن الله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يحاسبه، ثمّ لا يستقيم على أمر الله ؟! فهذا شيء مستحيل ـ ذكرت هذا كثيراً في هذه الدروس: أنت إزاءَ شرطي لا يمكن أن تخالف أمره إذا أيقنت أنه يراك وسيحاسبك، إزاءَ إنسان من أضعف الناس لن تخالف أمره، إذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسب ـ إذا أيقنت أن الله يعلم، وسيحاسب لا يمكن أن تعصيه، لذلك:

(وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

لذلك فالطغاة دائماً مُلْحِدون، لا يمكن يكون طاغية كفرعون مؤمنًا، لو آمن لاستقام، إنسان ضعيف وأمامه قوي فهل يتحداه ؟ يكون أحمق، ويكون مجنونًا، لكن لأنه لم يؤمن بالله أصلاً، ولم يؤمن بالآخرة إطلاقاً تراه متكبّراً متجبّراً، بَطّاشاً قهّاراً.

خاتمة:

بقيت قصّةٌ مهمّةٌ جداً أرجئُها إلى الدرس القادم، هي قصّة مؤمنٍ منْ آلِ فرعون، وله كلامٌ أيها الإخوة - هذا الرجل من آل فرعون - لم يؤمن بموسى عليه السلام من آل فرعون إلا زوجة فرعون ومؤمن آل فرعون، وهذا المؤمن له كلماتٌ هي منهجٌ في الدعوة إلى الله، أجل منهج.

إن شاء الله تعالى في الدرس القادم نقف عند كلماته مليّاً، ونحاول شرحها بتوفيق الله عزّ وجل، وجعلها قواعد في الدعوة إلى الله، وقف الموقف الحكيم من فرعون وآله، وأبلغهم الحق بطريقةٍ مُثْلى، فلعلّ الله سبحانه وتعالى ينفعنا بها في الدرس القادم.

في الدرس القادم إذاً قصّة رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يكتم إيمانه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (09-20): تفسير الآية 28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة غافر، ومع الآية الثامنة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

دلالات من الآية:

في هذه الآية أيها الإخوة دلالاتٌ كثيرة:

1 - وَقَالَ رَجُلٌ

أول شيءٍ فيها هو أن الله جلّ جلاله قال:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ)

فكلمة رجل جاءت نكرة، مَن هو الرجل ؟ ما اسم هذا الرجل ؟ ما نسبُ هذا الرجل ؟ ما علاقة هذا الرجل بفرعون ؟ إلى من ينتمي ؟ ما شأنه ؟ ما صِفَتُهُ ؟ كل هذا أغفله الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة، لذلك من العبث أن يتجه الإنسان ليتعرف إلى اسم هذا الرجل، فشيءٌ أغفله الله لماذا تبحث أنت عنه ؟

2 - القصة القرآنية للعبرة لا للتفاصيل والأحداث:

الشيء الذي أريد أن يكون واضحاً لديكم هو أن الله سبحانه وتعالى إذا ذكر قصةً في القرآن لا يريد أن تكون قصة، لو أرادها قصة لذكر أسماء الشخصيّات، وذكر التفاصيل، وذكر الجُزْئِيّات، وذكر ملامح البيئة لو أرادها أن تكون قصة، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا ذكر قصة في القرآن الكريم يريد أن تكون قانوناً، يريد أن تكون شخصية نموذجية تتكرر، ولو أنا توهّمنا أنها قصة إذاً فهي وقعت ولن تتكرر، الله جلّ جلاله يريد أن نؤمن أن هذا نموذجٌ بشري لا بد أن يتكرر، رجل غيور، رجل ينطلق من سلبيةٍ إلى

إيجابية، رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، رجل يتكلم بحكمةٍ بالغة لا يلقي الكلام على عواهِنه، ينبغي أن تكونوا كذلك.

ربنا جل جلاله يرسم لنا من خلال هذه القصة نموذج المؤمن الصادق، نموذجَ المؤمن الغيور، نموذجَ المؤمن الناطق بالحق، نموذجَ المؤمن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، نموذجَ المؤمن الذي يخرج من قوقعته، ومن سلبيّته، هذا النموذج ما رسمه الله عزّ وجل في هذه السورة، وفي هذه القصة إلا ليكون نموذجاً يحتذى.

القرآن كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ، كتاب هُدى، كتاب تربية.

إذاً: من كلمة رجل نفهم أن الله سبحانه وتعالى حينما أغفل اسم هذا الرجل، ونسب هذا الرجل، وشأن هذا الرجل، وعلاقة هذا الرجل بفرعون حينما أغفل اسمه، وأغفل الجزئيات والتفاصيل، وجعل اسمه نكرةً أرادنا أن نَتَّجِهَ في فهمنا لهذه القصة إلى أن مؤمن فرعون نموذج للمؤمنين ينبغي أن يتكرر، ينبغي أن يكون في كل مجتمع مؤمنُ آل فرعون، أو ما يشبه مؤمنَ آل فرعون.

3 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة:

هذا ينقلنا إلى موضوع دقيق هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسميه بعض العلماء الفريضة السادسة.

إذا كانت شهادة لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول الله، وأن الصلاة والزكاة، والحج، والصيام هي فرائض الإسلام، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة، والدليل قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 104)

اللام لام الأمر، ولام الأمر إذا جاءت مع الفعل المضارع انقلب الفعل المضارع إلى أمر، إذا قلت لشخص: لتأكلْ أو كُلْ، فهما بمعنى واحد، فعل الأمر معروفةٌ صيغتُهُ، أما إذا جاءت لام الأمر مع الفعل المُضارع انقلب إلى فعل أمر، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران: الآية 104)

ولماذا أهلك الله بعض الأقوام إهلاك استئصال ؟ قال تعالى:

(كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

لأننا إذا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوي الباطل وانكمش الحق، إلى أن يتلاشى الحق، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانٌ لاستمرار الحق. لذلك في القرآن الكريم:

(وَالْعَصْرِ(1) إِنّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2) إِلا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ(3))

(سورة العصر)

أيْ أنّ الأمر بالمعروف، والدعوة إلى الله توازي الإيمان، أنت مؤمن، إذاً ينبغي أن تدعو إلى الله، أنت مؤمن ينبغي أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، مؤمن سلبي مستحيل الوجود، لمجرد أن تؤمن لا تستطيع إلا أن تنشُر الخير، إذا انطلقت إلى فعل الخير وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه علامةٌ على أنك مؤمن بحق، أما إذا قلت: أنا مؤمن: ولكن لا دخل لي بالناس، فهذا ادِّعاء بأنك مؤمن.

يروى أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملائكة لإهلاك قريةٍ، فقالت الملائكة: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً!! قال: به فابدؤوا عجيب لماذا ؟ قال: لأنه كان إذا رأى المنكر لا يتمعر وجهه.

ابنة أخيك تزورك، وترتدي ثياباً فاضحة وتسكت ؟! هذا شأنها، أنا لا أحب أن أتدخل بشؤونها الخاصة:

(كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

لذلك عدم الأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر أحد أسباب هلاك الاستئصال، يؤكد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا)

(سورة هود)

لم يقل: صالحون، بل قال:

(مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

وشتانَ بين الصالحين وبين المُصلحين، الصالح لذاته، إنسان صالح، أما المصلح فينطلق لإصلاح غيره، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

إذاً: الحق لا يستمر إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحق لا يستمر إلا بالتواصي بالحق، فالإنسان بمجرد أن ينسحب من المجتمع، وأن يكون صالحاً لذاته ؛ أن يصلي ويصوم، وألاّ يتكلم بكلمة لإصلاح ذات البين، أو لإصلاح المسلمين، أو لإصلاح المؤمنين، لا يغضب لوقوع المنكرات، ما الذي

يحصل ؟ تتسع دائرة المُنكر، وتنكمش دائرة الحق، أما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما الذي يحصل ؟ تتسع دائرة الحق، وتنكمش دائرة الباطل.

حينما قال الله عزّ وجل:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)

إذاً: تنكير كلمة رجل تعني أن الله سبحانه وتعالى أراد من هذه القصة أن تكون نموذجاً بشرياً موجوداً في كل مجتمع مسلم، لأن قصص القرآن لا ينبغي أن تكون تاريخاً، ولكن ينبغي أن تكون نماذج نهتدي بها، ونتأسى بها.

4 ـ مؤمن:

أما كلمة (مؤمن)، رجل مؤمن هذا لقب، يقولون لك: فلان مُنِح لقب الدكتوراه، كلمة دكتور تعني عند الناس جميعاً أنه إنسان يحمل شهادة عُليا، وتعني عند الناس جميعاً أنه إنسان متفوق، وتعني عند الناس جميعاً أنه أمضى سنواتٍ طويلة في طلب العلم.

إذا كان لقب دكتور لا ينال إلا بجهدٍ جهيد، ووقتٍ مديد، وعقلٍ رشيد، أتقبل أن يسمى الإنسان مؤمناً دون أن يطلب العلم ؟ أتقبل أن يسمّى الإنسان مؤمناً دون أن ينضبط بالأمر والنهي ؟ القضية ليست متوقفة على تسميتنا، فكل إنسان له أن يقول ما يشاء، ولكن العبرة أن تكون عند الله مؤمناً، أن تكون في مقاييس الدين مؤمناً.

هل يكون في الناس مؤمن ويغتاب، مؤمن يطلق بصره في الحرام، مؤمن يكسب مالاً حراماً، مؤمن يقدم الظواهر ويخفي البواطن، مؤمن علانيته لا كسريرته، جلوته لا كخلوته، هذا ليس مؤمناً، البطولة أن تكون مؤمناً وفق مقاييس القرآن.

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

مؤمن عند مَن ؟ ينبغي أن تكون مؤمناً عند الله بمقياس القرآن، لكن لو رأيت بيوت الله عزّ وجل مفعمةً بالمصلين ـ والله شيء جميل، بل جميل جداً، وهذه بادرة طيبة تثلج الصدر ـ ولكن إذا دخلت إلى بيوت هؤلاء روّاد المساجد لا تجد قواعد الدين متأصلةً في هذا البيت، أصوات الغناء تصدح في هذه البيوت، أجهزة اللهو تنطلق بأعلى أصواتها وأبهى صورها، نساء هذا البيت لسنَ ملتزمات بأمر الله وأمر رسوله، فهل هذا مؤمن ؟

مؤمن أي أنّه عرف الله، وعرف منهج الله، وطبّق منهج الله، هذا هو المؤمن، فلذلك كلمة مؤمن ـ انتبه ـ إذا وصفت نفسك بأنك مؤمن فهذا لقب من أرقى الألقاب، فكلمة دكتور قد لا ينجو من عذاب الله، لكن

مؤمن أي أنه إنسان حقق الغاية من وجوده، إنسان عرف هويّته، عرف ربّه، عرف سر الحياة، عرف سر الوجود، عرف الحقيقة العُظمى، ضبط نفسه وفق قيمٍ معينة، فهذا مؤمن، وهو ناجٍ بإذن الله.

النشاط العقلي والنفسي والسلوكي:

أقول دائما: لا بد لك من نشاطٍ عقلي، ونشاط نفسي، ونشاطٍ سلوكي، فالنشاط العقلي يعني أن هذا العقل غذاؤه العلم، لا بد من طلب العلم، لا بد من تفكرٍ في خلق السماوات والأرض، لا بد من نظرٍ في أفعال الله عزّ وجل، لا بد من تلاوةِ القرآن، لا بد من فهمه، إنه كتابنا الأول، هذا جانب عقلي.

الجانب النفسي: لا بد من ذكر الله.

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28))

(سورة الرعد)

الجانب السلوكي: لا بد من استقامة على أمر الله.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: من الآية 112)

و الاستقامةُ يقع في أول مضامينها ترك الحرام.

((والله لترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

إذاً: كلمة مؤمن هذه مرتبة رفيعة في الإسلام ؛ مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن أيْ أنّه سعيد، فالذي يشكو دائماً فهو ليس مؤمنًا.

المؤمن عرف ربه، عرف أن الأمر كله بيد الله، لأن أفعال الله كلها حكمة، وكلها عدل، وكلها رحمة، عرف أنه:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[من مسند أحمد عن أبي الدرداء]

هذا هو المؤمن، فالمؤمن موحِّد لا يرى مع الله أحداً، فقبل أن تقول: أنا مؤمن، أو قبل أن تصف إنسانًا بأنه مؤمن تروّ كثيراً، فأنا ألاحظ أن الألقاب توزّع جزافاً، قد يكون الإنسان لا يصلي، أو يصلي، ولكن ليس منضبطاً بأمر الله ونهيه، فتجد أحدهم يصفه قائلاً: هذا إنسان مؤمن، هذا تألّ على الله، كلمة مؤمن مرتبةٌ علميةٌ وجماليةٌ وأخلاقية.

المؤمن عالم، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه، والمؤمن أخلاقي، فلا غدر، ولا كذب، ولا تدجيل، ولا احتيال، ولا غمز، ولا لمز، لأن هذا كله من سلبيات الحياة، ويتنافى مع الإيمان والأخلاق،

المؤمن سريرته كعلانيّته، باطنه كظاهره، ما بقلبه على لسانه، ما يتكلّم به يعبّر عن قلبه، حياته نظيفة واضحة جليّة، دخله حلال، إنفاقه حلال، جوارحه منضبطة، بيته إسلامي، عمله إسلامي، هذا المؤمن، مرتبة أخلاقية ومرتبة جمالية، **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف "**، لأن الله عزّ وجل يعطي الصحة والمال والذكاء والجمال للكثيرين من خلقه، ولكن يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

هذا مضمون كلمة مؤمن.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ)

أيْ إذا جَهدتَ ثلاثين عاماً في طلب العلم، وفي طاعة الله، وفي بذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، إذا أمضيت ثُلثَيّ عمرك تجاهد نفسك في سبيل الله، ووصلت إلى كلمة مؤمن فأنت الرابح الأول، وأنت الإنسان الفائز الناجح المفلح الذي حقق وجوده، كلمة مؤمن لقب رفيع، لأن مضمونها قيمٌ سامية، ولكن الناس لضعف إيمانهم يلقونها جزافاً وبلا تحفُّظ.

كما قلت في درسٍ سابق: المؤمن إيمانًا قطعيًا بأن الله موجود في السماء وفي الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً، وأن الله سبحانه وتعالى واحدٌ في ذاته، وفي أفعاله، وفي صفاته، وأن الله يعلم سرّك وجهرك، وأنه سيحاسبك، إن كنت مؤمنًا على هذا النحو فلن تعصي الله عزّ وجل ؟ فإن كنت مؤمنًا ؟! فمستحيل أن ترى المؤمن بوجود الله ووحدانيته وكماله وعلمه وحسابه، ثم ينطلق إلى معصية الله.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

قالت امرأةٌ لأبي السائب، وهو من أصحاب رسول الله وقد توفاه الله عزّ وجل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام أمامه، قالت له: **"هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله "**، هذا تألّ على الله، لو أن النبي سكت لكان كلامها صحيحاً ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((ومن أدراكِ أن الله أكرمه))

قولي: أرجو الله أن يكرمه "، نرجو الله أن نموت مؤمنين، وأن يتوفّانا الله على هذا الدين الحنيف.

الآن أولُ مُرتَكز للآية رجل نكرة، المُرتَكز الثاني مؤمن.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)

5 - مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

فرعون ادعى الألوهية، وقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

فرعون ذبّح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم، فرعون طغى طغياناً كبيراً وعتا عتواً كبيراً، فرعون.

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4))

(سورة القصص)

لا حُجّة للإنسان بالبيئة:

هؤلاء الذين يقولون: بيئة، معطيات، تأثُّر متبادل، هذا يجب أن يكون مع فرعون، لأنه من آل فرعون، ماذا يعني أن يؤمن رجل من آل فرعون ؟ أوضح من ذلك: ماذا يعني أن تكون امرأةٌ كافرةً، وهي زوجة نبي ؟ وماذا يعني أن تكون امرأةٌ مؤمنةٌ كان فعلٌ تام في هذا السياق، أجل أي فعل تام أن تكون امرأةٌ أي أن توجد امرأةٌ مؤمنةٌ عند فرعون، وهي زوجة له ؟ ماذا يعني ذلك ؟ ماذا يعني أن يكون ابن سيدنا نوح كافراً ؟

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

نبيٌّ ابنه كافر، كافرٌ كفراً بواحاً، وفرعون، زوجته مؤمنة، و سيدنا لوط نبي كريم، وامرأته كافرة، قال تعالى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

ماذا تعني أن تكون امرأة فرعون مؤمنة، وزوجها الكافر الأكبر ؟ وأن تكون امرأة لوط كافرة وزوجها نبي ؟ وأن يكون ابن سيدنا نوحٍ كافراً وأبوه نبي ؟ وأن يكون رجلٌ من آل فرعون مؤمنًا ؟ ماذا يعني كل هذا ؟ الإنسان مخيّر، لولا أنه مخيّر لبطل الثواب والعقاب، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، الإنسان مخير،

فمن يقول: هكذا أنا نشأت في بيئة سيّئة، هكذا أبي علمني، هكذا علمتني والدتي، مجتمعي سيئ فاسد، هذا كلام غير مسموع إطلاقاً، الإنسان ليس منفعلاً، ليس الإنسان ريشة في مهب الريح، ليس الإنسان ماء يُلقى في منحدر ليس له خيار، لا، فإن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادةٍ وإيمان.

هذا الكلام مُفَاده ألا يحتجّ أحدٌ أنّ البيئة سيئة، أن أباك لم يربّك، أمّك لم تربّك، العمل سيئ، المعطيات سيّئة، الفساد عَمّ، الناس فسدوا، هذا كله كلام غير مقبول عند الله.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

الإنسان مخير، ولا سلطان لأحدٍ عليه حتى الشيطان، فلا يدّعِ أحدٌ أن فلانًا أضله، وأنّ فلانًا أغواه، لولا أنه ضالٌ في الأصل لما مَكّنَ الضال من أن يضله، ولولا أنه غاوٍ في الأصل لما مَكّنَ الغاوي أن يغويه، هذه قاعدة.

إذاً:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

6 ـ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ

أيْ أنّ ربنا عزّ وجل وصف هذا المؤمن بأنه يكتم إيمانه، الإنسان أحياناً يكتم إيمانه لحكمةٍ يراها بالغة، لكن حينما يتناقض كتمان الإيمان مع الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر ينبغي أن تظهر إيمانك، لو أن إنسانًا امتنع عن شرب الخمر بدعوى أن معه قرحة ولا يقدر، أيْ أنّه كتم إيمانه، ولكن لو قال: هذا الشيء محرم، فلعلّ شخصًا ضعيف الإيمان يتهمه عندما يسمع أن هذا محرم، فالإنسان عندما يكتم إيمانه إلى ما لانهاية هذا ضعفٌ في إيمانه.

والدليل أنّ هذا الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه انطلق يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، أيْ خرج من السلبية إلى الإيجابية.

أحياناً قد يكون الإنسان في حالٍ لا داعي معه أن يظهر إيمانه بشكل صارخ، بل لا من أن يكتم ذلك، ولكن حينما يكون الثمن باهظاً يظهر إيمانه، فإنسان يمارس الشعائر بشكل صارخ ليعرف الناس: أنه متديّن، هذا نوع من النفاق، ولكن حينما تنتهك حرمات الله عزّ وجل، حينما يقع الظلم الشديد، ينبغي أن تكون مع الحق، وأن تدافع عن أهل الإيمان، وإلا فما قيمة إيمانك ؟

مثل صارخ: رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وما أدراكم ما فرعون ؟ ففرعون هذا الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، قتلُ الإنسان عليه سهلٌ جداً، هذا الرجل المؤمن وقف في وجه فرعون، فماذا قال ؟ قال:

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)

7 - أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ

أيْ تقتلونه، لأنه يقول: ربي الله، فماذا فعل ؟ إن دعوته هذه لا توجب القتل، لم يقتل أحدًا حتى يُقتَل، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة: من الآية 179)

أجل، القاتل ؛ يقتل أما أن يقتل الإنسان لأنه قال: ربي الله، فهذا ظلمٌ ما بعده ظلم، لأنه عرف ربه، لأنه أراد أن يستقيم على أمر الله، لأنه أراد أن يحقق وجوده، لأنه أراد أن ينجو من عذاب النار ؟! فلذلك من علامات قيام الساعة كما ورد في بعض الأحاديث:

عن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ:

((اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنْ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ))

[مسلم]

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)

لكن لعل هذه دعوى.

(وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)

8 ـ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ

قال: ربي الله، ومعه الأدلة.

وبشكل ملطّف: أنّ الشاب في بيت أهله يتمنى أن يقيم أمر الله عزّ وجل، فيجد أن الأب يثور عليه، والأم تثور عليه، وإخوته يثورون عليه، وأصهاره كذلك، لكن لماذا ؟ فيقول: هذا محرم بنص القرآن الكريم، معي الدليل، لا يُقبل دليله، لا بد من أن يعيش على نمط هذه الأسرة من اختلاط، وتفلّت حتى يرضى عنه أهله، لذلك شيء مؤلم جداً أنّ الإنسان إذا رغب أن يقيم شرع الله عزّ وجل، وأن يستقيم على أمر الله، تفسَّرُ تصرفُاته تفسيرات بعيدة عن مصدرها فيقال له: تريد أن تفرّق الأسرة، تريد أن تجافي أصهارك، تريد أن تفعل كذا، فهذا حال بعض الأسَر المسلمة وللأسف، فهم لا يريدون أن يُطبّق الدين، والانتماء عندهم شكلي، إسلام بالهوية.

إذاً: هذا المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه جهر، وقال:

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)

وهذا هو نفسه الذي قال لسيدنا موسى:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(20))

(سورة القصص)

(وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)

المؤمن لا يسير إلا بالدليل:

المؤمن لديه حُجّة، وعنده بيّنة، وله دليل عقلي، كما أن لديه الدليل النقلي، معه دليل فطري، معه دليل واقعي، المؤمن يمشي على هُدى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من الآية 108)

علامة اتِّباعك للنبي عليه الصلاة والسلام أنّك تسير على بَيّنَة، تسير على هدى من الله عزّ وجل، تفعل ومعك الدليل، ولا تفعل ومعك الدليل، تصل ومعك الدليل، تقطع ومعك الدليل، ترضى بالدليل، وتغضب بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، فالمؤمن معه حجة، قال تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 83)

وكل آيةٍ متعلقةٍ بالأنبياء الكرام لكل مؤمنٍ منها نصيب، هذا النصيب بقدر إيمانه، وقدر إخلاصه، وقدر استقامته.

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)

9 ـ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ

فأحياناً تقتضي الحكمة أن تبدو موضوعياً، لقد أردف مؤمن آل فرعون قائلاً، وفي قوله موضوعية تامة، قال:

(وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)

قضية في منتهى الدِقّة، فمثلاً إذا دُعِيتُ إلى الله، دعيتُ إلى طاعة الله، دعيتُ إلى التوبة، فعلى أن أفكر، وأنظر إلى إلامَ ما يدعونني هذا ؟ يدعونني إلى طاعة الله، إلى أن أكون صادقاً، إلى أن أكون مستقيماً، إلى أن أكون نظيفاً عفيفاً، إلى أن أحرر دخلي من الحرام، إلى أن أكون مُحْسِناً، كلها قيم أخلاقية رفيعة، فهذه الدعوة تبدو صحيحة سليمة المضمون فإنْ لم أعبأ بها، فالخسارة كبيرة جداً.

مثلاً: فإذا دعاك إنسان إلى مجلس علم، فإذا حضرت، وسمعت، ووجدت أنّ الكلام غير صحيح، فما خسرت شيئًا، ولا تعُد ثانية، أما إذا كانت هناك دعوة طيبة جداً إلى معرفة الله، إلى طاعة الله، ورفضت قبل أن تعرفها فالخسارة كبيرة جداً.

لا ترفض شيئا إلا بعد سماعه والاستدلال له أو عليه:

بشكل أو بآخر، أيعقل أن تأتي لإنسان رسالة، معقولٌ أن يمزقها قبل أن يقرأها ؟ اقرأها يا أخي، اقرأ ما فيها !! فأنا كل عجبي من هؤلاء الذين يرفضون الدين قبل أن يتعرفوا إلى حقائقه من أوامر و نواهٍ، فيقف أحدُهم موقفاً ضد الدين، وهو لا يفقه من الدين شيئاً، ولو عرف حقائق الدين لذابت نفسه تعظيماً له.

هذا موقف في منتهى الحُمْق والغباء، أن يرفض الإنسان الشيء قبل أن يعرفه، يمزق الرسالة قبل أن يقرأها، يرفض دعوة إلى الخير قبل أن يستوعبها، لماذا ؟

أحد شيوخ القبائل في عهد النبي صلى الله عليه و سلم زار مكة المكرمة، فحَذّرَه الكفارُ من النبي عليه الصلاة والسلام، وقالوا: هذا إنسان ساحر يفرّق بين الأخ وأخيه، والزوجة وزوجها، وقد فعل بنا ما فعل، فإيّاك أن تستمع إليه، وإياك أن تزوره، وإياك أن تلتقي به ـ وكان هذا اسمه " **ثمامة** " فيما أذكر الطفيل الدوسي ـ وكان شاعراً أريباً ذكياً فطِناً، أول الأمر وضع في أذنيه القطن لئلا يسمع كلامه، ثم التقى به، فقال مخاطباً نفسه: يا فلان، إنك رجل لبيب أريب فطن شاعر، استمع إليه أولاً، ميّز بين الحق والباطل، الخير والشر، فلمّا استمع إليه وقع كلامه في قلبه موقعاً لطيفاً فأسلم.

فالموقف المستنكر أن ترفض الشيء قبل أن تَطّلع عليه، أن ترفض الخير قبل أن تستوعبه، أن ترفض دعوةً إلى الله عزّ وجل قبل أن تأخذ نموذجاً عنها، هذا معنى:

(وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)

أيْ أنتم إذا دعاكم إلى معرفة الله، ودعاكم إلى طاعة الله، ودعاكم إلى الإحسان، دعاكم إلى الخير، فهذه دعوة منطقية، ودعوة إيجابية المضمون، فإن كاذباً في هذه الدعوة فمضمونها جيد، أساساً خذ الحكمة ولا يهمك من أي مكانٍ خرجت.الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها التقطها.

(وَإِنْ يَكُ صَادِقًا)

10 - وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ

وإن كان نبياً فعلاً، ومعه المعجزات، ومعه البيان، ومعه الدليل، فهي إذّا دعوة صحيحة، وهو صادق بهذه الدعوة.

(يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)

يقولون: إن الإنسان العاقل هو الذي يفعل فعلاً لا يندم عليه أبداً، وكل إنسان يفعل فعلاً يندم عليه هذا نقصٌ في عقله، فإنسان دُعي إلى الله، دعي إلى طاعة الله فليعمل عمله ولْيُلَبِّ الدعوة، فانظر إلى الكافر.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

ندم.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

ندم، أكثر الآيات:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

(سورة المؤمنون)

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

أكثر الآيات التي تصف مآل الكافر تصف حالة الندم التي تلبّس بها، فالعاقل هو الذي يفعل فعلاً لا يندم عليه أبداً، أما إذا تسرّع الإنسان، تسرّع ورد الحق، تسرّع، ولم يعبأ بالحق، ولم يأخذ بإنذار الله عزّ وجل، عندئذٍ لا بد من ساعة الندم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

11 - إنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ

الكذب على النفس:

أحياناً الإنسان يكذب على نفسه.

هناك امرأة تعمل في الفن سُئِلَت عن شعورها، وهي على خشبة المسرح ـ ولكنها صادقة ـ قالت: **" إنه شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحُب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مُغْلَقة "**، هي صادقة، وصدقت، هذه هي الفطرة، فهناك نوع من الكذب ملموس، وهو أن تكذب على نفسك.

قد يزوّر الإنسان الحقيقة، و يشوّه الواقع، فيكون متلبّسًا بالمعصية، ويقول لك: أنا بصفاء وخير، قد يكون دخله حرامًا، ويعطي لعمله السيئ تبريرًا، هو قبل كل شيء يكذب على نفسه، فعلى الإنسان أن يعاهد نفسه على أن يكون صادقاً مع نفسه، ألا يبطن شيئاً، ويظهر شيئاً، اصدقْ مع نفسك، كن صريحاً، هذا الذي تأمر به هل تفعله ؟ إن لم تفعله فأنت كاذب، هذا الذي تتمناه من الناس أن يعاملوك به هل تعاملهم أنت به ؟ إن لم تفعله إذاً فهذا كذب.

كلمة الصدق واسعة جداً، من أبرز معانيها أن تكون مع نفسك صادقاً، فهذا الذي يعتقد أنه لا إله وأفعاله سلبية مرذولة فهو كاذب، لماذا ؟ لأنه يوم القيامة يقول:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

قال:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أنفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

كل الدعوات الباطلة كاذبة، ومن يعتنقها يكذب على نفسه، لكن أحياناً يعتنقها لماذا ؟ ليحقق شهواته، أساساً العقل له دَوْران ؛ إما أن يكون دوره قيادياً يقود النفس إلى الحق، وإما أن يكون دوره تبريرياً، كلما انحَطّت النفس في أتون الشهوة، جاء العقل ليفلسف لهذه النفس انحطاطها.

لذلك إن الفكر الغربي فكر تبريري، فالأصل عندهم أن هذا الإنسان يجب أن يفعل كل الشهوات القذرة التي نهى الله عنها، فدور العقل عنده تبرير لهذا السلوك، فهذا دور قذر للعقل.

الشرع حكَمٌ على العقل:

ذكرت لكم سابقاً أن العقل إما أن ترقى به إلى أعلى عليين، وإما أن تهوي به، فمثلاً آلة ناسخة ملوّنة، هذه غالية الثمن، عظيمة الخطر، يمكن أن يستخدمها إنسان، ويحصّل منها ثروةً طائلة، وأن يلمع اسمه في سماء الأعمال والأشغال، يأتي آخرُ، ويستخدمها لتزوير العملة، فيلقى في غياهب السجن، إنسان يرقى بها، وإنسان يهوي بها وهي آلةٌ واحدة، كذلك العقل، إما أن يكون قائداً يقودك إلى الحق، وإما أن يكون جهاز تبرير، كلما أكلت مالاً حراماً يأتي العقل، ويفلسف لك ذلك فيقول: يا أخي، هذه بلوى عامة، الله يتوب علينا ـ تجد أن العقل يبرر الأساليب الملتوية ـ فيدّعي قائلاً: أنا عندي أولاد، أو هذا ماله حرام أريد أن أخذه، انظر إلى العقل كيف يفلسف المعصية، إذًا فهذا عقل تبريري، وهذا عقل ساقط متهافت، من هذا قوله تعالى:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20)ثُمَّ نَظَرَ(21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24)إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ(25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26))

(سورة المدثر)

العقل ميزان، ولكن هذا الميزان قد يختلف، ما الشيء الذي يحكُمُهُ ؟ الشرع.

الشرع حكمٌ على العقل، هذه قاعدة، أعمل عقلك في موضوع ما، فإن توصّل إلى نتيجةٍ موافقةٍ للشرع فأنْعِم بهذا العقل، وإن توصل إلى نتيجةٍ تخالف الشرع، فبئس هذا العقل، فالإنسان عقله ميزان، لكن الشرع يحكمه.

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ)

12 ـ مُسْرِفٌ كَذّابٌ

معنى كذّاب أيْ دجّال، ومعنى مسرف أسرف على نفسه في المعاصي، فهذا المسرف لا يهديه الله عزّ وجل، وذاك الكذاب لا يهديه الله عزّ وجل، إذا كنت صادقاً مع نفسك، وإذا كنت منضبطاً فأنت أقرب إلى الهُدى من نفسك.

لا زلنا في هذه الآية الثامنة والعشرين:

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ)

الهداية شيء ثمين جداً، سلعة الله غالية، الهداية سلعة الله، السِلَع يعني البضاعة، سلعة الله غالية، و الغاية أن يهديك إليه، هذه السلعة ثمنها ألاّ تكون كذّاباً دجالاً، فتقول: أخي الاختلاط يعمل تهذيب للمشاعر. هذا في مقالته دجال، وهذا انحراف، وعن الكذب يقول لك: كذبة بيضاء، دائماً يفلسف

انحرافه، لا، إنه كذّاب، فهذا الذي يفلسِف انحرافه، يفلسف كسبه للمال الحرام، يفلسف علاقاته المشبوهة مع النساء، هذا الذي يفلسف المعصية، يدعو إليها، هذا كذّاب مهين تنكّب سبل الرشاد و الهداية.
أما المشرك فالله عزّ وجل أودع فينا الشهوات، وجعل لكل شهوة قناة نظيفة يمكن أن تسلكها، أودع شهوة المال، وقال: اعملوا، اكسب كسبًا مشروعًا، أودع شهوة النساء، وقال: تزوجوا، أما حينما يسرف الإنسان فيأخذ ما ليس له من المال، أو يعتدي على ما ليس له من العِرض فهذا صار مسرفًا، فكل إنسان يلتوي مع نفسه، ويبيح لها المعاصي والآثام التي تُبْنَى على العدوان على الغير، هذا إنسان ضلّ سُبُلَ الهدى، فإذاً: لا يُهْدَى إلى الحق، ولن يرى في خير صوابًا أبدًا، لقد طمس نور الفطرة في نفسه و تنكر لها، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

(إنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ)

فلكي يهتدي الإنسان يجب أن يكون واقعيًا، أن يتحسس فطرته، أن يتحسس وجوده، أن يطلب الدليل العقلي والنقلي والواقعي والفطري، ثم أن يكون منضبطًا، لا تحتاج إلى من يعلّمك، العدوان تعرفه بفطرتك، كل شيء تنقبض له لا يرضي الله، الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يَطّلع عليه الناس، كل واحد يلازمه ُمفْتٍ: استفتِ قلبك، وإن أفتاك المفتون و أفتوك، كل واحد لديه مفتٍ خاص، وهو قلبه، الله فطرك فطرة عالية، فإذا عاد الإنسان إلى فطرته، ووقف عند حده، ولم يعتد على غيره، ولم يكذب على نفسه، فالنداء له من كل جهة: أن تعالَ إلى روضة الهدى.

(إنّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

هذه الهداية، إنّ الله عزّ وجل يهدي، و لكن لا يهدي إنسانًا معرضًا، كذّابًا، دجّالًا، غارقًا في الشهوات؟! هذا الإنسان أبعد عن الهدى بعد السماء عن الأرض.
إنها آية دقيقة جداً، وتعني أن الهدى مصلحةُ الإنسان ونور حياته.

(إنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ)

أسرف أي تجاوز الحدود، نظر إلى ما يحلُّ له، وإلى ما لا يحل له، أخذ ما له وما ليس له، اعتدى على أعراض الآخرين أي على سمعتهم، جرّح، طعن، اغتاب، نابز بالألقاب، فكل إنسان مسرف تجاوز الحد، سمته الأولى والأخيرة الكذب، فلن يهتدي إذًا أبدًا، وأما من كان صارما مع ذاته، رحيما مع نفسه مستقيم السلوك فالهدى من الله محقق، لأنه:

((من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم))

[كشف الخفاء]

وهذا هو الكشف ؛ يقول عنه بعضهم: الكشف والتجلي والإشراق ثمنه باهظٌ جداً.

((من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم))

[كشف الخفاء]

الهدى الإلهي، التجلي الإلهي، السكينة، هذه كلُّها تحتاج إلى انضباط واستقامة، استقم على أمر الله وانتظر من الله كل خير.

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع حديث هذا الرجل المؤمن، وينبغي أن يكون في كل مجتمعٍ مسلم رجالٌ مؤمنون من أمثاله، لأن الله عزّ وجل ما أرادها قصةً، ولكن أراده نموذجاً بشرياً يُحتذى به.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 29 - 33

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة غافر، ومع الآية التاسعة والعشرين، ولكن قبل أن نمضي في الحديث عن الآية التاسعة والعشرين، لا بد من وقفة قصيرةٍ مرةً ثانية عند قوله تعالى:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ

1 - كتمان للإيمان:

الله سبحانه وتعالى وصف هذا المؤمن بأنه يكْتُمُ إيمانه، والإنسان قد يكتم إيمانه من خلال ثيابه، فيرتدي ثياباً لا تدل على حقيقته، وقد يكتم إيمانه من خلال سكوته أحياناً، من خلال أثاث بيته، أو أثاث مكتبه، فكتمان الإيمان يكون تارةً بالسكوت، وتارةً بالثياب، وتارةً بوضع مقر العمل، أو مقر السكنى من دون أي مظهر، هذا كتمان للإيمان.

على كلٍّ، هذا المؤمن هل كتم إيمانه إلى ما لا نهاية ؟ لا لم يكتم إيمانه أبدًا، بلْ صرّح بإيمانه وأظهره.

2 - متى ينبغي أن نكتم الإيمان، ومتى ينبغي أن نجهر به ؟

السؤال إذًا: متى ينبغي أن نكتم الإيمان، ومتى ينبغي أن نجهر بالإيمان ؟

إن الإنسان إذا كتم إيمانه إلى ما لانهاية فأين إيمانه ؟ وما قيمة إيمانه ؟ هناك من يقول: أنا مسلم من ثلاثين عامًا، أو من خمسين عامًا، بعض النصارى أحياناً يقولون: نحن مسلمون، فلمَ لم تظهر إيمانك ؟ لا بد من إظهار الإيمان، هذا الذي يعمل من وراء ستارٍ كيف يستطيع أن يهدي الآخرين ؟ أن يدفع الآخرين إلى الإيمان ؟

إذاً: هذا المؤمن مؤمن آل فرعون كتم إيمانه في مرحلة، ثم أعلن عن إيمانه في مرحلةٍ أخرى عندما صار لزاماً عليه أن يعلنه، فإذا كان كتمان الإيمان يجر الإنسان إلى معصيةٍ فينبغي أن يظهر إيمانه، وإذا كان كتمان الإيمان يجره إلى تضييع حقٍ فينبغي أن يظهر إيمانه، أما إذا كان إظهار الإيمان يسبّب لك متاعب كثيرة من دون أن تحرز أية مكاسب فلا داعي لإظهاره.

ففي مجال العمل أحياناً لو أظهرت إيمانك لأصابك عنتٌ ومشقة، وقد يجرّ ذلك إلى متاعب لا نهاية لها، فنحن نكتم إيماننا حينما لا تكون مَدعاة لإظهار الإيمان، أما إذا كان كتمان الإيمان يؤدِّي إلى معصيةٍ، أو إلى انحرافٍ، أو إلى هضم حقٍ، أو إلى مجاراة مبطلٍ، أو إلى مداراة مبتدِع، أو إلى تطمين منحرفٍ، هذا ليس كتمان إيمان، بل هذا عدم إيمان.

كل إنسان مؤمن لا بد من أن يظهر إيمانه بشكلٍ أو بآخر، من خلال حركاته، من سكناته، من بيته، من عمله، من علاقاته، من ورعه، من غض بصره، من صدق لسانه، من نعومته، ولكن أحياناً الإنسان يظهر إيمانه دون أن يحقق غاية مرجوة، فلو بقي طيّ نفسه لكان خيرًا له وأجدى.

إذاً: هذا المؤمن، مؤمن آل فرعون، كتم إيمانه في بادئ الأمر، فلما رأى أن فرعون سيتَّجه إلى قتل موسى هل بقي ساكتاً ؟ عندئذٍ كشف القناع، وأعلن عن إيمانه، إذاً أن تتكتم على إسلامك وإيمانك إلى ما لانهاية، وأن يكون كتمان إيمانك سببًا لاقتراف معصيةٍ، بترك صلاةٍ، بممارة مبتدع، لمصانعة قوي، لمداهنةٍ، لهضم حقٍ، لعدوانٍ على حقوقٍ أخرى، فلا بد من الوضوح وكشف القناع، وهذا حالُ مؤمن آل فرعون في بادئ الأمر كتم إيمانه، ثم لم يلبث أن أظهر إيمانه، لأن الهدف كبير في استمرار موسى ودعوته.

سُقْتُ هذا الكلام لأنك تستمع أحياناً كثيرة إلى رجل من دينٍ آخر يقول لك: أنا من ثمانين عاماً مسلم، كنت أخاف أن أعلن إسلامي فيقوم علي بنو قومي، هذا كلام غير مقبول، لأن بعض العلماء قال: إن لم تبدِ إيمانك فلست مؤمناً، ومن علامة الإيمان أن تنطق بالشهادة، أن تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الحق وسط بين طرفين، أن تمضي إلى ما لانهاية في كتمان الإيمان على حساب ورعك، على حساب فرائضك، على حساب واجباتك الدينية، على حساب إحقاق الحق فليس صحيحًا.

السكوت عن المنكر سبيل الهلاك:

لقد آمنت إذًا، وإذا أعلنت أنك لا تشرب الخمر لأن هذا محرَّم، لعلك تشدّ من عضد الآخرين في مجال الإيمان، إذا قمت إلى الصلاة لعل كثيرين يقومون معك إلى الصلاة، فالسكوت في مجالات كثيرة مدمرة، قال تعالى:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

سبب إهلاك بعض الأقوام أنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران: من الآية 110)

خيرية هذه الأمة بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المُنكر:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 110)

فلو تركتْ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفقدتْ خيريتها، ولأصبحت أمةً مثل بقية الأمم، لا ميزة لها إطلاقاً عند الله عزّ وجل، فهذه الخيرية معللةٌ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا يدعونا إلى أن نُؤمن أنه لا إله إلا الله، وأن الله بيده الأمر كلّه، وإليه يرجع الأمر كله، بيده ملكوت السماوات والأرض، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ)

(سورة هود)

تتعقل إلى حد، وتتوكل إلى النهاية، تتعقل وتكف عنك الأذى، ولا تسبب لنفسك متاعب لا حصر لها من دون أن تكسب شيئاً التعبير الدقيق فلا داعي لأن تسبب لنفسك متاعب لا حصر لها من دون أن تكسب شيئاً، ولا داعي أن تسكت عن إيمانك إلى درجة أنك تذوب في مجتمع الكفر، تذوب وينسى الناس أنك مسلم، كلما تجاوزوا حدودهم معك سكتَ لئلا يُعرف أنك مسلم، فإلى متى يستمر السكوت ؟

أردت من هذا التعليق أن يقف المؤمن موقفاً متوازناً، متى ينبغي أن يظهر إيمانه، ومتى ينبغي أن يكتم إيمانه، إذا كان في إظهار إيمانه متاعب لا حصر لها دون أي مغنم إيماني، دون أن يُحِقّ حقاً، دون أن يُبْطِلَ باطلاً، فلا داعي لإظهاره، ولا بأس بكتمانه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس بحكيم من لم يدار من لا بد من مداراته))

[ورد في الأثر]

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[سنن أبي داود عن أبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ]

هذا مقياس دقيق.

إذاً: كتمان الإيمان مقبول إذا كان في إظهار الإيمان متاعب دون تحقيق مكاسب، وكتمان الإيمان مرفوضٌ إذا جَرَّ إلى معصيةٍ، أو مداهنةٍ، أو معاونةٍ، أو تضييع حقٍ، أو ترويج بدعةٍ، أو توقير

منحرفٍ، إذا أدّى الكتمان إلى السلبيات فلا خير في كتمان الإيمان، وأكبر شاهد هذا الرجل المؤمن الذي ذكره الله عزّ وجل في القرآن الكريم إذ كتم إيمانه في مرحلة، فلما رأى خطراً يتهدد هذا النبي الكريم انطلق، وأفصح عن إيمانه، ولم يبق إيمانه في حَيّز الكتمان.

إذاً: دائماً الحق وسط بين طرفين، التطرُّف الأول أن تكتم إيمانك إلى ما لانهاية، إلى درجة أن الناس ينسوا أنك مسلم، لكن كلما تجاوزوا حدودهم، وكلما ضغطوا عليه فخنعت، ورضيت حفاظاً على كتمان إيمانك، فليس هذا من أمر الشريعة في شيء، الله سبحانه وتعالى قال:

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

لا تأخذك بالله لومة لائم.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

الأمر إذا وصل إلى تضييع حق، إلى ترويج باطل، إلى دعم مبتدع، إلى توقير مُنحرف، إلى تعظيم مُلحد، إلى تضييع حق، لا خير في كتمان الإيمان عندها، أما إذا أعلنت إيمانك، وسببت لنفسك متاعب لا حصر لها من دون أن تكسب شيئاً إطلاقاً، ليس بحكيم من لم يدار من لا بد من مداراته، فالحكمة ضالة المؤمن، والمؤمن الصادق يهتدي إلى ربه، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ الصِّدْقَ يَهْدِي))

[صحيح البخاري عن عَبْدِ الله]

صدقك في طلب رضوان الله عزّ وجل يهديك إلى الطريق الصحيح، وحينما تتحرّك وفق منهج الله، ووفق تعليمات النبي عليه الصلاة والسلام، فإن الله سبحانه وتعالى يتولّى أمرك، ولا يضيُّعك، ولا يتركك، ولا يسلمك لخصومك.

مؤمن آل فرعون لكلماته معانٍ دقيقة، ولنطقه عظاتٌ بليغة، يقول:

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)

يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

1 ـ المؤمن لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن:

المعنى الضمني: أن الإنسان إذا كان قويًا، إذا كان غنيًا، إذا كان الله عزّ وجل أكرمه بمنصب رفيع، أو بدخل كبير، أو بمكانة اجتماعية عالية، فهذا الشيء الذي تفَضّلَ الله به عليه لن يدوم إلى الأبد، فلا بد من يومٍ يزول عن صاحبه.

ولكن المؤمن ـ هذه النقطة مهمة جداً ـ إذا آتاه الله شيئاً من الدنيا فحظه من الآخرة أوفر، والمؤمن خَطُّهُ البياني في صعودٍ مستمر، حتى لو جاء الموت، هو ما بعد الموت أسعد منه مما قبل الموت، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

فالمؤمن لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن، لا خوفٌ عليه مما هو قادمٌ عليه ولا هو يحزن على ما فاته، يا قومي، طبعاً كلمة يا قومي تعني أن مؤمن آل فرعون من القبط، من آل فرعون، يؤكد هذا قوله:

(لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)

أي هل هذا الملك إلى ما لانهاية ؟ لا، فالموت بالمرصاد لكل إنسان، سبحان من قهر عباده بالموت. هنا نقطة دقيقة، القوي يموت، والغني يموت، والمنحرف يموت، والمستقيم يموت، فالموت يلغي كل شيء، يلغي غنَى الغني، وفقر الفقير، وقوة القوي، وضعف الضعيف، وحكمة الحكيم، وصحة الصحيح، ومرض المريض.

(لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)

هنا المعنى الثاني الدقيق بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام والحديث يحث على العمل الصالح، فقال:

((بادروا بالأعمال سبعا ـ بادروا، اغتمنوا، سابقوا ـ هل تنتظرون))

[الترمذي]

2 ـ كسبتَ كلّ شيء، ثم ماذا ؟

تقول مثلاً: مرة كانت بعض الدروس تدور على محور إيجابي رائع، ثم ماذا ؟ كذلك عملت عملاً عظيمًا، ونلت مبالغ طائلة، ثم ماذا ؟ الموت بعد ذلك، سوف تحاسب عن كل ما فعلته، هذا المال من أين اكتسبته وفيم أنفقته ؟ سوف تحاسب عليه، ولو بلغت أعلى منصب ثم ماذا ؟، لابد من الموت بعدها، إنك

ميتٌ وإنهم ميتون، ولو تمتع الإنسان بكل مباهج الحياة، لم يدع شهوةً إلا ومارسها، لكن ثم ماذا ؟ بعد ذلك الموت، لو تمتع بمجد رائع جداً، ثم ماذا ؟ بعد ذلك الموت، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

هل تنتظرون إلا...

ماذا في الدنيا ؟ انظروا إلى الناس، الإنسان في أول حياته له اهتمامات، اهتماماته مدرسية، بعد ذلك اهتمامات عمل، بعد ذلك زواج، بعد ذلك سكن، بعد ذلك تزويج أولاده وبناته، بعد ذلك صحة، بعد ذلك عظّم الله أجركم، وهي مرحلة لا بد منها، الحياة تمضي، والإنسان يتحرك نحو مصيره المحتوم، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((هل تنتظرون إلا فقرا منسيا))

[الترمذي]

فهناك آلاف الأشخاص الذين هم على غنًى عريض، فجأةً فقدوا كل أموالهم، فصاروا يتكففون الناس.

((هل تنتظرون إلا فقرا منسيا))

[الترمذي]

فقرًا ؛ ينيسك أيام الرخاء كلها، ينسيك المباهج كلها، ينسيك المسَرّات كلها.

((فقرا منسيا، أو غنى مطغيا))

[الترمذي]

والغنى المطغي مصيبة من أكبر المصائب، فالإنسان غالبا من دون غنى مستقيم، فإذا اغتنى أصبح عاصياً لله عزّ وجل.

((أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا))

[الترمذي]

مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً.

((أو هرما مفندا))

[الترمذي]

تقدم في السن مع الخرف، مع أرذل العمر مال إلى النسيان، صار حشَرياً، أعاد القصة مئات المرّات، تدخّل فيما لا يعينه، انفضّ الناس من حوله، تركوه في غرفته وحده، اختل توازنه، صاح بأهله، شكاهم لزوّاره، أصبح وجوده عبئاً على أهله، هذا مرض مفنِّد:

((أو موتا مجهزا))

[الترمذي]

كان إنساناً وفجأةً صار خبراً، كان ملء السمع والبصر فصار حديث الناس، كان فوق الأرض، فصار تحتها، كان متربعاً على مكانةٍ عليةٍ في بيته وفي عمله، فصار ملقىً تحت التراب، بات خبرًا.

إذاً:

((هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى))

[الترمذي]

مؤمن آل فرعون أدرك أن الأمور تتحول، كل حالٍ يزول.

هناك ملِك قال لوزيره: قل لي كلمةً إن كنت فرحاً أحزن، وإن كنت حزناً أفرح ؟ قال له: كل حالٍ يزول، انظر إلى أي مكان، فإنك ترى خلائف، فالناس خلائف، هذه البيوت سكنها قبلنا أناس، وسيسكنها بعدنا أناس، هذا معنى خلائف، وهذه المحلاّت التجارية استعملها قبلنا أناس، وسيديرها بعدنا أناس، الإنسان شيء طارئ حادث.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

فقال.

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)

يوم مفقود و يوم مشهود و يوم موعود و يوم مورود و يوم ممدود:

هناك يوم مفقود، هذا الماضي، ولن يعود، والحديث عنه تضييع وقت، وهناك يومٌ مشهود نعيشه الآن، هذه الساعة التي نحن فيها، وهناك يومٌ موعود، الموت، وهناك يومٌ مورود، يوم القيامة، وهناك يومٌ ممدودٌ إلى أبد الآبدين، فأنت بين يومٍ مفقودٍ ومشهودٍ وموعودٍ وموردٍ وممدود، أخطر هذه الأيام اليوم المشهود، الساعة التي أنت فيها، لأن الماضي انتهى، المستقبل متعلِّق بالحاضر، فإن كنت في يومك المشهود مطيعاً لله عزّ وجل، يومك الموعود إن أتى فهو استمرار لطاعتك، وإن لم يأتِ لا تندم على عدم مجيئه، هذا أكمل موقف، لذلك هلك المسوِّفون.

فهذه إشارة دقيقة، أي أنتم يا آل فرعون لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض، لكن هل هذا الملك إلى ما شاء الله ؟ لا، هناك موت، وهو بالمرصاد، الحياة تنقطع وتنتهي، فإذا انقطعت الحياة، ولم نكن نعرف الله عزّ وجل، وفعلنا ما فعلنا، وأكلنا ما أكلنا، وانتهكنا ما انتهكنا، واعتدينا ما اعتدينا، وجاء أمر الله عزّ وجل ليحاسبنا عن كل صغيرةٍ وكبيرة.

(فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)

فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

هذه مناقشة منطقية، وكل واحد منا إذا ناقش نفسه نقاشًا منطقيًا، حاور نفسه حوارًا عقلانيًا، وتأمّل حياته، وتأمل مصيره، وتأمّل تاريخه، تأمل حركته في الأرض، تأمّل رسالته، تأمل مهمته، يهتدي إلى الحق.

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

كلمة بالغة:

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)

لا عبرة لهذا اليوم، بل العبرة لما بعده، والغنى والفقر بعد العرض على الله، البطولة لا أن تكون في شبابك قوياً، أن تكون في شيخوختك محفوظاً من متاعب الدنيا، من الخرف، من أرذل العمر، بل العبرة في أن تكون في قبرك سعيداً، كأنه روضة من رياض الجنة، وأن تكون يوم القيامة حميداً، هذه البطولة.

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى

1 ـ الفراعنة كانت لهم حضارة:

لو ذهب الإنسان إلى مصر، ورأى متاحفها، لرأى العجب العجاب، أين كان هؤلاء الذين أشادوا الأهرامات، نحتوا الأصنام، جعلوا هذه المقابر تحت الأرض فيها كل شيء، فيها من الذهب بكمياتٍ مذهلة، طعامهم، خبزهم، لحمهم كان تحت الأرض، لعقيدةٍ فاسدة أنهم يَحْيَوْنَ بعد الموت، لذلك فإنك ترى آثارًا من الخبز المحنَّط حتى الآن من ستة آلاف عام، من اللحم المحنط حتى الآن، أدواتهم، مركباتهم، سلاحهم، حليُّهم، ذهبهم، شيء لا يصدق، إنها حضارةٌ تحت الأرض بأكلها، أين هم الآن ؟

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)

معنى ذلك أن كل واحد منا يحذر أن يغتر بشبابه، بمكانته، بدخله الكبير، باسمه المتألِّق، لينظر يوم يأتي ملك الموت ويقول له: تفضل معي ؟ إلى أين ؟ إلى قبر مساحته متران مربعان فقط، كل شيء يتركه في ثانيةٍ واحدة، لا يستطيع أن يأخذ معه شيئاً أبدًا، والعوام يعبرون عن هذه الحقيقة فيقولون: " **إنّ الكفن ليس له جيوب** "، أي لا تجد جيباً له لتَضع فيها دفتر الشيكات، لا يأخذ إلا عمله الصالح أو الطالح، فهذه إشارة، أي أنتم الآن يا آل فرعون ملوك، ولكن نريد أن نعرف ما مصيركم بعد الموت ؟

(لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

2 ـ لا يكون الاتباع المطلق إلا للنبي عليه الصلاة والسلام:

الإنسان العاقل لا يمكن أن يكون مطية خطأ لإنسان، ولا يمكن أن يكون ضحية لإنسان، ليس على وجه الأرض إلا إنسان واحد يمكن أن تكون مُتّبعاً له، هو النبي عليه الصلاة والسلام لأنه نبي، ولأنه معصوم، ولأنه رسول، ولأنه لا ينطق عن الهوى، ولأنه من عند خالق الكون، ولأن الله أمرك أن تتبعه، وأمرك أن تنتهي عما عنه نهاك، والذين يعلّمون الناس من بعده إذا اتبعوا سنته رشفوا عن حقيقته.

أي أننا إذا قلنا لك: اسمع كلام هذا المرشد، أو هذا العالم، أو هذا الداعية، لا يمكن أن يأتي من عنده بشيء، هو يشفُّ عن سنة رسول الله، فمن بعد النبي الصحابة والتابعون، والعلماء العاملون، والفقهاء والمحدثون، والدعاة والمرشدون، والمربون والأساتذة، هؤلاء الذين جاءوا من بعد النبي عليه الصلاة والسلام، والذين ينوبون عن النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الناس هؤلاء لا يستطيعون أن يأتوا من عندهم بشيء إطلاقاً، إنما أنا متبع، ولست بمبتدع، والنبي عليه الصلاة والسلام هو المشرّع، وهو الذي يوحَى إليه، وهو المعصوم، إذاً أنت بإمكانك أن تتبع إنساناً واحداً وأنت مغمض العين، ومع ذلك قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من الآية 108)

عَلَى بَصِيرَةٍ، لكنه معصوم ويوحَى إليه، وقد أُمِرْنَا أن نتبعه بنص القرآن الكريم، أمّا أيُّ إنسان نقل لنا بأمانة سنة النبي علينا أن نتبعه، وهذا ليس اتباعاً له إنما هو اتباعٌ للنبي، فليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن تتبعه لذاته، إن فعلت هذا كنت ضحية له، كنت أحد أخطائه.

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

إن كانت رؤيته غير صحيحة، إن كان في عمىً، إن كان في ضلال، إن كان في متاهة، إن كان في انحراف، هل يستطيع هذا الذي اتبعته أن يخلّصني ؟

ألم تسمعوا قصة أصحاب النبي عليهم رضوان الله، حيث أمّر عليهم أحدهم، وأمّرهم بسريةٍ بمهمةٍ، فلما غادروا المدينة تغاضبوا ـ ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة كانت هذه القصة ـ فقال أميرهم **":ألست أميركم ؟** قالوا: **" بلى "**، قال: **" أليست طاعتي من طاعة رسول الله ؟ "**، قالوا: **" بلى "**، قال: **" فأضرموا ناراً عظيمة فأضرموها**، قال: **" اقتحموها "**، وقفوا، تأملوا ملياً، حكّموا عقولهم، قالوا: **إنما آمنا بالله**

ورسوله فراراً من النار، **كيف نقتحمها ؟ "**، اختلفوا، بعضهم قال: **" نقتحمها، لأن طاعَة الأمير طاعة لرسول الله "**، بعضهم قال: **" والله لا نقتحمها "**، لما رجعوا، رفعوا أمرهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[البخاري ومسلم عن علي]

ماذا قال سيدنا الصديق ؟ قال: **<< وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني >>**، أي راقبوني، أي أنه طلب من كل فردٍ من أفراد رعيته أن يراقبه، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، إذاً: هذه سنة النبي.

لا يزاد في الدين ولا يُنقص منه:

عندنا في حياتنا إنسان واحد يمكن أن نطيعه من دون مراجعة، هو النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه جاء بهذا القرآن، ولأن هذا القرآن فيه إعجاز، إذاً هو كلام الله، والله يأمرنا أن نتبعه، وهو المعصوم عن أن يخطئ في أقواله وأفعاله وأحواله، وأي إنسانٍ بعد النبي عليه الصلاة والسلام ينقل لك سنة النبي كما هي من دون زيادة أو نقصان، أو تحريف أو تأويل، أو تكلُّف، فعليك أن تطيعه، وحينما تطيعه أنت بالتأكيد لا تطيعه، ولكنك تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعبارة بسيطة أقول: العلماء من بعد النبي يجب أن يكونوا كلوح الزجاج يشفون عن سنة النبي، دون أن يكون لهم أي تدخل، لا بزيادة ولا بنقصان.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من الآية 3)

هكذا، بهذه الطريقة يستمر الإسلامُ كما بدأ، أما لو رأيت نهراً في منبعه صافيَ الماء، عذب الماء، ثم جاءته الروافد، إلى أن يصل في نهايته إلى مستوى يصبح الماء فيه أسود اللون فهذا من فعل الروافد المنبوذة، ولذلك نحن الآن نحتاج إلى أن نعود إلى ينابيع الدين، إلى أصل الدين، إلى الكتاب والسُنّة، ولا نرضى إلاّ بإنسان متبعٍ للني عليه الصلاة والسلام يشف عن حقيقة النبي، وعن حقيقة الشرع، لأن الله عزّ وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من الآية 3)

أيّةُ زيادةٍ مرفوضة، في العقائد ليس هناك زيادة ولا نقصان، العقائد موقوفة، والعبادات موقوفة، هناك مجال واحد فقط، بالاجتهادات، بالأحكام الفقهية، يجتهد الفقهاء أحكاماً فرعية تفصيلية من أدلةٍ كليةٍ، هذا

المسموح به فقط، لذلك: **<< وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>**، معناها راقبوني، ألم يقل أحدهم لسيدنا عمر: **<< والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناك بسيوفنا >>**، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وقال: " الحمد لله الذي جعل في رعيّتي من يقوّم اعوجاجي "، بهذا الدين وصلنا لأطراف الدنيا، بهذه العقيدة الصحيحة، بهذا الإخلاص الشديد، بإنكار الذات، فالذات تحت قدم الإنسان، أنت في سبيل الحق، إذا عزّ أخوك فهُن أنت، أما حينما نضيف على الدين أشياء، ونحذف أشياء، ونُجَيّر النصوص إلى مصالحنا، عندئذٍ يصبح الدين أدياناً، والإسلام أنواعاً منوعةً وانحرافاتٍ كثيرة، قال:

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

أي إيّاك أن تكون ضحية لأحد، إيّاك أن تكون مطية خطأ لأحد.

((يا ابن عمر، دينك، دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

((إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[كشف الخفاء]

لا تقبل شيئاً إلا بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله، ولا ترفض شيئاً إلا بالدليل، اقبل بالدليل وارفض بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مبتدعاً فالدليل، شيء لم يفعله أحد، وتفعله أنت أوّل مرة فأنت مبتدع، هل عندك دليل على أن هذا العمل يقاس على عمل مشروع، بالقياس، أو بالإجماع ؟ إن كنت ناقلاً فالصحة، إن كنت مبتدعاً فالدليل، عوّد نفسك أن تقبل أشياء بأدلتها، هذا الفكر إذا قبل الأشياء من دون أدلّة انطمست بصيرته، أما إذا ناقش الأدلة صار إنسانًا واعيًا، ولَعالِمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.

3 ـ الرؤية الفرعونية:

فهذا فرعون ماذا يقول ؟ يقول:

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

أي إذا قال لك واحد: أنا هكذا أرى، قل له: ومن أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ

فرد عليهم:

ومن أنتم حتى يكون لكم عندُ!

مَن أنتم ؟ نحن لا يوجد عندنا إلا الله ورسوله فقط، ولا يوجد عندنا أكثر من ذلك.

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ ومَن أنتم حتى يكون لكم عِند

***

فهل أنت محور العالم ؟ هل أنت مشرع ؟ هذه لم تعجبني، ومن أنت ؟ هذه لم أقتنع فيها، ومن أنت ؟ هذه ليست معقولة، فيها شرع إلهي.

سئل إنسان ذات مرة سؤالًا عن موضوع، فقال: هذا الموضوع لا ينبغي أن يطرح كسؤال، فسئل: لماذا؟ إن الله عزّ وجل أنزل فيه حكمه.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من الآية 36)

انتهى الأمر.

يستشف من هذه الآية أن الإنسان لا يكون ضحية لأحد، ولا يكون خطيئة أحد.

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(79))

(سورة طه)

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(8))

(سورة القصص)

هذه الحقيقة متى عُرِفَت ؟ بعد فوات الأوان، تمشي مع إنسان يدعوك إلى المعصية، لترك الدين، لمعاداة أهل الحق، ثم يأتي ملك الموت فإذا أنت الضحية، يا رب، فلان قال لي ذلك، يقال له: أين عقلك؟

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

فمن يقول لابنه: نحن يا بني هكذا نشأنا، هكذا ربينا، اسمع كلامي، لا تغلط، ضعها برقبتي، هذا كله كلام فارغ هراء، تكون ضحية لإنسان، ومطية خطأً لإنسان.

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

أنت إنسان، ولهذا الكون خالق، ولهذا الخالق كتاب ومنهج، ولهذا الكتاب تفسير ـ هذه القصة كلها ـ هذا الكون العظيم له خالق يدل عليه، وهذا الخالق له كتاب أنزله، الدليل إعجازه، وهذا الكتاب له نبيٌّ فسّره، فهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو كلام خالقنا، وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام، وانتهى الأمر، فكل شيء جاء بالكتاب والسنة على العين والرأس، أما إذا عارض الكتاب والسنة فلك أن تركله بقدمك، ولا تثريب عليك، أما إذا أراد الإنسان أن يسمع كلام الناس فإنهم كما قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ)

(سورة الأنعام: من الآية 116)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنّ الظَّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا)

(سورة يونس: من الآية 36)

لو أنّ واحدًا قال لك:

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

فالقرآن لا ينبغي أن يكون كتاب تاريخ لنا، فلو أن أحد الناس كان أقوى منك، وقال لك: لا تخَف، ضعها برقبتي، هكذا أنا أرى، أنا أعرف صالحك أكثر منك، قل له: لا فأنت لا تعرف مصالحي، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، اجعل هذه الكلمة شعاراً لك: لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

هناك قصة أذكرها كثيراً: الحسن البصري كان عند والي البصرة ـ الحسن البصري تابعي ـ كان عند والي البصرة، وبينما هو عنده جاء البريد، فيه توجيه من يزيد بن معاوية، وهذا التوجيه لو فعله الوالي لسخط الله عليه، ولو لم يفعله لسخط الخليفة عليه، وقع في حرج شديد، عنده الحسن البصري فسأله، ماذا أفعل ؟ "، أجابه إجابةً تكتب بماء الذهب، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

كل إنسان أقوى منك ضغط عليك، فاعلم علم اليقين أن الله يمنعك منه، ولكنك إذا اتَّبعت توجيهه، هذا الإنسان مهما بدا لك قوياً لا يمنعك من الله، فالله عنده أمراض وبيلة، عنده أمراض تجعل حياة الإنسان جحيماً، ماذا نفعل ؟ أَمْرُكَ بيد الله، صحتك بيد الله، قلبك بيد الله، الدسامات بيد الله، الشريان بيد الله، الأبهر، التاجي، كل أمور الناس بيد الله عزّ وجل، الكليتان بيد الله، الفشل الكلوي مخيف جداً، وليس له حل، ثمن إجراء عملية زرع الكلية مليون تقريبا، ونسبة نجاحها بالمائة ثلاثون أو أربعون، الأمور كلها بيد الله، دخلك بيد الله عز وجل، عملك بيد الله، أهلك بيد الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

لذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، على قدر ما يأتيك من ضغط فاسمع قول الله تعالى حكاية عن السحرة:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى(71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

انتهى الأمر، هذا هو المؤمن، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

" يا بني إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت "، قال: **" يا أمي، لو أن لك مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "**، ثم أكلت بعد ذلك، فالأساس هو: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لك رب يجب أن تطيعه وحده، لكن عندما يطيع الإنسان الله وحده لا ينبغي أن يكون فظاً غليظ القلب مع الناس، لا، فبالتلطُّف وبالحسنى نأتيهم، ونتعامل معهم:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

(سورة لقمان: من الآية 15)

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ

مؤمن فرعون.

(يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)

هؤلاء الذين تحزّبوا على الأنبياء، وقاموا لهم، وحاربوهم، وأخرجوهم، وكذبوهم، وسخروا منهم، وائتمروا على قتلهم، هؤلاء الأحزاب الذين تحزّبوا على الأنبياء صلوات الله عليهم، هؤلاء مُنوا بهزيمةٍ منكرة وأهلكهم الله عزّ وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام في أعقاب معركة بدر خاطب كفار قريش القتلى: **" يا شيبة بن ربيعة ـ باسمه ـ يا أمية بن خلف يا فلان، يا فلان، يا فلان "**. **الصحابة دُهشوا!! قال: " هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس "**، قالوا: **"أتخاطب قوماً جَيّفوا "**، قال:**"ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبونني"**، هذه ساعة عصيبة.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ(30)مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ

دقة الآية: الله عزّ وجل نفى عن نفسه إرادة الظلم، عندك إرادة وحَدَث، الإنسان أحيانًا كثيرة لا يظلم، ولكنه يريد أن يظلم، ولكن لم يتح له، أما ربنا عزّ وجل:

(وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

1 ـ لا تقف في وجه الحق:

حذرهم إذاً من مغبّة أن يحاربوا هذا النبي الكريم، فإن كل من حاربه، وكل من تحزّب ضده عاقبته وخيمة، لأنه رسول الله، فذنب كبير جداً أن يكون الإنسان ضد الحق، أن يكون أحمق إلى درجة غير معقولة، وأن يتورط ورطة كبيرة، وأن يقف لإطفاء نور الله ـ فهذه نقطة مهمة جداً ـ إياك أن تكون في خندقٍ معادٍ لأهل الحق، انجُ بجلدك، تحارب مَنْ ؟ أأنت تحارب الله ورسوله، فهذا الدين العظيم لولا أنه دين الله لتبددت معالمه من مئات السنين، ولانتهى، لكن لأنه دين الله بقي صامداً، شامخاً كالطود، هناك مؤامرات على هذا الدين لا يعلمها إلا الله، ومع ذلك كلها باءت بالإخفاق، دين الله، إن الله ناصر نبيه، إن للبيت رباً يحميه، فأغبى إنسان هو إنسان وضع نفسه في خندق معادٍ لأهل الحق، معادٍ لهذا الدين، إنه عندئذٍ يحارب الله ورسوله.

وهل بإمكان مخلوقٍ أن يطفئ نور الله عزّ وجل ؟ وهل بإمكان مخلوقٍ أن ينهي دين الله عزّ وجل ؟ ينتهي هو ولا ينتهي دين الله، هل بإمكان مخلوقٍ أن يلغي هذا الدين ؟ الذين أرادوا إلغاءه تهاوَوْا كبيت العنكبوت تحت سمعنا وبصرنا، من سبعين سنة قلعة من قلاع الأرض ترفع شعار (لا إله)، فلمّا أراد الله أن يخزيهم أصبحوا في أسفل سافلين اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وعسكرياً، الإنسان العاقل لا يمكن أن يكون في خندق معادٍ للحق، إن فعل هذا فإنما هو يحارب الله ورسوله، لا بريق للنصر، وتحارب الله.

2 ـ لا تطعن في الدعاة إلى الله:

يقاس على ذلك أن على الإنسان ألا يطعن بالدعاة إلى الله، ألا ينتقصهم، فالأفضل له أن يسلم بنفسه، لأن لحم العلماء مسموم، إنسان مسخّر لخدمة الناس، ويستفيدون منه، إيّاك أن تحاول تحطيمه، إياك أن تحاول الطعن به، لأن هذا عمل غير أخلاقي، عمل غير ناجح، ولا يُجدي، هذا عملُ الذين استفادوا من شخص دعهم يستفيدون منه، لا تكن حجر عثرة، لا تكن عدواً للحق، لا تكن سبباً لإضلال الناس وإطفاء نور الإيمان.

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)

3 ـ مصير المعاندين إلى الهزيمة والعار:

هؤلاء الذين تحزّبوا على الأنبياء، وانتقصوا منهم، وكذّبوهم، وسخروا منهم، واتهموهم بأنهم مجانين، أو أنهم كُهّان أو شعراء، وأخرجوهم من ديارهم، وألّبوا عليهم الناس وحاربوهم، ماذا فعل أبو سفيان ؟ عشرين سنة يحارب النبي، لما دخل النبي مكة المكرمة، نظر أبو سفيان إليه وقال: **" ما أعقلك، وما أحكمك، وما أرحمك، وما أوصلك !! "** كبار زعماء قريش عرفوا الحقيقة بعد فوات الأوان. فأنا أريد من هذا الكلام، إياك ثم إياك ثم إياك أن تحاول إطفاء نور الله، أن تقف في خندق معادٍ الدين، إياك أن تحاول أن تفسد بين متعلمٍ ومعلِمٍ، إياك أن تحاول ظلمًا أو قتلاً أو فسادًا، هذا فوق طاقتك.

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ(31)وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ

لا ينفع نسبٌ ولا قرابة يوم القيامة:

هو يوم القيامة، حذّرهم من مغبّة الخزي والهزيمة في الحياة الدنيا إذا هم ناهضوا وعادوا الأنبياء، وحذرهم من يوم القيامة الذي سمّاه الله عز وجل يوم التنادي، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام سألته السيدة عائشة قالت: **" يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ "** سؤال وجيه: لو أن إنسانًا وقعت عينه على عين أمه هل يعرفها ؟ وقعت عينها على عين زوجها هل تعرفه ؟ وقعت عينه على عين أخيه، وقعت عينه على عين ابنه هل يعرفه ؟ قالت: **يا رسول الله، أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم يا أم المؤمنين، إلا في ثلاثة مواطن ؛ عند الصراط، وإذا الصحف نشرت، وعند الميزان، وفيما سوى ذلك لو وقعت عين الأم على ابنها تقول: يا ولدي، كان لك بطني وعاءً، وصدري سقاءُ، وحجري وطاءً ـ فأنا أمك، صدري لك سقاء، وحجري لك وطاء، وبطني لك وعاء ـ فهل من حسنةٍ أنتفع بها اليوم ؟ يقول ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

هذا يوم التناد، تنادي الأم ابنها فلا يستجيب لها، ينادي الابن أمه فلا تستجيب له، ينادي الأخ أخاه فلا يستجيب له، ينادي التابع المتبوع فلا يستجيب له، ينادي الضعفاء الأقوياء فلا يستجيب لهم، يوم التناد، كل إنسان ينادي الطرف الآخر فلا يستجيب له.

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

(يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري:

الإنسان إذا أضل نفسه عن الله عزّ وجل، أي إذا ضل ضلالاً اختيارياً فاستحق الإضلال الجزائي، إذا ضل، كقوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

هذه الآية بعضهم يراها مشكلة، والآية واضحة تماما، أوضح مثل عليها: إنه طالب جامعي ما داوم، ولا قدّم امتحانًا، ولا اشترى كتبًا، أرسل له إنذار تلو الإنذار، فلما يئست إدارة الجامعة من استجابته أصدرت قراراً بترقين قيده، متى أصدرت هذا القرار ؟ بعد أن اتخذ هذا الموقف، فقرارها ظالمٌ ؟ لا والله، هذا معنى قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أيّ إضلالٍ عُزِيَ إلى الله عزّ وجل فالعلماء قالوا: فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، الإضلال الجزائي، حينما أصدرت إدارة الجامعة قراراً بفصل هذا الطالب وترقين قيده، ليس هذا ظلماً إطلاقاً إنما هو نتيجة طبيعية وتجسيدٌ لرغبة الطالب في الخروج من الجامعة.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

فلما ضلّوا أضلهم الله، فلما أرادوا المعصية مكّنهم الله منها، هكذا لأن الإنسان مخيّر.

(مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

وإذا ضل الإنسان باختياره، والله سبحانه وتعالى بأفعاله جسّد هذا الاختيار، فأضله الله عزّ وجل، عندئذٍ لا يستطيع أحدٌ هدايته:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: من الآية 56)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 34 - 37
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-08-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الحادي عشر من سورة غافر، ومع الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ

1 ـ تذكيرٌ بتكذيب بني إسرائيل بيوسف عليه السلام:

قال العلماء: هذه الآية تعني إما أن سيدنا موسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام هو الذي خاطب قومه، وذكّرهم بموقفهم المكذِّب من سيدنا يوسف عليه السلام، أو أن مؤمن آل فرعون تابع كلامه، وذكّرهم أيضاً بتكذيبهم العريق لسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام. على كلٍ:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)

2 ـ لابد للعباد من الرسل:

أيْ أنّ ربنا سبحانه وتعالى لرحمته بعباده، ولأنه خلَقهم ليهديهم، لابدّ من أن يذكّرهم، فالسماء لابدّ من أن تتصل بالأرض، ولابدّ من رسلٍ مبشّرين ومنذرين، فمع أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، ومنحه نعمة العقل، وسخّر له الكون، وفطره فطرةً عالية، وأعطاه حريّة الاختيار، وأعطاه كل المقوّمات، ومع كل ذلك فالله جلّ جلاله إذا رأى الناس قد غفلوا وانساقوا وراء شهواتهم لابدّ من أن يذكّرهم. فالتذكيرُ الإلهي للإنسان شيء ثابت، والله عزّ وجل يذكّر عباده من خلال الأنبياء، ومن خلال الرسل، ومن خلال العلماء والدعاة، ومن خلال الحوادث، ومن خلال التسيير النفسي، ومن خلال كل شيء، فربنا سبحانه وتعالى يسوق كل الأساليب التي يمكن لهذه النفس أن تستفيد منها، وربنا جلّ جلاله يعالج هذه النفس أدقّ معالجة.

لكن النقطة الدقيقة هنا أن الحيّ مطموع فيه.

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)

سيدنا عمر رضي الله عنه وقف مع أصحابه موقفاً، قالوا: **" وقفت موقفاً كموقف النبي معنا "** يبيّن لهم، أيْ أنّ ربنا عزّ وجل إذا أرسل الأنبياء فقد أرسلهم ليبيّنوا للناس، فإذا جاء العلماء من بعدهم فليذكِّروا الناس بدعوة الأنبياء.

كما قلت في الدرس الماضي: العالِم لا يستطيع أن يزيد شيئاً، ولا أن ينقص شيئاً، مهمّته الوحيدة التبيين، أيْ يجب أن يشفّ عن سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام وعن دعوة النبي، فإذا عبّر عنها تعبيراً صادقاً فقد أدّى مهمّته، لذلك فالناس حينما ينصرفون عن الدعاة إلى الله ينصرفون عن طريق سعادتهم.

والشيء الذي يلفت النظر هو أن الإنسان الداعية أو العالِم حينما يموت تبدو قيمته الحقيقية، ويبدو حجمه الحقيقي، يقولون: لماذا لم نعرفه في حياته؟

(حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا)

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا

من معاني هذه الآية: أنه حينما كان بين أظهركم، وحينما كان بينكم كنتم زاهدين فيه، بل شكّكتم في دعوته، فلم تتبعوه، فلمّا هلك عندئذٍ قلتم:

(لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا)

1 ـ لا تُعرَف قيمة العلماء إلا بعد موتهم:

ومن معاني هذه الآية: أنكم آمنتم به لكن بعد أن قُبِضْ، أيْ بعد أن توفّاه الله عزّ وجل آمنتم به.

لنا تعليق على هذا الموقف:

الملاحظ أن العالِم مثلاً في حياته يجتمع قليل من الناس حوله، ولكن إذا توفّاه الله ترى مئات الألوف، فليت هذه الجموع الغفيرة التي جاءت للتعزية، أو التي سارت في جنازته، ليتهم أمّوا بيته وهو حي، ليتهم استفادوا من علمه يوم كان بين أظهرهم، فهذا الموقف يتكرّر.

كنت قبل أيام في تعزية أحد العلماء الأجلاء، فوقفت خطيباً وقلت: جميلٌ جداً أن يتوافد الناس للتعبير عن إيمانهم وعن تقديرهم حينما يعزّون في مناسبات انتقال العلماء الأجلاّء، ولكن الأجمل من هذا أن يتوافدوا إليهم في حياتهم، وأن يستفيدوا من علمهم، وأن يأخذوا عنهم ما يحدثون به عن النبي صلّى الله عليه وسلّم.

لابد للإنسان من التعلّم:

تأمّل مليًا ودقِق في هذه الناحية، ربنا عزّ وجل حينما يقول:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْض مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

أي أنك خُلِقتَ كي تعلم، أنت إنسان، هويّتك أنك إنسان، وعليك أن تتعلّم، هذه اللام في الآية لام التعليل، أيْ أنّ علّة وجودك أن تَعْلم، إن لم تعلم فلست في مستوى الإنسانيّة، الله عزّ وجل أودع في الإنسان قوّة إدراكيّة، فهذه الطاولة لا تفقه ما حولها، هذه الطاولة لا تدرك لأنها جماد، وكذلك الحيوان، وكذلك النبات، فالله ما أودع القوّة الإدراكيّة إلا في الإنسان، إذاً: هو خُلِقَ ليعلم، فإذا كان الجماد شيئا له حيّز، له وزن، طول، ارتفاع، يشغل حيّزًا، والنبات يشغل حيّزًا كذلك، لكنّه ينمو، والحيوان يشغل حيّزًا أيضاً وينمو ومع ذلك يتحرّك، أما الإنسان فيشغل حيّزًا كالجماد، وينمو كالنبات، ويتحرّك كالحيوان، لكنّه يفكِّر ويدرك، فأعظم ما في الإنسان هذه القوّة الإدراكيّة التي أوعها الله فيه، وبهذا ميّزه الله عن كل المخلوقات.

إذاً:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْض مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

نعم، من أجل أن تعلم، من أجل أن تَعْلَم أنّ الله يعلم، إن علمت أن الله يعلم انتهى كل لَبسٍ وإشكال، واستقمت على أمره، إن استقمت على أمره سعدت بقربه، فهذه ثلاث كلمات: العلم، والسلوك، والسعادة، الهدف الأخير أن تسعد بقرب الله عزّ وجل، وثمن هذه السعادة أن تستقيم على أمره، ولن تستقيم على أمره إلا إذا عرفته، إذاً فلتعلم أن الله يعلم، وأنه قادر.

فما دامت علّة وجودك في هذه الأرض أن تعلم أن الله يعلم، فالذي يعلِّمك كتاب الله عزّ وجل، الذي يعلِّمك سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام، الذي يعلِّمك الحكم الشرعي أهو حرام أم حلال ؟ الذي يبيّن لك سيرة النبي وسيرة أصحابه الكرام.

إذاً: فهذا الإنسان قائم بأخطر مهمّة تواجهك، في حياة كل واحد منّا آلاف الأشخاص، فأنت في حياتك مثلاً طبيب، الطبيب مرتبط بجسمك للعلاج، وأنت بحاجة إلى خيّاط، إذا طال شعرك فأنت بحاجة إلى حلاق، وأنت تأكل بحاجة إلى من يزرع لك النبات.

ففي حياتك آلاف الأشخاص، وهؤلاء كلهم مرتبطون بدنياك، لكن الذي يدلّك على الله هذا مرتبط بأمر آخرتك، لذلك ما دام الله عزّ وجل قال: لتعلموا أن الله يعلم، فالذي يدلّك على الله ينبغي أن تبحث عنه.

((يا ابن عمر، دينك دِينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

(كنز العمال عن ابن عمر)

كذلك ما دام الإنسان وُلد ووُجد في هذه الدنيا ليعلم، فالله عزّ وجل يقول:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: من الآية 59)

أطيعوا الله من خلال قرآنه، وأطيعوا رسوله من خلال سنّته الشريفة المبيّنة لكتاب الله عزّ وجل، أمّا ؛ وأولي الأمر منكم بمعنى أطيعوا العلماء والأمراء، العلماء هم الذين يعلمون أمر الله هذا تفسير الإمام الشافعي والأمراء الذين يطبّقون أمر الله، قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء: من الآية 59)

معنى ذلك أن الحَكَمَ هو الله ورسوله، من خلال كتاب الله عزّ وجل وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)

2 ـ الرسل جاءت بالآيات الواضحات:

البيّنات الأشياء الواضحة، فما مِن دعوة إلى الله إلا كفلق الصبح واضحة مشرقة نيّرة.

((قد تركتكم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

(الجامع الصغير عن العرباض)

فدين الله عزّ وجل لا يمكن إلا أن يكون متوافقاً مع العقل، متوافقاً مع الواقع، متوافقاً مع الفطرة، متوافقاً مع النقل، دين الله عزّ وجل كالهواء بالنسبة للإنسان، نعم كالهواء، ولا يمكن أن نحيا من دون هواء، والهواء في كل مكان، لذلك لا يستطيع أحدٌ أن يحتكر هذا الدين أيًا كان، فلا جماعةٌ، ولا فئةٌ أن تحتكر هذا الدين، ولا بلد، ولا عصر يمكنهم أن يحتكروا هذا الدين، لأنه دين الله.

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)

فمن المستحيل أن تجد تفسيرًا واضحًا منطقيًا للكون والحياة والإنسان بعيدًا عن الدين، فذلك تفسير أعرج، فأهل الدنيا دائما في اضطراب، وفي قلق، وأبسط سؤال يتردد على ألسنة الكثير منهم: يا أخي ما هذه الحياة ؟ أربعين سنة في كدٍّ وجدّ وشقاء ليعيش الإنسان عشر سنوات أو عشرين سنة، لأن معترك المنايا بين الستين والسبعين، وهذا العمر ينحدر متسارعًا مع ضغوط الحياة، ومع المشكلات والهموم التي تصرع الإنسان، وكلّما توفّي إنسان يتساءلون: كم عمره ؟ فيقال: خمسة وثلاثون عامًا،

اثنان وخمسون، سبعة وأربعون، ثلاثة وستون، سبعة وخمسون...الخ. وما وصل إلى مرحلة الاستقرار إلا في سن الأربعين.

والعجيب تساؤلهم: ما هذه الحياة؟ لماذا هذا العمر القصير؟ لماذا هذه المتاعب؟ لماذا هذا التناقض في الحياة ؟ وما فهموا أنّ الحياة، وما أدركوا أنّ الحياة مرحلةٌ إعداد لحياةٍ أبديّة، وأنّ الحياة مزرعة، و أنها دار ابتلاء وامتحان، لا دار قرار واستقرار.

فلذلك من خلال فهم القرآن والسُنّة، ومن خلال فهم العقيدة الصحيحة تبدو الدنيا واضحةً وضوح الشمس.

لا تجتمع أسباب السعادة في مرحلة واحدة من العمر:

هناك تعليقات وملاحظات أساسية ذكرتها سابقاً مفادها: أن الإنسان في أول مرحلة في حياته تكون صحّته طيّبة، والوقت مديد، لكنّه فقير، لا يملك الدِرهم والدينار، إذاً سعادته عرجاء، المال أحد أسباب السعادة في الدنيا ـ بنظر الماديين طبعاً، أنا أقول هذا الكلام بنظر الماديين ـ المرحلة الثانية تكون الصحّة موجودةً والمال موجودًا، ولكن ليس لدى الإنسان فراغ وقت، منهمك في أعماله إلى قمة رأسه، المرحلة الثالثة المال موجود، والوقت موجود، ولكن تتراجع الصحّة فتعرج بك الأيام، فالمحصِّلة لو أن الإنسان عاش للدنيا، ونسي الله عزّ وجل ونسي الآخرة فلا يسعد ولن يسعد، ودائماً في تناقص وتراجع. رأينا إذًا أن الإنسان في المرحلة الأولى ينقصه المال، وفي المرحلة الثانية ينقصه فراغ الوقت، وفي المرحلة الثالثة تنقصه الصحّة، أما المؤمن إذا عرف الله عزّ وجل معرفةً يقينيّة، وعرف سرّ وجوده، وعرف المهمّة العُظمى التي أنيطت به، وعرف أن هذه الدنيا دار ابتلاء، منزل ترحٍ لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

شتّان بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، حياة المؤمن إنْ أعوزه المال لا تعوزه الأعمال الصالحة، يحقِق وجوده بالأعمال الصالحة، بطلب العلم، بمعرفة الله عزّ وجل، بالدعوة إليه، سعيدٌ وهو شاب ولو أن جيبه فارغٌ من المال، فإذا أعوزه الوقت تنقلب أعماله المباحة إلى عبادات، فهو في عمله، وهو في بيته، وفي سعيه لكسب رزق أولاده في عبادة، لأنه يسير على منهج الله عزّ وجل، فأعماله تستغرق كلّ وقته، في كسب الرزق، وفي طلب العلم، وفي الدعوة إلى الله، في كلّ يحقِق وجوده، فإذا بلغ خريفَ العمر وجدته سليم النفس و العقل.

" من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتّى يموت ".

فالله عزّ وجل يعامل المؤمن معاملة طيّبة، لأنه عرف الله في شبابه فأكرمه في شيخوخته، فما من شيء أجمل من إنسان نشأ في طاعة الله، فكانت شيخوخته سعيدة أيّما سعادة.

إن الإنسان يجب أن يطلب العلم ليتعلّم، يجب أن يكون على منهج الله عزّ وجل ليسعد، وإذاً فأخطر شيء في حياته أن يحقِق رسالته التي أُرسِلَ من أجلها، أن يحقِق الغاية من وجوده طاعة الله وعبادة ثم خلود أبدي.

(حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ

1 ـ الله لا يهدي إلا الصادقين:

بيّنت لكم في دروس مضت أن الإضلال إذا عزي إلى الله عزّ وجل، فمعناه أنه الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، وأكبر دليل:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

أيْ أنّ الله عزّ وجل يهدي من ؟ يهدي إليه من أناب، يهدي من كان صادقاً، من كان مستقيماً، من تعامل مع آياتِ الله التي بثّها في الكون فهمًا و إيماناً.

2 ـ مَن هو المسرف ؟

أما المسرف المرتاب، فهو الذي أسرف في اقتناص الملذّات، فأخذ ما له وما ليس له، استمتع بما يحلُّ له وبما لا يحلُّ له، أخذ ما سمح له الشرع، وما لم يسمح له، أخذ حقّه وحقّ غيره، أخذ ماله ومال غيره، استمتع بما يحلُّ له، وما يحلُّ لغيره، فهو إذًا إنسان أسرف، فاتبع شهوته في الدنيا، ولم يعبأ بمنهج الله عزّ وجل، ولم يعبأ بالشرع الذي أنزله الله على نبيّه.

أما المؤمن ففي حياته وقفات كثيرة جداً، مثلما كان سيدنا عمر وقّافاً عند كتاب الله، فهذه الحركة العشوائيّة، والانسياق وراء الشهوات، هما سلوكُ إنسانٍ ضائع، سلوك نفس تائهة، سلوك إنسان بعيد عن الله عزّ وجل، المؤمن متبصّرٌ في قبض المال، في إنفاق المال، في إنفاق الوقت، في علاقاته، في مسرّاته، في أحزانه، دائماً منضبط يحجزه شرع الله سبحانه.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

3 ـ مَن هو المرتاب ؟

أما المرتاب فما عَلِمَ عِلْمَ اليقين الغاية من وجوده، بل عاش كل حياته بالشك والريبة والضياع، عاش في حيرة عمياء، زاغ عن الحق وما علم أن الحق والإيمان لا يخالطهما شك أبدًا، اسمع قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: من الآية 15)

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ)

(سورة البقرة: من الآية 2)

أنت الآن بحاجة إلى يقينيّات، فلا تعتقد اعتقادات لست متأكدًا من صحّتها مثل: لا نعرف، شيءٌ يحيّر، وكما قال بعض الشعراء:

جئت من حيث لا أدري ولكني أتيت فرأيت قدّامي طريقاً فمشيت

لماذا جئت ؟ قال: لست أدري ولماذا لست أدري ؟ لست أدري

* * *

تأمل الضياع، إنه الضياع حقيقة، ثم المصير نار جهنم، لأنه هو الذي سعى إلى الضياع. فالمشكِّك دائماً الذي لا يعلم، الذي لا يوقن، هذا إنسان ليس في مستوى الإنسانيّة، أنت يجب أن تعتنق عقيدة صحيحة يقينيّة، تدافع عنها حتّى آخر لحظة في حياتك، الحياة أساسها اليقينيات، أليس عندك شيء ثابت؟ أليس هذا الكون يدلُّ على عظمة الله عزّ وجل ؟ هذا أول ثابت، الكون من الثوابت.

فكل شيء لديك لا نعرف، كل شيء الله يعلم، كل شيء عندك يحيّر، فهذا الذي يبني حياته على الشك ليس مؤمناً، فإن سئل: هل أنت متأكِّد أن هناك جنّة؟ يقول: الله يعلم، أرجو أن يكون هناك جنّة وإلا يكون قد خرب بيتنا ـ مثلاً ـ فهذا ليس كلامَ مؤمنٍ.

انظر.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

4 ـ بين الإسراف والارتياب علاقة تلازمية:

الارتياب من لوازمه الإسراف، والإسراف من نتائجه الارتياب، فتجد المسرف دائماً بحركاته وسكناته مرتابًا، والمرتابُ مسرفٌ، يسمونها علاقة ترابطيّة، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

لماذا اتَّبعوا الشهوات ؟ لأنهم أضاعوا الصلوات، لماذا أضاعوا الصلوات ؟ لأنهم اتبعوا الشهوات، أيْ أنّهم تارةً باتباع الشهوات ينقطعون عن الله عزّ وجل، وتارةً بالانقطاع عن الله عزّ وجل يلهثون وراء الشهوات، فالعلاقة بينهما علاقةٌ ترابطيّة، اتباع الشهوات وترك الصلوات.

كذلك المسرف الذي يتحرّك وفق شهواته من دون ضوابط، يجمع المال، ولا يعنيه أكان حلالاً أم حراماً، هذا مسرف، يطلق بصره فيما يحلُ له، وما لا يحلُ له، هذا مسرف، يتكلّم بما هو صحيح، وبما هو باطل، هذا مسرف، يتحدّث بلا ضوابط، يمارس شهواته بلا ضوابط، يكسب المال بلا ضوابط، هذا مسرف، لماذا هو مسرف ؟ لأنه مرتاب، ليس متيقِّنًا أن هناك حسابًا.

مرّة قلت لكم: إذا كان الشخص أقوى منك وأعطاك أمرا، وهو يراقبك، وبإمكانه أن يوقع بك الأذى، هل من الممكن أن تعصيه ؟ مستحيل، بحسب قوانين النفس مستحيل، على أدنى مستوى، على أدنى إشارة مرور، ممكن أن تكون الإشارة حمراء والشرطي واقف، وأنت شخص عادي ؟ ليس من الممكن، بل مستحيل إلا أن تنضبط، لأن النتائج واضحة جداً، فأنت مع إنسان عادي يمكن أن يسبِّب لك بعض المتاعب فلا تعصِيه، أما مع خالق الكون فأنت في ارتياب، فلتعلم علم اليقين خيرٌ لك، قال تعالى:

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

لو علمت علم اليقين لرأيت الجحيم.

الطبيب أحياناً لماذا يعتني عناية بالغة بتنظيف الخضراوات والفواكه ؟ لأنه يرى الجراثيم، يرى المرضى، يرى الأمراض السارية، يرى الإنتانات المعويّة، يرى هذه الأمراض رأي العين، ويعلم أن أسبابها كلها من الجراثيم، فرؤيته المستمرّة تجعله في هذا الحرص الشديد، لكن عدم الرؤية يسبِّب الإسراف.

فهاتان النقطتان دقيقتان جداً:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

5 - لابد من الانتقال من الارتياب إلى اليقين:

فأول شيء يلزمك أن تنتقل من الارتياب إلى اليقين، فماذا لديك من ثوابت في الكون ؟ الكون ثابت، هذا الكون ألا يدلُ على وجود الله؟ بلى.

قلت لكم مرّة: هناك وهمٌ، وشك، وظن، وغلبة ظن، ويقين، وقطع، أعلى درجة القطع، إذّا فالوهمُ بالمائة ثلاثون، الشك بالمائة خمسون، الظن بالمائة سبعون، غلبة الظن بالمائة ثمانون، اليقين تسعة وتسعون، القطع بالمائة مائة.

ابحث عن اليقينيات ودعك من الارتياب، أليس يدلُّ الكونُ على وجود الله؟ ألا يدل على وحدانيّته؟ ألا يدل على كماله ؟ أليست هذه المقولة صحيحة: عظمة الخلق تدلُّ على عظمة الخالق؟ بلى وحقاً، كمال الخلق يدل على كمال التصرُّف، عظمة الخلق تدلُّ على عظمة الخالق، كمال الخلق يدل على كمال التصرُّف.

إذا كانت المؤسّسة راقية جداً فحساباتها راقية، علاقاتها العامّة راقية، ألا يدلُّ كمال الخلق على كمال التصرُّف، وعظمة الخلق تدل على عظمة الخالق ؟ هذا الشيء ثابت قطعي.

القرآن الكريم بين يديك، ابحث في آياته، هل هناك حقيقة قطعيّة ثابتة فيه نقضها العلم ؟ مستحيل، لأنه كلام خالق الكون، على مر العصور والدهور كل كتاب أُلِف على وجه الأرض إلا وبعد حين ظهرت بعض أخطائه، أيّ كتاب من تأليف بني البشر فلابدّ من أن ترى بعد حين أن فيه أشياء غير صحيحة، هذه الأيام أقرأ كتابًا، وأنا من أشد الناس إعجاباً به، فمؤلفه لعالِم جليل عاش في العصور العبّاسيّة، وهو من أرقى الكتب تأليفًا ومضمونًا، ومع ذلك المعلومات في وقتها كانت محدودة جداً، وكان يظنُّ مؤلِف الكتاب أن المعدة إذا امتلأت بالطعام ارتفع بخار الطعام إلى الدماغ فعطّل وظيفته، كأن داخل الإنسان جوف فارغ، هكذا توهّم مؤلِف الكتاب، وهذه خطيئة لديه واضحة نقضها التقدم العلمي.

فهل في القرآن الكريم آية تتعارض مع حقيقة علميّة ؟ مستحيل لأنه كلام خالق الكون، فإذا كانت كل عقيدتنا يقينيّة، فالإنسان بشكل أو بآخر يجد نفسه مستقيمًا، لاحظ قوانين علم النفس، عندما تُحاصر فكرياً تستقيم سلوكياً، الاستقامة السلوكيّة أساسها القناعات الثابتة، اليقينيات الثابتة، فهناك علاقة دقيقة بين الإسراف والارتياب، المرتاب مسرف، والمسرف مرتاب، فلكي لا نكون مسرفين يجب ألاّ نرتاب، من أجل ألاّ نرتاب ينبغي أن نبحث عن الثوابت.

لابد من اتباع النبي عليه الصلاة والسلام في كل شيء:

الثوابتُ: الكونُ، والقرآن، والنبي وسنّته، والصحابة الذين رضي الله عنهم، هذه كلها ثوابت، فاجعل من كتاب الله، ومن سُنَّةِ رسوله ومن فعله، ومن فعل صحابته منهجاً لك، يقال: إن أعظم فهمٍ لهذا الكتاب هو فهم النبي عليه الصلاة والسلام، وسلوك النبي انعكاسٌ لفهمه.

بعض العلماء قال: تعلُّم السيرة فرض عين، لماذا؟ لأنك أمام نموذج كامل، فهذا الإنسان الكامل الذي فهم كتاب الله فهماً دقيقاً وكاملاً، وانطلق في حياته يتحرّك حركةً وفق منهج الله، فحركته تجسّد فهمه لكتاب الله، والله سبحانه وتعالى جعله قدوةً لنا نتأسّى به، ونقتفي أثره، إذاً: معرفة النبي عليه الصلاة والسلام، ومعرفة مواقفه العمليّة، ومعرفة سُنّته المطهّرة جزءٌ من الدين.

نحن على أبواب عيد المولد، كلكم يعلم أن هذا البلد عريق بالاحتفالات بعيد المولد، وجوهر هذه الاحتفالات أساسها أن تتعرّف إلى رسول الله، لقوله تعالى:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون: من الآية 69)

والمرحلة الثانية أن تقتفي أثره، وهذا جوهر الصلاة على النبي.

(إِنّ اللّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النّبِيّ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56))

(سورة الأحزاب)

فالنبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق وحبيب الحق، بلغ أعلى درجة من الكمال بين البشر، أصبح أهلاً لأن يكون باب الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يصلي عليه أي يتجلّى عليه بالرحمة، وقد أُمِرْنا أن نصلي عليه أن نتعرّف إليه، وأن نقتفي أثره، وأن نتبع سُنّته، فإن عرفنا شمائله، وأخلاقه، وكمالاته، واقتفينا أثره فقد صلينا عليه، وهذه حقيقة الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، فنحن أمام نموذج إنساني كامل.

مرّة ثانية: أعلى فهم لكتاب الله هو فهم النبي، والنبي معصوم، فحركته بين أصحابه، في بيته، في عمله، في كل مناحي حياته تمثّل فهمه لكتاب الله، لذلك معرفة سيرة النبي فرض عين على كل مسلم، هكذا عامل زوجاته، هكذا عامل أصحابه، هكذا كان في حياته الخاصّة، هكذا كان في حياته العامّة، هكذا عامل أعداءه، إذاً هو نموذج كامل، هذا يقين آخر بين أيدينا.

الكون يقين، والقرآن يقين، وسنة النبي يقين، وسيرة أصحاب النبي الذين رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم يقين، نحن أحياناً تختلط الأمور علينا، نقول: فلان: الله يرضى عنه، هذه دعائيّة أم تقريرية ؟ فرقٌ كبير، الله جلّ جلاله رضي عن أصحاب رسول الله، قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشّجَرَةِ)

(سورة الفتح: من الآية 18)

الله أعلن في قرآنه الكريم أنه رضي عنهم، لكن إذا قلنا عن شخص: الله يرضى عنه، فهذه دعائيّة، وليست تقريريّة، فرقٌ كبير بين التقريريّة والدعائيّة، التقريريّة أن تقول: لقد رضي الله عن فلان، هؤلاء الصحابة وحدهم الذين رضي الله عنهم، أما الدعائيّة فأن تدعو لإنسانان يرضى الله عنه، كأن تقول: أغناك الله، تدعو له بالغنى، هذه ليست كأن تقول: لقد أغناه الله، صار غنياً، إحداهما تقريريّة والثانية دعائيّة.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

إذاً: الإسراف هو تجاوز الحدود، وكما قال ابن عطاء الله السكندري: **" من تجاوز الحدود فهو من الحضرة مطرود".**

الإسراف أسبابه الارتياب، والارتياب أن تعيش في الأوهام، في الظنون.

(وَإِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا(28))

(سورة النجم)

(إِنْ يَتّبِعُونَ إِلا الظّنّ وَإِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا(28))

ظن، أوهام، أفهام سقيمة، أما المؤمن فمعه حجّة، المؤمن مع اليقينيات، المؤمن مع الثوابت، المؤمن عقيدته كفلق الصبح، عقيدته كالشمس في رابعة النهار، إنه على الحق المبين لا يخشى الضياع، فهو على يقين.

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين:

بالمناسبة لدينا علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، ما دامت هذه المراوح تدور فنحن موقنون أن في الجامع كهرباء، هذا يقين، الكهرباء لا نراها، ولكن تألّق المصابيح، وحركة المراوح، وهذا الصوت الذي يكبّر هذه علامة وجود كهرباء في المسجد.

إذًا: فهناك شيءٌ لا تراه، ولكنك ترى آثاره فهذا علم اليقين، أما إذا رأيتَ عينَه فهذا حق اليقين، لو رأيت الدخان لقلت: لا دخّان بلا نار، فالدخّان يدلّك على النار يقيناً، لا دخّان بلا نار، لكنك إذا رأيت بعينك التي في رأسك لهب النار فهذا حق اليقين، أما إذا لامست يدك النار، وشعرت بحرّها ووهجها فهذا عين اليقين، فأنت لك أن تتدرّج من علم اليقين، إلى حق اليقين، إلى عين اليقين، أما أن تبقى في الشك، فمع الشك إسرافٌ، لكنْ مع اليقين استقامةٌ، ومع حق اليقين هناك رقيٌّ، ومع عين الرقي في إشراق، كأنّ هناك ترابطًا فبقدر ما عندك من يقينيات يكون التزامك، بقدر تصوُراتك الصحيحة تكون استقامتك، صحة عقيدتك بقدر التزامك، فكلّ أثرٍ داخلي ينعكس على السلوك الخارجي بشكل أو بآخر.

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ الّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ)

من صفات المسرف المرتاب: الجدال بغير علم:

النقطة الحرجة في الآية السابقة، أنك تجد إنسانًا ما طلب العلم، ولا درس القرآن، ولا فهم الإسلام، ولا قرأ السُنّة، ولا قرأ السيرة، ولا قرأ الفقه، فمع جهله الفاضح، مع إهماله الشديد لمعرفته بالله عزّ وجل

يُنصِّب نفسه حكمًا بكل قضيّة إسلاميّة، فكيف يناقش هذا الإنسان الجاهل، وكيف يجادل في موضوع ليس له خبرة فيه ولا دراية؟

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ)

تجده يعُدُّ طرفًا، ومرجعًا، وحكمًا، ووصيًا، وفي كل قضيّة يحشر أنفه، ويدلي برأيه، وينتقد، ويقبل، ويرفض، وهذه غير معقولة، وهذه معقولة، فمن أنت؟

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

فلو سألت أحدًا: ماذا تعرف عن الصعود إلى القمر عبر مركبة فضائيّة يدفعها وقود سائل ؟ فقد يقول: ولِمَ لا نذهب إلى القمر بالطائرة مثلاً ؟ فالجواب أنه إذا لم تنطلق بسرعة سبعة كيلو مترات في الثانية فلن تستطيع أن تتحرّر من جاذبية الأرض، بسرعة أقلّ منها ستبقى في نطاق الجاذبيّة، ومهما كانت الطائرة سريعة فستبقى في نطاق الجاذبيّة، أما من أجل أن تتجاوز، وأن تتحرّر من الجاذبيّة تحتاج إلى سرعة عالية جداً، أعلى سرعة يحقّقها رد الفعل الناتج عن احتراق الوقود السائل، تبينها لك: الصواريخ التي تدفع الكبسولة إلى الفضاء الخارجي، ويبلغ ارتفاعها ارتفاع بناء شاهق، وفيها ألوف الأطنان من الوقود السائل، وكلّها تحترق في وقت قصير جداً من أجل أن تنطلق المركبة.

كان إنسان جاهلاً بالفيزياء والكيمياء، والفلك، والسرعات، وردود الفعل والحركات والسكنات، وهو جاهل بكل هذه العلوم، ويريد أن يسفّه آراء العلماء بهذا الموضوع، فهل هذا معقول ؟ لا، لن يُقبل، ولن يُعقل أن يكون الإنسان جاهلا، ثم يكون حَكمًا أو وصيًا على علماء كبار؟.

فنحن مشكلتنا قبل أن تقول: هذه لم تعجبني، وهذه القضيّة غير واقعيّة، وهذه غير معقولة، قبل أن تقول فهل درست الإسلام ؟ هل فهمت القرآن ؟ هل اطلعت على السُنّة النبويّة المطهّرة ؟ فأنت معلوماتك نُتَف، أخطر شيء في الحياة نصف العالِم، قرأ عددًا من المجلاّت، وعددًا من المقالات، وسمع حكايات وأقاصيص مهزولة، ثم يجعل من نفسه شيخ الإسلام، فأنت ليس لديك معلومات دقيقة، فقبل أن تنتقد، قبل أن تهاجم، قبل أن تقترح على الله عزّ وجل، قبل أن تقول: هذا غير واقعي، غير منطقي، قبل أن تقول: هؤلاء، لا بدّ من أن تتعلم، قال تعالى:

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ الّذِينَ آمَنُوا)

فهل من الممكن لإنسان يقرأ عددًا من المجلات الطبيّة أن يصير طبيبًا ؟ إن هذا ليس ممكنًا، فالطبيب درس دراسة منهجية، درس السنة الأولى الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، وقضى سنة بالتشريح الوصفي، وسنة بعلم الأمراض، وسنة بعلم الأدوية، وسنة بالمعالجة السريريّة، وسنة يدخل تجريبات عمليّة، سبع سنوات، ثم ليصبح طبيبًا يحتاج إلى اختصاص، فهل من الممكن لإنسان يقرأ فقط مجلات طبيّة، ويجلس مع عدد من الأطبّاء ثم يدّعي أنه صار طبيبًا ؟ فهل يعقل هذا الشيء؟

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ)

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ

أساس تعلّم الإنسان التواضع، نصف العالِم مشكلته كبيرة جدًا، لا هو عالِم فيفيد من علمه، ولا هو جاهلٌ فيتعلّم. والآية دقيقة:

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ)

خطورة استخدام العقل:

المجادلة ؛ إنسان لديه فكر، وعَنْ الفكر قلت لكم مرّة: إنه سلاح خطير، جهاز بالغ التعقيد، هذا الجهاز إما أن يرقى بك إلى أعلى عليين، وإما أن يهوي بك إلى أسفل سافلين، كآلة طبع ملوّنة ثمنها مليون ليرة من الممكن أن يستخدمها الإنسانُ استخدامًا رائعًا جداً، فيجمع منها أموالاً طائلة، ويلمع اسمه في الحياة، ومن الممكن أن يُزوّر عليها عملة تودي به إلى السجن، وهي هي الآلة، هكذا العقل البشري ممكن أن يقودنا إلى أعلى درجة من التألّق والسعادة، وممكن إذا استخدمناه لغير ما خلقه الله عزّ وجل أن يهوي بنا إلى الشقاء.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19))

(سورة المدثر)

إذاً: فنحن قبل أن ننتقد، قبل أن نَرُدّ الحقائق، قبل أن نرفض، قبل أن نتفلسف لابدّ من معرفة هذا الدين العظيم، بدءاً بقرآنه الكريم، ومروراً بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وانتهاءً بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا علمت عندئذٍ تتحجّم، فهؤلاء.

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ)

لابد من الحُجة والسلطان العلمي:

الحجّة سلطان، فالحجّة هي كلام مقنع، ولكن أحياناً تكون مثلاً صامتًا، يواجهك شخص يغلي ويفور كالمرجل، فتتكلّم معه بكلمة يسكت، ويقنع، لمصلحته، فالحجّة قوّة، الله عزّ وجل سمّاها حجّة وسمّاها سلطانا.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 83)

وسمّاها سبحانه وتعالى السلطان.

(بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

التواضع من لوازم العلم:

هم لمْ يتعلّموا فكيف يناقشون ؟ الإنسان يناقش إما بحجّة، أو بعلم، أو بكتاب منير، فلا كتاب منير لديه، ولا علمٌ ولا حجّة، ومع ذلك يناقش، لأن المناقشة لا تكلِفه شيئًا، بالعكس تعمل له نوعا من الوجاهة في المجتمع، وأنه إنسان حر لا يقبل كل شيء بداهةً، ولكن لو عرف عظمة هذا الدين لصار أمامه كالطفل الصغير، والعالِم الحق كلّما ازداد علمه تواضع، وكلّما قلّ علمه تكبّر، والعلاقة بين الكِبر والعلم علاقةٌ عكسيّة، يزداد الكبر مع قلة العلم، ويزداد التواضع مع وفرة العلم، يقول الإمام الشافعي: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "**، ويقولون: **" يظل المرء عالِماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد عَلِم فقد جَهِل".**

حينما يظن الإنسان أنه عالِم فهو جاهل، وأجمل كلمة تقال: فلان طالب علم، لا تقل: عالِم لأن العالم هو الله عزّ وجل، كلمة عالِم ثقيلة، فقد تجده يقول: أنا من علماء دمشق، ليقُلْ: أنا من طلاب العلم، لأنك قد عرفت شيئاً، وغابت عنك أشياءُ.

قل لمن يدّعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

* * *

التواضع من لوازم العلم، والتكبّر من لوازم الجهل.

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آَمَنُوا)

فلو أردنا أن نوضّح هذه الآية بمثل لقلنا: إنسان جاهل يجلس بين علماء أفاضل ـ في أي اختصاص ـ هم يتكلّمون، وهو يردّ عليهم، وينتقد كلامهم بلا دليل، وبلا حجّة، ولا برهان، أليس هذا التنطّع مدعاة للاشمئزاز والاحتقار ؟ فالسكوت مناسب جداً له، فربنا عزّ وجل قال:

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ)

إنسان جاهل لا يعرف شيئًا، يريد أن يدخل في موضوعات دينيّة كبرى، يدلي برأيه السخيف، وينتقد، ويجعل عقله هو الحكم في كل قضيّة، هذا الشيء مستحيل، فهذا يكسبه مقتاً عند الله، ومقتاً عند المؤمنين، لكن التواضع، والتعلّم هذا شيء من صفات الإنسان الكامل، لذلك قال سيدنا علي: **<< قِوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم>>.**

من لوازم العالِم أنه يستعمل علمه، من لوازم الجاهل أنه يتواضع، ويقبل على التعلّم **<< عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالِم علمه، واستنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغنيّ بماله، وباع الفقير آخرته بدنيا غيره فقد اختل كل ميزان وتاه كل عقل >>**. لذلك:

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

1 ـ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ:

أولاً:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[مسلم]

لماذا ؟ لأن الكبر يتناقض مع عبوديّة الإنسان لله عزّ وجل، وكل إنسان نازع الله الكبرياء قصمه الله، فمن الممكن للحليب أن يتحمّل ماءً من دون أن تغشّه، فلو أراد أحد أن يضيف ماءً له لجاز، أمّا أن يضع معه زيتا فقد فسد، ويجب أن يلقى في القمامة، أما الكبر فمهما كان قليلاً فهو مرفوض، والإنسان مهما كان كِبْرُهُ قليلاً يحجبه عن الله عزّ وجل، لأن كبره حجابٌ بينه وبين الله عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

2 ـ العلاقة بين الكبر والتجبُّر:

كيف هناك علاقة بين الإسراف وبين الارتياب، هناك علاقة بين التكبُّر والجبروت، فالمتكبّر إذا بطش دمّر، قال تعالى:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ(130))

(سورة الشعراء)

فالتجبُّر ليس ظلماً فقط، بل هو ظلم، مع كبر، مع عنجهيّة، مع تدمير، مع إيقاع الأذى الشديد، هذا هو التجبُّر، وأساسه التكبُّر، والمؤمن بريء من التكبُّر والتجبُّر، والله سبحانه وتعالى قهر كل الجبابرة بالموت سبحان من قهر عباده بالموت والإنسان مهما كان عالياً في الأرض فلابدّ من أن يموت، كل

مخلوقٍ يموت، ولا يبقَ إلا ذو العزّة والجبروت، والليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر، وسبحان من قهر عباده بالموت، فالمتكبّر والجبّار يجولان جولاتٍ ثم يزولان، ويقصمهما الله عزّ وجل، أما المؤمن فإنه ينمو، كلّما ازداد عمره ازداد مكانة ورفعة، لأنه متواضع، وبالتواضع تأخذ أعلى درجة.

انظر إلى الأكحال وهي حجارةٌ   لانت فصار مقرٌها في الأعين

* * *

الحجر عندما لان أصبح يوضع في العين، والكحل أساسه حجر.

ما لي سوى فقري إليكَ وسيلة   فبالافتقار إليك فقري أدفعُ

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة   فإذا رددتَ فأيّ بابٍ أقرعُ

* * *

علامة المؤمن التواضع، بالتواضع يعلو، والإنسان غير المؤمن متكبّر، وبالتكبُّر يَسْفُل، فربنا عزّ وجل يرفع المتواضعين، ويقصم العتاة والجبّارين. إذاً:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

وبعد تأملوا، وانظروا إلى هذا الموقف السخيف:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ(36)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)

من مواقف فرعون السخيفة:

فرعون يريد الوصول إلى إله موسى:

قد تجد أشخاصًا متكبّرين، جبابرة، فانظر أين صاروا ؟ انتهوا بالتعبير البسيط إلى مزبلة التاريخ، تجدهم إذا ذُكِروا فالنفوس ضاقت بهم، والعقول مجّت سيرتهم، وأقوالهم، وأفعالهم، أما المؤمنون الصادقون فسيرتهم تُعَطِّر المجلس، انظر لهذه السخافة، إنه إنسان بل عبد ضعيف يريد تعمير بناء، قال:

(فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا)

فالإنسان لا يكون بأعلى درجاته إلا وهو مؤمن، لا تراه منطقياً إلا وهو مؤمن، لا تراه في كمالٍ رائع إلا وهو مؤمن، أما مع الكبر، والبعد، والانقطاع، والإسراف، والتجبُّر تراه في أدنى دركاته، لذلك

الإنسان يعلو ويهبط، ويكبُر ويصغر، يرتفع ويسقط، بالإيمان ترتفع، بالإعراض عن الله تسقط، بمعرفة القرآن ترقى، بالبعد عن كتاب الله تسقط.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ(36)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)

فرعون وآله في عذاب القبر غدوًا وعشيا:

الله سبحانه في آيات أخرى قال عنهم:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46))

(سورة غافر)

هذا هو البرزخ، لقد مضت ستة آلاف سنة بيننا وبين فرعون، اضربها بثلاثمائة وخمسة وستين يومًا، ضرب اثنين غدواً وعشياً والذل والهوان إلى الأمام.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46))

أما المؤمن وهو في قبره يغدو عليه قبرُه روضةٍ من رياض الجنان.

إن شاء الله في الدرس القادم ننتقل إلى الآيات التالية:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(39)مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 38 - 42
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة غافر، ومع الآية الثامنة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ

الذي آمن هو مؤمن آل فرعون، موضوع القصة في هذه السورة، هناك وقفةٌ متأنيّة، عند كلمة:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ)

1 - لابد للناس أن يتبعوا هدى الله:

من الذي ينبغي أن يتبعه الناسُ ؟ هذا سؤال كبير، إذا كانت لديك آلةٌ بالغة التعقيد، عظيمة النفع، كثيرة الرزق، إذا تعَطّلت هذه الآلة تبحث عمن يحسن إصلاحها، ويحسن تشغيلها، إذا أصابها خلل عمن تبحث ؟ الحقيقة أن الإنسان بالفطرة إذا كانت عنده آلة بالغة التعقيد وأصابها خلل يسأل صانعها، يسأل الخبير، لذلك قال تعالى:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

لو كان لك صديق تحبه حباً لا حدود له، وعندك جهاز حاسب بالغ التعقيد تعطّل، هل تسأله لإصلاحه؟ لا، مع أنك تحبه حباً لا حدود له، بل تسأل الصانع، تسأل الشركة الصانعة، تسأل الخبير.

فهناك سؤال: أنا كإنسان من الذي ينبغي أن أتبعه ؟ مَن ؟ أيعقل أن أتبع إنساناً ضالاً ؟ فأضل معه، أو أتبع إنسانًا منحرفًا فأنحرف معه، أو إنسانًا جاهلاً فأجهل معه، من الذي ينبغي أن أتبعه ؟ لا تستطيع أن تتبع إلا هَدْى خالقك، ولأن الله سبحانه وتعالى رحيمٌ بخلقه، خلق الخلق وأرشدهم.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من الآية 35)

خلق السماوات والأرض ونورها بهديه.

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: من الآية 30)

جاعل اسم فاعل يقتضي الاستمرار، فلا يعقل أن تخلو الأرض من الحق، لا يعقل أن تخلو الأرض من الهدى، لا يعقل أن تخلو الأرض من خطاب السماء، بطولتك أيها الإنسان أن تصل إلى خطاب السماء، أن تصل إلى هدى الله عزّ وجل، أن تصل إلى ما أنزله الله على الأنبياء والمرسلين، إذاً لا يُتّبَع إلا الرسل الذين جاءهم الوحي من عند الله، هذا بادئ ذي بدء.

2 ـ اتباع العلماء العالمين بشرع الله:

من هم العلماء ؟ هم الذين نابوا عن الرسل في تبليغ الحق، العالم ليس له وجود إلاّ أن يَشِفُّ عن شريعة الله، يشف عن رسالة الأنبياء، ثم ينقُل لك بأمانةٍ، وهذه قد سميت أمانة التبيين ـ أمانة التبليغ ـ ينقل لك بأمانةٍ ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً قال تعالى:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

خالق الكون ينهاك عن أن تتبع إنساناً تائهاً، إنساناً شارداً، إنساناً ضالاً، إنسانا غافلاً.

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

بالمقابل:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

3 ـ أهمّ رجلٍ في الحياة هو الذي يدلّك على الله:

بالمناسبة أيها الإخوة، نحن كأشخاص في حياتنا رجال كثيرون، في حياة كل واحد منكم آلاف الرجال، رجل عِلمُهُ علمٌ عصري، رجل علمه رياضيّات، رجل علمه فيزياء، رجل علمه لُغة، إنسان خاط لك الثياب، إنسان عالجك من المرض، ففي حياتك آلاف الرجال، لكن أخطر رجل في حياتك هو الذي يدلُّك على الله، لأن هؤلاء الرجال مهما كثروا تنتهي مهمّتهم عند الموت، الذي خاط لك الثياب تنتهي مهمته عند انتهاء الخياطة، الذي عالج زيداً من مرضه تنتهي مهمته عند موت الإنسان، فعند الموت تنتهي مهمة كل الرجال الذين كانوا في حياتك، إلا رجلاً واحدًا هو الذي دلّك على الله، فآثار هدايته تبدأ بعد الموت.

أخطر إنسان في حياتك هو الإنسان الذي تهتدي به إلى الله، فإن كان على حق فقد نجحت وأفلحت،

وإن كان على باطل، وقد توهمت أنه على حق، وهو ليس على حق فقد ضحّيت بسعادتك الأبدية.
اعلمْ أنّه لا يُتَّبع إلا الخبير، والله وحده هو الخبير، لا يتبع إلا الخالق، لا يُتبع في الآلات إلا الصانع، والخالق جلّ جلاله أنزل كتباً على رسله، ونحن أمة خاتم النبيين، وهذا الكتاب هو كتاب الله عزّ وجل، إذاً الاتباع للنبي عليه الصلاة والسلام، ولمن يَشِفُّ عن دعوة النبي بأمانةٍ مطلقة.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ)

الحقيقة هذا الذي يقول لك: اتبعني، وهو على الحقيقة الجلية والمحجة البيضاء فإنه يدعوك إلى اتباع منهج الله عزّ وجل، والدليل:

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

4 ـ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ

إلى الله، سبيل الرشاد قالوا: سبيل الهدى، وقالوا: سبيل الجنة، لأن الجنة هي مطمح الآمال، ومحط الرحال، ومبتغى كل كائنٍ حي.

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

أنت لماذا خُلقت ؟ للجنة، لماذا خلقنا الله عزّ وجل ؟ ليسعدنا في جنةٍ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، فأي إنسانٍ يطبق منهج الله فهذا المنهج هو سبيلٌ إلى الجنة، سبيل على المجاز.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

من هنا يجب أن يفهم الإنسان أن أخطر شيءٍ في حياته الدين، هناك أشياء كثيرة لو أخطأت في اقتنائها فليست مشكلةً، فالرجل إنْ لم يوفق في شراء البيت فالقضية مؤقتة، لم يوفق في اختيار الزوجة فمن الممكن إصلاحها، والقضية كذلك مؤقتة، وما دام الأمر دنيوياً فهذه النتيجة الإيجابية أو السلبية يزول أثرها عند الموت، أفلح في شراء هذا البيت، أفلح في الزواج من هذه المرأة، أفلح في تأسيس شركةً كبيرة، فلاحه أو إخفاقه ينتهي عند الموت، ولكن الشيء الخطير ما بعد الموت، إذًا المهم الاتباع، فاتباع إنسان يدلك على الله أهمّ شيءٍ في حياتك، ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من الآية 108)

يجب أن تدعو على بصيرة، أو أن تتلقى العلم على بصيرة، والبصيرة الدليل والتعليل، هذا الشيء حرام، وهذه الآية تحلل وتحرّم، وهذا الحديث ينهى أو يأمر، والله عزّ وجل يقول:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: من الآية 59)

إلى مَن تُردُّ أحكام النزاعات ؟

(وَأُوْلِي الأَمْرِ)

هم العلماء والأمراء، قال سبحانه:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة النساء: من الآية 59)

تنازعتم معهم.. أحرام أم حلال ؟... إلخ

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء: من الآية 59)

إلى الله: إلى كتابه، رسوله: سنته.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

الرشاد سبيل الجنة، سبيل السعادة الأبدية، السبيل المُفضية إلى الهدف الكبير الذي خلقتم من أجله.

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ

1 ـ الدنيا متاعٌ عابر زائل:

فالمتاع الشيء الطارئ، الشيء العابر، الشيء الذي ليس له أثر، لو أن إنسانًا فرضاً قام بنزهة، وسُرَّ بها، لكن هذه النزهة ليس لها مردود في المستقبل، أما لو حَصّل شهادة عليا، بهذه الشهادة يستفيد، لو أسس عملاً، بهذا العمل يستفيد، بعض الأعمال لا مردود لها، ولا أثر لها، فالدنيا متاع، أيْ لذةٌ عابرةٌ تنقضي، كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام:

((الدنيا تغر وتضر وتمر))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

لذةٌ عابرة نهانا الله عزّ وجل على أن نغتر بها، قال تعالى:

(فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

(سورة لقمان: من الآية 33)

معنى:

(فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أيْ لا ترونها بحجمٍ أكبر من حجمها، شأنها قليل، وشيكة الانقضاء، سريعة الزوال، الموت على الأبواب، و**" ما من بيتٍ إلا وملَكُ الموت يقف على بابه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت، فغشيته سكراته، فمِن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثيابها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: فيمَ الفزع ومِمَ الجزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً، ولا قرّبْتُ له أجلاً، وإنّ لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم، ولبكوا على أنفسهم ".**

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

فلو أنّ واحدًا أكل أكلة، لدقائق وانتهى الأمر، ولو أن ضرساً آلمه، فهل لذّة الطعام السابقة تنسيه هذا الألم الذي ألمّ به ؟ الطعام متعة عابرة، وكل متع الأرض عابرةٌ كذلك، ولكن العاقبة لما بعد الموت، لذلك فُرّقَ بين السعادة واللذّة، السعادة متنامية ومستمرة، أما اللذة أولاً فهي عابرة، وثانياً تعقبها ندامة، وتعقبها كآبة، هذه هي اللذة، لذلك مَن عرف الله عزّ وجل زهد فيما سواه، من عرف حقيقة الدنيا مال إلى الله سبحانه، ولقد قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

الله عزّ وجل أثبت لأهل الدنيا أنهم يعلمون ظاهرها، لأنّ الإنسان عندما يطّلع على بعض مظاهر الترف، ومظاهر الدنيا عند أهل الدنيا، يأسِره ذوقهم، وأناقتهم ودقتهم، ومصنوعاتهم الراقية، وقد تستميله هذه المظاهر، وينشغل بها عن الله عزّ وجل الذي أثبت لهم ظاهرها، ولم يثبت لهم حقيقتها، فهم ما عرفوا حقيقة الدنيا البتة.

2 ـ طبيعة الدنيا كبَد ومشقة:

حقيقة الدنيا أنها دار عمل، حقيقة الدنيا أنها دار إعداد، حقيقة الدنيا أنها دارٌ تُكتسب بها أهلية لسعادة أبدية، حقيقة الدنيا كما جاءت في قول النبي عليه الصلاة والسلام " إن هذه الدنيا دار التواء "، فلا تجد إنسانًا أموره تامة، لحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله، عنده زوجةٌ ممتازة، لكنّ أولاده ليسوا على ما يرام، أو بالعكس فأولاد أبرار وزوجته ليست على ما يرام، عنده زوجةٌ وأولاد قرة عين لكن دخله ليس على ما يرام، أو أنّ دخله جيد، وفي جسمه علة تنغِّص حياته، لأن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى الدنيا أن تكدري، وتمرري، وتضيقي، وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي، أما الكافر فقد رضي بالحياة الدنيا، واطمأن لها، وهو عن آيات ربه معرض.

(إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7))

(سورة يونس)

أخطر شيء في الدنيا أن تركن إليها، أن تستمرئها، أن تخلد إليها، أن تحبها، أن تؤثرها على طاعة الله عزّ وجل، لذلك النبي قال:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح))

[ورد في الأثر]

مشحونة بالمتاعب، مشحونة بالمصائب، مشحونة بالامتحانات، مشحونة بالبلاء، أساس الدنيا قائم على السعي، أساس الدنيا قائم على الكدح.

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

فمن أجل أن يصل الشاب إلى بيتٍ صغير، وإلى زوجةٍ متوسطة الحال، وإلى دخلٍ يكفيه نصف الشهر، يعاني الأمرّين نكدًا وكدحًا، هذه الدنيا مبنية على الكدح.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

أيْ أنّ طبيعة الحياة تَكَبُّد المشاق، ومُرُّ المذاق، وشدة العناء. فهذا مؤمن آل فرعون:

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

فيها تكبُّد للمشاق، فيها كَدْح، أمدُها قصير، فهل من المعقول أن يقضي الإنسان لرحلة عشرين يومًا من الإعداد بينما الرحلة حقيقة لمدة خمسة أيام ؟ الإنسان هكذا في الدنيا، لكي يقدر أن يقف على قدميه يحتاج أربعين سنة، فيا ترى متى الأجل ؟ معترك المنايا بين الستين والسبعين، وقلّ مَن يجوز ذلك، الآن ما أكثرَ مَن يَقِلُّ عن ذلك، ضغوط الدنيا والهموم، لأن من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً.

الضغوط على الإنسان تؤثر على قلبه، وأكثر أمراض القلب أساسها الضغط النفسي، لكن الحياة أمدها قصير، الإعداد لها أكبر بكثير من أمدها، إذاً الدنيا فيها كدح، الدنيا فيها تكبُّد، الدنيا مبنية على السعي المضني، أما الآخرة:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31))

(سورة فُصِّلت)

الآخرة مبنية على العطاء بالطلب فقط، اطلب تُعطَ، وإلى أبد الآبدين، لا فقر فيها، ولا مرض فيها، ولا قلق فيها، ولا موت فيها، ولا مشاحنة زوجية، ولا دخل قليل، ولا تجارة بائرة، ولا بضاعة كاسدة، ولا ظلامات، ولا منغصات، سعادةٌ ما بعدها سعادة:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري]

هذه الآخرة، لذلك الدنيا:

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

أيْ متعٌ قليلة، ومتاعب كثيرة، هكذا وصفها النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء))

[ورد في الأثر]

لأنه مؤقّت.

كم من إنسان أشاد بيتاً لا يوصف بروعته، وما سكنه ؟ كم من إنسان حصّل شهادةً، ولم ينتفع بها ؟ كم من إنسان سافر ولم يعد ؟ كم من إنسان دخل بيته ولم يخرج ؟ نام ولم يستيقظ، تزوّج ولم يدخل، الدنيا تأخذ الإنسان على حين غِرّة، لذلك كثير من الناس ضحكت عليهم الدنيا، وأما المؤمن فقد ضحك عليها، عرف قيمتها، وعرف شأنها، وعرف قصر أمدها، وعرف أنها زائلة، وأنها عابرة، وأنها مؤقّتة، وعاش كمسافرٍ استظل بشجرة، وعما قليل يرحل، فإذا عرف الإنسان أن الدنيا قصيرة سعد بها، إذا عرفها أنها مديدة، وأنها هي كل شيء شقي بها، وهكذا قال النبي الكريم:

((إن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

[ورد في الأثر]

وقال:

((فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، جعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضَ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

إنّ أروع ما في حياة المؤمن أنه عرف حقيقة الدنيا، الدنيا للعمل الصالح، إن عرفت الله بها، وعملت الصالحات، لا تندم على مغادرتها، لأن الله عزّ وجل قال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

لا خوف عليه لما هو قادمٌ عليه، ولا يحزن على ما فاته منها. وقد وُصف الصديق رضي الله عنه بأنه لم يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

أنت مؤمن يجب أن تعرف حقيقة الدنيا لئلا تغترّ بها، لئلا تظنها بحجمٍ أكبر من حجمها، فأنا أروي حكاية تقليدية تعبّر عن حقيقة الدنيا: إنسان كان يعمل في محل تجاري، وكان يحب إزعاج الآخرين، فكان يكنس هذا المحل، ويضع قمامته في عُلبة أنيقة ويلفها لفة رائعة بأوراق هدايا، وشريط أحمر ـ ويضعها على الرصيف، فيأتي مارٌّ يظنها شيئاً ثميناً، يظنها تحوي قطعة ذهبية أو ساعة، أو قِطعة

ثمينة، فيأخذها، ويمضي بها مسرعاً، وهو يتبعه، بعد مئة مترٍ تقريباً يَفُكُّ الشريط الحريري، بعد مائة مترٍ أخرى يفك الورق الأنيق، ثم يفتح ليرى الساعة الذهبية فإذا هي قُمامة المحل التجاري.

والله هذه الحكاية تنطبق على الدنيا أشد الانطباق، في بدايات الحياة يظن الإنسان أن المال هو كل شيء، يسعى له بأي طريق، بأي أسلوب، من طريق مشروع أو غير مشروع، في وسط حياته، وفي كهولة عمره يرى المال شيئاً، ولكن ليس كل شيء، أما إذا اقترب من النهاية يراه ليس بشيء، ويرى طاعة الله هي كل شيء، فالبطولة هذه الرؤية الأخيرة أن تراها في مقتبل الحياة فتندفع لاقتناصها، وعند الموت ترى الحقيقة.

3 ـ لابد من الإيمان في الوقت المناسب:

وأنا أردِّد دائماً أيها الإخوة: علاقتك بالإيمان، أو مقولة الإيمان، أو معادلة الإيمان ليست أن تؤمن أو ألاّ تؤمن، معادلة الإيمان متى تؤمن ؟ معادلة وقت، وليست معادلة قبول أو رفض، متى تؤمن ؟ لا بد من أن تؤمن، ففرعون قمة الكفر آمن، فرعون أسلم:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

لكن بعد فوات الأوان، إذاً كلنا سوف نؤمن، ما أتعس الذي يؤمن على فراش الموت، ما أتعس الذي يؤمن بعد الموت، ما أتعس الذي:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

ما أتعس الذي يعض على يديه.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

ما أتعس الذي:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

4 ـ لابد من معرفة حقيقة الدنيا:

فيا أيها الإخوة الكرام، مؤمن آل فرعون عرف حقيقة الدنيا، وأنتم أيها المؤمنون لا بد من أن تعرفوا حقيقة الدنيا لئلا تجذبكم إليها، لئلا تستهلككم، لئلا تحتويكم، لئلا يصبح الإنسان في الدنيا مستَهْلَكًا، معظم الناس يستيقظ، يأكل، ثم يذهب إلى عمله، ثم يعود لينام، وتعود الكرة، يستيقظ، يأكل، إلى أن تأتيه مشكلة في صحته، قاضية، عناية مشددة، عظّم الله أجركم، قضى و مات، الله يرحمه، لكن لِمَ كان هذا غافلاً ؟ أين معرفته بالله، يقول لك: لا وقت لي، احضرْ هذا المجلس، فيجيبك: والله ليس عندي وقت، أنا مثقل بالأعمال، إنسان ناجح بعمله جداً، هذا يسير بطريق مسدود، كل الذي يُجَمِّعُهُ في الدنيا يتركه عند الموت، وهناك أدلة كثيرة جداً.

الأغنياء الكبار حينما يموتون ماذا يأخذون معهم ؟ انظر إلى بيتٍ رائع أنشأه غنيٌّ، ومات، وغادر الدنيا، أين هو الآن ؟ تحت الثرى، تحت التراب، هذا البيت يستمتع به أهله، لذلك **" يا أهلي يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي ".**

أيها الإخوة الكرام، ينبغي أن تضحكوا على الدنيا، لا أن تضحك عليكم الدنيا، والإنسان حينما يأتي إلى الدنيا أهله يفرحون، ويزغردون ويحتفلون، وهو يبكي، أكثر وقت الطفل الصغير يبكي، تارةً يريد طعاماً، تارةً يكون مريضا، تارةً يريد أن ينظّف، هو يبكي دائماً، وأهله فرحون، لكن حينما يأتيه ملك الموت أهله يبكون، فإذا كان بطلاً فعرف الله وعبده حقًا فليضحك في هذه الساعة، إذا كان قد عرف الله في حياته، وأعد لهذا اليوم عُدّتَهُ، وعمل الأعمال الصالحة، عندئذٍ يضحك، ويبكي من حوله، أما أن يبكي ومن حوله يضحكون فهذا شيء طبيعي، إنّ البطولة أن تضحك ومن حولك يبكي.

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26))

(سورة يس)

هذه السعادة الكبرى أن تغادر الدنيا، وقد رضي الله عنك، أن تغادر الدنيا، وقد عرفت الله في الدنيا، أن تغادر الدنيا، وقد أطعت الله في الدنيا، أن تغادر الدنيا، وقد سَخَّرْتَ حظوظ الدنيا لطاعة الله عزّ وجل، أعطاك الله صحة أطعت الله بها، أعطاك مالاً أنفقته في سبيل الله، أعطاك علماً بذلته، أعطاك وجاهةً أنفقتها في نصرة الضعيف.

إذاً: دققوا وتبصّروا، فالمؤمن الحق ينبغي أن يعرف حقيقة الدنيا.

مؤمن آل فرعون قال:

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

المستقَرُّ، مَحَطُّ الآمال، منتهى الغايات، حيث لا قلق، ولا خوف، ولا حُزن.

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أبي هريرة]

الدخول في وعد الله من أسباب السعادة:

سألني مرة أخ: كيف تقول: إن المؤمن سعيد في الدنيا، وهو يعاني كما يعاني كل الناس فيها ؟ كل شيء يعانيه الناس فالمؤمن يعاني مثلهم، فمن أين له السعادة ؟ ضربت له مثلاً وقلت له: لو أن إنساناً فقيراً جداً، فقره مدقع، عنده أولادٌ كثيرون، دخله قليلٌ جداً، بيته بالأجرة، عليه دعوة إخلاء، له عمٌّ يملك أكثر من سبعمائة مليون، وهو قابضٌ يده، وليس له أولاد، وتوفي هذا العم في حادث سير فجأةً، أليست كل هذه الثروة الطائلة لعمه ستنتقل إليه ؟ نعم، قبل أن يقبض أي مبلغ قد يمضي سنة أو سنتان في إجراء معاملات حصر الإرث وضريبة التركات، لماذا في هذين العامين يكون من أسعد الناس، مع أنه لم يقبض قرشاً واحداً، ولم يأكل أكلةً واحدةً زيادة عن وضعه السابق ؟ لأنه دخل في الوعد، إذْ شعر بأن هذا الوعد العظيم منّاه أن يملك سبعمائة مليون، فهذا الوعد يمتص كل متاعب السنتين، كلما رأى بيتاً فخمًا يقول سأشتري مثل هذا لبيت، سأقتني مثل هذه المركبة، سأفعل كذلك.

بصراحة فالمؤمن يعاني ما يعانيه الناس، وهو مواطن مع المواطنين، كائن مع هؤلاء الذين حوله، لكن المؤمن وعدَه الله بالجنة، هذا الوعد العظيم من خالق الكون يمتصُّ كل متاعب الحياة، يقول لك: لن تطول الحياة، وعْدَ الله عزّ وجل لا يخلف الله وعده، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

إذاً: في الدنيا أحد أسباب السعادة مما يجعله يزهد فيها، و ينصرف عنها، ذلك أن المؤمن موعود من قبل الله عزّ وجل بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، أحد أسباب السعادة في الدنيا أنه يطبّق منهج الله، يطبق تعليمات الصانع، فهو على موعد يحفزه على العمل الدؤوب.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

لأن الله عزّ وجل حينما خلق الدنيا جعل لها نُظُمًا، وقنّن قوانين، فغضُّ البصر يسعد الإنسانَ في البيت، صدقه وأمانته يرفعانه عند الناس، فكل طاعة لله عزّ وجل فيها بذور نتائجها الإيجابية، وكل معصية

فيها بذور نتائجها السلبية، إذاً: أحد أسباب السعادة في الدنيا تطبيق منهج الله، ترقُّبُ إنجاز وعد الله عزّ وجل، انصراف الإنسان عن الدنيا وزهده فيها، وهذا كله من دواعي سعادته.

(وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

المكان المستقرّ الذي لا يزول، قرّ الشيء أي سكن، فالدنيا حركة طائشة، أما الآخرة دار القرار.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا)

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

هنا تطالعنا نقطة دقيقة جداً، أيْ أنك إذا اعتقدت أن كل سيئةٍ تعملها فلا بد من تعاقب عليها فإذا اعتقدت ذلك فلن تعمل سيئة.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

الإنسان متى يفعل السيئات ؟ إذا ظن أنه لن يحاسب عليها، أو أنه ينجو من عقاب الله، فإذا اعتقد عقيدةً زائغة فاسدةً مفادها أن المذنب قد ينجو فقد شك بعدالة الله عزّ وجل، لكن:

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا)

ولحكمةٍ بالغةٍ قد يجعل الله العقاب من جنس الذنب تعليماً للخلق، المتكبّر يهينه الله، المُسرف يفقره الله، المتطلع إلى غير ما يحل له يشقيه الله فيما يحل له، وهكذا.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ

ما معنى بغير حساب ؟ أي مهما عملت من عمل صالح في الدنيا فليس هذا العمل ثمن جنة عرضها السماوات والأرض، العمل الصالح في الدنيا ليس ثمن الجنة، ولكنه مفتاح الجنة.

من الممكن أنّ بيتًا ثمنه ثلاثون مليونا يكون ثمن مفتاحه ست عشرة ليرة، ثلاثون مليونا ثمن البيت، وست عشرة ليرة ثمن مفتاحه، فكل أعمالك الصالحة ليست ثمناً للجنة، ولكنها سبب لدخول الجنة، فرقٌ بين أن تملك المفتاح، وهو السبب وبين أن تملك الثمن، لذلك عطاء الله لا يقدّر بثمن، عطاء خالق الكون، خالق الكون إذا أعطى أدهش، فالإنسان يعطيك شيئًا ينتهي أثره عند الموت، لذلك فالله عزّ وجل لم يسمّ عطاء الدنيا عطاءً، قال:

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15) ﴾

(سورة الفجر)

هذه مقولته، ليس هذا هو الإكرام.

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلَّا ﴾

(سورة الفجر)

ربنا عزّ وجل نفى هذا المعنى، وردعنا عنه، كّلا، ليس عطائي إكراماً، إنه ابتلاء، وليس حرماني إهانةً، إنه دواء، فالإنسان إذا رأى أهل الدنيا وهم ينعمون في دنياهم، وظن أنه محروم فهو لا يعلم شيئاً، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطى الملك لعدوه فرعون، وأعطاه لسليمان نبيه الكريم، إذاً عطاء الدنيا ليس مقياساً، أعطى المال لصحابةٍ أجلاء، وأعطاه لقارون، إذاً عطاء الدنيا ليس مقياساً، يعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، ولكِنَّه يعطي العلم والحكمة لمن يحب.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22) ﴾

(سورة يوسف)

فأنت ابحث عن شيء ثمين، إن نلته من الله كان هذا الشيء علامة حب الله لك.

إذاً:

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

انظر إلى صغر ما قدمت، ثم انظر إلى عظم الأجر والجزاء:

فمن يعرض عليك هذا العرض: هات ليرة واحدة وخذ مليارًا ؟ ليس هذا العطاء معقولاً، إذًا انظر إلى صغر ما قدمت، ثم انظر إلى عظم الأجر والجزاء، ماذا قدمت أنت ؟ غضضت بصرك عن محارم الله، حضرت مجالس العلم، صليت، صمت وحججت، تزوجت، وأكلت وشربت، ولكن كنت وفق الشرع، فلهذا الانضباط، ولهذه الطاعة التي استمرت لسنواتٍ معدودة أورثتك جنةً عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين ؛ إنه ثواب المصدقين، وثقوا بالله فأوصلتهم ثقتهم به خالقًا و إلهًا وربًّا:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20) ﴾

(سورة الإنسان)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أبي هريرة]

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17) ﴾

(سورة السجدة)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

هذه البطولة.

والله أيها الإخوة، من عرف حقيقة الدنيا عمل ليلاً ونهاراً أعمالاً صالحةً يرجو بها رحمة الله، من عرف حقيقة الدنيا ما غفل عن الله لحظة، من عرف حقيقة الدنيا فإنه يستوي عنده التِبْرُ والتراب، فإذا كان المؤمن آمنًا في سربه، معافىً في جسمه، عنده قوت يومه، فكأنما مَلَك الدنيا بحذافيرها. ماذا في الدنيا فوق ذلك ؟ أن تكون آمناً من قبل الله عزّ وجل، لا ترتكب معصية تستوجب عقاب الله، وتكون معافىً في جسمك، وعندك قوت يومك، فكأنما ملكت الدنيا بحذافيرها.

أحد الملوك ذات مرة سأل وزيره: مَن الملك ؟ الوزير أحرج واضطرب، ما هذا السؤال ؟ يسأل الملك مَن هو الملك ؟ فقال له: أنت الملك، قال له: **" لا، الملك رجلٌ له بيتٌ يؤويه، وزوجةٌ ترضيه، وهو لا يعرفنا ولا نعرفه، إن عرفناه جهدنا في إذلاله، وإن عرفنا جهد في استرضائنا "**، لا يعرفنا، ولا نعرفه، هذا هو الملِك.

فكل مؤمن عرف الله، وعرف منهجه، وطبق أحكامَ منهجه في بيته، فهو والله من ملوك الآخرة، هذا الملك، هذا المُلك الحقيقي، لأنه لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

فلو شاهدت عيناك من حسننا — الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا — خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا
ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً — عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نسمَتْ من قربنا لك نسمة — لَمِتّ غريباً واشتيقانا لقربنا
ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً — عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

***

المؤمن التقي لا يشيخ:

إن الدنيا والله مملة، والإنسان ينتهي بها إلى السأم والضَجَر، يقول لك: مللت، أحياناً تجلس مع واحد متقدم بالسن، تحس بالملل يلقّحه من كل جانب، يشعر أن حياته غدت هامشية، أما المؤمن فإنه لا يشيخ أبداً، هو شابٌ دائماً إلى أن يأتيه الأجل، لأن هدفه كبير، تجده في السبعين والثمانين شابا. أحد العلماء في مصر بلغ مائة وثلاثين سنة، وهو بأعلى درجة من ملكاته العقلية والذهنية، عالم جليل

في الشام تخرج من تحت يده أربعة أجيال، كان يقول للطالب: أنت طالبي، وكان أبوك تلميذي وجدك تلميذي، مات في السابعة والتسعين، وهو بأعلى درجة من النشاط، منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، يا سيدي، ما هذه الصحة ؟ يقول: **" يا بني، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ".**

والله إنّ المؤمن له شيخوخة تضلّ بها العقول، يزداد مكانة، يزداد وعيًا، يزداد إدراكًا ؛ والعياذ بالله إذا أمضى الإنسان شبابه في معصية الله فيُردّ إلى أرذل العمر، تجد أهله يضيقون به ذرعاً، ظله ثقيل، يعافه الناس، ينفَضُّون من حوله.

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[ورد في الأثر]

يا أيها الإخوة الكرام، حينما تتعرفون إلى الله عزّ وجل، وتلتزمون أمره ونهيه، ضمنتم سعادة الدنيا والآخرة.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

فاز.

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

اركلوها بأقدامكم، إنسان من أجل المال يعصي الله عزّ وجل ؟! لا خير في دنيا جاءت على معصية الله، المؤمن كما أقول لكم: يستوي عنده التبر والتراب، أيْ أنّ مائة مليون تقدّم إليه مع شبهة يركلها بقدمه.

والله أخ من إخواننا لا أعرفه، ولكنه أعطاني ورقة، قال لي: سمعت درس الأمانة بجامع العثمان قبل سنة، وبيدي عشرون مليون لجهة، وتوفي صاحبُ هذا المبلغ، ولم يعلم بأن مالَ أبيهم عندي، فذهبت ونقدته للورثة إرضاءً لله عزّ وجل، هذا المؤمن يستوي عنده المائة مليون مع الليرة، المبلغان كبيره وصغيره سيان في جنب طاعة الله عزّ وجل.

إذًا: القضية قضية خطيرة جداً، مصير أبدي، فالإنسان إذا اصطلح مع الله شعر بسعادة كبرى، دخل في السلام ؛ علاقاته مع ربه دخل سبلَ السلام، علاقاته مع من حوله كلها سلام، وحياة المؤمن سلامٌ في سلام.

هذا معنى قوله تعالى:

(يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40))

فأنت لم تقدم ثمن الجنة، بل قدمت سببًا لدخول الجنة، الاستقامة والعمل الصالح سبب، كمن يشتري مفتاحًا بست عشرة ليرة، ويسكن في بيت ثمنه ثلاثون مليونًا، الثمن شيء، والمفتاح شيء، هذا معنى:

(بِغَيْرِ حِسَابٍ (40))

لو الله أراد أن يحاسبك، لما وجدت أنك قد فقدت شيئًا زائدا، كلها عشر سنوات، أو عشرون سنة تبت خلالها لله عزّ وجل، ماذا فعلت ؟ كم فرضًا صليت، وكم شهرًا صمت ؟ كله معدود، بينما الآخرة أبدية من دون حساب، هذا المعنى.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نفسّر قوله:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41))

دعوة إلى النجاة ودعوة إلى النار:

احذروا الدعوة إلى جهنم:

هناك دعوتان، دعوةٌ إلى النجاة من قِبَلِ أهل الحق، ودعوةٌ إلى النار من قبل أهل الدنيا، فإذا قال لك واحد: ضعها برقبتي، غب من الدنيا بقدر ما تقدر ـ هذه دعوة لجهنم ـ أطلق بصرك، تمتع بالحياة ـ دعوة إلى جهنم ـ خذ المال ولا يهمك، حلال على الشاطر ـ هذه دعوة إلى النار ـ آلاف التوجيهات يلقيها الناس بعضُهم على بعضٍ كلها دعوةٌ إلى النار، يقول له: ما زلت صغيراً، التفت إلى شبابك، تمتع بالحياة ـ دعوة إلى النار ـ فانتبه هناك دعوةٌ إلى الجنة، وهناك دعوة إلى النار.

إذا: دعيت إلى أكل المال الحرام فهي دعوةٌ إلى النار، إذا دعيت إلى اقتناص الشهوات من أي طريق فهي دعوةٌ إلى النار، إذا دعيت إلى معصيةٍ فهي دعوةٌ إلى النار، إذا دعيت إلى الدنيا والانغماس فيها فهي دعوةٌ إلى النار.

إذا دعيت إلى معرفة الله، فهي دعوةٌ إلى النجاة أولاً، ثم إلى السعادة ثانياً، إذا دعيت إلى طاعة الله، إذا دعيت إلى أن تقف عند حدود الله، إذا نُهيَت عن عملٍ سيّئ، إذا نهيت عن كسبٍ حرامٍ، إذا نُهيَت عن تجاوزٍ للحدود، فانتبه هناك دعوة إلى النار، وهناك دعوة إلى الجنة، دعوةٌ إلى النجاة، ودعوة إلى الهلاك، دعوة إلى السعادة دعوة إلى الشقاء، وأنت بين دعوتين، ولحكمةٍ بالغةٍ جعل الله الدعاة من الصنفين متوافرين في كلِّ مكان. لا تدقق هذه الكلمة البسيطة: (لا تدقق) دعوةٌ إلى جهنم، لمَ لا أدقق ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

يقول لك: الله غفور رحيم.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

اعلم علم اليقين أن الحساب بالذرات، وهذه آيات قرآنية، فأية دعوة إلى التفلّت، إلى التساهل، إلى كسب المال غير المشروع، إلى اقتناص الشهوات هي دعوة إلى جهنم، يقول لك: يا أخي نحن هكذا ربينا، وهكذا نشأنا، وهكذا أبي علّمنا، فهل أبوك نبي ؟ أبوك شخص من عامة الناس، قد يكون مخطئا، هناك شرع لله عزّ وجل، هناك دعوةٌ إلى النار، وهناك دعوةٌ إلى الجنة، هناك دعوةٌ إلى الهلاك، وهناك دعوةٌ إلى النجاة.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّار)

فإذا وفِّق الإنسان، وحجّب ابنته يجد معارضة، ويجد من يقول: خسارة، إذا أطاعت ربها فهل بذلك خسرت ؟ إنها نجت وربحت.

إنّ الإنسان إذا تعفف عن دخل حرام يَعتَبرهُ الناس مجنوناً، ويقولون له: فرصة سنحت لك اغتنمها وخذها، المال غير مشروع، يُتهم الورعُ بعقله بآخر الزمان، لذلك:

((إن الدين بدأ غريبا، و سيعود غريبا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي))

[كنز العمال عن عمر بن عوف المزني]

قال تعالى:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّار(41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّار)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 41 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث عشر من سورة غافر، ومع الآية الواحدة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ

1 ـ احذر أيها الإنسان الدعوة إلى النار:

أيها الأخ الكريم، أنت في الدنيا بين دعوتين، بين دعوةٍ إلى الجنة، أيْ النجاة من عذاب الدنيا وبلوغ الجنة، ودعوةٍ إلى النار، فأيٌّ إنسانٍ دعاك إلى شيء فقف عند هذه الدعوة ؛ ما مضمونها ؟ ما مصيرها ؟ واعلم أنّ الأمور بخواتيمها فاحذر، والعاقل يعيش المُستقبل، لكن الأحمق يعيش الحاضر، وكل إنسان يعيش لحظته فهو أحمق، الأمور بخواتيمها، وهذه الدعوة إلى كسب المال الوفير، فماذا بعد المال الحرام الوفير ؟ الموت، وماذا بعد الموت ؟ الحساب، وماذا بعد الحساب ؟ جهنم، إذاً هذا الذي يدعوك لعقد هذه الصفقة، ولكسب المال الحرام إنما يدعوك في الحقيقة إلى النار، وإن كانت الدعوة إلى كسب المال.

هذا الذي يدعوك إلى حفل ماجن، أو إلى لقاء مشبوه، أو إلى نزهة مختلطة، أو إلى رحلة فاجرة، أو إلى سهرة ماجنة، أو إلى وليمة فيها المشروبات المحرمة، أو إلى قراءة كتاب مسموم، أو إلى اجتماع ولقاء محموم هو يدعوك إلى لقاء، أو إلى، تعارف، أو إلى طعام، أو إلى مُتْعَة، فيها مخالفات شرعية قد تنتهي بك إلى النار، فارفضها معتذرًا، واعلم أنَ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

دائماً اسأل نفسك هذا السؤال: ماذا بعد ؟ دعيت إلى كسبٍ حرام وفير، ماذا بعد المال ؟ الموت، دعيت إلى مكانةٍ رفيعة، لكن لا ترضي الله، ماذا بعد هذه المكانة الرفيعة ؟ الموت، ماذا بعد الموت النار، إذاً كل من يدعوك إلى معصية الله يدعوك في الظاهر إلى متعة، أو إلى مكسب، أو إلى مغنم، أو إلى مال، أو إلى جاه، أو إلى مكانة عَلِيّة، لكن هذه المكانة يأتي الموت فيخرجك منها، إن لم تنتهِ من تلقاء ذاتها، ويأتي بعد الموت حسابٌ عسير، وبعد الحساب العسير نار جهنم، وبئس المصير.

إذاً: العاقل يرى أنه بين دعوةٍ إلى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وكل إنسان يعطل عقله يكون ذنبه الأكبر تعطيل عقله، ليس الذنب فقط في أنه ارتكب ضلالة، و لكن الذنب الكبير في تعطيل عقله، هذا هو الذنب الحقيقي فيقال له: أين عقلك ؟

يا عبدي، أودعت فيك عقلاً يهديك إلى الخير لمَ لمْ تستعمله ؟ وأنت إذا منحك الله عقلاً صرتَ مسؤولاً مسؤولية كبرى، فأنت بين دعوتين، وعقلك هو مناط الاختيار والحلال بيّن، و الحرام بيّن.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

2 ـ أجِبْ الداعيَ إلى الجنة:

إنسان دعاك إلى طاعة الله، فماذا بعد الطاعة ؟ رضوان الله، ماذا بعد رضوان الله ؟ التوفيق، ماذا بعد التوفيق ؟ السعادة، ماذا بعد السعادة ؟ الموت، ماذا بعد الموت ؟ الجنة إلى أبد الآبدين، وقد قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

3 ـ استعمل عقلك:

لك أبٌ أنجبك، ولك أبٌ زوّجك، ولك أبٌ دلّك على الله، فالإنسان ما إن يستمع إلى كلمة توجيهٍ، أو كلمة إرشادٍ، أو دعوةٍ، فليستعمْل عقله، هذه الدعوة ما مؤدّاها ؟ الدعوة براقة، دعوة إلى أن تعيش شبابك، دعوة إلى نزهة ممتعة، جبال خضراء، وبحر، ولكن هذا المكان لا يُتقى الله فيه، هذا المكان فيه نساءٌ كاسياتٌ عاريات، النظر مُحرم، والحديث محرم، وأحياناً قد تكون الدعوة ذكيّة جداً، دعوة مبطنة؛ الدعوة لنزهة، دعوة إلى سهرة مختلطة، دعوة إلى أمسية معها غناء مثلاً، فالإنسان لا ينتبه، فالدعوة مضمونها إلى النار، لكن فانظر بعين عقلك قبل أن تنظر بعين رأسك.

إذّا: الإنسانُ العاقل يفرّق دائماً بين دعوتين، وأنت مبتلى، كل من حولك يدعوك، هذا يدعوك إلى جادّة الصواب، وهذا يدعوك إلى الشر، ودائماً الأشرار يحبون أن يكثر الأشرار، يقول لك: ضعها برقبتي، فمن أنت حتى أضعها برقبتك ؟

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

قالَ:

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

كل واحد منكم أيها الإخوة الكرام قد تُوجّه إليه دعوة، مِن والده، مِن أخيه أحياناً، مِن صديقه، مِن جاره، مِن زميل العمل، مِن أي إنسان، قد يُدعَى إلى النار، وهو لا يدري، فيكفي أن يبخّس لك سعيك إلى الله، كأن يقول لك: خسارتك، يكفي لك أن يضعِّف همتك إلى الله، يكفي أن يصفك بالحمق إذا اتبعت منهج الله عزّ وجل، يقول لك: مجنون، ضيّعت عليك فرصة العمر، والمؤمن الصادق المستقيم دائما في نظر أهل لدنيا أبله، هم يظنون أنهم أذكياء باقتراف المعاصي واقتناص الملذات، وينسون أنهم يسيرون في المنزلق الخطير، فيفيقون ذات يوم فإذا هم أغبى الأغبياء، لأن البطل هو الذي يضحك آخر الأمر، وليس في أول الأمر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

(سورة الانشقاق)

أما المؤمن:

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(9))

(سورة الانشقاق)

الكافر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

فالإنسان قد يقبع في بيته ؛ يحب البقاء في البيت كما هو حال بعض الناس، فالملهيات عنده، الأغاني، الغيبة، النميمة، النساء اللاتي لا يحللن له أمامه مزينات، يمتّع بصره بهن، يمزح، يطرب، يستمع.

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

بلا صلاة، بلا صوم، مع الإدّعاء بأنّ هذا الدين ليس لهذا العصر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

أما المؤمن في نهاية المطاف:

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(9))

البطولة أن تكون في آخر السباق مسروراً، وأن تكون ضاحكاً.

إذاً: كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أراد أن يعرفنا أن الإنسان بين دعوتين، دعوةٍ إلى طاعة الله، وبالأحرى إلى النجاة من عذاب الله، وبالتالي إلى جنةٍ عرضُها السماوات والأرض ؛ أو دعوةٍ إلى

معصيةٍ، أو متعةٍ، أو كسب مالٍ غير مشروع، وبالتالي إلى موتٍ، ثمَ إلى عذاب القبر في البرزخ، وأخيرًا إلى عذاب النار وبئس المصير. فالإنسان العاقل يحكِّم عقله في أيَّةِ دعوة، والله عزّ وجل حذّر وأنذر، وقال لك:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

إنسان غافل ـ فأبسطُ شيء مثلاً أن يدعوك إنسان لترسل ابنك إلى تعلُّم اللغة الأجنبية ببلد أجنبي، الدعوة ظاهرها إتقان اللغة الأجنبية، لأن التجارة تحتاج إلى لغة، ولكن هذا الابن يافعٌ في رَيْعَان الشباب، ولا بد من أن يقيم في أسرة بريطانية مثلاً، وهذه الأسرة متفلتة، وعندها فتيات، إذ لا قيم في مجتمعهم تهذِّبهم، فيعود إلى بلده شارب خمرٍ، وقد اقترف الزنا، عاد إلى أهله، وهو يحتقر أُمَّتَهُ ودينه، فضاع متردِّيًا في وحول الضلال والخنا، وكانت في ظاهرها إتقان اللغة الأجنبية، لكنها كانت دعوة محمومة، فقد دعي إلى النار، وهو لا يدري، فليحذر الآباء، فالأولاد أمانة.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

كيف يُدعى الإنسانُ إلى النار ؟

وبعدُ فكيف يُدعى الإنسان إلى النار ؟ جاءت التفاصيل، قال:

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ)

1 ـ الكفر بالله:

لأكذب بهذا الدين، والكفر بالله أنواع، في أضيق معانيه ألا تطيع الله عزّ وجل، لأنك لست قانعاً بمنهج الله تعالى، وقع ذلك، تقول: إن الله خالق الكون، ولكنك رغم هذا الإقرار لا تطيع الله عزّ وجل، وتردّ منهجه، فأنت لم تكفر بخالق الكون، ولكن كفرت بمنهج خالق الكون، حينما تأبى نفسك أن تطيع الله في أمره ونهيه، فأنت بشكلٍ أو بآخر تكفر بمنهج الله.

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ)

2 ـ الشرك بالله:

أيْ أن أربط نفسي بإنسان ما، إنسان قوي مثلا، أبيع نفسي لجهة معينة، أجعل طاقاتي وأفكاري ومالي وذكائي وطلاقة لساني وعلمي في خدمة البشر، هذا الإنسان قد يعطيني الدنيا، ولكن لا ينجيني من عذاب الله.

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ)

أيْ أنّ الحد الأدنى من الكفر أن تكذِّب بمنهجه، وعدم طاعة الله تكذيبٌ بمنهجه.

(وَأُشْرِكَ بِهِ)

أيْ أنْ أجعل مع الله إلهاً آخر، فأنت لا تقول: هو إله، فهذا إنسان، لكن تقول: هو الذي ينفعك، هو الذي يضرُّك، هو الذي إن رضي أعطاك، وإن غضب منعك، حينما تشعر أن لهذا الإنسان ثِقلاً، ودورًا خطيرا في حياتك فقد أشركته بالله عزّ وجل.

(مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)

مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

أيْ من دون دليل، تقول: هذا ينفع، وهذا يضر، ولكن لا دليل لديك، أما الله عزّ وجل فالكون كله يدلُّ عليه، الكون كله يشهد له بالألوهية والربوبية والخلق، أما هذا الإنسان القوي الذي تدعونني إلى أن أكون من أتباعه، فلما اتبعته جعلته إلهاً من دون دليل، قال:

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)

العلم يحتاج إلى دليل، العلم يحتاج إلى تعليل، الإله الذي ينبغي أن يُعْبَد هو الإله الذي يرى، والذي يسمع، والذي يستجيب للدعاء، والذي ينفع، والذي يضر، والذي يحفَظ، والذي ينصر، فهذا هو الإله الذي ينبغي أن تعبده، أما أنت تدعونني إلى إنسان ضعيفٍ مثلي فقيرٍ مثلي، جاهلٍ مثلي، يصبح مشلولاً لو جَمُدَت نقطة دمٍ في دماغه، أو لو جَمُدَت في مكانٍ أيّ آخر، لذلك:

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ)

وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ

خالق هذا الكون.

(الْغَفَّارِ)

1 ـ التوبة الصادقة تمحو الذنوب مهما عظمت وكثُرت:

الذي إذا عُدّتَ إليه غفر لك ما مضى، دائماً الله عزّ وجل يطمّع المذنبين، مهما كانت ذنوبك.

عَن أنَس بْنِ مَالِكٍ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السّمَاءِ ثُمّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي]

دائماً وأبداً المذنب في بحبوحة.

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49))

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من الآية 53)

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

أي لأعصيه.

(وَأُشْرِكَ بِهِ)

أن أتكل على زيد أو عُبيد، أو فلان أو عِلاّن، وأن أعطي هذا الإنسان صفات الألوهية ؛ بأنه ينفع أو يضر، يرفع أو يخفض، يعطي أو يمنع.

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

2 ـ معنى العزيز:

مَن العزيز ؟ قال بعض العلماء: الذي لا ينال جانبه، وقال بعضهم الآخر: الشيء العزيز هو الشيء النادر، الذي يندر وجوده، وتشدد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، أما إذا قلنا: إن الله عزيز أيْ هو واحدٌ لا شريك له، لا يندر، وهو واحد، لا يوجد غيره، و تشتد الحاجة إليه، هذا للشيء العزيز، أما إذا قلنا: إن الله عزيز، أي أن كل شيءٍ يحتاجه في كل شيءٍ، كل شيء على الإطلاق يحتاجه في كل شيءٍ ـ لا أعتقد أن هناك كلمة أوسع من هذه الكلمة ـ عزيزٌ واحد لا شريك له، الشيء العزيز النادر الذي يندر وجوده، لكننا وإذا قلنا: الله عزيز ؛ هو الواحد الأحد، وإذا قلنا: الله عزيز فهو الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، وإذا قلنا: الشيء عزيز أي يصعب الوصول إليه، لكن إذا قلنا: إن الله عزيز، يستحيل أن تحيط به، يمكن أن تصل إليه، ولكنه يستحيل أن تحيط به.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

أنا أدعوكم إلى العزيز، إلى خالق هذا الكون، إذًا: بين مجرتين تبلغ المسافة ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، إذا كان قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، هذا هو العزيز، إذا كان في الفضاء الخارجي ثقب أسود لو دخلته الأرض لأصبح حجمها كالبيضة والوزن نفسه، منطقة ضغط هائلة، هذا هو العزيز الذي خلق هذا الكون.

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ)

3 ـ الله عزيز غفّار:

قد يخاف الإنسان من قويٍّ، ويخشى أن يفتك به، لكن الله عزيز وقويّ، وهو مع ذلك غفار، أي رحيم، إن جئته تائباً غفر لك، إن جئته منيباً قَبِلَكَ، إن جئته مستغفراً غفر لك.

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

4 ـ هنيئاً لمَن يميّز بين دعوةٍ إلى النار ودعوةٍ إلى العزيز الغفار:

لذلك أيها الإخوة، هنيئاً للأخ المميّز الذي يميّز بين دعوةٍ إلى النار ودعوةٍ إلى العزيز الغفار، بين دعوةٍ إلى الهلاك ودعوةٍ إلى النجاة، بين دعوةٍ تنتهي بصاحبها إلى جهنم، ودعوةٍ تنتهي بصاحبها إلى الجنة، بين دعوةٍ إلى الكمال ودعوةٍ إلى النقص، هذا هو الإنسان العاقل ؛ وهذا يفسّره الحديث الشريف: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي، ابن ماجه]

الآية ملخصها: بينما أنت جالس إذ قال لك واحد: افعل كذا أو لا تفعل، فإياك أن تعطِّل عقلك، استعمل عقلك، هذا يدعونني إلى ماذا ؟ إلى كَسْبِ المال الحرام، ماذا بعد المال ؟ الموت، ماذا بعد الموت ؟ الحساب، ماذا بعد الحساب ؟ جهنم، إذاً: هذه الدعوة في ظاهرها إلى كسب المال، وفي باطنها دعوة إلى جهنم.

دعاك أحدُهم إلى غض البصر، هذه دعوة صعبة في نظر الشاب غير المؤمن، لكن لو كانت الإرادة قوية، وأطعت الله في هذا الأمر، تحس بسعادة ما بعدها سعادة، لأنك أصبحت في رضوان الله عزّ وجل، و عمل الجنة أيها الإخوة حزن بربوةٍ، وعمل النار سهل بسهوة، عمل النار سهل جداً، إنّ تفجير البارود لا يحتاج إلى ذكاء، فإذا ألقى شخص فيه عود ثقاب تجده انفجر ـ فالشهوات مثل البارود، فلما

يغريك إنسان لاقتراف معصية، يدلك على فيلم ماجن، ويدلك على مجلة خليعة، يدلك على شخص تائه، أو على سهر ماجنة، فالقضية سهلة جداً، تفجير الغرائز عمل حقير، وعمل لا يحتاج إلى بطولة، ولكن ترويض النفس على طاعة الله يحتاج إلى عزيمة، فالداعية يحتاج إلى علم غزير، وإلى ذكاء، وإلى حكمة بالغة، وإلى جهد جهيد حتى يستطيع أن يسلك بإنسان طريقَ الإيمان، وقد يأتي إنسان آخر بدعوة مغرية فينقله إلى وادي جهنم، وهو لا يدري.

ومعلوم أنّ التخريب سهل والبناء صعب، فبناء الإنسان عمل عظيم أما إفساده فعمل سهل، فمثلاً من جلسة واحدة أصبح مدمن مخدرات.

وبمناسبة ذكر المخدرات، فهي أنواع، منها ما يجعل المرء مدمنًا من شمة واحدة يشمّها، ولذلك عُدِّل القانون فأصبح الحكمُ إعدامًا، من يتَّجر بالمخدرات فحكمه إعدام، قد يكون طفلا بريئًا، قد يكون شابا بريئًا، يعطيه دخينة فيها حشيش مرتين فيصر مدمنًا، وصار يسرق، وصار يقترف جرائم لكي يؤمِّن المخدِّر بشكل مستمر، فالإفساد سهل، أما البطولة ففي البناء ؛ أن تبني إنسانًا مؤمنًا، تسلكه طريقَ الإيمان، تسمو بنفسه، هذه البطولة، فكل إنسان يسهم في ترسيخ الإيمان، ترسيخ الفضائل فهذا عمل من أعمال الأنبياء، قال تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(41)اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(42))

(سورة طه)

ومن ثَمّ فإني أقول: هنيئاً لكل إنسان يسهم في بناء الإيمان في نفوس البشر، فأنت شاب طالب علم، من روّاد مسجد معيَّن، لك منهج ديني، لك مصدر علم، تقرأ القرآن، حولك أصدقاء، حولك أقرباء، حولك صغار، كبار، جيران، أخ أكبر، أخ أصغر، لمَ أنت ساكت ؟ ادعُ إلى الله، وساهم في بناء النفس البشرية، ابْنِ نفوس الذين حولك بناء صحيحًا واذكر أنه مَن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.

(لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ)

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ

1 ـ لا تَدْعُ مَن لا يستجيب لك:

العلماء فسروا كلمة (الدعوة)، أيْ ليس له استجابةُ دعوةٍ، قال القرطبي: **" ليس له استجابة دعوة "**، فإذا اتجهت لغير الله عزّ وجل، لجهة، أو لإنسان قوي، وكنت في مأزق، وأنت بعيدٌ عنه، وليس هناك هاتف، تقول له: يا فلان، فهل يستجيب لك ؟ فإذا كان الشخص في الصحراء، وعلى مشارف الموت

عطشاً، وله شخص مركزه قوي في العاصمة، اسمه مثلاً سعيد، قال له: أين أنت يا سعيد، أين أنت يا سعيد ؟ أين أنت يا سعيد ؟ فليس من مجيب، لكن إذا قلت: يا الله، فهذا شيء آخر، لأن الله معك دائماً، ليس له دعوةٌ، ليس له استجابة دعوة، أنت بالأزمات هذا الذي تدعوه من دون الله قد لا يكون معك، وإذا كان معك قد لا يسمعك، وإذا سمعك قد لا يستجيب لك، لكنك إذا كنت مع الله، فهو معك أينما كنت، وهو يسمع دعاءك قبل أن تتلفّظ به.

2 ـ لا تَدْعُ مَن ليس له موجبات الألوهية:

وهناك معنى آخر لطيف: ليس له دعوةٌ، أي ليس له موجبات الألوهية، الإله الذي ينبغي أن تعبده ينبغي أن يكون خالق الكون، ينبغي أن يكون رب العالمين، ينبغي أن يكون واحداً في ألوهيّته، واحداً في ربوبيّته، واحداً في ذاته، واحداً في صفاته، واحداً في أفعاله يستجيب لك، ويستمع إليك، ويعلم ما في قلبك، الكون كله بيده، الناس كلهم بيده، خلاياك بيده، قلبك بيده.

المعنى الأول: ليس له استجابةُ دعوةٍ، أي لو دعوته لا يستجيب لك.

والمعنى الثاني: ليس له موجبات الألوهية، فأنت إنسانًا لا ينبغي ألاّ تعبد إلا الله خالق الكون، رب العالمين، المسيّر، السميع، العليم، القادر، المريد، الحيّ، القيُّوم، القديم، الأزلي، الذي يرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، ويعز ويذل، ويمرض ويشفي، أما الذي ليس دعوةٌ في الدنيا، أي ليس له استجابة دعوةٍ، أو ليست له موجبات الألوهية فلا ينبغي أن تدعوه.

ومعنى: لا جرم: أي لا شك.

(أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ)

وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ

نحن جميعاً مردنا إلى الله، فالذي عرفه في الدنيا يسعد بهذه المعرفة، أما الذي غفل عنه في الدنيا فيشقى بهذه العودة إلى الله، يقول له:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (64))

(سورة يس)

فلذلك هذه الدعوة هي موجبات الألوهية.

(لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

مَن هو المسرف ؟

من أوجه معاني هذه الآية: المسرف من تجاوز الحد، نظر إلى زوجته، فهذا من حقه، أما إذا نظر إلى أختها فهو تجاوزٌ للحد، أكل المال الحلال من حقه أما الحرام فليس من حقه، فالإنسان بكل حركاته إما أن يبقى على منهج الله، أو أن يتجاوز، والتجاوز هو الذي يُردي ويشقي.

(وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

ثم يقول مؤمن آل فرعون رضي الله عنه وأرضاه:

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ)

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ

هذه النقطة دقيقة جداً، أيْ أنّ هذا الذي أقوله لكم، إن صدّقتم به فقد أفلحتم، وإن كذّبتموه فسيأتي يومٌ تصدقون به. إذاً: كما أقول لكم دائماً: القضية قضية وقت، قضية الإيمان ليس قضية أن تؤمن أو ألاّ تؤمن، إنما هي قضية متى تؤمن ؟ لأنه لا بد من أن تؤمن ولو بعد فوات الأوان.

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ)

يبدو أنهم هدّدوه بالقتل، فقال:

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

بصير بنياتي، بنيّتي الحسنة، وبإخلاصي لكم، واستقامتي على أمره، وهو الذي يحفظني منكم.

لابد أن تثق بوعد الله:

بالمناسبة إذا لم يطمئن الإنسان إلى وعد الله فهذا نقصٌ في إيمانه، فأحياناً يكون الإنسان مستقيمًا، ولكن إيمانه بالله ضعيف فيخاف، يخاف خوفًا غير طبيعي، خوفًا مرضيًا، فهذا الخوف عقابٌ له على ضعف

إيمانه، لو أنه قوّى إيمانه ما خاف هذا الخوف، لأن الله يعدك بالنصر، ويعدك بالحفظ، ويعدك بالتوفيق، وأنت لا تصدقه !! أنا أقول هذا لمن يستقيم على أمر الله ويخاف، فالله عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

وأنت مستقيم بحسب معلوماتك، وتخاف أن تعامل كما يعامل الكافر ! معنى ذلك أنك لا تصدق الله عزّ وجل.

هناك نقطة دقيقة وهامة: لمّا يطمئِن ربنا عزّ وجل المؤمنَ ويعده بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق، ويقول له:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

(سورة فصلت)

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

كل هذه الآيات المُطَمْئِنَة المبشِّرة، ثم أنت تخاف خوفاً مَرَضياً من أن تعامل كما يعامل الكافرون ! هذا ضعفٌ في إيمانك، وهذا الخوف الذي تعاني منه هو جزاء ضعف إيمانك، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت لا تزلزله الأزمات الخطيرة، لأنه واثقٌ برحمة الله، واثقٌ بنصر الله، في آخر حياته أعطوه دواءً بمرض ذات الجَنب، فغضب النبي أشد الغضب وقال:

((ذاك مرضٌ ما كان الله ليصيبني به))

فأنا استنبطت من هذا الحديث أن المؤمن غالٍ على الله عزّ وجل، فلا يظن المؤمن أنه هيّن على الله، فيعامل كما يعامل الفساق والفجار والمنحرفون، فأنت مؤمن، كما أنك تحرص على رضاء الله فالله عزّ وجل يشكر لك هذا الحرص، ويحفظك ويؤيدك وينصرك ويأخذ بيدك، ويرزقك، وينصرك على عدوك ولا يتخلى عنك.

وعندما هددوه بالقتل، قال:

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

الله موجود والأمر بيده، وأنتم في قبضته، وأنا لا أخافكم، لكني أخافُ اللهَ.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

الأمن أكبر نعم الله عز وجل، ونعمة الأمن خاصة بالمؤمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

ومن ثمّ فإني أدعوكم قائلاً: الحياة الدنيا مليئة بالمفاجآت، مليئة بالمحن والمصائب، مليئة بالأخطار، فالإنسان إذا ظن أنه يعامل كما يعامل أهل الدنيا العصاة الفسّاق يكون قد أساء الظن بالله عزّ وجل، يكون ما صَدّقَ بآيات الله، المؤمن الصادق يطمئن لوعد الله، ويطمئن لتبشير الله له، يطمئن بما في القرآن من آياتٍ مطمئنةٍ، هذا هو القول الثابت كما قال الله عزّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 27)

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا

فجاء الجواب:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا)

مكروا.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

ماذا حلّ بفرعون وآله ؟ وَحَاقَ بِآَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ

ادرس التاريخ، اقرأ القرآن، تجد أن الحق والباطل إذا اصطرعا فالعاقبة لأهل الحق، وللباطل الخزي والعار أبدًا، وأيّ نبي، أيّ دعوةٍ مخلصة لله عزّ وجل، فالذين يقفون ضدها ليطفئوها يبوءون بالإخفاق والخزي والعار، والذين يدعمونها فالله جلّ جلاله ينصرهم ويؤيدهم، هذا دين الله، وهذه دعوة الله، وكل مَن وقف في سبيلها قصمه الله، وكل من دعمها وأعانها وفّقه الله عزّ وجل، قال:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا)

أيْ فهل يستقيم لعقلك أن تعبد الله، ثم لا يحميك من أعدائك ؟ هكذا ظنك بالله عز وجل ؟

(قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

معقول أن يتخلى الله عنك ؟ فأنت تعبده، وتستقيم على أمره، تخاف أن يغضب، تنفق المال في سبيله، تطلب العلم من أجله ويتخلى عنك، وتعامل كما يعامل أهل الدنيا ؟ هذا سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، قال:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

ما هو سوء العذاب ؟

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا

أيْ في اليوم مرتان، آل فرعون يعرضون على النار من ستة آلاف عام كل يوم مرتان، غدوا وعشياً، وإلى يوم القيامة، هذا كلام رب العالمين، والنبي الكريم قال في بعض الأحاديث:

((المؤمن يعرض عليه مقامه في الجنة غدواً وعشياً))

[ورد في الأثر]

كل يوم مرتان، لذلك قالوا: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

إذا كان واحد محكومًا بالإعدام، وسمع صوت مفتاح بالباب يسقط أرضًا، جاءوا ليأخذوني، إذا فتحوا الباب كل يوم مرتين يتصور كل مرة أنهم سيعدمونه، فإذا أخروه عشرة سنوات، وكل يوم فتحوا عليه الباب مرتين فماذا يحدث له ؟ تجده كل يوم يموت الميتة تلو الميتة، بينما هي موتةٌ واحدة، فانتظار العقاب أصعب أحوال النفس.

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(45)النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

1 ـ اغتنم وقتك في الطاعة:

أيها الإخوة، هذه اللحظة الراهنة، والإنسان قد لا يقدِّر تبعاتها، فأنت الآن حي ترزق، في هذه اللحظة لو اقترف الإنسان معصية، أو لو فعل طاعة يبنى على هذه اللحظة إما سعادة أبدية أو شقاء أبديّ، فكل إنسان لا يقدِّر قيمة الوقت مخطِئ، إذْ هو أهمّ ما تملك، لأنه وعاء العمل الصالح، فالإنسان بلحظة ما إما أن يكون في طاعة أو في معصية، إما في طلب العلم أو في طلب الجهل، إما في القُرب من الله، أو في بعد عنه، إما في الإحسان أو في الإساءة، إما في العبادة أو في الشهوة، إما مع الخير أو مع الشر، إما مع العقل أو مع اللاعقل، اللحظة الراهنة يبنى عليها حياة أبدية سعيدة أو شقاء أبدي.

2 ـ فرعون وقف موقف الكفر:

فرعون وقف موقف الكفر، قال تعالى:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

سحرة فرعون قالوا: آمنا برب هارون وموسى، هذه اللحظة التي آمنوا بها أسعدتهم إلى أبد الآبدين، فالإنسان قضية موقف عقلاني وإرادة قوية، إما أن يسعد وإما أن يشقى.

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ)

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

الآن المشكلة في النار.

(فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

مَن هم المستكبرون ؟

مَن الذين استكبروا ؟ هم الذين استكبروا عن طاعة الأنبياء، واستكبروا على دعوة الأنبياء، هؤلاء الأتباع الضعفاء هم الخط العريض بالمجتمع، أيْ يشكلون الطبقة الدنيا، ففي كل مجتمع تجد أقوياء

وأغنياء، وموجهين، وهناك أناس أتباع، الضعفاء هم الأتباع، هؤلاء الضعفاء الذين اتّبعوا الأقوياء ولم يتبعوا الأنبياء، هؤلاء في النار يتحاجّون فيما بينهم وبين الأقوياء الكبراء:

(فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ)

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ

لا يغني أحدٌ عن أحد يوم القيامة:

أكبر خطأ في العقيدة أن يتوهم الإنسان أن هذا القوي الذي تطيعه وتعصي الله عزّ وجل من أجله بإمكانه أن ينجّيك من عذاب النار، والدليل هذه الآية:

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ

1 ـ التابع والمتبوع من الكفار سواء في النار:

نحن معكم حضور، فما ذنب الضعفاء ؟ هنا السؤال، الجواب ليس له علاقة بالسؤال.

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

في الدنيا.

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ)

يعني هل بإمكانكم أن تمنعونا وتحمونا من عذاب النار ؟

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

نحن أيضاً معكم قاعدون، ماذا يقصدون ؟ لو أنه بإمكاننا أن نحميكم من هذا العذاب لحمينا أنفسنا، فإنْ عجزنا عن حماية أنفسنا من هذا العذاب فلأن نكون أعجز عن أن نحميكم منه من باب أولى، نحن أعجز عن أن نحميكم من عذاب الله، لأننا معكم في النار.

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

2 ـ الضعفاء عطّلوا عقولهم واتبعوا الأقوياء:

فما ذنب الضعفاء إذاً ؟ ذنب الضعفاء أنهم عطّلوا عقولهم، وتوهَّموا في الدنيا أن هؤلاء الأقوياء يمنعونهم من العذاب، هذه الآية دقيقة المغزى جداً، الجواب رائع.

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

نحن معكم، فإذا كان بإمكاننا أن نمنع عنكم عذاب النار نمنعه عن أنفسنا من باب أولى، هذه واحدة. لكن ما ذنب الضعفاء الذين اتبعوا الأقوياء ؟ ذنبهم أنهم عطّلوا عقولهم، وتوهَّموا أنهم ما داموا أقوياء في الدنيا، فسوف يحمونهم في الآخرة، فخاب ظنُّهم. إذاً مَن هو العاقل ؟ هو الذي يعرف الحقيقة قبل أن يكشفها الواقع، يعرفها بفكره قبل أن يكشفها الواقع عملياً.

(وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنْ الْعَذَابِ(49)قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(50))

قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى

1 ـ إقامة الحجة على الكافر بكل أنواعها:

إذاً الحجة مُقامة، الكون يشهد، والعقل يشهد، والفِطرة تشهد، والواقع يشهد، والشرع يشهد، والأنبياء تشهد، والعلماء يشهدون، وكل ما في الكون ينطق بوجود الله، وينطق بسعادة من يؤمن ويستقيم وشقاء من يكفر وينحرف، قال:

(قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

2 ـ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

هذا الدعاء لا يقَدِّم ولا يؤخِّر، وأصعب شيء في الحياة أن تصل إلى طريقٍ مسدود، وأنا أُشَبِّه هذا الذي يرتكب جريمة قتل، ويحكم عليه بالإعدام، ويساق ليشنق، قبل أن يشنق الحكم مبرم من محكمة النقض، مصدق من رئيس الدولة، والتنفيذ لا بد منه، هذا الطريق المسدود، فإذا أحببت أن تضحك، أو تبكي، أو ترجو، أو تتوسل، أو تطلب فلن يفيدك شيء، ولا بد من تنفيذ الحكم، فأنت سقت نفسك إلى طريق مسدود، لذلك فالعاقل دائماً يحرص على ألاّ يصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، فقد مات كافرًا، وقُضي الأمر.

(إنَّا كُلٌّ فِيهَا إنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

أما العاقل فإنه يستخدم العقل ويقول: هذه دعوةٌ إلى النار، وهذا الذي يدعوني لا ينجّيني.

مرة قلت لكم: عندما قال الحسن البصري لوالي البصرة ـ واليها ليزيد ـ جاءه أمر محرج، قال للحسن: ماذا افعل، إن أطعتُ يزيد أغضبت الله، وإن أطعتُ الله أغضبت يزيد ؟ فقال له الحسن القضية سهلة: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

إذا أطاع إنسان شخصًا فاجرًا، واستحق غضب الله، وأصابه مرض خبيث، فماذا ينفعه الفاجر ؟ يبعث له باقة ورد، وإذا مات يذهب لتعزية أهله، وانتهى الأمر، هل بإمكانه أن يفعل فوق ذلك ؟ لا، لن يمنعه من الله، لكن إذا كان الشخص مع الله، والناس كلها غضبوا منه، فالله يحميه منهم كلهم، كن مع الأقوى، كن مع الفعّال، ولا تكن مع القوّال، الإنسان قوّال.

ثم يقول الله عز وجل في الآية، وهي تأتي تاج القصة:

(إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ

النصر المعنوي والنصر المادي:

أيْ أيها المؤمن العاقبة لك، والنصر لك، العلماء فسروا النصر إما أن حجج المؤمنين تعلو، وأفكار المؤمنين تظهر، وأن الدعوات الأخرى تسقط، والآن ألست ترى أن مذاهب دنيوية سقطت، وأصبحت في الوحل، دعت إلى الإلحاد سبعين عاماً، ثم سقطت في الوحل، أليس الدين الآن هو الأساس في الحياة؟ هذا نصر، ولكنه نصر غير مادي، بل نصر معنوي، نصر الله عزّ وجل المؤمنين بأن تظهر حججهم، أن يغدو دينهم هو الحق الأوحد، والنصر الثاني أن ينتقم من أعدائهم، على كلٍ فأنت منصور مرتين مرة بأفكارك ومرة بالقوة المادية.

(إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا)

هذا قانون، كلام خالق الكون قانون.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

فلا تهنوا في ابتغاء القوم، فأخطر مرض يصيب المؤمن الضعف، الاستكانة، الخنوع، القنوط من رحمة الله.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

في الدنيا والآخرة، الله هو الحق، ولا بد من أن يظهر الحق، كن مع الحق ولا تبال.

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ)

يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ

فالظالم تكون قوته بكلامه، يوم القيامة:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: من الآية 65)

فليس له أن يتكلم بكلمة ما.

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

اللعنة هي البُعد، وسوء الدار هي جهنّم، وهذا مشهدٌ من مشاهد يوم القيامة، النقطة الأساسية فيه ألاّ أتباع يومئذٍ، المتبع أحمق، كل إنسان يتبع القوي، ويدَع الحق، ويدَع دعوة الله، ويتوهم أن هذا القوي قوي في الدنيا والآخرة فهو أحمق، قد يكون قويًا في الدنيا، أما في الآخرة فلا يستطيع أن يفعل شيئاً، وأجاب الله سبحانه عنهم إجابة رائعة إذ قالوا بلسانهم:

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

نحن معكم وفي العذاب مشتركون، لو بالإمكان أن ننجيكم لنجّينا أنفسنا، إذاً فما ذنبكم ؟ ذنبكم أنكم توهّمتم أن القوي يحميكم، لكن القوي لا يحميكم.

خلاصة الدرس:

لا إله إلا الله، وأيها الإخوة، عليكم بطاعته، وأنتم بين دعوتين ـ محور الدرس ـ دعوةٍ إلى النجاة ثم إلى الجنة، ودعوةٍ إلى الشقاء، ثم إلى النار، وهذه الدعوة الخاصة بالنار لها مظهر براق، كأن تكون الدعوة

أحياناً صفقة تجارية، بضاعةً محرمة، يقول لك: أنت مجنون ؛ فربحُ القرش قرشان، يغريك بالربح، يقول لك: كن مع فلان رأساً تعلو، فدعوة النار دعوة مُبَطّنه ؛ النار في داخلها، لكن في ظاهرها مال، مكانة علية، مكتسبات، بيت فخم مثلاً، دعوةٌ إلى الدنيا، ولكن على أساس مخالفة منهج الله عزّ وجل، إذاً هي دعوةٌ إلى النار.

فمحور الدرس إذّا: هناك دعوة إلى الله ودعوةٌ إلى النار، وأن التابعين لا يغنيهم أتباعُهم من الله شيئاً.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة غافر، ومع الآية الثالثة والخمسين، قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(53)هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ

في هذه الآية شيءٌ يلفت النظر، ولهذه الآية مثيلات.

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

1 ـ العقل السليم طريق إلى الهدى:

اللُبُّ هو العقل، والتسمية رائعة جداً، شيءٌ بلا لُب لا قيمة له، وإنسانٌ بلا عقل لا قيمة له، قِوام الرجل عقله، أيْ أنّ كل إنسانٍ أعمل عقله يهتدي بهذا الهدى، كل إنسان استخدم عقله فيما خُلِقَ له ينتفع بهذا الهدى، كل إنسانٍ حكّم عقله يستجيب لهذا الهدى، لأن هذا الهدى من عند الله، والله سبحانه وتعالى وهب العقل، وهو مقياسٌ دقيق، فمن أعمل عقله، أو استعمل عقله، أو حَكّم عقله فلابدّ من أن يستجيب لهذا الهدى، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حبّاً))

2 ـ تطابقُ صريح العقل مع صحيح النقل حق:

أيْ أنّ كل ما جاء به هذا الدين فالعقل يقبله، وكل انحراف عن أحكام هذا الدين فالعقل يرفضه، فدعوة الأنبياء متطابقة مع العقل، وقد ألّف علماءٌ كثيرون كتباً قيمة في تطابق العقل مع النَقل، فتطابقُ صريح العقل مع صحيح النقل حق، بل إن هذا التطابق حتمٌ لازم، والعقل لا يقبل التناقض، ولا يقبل الازدواجيّة في الكون، إلهٌ واحد، نواميس واحدة، كتابٌ واحد، نبيٌ واحد، مقاييس واحدة، فطرةٌ واحدة، نفسٌ واحدة، عقلٌ واحد.

فالذي أقوله دائماً: الكون خلقُه، والعقل مقياسٌ أودعه فينا، والقرآن كلامه، والفطرة ميزانٌ نفسيٌ فطرنا عليها، وتطابق العقل مع النقل مع الفطرة مع الواقع شيءٌ حتميٌ لابدّ منه، لكن هذا الذي يعطِّل عقله، و تجمح به شهوته، ويركب رأسه كما يقولون ـ ويتنكّر للواقع، للمنطق، للمبادئ، للقيَم، ينجرف مع هوى نفسه، مثل هذا الإنسان قد لا يستجيب للحق، وإليكم آية حاسمة في هذا الموضوع:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

3 ـ المتّبع للهوى لا يستجيب للحق:

إن الإنسان إما أن يلبّي نداء العقل أو أن يكون أسيرَ الهوى، فإذا استجاب لنداء العقل قاده عقله لهذا الكتاب، وللهدى الرباني ـ بشكل واسع ـ وإنْ كان أسيرَ الهوى وقف هواه حجرَ عثرةٍ أمام الهدى، دخل في الحوار، والمجادلة، والكلام غير المنطقي، والأدلّة الواهية، والحجج السخيفة، والطرح غير المَوضوعي، دخل في متاهة الجدال.

إذاً: فالآيات التي تشير إلى العقل والقلب واللب كثيرة.

الآية الأولى:

(لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(37))

(سورة ق)

(إنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(9))

(سورة سبأ)

(إنّ الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللّهُ)

(سورة النحل: من الآية 104)

مجمل هذه الآيات تبيّن أنّ هناك مرحلة في الهدى لابدّ من أن تقوم بها أنت، وهي تأمُّلٌ صحيح، تحكيم العقل، سماعٌ لنداء الفطرة، استقامةٌ على أمر الله، إنابةٌ لله عزّ وجل، من كان كذلك تجده سريع الاستجابة، والدعاة لهم تجربة في هذا الموضوع، هذه التجربة أن الداعية يقول كلاماً رائعاً منطقياً، مدعّماً بالأدلّة والشواهد، والآيات الكونيّة، والقرآنيّة، والتكوينيّة، ويتفنّن في عرض الفكرة، وفي أدلّتها، وفي تعليلها، وفي تنويع الأساليب ؛ فمن أسلوب قصصي، إلى أسلوب حوار، إلى أسلوب علمي، إلى أسلوب تقريري، إلى أسلوب مباشر، وأمامه شخصان: شخصٌ كأنه يتغذّى بهذا الكلام، وشخصٌ يرفضه، فما سرُّ ذلك ؟

أيُّ داعيةٍ لو سألته لأجابك، ظاهرةٌ تلفت النظر، إنسان يستجيب وكأنّك تعرفه من خمسين عاماً، إنسان يتفاعل مع كلامك الحقّ تفاعلاً رائعاً، إنسان يدخل الهدى إلى كل خليّةٍ في جسمه، تتفاعل كلمات الحق مع كريات دمه، وإنسانٌ آخر كالحجر الأصم، كالصخر الجلمود لا يستجيب، لا يتأثّر، لا يتفاعل، يا ربِّ ما السر ؟ هذا هو السر:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

الله أجاب، الله جلّ جلاله أجاب في القرآن الكريم، إذا لم يستجب الإنسان لك فهو يتّبع هواه.

الآية الثانية:

آية ثانية تؤكِّد هذا المعنى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: من الآية 4)

إذا أصغى الإنسان للحق، فرّغ نفسه للحق، استمعَ للحق وفكّرَ فيه ؛ حلّله، تأمّله، بحثَ عن دليله وتبنّاه، فذلك دليل أنه صادق، أما إذا أعرض عنه فهو يبحث عن شيءٍ آخر.

أنا أشبّه الذي يبحث عن الدنيا وتسوقه قدماه إلى مجلس علم، فهو يبحث عن الدنيا ؛ يبحث عن ملذّاته، عن مصالحه، عن شهواته، يعيش للذّته، لو ساقته قدماه إلى مجلس علم، يشبه تماماً آلة التصوير الغالية جداً، من أرقى مستوى، ولكن ليس فيها فيلم، فمهما استخدمها الإنسان فلا غطاء لها، لأنها خاوية.

(حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا)

(سورة محمد: من الآية 16)

تسأله: ماذا سمعت في الدرس ؟ يقول: والله كلام يا سيدي، كله كلام في كلام، فهو إذًا لا يعي الخير، فالإنسان الذي يطلب الحق يشبه آلة تصوير فيها (فيلم)، فكل منظرٍ يطبع على هذا (الفيلم)، فالمهم وجود هذا (الفيلم) في الآلة، فإن كنت تريد الدنيا ومن أهلها، وساقتك قدماك إلى مجلس علم، فتشعُرُ بالضيق، والسأم، والضجر لأنك في واد وموضوع الدرس في وادٍ آخر.

إذاً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

الإنسان بين مجاراة الهوى ومتابعة العقل السليم:

فأنت إما مع العقل أو مع الهوى، إن كنت مع العقل فالعقل يقودك إلى الله، وإن كنت مع الهوى فالهوى يقودك إلى المعصية، والمعصية إلى البعد عن الله عزّ وجل، وأنت بين أمرين ؛ إما أن العقل هو الذي يحرّكك، وإما أن الهوى هو الذي يدفعك، وهنيئاً لمن كان العقل يوجهه ويسدده، والويل لمن كان الهوى يأسره.

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان: من الآية 43)

إلهه هواه، شهوته فوق كل شيء، قبل كل شيء، مقدّمة على كل شيء، مصلحته، وشهوته، وملذّته، ودنياه، وماله، وبيته فوق كل شيء، لكن المؤمن يؤثر الحق ورضاءَ ربه، والجنّة، والعملَ الصالح على كل شيء، فمن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.

والله أيها الإخوة كلمة لا أشبع من تردادها، وهي عميقة جداً مع أنها موجزة:

" من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ".

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال عن جابر]

((ابن آدم، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء))

[ورد في الأثر]

((اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها))

[ورد في الأثر]

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر الهموم))

[كنز العمال]

هُمْ في مساجدهم، والله في حوائجهم، جرّب ؛ مع أن الله لا يُجَرَّب، جرّب أن تتجه إلى الله، أن تخلص له، أن تستقيم على أمره، أن تتوب إليه، وانظر كيف أن الله ينصرك، ويرفع ذكرك، ويسعدك، وييسِّر عملك.

قانون التيسير والتعسير:

الآن تطالعنا قضيّة محيّرة للناس، يقولون: فلان محظوظ ـ هذا كلام ليس له معنى ـ فلان حظُّه قليل، هذا هراء أما الصواب فإنّ في القرآن تيسيرًا أو تعسيرًا فقط، والتيسير له قانون والتعسير له قانون، أما التيسير:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7))

كلام واضح كالشمس.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10))

(سورة الليل)

والنبيُّ اللهمّ صلّ عليه من عادته إذا رأى شيئًا صعبًا كان يقول:

((اللهمّ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً))

[سلسلة الأحاديث الصحيحة]

إذا يسّر الله أمرًا فعندئذٍ تجد العجب، تجد الغريب يخدمك، عدوُّك اللدود في خدمتك، وإذا عسّر الله عزّ وجل أمرا تجد أن أقرب الناس إليك يتخلّى عنك، تنشأ المشكلات تِباعاً، قضية شائكة، عقبات، كلّما حللت قضيّة تنشأ قضايا، فإذا كنت مع الله لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تندم على ما فات، ولا تخشى مما هو آت، هكذا الآيات.

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

والذي ساقني لهذا الكلام قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(53)هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

هناك ناس من غير لبٍّ وعقل:

ماذا ينفع أن تبثّ محطّة الإذاعة برامجها الرائعة، وليس عندك جهاز استقبال، مهما تكن هذه البرامج رائعة، أحاديث عميقة، برامج إخباريّة واسعة جداً، محاضرات قيّمة، ولكن ليس لديك جهاز استقبال، الله عزّ وجل هدى الخلق ؛ هداهم بالكون، وهداهم بالقرآن، وهداهم بالأنبياء، وهداهم بأفعاله، وهداهم بالفطرة، وهداهم بالمعالجة النفسيّة، وهو يهديهم دائماً، العقبة أن تهتدي أنت، أن تملك جهاز الاستقبال،

فالشيء العجيب أن أكثر الناس يقولون لك إذا دعوتهم إلى الهدى: **"حتى الله يهديني"**، هذا كلام لا معنى له، كلام مضحك تماماً، فالله هداك لكل خير، بقي عليك أن تستجيب أنت.

إذاً: هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

أحياناً من باب التسلية بعض الناس يقشِّرُ برتقالة بمهارة، ويعيدُ قشرتها كما كانت من دون لُب بإحكامٍ بالغٍ، فالمنظر برتقالة، بحجم البرتقال ؛ بلونها، بتألّقها، بلمعانها، بإغرائها، تمسكها فتجدها فارغة، مجرد هيكل خارجي، إذّا هناك شخص من دون لب ـ أيْ من دون عقل ـ شهوته تحرّكه، عُلبة فارغة، برتقالة مفرّغة من مضمونها، هناك كثير من الفواكه تقشّر وينزع لبُّها، وتبقى قشرتها وتبدو لناظرها كأنها ذات لبٍ، الإنسان غير المؤمن بلا لُب، فهذا القرآن، وهذا الدين، وهذا الشرع.

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ(54)فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

1 ـ الدنيا قائمة على الاجتهاد والصبر:

إنّ الدنيا قائمة على بذل الجهد، والكد والكَدح، دار الامتحان، ودار الابتلاء، أساسها كشف الطويّة، الغاية منها أن يأخذ الإنسان أبعاده، وأن يجتاز الامتحان المحتوم، والآيات كثيرة جداً.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة: من الآية 214)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران: من الآية 92)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

بهذه البساطة أقول: هناك جامعة رائعة جداً، عظيمة جداً، فهل إذا داوم الإنسان محاضرتين ينال دكتوراه بهذه البساطة ؟وبهذه السذاجة ؟ لابدّ من امتحان، وهل كل إنسان ادّعى أنه مؤمن صار مؤمنًا، واستحقّ الجنّة ؟

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

من دون فتنة، من دون ابتلاء، تستقيم على أمر الله زمناً لأنك تبتغي الغِنى، فالله لن يغنيك، هذه استقامة مخدوشة بطلب الغنى، تستقيم على أمر الله ليكثر زبائنك في المتجر، فالله جلّ جلاله يريدك خالصاً من دون شائبةٍ، هذا هو الإخلاص، فلابدّ من امتحان، قال:

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

2 ـ وعدُ الله حقّ:

وبعدُ، فهذه نقطة دقيقة المعنى جداً، وعدُ الله حق، العلماء فرّقوا بين الوعد والوعيد الوعيد لغير الخير، والوعد للخير، عندما وعد ربنا عزّ وجل المؤمن بالجنّة، أو وعده بالنصر، أو وعده بالتوفيق، أو وعده بالحفظ، أو وعده بالعِز، وعده أن ينصره، وأن يحفظه، وأن يعزّه وأن يوفّقه، فوعد الله حق، فإذا رأينا رؤية ساذجة أن هذا الوعد لا يتحقّق أو لم يتحقّق، كيف نفسّر ذلك ؟

التفسير بسيط، فهذا الذي وُعِدَ بالهدى ليس في مستوى الوعد، لو أني وعدت طالبًا نال مائتي درجة في الثانوية أن أدخله مثلاً الفرع الفلاني، الوعد صحيح، والوعد حق، ولابدّ من أن يقع، لكن هذا الطالب نال مائة وخمسين درجة، فكل إنسان يقرأ وعدًا من الله للمؤمنين ولا يراه قد حقق واقعيًا، فليس له إلا تفسير واحد ؛ وهو أن هذا الذي وُعِد ليس في مستوى الوعد، فوعْدُ الله لِلمؤمنين صادق وحق، والآيات واضحة.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من الآية 55)

هذا وعد، هل هناك جهة أعظم من الله عزّ وجل ؟

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

هذا تعجُّب تقريري.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: من الآية 111)

واللهِ زوالُ الكون أهون على الله من ألاّ يفي بوعده، البطولة أن تكون أنت الموعود، أن تتحقّق فيك صفات الموعود، الله قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

فإذا عبد الناس غير الله، واكتفوا بانتماءٍ شكليّ للدين، وطالبوا ربهم بوعده، طبعاً وعدُ اللِه للمؤمنين الصادقين، للمؤمنين التائبين، لا لمن يدّعي الإيمان، وعدُه لمن وسعتهم السُنّة، ولم تستهوهم البدعة، وقد تجد بيتًا فيه كل المنكرات، والاتجاه إسلامي ! فما قيمة هذا الاتجاه ؟

الانتماء الفكري للإسلام لا يكفي:

الفكر البشري إذا فكّر في المبادئ كلها يرى أن مبادئ الإسلام أعظمها واقعيّة، أعظمها منطقيّة، أقربها إلى ذاته، فهناك الآن إسلام فكري لا إيماني، والإنسان العاقل الذكي المفكِّر يقرأ فيقول: والله الإسلام شيءٌ عظيم، هذا دين ودولة، ودين متوازن، وفطرة، وعقل، وواقع، وجسد، وعلاقات اجتماعيّة، يتفلسف ساعة على ميّزات الدين، وهو في الأساس ليس مطبّقاً لمبادئه، ولا ملتزمًا بالقيام بأركانه، فالانتماء الفكري للدين لا يكفي، وأساساً الشيطان قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

الانتماء الفكري وحده ليس له قيمة، فأنا أفكِّر فأجد الإسلام عظيمًا ؛ أجلْ إنّ الإسلام عظيمٌ، فمتى كان الإسلام غير عظيم ؟

أضرب مثلاً واحدًا: شخص نظر إلى قرص الشمس، تأمّلَ تأمّل وفكّرَ، قطّبَ حواجبه، حكَّ رأسه، ثم قال: الشمس ساطعة، ومن قال لك: إنها غير ساطعة ؟ ومن يصدِّقك إذا قلت: غير ساطعة ؟ إنها ساطعة، أنت ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئاً، ولم تضف جديداً.

فإذا قلت: الدين حق، والإسلام حق، والقرآن حق، يا أخي الشرع حق، وهذا الدين عظيم، وهذا دين المستقبل، وهذا دين الأمّة، هذا كله كلام، فنحن نريد التطبيق، أين أنت منه ؟ أين مواقفك ؟ أريد بيتًا إسلاميًا، أريد عملاً إسلاميًا، أريد أخلاقًا إسلاميّة، أريد وقوفًا عند الحلال والحرام، أريد معاملة إسلاميّة، أريد إنسانًا المالُ تحت قدمه أمام حكم شرعي، فلو كان فيه شُبهة جعله تحت قدمه.

إنّ الدنيا تجذبنا، والمال يجذبنا، والمصالح تحرّكنا، وانتماءاتنا فكريّة إسلامية، يقول لك: الإسلام حق، يا أخي سمعنا كلمة رائعة جداً، ما شاء الله على هذا الخطيب، فهل استجبت لكلامه ؟ لا لم أستجب، والله يا أخي الحياة صعبة ومعقّدة، ونسأل الله ألاّ يبتلينا، فنحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، ونحن ضِعاف يا سيدي، لا يسعنا إلا عفوه وكرمه، هذا النموذج الحديث لمدّعي الإسلام، لذا ألف مليون مسلم لا وزن لهم في العالَم اليوم، و في الحديث الصحيح:

((وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

اثنا عشر ألفًا لن يُغْلَبوا، أما المليار والمائتا مليون فيُغلبون، لأن الشرط اللازم هو:

(يَعْبُدُونَنِي)

والآن لا يعبدون الله.

الشكليات لا تنفع:

النقطة في هذه الآية التي أتمنى على الله أن تكون واضحةً عندكم، كلّما قرأت القرآن، ورأيت وعداً من الله للمؤمنين، ولم ترَ على الساحة تحقيقاً لهذا الوعد، فإيّاك أن تشكّ بالوعد، ثمّ إيّاك ؛ لكن لك أن تشكّ في الشخص الذي وعده الله، لم يحقِّق المستوى المطلوب، لم يأتِ بالعلامات المطلوبة، لم يأتِ بالحد الأدنى حتى يُنَفّذ له الوعد، الله هوَ هو لم يتغيّر، فالإله الذي نصر أصحاب رسول الله حتَّى فتحوا العالَم من أدنى أطرافه إلى أقصاه هوَ هو ما تغيّر، القرآن الذي قرأه أصحاب النبي، واستوعبوه، وطبّقوا، فاستحقوا أن يكونوا سادة الأمم هو ذاته القرآن الذي تلاه الصحابة، وانتصروا به ؟ الآن هو مطبوع طبعات مُذهلة، كلمة الله بالأحمر، وكلمة رب بالأحمر، ومذهّب، وآيات، وفهارس، ومعاجم، تحتاج إلى مصحف، تريد الشرط هو موجود، تريده مرتّلاً فهو موجود، وكذلك إن كنت تريده مجوّدًا.

سمعت من مدّة أنّ في المغرب بَنَوا جامعًا، وهو ثاني أكبر جامع في العالم الإسلامي، لكن روعة هذا الجامع أن قبلته صُمِّمَت وفق أشعة الليزر، أيْ إذا وقفت أمام محراب هذا المسجد فأنت في القبلة تماماً، لا تنحرف عنها، ولا نصف درجة، علّقت على هذا الخبر التعليق التالي، قلت: لو أن إنساناً مستقيماً، منيباً، طائعاً، تائباً، عابداً، يعرف الله حق المعرفة، وهو مستقيمٌ حقًا على أمره، ممتلئٌ قلبه حبّاً، و إخلاصاً له، لو كان في فلاةٍ، واجتهد في معرفة القبلة فصلّى، ثم تبيّن له أنه صلى بعكس اتجاه القبلة، هو أقرب إلى الله ألف مرّة من إنسانٍ صلى في ذلك المسجد، وكانت صلاته على أشعة الليزر باتجاه القبلة، لكنه كان عاصياً لله عزّ وجل.

نحن نريد حقائق، مسجد النبي عليه الصلاة والسلام الذي انطلق منه أصحاب رسول الله كانت أرضه من الرمل، الآن تشدُه للرخام الذي يغطي أرضه، فهذا رخام يمتص الحرارة، هناك أجهزة تكييف وأجهزة تدفئة، وقد دخل إخوة إلى جوامع في بعض البلدان الإسلاميّة فلو مددت يدك للحنفيّة تحت الضوء لنزل الماء آليًا (إلكترون)، ثم يتوقف الصنبور آليًا إذا سحبت يدك، ومع ذلك ليست كلمتنا هي العُليا، كل هذا التقدُّم التكنولوجي، والجوامع الفخمة مظاهر لا تقرّب العبد إلى الله حقيقة، فالعبرة في التطبيق و العمل بالتشريع مع سلامة العقيدة.

فأيها الإخوة الكرام، إذا قرأتم القرآن، وقرأتم آياتٍ كريمة تَعِدُ المؤمنين بالنصر، أو تعدهم بالحفظ، أو تعدهم بالتوفيق، فعليكم بالتبصر والتأمل وعدم الغفلة عن قوله تعالى:

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا(3))

(سورة الفتح)

وهل هناك نصر غير عزيز ؟ هذه الوعود الإلهية كلُّها إن لم تقع فعلينا أن نشكّ في أنفسنا، أن نشكّ في استقامتنا، أن نشكّ في إيماننا، أن نتحسس الخلل في عقيدتنا، وأن نتحسس الخلل في منهجنا، أن نعتقد الخلل في استقامتنا.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

لذلك العلماء حينما فسّروا قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

قال لي شخص: واللهِ أنا ما رأيت هذا الشيء، وما رأيت هذه الحادثة، بل سمعت بها، ولكن ما رأيتها، والله يقول:

(أَلَمْ تَرَ)

كأنه يتمنّى أن تكون الآية: ألم تسمع ؟ هي:

(أَلَمْ تَرَ)

بماذا أجاب المفسِّرون ؟ أجابوا بأن خبر الله لشدّة أحقيّته ووثوقه وصدقه كأنك تراه، وأنا بدوري أقيس على هذه الفكرة أنّ وعْد الله لأحقيّة وقوعه كأنه وقع، والدليل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من الآية 1)

معنى هذا أنه لم يأتِ بعد، انظر التعبير القرآني.

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

المعنى أنه ما أتى، تعرف ذلك من قوله تعالى:

(فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

هو قال:

(أَتَى)

عبّر عما يحدث بالمستقبل بالفعل الماضي تحقيقاً لوقوعه.

إذاً ربنا عزّ وجل قال:

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

لذلك أحد الصحابة قال: **<< والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً >>**، أيْ أنّ يقينه بوعد الله قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

صحابي آخر قال: **<< والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي >>**، أيْ أنه استنفذ طاقته في الطاعة، وإخواننا السائقون يقولون ـ العدّاد مغلِق ـ هذه أقصى سرعة ينطلق بها، فهذا هو المؤمن الذي يستحقُ وعد الله عزّ وجل، ويستحق النصر والتأييد، فنحن نجد المساجد مليئة، أما البيوت فليست إسلاميّة، والأسواق غصّت بالضلالات، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات، وعمّت تلك الأسواق الأيْمَان الكاذبة التي تدكّ الآذان، جعلها أصحاب المحلات فخاخاً لاغتنام الأرباح.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[متفق عليه]

فيها التدليس، فيها الكذب، فيها الغش، فيها بيعٌ لا يرضي الله عزّ وجل، فيها بيعٌ يشبه الربا، هذه أسواقنا، وهذه بيوتنا، فإذا كنت قد قرأت في القرآن وعدًا للمؤمنين بالنصر، ولم تجد هذا النصر، وقرأت وعدًا للمؤمنين بالحفظ، ولم تجد هذا الحفظ، قرأت وعدًا للمؤمنين بالتوفيق، وما وجدت التوفيق، فالقضيّة بسيطة جداً، عليك أن تشكّ بالموعود لا بالوعد، هذه فكرة دقيقة صائبة.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

معنى حق أيْ أنّهُ لابدّ من أن يقع، وزوال الكون أهون على الله من ألاّ يقع.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

هذا وعد إلهي لكل مؤمن، هذه الآية لا علاقة لها بالظروف المستجدّة، لا علاقة لها بالأزمات، لا علاقة لها بالفَقر، لا علاقة لا بالضعف، لا علاقة لها بالمرض، إنه وعدٌ إلهي.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ

من معاني استغفار النبي من الذنب:

العلماء وقفوا عند هذه الآية مواقف عديدة، بعضهم قال: استغفر لذنب أمّتك ـ شيء جميل ـ بعضهم قال: تعبّد الله النبي بهذا الدعاء، أيْ ادعُني هكذا ليقتديَ بدعائك أمّتُك من بعدك، استغفر لذنبك تعبُّداً، أيْ

تعبدني بهذا الدعاء لتكون قدوةٌ لأمّتك من بعدك. وبعضهم فسّر ذنب النبي عليه الصلاة والسلام تفسيراً رائعاً وهو أن النبي كلّما عرف الله في درجة، ثمّ عرفه في درجة أعلى يشعر أنه قد وقع في ذنب، ذنبه أنه ما عرفه حقّ المعرفة، ما قدّره حقّ التقدير، هذا تفسير أيضاً.

إما: " **واستغفر لذنب أمّتك** "، أو أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يتعبّده بهذا الدعاء لتَقتديَ به أمّته من بعده، وإما أن ذنب النبي عليه الصلاة والسلام له تفسيرٌ يليق بكماله، إنه كلّما عرف الله، ثمّ عرفه معرفةً أعلى، شعر أن معرفته السابقة ذنبٌ من الذنوب، كما لو أنك ظننت أن فلانًا يحمل هذه الشهادة، وعاملته على أنه يحمل هذه الشهادة، ثمّ اكتشفت أنه يحمل شهادة أعلى، تشعر بالخجل أمامه، ظننته في مستوى أقلّ مما هو فيه، هذه بعض التفاسير.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ بِالْعَشِيّ وَالْإِبْكَارِ)

وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ بِالْعَشِيّ وَالْإِبْكَار

1 ـ معنى العشي والإبكار:

العشي والإبكار قال بعضهم: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقال بعضهم: قبل أن تُفْرَض الصلوات الخمس كانت صلاتان ؛ صلاةٌ في الفجر، وصلاةٌ قبل النوم.

2 ـ لابد من التسبيح في كل وقت:

على كلٍ القصد أن المؤمن عليه أن يسبّح الله عزّ وجل في أوقاتٍ دوريّةٍ في يومه وليله، لأن ذكر الله غذاءٌ للقلوب، والأطبّاء يتحدّثون دائماً عن الغذاء المتوازن، تحتاج إلى بروتين، تحتاج إلى نشويات، وتحتاج إلى معادن، تحتاج إلى فيتامينات، تحتاج إلى خضار، فواكه، مواد دسمة مثلاً، والتعبير الآخر لابدّ من غذاءٍ متوازن، فأنت تحتاج إلى غذاء لجسمك، وهذا معروف وبديهي، وليس له مشكلة، لكنك تحتاج إلى غذاء لعقلك، وهو العلم، تحتاج إلى غذاء لقلبك، وهو الذكر، وتلاوة القرآن تقع في رأس الذكر، والاستغفار يعد من الذكر، والدعاء يعد من الذكر.

(وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ بِالْعَشِيّ وَالْإِبْكَارِ)

2 ـ لابد من محبّةِ الله المنعِم:

لذلك:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

أيْ أنّ عليك أن تحب الله لهذه النعم التي أنعمها عليك، فأنت من فرقك إلى قدمك مغموسٌ بنعم الله عزّ وجل، أقرب نعمة لك ذاتك، جسمك الذي بين جنبيك.

نعمة البصر، أحد الأدباء الذين فقدوا بصرهم، كان يذهب إلى بلد أوروبي يصيّف فيه ـ توفي هذا الأديب ـ خطر في بالي مرّة أنه لو وُضع في قرية من قرى الصعيد بغرفة فيها مكيّف فشأنه كما لو كان في ذاك البلد الغربي، لأنه لا يرى شيئاً ؛ جمال الطبيعة، جمال الجبال، جمال البحار، كل ما خلق الله من جمال لا معنى له بلا هذه العين، معنى ذلك ؛ انظر إلى عظمة ما أنت فيه من نعم: نعمة البصر، فنعمة السمع، نعمة النطق، نعمة العقل، نعمة الحركة:

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا))

[الترمذي عن ابن عمر]

نعمة السُمْعَة الطيّبة بين الناس، نعمة الأهل والتئام الأسرة في البيت، نعمة المأوى، نعمة الأولاد، فأنت مغمور بالنعم، وأقلُّ شيء في الجسم القناة الدمعيّة، لو سُدّت لصار الدمع دائماً يسيل على الخد، والدمع قلوي يحدِث التهابات في الجلد، فتحتاج إلى مراهم، وإلى محارم، وإلى مناديل، لأن القناة الدمعيّة سُدّت، كل شيء يعمل بانتظام ؛ القلب يعمل بانتظام، الرئتان، المعدة، الأمعاء، البنكرياس، الغدّة الدرقيّة، الغدد الأخرى تعمل بانتظام، الكظر، والنخاميّة، الأجهزة، العضلات، الأعصاب، الأوتار، جهاز الإدرار، كله سالم ومنتظم، هذه كلها نِعَم، وتتوجه أخيرا نعمة الهدى الذي يرقى بك إلى الله.

نعمة الإيجاد والإمداد والرشاد:

لذلك قال العلماء: هناك ثلاث نعم كبرى، نعمة الإيجاد، فأنت موجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

ونعمة الإمداد ؛ أمدّك بالهواء، أمدّك بالماء، بالطعام، بالشراب، بالأهل، بالبنين، بالمأوى.

وأخيرًا نعمة الهُدى والرشاد، وهي في رأس النعم كلِها.

(إِنّ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ)

1 ـ الجدل لردّ الحقّ:

هذه الآية دقيقة المدلول جداً، الإنسان أحياناً تتضارب مصالحه مع الهُدى، يتوهَّم أنه لو اهتدى لفَقَد مكانته، أو فقد منصبه، أو فقد دخله الكبير، له دخل مشبوه، لو أنه تاب إلى الله من هذا العمل لفقد دخله، لو أنه تابع النبي عليه الصلاة والسلام لفقد زعامته، هناك أشخاصٌ أقوياء أو أغنياء يتوهّمون أن مصالحهم تتناقض مع اتِّباع الهدى، لذلك يلجؤون إلى ردِّ الهدى، إلى تكذيب الدعوة، إلى الحديث عن أغلاطها، عدم منطقيّتها، هذا سمّاه الله الجَدَل، فالكلام الباطل هو الذي ليس رجل انم يقف عليهما، وليس عليه دليل ولا منطق، ولا واقعية، خلا من كل حقيقة، هذا الكلام المبني على أدلّة واهية، وعلى لقطات مفتعلة وفيها طعن في الدين، هذا الكلام سمّاه الله في القرآن الكريم جدلاً.

(وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا(54))

(سورة الكهف)

لأن أساس حياته شهوته، فإذا دعوته إلى الدينِ، والدين طبعًا يحدُّ من شهوته، فإنه يرفض هذا الدين، كيف يرفضه ؟ يدّعي أن هذا الدين كذب، يدّعي أنه سِحر، يدّعي أنه كِهانة، يدّعي أنه خيالات، يدّعي أنه أوهام، يدعي أنه غيبيّات، فما يقوله أعداء الدين من أن الدين غيبيّات، أو أوهام، أو مشاعر نفسيّة مرضيّة، أو شعور بالضعف أمام قوى الطبيعة، هذا الذي يقوله أعداء الدين ما هو إلا جدل، والسبب أنهم توهّموا أن اتباع الهدى يحدُّ من شهواتهم، وأن اتباع الهدى يقيّدهم، أو أن اتباع الهدى يفقدهم مراكزهم، أو أن اتباع الهدى يفقدهم دخلهم الكبير، لذلك يلجؤون إلى محاربة الدين، ويلجؤون إلى الطعن بالدين، وإلى تفنيد حقائق الدين، كما يلجئون إلى أدلّةٍ واهيةٍ متداعية، فماذا قال الله عزّ وجل في شأن هؤلاء ؟ لقد قال سبحانه:

(إنّ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

2 ـ الجدال بغير حُجّةٍ طمعا في المكانة العليّة:

بدون حجّة، وبدون دليل، ومن غير هدى، وليس لديهم كتاب منير، ولا نقل صحيح، ولا عقل صريح، قال:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلّا كِبْرٌ)

يطمعون في منزلة عليّة ولو اهتدوا لفقدوا هذه المنزلة، يتطلعون إلى ثروة طائلة، ولو تابوا إلى الله لفقدوا هذه الثروة، هذا الكبر، إما أنه كبر معنوي، أو كبر مادي يمنعهم من الهدى.

3 ـ المجادل بغير حق لا يبلغ هدفه الدنيوي:

لكن الشيء المؤسف أن هذا الكبر.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

هذا مثل يوضِّح الفكرة: لو أن إنسانًا يقود سيارة وأمامه طفل، فخاف أن يدهسه، فوضع رجله على المسرِّع بدَل المكبح، ما الذي يحدث ؟ يقتله، أخطأ الطريق، وأخطأ الهدف، هذا الحديث اجعلوه شعاراً لكم:

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

أيْ أنَّك إذا أردت أن ترضي الزوجة لتسعد بها على حساب دينك فلن تسعد بها، سوف تكون أشقى زوجٍ على وجه الأرض، لو أردت بهذه التجارة المحرّمة أن تصبح غنياً، لن تكون إلا أفقر الناس، إذا كان في الحياة شيء يناقض هذا الكلام ائتوني به.

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

على مستوى التجارة، على مستوى الوظيفة، إذا أردت أن تتقرّب من هذا الذي هو أعلى منك رتبة في الوظيفة، فعصيت الله إرضاءً له، فلن يزيدك هذا العمل إلا بعداً عنه، وهو يحتقرك، يخلق الله الظروف فيبعدك عنه، أنت عصيت الله من أجله، فالله ألهمه أن يسخط عليك، وهذه سنّة طردية، لذلك أنا أمتحن عقل الإنسان من هذا الباب، هل يسلك إلى أهدافه طريق الصحيح ؟ إن سلك إلى أهدافه ـ وقد تكون أهدافه مشروعة ـ إن سلك إلى أهدافه المشروعة طريقَ التقوى فالله عزّ وجل يوفقه ويسدِّده، وإلاّ يخطئ أهدافه، ويجانبه التوفيق، بل قد يكون قد تردّى في ضلال، ويجني الفشل و الخيبة.

هناك حفرةٌ سحيقة ما لها من قرار، وهنا قصرٌ منيف رائع، وأنت بين الحفرة والقصر، فإذا سلكت إلى هذا القصر سبيل المعصية اقتربت من الحفرة، وابتعدت عن القصر، وإذا سلكت لهذا القصر طريق الطاعة اقتربت منه، أيْ لا يمكن أن يتحقّق هدفٌ سامٍ وغاية صالحة على وجه الأرض إلا بتوفيق الله، لقول الله عزّ وجل:

(وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللَّهِ)

(سورة هود: من الآية 88)

لذلك:

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

إذا خالف الإنسان أمر الله عزّ وجل في البيع والشراء ليحصِّل ثروةً طائلة، هذا المال الذي حصّله يمحقُه الله، ويتلفه، وما أكثر الطرق التي يُتْلَف بها المال، يقول لك: لست محظوظًا، والحقيقة أن تلفُه بسبب المعاصي، ويا ربِّ لقد عصيتك، ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر.

احفظوا هذا القول:

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

هنا يقول:

(إِنّ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ)

هم عرفوا أن النبي على حق، وأن دعوته حق، وأن القرآن حق، وأن الجنّة حق، وأن الآخرة حق، لكنهم لو تبعوه لفقدوا مكانتهم في قومهم، وفقدوا زعامة قريش، وصاروا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، في نظرهم صاروا سوقةً، وقد كانوا سادةً، لذلك عارضوه، وناجشوه، وكذّبوه، وقالوا: ساحر، وشاعر، وكاهن، ولم يصدِّقوه، وائتمروا على قتله، وأخرجوه، فماذا كانت النتيجة ؟ أنه خاطبهم، وهم قتلى في بدر فقال فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنّى يُجِيبُوا، وَقَدْ جَيّفُوا ؟ قَالَ: وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[مسلم]

(إِنّ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

ليس لديك حجّة، وليس لديك دليل، وليس من آية كريمة واضحة، ولا حديثٍ صحيح، ولا منطق ولا برهان، لكنك تريد أن تعارض الدين رغبة في المناجزة وكبرًا، وأن تتهمه اتهامات باطلة، أن تنعته بما هو بريء منه، تريد أن تطعن برجال الدين مماحكة، لأنهم إذا دعوك إلى الله حَدُّوا من شهوتك، هؤلاء.

(إِنّ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلّا كِبْرٌ)

هذه (إن) حرف نفي بمعنى ما، أيْ ما في صدورهم إلا كبرٌ.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

4 ـ المعصية لا تقودك إلا إلى الخسارة:

بالتعبير العامي ـ لا يحلمون فيها ـ لا تحلم عن طريق المعصية أن تنال أهدافك، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعزُّ من عاديت، لا تحلم أن تصل إلى هدفك بالمعصية، المعصية لا تقودك إلا للهاوية، المعصية لا تقودك إلا إلى الذُل، المعصية لا تقودك إلا إلى الفقر، المعصية لا تقودك إلا للمصيبة، المعصية لا تقودك إلا للهلاك، لذلك:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

فاحذر أن تكون منهم، فالتعليم لنا معشر المؤمنين، إياك أن تبتغي أمراً بمعصيةٍ، إياك أن يمنعك كبرك، ومركزك، ومكانتك، ومالك عن أن تستجيب لأمر ربّك، فهناك من أعمام النبي من هم أكبر منه سناً، بعضهم استجاب له فكان إذا سُئل عن النبي يقول: **<< هو أكبر مني، وأنا ولدِتُ قبله >>**، فالله رفع شأنه، جعله في أعلى عليين، والذين عارضوه، وكذّبوه كبراً وحسداً قال الله عنهم:

(تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(3))

(سورة المسد)

فبشكل عام لا تمنعك مكانتك، علمك، شهادتك، مكانتك الماليّة، مكانتك الاجتماعيّة أن تحضر مجلس علم، لا تمنعك مكانتك أن تستجيب لإنسان مخلص في دعوته، يهدف إلى إرساء الحق في المجتمع، أخي أنا أكبر منه في السن، أنا أفهم منه، أنا أذكى منه، أنا لي مكانة أسمى، هذه عنعنات جاهليّة، قال جبلة بن أيهم لعمر الخليفة:

كيف ذاك يا أمير هو سوقةٌ وأنا عرشٌ وتاج ؟

كيف ترضى أن يخرّ النجم أرضَ ؟

قال له:

هذه نزوات الجاهليّة، ورياح العنجهيّة قد دفنّاها، وأقمنا فوقها صرحاً جديدا، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا

* * *

الإسلام سوّى بين الناس، الإسلام أعطى قيَمًا خالدة.

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

زعيم قريش وقف في باب عُمر ساعات لم يؤذن له، أما بلال وصهيب يدخلان بلا استئذان، قال له بعد طول انتظار: **<<زعيم قريش يقف في بابك ساعاتٍ دون أن يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان ؟! قال عمر: أأنت مثلهما >>**. إنه عزُّ الإسلام.

ثم قال تعالى:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)

5 ـ الكبر ماديّ ومعنويّ:

إما كبر مادي، خائف على ثروته، كأن يكون ممن يتعامل بالرّبا، فكل مجلس علم فيه كلام عن الربا يهاجمه، ويدّعي أن هذا الشيخ لا يفهم. لماذا ؟ لأنه يتناقض مع مصلحته الماديّة، فهذه المجادلة أساسها مصلحته، قال:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)

أو كبر معنوي، له مكانة، إذا اتّبع أهل الإيمان صار تابعًا، ولم يعد الشخص الأول.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

وبالتعبير العامي ـ لا يحلمون فيه ـ أي لن تتحقق أحلامهم، بل ستبقى أحلامهم أوهامًا، والدليل التاريخ أمامكم، كفّار قريش ما مصيرهم ؟ دُفِنوا في قليبٍ في بدر، أصحاب النبي ؛ رفع الله شأنهم، وأعلى مكانتهم، وفُتِحَت البلاد على أيديهم، ونحن نترضّى عنهم كل يوم، وازن بين أبي جهل وبين عكرمة بن أبي جهل، هذا سيدنا عكرمة، والثاني تقول: أبو جهل، لأنه جهلٌ في جهل، أو قل: جهل مركّب.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

المعرض عن الحق غواه الشيطان فلابد من الاستعاذة منه:

فالإنسان ليحكّمْ عقله، وليخضعْ نفسه للحق، وليروّض نفسه على قبول الحق والرضا به، وأحياناً الإنسان الكبير يدفعه الكبر، ويحول بينه و بين الحق والصواب، بينما يكون مجلس العلم عند المؤمن روضة من رياض الجنّة، تتعرف فيه على كلام الله عزّ وجل، وتفهم معانيه و مراميه، وهذا مكسب عظيم جداً، تعرف كتابك المقرّر الذي سوف تُمتحن به، تعرف منهجك، تعرف دستورك، تعرف خطاب الله لك، تعرف ماذا يريد الله منك، كل هذا في كتاب الله، وكل هذا في مجالس العلم، فالإنسان يدّعي بأنه لا وقت لديه إنما هو فريسة للشيطان، قاده مِنْ ناصيته واستقاده، و لم يعد قادراً على الإفلات منه، قال سبحانه في وصفهم:

(كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

الدنيا لديه لعب ولهو، وهناك سهرة تروّح عن نفسه بعد أسبوع من عمل متواصل كما يدّعي، وقد يدّعي أن السوق اليوم مقبلة رابحة، ومنذ وقت والأسواق كاسدة، وهذه فرصة لا يريد أن تفوته، والخلاصة أن الدنيا أثيرة، وآخرته هينة رخيصة، لذلك:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (15-20): تفسير الآيات57 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-09-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة غافر، ومع الآية السابعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْق النّاس وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْق النّاس وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

لهذه الآية معانٍ عدّة، من أبرز معانيها:

المعنى الأول:

أن الله سبحانه وتعالى يبيّن للناس أنكم إذا أنكرتم البعث ـ بعث الأجساد يوم القيامة لتحاسبوا على كل ما فعلته أيديكم في الدنيا ـ إذا أنكرتم البعث، لاستحالة البعث في نظركم فهذا إنكارٌ موهوم، لأن الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ على أن يُعيد هذه الأجساد إلى ما كانت عليه، وقادرٌ على أن يحاسبها، لأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

هناك قريبا من مليون مليُون مجرّة، وإذا كان في المجرّة قريبا من مليون مليون نجم، وبعض النجوم يكبُر الشمس بملايين المرّات، وبعض النجوم يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، ونجومٌ لا يعلم عددها إلا الله، والكائنات في تنوّع عجيب، ولقد قرأت قبل أيام كلمة أن هناك مائتي مليون نوع من الكائنات الحيّة.

(لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْق النّاس وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني:

أما المعنى الثاني: أنه إذا قلنا: إنّ الإنسان قد صنع هذا الشيء فهو إذًا صانع، إذا وازنّا بين صنعة الإنسان وصنعة الله عزّ وجل فهناك فرقٌ كبير، فالكُلية الاصطناعيّة لها حجمٌ كبير يزيد على حجم هذه الطاولة، والإنسان يحتاج إلى أن يبقى ثماني ساعات لينظّف دمه في عملية غسيل من حمض البول،

ويحتاج هذا في الأسبوع مرّتين، يُعطّل عن عمله، ويدفع أجراً باهظاً، وهذه الكلية الصناعيّة لا ترقى إلى الطبيعيّة إطلاقاً، فلابدّ من أن يبقى من حمض البول نسبة في الدم لا تستطيع الكلية الصناعيّة أن تنقي الدم منها.

لكن الكلية الطبيعيّة، وللإنسان كليتان صغيرتان تعملان بلا صوت، فيهما طاقةٌ للتصفية تزيد عشرين ضعفاً على حاجة الإنسان، أي أن كل كلية حجم تصفيتها عشرة أمثال حاجة الإنسان، تعملان بلا صوت، بلا ألم، بلا تعطيل.

وازن بين هذه العين وآلة التصوير، بينهما مسافةٌ كبيرةٌ جداً، هذه العين تلتقط الصور آناً بعد آن، مباشرةً، وتراها بحجمها الطبيعي، وبألوانها الزاهية دون أن تحتاج إلى سحب الفيلم، وطبع الفيلم، وتحميض الفيلم، مباشرةً بالحجم الطبيعي، ولو أتيت بأرقى آلة تصوير لما أمكنك أن ترى هذه الألوان الدقيقة التي في وجوه الناس، والعين البشرّية ترى من اللون الواحد ثمانمائة ألف درجة، أي لو درّجنا اللون الأخضر ثمانمائة ألف درجة لأدركت العين الصحيحة السليمة الفرق بين درجتين، دقّةٌ ما بعدها دقّة، وتنوُّعٌ ما بعده تنوُّع.

يكفي أن العين البشريّة فيها عملية المطابقة التي يعجز عن تصوُّرها الإنسان، عدسةٌ مرنة يزداد تحدبها، أو يزداد انبساطها، حيث إن خيال الشيء المنظور يبقى على الشبكيّة دائماً، وعمليّة المُطابقة عمليّةٌ تأخذ بالألباب، فلو جئت بعدسة من البلور، ووضعت أمامها شمعة، وضعت خلفها ورقا مقوّى، وحرّكت هذه الورقة، إلى أن ترى خيال الشمعة صغيراً ومقلوباً في مكانٍ ما من الورقة، هذا المكان الذي يبعد عن العدسة اسمه المِحْرَق، لو أبعدت هذه الصحيفة من الورق المقوّى ميليمترًا لأصبح الخيال غير واضحٍ، فكيف أن العين ترى الناس في الطريق يتحرّكون؟.

أحياناً تُلاحظُ العينُ الكرةَ في الملعب، وتلاحقها حيثما اتجهت، كيف ترى العين دائماً الأشياء بوضعٍ دقيقٍ صحيحٍ واضح ؟ والشبكيّة بعدُها ثابت عن العدسة، ولابدّ أن العدسة هي التي يزداد تحدبها وانبساطها حيث يبقى الخيال على الشبكيّة دائماً، هذه عملية إدراكها صعب فضلاً عن إحداثها. أي شيءٍ إذا أردت أن تتصوّره.

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)

الأجهزة، السمع، البصر، النطق، ولقد قرأت مرةً أنهم لو أرادوا أن يصنعوا حاسوباً أو عقلاً إلكترونياً إن صحّ التعبير كعقل الإنسان لاحتاجوا إلى أكبر شارع في أكبر مدينة في العالم، والأبنية على الصفين كلّها صمّامات من أجل أن يكون هذا العقل كعقل الإنسان، وجميع العقول التي اخترعوها عقولٌ غبيّةٌ جداً، لا تستطيع أن تتصرّف إلا بحسب ما لقّمتها.

إذاً: لو أردت أن تمايز بين العقل البشري وهذا العقل ـ الحاسوب ـ الذي صنعه الإنسان لوجدت فرقا كبيرا جداً، يمكن أن تقضي في هذا الموضوع أشهراً عديدةً، بل سنواتٍ وأنت توازن بين صنعة الإنسان وصنعة الواحد الديّان.

تبرّدُ الهواء بأجهزة لها تكاليف باهظة، أثمانها باهظة، والطاقة باهظة، قد تأتِي نسماتٌ عليلة تلغي كل أجهزة التكييف في البلد، يقول لك: نسمات منعشة، إذا أراد ربنا عزّ وجل أن يجعل النسيم لطيفًا وعليلًا فما هي إلا لحظات يسيرة و يصير الجو لطيفًا إلى حدٍّ قد لا يصدق.

انظر إلى وردةٍ صناعيّةٍ من البلاستيك، مهما بالغنا في إتقانها ضع إلى جانبها وردة طبيعيّة، تشعر بفرقٍ كبيرٍ جداً بين الوردتين، الأولى نابضة بالحياة، تتمنّى أن تشمّها، وأن تضمها، والثانية بعد أيامٍ عديدة في البيت تعافُها، ما دخلت إلى بيت إلا ورأيت أن الذين يضعون الأزهار الصناعيّة يعافونها بعد فترة، لأنه لا حياة فيها، لكن الأزهار الطبيعيّة فيها حياة، فيها رائحة، فيها جمال، فيها ألوان دقيقة جداً، هذا شيء لا ينتهي الحديث عنه.

(لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

على كل، لو أخذنا المعنى الأول، أن الآخرة حق، وأن بعث الناس حق، وأن محاسبة الناس حق لعلمنا أن هذا الموضوع حق، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان خلق عبثاً يعيث المفسدون في الكون كما يشاءون ولا حساب عليهم، يقول الله عزّ وجل:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أكثر الناس غافلون عن مصيرهم في الآخرة:

لا يعلمون أنهم سوف يحاسبون، لا يعلمون أنهم سوف يدفعون ثمن أخطائهم باهظاً، لا يعلمون أن هناك حياةً أبديّةً لا نهاية لها، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، لا يعلمون أن كل درهمٍ تأكله حراماً سوف تحاسب عليه، لا يعلمون أن كل نظرةٍ لا يحقُّ لك أن تنظرها سوف تحاسب عليها، لا يعلمون أن كل كلمةٍ تتفوّهُ بها في حق أخيك من دون دليلٍ، من دون مستندٍ شرعيٍ تحاسب عليها، لا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليجزيَهم على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

إن أردنا المعنى الأول: فالذي خلق السماوات والأرض ظاهرةٌ قدرته، ظاهرٌ علمه، ظاهرةٌ حكمته، والذي خلق السماوات والأرض على عظمها دليل على أنه قويٌ، قديرٌ، غنيٌ، عادلٌ، رحيمٌ، قادرٌ على أن يعيد الأجساد إلى ما كانت عليه، وإلى أن يحاسبها على كل ما اقترفت في الحياة الدنيا.

لا مقارنة بين خلق الله وصنع الإنسان:

وإن أردت أن تفهم الآية فهماً آخر، أنك إذا وازنت بين خلق السماوات والأرض وبين صنع الناس ترى البون شاسعاً، والمسافة كبيرةً جداً.

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

1 ـ المؤمن بصير والكافر أعمى:

أدقُّ وصفٍ للمؤمن أنه بصير، وأبلغ وصفٍ للكافر أنه أعمى، وأنت إذا كنت مبصراً، ورأيت إنسانًا فاقد البصر يتحرّك في طريقٍ وعرٍ، فيه حفرٌ وأكماتٌ وحشراتٌ، ورأيت كيف أنه يتحرّك دون هدايةٍ، يتّجه نحو الحفرة وهو لا يدري، يكاد يصطدم بالشجرة وهو لا يدري، تعرف قيمة البصر، فربنا سبحانه وتعالى أراد أن يُجَسّد حالة المؤمن بأنه كالبصير، يرى الأشياء على حقيقتها ؛ يراها بأحجامها، وبأشكالها، وبألوانها، وتفاصيلها، يرى الحقيقة، يرى سرّ وجوده، يرى غاية وجوده، يرى علّة وجوده، يرى عظمة ربّه عزّ وجل، يرى منهج الله الحكيم، يرى ذلك الصراط المستقيم، يعرف أنه إذا خرج عنه سوف يحاسب، وسوف يخسر لأن منهج الله عزّ وجل فيه بذور نتائجه.

أحياناً لا ترى علاقة علميّة بين الشيء وما يَتْبَعَهُ، وأحياناً ترى أن هناك علاقة علميّة، فإذا مسست بإصبعك المدفأة وهي مشتعلة، فمسُّك لهذه المدفأة من نتائجه الحتميّة احتراق اليد، فاحتراق اليد نتيجة حتميّة لِمَسّ المدفأة، نقول: بين المسّ والاحتراق علاقةٌ علميّة، علاقة سببٍ بنتيجة.

2 ـ كل معصيةٌ هي سببٌ لنتائجها:

وإذا كنت متعمِّقاً في الدين ترى أن كل معصيةٌ هي سببٌ لنتائجها، فإطلاق البصر سببٌ للشقاء الزوجي، وأكل المال الحرام سببٌ لإتلاف المال، والأمانة سببٌ للغنى، وضبط اللسان سببٌ لسعادة الإنسان، ونزاهة الإنسان سببٌ لرفعته بين الناس، فكل طاعةٍ لها نتيجة نابعةٌ من الطاعة نفسها، وكل معصيةٌ لها نتيجةٌ نابعةٌ من المعصية نفسها، ففي الطاعات بذور النتائج، وفي المعاصي بذور النتائج.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أو لا يذكرون، لأن المؤمن بصير والكافر أعمى، لو تخيلنا أن أي مخلوق رأى ما يراه المؤمن لسلك ما يسلكه المؤمن، فالأزمة أزمة علم، فالإنسان بحسب حبّه لذاته، وحبّه لوجوده، وحبّه لسلامة وجوده، وحبّه لكمال وجوده، وحبّه لاستمرار وجوده يحرص على سعادته وعلى سلامته، فلو أن مجموعة أشخاص عرفوا المعرفة نفسها لسلكوا السلوك نفسه، فالإنسان بدافع من حرصه على ذاته، على سلامته وعلى سعادته يطبّق التعليمات، فالأزمة أزمة علم فقط، لذلك: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

كل إنسان لو أتيحت له معرفة المؤمن لصار مؤمناً، ولسلك سلوك المؤمن بالتمام والكمال.

3 ـ غضُّ البصر قيد للسلامة لا قيد للحريات:

أضرب مثلاً من واقع حياتنا الدنيويّة: لو أنّ طبيبًا هادئًا جداً وضّح للمريض أن هذه الأكلة هكذا تفعل في جسمك، والملح يرفع ضغط الدم، وبرفع ضغط الدم تصبح معرّضاً لانفجار شريانٍ في الدماغ، وانفجار شريان في الدماغ يعني سكتة دماغيّة، مما يعني الموت المحقّق، فحينما توضِّح للمريض أخطار ارتفاع الضغط، وأخطار استعمال المِلح الزائد بالدليل العقلي يقنع، بدافعٍ من حرصه على حياته، وبدافعٍ من خوفه من أن يصاب بمرضٍ عُضال يتّبع التعليمات، فالأزمة أزمة علم فقط، وأي إنسان لو أقنعته أن في طاعة الله سعادةً، وفي طاعة الله سلامةً، وفي طاعة الله توازنًا، وفي طاعة الله طمأنينةً، أيّ إنسانٍ إذا أقنعته أن أمر الله عزّ وجل ليس غايتُه حدًا من حريّتك، ولكنّه ضمانٌ لسلامتك يستقيم، وحينما تتحرّك في حقل تُفاجأ بلوحة كُتِبَ عليها: انتبه حقل ألغام، ممنوع التجاوز، هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة ؟ بالعكس تشعر بامتنان بالغ له، لأنه أراد سلامتك، يقول بعض من زاغ بصره: يا أخي قيّدونا، هذا ليس قيدًا، فمن يقول لمن وضع لوحةً تنبّه المارة إلى أن بعد اللوحة حقل ألغام: إن هذا قيد، الذي يقول: إنهم قيّدونا وضيّقوا من حريّتنا، هذا جاهل، أما العاقل فيشكرهم على هذه اللوحة لأنها ضمانٌ لسلامتنا.

فإذا كنت عاقلاً وفهمت أوامر الدين هذا الفهم فإنك لا ترى أن في غضّ البصر تقييداً لحريّتك، بل فيه ضماناً لسلامتك، لا ترى في كسب المال الحلال تضييقًا للمكاسب، بل هو سلامة لها، لا ترى في اختيار الزوجة الصالحة تضييق لمجال الاختيار، لا، إنك تضمن سعادتك الزوجيّة طوال حياتك حينما تبحث عن امرأةٍ مؤمنةٍ صالحة، فكلّما ازداد إيمان الإنسان يرى أن أوامر الله عزّ وجل ونواهيه ضمانٌ لسعادته، وسلامته، وأنه كلّما ضعف إيمانه يرى أوامر الشرع ثقيلة عليه، تجده يقول: أوامر الشرع ثقيلة يا أخي، الدين أعباء كله، الإنسان من دون تديُّن، طليق ؛ وفي إطلاقه راحة، هكذا يدعي.

ربنا عزّ وجل وصف الكافرين بأنهم في ضلال، كلمة (في) تشير إلى دخول شيء في شيء، الكافر بارتكابه أغلاطاً كثيرةً ؛ بكسب المال الحرام، بإطلاق شهواته عشوائيًا على عواهنها، لابدّ من أن يقع في مغبّة أعماله الشريرة، لابدّ من أن يقع في فخ، لابدّ من أن يقع في مَطب، لابدّ من أن يدفع الثمن باهظاً لذلك يشعر بأنه محبوس، إنه مُقيّد، إن هذه النفس مقيّدةٌ بمعصيتها.

(وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(81))

(سورة البقرة)

(أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(22))

(سورة الزمر)

أما المؤمنون:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 5)

الهُدى يرفعهم، الهدى في ظاهره أنه قيود، أما في حقيقته رِفْعَة، وعلو، وسمو، وطلاقة، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

المستقيم عندما قيّد نفسه ملك حريّته، والفاسد لما أطلق لشهواته العِنان فَقَدَ حريّته، أليس هذا واضحاً في المجتمع ؟ الذين يسرقون، أو يزنون، أو يرتكبون الموبقات ثم يُلقى القبض عليهم، ويودعون في السجون سنواتٍ طويلة، هؤلاء ألم يكونوا أحراراً ؟ ولأنهم تحرّكوا بلا منهج بلا دستور فقدوا حريّتهم، أما الذين انضبطوا بالمنهج بقوا أحرارًا طوال حياتهم، ففي الحياة مفارقة، كلّما ضبطت نفسك ضبطاً ذاتياً ملكت حريّتك، وكلّما تفلّتت من قواعد الشرع فقدت حريّتك، وأبلغ مثل: الذي أمضى حياته في طاعة الله، وفي تحري الحلال، وفي خدمة الخلق، وفي الأمر بالمعروف وفي النهي عن المنكر، وفي تلاوة القرآن، وفي تعلّم القرآن، وفي تعليم القرآن، الذي أمضى حياته في إطار أباحه الشرع الحنيف، و سمح به، إذا جاءه ملك الموت كيف تكون حاله ؟ يقول له: مرحباً، نحن مشتاقون إلى لقاء الله عزّ وجل، أما الذي أطلق لشهواته العِنان في الدنيا، إذا جاءه ملك الموت فهو من أشقى الناس، لأن كل هذه الحريّة الموهومة، والتفلّت من قواعد الشرع جعلته في قيودٍ ما بعدها قيود، جعلته أسير معاصيه، رهن مخالفاته، إذاً:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

4 ـ الناس رجلان مؤمن أو كافر:

الحقيقة أن التصنيف الدقيق للناس ليس أشكالهم، فمقياس الشكل ليس له قيمة، ولا لمقياس المال قيمة، ولا لمقياس النسب قيمة، ولا لمقياس الذكاء قيمة، ليس لهذه الاعتبارات قيمة تذكر، وإنما المقياس أهو أعمى أم بصير، الأعمى يتحرّك تحرُّكاً عشوائياً، ولابدّ من أن يقع في مطّباتٍ كثيرة، لكن البصير يرى الطريق أمامه واضحاً، يرى الهدف واضحاً فيتحرّك حركة صحيحة.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

وهذا أبلغ وصف وَصَف به ربنا عزّ وجل حقيقة المؤمن و الكافر.

بالمناسبة: ربنا جلّ جلاله إذا وصف شيئاً وصفه صفة جامعة مانعة، صفة مترابطة مع الموصوف ترابطاً وجودياً، المؤمن بصير والكافر أعمى، والدليل كلّما رأيت كافراً يتحرّك رأيت في حركاته الحُمْقَ الشديد، والرعونة البالغة، رأيت في حركته انحرافاً عن مبادئ فطرته، انحرافاً عن العدل، انحرافاً عن الرحمة، انحرافاً عن الحكمة، انحرافاً عن الفطرة، قد تعجب، فلك أن تعجب، ولك ألاّ تعجب فهو أعمى، فإذا رأيت أعمى انزلق في الهاوية فهل تغضب عليه ؟ إنك تتألّم لمصيبته، فالكافر أعمى، وأنا بدوري كلّما قال لي إنسان: هذا العمل أمعقول أن يفعله فلان ؟ فأين حكمته ؟ أقول له:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

لأنه انقطع عن الله عزّ وجل، حرّكته شهواته، والشهوة عمياء رعناء تدفعه نحو كسب مكاسب أرضيّة سخيفة، هذه المكاسب الأرضية السخيفة تجعله معرّضًا للتهمة، وللمصائب، وللموبقات، وأقرب مثل بين أيدينا: الذي يذهب إلى بلدٍ غربي، وتزلُّ قدمه يصاب بمرض يدمِّره، فذلك مرضه أصاب زوجته وولده، والآخر أصاب أمّه، وكل أسبوعين أو ثلاثة تجد واقعة مذهلة، نقرؤها في الصحف اليوميّة، ونسمع أشياء لا تُصدّق، إنسان دمّر حياته، دمّر زواجه، دمّر والدته، دمّر أولاده، هو نفسه تدمّر وهو في ريعان الشباب، فكل إنسان يبحث عن سلامته وعن سعادته عليه بطاعة ربّه، لأنك آلة معقّدة جداً، والله عزّ وجل هو الصانع، وهذا القرآن فيه تعليمات الصانع، بدافعٍ من حبّك لذاتك، بدافعٍ من حرصك على سلامتك عليك بطاعة ربّك.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

الكافر أعمى، والتصنيف الدقيق الدَقيق للبشر، الناس رجلان: موصولٌ ومقطوع، الموصول بصير، المقطوع أعمى، الموصول منضبط بالشرع، المقطوع متفلِّت، الموصول محسن، المقطوع مسيء، هذا هو التصنيف الحقيقي، وهذا هو الفرز العلمي للبشر، أما أن يقول لك: الانتماء التاريخي، العِرق،

الجنس مثلاً، البلد، المنشأ، نشأ في منطقة جبليّة، منطقة سهليّة، من العِرق الآري، من العِرق الأوروبي، من العِرق السامي، هذه التقسيمات لا معنى لها إطلاقاً، التقسيم كائن موصول أو مقطوع، الموصول بصير، المقطوع أعمى، الموصول منضبط، المقطوع متفلِّت، الموصول محسن، المقطوع مسيء، الموصول سعيد المقطوع شقي، هذا هو التقسيم الصحيح تقسيم خالق الكون، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((فَالنَّاسُ رَجُلانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن ابن عمر]

الأمور واضحة كالشمس، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[كنز العمال عن العرباض]

5 ـ المؤمن معه من الله حافظٌ:

فأحياناً تلاحظ إنسانًا في حياته الزوجية والأسرية يتحرّك وكأنه أعمى، لسببٍ تافهٍ جداً يطلِّق امرأته وعنده خمسة أولاد، يطلِّقها ويركب رأسه، والسبب تافه جداً، أولاده شُرِّدوا، زوجته نقمت عليه، خرجت من دينها نِكاية به، أسرة شُرِّدت، الأولاد ضاعوا، لنزوةٍ طارئةٍ ولغضبٍ طارئٍ، أما المؤمن فمعه مَلَكٌ يُسَدِّده، معه من الله حافظ.

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

الله وليُّك، فتصوّر إنسانًا يتولى خالقُ الكون أمره ؛ يسدِّده، يلهمه رشده، يهديه إلى سواء السبيل، يحذِّره، يؤدِّبه أحياناً، يعالجه، يعلِّمه، يجمعه مع أهل الحق، هذا معنى:

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

من معصية إلى معصية، من خيانة لخيانة، من أذى إلى أذى، من إساءة إلى إساءة إلى أن يقعوا في قبضة العدالة، أو إلى أن يقعوا في قبضة عذابهم النفسي، أو إلى أن يقعوا في قبضة ملك الموت حيث جهنَّم وبئس المصير، هكذا.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

6 ـ فرق كبير بين المؤمن والكافر:

قد تجد الفرق أحيانا قليلا، كأس ماء صغير ومتوسط، وهناك كأس أكبر، كأس وطني، وكأس أجنبي، كأس رفيع وطويل، كأس عريض وقصير، لكن كلاهما كأس، وكلاهما صالحٌ للشرب، وأحياناً ترى فرقاً شاسعاً جداً بين الشيئين، فقطعة لحم طازج، وقطعة لحم فاسد، قطعة اللحم الفاسدة لا تستطيع أن تشمّها، ولا أن تقترب منها، بل تعدو فراراً من رائحتها، تعدو هاربًا، أما اللحم الطازج تُقبل عليه، إذًا الفرقُ كبير، فإذا قال ربنا:

(لاَ يَسْتَوِي)

ليس معنى هذا أن هناك فرقاً قليلاً، بل هناك فرق كبير جداً على طرفي نقيض.

مثلاً: المؤمن مؤنس، وذاك موحش، المؤمن يطيّب القلوب، وذاك يوجعها، المؤمن يمدح، بينما الكافر يقدح، وكلماته جارحة، المؤمن يؤلِّف، وذاك يفرّق، المؤمن يصل بالله، والكافر يقطع عن الله، المؤمن يحبّب بالآخرة، وذاك يحبّب بالدنيا، المؤمن يرحم، والكافر يقسو، المؤمن ينصف، و الكافر يظلم، المؤمن يتلطّف، وذاك يتواقح، فالمسافة بينهما كبيرة جدًا.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن منضبط والكافر متفلِّت، المؤمن رحيم، والكافر قلبه كالصخر الجلمود، قاسٍ جداً.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

العوام يعبّرون عنها بقولهم:المسافة مائة وثمانون درجة، إنسان في أقصى اليمين، وإنسان في أقصى اليسار، إنسان محسن، وإنسان مسيء، هذا مؤمن، وذاك كافر.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ

1 ـ لابد من العمل الصالح مع الإيمان:

الذين عملوا الصالحات ذكرهم بعد الإيمان، لأن العمل الصالح من دون إيمان مشبوه ومشكوكٌ فيه، وعملٌ قد يكون لنيات شريرة.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ)

المعنى أن العمل الصالح المقبول من الله عزّ وجل هو العمل الذي سبقه الإيمان، وإلا إذا كان العمل الصالح بدافع من ذكاء الإنسان، هدفه أن يكثِر جماعته، هدفه أن يكون له شعبيّة، هدفه أن يروّج بضاعته أحياناً، هذه أخلاق تجاريّة، أخلاق أساسها ذكاء الإنسان ومصالحه، لكن إذا تضاربت مصالحه انقلب كالوحش الكاسر، ولكن نظرًا لوجود انضباط شديد بفعل الأجهزة فيقولون لك: الصالة مراقبة تلفزيونياً ـ ولقد انقطع التيار الكهربائي في إحدى الليالي في بلد أجنبي فارتكبت مائتا ألف سرقة في تلك الليلة ـ هذا معنى الانضباط خارجي، انضباط الردع لا انضباط الوازع الداخلي، وفرقٌ كبير بين الردع الخارجي والوازع الداخلي.

لذلك ربنا وعزّ وجل وصف العمل الصالح الذي يصلح للعرض على الله بأنه العمل الذي سبقه الإيمان.

أوضح مثل: إنسان عليه سند، تسديد قيمة السند عمل صالح، ولكن يا ترى ما الدافع ؟ لعله تاجر له اسم مرموق بين التجار، فإن لم يسدد قيمة السند يلطِّخ اسمه في الوحل، إذا لم يسدد فخصمه قويٌ يشكوه للقضاء، فيحجز الخصم محلّه التجاري، وخصمه يضع السند في التنفيذ، فإذا بادرت إلى تسديد السند فهذا عمل مدني ـ سلوك مدني ـ لكن متى يكون عند الله عملاً صالحاً ؟ إذا كان خصمك لا يملك عليك أية وثيقة، وقد أعطاك المال، وتوفّاه الله، ولا أحد في الأرض يطالبك، وأنت بدافع من إيمانك بالله عزّ وجل وخوفك منه، وخوفك من الوقوف بين يديه يوم القيامة، تتوجّه إلى ورثة هذا الصديق، وتدفع لهم المال.

والله حدّثني أخ ـ بطريق رسالة وأنا لا أعرفه ـ قال لي: والله دفعت عشرين مليون لجهةٍ لا تملك عليّ أية وثيقة ـ أنا محتفظ بهذه الورقة عندي، كان المبلغ أمانة عنده، والذي ائتمنه على المبلغ مات، وليس بينهما أية وثيقة، والأهل لا يعلمون بذلك، فبادر إلى أداء الأمانة لأصحابها، فهذه هي الأمانة حقًا.

العفو مثلاً، العفو عمل صالح، ولكن من هو الذي يعفو ؟ هو الذي يكون له عدوٌ نال منه أشدّ النَيْل، ثم وقع العدو في قبضة الأول، وكان قادراً على أن يوقِع به ما يشاء من عقوبة، وأن يكيل له الصاع عشرة، لكنه عفا عنه، فالعمل الصالح الذي يسبقه الإيمان رائع جداً، عمل نزيه، عمل مبرّأ عن الشبهات، مبرّأ عن الدوافع الخسيسة، عمل يبتغي به صاحبه وجه الله عزّ وجل، إذاً:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

2 ـ المؤمن محسن والكافر مسيءٌ:

طبعاً الأعمى سوف يسئ، لأن المحرِّك شهوته، والشهوة عمياء، أما البصير فهو الذي عرف الله عزّ وجل، إذاً صار محسناً.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ)

أنت راقب إنسانًا مهتديًا، التق به، انظر إلى جلسته، انظر إلى هندامه، انظر إلى منطقه، انظر إلى حركاته، انظر إلى طعامه، سافرْ معه، انظر إلى ورعه، إلى مروءته، إلى كرمه، اسكن معه، عامله بالدِرهم والدينار تجده نموذجا في الهداية و الورع، عامل إنسانًا آخر ترَ من حقده، ومن طيشه، ومن أنانيّته، ومن حرصه على مصالحه، ومن تجاوزه لحقوق الآخرين الشيء الكثير، لذلك ربنا قال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

أكبر خطأ حينما تتوهّم أن الأعمى كالبصير، وأن المؤمن كالكافر، وأن المحسن كالمسيء وأن المستقيم كالمنحرف، وأن المُتّصل كالمُنقطع، أكبر خطأ يقع في حياة الناس هو التوهُّم أن القضيّة بالمال، والقضيّة بالذكاء، والقضيّة باحتلال مركز اجتماعي مرموق، والقضية بزوجة تملأ قلب الزوج سروراً بشكلها وحركاتها، دون أن ننتبه إلى فضائلها وقيمها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

فما علاقة هذه الآية بهذه ؟

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(58)
إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

1 ـ علاقة هذه الآية بما قبلها:

معنى ذلك أن الأعمى يتحرّك تحرُكاً عشوائياً، وسوف يقع في أخطاء كثيرة، فهذه الأخطاء هو محاسب عليها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ)

البصير يمشي على هدىً من ربّه، البصير يطبّق منهج الله عزّ وجل، وقّافٌ عند حدود الله عزّ وجل، يأتمِر بما أمر الله، ينتهي عما عنه نهى الله، هذا الانضباط، وهذا العمل، وهذه الاستقامة أيضاً سوف يثاب عليها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ)

2 ـ كلُّ عملٍ يظهر على حقيقته يوم القيامة:

إذا رأى أب ابنه لا يدرس يقول له: موعد الفحص اقترب، ففهم ما يقصد من معنى، ولكنه أدار ظهره لأبيه، بينما رأى ابنه الآخر يجتهد، فيقول له: سوف يَبْيَضُ وجهُك يا بني في الامتحان، هذا عمله سوف يظهر، وهذا عمله سوف يظهر.

(إنّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

فالعمل الطيّب سوف تظهر نتائجه، والسيئ سوف تظهر نتائجه، والانضباط يظهر حسنًا، والتفلّت يظهر قبيحاً، الاستقامة تظهر محاسنها الانحراف تظهر قبائحه.

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

سبحان الله ! تجد معظم الناس إذا حدّثوك يحدِّثونك عن كل شيء، إلا الموت، لم يدخلوه في حساباتهم إطلاقاً، كأن الحياة أبديّة.

إذاً:

(إنّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

3 ـ تهديد ووعيد:

هذا تهديد، أي اعمل، وكثِّر مما تعمل، إيجابًا أو سلبًا، افعل ما شئت، فهناك وقفةٌ بين يدي الله عزّ وجل، فالأعمى يدفع ثمن العمى الباهظ، طبعاً العمى وحده لا يكفي، العمى يَتبعه معاصٍ، العمى يتبعه عدوان، العمى يتبعه انحراف، العمى يتبعه تجاوز الحدود، العمى يتبعه أذى.

(إنّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

فهذا حالُ البصير ؛ البصير مستقيم، البصير ورع، البصير محسن، البصير مُنصف البصير عادل، أيضاً.

(إنّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ)

فهذه الساعة ترفع من شأن المؤمن، وتخفض من شأن الكافر.

(لَا رَيْبَ فِيهَا)

مجيئها حق، لا شك أبداً في مجيئها.

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

4 ـ الكفر العملي بالآخرة:

أي أنّ عدم إيمانهم بها، أو قل كفرهم بها كفرًا عمليًا، و ليس لفظيًا، فقلّما تجد أحدًا يقول: لا توجد آخرة، هذا الإنسان نادر جداً، الذي يقول لك: لا أعتقد بوجود آخرة هذا صار ملحدًا، ولكنه عمليا لم يدخل الآخرة في حساباته، كيف؟

مثلاً: يأكل مالاً حراماً، معنى ذلك أن الآخرة ليست داخلة في حسابه، يعتدي على أعراض الناس ؟ معنى ذلك أن الآخرة ليست داخلة في حسابه، يتجاوز الحدود، معنى ذلك أن الآخرة ليست داخلة في حسابه.

عندما تتحقق من إيمان الإنسان بالآخرة أو عدم إيمانه انظر إلى انضباطه، إذا لم يكن منضبطًا فهو غير مؤمن بالآخرة، يقول لك الإنسان: "حلال على الشاطر "، هذه كلمة الشيطان، أيٌّ شاطر ؟ مع الله لا شاطر، الله عزّ وجل قدير على أن يرغمك على أداء الثمن باهظًا في الدنيا قبل الآخرة، إذاً:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

بالآخرة.

5 ـ الفرق بين العاقل وغير العاقل:

بعضهم يقول لك: أعطني عمرًا لتلك الساعة، نحن الآن أولاد الحاضر، فتفكيره تفكير آني، تفكير من لا عقل له إطلاقاً، فدائما الإنسان كلّما ارتقى عقله خاف بفكره، وكلّما قلّ عقله خاف بعينه، فإذا واجهه الخطر خاف حقًا، أما العاقل فهو يستنبط الخطر، ويحذر قبل وقوع الخطر، و يعدّ العدة منذ الآن، فللاستعداد للأخطار المُقبلة دليل عقل.

أبسط مثل نضربه التدخين، فهل من الممكن لإنسان مهما أقنعته أن هذا التدخين يضر بالرئتين، يسبّب جلطة، يسبّب ضيقًا بالأوعية، يسبّب ارتفاعَ الضغط، يسبّب تسرُّعًا في القلب، يسبّب سرطانًا بالرئة، يسبّب مثلاً شللَ الأهداب في القصبة الهوائيّة، يسبب احتمال موات الأعضاء، مهما أقنعته فلن يقتنع، أما حينما يواجه أحد الأخطار يقول لك: نعم والله، والله هذا الذي حصل فقدّر، هكذا يدّعي، وإن الذي يتجنّب الخطر راجح العقل حقًا، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

أما أن يصل الإنسان مع نفسه لطريق مسدود، فيواجه مغبة عمله بمرارة، كأن يواجه مصيبة كبيرة جداً سببها انحرافه، أو أكله للمال الحرام !! فإذا قلت له: يا أخي هذا الربا حرام، هذا ضلال، فإنك تراه

لا يعبأ بذلك أبداً، وعندما تأتي الضربة الإلهيّة القاصمة يقول لك: نعم والله كلامك صحيح، يا ليتني قبلت نصيحتك.

إذاً من أجل أن تعرف إذا كنت عاقلاً أو غير عاقل انظر هل تدرك الأخطار في وقت مبكِّر، وتتخذ الموقف الصحيح مبكراً ؛ أم أنك لا تعرفها إلا إذا واجهتها ؟ ضعاف التفكير لا يكشفون الأخطار إلا مع مواجهتها، لكن العقلاء يتوقّعون الأخطار قبل أن تقع، فالعاقل هو الذي يتوقّع الخطر قبل أن يأتيه الخطر.

خاتمة:

إذاً:

(إِنّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

الآيات أصبحت:

(لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

لها معنيان: إما أن صنعة الله عزّ وجل أعظم بكثير مما يصنعه الإنسان، أو أن هذه الآية دليل على أن البعث حق، وعلى أن الله سبحانه وتعالى سيبعث من في القبور.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكّرُونَ(58) إِنّ السّاعَةَ)

هذا تهديد.

(لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (16-20): تفسير الآية 60

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-09-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس عشر من سورة غافر، ومع الآية الستين، وهي قوله تعالى:

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنّمَ دَاخِرِينَ)

1 ـ الدُّعاءُ هُوَ العبادَةُ:

قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((الدُّعاءُ هُوَ العبادَةُ))

[الترمذي عن النعمان بن بشير]

استنباطاً من هذه الآية، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ)

لم يقل: عن دعائي، قال:

(عَنْ عِبَادَتِي)

إذاً: العبادة هي الدعاء، والدعاء هو العبادة.

2 ـ الدعاء اعتراف بضعف العبد وافتقاره إلى ربه:

أيها الإخوة، الإنسان حينما يدعو الله سبحانه وتعالى، يعترف بضعفه وبقوّة الله، يعترف بفقره وبغنى الله عزّ وجل، يعترف بجهله وبعلم الله، فالداعي دائماً ضعيف، والمدعو قوي، فإذا عرف الإنسان نفسه، وعرف افتقاره إلى الله، وعرف ضعفه، وعرف قوة الله، ورحمته، وعلمه، وحكمته، وغناه، وقدرته، إذا عرف ضعفه، وعرف قوة الله فقد عَبَدَ الله عزّ وجل، أي أنه تلبّس بالعبوديّة، عرف حدّه فوقف عنده، وعرف ربّه فأقبل عليه، هذه هي العبادة.

الفرق بين الطاعة والعبادة:

العبادة في مجملها وفي أدق معانيها: طاعة لله عزّ وجل، لكن هذه الطاعة ليست قسريّة، إنما هي طوعيّة، لو أنها قسريّة لم تكن عبادة، والفرق بين طاعة الأقوياء وعبادة الله عزّ وجل أن طاعة الأقوياء قسريّة، لكن عبادة الله طوعيّة، لذلك الفارق الدقيق بين الطاعة والعبادة أن الأولى قسريّة، لكن الثانية طوعيّة.

فارقٌ آخر: العبادة طاعة طوعيّة لكنّها ناتجة عن محبّةٍ ذاتيّة، مع الطاعة الطوعيّة محبّةٌ ذاتيّة، لكن طاعة الأقوياء أوّلاً قسريّة ولا تشوبها المحبّة، طاعة قد يشوبها الحقد، قد يشوبها الألم، قد يشوبها القهر. فالعبادة كما قال بعض العلماء: غاية الخضوع، مع غاية الحُب، مع غاية الإخلاص. خضوعٌ وحبٌ وإخلاص.

إنّ النفس البشريّة لها طبيعة خاصّة، إنها لا تحب إلا الكامل، ولا تطيع إلا ما هو في صالحها، فإذا عرف الإنسان الله ؛ عرف كماله، عرف أنه موجود، وعرف أنه واحد، وعرف أنه كامل، وعرف أنه يعلم، وعرف أنه سيحاسب سيطيعه، هذه خمسة أفكار.

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: آية 180)

أكرّر: إذا عرف أنه موجود، وعرف أنه كامل، وعرف أنه واحد، وعرف أنه يعلم، وعرف أنه سيحاسب، إذا عرف هذه الحقائق الخمس فلابدّ من أن يطيع الله عزّ وجل، إذاً: هذه العبادة التي هي طاعة طوعيّة ممزوجة بمحبّةٍ قلبية أساسها معرفة يقينيّة.

لكن ما الهدف ؟ ليس الهدف أن تعرف، ولا أن تطيع، الهدف أن تسعد، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، خلق الخلق ليرحمهم، قال تعالى:

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: الآية 119)

هدف الإنسان السعادة الأخروية:

خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هذا هو الهدف الكبير من خلق الإنسان، لكن لأن هذه الرحمة رحمة أبديّة سرمديّة، متعاظمة متنامية، هذه الرحمة فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذا العطاء العظيم والمديد والكبير يحتاج إلى إعداد، الإعداد في الدنيا، الدنيا إذاً مزرعة الآخرة، الدنيا إذاً دار عمل، الدنيا إذاً دار تكليف، في الآخرة

التشريف، في الآخرة الجزاء، في الآخرة جنّةٌ عرضها السماوات والأرض، في الآخرة حياةٌ أبديّةٌ سرمديّة، متنامية متعاظمةٌ، لا قلق، ولا حزن، ولا مرض، ولا همّ، ولا خوف، ولا أي شيء يزعج الإنسان.

إذاً: الأصل أن تعرفه، ثمّ تطيعه، ثم تسعد بقربه في الدنيا والآخرة، هذا هو أساس كل الدين، الدين ثلاث كلمات ؛ جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، والجمالي هو الهدف، الجمالي تذوق منه طرفاً في الدنيا، وتذوقه كلّه في الآخرة، الهدف أن تسعد.

ألا تمرٌ بالإنسان أحيانًا ساعات يشعر بها بالسعادة ؟ لو فرضنا أنه شعر بنشاطٍ شديد، وأكل أكلةً طيّبة، وكان بين أهله وأولاده آمناً، وهم سالمون معافون، وكان له دخلٌ يغطِي نفقاته، ألا يشعر بساعة من الساعات أنه مرتاح مطمئن ؟ فهذه لحظة عابرة، لكن هذا الشعور بالسعادة لا يستمر إلى أبد الآبدين، الإنسان قد يسعد من باب المجاوزة، من باب المجاز إذا توافرت له صحّةٌ طيبة، وحاجاتٌ، وسمعةٌ، ومكانةٌ، أما لو توافرت له هذه الحاجات كلها بشكلٍ متنامٍ متعاظم إلى أبد الآبدين فهذا هو الفوز العظيم.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

إذاً: الدين معرفة وسلوك وسعادة، معرفة في البداية، سلوك في الوسط، سعادة في النهاية، وكل إنسان يسلك طريقاً آخر يُتّهم بالغباء، والجنون، والحُمق، وقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام مجنوناً، فسأل سؤال العارف: **" من هذا ؟ " قالوا: " هذا مجنون "**، قال:

((لا هذا مبتلى، المجنون من عصى الله))

[ورد في الأثر]

لو التقيت بأذكى إنسان يحمل أعلى شهادة، وهو متلبّس بالمعصية، بإمكانك أن تدمغه بالحُمْق والغباء والجنون، لأنه سلك طريقاً مسدوداً تنتهي بهاويةٍ وحفرةٍ ما لها من قرار.

3 ـ الدعاء لا يفارق المؤمن في جميع أحواله:

إذاً: الإنسان أحياناً يميل للتوسُّع والتفصيل، وأحياناً يميل للإيجاز والضغط، العبادة ؛ معرفة، وسلوك، وسعادة، جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي هذه العبادة، هي طاعة تسبقها معرفة تعقبها سعادة، أحد أبرز مظاهر العبادة الدعاء، الصلاة عبادة، الصوم عبادة، الحج عبادة، غض البصر عبادة، ضبط اللسان عبادة، أن تقيم بيعك وفق الشرع أنت عابد لله، ألاّ تكذب، وأن تصدق فهذه عبادة، لكن هناك عبادات شعائريّة ؛ صلاة وصوم وحج، وهناك عبادات تعامليّة ؛ صدق، وأمانة، واستقامة، وبيع حلال، وكسب حلال، وإنفاق حلال، وغض بصر... الخ.

العبادات الشعائريّة والتعامليّة بمجملها عبادة، أحد أكبر مظاهرها الدعاء، إنك بالصلاة تتصل بالله في اليوم خمس مرّات، بالصيام تتصل بالله في العام شهراً، بالحج تتصل بالله في عمرك شهراً، لكنّك بالدعاء تتصل بالله عند كل حركةٍ وسكنة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت له أدعيةٌ منوّعة، أدعيةٌ يدعو بها كل يوم، وأدعيةٌ يدعو بها في مناسباتٍ خاصّة، فإذا ذهب لينام فله دعاء، إذا استيقظ في منتصف الليل ليصلي فله دعاء، إذا استيقظ لصلاة الفجر فله دعاء، إذا جلس ليأكل فله دعاء، إذا انتهى من طعامه فله دعاء، إذا ارتدى ثيابه فله دعاء، إذا خرج من بيته فله دعاء، إذا دخل المسجد فله دعاء، إذا خرج من المسجد فله دعاء، إذا ذهب إلى السوق فله دعاء، إذا سافر فله دعاء، إذا مرض فله دعاء، إذا ارتدى ثوباً جديداً فله دعاء، يكفيكم على هذا دليلا كتابُ الأذكار للإمام النووي، أذكار النبي، له أدعية في كل أحواله، وهناك تفاصيل في هذا الكتاب دقيقة جداً، أحوال الإنسان مهما بدت لكم كثيرةً ومنوّعة ودقيقة فكل حالٍ من أحوال الإنسان يغطيه دعاءٌ رائع.

لذلك فالإنسان يسعد إذا دعا الله عزّ وجل، أليس هناك أوقاتٌ كثيرة تمضيها وأنت تنتظر، أو تمشي في طريق، أو تجلس تنتظر دورك عند طبيبٍ، أو في أي مكان آخر، أو في دائرة حكوميّة، هذا الوقت الذي تمضيه قسراً ينبغي أن تملأه بالدُعاء، إذا دخلت مكانًا تخشى أن يُرْفَض طلبك فهناك دعاء، إذا واجهت عدواً لك شرساً فله دعاء، إذا أصابك مكروه فهناك دعاء، والدعاء مخُّ العبادة كما قال عليه الصلاة والسلام.

أحد أبرز العبادات الدعاء، وكلّما أكثرت من الدعاء كنت أقرب إلى الله عزّ وجل، فبالدعاء تتصل بالله سبحانه، ويمكنك أن تتصل به في اليوم لا خمس مرّات، بل مئات المرّات، بل ألوف المرّات، لأنك كيفما تحرّكت أنت مغمورٌ بنعم الله، فعليك أن تدعو الله باستمرارٍ، وكيفما تحرّكت فهناك مفاجآتٌ مخيفة، فمن خلال المفاجآت تدعو مستعيناً بالله، ومن خلال النعم تدعو شاكراً له، فإذا فسّرنا قوله تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23))

(سورة المعارج)

لا ترى عبادةً يمكن أن يداوم عليها الإنسان كالدُعاء، هذا الاتصال المستمر، مرّة التجاء، مرّة ثناء، مرّة خوف، مرّة دعاء، مرّة تسبيح، مرّة ذِكر، فالمؤمن على اتصالٍ دائمٍ بالله من خلال الدعاء، لكن هناك علماء جزاهم الله خيراً قالوا استنباطًا من هذه آية:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

معنى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

المعنى الأول:

ما أمرنا بالدعاء إلا ليجيبنا ـ هذا المعنى الأول ـ ما أمرنا بالدعاء إلاّ لأنه سيجيبنا، وسيكرمنا، وسيعطينا سؤلنا أمرنا بالدعاء، فما أمرنا أن ندعوه إلا ليجيبنا.

المعنى الثاني:

المعنى الثاني: هذه الآية متميّزة عن غيرها من الآيات.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: الآية 186)

ليس بين العبد وربّه واسطة:

هناك نقطة في القرآن أحب أن أشير إليها، وقد ذكرتها سابقاً، وهي أنه ما من آيةٍ فيها هذه الكلمة: يسألونك إلا تلاها كلمة قل:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة: من الآية 189)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة: من الآية 219)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة: من الآية 217)

في القرآن ما يزيد على ثلاث عشرة آية بهذه الصيغة، يسألونك قل كذا وكذا، إلا آية واحدةً حصراً، هي هذه الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: الآية 186)

ليس في هذه الآية كلمة قل، استنبط العلماء من هذا أنه ليس بين العبد وربّه حجابٌ إطلاقاً، فإذا قال العبد: يا رب، قال الله: **لبيك يا عبدي**، أنا أنتظرك، أنا أنتظر أن تدعوني، أنتظر أن تسألني، أنتظر أن تتصل بي كي أجيبك، وكي أعطيك سؤلك، وكي أكرمك، وفي الحديث الشريف:

((من لا يدعني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن اللّه يحبّ الملحّين في الدعاء))

[الأذكار النووية]

((إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلّها))

((إن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه))

((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع))

[من الجامع الصغير عن أنس]

إن الله يحب أن يسمع نداء العبد، وهو يعلم حاله:

قد يسأل سائل: يا رب لماذا أمرتنا بالدعاء، وأنت أعلم بنا من أنفسنا ؟ ورد في الأثر أن سيدنا جبريل جاء إبراهيم عليه السلام، قُبَيْلَ أن يُلقى في النار، وقال: يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال هذا النبي الكريم: **" منك ؟ قال: لا من الله، قال: إذا كان من الله فعلمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

السؤال المطروح الآن هو: ما دام الله يعلم ما نحن عليه، يعلم السرّ وأخفى، يعلم ما ظهر وما بطن، فلماذا أمرنا بالدعاء ؟ العلماء قالوا: أُمرنا بالدعاء كي نرقى إلى الله مرّتين إذا وقعنا في ورطة، أو في مشكلة، أو لاح لنا شبح مصيبة وأُمرنا بالدعاء فنحن إذا دعونا أولاً استُجيب لنا ثانيًا، هذه الاستجابة تزيدنا يقيناً بأن الله استمع إلى دعائنا، وهي كذلك تزيدنا معرفةً بالله عزّ وجل، وحينما يستجيب الله لنا تزيدنا هذه الآية حبّاً بالله عزّ وجل، مرّةً نزداد علماً به، ومرّةً نزداد حبّاً له، إذاً صارت لنا قفزة إيمانية سامية.

إذا وصل الإنسان في معرفته إلى هذا المستوى، ثم وقع في مشكلة فإنه يدعو الله من كل قلبه، فإن أزيحت عنه هذه المشكلة، ارتقى إلى الله مرّتين، ازداد علمه بالله، ازداد يقينه أن الله سمعه، وازداد يقينه أن الله يحبُّه، إذاً هذا سر الدعاء، أي أن.

((إن الله تعالى يحب إغاثة اللّهفان))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

أمٌ تحبُّ ابنها أشدّ الحب، بينما حاجته لها قليلة، هي عاتبةٌ عليه، فلمّا ظهرت له حاجةٌ عند أمِّه أقبل عليها، وطرق بابها، وزارها صباحاً ومساءً، هذه الحاجة التي عرضت له دفعته إلى أمِّه، ولله المثل الأعلى ربنا عزّ وجل أحياناً يخلُق لنا حاجة عنده، أما الأنبياء فهم نوعٌ آخر، كان عليه الصلاة والسلام يصلي حتَّى تتورّم قدماه، فيقول له أصحابه: **" يا رسول الله صليت حتى تورّمت قدماك، ألم يغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟! "**، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((أفلا أكون عبداً شكوراً))

[متفق عليه عن المغيرة]

فالأنبياء لا يحتاجون إلى حافز، الأنبياء معرفتهم بالله عزّ وجل وإقبالهم عليه، وشوقهم إليه، واتصالهم به لا يحتاج إلى حافز، هم فوق الحافز، لكن المؤمنين تحت الحافز، يحتاجون أحياناً إلى حافز، أحياناً الإنسان ينسى، أحياناً يسترسل مع الدنيا، أحياناً ينشغل بها، أحياناً يركن إليها، استرساله وانشغاله وركونه للدنيا، وقد ينسيه الله عزّ وجل، أو يَذكره ذكراً شكلياً أو صورياً، أو ذكراً أجوفَ، عندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى يجعل لهذا العبد عنده حاجة ؛ مشكلة، مرض، عدو مخيف.

هذا المؤمن لا يعرف إلا الله، ليس له ملجأٌ إلاّ الله فيبادر إلى الصلاة، إلى الدعاء، إلى قيام الليل، إلى التهجُّد، يمرِّغ جبهته في أعتاب الله، معنى ذلك أننا قد سمعنا صوته، جاءنا فسمعنا صوته، فإذا كنت بطلاً كن معه دون أن تحتاج إلى حافز، الله عزّ وجل يُعيننا على أنفسنا إذا ركنت هذه الأنفس إلى الدنيا، يعيننا على أنفسنا إذا اطمأنّتْ لها، يعيننا على أنفسنا إذا أصبحتْ عباداتنا شكليّةً أو جوفاء، يعيننا على أنفسنا بأن تنشأ لنا مشكلة، وليس أمامنا إلا الله فندعوه، نبادر إلى الدعاء، وإلى الصلاة، وإلى التهجُّد، لكن الأكمل أن تأتيَه طائعاً لا مكرهاً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى))

[البُخَارِيُّ ومسلم]

إذاً: سر الدعاء أن الإنسان أحياناً يغفل، يقصِّر، يقعُد، يركن للدنيا، تُلِمُّ به مشكلة، فهذه المشكلة تضطرّه إلى أن يدعو، وأن يستجير، وأن يستعيذ، عندئذٍ يقترب من الله عزّ وجل، ويزداد معرفةً، ويزداد قرباً، هذا هو الدعاء.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

أي تؤمن، فتستقيم، عندئذٍ تعرف من تدعو، تؤمن بالله، تتعرّف إليه، تستجيب لأمره، تطيعه عندئذٍ تعرف كيف تدعوه، وتعرف بماذا تدعوه، إلام تدعوه ؟ ولماذا تدعوه ؟

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

هناك شروط للدعاء و الاستجابة، أما هذه الآية فلا شروط فيها.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

بعضهم قال: هذا من مطلق القرآن، أي أن أي مخلوقٍ مهما كان إذا قال: يا رب، يقول له الله: لبيك يا عبدي، وبعض العلماء استنبط من هذه الآية أن كل داعٍ يُستجاب له من دون شروط.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة النساء: من الآية 57)

دعوةٌ إلى الدعاء مهما كان وضع الإنسان:

هنا تجد شرطًا ؛ ألا وهو العمل الصالح.

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى)

(سورة السجدة: الآية 19)

من دون شرط، والقرآن تارة يشترط، وتارةً يبشّر، وتارةً يهوّن الأمر، هذه الآية تدعونا إلى الدعاء:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

فالإنسان؛ إن لم تكن له صلةٌ بالله، إن لم تكن له وقفةٌ مع الله، إن لم يكن في سجوده دعاء، إن لم يتذلّل إلى الله، إن لم يطلُب العفو منه، إن لم يطلب منه حاجته مهما دقت، إن لم يطلب منه أن يكفيه مؤونة نفسه في الدنيا فإنه سيضيع، والدعاء أوسع بابٍ إلى الله، وأقرب طريقٍ إلى الله، لذلك المؤمن يلجأ إلى الدعاء.

أنت بالدعاء تكون قويا:

وهل تصدِّق أيها الأخ الكريم أنك بالدعاء تعدُّ أقوى إنسان على وجه الأرض ؟ فأنت تدعو مَن ؟ تدعو خالق الكون، والإنسان تكون أحياناً قوّته ذاتيّة، وأحياناً تكون قوته ليست خارجية، وليست ذاتية، فإذا قال لك شخص قوي جداً في البلدة: أيّ شيءٍ تطلبه مني أُلَبّه على الفور، وهذا رقم هاتفي، وأنت ضعيف، لكن بهذا الدعم أصبحت قوياً، وتشعر بنشوة معيّنة، أن فلانًا صاحب الحول والطول، فلانًا القوي، أيُّ شيءٍ أرده منه يُلَبّيني فوراً، فأنت إذاً قويٌّ بقوة الذي منحك هذه القوة، هذا تبسيط للأمر. إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، أنت بالدعاء تجد الله معك، لذلك لا قلقَ مع الدعاء، ولا خوفَ، فمن خصمك ؟ عبد، هو بيد الله عزّ وجل، جرثوم بيد الله، يوقفه عند حدِّه، وهناك حالات تقع فيها إصاباتٌ مرضية لا شفاء منها، ميؤوس منها، ثم يتم الشفاء الذاتي من الله سبحانه وتعالى بدعاءٍ صادق مخلص، وهذا تمَّ بفضل الدعاء.

أحياناً يخيّم شبح مصيبة كبير جداً، ويُصرف عنك بأهون سببٍ، فهذا تمّ بفضل الدعاء، فالدعاء مخُّ العبادة، وعلى المؤمن أن يدعو الله دائماً، وفي ذلك إيجابيتان:

الأولى: القرب من الله، و الثانية: الاستجابة وكشف الضر أو تحقيق الرجاء.

إذا أصابتك مصيبة فتذكّر مصيبة سيدنا يونس:

بعض الإخوان يحدّثوني أحياناً عن أخ له يعمل عند شخص أو جهة، وله دخل معيّن، فجأةً قُطِعَ هذا الدخل، فشعر بالحرمان، فتوجّه إلى الله عزّ وجل وقال: يا رب أغنني بفضلك عمن سواك، قالها بحرقةٍ، وألمٍ، وإخلاصٍ، وصدقٍ، ما هي إلا أسابيع حتى جاء رزقٌ وفير من حيث لا يحتسب، أمعك قوة الدعاء وتخاف ؟ أمعك سلاح الدعاء وتحزن ؟ أمعك الدعاء وتيأس ؟ أمعك الدعاء وتكون سوداوي المزاج ؟ معك الدعاء وتبدو حزيناً ؟! لا يحزن من يدعو الله عزّ وجل، ولا شيءَ صعبٌ مهما تكن المشكلة كبيرة، مهما رأيتها كبيرة، يقول أحدهم: يا أخي أنا مشكلتي معقدة ليس لها حل، ما هي مشكلتك التي ليس لها حل ؟ فهل هي أصعب مما كان فيه سيدنا يونس ؟

لقد استقلّ قاربًا فوجد نفسه فجأةً في جوف الحوت، الحوت وزنه مئة وخمسون طنًا، وجبته الغذائيّة أربعة أطنان، فما وزنك بجانبه، فأنت بالنسبة له لقمة، سبعون كيلوا، أو ثمانون كيلوا بالنسبة للحوت لقمة واحدة، وجد نفسه فجأة في بطن الحوت، في ظلماتٍ ثلاث ؛ في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت، الله عزّ وجل ابتلاه بمصيبة، إذا قلت: هذه ميؤوس منها فمعك الحق، وهذه مصيبة، نعم هي مصيبة حقًا، ومع ذلك:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

لكن أروع ما في الآية التعقيب الذي ختمت به:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في كل عصر، أتحزن ومعك سلاح الدعاء ؟ أتخاف ومعك سلاح الدعاء؟ أتتشاءم ومعك سلاح الدعاء؟ أترتجف ومعك سلاح الدعاء ؟ أتخشى عدواً لئيماً هو في قبضة الله عزّ وجل ومعك سلاح الدعاء؟ أتخشى فقراً مدقعاً ومعك سلاح الدعاء ؟ أتخشى من إنسانٍ أن يهدّدك ومعك سلاح الدعاء؟

الدعاء يُبعِد المشكلات:

هذه المعلومات أيها الإخوة ليست للفهم، ولكن للتطبيق، إذا خرجت من بيتك: اللهمّ إني أعوذ بك من أن أضِلّ أو أضَل، أو أزِلّ أزَل، أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يُجْهَل علي.

إذا استيقظت من نومك لك دعاء. إذا دخلت بيت الله عزّ وجل: اللهمّ افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرجت من بيت الله إلى شؤونك في الحياة الدنيا: اللهمّ افتح لي أبواب فضلك، ففي الجامع رحمة الله مطلوبة، وفي عملك فضل الله مطلوب.

سافرت: اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد، فيجب أن تدعو الله كل يوم ؛ قبل أن تقدم على أيّ عمل، وكذلك في أثناء العمل، وعقب إنجازه، قبل أن تسافر، وإذا دخلت البيت، أو خرجت منه، أحياناً يدخل الإنسان فتنشأ مشكلة فيطلِّق زوجته، يقول لك: حلفت بالطلاق، فلو دخل الإنسان إلى البيت وقال: السلام عليكم، قال الشيطان لإخوانه: لا مبيت لكم في هذا البيت.

إذا جلس إلى الطعام وسمّى بالله عزّ وجل. يقول الشيطان لإخوانه: لا طعام لكم في هذا البيت.

ورد في الحديث الشريف عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم]

فهم نائمون وآكلون في ذاك البيت، وطول الليل مشاكل.

بعض الأطبّاء لا يفحص المريض قبل أن يسمي الله عزّ وجل، وقبل أن يسأل الله الهداية إلى المرض الحقيقي، وبعض أصحاب الأعمال كيفما تحرّك يدعو الله مسترشدًا مستعيناً:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

الأمرُ عجيب ؛ فإذا قال أحد من أهل الدنيا الأغنياء أو الأقوياء: من كانت له حاجة فليأتني، وجدت الناس يتكاتفون على بيته، يتدافعون، بينما وخالق الكون يقول عزّ وجل كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ثُمَّ يَهْبِطُ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرُ لَهُ))

[مسند أحمد]

فالازدحام على بابه سبحانه قليل.

كلّما سألني أخ سؤال عن قضيّة أقلقته مثلاً، أو همّ أحاط به، أو مشكلة معقدة لا تُحل، قضية مستحكمة، عقبة كؤود، أقول له: ليس لك إلا الدعاء، صلِّ قيام الليل، واسجد، واسأل ربّك قبيل الفجر الحاجة كلّها، هكذا المؤمن، المؤمن قوي جدًا، ليس لأن فيه قوة، بل هو ضعيف جدًا، ولكن لأن الله عزّ وجل قال:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

أقوى قوّة في الكون معه ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

كن مع الله ترَ الله معك　　واترك الكلّ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك فمن يمنعه　　ثمّ من يعطي إذا ما منعك؟

***

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا　　فإنا منحنا بالرضى من أحبّنا

ولذ بحمانا واحتم بجنابنا　　لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

أيها الإخوة الكرام، المؤمن قوي جداً بالدعاء، وبإمكانه أن يقف في وجه أعتى العتاة وأقوى الأقوياء، وأشد الناس تخويفاً، لأنه مع الله.

(قالا رَبّنا إِنّنا نَخافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطغَى(45)قالَ لا تَخافا إِنّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

إنّ مَعِي رَبّي سَيَهْدِين

سيدنا موسى وقومه كانوا في اتجاه البحر، وفرعون وراءه، فقال قوم سيدنا موسى:

(قالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنّا لَمُدْرَكُونَ(61))

أين نذهب ؟ هذا البحر من أمامنا وفرعون وراءنا، انتهى الأمر، انتهى أمرنا إما إلى فناء أو إلى استعباد دائم.

(قالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنّا لَمُدْرَكُونَ(61))

ليس من أمل، فالبحر أمامنا وفرعون بكل قوّته وراءنا، وقد أدركنا.

(قالَ كَلا)

ما هذه كلا؟

(قالَ كَلا إِنّ مَعِي رَبّي سَيَهْدِين(62))

(سورة الشعراء)

الربُّ هوَ هو، والله هوَ هو، ربُّ موسى هو ربُّنا، ورب محمّدٍ هو ربُّنا.

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

في غار ثور بوسائل تافهة جداً حمى نبيّه وصاحبه الصديق ـ عنكبوت، أو حمامة ـ أعظم رسالة سماويّة حُفِظَت بهذا السبب الصغير، فإذا كان الإنسان مع الله يصبح أقوى الأقوياء، فالمؤمن معنوياته عالية وبلا حدود.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

آية في القرآن تكفينا:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور وتدور وتدور، يعلو هذا، ويسقط هذا، وفي النهاية لا تستقر إلا على أن العاقبة للمتقين، اقرؤوا التاريخ الإسلامي فعندما بعث الله النبي محمداً فالذين عادوه، وائتمروا على قتله، وأخرجوه من مكّة، وكادوا له، وحاربوه عشرين عاماً كيف كانت عاقبتهم، وكيف استقرّت الأمور أخيرًا؟

(إِذَاجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3))

(سورة النصر)

هذا قانون إلهي، الله يمتحنك، قد تؤمن، وقد تتوب إلى الله، وقد ترى أحيانًا أنّ الأمور صعبة، تشديد، وقد ضاقت دائرتها حول العنق، وأخذت بالأعناق، فإياك أن تيأس، وعليك ألاّ تحزن، ولا تخنع، ولا تستسلم، ولا تضعف.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

بالدعاء.

لا تغفل عن الدعاء:

يا أيها الإخوة أناسٌ كثيرون جداً يغفلون عن الدعاء، علمًا بأنّه من أرقى العبادات، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[من سنن الترمذي عن أنس بن مالك]

أنت مُقدم على امتحان، مُقدم على عمل عظيم، أسست مشروعًا، أسست تجارة، زرعت أرضًا قل: يا رب ليس لي إلا أنت، الله عزّ وجل يريدك أن تدعوه لأنه وعدك بالإجابة، فخالق الكون يفتح لنا باب الدعاء، ونحن نُحْجِم ؟ ما أشقانا لو غفلنا عن الدعاء، وأحجمنا عن الضراعة ؟ ألا نسأله ؟ ألا ندعوه ؟ هل نتأبّى؟ إذاً لا نعرفه.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

فهل هناك إنسان بلا مشاكل ؟ تواجه كل واحد من الناس الكثير الكثير، والله يحلها بالدعاء واحدةً واحدة، وهو قادر، هذه القضيّة: يا رب ليس لي إلا أنت، وفقني، ارزقني، زوجني، آوني يا رب، الله موجود. الوقت لا يتسع لضرب الأمثال، والله على كل موضوع من موضوعات الدعاء هناك آلاف الوقائع والأحداث الواقعيّة.وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أزوّدكم ببعض الوقائع المدهشة التي هي ثمرة من ثمرات الدعاء، هل أثر الدعاء قليل ؟ الله عزّ وجل أحياناً يدمِّر أمّة بدعاء واحد، إذا كان الإنسان مؤمنا، مستقيما، طاهرا، مخلصا، وأمّة كادت له، يدمِّرها من أجل مؤمنٍ غالٍ عليه، فربنا عزّ وجل قوي، وهناك آيات كثيرة تؤكِّد هذا المعنى.

(فَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

الدعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف:

أنت كن مع الله، وعلى الله الباقي، من أشهر الأدعية دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف، قال:

((اللهمّ إنني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

وما أحوج المسلمين إلى هذا الدعاء في هذه الأيام.

((اللهمّ إنني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين إلى من تكلني، إلى عدوٍ ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

ماذا كان الجواب؟

(سُبْحَانَ الّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)

(سورة الإسراء: من الآية 1)

الإنسان يتوقع الاستجابة، ويقول الله عزّ وجل: **" إن الله عليمٌ قدير "**، لكنه قال كذلك:

(إنّه هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ(1))

أي أنه سمعك يا محمّد تدعو في الطائف، فكانت الاستجابة أن جعلك سيّد الأنبياء والمرسلين، وجعلك سيد ولد آدم، وأراك ملكوت السماوات والأرض، وأسرى بك إلى بيت المقدس، وعرج بك إلى السماء، وهذا تكريم وعطاء لا يصدّق، النبي ما كان يعرف قبل الإسراء أنه سيّد الأنبياء، سيد ولد آدم على الإطلاق، دعا الله عزّ وجل وكان مستضعفاً، وقد بلغت الآلام ذِروتها، فجاءت الإجابة من الله عزّ وجل بأن أُسرى به، وُعرج به إلى السماء، وأراه ملكوت السماوات والأرض، وأكرمه.

فأنت عبدًا لو قال لك طفل: كم الساعة يا عم ؟ أيعقل أن تتجاهله ؟ طفل يسألك وهو عابث: كم الساعة؟ ولو كنت تحمل حاجة بيدك أو فتحة الكُم ضيّقة، فتضطر أن تزيح الكُم عن الساعة، وأن تدير الساعة التي تحيط بمعصمك نحو الأعلى، وتنظر إليها، وتجيب الطفل، لأنه سألك، فأنت إنسان مقر بالعبودية تسأل خالق الكون أو لا يجيبك ؟ تسأله، ترجوه، تتذلّل أمامه، تمرّغ جبهتك في أعتابه أو لا يجيبك ؟ مستحيل.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

كن عزيز النفس أمام الخلق ذليلا أمام الله:

ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، فالسعيد من يدعو الله عزّ وجل، والشقي يأبى، ويستكبر، يوسِّط فلانًا وفلانًا، ويتذلّل أمام فلان، ويريق ماء وجهه أمام الأقوياء، ويبدو أمامهم ضعيفاً فيحتقرونه، ويأبى أن يتذلّل أمام الله عزّ وجل، المؤمن الصادق فيما بينه وبين الله في أشد حالات الذُل، لكنه عزيزٌ أمام الخَلْق، يرفع رأسه كريم النفس عزيز إذْ فرّج الله عنه وأغاثه و رفع شأنه.

يقولون عن سيدنا نور الدين الشهيد، الذي ردّ أوروبا بأكملها أيام الحروب الصليبية سجد، وقال ـ والله أستحي أن أقول هذه الكلمة إكراماً له، ولكن يجب أن أقولها ـ قال: **"يا رب، من هو الكلب نور الدين حتّى تنصره ؟ انصر دينك "**، فالله عزّ وجل مكّنه من النصر المبين والعزيز، فالإنسان كلّما كان مع الله متذلِّلاً فالله يرفع شأنه، مع الناس كن عزيزًا، لا تتضعضع أمام غني ولا أمام قوي، أنت مؤمن غالٍ على الله، ارفع رأسك، كن عزيز النفس، لكن فيما بينك وبين الله مهما استطعت تذلّل، مهما استطعت تبرّأ من علمك وحولك وقوّتك، قبل أن تقدم على أي عمل: " اللهمّ إني تبرّأت من حولي وقوّتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوّتك وعلمك يا ذا القوّة المتين "، فيما بينك وبين الله تذلّل، مرّغ جبهتك في أعتاب

الله، اتهم نفسك بالقصور، اتهم نفسك بالضعف والجهل وعظِّم ربّك، أما مع الناس كن عزيز النفس، لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه.

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير))

[من الجامع الصغير]

((مَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ ذَهَبَ ثُلُثا دِينِه))

[من الجامع الصغير]

المؤمن الصادق يتذلّل أمام الله عزّ وجل في السجود، ويشعر بعزّته الكاملة أمام الخَلق، الكافر تجده يأبى أن يدعو الله، يستعلي، تكبُر نفسه عنده، وهو كالحشرة الوضيعة أمام مَن هو أقوى منه، المؤمن بالعكس مع الله في منتهى التذلّل، ومع الخلق في منتهى العزّة.

قال: ما هذا ؟ أكِبْرٌ في الإسلام ؟ قال: لا معاذ الله، هذا عزُّ الطاعة، فنحن نريد مؤمنًا عزيز النفس، يرفع رأسه، يثق بربّه، يعرف قيمة إيمانه، يعرف دوره الخطير في الحياة، لكن إذا خلا مع ربّه، إذا صلّى في بيته، إذا سجد في الليل يذوب عبوديةً لله عزّ وجل، اتهم نفسك ما شئت، اتهمها بالقصور.

لذلك باب الانكسار أسرع الأبواب إلى الله عزّ وجل، باب الانكسار أسرع طريق إلى الله، ادخل على الله من باب الانكسار والتذلل و الضراعة، فالنبي عليه الصلاة والسلام فتح مكّة، هل الفتح قليل ؟ عدو عنيد، مسيطر، لئيم، شرس، قوي متحكِّم طوال عشرين سنة، يدخل مكّة فاتحاً بإمكانه أن يبيدهم عن آخرهم، هم تحت رحمة كلمةٍ من شفتيه، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ ـ حاربوه عشرين سنة، قتلوا أصحابه، نكّلوا بأصحابه، ضيّقوا على أصحابه، حاربوه ثلاث مرّات، ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا: " أخٌ كريم وابن أخٍ كريم "، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

وانتهى الأمر، دخل مكّة عليه الصلاة والسلام ساجداً على عُنُق بعيره، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله.

أيها الإخوة الكرام، بطولتك ليست في الضعف والتذلل للناس، إذا كنت قوياً نجحت في عملك، سيطرت، بتجارتك رقم واحد، معملك بضاعته رائجة جداً، دخل كبير، صحّة طيّبة، الناس ينظرون لك هكذا، لكن البطولة حقًا أن تكون متواضعًا لله عزّ وجل، أروع مثل فعله النبي بعد أن فُتِحت مكّة، ودانت له الجزيرة العربيّة عن آخرها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، صعد المنبر واستقبل الناس باكياً، وقال:

((يا أيها الناس، إني قد دنا مني حقوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا

فهذا مالي فليستقد منه، لا يقولن رجل: إني أخشى الشحناء من قِبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني))

[مجمع الزوائد]

بإمكانك أن تحافظ على تواضعك وأنت في القمّة ؟ على التواضع، والنزاهة، والاستقامة، والورع، والعفّة ؟ هذه البطولة.

الخلاصة:

فلذلك أيها الإخوة، اليوم شرحنا الدعاء فقط، ووقفنا عنده وقفة صادقة، فالدعاء مخُّ العبادة، وهو أحد أرقى أنواع العبادات، لذلك ادعُ الله دائماً، بإمكانك أن تناديه نداءً خفيًّا، بإمكانك أن تدعوه دون أن تحرّك شفتيك، فهناك حالات لا يستطيع المرء أن يتكلّم ولا بكلمة واحدة، فليس شرطاً أن ترفع يديك وتقول: يا رب ـ إنكم لا تنادون أصَمَّ ولا غائبًا ـ يكفي أن تدعوه بقلبك لا بلسانك، لأن الله مطّلع، قل: **" يا رب إني تبرّأت من حولي وقوّتي، والتجأت إلى حولك وقوّتك يا ذا القوّة المتين، اللهمّ اكفني شر ما أهمني وما لا أهتمُّ له ".**

أينما تحرّكت، وكيفما تحركت فالتجئ إلى الدعاء، طبعاً هناك أذكار في كتاب الأذكار للإمام النووي دقيقة جداً، ولو لم تكن تحفظها ادعُ بغيرها حسب حاجتك، فبأي موقف ادعُ الله:

خرجت من البيت: يا رب يسّر.

عقدت صفقة: يا رب ألهمني صفقة رابحة لا تكن خاسرة.

سافرت: يا رب، فركبت مركبة أو دابّة مثلاً: **" اللهمّ إني أسألك من خيرك وخير ما صُنِعَت له، أعوذ بك من شرّها وشرّ ما صنعت له".**

أحياناً دابّة تدمِّر الإنسان نهائياً، يقع حادث فيُشل طوال حياته، فاسأل الله عزّ وجل خيرها وخير ما صُنِعَت له، وتعوّذ بالله من شرّها وشر ما صنعت له.

جلست لتأكل للأكل دعاء، انتهى الطعام هناك دعاء، قمت لتنام للنوم دعاء: **" إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها ".**

وإذا قضى أحدنا حاجة، تبوّل، وأفرغ مثانته فهل هذا الأمر سهل أو بسيط، و الكليتان تعملان بانتظام ؟ اسأل عندما يصاب الإنسان بفشل كلوي ماذا يحصل له لترى ما أنت به من نعمة السلامة ؟

والله حدّثني أخ فقال لي: والله لا أستطيع أن أشرب كأسًا من الشاي أو الماء في النهار ـ لأن آلة التصفية معطّلة ـ قالت له الممرضة: لا تشرب ماءً كثيرًا الآلة معطّلة، بينما أنت أيها الأخ الكريم تشرب ما يطيب لك، لأن الكلية لديك تعمل بانتظام، ولو تعطّلت ـ لا سمح الله ـ لاحتجت إلى غسيل الدم مرتين

في الأسبوع، والوقوف على الدور، انتظار ثماني ساعات، وتحتاج إلى واسطة، وآلام، وبعد ذلك يتبقى من البولة في الجسم بالمائة عشرون، فيصبح بسببها إنسانًا آخر، عصبيّ المزاج، خُلقه ضيّق من آثار البولة في الدم، فعندما يفرغ الإنسان مثانته فليس هذا أمرًا هيّنًا و لا بسيطًا، فليقل: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأبقى عليّ ما ينفعني. أكلت طعامًا: الحمد لله إذْ أذقتني لذّته، وأبقيت فيّ قوّته، وأذهبت عني أذاه. إخواننا هذا مستحيل أن يكون إنسان شاكرًا نعمة الله، ثم يزيلها عنه، وبالشكر تدوم النعم، لا يغيّر الله ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، فنحن نريد صلة بالله مستمرة عن طريق الدعاء، غير الصلوات الخمس، دعاء بإخلاص من دون ضجيج، من دون رفع صوت، من دون رفع الأيدي إلى السماء هكذا، هذا التفاصح بالدعاء، وإليكم آية دقيقة جداً أيضا حول الدعاء:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

أيها العبد لا تعتدِ على إخوانك، تأكل أموالهم بالباطل، وتقول لي: يا رب يا رب بفصاحة، فصاحتك غير مقبولة، مهما تفاصحت في الدعاء، ودعوتني بالدعاء النبوي الصحيح، والقلقلة قلقلة، والإدغام إدغام، ورفعت صوتك بالدعاء، ولكن مالك مالٌ حرام، ومنك على إخوتك عدوان، فالله عزّ وجل لا يستجيب للمعتدين، لأنه لا يحبُّهم، فالأمر لا يحتاج إلى حذلقة، ولا فلسفة، فمع عدوان، والمال حرام، والانحراف، و الطُغيان، مهما تفاصحت بالدعاء فلن يستجاب لك، والاستجابة تكون إذا كان فيك صلاح واستقامة وضراعة الحديث معروف:

((ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ثُمَّ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ـ حروف من مخارجها تخرج ملء الفم ـ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

لا يستجاب.

((يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

معنى أطب مطعمك: وليكن دخلك حلالاً، بعيدًا عن الكذب، والغش، والتدليس، والاحتكار، وتبرأ من كل المحرّمات

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

وموضوع الدعاء طويل جداً، وهو من أهم موضوعات الدين، بل الدعاء هو الدين كلّه.

وبعدُ، أيها الإخوة الكرام أتمنّى على الله عزّ وجل، وأرجو الله أن نعيش الدعاء حقًا، وأن يكون الدعاء أساس حياتنا، أساس تعاملنا مع الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (17-20): تفسيرالأية 61

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة غافر، ومع الآية الواحدة والستين وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

مقدمة:

1 ـ لا تصح حركتك في الدنيا إلا إذا عرفت الهدف:

أيها الإخوة الأكارم ـ العقل أصل الدين، لأنك لا تستطيع أن تستقيم على أمر الله إلا إذا تعرّفت إليه، هناك معرفة، وتطبيق، وسعادة، واعلم أنّ عِلّة وجودك، وعلة خلقك أن يسعدك الله سبحانه وتعالى بالقرب منه، خلقت لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، نحن في دار امتحان، نحن في دار إعداد، نحن في حياة دُنيا وليست عُليا، الحياة العليا في الآخرة، حياة التشريف في الآخرة، نحن في دار تكليف، حياة الجزاء في الآخرة، نحن في دار عمل، فكل إنسان يتجه في حياته الدنيا إلى أن يستمتع بها، ويجعل المُتْعَة نهاية آماله فقد ضل ضلالاً بعيدا، وضل ضلالاً مبينًا.

أقول لكم هذا المثل دائماً لخطورته: لا يصح عملك أيها الأخ الكريم إلا إذا عرفت لماذا أنت على وجه الأرض، كما كنت أقول وأضرب هذا المثل: إنسان سافر إلى بلد ما فلا بد من أن يطرح على نفسه السؤال التالي: لماذا أنا هنا ؟ إذا عرف لماذا جاء إلى هنا تصح حركته، لو جاء هذه البلدة طالبًا لتحرك في اليوم التالي إلى الجامعات، ولو جاء إلى هذه البلدة تاجرًا، لتحرك إلى المعامل، ولو جاء سائحًا لتحرك إلى المقاصف والمتنزهات.

لا تصح حركتك في الدنيا إلا إذا عرفت الغاية والهدف، الإنسان كائن فيه فاعلية كبيرة أساس الفاعلية الشهوات، شهواته تدفعه نحو كسب المال، نحو الاستمتاع، نحو العلو.

الإنسان يشكِّل كائنًا متحركًا، بالتعبير العصري (ديناميكي)، أي فيه فاعلية كبيرة جداً، هذه الحركة إما أن تكون حركة هادفة صحيحة مسعدة ؛ أو حركة طائشة مسيئة مُشقية، فكل إنسان له عمل في الحياة،

كل إنسان يتحرك، يأخذ، يعطي، يصل، يقطع، يسالم، يعادي، يقبض المال، ينفق المال، يستمتع بطريقة مشروعةٍ أو غير مشروعة، مجموع نشاطه في عمله، وفي إمضاء أوقات فراغه، وفي علاقاته الشخصية، وفي علاقاته الاجتماعية، مجموع حركته، مجموع نشاطه يقال له حركة.

حركة الإنسان على وجه الأرض، إما أن تكون صحيحةً، هادفةً، مسعدةً إلى أبد الآبدين ؛ وإما أن يتحرك الإنسان بلا هدف، أو بهدفٍ موهومٍ غير صحيح، حركة ليست منضبطة لا بقيم ولا بشرع، فهذه الحركة المتفلِتة من منظومة القيَم، هذه الحركة الطائشة غير المنضبطة غير الهادفة هي سبب شقائه في الدنيا والآخرة.

أخطر ما في الموضوع أن الإنسان بقدر معرفته بالله يطيعه، وبقدر طاعته يسعد، ملخص الملخص: بقدر معرفته يطيعه، بقدر طاعته يسعد، والهدف الأخير أن تسعد، والثمن أن تطيعه، السبب أن تعرفه، لذلك في كتاب الله عزّ وجل من حين إلى آخر لفتاتٌ تدعوا الإنسان للالتفات إلى الكون، فلماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، لك حواس خمس، هذه الحواس الخمس لا تستطيع أن تعرف الله، هذه الحواس الخمس تعرف الأشياء المادية المحيطة بك، لكن العقل الذي أكرمك الله به، ووضعه في رأسك إن صح في التعبير، أو في صدرك بمعنى آخر، هذا العقل الذي أكرمك الله به هو أداة معرفة الله.

2 ـ الكون طريق إلى معرفة الله:

العقل تماماً كهذه العين، الإبصار يحتاج إلى أشياء ثلاثة ؛ يحتاج إلى عين، ويحتاج إلى شيٍ تبصره، ويحتاج إلى وسيطٍ بينهما، وهو الضوء. العين موجودة، والشيء موجود، و لكن بلا ضوء لا تبصر، العين موجودة، والضوء موجود، والشيء غير موجود، فالعين عندئذ ليست لها فائدة، الشيء موجود، والضوء موجود، وبلا عين، فالإبصار مُستحيل.

فمن أجل أن تعرف الله سبحانه وتعالى لا بد من كونٍ يدل على الله، ولا بد من عقلٍ يفهم الكون، ولا بد من نورٍ إلهيٍ يكون وسيطاً بين الكون والعقل، كما أن العين تحتاج إلى نور وإلى شيء مُبْصَر، كذلك العقل يحتاج إلى نور وإلى كون يدل على الله عزّ وجل، لذلك الحقيقة الدقيقة أنك لن تسعد إلا بطاعة الله، ولن تطيعه إلا بعد معرفته ولم تعرفه إلا من خلال خلقه.

3 ـ الصنعة تدل على الصانع:

هناك نقطة مهمة جداً، هي أن الله على كل شيءٍ قدير، فقد كان من الممكن أن يكون الكون بوضع أبسط بكثير مما هو عليه، وإخواننا الذين يدرسون ويقرؤون في اختصاصات علمية يجدون أن المادة معقدة جداً، الذرّات شيء لا يُرى بالعين، الذرة فيها نواة، وفيها كهارب، وفيها إلكترونات، وفيها مدارات، أول مدار والثاني والثالث، ولها أنظمة دقيقة معقدة، فالذرّات معقّدة، وخُلق الإنسان معقدًا، خلق الحيوان معقدًا، الدماغ معقد تعقيدًا ليس له حدود، خُلق النبات معقّدًا، هذا تعقيد إبداع، وتعقيد إعجاز.

فالسؤال الآن: كان من الممكن أن يكون الكون بشكلٍ بسيطٍ بسيط، نأتي لكم بمثل: أحياناً في البيت طاولة، عبارة عن ترس خشب وأربعة قوائم، هذه قطعة أثاث في البيت غير معقدة بسيطة الصنع، لكن أحياناً تفتح جهازًا إلكترونيًا، لو عندك مثلاً حاسوب تفتحه فتجد شيئًا مخيفًا بداخله، صمامات ودارات وأشياء معقدة جداً، وتوصيلات، الطاولة البسيطة، ترس وأربعة أرجل، كهذا الحاسوب ؟ لا، فلماذا كان الكون بهذا الدقة البالغة ؟ وبهذا الإعجاز المُبدع، وبهذا التعقيد العظيم ؟ فهل من أجل أن يحقق هدفاً مادياً ؟ لا، بل من أجل أن يكون الكون مظهراً لعلم الله، مظهراً لقدرته، مظهراً لرحمته، مظهراً لحكمته، مظهراً للطفه، فالأساس أن يكون الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى، إذا أردت أن تعرف الله ليس من سبيل تستخدمه، أو من طريقٍ تعبره، أو من أداةٍ تستعملها إلا أن تفكِّر في صنع الله عزّ وجل، لأن هناك آيات كثيرة تقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

إن لم تؤمن بالله من خلال آياته فلا سبيل لك إلى الإيمان، فأنت لو رأيت شخصين بشكلين مختلفين، واحد طويل والآخر قصير، واحد لونه أبيض والآخر لونه أسمر، واحد فيه وسامة، والآخر فيه دمامة مثلاً، كلاهما يصنع قطع أثاث، فأنت تعرف صنعتهما من شكليهما أم مما يصنعون ؟ بل أعرفهما من دقة صناعتهما، فالصنعة تدل على الصانع، والنظام يدل على المنظِّم، وحسن التقدير يدل على المقدِّر، والحكمة تدل على الحكيم، فكل ما في الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى.

فمنطلق الدرس: خُلقتَ كي تسعد، والسعادة تحتاج إلى ثمن، ثمنها طاعة الله في الدنيا والطاعة ثمنها معرفة الله، ومعرفة الله طريقه التفكّر في خلق السماوات والأرض، لذلك شيء طبيعي جداً أن تقرأ في القرآن الكريم من حينٍ إلى آخر آيات كونية تدل على الله.

الحقيقة هذه الآيات ليست على سبيل الحصر بل على سبيل المثال، فربنا عزّ وجل بثّ في الأرض آيات لا تعدُّ ولا تحصى، كل ما في الكون ينطق بوجوده، كل ما في الكون ينطق بوحدانيّته، كل ما في الكون

ينطِق بكماله، كل ما في الكون ينطق بعلمه، بحكمته، بقدرته بلطفه، بغناه، فنحن من أجل أن نسعد لا بد من طاعة الله، من أجل أن نطيعه لا بد من معرفته، من أجل أن نعرفه لا بد من التفكر في خلقه.

فكل إنسان أتاه الله عقلًا، العقل أثمن شيء منحك الله إياه على الإطلاق، العقل البشري أعقد مخلوق لله عزّ وجل ؛ مائة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية هي مكان التفكّر، والتذكر، والمحاكمة، والاستنباط، والاستنتاج، والقياس، والتصور، كل أنواع الأنشطة العقلية محلها القشرة الدماغية، لكن المشكلة أن هذا العقل لا بدّ أن يعرف المهمة التي أوكلت إليه.

4 ـ لا ينبغي للعاقل أن يستخدم عقله لأمر سخيف:

هل من الممكن لك أن تشتري جهازًا بثلاثين مليونًا ـ حاسوب ـ تستخدمه طاولة في البيت ؟ أليس في هذا امتهان واحتقار له ؟ هل يمكن أن تستخدم آلة معقدة جداً لهدف سخيف جداً ؟ فكل إنسان يستخدم عقله لكسب المال فقط، يستخدم عقله للإيقاع بين الناس فقط، يستخدم عقله لينتزع إعجاب الناس فقط، يستخدم عقله ليعيش حياةً وادعةً فقط، هذا إنسان في عقله خللٌ خطير، أي أنه استخدمه لغير ما صنع له، والعقل البشري لا يليق به إلا أن يكون أداةً لمعرفة الله، لأن هذه الأداة تجر لصاحبها سعادة أبدية.

إذا استخدم الإنسان عقله لجمع المال، وصار أغنى أغنياء الأرض، يقولون لك: هذا ملك الحديد في العالم، هناك أغنياء يقرضون الدول والحُكومات، وأحد كبار أغنياء العالم أمواله المنقولة ـ سبائكه الذهبية ـ أودعت في مستودع كبير، فدخل مرةً هذا المستودع فأُغْلِقَ عليه الباب، وهو في الداخل، ومن عادته أن يتنقل في اليوم مرتين أو ثلاثًا من بلد لبلد، فلما غاب عن البيت ظن أهله أنه في سفر، لكنه ظل يصيح، وينادي ويستغيث وهو حبيس فيه، حتى أدركه الموت جوعاً وعطشاً، فجرح إصبعه وكتب على الجدار: أغنى إنسان يموت جوعاً).

لو أن إنسانًا استخدم عقله، وجمّع أكبر ثروة في العالم فهذا الإنجاز الضخم لهذا العقل متى تنتهي فوائده؟ عند الموت، لو أنه استخدم عقله حتى بلغ أعلى منصب في العالم، فهذا الإنجاز لهذا العقل متى ينتهي؟ عند الموت، لو أنه استخدم عقله، وبلغ أرقى حياة يعيشها إنسان ؛ أطيب الطعام، أفخر البيوت، أفخر اللباس، فمتى ينتهي إنجاز هذا العقل ؟ عند الموت، إذاً هذا إنجازٌ سخيفٌ لهذا العقل، لكنك إذا تعرّفت إلى الله بعقلك من خلال الكون، وبهدى من الله عزّ وجل، فهذا الإنجاز لهذا العقل هو الذي يسبب لك السعادة الأبدية إلى ما شاء الله، لذلك لا يليق بالعقل أن تستخدمه إلا في معرفة الله، فإن استخدمته استخداماً جانبياً في كسب المال لا مانع، إن استخدمته استخداماً جانبياً في إصلاح حياتك لا

مانع، أما أن تستخدمه استخداماً وحيداً في كسب المال وفي الارتفاع أو في مكاسب مادية تنتهي عند الموت فهذا هو الحمق الشديد، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

5 ـ الموت ينهي كلّ شيء:

أيها الإخوة الأكارم، دائماً وأبداً بطولتك تظهر حينما تلقى الله عزّ وجل، هل أن نادم ؟ المؤمن كل جهده في الدنيا، وكل انضباطه وسلوكه الحميد، وكل تفكيره، وكل سعيه لمعرفة الله، وكل سعيه لطاعته، وكل بذله من أجل أنه إذا جاءه ملك الموت أن يشعر أنه حقق الهدف من وجوده، وأنه دخل في رضوان ربه، وأنه استحق جنة الخُلد، هذا هو هدف العقل الرشيد.

إنّ أيّ إنسان بلغ أعلى قمم النجاح في الدنيا، يأتي الموت لينهي له كل هذا النجاح في ثانية واحدة، الموت يلغي غنى الغني، ويلغي فقر الفقير، ويلغي قوة القوي، ويلغي ضعف الضعيف، ويلغي علو العالي ودنو الداني، ويلغي صحة الصحيح ومرض المريض.

6 ـ الإنسان مخلوقٌ مكرّم:

فقبل أن ندخل في تفاصيل الآيات أنت كإنسان وكمخلوق مكرّم.

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

أنت مخلوق مكرّم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا(70))

(سورة الإسراء)

أنت مخلوق مكلّف.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

وفيك عقلٌ، هو أثمن شيءٍ في الكون، فإما أن تستخدم هذا العقل لمعرفة الله، وبالتالي إلى طاعته، وبالتالي لاستحقاق سعادة الدنيا والآخرة ؛ وإما أن تعطل العقل، أو أن تستخدمه استخداماً لا ينفعك بعد الموت، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام عجب أشد العجب من سيدنا خالد لا لأنه أسلم، بل لأنه تأخَّر في إسلامه، والعلة أن له فكرًا وعقلاً ناضجًا، قال:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

[ورد في الأثر]

أيكون للإنسان عقل ويعصي الله ؟

7 ـ لا تشتغل بالمؤقت وتترك الأصل الدائم:

ألقيت كلمة قبل أسبوع في عقد قران ضربت مثلًا، وهو مثل معروف: إنسان ساكن في بيت أجرة، وصاحب البيت من القوة حيث بإمكانه أن يطرده منه في أيّة لحظة، ومن دون سابق إنذار، ولهذا المستأجر دخلٌ كبير، ولهذا المستأجر بيتٌ خَرب في منطقةٍ قاحلة، فهل من الحكمة أنّ عقل هذا المستأجر يأمره أن ينفِق كل دخله في تزيين البيت المؤقت المستأجر ويهمل ذاك البيت الذي سيؤول إليه شاء أم أبى، وسوف يُطرَد من بيته الأول المستأجر طرداً في أية لحظة من دون سابق إنذار ؟ لكل منّا أيها الإخوة بيتان ؛ بيتٌ مؤقت تسكنه في الدنيا، ولنا عند الله حياةٌ عليا، فالإنسان دخله، ماله، سعيه، جهاده، طاقاته هل يعقل أن يصرفها كلها للدنيا ؟ فهذا الذي كل خواطره، كل مشاغله، كل متاعبه، كل همومه متعلقة في الدنيا، فهو أكبر مقامر، ولو جاءه مَلَك الموت فجأة يجد نفسه أنه لا يملك للآخرة شيئاً، هو صفر اليدين، فهذا الذي يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

إذاً: المقدمة في هذا الدرس ملخصة في ثلاث كلمات: إذا أردت أن تسعد فعليك بطاعة الله، ولكن طاعة الله عزّ وجل مرتبطة بمعرفته، والقاعدة: أن قيمة الأمر من قيمة الآمر، فلو كنت في الخدمة الإلزامية تتلقى أمرًا من عريف، فلك من هذا الأمر موقف ـ والرتب العسكرية لها اعتباراتها، وإذا تلقيت أمراً من أعلى رتبة في الفرقة لك موقف آخر، قد يكون الأمر نفسه، واللفظ واحد، لكن كلما علا الآمر كان للأمر أهمية كبيرة.

8 ـ أطع الله وعلى الله الباقي:

فمن أجل أن تطيع الله عزّ وجل لا بد من أن تعرفه، فأكثر الناس يرتكب المعاصي، ويقول بعدها: ماذا نفعل، الزمن صعب ؟ فهو لا يعرف ما عند الله من عذاب أليم عند المعصية، ولا يعرف ما عند الله من ثواب عظيم لو أطاعه، يقول لك: لا نقدر. لماذا لا تقدر، والآمر ضامن ؟ فهل من المعقول أنّ الله عزّ وجل يأمرك بأمر، ثم لأنك أطعته وخفت منه يجعلك وراء الناس، فيحرمك البيت، والزواج، وما ذاك إلاّ لأنك أطعته، ولأنك ترفعت عن مال الربا يتركك محرومًا، هكذا الإله ؟ هكذا يعامل عباده ؟ لا ثم لا، فالآمر ضامن.

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[كشف الخفاء]

تجد بعض الناس يتهمون الله عزّ وجل بأنّ عباده الذين خافوا منه وأطاعوه هم ضائعون، فقراء، متخلفون، بلا عمل، هذه صورة شيطانية.

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة فصلت)

إذا كان الله عزّ وجل قد وعدك أنه وليُّك فهل تخشى سوءًا ؟ هل تخشى فقراً ؟ هل تخشى هضماً للحقوق؟ هل تخشى ظلماً، هل تخشى ضياعاً، أين قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: الآية 97)

يا أيها الإخوة الأكارم... الحديث الشريف:

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[كشف الخفاء]

هذا الحديث مهم جداً، فأحياناً يأتيك عرض مغرٍ جداً لكن على أساس معصية أو شبهة، فأنت بسبب من إيمانك وورعك تقول: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، الله غني، فماذا تنتظر من الله إذا ترفّعت عن شيءٍ في سبيل الله ؟ انتظر كل الخير، انتظر أن يعوّضك الله خيراً مما فاتك حرامًا، وأن يعوضك حلالاً، انتظر كل فضلٍ من الله عزّ وجل.

إذاً: من حين إلى آخر تجدون في كتاب الله عزّ وجل مقاطع من الآيات الكونية، من أجل أن تكون هذه المقاطع نماذج للتفكر في خلق السماوات والأرض، قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

1 ـ كل ما في الكون مسخّرٌ مذلّلٌ:

أي أنّ الذي أمرك بغض البصر، والذي أمرك بالصدق، والذي أنزل هذا الكتاب هو الذي خلق هذا الليل، هو الذي خلق النهار، هو الذي خلق الشمس، هو الذي خلق القمر، هو الذي أنزل المطر، هو الذي خلق الإنسان، هو الذي خلق النبات، فهل هناك إنسان لا يأكل في اليوم ثلاث وجبات ؟ على المائدة فكِّر واعتبر ؛ تأكل قطعة جبن من صنع الحليب ؟ من سخر هذه البقرة تصنع لك الحليب ؟ الغدة الثديية في البقرة عبارة عن قبة يجول في أعلاها شبكة من الأوعية الدموية الدقيقة جداً، ويرشح من أسفل القبة الحليب، وحتى هذه الساعة لا يعرف العلماء كيف يتم تصنيع الحليب في الغدة الثديية للبقرة ؟ الذي يرونه بأعينهم مجموعة خلايا على شكل قبة، يغلفها من الأعلى شبكة دموية دقيقة جداً، ويرشح من داخل القبة الحليب، نقطة وراء نقطة، كل ستمئة لتر من الدم الذي يجول في قبة، وهذه الغدة يرشح من داخلها لتر حليب واحد، فكل لتر حليب نتيجة دوران ستمئة لتر دم في أعلاها.

البقرة أولاً مذللة، وهناك مرض نادرًا ما يصيب البقر، هذا المرض اسمه التوحُّش، ذكر لي أخ كريم يقطن في إحدى مدن الغوطة الشرقية أن أحد الفلاحين عنده بقرة، أصيبت بهذا المرض فتوحشت، فقتلت رجلين، وجرحت ثالثاً، فاضطر أن يطلق عليها الرصاص، ويخسر ثمَنها سبعين ألف ليرة.

كلمة (وذللناها لكم)، هذه الكلمة ألا تحدث في المؤمن رعشة، والبقرة وزنها ستمئة أو سبعمئة كيلو يقودها طفل صغير، تحلبها امرأةٌ ضعيفة، تنقاد لطفل، أما لو توحّشت لا بد من أن تقتلها لئلا تقتل الناس.

الجمل مذلل، البقرة مذللة، هذه كلها آيات كونية.

2 ـ الماءُ آيةٌ:

وأنت تشرب فكِّر وتأمل ؛ فكأس الماء هذا، لو أردنا تحلية مياه البحر لكلفنا كل لتر من الماء أكثر من ثمن لتر من البنزين، يكلف أربعة أو خمسة ريالات في مراكز التحلية، فهذا الماء العذب الفرات، المحلى عن طريق الخالق جلّ جلاله، هل فكرت فيه ؟ وهذا الماء بلا لون ولا طعم ولا رائحة يتبخر بدرجة أربع عشرة، نفوذ إلى درجة متناهية ـ قيمة نفوذيته ـ فتصور أنه غير نفوذ مثل القطر، تحتاج إلى غسيل الشيء الملوث بالماء، سائل إلى درجة متناهية، فهو نفوذ، ومزيل للأجسام الأخرى التي

تخالط الملابس، لا لون، لا طعم، لا رائحة ؛ الماء وحده أكبر آية تدل على الله عزّ وجل، تبرّده فينكمش وينكمش و ينكمش، وعند الدرجة (4+) يزداد حجمه، على خلاف كل عناصر الأرض، كل ما في الكون من عناصر على التبريد تنكمش، وعلى التسخين تتمدد، هذا نظام إلهي ثابت، فالغازات، والمواد الصلبة، والمواد المائعة تتمدد إلا الماء في الدرجة (4+) إذا خفضت حرارته يزداد حجمه، وقد لا تصدق أن هذه الخاصة في الماء تتوقف عليها الحياة في الأرض، لو ألغيت لما كنا في هذا المسجد، لما كان في الأرض إنسان واحد ولا حيوان ولا نبات.

لو أن الماء كلما زدنا تبريده انكمش، فتزيد كثافته، ويغوص عندئذ إلى أعماق البحار، وتتجمد المحيطات، وينعدم التبخر، ويموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، فمن الذي جعل الماء تنعكس قوانينه بهذه الدرجة ؟

بالمناسبة، لو وضعت مترًا مكعبًا من الماء في مكبس، ووضعت فوق المكبس ثمانمائة طن لا ينضغط أبدا، أما إذا برّدته فسوف يتوسّع، لو وضعته في أعظم الأجسام قساوةً، هذه الأجسام تتشقق، تتصدع، وأحدث طريقة الآن لقلع الرخام عن طريق حفر ثقوب في الصخور وملئها بالماء، ثم يبردون الماء، فيتوسع، فيقلعون مترًا مربعًا من الرخام.

الماء آية، الهواء آية، كأس الحليب آية، البقرة آية.

3 ـ البيضة:

الدجاجة آية، بيضة صغيرة رأيتها بأم عيني، بيضة صغيرة تأتي حمامة تجلس فوقها، بعد أيام خرج من البيضة صوص صغير جداً، ما مضى أسبوعان أو ثلاثة إلا وطار، أصبحت حمامة كأمها وطارت، تحت سمعي وبصري كل يوم أراقبها، هذا خلق الله عزّ وجل، بيضة انكسرت فخرج منها المخلوق الصغير فيه أجهزة ؛ فيه جهاز هضم، فيه جهاز عصبي، فيه قلب، فيه دوران، فيه رئتان، وله سمع،وله بصر، ويكسوه ريش، كله تحت سمع الإنسان وبصره، تأتي الأم تضع منقارها في فمه تغذيه، خلال أسبوعين في حجم بيضة صغيرة جداً أصبحت حمامة إلا قليلاً، وطارت منذ يومين، هذا من خلق الله عزّ وجل.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

أيها الإخوة الكرام، الذي يستخدم عقله لمعرفة الله هذا من السعداء، لأن كل هذا الكون آيات دالة على عظمة الله وكثير من الناس غافلون عنها ؟

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105))

(سورة يوسف)

بعض الناس في غفلةٍ، يشرب الماء كالبهيمة، يأكل كالحيوان، يستمتع بالدنيا استمتاع البهائم وربنا عزّ وجل وصفهم كذلك، يستمتع بالطعام والشراب كما تستمتع البهائم، لا عقل ولا إدراك، ولا حمد، ولا شكر ؛ أما المؤمن فكلّما تحرك يرى نعمة الله، كلما عاين نعمة لله عزّ وجل ينفذ منها إلى المُنعم لذلك: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه.

ماذا أقول لكم ؟ والله في جسم الإنسان من النعم، وفيه من الإكرامات ما لا يحصيه محصٍ.

4 ـ العين البشرية:

العين البشرية عشرة طبقات بالشبكية، مائة وثلاثون مليون مخروط بالشبكية، تسعمائة ألف عصب بالعصب البصري، يخرج من قعر العين من ثقب صغير العصب البصري، ويضم تسعمئة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أغماد، من أجل نقل الرؤية الدقيقة الملونة الصافية إلى الدماغ، عضلات جانبية، عضلات علوية، سفلية، القَرْنية الشفافة، القُزحية، الجسم البلوري، الخلط المائي، العصب البصري، العين وحدها آية، أم المطابقة ؛ وما أدراك ما المطابقة ؟

اسألوا عن المطابقة، المطابقة شيءٌ معجز، عدسة مرنة، الشيء البعيد من أجل أن يقع خياله على الشبكية، تجد أن العدسة يزداد تحدبها قليلاً، فمن يزيدها ؟ حسابات دقيقة جداً.

إنسان ما ؛ يمشي بالطريق، فتمرُّ به سيارات، وأشياء أخرى منها البعيد ومنها القريب وأشياء متحركة، كله يراه رؤية دقيقة بفضل التطابق، وهذا التطابق وحده أكبر آية تدل على الله.

فلذلك أيها الإخوة الأكارم أنتم ترون أنّ الله يصف الإنسان فيقول:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

(سورة البلد)

كل حرف من الكلام يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، إذا قلت محمد ـ م، ح، م، د ـ والميم مشددة أي حرفين فالمجموع يصبح خمسة أحرف، والخمسة أحرف ضرب سبع عشرة عضلة، تقريباً خمس وثمانون حركة بالعضلات إذا قلت كلمة: محمد.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10))

الثديين.

(فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

(سورة البلد)

أي أنْ تفك رقبتك من أسر الشهوة، ما دامت شهوتك هي الحاكمة، فالطريق إلى الله مغلق، مسدود. لذلك هذه الآيات الكونية التي وردت في كتاب الله، هي بشكل أو بآخر موضوعات للتفكر، فربنا عزّ وجل يقول:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

5 ـ النوم في الليل نعمة كبرى:

إذا أردت أن تفكر في خلق الله، فالليل موضوع للتفكر، الخلية في الإنسان يتعبها الضوء والحركة، فلا بد من ليلٍ تسكن فيه، وإذا أردت أن تعذب الإنسان عذاباً لا يحتمله، اجعله في مكانٍ لا ظلام فيه ضوء مستمر، أو امنعه من النوم، لأن النوم من نعم الله الكبرى، النوم يحتاج إلى ظلام.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ)

هذه كلمة (لكم)، أيْ جعله خصيصى لكم، إكراماً لكم، تفيد الاختصاص، الليل مخصص لكم.

لكمن كيف يكون الليل ؟ يكون من حركة الأرض حول الشمس، فالأرض تدور، لو لم تدر لما وجد ليل ونهار، نصفها ليل سرمدي ونصفها نهار سرمدي، وهناك آية أخرى تؤكِّد ذلك:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ(71))

(سورة القصص)

الليل السرمدي دليل على أن الأرض واقفة. لكن لو أن الأرض دارت هكذا على محور موازٍ مستوي دوران الأرض حول الشمس، الشمس هنا، والأرض تدور حولها بكيفية معينة لما وجد ليل ونهار، نصف الكرة ليلٌ سرمدي، ونصفها نهارٌ سرمدي.

لو أن المحور عمودي على مستوى الدوران لما كان صيف وشتاء وربيع وخريف، ولانعدمت الفصول، ليل ونهار وأربعة فصول من دوران الأرض على محور مائل على مستوى الدوران، فالأرض محورها مائل، إذًا الشمس هنا عمودية وهنا مائلة، هنا صيف وهنا شتاء، فلما انعكست الآية العمودية هنا على نصف الكرة الجنوبي، والمائلة هنا على نصف الكرة الشمالي، ومن ميل المحور تنشأ الفصول الأربعة، والفصول من أساسيات حياة النبات، النبات يحتاج إلى برد، وإلى جو معتدل، وإلى حر ورطوبة، وأمطار، وشمس، وحرارة، فتبدل الحرارة والرطوبة والأمطار يحتاج إلى فصول، فالكون مترابط، فربنا عزّ وجل يقول:

(اللَّهُ)

أيْ هل عرفتم من هو الله عزّ وجل ؟

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

من أجل أن تسكن، لو أن الإنسان نام بالنهار عشر ساعات بدل نوم الليل، لم يحقق القصد من النوم، لا بد من أن ينام في الليل، وأول ساعات الليل أفضل من ساعاته المتأخِّرة.

(وَالنّهَارَ مُبْصِرًا)

وَالنّهَارَ مُبْصِرًا

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إذَا جَاءَ اللّيْلُ فَأَيْنَ النّهَارُ ؟))

[أحمد عن سعيد بن أبي راشد]

تجد هناك وحشة، إذا دخل الإنسان ليلاً في غابة ينخلع قلبه من الخوف، فإذا أشرقت الشمس تصبح الغابة من أجمل الأمكنة، لو ركب البحر في الليل لشعر بوحشةٍ كبيرة، فإذا طلعت الشمس شعر بالأنس.

(وَالنّهَارَ مُبْصِرًا)

دورة الأرض حول نفسها، وميل محورها، وتشكّل الليل والنهار والفصول الأربعة، هذه من الآيات الكبرى الدالة على عظمة الله عزّ وجل.

هذا الموضوع لا بد له من التفصيل والتعميق والتحليل والدراسة، هذه الأرض مَن يحركها ؟ لو أن سرعتها زادت صار الليل ساعة، فليس من المعقول أن يكون الليل ساعة، فبينما يغلق التاجر محلّه إذْ طلع الفجر، لم يتعش بعد إلاّ وقد طلع الفجر، لو كان الليل ثلاثين ساعة ينام ويفيق، ويفيق وينام، ناس نائمون، ناس مستيقظون، فليس هذا معقولاً، فمن جعل الليل ثماني ساعات أو عشر ساعات ؟ أو أكثر، الليل و النهار متعلقان بالسرعة، فلو أن السرعة ازدادت لقصر الليل ولطال النهار، ولو أبطأت السرعة صار الليل طويلاً والنهار طويلاً، والنهار قصيراً لحدثت فوضى، لو أن دورة الأرض حول الشمس طالت، أو أن الأرض أبطأت صار الصيف ثلاثين شهرًا، فلا يعقل أن يكون الصيف ثلاثين شهرًا، فالناس لمدة ثلاثة أشهر يملّون، تجدهم يريدون أن يعود الشتاء، فمن جعل هذه المواقيت المعتدلة المتناسبة مع خلق الإنسان ؟ إنه الله.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا إِنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(61))

إِنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

فالإنسان كلّما تأمل نعم الله عزّ وجل واتصل بالله من خلالها امتلأ قلبه شكراً، وبعد كل هذا فلنعدِّد النعم العظمى على الإنسان: نعمة وجودك، أنعم عليك بالوجود، ثم أنعم عليك بالصحة، وأنعم عليك بزوجة، وبمأوى صغير، الناس يتسابقون لمتاع الدنيا ويتحاسدون، ويتباغضون، ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً من أجل حطام الدنيا، مع أن الأساسيات متوافرة للجميع، الإنسان إذا كان جائعاً، وأكل أبسط طبق من الطعام يشعر بلذة لا توصف، أحياناً يكون الإنسان محرومًا من الأكل العادي بسبب صحي، حتى أبسط المأكولات، يقول لك: أشتهي قرصًا من الفلافل وأدفع ثمنه مائة ألف ليرة، لكنه ممنوع، إذا جاع الإنسان أمامه طعام، وأكله، وشعر بالشبع فهذه نعمة كبرى، وله مأوى، له أهل، له أولاد، هذه النعم الأساسية قواسم مشتركة، الناس يتحاسدون في الكماليّات ؛ كالمنزل الواسع، والمركبة، بالوجاهة، أما الأساسيات فهي موجودة، فإذا شكر الإنسان الله على نعمة الوجود، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، وامتلأ قلبه شكراً لله عزّ وجل سعد بهذا الشكر.

(إِنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ)

بالليل والنهار.

(لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ)

بدورة الأرض حول نفسها، بميل محورها، باعتدال سرعتها، باعتدال الوسط الذي يعيشه الإنسان.

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(61))

هذه النعم العظمى يمرُّ عليها وهو في غفلةٍ شديدة عنها.

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ)

ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ ما الذي يشغلكم عن الله عزّ وجل ؟ ما الذي يصرفكم عنه ؟ أهو متاع الدنيا، تجارتها، أموالها، متعها، شهواتها ؟ هذه منقطعة بالموت.

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ(62)كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(63)اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسّمَاءَ بِنَاءً وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطّيّبَاتِ ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هذه الآيات إن شاء الله تعالى سوف نعيد شرحها في درسٍ قادم، لأنه أتينا عليها سريعاً من دون شرح.

خلاصة الموضوع:

1 ـ تفكّرْ في الكون:

لكن المقدمة التي أريد تأكيدها أنك إذا أردت معرفة الله فعليك بالتفكر في آيات الله في الكون، وفي الدرجة الأولى جسمك الذي تصحبه، وأخطر ما في الموضوع أنك خلقت للسعادة الأبدية، والسعادة الأبدية ثمنها طاعة الله، وطاعة الله ثمنها معرفته، ومعرفته سببها التفكّر في خلق السماوات والأرض، فالمؤمن يخصص وقتًا يتفكر فيه في خلق السماوات والأرض، وفي أثناء النهار، وفي أثناء تناول الطعام، وفي أثناء التنقّل من مكان إلى مكان وفي كل ظاهرة.

العطاس:

فمثلاً لو أنّ واحدًا عطس، فالعُطاس من نعم الله الكبرى، إنسان صار معه سعال، لماذا السعال ؟ معنى السعال وجود حساسية معينة بالقصبة الهوائية، وهي فيها أهداب جاءها جسم غريب فطردته، أساساً الآن يستحيل عليه زرع رئة، لأن الرئة المزروعة صاحبها لا يسعل، فتتراكم المواد السيئة في القصبة، ويحدث إنتان قد ينتهي بصاحبها إلى موت، فظاهرة السعال هذه ظاهرة مهمة جداً.

التقلب في النوم:

الإنسان كيفما تحرك، في النوم مثلا، تقلّبه في النوم هذه من آيات الله الدالة على عظمته، لأن الإنسان عندما ينام وزن الجسم الذي فوق العظم يضغط على اللحم الذي تحت العظم، هذا الضغط يسبب ضيقًا في لمعة الأوعية الدموية، يصير لديه نقص تروية، فتنمل رجله أحياناً، وهو نائم ومستغرق في نوم عميق ينقلب على جنبه، فتستريح العضلات التي تحت الهيكل العظمي، ويأتي دور العضلات التي كانت مرتاحة، فكيف يقلب ؟ لأن في الجسم مراكز، وهي مراكز تتحسس بالضغط، هذه المراكز تعطي إشارة للدماغ، والدماغ يعطي أمرًا لتتقلب وأنت نائم، وربنا يقَلِّبُك مرة هكذا ومرة هكذا، وإلا وقعت من السرير.

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: الآية 18)

تصوروا شخصًا نائمًا فإنه يتقلّب ثمانيًا وثلاثين مرة، كلما انضغطت العضلات التي فيها أوعية تحت الجهاز العظمي، صار فيه ضعف تروية، تأتي إشارات للدماغ أنّ هنا ضغط وتعب، فيعطي أمرًا فتتقلب، التقلب آية وأنت نائم.

اللعاب:

إذا كان الواحد عند طبيب الأسنان، والمعالجة طالت فيضع له شرّاقة، لماذا ؟ لوجود اللعاب الذي يخرج باستمرار، ولكي لا يضطر قطع العمل يضع له هذه الشراقة، لكن أين الشراقة وأنت نائم ؟ لسان المزمار، وأنت نائم إذا باللعاب يكثر في فمك، فتذهب إشارة إلى الدماغ، والدماغ يعطي أمرًا للبلعوم وأنت نائم، يغلق طريق الرئة إغلاقًا محكمًا، ويفتح الطريق إلى المعدة عبر المريء، فاللعاب يذهب عندئذ للمعدة وأنت نائم.

كيف لو رأيت شيئا مخيفا ؟

رفُ الجفون، هذا فعل منعكس، فتح الحدقة فعل منعكس أيضاً، لو أنّ الإنسان رأى حشرة مخيفة، رأى عقربًا، فوراً صورة العقرب على الشبكية تنتقل للدماغ، يتم إدراك، والدماغ يسأل الغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني أن هنا خطرًا تصرفي، هذه الغدة النخامية تعطي أمرًا إلى الكظر في خطر تصرف، الكظر يعطي خمسة أوامر ؛ أمرٌ إلى القلب يسرع في نبضه، فالخائف يدق قلبه كثيرًا، مائة وعشرين دقة، أمرٌ ثان إلى الرئتين لكي يعتدل الشهيق والزفير مع ضربات القلب، فالخائف يلهث، أمرٌ ثالث إلى الأوعية الدموية كلها فتضيق لمعتها، حتى يتوفر الدم للعضلات، فلسنا مضطرين للون زهر، فالخائف لا يحتاج إلى اللون الزهر فهو يريد أن يتخلص من الموقف، (ينفد بريشه)، فتجد الدم يذهب للعضلات فتجد لونه يصفر، فلماذا الخائف يصفّر لونه ؟ لأن هناك أمرًا ثالثًا أرسله الكظر للأوعية كلها فضاقت اللمعة، أمر رابع يصدر للكبد أنْ اطرَحْ كمية زائدة من السكر في الدم، لو فحصنا دم إنسان خائف نجد السكر عاليًا بكثرة، الكبد طرح السكر، وكل ذلك خلال ثانية واحدة.

فإذا رأى شخص عقربًا أو أفعى ببستان، تجد قلبه يخفق بشدّة، يلهث بقوة، يصفر لونه يزداد السكر بدمه، وأنت لا تشعر، وهناك أمر خامس، ألا وهو هرمون التجلّط إذْ تزداد نسبته بالدم، حتى لو كان في الجسم جرح ونزيف فالدم لا يخرج كله، وأنت لا تشعر.

المثانة:

عندك جسم هو أعقد مخلوق في الكون، فإذا أحضر شخص بالونًا وملأه ماء وعلّقه، ثم ثقبه ثقبًا، فكم من الوقت يستغرق نزولُ الماء ؟ يستغرق نصف ساعة تقريباً، لعدم وجود تنفيس هواء، فهذه المثانة كيف تُفرغ ما فيها من بول بنصف دقيقة، لأن فيها عضلات ضاغطة، فربنا عزّ وجل أكرمنا بالعضلات، ولاحظ لو أنّ أحدًا أمسك بالونًا بيده وضغطه، فيُفرغ ما فيه من الماء على الفور، فللمثانة عضلات ضاغطة تفرغ المحتوى في نصف دقيقة، هذا كمال بالخلق.

فالإنسان يتأمل حياته، أجهزته ؛ جهاز الدوران، جهاز الهضم، جهاز تصفية البول، جهاز العضلات، جهاز العظام، السمع، البصر، النطق، اللسان.

الشّعر:

الشعر، ففي كل شعرة وريد، وشريان، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية وعصب، وبرأس الإنسان ثلاثمائة ألف شعرة، كل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة، وغدة دهنية وغدة صبغية، ستة ضرب ثلاثمائة ألف، وأنت لا تدري، ولو جعل ربنا عزّ وجل في الشعر عصبًا حسيًا، لاضطر أن يذهب إلى المستشفى لإجراء عملية حلاقة، فالله أكرمك أن تقص شعرك من دون تخدير، وأكرمك أن تقص ظفرك من دون تخدير، لكن جعل لك في العظم عصبًا حسيًا خطيرًا جداً، ولكن ليس له فائدة، هل يوجد بنقي العظام عصب حسي ؟ لو حدث كسر، فشدة الألم تجعلك تبقي رجلك على ما هي عليه، وأربعة أخماس علاج كسور العظام أن تبقيها على ما هي عليه، فهذا العصب الذي ضمن نقي العظام له فائدة كبيرة جداً عند الكسور، إذًا فالخلق دقيق والخالق مبدع.

لقد أردت من هذا الدرس أن أجعله تمهيدًا لهذه الآيات فقط، إذا لم تفكر بجسمك، ولم تفكر بكأس الماء، ولم تفكر بهذا الهواء، ولم تفكر بطعامك، بالنبات، بالحيوانات، باللحوم التي تأكلها.

انظر إلى ابنك وقد كان نطفة:

وما فكرت بابنك كيف كان ؟ نقطة ماء، ثلاثمائة مليون حوين تختار البويضة واحدًا منها فقط، فيتم التلقيح، تسعة أشهر ثم يخرج طفلٌ يبكي، يعطس، يسعل، وجهه جميل، أوردة شرايين، قلب دسامات، بنكرياس، غدد، كائن معقد من حوين منوي مع بويضة، وأساس الحوين واحد من ثلاثمائة مليون في اللقاء الواحد.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

فإذا أردت أن تعرف الله فكل ما في الكون يدل عليه، إن تعرفه تطِعْه فتسعد، هذا هو الدين كله، لا تعقّدوا الدين، أناسٌ عقدوا الدين تعقيدًا كبيرًا، الدين بسيط جداً، لأنه دين الله خلاصته: اعرفْ الله وأطعه، طاعته هذا القرآن والسُنّة، الكون يدل عليه وأمره بين يديك، بالكون تعرفه، وبالقرآن والسُنّة تعبده، خلقُه موجود وأمرُه موجود، ما عليك إلا الحركة، وأمّا الدنيا فتأتي وهي راغمة، هم في مساجدهم والله في حوائجهم.

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[كشف الخفاء]

هذا الدين.

إن شاء الله الدرس القادم نأتي على هذه الآيات بشيء من التفصيل يلفت نظرك إلى معرفة الله من خلال آياته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (18-20): تفسير الآيات 62 - 65
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثامن عشر من سورة غافر، ومع الآية الواحدة والستين، وهي قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا إِنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا

1 ـ الكون مسخّر للإنسان:

أيها الإخوة، هذه الآية تستوجب وقفة متروية لأمر حساس فيها، وهي أن الإنسان أحياناً يتوهّم أنه استغلّ الطبيعة، وجد هذه الطبيعة على نحوٍ أو آخر فكشف خصائصها واستغلّها، والحقيقة عكس ذلك، هذا الذي أمامك ؛ من ليلٍ ونهار، من شمسٍ وقمر، من جبال، من وديان، من ينابيع، من معادن صُمِّمَت من أجلك، والدليل:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

هذه اللام لام التعليل، أي جُعِل الليل في سكونه، وجُعل الليل بظلامه، وجُعل الليل بحرارته، وجُعل الليل باعتداله وبرودته، هذه الخصائص إنّما صُمِّمَت خصيصى للإنسان، وفرقٌ كبير بين أن تجد شيئاً فتستخدمه، أو تستغلّه، أو تنتفع به، وبين أن يكون هذا الشيء مصمّمًا خصيصى من أجلك.

الفكر العلماني يرى أن الطبيعة لها خصائص، والإنسان كشف هذه الخصائص، واستغلّها فانتفع بها، لكن التفكير الإيماني أن كل شيءٍ خلقه الله في الأرض، بخصائصه، وبصفاته مصمَّمٌ بشكلٍ خاص لينتفع الإنسان به، فليس عبثاً أن معدناً كالرصاص ينصهر في درجة مائة، وأيُّ إنسان لو وضع رصاصًا في وعاء، وسخّنه ينصهر هذا المعدن، بينما الحديد لا ينصهر إلا في الدرجة ألف وخمسمائة، وليس من باب الصُدفة أن هذا المعدن إذا برّدته يزداد حجمه.

مِن هذه الخاصّة يمكن أن تتعامل المعادن مع الأحجار، احفر حفرةً في حجر، وضع فيها معدناً، اسكب الرصاص، أصبح المعدن والحجر قطعة واحدة، فإذا توهّم الإنسان أن المعدن هكذا، صفاته ونحن

استفدنا منه، فهذا شيء، أما إذا آمن أن هذا المعدن خلقه الله عزّ وجل بهذه الخصائص، وبهذه الصفات، وأنه ينصهر بدرجات متدنية، وأنه إذا برّدته يزداد حجمه، وأن الشيء الذي يزداد حجمه على التبريد يمكن أن يقدّم لك خدمات جليّ، فهذا تفكير المؤمن، وهذا هو الحق، كلُّ هذا المعنى من (لام) التعليل.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

2 ـ الليلُ سكنٌ:

هذه لام التعليل، أيْ علّة وجود الليل أن يكون لكم سكناً، فكيف يُخلَق الليل ؟

الأرض كرة، والشمس كرة، والأرض تدور حول الشمس، والأرض تدور حول نفسها، لو دارت حول نفسها بمحور عمودي لأُلْغِيَت الفصول، أو بمحور أفقي لألغي الليل والنهار، لو توقفت لألغي الليل والنهار، إذاً: ليلٌ ونهار مختلفان، يطول أحدهما تارةً ويقصر أخرى، واختلاف الليل والنهار أن يأتي الليل بعد النهار والنهار بعد الليل، هذا معنى، وأن يختلف الليل في الطول عن النهار، وأن يختلف النهار في الطول عن الليل، هذا معنى آخر، فاختلاف الليل والنهار آية من آيات الله الدالّة على عظمته.

وقد قلت لكم في درسٍ سابق: إن الإنسان لو نام ساعاتٍ عديدة في النهار، لا يشعر أنه قد سكن وارتاح، لا يسكن جسمه إلا إذا نام في الليل، لأن الخليّة الحية في الإنسان لا تستعيد نشاطها إلا في الظلام، لو نمت في النهار نوماً طويلاً فلابدّ من سكون، ولابدّ من الظلام.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

وبعد فلنا مع الآيات التي تبدأ بهذه الصيغة وقفة:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: الآية 2)

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

3 ـ هل عرفت مَن هو الله ؟

أيْ هل عرفت مَن هو الله ؟ هو الذي فعل هذا وهذا، هل عرفت من هو الله ؟ هو الذي خلق الموت والحياة، هو الذي خلق الشمس والقمر، هو الذي خلق الليل والنهار، هو الذي منحك الوجود، هو الذي منحك الإمداد، هو الذي منحك الهداية والرشاد، الله صاحب الأسماء الحسنى، صاحب الصفات الفُضلى، عَلَمٌ على الذات ـ الذات الكاملة ـ واجب الوجود، الله خالق الكون، ربُّ العالمين، لا إله إلا هو، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه.

قلت لكم في درسٍ سابق: المؤمن يعيش مع هذه النِعَم، والكافر كذلك، الكافر ينام في الليل، والمؤمن ينام في الليل، والكافر يستمتع بأشعّةِ الشمس في النهار والمؤمن كذلك، لكن الفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن يتجاوز النعمة إلى المُنعم، والكافر يبقى عند النعمة، فالذين عبدوا الشمس، والذين عبدوا البقر، والذين عبدوا الأمطار، والذين عبدوا بعض الحيوانات، رأوا أن البقر له خيرٌ عميم على البشر، فلم يتجاوزوا هذه النعمة إلى خالقها، لم يتجاوزوا هذه النعمة إلى مُوجِدها، وقفوا عندها فعبدوها من دون الله.

إذاً:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

4 ـ الناس غيّروا نمط المعيشة في الليل:

الليل سَكَنٌ، لكن طبيعة حياتنا ؛ انتشار الكهرباء، والسهر إلى ساعات متأخّرة من الليل، أضاع على الناس وقت الرحمات، وقت الصلوات، وقت المناجاة، وقت تلاوة القرآن قال تعالى:

(أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79))

(سورة الإسراء)

هذا الوقت، وقت السحر، وقت التجلي

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا(6))

(سورة المزمّل)

هذا فَقدَهُ معظم الناس لأنهم غيّروا َخلْق الله، لأن الليل مديد، وينام الإنسان المتحضّر ـ بتعبيره هو ـ إلى ساعةٍ متأخّرة، ويسهر إلى ساعةٍ متأخّرة، فكأنه غيّر خلق الله، غيّر التصميم الإلهي.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)

النهار معاش لكسب الرزق، للعمل، فهو مُبْصِر، وشتّان بين الليل والنهار، وقد ورد في بعض الأثر:

((إذَا جَاءَ اللَّيْلُ فَأَيْنَ النَّهَارُ))

[أحمد]

الليل فيه وحشة، الليل في البحر موحش، والليل في الغابات موحش، فإذا طلعت الشمس ذهبت الوحشة وعمّ الأُنس.

((إذَا جَاءَ اللَّيْلُ فَأَيْنَ النَّهَارُ))

وأين النهار ـ أين هذا الضياء ـ إذا جاء الليل ؟

فالمؤمن يدلّه الليل على الله، والنهار يدلّه على الله، والشمس تدلّه على الله، والقمر يدلّه على الله، وكأس الماء يدلّه على الله، وطعامه يدلّه على الله، وابنه الذي كان نقطة من ماءٍ مهين يدلّه على الله.

وفي كلّ شيءٍ له آية تدلُ على أنّه واحدُ

*　*　*

قال سبحانه:

(إنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

إنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

1 ـ إذا أردت معرفة قيمة النعمة ففكِّر في نقيضها:

فمن أجل أن تعرف قيمة هذه الآية فكِّر فيما يناقض معناها، فكِّر في حياةٍ بلا ليل، فكِّر في ليلٍ بلا نهار، فكِّر في ليلٍ طويل، فكر في نهارٍ طويل، فكر في ليلٍ حار، كيف تنام الليل ؟ فكِّر في نهارٍ بارد، الإنسان في الليل في أغلب الوقت في بيته، وفي البيت التحكم بالحرارة ممكن، أما في النهار فهو في الطرقات، وفي الأعمال، وفي الحقول، فدائماً حرارة النهار أعلى من حرارة الليل، فكيف تكون الحياة لو كان العكس !! فمن أجل أن تعرف قيمة الآية التي تحياها، والنعمة التي تستفيد منها لابدّ من أن تفكِّر في خلاف ما هي عليه.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا)

والآية الأخرى التي ذكرتها لكم في الدرس الماضي:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمْ اللّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

(سورة القصص: الآية 71)

والآية الثانية:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمْ النّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ)

(سورة القصص: الآية 72)

هذه من آيات الله الدالّة على عظمته، قال سبحانه:

(إنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ)

2 ـ البُعد عن الله ينسي الإنسانَ نعمَ الله:

فالإنسان من لِبُعده عن الله عزّ وجل يتعامى عن النعم الأساسيّة الصارخة الواضحة، يبحث عن أشياء يرى أنها تنقصه مع أن هذا الكون بانتظامه، وهذه السماء بجمالها، وهذه الشمس بسطوعها، وهذا القمر بنوره، وهذا المطر بغزارته، وهذا الهواء بنقائه، وهذا الماء بحيويّته، هذه الأشياء الأساسيّة التي يستمتع بها الناس جميعاً، وهي قِوام حياتهم، هذه النعم لا يلتفتون إليها إطلاقاً، يلتفت إلى شيءٍ ينقصه، شيءٍ ليس في متناول يده، فمن علامات المؤمن أنه يشكر الله عزّ وجل على النِعَم الكبرى الأساسيّة التي لولاها لما تحقّق وجود الإنسان.

(إِنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

فأحياناً يصاب عضو في الإنسان، فتنقلب حياته إلى جحيم، كأن يختل شيء فيه، كأن يفقد بعض خصائص حواسِّه، كأن يفقد بعض وظائف أعضائه، وأحياناً يقول لك: أشعر بحرارة مرتفعة، أحياناً وخزات في صدره، أحياناً ضيق في تنفُّسه، أحياناً حساسية في تنفُّسه، فالأشياء الطفيفة جداً إذا استمرّت تجعل حياته جحيماً، لذا فعندما يكون الإنسان متمتِّعًا بالنعم الكبرى فينبغي أن يشكر الله عليها، والدليل:

(إِنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(61) ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ)

ذَلِكُمْ اللّهُ رَبّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ

1 ـ الله خالِقٌ مسيِّر:

هذه الآية جمعت الخلق، والتربية، والتسيير في آنٍ واحد، ولله المثل الأعلى ـ فلو صمّم الإنسان آلة، وأمدّها بالطاقة، وحرّكها لرأى لنفسه فضلاً، ومشى زهواً، فهل نسي أن المصمم الأكبر هو الخالق ؟ والمُمِد بالطاقة هو المربّي، والمحرّك هو المسيّر، فربنا سبحانه وتعالى خالق، وربنا ربٌّ كريم، ومسيرٌ حكيم، إذًا: هو خالقٌ، ربٌّ، مسيّر، ولن تكون عارفاً بالله إلا إذا عرفت أنه هو الخالق، وأنه هو الرب، وأنه هو المسيّر.

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ)

إلى أين أنت ذاهب ؟ هو الخالق.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر)

من أمدّك بالهواء ؟ من ثبّت نسبة الأكسجين في الهواء ؟ كيف أن النبات يحتاج إلى غاز الفحم الذي تطرحه أنت، وأنت تحتاج إلى الأكسجين الذي يطرحه النبات، ما هذا التوازن العجيب ؟ ثبات نسب الغازات في الهواء.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

2 ـ أمرُ المخلوقات بيد الله:

الله عزّ وجل ـ كما جاء في آياتٍ أخرى ـ له الخلق وله الأمر، أيْ أنّه خلق، لكنّ أمرَ هذا المخلوق بيدِ الله، لم يسلمه لجهةٍ أخرى.

(ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

وهناك آية أخرى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

أيْ في قبضته، فهذه الآية تبثُّ الطمأنينة، تبثُّ الراحة النفسيّة، أي شيءٍ مهما بدا لك قوياً أو مخيفاً أو شريراً فهو بيد الله عزّ وجل.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أجْمَعُ هذه الآيات.

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

هو الخالق، هو الآمر، والآمر ضامن، فأحياناً يتوهَّم الإنسان لضعف إيمانه أنني إذا أطعت الله عزّ وجل بقيت بلا بيت، وإذا استقمت على أمر الله بارت تجارتي، وإذا قصدت زوجة صالحة فلن أجد، فلابدّ من امرأةٍ من عامّة الناس، ولابدّ من تجارةٍ فيها شبهات، هذا هو ضعف الإيمان، الآمر ضامن، الذي أمرك بالاستقامة هو الخالق الذي بيده كل شيء، وأساساً الآية التي أردِّدها لكم كثيراً:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: الآية 123)

أيْ أنّه ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه عائدٌ إليه، وإذا أيقن الإنسان أن أمره كلّه بيد الله طابت نفسه، واطمأن قلبه، وتوازن، ونجّاه الله من النفاق، ومن التزلّف، ومن التذلّل، ومن كل الصفات التي تزري به كإنسان، أمرك بيد الله، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

3 ـ من الذي ينبغي أن تعبده ؟

في الآية معنى دقيق فخذ به و الزمْهُ، فمن الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو الخالق.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 21)

مَن الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو المربي الذي يمدُّكم، من الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو المسيّر، فإذا كان الله هو الخالق، وهو المربي، وهو المسيّر فإلى أين تلتفت ؟ إلى أين؟

4 ـ إذا لم تنصرف إلى الله فإلى أين تنصرف ؟

في أثناء الخلافات الزوجيّة مثلاً، يقول بعض الأشخاص للزوجة: كل مصلحتك مع زوجك، كل مصلحتك مع رضاء زوجك عنك، مستقبلكِ مع زوجك، إلى أين تلتفتين ؟ هذا على مستوى دنيوي، ولذا فإن الإنسان إذا ترك الله عزّ وجل، ولم يؤمن به، ولم يلتفت إليه، ولم يستقم على أمره فإلى أين يذهب ؟ إلى مخلوقٍ ضعيفٍ لئيم ؟! إلى إنسانٍ لا يملك لك شيئاً؟

عندما قال ربنا عزّ وجل:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا)

(سورة الأعراف: الآية 188)

فالعلماء طبعاً فسّروا هذه الآية، أيْ: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك لغيره من باب أولى، يجب أن تؤمن أنّ أيّ مخلوقٍ كائناً من كان، ومهما علا شأنه، لا يملك لك شيئاً أبداً، الأمر بيد الله، فلذلك:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الخالق، والمربي، والمسيّر هو الله، الله هو الخالق، الله هو المربي، الله هو المسيّر.

(فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

أيْ أنّى تنصرفون ؟ إلى أين تتجهون ؟ تتذلّل أمام مَن ؟ أمام إنسان ضعيف، تتضعضع أمام مَن ؟ أمام غني ! تبذل ماء وجهك أمام مَن ؟ أمام إنسان لئيم ! تقدّم كل حياتك ِمن أجل مَن ؟ من أجل إنسان لا يقدِّم لك نفعاً ولا ضرّاً !

فالمعنى الدقيق جداً، والمهم أيها الإخوة أنه كلّما كبُرَ عقلُ الإنسان، وكلّما نضج عقله توجّه إلى الله عزّ وجل.

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد: من الآية 3)

هو الرافع والخافض، هو المعزُّ والمذل، هو المعطي والمانع، هو النافع والضار، هو القابض والباسط، هو الموفِّق، هو المُعَسِّر.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10))

(سورة الليل)

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

أيْ ينبغي أن تعبد الخالق، وينبغي أن تعبد المربي، وينبغي أن تعبد المسيّر، والخالق والمربي والمسيّر هو الله عزّ وجل.

وبصراحة في الكون حقيقة واحدة، إن عرفتها عرفت كل شيء، وإن غابت عنك غاب عنك كل شيء، هو الله، في الكون موجودٌ واحد، ولا موجود سواه، إن عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتك فاتَك كل شيء، هو الله عزّ وجل، الحق، ما الحق ؟ كلّما اقتربت من هذه الحقيقة فأنت على حق، كلّما ابتعدت عنها فأنت في الباطل.

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ

أُفِكَ أي انصرف، يؤفك عنه من أُفِك، ينصرف عنه من ينصرف، لكن فمن الذي ينصرف عن الله ؟ من الذي يتجه إلى زيدٍ أو عُبيد ؟ من الذي يعلِّق آماله على إنسانٍ لئيم ؟ من الذي يضع رجاءه في عنق إنسانٍ ضعيف ؟ هو الجاهل، قال:

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

الله عزّ وجل غاب عن أبصارنا، وغاب عن حواسّنا، ولكن على العقول أنْ تدركه من خلال الآيات، فكل مَن يجحد بالآيات غابت عنه الحقيقة الكبرى، غاب عنه خالق الكون.

إذاً الآية دقيقة الدلالة جداً.

(كَذَلِكَ)

1 ـ كلُّ إنسان يجحد بآيات الله سينصرف إلى غير الله:

أيُّ إنسان جحد بآيات الله سينصرف إلى غير الله، ولو آمن بآيات الله سيتَّجه إليه، لو آمن بآيات الله سيُقبل عليه، لو آمن بآيات الله سيطيعه، لو آمن بآيات الله سيسعد بقربه، لو آمن بآيات الله لَسَعِدَ في الدنيا والآخرة، لكن لأنه جحد بآيات الله انصرف إلى غير الله، إذا انصرف الإنسان إلى غير الله انصرف إلى لا شيء، انصرف إلى الضعيف، انصرف إلى الفقير، انصرف إلى اللئيم، انصرف إلى العاجز، ما سوى الله لا ينفعك أبداً.

لذلك إذا توهَّمت أيها الإنسان أن مخلوقاً ينفعك، فاعلم هذا المخلوق ما نفعك إلا بعد أن أذن الله، ما نفعك إلا بعد أن سمح الله له أن ينفعك، ما نفعك إلا بعد أن ألهمه الله أن ينفعك، هكذا، فكل إنسان يرى نعمةً جاءت إليه من إنسان، إذا رآها من هذا الإنسان فقد أشرك، يجب أن يراها من الله عزّ وجل، فالمؤمن العاقل إذا أصابته نعمةٌ عن طريق إنسان يسجُد لله، على أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له هذا الإنسان، وألهمه، وسمح له، ثمّ بعدها يشكر هذا الإنسان، فعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ:

((لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ))

[أحمد]

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

آيةٌ ثانية:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا)

2 ـ مَن لم يرَ النعمةَ وهي موجودة رآها وهي مفقودة:

في هذه الآية نقطة دقيقة المعنى جداً، وهي أن هذه النعم التي أكرمنا الله بها، إن لم نرها وهي موجودة رأيناها وهي مفقودة، ودعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أرنا نعمك بدوامها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

فنعمة العقل مثلاً، لو رأيت إنسانًا فقد عقله فأنت لا تعرف نعمة العقل إلا عند فقد العقل، فالبطولة أن يكون لك عقل سليم، وأن ترى نعمة العقل، لأنك إن رأيت نعمة العقل أكرمك الله بدوامها.

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم: من الآية 7)

فالنبي الكريم علّمنا أنه إذا رأى الإنسانُ إنسانًا مبتلى، ففيما بينه وبين نفسه يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا))

[الترمذي عن عمر]

دون أن يسمعه.

فالنقطة أنه لابدّ من أن ترى نعمة العقل، إذاً فكِّر بهذه النعمة، واحمد الله على توافرها ولو ضاقت بك الأمور، لأن نعمة العقل لا تعدلها نعمة.

نعمة القوّة، إذا خدم الإنسان نفسه بنفسه، وقضى حاجته من دون مساعدة أحدٍ له، فهذه نعمة لا تعدلها نعمة، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

[الترمذي عن ابن عمر]

عندما يفقد الإنسان حركته يصبح ثقيل الظل على أقرب الناس إليه، بل يتمنّى أقرب الناس إليه أن يخفِّف الله عنه، فنعمة الحركة، نعمة القوة، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة النُطق، نعمة سلامة الأعضاء، نعمة سلامة الحواس، نعمة سلامة الأجهزة نعمٌ عظيمة.

نِعمُ الله لا تُعدّ ولا تُحصى ؟

فيا أيها الإخوة الأكارم... المؤمن يرى نعم الله وهي موجودة، أما إذا كفرها وهي موجودة رآها وهي مفقودة، لذلك قالوا: **"الصحّة تاجٌ على رؤوس الأصحّاء لا يراها إلا المرضى "**، عندما تختل بعض أجهزة الإنسان يعرف قيمة هذا الجهاز.

فمثلاً: نعمة الاستقرار، أن الأرض مستقرّة هذه نعمة كبرى، متى نعرف هذه النعمة ؟ بالزلازل، ثلاثون ألف إنسان مصاب بالهند بثوانٍ معدودة، خمس درجات على مقياس رختر، فكل الأبنية أصبحت في الأرض، ثلاثون ألف إنسان مشرّد، فاستقرار الأرض من نعم الله الكبرى، لكن هذه الزلازل، وتلك البراكين، وهذه الفيضانات، وهذه الحروب الأهليّة هذه كلّها معالجاتٌ إلهيّة.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

صواعق أو صواريخ.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الزلازل أو الألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

الحروب الأهليّة، هذا من تأديب الله للبشر، لذلك:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا(59))

(سورة الكهف)

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا)

هناك نعم حينما كانت ما كنا نعرف قيمتها، من هذه النعم نعمة توازن القِوى في العالَم عندما كان التوازن موجوداً، فهذه الدول الكثيرة الضعيفة كانت تتأرجح على هاتين القوّتين، وتأخذ من كلا المعسكرين ميّزات كثيرة، فلمّا توحّدت القوى في قوة واحدة، فقدنا نعمة التوازن.

البقرة ذلول، إذا توحّشت، وبعد أن دفعت ثمنها سبعين ألف ليرة صرت مضطرًا أن تقتلها، لأنها قتلت رجلين، تذليل البقرة نعمة.

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس: الآية 72)

هذه نعمة.

فأيها الإخوة بالشكر تدوم النعم.

((يا عائشة، أكرمي مجاورة نعم الله فإن النعمة إذا نفرت قلّما تعود))

[ورد في الأثر]

إذا دخل الإنسان بيته يجب أن يشكر الله على أن آواه، وكم مِن الناس مَنْ لا مأوى له. وإليك دعاء من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام حينما يستيقظ، فإنه يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لأن النوم موت موقّت. كان عليه الصلاة والسلام إذا ألقى رأسه على الوسادة يقول:

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصّالِحين))

[البخاري عن أبي هريرة]

معنى هذا أن الإنسان عندما ينام هناك احتمالان أن يستيقظ أو ألاّ يستيقظ

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها))

فلمّا كان النبي يستيقظ يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وأذن لي بذكره))

[الترمذي عن أبي هريرة]

فإذا سمح الله عزّ وجل للإنسان أن يحضر مجلس علم، سمح له أن يسمع الحق، أعطاه قوّة على طاعة الله عزّ وجل، إيّاك نعبد وإياك نستعين، هذه نعمة كبرى، ونعمة عُظمى.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 23)

ما دام أسمعنا الحق إذاً علم فينا خيراً إن شاء الله تعالى، هذه من نعم الله الكبرى أن أسمعك الحق، أسمعك كتابه، عرّفك برسوله، عرّفك بأهل الحق هذه نعمة لا تعدلها نعمة، أعانك على طاعته، فهو يربّيك، إذا حصل تقصير، أو خلل، أو زلل تأتي المعالجة سريعاً.

((إذا أحب اللّه عبداً ابتلاه))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

((إذا أحبّ الله عبده عجّل له بالعقوبة))

((إذا أحبّ الله عبده عاتبه في منامه))

عندما يشعر الإنسان أن ربنا عزّ وجل يتابعه، يضيّق عليه أحياناً، يؤدّبه أحياناً فهذه علامة طيّبة جداً، أنه مقبول عند الله، ومطموعٌ فيه، لأنه:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)

معنى استقرار الأرض:

فالأرض مستقرّة، والبناء الذي عمره طيلة خمسين سنة مستقر مائة بالمائة، لو حصل اضطراب لتداعى البناء، ثُمّ كون الأشياء تستقرُّ على الأرض لها معنى آخر.

المعنى الأول:

الأرض مستقرّة مع أنها متحرّكة:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: من الآية 88)

هناك أشياء بديهيّة الآن أقولها لك، يعرفها طلاب الثانوي جميعاً، الأرض في حركتها حول الشمس تقطع في الثانية الواحدة ثلاثين كيلو مترًا، الدرس بدأ الساعة السادسة، والآن الساعة السادسة والنصف، مثلاً، أمضينا ثلاثين دقيقة، ثلاثون كيلو مترًا في الثانية ضرب ستين يصبح ألفا وثمانمائة كيلومتر بالدقيقة، ضرب ثلاثين، نحن من أول ما بدأ الدرس وقلنا: بسم الله الرحمن الرحيم مع الدرس الثامن عشر إلى الآن قطعنا مئات ألوف الكيلو مترات.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: من الآية 88)

لكن مع هذه الحركة استقرار، فهل تمكّن الإنسان من صنع مركبة تنطلق بسرعة، والاستقرار مائة بالمائة ؟ تضع كأس ماءٍ على الطاولة، وتراه مائة بالمائة مستقرًا، هذا هو معنى الآية، أي أن الأرض مستقرّة وهي متحرّكة، لو أنها، مستقرّة وهي ساكنة فالقضيّة سهلة، لكن مع الحركة هي ذات استقرار مائة بالمائة.

وحينما تضطرب الأرض يكون الزلزال، وحينما يكون الزلزال يكون الضحايا، الذي حصل بمصر أن الزلزال استمر خمسين ثانية، لو استمر أكثر من دقيقة ونصف ما بقي في مصر شيء سالماً، فالله عزّ وجل قادر على كل شيء، بناء أربعة عشر طابقاً أصبح كومةً من الأنقاض في ثوانٍ ؛ ببيوته، ومكاتبه، وأثاثه، وسكّانه، أشهر بناء وقع في الجيزة.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا)

المعنى الثاني:

نظام الجاذبيّة الذي يعني أن كل شيءٍ على وجه الأرض يشدّ إليها، وينجذب إليها، فهذا هو الوزن، من يعرف قيمة الجاذبيّة ؟ روّاد الفضاء الذين طاروا إلى القمر هناك منطقةٌ بعد اجتياز نطاق جاذبية الأرض، وقبل الدخول في جاذبية القمر، هذه المنطقة اسمها: منطقة انعدام الجاذبيّة، وقد قرأت مقالات حول هذه المنطقة، الحياة في هذه المنطقة لا تطاق، لأن الإنسان ليس له وزن، فحاجاته تطير في جو الغرفة، وهو يتبعها إلى سقف الغرفة، فهل من المعقول أن تبحث عن حاجات في السقف ؟ شيء ما له وزن إطلاقاً، فلا الإنسان له وزن، ولا الحاجة لها وزن، لكن في الأرض نعمة كبرى، هذا الكأس مستقرة، لأن لها وزنا، ما هو وزن الشيء ؟ أساس الوزن قوة جذب الشيء لمركز الأرض، هذا هو الوزن.

فالإنسان الذي وزنه على الأرض ستون كيلو غرامًا يصبح على القمر وزنه عشرة كيلو، لذلك أي قفزة ينطلق بها عشرة أمتار نحو الفضاء لأنه ليس له وزن، القمر جاذبيّته أقلّ، إذاً وزن الإنسان يَعدل في

القمر سدس وزنه في الأرض، فمن صمّم هذه الأرض بهذا الحجم، وبهذه السرعة، وبهذه الجاذبيّة ؟ فالإنسان وزنه معقول في الأرض، فمن جعل هذه الأشياء تشدُّ إلى الأرض، تستقرُّ عليها ؟ قوة الجذب.

اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

هذا يؤكد معنى آية أخرى، حينما قال الله سبحانه وتعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: الآية 2)

لأن السماء بناء، لكن تصورّ ـ كما قرأت مرّة في مقالة علمية ـ أن الأرض، وهي في مسارها حول الشمس، طبعاً مرتبطة بالشمس بقوة جذب، كلكم يعلم أن الكون مؤلّف من مجرّات، وعدد المجرّات يقترب من مَليون مليون مجرّة، وعدد كواكب كل مجرّة يقترب من مليون مليون كوكب.

وأما معنى قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسّمَاءَ بِنَاءً)

السماء بناء، ولكنها مبنيّة بلا أعمدة ترونها، وهذه الآية من أدق الآيات:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: آية " 2 ")

أيْ بعمدٍ لكن لا ترونها، ما هي العمد التي لا ترونها ؟ هي قِوى التجاذب، فكل كتلتين تنجذبان إلى بعضهما بعضاً، الأكبر تجذب الأصغر، عامل الجذب الكتلة والمسافة، عوامل الجذب أو قوانين الجذب أساسها حجم الكتلة والمسافة بين الكُتَل، فكلّما زادت المسافة ضعف الجذب، وكلّما كبرت الكتلة ازداد الجذب، فالشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة تجذب الأرض إليها بقوّة، لو أن الأرض تفلّتت من جاذبية الشمس، وسارت في الفضاء الكوني، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس نحتاج إلى مليون مليُون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، هذا الحبل يتحمّل قِوى شد تزيد على مليون طن، حبل من الفولاذ المضفور يحمل مليون طن، نحتاج إلى مليون مليُون حبل، وكل حبل يتحمّل قِوى شد مقدارها مليون طن، كأن الأرض مجذوبةٌ إلى الشمس بقوّةٍ تساوي مليون مليُون مليون طن، المليون ستة أصفار ـ فمليون مليون مليُون أي ستة أصفار، وستة أصفار، وستة أصفار، أي أمامك ثمانية عشر صفرًا ـ قال: العلماء: كل هذه القوّة الجاذبة إلى الشمس من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة مليمترات في الثانية، كل ثانية ثلاثة، مليمترات، فتبقى الأرض في مسار مغلق حول الشمس، فالآية:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من الآية 2)

لو أردنا أن نربط الأرض بالشمس بهذه الحبال الفولاذيّة سوف نربطها من وجهٍ واحد، الوجه المُقابل للشمس، فغزارة هذه الحبال تكون حيث إن بين الحبلين مسافة حبلٍ واحد، أيْ كل خمسة أمتار هناك حبل في البر والبحر، إذاً هذه الغابة من الحبال الفولاذيّة تمنع عنا أشعة الشمس، وتمنع زراعة الأرض، وتمنع البناء، وتمنع كل شيء، إذاً لا يعرف قيمة هذه الآية إلا من درس هذا الموضوع.

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا

وهناك أيضا بالغة الدقة أيها الإخوة، ربنا عزّ وجل قال:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: الآية 41)

معنى الزوال في اللغة الانحراف، يقول لك: وقت الظهر بعد زوال الشمس عن كبد السماء، أيْ بعد انحرافها، فالزوال له معنيان: معنى الانحراف، ومعنى التلاشي، لو أن الأرض انحرفت عن مسارها، وسارت في الفضاء الكوني لحُرِمَت من أشعة الشمس، وحينما تُحرم من أشعة الشمس تُصاب بشيء اسمه: الصفر المُطْلق، الصفر المطلق أيْ مئتان وسبعون درجة تحت الصفر، في هذه الدرجة تتوقف الذرّات عن الحركة، لو أنها انحرفت عن مسارها لتلاشت.

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

هذا معنى:

(وَالسّمَاءَ بِنَاءً)

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسّمَاءَ بِنَاءً وَصَوّرَكُمْ)

وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ

كان عليه الصلاة والسلام إذا وقف أمام المرآة يقول:

((اللّهُمّ كما حَسّنْتَ خَلْقِي فَحَسّنْ خُلُقِي))

[البيهقي عن عائشة]

أولاً الخيّاط يأخذ لك قياسا مرات عدة، لماذا ؟ لِمَ لا يأخذ الاثنين معاً ؟ لأن هناك تناظرا تاما في جسمك، أقل من ميلي، كُمّ واحد، ورِجْلٌ واحدة، وكِتِفٌ واحد، لأن الثاني مثله، معنى هذا أن في الإنسان تناظرا.

لو رسمنا خطًا يبدأ من منتصف رأس الإنسان إلى أسفل جذعه لكان هذا الخط منصِّف لجسمه، وما على اليمين يساوي ما على اليسار بأدق الدقائق، إذاً:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

جعل العين في مكان مناسب، جعلها في الرأس، وما جعلها في الظهر، كلّما أردت أن ترى إنسانًا تخلع معطفك في الشتاء لتتمكن من رؤيته، لكنه جعلها في الرأس، وجعلها في محجر، وجعلهما عينين اثنتين من أجل البعد الثالث، فبعين واحدة ليس بإمكانك أن تُدخل خيطاً في ثقب الإبرة، يأتي الخيط بعيد عن الثقب بعشرة سنتمترات ـ بعين واحدة ـ أما بالعينين فهناك بعدٌ ثالث.

ولاحظ الأذنين، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

(سورة البلد)

لماذا أذنان ؟ لو كان هناك أذن واحدة لما وصل الصوتُ إليك، لكن لتعرف جهته، من تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، التفاضل واحد على ألف وستمائة وعشرين جزءا من الثانية، يكتشف الإنسان من أين الصوت، من اليمين أو من اليسار، لو سمع بوق سيّارة ينحرف على عكس الصوت وهو لا يدري.

إذاً لك أذنان، ولك عينان، ولك أنفٌ فوق الفم، إذا كان الطعام فاسدًا فإن رائحته تجعلك تلفظه، والأنف نحو الأسفل، لو كان بالأعلى لكانت مشكلة، نحو الأسفل ونحو الفم، والهواء، هواء الزفير هو الصوت، تتنفّس بصوت، ولسان المزمار شرطي مرور يعمل ليلاً نهاراً ثمانين سنة، وأنت نائم، يغلق مجرى الهواء، ويفتح مجرى المريء من أجل أن يصل اللعاب إلى معدتك، العضلات، الأوعية، القلب، الرئتان، الدسّامات.

لو أوكل الله عزّ وجل لك التنفّس هل تستطيع أن تنام بالليل ؟ لا تستطيع، هناك مرض يصيب بعض الأشخاص، ولكنّه نادر جداً، مركز التنفّس النوبي يتعطّل، فإذا نام الإنسان يموت فورًا، وهناك أدوية حديثة جداً يجب أن يأخذ كل ساعة قرصاً، فيربط المنبّه الساعة العاشرة، يأخذ القرص الأول، وينام، ويستيقظ الساعة الحادية عشرة، قرصًا آخر، وهكذا على مدار الساعة. لو الله عزّ وجل أوكل لك التنفّس، أو أوكل لك ضربات القلب، أو أوكل لك الهَضم، بعد ما أكلت تحتاج إلى خمس ساعات ليتم الهضم في المعدة، البنكرياس، والصفراء، والاثنا عشري، والأمعاء الدقيقة، والكيلوس، هذه مشكلة صعبة جداً، الله عزّ وجل يقول:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

أنت لو رأيت إنسانًا بعضلات فقط، فإن منظره مخيف، كالبيت على العظم، أنت مكسو بجلد ناعم لطيف، الله جملّك حين الخلق.

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

صورة حسنة، جميلة، متناسقة، كاملة، واحد حمل ابنه على يديه، الأمور مدروسة دراسة دقيقة، وبحكمة بالغة، الأربطة أربطة عضلات الكتف مع الجذع تتحمّل وزن الطفل، لو حمله، ولو لم تكن حكمة بالخلق لخُلِعت يده، تجد الأربطة كلها متناسبة.

فالعظام، عظم الحوض يتحمّل خمسمائة كيلو، عظم عنق الفخذ كل واحد يتحمّل مئتين وخمسين كيلوا من الضغط، فإذا كان فوق الإنسان نصف طن لا ينكسر هذا العظم، وقد كان ماءً مهينًا.

ميناء الأسنان فيه قساوة تأتي بعد الماس، إنه كان ماء مهينًا، لذلك:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ

الماء فرات، والفواكه، والخضراوات، والأطعمة، كل شيء لطيف، انظر ذو رائحة عطرة، وحجم مناسب، وقِوام يتناسب مع أسنانك، وكذلك المواد الغذائيّة، لو توافر في الغذاء المادة المفيدة مع طعم مر لا تستفيد منها، طعم مستساغ، ولكن ليس فيه غذاء، الطعم مستساغ، وفيه غذاء، ولكن قِوامه يحتاج إلى آلات لتقطعه، كل شيء صنعه ربنا عزّ وجل لطيف.

مرّة قال لي رجلٌ مضطر ليأكل علبة سردين بلا مفتاح ـ وكان حبيسًا ـ قال لي: أكثر من خمس ساعات، وأنا أعالجها على الأرض إلى أن فُتِحت معي، أما البيضة فبنقرة واحدة تُفَتَّح وحدها، البيضة لا تحتاج إلى مفتاح، ففي الخَلق لطفٌ، وفيه ما يريح الإنسان، إذاً:

(وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

الذي خلقك بشكل حسن ؛ جعل الشعر، جعل الحواجب، العينين، الأجفان، العين ؛ قرنيّة، وقزحيّة، وجسما بلوريا، وخلطا مائيا، وعصبا بصريا، وتسعمائة ألف عصب، وشبكيّة، ومائة وثلاثين مليون عصيّة، وأنفًا وأسنانًا، والأسنان أنواع ؛ قواطع وأنياب وأضراس، والسن له عصب حسي، إذا حصل نخر فلن تنام الليل، تذهب فوراً لحشوه قبل أن تفقده، ففي الخلق تصميم رائع جداً.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هذا المقطع من عند قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(هُوَ الْحَيُّ)

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

القيوم، هو الحي على الدوام، هو الباقي، مصدر حياة الخلق.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

أخلِص له.

((يا معاذ، أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

الإخلاص عبادة القلب، العمل لا يُقبَل عند الله عزّ وجل إلا بشرطين، إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنَّة.

(لَهُ الدِّينَ)

الخضوع لله وحده، الطاعة لله وحده، الحبُّ لله وحده، الإخلاص لله وحده.

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162))

(سورة الأنعام)

(لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

يُحمد على كل شيء ؛ على السرّاء والضراء، على الغنى والفقر، على الصحّة والمرض، على إقبال الدنيا وعلى إدبارها.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 65 - 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس التاسع عشر من سورة غافر، ومع الآية الخامسة والستين، وهي قوله تعالى:

(هُوَ الْحَيُّ)

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1 ـ الحياة صفة من صفات الله:

الحياة من صفات الله عزّ وجل.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ربنا عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

2 ـ دعوة إلهيةٌ إلى الحياة الحقيقية:

قد تجد إنسان في أعلى درجات الصحّة والنشاط والقوّة، وهو في حكم الله ميّت.

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميتُ الأحياءِ

***

<< يا بني، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر >>.

الإنسان كما تعلمون، أيها الإخوة، جسد، والجسد له مظاهر تؤكِّد أنه حي، وجيبُ قلبه، وجيبُ رئتيه، تأثُّر المنعكسات، حركة الأعصاب، هناك دلائل تؤكِّد أن الإنسان حي، لكن قلب الإنسان، بل قلب نفسه أيضاً يموت ويحيا، يحيا القلب بذكر الله، ويموت بالبعد عنه، فكم ترى من الأحياء وهم في أوج قوّتهم ونشاطهم هم في حكم الله أموات، وربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21))

(سورة النحل)

وعندما قال ربنا عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

فدعوة الله لحياةٍ أبديّةٍ سرمديّة، لأن الله هو الحي، وكل من اتصل به كان قلبه حيّاً، وكل من انقطع عنه كان قلبه ميّتاً، القلوب تحيا، وتلين، وتمتلئ رحمة بالقرب من الله، وتموت وتقسو، وتصبح كالصخر، كالصحراء بالبعد عن الله، وإذا اقترب من الله بالاستقامة على أمره والعمل الصالح ذاق طعم الإيمان.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

هو حيٌّ، ومصدرٌ لحياة المخلوقات، حياة أجسادهم وحياة نفوسهم، وحياة قلوبهم وحياة عقولهم.

3 ـ الإنسان في حياته مفتقرٌ إلى الله:

وقد ذكرت من قبلُ أن الإنسان في جوهره مفتقر إلى الله، الإنسان ضعيف بالأصل.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21))

(سورة المعارج)

الإنسان خُلِق عجولاً، خُلق ضعيفًا، خُلق هلوعًا، منوعًا، جزوعًا، هذه صفاتٌ، وهي صفات ضعفٍ لكن لصالحه، لكن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عباده.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

الله عزّ وجل واحدٌ أحد فردٌ صمد، لا يستمدُّ حياته من غيره، ولا نفعه من غيره، ولا تستطيع كل الخلائق أن تنفعه أو أن تضرُّه، لذلك الله عزّ وجل صمد، ذاتيُّ الوجود، ذاتٌ كاملة، واجب الوجود، خالقٌ، ربٌّ، إلهٌ، موجودٌ، كاملٌ، واحدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته، والإنسان مفتقر إلى الله عزّ وجل، فجسمه مفتقر إلى غذاء، وقلبه مفتقر إلى ذكر، وعقله مفتقر إلى علم.

من هم أشقى الناس ؟ الذين اعتنوا بأجسادهم فقط، وماتت قلوبهم، وضعفت عقولهم، هم أنكروا إنسانيّتهم، وما عرفوا قيمتهم، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة الحشر: من الآية 19)

يتوّهم بعضهم أن الله أنساهم أنفسهم، وفي بعض التفاسير: أن نسيانهم لله هو الذي أنساهم أنفسهم، عندما نسيت ربّك فقد جهلتَ قيمة إنسانيّتك، وما عرفت أين كنت، وماذا بعد الموت ؟ وما عرفت سرّ وجودك، وما عرفت حقيقة وجودك، وما بحثت عن طبيعتك العظيمة، وأنك أنت مخلوقٌ أول. إذاً:

(هُوَ الْحَيُّ)

مصدر حياة الكون، هو حيٌّ في ذاته، ومصدر حياة الكون، كما تقول: رحمن رحيم، رحمنٌ في ذاته، رحيمٌ في أفعاله، هو حيٌّ إذًا من صفاته الحياة، وكل من اتصل به أصبح قلبه حياً، عاش حياته الإنسانيّة، والحقيقة أن المؤمن حينما يلتقي بغير المؤمن يشعر أنه ميّت لفقده الإيمان.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من الآية 21)

الكافر يبني حياته على الأخذ، والمؤمن يبنيها على العطاء:

ماديٌّ النزعة، ضيّق الأفق، أناني الصفة، يحب ذاته، يحب أن يحيا، ويموت الآخرون، يحب أن يرقى، وينخفض الآخرون، يبني مجده عن أنقاض الآخرين، يبني غناه على فقرهم، يبني سعادته على شقائهم، يبني أمنه على خوفهم، يبني وجوده على فنائهم، هذا الكافر ميّت، لو نشد الإنسان السعادة في العطاء لا في الأخذ لارتقى في إنسانيته، وسما بنفسه في مدارج الإيمان، لكن معظم الناس يظنون أن السعادة في الأخذ، فالكافر قد بني حياته على الأخذ، على أخذ أموال الآخرين، على أخذ خبرات الآخرين، على أخذ خدمات الآخرين، على استعباد من دونه، على استغلال من دونه.

المؤمن بالعكس بني حياته على العطاء، المؤمن يبني سعادته مع ربه على أنه خيّر في طبعه، يعطي مما عنده، ربنا عزّ وجل وصف المتّقين بصفةٍ جامعة مانعة، قال تعالى:

(الم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

الله ماذا رزقك ؟ رزقك قوّة، ابذلها في خدمة الآخرين، رزقك مالاً، أنفقه للفقراء والمسلمين، رزقك جاهًا، اجعله في خدمة المظلومين، رزقك علمًا، اجعله في خدمة الجاهلين، هذا المؤمن بني حياته على العطاء لا على الأخذ، وسعادته قائمة على أنه يعطي، لا على أنه يأخذ، لذلك قالوا: إذا أردت أن تعرف أنك من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك، الأخذ أم العطاء ؟ أن تقبض المال أم أن تنفقه ؟ أن تستغلّ خدمات الناس أم أن تخدمهم ؟ أن تأخذ مالهم أم أن تعطيهم من مالك ؟ ما الذي يسعدك

الأخذ أم العطاء ؟ إن كان الذي يسعدك هو الأخذ فأنت من أهل الدنيا، وإن كان الذي يسعدك العطاء فأنت من أهل الآخرة.

ماذا فعل الأنبياء ؟ جاءوا إلى الدنيا، وغادروها ولم يأخذوا شيئاً، أعطوا كل شيء، ولم يأخذوا شيئاً، سعادة البشريّة بفضلهم، وبهدايتهم، وبعطائهم ؛ ماذا فعل نقيض الأنبياء الذين هم على الطرف الآخر ؟ أخذوا كل شيء، ولم يعطوا شيئاً، والمؤمن يأخذ ويعطي.

لكن الناس يقولون لك: ميزان تجاري، فأيهما أكثر في ميزانك الأخذ أم العطاء ؟ إن كان الذي يرجح في حياتك هو الأخذ فأنت أقرب إلى الدنيا وأبعد عن الآخرة، وإذا كان ميزانك ترجح كفة العطاء فيه فأنت أقرب إلى الآخرة، وأبعد عن الدنيا، لذلك:

(هُوَ الْحَيُّ)

4 ـ إذا أردت الحياة فاتصل بالحي:

إذا أردت الحياة فاتصل بالحي، إذا أردت حياة قلبك، إذا أردت أن تعيش إنسانيّتك، أن تعيش حياة راقية.

هذه الحياة أيها الإخوة ـ حياتنا الدنيا ـ أكثر الناس يذمونها، يقول لك: ما أحد مرتاح فيها، وهذا صحيح، لأنه أعرض عن الله.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

(سورة طه)

لذلك قال بعض العارفين: **" مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إليها وغادروها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قيل: ما أطيب ما فيها ؟ قال: ذكر الله ".**

وقال بعضهم: **" أتت عليّ ساعة قلت فيها: إذا كانت حال أهل الجنّة كما أشعر فهم في حياةٍ طيّبة ".**

وبعضهم قال: **" أبو بكرٍ في الجنّة "**، الآن في الجنّة، في جنّة القرب، هناك جحيم البُعد يدخله من لم يتذوق حلاوة الإيمان، فالمؤمن في جنة القرب، لذلك قالوا: هناك جنةٌ في الدنيا، إن لم تدخلها فلن تدخل جنة الآخرة، وهذا مصداق قول الله عزّ وجل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

إذاً: فالله عزّ وجل حي، إذا أردت الحياة فاتصل به، وأسباب الاتصال بين يديك ؛ استقم على أمره، واخدم خلقه وانتهى الأمر، إذا صلّيت تتصل به وتشعر بمعنى القُرب، كلهم عباده لا تفرّق بين إنسان

وإنسان، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، لا تشعر بمعنى القرب إلا إذا أخلصت للخلق، فلو كنت صاحب متجر فانصح الناس، لا تكذب أبداً، خذ الثمن المعقول، لا تستغل جهل المشتري، فلا تقل: هذا المشتري جهول، وهذا مكسب لي، عامله كما لو أن الله وكيله، عامله على أن الله يراقبك.

إنْ عرفتَ الله عرفتَ كلّ شيء:

موضوع الدين فهمه الناس صلاةً وصومًا، فهموه طقوسًا، الدين أعمق من ذلك، الدينُ أن تعامل الناس كلهم على أنهم عباد الله، تتقرّب إلى الله بخدمتهم، تتقرّب إلى الله بنصحهم، تتقرّب إلى الله بدلالتهم على الله عزّ وجل، تتقرّب إلى الله بإكرامهم، فلذلك في الكون حقيقة واحدة هي الله، إن عرفته عرفت كل شيء، إن اتصلت به وصلت إلى كل شيء، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا وجدته فما فقدت شيئاً، وإذا فقدته فما وجدت شيئاً، هذا هو الدين.

الدين اتصال بالله، الاتصال ثمنه الاستقامة والعمل الصالح، الاتصال مُسْعِد، لذلك ممكن أن تسكن في غرفة صغيرة، وتأكل أخشن الطعام، وترتدي أرخص الثياب، وأن تكون موصولاً بالله فأنت أسعد الخلق، ويمكن أن تسكن في أجمل بيت، وأن ترتدي أجمل الثياب، وأن تأكل أطيب الطعام، فإذا كنت منقطعاً عن الله عزّ وجل فأنت أشقى الخلق، لذلك:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من الآية 2)

عندما يرحم ربنا عزّ وجل مخلوقاً فقد سعد في الدنيا والآخرة، بكل ظرف من ظروفه تجده سعيداً، والدنيا مؤقتة، والدنيا جيفة طلابها كلابها، والدنيا دار من لا دار الله، ولها يسعى من لا عقل له، وما أكثر ما ضحكت الدنيا على العباقرة وعلى كبراء الناس، لكن قلّة من الذين عرفوا الله عزّ وجل فضحكوا عليها، وسخروا منها، وطلّقوها بالثلاث، وجعلوها في أيديهم، ولم يجعلوها في قلوبهم، ما حجبتهم عن الله عزّ وجل، ولا صرفتهم عن طاعة، ولا إلى مخالفة. فالآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

الإنسان حي أو ميت، بصرف النظر عن جسده، حي، ضغطه ثمانية عشر، سبعة عشر مثلاً، أو ثمانية، اثنا عشر، نبضه سبعون، دقّات قلبه نظاميّة، أجرى فحوصًا والنتائج إيجابية تامّة، قال لي الطبيب: ما بك خللٌ إطلاقاً، ولكن قلبه ميّت، لم نستفد، البطولة أن يكون قلبك حيّاً بذكر الله، لذلك:

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

1 ـ العلاقة الإيجابية بين السلوك والتوحيد:

بالمناسبة أيها الأخ الكريم: اعتقد أن هناك علاقة إيجابية بين السلوك والتوحيد، والإخلاص والتوحيد، إخلاصك بقدر توحيدك، الله قال:

(فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ)

الإنسان متى يُقَطِّع آماله من الخلق ؟ أنت إذا دخلت إلى دائرة متى تنصرف عن كل الموظّفين، وتتجه إلى المدير العام ؟ إذا أيقنت أن كل هؤلاء لا ينفعونك، وأن الموافقة بيد واحدٍ في هذه الدائرة كلها، فإذا أيقنت أن الأمر بيد واحد انصرفت عن هؤلاء جميعاً إلى من بيده الأمر، أما إذا توهّمت أن هذا الآذن له علاقة، والعامل على الآلة الكاتبة له علاقة، ورئيس الدائرة له علاقة تضطرب وتتمزّق، تتوزّع بين فلان وفلان وفلان وعِلان، ترجو هذا، وتَتَرضّى هذا، وتتملّق لهذا، وتخاف أن يغضب هذا، لذلك: **" من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها "**، و**" اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها "** ، وسر سعادة المؤمن، أن علاقاته واضحة محددة، علاقته مع ربه فقط، وربه بيده كل شيء.

فليتك تحلو و الحياة مريرةً ... وليتك ترضى والأنام غِضابُ

و ليت الذي بيني و بينك عامرٌ ... و بيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ ... وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

***

الكافر ممزّق، مشتّت، مبعثر، مشرذم، يظن بتفكيره السقيم أن الناس كلهم آلهة، بمعنى أنّ كل هؤلاء الناس كما يتوهم بإمكانهم أن ينفعوه، يتملّقهم جميعاً، يخشى أن يغضبوا، فيعصي الله من أجلهم، يبيع دينه من أجل إرضائهم، ومع ذلك فالله عزّ وجل لا يرضّيهم عنه، لأنه:

((من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس))

[كنز العمال عن عائشة]

فلذلك أيها الإخوة، حقيقة واحدة هي: الله هو الخالق، هو الرب، هو المسيّر، هو المحي، هو المميت، هو الرازق، هو الرافع الخافض، هو المعطي المانع، هو القابض الباسط، هو المعز المذل، هو المسعد و المُشْقي، هو الغفور هو الرحيم، أمرك كله بيده، فإذا عرفته عرفت كل شيء.

هو الحي، أتحب أن تحيا حياةً أبديّة ؟ التزم أمر الله ونهيه، أتحب أن يكون جسمك في أعلى درجات النشاط وقلبك ميّت ؟ ابتعد عنه.

(إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هذا هو التوحيد.

2 ـ أهمية التوحيد:

وبعضهم قال عني: إنني أركِّز على التوحيد، واللهِ معي حق في دعوتي هذه، لأنه لا شيء يدفعك إلى معصية الله كالشرك، لا شيء يبعدك عن الإخلاص كالشرك، فالإخلاص يحتاج إلى توحيد، والاستقامة تحتاج إلى توحيد، أنت لن تستقيم، ولن تخلص إلا إذا أيقنت أنه لا إله إلا الله. لذلك:

((لا إله إلا الله لا يسبقها عمل، ولا تترك ذنبا))

[الجامع الصغير]

وكما قال الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((لا إله إلا الله حصني من دخلها أمِنَ من عذابي))

[ورد في الأثر]

(فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

3 ـ تعاملْ مع الله مباشَرةً بالسؤال والدعاء:

فعلى الإنسان المؤمن، أيها الإخوة، أن يتعامل مع الله تعاملًا مباشرًا، أليست لك حاجات عند الله عزّ وجل ؟ ألا توجد لديك قائمة مشكلات ؟ تدعو مَن ؟ تجد الإنسان المشرك يبذل ماء وجهه أمام فلان، وأمام علان، وهو يتمسكن ويتضعضع.

((مَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِه))

[من الجامع الصغير]

أليس لك ثقة بالله عزّ وجل ؟ فالنبي عليه الصلاة و السلام قال:

((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع))

[من الجامع الصغير عن أنس]

((إن الله يحب أن تسأله ملح طعامك))

[ورد في الأثر]

((من لا يدعوني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن اللّه يحبّ الملحّين في الدعاء))

[الأذكار النووية]

((فإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فقالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

[مسند أحمد عن أبي هريرة]

أليست لك حاجة عند الله ؟ أما عندك ولا مشكلة في حياتك ؟ اسأله، ولكن لا تجرّبه، فالله لا يُجرّب ولا يُشارط، إلهٌ عظيم، تُبْ إليه، واصطلح معه، واسترضه، فاللؤماء لا يُسترضون، فمهما اعتذرت، ومهما تذلّلت لا يرضى، لكن الله يُسترضى، قال عليه الصلاة و السلام:

((إن صدقة السر تطفئ غضب الرب))

[الجامع الصغير]

قال:

((باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة))

[الجامع الصغير]

وقال كذلك:

((إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل))

[تخريج أحاديث الإحياء]

زلّت قدمك، استرضِهِ بعمل صالح، بخدمة خلقه، بصدقة، بعمل طيّب لعبادة دون أن تذكره لأحد، فاللهُ يُسترضى، ألم تذق طعم العمل الصالح مع الله ؟ ألم تذق طعم التوبة إليه ؟ طعم الإقبال عليه، طعم السعادة في ظلِّه.

أحياناً يتحرّك الإنسان فيعرف أن هناك شخصًا كبيرًا يحبّه، ويده طائلة، فتجده يمشي براحة مطمئنًا، لكن المؤمن أسعد من هذا، يتحرّك في الدنيا، ويعلم علم اليقين أن الله معه، وأن الله يحبُّه، وأن الله بيده أمر كل أعدائه، وكل خصومه، وأنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ هذا الشعور وحده لا يُقدّر بثمن.

قال لي أخ طبيب: الشيء المؤسف أن معظم الأمراض أسبابها نفسيّة، وأنا أقول لكم: أسبابها الشرك بالله، خوف، شعور بالقهر، شعور بالحرمان، شعور بالخَوف، شعورك أن أمرك بيد فلان، وفلان لا يحبّك، وسوف يقضي عليك، والله هذه الفكرة وحدها تحطِّم الإنسان، أما التوحيد فيعني أن أمرك بيد الله فتطمئن.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

هذا الشعور مُسعد، أحياناً يرتِّب الإنسان بيته، يرتِّب أوراقه، يرتِّب مكتبته، يقوم بجردٍ يقول لك: هذه لا تلزمني فيلقيها في سلة المهملاتِ، هذه أحتاجها، أليس من المناسب أن تُجري جرداً بعلاقتك مع الله ؟ هذه البنود لا ترضيه، دعها، هذه ترضيه فأقبلْ عليها، ما الذي يرضيه ؟

لا تنسوا الحديث القدسي الذي رواه سيدنا ابن عمر عن رسول الله، والنبيُّ رواه عن ربّه، يقول الله عزّ وجل:

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال عن جابر]

4 ـ عليك بالكتاب المقرّر:

فأنت بحاجة إلى مجلس علم، بحاجة إلى مَنهل، بحاجة إلى أن يستنير قلبك، أن يستنير عقلك، بحاجة إلى فهم كتاب ربّك، هذا الكتاب المقرّر.

بربّكم إذا كان عند طالب امتحان بعد أسبوع، والمادّة أساسيّة، وهي للتخرُّج، وعنده مكتبة تملأ أربعة جدران من الأرض إلى السقف، فيها عشرة آلاف كتاب، أليس الكتاب المقرّر هو الأساسي ؟ هذا القرآن كتابنا المقرّر، نحاسب على مدى فهمنا له، على مدى تطبيقنا له، على مدى طلبنا للعلم به، هذا هو الكتاب المقرّر، ولذلك فالإنسان من دون علم يكون كالبهيمة عطّل إنسانيّته.

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

لو رأيت ما يجري في الكون لحمدت الله:

هذه:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

عميقة جداً، ألا ترى في الكون مشكلات، وفيضانات، وزلازل، وحروبا أهليّة، وفقرا مدقعا، وناسًا هاموا على وجوههم ؟ أليس هناك مآسٍ لا يعلمها إلا الله ؟ لو تعمّقت معتبراً متقصياً، لو تعمّقت لوجدت أن كل ما يجري في الكون يستحق منك حقًا: الحمد لله رب العالمين، لكن الطفل الصغير إن رأى رجلاً يمسك المبضع، ويفتح البطن، والدم يخرج، وقلبه قاسٍ، هذا الطفل لجهله بعمل الطبيب ورحمته فإنه

ينتقده، لكنّ أهل المريض الراشدين يعطون هذا الطبيب المال والشكر، والمودّة، وكل ما يملأ قلبه غنًى، لأن عمله لصالح مريضهم.

فما يجري في الأرض من شيءٍ تستنكره أنت هو محض حكمةٍ، ومحض عدلٍ، ومحض رحمةٍ، ومحض تربيةٍ، ومحض علاجٍ، يجب أن تثق بالله عزّ وجل، ليس معنى هذا ألاّ تعين الناس، بل أعنهم، وابذل جهدك في خدمتهم، وخفِّف من آلامهم، لكن دون أن تتهم الله عزّ وجل، ولله في خلقه شؤون.

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

فإذا رأيت المسلمين الآن مستضعفين في العالم، وكل القِوى الشريرة تريد أن تنال منهم هم مستضعفون، لكن تنطبق عليهم هذه الآية:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً)

على كلٍ، ماذا تملك أنت أن تفعله ؟ تملك أن تقيم الإسلام في بيتك، وتملك أن تقيم الإسلام في عملك، فإذا فعلت في هذين الحَقْلين نجوت من عذاب الله، ونجوت من المسؤوليّة التي سوف يُسأل عنها الناسُ كلهم يوم القيامة.

إذاً:

(هُوَ الْحَيُّ)

حيٌّ في ذاته، ومصدر حياة الخلق جميعاً، ولا سيما حياة قلوبهم.

(لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ)

الأمر كله بيده، وكلّما ازداد توحيدك يزداد إخلاصك، وكلّما ازددت توحيدًا ازدادت طاعتك، الطاعة والإخلاص مرتبطان بالتوحيد، كلّما توهّمت أن فلانًا بيده نفعك فتطيعه وتعصي الله فأنت في خسارة، أما إذا أيقنت أنه عبد مثلك، وليس له من الأمر شيء فأنت في خير، وإقبالك على الله هو الفلاح والصلاح، هذا ملخّص الكلام، فالتوحيد يعينك على الطاعة، والتوحيد يعينك على الإخلاص، وما عصى أحدٌ ربه إلا لضعفٌ في توحيده، وما ضعف إخلاص عبدٍ إلا لضعفٍ في توحيده، إذاً:

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَادْعُوهُ)

اسأل الذي يجيب المضطر إذا دعاه:

اسأله، اطلب منه في الصلاة، خارج الصلاة، في أي وقت.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل: من الآية 62)

اثنتا عشرة آية في القرآن.

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة: من الآية 219)

اثنتا عشرة آية فيها يسألونك، وبين يسألونك والجواب قل، أي أنت الوسيط يا محمّد، إلا آية واحدة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

فهل من الممكن لإنسان بعد أن عرف الله، بعد أن تشرّف قلبه بذكر الله، بعد أن رأى أن الأمر بيد الله، هل من الممكن أن يعبد غير الله عزّ وجل ؟ قد يقول أحدكم: غير معقول.

أيها الإخوة... أن يضع واحد صنما، ويعبده هذه مستحيلة، في العالم الإسلامي كله هذه مستحيلة.

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

[الترمذي]

" أخوف ما أخوف عليكم الشرك، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً".

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً))

[أحمد]

هذه بطلت، انتهت، ولكن عندما يطيع الإنسان مخلوقًا، ويعصي ربه، ويجعله إلهًا، فقد عبده من دون الله، قال:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لا إله إلا الله، ما سوى الله كلهم دونه، الكون كله دونه، فإذا عبدت الله فقد نجحت وأفلحت، وما معنى عبدت ؟

معنى العبادة:

العبادة منتهى الخضوع، منتهى الطاعة، منتهى الإخلاص، منتهى الحب، منتهى الولاء، العبادة تكون لله وحده، للخالق، للمسيّر، للرب، للسميع، للبصير، للقوي، للغني، لمن يستجيب لك، لمن يستمع إليك، لمن يعلم ما يخفيه قلبك، هذه العبادة، فإذا توجهت بعبادتك لغير الله عزّ وجل تكون قد خسرت خسارةً كبيرة، لأن غير الله عزّ وجل عبد مثلك فقير، ضعيف، لئيم أحياناً، أفمن كانت هذه صفاته أتعبده من دون الله ؟ لذلك علمنا الله أن نقول:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ولا سيما.

(لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

1 - لابدّ من العلم:

لذلك عندما يرتاد مجالس العلم، فقلبه يستنير، وعقله يستنير كذلك، فهذا يردّه علمه شيئًا فشيئًا إلى أن يستقيم أمره، قال عليه الصلاة و السلام:

((العلم علمان: فعلم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم))

[الجامع الصغير]

كل شيء تتعلّمه، وتخالفه في حياتك اليوميّة فهو حجّةٌ عليك، ولكن بعض الناس يتعلم العلم، وينحرف في حياته اليومية وسلوكه، فهذا حجة عليه عند الله عزّ وجل، فقد أمره الله أن يستسلم لرب العالمين، وطريقة الاستسلام العلم بأحكام الدين كله:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

2 ـ الإسلام استسلام لله:

هذا الإسلام، الاستسلام لأمره، الخضوع له، الائتمار بما أمر، الانتهاء عما عنه نهى وزجر.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

هذا هو الإنسان في جميع مراحله:

1 ـ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

وكتوضيح بسيط: ابنك يولد ووزنه ثلاثة كيلوات، الآن وزنه سبعة وستون كيلوا، مثلا، الأربعة والستون كيلو من أين جاءت ؟ من الطعام والشراب، من الأغذية، من اللحوم، من الخضراوات، من الفواكه، من الخبز، فهذه الأغذية من أين جاءت ؟ من التراب، فهذا المعنى البسيط.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

أو المعنى الآخر: سيدنا آدم من تراب، وسيدنا آدم كان من نسله بنو البشر كلهم أجمعون.

(ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

2 ـ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

ما هي النطفة ؟

ما هي النطفة ؟ هي حوين صغير جداً له رأس مدبَّب، وله عنق حلزوني، وله ذيل، كل ثلاثمائة مليون حوين تعادل سنتيمترين مكعبين أو ثلاثة، في اللقاء ينطلق ثلاثمائة مليون، البويضة تحتاج إلى حُوين واحد، هذا الحوين فيه معلومات ـ فيه مورّثات ـ حوالي خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، فالحديث عن الحوين، وعن اللقاح، وعن البويضة، وعن علم الأجنّة شيء مذهل، فربنا عزّ وجل قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)

3 ـ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ

بعدما تتلقّح البويضة، وتتجزأً إلى عشرة آلاف جُزَيْء، وهي في طريقها من المبيض إلى الرحم في الأنبوب، دون أن يزيد حجمها، لو زاد حجمها لوقفت في مكانها، بعد أن تصل إلى الرحم تنغرس في الرحم، وعندئذٍ تكون علقة.

(مِنْ عَلَقَةٍ)

مثل جلطة صغيرة، أحياناً تجد الطبيب يسحب من شريان جلطة دم، إذًا: من مراحل خلق الإنسان العلقة.

(ثُمّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)

4 ـ ثُمّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

طفل له عينان، له أذنان، له أنف، له لسان، له فم، له قلب، له رئتان، له عضلات، له عظام، له أنسجة، له معدة، أمعاء، بنكرياس، كبد، صفراء، نخاميّة، خلايا عصبيّة. شيءٌ يُصدّقه الواقع، من نطفة، من حوين منوي مع بويضة لا تراهما العين المجردة إلى إنسان كامل.

(ثُمّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)

الطفل صغير لا يقوى على أن يمشي، لا يقوى على أن يتكلّم، يحتاج لمن ينظّفه، لمن يطعمه، إلخ.

(ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ)

5 ـ ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ

يصبح في شدة أسره مثل الحصان في سن السابعة عشرةَ، يتكلّم، يقفز كل خمس درجات معاً، يلعب، يذهب، يأتي، أين كان ؟ ثم هو عظام متينة، أسنان لحم، دم... الخ.

(ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ ثُمّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا)

6 ـ ثُمّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا

تجد شخصاً يقفز عشر درجات بينما آخر درجة درجة، ترى شخصًا منتصب القامة، وآخر منحني الظهر، هذا شخص من دون نظّارات وآخر بنظّارات، أحدهم شعره أسود وآخر قد شاب، أحدهم عموده الفقري منحنٍ قليلاً، والآخر عموده مستقيم، تجد كل هذا وتجد كل ذلك.

(لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ)

7 ـ الموت الحتمية الأكيدة في الصغر أو الكِبَر:

فالإنسان قد يموت في شبابه، الموت ليس له ترتيب، ليس له قانون ثابت.

(مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى)

أيْ أنّ الإنسان له عند الله أجل لا ينقص ولا يزيد، لو أيقن به لما اضطرب أحد أو خاف، وكثيرًا ما يقول الطبيب: هو في دور الاحتضار، اذهبوا به إلى البيت، ثم يعيش المريض بعد الطبيب اثنتي عشرة سنة أو أكثر أو أقل، إذْ يموت الطبيب، والمريض يعيش بعد موت الطبيب اثنتي عشرة سنة مثلاً، فالمرض لا يميت، الذي يميت انتهاء الأجل، هذه الحقيقة إذا آمنّا بها أصبحنا شجعانا.

كثرت بين الناس أمراضُ القلب، وأساسها الخوف والقلق النفسي، وأحياناً يصاب القلب بآفات بسبب وَهْم الإنسان من أمراض القلب، أما إذا أيقن الإنسان أن انتهاء حياته بيد الله، ولا تنتهي حياته إلا إذا أراد الله عزّ وجل، وأنّ الأمراض ليس لها علاقة بالموت، ولكنها أسباب يسوقها الله إذا أراد يعيش مطمئنا.

(وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

خلق، ويحي ويميت.

(فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

فهذه الآية عجيبة جداً، كن فيكون، دونما اعتبار للزمن، الإنسان هذا المخلوق الضعيف توصل بعلمه إلى اختراع حواسب، فقد يحتاج شيء ما إلى عمل شهرين من دون حاسوب، فالحاسوب ينجزه في خمس ثوانٍ، فإذا اختصر الإنسان الزمن من شهرين إلى ثوانٍ، فالله عزّ وجل إذا انتهى العمر بأمره فهذا شيء طبيعي جداً على الله، كن فيكون، عند الله لا يوجد زمن.

الآية قبل الأخيرة:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ

1 ـ المكذِّب بآيات الله منحرف السلوك:

هناك شيء لو وقع لكانت مشكلة، يقولون في وصف إنسان ما: إنه إنسان يكذِّب بآيات الله، ولكنه مستقيم، وأخلاقي، ويحب الخير، والحق أنك لن تجد إنسانًا يكذِّب بآيات الله إلا وهو منحرف، له أعمال سيئة، له مشاعر ليست راقية، له تصرُّفات خاطئة، يحبُّ ذاته، يعتدي على أعراض الناس، يعتدي على أموالهم، أجل، هذه حقيقته، قال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

أين يمضي سهراته ؟ ومع من يمضيها ؟ كم يرتكب من معاصٍ ؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1))

قال:

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

(الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

أحياناً إذا ناقشك إنسان، وأراد أن يكذِّب بهذا الدين، بهذا الكتاب، هو أقل شأنًا من أن تناقشه، انظر ماذا يفعل، انظر إلى دخله، إلى تصرُّفاته، ولقاءاته، وندواته، وسهراته، كيف يعتدي على أعراض الناس، كيف يعتدي على أموالهم، هكذا قال الله عزّ وجل:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

2 ـ المؤمن أخلاقيّ:

المؤمن أخلاقي، المؤمن قد نوّر الله عزّ وجل قلبه ـ ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه ـ فكلمة مؤمن مرتبة أخلاقيّة، على مرتبة جماليّة، على مرتبة علميّة، المؤمن عالِم، وصاحب ذوق وأخلاقي، المؤمن الحقيقي لأنه يمثِّل هذا الدين، اصطبغ بالكمال الإلهي، اصطبغ بتطبيق السُنَّة النبويّة، فلن تجد مؤمنًا خائنًا، لن تجد مؤمنًا حقودًا، ولا حسودًا، ولا دنيئًا، ولا أنانيًا، المؤمن لا يكون بخيلاً، ولا يكون جبانًا، هذا مستحيل، الإيمان هذّبه، والإيمان صبغه.

فهؤلاء الذين يجادلون يريدون أن يطفئوا نور الله، يريدون أن يلغوا عظمة هذا الدين، يريدون أن يبتدعوا نُظُمَاً جديدة، تشريعاً وضعياً، يطعنون في الدين وفي صلاحية الدين لهذا الزمان، هؤلاء الذين يجادلون، قال سبحانه:

(أَنَّى يُصْرَفُونَ)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ(69)الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

تهديد الله للمكذِّب بآياته:

هذا تهديد.

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

طبعاً فرعون كذّب سيدنا موسى، وقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

وقال:

(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى(63))

(سورة طه)

لكن ما الذي حصل ؟ أنه حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

البطولة من يضحك أخيراً، فلمن العاقبة إذًا ؟ الله قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

(سورة القصص)

(تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا)

(سورة القصص: من الآية 83)

بطولتك ليست في أول جولة، بل في آخر جولة، في نهاية المعركة مَن المنتصر ؟ في نهاية الحياة مَن الرابح ؟ عند ملاقاة الله من الفائز ؟ عند الدخول في القبر من الناجي ؟ هنا البطولة.

العاقل هو الذي يعمل لينجو في المستقبل الذي لابدّ منه، أما الجاهل فهو يعيش لحظته، ويفرح بتفوّقه في الدنيا. قال:

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(70)إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(71)فِي الْحَمِيمِ ثُمّ فِي النّارِ يُسْجَرُونَ(72)ثُمّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللّهِ قَالُوا ضَلّوا عَنّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلّ اللّهُ الْكَافِرِينَ(74)ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ)

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ

1 ـ لا تفرح بغير الحق:

الإنسان أحياناً يفرح بالمال الحرام، يفرح أنه اغتصب هذا البيت، هذا المحل خلّصَه من شركائه، وألقى بهم بعيدًا، يفرح أنه استطاع أن يأخذ هذا المال من الورثة، عمل ترتيباته، كتّب والده تصريحات وديونًا وهميّة، واستطاع أن يأخذ كل الإرث، ويستولي عليه، وترك إخوته جائعين ضائعين، يظن أنه ذكي حاذق ماهر، فربنا عزّ وجل قال:

(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ)

2 ـ ما الذي يُفرحك ؟

لذلك قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، ما الذي يفرحك ؟ مال حرام تكسبه بأسلوبٍ غير مشروع؟ إذاً أنت لا تعرف الله إطلاقاً، تفرح إذا أكلت مال الناس ؟ إذا عشت ومات الناس ؟ تفرح إذا حصّلت ربحًا على حساب دينك ؟ تفرح إذا كذبت وربحت ؟ تفرح إذا غششت وربحت ؟ هل تفرح ؟ إنْ كان حالك كذلك فاسمع قوله الله تعالى:

(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)

المرح هو اللعب واللهو وعدم التفكّر بالمسؤوليّة والمستقبل، قال:

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبّرِينَ)

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

العبرة بالمصير:

هذا المصير، فلذلك البطولة في المصير، والغنى والفقر بعد العرض على الله.

إذا حضر شخص مائتي وليمة، وكل وليمة أحلى من أختها، وليلة من الليالي آلمه ضرسه، ولم يستطع أن ينام الليل، إنْ يتذكّر عزيمة فهل يسكن ألم ضرسه ؟ إنْ تذكّرَ أكلة أكلها طيبة فهل يذهب الألم ؟ أعوذ بالله، الآن واقعه ألم، وكل الماضي انتهى، كل شيء حصّله من لذّات الدنيا زال، بقي الألم، هذا واقع الإنسان إن لم يعرف الله عزّ وجل، كل أيام الدنيا التي أمضاها في اللهو، واللعب، والمرح، والمباهج، واللّذات، والسهرات المختلطة، والنُزُهات الرائعة، والمعاصي، والموائد الخضراء، والموائد الحمراء، والمجتمع المخملي ـ هذا التعبير المهدّب للفسق والفجور ـ كل هذا الذي أمضاه في الدنيا عند الموت لا شيء، بقي عمله السيئ، وسوف يدفع ثمن عمله بالتمام والكمال.

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(76)فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ

1 ـ إخبار الله بالغيب كرؤيته بالعين:

قال ربنا عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

من منكم رأى أحداث هذه القصّة ؟ لا أحد منا رآها حتى أنا لم أرها، لكنّ الله قال:

(أَلَمْ تَرَ)

العلماء قالوا: خبرُ الله لأنه صادقٌ مئة في المئة كأنّك تراه.

الآن المستقبل، الله قال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة المائدة: من الآية 116)

فهذا الكلام لم يحدث بعد، لكنه سيكون يوم القيامة، ولكن لحتمية وقوعه صاغه الله بالفعل الماضي، الله قال:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من الآية 1)

معنى هذا أنه لم يأتِ بعد، ولكن كيف قال سبحانه:**" أتى فلا تستعجلوهُ "** ؟ هذا الفعل الماضي في القرآن يعبّر الله به عن المستقبل لتحقّق الوقوع، لذلك وقوع وعد الله ووعيده حق كأنه وقع، قال:

(فَاصْبِرْ)

2 ـ لابد من الصبر لأن مصير الكافر إلى الله:

أحياناً يكون المؤمن ضعيفًا مستضعفًا، وأحياناً يكون فقيرًا، وأحياناً يكون من الطبقة الدنيا في المجتمع، أمّا أنت أيها الضال فأنت المتفوّقُ، وأنت الرابح، وأنت الفائز، وأنت الناجح، وأنت السعيد، وأنت المَلِك. ولكن.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

وعد المؤمن بالنصر، وعد المؤمن بالتأييد، وعَدَه بالتوفيق، وعدهُ بالسعادة، وعدهُ بالعفو، وعدهُ بالمغفرة، وعدهُ بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، وعده بقبر روضة من رياض الجنّة، وقد يكون حفرة من حُفَر النيران لمن ضل أو كفر.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَإِمّا نُرِيَنّكَ بَعْضَ الّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفّيَنّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

أيْ إن رأيت مصيرهم في الدنيا أو لم ترَ فلابدّ من أن يلقوا المصير المؤلم.

وفي الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى الآيات التالية:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللّهِ قُضِيَ بِالْحَقّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (20-20): تفسيرالآيات77- 85
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين والأخير من سورة غافر، ومع الآية الثامنة والسبعين، ولكن في آيات الدرس الماضي آيةٌ أرغب أن نقف عندها وقفةً متأنية، الآية هي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ(69)الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(70)إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(71)فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(72)ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ

أيْ أين شركاؤكم الذين عبدتموهم من دون الله ؟ الذين اعتمدتم عليهم ؟ الذين عقدتم الآمال عليهم؟ الذين استعنتم بهم ؟ الذين توهمتم أنهم أقوياء، وأنهم ينفعونكم، أو يضرونكم، أين هؤلاء الشركاء؟

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)

قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا

معنى الضلال:

معنى الضلال هنا أي: لم نرهم، إذا صببت الماء في الحليب تقول: ضل الماء في الحليب، أي اختفى.

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

أدقُّ ما في الآية قوله تعالى:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ

أحياناً الإنسان حينما يقرأ قوله تعالى:

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 8)

قد يسأل هذا السؤال: كيف يُضِل الله الإنسان ؟ اللّه هادٍ، أيعقل أن يُضِل اللهُ الإنسان ؟ إذا قرأت في القرآن الكريم أن الله يضل الإنسان، فهذا هو التفسير: أيْ أنّك إذا أشركت بالله، لا سمح الله ولا قدّر، شركاً جلياً أو خفياً، واعتمدت على غير الله، عقدت الأمل على غير الله، وضعت أملك بغير الله، توهّمت أن فلان ينفعك أو يضرك، إذا أشركت فالله سبحانه وتعالى يجعل هذا الشريك ضعيفاً أمامك، تستنجد به فلا يُنْجِدك، تستجير به فلا يجيرك، تطلب منه فلا يجيبك، ماذا فعل الله عزّ جل ؟ أضلك عن هذا الشريك وأرادك أن تتصل به.

لو أن هذا الشريك أجابك، لو أنجدك، لو أغاثك، لو نفعك فعلاً أو ضرّك لازداد اعتقادك به، لكن من شأن الله سبحانه وتعالى أنك إذا أشركت به أحداً، فهذا الشخص الذي أشركت الله به، يريك ضعفه، يريك لؤمه، يريك تخلِيه، يريك أنه ضعيفٌ مثلك، تبحث عنه عند الضرورة فلا تجده، تسأله فلا يجيبك، تتوسل إليه فلا ينجدك، قال:

(ثُمّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللّهِ)

أين هم ؟

(قَالُوا ضَلّوا عَنّا)

ما رأيناهم، ما أنجدونا، ما نفعونا، ما خلّصونا، ضلوا عنا، قال:

(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

أيْ أنّ هؤلاء الذين أشركناهم مع الله ليسوا بشيء، لا يسمعون، ولا يستجيبون، ولا يمنعوننا من عذاب الله، ولا يجلبون لنا النفع، ولا يدفعون عنا الضُر، لذلك هذا فعل الله عزّ وجل، هذا هو إضلال الله للإنسان.

أيْ أنّ الإنسان إذا اعتقد الإنسان أن جهةً ما من دون الله عزّ وجل بإمكانها أن تنفعه، أو أن تضره، أو أن تجلب له النفع، أو أن تدفع عنه الضُر، فقد ضلّ حقّا، عقلاً و سلوكا، وأراه الله سبحانه هزال من أشرك بالله إذا أشرك الإنسان بالله عزّ وجل، هذا الذي أشركت الله به، الله جل جلاله سوف يريك ضعفه، يريك أنه ليس بشيء، لا يسمع، ولا يرى، ولا يستجيب، ولا يقدِّم، ولا يؤخِّر، ولا ينفع، ولا يضر.

(قَالُوا ضَلّوا عَنّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

أدقُّ ما في الآية:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللّهُ الْكَافِرِينَ)

فهل عرفتم أيها الإخوة ماذا يعني إضلال الله للإنسان ؟ لا يضل الله الإنسان عن ذاته بل يضله عن شركائه، إذا توهّم الإنسان أن لله شريكاً، الله سبحانه وتعالى يضل الإنسان عن الشريك الذي أشرك الله

به، هذا هو المعنى الذي يليق بالله عزّ وجل، أن الله حينما يضل الإنسان لا يضلّه عن ذاته العالية الكاملة، بل يضله عن شركائه، الذين تعلق بهم، أو توهم بهم القوة، أو اعتدّ بهم، أو عقد الأمل عليهم، أو أراد أن ينفعوه، وهذا درسٌ بين أيدينا.

الإضلال عن الشركاء تذكيرٌ بالله:

التطبيق العملي لهذه الآية ـ دقق وتأمّل ـ أي إنسانٍ إذا توهّم أن المال يفعل كل شيء، جعل المال إلهاً، فالله كيف يعالجه ؟ يرسل له مشكلةً لا تحلُّ بالمال أبدا، يضله عن هذا الشريك، إذا اعتقد أن زيداً ينفعه، فربنا عزّ وجل من رحمة الله بهذا العبد يجعل زيدًا يتخلى عنه، يتخلى زيدٌ عنه بأمر من الله عزّ وجل كي يعرف قيمته، ويعرف أنه لا شيء.

لكن لو ظننا العكس، أنك اعتقدت بإنسان أنه يفعل أو يضر، أو يرفع أو يخفض، أو يعطي أو يمنع، وأجرى الله لك الخير على يده، لو فعل الله ذلك لزاد اعتقادك أنه شريك، فمن رحمة الله بك أنك إذا أشركت معه أحداً يريك ضعفه، أو يريك لؤمه، أو يريك أنه لا يفعل شيئاً، إما أنه لا يستجيب لك، أو لا يسمع، أو لا يرى، أو إذا سمعك وطلبت منه لا ينجدك، فحينما ربنا سبحانه وتعالى يحطّ من شأن هذا الشريك و قدره فإنه يسقط من عينك من أجل أن تلتفت إلى الله وحده.

إذا عُزي الإضلال إلى الله عزّ وجل، فهذا أحد معاني الإضلال: أي أن الله سبحانه وتعالى يضلّك عن الذين ادعيت أنهم شركاء لله.

لو فرضنا أنّ معلما، وحازمًا، ومخلصًا، وعالمًا، وأحد الطلاب أوْهَمَ زملاءه أنه حصل على الأسئلة، فحينما يأتي المدرّس بأسئلة بعيدة عن هذه الأسئلة، ماذا يفعل بهذه الطريقة ؟ يبيّن لهؤلاء الطلاب الذين توهموا أن زميلهم حصل على الأسئلة أنه شخص كاذب، فلو أن المدرس جاء بالأسئلة نفسها لرسّخ إيمانهم أنه حصل على الأسئلة كما ادّعى من قبل.

فالموضوع هنا حينما تعتقد أن زيداً أو عُبيداً يفعل أو لا يفعل، ينفع أو يضر، بإمكانه أن يجلب لك خيراً، أو يدفع عنك شراً، إن اعتقدت ذلك فالله سبحانه وتعالى كفيلٌ أن يضلك عنه، فإذا أضل الله عبداً لا يضله عن ذاته بل يضله عن شركائه، والآية واضحة:

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

الشركاء لا شيء:

هؤلاء لا شيء، أو هو لا شيء، فأحياناً تقول: فلان تبيّن لي أنه لا شيء، بل هو سراب وأوهام، هو شيء له وزن، لكنه ادعى، وادعى، وادّعى، وادعى، فكل هذا الذي قاله كلامٌ فارغٌ لا معنى له، تقول: هو لا شيء، بل سراب، فمعنى:

(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

الأصنام أشياء، لكن وجدوا أنها لا تنفع ولا تضر، أو الأشخاص لا ينفعون ولا يضرون.

(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

الآية المحكمة تُحمل عليها كل الآيات المتشابهات:

عندنا قاعدة في أصول الفقه دقيقة جداً هي: أن الآية المحكمة تُحمل عليها كل الآيات المتشابهات، أوضح مثل على ذلك لو قلت: إن القمح مادة خطيرة، كلمة خطيرة تفيد أنه مادة أساسية في حياة الإنسان، وتفيد أنها مادة مؤذية، متفجرة مثلاً، فما الذي يحدد لنا معنى الخطيرة هنا ؟ قول آخر: القمح مادة مفيدة للإنسان، فكلمة مادة مفيدة تعبير محكم واضح، وكلمة مادة خطيرة، تعبير متشابه يفيد أنه نافع أو ضار، فما الذي يحدد معنى الخطورة في التعبير الثاني ؟ المعنى الأول.

فالقاعدة أن الآيات المتشابهات تُحمل جميعها على الآيات المحكمات، بل هناك رأى آخر، هو أن آيةً محكمة واحدة تُحمل عليها كل الآيات المتشابهات مهما كثرت، لهذا قال ربنا عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

إذًا: في القرآن مائة آية، مائتا آية، تفيد أن الله يضل الإنسان، كيف يضله ؟ بهذه الطريقة، أيْ أنّه يضله لا عن ذاته بل عن شركائه، الإنسان كلما اعتقد أن فلاناً بإمكانه أن يفعل أو أن يترك، فربنا عزّ وجل كشفه على حقيقته، أو بين ضعفه، أو بين بعده، أو بين لؤمه، أو بين جهله وأضل الآخرين عنه عندما كشفه على حقيقته.

آيات اليوم:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ

1 ـ الأنبياء لَمْ يُذكَروا في القرآن جميعا:

حينما نسمع أن في القارات البعيدة شخصاً كان مصلحاً اجتماعياً، أو لعله كان نبياً، هذا لا يمنع، لأن الأنبياء الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم ليسوا كل الأنبياء الذين أرسلهم الله عزّ وجل، إذاً:

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

2 ـ من رحمة الله إرسال الأنبياء:

هذا يعطينا معنى دقيقًا جداً ؛ هو أن رحمة الله عزّ وجل لا تنفكُّ لحظةً عن الخلق، ففي كل البلاد، وكل القارّات، وكل الأقاليم، وكل الأصقاع، لا بد من إرسال الأنبياء مبشرين ومنذرين، محذرين، مبيّنين، مفصِّلين، إذاً: رحمة الله تتمثل في إرسال الأنبياء، هم إذاً كثيرون جداً.

(مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

1 ـ لا أحَد من الأنبياء يأتي بمعجزة إلا بإذن الله:

أي أن المعجزات التي جاء بها الرسل إنْ لإثبات نبوّتهم أو رسالتهم، أو للقضاء على معارضيهم، هذه الآيات المبيّنة أو المدمرة لخصومهم، هذه الآيات ما كان لهم أن يأتوا بها من عند أنفسهم إلا أن يأذن الله.

2 ـ الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا بما أطلعهم الله تعالى به:

فمثلاً الإنسان أحياناً يلتبس عليه الأمر، حينما يعلم أن الله يعلم الغيب وحده، لا يعلم الغيب إلا الله، فإذا قرأ أحاديث شريفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تُبَيّنُ أنه يعلم ما سيكون، أشراط الساعة مثلاً، عن آخر الزمان، فكيف نوفّق بين قوله تعالى: لا يعلم الغيب إلا الله، وبين أن النبي عليه الصلاة والسلام

جاء بأخبارٍ عن آخر الزمان، وهذا غيب، وهذا يعرف بغيب المستقبل ؟ فالجواب بسيط جداً: النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يعلم الغيب بذاته إلا أن يعلمه الله به.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

فإذا أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام بشيءٍ عن آخر الزمان، وعن أشراط الساعة، فهذا ليس من عنده، وليس بإمكاناته الذاتية، بل بإعلام الله له، وهذه الآية تؤكد ذلك:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ

هنا الآية تشير إلى آية الهلاك، مثلا: قوم صالح عندما طلبوا أن تخرج ناقة من الجبل، وهذه آية خارقة، فخرجت الناقة، فلما لم يؤمنوا استحقوا الهلاك، فهذه آيةٌ جمعت بين التبيين والهلاك.

لابد من أن تؤمن في الوقت المناسب:

على كلٍ، أيّةُ آيةٍ إذا آمن الإنسانُ بها بعد فوات الأوان فهذا الإيمان لا قيمة له، وكنت أقول لكم دائماً وأكرر: إن خيارك مع الإيمان خيار وقت، لا خيار قبول أو رفض، لأنه إن لم تؤمن في الوقت المناسب فلا بد من أن تؤمن في الوقت غير المناسب، إيمانك في الوقت المناسب ينجيك، أما إيمانك بعد الوقت المناسب فلا ينجيك، فرعون آمن، لكنه آمن بعد فوات الأوان:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

إذاً:

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

النبي عليه الصلاة والسلام عندما انتصر في معركة بدر، ورأى كفّارَ قريش، وهم صرعى في ساحة المعركة، وقد أمر أن يلقوا في القليب ـ أي البئر ـ خاطبهم بأسمائهم واحداً وَاحداً، قال: يا فلان، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف ـ واحِدًا واحدًا ـ قال: **هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني ونصرني الناس، وخذلتموني وأيدني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس "**. فقال أصحابه: **"أتخاطب قوماً جيفوا ؟ "** قال: **" ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجبونني".**

كلكم يعلم أن الباطل له جولة، ثمّ بعد ذلك يُظهر الله عزّ وجل الحق، فهنيئاً لمن كان مع الحق، لأن العاقبة له.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(79)وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(80)وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ)

القرآن يذكِّر بنِعَم الله على العباد:

القرآن الكريم من حين لآخر يذكِّر الإنسان بهذه النعم التي أسبغها الله عليه، فأنت حينما تأكل هذا الطعام، الجبن، السمن، اللبن، الحليب، الزبد، هذا تأكله من أين ؟ من الأنعام، فمن خلق الأنعام ؟ الله سبحانه وتعالى، فهل عرفت الله ؟ إنه الذي خلق الأنعام، وبالطبع الألبان، ومنتجات الألبان، وصناعات الألبان تعد الغذاء الأول في حياتنا، الإنسان لو عزف عن شرب الحليب لسوّست أسنانه، وهشّت عظامه، ولنقصت حاجاته الأساسية، إذًا: هذا الغذاء الذي تأكله من الأنعام فهل عرفت من خلق الأنعام ؟ إنه الله.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا)

الأنعام بعضُها للركوب وبعضها للأكل والانتفاع:

إذًا بعضها للركوب.

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

وبعضها للأكل، وبعضها تركبونها وتأكلوا منها.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)

جلدها، وبَرُهَا، صوفها، لحمها، عظمها، كل شيءٍ في الأنعام يستفاد منه من دون استثناء، حتى إن روثها أو بعرها، هذا يباع بأغلى الأثمان، هو أعلى أنواع السماد من دون استثناء، يقول لك: اشترينا بعشرين ألفًا سمادًا طبيعيًا للأرض، كل شيءٍ فيها يستفاد منه حتى روثها وبعرها.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)

وشيء آخر جدير بالذكر، هي مصممة لتركبها، مصممة لتأكل لحمها، مصممة لتستخدم جلدها، مصممة لتشرب من لبنها، وفوق كل ذلك مهيّأة مذللة، وقد يغيب عنا أحياناً أنها مذللة، كيف ننتفع بها إذا كانت تصرفاتها تصرفات الضباع مثلاً، كيف ننتفع بها إذا كانت كالسباع وحشية و شراسة، كيف ننتفع بها إن لم تكن أهليّة كما يقولون، لو أنها كانت متوحشة لما انتفعنا بها.

ذكرت لكم غير مرة أن ربنا عزّ وجل جعل بعض الأمراض قد تصيب البقر، وهذا المرض اسمه التوحُّش، فصاحبها إذا توحشت بقرته، وقد دفع ثمانين ألفَ ليرة ثمنًا لها، يطلق عليها الرصاص، لأنها بدأت تقتل البشر، إذاً كونُ البقرة مذللة، والناقة مذللة، والحصان مذللا والدابة مذللة، والغنمة مذللة، هذه نعمةٌ تضاف إلى النعم الأخرى، مثل بنيتها وعظمها ولحمها وحليبها وجلدها ووبرها وصوفها، وتركب وتؤكل وتحلب، وفوق كل ذلك هي مذللة.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(79)وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ

قد يقرأ المسلم قوله تعالى في سورة النحل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

لو أنه ركب طائرةً من أحدث الطائرات، ورأى أنها تقل أربعمائة راكب، وتعلو أربعين ألف قدم، وتمخر عباب الجو، وهؤلاء الرُكاب جالسون على مقاعد مريحة وحاجاتهم بين أيديهم، وحاجاتهم الأخرى في مستودعات الطائرة لذهل، و رأى فرقا يحيّره بعد خلق الله للحيوان وصناعة الإنسان، وقرأ قوله تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

فأشار إلى الإنسان قد يصنع و ينتج، لكن صناعته وإنتاجه بعلم الله و إرادته.

لكن الله عزّ وجل قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل: من الآية 8)

هذه الآية غطت كل وسائل النقل الحديثة، لأن الله سبحانه وتعالى خالق الكون، وهو يعلم أن الإنسان سوف يخترع، أو سوف يصنع أدوات للمواصلات غير هذه الأدوات، فلو أن هذا القرآن كلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأغفل آخر ما في الآية، لرأينا أن هناك بوناً شاسعاً بين الخيل والبغال والحمير والطائرة، والسيارة، والقطار، والسفينة قال تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

هذا كلام خالق الكون الذي يعلم ما سيكون، ومهما امتد بنا الزمن، مهما تطور الإنسان فالقرآن الكريم يغطِّي كل الحوادث.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

لكن الإنسان الآن يقول: ركوب السيارة أريح وأهنأ، وهي في السفر مريحة، مقاعدها وثيرة، تنطلق بسرعة عالية، فيها كل وسائل الراحة والتكييف والتدفئة.

أحد إخواننا الكرام كان ببلد أجنبي حدثني أنه قرأ مقالةً مفادها أن ركوب الخيل يقي من أمراض القلب، بينما اعتياد ركوب السيارة دون أن يناوب الإنسان بينها وبين الحركة والمشي، هذا من شأنه أن يصيبه بأمراض القلب، فالله عزّ وجل صمم وسائل الركوب تصميمًا يتوافق مع صحة الإنسان.

(وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ)

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ

فَهَلْ في الكون شيء لا يدلّ على وجود الله، وعلى علم الله، وعلى قدرة الله، وعلى كمال الله، وعلى وحدانية الله ؟

(فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ(81) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

1 ـ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

قد ينوِّع ربنا عزّ وجل الطرق إليه، وقد قالوا: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فخلقُ السماوات والأرض طريقٌ إلى الله، لكنه طريقٌ سريع، وطريق عريض، وطريقٌ قصير ـ خلقُ السماوات والأرض هذا طريق ـ هناك طريق آخر، وهو أن تنظر في أفعال الله وتتأمل فيها.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

2 ـ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

وكلمة في الأرض هذه من إعجاز القرآن العلمي، فهل أنت أيها الإنسان تسير على الأرض أم في الأرض ؟ فهل أنت تمشي في السراديب ؟ في الأقبية ؟ أم تمشي على سطح أرض، العلماء قالوا: إن الهواء قد عَدّهُ القرآن جزءاً لا يتجزّأ من الأرض، والدليل أنّ الهواء غلاف للأرض يتحرك معها، لو ثَبَتَ الهواء، وتحرّكت الأرض ما بقي على وجه الأرض شيء حيًا أو سالما، لأن سرعة الرياح المدمِّرة مائتا كيلو متر في الساعة، هذه الرياح هي الأعاصير التي لا تُبقِي ولا تذر، هناك أعاصير إذا أتت على مدينة لا تبقي فيها شيئاً سالمًا، ولا بناء قائماً، ولا أشجارًا، لو أن الغلاف الهوائي ثبت، والأرض تدور لكان على وجه الأرض تيّارات من الرياح سرعتها تزيد على ألف وستمائة كيلو متر في الساعة، عندئذ تدمَّر كل شيء بإذن ربها، فالهواء غلافٌ للأرض يدور معها، إذا سرت أنت على وجه الأرض فهذه الآية فيها إشارة إلى أنك تسير في الأرض، لأن الهواء جزءٌ لا يتجزّأ من الأرض.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

3 ـ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

ماذا حل بفرعون ؟ وما هي عاقبة سيدنا موسى ؟ ماذا حل بأبي جهل ؟ وما هي عاقبة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ؟ هؤلاء الطغاة، العتاة، الذين أرادوا إطفاء نور الله عزّ وجل ماذا حل بهم ؟ وهؤلاء الدعاة الصادقون، الأنبياء، المؤمنون، المتقون ماذا حل بهم ؟ لمن كانت العاقبة ؟ أليست هذه قواعد ونواميس إلهية تكاد تكون ناطقة ؟ فالإنسان يدرس، ويتأمّل، ويستنبط، ويستنتج ثم يحكم.

لا تذهبوا بعيداً، وانظروا الآن، فالشاب المؤمن المستقيم مثلاً، لو تتبعت حياته، لوجدت أن حياته حافلة بالتوفيق، وحافلة بالسكينة، وحافلة بالاستقرار، وحافلة بالسعادة، يوفق في زواجه، يوفق في عمله، ماله حلال، بيته متوازن، عنده سكينة نفس، كل هذه الميزات هي ثمرة من ثمرات الإيمان..

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً)

4 ـ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً

إذا زار شخصٌ آثار الفراعنة يأخذه العجب العُجاب، فحجارة الأهرام التي بُنِيت منها كلُّ حجر يزن أكثر من عشرين طنًا، هذا الحجر جيء به من جنوب مصر، وحُمِّلَ على سفن عبر نهر النيل، ونقل من ضفة النيل إلى أقصى القاهرة، فهذا الحجر كيف حمل ؟ القاهرة وما حولها صحراء لا أحجار فيها،

وهذه الأهرامات جلبت أحجارها من مكانٍ بعيد، من جنوب مصر، هذه كيف جلبت، وكيف بنيت ؟ هناك صور أو بقايا من الأهرامات، الأهرامات كانت مغطاة بطبقة مزخرفة من الفسيفساء ذات الروعة والإبداع، فكيف بنيت الأهرام ؟ هناك بعض الأهرامات تدخلها الشمس في العام يوماً واحداً، هو يوم ميلاد فرعون، فهل ثقافة المهندسين هذه الأيام و خبرتهم تمكنهم من أن يصمموا نافذة بحجم وبأبعاد، وبميول تلك النوافذ الفرعونية، حيث إن أشعة الشمس تدخلها في العام كله في يومٍ واحد ؟

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

تحت الأرض مدن بأكملها، حضاراتٌ بأكملها، كل شيءٍ يخطر في بالك تحت الأرض، تجد في مقابر فرعون حاجاتهم، طعامهم إلى الآن مقدّد، قطع اللحم التي كانت قبل ستة آلاف عام إلى الآن موجودة في متاحف الفراعنة، خبزهم إلى الآن، أدواتهم الخاصة إلى الآن، ومراكبهم، فهم يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت ـ حياة مادية ـ لذلك هؤلاء الفراعنة يهيئون في القبر كل شيء لفرعون، فهؤلاء هم الفراعنة وتلك حضارتهم.

وكذلك الأنباط الذين حفروا الجبال، وأقاموا القصور في الجبال، والقاعة فيها تقترب من حجم هذا المسجد، مكعبٌ دقيقٌ دقيق منحوتٌ من الصخر، وزخارف وتيجان وأعمدة، كلها من الصخر، ليس هناك بناء، بل نقب في الصخر، الأنباط فعلوا شيئاً عظيماً، وهناك دراسات تؤكِّد أن الأقوام السابقة لهم إنجازاتٌ مذهلة، لكن عفا عليها الزمان.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

5 ـ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

فهذه الإنجازات الضخمة لأنها للدنيا، لم تنفعهم شيئاً حينما جاءهم الموت، والإنسان حينما يأتيه ملك الموت، إما أن ينجح وإما أن يسقط، إنجازاتهم الضخمة كما قال الله عزّ وجل عنها:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

فالعمل إما أن يُقبَل، وما أن يرفض، إما أن ترقى به، وإما أن تهوي به، إما أن يسعدك إلى أبد الآبدين، وإما أن يكون سبب شقائك إلى أبد الآبدين.

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82)فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)

فَلَمّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

هذه الآية وقف عندها المفسرون وقالوا: فيها ثلاثة أوجه.

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)

المعنى الأول:

أن الرسل حينما جاءت بالمعجزات الدالة على رسالتهم، هم اعتدُّوا بعلمهم، يقولون لك: هذا علم مادي، طبعاً، وهناك علم ديني، فالعلمانيون يعتدون بعلمهم المادي، يقول لك أحدهم: أنا رجل علم، خير إن شاء الله، كأن رجل الدين إنسان غير عالم، فهذا الذي يعرف الله عزّ وجل، ويعرف قوانينه، ويعرف كتابه، هذا من أعلى رجال العلم، فهؤلاء الكفار حينما جاءتهم رسلهم بالبَيّنات، بالأدلة الواضحة، بالكتب المنزّلة، بالمعجزات فرحوا بما عندهم من علم، أي أنهم اكتفوا بعلمهم المادي كما قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

فالإنسان أحياناً إذا جاءه علمٌ ديني، وكان على علمٍ مادي، يعتد بعلمه، ويفتخر به، ويستغني عن علم الآخرين، هذا العلم المادي يعينك على كسب رزقك ليس غير، فإذا جاء الموت تبيّن لك أنك كنت مفتقرًا لمعرفة الله وعبادته، وهذه ملاحظة نجدها واضحة عند من تفوقوا في العلم المادي، يستغنون بعلمهم عن معرفة الله، يستغنون بشهاداتهم العالية، وألقابهم العلمية، وإنجازاتهم في التأليف وفي حقول العلم المادي، عن معرفة الله، وعن معرفة كتابه، وعن معرفة ما ينتظرهم من عقابٍ أو من إكرامٍ، لكنهم لو أطاعوا الله عزّ وجل، وعبدوه مع ما حصلوه من علم مادي لحازوا قصب السبق، لكنهم:

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)

إذًا علمهم المادي الذي لا يتصل بسبب مع أُخْرَاهم، هذا العلم أرداهم، وكان سبب شقائهم هذا، هو المعنى الأول للآية.

المعنى الثاني:

أما المعنى الثاني، فهو أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات، مَن الذين فرحوا ؟ هم الرُسُل، فرحوا بما عندهم من العلم، والله عزّ وجل طمأنهم، وقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

المعنى الثالث:

وكذلك للآية معنى ثالث: المؤمن حينما يعلم أن الله قد بشّره بالجنة، وبشره بالحفظ، وبشّره بالنجاة من كل مصيبة، فإذا جاء البلاء العام هو يعلم أن الله قد بشّره بالنجاة، يفرح بهذه البشارة من الله عزّ وجل.

(فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ)

فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ

1 ـ الإنسان الشارد عند الشدائد والمصائب يرجع إلى الله:

الإنسان يعتمد على زيد أو عُبيد، وعلى فلان أو علان، فإذا جاء بأس الله عزّ وجل يقول: يا رب، ليس لي غيرك، فأين كانت الجماعات التي كنت تعتقد بهم، تعتقد أنهم يخلصونك من كل ورطةٍ ؟ فهذا من شأن الإنسان التائه الزائغ، متى يوحِّد ؟ عند المصيبة، لكن البطولة أن توحِّد وأنت في الرخاء، لكنه كان في الرخاء يقول: فلان وعلان، وزيد وعُبيد، وفلان نفعني، وفلان ضرّني، ولولا الطبيب الفلاني لما كان ابني نجا من هذا المرض الخطير، ولولا هذا المحامي اللامع لخسرت القضية، ولولا هذا الغذاء لفقدت صحتي، وهو في الرخاء يعزو كل شيء لغير الله، فإذا جاء بأس الله عزّ وجل قالوا:

(آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

لكن هذا التوحيد بعد فوات الأوان لا قيمة له عند الله عزّ وجل.

أيها الإخوة، مرةً ثانية وثالثة ورابعة: الإيمان له وقتٌ مناسب، أما إذا كان في الوقت غير المناسب فلا ينفع، والدليل:

(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا)

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا

ما دمت في بحبوحة من صحتك، ما دمت في بحبوحةٍ من عمرك، ما دمت في بحبوحةٍ من شبابك، فهذا وقت الإيمان، أما على فراش الموت، حين اقتراب الأجل، أو عند نزول المصيبة، فهذا الإيمان الذي يتفجر في الوقت غير المناسب، بعد فوات الأوان لا ينفع أبداً، بل بالعكس يكون حسرة، قال تعالى:

(كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ)

(سورة البقرة)

مرة ثانية وثالثة ورابعة: لا بد للكافر من أن يؤمن، لكن بعد فوات الأوان، وإيمان فرعون أكبر دليل وأوضحه، لكنك مطالب بالإيمان قبل فوات الأوان، فتؤمن وأنت صحيح شحيح، أن تؤمن وأنت شاب، أن تؤمن وأنت في مقتبل الحياة، أن تؤمن وكلك أملٌ بالحياة هذا الإيمان الذي ينفع، فالإيمان إذا كان في مقتبل الحياة تحركت من خلاله، واخترت بيتك وأهلك وعملك، وعلاقاتك وأصحابك وأصدقاءك على نور الإيمان وتوجيهه، فالإيمان ماذا ينفع ؟ ينفع في اتخاذ القرار، لكن إذا الإنسان آمن بعد فوات الأوان، كان الإيمان حسرة، وهؤلاء الأقوام آمنوا، لكن متى آمنوا ؟ لما رأوا بأسنا.

اللحظة الصعبة:

أُلِف كتاب اسمه **" الحياة بعد الحياة "**، كتاب نادر، طبيب وجد مريضًا غاب عن الوعي في دقائق معدودة، ثم عادت له الحياة، فلما سأله: ماذا حصل لك ؟ أخبره بأشياء غريبة جداً، فأعماله كلها عرضت عليه منذ أن ولد وحتى تلك اللحظة بلمح البصر، شعر أنه ارتفع عن جسمه، وأصبح يراقب جسمه من علٍ، فهذا الطبيب خطر في باله أن يتقصى الحالات المماثلة في بقية المدن والمستشفيات، فجمع حوالي سبعين أو ثمانين حالة، وسأل هؤلاء الذين ماتوا لوقتٍ قصير، ثم ردت لهم الحياة ـ حالات نادرة ـ فجاء بتقارير من هؤلاء السبعين، ودرسها دراسة مستفيضة، فكان العجب العجاب أن كل هذه التقارير رأى فيها خمسة عشر قاسماً مشتركاً.

هؤلاء الذين فارقوا الحياة لفترةٍ محدودة لا تزيد على دقيقتين أو ثلاث، مشاعرهم، أحوالهم، تصوراتهم، حركات أجسامهم، ارتفاعهم عن أجسادهم، استعراض أعمالهم السابقة كلِها، هذا كله اشتركوا في الحديث عنه، مع أنهم لم يلتقي بعضهم مع بعض، فهم من أماكن متباعدة، من مدن متعددة، من دول متباعدة، فاستنبط هذا الكاتب أن كل إنسانٍ حينما يأتيه مَلَكُ الموت يشعر بأن عمله أصبح محكاً لمحاسبته. وكل إنسان إذا شارف على خطر معين يستعرض حياته كلها، دقيقة دقيقة تمر أمامه كشريطٍ بلمح البصر، فهؤلاء.

(فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

وقد حَدّثني شاب، والده اعتنق الفكر الإلحادي وكان مهندسًا، قال: كان طوال حياته يدعو للفكر الإلحادي ويروّج له، جاءته أزمة قلبية فوضع على النقالة، وأدخل غرفة العناية المشددة، ثم أفاق من أزمته فقال له: يا بني كل شيءٍ سمعته مني هو باطلٌ، والدين هو الحق، قالها مرةً واحدة وهو داخلٌ للعناية المشددة وفارق الحياة بعدها.

(فَلَمّا َأوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ)

إنسان أمضى حياته في إدارة دور للقمار، وجمّع ثروات طائلة، حينما كان على فراش الموت شعر بالخطورة، وزاره شخص من أهل العلم، بناءً على طلبه، وقال له: ماذا أفعل ؟ قال له: والله لو أنفقت كل هذه الأموال وهي تزيد على ثمانمائة مليون لا تنجو من عذاب الله، فليحذر الإنسان أن يصل مع الله إلى طريق مسدود.

(فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ)

كان شخص من أرقى أنواع التجّار، أوتي قدرةً في البيع والشراء يحسده عليها كل الناس، وغنى، وسيارات، وبيوت، ومصايف، عمره ثمانية وثلاثون عاماً، داهمه مرضٌ خبيث، فكلما تذكّر هذا المرض كان يهذي ويقول: لا أحب أن أموت، فلما جاء ملك الموت ذكر لي أحدهم وقال: واللهِ صرخ صرخةً ما بقي إنسان في البناء كله وهو مؤلف من أربعة طوابق إلا وسمعها.

(فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا)

ساعة الموت قادمة ولا بد منها، وعندها يدرك الإنسان أنه خسر كل شيء، إنّ الإنسان إذا خسر صفقة تجارية يقول لك: السارة مؤلمة جداً، ويظل يتندم سنوات ويتحسر، احترق قلبي على هذه الصفقة، اشتغلت فيها سنتين ما ربحت منها شيئًا، فكيف إذا الإنسان خسر حياته الأبدية ؟ قال:

(فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ(84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا)

ولات ساعة مندم:

فإذا ارتكب أحد جريمة قتل، وحوكم، وحكم عليه بالإعدام، وصدق الحكم، وسيق لتنفيذ الحكم، فإذا أخذ يبكي أمام من حوله، فهل بكاؤه ينفعه ؟ لو أراد ألاّ يرجوهم أن لا يعدموه، أينفعه رجاؤه إياهم ؟ إن بكى، وإن ضحك، إن عبث، وإن توسّل، وإن التمس، وإن رفض، وإن مدح، وإن ذمّ، فكل ذلك لا ينفعه فلا بد من تنفيذ الحكم، هذا هو الطريق المسدود.

فنحن كلنا الآن في بحبوحة، بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تتلخص من هذه العلاقة المشبوهة، بإمكانك أن تلغي هذه الصفقة التي لا ترضي الله عزّ وجل، بإمكانك أن ترفض هذا العمل الذي لا يرضي الله عزّ وجل، بإمكانك أن تقيم الإسلام في بيتك في عملك، بإمكانك أن تعود إلى الحق.

(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنّةَ اللّهِ الّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ

فلذلك كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز: **" الليل والنهار يعملان فيك "**، كل واحد عنده صورة فوتوغرافية لنفسه قبل عشرين سنة، قبل ثلاثين سنة، يكون مثل الوردة، الآن أخاديد، وحفر بوجهه، ضع هذه الصورة القديمة مع الصورة الحديثة، فماذا تستنبط ؟ هذا فعل الزمن، الليل والنهار يعملان فيك قال: **" فاعمل فيهما "**، تدارك نفسك، ما دام الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، كيف ؟ البطولة أولاً أن نعرف الله عزّ وجل، وأن نعرفه في الوقت المناسب، وأن نعرفه في العمر المناسب، وأن نستفيد من هذه المعرفة استقامة على أمره، وأن تعمل عملاً صالحاً تقرُّباً إليه، ثم دعوةً إليه.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

خاتمة:

هذا جبلة بن الأيهم ملك غسّاني، جاء سيدنا عمر مسلماً، أسلم وهو يطوف حول الكعبة داس بدوي على إزاره، فضربه على أنفه ضربةً هَشّمت أنفه، فرفع الأعرابي الأمر إلى سيدنا عمر الخليفة، فقال لجبلة:

أرض الفتى ولا بد من إرضائه، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه، أو ليهشِّمَن الآن أنفك.

قال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين هو سوقة، وأنا عرشٌ وتاج، كيف ترضى أن يسقط النجم أرضًا.

قال له: نزوات الجاهلية ورياح العنصرية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً.

قال: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتدٌ إذا أكرهتني.

قال: عنق المرتد بالسيف تحز، عالمٌ مبني كل صدع فيه بشذا السيف يداوى، الخ...

فلما أيقن أنه لا بد من أن يقتصّ منه ولى هارباً شطر الشمال، والتحق بقومه الغساسنة، وشرب الخمر، وعاش حياةً لاهيةً عابثة، لكنّي عثرتُ قبل فترة على أبياتٍ قالها وهو يفارق الحياة، لو سمعتم هذه الأبيات لشعرتم أن قلبه يُعْتَصَر من شدة الندم، هل تحبون أن تعرفوا مَن هو العاقل ؟ هو الذي يفعل فعلاً لا يندم عند الموت، عند الموت هناك ندمٌ شديد.

ماذا قال أحد الصحابة ؟ قال: **<< والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي >>**، أي أنه منطلقٌ بأعلى سرعة، لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي.

وقال سيدنا علي: **<< والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >>**.

أيْ أنّ أصحاب النبي بلغوا من يقينهم أنه لو كشف الغطاء، أنّ يقينهم قبل كشف الغطاء كيقينهم بعد كشف الغطاء، وأنه لو علم أحدهم أن غداً أجله ما قدر أن يزيد في عمله، فالإنسان هذه الساعة التي لا بد منها ساعة الفراق، يجب أن تكون ماثلة أمامه دائماً، ومستعداً للقاء الله عزّ وجل، وللإجابة عن كل أعماله التي فعلها في الدنيا.

فلذلك الإيمان على فراش الموت لا ينفع، فلما كان على قيد الحياة حرم البنات حقّهُنّ، وأعطى البنين العطاء الجزيل، غيّر في الميراث، وكتب سندات دَيْن خلّبية كلها، حتى جعل الثروة بأيدٍ قليلة، هذا كله متى يندم عليه ؟ وهو على فراش الموت.

في بعض البلاد الإسلامية عالِمٌ أفتى ببعض الفتاوى التي لا ترضي الله عزّ وجل، قال لي أحد علماء دمشق: حضرت نزعه الأخير، وهو على فراش الموت رفع يديه الاثنتين، وقال: **" إنني أشهدكم أنني بريءٌ من كل الفتاوى التي أفتيت بها من قبل "**، طبعاً أدرك الخطورة.

فنحن نريد أن نستعد لهذه الساعة، ساعة لقاء الله عزّ وجل، لذلك كل واحد منا عليه قبل أن يقول أيّة كلمةٍ، قبل أن يأخذ أيّ مبلغ، قبل أن يقطع قبل أن يمنع، قبل أن يُعطي قبل أن لا يُعطي، قبل أن يغضب قبل أن يرضى، قبل أن يصل قبل أن يقطع، قبل أن يقف أي موقف لنفسه هل عندي جوابٌ لله عزّ وجل؟ أعندك جواب لله ؟ إذا لم تجد جوابًا فكما قال عليه الصلاة والسلام:

((إذَا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ))

[البخاري]

من معاني هذا الحديث: إذا عرضت هذا الأمر على نفسك، وأنت بين يدي الله، ووجدت أنك محقٌ في هذا العمل، وهذا العمل لا تستحي به، إذاً افعله، ولا تخشَ كلام الناس، إذا لم تستح من الله بهذا العمل افعله، ولا تخشَ أحداً، وعلامة المؤمن أنه لا يخشى إلا الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (01-11): تفسير الآيتان 1 - 2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-11-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الأول من سورة فصِّلت، ومع الآية الأولى:

(حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنَاً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)

معاني الحروف المقطّعة:

أيها الإخوة، ذكرت من قبل في هذه الحروف التي تُفتتح بها بعض السور أقوال العلماء.

المعنى الأول:

فمن أقوالهم الشائعة: الله أعلم بمراده.

المعنى الثاني:

ومن أقوالهم أيضاً: إن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الكلام المعجز كلام الله عزّ وجل، إنما حروفه من هذه الحروف، والحروف بين أيديكم ؟ لذلك ربنا سبحانه وتعالى جعل إعجازه دليلاً على أنه كلام الله عزّ وجل، فكل من يزعُم أنه ليس كلام الله فليأت بسورةٍ من مثله..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24))

(سورة البقرة)

المعنى الثالث:

والمعنى الثالث: أن هذه الحروف إشاراتٌ إلى أسماء الله الحسنى.

المعنى الرابع:

وبعضهم قال: هذه الحروف إشاراتٌ إلى أسماء النبي عليه الصلاة والسلام.

لا أحد يحيط بكلام الله فهمًا كاملاً من غير نقص:

والقرآن كما يقال: حمّال أوجه، ولا يستطيع أحدٌ أن يزعم أن هذه الآية هذا معناها على سبيل الحق، كل إنسان يُدلي بدلوه في الآيات المتشابهات، بينما الآيات المُحكمات لا يختلف فيها اثنان، ومن فضل الله عزّ وجل أن الآيات المتعلِّقة بأصول العقيدة، وأن الآيات المتعلِّقة بأصول التكاليف هذه آياتٌ محكمات لا يختلف فيها اثنان، بينما الآيات الأخرى المتشابهات، وهناك حكمٌ بالغة من كونها

متشابهات، أولاً هي حافز يحفز المؤمنين إلى البحث عن معناها، وثانياً: إذا كانت هذه الآيات المتشابهات تحتمل معاني كثيرة، فالله سبحانه وتعالى أراد كل هذه المعاني توسعةً على خلقه، ورحمةً بهم، ومن هنا قال بعضهم: اتفاق العلماء حجّةٌ قاطعة، واختلافهم رحمةٌ واسعة، وما كان لهم أن يختلفوا لو أن كل آيات القرآن الكريم قطعيّة الدلالة، الآيات المتعلِّقة بأصل العقيدة قطعيّة الدلالة لا خلاف فيها، فالآيات المتعلِّقة بالتكاليف التي سوف نحاسب عليها يوم القيامة قطعيّة الدلالة، ولكن بعض الآيات في القرآن الكريم سمّاها متشابهات، أي أنها تشبه الحق من جهة، وتشبه الباطل من جهة، ومن خلال هذه الآيات المتشابهات يُمْتَحن المؤمن، ومن خلال هذه الآيات المتشابهات ينطلق المؤمن ليفهم معناها، ولعلّ في هذا أسلوباً تربوياً حينما يجد الإنسان أنه مضطرٌ أن يفهم هذه الآية، فيَكِدُ ذهنه، والشيء السهل يبدو قليل الأهميّة، لكن الشيء الذي يتحدّى فكر الإنسان وعلمه يبدو عظيم الأهميّة، هناك حكمٌ تربويّةٌ، وغاياتٌ مديدةٌ لا يعلمها إلا الله من وجود بعض الآيات المتشابهة التي اشتبه معناها على كثيرٍ من الناس.

فالذين قالوا: الله أعلم بمراده ما أخطئوا الحقيقة، لأنه يستحيل على المخلوق المحدود أن يحيط بالخالق، وهذا من كلامه، مهما اجتهدنا في فهم كتاب الله يبق فهمنا نسبيّاً، بل إن أعلى فهمٍ لكتاب الله هو فهم النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فالنبي ما أحاط بكتاب الله، لأنه لا يعلم مضمون كلام الله على سبيل الحصر إلا الله، لكن المؤمن يجتهد.

فالذين قالوا: الله أعلم بمراده ما أخطئوا الحقيقة، لأنه يستحيل على المخلوق الحادث أن يحيط بكلام الله عزّ وجل.

والذين قالوا: إن القرآن الكريم المُعجِز صيغت آياته من هذه الحروف التي بين أيديكم، فكيف أن التراب حينما نَفَخَ الله فيه صار إنساناً يتكلّم، ويتحرّك، ويفكِّر، ويرى، ويسمع، وينطق، ويأكل، ويشرب، وهذا الإنسان بخلقه المُعجز أساسه ترابٌ نُفِخَ فيه، والمادّة الأوليّة بين أيدينا ندوس عليها..

خفّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجسادِ

* * *

ومع ذلك فخلق الحياة في الخليّة شيءٌ فوق طاقة البشر، ومكوّنات الحليب الذي تصنعه يد القدرة الإلهيّة من خلال البقرة بين أيدينا، هل يستطيع العلم مهما تقدّم أن يصنع هذا السائل المُغذي من مكوّناته الأساسيّة ؟ ومكوّنات البيضة التي تصنعها يد القدرة الإلهيّة من خلال الدجاجة بين أيدينا، فهل نستطيع أن نصنع هذه البيضة ؟ وهذه من أبسط الأمثلة، فالمكوّنات شاءت حكمة الله أن يجعلها بين أيدينا، ولكن خالق الحياة هو الله عزّ وجل، الذي يخلق الخلية الحيّة، والذي خلق هذه الخليّة لتنمو وتتكاثر، ثم كل قسمٍ منها يأخذ اتجاهاً حتى يكون نواةً لجهازٍ دقيقٍ في الإنسان، وهذا من فعل الله عزّ وجل.

فكما أن التُراب بين أيدينا، وخلق الإنسان من إعجاز الله، شيء يثبت عظمة الله عزّ وجل، كذلك هذا القرآن الحروف بين أيدينا..

(حم (1))

لا تصادم بين العقل السليم والنص الصحيح:

ولكن أن نصوغ كتاباً فيه إعجازٌ تشريعي، وفيه إعجازٌ إخباري، وعلمي، وفيه إعجازٌ تربوي، فهذا الكتاب لم تظهر حقيقةٌ علميّة تصادمت معه، لأن خالق الكون هو الله، ومنزل هذا الكتاب هو الله، لذلك استنبط العلماء أنه لا يمكن أن يتصادم العقل الصحيح الصريح مع النقل الصحيح، فالنقل من عند الله، والعقل جهازٌ عظيمٌ أودعه الله فينا، أما إذا بدا لكم بعض التصادم بين العقل والنقل، أي بين النصّ والفكر فهذا التصادم لسببٍ أو لآخر، أحد هذه الأسباب أن النقل غير صحيح، النقل غير الصحيح قد يتصادم مع العقل الصريح، أو أن النقل الصحيح يتصادم مع العقل غير الصريح، فالعقل حينما يغلو، أو حينما يزوّر، أو حينما يشتط قد يتصادم مع النقل الصحيح، أما نقلٌ صحيح يصطدم مع العقل الصريح فهذا من سابع المستحيلات، لأن المصدر واحد.

وكنت أقول دائماً: إن الحق دائرة يخطُّها أربعة خطوط ـ أو يمر بها أربعة خطوط ـ خط العقل، وخط النقل، وخط الفطرة، وخط الواقع، فالحق الذي يجب أن تعتقده يجب أن يتطابق مع الفطرة تطابقاً تاماً، ومع الواقع، والعقل، والنقل، اجتهد أن ترى الدليل العقلي مع الدليل الواقعي مع الدليل النقلي مع الدليل النفسي، فإذا تطابقت هذه الأدلّة الأربعة كان هو الحق، والحق من حقّ الشيءُ أي ثبت واستقر. فالمسلم يعيش نعمة لا يعرفها إلا مَن فقدها، ما هذه النعمة التي يعيشها ؟ أنه متمسِّك بمبادئ ثابتة، مُضِيُّ الأيام والليالي، ومضي القرون لا يهزُّها أبداً، بينما الذين تمسّكوا بمبادئ وضعيّة من وضع البشر حينما فُوجئوا بعد سبعين عاماً أنها لم تكن صحيحة، وأنها سرابٌ في سراب، وأنها تداعت كما تتداعى بيوت العنكبوت، هذه مفاجأةٌ ؛ وما من مفاجأةٍ أشد على النفس من هذه المفاجأة، أن المبدأ الذي أمضيت كل حياتك في خدمته والدعوة إليه كان مبدأً موهوماً غير صحيح، نعمة أن المؤمن عقيدته متعلِقةٌ بالثوابت، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة إبراهيم: من الآية 27)

وثوابت المؤمن مستنبطةٌ من كلام الله، والله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن، وهو الحقيقة الأولى، والتي لا حقيقة غيرها، هذا على معنى:

(حم (1))

فإما أن تقول: الله أعلم بمراده.

وإما أن تقول: إن القرآن الكريم المُعجز بنظمه، المعجز بتشريعه، والمعجز بحقائقه العلميّة مصاغٌ من هذه الحروف وهي بين أيدينا.

والمعنى الثالث: لعلّها أسماء النبي عليه الصلاة والسلام يا حامد ويا محمود.

ولعلّها أسماء الله الحسنى إشارةٌ إليها على طريقة الترميز، وعلى كلٍ فالقرآن حمّال أوجه، وكل إنسانٍ له أن يجتهد مع الضوابط ـ ضوابط اللغة، وضوابط علم العقيدة، ومقاصد الشريعة ـ في فهم كلام الله عزّ وجل من دون أن يكون لأحدٍ حق احتكار المعاني..

(تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 ـ اسم الله الأعظم:

فربنا عزّ وجل أسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها فضلى، لكن الاسم الأول الذي يلي اسم الله عزّ وجل، وكلمة الله علمٌ على الذات الكاملة، فأسماء الله حسنى كلُّها جُمِعَت في كلمة (الله)، فالله علمٌ على الذات الكاملة.

2 ـ الرحمن الرحيم:

الاسم الذي يلي اسم الله عزّ وجل هو الرحمن الرحيم.

والرحمن الرحيم هذا الاسم أيها الإخوة على شيءٍ من التفصيل الرحمن في ذاته الرحيم في أفعاله، فذاته رحيمة وأفعاله رحيمة، وربنا عزّ وجل قال: هذا القرآن..

(تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الله خلَق الخلْقَ ليرحمهم:

فالله عزّ وجل خلق الخلق ليرحمهم.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العبادة تبدأ بمعرفة الله، ويتوسّطها طاعة الله، وتنتهي برحمة الله، رحمة الله إلى أبد الآبدين، وكل من يتوهّم أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعذّبهم، وقد يأتي بشواهد مفتعلة من فقر بعض الشعوب، من الزلازل، والفيضانات، والبراكين، والحروب الأهليّة، كل من يتوهّم أن الخلق مخلوقون للعذاب فهذا افتراءٌ على الله، وهذا قريبٌ من الكفر، لأن الذي يقول على الله ما لا يعلم يرتكب معصيةً هي من أشد المعاصي، وربنا عزّ وجل وضعها في بعض الآيات، وجعلها من أعظم المعاصي ؛ أن تقول على الله ما لا تعلم، أن تظنّ بالله غير الحق ظنّ الجاهليّة، أن تطعن برحمة الله، أو بحكمته، أو بعدالته.

ما يجري في الكون هو من مقتضى الحكمة:

فكمال الخلق يدل على كمال التصرُّف، وإذا ذهبت لتعرف الله من خلال خلقه فالطريق آمنٌ وسالك، أما إذا بدأت بمعرفة الله من خلال أفعاله فلن تستطيع إثبات عدالة الله، ولا إدراك حكمته إلا إذا كان لك علمٌ كعلم الله، وهذا مستحيل، لذلك ينبغي أن تستسلم في أفعاله.

قد يسأل سائل: ما حكمة ما يجري في العالم اليوم ؟ وقد يسأل سائل أيضا: لماذا يبدو أن الله تخلّى عن المسلمين ؟ هناك أسئلة كثيرة جداً.

إذا ذهبت لتعرف الله بدءاً من أفعاله فهذا الطريق غير آمن وغير سالك، لأنك لا تستطيع أن تدرك حكمة الله، ولا أن تدرك عدالته إلا أن يكون لك علمٌ كعلمه، لكن يكفي أن الشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه قد أخبرك الله سبحانه وتعالى به، قال تعالى:

(وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

قال تعالى:

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

(مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(13))

(سورة فاطر)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من الآية 40)

هذا كلامه، فإن لم تصدّق كلامه فالمشكلة في ضعف الإيمان، عُد إلى إيمانك وجدّده، فإذا وجدت شكًا في كلامه فالقضيّة يجب أن تعود إلى الأصول.

هذا الكون بسماواته وأرضه يدل على خالقٍ عظيم، وعلى مُرَبٍّ حكيم، وعلى مسيّرٍ حكيم أيضاً، وعلى الله الموجود الكامل الواحد، وعلى أسماء الله الحسنى، وهذا القرآن كلامه، وقد أخبرك فيه أنه لا يظلم أحداً..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

فهذا الأعرابي الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: " عظني ولا تطل " فتلا عليه قول الله عزّ وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

قال الأعرابيُّ: " قد كُفيت "، هذه الآية تكفيني.

الصادق تكفيه آية:

ويا أيها الإخوة، بالمناسبة الصادق تكفيه آيةٌ واحدة، آيةٌ واحدة تكفيه طوال العمر..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

فآية:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

تكفي وآية:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

أمرك كلّه بيده.

آية:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذه تكفي وآية:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

تكفي وآية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

تكفي وآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

هذه الآية تكفي، آمن واعمل صالحاً والحياة الطيّبة تنتظرك.

آية:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

تكفي وآية:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

آية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

آية:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ)

(سورة هود: من آية " 88 ")

كل آية من هذه الآيات جامعةٌ مانعةٌ، كافيةٌ قاطعة، فالصادق لا يحتاج إلى مزيدٍ من التفاصيل، بل تكفيه آية، أما الذي لا يريد الحقيقة ولو حشرت له كل شيء، ولو رأى الملائكة، ولو فُتِحَت له أبواب السماء، ولو عرج في السماء، ولو عاد الموتى وكلّموه فلا يستفيد.

الصادق يتمسك بالحق:

لقد شبّهت إنسانا بلا بيت، أُخرج من بيته، فزوجته عند أهلها، وهو عند أهله، وأولاده بين بَين، ومدارسهم في حي، وبيت أهل زوجته في حي، وقد مُزّقت نفسه، وزوجته أُحبط عملها، والأولاد مشرّدون، وهو هائمٌ على وجهه، فالتقى برجل، وقال له: أتريد بيتاً ؟ كيف حال هذا الإنسان الشارد الضائع، الهائم على وجهه ؟ يتمسّك به، يقبّله، ويقول: نعم أريد بيتاً.

هذا هو الصادق في معرفة الله عزّ وجل، الذي يريد الله عزّ وجل فإنه يتمسّك بأهل الحق، وبمجالس العلم، ويتمسك بالقرآن الكريم، وبهذه السُنّة، والذي كان مضطراً للبيت، وقال له رجل كلمة واحدة: أتريد بيتاً ؟ تمسّك به، وأكرمه، وسأله عن كل حاجاته كي يصل إلى هدفه، أما الذي لا يريد البيت فلا يصغي إليه، ولذلك قال أحدهم: لم أجد أشدّ صمماً من الذي يريد أن لا يسمع، فهذا لو وضعت في أذنه مكبّر صوت، وتلوت عليه الحقّ الصُراح لا يستجيب، لأنه في وادٍ، وكلامك في وادٍ، فالقضيّة قضية صدق، والجنّة لمن صدق لا لمن سبق.

ولذلك فهذا القرآن الكريم ستمائة صفحة، فيه آيات كونيّة، وآيات تشريعيّة، وإخباريّة، وفيه وعد، و وعيد، وبيان الحلال والحرام، فيه مَشاهد من يوم القيامة مؤثّرة جداً، ومشاهد من أهل الجنّة وهم يتنعّمون، ومشاهد من أهل النار وهم يتصايحون، فيه كل شيء هذا الكتاب، وهو بين أيدينا وميسّر، مطبوع بطبعات عديدة، وبحجوم متفاوتة، وبمقاييس، ومطبوع طبعات موحّدة، ومطبوع طبعات مجزّأة، ويمكن أن تسمعه في أشرطة، وأن تسمع تفسيره، المساجد مفتوحة لكل الناس من دون قيد أو شرط، ومع ذلك أنّى يؤفكون ؟ أنّى ينصرفون ؟ والمؤمن هذا الكتاب بين يديه، فهنيئاً لمن عرف الله في حياته.

لابد من الإيمان في الوقت المناسب:

مشكلتنا أيها الإخوة مشكلة وقت فقط، كل الذي لم يؤمن في حياته لابدّ من أن يؤمن عند موته، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، وإيمانه جاء متأخِّراً، وجاء بعد فوات الأوان، فكل طالب قدّم امتحان ولم ينجح، حينما يخرج من قاعة الامتحان يفتح الكتاب المقرّر، ويقرأ الجواب الصحيح الذي كان ينبغي أن يكتبه، ولكن متى عرف الجواب ؟ بعد أن سلّم الورقة بيضاء، وبعد فوات الأوان، فمعرفة الجواب لابدّ منها، إما أن تعرفه قبل دخول الامتحان، وإما أن تعرفه بعد الامتحان، وبعد الامتحان لا قيمة له.

مشكلتنا أنه لابدّ من أن نؤمن، ولكن متى ؟ حين لا ينفع الإيمان، فالبطولة أن تؤمن الآن وأنت صحيح، ومعافى، وغني، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[الترمذي عن عمرو بن ميمون]

وهذه نصيحة مرّةً ثانية، إخواننا الشباب إذا آمنوا في سِنِّهم المبكِّرة شكّلوا حياتهم تشكيلاً إسلامياً، فسعدوا بها إلى آخر حياتهم، سيختارون زوجة صالحة، سيؤسِّسون بيتًا إسلاميًا، سوف يختارون عملاً يرضي الله، والعمل الذي يرتزقون منه سيختارونه وفق مرضاة الله، ويسعدون بأعمالهم وأزواجهم، أما إذا عرف الإنسان ربّه في سنٍ متأخِّرة فربما شكّل حياته تشكيلاً غير إسلامي، بعد أن عرف الله يشقى

شقاءين، يشقى على ما مضى، ويشقى وقد عرف الله وهذا حاله الذي لا يرضي الله، ولا يستطيع الفكاك منه.

إذاً:

(تَنْزِيلٌ)

المصيبة من رحمة الله لأنها توقظ الغافل:

هذا الكتاب من الرحمن الرحيم، الرحمن في ذاته، الرحيم في خلقه، قد يسأل أحدكم هذا السؤال: فما بال هذه المصائب ؟ لا أستطيع أن أُفسّر هذه المصائب التي تقع في بقاع العالم إلا على الشكل التالي: حينما صُنعت هذه السيارة إنما صُنعت لتسير، وفيها مكابح، والمكابح من شأنها أن توقفها، وكأن المكابح تتناقض مع الهدف من صنعها !! الجواب: أن المكابح ضروريّة لسلامتها.

حينما يغفل الإنسان، حينما يحيد عن سواء السبيل، وتطغيه شهواته، ويضلُّ عقله، وتغريه الدنيا، وتخدعه الدنيا، ويركن إلى الملذّات الرخيصة، لو أن الله تركه على حاله لمات على الكفر، ولاستحقّ جهنّم إلى أبد الآبدين، فرحمة الله به أن توقظه من غفلته، من سُباته، ومن انحرافه، وهذا الإيقاظ يتم عن طريق المصائب، فإما أن تأتي إلى الله عزّ وجل مشتاقاً، وإما أن الله سبحانه وتعالى يجلبك إليه بأساليب عديدة بطريقةٍ أو بأخرى، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عجب ربُّكم من قومٍ يساقون إلى الجنّة بالسلاسل))

[البخاري عن أبي هريرة]

فإما أن تأتيه طائعاً، وإن لم تأته طائعاً فربّما جئته مكرهاً بسلاسل الامتحان، التي تحمده عليها يوم القيامة.

لا أيها الإنسان إنما خُلِقتَ للرحمة:

وكلمة رحمن رحيم تعني أنك خُلِقت ليرحمك، وتوجد آية تؤكِّد هذه الآية:

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

خلقهم ليرحمهم، وخلقهم ليسعدهم، وخلقهم ليعطيهم..

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،

فسَألُونِي، فَأعْطَيْتُ كُلّ إنْسَانٍ مَسْألَتَهُ مَا نَقص ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إنّمَا هِيَ أعْمَالُكُمْ أحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أوَفِّيكُمْ إيّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

كلامٌ دقيقٌ واضح.

وكنت أقول أيها الإخوة دائماً، إن الإنسان إذا أفرط في حب ذاته عليه أن يطيع الله، ولأنك لن تنجو من عذاب الله إلا بطاعته، ولن تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة إلا بالاستقامة على أمره، لن تنجو من المفاجآت غير المتوقّعة إلا أن تكون معه، فإن كنت معه كان معك، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم إني أعوذ بك من تحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك))

[مسلم عن ابن عمر]

وقد تجد الأمور تدهورت، وتفجّرت، ويفقد الإنسان عمله أحياناً، يصاب بجسده، ويصاب ببيته أحياناً، فيستعيذ النبي عليه الصلاة والسلام من فجأة نقمته، ومن تحوّل عافيته، ومن جميع سخطه، فحتى ننجوَ من عذاب الله لابدّ من طاعته، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أدعيته:

((لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك))

[متفق عليه عن البراء]

والصلحة بلمحة، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طمّاعة عوّدها القناعة، والعودة إلى الله عزّ وجل مسعدةٌ جداً، ولا يعرف طعم التوبة إلى الله إلا من تاب إليه، ولا يعرف طعم الإقبال عليه إلا من أقبل عليه، لا يعرف طعم السكينة إلا من خضع لأمره، واصطلح معه، وملأ قلبه حباً له.

نِعَمَ اللهِ لا تُعدّ ولاتُحصَى:

وكلمة الرحيم تعني أن أفعاله كلها رحيمة، بدءاً من الظواهر الماديّة، فهذا الهواء الذي نتنفسه متوازن، فأنت تطرح غاز الفحم، والنبات يأخذه غاز الفحم، ويطرح لك الأوكسجين، فهذا الهواء المتوازن، هذه من نعم الله العظمى، ولو قلّ الأوكسجين لضاق نفَس الإنسان، ففي الطائرات يضعون لك كمّامة تضُخ غاز الأوكسجين، حتى إذا ضاق تنفُسك تستعمل هذه الكمامة، معنى هذا أن تشعر بالراحة في أثناء التنفس، هذه من نِعم الله العظمى، أن تجد أمامك الماء العذب الفرات الزلال، هذه نعمةٌ ثانية، وأن تجد طعامك وشرابك، أن تأوي إلى بيتك، وأن تلتقي بأهلك، وأن تجد أولادك بينك يمرحون، هذه كلُّها نعمٌ أساسها العطاء.

و لدى المؤمن نعم الدنيا متصلةٌ بنعم الآخرة، فإن صحّ التعبير خطه البياني صاعداً صعوداً مستمرّاً ثابتاً، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط الذي في صعود مستمر، فأيّ نعيم الدنيا متصلٌ بنعيم الآخرة، وهذا إذا استقام على أمر الله، ولقول الله عزّ وجل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

الرحمة أحياناً تقتضي التضييق والشدّة:

ولكن الرحمن رحيمٌ في ذاته، وفعله مؤدّاه الرحمة، لكن قد يكون في ظاهره قسوة، فالطبيب الأب إن رأى في صحة ابنه خللاً ألا يمنعه من بعض الطعام ؟ إن استوجب عمليّة جراحيّة، وكان جرّاحاً ألا يُمْسك المبضع بيده ويفتح بطنه ؟ ولذلك لا يمكن أن تفسّر الأفعال التي يفعلها الله عزّ وجل إلا بهذا الاسم الرحمن الرحيم، رحمنٌ في ذاته رحيمٌ بخلقه، لكن الرحمة أحياناً تقتضي التضييق والشدّة.. **"،** **وأوحى ربُّك إلى الدنيا أن تكدّري، وتمرّري، وتضيّقي، وتشدّدي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ".**

وأحياناً سر نجاحك ضيقٌ أصابك، سر توبتك إلى الله شدةٌ تبعتك، يقولون: ما من شِدَّةٍ إلا بعدها شَدَّة إلى الله، وما من مِحْنَةٍ إلا بعدها مِنْحَة من الله عزّ وجل، فالشر المطلق لا وجود له في الكون، الشر المطلق يعني الشر المطلوب لذاته، وهذا لا وجود له في الكون إطلاقاً، لكن كل الشر الذي يبدو لنا فهو شرٌ هادف، هدفه إصلاح النفس، وحملها على طاعة الله عزّ وجل.

أوامر الله ونواهيه في القرآن من رحمته بالناس:

إذاً: هذا الكتاب إذا قرأناه رحمنا الله به، وإذا قرأناه وتدبّرنا آياته فالله سبحانه وتعالى يسعدنا به..

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

لأنها كلها مبادئ، تجد المسلم لا يعرف هذه النعم لأنها متوافرة، وحركته وفق منهج، وهذا حرام، وهذا حلال، وهذا يجوز، وهذا لا يجوز، فقراءة القرآن يجد فيه أمر الله له بغض البصر هذا يجعله عفيفاً، هذا يمنعه من منزلقات خطيرة، وأمر الله له بعدم أكل أموال الناس بالباطل، ليست هذه الأوامر قيداً تقيّد حرية الإنسان، بل هي ضمان لسلامته، وهناك رأي دقيق جداً: أنه لو كان ألف مليون مسلم، إذا أمرك الله عزّ وجل أن لا تأكل أموال الناس بالباطل، أمرك أنت، وأنت واحد، لكنّه أمر ألف مليون مسلم أن لا

يأكلوا مالك بالباطل، فهذا الأمر لصالحك، إذا أمرك أن تغضّ البصر عن امرأةٍ لا تحل لك، فقد أمر كل المؤمنين أن يغضوا بصرهم عن زوجتك.

فالإنسان حينما يقرأ القرآن، وحينما يستوعب أوامره ونواهيه، وحينما ينطلق إلى تطبيقه يشعر بعزّ الطاعة، ويشعر بسعادة ما بعدها سعادة، حياته نظيفة بالمعنى الدقيق، وليس عنده باطن وظاهر، فباطنه كظاهره، وظاهره كباطنه، واضحاً وضوح الشمس، فهذا من نِعَم الله في القرآن، لذلك والشيء الآخر:

((من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتّى يموت))

وما من مرحلة صعبة في الحياة كمرحلة أرذل العمر، قال تعالى:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة النحل: من الآية 70)

فهذه المرحلة صعبة جداً، وإذا تعلّم الإنسان القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت، فقارئ القرآن مضمونٌ له أن لا يخرف أبداً، وأن يعيش مستمتعاً بعقله طول حياته إلى أن ينتهي أجله.

أيها الإخوة الكرام... هذه الآية:

أفعال الله متعلقة بالحكمة المطلقة:

لا تبقي في النفس مرضاً، ولا تبقي في النفس يأساً، ولا ضيقاً من الرحمن الرحيم، فليس في الإمكان أبدع مما كان، " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني "، هذا قول الإمام الغزالي، أي كل شيءٍ وقع ما دام رحمنٌ رحيم، والفعل بيده لا بيد غيره، فإن كان من غيره كان هذا ليس فعله، ولكن ما دامت كل الأفعال له، وكل شيءٍ وقع إذاً أراده الله، أو أن كل شيءٍ أراده الله وقع، فمادام وقع أراده الله، معنى الإرادة هنا أنه سمح بوقوعه..

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة التغابن: من الآية 11)

وما دام وقع فقد أراده الله، فإرادة الله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، معنى الحكمة أن هذا الشيء الذي وقع لو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في حكمة الله، إذاً كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلّقةٌ بالحكمة المطلقة.

والإنسان أحياناً يفعل شيئاً ليس حكيماً، يقول لك: انضغطت، لم أستطع أو أغريت، إما بدافع الإغراء أو بدافع الضغط يرتكب عملاً غير حكيم، ويفعل عملاً غير حكيم، أو بدافع الجهل، إما أنه يجهل، أو ضُغِطَ عليه، أو أغري بشيء، فكان فعله غير حكيم، الأشياء الثلاثة الله جلّ جلاله منزّهٌ عنها، إذاً أفعاله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المطلق، وليس النسبي.

معنى المُطلق أن الخير المطلق ينتهي إلى الخير، فقد يَضُيِّق الأب على ابنه، بعد حين صار شخصيَّةً لامعة في المجتمع، فهذا النجاح الذي حقّقه الابن ما كان له أن يكون لولا ضغط أبيه عليه، في أثناء الضغط والضغط مزعج، وقد لا يبدو للابن أن هذا الضغط لصالحه، لكن بعد أن يصل به هذا الضغط إلى مكانةٍ رفيعةٍ في المجتمع يحمد أباه على ذلك، فلذلك هناك آية قرآنيّة دقيقة، يقول الله عز وجل يصف أهل الجنّة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر: من الآية 74)

أي نحن في الجنّة ننعُم بها، ولولا أننا كنا في الأرض، وقد عرفنا الله في الأرض، واستقمنا على أمره في الأرض، وفعلنا الخيرات لما وصلنا إلى الجنّة، فحينما يصل الإنسان إلى الدار الآخرة يُلَخِّص معاملة الله له في الدنيا كلِّها بكلمةٍ واحدة هي: الحمد لله رب العالمين..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

كيف لو كشِف لك الغطاء عن حقيقة المصيبة ؟!

وكنت أقول لأحد إخواننا الكرام وهو في محنة: والله الذي لا إله إلا هو لو كُشِف لك الغطاء يوم القيامة عن حكمة هذه المصيبة لذُبت كما تذوب الشمعة حباً بالله عزّ وجل، وهذا والله إيماني، ما من شيءٍ يقع مكروه لو كشف الله لك الحكمة لذابت نفسك حباً لله عزّ وجل، فكلّما ارتقى إيمان الإنسان يشكر الله عزّ وجل على كل شيء، وتجده مستسلمًا، راضيًا..

فليتك تحلو و الحياة مريرةٌ   وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ   و بيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ

***

والإنسان قد يفلِس، يحترق محله كله، إذا احترق محله وأفلس وحمله هذا على الصلاة، فالمصيبة موفية معه، وقد يصاب بمصيبة كبيرة جداً، وأنا أعرف رجلا شاردا على الله شرود البعير، بعيدًا عن الدين، مستهترًا، كثير السخرية بالأفكار الدينيّة، فوجئت أنه يلتزم التزامًا تامًا في بعض المساجد، فلمّا استوضحت الحقيقة منه قال لي: لي ابنة هي أغلى عليّ من نفسي، أُصيبت بمرضٍ عضال، وبذلت من أجلها كل شيء حتى بعت بيتي، وخطر لي مرّةً لعلّي إذا تُبت إلى الله أنا وزوجتي لعلّ الله أن يشفيها من هذا المرض العُضال.

ومن هنا انطلق، فتاب إلى الله، وبدأ يصلي، وحجّب امرأته، وسبحان الله ربنا عزّ وجل استجاب له، وأزاح عن ابنته الحبيبة إلى قلبه هذا المرض العضال، فبعد أن امتد به العمر، والتزم المساجد، وأقبل على الله، وصار من أهل الإيمان، التقيت به مرّةً وقلت له: ألا تذكر حينما جاءت هذه المصيبة وكانت مؤلمةً جداً، انظر إلى أثر هذه المصيبة ؟ ردّتك إلى الله أنت وزوجتك.

وهكذا يفعل الله عزّ وجل، يسوق الشِدّة كي يشُدُّك إليه، ويسوق المِحنة كي يمنحك الهدى، فالإنسان المؤمن مستسلم، هو عليه أن يطيع الله عزّ وجل، لكن أي شيءٍ يأتيه فهو رحمة، لأن الله عزّ وجل رحمن رحيم..

(تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

خاتمة:

إذا قرأت القرآن فهو من عند الرحمن الرحيم، فبعض الأشخاص يتوهّمون أن الدين قيود، لا يا أخي، الدين حدود وليس قيودا، حدودٌ لسلامتك، فيمكن لإنسان أن يرى في حقلٍ لوحة مكتوبًا عليها: احذر حقل ألغام، فهل من الممكن لإنسان أن يعدّ هذه اللوحة تقييداً لحريّته ؟ لكنّه يشكر من أعماق قلبه من وضعها في هذا المكان لأنها ضمانٌ لسلامته، وحين يضعون على التوتر الكهربائي العالي خطر الموت، ويرسمون جمجمة وعظمتين، فهل هذا قيد لحريّتك أم هو ضمانٌ لسلامتك ؟ هكذا حينما تفهم الدين أنه أوامر ونواه تضمن لك سعادتك في الدنيا والآخرة، فهذا الفهم هو الصحيح، أما إذا فهمت الدين أنه ثقيل، وأنه كلّه قيود، فيا أخي الإنسان يتقيّد بالدين، ولا يرتاح من دون، فله بالدين حرية حركة، فماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 5)

كلمة على تفيد الاستعلاء، أي وأنت مقيّد بكل أوامر الدين فالدين يرفعك إلى أعلى عليين، والكفّار قال:

(فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(3))

(سورة إبراهيم)

في تفيد الدخول شيئا بشيء، وأنت فيما يبدو لك وللناس حر الحركة، في النهاية مقيّدٌ بالذنوب والآثام التي ارتكبتها..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

هم طُلَقاء، فالذي يبدو لك أنه قيد هو سبب حريّتك، والذي يبدو لك أنه يعطيك الحريّة هو سبب القيود التي تفرَض عليك، وهذه من عظمة الدين، فكلمة الرحمن الرحيم تعني أن الله خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، و يهدينا، فإذا صار فيه تلكُّؤ فتأتي الشدائد.

مرّة قال لي أخ كريم: هذه الدروس ما مضمونها ؟ فقلت له: كلمتان، إما أن تأتيه ركضًا أو أن يأتي بك ركضًا، اختر واحدة منهم ؟ إما أن تأتيه مسرعاً مشتاقاً، أو أن الله سبحانه وتعالى يعرف كيف يحملك على أن تأتي إليه، وعلى أن تسرع إليه، فالبطولة أن تأتيه من تلقاء ذاتك، وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت في أوج حياتك ونجاحك، وغناك وصحّتك وقوّتك أن تأتي إلى بيوت الله، وأن تفهم كلام الله، وأن تفهم سُنّة رسول الله، وأن تلتزم بالأمر والنهي حتى يرحمك الله، وحتى يتحقّق فيك اسم الله عزّ وجل الرحمن الرحيم، وتشعر برحمة الله، هذه الرحمة قريبة من المحسنين.

إن شاء الله في درس قادم نتابع معنى قوله تعالى:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (02-11): تفسير الآيات 3-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة فصِّلت، ومع الآية الثالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2))

تَنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرت في الدرس الماضي أن هذا القرآن الكريم يحقِّق للبشريَّة سعادة الدارين في الدنيا والآخرة، بل يحقِّق ذلك للمخلوقات جميعاً، لأن المؤمن حينما يؤمَر أن يحسن لكل المخلوقات، كانت رحمة المخلوقات بشكلٍ غير مباشر قد وصلت إلى كل الخلائق، وقد قال أحد العلماء: **" الشريعة رحمةٌ كلُّها، عدلٌ كلها، مصالح كلها "**، فالأصل في الشريعة أنها لرحمة العالمين، فربنا عزَّ وجل بيَّن أن هذا القرآن الكريم نزل من الرحمن الرحيم، إذاً: هو عطاء، وخير عطاءٍ أن يكون لك منهجٌ تسير عليه، وهذا المنهج يُفْضي بك إلى الجنة، وإلى سعادةٍ أبديَّة، فالعطاء الحقيقي هو كل شيءٍ يوصلك إلى الله، وإلى الدار الآخرة، وإلى سعادةٍ أبديَّة هذا هو العطاء، أما الدنيا فليست عطاءً، لأن كل ما فيها ينتهي عند الموت، فالكريم لا يعطي عطاءً محدوداً، والدنيا عطاؤها محدود، وما دام الموت يُنهي كل شيء إذًا هي ليست بعطاء.

إذاً: هذا القرآن بأمره ونهيه، وبوعده ووعيده، وبقصصه، وأحكامه، وأوامره هو رحمة للعالمين، لا للمؤمنين فحسب، بل للبشر قاطبة، بل للمخلوقات قاطبة، وإما أنّ هذه الرحمة أن ينالُها المؤمن المتبِّع لهذا القرآن بشكلٍ مباشر، أو ينالها غير المؤمن، أو المخلوق غير الآدمي بشكلٍ غير مباشر، وعلى كلٍ فهذا القرآن الكريم هو عطاءٌ من الله عزَّ وجل.

ورد في القرآن الشفاء في آيتين، العسل شفاءٌ للأبدان، والقرآن الكريم شفاءٌ للأرواح..

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا)

(الإسراء)

فأنت متى تُرحَم ؟ إذا اتبعت منهج الله عزَّ وجل، وهذا منهج الله عزَّ وجل لن تضل بعده أبداً، لأنه تعليمات الصانع، أمرٌ ونهيٌ من قِبَل الخبير خالق الأكوان.

(كِتَابٌ)

هذا القرآن الكريم الذي هو تنزيلٌ من الرحمن الرحيم هو:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

1 ـ معنى: كِتَابٌ فُصِّلَتْ:

قال: فصِّلت، أي مع الأغراض والمقاصد التي يسعى إليها الإنسان، وفصلت مع الطبائع والعقول التي يحملها الإنسان، ومع البيئات والظروف التي يعيشها الإنسان، ومع حاجات الإنسان، ومع أحواله.

الله عزَّ وجل صوَّر لنا في كتابه الكريم نبياً كريماً لم يكن ابنه على شاكلته، سيدنا نوح.

فصَّل في هذا الكتاب نبياً كريماً زوجته ليست على شاكلته.

فصل في هذا الكتاب الكريم نبياً كريماً أبوه ليس على شاكلته.

فأنت في كل الأحوال نموذجك ورد في القرآن الكريم، فقد يكون الأب بعيدًا عن الله، أو يكون الابن، أو الزوجة كذلك، وهناك أنبياء كانوا فقراء رعاة الغنم، وهناك أنبياء كانوا ملوكاً وحُكّاماً، ولا يمنعهم أن يكونوا في أعلى مراتب القرب من الله عزَّ وجل، فمعنى:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

أي حاجات الإنسان مفصَّلة، وأنت تحتاج إلى تطمين، وإلى تبشير، وتحذير، وإنذار، ورسم المستقبل مثل مشاهد منتزعة من يوم القيامة، وتحتاج إلى أن تنظر إلى الماضي نظرةً فاحصة ؛ فيه أخبار تاريخيَّة في خير من كان قبلنا، ومن سيأتي بعدنا، وإشارات إلى آخر الزمان ومنهج، فيه أمر ونهي. معنى كتابٌ فصِّلت أي أنه وفق المبادئ والأهداف، ووفق العقول والطِباع، والبيئات والأحوال، وحاجات النفس المتعدِّدة من تحذيرٍ، إلى تبشيرٍ، ووعدٍ، ووعيدٍ، وأمرٍ، ونهيٍ، و تطمينٍ، وتخويفٍ، وإخبارٍ، وتَنَبُّؤٍ، وبيان هدفٍ أخير، وكل هذه الأحوال التي يحتاجها الإنسان مفصَّلةٌ في كتاب الله، لأنه من عند الخبير، وقد قال الله تعالى:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

2 ـ في قصص القرآن المفصَّل عبرة لكل معتبر:

شيءٌ آخر، إن كنت فقيراً فهناك من قمم البشر من كانوا فقراء، وإن كنت غنياً فلا يمنعك غناك من أن تكون في قمة المؤمنين، هناك أنبياء كانوا أغنياء، وإن كنت تعاني من مشكلةٍ في أسرتك فهناك نبيٌّ كريم عانى من هذه المشكلة.. وإليكم:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

فأيّ مشكلة تعاني منها يجب أن لا تكون عائقاً بينك وبين الله ؛ لا وضع مادي معيَّن، ولا وضع أسري معيَّن، ولا وضع معاشي معيَّن، ولا وضع اجتماعي معيَّن، فهناك من الرجال الصالحين من كانوا في أحوال متعدِّدة.

إذاً:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

وأنت نفس تحتاج إلى تطمين ففيه تطمين..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: من الآية 61)

وتحتاج إلى تحذير، ففيه مشاهد مخيفة منتزعة من يوم القيامة، تحتاج إلى وعد، ووعيد، وأمر، ونهي، وتفصيل، وقصَّة، وخبر، وتاريخ، ومستقبل.

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

قُرْآناً عَرَبِيّاً

1 ـ اللغة العربية أفضل اللغات:

أولاً: لغة هذا القرآن عربيَّة، ففيه إشارة إلى أن هذه اللغة اختارها الله جلَّ جلاله لتكون قالَباً لكلامه، لابدّ من أن هذه اللغة على مستوىً رفيع، لكن إذا تجاوزتها لُغات أخرى فلأن الأقوام الأخرى اعتنوا بها أشدَّ العناية، لا يعني هذا أن لغتنا ليست في المستوى العالي، هي في اعتراف أكبر علماء اللغة من أرقى اللُّغات العالميَّة، واللغة العربيَّة لا يعرف قدرها إلا من درسها، ومن عرف أسرارها، وخصائصها، وأساليبها بالتعبير، لغة غنيَّة، وتغتني دائماً، لأنها لغة الاشتقاق الأولى، لغة التصريف الأولى، فمن أي فعل ثلاثي يمكن أن تأخذ فعلا ماضيا، ومضارعا، وأمرا، و مجرَّدا، ومزيدا، وعندنا زيادات كثيرة جداً، وكل زيادة لها معنى، بالتشديد مثلاً، وبالتضعيف، وبألف واحدة، كاتب، وبألف

وتاء، تكاتب، بألف وتاء وسين، فهناك أوزان من الأفعال كثيرة جداً، وكل وزن يعطي معنى دقيقاً.
ولأضرب لكم مثلاً: فربنا عزَّ وجل قال:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر)

فأنت ماذا تفهم من كلمة: تواصوا بالحق ؟ تواصوا، لعلّك تفهم أنهم يوصون بعضهم، التواصي لا يعني إسداء النصيحة فقط، التواصي فعل وزنه من باب تفاعل أو فاعل، فاعل يفيد المُشاركة، أي أن المؤمن أسدى النصيحة، والطرف الثاني قبلها، تعني هذه الكلمة أن الذي يقبل النصيحة ليس أقلَّ فضلاً من الذي يُسْديها، إذاً: هذه تعلّمنا أنك إذا أصغيت إلى الناصح فأنت ممن تواصوا بالحق، وإذا أصغيت له، وسمعت كلامه، وقبلته، واستجبت له فلك فضلٌ كبير، وهناك فضلٌ لمن أسداها، وفضلٌ لمن قبلها، وفضلٌ لمن أصغى إليها، ثمَّ قبِلها.

إذاً: لو ذهبنا لندقّق في أوزان الأفعال، في بناء الأسماء لوجدنا العجب العُجاب، وهذا بحثه يطول، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

ويبدو أن العربيَّة واسعة البيان، دقيقة التعبير، لغة تعدُّ من أرقى اللغات المتطرِّفة، ولذلك كانت هذه اللغة قالباً لكلام الله عزَّ وجل.

وإشارة أخرى، مرَّة قلت لكم: في اللغة العربيَّة الفعل الواحد يعني معاني كثيرة جداً، بل إن كل فعلٍ يشير إلى حالةٍ دقيقةٍ دقيقة من أفعال النظر مثلاً، ومرَّة ذكرت لكم في قصة سيدنا يوسف ـ قديماً ـ أنه نظر، وهناك حدَّج، حدَّج بمعنى نظر مع المحبَّة، قال:

" حدِّث القوم ما حدَّجوك بأبصارهم ".

وهناك نظر شزراً أي مع الاحتقار، وشَخَصَ مع الخوف واستشرف مع التَمَطّي، واستشفَّ مع اللمس، ولاحَ شيء أي ظهر واختفى، ولَمَحَ أي نظر وأعرض، ورَنَا مع السرور، خمسون أو ستون فعلا تشير هذه الأفعال إلى فعل نظر، وإلى معنى النظر، لكن كل فعل معه حالة خاصَّة من حالات النظر.

الحديث عن خصائص اللغة العربيَّة عن اشتقاقها الصغير والكبير، ففعل عَلِمَ هذا الفعل الثلاثي له ست تقاليب ؛ علم، ولمع، وملع، رتَّب الحروف، وغيّر الترتيب، ستة تقاليب يمكن أن يكون هناك معنى واحد مشترك لكل التقاليب التي يحتملها فعل عَلِمَ، هذا اشتقاق كبير، ومن كل فعل اسم فاعل، اسم مفعول، اسم مكان، واسم زمان، واسم تفضيل، وصفة مشبَّهة باسم الفاعل، واسم آلة من فعل واحد، وقلت لكم: إنّ أعلى لغة من حيث التصريف هي اللغة العربيَّة.

2 ـ القرآن عربي يُفْهم وفق قواعد اللغة العربيَّة:

والإشارة الثانية في هذه الآية إلى أن هذا القرآن عربي، إذاً: لا ينبغي أن يُفْهم إلا وفق قواعد اللغة العربيَّة، فإذا أطحت بهذه القواعد، وأهملتها جانباً، ألقيتها وراء ظهرك فلست مؤهَّلاً أن تفهم كلام الله، طبعاً أنا لا أقوال: إنّ فهم قواعد اللغة العربيَّة وحده يكفي في فهم كلام الله، لكن فهم قواعد العربيَّة شرطٌ لازمٌ غير كافٍ.

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

القرآن يحتاج إلى إدراك عميق:

قال: لقومٍ يعقلون وينظرون، فهذا الكتاب يحتاج إلى عقل يستوعبه، يحتاج إلى نظر ينظر فيه، أما هؤلاء الذين يعطِّلون عقولهم، يلهثون وراء شهواتهم فهؤلاء ليسوا مؤهَّلين لفهم كلام الله عزَّ وجل..

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

فهذا الدين، وهذا القرآن بالذات يحتاج إلى إدراك عميق، يحتاج إلى قدرات عالية، وإلى قدرة على الفهم، وسرعة الفَهم، والنظر في الأشياء، هذا معنى قوله تعالى:

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

فإنسان يعطِّل عقله، ويتبع شهوته، يكون مقلِّدًا في حياته، والمقلِّد والمعطِّل لعقله هذا ليس مؤهَّلاً لفهم كلام الله عزَّ وجل، فهذا الإنسان حينما يعطل عقله يشقى، وحينما يعطل عقله لا يفهم كلام الله عزَّ وجل، فإن لم تأنس من إنسانٍ قوةً إدراكيَّة، وفهماً، وحصافة، ودقَّة في الفهم فلا تتعب نفسك معه، إن هذا القرآن..

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أيّ لإنسان استخدم عقله، لإنسان استخدم إمكاناته الهائلة التي أودعها الله فيه، هذا القرآن مهيَّأ لإنسان يبحث عن الحقيقة، يبحث عن سعادته الحقيقيَّة، يبحث عن منهج الله في الأرض..

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

إذاً: هذه الآية رغم إيجازها تنطوي على..

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

حينما قال الله عزَّ وجل:

(قُرْآناً عَرَبِيّاً)

مدح هذه اللغة إذ جعلها قالباً لكلامه، وحينما قال:

(قُرْآناً عَرَبِيّاً)

جعل فهم قواعد هذه اللغة سبيلاً أولياً لفهم كلامه، قال:

(بَشِيراً وَنَذِيراً)

بَشِيراً وَنَذِيراً

الحقيقة عندما يقرأ الإنسان القرآن، وكان مستقيمًا على أمر الله، وملتزماً يشعر أن الآيات التي تبشِّر موجَّهة إليه، والإنسان أحياناً يغتني بهذه البُشرى، فإذا وُعِد الإنسان من شخص ذي أهميَّة يطمئن، وإذا وعدك إنسان قوي وعدًا ترتاح، ولو تأخَّر تنفيذ الوعد، فكيف إذا وعدك خالق الكون ؟ قال:

(بَشِيراً)

القرآن بشير للمؤمنين نذير للعاصين:

فالمؤمن لماذا هو سعيد ؟ قد تكون حياته فيها منغِّصات.

مرَّة ضربت مثلا طريفا: أن إنسانًا فقيرًا جداً، وعنده أولاد كثر، وعنده مشكلات لا حصر لها، لكن له قريب هو وريثه الوحيد يملك مئات الملايين، ومات فجأةً بحادث، فكل هذه الملايين آيلةٌ إلى هذا الفقير، لكن إلى أن تصل إليه لابدَّ من معاملات، وإجراءات، وبراءات ذمَّة، ونظام معيَّن، فلماذا كان هذا الفقير في أشد حالات السعادة، مع أنه في هذه الفترة لم يأكل لقمةً غير خشنة ؟ إذاً هذا الإنسان مع أنه لم يقبض أي مبلغٍ من المال لكنه دخل في أملٍ محقَّق.

ولذلك أحد أسباب سعادة المؤمن أن خالقه العظيم وعده بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، فلِمَ لا يطمئن ؟ وأحد أسباب سعادته أن الله بشَّره بالجنَّة، وعده بها، ولذلك فهذا الوعد، وهذه البشارة تمتص كل مشكلةٍ في حياته اليوميَّة، أما أهل الدنيا الذين لا يطمحون إلى الجنَّة، ولا يرجون الله عزَّ وجل فمهما كانت حياتهم ناعمة فهم في شقاء، لأن أي شيءٍ إذا نقص من حياتهم يقلِب حياتهم إلى جحيم، أما المؤمن فلو اصطلحت عليه الهموم كلها فهو سعيدٌ بوعد الله له، سعيدٌ بما بشَّره به.

إذاً:

(بَشِيراً وَنَذِيراً)

وأيضاً الإنسان المقيم على معصية لو قرأ الآيات، وقرأ من هذه الآيات آيةً تحذِّره من مغبَّة عمله، فهذه رحمة الله عزَّ وجل يبشِّر المؤمن ويحذِّر العاصي، قال:

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ

1 ـ الأمراض التي يعاني منها الإنسان هي أعراض الإعراض:

الحقيقة أنّ كل الأمراض التي يعاني منها الإنسان هي أعراض الإعراض، لأن الله تعالى يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

إذاً: الإعراض عن ذكر الله عزَّ وجل هو مصيبة المصائب، وهو أساس البلايا، وهو أساس الشقاء البشري، قال عن هؤلاء..

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

2 ـ السماع له قانون:

الحقيقة أن السماع له قانون، والإنسان لا يكفي أن تكون له أذنان سليمتان من عيوب السمع، فالسماع متعلِّق بالاهتمام، والشيء الذي تبحث عنه تسمعه بدقَّةٍ بالغة، وتسمع أخباره كلَّها، والشيء الذي لا يعنيك ولو وُضع في أذنك أكبر مكبِّر للصوت فإنك لا تسمع شيئاً، والإنسان يجرِّب أحياناً، الأذنان زوَّدهما الله عزَّ وجل بقدرةٍ على الاصطفاء، اجلس مع صديقٍ لك في الغرفة، وضع على النافذة آلة تسجيل، لتسجِّل الأصوات الآتية من الخارج، تحدَّث معه طويلاً، ثم استمع إلى ما سجَّله الشريط، تفاجأ أن كل هذه الأصوات التي سجَّلتها الآلة لم تسمعها أنت في أثناء اندماجك في الحديث مع صديقك، فمعنى ذلك أن الأذن تصطفي، وهذا مثل مادي.

وعلى نطاقٍ أوسع: إن الإنسان يُرهف السمع إلى ما يعنيه، يرهف السمع إلى ما يحتاجه، ويبحث عنه، وما هو صادقٌ في طلبه، إذاً: عدم السماع يأتي من عدم الاهتمام، ومن عدم الصدق مع الله عزَّ وجل، عدم السماع يأتي من البعد عن الله عزَّ وجل، لذلك:

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ)

وهناك آية قرآنيَّة توضِّح هذا المعنى الدقيق، قال تعالى في سورة البقرة:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 7)

الختمُ الحُكمي على القلب:

العلماء قالوا: هذا ختم حُكْمِي، وما معنى ختم حكمي ؟ لو أن لهذا المسجد بابين، هذا الباب باب الحرم وبابٌ خارجي، فلو أقفلنا الباب الخارجي فهذا الباب الداخلي في حكم المُغْلَق، مادام الباب الخارجي مَنَع أيّ إنسان من دخول المسجد فهذا الباب لا معنى له ولو كان مفتوحا، فربنا عزَّ وجل يقول:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

فمنفذ القلب هو السمع والبصر، فإذا كان حب الدنيا يُغَشِّي السمع والبصر فالقلب قد خُتِمَ عليه حكماً، وحب الدنيا يُغَشِّي السمع والبصر، إذاً كأن القلب قد خُتم عليه ختماً حكمياً، كما يقول علماء المنطق: هذا تحصيل حاصل.

الختمُ على القلب ينتِج الفكر التبريري:

فهنا الإنسان إذا أحب الدنيا، وتعلّق بها، وانغمس في ملذّاتها، وخرق منهج الله عزَّ وجل كأن على سمعه وعلى بصره غِشاوة، وهذه الغشاوة التي على سمعه وعلى بصره تحول بينه وبين أن يعقل شيئاً، فلذلك إذا أراد الإنسان أن يعرف الله عزَّ وجل فلابدَّ من أن يتجرَّد من حب الدنيا، إنه إنْ أحبَّها، وأقام على بعض المعاصي فعندئذٍ يفكّر بطريقةٍ غريبة، إذْ يفكّر بطريقة المنطق التبريري، فالشيء المقيم عليه يدافع عنه، ويكابر كل بيانٍ لِدَحضِه.

إذاً: حينما تناقش إذا كنت متلبِّساً بمعاص فأنت تدافع عن نفسك، وتبحث عن حجَّةٍ ترضى بها، وأي حجةٍ تنقض مسعاك ترفضها، فهذا هو المنطق التبريري غير المقبول في البحث عن الحقيقة، أما إذا تجرَّدت من مصالحك الشخصيَّة ومن المعاصي المقيم عليها، ونظرت إلى الأمر نظرةً تجريديَّة فإنك ستعرف الحقيقة.

إذاً: إعراض الناس عن الحق هو تملُّقٌ لمصالحهم، ولشهواتهم، دفاعٌ عن مصالحهم الدنيويَّة، فلو أنّ إنسانا مقيما على أكل المال الحرام، كلّما جئت له بآيةٍ أو حديثٍ يُذَكّره بعمله المنحرف يثور، ويغضب، ويقول: لهذه الآية معنى آخر، وليس هذا هو المعنى، فهو يدافع عن نفسه، ويحاول أن يبرِّر خطأه، إذاً: إما أن تبحث عن الحقيقة بحثاً مجرَّداً خالصاً من كل مصلحةٍ أو شهوة، وإما أن تستخدم هذا العقل العظيم الذي أودعه الله فيك استخداماً غير صحيح.

العقل أداة عظيمة لابد من استعمالها في الخير:

مرَّة ذكرت لكم أن آلة غالية جداً، إذا استخدمها الإنسان وفق ما صُنعت له قد يرقى بها إلى أعلى عليين، أما إذا استخدمها بخلاف ما صُنعت له فقد تودي به إلى السجن، والآلة هي هي، وكذلك العقل، أعظم منحةٍ منحك الله إيَّاها هو هذا العقل، إذا استخدمه وفق الهدف الجليل العظيم، الذي أعدَّك الله له، فهذا العقل يوصلك إلى الله، وإلى سعادةٍ أبديَّة ؛ أما إذا استخدمته لغير ما صنع له فقد وقعت في الجدل، ووقعت في التيه، وجعلت من العقل أداةً للهلاك، وهذا على قول الله عزَّ وجل:

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

يقول أحد العلماء: لم أجد أشدَّ صمماً من الذي لا يريد أن يسمع، فإذا كان الإنسان بعيدًا كما حدَّثني أخ كريم كان له حالة قبل أن يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، حضر مجلس علم، وكان منغمساً في انحرافاته، قال لي: والله لم أفهم شيئاً، ولا علاقة لي بهذا الدرس، وأنا في واد والدرس في واد، عبَّر تعبيراً صادقاً عن أن الإنسان إذا كان منغمساً في شهواته، غارقاً في حظوظه، ملتفتاً إلى مصالحه فهو في واد، والحق في واد آخر، فإذا ليس عنده تجرُّد، وترفُّع عن شهوات الدنيا، وعن مصالحها فالرؤية غير صحيحة، والأذن لا تسمع.

إذاً القرآن بشيرٌ ونذير، قال تعالى:

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

معنى: لَا يَسْمَعُونَ

ومعنى لا يسمعون إما أنهم رفضوا أن يسمعوا، أو أنهم حينما سمعوا لم يفقهوا ما سمعوا، أو أنهم فقهوا ما سمعوا، لكنَّهم آثروا دنياهم على آخرتهم، إما أنهم منعوا أنفسهم من السماع، فقد يقول لك الشخص: لست مستعداً أن أجلس معك أبداً، يرفض، أنا أقول: الإنسان عندما يرفض الحق كمن جاءته رسالة فمزَّقها قبل أن يقرأها، أليس هذا عملٌ غبي ؟ اقرأها ثمَّ ارفضها، لكن المسكينَ مزَّقها قبل أن يقرأها.

وبعض الناس ينتقد الإسلام، أو الدين الفلاني، فأنا أقول لهذا المنتقد: هل قرأت الدين ؟ هل استوعبته ؟ وهل قرأت القرآن ؟ وهل قرأت السُنَّة ؟ وهل أردت أن تستوعب قبل أن تنتقد ؟ النقد قبل الاستيعاب موقف غير علمي، وغير منطقي، كأن تهاجم شيئا دون أن تستوعبه، فعدم السماع يرفض أن يسمع، أو إذا سمع هو في وادٍ والحديث في وادٍ آخر.

تصوَّروا آلة تصوير من أعلى مستوى، لكن ليس في داخلها فيلم، فلو التقط صاحبها مناظر جميلة جداً، وجهد في تطبيق ضبط السرعة والمسافة، ولا يوجد فيلم، فكل إنسان يسمع الحق وليس طالباً له كهذه الآلة التي لا تنفع ولا تجدي..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ

أي قلوبنا مغطَّاة بأغشية وسُتُر كثيرة جداً، تدعونا أنت ولكن قلوبنا بعيدة عن دعوتك، في أكِنَّة مغطَّاة، الكنَّة أي الغطاء..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ)

فالكفَّار يعبِّرون عن بعدهم الشديد، والإنسان كلَّما كان بعيداً ساء فهمه، وكلَّما كان قريباً حَسُنَ فهمه، وربنا عزَّ وجل أشار إلى هذا المعنى، فقال:

(أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ(44))

(سورة فصلت)

أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

والمؤمن يُنادى من مكانٍ قريب، هو قريب ينادى من مكانٍ قريب فيعي، والكافر ينادى من مكانٍ بعيد، فما الذي يبعده عن الله عزَّ وجل ؟ المعاصي، فالمعاصي تُبعد، والطاعات تقرِّب، والمعاصي تقطع، والطاعات تَصِل، والمعاصي تُقسِّي القلب، والطاعات تليِّن القلب، والمعاصي تجمِّد الفكر، ولا يعي على خير، والطاعات تفجِّر طاقات الإنسان، إنها ترفع صاحبها إلى الأوج، والمعصية تحبط عمله، وتقيَّد حركته، وتجمِّد فكره، وتشقيه ولا تسعده.

لا أحدَ يسعد بالمعصية أبدا:

وبعد ذلك أيها الإخوة، كل إنسان يتوهَّم أنه ممكن أن يسعد بمعصية فهو أغبى الأغبياء، وكل إنسان يتوهَّم أنه ممكن أن يُضَر بطاعةٍ من طاعات الله عزَّ وجل فهو لا يعرف الله أبداً، لأنك إذا أطعته انقلبت كل الموازين لصالحك، وتجلَّى على قلبك، وأسعدك سعادةً ما بعدها سعادة، فكل الدين من أجل أن تطيعه، وأن تسير على منهجه، ويكفينا قول الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

فخالق الكون، الذات الكاملة يقول لك: إذا أطعتني فزت فوزاً عظيماً، وطاعة الله عزَّ وجل في متناول كل واحدٍ منَّا، لماذا ؟ لأن الله عزَّ وجل لا يكلِّف نفساً إلا وسعها، تقول: لا أقدر، هذا كلام فيه جهل،

والله عزَّ وجل ما كان له أن يكلّفنا ما لا نطيق ؛ لا في أمورنا المعاشيَّة، ولا في كسب الرزق، ولا العلاقات العامَّة، والاجتماعيَّة، ولا الأمور الشخصيَّة، كل شيء أودعه الله فينا من غرائز وشهوات، رسم لنا قنوات نظيفة لتحريك هذه الشهوات، ليس في الإسلام حرمانٌ إطلاقاً، الإسلام كله عطاء، وكله توازن، والإسلام واقعي، ويتماشى مع الفطرة.

إذاً: المعصية تُبعد، وتُشقي، وتجعل بينك وبين الحق أمداً طويلاً..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)

فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ

فأنت تحرَّك كما يحلو لك، وافعل ما تريد، ونحن مقيمون على ما نحن عليه، ولن ندَع ما نحن عليه من أجلك، هذا لسان حال كل كافر، فأحياناً الناس يتكلَّمون كلمات مشابهة: يا أخي ادخل إلى الجنَّة واغلق الباب وراءك، هذه كلمة مشابهة، الله عزَّ وجل ينقل لنا أقوال هؤلاء لئلا نتألَّم لو سمعنا أمثال هذه الأقوال..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

النبي بشرٌ تجري عليه خصائص البشر:

أروع ما في هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر، فقد كان يغضب كما يغضب البشر، ولو لا أنه تنطبق عليه كل خصائص البشر، وانتصر على نفسه لما كان سيِّد البشر..

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة التوبة: من الآية 128)

أي من بني جلدتكم، ومن طبيعتكم، فيه كل خصائصكم، وفيه كل نزواتكم وشهواتكم، لكنَّه انتصر على نفسه، وآثر ما يرضي الله عزَّ وجل، فأنت تغض بصرك عن محارم الله، وهو يغض بصره أيضاً، الشهوة التي أودعها الله فيك أودعها فيه، لكنه سما عليها، وجعل هذه الشهوة في حب الله عزَّ وجل، أي أنه ـ اللهمَّ صلّ عليه ـ بشرٌ، هو سيد البشر، لكن لو لا أنه بشر، وأن كل خصائص البشر تجري عليه لما كان سيِّد البشر..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

كذلك في هذا الكلام افتقار إلى الله عزَّ وجل، أي أنا واحدٌ منكم، وأنا مخلوقٌ وضعيفٌ مثلكم، والله أكرمني، وعلّمني، ورفعني..

هذا ما يخالف فيه الرسولُ سائرَ البشر: يُوحَى إِلَيَّ

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

فأنا أمتاز عليكم بالوحي، والوحي شيء عظيم جداً، وإن السماء تختص أحد بني آدم ليكون رسولاً..

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

هنا جاء تلخيص القرآن كلّه في هذه الكلمات:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ

كلُّ مشكلةٍ على وجه الأرض سببُها الشركُ:

فما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا أساسها الشِرك، فإذا وحَّدت الله عزَّ وجل ؛ وحَّدته في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، واتجهت إليه بإخلاص انتهى كل شيء، فالإنسان متى يعصي الله ؟ عندما يرى مع الله إلهاً آخر، حينما يرى قوَّةً تؤثِّر في حياته تأثيراً إيجابياً أو سلبياً عندئذٍ يعصيه، أما إذا أيقن أن أمره كله بيد الله، وأن الأمر راجعٌ إليه وحده، وأن كل البشر لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيءٍ لن يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، إذا أيقنت هذا اليقين انتهى كل شيء، فلذلك فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، وهي دعوة التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

لذلك إذا سمعت التوحيد يتكرَّر لأن القرآن الكريم كلّه بُنِيَ على التوحيد، والحقيقة أن الإنسان أحياناً لا تكفيه الكلمة مرَّة واحدة، فالقرآن الكريم فيه تركيز على التوحيد في أكثر الآيات، وأكثر السور، ويجب على المفسِّر أو الذي ينقل ما في التفاسير أن يبيِّن معنى التوحيد بشكل مستمر، لأن الإنسان لا يستقيم عمله، ولا يستقيم على أمر ربه، ولا يسعد إلا بالتوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، ونهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ

1 ـ الموقف العملي بعد التوحيد هو الاستقامة:

فالموقف العملي الاستقامة، ماذا يجدي أن تقول لا إله إلا الله وأنت مقيم على المعاصي ؟ فقيمة العلم التطبيق، والجدوى الحقيقيَّة من العلم التطبيق، لذلك جاءت الآية الكريمة:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

والفاء تفيد الترتيب والتعقيب، أي ما إن تتحقَّق أن الله واحدٌ لا شريك له، وأن الأمر كلَّه بيده إلا فينبغي لك أن تبادر إلى طاعته، لكن هذه الاستقامة أتبعها الله عزَّ وجل بقوله:

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

2 ـ الاستقامة من أجل الله تعالى:

ما قال: فاستقيموا على أمره، بل إليه، فاجعل استقامتك من أجله، لا من أجل سمعةٍ في الدنيا تنتزعها من أفواه الناس، ولا من أجل مصالح تحقّقها باستقامتك، هناك أهداف كثيرة تتحقَّق إذا استقمت، الناس يمدحونك كثيراً، تشعر بنشوة، أحياناً تتيسَّر المصالح، لأن المستقيم أمين، والناس يثقون فيه، فهناك أشخاص كثيرون يجعلون من الاستقامة سبباً لسعادتهم في الدنيا، وهم لا يعبدون الله، لكنهم يحرصون على مواقف راقية في حياتهم من أجل مكانةٍ عليَّةٍ في مجتمعهم، ربنا عزَّ وجل قال:

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

أي اجعل مؤدَّى هذه الاستقامة خالصة له، اجعل استقامتك طاعةً له، اجعل استقامتك وتحقيقاً لعبوديتك له، واستقامتك من أجله..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

اجعل استقامتك تُفضي إليه، وتصلك به، واجعل من استقامتك سبيلاً إلى لقائه، وإلى مرضاته، ولا تجعل استقامتك من أجل دنياك..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

الآن:

(وَاسْتَغْفِرُوهُ)

3 ـ لابد من الاستغفار لما مضى من الذنوب:

مما مضى، أنت بين وقتين وقت فيه معصية، والآن عرفت الله، إذاً: استقم إليه واستغفره مما مضى..

(وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

إلهٌ عظيم يقول:

(وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ

إذا كان الإنسان راكبا مركبة، وماشيا بطريق منحدر انحدارا شديدا، ومنطلقا بأقصى سرعة، وهناك منعطف حاد، والمكبح معطّل، وهو يضحك، فالذي يعرف الحقيقة يقول: ويلٌ له، الله يعينه، فبعد دقائق ماذا سيحدث له ؟ هو لا يعلم، هو يضحك، وهو غافل ساهٍ لاهٍ، لكن مادام الانحدار شديدًا، والسرعة كبيرة، والمنعطف حادًا، وليس معه مكابح، هو يضحك الآن، لكن لا يدري بعد هذا الضحك ماذا ينتظره من عذابٍ أليم ؟

فربنا عزَّ وجل يقول لِمَن آمن أنه لا إله إلا الله..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

فماذا تنتظرون ؟ يجب أن لا يكون هناك وقت إطلاقاً بين استقرار هذه الحقيقة في أنفسكم وانطلاقكم إلى طاعته..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

مما مضى، فكل مؤمن حينما يتصل، وحينما تستقر حقيقة التوحيد في نفسه، فيجب أن ينطلق فوراً إلى طاعة الله، لأن الأمر كلّه بيد الله، وكل السعادة في طاعته، وكل السلامة والقُرب والتجلي في طاعته، قال:

(وَاسْتَغْفِرُوهُ)

أما هؤلاء المشركون..

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

1 ـ معنى الزكاة في هذه الآية:

هذه الآية مكيَّة، والزكاة لم تُشَرَّع بعد، إذاً العلماء قالوا: معنى الزكاة هنا في الأعم الأرجح هي زكاة النفس، أي الإنسان الذي لا يزكي نفسه بالإقبال على الله، والاتصال به، لا يزكي نفسه بطاعة الله، ولا يزكي نفسه باتباع منهج الله فويلٌ له..

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7))

2 ـ المشرك لا يؤمن بالآخرة:

فالكافر كل آماله وكل همومه متعلقة في الدنيا، أما الآخرة فلا يلقي لها بالاً، وليست داخلة في حساباته أبداً، وتلاحظ أحدهم من حركته، ومن كسب ماله، ومن إنفاق ماله، ومن داخل بيته، فكأنه لا موت، ولا يدخل الآخرة في حسابه إطلاقاً ؛ بعلاقاته الاجتماعيَّة وباحتفالاته، وبصلاته، فحركته حركة متحرِّرة من أي قيد، من أي هدف، ومن أي خوف، ولا يخاف، ولا يرجوه، فهذا الإنسان لو قال لك: أنا مؤمن بالآخرة، لا تصدقه، لأن الطريقة الحديثة أن تكتشف اتجاه الإنسان لا من أقواله، إذْ من السذاجة ذلك، فالأقوال لا تقدِّم ولا تؤخِّر، كل إنسان يستطيع أن يتكلَّم بكلام طيِّب، لكن الاتجاه الصحيح هو أن تكشف حقيقة الإنسان من أفعاله.

أنت تشعر أن هذا الإنسان من خلال كسب ماله، ومن خلال خروج بناته في الطريق، ومن علاقته الاجتماعية التي فيها اختلاط، واتصالاته مع أناس ليسوا على شيء من الحق، وتطلُّعاته، وآماله تشعر أن الآخرة ليست داخلة في حسابه إطلاقاً.

3 ـ الكفرُ العملي بالآخرة:

هذا هو الكفر، أما أن يقول مسلم في العالم الإسلامي: أنا أعتقد أنه ليس هناك يوم آخر، والله هذه لا يقولها أحد، ولم يقلها أحد، لكن لو تتبَّعت أحوال الناس لوجدت الآخرة ليست في حسابهم، وهذا هو

الكفر الحقيقي العملي، إذْ هناك كفر قولي وكفر عملي، وهذا هو الكفر العملي بالآخرة، فهو لو أنه يصلي، ويبلغ من العمر الخامسة والستين وكل سهراته لعب بالطاولة، فماذا جعل لآخرته ؟ وهو بسن متقدِّمة وغارق في لعب النرد، وفي النظر للنساء، غارق في الحديث عن الدنيا، وفي شهواتها، فهذا لو قال لك: نحن مسلمون، والحمد لله، وهو ما في شيء بالإسلام في حياته اليوميَّة.

إذاً:

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(8))

معاني الحروف المقطّعة:

1 ـ معنى ممنون:

فمن معاني ممنون أنه مقطوع، ومن معاني ممنون أنه لا يُمَنُّ به عليه، لذلك إذا أحسن إنسان لإنسان يسمِّع، فيقول لك: لحم فلان من خيري، وإذا أحب أن يكرم، فطبعه أنه يمنّ على من يعطيه، هكذا طبعه، إلا من رحم ربِّي.

2 ـ عطاء الله غير ممنون:

أما ربنا عزَّ وجل فمن لوازم كرمه أن هذا العطاء العظيم الأبدي السرمدي غير ممنون أولاً، وغير مقطوع، بل مستمر، وبعد ذلك فما الذي يقلق الإنسان ؟ انقطاع النعم، فالدنيا كلها قلق، أن كل شيء لا يدوم على حال، وفي الحديث الشريف الدقيق جداً:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ ؟ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

فالحياة ليس فيها سرور، والزمن ليس في صالح الإنسان، وكلَّما تقدَّمت سنه ضعف جسمه، وضعفت قدرته على الاستمتاع بكل شيء، يتراجع إلى أن ينتهي أجله. إذاً: هذا العطاء ممنون أي مقطوع، فالصحَّة تنتهي بالموت، والمال ينتهي بالموت، والوجاهة تنتهي بالموت، والنعيم ينتهي بالموت، لكن الآخرة ليس فيها انقطاعٌ أبداً، بل فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

ملخَّصُ ما مضى:

وهنا ملخَّص سريع: أولاً: القرآن فُصِّلت آياته، فكل حاجاتك محقَّقة في القرآن الكريم، لأن ربنا خالق الكون. شيء آخر: أسباب الإعراض هو عدم الصدق في طلب الحق والمعصية، فإن لم ترد الحق، وعصيت الله عزَّ وجل فهذه المعصية تُبْعِد، فالمؤمن قريب بطاعته، قريب بصلاته، وإقباله، وباستقامته، والكافر بعيد بمعصيته، وبانقطاعه.

شيءٌ آخر: التوحيد يجب أن ينتهي بنا إلى الاستقامة، اسمعوا كلام النبي اللهمَّ صلّ عليه، قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقّها دخل الجنَّة، قالوا: وما حقُّها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[ورد في الأثر]

كلمة أخيرة: إن لم يحملك علمك الذي تكسبه، وتسعى إليه على طاعة الله فهذا العلم لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وربَّما كان حجَّةً عليك، وكان وبالاً، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((كل علم وبال على صاحبه يوم القيامة إلا من عمل به))

[من الجامع الصغير عن واثلة]

لا تنسوا كلمة:

(فَاسْتَقِيمُوا)

الفاء للترتيب والتعقيب، أي ما إن تستقر حقيقة التوحيد في نفوسكم إلا وينبغي أن تبادروا إلى طاعته، وهذه الطاعة لا تجعلوها من أجل الدنيا، ومن أجل مكانتك، أو كي لا يتكلَّم أحد عليك، لا..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

اجعل طاعتك عبادة: ولا تجعلها سلوكاً ذكياً، لأن هناك سلوكا ذكيًا أساسه الطاعة، فاجعل طاعتك عبادةً لله، ولا تجعلها سلوكاً ذكياً..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

من الآن:

(وَاسْتَغْفِرُوهُ)

عن ما مضى..

(وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

وجاءت البشرى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة فصِّلت، ومع الآية التاسعة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12))

أساليب القرآن متنوّعة:

أيها الإخوة، القرآن الكريم كتاب هداية ورشاد، فأساليبه متنوّعة، فمن حينٍ إلى آخر يتحدّث القرآن الكريم عن آيات الله في الكون، وآيات الله في الكون بابٌ واسعٌ من أبواب معرفته، وطريقٌ قصيرٌ إليه تعالى، لأن الكون كما تعرفون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى ولصفاته الفُضلى، ومظهرٌ يعبّر تعبيراً دقيقاً عن عظمة الله عزّ وجل.

فإذا أردت أن تعرف الله فسبيل معرفة الله هو اليقين الاستدلالي، لأنك ترى الأشياء بحواسِّك، أما خالق الكون فلا تستطيع أن تتعرّف عليه إلا بعقلك، وإذا ظهرت عين الشيء فسبيل معرفته الحواس الخمس، فبالعين نرى الضوء والأشياء، وبالأذن تسمع الأصوات، وباللّمس تتحسّس الأشياء، ولكن إذا غابت عين الشيء وبقيت آثاره فسبيل معرفته هو الاستدلال العقلي، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى بثّ آياته في السماوات والأرض.

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنه واحدُ

***

فإذا أردت أن تعرفه فكما قيل: " حسبك الكون معجزة "، فإنه ينطق بوجوده، وينطق بكماله، وبوحدانيّته، وعلمه، وأسمائه الحسنى، فربنا جلّ جلاله يقول هنا:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ

1 ـ الكفر بالله أمرٌ عظيمٌ:

أي أيها الناس إنكم بِمَنْ تكفرون ؟ بخالق السماوات والأرض ؟! فالإنسان أحياناً يتكلّم كلمة لا يدري لها بالاً فيقال له: أتدري مع من تتكلّم ؟ لقد أتلفت نفسك، أتدري من تخاطب ؟ أتدري من تنتقد ؟ كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أراد أن يبيّن لنا أن الإنسان حينما يكفر بشيء، أو بإنسان، أو بفكرة فهذه قضيّة سهلة، أما حينما يكفر بالله عزّ وجل يكفر بمن أوجده، وبمن خلقه، وبمن ربّاه، وجعله إنساناً سوياً، ورزقه، وبيده حياته وموته، وإليه المصير، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: أيها الإنسان ماذا تعمل أنت ؟ أتدري بمن تكفر ؟

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ)

2 ـ ما هو الكفر ؟

وما الكفر أيها الإخوة ؟ بحث الكفر واسعٌ جداً، ولكن بشكل مختصر الكفر فيه جانب فكري وجانب نفسي، فالجانب الفكري التكذيب، والجانب النفسي إعراض، تكذيبٌ وإعراض وبالمقابل الإيمان تصديق وإقبال، فالمؤمن مصدِّق مقبل، والكافر مكذِّب معرض، فالجانب الفكري في الإيمان هو التصديق، والجانب النفسي هو الإقبال، والجانب الفكري في الكفر التكذيب ؛ التكذيب بعظمة الله عزّ وجل، وبأسمائه، وبصفاته، وبكتابه، وبرسله، والكفر تكذيبٌ، وإعراضٌ.

إن الكفّار حينما كذّبوا النبي عليه الصلاة والسلام فتكذيب الرسول تكذيبٌ للمرسل، وحينما لم يقبلوا أن هذا الكلام كلامه، تكذيبٌ بالكلام تكذيبٌ بالمتكلِم.

معنى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ

المعنى الأول للآية:

والمعنى الأول في هذه الآية: أنْ أيها الناس أنتم حينما تكفرون أتدرون بمن تكفرون ؟ بخالق السماوات والأرض..

(بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)
إلى آخر الآيات.

المعنى الثاني للآية:

المعنى الذي ينبغي لنا أن نضع أيدينا عليه أن الله سبحانه وتعالى يبيّن للكفّار حجم جريمتهم، ما أكبر جريمتهم ! وما أشدّ تكذيبهم ! وأحياناً الإنسان يكذِّب بشيء غير واضح، فيقال: جهل هذا الشيء، أما حينما يكذِّب بوُجود الشمس في رابعة النهار فالناس يستغربون، وقد تكذِّب، أو قد تكفر بشيء وجوده مشكوك فيه فيقال: لقد جهل هذا الشيء، أما إذا أنكر الشمس في رابعة النهار فهذا عمل كبير جداً..

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ

والحقيقة أن الخَلق خلقان ؛ خلق إيجاد وخلق إعداد، والله جلّ جلاله خلق الأرض، وهيّأها لتكون صالحة للإنسان في يومين، كلمة يوم نفهم منها نحن ـ سكّان الأرض ـ أن الأرض تدور حول نفسها كل أربع وعشرون ساعة فهذه الدورة نسميها يوماً، وهذا اليوم هو يوم الأرض، ولكن كل كوكب من كواكب السماء إذا أردنا أن نعرف كم يومه، فهناك كوكب يومه سنتان، فخلال سنتين يدور حول نفسه دورةً واحدة، وكل كوكبٍ سابحٍ في الفضاء له يومٌ خاصٌ به، وهذه أيّام الكواكب، فما أيام الله عزّ وجل؟

أيام الله:

أيام الكواكب شيء وأيام الله شيءٌ آخر، فما معنى أيام الله ؟

الله سبحانه وتعالى يفعل فعلاً في زمنٍ لو أردنا نحن أن نفعله لاحتجنا إلى خمسين ألف عام تقريباً، إلى مائة ألف عام، فكيف أن الإنسان الآن استطاع ببعض الأجهزة الحاسبة أن يضغط الزمن، فما تفعله في شهر يتم في سبع ثوانٍ مثلاً، فالإنسان ضغط الزمن، وربنا عزّ وجل ألغى الزمن إلغاء كُليًا، كن فيكون، فأيام الله عزّ وجل غير أيام البشر، ومع ذلك هذه الأرض التي وضعها الله للأنام..

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

خلقها خلْق إيجاد، ثم خلقها خلق إعداد، أعدّها للإنسان، وعلماء الأرض يقولون: لقد مرّت الأرض بحِقَبٍ طويلة حتّى أصبحت على ما هي عليه، كانت غازاً، ثم صارت كرةً ملتهبة، وهذه الكرة الملتهبة تجمّدت، وبعد أن تجمّدت اتحد الأوكسجين مع الهيدروجين وشكّل الماء، فتشكّلت مياه البحار ـ وهناك نظرياتٌ كثيرة تفسِّر ظهور البحار ـ ثم كان الهواء، ومن الهواء والبحار تفتّت التُربة، وهذه نظرياتٌ طويلة، أي أن مرحلة إعداد الأرض لتكون صالحة للإنسان مرحلةٌ مديدة سمّاها الله في يومين ـ في أرجح التفاسير ـ وبعض النظريات العلميّة تؤكِّد أن بين مرحلة الكرة الملتهبة ومرحلة القشرة الأرضيّة ألفي مليون عام، فهذا اليوم ليس يوم الأرض، ولا يوم الكواكب، بل هو يومٌ من أيام الله ، والنظريات العلميّة إذا كانت مُنصفة، وصادقة، وهادفة تجدها تُلقي ضوءاً على كلام الله عزّ وجل.

والشيء الذي يجذب النظر أن القرآن الكريم فيه أبوابٌ كثيرة، ومن أبرز أبوابه الآيات الكونيّة، جُمعت في بعض الكتب عدد الآيات الكونيّة في القرآن الكريم كبيرة جداً، هذه الآيات الكونيّة هي في الحقيقة أحد مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

والنبي عليه الصلاة والسلام لحكمةٍ بالغة، ولعلّها بوحيٍ من السماء لم يفسِّر هذه الآيات الكونيّة، لماذا ؟ لأنه عليه الصلاة والسلام لو فسّرها بطريقةٍ مبسّطة يفهمها أصحابه، وقد عاشوا مرحلة معيّنة من التطوُّر العلمي لأنكرنا عليه هذا التفسير، ولو فسّرها بطريقةٍ دقيقةٍ كما هي عليه، وكما كشفها العلم الآن لأنكر عليه أصحابه، ولذلك تُركت الآيات الكونيّة ـ وهذا من حكمة الله البالغة ـ تركت الآيات الكونيّة كي يُلْقِيَ العلم عليها ضوءاً كلّما تطوّر.

إن هذا الكتاب معجزةٌ مستمرّة، وكلّما تقدّم العلم كشف جانباً من عظمة الآيات التي جعلها الله مظهراً لإعجازه.

وأحياناً تجري أبحاث عشر سنوات، أو عشرين عامًا، ونحن دائماً نفرّق بين المقالة والبحث العلمي، المقالة انطباع عابر، إنسان يسجّل انطباعاته على ورق، تطبع هذه الكلمات فإذا هي مقالة، أما إذا قرأت بحثاً علمياً، فالبحث العلمي قد يُفْرَغ في صفحتين، وهو محصِّلة دراساتٍ استمرّت خمسين عاماً، وكلمة بحث علمي كلمة كبيرة جداً ؛ إنها تجارب، ودراسات، واستطلاعات، وإحصاءات، وملاحظات تراكمت في أذهان العلماء، ثم اكتُشِفَت حقيقة من الحقائق، وهذه الحقيقة التي اكتشفت بعد أمدٍ طويل تُسجّل في بحثٍ علمي، فالأبحاث العلميّة ـ طبعاً الموضوعيّة ـ كلّما تقدّمت كشفت جانباً من آيات القرآن الكريم الكونيّة.

فالعلم الآن يؤكِّد أن الأرض مرّت بِحِقبٍ طويلةٍ حتى أصبحت مهيأةً للبشر، يقدِّرون هذه الحِقب بألفي مليون عام..

(وَإِنّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ)

(سورة الحج)

فهذا ليس من أيام الأرض، ولا من أيام الكواكب، بل هو من أيام الله.

على كلٍ..

(قُلْ أَئِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)

أي في يومين من أيّام الله..

(وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ

1 ـ الله عزوجل لا شريك له:

إنّ الله عزّ وجل ليس له مشارك، ليس له شريك، ولا نِد، وكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك، فهل من المعقول أن يتخذ إنسان لله نداً ؟ أو أن يتخذ لله شريكاً ؟ هذا شيء مستحيل، لكن ما الذي يحصل ؟

2 ـ كيف يشرك الإنسانُ بالله ؟

حينما يعقد الإنسانُ الأملَ على إنسان عاملَ هذا الإنسان كما ينبغي له أن يعامل الإله، فحينما يعتمد على إنسان اعتماداً كُلِّياً عامل هذا الإنسان كما ينبغي أن يُعامَلَ الإله، حينما يَتَّكِلَ على إنسان، وحينما يعقد الأمل على إنسان، حينما يعتقد أن هذا الإنسان ينفعه أو يضرُّه، يرفعه أو يخفضه، يُعطيه أو يمنعه، يقرِّبه أو يبعده، إذا توجّه اعتقادك إلى مخلوق ـ وهو مخلوقٌ ضعيف ـ فكأنك جعلت لله ندّاً، وهذا هو الشرك.

هذا الإله العظيم الذي خلق الأرض في يومين أتجعلون له أنداداً ؟ أيعقل هذا ؟

(ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

3 ـ الله هو الربُّ المسيّر:

الرب هو المُمِد، الله عزّ وجل خالق ورب ومسيّر، الخالق خلق، والرب يُمِد، والمسيّر يحرّك..

(ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ)

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ

معنى الجبال الراسيات:

المعنى الأول:

هذه الأرض جعل الله فيها رواسي، والرواسي هنا الجبال، وسمّاها الله رواسي لأنها ترسو في أعماق القشرة الأرضيّة، وهذا الرُسو يثبّت طبقات الأرض، لأن كل طبقةٍ لها كثافة محدّدة، فإذا دارت الأرض فمع دورانها، ومع اختلاف كثافات طبقاتها ربّما اضطربت هذه الطبقات، فلئلا تضطرب جُعلت هذه الجبال كالأوتاد تربط طبقات الأرض ذات الكثافات المُختلفة بعضها ببعض لئلا تضطرب الأرض، هذا معنًى من معاني الجبال الراسيات..

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

المعنى الثاني:

والمعنى الآخر: هو أن الأرض حينما تدور دورةً سريعة لابدّ من أن تضطرب، لئلا تضطرب تأتي الجبال في أماكن محدّدة، وفي حجوم محدّدة، وفي أوزان محدّدة كما نفعل تماماً بعجلة السيّارة لئلا تضطرب في أثناء الدوران السريع، إذْ نضع بعض قطع الرصاص في أماكن محدّدة وفي أوزان محدّدة لئلا تضطرب العجلة، وهذا معنى آخر من معاني الجبال الراسيات..

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا)

معنى: وَبَارَكَ فِيهَا

الثروات من بركات الأرض:

ومعنى:

(وَبَارَكَ فِيهَا)

أي أودع فيها الحديد، والنحاس، والمعادن التي يحتاجها الإنسان بشكلٍ دقيق، وهذه المعادن جعلها الله على شكل فِلزَات مختلطة بالتراب، يأخذها الإنسان، ويصهرها، ثم يأخذ منها تلك المعادن الصافية التي تعينه على حياته، فالأرض ممتلئة بالخَيْرات، ممتلئة بالثروات، وبالمعادن، وبالفلذات، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

ومعنى بارك فيها أنت بحاجة إلى معدن خفيف، متين وخفيف الألومنيوم، وبحاجة إلى معدن ينصهر في درجة مائة، فإذا برّدته تمدّد هذا الرصاص، أنت بحاجة إلى معدن بكميات كبيرة جداً لا ينصهر إلا في ألفٍ وخمسمائة درجة، وذلك هو الحديد، أنت بحاجة إلى معدن يكون قيمة للتداول هو الذهب، بحاجة إلى معدن آخر.

إخواننا الكرام الذين درسوا بعض العلوم الطبيعيّة، درسوا الفيزياء والكيمياء يعرفون ما معنى المعادن، وأشباه المعادن، والعناصر، وكل معدن له تركيب، وكل تركيب له خصائص فيزيائيّة وكيميائيّة، وهذه المعادن تتشابه في بنيتها الأساسيّة، وتختلف في صفاتها الفيزيائيّة والكيميائيّة، وهذه المعادن صُمِّمَت خصيصى للإنسان، بل إن هذه العناصر ـ وكلمة عناصر أوسع من كلمة معادن ـ هذه العناصر متدرّجة، العنصر الأول يوجد على مداره الخارجي كهروب واحد، والعنصر الثاني كهروبان وهكذا، فهناك مدارات تصل إلى ثماني مدارات في بنية الذرّة.

الشيء الذي يجذب النظر أن بين عنصرين كهروباً واحداً، الأول غاز والثاني صُلب، تعديل كهروب واحد على مدار الذرّة يغيّر طبيعة العنصر، من عنصرٍ غازي إلى عنصرٍ صُلب.

إذاً: هذا معنى وبارك فيها، أي أودع في الأرض ثروات، وأودع فلزات، ومعادن، وعدد المعادن كثير جداً، وأشباه المعادن كثيرة.

الإنسان أحياناً يظن أنه انتفع بهذه الفلزات، فليس هذا صحيحاً، هي حينما خلقها الله عزّ وجل صمّمها لينتفع بها، وفي أصل خصائصها مصمّمة كي ينتفع بها الإنسان، كي تكون الأرض للإنسان كالبيت المعمور فيها كل شيء..

(وَقَدّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَاء لِّلسّائِلِينَ)

معنى: وَقَدّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَاء لِّلسّائِلِينَ

المعنى الأول:

فهذه الأرض بعد أن كانت ملتهبة، وبعد أن مرّت بأطوارٍ وأطوار، وحقبٍ وحقب حتى ابترد سطحها، وتجمّدت قشرتها، وأصبحت صالحةً ليكون فيها المخلوق جاءت المياه، وجاءت الرياح، وتفاعلت المياه مع الرياح، والرياح والمياه مع القشرة حتّى تفتّت تربتها، وبعد أن تفتّت قشرتها وأصبحت تربة صالحةً للزراعة ظهر النبات، ومع ظهور النبات ظهر الحيوان، ثم جاء المخلوق الأول الذي هو الإنسان. فالإنسان له قوت يقتات به، وأساس قوته النبات والحيوان، فإذاً الأرض مرّت بيومين من أيام الله، وهذا كما قلت قبل قليل: خلق إعداد لا خلق إيجاد، ومرّت بأربعة أطوارٍ حتى أصبحت صالحة لإقامة الإنسان.

إذاً:

(قُلْ أَئِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَاءً لِلسّائِلِينَ (10))

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: الأيام الأربعة هي الفصول الأربعة التي من خلال تبدُّل الحرارة، والرطوبة، والرياح، والعوامل الجويّة ينضُج النبات، وهذا رأيٌ آخر..

(وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَاءً لِلسّائِلِينَ (10) ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاءِ)

ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاء

1 ـ لماذا الحرف ثم ؟

هنا بعضهم وقف عند ثمّ، أتُرَى هذه ثمّ للترتيب الزماني أم للترتيب الذِكْري ؟ فالله عزّ وجل ذكر نشأة الأرض قبل نشأة السماء، فهل تحتمل أن تكون ثم للترتيب الزمني أم للترتيب الذكري ؟ كِلا الرأيين وارد، ومع كل رأيٍ من هذه الآراء أدلّته..

(ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاء)

2- معنى: اسْتَوَى إِلَى السّمَاء

معنى استوى إلى السماء أي قصد، هكذا يقول المفسِّرون..

(ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ)

ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ

أصلُ الكون:

أصل الكون كما تروي بعض النظريات كان سَديماً، أي غازا وغبارا، ومن الغاز والغبار تشكّلت النجوم والمجرّات..

(ثمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ

1 ـ الكون كلّه يأتمر بأمر الله، وللإنسان حرية الاختيار:

هذه الآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى كل الكون يأتمرُ بأمره، خلق الإنسان ومنحه حرية الاختيار، وخلق الجن ومنحه حرية الاختيار، لكن ما سوى الجن والإنس فكل المخلوقات ؛ الجمادات، والحيوانات، والملائكة ليس لها اختيار، إنما هي خاضعة لأمر الله عزّ وجل، إلا الإنسان أعطاه

الاختيار، أيْ يخضع أو لا يخضع، لكن يقطف ثمن خضوعه إذا خضع، ويدفع ثمن معصيته إذا عصى..

(إنّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب)

2 ـ للإنسان حرية الاختيار:

المَلَك مستسلمٌ لله عزّ وجل، والحيوان تكفيه غريزته، والجمادات تأتمر بأمر الله عزّ وجل ليس لها اختيار، وليست مكلّفة، إلا الإنسان كُلِف، وحمل الأمانة، وأمانته هي نفسه التي بين جنبيه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا (10))

إذاً: ربنا عزّ وجل في هذه الآيات يبيّن لنا حجم جريمة الكفر ـ حجمها الكبير ـ أتدرون أيها الناس حينما تكفرون أنتم تكفرون بمن ؟ بالذي خلق الأرض في يومين، أي بهذه الحِقَب الطويلة من كرةٍ ملتهبة، إلى قشرةٍ مائعة، إلى قشرةٍ متجمّدة، ثم قدّر أقواتها في أربعة أيام ؛ الماء، والهواء، وتفتيت التُربة، والعصور المطيرة، وعصور النباتات العملاقة، ثمّ نشأة الحيوان، وبعدها جاء المخلوق الأول الذي هو الإنسان.

فأحياناً يقول لك: هذا البيت استغرق إنشاؤه عشر سنوات، كلّما كان البيت أكثر فخامة، وأوسع مساحةً، وأدقّ زخرفةً يحتاج إلى أمد طويل، طبعاً هذا على مستوى الإنسان، ولكن الإعداد المُتقن دليل العناية بالإنسان..

(ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

أي أن الكون كلّه يأتمر بأمر الله عزّ وجل: كن فيكون..

(فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

إذاً: قد تكون الأرض بدأ الله بها، على أن ثمّ للترتيب الزمني، وقد تكون الأرض والسماوات خُلِقتا معاً، على أن ثم للترتيب الذكري، كلا المعنيين وارد..

(فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا

1 ـ السماوات السبع:

هنا السماوات السَبع قد تكون سبعًا، وقد يكون هذا الرقم للتكثير، أي أن السماء طبقات بعضها فوق بعض، ولو عدنا إلى كتب الفَلَك لوجدنا أن هناك طبقات ؛ طبقة الهواء هذه سماء، طبقة بعد الهواء، طبقة بعد التي بعد الهواء، هذه الطبقة سمكها مثلاً خمسون كيلو مترا، وهذه سمكها ألف كيلو متر، وهناك في كتب الفلك إشارة إلى هذه الطبقات، لكن كلمة سبعة في اللغة قد تعني الكَم، وقد تعني التكثير. وهناك طبقاتٌ في السماء كل طبقةٍ لها وظيفتها الدقيقة، وخصائصها، وهواؤها، وكثافتها، ووظيفتها، وخصائصها..

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

2 ـ السماء الدنيا:

بعضهم قال: السماء الدنيا هي درب التبانَة ـ أي المجرّة التي نحن فيها ـ والتي يبلغ طولها مائة وخمسين ألف سنة ضوئيّة، وكلّكم يعلم أن بين الأرض والقمر ثانية ضوئيّة واحدة، وبين الأرض والشمس ثماني دقائق، المجرّة ـ مجرّتنا ـ طولها مائة وخمسون ألف سنة ضوئيّة، هذه هي مجرّتنا، والمجموعة الشمسيّة تبدو نقطةً صغيرةً في هذه المجرّة، وكما أقول لكم دائماً: إن نجم قلب العقرب في برج العقرب هذا يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وبعض المجرّات تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيّة.

إذاً:

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)

سُدُم..

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

إذاً: هذه الأيام التي ذُكرت في خلق الأرض، وفي تقدير الأقوات، وفي خلق السماوات والأرض هي أيام الله، وليست كالأيام التي نعرفها..

(وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا)

وظيفتها، ومهمّتها، وخصائصها، ودورها..

(وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

هذه النجوم المتلألئة التي تُزيّن السماء الدنيا..

(وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

حفظاً من الشياطين كما ورد في بعض الآيات الأخرى.

على كلٍ هذه الآيات تتحدّث عن أصل خلق السماوات والأرض، وكلّما تقدّم العلم كشف جانباً عن عظمة هذه الآيات الكونيّة، فكأن هذه الآيات معجزةٌ مستمرّةٌ لهذا الكتاب الذي بين أيدينا، كلّما تقدّم العلم كشف جانباً من جوانب عظمة هذه الآيات القرآنيّة التي وصفت الآيات الكونيّة.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ

لأن جريمة الكفر أبشع جريمة، وأكبر جريمة أن تكفر بالذي خلقك، أن تكذّب الذي أرسل هذا الكتاب ليهديك إلى سواء السبيل، قال:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا)

أي يا محمّد قل لهم: فإن أعرضوا عن قبول هذه الدعوة، إن لم يستجيبوا، وإن لم يؤمنوا، وإن كذّبوا..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

الأقوام السابقة التي كذّبت الرسل جاءها العذاب الأليم، والعذاب المُهْلِك..

(أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

ملخّص هذا الدين كلِّه أن لا تعبد إلا الله، والعبادة كما تعرفون خالص الحُب، وخالص الطاعة، وخالص الانقياد إلى الله عزّ وجل..

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

وهذا قول كل مشركٍ وكل كافر من قديم الزمان إلى الآن:

(قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً)

جواب قديم يتجدّد: قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

أي نحن لا نصدِّق أن الرُسل من بني البشر، إذًا: لو أن الرسول من الملائكة، وأمركم بأمر ماذا تقولون له ؟ يا أخي أنت ملك ونحن بشر، فلا يمكن أن يكون النبي إلا من بني البشر، ولا يمكن إلا أن تجري عليه كل خصائص البشر، فإذا انتصر على نفسه كان سيّد البشر، وكان قدوةً لنا، ومهمة القدوة في الأنبياء أبلغ من مهمّة التبليغ.

إذاً:

(قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

من شأن شرع الله عزّ وجل أن يَحُدّ من شهوات الكفّار، فالكافر حينما يأتي منهجٌ إلهي يحدُّ من شهواته، فما السبيل إلى التخلّص من هذا المنهج ؟ تكذيبه، فتكذيب المنحرفين، وتكذيب العصاة، وتكذيب الذين يُقيمون على شهواتهم الدنيئة، فهذا التكذيب هو دفاعٌ عن شهواتهم، ودفاعٌ عن مصالحهم، ودفاعٌ عن مكتسباتهم فكذّبوا، قالوا:

(فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

قال:

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

1 ـ استكبار الإنسان على الله دائماً بغير الحق:

لأن الاستكبار على الله عزّ وجل يكون بغير الحق دائماً، فالإنسان مخلوق حادث سبقه عدم، ويتبعه عدم، أما ربنا جلّ جلاله فهو الذات الكاملة واجب الوجوب، الأبدي السرمدي، الذي لا أول له ولا آخر، فهل يوازن خالق الكون مع مخلوقٍ حادث ؟!

إذاً استكبار هذا الإنسان على الله استكبارٌ دائماً بغير الحق، فلا يعقل أن يكون استكبار الإنسان بالحق ؟ بل إن هذه الآية لها معنى دقيق، فقد يفهم بعضكم من هذه الآية أن عاداً استكبروا بغير الحق، فهل هناك استكبار بالحق ؟ لا ـ كلا، هذا ليس قيداً احترازياً، هذا قيدٌ وصفي، فمن شأن الاستكبار دائماً أنه بغير الحق، الإنسان ضعيف، وعاجز، وجاهل، و فقير، يقوى بالله، ويعلم بالله، فإذا افتقر الإنسان إلى الله أصبح غنياً، فإذا استغنى عن الله أصبح فقيراً، وإذا التجأ إلى الله يطلب أن يعلِمه علّمه الله عزّ وجل،

فإذا استغنى بعلمه المادي عن علم الله عزّ وجل أصبح جاهلاً، لهذا: **" يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ".**

(فَأَمّا عَادٌ فاسْتَكْبَرُوا)

2 - إما عبودية لله وإما استكبار على الله:

وهناك صفتان أساسيّتان: العبوديّة لله والاستكبار على الله، الكافر مستكبر، والمؤمن متعبّد لله عزّ وجل، والمؤمن حينما يعبد الله يرفعه الله، يعزّه الله، يقوّيه الله، ويغنيه الله، ويرفعه، والكافر حينما يعتزُّ بعلمه يرتكب حماقاتٍ لا حصر لها، وحينما يعتزُّ بقوّته يوقعه الله في حتفه من خلال تدبيره، الدعاء الذي يدعوه بعضهم: " اللهمّ اجعل تدميرهم في تدبيرهم ". أي أن يجعل الله تدميره ثمناً لتدبيره.

إذاً: هناك نموذجان استكبار وعبوديّة لله عزّ وجل، فأنت حينما تعبد الله يرفعك الله، وحينما تستكبر تدفعه الثمن باهظاً في الدنيا وفي الآخرة.

(فَأَمّا عَادٌ فاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً)

قاصمة ظهور المستكبرين: مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً

الإنسان أحياناً يبلغ قمة النجاح، والحقيقة أنّ البطولة ليس أن يبلغها، بل البطولة أن يبقى فيها، وإن كان الطريق إلى هذه القمة شائكا، ووعرا، وملتويا، وفيه حُفَر، وفيه أكمات، وفيه عقبات، لكن إذا وصلت إلى قمة النجاح فقد تصاب بمرض أخطر، ألا وهو الغرور، والغرور يهوي بك إلى الحضيض، فحينما شعروا بقوّتهم قالوا:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً)

فلو أن نقطةٍ دم تجمّدت في بعض أوعية دماغ الإنسان لَشُلّت حركته، أو لفقد ذاكرته، أو لاختلّ عقله، أو لفقد بصره، أو لفقد سمعه، نقطة دم واحدة، فكيف يقول: أنا ؟!

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً

وكم من حادث حدث تحت سمعنا وبصرنا ؟ إنسان ملء السمع والبصر أصبح خبراً بعد أن كان ملء السمع والبصر، الإنسان حياته متوقِفة على نبضات قلبه، كم من حادث موت مفاجئ غير متوقّع.

إذاً:

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

1 ـ عليك بالتواضع:

أيها الإخوة، كلّما ازداد علم الإنسان قاده علمه إلى التواضع، لأنه يرى عظمة الله عزّ وجل ويرى نفسه لا شيء، والتواضع حقيقة قد يكون سلوكا ذكيا، أما التواضع الحقيقي الذي هو من لوازم طاعة الله عزّ وجل، فأساسه رؤية، إذا رأيت عظمة الله عزّ وجل ضَؤلت نفسك في نظرك، فلا يوجد إنسان متكبّر إلا وهو جاهل، ولا يوجد إنسان متواضع تواضعا حقيقيا، تواضع العبوديّة لله إلا وهو عالِم، فكلّما رأيت عظمة الله عزّ وجل رأيت صِغَر نفسك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام في أدعيته:

((اجعلني في عيني صغيرا، وفي أعين الناس كبيرا))

[من الجامع الصغير عن بريدة]

لكن بعض الناس يرى نفسه في عينه كبيراً، وهو في أعين الناس صغير.

هذا هو التواضع الحقيقي:

إذاً: التواضع الحقيقي أن ترى عظمة الله عزّ وجل، أن ترى رحمة الله، وعلمه، وقدرته، كلّما ارتقيت في معرفة الله صرت في معرفة ملازمة لهذه المعرفة، فتزداد معرفة بعلم الله ومعرفة بجهل الإنسان، هذا ما قاله الإمام الشافعي: **" كلّما ازددت علماً بالله ازددت علماً بجهلي ".**

إذاً التواضع الحقيقي أساسه رؤية صحيحة، وهذه الرؤية الصحيحة ينتج عنها تحجيمٌ لذات الإنسان، فإذا عَمِيَ الإنسان عن عظمة الله وشعر أنه قوي، وأنه غني، وأن مقاليد الأمور بعضها بيده، وأن الناس من حوله متزلِفون، هذا الشعور الكاذب ربّما قاده إلى الهلاك.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

فربنا عزّ وجل قادر أن يدمِّر إنساناً يرى نفسه أقوى الأقوياء على أتفَهِ الأسباب، فالإنسان يشلّ بسبب حادث سير، أحياناً ببعض الأدوية يفقد بعض الحواس، الإنسان يمكن أن يحدث له خلل في بعض أعضائه، فيجعل حياته جحيماً، والإنسان يعيش بألطاف الله عزّ وجل، وفي قبضته، فكلّما ازداد علمك تواضعت، كلّما ازداد علمك عبدّت الله عزّ وجل، وتأدّبت مع الخلق، تجده أديبا، من أين جاء هذا

الأدب؟ من رؤية الحقيقة، الأمر كلّه بيد الله، وكل هؤلاء البشر بيد الله، ولذلك فالمؤمن تحت حديث شريف:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه..))

[ثبت في الأثر]

الذنب شؤمٌ على غير صاحبه:

فإذا ارتكب الإنسان ذنبا فهناك ثلاث مطبّات قال: إذا ذكره فقد اغتبابه، وإن رضي به شاركه بالإثم، وإن عيّره ابتلي به.

تصورّ إذا ارتكب الإنسان ذنبا فهناك ثلاثة مطبّات يمكن أن تقع فيها أنت الذي لم تذنب ؛ إن عيّرته فهذا جهل ابتليت به، وإن أقررته على ذنبه شاركته في الإثم، وإن ذكرت ذنبه للناس فقد اغتبته، فإذا كان من الممكن أن يكون للعبوديّة مؤشّر، وللعلم مؤشّر، وكلّما ازداد علمك ازدادت عبوديّتك لله عزّ وجل، وكلّما ازداد علمك ازداد تواضعك، فلا ترى إنساناً في قمة النجاح إلا وهو متواضع، ويعرف أن وجوده بيد الله، ذكاؤه بيد الله، خبراته بيد الله، قراره الحكيم، ورؤيته الصحيحة، إدراكه العميق بيد الله، فإذا قال: أنا. فقد أهلك نفسه، وأربع كلمات مهلكات ؛ أنا، ونحن، ولي، وعندي.

قال:

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كلُّ أمّةٍ مستكبرة لها يوم عند الله تعالى:

أترى هذه الآيات أليست هناك آيات مشابهة لها في حياتنا الدنيا ؟ يقول لك: إعصار أصاب ولاية في بعض الدول المستكبرة، فسبّب خسائر بثلاثين مليار دولار، وهو إعصار واحد.

فيضان أتلف المحاصيل أحياناً، زلزال جعل عاليها سافلها، وهذا فعلُ ربنا عزّ وجل، ونرى هذا بأعيننا كل يوم، تارةً أعاصير، تارةً فيضانات، تارةً زلازل، تجد محصولا زراعيا ثمنه مئات الملايين يأتيه صقيعٌ في دقائق، هذا المحصول كلّه يُدمّر، فنحن جميعاً في قبضة الله، فكلّما عرفنا حجمنا المتواضع وعظمة ربنا كان الله في عوننا ورفعنا، وأغنانا، وأعزّنا، أما إذا اعتززنا بمن يموتُ فإن عزّنا ميتُ..

اجعل لربّك كل عزّك يستقرُّ ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّتُ

* * *

قال:

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فما من أمّة مستكبرة إلا ولها يومٌ عند الله..

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

فأية قريةٍ استكبرت، أحياناً قرية من القرى يلمع اسمها، يكثر دخل أبنائها، ينتشر الفساد والانحراف، ويفعلون كل المُنكرات ويظنون أنهم في مأمن، وأن هذا الدخل ثابت، وأن هذه الدنيا مستمرّة لهم، يستكبرون، لذلك الله عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

فهذه القصص التي بين أيدينا في كتاب الله، هناك آلاف القصص المشابهة التي نستمع إلى أخبارها كل يوم..

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ

ومهما رأيت من عذاب الخِزي في الحياة الدنيا، فعذاب الآخرة أخزى لأنه عذاب مستمر إلى أبد الآبدين، قال:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

فهل هناك من آية أوضح تبيّن أن الإنسان مخيّر من هذه الآية ؟

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(18))

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

المؤمن من الامتحان إلى النجاة والفوز:

يجب أن تعتقد من خلال هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يمتحن المؤمن، لكن في النهاية يُنَجّيه..

(وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19))

عندنا موضوع دقيق جداً ؛ سلطان الله عزّ وجل أمره نافذٌ في السماوات والأرض، ونافذٌ في كل شيء، ونافذٌ في أعضائك، قال:

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ)

حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ

هذا الذي يشهد عليك يوم القيامة ناطقا:

وجلودهم كناية لطيفة جداً عن أن الفواحش التي ارتكبوها بجلودهم هذه الجلود تشهد عليهم..

(بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21))

فتصورّ أنك لا تملك جلدك، بينما الإنسان في الدنيا إذا كان عنده أتباع فأتباعه يأتمرون بأمره، لا يجرؤ تابع أن يكون كلامه مخالفا لكلام متبوعه، يقول لك: هؤلاء جماعتي، لا تتكلّموا هذا الكلام فلا يتكلمون، وإذا قال لهم: تكلّموا فيتكلّمون، لكن يوم القيامة لست مهيمناً على جلدك، ولا على سمعك، ولا على بصرك، ولا على ولسانك..

(قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

فالإنسان في الدنيا يعتزّ بذكائه، فيرسم خططا، يكذب، ويغيّر الحقائق، ويزوِّر، ويظن أن الناس أغبياء، لكن بالآخرة لا يستطيع أن يفعل من هذا شيئاً..

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: من الآية 65)

فهنا الله عزّ وجل سلطانه نافذٌ في السماوات والأرض، ونافذٌ في أقرب الأعضاء إليك، إنها تنطق ضدّك يوم القيامة، والإنسان لا يجرؤ ابنه أن ينطق ضدّه أو يتركه يفعل ذلك، لكن أعضاءك وجلدك الذي عصيت الله به ينطق شاهداً عليك يوم القيامة..

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ(22))

خاتمة:

إذا علمت أيها الإنسان أن الله يعلم فقد حُلّت مشكلتك، لأنك إذا علمت أن الله موجود، وأن الله واحد، وأن الله كامل ـ وهذه ثلاثة أوصاف ـ وأن الله يعلم، وسوف يحاسب فلابدّ من أن تستقيم على أمر الله، فهو موجود، وواحد، وليس معه شيء، وكامل لا يظلم مثقال ذرّة، ويعلم ما تفعل، وسوف يحاسب، إذا أيقنت بهذه الكلمات الخَمْس تجد نفسك تأتمر بما أمر، وتنتهي عما عنه نهى وزجر، لذلك الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

اختار الله من أسمائه العلم والقدرة، فعلمه يطولك وقدرته تطولك، يعلم وسيحاسب، فإذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب فلابدّ من أن تستقيم على أمر الله.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة فصِّلت، ومع الآية الخامسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

وقبل هذه الآية حينما قال الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22))

دققوا في هذه الآية:

(وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23))

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ

1 - الجاهل يظن بالله غير الحق:

ماذا نفهم من هاتين الآيتين ؟ أن الإنسان إذا ظنّ بالله غير الحق، فهذا الظن قد يُرديه، ويهلكه، ويوصله إلى النار.

فالجاهل أيها الإخوة جعبته ممتلئةٌ بالمعلومات، لكن هذه المعلومات ليست صحيحة، والإنسان أحياناً يتوهَّم أنه يعرف، وهو لا يعرف، يظن بالله غير الحق ظن الجاهليّة، يظن أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان كافراً، وهذا الإنسان لا جريرة له بهذا الكفر، لكن الله قدّر عليه ذلك، خلقه كافراً ولمّا جاء إلى الدنيا نفّذ مشيئة الله عزّ وجل، ثمّ استحقّ النار إلى الأبد، وهذا الظن بالله هو الذي يُردي صاحبه،

فالإنسان يجب أن يدقِق في عقيدته، لعلّ في عقيدته بعض الظن السوء بالله عزّ وجل، والله عزّ وجل يقول:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: من الآية 180)

فالإنسان عليه أن يراجع ما تسرّب إلى عقله من عقائد زائغة، أو عقائد فاسدة، وليجعل من هذه الآية الكريمة:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(إِنَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا)

(سورة يونس: من الآية 44)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من الآية 40)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

2 ـ الجاهل يظن أن الله لا يعلم ما يفعله العبادُ:

النقطة الدقيقة هنا أن الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل فقد يتوهّم أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة]

ولذلك جعل الله علّة السماوات والأرض أن تعلم أن الله يعلم.

أنت إذا علمت أن إنساناً قوياً يعلم فإنك تنضبط، وهو إنسان من جلدتك، وهو ضعيف مثلك، وسيموت مثلك، لكنه الآن أقوى منك، إذا علمت أنه يعلم، وهو قادرٌ على أن يفعل ما يفعل فأنت لن تعصي هذا الإنسان، فكيف إذا علمت أن الله يعلم ؟ وأنت مكشوفٌ أمام الله عزّ وجل، لا تخفى عليه خافية.

دقِقوا في هذه الآية:

(وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ)

3 ـ العقيدة الفاسدة أحدُ أسباب الهلاك:

هذا الظن السوء بالله، أولاً: أن الله لا يعلم، أو أن الله لا يعلم كثيراً مما نعمل، ولا يوجد إنسان يرتكب المعصية وهو ضعيف الإيمان إلا ويتوهّم أنه ذكيٌ بهذا، ولو أنه علم أن الله يعلم، وسيحاسب لم يعد ذكياً، بل ظهر غبيا، بل من أغبى الأغبياء، فإذا أيقنت أن الله يعلم، وسيحاسب فلن تجد أنك أفلحت بالمعصية، ولن تجد أنك ربحت بالمعصية.

إذاً أحد أسباب الهلاك عقيدةٌ فاسدةٌ بالله عزّ وجل أو أن لا تعتقد الكمال المُطلق بالله عزّ وجل، أو أن تظنّ أن الله لا يعلم، أو أنه إذا علم لا يحاسب، إذا أسأت الظنّ بأسمائه الحسنى، أو بعلمه، أو برحمته، أو بعدالته، أو باليوم الآخر، أو بأنه لا شأن له بما يجري في الأرض، الله عزّ وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

النقطة الدقيقة جداً هنا أنك إذا ظننت أن الله لا يعلم فقد ترتكب المعاصي، ولن يرتكب أحدٌ المعصية إلا إذا ظنّ أن واضع هذا القانون غير موجود، فمتى تتجاوز الإشارة الحمراء ؟ الساعة الثالثة ليلاً، لماذا ؟ لأنه ليس هناك شرطة، فالذي وضع قانون السير لا يعلم من يخالف في هذا الوقت، إذاً الإنسان يخالف، أما إذا علمت أن الذي وضع هذا القانون يعلم فلا يمكن أن تخالف، هذا مع إنسان، فكيف مع الواحد الديان ؟ هذا مع إنسان من بني البشر، لكنه أقوى منك قليلاً، وبإمكانه أن يوقع بك الأذى كثيراً أو قليلاً، ومع ذلك فأنت لا تعصيه، قال:

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ)

لو استعرضنا بعض العقائد الزائغة أن الإنسان قد يفعل ما يفعل، وقد يرتكب ما يرتكب، وقد يرتكب حتى الكبائر، لمجرّد أنه منتسبٌ إلى هذه الأمّة الإسلاميّة فسوف تناله شفاعة النبي، انتهى الدين كله، هذه إحدى العقائد الزائغة، شفاعة النبي حق، ولكن ليست بهذه الصورة الساذجة، ليس النبي يشفع لمن مات مشركاً، لا ينال شفاعة النبي إلا من مات غير مشرك، أو مات مخلصاً، أو طائعاً.

الآن:

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ)

فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ

1 ـ لا صبْرَ على النار:

الصبر في الدنيا ينتهي إلى الفرج، فالإنسان يتحمّل بعض المتاعب على أمل أن يناله الفرج، ولكن الصبر على النار ليس بعده إلا النار، وهذا الصبر الذي لا شيء وراءه..

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)

هناك إنسان ساقوه للإعدام فهل يرغب أن يصبر أو لا يصبر إذ لابدّ من أن يُعدم، هل يضحك ؟ أو يبكي، أم يتوسّل، أم يتماسك، أم يتحدّى، أم يشتم، كله سواء، وصل إلى الطريق المسدود، فأخطر شيء أن يصل الإنسان مع الله إلى طريقٍ مسدود.

قال:

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ)

2 ـ لا عتاب بعد الموت:

العتاب ينقطع، لماذا ؟ أنت تعاتب من ترجو فيه الخير، وأنت تعاتب من ترجو فيه الصلاح، ولكن إذا مات الإنسان وخُتِم عمله، وضيّع الآخرة الثمينة بالدنيا تافهة ففرص الخلاص انتهت، وفرص النجاح انتهت، وفرص المغفرة والتوبة قد انتهت، فالعتاب لا معنى له.

أحياناً تلاحظ أبًا حينما يتلقّى نتيجة ابنه أنه راسب انتهى العتاب، قد يعاتبه قبل الامتحان لعلّه يضاعف جهوده، قد يعاتبه في الوقت المناسب لعلّه يتدارك النَقص، أما حينما يقدِّم الامتحان ويرسب، فهذه السنة الثانية في الرسوب، ولابدّ له من أن يُفْصَل من هذه المدرسة ومن كل المدارس فقد يسكت الأب، لا لأن ابنه لم يفعل شيئاً، بل لأن العتاب لا يجدي ولا ينفع.

(فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25))

وَقَيّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء

1 ـ إمّا ملَكٌ يلهم الخيرَ ،غمّا شيطان يوسوس:

الحقيقة أن الإنسان إما أن مَلَكَاً يُلهمه رشده، أو أن شيطاناً يوسوس له، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يجعل لهذا الإنسان مَلَكَاً يلهمه الخير وشيطاناً يوسوس له الشر، وهو مخيّر، فلا الشيطان يستطيع أن يفعل به شيئاً إلا أن يوسوس.

2 ـ لا سلطان للشيطان على أحدٍ:

أدق آية في هذا الموضوع تكشف لنا حقيقة هذه الآية، والقرآن كما تعلمون سُمّيَ بالسبع المثاني، أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسّرِها..

(وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

كل إنسان يرتكب معصية ويقول: الله يلعن الشيطان، فهو إنسان جاهل لأن الله سبحانه وتعالى يبيّن هذه الحقيقة الخطيرة:

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

هناك إنسان نزل في حفرة من المياه السوداء، ويرتدي أجمل الثياب البيض، والمياه سوداء ـ مياه مجارٍ ـ فذهب إلى المخفر ليشتكي على من كان السبب، سأله المحقِق: الرجل دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال: لا والله، قال له: شهر عليك مسدّساً، وقال لك: انزل ؟ قال: لا والله، لم يفعل هذا، قال له: لِمَ تشتكي عليه ؟ قال: قال لي: انزل فنزلت..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

إذاً:

(وَقَيّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيّنُوا لَهُم مّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

3 ـ فلسفةُ المعصية وتزيينُها:

الشيطان يزيّن، لكن من هو أشقى الناس ؟ هو الذي يستجيب لهذا التزيين، ويظن أنه يُحسن صنعا.

الحقيقة عندنا إنسانان يرتكبان معصية ؛ واحد يرتكب المعصية وهو متألِّماً أشد الألم، نادماً أشد الندم، منزعجٌ أشدّ الانزعاج، وإنسان آخر يرتكب المعصية، ويظن أنه يُحسن صنعاً بها، يظن أن الحياة هكذا، وهذا مذهب، هكذا الواقعيّة، والحضارة، هكذا الرُقِيّ، فأخطر إنسان هو الذي ماتت منه القيَم، وخَفَتَ في نفسه صوت الضمير، فإذا فعل معصيةً، أو ارتكب مخالفةً، أو وقع في انحطاطٍ معيّن يظن أنه يحسن صنعاً، لهذا فربنا عزّ وجل قال:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

(سورة الشمس)

فالإنسان مفطور فطرةً حيث لو اتقى الله لعرف أنه يتقي الله، ارتاحت نفسه، اطمأنّ قلبه، ولو أنه ارتكب معصيةً لشعر أنه قد عصى، شعر أنه قد فجر، وهذا من فضل الله علينا، ومن أكبر النِعَم على بني البشر أن الله فَطرهم فطرةً عالية حيث لو فعلوا معصية، أو ارتكبوا إثماً، أو أساءوا، أو أوقعوا الضرر بالناس لشعروا بانقباض، هذا معنى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

وأشقى من ذلك من خفت في نفسه صوت فطرته، فإذا فعل السيّئات يقول: ماذا فعلت ؟ هذا أشقى الناس، مَن طُمِسَت فطرته، وخفت صوت ضميره، وانقلبت موازينه، فبدل انه إذا عصى الله عزّ وجل يتألّم، ولعلّ هذا الألم يحمله على التوبة، يفتخر، ويظن أنه يحسن صنعاً، هذا الإنسان بلغ الحضيض..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

فالشيطان يزيّن، والمَلَك يُلهم، والسعيد من أصغى إلى صوت الملك فاتبع رُشْدَهُ، والشقي من استجاب إلى وسوسة الشيطان فسلك في طريق الهلاك.

4 ـ استعذ بالله فيخنس الشيطانُ الرجيم:

أنت مخيّر، والشيطان ليتكلّم ما شاء، لكن ليس له عليك من سلطان، ولا يستطيع الشيطان أن يفعل معك شيئاً إلا أن يوسوس، وأنت بهذه الوسوسة تُمتحن، فإما أن تستجيب لها، وهذا من اختيارك، ومن ضعف نفسك، وحبّك للمعصية، ورغبتك في اقتراف الإثم، وإما أن لا تستجيب فيخنس، وسمي الوسواس الخنّاس، لمجرّد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يخنس الشيطان، فالشيطان ضعيف جداً لا يملك إلا أن يوسوس، والوسواس الخنّاس لا يحتمل أكثر من كلمة أعوذ بالله، لا يحتمل أكثر من

كلمة خَسِئتَ يا شيطان، وانتهى الأمر، لكن من كان في نفسه مرض، ومن أراد المعصية، والإغواء، والخروج عن منهج الله يتوافق خروجه مع وسوسة الشيطان، فأنا أعتقد من خلال آياتٍ كثيرة أن الشيطان لا يستطيع أن يضلّ أحداً..

(رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(27))

(سورة ق)

عملية توافق فقط، فالشيطان وسوس، والذي يستجيب لوسوسته هو على شاكلته، لأنه يرغب بهذا العمل، والدليل الشيطان يوسوس لمائة إنسان، المؤمن لا يستجيب له والفاسق يستجيب.

دعونا من الشيطان، رفيق سوء في مدرسة، في هذا الصف طلاب تربيتهم راقية، ورفقاء السوء لا يستطيعون أن يفعلوا معهم شيئاً، لكن رفيق السوء من الذي يُغويه ؟ من كان على شاكلته، ومن كان عنده استعداد للغواية، ولتشرد هذا اقترف المعاصي، فيجب أن تعتقد أنه لا يستطيع أحد أن يضلّ أحدًا، يجب أن تعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يغوي أحداً، يجب أن تعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يفسد أحد، ولا يفسد الشيطان إلا من هو فاسدٌ في الأصل، ولا يغوي إلا الغاوي، ولا يدفع إلى ارتكاب الإثم إلا الآثم..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

5 ـ الغفلة باب عظيم يدخل منه الشيطان:

أحيانا إن لم ينظِّف الإنسان بيته تنظيفاً تاماً فهناك حشراتٌ مزعجة، وهذه الحشرات لها وظيفة، الرَدْع، فالإنسان إذا ترك نفسه بلا تعلُّم، وبلا طالب علم، وبلا إيمان فالشيطان جاهز، وله دور أنك إذا لم تسعَ إلى الله سعياً حثيثاً فقد يظهر قصورك الشيطان، والذباب أحياناً يظهر قصور أهل البيت في تنظيفه، ولمجرّد أن يبقى على المائدة بعض الطعام، أو بعض المواد السكريّة، أو الدهنيّة تجد الذباب جاء، ومجيء الذباب دليل على أن هناك خَلَلا في هذا البيت، وهناك تقصيرًا في نظافته، إذاً: هذا التوافق توافق عجيب، والإنسان حينما يغفل يأتي الشيطان، ويوسوس، و يدفع إلى المعصية، فله دور سلبي، وله دور إيجابي، الدور الإيجابي أنك إذا أردت أن تكون في منجاةٍ منه دائماً فاعتصم بالله، واستعذ بالله، وأقم على طاعته..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

6 ـ الشيطان يأتي للإنسان من جهات معينة:

والشيطان له مهمّتان: ما بين يديك يقول لك: أنت شاب والآن، هذا المال بإمكانك أن تنفقه وتستمتع به، وأن تعبّر عن حاجاتك الأساسيّة، فيدعوك إلى المعصية، فإذا خفت من حساب الله عزّ وجل يقول لك: الله غفورٌ رحيم، يا أخي لا تدقِق، ولا تتزمّت، هذا كلام العوام، والشيطان له دوران ؛ أن يأمرك بالمعصية، وأن يطمئنك إلى أن الله لن يحاسبك، أنت مسلم تنالك شفاعة النبي، غداً تتوب، بعد غدٍ تتوب، هذه ليست معصية، وهذه قضيّة خلافيّة، وهناك من أفتى بها، فدور الشيطان أن يأمر بالمعصية، وأن يطمئِن من الحساب الدقيق الذي سيحاسبه الله عزّ وجل، وهذا معنى قوله:

(وَقَيّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيّنُوا لَهُم مّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

7 ـ طولُ الأمل سلاح الشيطان:

أو يوقعك في الأمل، فتجد أحلام الإنسان بالمستقبل، يحلم أن يسكن بيتًا، وله صفات معيّنة، أو أن يملك كتلة نقديّة لها حجم معيّن، أو أن يشتري مركبة فاخرة ذات مواصفات خاصّة، ويحلم أن يصل إلى مركز معيّن، أن يتسلّم مثلاً منصبا رفيعا، هذا الأمل، وقد يكون الأجل قبل تحقّق الأمل، ودائماً الأمل أبعد كثيراً من الأجل، فلا تجد إنسانا مات إلا وله آمال تزيد عن عشرين عاماً، أو ثلاثين عاما، فأكفان هذا الإنسان نُسِجَت وهو يأمل بالدنيا ولا يدري، وهذا شيء بين أيدينا، مغادرة الدنيا تتم بثانيةٍ واحدة من دون إنذار مسبق، فهناك حالات موت تأتي بعد مرضٍ عضال، وحالات تأتي بلا مسبّب، يقول لك: البارحة كنا في نزهة معاً، وقبل قليل كان معنا يتحدّث ولا يشكو شيئاً، وهذه المغادرة السريعة..

(وَقَيّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيّنُوا لَهُم مّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

8 ـ مَا خَلْفَهُمْ

إما أنه يخفِّف عليك من حساب الله، ويُمَنّيكَ بالشفاعة تارةً، وبالعفو تارةً، والمغفرة تارةً، أو أن الله لا يحاسب بهذه الطريقة، هذه الطريقة ليست معقولة، أو أنه يزيّن لك الحاضر والمستقبل، ويوقعك بالأمل. إما أنه يدفعك إلى معصية ويخفّف عن كاهلك أعباء العقاب، أو أنه يزيّن ما بين يديك وما خلفك أي ما بعد ما بين يديك..

(وَحَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مّنَ الْجِنّ وَالْإِنس إِنّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

9 ـ وَحَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ

معنى:

(وَحَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)

أي أن الله عزّ وجل له سُنن، وله قوانين ثابتة، فكل إنسان أعرض عن الله عزّ وجل وانكبَّ على الدنيا، وحجب نفسه عن ربّه، وغرق في المعاصي ينطبق عليه القانون الإلهي، وهذا حينما حجب نفسه عن الله صار أعمى، فلمّا صار أعمى حرّكته شهواته فقط، وشهواته ليس لها حدود، ولابدّ من أن يأخذ ما له وما ليس له، وأن لا يقنع بما أحلّ الله له، ويعتدي على أعراض الناس، لأنه وقع في العمى والشهوة مُسْتَعِرَة، واشتعال الشهوة مع العمى كمحرّك قوي جداً، والسائق مغمض العينين، والطريق كله منعطفات فالحادث حتمي.

قانون الهلاك:

إذا كانت شهوات الإنسان مستعرة، وإيمانه ضعيفا أو معدوما، وبصيرته منطمسة، والطريق فيه مفاجآت، وفيه التواءات، ومطبّات فالهلاك محقّق، هذا معنى:

(وَحَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنّ وَالْإِنس)

والآن لو أن أحداً قال لك: فلان ركب مركبة، وانطلق بها في منحدر شديد، وفي نهاية هذا المنحدر مُنعطفٌ شديد، ومكبحه مُعَطّل، وأنت لم تشاهد الحادث فتقول: التدهور محقّق، فما دام الانطلاق سريعا، والطريق هبوطه شديد، وينتهي بمنعطف حاد، والمكبح لا يعمل فالحادث حتمي، هذا قانون، فالقضيّة سهلة، والله وضع قوانين..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

العقل بغير هدىً من الله مآله الضلال:

لم تكن بصيراً، بل كنت أعمى، فمعنى هذا أن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله صار أعمى، وأنّ عقل الإنسان كعينه تماماً، كيف أن هذه العين لو كانت اثني عشر على اثني عشر، هو طبعاً أعلى درجة في العين عشرة، ولكن هناك حالات بلوحات الفحص حرف في آخر سطر إذا عرفت جهته يقول لك: اثنا عشر على عشرة، أي أن العينين تتمتّعان بأعلى درجة رؤية، وأدق درجة، ولكن لا يوجد ضوء، لا

ترى شيئاً بهما على دقّتهما، فكذلك العقل لو كان عقلا ذكيا جداً، إذا لم يكن فيه نور إلهي وهدى من الله قد يضل.

وهذه أوروبا أمامكم، الأسرة انتهت، بنهاية هذا القرن عشرون مليون مصاب بالإيدز، وكل دقيقة يموت إنسان، أين عقلهم ؟ ضلوا، هداهم عقلهم إلى أن الشهوة هي إلهُهُم، هداهم عقلهم إلى أن الدنيا هي كل شيء، هداهم عقلهم إلى أن المتعة هي كل شيء في حياة الإنسان، فالعقل من دون هدى من الله يضل، وأمم كثيرة جداً قد قدّمت إنجازات حضاريّة يعجز العقل من تصوُّرها، ولكنّها في المستوى الآخر الأخلاقي في الوحول وفي الحضيض، معنى هذا أن العقل يحتاج إلى نور من الله عزّ وجل.

إذاً هذه الأمم..

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

واجهد أن لا تنطبق عليك قوانين الله، فنحن أحياناً بالتعامل اليومي تحاول بواسطة إدخال طالب للجامعة، وذلك مستحيل لنقص في العلامات، والقانون انطبق عليك، فحرَمك من الدخول إلى الجامعة، لأن علاماتك قليلة، فهنا حقّ عليهم القول، أي ليس الله عزّ وجل قدّر عليهم هذا الشقاء، لا، حاشا لله، لكن انطبقت عليهم قوانين الله، أعرضوا عن الله عزّ وجل فكانوا في عمىً، فلمّا كانوا في عمىً وفيهم شهوات مستعرة تحرّكوا بلا مقود، أو بلا بصيرة، أو بلا نور مصيره إلى الهلاك.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

1 ـ الكافر ضالّ في نفسِه مضلّ لغيره:

الكافر مشكلته ليس ضالاً فحسب، لكنّه ضالٌ مضل، وليس فاسداً فحسب، بل هو فاسد مُفْسِد، وليس مُنحرفاً فحسب، بل هو منحرف ويدعو للانحراف، فهؤلاء هم الكفّار..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ)

2 ـ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ

لأن الكفار يبغونها عوجا، والقرآن مبادئ، وقوانين، وأوامر، ونواهٍ، وحدود، ومنهج، ودستور، ونظام يضمن للجميع سعادتهم، أما الكفار فشهوتهم تقودهم، وأهدافهم دنيويّة، ويحبون أن ينغمسوا في الملذّات إلى قمة رؤوسهم، ما الذي يعطِّل عليهم رغبتهم ؟ منهج الله عزّ وجل، إذاً لابدّ من محاربته، والقرآن

يأمر بغض البصر، وهم يجدون متعةً بالغة في إطلاق البصر، القرآن يأمر بالكسب الحلال، هم يجدون متعةً بالغة في الكسب الحرام، القرآن يأمرهم بعدم إيذاء الآخرين، هم يبنون أمجادهم على أنقاض الآخرين، القرآن يأمرهم أن يقفوا عند حدود الله، هم يريدون أن يتحرّكوا كالدواب المنفلتة.

نظام شهواتهم وعقيدتهم القائلة بأن الدنيا هي كل شيء، وأن الموت نهاية كل شيء، وأن الآخرة سرابٌ في سراب، هذه العقائد وتلك الشهوات لا يناسبها القرآن، القرآن منهج، القرآن منظومة قيَم، مجموعة أوامر و نواهٍ، لذلك هناك تناقض بين عقيدة الكافر ومطامحه في الحياة، لذلك من الطبيعي جداً أن يحارب القرآن، طبيعي جداً، فالقرآن نظام مثالي يكشف انحراف الكافرين..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ)

معنى: وَالْغَوْا فِيهِ

المعنى الأول:

أي ما من كلمةٍ تصدق على:

(وَالْغَوْا فِيهِ)

كالقراءة المُعاصرة للقرآن الكريم، أي نريد أن نفرّغ الآيات من مضمونها، نريد أن نربط القرآن بالسلوك المعاصر، وأن نجعل الإنسان يفعل كل شيء، ويرتكب كل المعاصي، ويقتنص كل الشهوات، وهو مغطّى بالقرآن، فعملية جر الآيات إلى مصالح وإلى انحرافات وإلى شهوات هذا معنى:

(وَالْغَوْا فِيهِ)

المعنى الثاني:

أو لا تسمعوا لهذا القرآن، وأتوا بكلامٍ آخر لينشغل الناس به، فهناك قرآن وهناك غناء، وشِعر لا يقدِّم للإنسان شيئاً، فإما أن تأتي بكلام من أجل أن تشغب على القرآن، من أجل أن تصرف الناس عنه، وإما أن تحاول أن تؤوّل القرآن تأويلاً غير صحيح، وإما أن تفجّره من داخله أو تُعَطِّله، أو تُشاغِب عليه، وأحياناً كثيرة نحن نرغب أن لا نسمع الناس هذا البث، فنشوّش عليه تشويشا، فالكافر ماذا يفعل ؟ يشوّش على القرآن بأن يأتي بأشياء مناقضة له.

والقرآن يقول: إن الإنسان أصله من آدم وحواء، والكافر يقول: الإنسان أصله قرد كما قال داروين، وهذه النظريّة تشوّش على الكتاب تفسيره لبدء الخلق، القرآن يقول لك: الآجال محدودة، والكافر يقول

لك: لا، هذا الدواء يطيل العمر، القرآن يقول: غضوا الأبصار، بينما يقول الكافر: لا، هذا جمال فاستمتع به، لأنك إنسان وعندك حاجات، فالكافر دائماً يأتي بنظريات، وتعليلات، وتوجيهات تناقض القرآن الكريم، فهذا معنى قوله:

(وَالْغَوْا فِيهِ)

أي شوّشوا عليه، أو انقضوا ما فيه، أو عطِّلوه، إنها عملية محاربة للقرآن الكريم، إما أن نقول: هذا الكلام ليس كلام الله، أو أنه لا يصلح لهذا الزمان، أو أن فيه تناقضات كثيرة جداً، أو أنه كتابٌ تاريخي، وانتهى أجله، أو أن نأتي بتأويلاتٍ لآيات القرآن الكريم تفسد معناها الحقيقي، أو أن نربط هذا القرآن بالسلوك المعاصر، أو أن نفرّغ الآيات من مضمونها، هذا كلّه محاولات الكفار للنيل من هذا الكتاب، لكنّه والحمد لله شامخٌ كالطود، وكلّما ائتمر الكفار على التشويش عليه ما زادوه إلا قوّةً، وما زادوه إلا وضوحاً، وكما قيل: لو تحوّل الناس جميعاً إلى كنّاسين ليغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم"، وما ضرّ السحبَ وهي في السماء نباحُ الكلاب وهي في الأرض. يقول الله عزّ وجل:

(فَلَنُذِيقَنّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَسْوَأَ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فَلَنُذِيقَنّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَسْوَأَ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

1 ـ للباطل جولة ثم يضمحل:

هذا وعيدٌ من الله عزّ وجل، فالإنسان ليتحرّك ما شاء له التحرُّك، أما أن يقف في خندقٍ معادٍ للدين فهذا من أشقى الناس، لأن هذا الدين دين الله، والله سبحانه وتعالى يقصم أعداءه، والإنسان يتحرّك لكن أن يجعل نشاطه في معاداة الدين، ومعاداة هذا الكتاب الكريم، وأهل الحق والدعاة الصادقين، فهذا من أشقى الناس..

(ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللّهِ النّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

وللباطل جولةٌ ثمّ يضمحِل، وكلكم يعلم أن البشريّة مهما ابتعدت عن الدين فلابدّ من أن تعود إليه، لأنه ملاذها في النهاية، وقد أتى على الناس وقتٌ تألّقت فيه المبادئ الوضعيّة، وأعرضوا عن دين الله عزّ وجل، لكن هذه المبادئ الوضعيّة ما لبثت أن انهارت واضمحلّت، وظهرت تناقضاتها، وأصبحت

تدوسها الأقدام، ولم يبقَ أمام الناس حلٍ لما هم فيه، وخلاصٍ لمحنتهم إلا أن يعودوا إلى الله عزّ وجل.

أما قوله تعالى:

(فَلَنُذِيقَنّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً)

2 ـ فَلَنُذِيقَنّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً

ألا ترون أيها الإخوة إلى الكوارث التي تقع من حينٍ لآخر، ولا سيما في بلادٍ كفرت بربّها، وانحرفت انحرافاً شديداً ؟ البلاد التي تحتضن الانحرافات الأخلاقيّة، وترعى كل المعاصي، وفيها قلاعٌ عتيدة ترتكب فيها المعاصي، وهذه البلاد تارةً أصيبت بالزلازل، وتارةً أصيبت بالانهيارات أو الحروب الأهليّة، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَلَنُذِيقَنّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً)

ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

فالتاريخ المعاصر مملوء بالعذاب الشديد الذي يصيب الكفّار، أما الذين يدّعون الإيمان أيضاً فلا ينجون من عذاب الله، لكن عذاب الله للمؤمنين المقصّرين عذابٌ رَدْعِيّ، بينما عذاب الله للكفّار عذاب قصم وإنهاء. أما يوم القيامة:

(وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَسْوَأَ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

3 ـ وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَسْوَأَ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

لقد استمتع عشر سنوات بالمعاصي، الأيام التي عاشها تُعد، والمباهج التي نعم بها تُعد، لكن جهنّم أبديّة لا تعد، أيّامها لا تعد. إذاً:

(وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَسْوَأَ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللّهِ النّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28))

ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللّهِ النّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

1 ـ الجحود بآيات الله أول طريق الكافر:

والحقيقة الجحود بالآيات أول الطريق، جحد بالآيات أي لم يؤمن بالله عزّ وجل من خلال جحوده بالآيات، إن لم يؤمن بالله عزّ وجل، وهو عنده شهوات متقدة انطلق وراء شهواته، من لوازم اتباع الشهوات الطُغيان، لأن الشهوة عمياء، الشهوة من دون منهج، ومن دون قرآن شهوة طاغية، والطغيان معه ظلم والظلم مصيره العقاب الأليم.

إذاً:

(ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

2 ـ كل المعاصي تأتي بعد الجحود:

الحقيقة أن الله ذكر أول الذنب، أما البقيّة فواضحة، جحد بالآيات فارتكب المعاصي والموبقات، وطغى وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى فاستحق هذا العذاب الأليم الأبدي السرمدي ..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

إنه مشهدٌ عظيمٌ:

ففي يوم القيامة هناك مشكلة ثانية، هي أن الضال يصبُ كل حقده على الذي كان سبباً لضلاله، وقبل قليل ذكرت لكم أنه لا يستطيع أن يضل أحدٌ، لكن توافق رغبات، توافق ميول، والإنسان بساعة من ساعات ألمه الشديد يتكلّم كلام لا معنى له..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى صورةٍ أخرى، هنا هؤلاء القرناء كيف يوسوسون، وكيف يدفعون الإنسان إلى المعصية، وكيف يتخلون عنه يوم القيامة، ولكن المؤمنين لهم شيءٌ آخر، لهم ملائكة..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

وشتَّانَ بين وسوسة الشيطان وإلهامات الملك.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة فصّلت، ومع الآية الثلاثين، وهي قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ

1 ـ الغرضُ من استعمال التوكيد:

أيها الإخوة، إنّ حرف مشبّهٌ بالفعل يفيد التوكيد، فهنا تؤكِّد ماذا ؟

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)

فإن تفيد توكيد، أو تأكيد إسناد الخبر للمبتدأ، تقول: العلمٌ نافعٌ، يقول لك أحدهم: أين نفعه، فالمتعلِّمون أقلّ الناس دخلاً ؟ تقول له: إنّ العلم نافع، تريد أن تؤكِّد إسناد الخبر للمبتدأ، أي أن العلم نافعٌ قطعاً، وأؤكِّد لك ذلك.

فربنا سبحانه وتعالى إذا جاء في كلامه أدوات توكيد فالتوكيد لنا ليطمئننا، وليزيل وحشتنا، وليجعلنا نطمئن إلى وعده، فالتوكيدات التي تأتي في القرآن الكريم المقصود منها تطمين المؤمن..

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

2 ـ هل يكفي أن يقولوا: ربنا الله ؟

قد تسألون هذا السؤال: هل يكفي أن يقولوا: ربنا الله ؟ كلمة (قال) في القرآن الكريم وفي السُّنة المطهّرة تعني أنه اعتقد جازماً، عملية تثبيت، هذا الإنسان درس، واستقصى، وتأمّل، وحلّل، وبحث عن الأدلّة والأسباب، ثم استقرّت في نفسه حقيقة، فإذا استقرّت يقول: أنا مؤمنٌ بكذا، لكن بعد ظهور النفاق صار القول يحتاج إلى أن يؤكِّده العمل، وأن يؤكده ما في القلب، لأن الإيمان تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان.

" ليس الإسلام بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل ".

[هذا القول لم يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام بل هو من قول الحسن البصري]

أما كلمة قالوا هنا فمقصودها إنسان بعد البحث، والدرس، والتأمُّل، والاستقصاء، والأخذ والرد استقرّت في نفسه حقيقة، فلمّا استقرّت عبّر عن استقرارها بأنه قال كذا..

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

3 ـ إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ

مقام الربوبية:

ربنا تعني مُرَبّينا، إذ لا يوجد اسم من أسماء الله عزّ وجل أقرب للمؤمن خاصّة، وللإنسان عامّة من كلمة رب، إذ مقام الربوبيّة يحتاج إلى عِلم، ويحتاج إلى رحمة، وخبرة، وقوّة، وغنى.

تصورّ أبا في أعلى درجات الفهم، والغنى، والقوة، والحكمة، والنزاهة وعنده طفلٌ صغير يربيه، ويربي جسده، فإذا احتاج إلى عمليّة جراحيّة يجريها له عند أمهر الأطبّاء، إذا لزمه تقويم أسنان يقوم له به عند الأطبّاء، وإذا رأى في سلوكه انحرافاً يسلك معه طريق التربية الرادعة أو المشجّعة.

فالتربية مقام أساسه العلم والرحمة، وأساسه الحكمة، والعطف، والقوّة، والغنى، والخبرة، فإذا أيقنت أن الذي يربيك حقيقةً كيف يربيك ؟ أولاً اختارك من هذا الأب وهذه الأم لحكمةٍ ما بعدها حكمة، ولو كُشف الغطاء لاخترت الواقع، اختارك من أبٍ وأم، واختارك أن تكون في هذه البلدة، وأن تأتي إلى الدنيا في هذا الزمن، وأعطاك شكلاً خاصّاً، وقدارت ومعطيات وظروفاً بيئيّة خاصّة، فهذه الأم وذاك الأب، وهذا المكان وذاك الزمان، وهذه القدرات وتلك المعطيات، وهذه الظروف التي مررت بها هذه من عند حكيمٍ، عليمٍ، خبيرٍ، رحيمٍ، قويٍ، غنيٍ، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

لا يكمل إيمان مؤمن حتى يرضى بقضاء الله وقدره:

إذا أيقنت أن ربّك هو الله، الله عَلَمٌ على الذات صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، واجب الوجوب، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، والكون كله بيده، والأحداث كلّها من صُنعه، وخصوم الإنسان كلّهم في قبضته، وأجهزة الإنسان كلها رهن إشارته، ما فوق الإنسان، وما تحت الإنسان، وما قبل الإنسان، وما بعده، وكل ما يجري في هذا الكون بيده.

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر)

الإله الذي أوجد هذا العالم وسيّره، هو الموجود والواحد والكامل، كلمة الله تعني مقام الخالق، مقام الخلق، مقام الربوبيّة، مقام التسيير والألوهيّة، وتعني الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى..

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ)

الإنسان لا يستكمل إيمانه إلا إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والإنسان أحياناً من بعض الأمثلة الماديّة يفهم بعض الحقائق.

تصوّر طفلا صغيرا له أبٌ عظيم ؛ عظيم برحمته، وبعلمه، عظيم بحكمته، عظيم بحرصه، عظيم بإخلاصه، وبقوّته، كل هذه الخبرات، وتلك القُدرات، وهذه الحِكَم، وتلك العلوم كلها من أجل أن يكون هذا الابن في أعلى درجات الرُقي، الأب مربٍ والأم مربيّة، أما إذا وضعنا تربية الأب والأم أمام تربية الله عزّ وجل فهي لا شيء، لأنهما يربيان ابنهما على حسب علمهما، وشتّان بين علم المخلوق وعلم الخالق، يربيان ابنهما على قدر إمكاناتهما، وشتّان بين محدوديتهما وبين طلاقة قدرة الله عزّ وجل، والإنسان حينما يؤمن أنّ الله هو المربي تُحلُّ كل مشكلاته، لأنه رحيم حكيم عليم، وهذا الذي ساقه لك قراره، هذا أمره، لهذا قالوا: " الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن "، فما من مشكلة، وليس في الإمكان أبدع مما كان..

((لا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشّيْطَانِ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

الإنسان لا يسعد إلا إذا اطمأنّ إلى جهةٍ عظيمةٍ ترعاه وتربيه، لذلك ترى معنويات المؤمن عالية جداً، من أين جاءها هذا العُلو ؟ من ثقته أن الله هو المُربي.

تربية الأب والأم مظهرٌ لعناية الله بالإنسان:

مرّة سمعت كلمةً في الطريق أثارت مشاعري، أحدهم يقول للآخر: إذا لم يكن له أب فله رب ؟ شعرت أن ربنا جلّ جلاله هو المُربي وحده، وما تربية الأب وما تربية الأم إلا مظهرٌ لعناية الله بهذا الإنسان.

ليس هناك أمرٌ في كتاب الله من أوله إلى آخره، ولا في سنة رسول الله، يقول لك: كُلِ الطعام، لأن هذا شيء بديهي، فالله عزّ وجل أودع فيك الدافع إلى تناول الطعام، إنه دافع قوي، فأنت لا تنام الليل إن كنت جائعاً، تبحث عن الطعام من دون أن تحتاج إلى أمر يقول لك: كل الطعام، بل ركّبه في طبيعتك، ذكرت هذا المثل تمهيداً لمثل آخر:

الله عزّ وجل أودع حبّ الأبناء في قلوب الآباء، الأب لا يسعد إلا إذا كان ابنه سعيداً، فلا يقر له قرار إلا إذا كان ناجحاً في عمله، وزواجه، وبيته وفي مجتمعه، بل إن الأب يتمنّى أن يكون ابنه أعلى الناس وأعلى منه، والأم كذلك، فحُب الله لهذا المخلوق جُسِّد وتمثّل في حب أمِّه وأبيه له.

اذهب إلى بعض المصحّات أو إلى مستشفى الأطفال، وانظر، الأمهات على اختلاف زيّهن، وانتماءاتهن، ومشاربهن، وثقافاتهن ؛ أم مثقّفة، أم غير مثقّفة، أم مسلمة، أم غير مسلمة، أم متفلِّتة من الدين، أم منضبطة بأمر الله، كل هؤلاء النسوة يعطفن على أولادهن، ويشفقن عليهن بشكلٍ لا يصدّق، وهذا ما أودعه الله في قلوب الأمهات.. **" إذا أحبّ الله عبداً ألقى حبّه في قلوب الخلق ".**

والله الذي لا إله إلا هو حينما أرى عناية أبٍ أو أمّ منصبّة على ولدهما لا أرى إلا عناية الله مجسّدة في عناية الأب والأم.

قصّة رمزيّة لم تقع، لكن لها معنى: أمٌ كانت تخبز على التنور، وابنها على طرف التنور، فكلّما وضعت رغيفاً في التنور قبّلته، نبيٌ كريم قال: يا رب، ما هذه الرحمة التي أودعتها في قلب هذه الأم ؟ قال: هذه رحمتي، ولو نزعتها لألقته في التنور.

أمامنا بعض الحيوانات تأكل أولادها، حيوانات كثيرة، تربيه إلى أجلٍ، ثم تأكله، من أودع في قلوب الآباء والأمّهات هذا العطف وذاك الحرص، انظر إلى كل الأُسر تقريباً، الأب يسعى ليلاً نهاراً لتزويج أبنائه، ولتأمين مستقبلهم، والأم تسعى ليلاً نهاراً لزواج بناتها، بل إن في الأمهات عاطفة عمياء فالأم تعطف على بناتها وتراهن في أعلى المستويات وهنّ لسن كذلك، لكن هذا من تكريم الله للإنسان.

حينما يكون علمُ الإنسان محدوداً يرى أمه وأباه، أما إذا تعمّق في العلم فيرى رحمة الله تجسّدت في رحمة الأب والأم، ينظر عناية الله تجسّدت في عناية الأب والأم، وحكمة الله تجسّدت في أنه أودع في قلب الأم والأب هذا العطف وذاك الحب وهذه الرحمة.

كيف أن الإنسان يندفع إلى تناول الطعام، ولا يحتاج إلى أمر، ولا إلى توجيه، ولا فريضة، ولا أن يسأل: أخي ما رأي الفقهاء في تناول الطعام ؟ فأنت لا تحتاج إلى رأي الفقهاء، قم وكل، هذا الموضوع لا يحتاج إلى رأي الفقهاء، وهو مركّب في جِبلّتك، وفي كيانك. وكذلك رحمة الآباء والأمهات بالأبناء مركّبةٌ في كيان كل أبٍ وأم، وهذا تجسيدٌ لرحمة الله عزّ وجل، حتى أن بعض المفسّرين حينما فسّر قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي)

(سورة طه: من الآية 39)

فُسِّرَت هذه الآية بأن محبة العباد انعكاسٌ لمحبة الله.

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ)

إذا آمنت أن الله هو الرب، وأنا أقول لكم أيها الإخوة: والله لو كُشِفَ الغطاء، أو لو كشف الله لهذا الإنسان عن حكمة الذي ساقه إليه من المكاره، والصعوبات، والمتاعب والله الذي لا إله إلا هو يجب أن يذوب كالشمعة تماماً حباً لله عزّ وجل، هكذا ينبغي له أن يكون، لكن هذا الذي يعترض على أفعال الله، وعلى حكمته، وتصرُّفاته، وقد يطعن في بعض أسمائه الحُسنى هذا إنسان لا يعرف الله..

(يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيّةِ)

(سورة آل عمران: من الآية 154)

أنت ربك الله، فالتربية تبدأ ؛ إذا استقمت يشجّعك، إذا انحرفت يؤدِّبك، وإذا كسبت مالا حلالا يبارك لك فيه، والمال الحرام يتلفه لك، وأعطاك درسا قاسيا، وإذا تجبَّر الإنسان قصمه، وإذا تكبّر أهانه، وإذاتواضع رفعه، فحينما تفهم على الله أفعاله تكون قد قطعت شوطاً كبيراً في طريق معرفة الله.

4 ـ المؤمن يرى ربّه الله:

مركز الثِقل في الآية:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ)

الإنسان لا يرى الله ربّه، بل يرى زيدا أو عُبَيدا، ويرى شخصاً قوياً هو ربُّه يعبده من دون الله، يتمنَّى رضاه، وينفِّذ أمره بتفاصيله، ولو خالفتْ أوامره أوامر الله عزّ وجل، أما المؤمن فيرى ربَّه الله، قال:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ)

5 ـ التربية تعني الحرصَ على التأديب:

آمن بالله خالقاً، وآمن بالله مربياً له، لكن اسم المربّي هو أقرب اسم من أسماء الله الحسنى للإنسان، يربيك الله عزّ وجل فيسوق لك مرضًا، وهذا المرض يردُّك إليه، أو يسوق فقرًا، وهذا الفقر يُلْجِئُكَ إلى باب عبوديّته، ويفعل معك فعلاً بليغاً، فيعطيك درساً لا يُنسى، الإنسان أحياناً يتكلّم كلمة فيها شرك فربنا يؤدِّبه، فالمربي مؤدِّب.

لو كان هناك في الطريق ثلاثة أولاد يدخّنون مثلاً، فمرّ رجل، وهذا الرجل أبٌ لأحد هؤلاء الأولاد، وعمٌ للثاني، والثالث لا يعرفه، ولا يقربه، أي ليس هناك قرابة، تجد هذا الأب انفعل انفعالاً شديدًا، وكاد يخرج من جلده حرصاً على ابنه، وانفعاله مع ابن أخيه أقلُّ، أما هذا الطفل الثالث فيقول له: امش، اذهب إلى سبيلك، فالأب يعنِّف ابنه تعنيفًا شديدًا، وأقلّ من هذا التعنيف لابن أخيه، وهذا الطفل الثالث لا يعنِّفه إطلاقاً.

إذاً: التربية تعني الحرص، والحرص يعني التأديب أحياناً، فربنا عزّ وجل لأنه يحبُنا، ولأنه خلقنا لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ولأنه يحرص على سعادتنا فلذلك يؤدِّبنا.

أحياناً أشبه بالأب الطبيب، لماذا أقول: أب طبيب، لأنه يجمع بين الرحمة والعلم، فالأب الطبيب إن رأى في جسد ابنه خللاً يمارس عليه كل وسائل الشدّة، لحمايته من الطعام المؤذي، فالتعليمات قاسية جداً، لأن الحِرص شديد جداً، والرحمة شديدة جداً، فالرحمة مع العلم ليس هناك أعظم منها، والآن هناك أمّهات جاهلات يرحمن أولادهن رحمةً عمياء، فيسببن لهم الدمار، ولكن رحمة الله مع العلم..

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا)

ثُمّ اسْتَقامُوا

1 ـ معنى الاستقامة:

استقاموا على أمره، واستقاموا إليه، واستقامت عقيدتهم، واستقام وقلبهم بالإقبال عليه، وجوارحهم بالانضباط بأمره ونهيه، والاستقامة تعني أشياء كثيرة، فلان عقيدته غير مستقيمة أي فيها خلل، هؤلاء قالوا:

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا)

2 ـ لابد من إتباع الإيمان بالاستقامة:

لكن المعنى الإجمالي هنا: استقاموا على أمره، والشيء الذي يجذب النظر في هذه الآية أن تقول: الله ربيّ، والإسلام ديني، ومحمدٌ نبيّ، من دون أن تستقيم على أمر الله، ومن دون أن تتبع سُنّة رسول الله، فهذا كلامٌ فارغٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، فعلامة صدق إيمانهم بربّهم استقامتهم على أمره..

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا)

إعراب الذين اسم إنّ..

الجملة الأولى صلة والثانية معطوفة، وكل هذا الكلام اسم إن، أين الخبر ؟ الخبر هو الكلام المتمّم الفائدة، فقد تقول أحياناً: فلانٌ الذي شاهدته معي البارحة، ويقول لك: نعم، كان طويل القامة، يقول لك: نعم تذكّرت، يحمل محفظة، نعم تذكّرت، الذي يرتدي ثيابًا بنية اللون، ويقول لك: نعم ما الذي حصل له؟ يحتاج إلى خبر، الصفة غير الخبر..

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا)

اسكت بعدها، يقول لك: ما بهم ؟ ما شأنهم ؟ ما الخبر ؟ الخبر..

(تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

خطران يهدّدان الإنسان: الخوف من المستقبل والحزن على الماضي:

أيها الإخوة الكرام، هناك خطران يعاني منهما كل إنسان، الخطر الأول: الخوف من المستقبل، يقول لك: الله لا يبرّكنا (يقعدنا)، هو ليس فيه شيء، ولكنه خائف أن يبرك، يسمع عن أمراض عضالة فتجده يدعو الله: يا رب، هذه الأمراض صعبة، يا رب عافِنا منها، إذًا هناك خوف من المستقبل دائماً، من مرض عضال، أو من فقر مفاجئ، أو من تدنٍ، من وقف هذا الدخل، من بوار هذه التجارة، أي هناك خوف المستقبل.

وهناك ندم على ما مضى، يقول لك: لو درست، ولو تزوّجت فلانة، ولو اشتريت هذا البيت كان ثمنه عشرين ألفا، والآن ثمنه ثلاثون مليونًا، عرضوه عليّ، ولم اشتره، فهذا الخوف من المستقبل، والندم على ما فات، هذان الشيئان المُقلِقان المؤمن عافاه الله منهما، سُئل سيدنا علي كرّم الله وجهه عن الزُهد فقال في كلمتين: **<< لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم >>.**

فالمؤمن تأتيه الملائكة، والشياطين يأتون أولياءهم ويوسوسون لهم ؛ فالملائكة دائماً تتنزّل على المؤمن تطمئنه لمستقبله، وتبعده عن أن يندم على ما فاته..

(تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا)

مما سيكون..

(وَلَا تَحْزَنُوا)

على ما فاتكم.

قال لي أخ كريم: أنا كنت قبل خمسين سنة أنشط من الآن، فالآن لست نشيطا، والإنسان إذا تقدّمت به السن تضعف حركته، ويضعف نشاطه، ويحتاج إلى قطع غيار، وإلى نظّارة طبيّة، وإلى بدلة لأسنانه، ويندم على سن الشباب، كيف كانت أسنانه كاللؤلؤ في فمه، وكيف كان حاد البصر ؟ كيف كان يتحرّك حركة نشيطة جداً ؟ يركض خمسة كيلو مترات، والآن لا يركض، ولا يمشي في الأصل، هذا الندم على ما فات شيء مؤلم..

(إنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ)

لا يوجد إنسان لا يترك بيتًا في حي خشن، فيه بيوت مزدحمة جداً، والأولاد كُثُر، والصرف الصحي سيئ مثلاً، والبيوت غير صحيَّة، وينتقل إلى بيت فخم بحي راق، حيث الشمس الساطعة، وحيث المساحات الواسعة والحدائق الغنّاء ويتألّم..

(أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ)

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

1 ـ المؤمن يرى مقامه في الجنة:

يشعر المؤمن بدنوّ أجله، ومن كرامته على الله أن الله يريه مقامه في الجنة، فإذا أراه مقامه في الجنّة يقول: لم أرَ شرّاً قط، وينسى كل المتاعب التي عاناها في حياته، وكل المصاعب، وكل الأمراض حتى كل الأخطار، لذلك ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((إِنّ الْمَيّتَ لَيُعَذّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ))

[من صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر]

ومن أدقّ توجيهات هذا الحديث أن الرجل المؤمن إذا وافته المنيّة، وأراه الله مقامه في الجنّة، يتألّم كثيراً لأن أهله يبكون عليه، هو في أعلى مقام وفي أسعد حال، ولذلك فعلامة المؤمن أنه متفائل، ولا يزيده مضي الزمن إلا رفعة، وإنّ تطور الزمن لصالح المؤمن، لأن خطّه البياني صاعد، ومضي الزمن لمصلحته، لأنه حينما يقوده الزمن إلى الموت، و**" الموت تحفة المؤمن ".**

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ)

هذه الآية تذكّرنا بقوله تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

وتوجد آية مشابهة:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

اجمع الآيتين، الذي يتبع هدى الله عزّ وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يخشى مما هو آت، ولا يندم على ما فات. وأجمل آية توضّح هذه الآيات:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

2 ـ الخوف من المجهول والندم على الفائت تدمير للصحة النفسية:

والحقيقة أن المستقبل مخيف، إذا نشأ الإنسان في معصية الله، ومكّن حياته، استقرّت حياته، واستقر دخله، ولا يقلقه إلا الأمراض التي يلدها الزمان، ولا يزعجه إلا المجهول، أما المؤمن فهو مرتاحٌ لعطاء الله، ومرتاحٌ لتطمين الله عزّ وجل، و لوعْد الله، ولبشارة الملائكة، فهذا الذي لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، ولا يخشى مما هو آت، ولا يندم على ما فات، ماذا بقي في السعادة ؟ هذه كل السعادة ؛ لا شقاء ولا ضلال، ولا ندم ولا خوف، ودائماً الندم للماضي والخوف للمستقبل، الأحوال النفسيّة السيئة تدمِّر الصحّة النفسيّة.

الآن أيها الإخوة أكثر الأمراض أساسها الشدّة النفسيّة، الضغط النفسي، والقلق، والشعور بالحرمان، والقهر، وهي المشكلة التي لا حل لها، أما المؤمن فهو معافىً نفسياً من كل هذه الأمراض..

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

لكن هذا الكلام يحتاج إلى همم عالية، كلمة..

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

3 ـ الفائدةُ من العطف بثُمّ: ثُمّ اسْتَقَامُوا:

ثمّ تفيد الترتيب لا على التعقيب، بل الترتيب على التراخي، فلماذا جاءت ثم ؟ لمَ لم يقل الله عزّ وجل: إن الذين قالوا ربنا الله فاستقاموا ؟ أن تقول: ربنا الله، هذه ليست كلمة تقولها عرضاً، هذه تحتاج إلى وقت، وإلى مُدارسة، وسؤال وجواب، وطلب عِلم، وتفكّر في السماوات والأرض، وتلاوة كتاب الله، وحضور مجالس علم، تحتاج إلى أن تبذل من مالك، ومن وقتك، وفراغك، وخبرتك..

(قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ)

وهذا القول أخَذَ من جهدهم ووقتهم الشيء الكثير..

(ثُمّ اسْتَقَامُوا)

4 ـ الاستقامة لابد لها من وقتٍ وجهدٍ:

هذا معنى أول، كلمة ربنا الله ربنا لخّصها بكلمة، لكنها جهد جاهد، فأنت أحياناً تتكلّم على حياة إنسان: أنه ولد في مكان كذا، ونشأ في المكان الفُلاني، وتلقّى علومه الابتدائيّة في المدرسة الفلانيّة، وعلومه الإعداديّة والثانويّة في المدرسة الفلانيّة، وانتسب إلى الجامعة، وأنت تقول: ثم نال الدكتوراه، سبع

سنوات دراسة، ماجستير، ودكتوراه، وأطروحات، ومواد متمِّمة، وأستاذ مشرف، وأستاذ فاحص، وأستاذ مقرِّر، وأستاذ يُعطي النتيجة، وأعد المحاضرة، وأعد البحث، وأعد كتابته، بيِّضه لي مرّة ثانية، يقول لك: سبع سنوات متّ موتًا حتى نلت الدكتوراه، أما في تاريخ الحياة فيقال: ثم نال الدكتوراه، كلمة، ولكن يقابلها سبع سنوات، هذا معنى..

(قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

لكن هذه تحتاج إلى وقت طويل..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: من الآية 69)

كم درس علم حضرت ؟ يقول لك: سبع سنوات لم أتغيّب عن درس واحد، كم من ماله أنفقه في سبيل الله ؟ وكم يوم استيقظ صباحاً فقرأ القرآن، وذكر الله عزّ وجل ؟ مائة ألف أو مليون امرأة غضّ بصره عنها، كلّما مشى في الطريق يغض بصره مثلاً، فهذه الجهود النظريّة والعمليّة، والبذل، والتضحية، وطلب العلم، والتواضع لمن تتعلّم هذا كلّه مشمول بقوله: ثم، التي تفيد الترتيب على التراخي..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

الحقيقة أنّ قيمة إيمانك من استقامتك، قبل الاستقامة لا تفكِّر أن إيمانك له قيمة إطلاقاً، لأنه قبل الاستقامة أنت مثلُ إنسان نظر إلى الشمس في رابعة النهار ؛ نظر، فصفن، فقطّب جبينه، ففكّر، وبعد هذا قال لك: الشمس ساطعة، أنت ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئًا، إني قلت: إنها ساطعة، هي ساطعة، وإن قلت: ليست ساطعة، هي ساطعة، سواء أثبت سطوعها لم تفعل شيئاً، ولا إذا أنكرت سطوعها فعلت شيئاً، إن قلت: غير ساطعة فلا أحد يصدِّقك، وإن قلت: ساطعة فما فعلت شيئاً.

إذا اعترفت أن الله موجود، تقول: أنا أشهد أنه لا إله إلا الله، لكننا نريد أن نرى استقامتك ؛ وبيعك، وشراءك، والتزامك، وصدقك، وأمانتك، وعفّتك، وغض بصرك، وإحسانك لزوجتك، ننظر أين عملك؟ فلذلك الله عزّ وجل جعل الاستقامة علامةً على صدق الإيمان، وإلا فالإيمان نفاق، والإيمان فيه خلل..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

قال: هؤلاء.

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

فعلامة المؤمن الصادق، المطبّق لأوامر الله عزّ وجل، المتمثِّل سنة النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يخاف مما هو آت، ولا يندم على ما فات، ولقد ورد في حق الصِدِّيق أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

من دواعي استسلامك لله عزّ وجل شعورك أن الذي حدث وراءه حكمةٌ بالغة، وأن الله بيده كل شيء،

وهذا الذي حدث فيه كل أسماء الله الحسنى ؛ فيه الحكمة، والعدالة، والرحمة، والخبرة، والقوّة، والرَدع، والتربية، وكل أسماء الله الحسنى منطوية في أفعاله، ولذلك قال بعضهم: حينما يتحدّث الله عن أفعاله، يستخدم ضمير الجمع..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى)

(سورة يس: من الآية 12)

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(1))

(سورة القدر)

أما حينما يتحدّث الله جلّ جلاله عن ذاته فيستخدم ضمير المُفْرَد..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فإنني وإننا، إننا أي إن أفعاله فيها كل أسمائه الحسنى، وكل أسمائه الحسنى في أفعاله..

(أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ

1 ـ وعدُ الله بشارةٌ للمؤمن وسعادةٌ له:

الحقيقة أنّ بشارة الله للمؤمن، ووعد الله له هو الذي يسعده.

إنّ إنسانًا فقيرًا جداً متعبًا جداً، يعيش في أصعب الحالات، لكنه موعود بمبلغ كبير يوفِّر له أجمل بيت، وأجمل مركبة، وأجمل مصير، فهذا الوعد القطعي يمتصُّ كل متاعبه في الدنيا، فالمؤمن راض، لأنه موعود بالجنّة، قد يكون دخله قليلا فهو راض، أو يكون في جسمه عدّة علل فهو راض، وقد تكون زوجته ليست على ما يرام فتجده يقول: الحمد لله على الحال التي الله قسمها لي، حتى إن الإمام علياً كرّم الله وجهه حينما سُئل عن قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

قال: **<< الحياة الطيّبة هي القناعة بنصيبك من الله عزّ وجل >>.**

2 ـ الرضى بقسمة الله من سعادة المؤمن:

إذا رضي الإنسان عن الله، رضي عن نصيبه من الله، قبل شخصيّته، وقبلَ شكله، ودخله، وحرفته، وزوجته، وأولاده، فيقول: يا ربّ هذا أنت قسمته لي، فما من إنسان أسعد من الراضي بما آتاه الله، وهذا الرضى مقام عال، يا رب أنت هكذا اخترت لي، وأنا راض، تجد أن المؤمن قلبه مفعمٌ بالرضى، لأن رضاه من علمه، يعلم أن هذا الذي ساقه الله إليه هو أكمل شيء ـ بالنسبة له طبعاً، وليس كمالا مطلقا ـ فهذا الوضع يناسبه.

" إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه ".

وهناك حكمة إلهيّة، فالمؤمن مستسلم لله عزّ وجل، وليس معنى هذا الكلام أن يقعد الإنسان عن طلب المزيد، لا، ولكن حينما يبذل كل طاقته وتنتهي به كل جهوده إلى هذا المكان، فعندئذٍ يرضى بقضاء الله وقدره.

قال:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ{31} نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

1 ـ الله وليّ المؤمنين:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

والله هذه كلمة رائعة، فالمؤمن يشعر أن الله وليُّه يدافع عنه، الله سبحانه وتعالى ينقله من منزلةٍ إلى منزلة، ويؤدِّبه، ويكرّمه، ويفرحه، ويبكيه أحياناً، ويحرمه، ويعطيه، ويسوقه إلى عباده الصالحين، يجمعه مع أهل الحق، ويبعده عن مزالق السوء..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

ولله المثل الأعلى: تصوّر أبًا يزوّج ابنته فيقول لك: أريد أن ألتقِي مع الخطيب، وأريد رؤيته، فيتفحّص شخصيته، وأخلاقه، وصلاته، ويسأله عن دينه، وأين ستسكن ابنتي ؟ آلاف الأسئلة، لأنه هو وليُّها الذي يرعاها، ويحدب عليها، ويعطف عليها، ويحبُّها، ولله المثل الأعلى، إله خالق الكون يقول:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

هنيئاً لمن كان الله وليّه..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

وربنا عزّ وجل ينقلك من وضع إلى وضع أحسن، ومن تفلُّت إلى تمسُّك، ومن شقاء إلى لسعادة، ومن ضياع إلى وجدان، ومن نِقمة إلى رضى، ويؤويك في بيت، ويزوّجك، وييسّر لك عملك التجاري فتربح فيأتيك الدخل الحلال، ويجمعك مع أهل الحق، ويجمعك مع الصالحين، ويدخل على قلبك السرور..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

2 ـ الاستقامة سببُ ولاية الله للمؤمن:

الإنسان إذا كان في طاعة الله صار الله وليُّه، والحقيقة أنّ القضيّة سهلة جداً، لمجرّد أن تستقيم على أمره تستحق أن يكون الله وليّك، خرج الإنسان عن أمر الله عزّ وجل فكأنه جعل الشيطان وليّه، هو عدوٌ مضلٌ مبين، فكل إنسان يعصي الله خرج من ولاية الله، وصار تحت ولاية الشيطان، هو وليُّهم يخرجهم من النور إلى الظلمات، فالإنسان المؤمن إذا قرأ هذه الآية شعر أن الله وليُّه يدافع عنه، يأخذ بيده كلّما عَثَرَ، كلّما زلّت قدمه يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، يتوب عليه ليتوب، هذا معنى وليُّه..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

فأنت لست سائباً، فالله عزّ وجل قال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

بل أنت ضمن التربية.

3 ـ ولاية الله للمؤمن في الدنيا والآخرة معًا:

النقطة الدقيقة: أحياناً الإنسان يحرص على مصلحة إنسان، ولكن في الدنيا فقط، فالأم تتمنّى لابنتها البيت الفخم، والزوج الغني، والأدوات الحديثة، والمركبة الفارهة، وقد تنسى أن ابنتها ليست في طاعة الله، فإذا قرّت عينها بدنياها، وبيتها، وزوجها الغني، والبنت ليست مستقيمة مثلاً، فقد حرصت على دنياها فقط، فهذه ولايةٌ ناقصة.

والأب أحياناً لو أنه اهتمّ بطعام ابنه فقط، ونسي مستقبله فهذه ولاية ناقصة، أهمل دراسته، وما اهتم بعلمه، لكنه أمّن له طعامه وشرابه وثيابه فقط، فيقول له: هل ينقصك شيء ؟ ينقصه العلم، وأن يتعلّم، فالولايات البشريّة ولايات ناقصة مبتورة، وأكثر الناس يتوهّمون أن الإنسان إذا حقّق شيئًا في الدنيا فقد حصل له كل شيء، ويقولون: أمّن مستقبله، وركّز وضعه، ودخله ـ والحمد لله ـ كبير، وعنده سيارة، وبيت، ومعمل، ولا ينقصه شيء، بينما لم يأخذ شيئا من الاتصال بالله، فهو غارق في المعاصي، فربنا عزّ وجل قال:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

اللهُ حريص على آخرتنا، وعلى دخولنا الجنّة، ولذلك كل ما تراه أعينكم من مصائب في الدنيا، ومن نكبات، وأهوال لتسوق العباد إلى الله عزّ وجل.

رجل قال عن بلد تُعاني ما تعاني من خصومها الصرب، قال: نحن لم نكن مسلمين من قبل، وكنا نأكل الخنزير، ونشرب الخمر، ونأتي الفواحش، ونفعل كل المعاصي، والآن صرنا مسلمين بهذا الضغط الشديد..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

فحتى النكبات الكبيرة أحياناً نفهمها فهما محدودا، فهذه الدولة فعلت كذا مع جارتها، فهناك فهم أعمق بكثير، قال الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

وحتى الأحداث الكبرى لها تفسير توحيدي رائع جداً..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

الدنيا لا معنى لها إلا أن تكون سبباً للآخرة:

وبما أنّ الولاية تمتد للآخرة، وكان التأديب في الدنيا، ولو كانت في الدنيا فقط لكان الناس جميعهم في بحبوحة، وفي غنى، وليست هناك مشكلة، ولا مرض، ولا هم، ولا حزن، لكن لأن الله سبحانه وتعالى وليُّنا في الدنيا والآخرة، والدنيا مطيّة للآخرة، ومزرعة لها، بل إن الدنيا لا معنى لها إلا أن تكون سبباً للآخرة، لأن يوم القيامة حينما يدخل أهل الجنّةِ الجنّةَ يقولون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر: من الآية 74)

فلولا أن كنا في الأرض، وعرفنا ربنا فيها، واستقمنا على أمره، وفعلنا الصالحات لما كنا في الجنّة الآن.

إذاً هنا الآية:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

أولياء أموركم..

(فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

فإذا جاءك من الله ما يعجبك فهذا من نِعَم الله عليك، وإذا جاءك من الله ما لا يعجبك فهذا من تربيته لتكون في الجنّة ؛ أعطاك مالاً للدنيا، أعطاك بيتاً للدنيا، أما إن سلب منك شيئا وأنت غافل، فهذا الذي سلبه منك من أجل أن تصحو، من أجل أن تلتفت إلى آخرتك، وأن تفعل الخيرات، إذاً عندما تجمع الدنيا مع الآخرة تحل مشكلاتك، أما الدنيا فقط ففيها متاعب لا تعد ولا تحصى، يقول لك: لا أحد مرتاح، سبحان الله ! طبعاً لا أحد مرتاح، لأنه لا أحد مستقيم، أما لو أنك استقمت على أمر الله فالله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

أما في الآخرة، فهذه الآخرة التي خلقنا لها..

((إن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد))

[البخاري]

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الكَدْح والمشقةِ:

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الكَدْح..

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على تكبُّد المشاق..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

يقول لك: ما وصلت إلى هنا حتى كابدت المشقات، واشتريت بيتا مسحته ستون مترًا في آخر ما عمّر الله، يقول لك: مُت مليون موتة، هكذا الدنيا، حتى طلع على الأرض نصف متر يقول لك: هلكني السكن بزقاق الجن، الحياة مبنيّة على الكدح وعلى التكبُّد..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

أما الجنّة فهي مبنيّة على الطلب، اطلب تعط، انظر إلى الآية:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ)

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ

ولمجرّد أن تطلب شيئاً فهو أمامك، إلى أبد الآبدين، لا تقدم بالسن، ولا أسيد أوريك، ولا كوليسترول، ولا دسّام معطّل، ولا ذرع كلية، ولا ابن عاق، ولا زوجة ناشذة، ولا بيت صغير، لا يوجد شيء من هذا..

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ)

فهكذا الآخرة، إذْ نحن مخلوقون لهذه الحياة، فهنيئاً لمن سعى من أجلها، والشقاء لمن رضي بالدنيا، من أراد الدنيا فقط فقد غامر وقامر، قامر بسعادته الأخرويّة..

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ

أي أخطاؤك غفرها لك، ثم رحمك بهذه الجنّة، هذا كلّه:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

هذا المقام الأول، والمقام الأعلى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمّن دَعَا إِلَى اللّهِ)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمّن دَعَا إِلَى اللّهِ

بعدما صوّر الله عزّ وجل لنا طريق كمال الإنسان، الآن المرحلة الثانية طريق تكميل الآخرين، طبعاً هذه صنعة الأنبياء وهذه بالدرس القادم إن شاء الله..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

خاتمة:

لكن ضعوا في أذهانكم أن علامة صدق إيمانكم الاستقامة على أمر الله، وأن علامة صدق الدعوة إلى الله العمل الصالح، ربنا عزّ وجل قَرَنَ الإيمان بالاستقامة، والدعوة إلى الله بالعمل الصالح، فإن لم يكن مع الإيمان استقامة فلا قيمة لهذا الإيمان، وإن لم تكن مع الدعوة إلى الله عملٌ صالحٌ فلا قيمة لهذه الدعوة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (06-11): تفسير الآية 33

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة فصِّلت، ومع الآية الثالثة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ المؤمن والداعية إلى الله حقيقة صفتُهما الاستقامة:

أيها الإخوة الكرام، من خلال الآية السابقة والآية اللاحقة يتضح أن هناك مؤمنًا مستقيمًا، وأن هناك داعية إلى الله ذا عملٍ صالح، وأنه لن يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا استقام على أمر الله، ولن يكون داعيةً مخلصاً إلا إذا عمل صالحاً، أي جسّد بسلوكه ما دعا إليه بلسانه.

على كلٍ، فبعض المفسّرين يقولون حينما قال الله عزّ وجل:

2 ـ كل كلام سوى الدعوة إلى الله لغوٌ باطلٌ:

كأن في هذه الآية إشارةً إلى أن كل كلامٍ لغوٍ أو باطلٍ، أو كل كلامٍ يدعو إلى الرذيلة أو يدعو إلى إفساد ذات البَيْن، أو أن كل كلامٍ يدعو إلى عبادة غير الله عزّ وجل، أو إلى أن أيّ كلامٍ يدعو إلى البعد عن دين الله عزّ وجل هو كلامٌ باطلٌ لا قيمة له، لكن الكلام الحَسَن هو أن تتعرّف إلى الله عزّ وجل، وأن تدعو إليه. ففي هذه الآية إشارةٌ إلى بطلان كلامه، وإلى تفاهة موضوعاته، ثم يقول الله عزّ وجل:

3 ـ لا رجلَ أحسنُ قولاً من الداعية الخاضع لله:

طبعاً هذا استفهام تقريري، أي ليس في الأرض كلِها رجلٌ أحسن قولاً ممن دعا إلى الله.

من خصائص الدعاة إلى الله:

1 ـ الاستجابة لأمر الله:

والحقيقة قبل أن تدعو إلى الله ينبغي أن تستجيب له، فإذا استجبت له، وطبّقت أمره، وانتهيت عما عنه نهى، وأردت أن تنقل هذه المعرفة للآخرين الآن ترتقي إلى مستوى الدعوة إلى الله.

2 ـ الاهتداءُ وعدمُ ابتغاءِ الدنيا:

على كلٍ فهناك آيات كثيرة في كتاب الله تبيّن شروط هؤلاء الدعاة إلى الله الصادقين، فمن هذه الآيات:

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

فالذي يدعو إلى الله بصدق وإخلاص، لا يرجو ثواباً، ولا مديحاً مادياً ولا معنوياً..

(اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

3 ـ الصبرُ:

ومن خصائص الدعاة إلى الله الصادقين كما أشارت إليه هذه الآيات الكريمة:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: من الآية 24)

فالذي لا يصبر على ابتلاء الله عزّ وجل ليس أهلاً لأن يكون داعية إلى الله عزّ وجل، لابدّ من أن يبتلى الداعية فيصبر، ولابدّ من أن تُكشف حقيقته فيصبر.

إذاً: عدم طلب الأجر، والصبر علامة وخصيصة من خصائص الدعاة إلى الله الصادقين.

4 ـ الطاعةُ:

ثم إن الطاعة..

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: من الآية 124)

إذاً: التزام الأمر والنهي، والصبر على ابتلاء الله عزّ وجل، والترفُّع عن الدنيا بكل أنواعها هذه خصائص الدعاة الصادقين.

5 ـ العلمُ مع التمحيص:

عنصر آخر من عناصر الدعوة إلى الله:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من الآية 18)

أي إذا شهدت للناس بأسماء الله الحسنى ؛ عدالته، ورحمته فهذا دليل العلم الصحيح، أما إذا كان العقل نَصِّيّاً، أي دون أن تمحِّص النص، ودون أن تدرسه، وأن تجعله منسجماً مع مقاصد الشريعة، نقلت ما سمعت دون تمحيص فهذا ليس علماً، إنما هو نقلٌ، وفي النقل صوابٌ وخطأ.

إذاً:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

يجب أن تبيّن للناس حقيقة الذات الكاملة، ذات الأسماء الحسنى والصفات الفُضلى.

6 ـ خشيةُ اللهِ وحْدَه:

ومن آيات الله الأخرى التي تصف لنا الدعاة الصادقين هي قوله تعالى حينما يتحدّثُ عن الذين يدعون إلى الله عزّ وجل، فيقول في الآية الكريمة:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

أي أن خشية هذا الداعية لله عزّ وجل هي الصفة الجامعة المانعة، لأن الداعية لو خشي غير الله عزّ وجل فتكلّم بالباطل إرضاءً لمن خشيه، أو سكت عن الحق إرضاءً لمن خشيه، فماذا بقي من تبليغه رسالات الله عزّ وجل ؟

إذاً: الله عزّ وجل في كتابه بيّن هؤلاء الذين يدعون إلى الله، أولاً: تطبيقهم لأمر الله، ثانياً: صبرهم على ابتلاء الله، ثالثاً: ابتغاؤهم وجه الله عزّ وجل، رابعاً: ترفُّعهم عن المكاسب الدنيويّة، خامساً: عدم خشيتهم من غير الله عزّ وجل، سادساً: معرفتهم بالله المعرفة الصحيحة.

إذاً: هذه الصفات التي جاءت في آياتٍ متفرّقة من كتاب الله.

على كلٍ هنا:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

احذر أيها الداعية أن يخالف قولُك فعلك:

دعا إلى الله بلسانه، وعمل صالحاً بسلوكه، فالإنسان نقّادٌ بارع، فإذا نظر المدعوون إلى الداعي، ورأوا مسافة بين أقواله وأفعاله لم يعبؤوا بهذه الدعوة، فتسقط من أعينهم، أما إذا تطابقت الأفعال مع الأقوال، وجاء الكلام مطابقاً للحال، وكان السلوك موافقاً للتبليغ، فهذه النقطة الدقيقة جداً التي إذا توافرت في الداعية حقّق نجاحاً كبيراً، ولذلك فمن بعض الدعاة الصادقين من ينصح زملاءه الدعاة: **" احذر أن يراك المدعو على خلاف ما تدعوه "**، وهذا هو التوافق الدقيق.

الآية الأولى:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

خصيصة البيان بين الاستعمال الحسن والاستعمال السيّئ:

هنا علامة الإيمان الصادق، استقامتك على أمر الله، هنا علامة دعوتك الصادقة، صلاح عملك، فليس على وجه الأرض إطلاقاً إنسانٌ أنجح، ولا أفلح، ولا أكثر فوزًا ممن دعا إلى الله، أي أن هذا النشاط الكلامي، وهذا النطق الذي كرّم الله به الإنسان..

(الرّحْمَانُ(1)عَلّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

فهذا الكلام، وهذا الجهاز، والحنجرة، والرئتان، واللسان، ومخارج الحروف، واللغة، والمعلومات والقدرة البيانيّة في الإنسان كيف يستخدمها ؟ وما المضمون الذي يستخدمها من أجله ؟ ما الأهداف ؟ فربنا عزّ وجل يبيّن أن البيان تلك الخصيصة التي خصّ بها الإنسان، البيان..

(الرّحْمَانُ(1)عَلّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلّمَهُ الْبَيَانَ(4))

فهذا البيان، وتلك الخصيصة النادرة التي خصّ الله بها الإنسان، ما من موضوع يسمو بها، وما من نشاطٍ ترقى به، وما من أسلوبٍ تفوز به كأن تدعو إلى الله.

إنّ آلة غالية جداً إن لم يكن مضمونها مضموناً ثميناً، فعندئذٍ هذا المضمون التافه يشوّه هذه الآلة، فاللغة قوالب، فإن وضِعَ في هذه القوالب مادّةٌ رخيصة قذرةٌ سيئةٌ هذه المادة أضرّت بالقالب، أما إذا عُبّئت هذه القوالب الثمينة بمضمون ثمين فهذا شيءٌ يسمو بها، ويرقى بها.

هذه القدرة على البيان، وهذه طلاقة اللسان، البيان الذي خصّ الله به الإنسان إنه ميزةٌ ثمينة كبيرة، فإذا كان المضمون غيبة، ونميمة، وفسقاً، وفجوراً، وحديثاً تافهاً، ولغواً، وحديثاً عن الشهوات، أو إيقاعاً بين الإخوة، أو تأريثاً للأحقاد، فكل هذه الموضوعات تزري بهذه القوة البيانيّة التي أودعها الله بالإنسان.

اللسان طريق إلى الجنة أو "ريق إلى النار:

حينما تشعر أن كلامك جزءٌ من عملك، أو أن من أعمالك كلامك، **" يا رسول الله أو نؤاخَذ بما نقول؟"** قال عليه الصلاة والسلام:

((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ على وُجُوهِهِمْ، أوْ على مَنَاخِرِهِمِ إلاّ حَصَائِدُ ألْسِنَتِهِمْ))

[مسلم عن معاذ رضي الله عنه]

ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((لا يَسْتَقِيمُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

ألم تقل السيدة عائشة رضي الله عنها لأختها صفيّة: " قصيرة " فقال:

((لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي عن عائشة]

ألم يقل الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

(سورة إبراهيم: من الآية 24)

فبكلمة قد تُحْيي نفساً، وإنك إن أحييت نفساً أحييت نفوساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، وبكلمةٍ سيئةٍ قد تفسد نفساً، وإذا أفسدتها أفسدت جيلاً..

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(26))

(سورة إبراهيم)

أيها الإخوة.

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللّهِ لا يَرَى بِهَا بَأْسًا فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

((إِنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

((الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

بادئ ذي بدء يجب أن تعلم أن هذا اللسان قد يقودك إلى الجنّة، وقد يقود صاحبه إلى النار..

احفظ لسانك أيها الإنســانُ لا يلـدغنّك إنـه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

***

قبل كل شيء من أكبر نشاطات الإنسان كلامه ؛ كلامه في البيت، وفي الطريق، ومع جيرانه، وزملائه، وفي لهوه، وحُزنه، وفرحه، وسفره، وفي بَيعه وشرائه، ومع أصدقائه، فالمؤمن أبرز ما فيه أنه منضبط اللسان، كلماته موزونة، وكلماته منضبطة بأمر الله ونهيه، حتى إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يتمنّى أن تكون له رقبة كرقبة الجمل ليزن الكلمة قبل أن تخرج على لسانه بمراحل فسيحة، فكأن الله عزّ وجل في قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً)

تعريضٌ بالأقوال السيئة: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً

معنى هذا أن هناك من يسيئ القول، وهناك من يستخدم هذه القدرة البيانيّة، هذه الخصيصة التي خصّ الله بها الإنسان، فهناك من يستخدم في التعبير اللغة في غير ما وَضِعتْ له، ودائماً وأبداً أقول لكم: الحظوظ التي خصّها الله الإنسان ؛ البيان، والذكاء، والوسامة والغنى والصحة، فهذه الحظوظ إما أن ترقى بك إلى أعلى عليين فهي درجاتٌ، وإما هي دركاتٌ تهوي بها إلى أسفل سافلين.

إنّ الإنسان الذي أوتي طلاقة لسان فهذا يحاسب حساباً خاصّاً، كان من الممكن أن يرقى بقوّته البيانيّة وطلاقة لسانه إلى أعلى عليين، هذا الذي أوتي مالاً كان من الممكن أن يرقى بماله إلى أعلى عليين، هذا الذي أوتي قوّةً فبإمكانه أن يزيل بها المُنكر، وأن يحقّ بها الحق، وكان من الممكن أن يرقى بها إلى أعلى عليين، فالحظوظ التي ينالها الإنسان من الله عزّ وجل يمكن أن ترقى به ويمكن أن تهوي به.

فأول معنى في هذه الآية، كأن الله عزّ وجل يعرّض بالأقوال السيئة، واللغو، والحديث عن الدنيا، والحديث في الموضوعات السخيفة، وفي الموضوعات اليوميّة، والحديث الفارغ، والكلام الذي لا طائل منه..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

كأن الله يزري بهؤلاء الذين يستخدمون هذه القدرة البيانيّة في موضوعاتٍ لا ترضيه، فكيف إذا استخدمت اللسان في الغيبة، النميمة، والفحش، والبذاءة، والسُباب، والسخريّة، والتهكّم، والإفك، والافتراء، والإيقاع بين الناس، وفي تأريث العداوة والبغضاء بينهم، وفي شق الصفوف، وكيف إذا استخدمت هذا ؟ كأن هناك كلامًا يسبّب لصاحبه هلاكاً، وهناك كلامًا يسبّب لصاحبه خسارةً، وهناك كلاما يرقى بصاحبه.

والكلام في المباحات ؛ ما اغتاب، ولا نمّ، لكنه تحدّث في أمور الدنيا الزائلة، في أمور لا تنتهي، ولا قيمة لها، وهي ماضية، وحجمها صغير، وهناك أناسٌ كثيرون يمضون سهراتٍ طويلة في الحديث عن

الدنيا، في الحديث عن طعامها وشرابها، في الحديث عن متعها المُباحة، هذا الحديث ربّما جرّ لصاحبه إلى ضياع الوقت، والوقت ثمين، والإنسان بضعة أيّام، فكلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، ولكن أشرف حديثٍ، وكلامٍ، ودعوةٍ، ونُطْقٍ أن تدعو إلى الله.

يمكن أن تدعوَ إلى الله بمثل هذا:

كلمة (دعا) واسعة جدا، فيمكن أن تدعو إلى الله عزّ وجل إذا بيّنت آيات الله الكونيّة، هذه دعوةٌ إلى الله، لأنك تضع أمام الناس عظمة الله من خلال خلقه، تضعها بين أيديهم، وكأنهم أمامَ عظمة الله عزّ وجل، فإذا بيّنت للناس آية من آيات الله الكونيّة الدالّة على عظمته فهذه دعوةٌ إلى الله.

وإذا بيّنت للناس آيةً قرآنيّةً دقيقة المعنى، دقيقة الأسلوب، فيها حكمٌ دقيق، وقانونٌ يسعد صاحبه، فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل.

وإذا بيّنت سنة نبيّ الله صلى الله عليه وسلّم، وقد بيّن القرآن، فهذه دعوة إلى الله عزّ وجل.

إذا بيّنت الأحكام الفقهيّة التفصيليّة التي إذا طبّقها الإنسان سعد في الدنيا والآخرة فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل.

وإذا قصصت على الناس قصّة رجلٍ مؤمنٍ عظيمٍ طبّق أمر الله فسعد في دنياه وأخراه فهذه دعوة إلى الله عزّ وجل.

وكلام ربنا واسع، كلام ربنا حمّال أوجه، فأنت إن بينت للناس آيةً كونيّةً ؛ في الآفاق، أو في أنفسهم، أو آيةً قرآنيّةً، أو تكوينيّةً، وشيئاً من أفعال الله عزّ وجل، وربطته بالموعظة والعظة، إذا بيّنت سنة النبي، وسيرته، وأحكام الفقه، وسيرة العلماء الصالحين الصادقين، فكل هذه الموضوعات ترسّخ في الإنسان حبّ الله، وحبّ رسوله، وحب شرعه، ليس المطلوب أن تأخذ خطا واحدًا، وأن تجعل كل الوقت فيه، لكن نوّع في كلامك..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ)

إنّ الإنسان بحاجة إلى آيةٍ كونيّةٍ تملأ عقله، وبحاجةٍ إلى آيةٍ قرآنيّةٍ تغذّي فؤاده، وبحاجةٍ إلى آيةٍ تكوينيّةٍ ليفلسف أفعال الله عزّ وجل، فعل الله متوافقٌ مع حكمته، ورحمته، وعدالته، وقدرته، فالله جلّ جلاله يبدو تارةً قوياً عزيزاً، وتارةً رؤوفاً رحيماً، وحينا حكيماً عليماً، وحينا خبيراً، فإذا ربطت أفعال الله بأسمائه فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل.

فأنا أعطيكم الخيارات الواسعة، ثمّ أتحب أن تبيّن عظمة الله من خلال خلقه، هذه دعوة إلى الله، أم تحب أن تبيّن عظمة الله من خلال قرآنه ؟ فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، أتحب أن تبين عظمة الله من

خلال أفعاله ؟ فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، أتحب أن تبيّن عظمة الله من خلال عصمة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ؟ بيّنت سنته القولية والفعلية فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، أتحب أن تقدِّم نماذج للمؤمنين الصادقين الذين تغلغل الإيمان في كيانهم جميعه، فجعلهم أناساً متميزين بأخلاقهم، وعلمهم، ورهافة حسِّهم ؟ فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ)

أنا أعجب من إنسان مع أهله في بيته، ومع أصدقائه في نزهاته، بأفراحه، وأحزانه النشاط الأول في كل هذه اللقاءات هو الكلام، وهل سمعت أناساً يذهبون إلى نزهةٍ وهم صامتون ؟ مستحيل، هل سمعت أناساً يُدعون إلى طعامٍ وهم صامتون ؟ كلُّهم يتكلّم، فهذا النشاط الأكبر والأول في حياة الإنسان الكلام أو الحديث، وهذا النشاط إما أن ترقى به إلى أعلى عليين، وإما أن يهوي الإنسان به إلى أسفل سافلين، فكلمة لا تلقي لها بالاً يهوي بها الإنسان في جهنّم سبعين خريفاً، وكلمة من رضوان الله عزّ وجل تهدي بها نفساً، وهذه النفس تهدي الآخرين، من خلال هذه الكلمة الطيّبة رأيت مجتمعاً طيّباً، كيف أن بذرة التين التي لا تزيد على رأس دبوس قد تصنع غابةً، فالبذرة تصنع الشجرة، والشجرة تصنع الثمار، والثمار فيها بذور، والبذور تصنع أشجارًا، وهكذا.

كأن الله سبحانه وتعالى يجذب نظرنا، أيها الإنسان المكرّم الذي أعطيتك هذا النشاط البياني، القدرة على الكلام، الحديث، والتعبير عن أفكارك وعن مشاعرك، والاتصال مع الآخرين اتصالا لغويا، فهذا النشاط الأول أفضل استعمالٍ له أن تدعو إلى الله، وأنت حرٌ في ذلك، فأنت أمامك خيارت كثيرة، خذ أي خط ؛ وخط العلم، خط القرآن، فالتجويد دعوة إلى الله، والتفسير دعوة إلى الله، واستنباط الأحكام الفقهيّة من كتاب الله والحديث وعلم الحديث و متن الحديث وأصول الفقه وأحكام الفقه والفقه المُقارن كلها دعوةٌ إلى الله، فأي علمٍ ابتغيت به وجه الله، وأردت أن تقرّب الإنسان به إلى الله هو دعوةٌ إلى الله، والتنويع أفضل.

أنا أعجب أيضا ممن يحضر مجالس العلم، ويستمع خلال سنوات طويلة إلى دروس تفسير، وحديث، وسيرة، وفقه، كيف لا يستغلُّ هذه المعلومات التي حصّلها في سنوات طويلة في الدعوة إلى الله مع أهله؟ وأولاده، وزوجته، وإخوانه، وأصدقائه، وجيرانه، ومع من هم دونه، ومن هم فوقه، مباشرةً، بالواسطة، بكتاب، بشريط..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ)

الدعوة إلى الله وهداية الناس خيرٌ من الدنيا وما فيها:

هذا الكلام كلام الصحابة الكرام كلام دقيق جداً، يقول النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب سيدنا علياً كرّم الله وجهه، وهذا كلام نسمعه كثيراً، ولكن شتّان بين أن نسمعه وأن نردِّه، وبين أن نطبّقه، قال عليه الصلاة والسلام:

((يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً ـ وفي رواية ـ لأن يهدي الله بك قلب رجل واحد خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

((فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

((خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

هناك شركات تجاريّة عالميّة قرأت مرّة عنها، فائضها النقدي الذي لا تدري له استثماراً ألفا مليون دولار، وبعض الدول فائضها التجاري سبعون مليار دولار، فهذه الدنيا فيها أموال، وفيها شركات، وفيها معامل، ومتنزّهات، وأماكن جميلة جداً، وطائرات، وبوارج، ويخوت، وتجارات، فقد يكون عند أحدهم محل في شارع تجاري رئيسي، يقول لك: المتر ثمنه نصف مليون، محلي خمسون مترًا، تجده يزهو به، ولو عنده على الصفين محلات، ولو كان له كل هذا الشارع على جنبيه بكل طوابقه ؛ المستودعات، ومكان البيع، والمكاتب على الصفين، فهذه الدنيا فيها شركات لها رأسمال فلكي، هذه هي الدنيا، فإذا صدّقت النبي عليه الصلاة والسلام وهو يقول:

((يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

تصوّر هذه الشركات الكبرى في العالم التي توازي ميزانيّتها ميزانيات دول، وهذه الفنادق الكبرى التي لها دخل فلكي، لو أن لك أحد هذه الفنادق، وهديت رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، دقِّقوا في كلام سيدنا رسول الله لأن هذا المال كلّه ينتهي عند الموت، لكن هداية هذا الإنسان تسعد به إلى أبد الآبدين.

إن هذا يعني أن الإنسان إذا بذل جهدًا، واعتنى بأخيه، وأكرمه، وزاره، وتفقّد أحواله، وأعطاه شريطا، وأعطاه كتيّبا صغيرا، وفسّر له آية كريمة، وفسّر له حديثا شريفا، ودعاه إلى المسجد، ودعاه إلى الدروس، وقدّم له هديّة، واستمال قلبه، واعتنى بأولاده حتى مال إليك هذا الإنسان، ومال إلى مسجدك، ومال إلى دروسك، وسمع الدروس، وائتمر بأمر الله، وانتهى عما نهى الله عنه فصار إنساناً مؤمناً، والله الذي لا إله إلا هو هذه أعظم تجارة.

ألا ترى معي أن الذين يملكون الملايين ؛ ترك ألف وثمانمائة مليون، ولكنه ترك معه الملهى فيه كل المنكرات، ألا ترى أن هؤلاء الذين يملكون آلاف الملايين إذا ماتوا فقدوا كل شيء، وأنهم قدموا على كل أنواع العذاب ؟ وأن الذي ترك هذه الدعوة إلى الله، وتلك الهداية، واحد فقط ـ

((يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

أليس للإنسان أخ ؟ أو صديق ؟ أو جار ؟ أو ابن ؟ أو ابن ابن ؟ أو عنده بالمحل موظّف ؟ أو إنسان يعمل تحت إمرته يمون عليه ؟ هذا الذي تنتفع بخبرته، وتنتفع بجهده، وتنتفع بعطائه ولا تنفعه بعلمك لقد خُنْتَهُ.

لو عندك معمل فيه ثمانون عاملا، وهؤلاء العمال هم بيدك، ودخلهم وإكرامهم بيدك، ألا ينبغي أن تدلّ هؤلاء على الله عزّ وجل ؟ وأنت بوظيفتك، وعملك، وعيادتك، ومكتبك، وبيتك، ودكّانك وأنت واحد فقط، اسع لهداية واحد هداية صحيحة، قال له: أسْلِم، قال: ماذا أقول ؟ قال له: والله لا أعرف ماذا تقول، يجب أن تدلّه على الله بشكلٍ صحيح، أن تبني له أُسُساً فكريّة و انفعاليّة، وسلوكيّة، فهذه هي الهداية، وفاقد الشيء لا يعطيه.

حركةُ اللسان الدعوية يلزمها العلمُ والخلق الحسنُ:

أول شيءٍ اطلب العلم الصحيح ممن تثق بعلمه وإخلاصه، واطلب الدليل، ولا تقبل شيئاً من دون دليل، واطلب التعليل، واقرأ كتاب الله، وافهمه وحاول أن تفهم هذا الكلام العظيم، واقرأ سُنّة رسول الله، وسيرته واسأل عن الأحكام الفقهيّة.

اطلب العلم أولاً، فإذا طلبت العلم وسجّلته، وحفظته في كتيّب، أو شريط، أو ورقة، وكل علم ليس في القرطاس ضاع، فإذا سمعت العلم وسجّلته، لمجرّد أن تسجّله فقد حفظته، فإذا حفظته ملكته، فإذا ملكته نشرته، بمناسبات، أو بالنزهات، أو بالاحتفالات، ومن فضل الله هذه البلدة كل احتفال فيها فيه إلقاء كلمات، وهذه دعوة إلى الله، وهل سمعتم في هذه البلدة الطيّبة عقد قِرانٍ من دون إلقاء كلمة ؟ أبداً، الآن حتى في الأحزان، والتعزيات هناك إلقاء كلمات، وفي النُزهات، وفي الاحتفالات أيضًا، فمجال الدعوة إلى الله واسعٌ جداً.

المؤمن ـ أنا أقول هذا، وأنا أعني ما أقول، لا في الساعة، ولا في الدقيقة، بل في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في القلب يعبّر عن ذاته بالحركة نحو خدمة الخلق والدعوة إلى الحق، لك حركتان: حركة في اللسان وحركة في اليد، ودائماً تسعى لنفع الآخرين، فالمؤمن يبني حياته على العطاء، فأساس حياته

العطاء، والدلالة على الله عزّ وجل، يرقى بالناس بلسانه وبإحسانه، إذاً هذا الكلام يعنينا جميعاً، والله عزّ وجل ذكر هذه الآية بأسلوبٍ مشوّق، أي..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ)

لم يقل: ادعوا إلى الله، هذه الآية تقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً)

أي: ليس في عبادي جميعاً إنسانٌ أفضل ممن دعا إليّ، لكن قبل أن يدعو إليّ عليه أن يعرفني، وعليه أن يطيعني، إذا عرفني وأطاعني، ثم دعا إليّ وفّقته في دعوته، والدعوة إلى الله لا تحتاج إلى ذكاء فقط، ولا إلى علم فقط بل تحتاج إلى توفيق من الله عزّ وجل، لأنه: **" ما أخلص عبدٌ مؤمنٌ إلى الله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرحمة ".**

قلوب العباد بيد الله، فإذا عَلِم صدق عبادٍ جمعهم عليه، وجذبهم إليه فالتفوا حوله، وإذا علم كذب عبادٍ انفضوا من حوله، ومع ذلك هناك آيةٌ قرآنيّة دقيقةٌ جداً، يقول الله عزّ وجل مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلّم، وهو ـ كما أقول دائماً ـ سيّد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم النبي الأول، الرسول المبلّغ، المعصوم الذي يوحى إليه، يقول الله عزّ وجل، ومع كل هذه الخصائص، وهذه الميزات ؛ ومع عصمتك، وكرامتك، وتفوّقك، وفرديّتك:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 159)

الداعية رأسماله الأخلاق العالية ؛ فرحمته، وتواضعه، وتسامحه، أن يكون مع الناس في كل أحوالهم، لا أن يترفّع عنهم في برج عاجي، فالأنبياء يمشون في الأسواق، عاشوا مع الخلق، كيف يستطيع النبي أن يدلّ الناس على الله إلا أن يكون معهم ؟ عاش معهم، فالانسحاب من المجتمع، والتقوقع ليس من صفات الدعاة الصادقين..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

والإمام الحسن رضي الله عنه كان إذا تلا هذه الآية:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

النبيُّ عليه الصلاة والسلام أولُ المَعْنيّين بهذه الآية:

قال: هذا رسول الله، فالآية تشير إلى أنه رسول الله، وهذا حبيب الله، وهذا وليُّ الله، وهذا صفوة الله، وهذا خيرَة الله، وهذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب

إليه.

إذاً: بعض المفسّرين فهم أن هذه الآية تعني رسول الله، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ؟ فأنتم أيها الكفّار ـ يخاطب الله كفار مكّة ـ الذين عارضتموه، وكذّبتموه، وسفّهتم دعوته، ودعوتم إلى أصنامكم، وإلى لهوكم، وإلى طغيانكم، وإلى ظلمكم، أنتم أم هو ؟

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

الآية عامة لجميع المسلمين:

ومفسِّرون آخرون قالوا: هذه الآية عامّةٌ في كل من دعا إلى الله، وبعضهم وسّعها أكثر فأكثر فقال: هذه الآية تخصُّ كل مؤمن، لأن المؤمن أحياناً يدعو إلى الله وهو ساكت، قال له: عندك بيض طازج ؟ قال له: والله الذي عندي من يومين، جاري أحضره الآن اذهب إليه، شيءٌ يجذب النظر، الصدق، فقد يكون الرجل بائعا صغيرا لا يؤبه له يعلِّمك درساً في الصِدق، وهناك امرأةٌ أصابها جُذام، فنهاها عمر أن تكون بين الناس لئلا تؤذيهم، فاعتزلت الناس، وقبعت في بيتها، فلمّا مات عمر رضي الله عنه قيل لها: اخرجي، فالذي نهاكِ قد مات **"، قالت: " والله ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميّتاً ".**

يمكن أن تدعو إلى الله وأنت ساكت، ولا كلمة، باستقامتك، بصدقك، وتواضعك، وامرأةٌ لها زوجٌ يملك مئات الملايين وليس على حق، جرى خِلافٌ بينه وبينها فطلقها ثلاثاً وسافر، وفي أثناء سفره توفّاه الله، فلمّا جاءوا ليعطوها نصيبها من الميراث بمئات الملايين قالت: أنا مطلقّة، لقد طلقني قبل أن يسافر، فأحياناً إنسانة صغيرة تعلِّمك درساً في الأخلاق، والصدق، والأمانة، فالذي قال: تخصُّ كل مؤمن معه الحق، لأن المؤمن مستقيم واستقامته طاهرة، فاستقامة المؤمن لعفّته، غض بصره، وحياءه، وذمّته الدقيقة، وورعُه، وسلوكه الظاهر هذا دعوة إلى الله.

لا يكن دورُك معاكسا لدور الداعية إلى الله !!!

أخطر شيء في الحياة أن يكون لك زيٌ إسلامي، أو وصفٌ إسلامي، أو خلفيّةٌ أو انتماءٌ إسلامي، وأنت تؤذي الناس، هذا الإنسان له دورٌ معاكسٌ للداعية إلى الله، مُنَفِّرٌ من الله، مُبْعِدٌ عن الله، يقطع الناس عن الله، صار هناك من يدعو إلى الله، وهناك من ينفِّر من الله، هناك من يصل الناس بالله ومن يقطعهم عنه، هناك من يحبِّب الله إلى عباده، ومن يبغِّض الله إلى عباده، لذلك أخطر شيء أن ترفع لافتة إسلاميّة، وأن تسيئ إلى الناس..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

1 ـ الإسلامُ حقيقةٌ لا شكلاً وكلاما:

أما:

(إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أي أنك لا تتكلم بالعموميات، والقيم الروحيّة قل: أنا مسلم، تمييع القيَم، وجعلها تتسع لكل شيء، هذه تعمية على الناس، فلان لا يشرب الخمر، فيتعلل بقوله: معدتي وأمعائي لا تتحمله، قل: أنا مسلم لا أشرب الخمر، بِسَذاجة، فبيّن أن هذه الأخلاق بسبب إسلامك، لا تعزُ هذه الأخلاق إلى عادات أو تقاليد، بل قل: أنا مسلم، أنا أقف عند حدود الله لأني مسلم، أمتنع عن قبض هذا المال لأني مسلم.

سمعت عن أحد الفلاسفة الفرنسيين الذين أسلموا حديثاً ـ روجيه جارودي ـ قال: قبل ثلاثين عاما في الحرب العالميّة الثانية كُلِّف جندي مغربي أن يقتله لأنه أسير، فأعلمه هذا الجندي أنه لا يقتله، لأن إسلامه يمنعه من ذلك، بقيت هذه الحادثة في نفسه، واعتملت في فؤاده ثلاثين عاماً حتى نقلته إلى الإسلام..

(وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فإذا رأى الناس منك موقفاً شريفاً، أو تصرُّفاً حكيماً، أو تمنُّعاً عن طمعٍ مادي، أو ترفُّعاً عن مكسبٍ فيه شُبُهَة لا تعز هذا إلى مزاجك، ولا إلى طبعك، ولا إلى تربيتك، بل قل: هذا مما حرّمه عليّ الإسلام.

دائماً أبرز عظمة هذا الدين في سلوكك لتكون داعيةً إلى الله، أما إذا قلت: هذه قيم روحيّة عامة إذ عمّمتها، أو أخلاق، أو هذه أخلاق بلدنا، أو هذه أخلاق أسرتنا، فأنت ضيّعت الناس، بل قل هذه أخلاق المؤمن، وهذه أخلاق الإسلام، الإسلام فعل كذا وكذا.

سمعت في بلد إسلامي أنه جاءت وزيرة زائرة، فهناك موظّف كبير لم يصافحها، فغضبت أشدّ الغضب، فلمّا طلبته: لمَ لمْ تصافحني ؟ قال: إن ديني يمنعني من ذلك، قالت هذه الوزيرة البريطانيّة: لو أن المسلمين أمثالك لكنّا تحت حكمكم، بيّن لها: لم أصافح، لأن ديني يمنعني من ذلك، فعندما يقيم الإنسان شرع الله عزّ وجل لا ينبغي أن يستحي به، ولا ينبغي له أن يعزوه إلى عادات، وتقاليد، تربية، أسرة، أو بلد، لا بل قل: هذا هو الإسلام، لأن ديني يأمرني بذلك، وينهاني عن ذلك، ومن أجل أن تربط الحقائق بصاحب الحق، وهذا معنى:

(دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ

1 ـ علاقة الآية بما قبلها:

ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟ أي إذا كنت مسيئاً لا سمح الله فمهما ألقيت على الناس كلاماً رائعاً، ومهما ألقيت عليهم حِكَماً رائعة لطيفة، أو تفنّنت في شرح النصوص، أو تفنّنت في تحليل النصوص، مهما كانت التعليقات رائعة كلُّها تسقط بسبب العمل السيئ، بل إن صاحب العمل السيئ يكفر الناس بأقواله ولو كانت حقّاً، ولذلك وأنت تدعو إلى الله..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

2 ـ الحسنة ترفع مستوى الدعوة إلى الله:

بالحسنة ترفع هذه الدعوة إلى القِمَم، وبالإساءة تضع هذه الدعوة في الأوحال، فإذا أردت أن تضع دعوةً في الوحل فأسئ إلى الناس في أثناء الدعوة، وإذا أردت أن ترفع دعوةً إلى القِمَم فكن محسناً، وهذا معنى الآية الكريمة:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

3 ـ إذا سقط الداعية سقط معه غيرُه:

أنت داعية، وإنسان معروف بين أهلك، وأنت مؤمن، وإنسان معروف بالصلاح، وإنسان معروف بانتمائك الديني، وهويّتك الإسلاميّة، وإنسان معروف بين مجتمعك أنك صاحب دين، فإيّاك أن تؤذي مخلوقاً، لأن هذا الأذى يبطل دعوتك، ويجعلها في الأوحال، فقبل أن تُسيء إلى الناس، وقبل أن تكذب، وأن تأخذ ما ليس لك ففكِّر مليون مرّة بأنك داعية، وإذا سقطت سقطت معك الدعوة، ألم يقل الإمام أبو حنيفة كرّم الله وجهه لهذا الغلام الذي كاد يقع في حفرةٍ قال له: **" يا غلام إيّاك أن تسقط "، فقال له الغلام: " بل أنت يا إمام إيّاك أن تسقط، إني إن سقطت سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم ".**

أنا لا أرى غضاضة في أن جزءاً من خيبة المسلمين، من تخلّفهم، ومن ضعفهم أن حياتهم افتقدت المُثُلَ العُليا، لأن المثل الأعلى له أهمية كبرى فما أهميته ؟ هو يعطيك الحقيقة مع البرهان عليها، فيجب

أن يكون في حياتك إنسان تثق بإخلاصه، ونزاهته، وورعه، وصدقه، وليس له مصالح أبداً، هذا الإنسان هو الذي يُنَمِّي فيك الخير، وينمي فيك العطاء، وهو القدوة الحسنة.

4 ـ هؤلاء الدعاة حقيقة:

وجود النبي عليه الصلاة والسلام كان لأصحابه مثلاً أعلى، كان معهم في سرّائهم وضرّائهم، وكان مع أصحابه في سفر، أرادوا أن يعالجوا شاةً فقال أحدهم: " عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها ". فقال عليه الصلاة والسلام:

((وعليّ جمع الحطب "، قالوا: " نكفيك يا رسول الله "، قال: " أعلم ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميّزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

انتهى الأمر.

سيدنا الصديق، ركب أسامة بن زيد الناقة، وقد عيّنه الرسول قائداً للجيش، ومشى الصديق، الشيخ الوقور، خليفة المسلمين في ركابه، قال: **<< يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزلن "، قال: " والله لا ركبت ولا نزلت، وما عليّ أن تَغْبَرّ قدمايَ ساعةً في سبيل الله >>.**

وسيدنا الصديق قبل أن يكون خليفة المسلمين وله جارةً يحلب لها الشياة ـ وهكذا من عادته ـ فلمّا أصبح خليفة توقّعت هذه الجارة أن هذه الخدمة قد انقطعت، لأنه ليس متفرّغاً لمثل هذا العمل، وفي صبيحة اليوم الأول من تولّيه هذا المنصب طُرِقَ الباب، وقالت: " يا بنيّتي افتحي الباب "، قالت: " جاء يا أمي حالب الشاة "، جاء ليحلب لها الشياه، فهذا الدين عظمته بالتطبيق.

والله أنا دائماً أقول: لو أن صحابة رسول الله فهموا الدين كما نفهمه نحن، والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكّة المكرّمة، لكنه أنه وصل إلى الآفاق، وإلى المشارق والمغارب بفضل هذه الأخلاق الرفيعة، والآن لا سبيل إلى أن نعود إلى ما كنا عليه إلا بتمسُّكنا، فالناس سمعوا كلاماً، ومحاضرات، وكتبا، وهم الآن بحاجة إلى مطبّقين، وإلى مُثُل عُليا، وإلى أناس يطبّقون ما يقولون، فهذه الآية دقيقة جداً، وتعني كل مؤمن.

5 ـ إنْ لم تكن داعية بلسانك فكن داعية بحالك وخلقك:

أول معنى: تعني رسول الله، والمعنى الثاني: تعني كل داعية، والمعنى الأعم والأشمل: تعني كل مؤمن، وأنت إن لم يكن عندك طلاقة لسان، ولم تقرأ كثيراً، فكن صادقاً، كن صادقاً في مهنتك، وفي

حرفتك، وبيعك، وشرائك ولا تكذب، ولا تغشّ الناس فتصبح داعيةً، وأنت لا تدري، وسيقول عنك الناس: فلان لا يكذب، وهو صاحب دين، وفلان أخلاقه عالية، وكلمته كلمة، وهو عفيف يؤمن على الروح، وهذه هي الدعوة لله عزّ وجل، وبإمكانك من خلال استقامتك وعملك الصالح أن تكون داعيةً إلى الله، وبإمكانك ـ وهذا أرقى ـ أن تدعو إلى الله بعملك ولسانك.

بينما أن هذه الآية كانت تخصُ النبي عليه الصلاة والسلام، إذا بها تخصُ كل داعيةٍ، ثم هي تخصُ كل مؤمنٍ، فإذا وفّقك الله عزّ وجل في كل العمر إلى هداية إنسانٍ هداية صحيحة دقيقة فقد وفِّقت إلى كل شيء، وهذه الدنيا كلها لا تلتفت إليها، لأنك تخسرها عند الموت جميعها مهما حصّلت منها..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ {34} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

هذه الآيات إن شاء الله نعود إليها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (07-11): تفسير الآيات 34 - 36

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-12-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السابع من سورة فصِّلت، ومع الآية الرابعة والثلاثين.

أيها الإخوة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ الداعية الصادق قمة المجتمع:

أي أن الذي يدعو إلى الله، ويأتي عمله مصداقاً لقوله، بدافعٍ من إيمانه واستسلامه لله عزّ وجل، فهذا الإنسان يقع في قمّة المجتمع الإنساني، في القمّة عند الله، قد يكون الإنسان في قمة المجتمع عند الناس، لكن هذا الإنسان يقع في قمة المجتمع الإنساني عند الله، من دعا إلى الله، وجاء عمله مصداقاً لقوله، منطلقاً من إيمانه بالله وإخلاصه له.

2 ـ احذر فإنّ الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم:

لكن ربنا سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى أخطر حقيقة في الدعوة إلى الله، الناس لا يتعلّمون بآذانهم، بل يتعلّمون بعيونهم، فهذه الدعوة إذا رافقتها حسنةٌ ترقى بها إلى أعلى عليين، أما هذه الدعوة نفسُها، بالأفكار نفسها، بالمبادئ نفسها، بالمعطيات نفسها، بالأساليب نفسها إذا رافقتها سيئةٌ تهوي بهذه الدعوة العظيمة إلى أسفل سافلين، الأفكار هي هي، والمبادئ هي هي، والقيَم هي هي، والمُنطلقات هي هي، والأهداف هي هي، والوسائل هي هي، الحسنة ترفع هذه الدعوة إلى الأوْج، والسيئة تهوي بها إلى الحضيض.

إنّ الذي ينطق لسانه بكلمة الحق ينبغي أن يحسب حساباً ألف مرّة لسلوكه، لأن سلوكه إما أن يفرّغ هذه الدعوة من مضمونه، ويجعلها دعوةً طارئة زائلة كغيرها من الدعوات، وإما أن يعطي بسلوكه لهذه الدعوة الخلود.

أيها الإخوة، القضيّة أعقد من أن يقرأ الإنسان كتابا، يحفظ أحاديث، يحفظ تفاسير، القضيّة أعقد بكثير، وأخطر بكثير، وأجل بكثير، القضيّة قضية اتجاه، فالناس يتعاملون مع الواقع، يتعاملون مع المُعطيات الماديّة التي تتعامل بها أنت.

إذاً من سرّ نظم الله عزّ وجل أنه بعد أن قال:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أنه جاء بالآية التالية:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ

1 ـ إذا أردتَ تحطيم مبدإ فتعامل بخلافه:

إذا أردت أن تحطِّم مبدأً فادع إليه وتعامل مع نقيض دعوتك، تحرّك وفق نقيض دعوتك، إذا أردت لمبدأ أن يتحطّم، إذا أردت لمُثُلٍ أن تزول، إذا أردت لهدفٍ أن يصبح في الوحل فادع إليه، واسلك طريقاً مغايراً لهذا الهدف، قل شيئاً وافعل شيئاً، من هنا يقول الإمام علي كرّم الله وجهه: << قِوام الدين والدنيا أربعة: رجال عالمٌ مستعملٌ علمه ـ هذا أحد أركان الدنيا ـ وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم ـ متواضع ويقول: يا أخي علّمونا مما علّمكم الله، هذه النفسيّة المتواضعة التي تصغي إلى الحق هذه نفسيّة رائعة جداً، المشكلة نحن في الكبر، وفي أنصاف المتعلِّمين الذين لا هم علماء فيفيدوا من علمهم، ولا هم جُهلاء فيتعلّمون ؛ إذاً: << قِوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه **>>**.

الإمام علي كرّم الله وجهه يعقّب على قوله فيقول: << فإذا ضيّع العالِم علمه ـ ارتزق من الدين ـ سمعت أن أحد العلماء الكبار كان يقول: **" والله لأن أرتزق بالرقص أهون عليّ من أن أرتزق بالدين"**، فلو أنّ إنسانًا ارتزق بالرقص يقال له: هذا راقص، وانتهى الأمر، فهو ليس قدوةً لأحد، لكن أن يرتزق بالدين، أن يجعل الدين في وحل المادّة، أن يجعل الدين في وحل المآرب الشخصيّة.

إذاً: **" فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم ".**

أيها الإخوة الكرام، من أدق التفاسير التي مرّت بي حول قوله تعالى:

(رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة: من الآية 5)

2 ـ إياك أن تكون فتنة للذين كفروا:

فالكافر لم يُبلّغ الإسلام، فإذا التقى بمسلمٍ مقصِّر يزداد كفراً، يقول لك: أهذا الدين ؟ أإلى هذا تدعوني ؟ إلى هذا الكذب، أو إلى هذا النفاق ؟ أو إلى هذه القسوة، أو إلى ذاك التناقض ؟ فالذي يعرض الإسلام عرضاً مشوّهاً أو عرضاً متناقضاً، أو يعرضه عرضاً رائعاً فتفاجأ أنه لا يطبّقه، هذا الإنسان ربما حمل وزر كفر الكافر ؛ لأنه لولا دعوتك المشوَهة لما كفر بهذا الدين، لو لا أنه رآك مخالفاً لما تقول لما كفر بهذا الدين، لو لا أنه رأى كلامك غير منطقي غير متماسك لما كفر بهذا الدين.

فهذا الذي يستخدم المنامات أحياناً، والكرامات، والخرافات، وبعض الأشياء غير المنطقيّة المعقولة، ويأتي بحوادث ما أنزل الله بها من سلطان، ويدعو إلى الله، هؤلاء الذين ينظرون إلى الدين على أنه دين الله عزّ وجل ربّما كفروا بهذا الدين، والسبب هذا الذي دعا إلى الله وهو يجهل، لذلك كان الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: **" لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون".**

انتبه إلى الذي تقوله، قبل أن تقول الكلمة فكِّر فيها، هذا الذي أمامك يظنُّك داعية، ويظن بك ظناً حسناً أنك منطقي، أنت واقعي، أنت مهذّب، أنت مستقيم، أنت ورع، أنت أخلاقي، أنت غَيْري، فإذا اكتشف فيك شيئاً خلاف ذلك فأول شيء يقول له الشيطان: أهذا هو الدين الذي يدعوك إليه ؟ إذاً: هذا معنى قوله تعالى:

(رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة: من الآية 5)

أن لا نعطي الكفّار حجّة أن هذا الدين باطل، فالإنسان بتعامله التجاري، بمهنته، بحرفته، إذا كان طبيبًا، إن كان محاميًا، إن كان مهندسًا، إن كان مدرّسًا، إن كان صاحب مصلحة إيّاك أن تكذب، إياك أن تقول قولاً غير صحيح، إياك أن يكتشف هذا الإنسان أنك تصلي وتُخْلِفُ وعدك، أنك تصلي ورفعت عليه السعر مستغلاً جهله، أنك تصلي ولا تلتزم بأوامر الدين ـ **" فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيرها "** ـ عندئذٍ يبيع الفقير نفسه للشيطان من أجل أن يؤمِّن حياته، فهؤلاء الأغنياء المؤمنون كما ورد في بعض الأحاديث:

((الأغنياء أوصيائي والفقراء عيالي، فمن حرم مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

وما دمنا في هذا الموضوع، فهناك ثماني آيات في كتاب الله تؤكد أنه:

(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: من الآية 39)

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(273))

(سورة البقرة)

نقطتان: أن الله يعلم، وأن الله سيعوّض، فإذا كان إيمانك بهاتين الآيتين إيماناً يقينياً عندئذٍ تُنفق، ولا تخشى الفقر، تنفق ولا ترجو أن يعلم الناس أنك أنفقت، لأن الله يعلم، وكفى به عليماً، تستغني بعلمه عن علم الناس، وتستغني بفضله عن فضل الناس.

إذاً أيها الإخوة..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

3 ـ إيّاك ألأن تسقط من عين الله تعالى:

هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزّ وجل، ويأتي عملهم مطابقاً لدعوتهم منطلقين من إيمانهم بالله، ومن إخلاصهم له، إذا توافرت لهم هذه الشروط هم في قمّة البشريّة، ولو كنت عاملاً متواضعاً، ولو كنت صاحب حرفةٍ يدويّة، ولو كنت موظّفاً من الدرجة العاشرة في دائرتك، ولو كنت إنساناً لا يؤبه لك، إذا حضرت ينتبه إليك أحد، وإذا غبت لم يفتقدك أحد، قد تكون خاملاً في الأرض عَلَماً في السماء، قد تكون في الدرجة الدنيا في السُلّم الاجتماعي، وقد تكون عند الله في الدرجة العُليا، لذلك المؤمن البطل يبتغي العزّة عند الله، يبتغي الرفعة عند الله، لا يأبه لمكانته عند الناس بقدر ما يأبه لمكانته عند الله، فالمؤمن إذا كان في نظر ربّه كبيراً، وفي نظر الناس صغيراً فلا يَضيره ذلك أبداً، لكن أخطر شيء أن يسقط الإنسان من عين الله.

والله أيها الإخوة، لأن يسقط الإنسان من السماء ـ من ارتفاع أربعين ألف قدم، كان في الطائرة، واحترقت الطائرة، وكان مقعده بجانب مكان تصدُّعها فوقع، هبط أربعين ألف قدم فتكسّرت أضلاعه ـ والله لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، أن يراك الله متناقضاً، أن يراك الله كاذباً، أن يراك الله نَفْعِيّاً تسعى لمصلحتك على حساب مبادئك، أن يراك الله ظالماً، أن يراك الله قاسياً، أن يراك الله مُنافقاً، لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله.

إذاً الآية الأولى: إذا دعوْتَ إلى الله، وكان السلوك مطابقاً لدعوتك، منطلقاً من إيمانك وإخلاصك ؛ فأنت في قمة البشريّة عند الله، وقد تكون لست كذلك عند الناس، هؤلاء الناس لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون..

((واعلم أنّ الأمّة لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ))

[الترمذي عن ابن عبّاس]

الآن: هذه الدعوة بمبادئها، بقيمها، بمنهجها، بتفاصيلها، بنُظمها، بأهدافها، بوسائلها، هذه الدعوة الحسنة ترفعها، وتجعلها دعوةً خالدة، والسيّئة تُسقطها، وتجعلها دعوةً عابرة، وشتّان بين الدعوتين، بين أن تكون دعوةً خالدةً وبين أن تكون دعوةً عابرةً، فلذلك عُظماء البشر حينما تركوا بصمات إلى أمدٍ طويل في تاريخ البشريّة، هؤلاء أخلصوا لله عزّ وجل..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

4 ـ الناس بحاجة إلى أشخاص يجسِّد الإسلام بسلوكه:

الحسنة ترفع والسيئة تُسْقِط، الحسنة تَدْعَمَ الحق والسيئة تفرّغ الحق من مضمونه.

مرّةً ثانية: إذا أردت أن تحطِّم مبدءاً، إذا أردت أن تجعل الناس يكفرون بشيء فادع إليه، واسلك سبيلاً آخر متناقضاً معه، وهذا ما يحصل في تاريخ البشريّة حينما تظهر دعوات، ثم تُفَرّغ من مضمونها، ثم تغدو عبئًا على المجتمع، ثم يرفضها الناس، يرفضونها أشدّ الرفض، لكن الإسلام دين الله عزّ وجل، فهذا الإسلام لا ينتشر، ولا ينمو، ولا يصبح كالطود الشامخ إلا بالرجال الذين يجسِّدون في سلوكهم مبادئهم وقيمهم.

لذلك أيها الإخوة، المُثُل لا تعيش وحدها، المُثُل لا تعيش في الكتب، ولا في الخُطَب، ولا في المقالات، ولا في الأشرطة، المُثُل تعيش مجسّدةً في الأشخاص، الناس بحاجة إلى إنسان يجسِّد هذا الدين بسلوكه في ببيته، في عمله، الربح تحت قدمه ولا يعصي الله، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

إذاً:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

طبعاً لا تستويان، لكن يبدو أن الله سبحانه وتعالى يقول: يا عبادي الحسنة إذا رافقت دعوةً إليه رفعت هذه الدعوة، والسيئة إذا رافقت دعوةً إليه أسقطت هذه الدعوة.

مثلاً: لو كنت صاحب متجر عندك صانع أو عندك موظّف، دعوته إلى الصلاة، شيءٌ جميل هذه دعوة من دعوة الله عزّ وجل، ولكن كنت بخيلاً عليه، كنت قاسياً عليه، قسوتك وبخلك يسقطان دعوتك، أما إذا رآك مُنصفاً، أباً رحيماً، خيّراً، معطاءً، هذا الخُلُق الكريم يرفع دعوته إلى الصلاة.

قبل أن تلفظ كلمة الحق انتبه إلى السلوك، أحياناً يحمل الأب أولاده على الصلاة، أو على تطبيق أوامر الدين، وهو في الوقت نفسه بخيلٌ عليهم، إذا ما ولّت عينه يفجرون أشدّ الفجور، لأن دعوته مع بخله لا تؤثِّر فيهم، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسيّة:

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي، ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[كنز العمال]

إذا كان لك مظهر ديني، أو خلفيّة دينيّة، أو انتماء ديني، أو مظنة صلاح، أو معروف بين قومك أنك تصلي، ولك مسجد، ولك شيخ، معروف عند زملائك في الوظيفة أنك إنسان صاحب دين، مربّى على أيدي علماء، فانتبه لكلامك، انتبه لمزاحك، انتبه لمجيئك، لدوامك، لعطاءك، لمنعك لأن هذا كلّه مسجّلٌ عليك، وأول كلمة يقولها أعداء الدين أن هذا هو الإسلام، الغريب أن أعداء الدين إذا رأوا مؤمناً مقصّراً يغفلون اسمه، يغفلون هويّته ويقولون: أهذا هو الإسلام !! لا يروون غلّتهم إلا إذا انتقلوا من المسلم المقِصر إلى الطعن بالدين، إلى الطعن بالإسلام، لهذا قال عليه الصلاة والسلام يخاطب المؤمن:

((أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام فلا يؤتينّ من قِبَلِك))

[ورد في الأثر]

كل واحد مسلم واقف على الحدود على منطقة ضعيفة، فإياك ثم إياك أن يصل أعداء المسلمين فينالوا من الإسلام من عندك، من خلال معاملتك، من خلال تقصيرك، من خلال التناقُض، من خلال النِفاق، من خلال الأذى.

بل إن بعض أعداء الدين ـ وهذه النقطة مهمّة جداً ـ بعض أعداء الدين يقدّمون خدماتٍ رائعة، وفي وقتٍ سريعٍ قياسي للمسلمين، ليثبتوا أننا على حق، وهم على باطل، فقد حدّثني أخ ذات مرة كانت زوجته في وضعٍ في مسيس الحاجة إلى طبيب، يأتي إلى البيت في ساعةٍ متأخِّرة، قال لي: اتصلت بأول طبيب، والثاني، والثالث حوالي عشرة أطبّاء، بعضهم اعتذر، بعضهم لم يلبِّ، بعضهم لم يستجب على الهاتف، فقالت له القابلة: أتوافق على طبيب غير مسلم ؟ قال لها: مضطر، فلمّا اتصلوا به قال: تجدوني في الساعة الفلانيّة في المستشفى، فلمّا وصلوا رأوه موجوداً في الوقت المناسب.

فعندما يلبيك غير المسلم، ويكون صادقا معك، هذه القضيّة تحدِث زلزلة، أن هذا المسلم هكذا يفعل، وهذا غير المسلم هكذا يفعل !! فإذا أردت أن تدعم دينك فكن مستقيماً، إذا أردت أن تؤكِّد للناس أن هذا الدين حق كن صادقاً، إذا أردت أن تؤكِّد للناس أن هذا الدين من عند الله دينٌ صافٍ إيّاك أن تكذب، إياك أن تغش، إياك أن تخون، إياك أن تنافق، إياك أن تتناقض، إياك أن تقسو، إياك أن تزوّر الحقائق، فلذلك:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

الحسنة ترفع المبدأ.

ما قولكم بأن بعض الناس يؤمنون بالمبادئ الهدّامة إذا رافقتها خدمات طيّبة، فأنت تتعامل مع الخط العريض في المجتمع، مع العوام، مع الدَهْمَاء، هؤلاء يتعاملون مع الواقع لا مع الفكر، فلو جاء إنسان ضال مضل يدعو لمبدأ هدّام ينكر وجود الله، وقدّم لك الخدمات، وأنكر ذاته أمامك، وأعانك ماذا يُحدِث لك ؟ يحدث لك اختلال توازن، تقول: أيهما على حق ؟ هذا الذي يدعو إلى ضلالة بهذه الأخلاق، وهذا التفاني، وهذا الذي يدعو إلى الحق بهذا التقصير وهذا الكذب ؟ فالقضيّة خطيرة جداً، أخطر ما في الدعوة إلى الله الحسنة والسيئة..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

الحسنة ترفع وتدعم، وترسّخ، وتقوي ؛ والسيئة تسقط وتجعل الدعوة إلى الله في الوحل، تجعلها دعوةً عابرةً لا قيمة لها، فهذا الدين لا يعيش إلا بالمُثُل، ولا ينمو إلا بالمُثُل، والتطبيقات.

الآن:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

قبل أن نشرح هذه الآية لابدّ من وقفةٍ قصيرة نتحدّث فيها عن سلوك الإنسان.

1 ـ سلوك الإنسان تجسيدٌ لعقيدته:

الحقيقة أيها الإخوة سلوك الإنسان تجسيدٌ لعقيدته، وتجسيدٌ لمدى اتصاله بالله أو انقطاعه عنه، المؤمن يتعامل مع الله، وغير المؤمن يتعامل مع الأشخاص، فإذا تعامل الإنسان مع الأشخاص الذي ينفعه ينفعه والذي يضرُّه يضرُّه، معاملة بالمِثل، الذي يرجو نفعه يتأدّب معه، والذي يخشى ضرَّه يتأدّب معه، هذه المعاملة المباشرة بينك وبين الشخص هذه دليل ضعف الإيمان، التعامل في غيبة الدين بين شخصين، هذان الشخصان قد يكونان في قوة واحدة، أو قد يكون أحدهما قوياً والثاني ضعيفاً، فالقوي يأكل الضعيف، قد يكون أحدهما ذكياً والثاني أقل ذكاءً، فالذكي يحتال على أقلهم ذكاءً، قد يكون أحدهما طليق اللسان واضح الحجّة والبيان والثاني عَيِيًّا، فطليق اللسان يستحوذ على العَيِي.

أوضح مثل على ذلك: أنت بائع، وجاءك طفل صغير يريد شراء حاجة، لا يملك لا الخبرة ولا المعلومات، يمكن أن تعطي هذا الطفل أسوأ سلعة بأغلى سعر، أنت أقوى منه، وأعقل منه، وتملك خبرة أكثر منه، هو ضعيف وأنت قوي، لكن لو كان هناك إيمانٌ بالله عزّ وجل مهما كنت قوياً، ومهما كان

الطرف الآخر ضعيفاً إنك تتعامل معه من خلال ربّك عزّ وجل، تشعر أن الله وكيله، وأن الله سيسألك عنه، وسيحاسبك.

أحد إخواننا الكرام، ذُكِرت لي قصّة، أنا أقولها كثيراً فقط لوضوحها، عنده محل لف محرّكات قال لي: قبل أن أعرف الله يأتيني محرّك يحتاج إلى لفٍّ، أجرته خمسة آلاف، يقبل صاحب المحرّك هذا الرقم، يأخذ وصلا وينطلق إلى سبيله، أفتح المحرّك، فأرى فيه شريطاً مقطوعاً، من الظاهر لا يكلفني إلا دقيقة في وصله بالكاوي، وأعيد المحرّك إلى ما كان عليه، وحينما يأتي بعد سبعة أيّام أوهم صاحب المحرِّك أنني لففته، وأشغِّله أمامه، وأتقاضى الخمسة آلاف ليرة، وصاحب هذا المحرِّك لا يعلم ما في داخله، الذي يعلمه أنه توقّف عن الحركة، إذاً احترق، وصاحب المحل يعلم دقائق الأمور، هذا يعلم، وذاك لا يعلم، والاتفاق واضح خمسة آلاف، ثم قال لي هذا الأخ الكريم: بعد أن عرفت الله عزّ وجل جاءتني عدّة محرّكات على هذه الشاكلة، وعندما فتحتها وجدتها صالحة تحتاج إلى إصلاح طفيف، فلمّا جاء صاحبها بعد سبعة أيام قلت له: خمساً وعشرين ليرة، صُعِق الرجل فما كان يدري أنّ المحرّك سليم.

أردت من هذه القصّة أن أو أكِّد لكم أنه من دون إيمان بالله القوي يأكل الضعيف، الذكي يأكل غير الذكي، صاحب الخبرة يستحوذ على قليل الخبرة، فأنت لا تعرف أنواع الزيت، أربعة أخماس نباتي وخمس بلدي، وأنت لا تعرف، والبائع يقسم لك أيمانًا مغلّظة، فلو ألغينا الإيمان في حياتنا فالحياة لا تُعاش، لأن فيها قويا وفيها ضعيفا، القوي يأكل الضعيف، الذكي يستحوذ على غير الذكي، صاحب الخبرة يسيطر على ضعيف الخبرة، المُنتج يأكل المستهلك، فحياةٌ من دون إيمان حياة غابة، حياة ذئاب، حياة وحوش.

أستمع أحياناً إلى بعض القصص التي تجري في مجتمعنا من نوع الاستغلال، من نوع الظلم أحياناً، وفي مهن راقية جداً، هذا المريض واثق من الطبيب، ومنحه كل ثقته، قد لا يكون هذا الطبيب في مستوى هذه الثقة، فيشير عليه بعمليّةٍ لا جدوى منها، وليس المريض بحاجةٍ إليها، حينما أستمع والله إلى مثل هذه القصص من أشخاص لهم مهنٌ عالية، أو مهن أخرى كالتجارة والصناعة، حينما أستمع لهذه القصص وأقول: هذا مجتمع وحوش، والله أخجل من الوحوش، لأنهم يأكلون حاجتهم وانتهى الأمر، حينما يجوع الوحش يأكل حاجته فقط، لكن هذا الإنسان حينما يغيب عنه الإيمان، وحينما يغفل يريد أن يوقع الأذى بأكبر عددٍ ممكنٍ من الناس، من أجل مصلحةٍ صغيرةٍ لا تقدّم ولا تؤخّر.

إذاً: التعامل مع الناس الآن إما أنه تعامل في ظل الإيمان، أو في غيبة الإيمان، في غيبة الإيمان تعامل وحوش، القانون قانون الغاب، الأقوى يأكل الأضعف، الأذكى يضحك على الأغبى دائماً، لكن إذا ساد الإيمان في المجتمع صار التعامل من خلال الله عزّ وجل.

قصّاب يأتيه طفل صغير ليشتري من عنده، يراقب الله عزّ وجل، هل أعطيته حقّه ؟ هل أعطيته البضاعة المناسبة ؟

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

2 ـ معنى: ادْفَعْ

معنى ادفع، أي ادفع شيئاً جاءك، أي جاءتك سيئة وكأنها قذيفة، المؤمن مأمور أن يدفعها بالتي هي أحسن.

3 ـ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

أما أحسن اسم تفضيل، أي إذا كان هناك مائة أسلوب لردِّ هذه السيئة، عليك أن تختار أحسن هذه الأساليب، إذا وجد مائة أسلوب، إذا وجد ألف أسلوب حسن لردِّ هذه الإساءة، عليك أن تختار أحسنها، لذلك هذه الآية تنفي الانتقام، المنتقم هبط إلى مستوى خَصْمِهِ، ما دام قد ردّ عليه الإساءة بإساءةٍ مثلها هبط إلى مستواه.

القرآن الكريم يؤدِّب النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام أعلى تأديب، ونحن بالتبعيّة، أي كلّما أساء لك مسيء أينبغي أن تردّ على إساءته بإساءةٍ مثلها ؟ ليس هذا هو الإيمان، بل ينبغي أن تعفو عنه، ينبغي أن تترفّع عن الإساءة إليه، ينبغي أن لا تردّ هذه الإساءة بإساءةٍ مثلها، ينبغي أن تكون أرقى من ذلك..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

4 ـ يمكن ن تجعلك من عدوك صديقا مؤمنا:

الحقيقة أن هذا الكلام قد يقول عنه بعض الناس: إنه كلام خيالي، أو كلام مثالي، هو والله خياليٌ وواقعيٌ في وقتٍ واحد، إذا كنت تعرف الله عزّ وجل فوالله هو واقعي، إذا عرفت الله، وعرفت ما عنده من إكرام، وعرفت جنّته وناره، وعرفت أن هذه الدنيا زائلة، وأنها ماضية، وأن الأعمال الصالحة هي التي تبقى عند الله عزّ وجل، لذلك تضع نفسك تحت قدمك وتقول: سأردُّ لهذا المسيء إساءته بإحسانٍ كبير.

تجد في المجتمع الذي يعفو، والذي يترفّع عن أن ينتقم، والذي يرد على الإساءة بالإحسان، تجده عظيماً جداً في نظر الناس، وربّما انقلب العدو إلى صديق، فهذا عمير بن وهب قصّته معروفة، انطلق

من مكّة المكرّمة إلى المدينة ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، واتفق مع صفوان بن أميّة إذ قال له: " والله لولا ديونٌ ركبتني وأطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت لذهب وقتلت محمداً، ولأرحتكم منه "، فانتهزها صفوان عدو الله فرصةً، وقال له: " أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي ما امتدّ بهم العمر، اذهب لما أردت وأنا معك ".

سقى سيفه سُمًّا وهيّأ راحلته وانطلق إلى المدينة ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام غدراً، وحجّته أن ابنه أسيرٌ عند النبي ذهب ليأخذه، رآه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال: " هذا عدوٌ الله عمير جاء يريد شرّاً " قيّده بحمّالة سيفه وساقه إلى النبي، النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا عمر أطلق سراحه، فُكّ قيده، فكّ قيده، قال: يا عمر ابتعد عنه، ابتعد عنه، قال: يا عمير، ادنُ مني، دنا منه، قال: يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت أفدي ابني، قال: وهذا السيف الذي على عاتقك لمَ جئت به ؟، قال: " قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟، قال: ألم تقل لصفوان: لولا ديونٌ ركبتني، وأطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً، ولأرحتكم منه ؟، وقف عمير، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم من تَوّهِ.

يقول سيدنا عمر: دخل عمير على النبي صلى الله عليه وسلّم والخنزير أحبُ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبُ إليّ من بعض أولادي "، يمكن أن تجعل عدوّك صديقًا.

أحد أعداء النبي عليه الصلاة والسلام الألدّاء وقع أسيراً، قتل من أصحابه عدداً كبيراً ثم وقع أسيراً، اسمه ثمامة بن آثال، مرّ به النبي، وهو مقيّدٌ في سارية المسجد قال: ما وراءك يا ثمامة ؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم ـ أنا قاتل أصحابك ـ وإن تعف تعف عن شاكر، وإن تُرد المال فخذ منه ما تشاء، تركه يوماً آخر ومرّ به في اليوم الثاني وقال: ما وراءك يا ثمامة ؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر، وإن ترد المال فخذ منه ما تشاء " تركه لليوم الثالث قال: أطلقوا سراحه، دعاه إلى الإسلام فأبى، خرج من مسجد النبي وعاد بعد حين، وأمام أصحابه جميعاً قال: أشهد أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: يا ثمامة لمَ لم تسلم حينما دعوناك ؟، هو أراد أن لا يكون إسلامه تحت ضغط إطلاق السراح، على كلٍ وقف وقال: **" يا محمّد، والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إليّ منك، والآن ما على وجه الأرض وجهٌ أحبُ إليّ منك، وما كان في الأرض دينٌ أبغض إليّ من دينك، والآن ما في الأرض دينٌ أحبُ إليّ من دينك، وما كان في الأرض بلدٌ أبغض إليّ من بلدك، والآن ما من بلدٍ أحب إلا بلدك".**

هكذا فعل النبي بأعدائه..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

فأنت يمكن أن يكون لك أعداء كُثُر، لكن أيَلزم كل عدو أن تنتقم منه ؟! اعف عن هذا، وسامح هذا، وأحسن إلى هذا.

أحدهم نال من النبي صلى الله عليه وسلّم أشدّ النَيل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام من يقطع لسانه ؟، أصحاب النبي تفاوتوا في فهم هذا الأمر، بعضهم فهموا أن يقطع لسانه بالموسى أو بالسكين، أو المقص، وبعضهم قطع لسانه بالإحسان إليه، وأنت بإمكانك أن تقطع ألسنة أعدائك، بماذا ؟ بالإحسان إليهم، أي انطلق انطلاقة أنك يجب أن تكافئ المسيء بالإحسان..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

هل بإمكانك أن تعامل المسيء وكأنّه ولِيٌّ حميم ؟ هل بإمكانك أن تعفو ؟ هل بإمكانك أن تحسن ؟ إذاً أنت مؤمنٌ ورب الكعبة ؛ أما إذا أكل الحقد قلبك، وغلى في كيانك، وأردت أن تكيل له الصاع صاعين، عندئذٍ عليك أن تجدّد إيمانك، وأن تبحث عن مستوىً أرقى من هذا المستوى..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

1 ـ الأخلاق العالية تحتاج إرادة قويّة وإلى كمال رفيع المستوى:

هنا إشارة دقيقة جداً، الأخلاق العالية تحتاج إلى شيئين ؛ إما إلى إرادة قويّة، وإما إلى كمال رفيع المستوى، فأنت بالإرادة القويّة تضبط نفسك وهواك، وتجعل نفسك تحت قدمك، وتقف الموقف الكامل، معنى هذا أنت صاحب إرادة قويّة، صابر، استفززت فلم تفعل شيئاً، أو أنك على اتصالٍ بالله شديدٍ جداً نلت من حلمه الشيء الكثير، أي إما أنك نلت من الله الكمال الذي حملك على هذه المعاملة الطيّبة، وإما أنك قهرت نفسك، وصمّمت على الإحسان إلى من أساء من دون أن تبالي بالنتائج، إذاً إما أن تكون نفسك في مستوى هذا الأمر.

إذاً:

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

وإما أن تكون دون مستوى هذا الأمر عندئذٍ تصبر، أنت بين الصبر وبين الحظ العظيم..

(وَمَا يُلَقَّاهَا)

2 ـ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

أي أن تردّ على إساءةٍ بالإحسان يحتاج إلى شيئين ؛ إما أن تصبر وإما أن يكون حظك من الله كبيراً، فالحظ هو النصيب هنا، أي إذا كان نصيبك من خلال إقبالك على الله شديداً وكبيراً ووافراً، معنى ذلك أنك تتمتّع بكمالٍ كبير، هذا الكمال يحملك على العفو وعلى الإحسان، وعلى الردِّ على الإساءة بإحسان، وإن لم يكن في هذا المستوى الرفيع من الإقبال على الله واشتقاق الكمال منه بإمكانه أن يتحلّم، أن يتصبّر، أن يجعل من عمله تجسيداً لإرادةٍ صُلْبَة، على كلٍ كلاهما مقبول وكلاهما مثابٌ عليه..

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

نتابع تفسير الآيات التي بدأنا بها.

أيها الإخوة، الآيات لها سياق، لو نُزِعَت الآية من سياقها لها معنى مستقل، أما إذا أدرجت في السياق لها معنىً متعلّقٌ بالسياق، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

1 ـ الآيةُ من حيث سياقها:

لو جاء للإنسان وسواس من الشيطان، كي ينتقم من هذا المسيء ـ لازلنا في السياق ـ لو أن وسواساً أتاه من الشيطان لينتقم من هذا المسيء ليقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذا الوسواس ينقطع عنه فوراً، هذا المعنى السياقي، أي أن الإنسان عندما يؤذى، أو تناله إساءةٌ بالغة من إنسان قد يغلي غيظاً، قد يفور كالمِرْجَل، قد يتمنّى أن يمزّق خصمه إرباً إرباً، يتمنّى أن يجعله تحت الأقدام، يتمنّى أن يسحقه، هذه مشاعر الإنسان إذا لم يعرف الله عزّ زجل، فالمؤمن أحياناً فد تأتيه مشاعر من هذا النوع من الشيطان، أن اسحقه، دمّره إنه عدوّك اللدود، لا ترحمه، قال:

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

أي إما أن تكون عوناً لأخيك على الشيطان، وإما أن تكون عوناً للشيطان على أخيك، الأكمل أن تكون عوناً له على الشيطان..

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

2 ـ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

هذه الوساوس من الشيطان في الانتقام من المسيء في سحقه في تدميره هذه لا تلتفت إليها، هذه من الشيطان، وإذا استعذت بالله عزّ وجل تذهب عنك بعيداً..

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

سميعٌ لقولك عليمٌ بصدقك، سميعٌ عليم.

3 ـ الآية في السياق العام:

أما الآية وحدها الإنسان بين وسوسة الشيطان وإلهام الملك، فإذا ألقى الشيطان في نفس الإنسان وسوسة أو أمراً، أو زيّن له شهوةً، أو دعاه إلى معصية، أو إلى منكر، أو إلى قطيعةٍ، أو إلى هجرانٍ، أو إلى ما شاكل ذلك عليه أن يستعيذ بالله عزّ وجل من هذه الوساوس، أي إما أن تكون هذه الوساوس متعلِقة بالمسيء، أو ليس لها علاقة بالمسيء، وساوس إلى المعاصي، أو إلى الملذّات، أو إلى المخالفات، على كلٍ الشيطان لا يملك إلا أن يوسوس وهو أضعف من أن يُسَيْطِر، ولا تنسوا أبداً هذه الآية:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

4 ـ كيدُ الشيطان ضعيفٌ:

الشيطان ضعيف..

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا(76))

(سورة النساء)

أنت بإمكانك أن تستعيذ بالله عزّ وجل فتبعد عنك الشيطان مسافاتٍ طويلة..

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

5 ـ قاصمة ظهور الدجّالين والخرافيين:

أيها الإخوة، هذه الآية تحل محل التمائم، تحل محل الدجاجلة، محل السحرة، محل أنه مخاوي، محل أنه سنفك له سحره، ولكن يحتاج إلى خروف، هذه الآية تحل محل كل الخُرافات، وكل أنواع الدجل

والخزعبلات، وكل هؤلاء الذين يعيشون على مشكلات الناس، الشيطان لا يذهب إلا بالاستعاذة القلبيّة، انتبه ! لكن بعضهم يقول: استعذنا، وما حدث شيء، لا يذهب إلا بالاستعاذة القلبيّة، يجب أن يكون قلبك حاضراً، وأن تكون خاشعاً، وأنت تستعيذ بالله، إن فعلت هذا انصرف الشيطان.

هذه الآيةُ إما لوساوس متعلِقة بالمسيء بحسب سياق الآيات، أو بوساوس متعلِقة بالمعاصي إذا نزعنا هذه الآية من سياقها..

آيات اليوم:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا)

خلاصة الدرس:

1 ـ الكمالُ الإلهي يُتلقى:

وإنّك لتُلَقّى القرآن، أي أن الكمال يتلقّى من الله عزّ وجل، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، أي ألقى عليه هذا الخُلق، إذاً كلمة..

(وَمَا يُلَقَّاهَا)

أنت تتلقّى الكمال من الله، تتلقّى الصبر من الله، تتلقّى الحلم من الله، تتلقّى الرحمة من الله، تتلقّى العدالة من الله، تتلقّى الإنصاف من الله، تتلقّى حب الخير للناس من الله، ويتلقّى الإنسان الشيطان كل أنواع الإساءات، والشهوات، والانحرافات، والضلالات، فلذلك كلمة..

(وَمَا يُلَقَّاهَا)

2 ـ الكمالُ الإلهي لا يناله إلا الصابرون أصحاب النصيب:

من الله هذه المكارم إلا الذين صبروا..

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

أما إذا جاءك الوسواس لتنتقم من عدوّك اللدود..

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

3 ـ اعفُ عمّن أساء إليك:

عبد أساء لسيّده إساءة بالغة فقال: يا سيدي..

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(135))

(سورة آل عمران)

الآية الكريمة فيها ثلاث مراحل:

أول مرحلة قال:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

المرحلة الثانية:

(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)

والثالثة:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

(سورة آل عمران)

إذا أساء لك أحد فهناك ثلاث مراحل: مرحلة تكون فيها تغلي غليانًا من الداخل، أحياناً تعض على أسنانك من شدة الألم، لكن تضبط أعصابك، هذا كظم للغيظ.

مرحلة ثانية من الداخل أمنٌ وسلام، كأنه واحد مريض أمامك، فإذا رأى طبيب مريضًا معه مرض جلدي قبيح جداً هل يغضب منه ؟ يحزن عليه، يرثي لحاله، فالمؤمن الراقي إذا أُسئ إليه يرى هذا المسيء مخطئًا، يرى هذا المسيء قليل القيمة عند الله عزّ وجل وجاهلا، هذه المرحلة الثانية.

أما الأرقى:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

أن تحسن لمن أساء إليك، فإن كنت مسلمًا حقيقيًا، مؤمنًا حقيقيًا تمثِّل هذا الدين يجب أن تردّ على الإساءة بالإحسان. إلا في حالات نادرة كمن كان طائشًا مثلاً، وأساء إساءة بالغة، فإذا قابلته بإساءةٍ توقفه عند حدِّه، إذا اقتضت الحكمة ذلك الأولى أن توقفه عند حدِّه، إذا لم يكن لديه إصرار أو طيْش، ولكن حصل نسيان أو تقصير فالأولى أن تعفو عنه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (08-11): تفسير الآيات 37- 39

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-24

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الثامن من سورة فصِّلت، ومع الآية السابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

تذكيرٌ بما سبق:

أيها الإخوة، أولاً: حينما ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين آمنوا بالله، واستقاموا على أمره..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

وبيَّنت لكم وقتها أن علامة صدق إيمانهم استقامتُهم، هؤلاء الذين قبلوا الحق، هناك مرتبة أعلى من هذه المرتبة هم الذين نشروا الحق، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وبيَّنت لكم في الدرس الماضي أو قبل الماضي أن هؤلاء الذين دعوا إلى الله عزّ وجل، وطبّقوا مضمون دعوتهم منطلقين من إيمانهم، ومن إخلاصهم هم في قمة المجتمع البشري عند الله، ولو كانوا عند الناس في أدنى درجة من درجات السُلّم الاجتماعي، هؤلاء الفريق الآخر.

ثم يبيّن ربنا سبحانه وتعالى لنا أن طريق إيمان هؤلاء، وجوهر دعوة هؤلاء هو معرفتهم بالله عزّ وجل، إذا عرفت الله استقمت على أمره، وإذا عرفت الله دعوت إليه.

وطريق معرفة الله عزّ وجل آياته، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، ولكن خلق الكون ليكون الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفُضلى، فإذا أردت أن تعرف عظمة الله عزّ وجل، علم الله، رحمة الله، خبرة الله، قدرة الله، إن أردت أن تعرف أسماء الله عزّ وجل فهذا الكون ينطق، وكل شيءٍ في الكون ينطق بوجود الله، وبكمال الله، وبوحدانيّة الله.

لذلك ربنا في سوره الكريمة كلّما بيّن حقيقةً بيّن سببها، أي إذا أردت أن تؤمن، ومن ثمّ تدعو فعليك بهذه الآيات، لأنك إن فكّرت فيها بدت لك عظمة الله عزّ وجل.

وكنت أقول دائماً: إن الكون أوسع بابٍ وأقصر طريق، إذا أردت أن تقف أمام عظمة الله عزّ وجل، أما قدرة الله، أما علم الله، أمام رحمة الله، أمام لطف الله فدونك الكون، وحسبك الكون معجزة.

إذاً: سياق هذه الآيات، الآيات مترابطة، ولو لم يبد لكم أدوات ربط ظاهرة، في اللغة أدوات ربط ظاهرة، لأنه كذا وكذا كان كذا وكذا، وانطلاقاً من كذا نقول كذا، هذه أدوات ربط ظاهرة، ولكن مقاطع القرآن الكريم مترابطة أدقّ الترابط، مترابطة ومتناسقة أدقّ التناسق.

إذاً: بعد أن بيّن لنا الفئة الأولى التي آمنت، وكانت استقامتها علامة إيمانها، والفئة الثانية التي دعت، وكان عملها الصالح علامة صدقها في دعوتها، بيّن الله سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله والدعوة إليه أساسه معرفة الله، وطريق معرفة الله هذه الآيات الكونيّة جاءت..

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(وَمِنْ)

1 ـ النظر في الكون طريق لمعرفة الله:

ومن هنا للتبعيض، أي من بعض الآيات التي بثّها الله في السماوات والأرض، من بعض الآيات، أما الحقيقة فإن الكون كلّه بسماواته وأرضه، بمجرّاته، بكازاراته، بالكواكب الملتهبة، بالكواكب المنطفئة، بالأقمار، بالأرض وبكل ما فيها من جبال، من مسطّحات، من وديان، من سهول، من أنهار، بحيواناتها، بأسماكها، بأطيارها، بنباتاتها، بأنسها، بحقيقة الإنسان، كل ما في الكون ينطق بوجود الله، وبعظمة الله، وبكمال الله، ربنا يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

هل فكّرت في هذا الليل ؟ يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أقواله:

((سبحان الله، أين الليل إذا جاء النهار))

(من كنز العمال)

كل شيء مظلم، كل شيء ساكن، يأتي النهار يتضح فيه كل شيء..

((سبحان الله، أين الليل إذا جاء النهار))

(من كنز العمال)

أو أين النهار إذا جاء الليل ؟ الوحشة، والخوف، والقلق، والسكون، لو كنت في مكانٍ فسيح، أو في غابةٍ، أو في عُرض بحرٍ تأتي الشمس فتملأ الأرض ضياءً، وحركةً، ونشاطاً، ونوراً..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

2 - الليل والنـهار:

لماذا هناك ليل وهناك نهار ؟ لأن هناك مصدرًا للضوء وهو الشمس، لو أن الشمس انطفأت لما كان هناك ليلٌ ولا نهار، إذا لم يكن هناك نهار فليس هناك ليل، وبضدِّها تتميّز الأشياء، ومصدر الحرارة، والطاقة، والضوء، والدفء من الشمس.

إذاً: كلمة الليل تشير من طرفٍ خفي إلى الشمس، وهذه الشمس وهذه الأرض، لو أن هناك شمسًا وهناك أرضًا، لولا هذه الدورة لما كان ليلٌ ونهار، لو أن الأرض دارت هكذا على محورٍ موازٍ لمستوى دورانها حول الشمس، لو دارت الأرض هكذا لما كان ليل ولا نهار، نصفها المُقابل للشمس نهارٌ أبديٌ سرمدي، ونصفها الآخر ليلٌ أبديٌ سرمدي، لأن المحور ليس موازياً لمستوي دورانها حول الشمس كان الليل والنهار..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ)

تناسب الليل والنـهار دليل على عظمة الخالق:

لكن لو أن الأرض تدور كل ساعة دورة حول نفسها، لكان الليل نصف ساعة واحدة، لا نستريح، نغلق المحلات، ونأتي إلى البيت، حتى يبدأ نهارٌ جديد، لو أن الأرض تدور حول نفسها كل خمسين ساعة دورة، لصار الليل خمسا وعشرين ساعة، فالإنسان إذا نام في وقت مبكِّر جداً، واستيقظ الساعة الثانية عشرة يحتار ماذا يفعل ؟ فالناس كلهم نائمون، لو كان الليل أطول من حاجة الإنسان للنوم أو أقلّ لاختلف نظام الأرض، لكن سبحان الله ! طاقتك للعمل ثماني ساعات، وحاجتك للنوم ثماني ساعات، وثماني ساعات بين ذهاب وإياب، وطعام وشراب، وجلوس مع الأهل، هذا تناسق تام بين سرعة دورة الأرض حول نفسها وجسم الإنسان، هذا يؤكِّد أن الذي خلق الأرض بهذا الحجم، وجعل سرعتها بهذه السرعة هو الذي خلق الإنسان.

لو أن حجم الأرض كحجم القمر، لكان وزن الإنسان على الأرض سُدس وزنه الحقيقي، أي أن الذي وزنه ستين كيلوا سيزن عشرة كيلوات، والوزن الخفيف أحياناً يكون مزعجًا جداً، أي حركة صرنا في الهواء، فوزنك يتناسب مع حجم الأرض، لأن حجم الأرض يؤكِّد مستوى الجاذبيّة، فوزنك له علاقة بحجم الأرض، وطول الليل له علاقة بسرعة الدوران حول نفسها.

3 ـ الفصول الأربعة:

لو أن المحور هكذا عمودي على مستوى الدوران لانعدمت الفصول، وإذا انعدمت الفصول انعدم النبات، والنبات أحد أسبابه الفصول.

التأمُّل يضعنا أمام آياتٍ دالّةٍ على عظمته، فوزنك متعلِّق بحجم الأرض، وطول الليل والنهار المتناسب أشد التناسب مع حاجتك للنوم والعمل متعلِّقٌ بسرعة دورة الأرض حول نفسها، وميل المحور يجعل الفصول الأربعة، ولولا هذا الميل لكان الصيف أبديا في نصف الكرة الأرضيّة عند خط استوائها، وفي طرفيها شتاءٌ أبدي، أما بهذا الميل فالشمس عموديّةٌ على قسمها الشمالي، فإذا أصبحت في هذا المكان أصبحت عموديّةً على قسمها الجنوبي، إذاً: تبدّل الصيف والشتاء والربيع والخريف يكون عبر مناطق الأرض.

إنّ الإنسان بإمكانه إذا ذهب إلى قارة أمريكا، بإمكانه وهو في شمال أمريكا أن يُعاين الثلوج المُتراكمة، فإذا ركب الطائرة، وطارت به إلى جنوب أمريكا يرى الناس يسبحون في البحار، هناك صيف، إذا كان عندنا شتاء ففي نصف الكرة الجنوبي صيف، وحينما يكون عندهم الشتاء يكون عندنا الصيف.

إذاً: لولا ميل هذا المحور ميلاً دقيقاً جداً لما كانت الفصول الأربعة، فمن دورة الأرض حول نفسها، وبمحورٍ غير موازٍ لمستوي دورانه حول الشمس يتشكّل الليل والنهار، ومن سرعة دورانها حول نفسها يتحدّد طول الليل والنهار، وميل محورها على العمود على مستوى دورانها يشكِّل الفصول الأربعة، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

4 ـ الشمس والقمر:

هذه الشمس التي تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، التي تزيد حرارتها عند سطحها على ستة آلاف درجة، وقد تصل الحرارة في جوفها إلى بضعة ملايين درجة، هذه الشمس التي يزيد طول لَهَبهَا على مليون كيلو متر، أحياناً في الكسوف التام يرسمون الشمس بأجهزة خاصّة، فإذا ألسنةٌ لهبٍ تمتدُّ من محيطها، هذه الألسنة يزيد طولها على نصف مليون كيلو متر إلى مليون كيلو متر، وتكبُر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، وتبعد عنها مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، ولا تنسوا أن من أبراج السماء برج العقرب، ربنا قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

برج العقرب فيه نجوم كثيرة، من هذه النجوم قلب العقرب، هذا النجم الصغير يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، عندما قال ربنا عزّ وجل:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

كيف تطيعه ؟ لابدّ من أن تعرفه.

مثل بسيط جداً: أنت الآن في حياتك الوظيفيّة تندفع إلى تنفيذ الأمر بحسب نوع التوقيع، قد يأمرك وأنت في الجيش عريف، وهناك رقيب، وهناك ملازم، وهناك عقيد، أما قائد الفرقة إذا أعطاك أمرا فإنّ استجابتك له تختلف، هذا منطق الحياة، كلّما عظُم الآمر عظُم الأمر، وعظمةُ الأمر من عظمة الآمر، فإذا عرفت عظمة الآمر صار التطبيق سهلاً، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

مرّة قلت في بعض الدروس، وأعيد هذا كثيراً: إنه بين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئيّة ـ اليوم احسبها بالآلة الحاسبة ـ كم تبلغ مسافة أربع سنوات ضوئيّة بالكيلو متر ؟ الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر، وبين الأرض والقمر ثانية ضوئيّة واحدة، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم نضرب بأربع وعشرين ساعة، في السنة ضرب ثلاثمائة وخمسة وستين ـ الثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، هذا ما يقطعه الضوء في سنة واحدة ـ هذا النجم الملتهب يبعد عنّا أربع سنوات ضوئيّة، لو قسّمت هذا الرقم على مئة كيلو متر وهو سرعة المركبة الأرضيّة، وقسّمته على أربعة وعشرين ساعة ـ على يوم ـ ثم على ثلاثمائة وخمسة وستين لفوجئت أن هذه المسافة تحتاج أن تصل إلى هذا الكوكب الملتهب إلى خمسين مليون عام، كل التاريخ الميلادي إلى اليوم ألف وتسعمائة وأربعة وتسعون، كل التاريخ الميلادي وليس الهجري، تحتاج خمسين مليون عام من أجل أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب للأرض، هذا هي أربع سنوات ضوئيّة.

ومجرّة المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئيّة، مليون ضرب خمسين مليون ؟ وأحدث مجرّة تبعد عنّا ستة عشرَ ألف مليون سنة ضوئيّة، اسمعوا الآية الكريمة:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

هذه المسافات بين النجوم..

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

من معاني (لو) أنّها أداة حَض، يقول لك أحدهم: لو تذهب معي، أي اذهب معي، لو تأكل معنا، أي كل معنا..

(وَإِنّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

لو علمتم لعرفتم من هو الخالق، ما معنى الله خالق الكون ؟ لذلك إذا عرفت الله حق المعرفة تعد للمليون قبل أن تعصيه، الآن الناس لأتفه سبب يقول لك: أنا مضطر، عندي أولاد، يقع في كل المخالفات لأن عنده أولادا، فهل غيرك ليس عنده أولاد ؟ وهل المستقيم ليس عنده أولاد ؟ لأنه لا يعرف الله عزّ وجل، لو عرفه حقّ المعرفة لو قُطِّع إرباً إرباً لا يعصيه، لكن ما عرفه، متى الحسرة والندامة ؟ حينما يأتي ملك الموت وقد ضيّع الإنسان عمره سُدى، وعندما يضيّع الإنسان عمره سُدى عندئذٍ يعرف حقيقة هذه الحياة الدنيا.

إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللّيْلُ وَالنّهَارُ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ)

الشمس والقمر من آيات الله الدالّة على عظمته.

لا أريد أن أطيل عليكم، إلا أن مركز الثقل في هذه الآية:

(لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ إِن كُنتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ)

لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ إِن كُنتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ

أي أن هناك من يدّعي أنه إذا عبد الشمس فهو يتقرّب إلى الله بأعظم مخلوقاته ـ كان هذا قديماً ـ إذا عبدنا البقر نتقرّب إلى الله بأنفع مخلوقاته لنا..

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر: من الآية 3)

1 ـ يجب أن تعبد الله وفق الشرع لا وفق الهوى:

فهذا الردُّ عليهم: أي ينبغي أن تعبد الله أنت لا وفق مزاجك، ولا وفق تصوُّرك، ولا وفق هوى نفسك، إذا أردت أن تعبد الله فينبغي أن تعبده وفق ما أمرك به أن تعبده، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللّيْلُ وَالنّهَارُ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ إن كُنتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ)

إذا كنت تدّعي أنك تعبد الله فعليك أن تسجد لله عزّ وجل، لذلك رأى الهنود أن البقرة من أفضل الحيوانات المعطاءة ؛ تعطيك الحليب، والجبن، واللحم، لذلك عبدوها من دون الله، والآن هناك في الهند أكبر قطيع بقر في العالم، لأنه يمنع ذبحُه، يعبدون البقر من دون الله، لو دخلت البقرة إلى أرقى المحلات، وأكلت ما شاءت من أغلى أنواع الفاكهة، يرى صاحب المحل أنه سعيدٌ أيّما سعادة، لأن هذا الإله الذي يعبده من دون الله دخل إلى دكّانه وأكل من فواكه الدكّان.

فلا تعرف قيمة هذا الدين العظيم إلا إذا قرأت عن الأديان الأرضيّة الأخرى، فبعض الهنود يضعون في أيام الأعياد روث البقر على أفخر أثاث بيوتهم، لأن هذا من آثار إلههم، وهناك من عبدوا الشمس.. قال تعالى واصفًا بلقيس ملكة سبأ:

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ)

(سورة النمل: من الآية 24)

إذاً: ربنا عزّ وجل يقول: يجب أن تعبدني وفق ما آمرك به لا وفق ما يتراءى لك أنت.

(لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ)

2 ـ الكافر يقف عند النعمة والمؤمن يقف عند المنعِم:

وهنا لابدّ من وقفةٍ قصيرة، الكافر يقف عند النِعمة، والمؤمن ينتقل من النعمة إلى المُنعم، لا شكّ أن النعم معروفة عند أهل الكفر، وعند أهل الإيمان، عند الملحدين، عند المشركين، عند الفجّار، عند المؤمنين، الشمس شمس، والقمر قمر، والهواء النقي هواء نقي، والماء العذب الفرات عذب فرات، والخيرات الوفيرة من الطعام والشراب هي خيرات وفيرة، فليس هناك أي خلاف على النعم في الكون إطلاقاً، اذهب إلى أي مكانٍ شئت، إلى شرق الأرض وغربها، إلى شمالها وجنوبها، لا تجد فرقاً في النعم، كل إنسان يحب بيتا واسعا، مدفّأ شتاءً، مكيّفا صيفاً، الطعام، الشراب، الفواكه، أنواع اللحومات، المقبّلات، الشراب، الفُرُش الوثيرة، الأثاث الفخم، التزينات، النعم نِعم، لكن المؤمن ينتقل من النعمة إلى المنعم، والكافر يبقى عند النعمة يعبدها من دون الله، هذا هو الفرق.

ولو كانت بلاد لا تعبد فيها الشمس، ولا تُعبد فيها الأبقار إلا أنه حينما نسعى لهذه النعم وننسى المنعم، حينما نتنافس على هذه النعم، وننسى منهج المنعم، حينما نسعى إليها وكأنها هي كل شيء ومحطُ الرحال، هنا المشكلة، المشكلة أن هذه النعم ينبغي أن نتجاوزها إلى المُنعم، لو قرأت أحاديث النبي عليه

الصلاة والسلام وأدعيته لوجدت أن كل نعمةٍ عزاها إلى الله عزّ وجل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل الخلاء يقول:

((الحَمْدُ لِلّه الّذي أذاقنِي لَذّتَهُ، وأبْقى فِيّ قُوّتَهُ، وَدَفَعَ عَنِّي أذاهُ))

[البيهقي في شعب الإيمان، وابن أبي شيبة في المصنف]

عرف هذه النعمة ؛ نعمة الطعام، نعمة أنك أكلت طعاماً وشراباً ولم تأخذ سيروماً، نعمة أن هذا الطعام والشراب لذيذ الطعم، طيّب المذاق، مستساغ، وهذه التفّاحة شكلها، ولونها، وحجمها، وقشرها، ولبُّها، وقِوامها، ومضمونها مناسبٌ للجسم، أذاقني لذّته.

وأبقى فيّ قوّته، هذه الطعوم التي خلقها الله لنا تفيد أجسامنا، طعام فيه كالسيوم، وفيه فيتامين، وفيه آزوت، وفيه منغنيز، هذه المياه معدنيّة، وهذه الفواكه فيها الأملاح الفلانيّة، وهذه مضادّات حيويّة، وهذه فيتامينات، أبقى فيّ قوّته.

وأذهب عني أذاه ؛ هذه الفضلات خرجت، ولو بقيت لكانت حياة الإنسان جحيماً.

إذاً: لو قرأتم أدعية النبي عليه الصلاة والسلام لوجدتم هذا المعنى، حتى إذا دخل بيته كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا، وَكَمْ مِمّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ وَلاَ مُؤْوِي))

[الترمذي عن أنس]

النقطة الدقيقة في هذا الدرس أن المؤمن ينتقل من الكون إلى المكوّن، ومن النظام إلى المنظِّم، ومن التسيير إلى المسيّر، ومن الوجود إلى الموجد، ومن النِعمة إلى المُنعم، لا يقف عند الوجود، لذلك جاء في الفاتحة:

(الحَمْدُ للهِ)

لا خلاف بين الناس في النعمةِ، ولكن الخلاف في المنعِم:

الخلاف ليس على النعمة، لكن الخلاف إلى من تُعزَى هذه النعمة، الحمد لله، الحمد ليس فيه خلاف، هناك نعمةٌ تستحق الحمد، ولكن لمن ؟ لله، الحمد لله رب العالمين، ليس هناك خلافٌ على النعمة، بل الخلاف في مصدر هذه النعمة، إنه الله سبحانه وتعالى.

إذاً:

(لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ)

تطبيقاً لهذه الآية: لو أن أخاً مؤمناً مرض ابنه لا سمح الله ولا قدّر، وأخذه إلى طبيب، وقد أجرى الله الشفاء على يد هذا الطبيب، فالأخ المؤمن ينبغي أن يشكر الله سبحانه وتعالى أولاً، لأنه مكّن الطبيب

من معرفة الداء وألهمه الدواء، وسمح للدواء أن يفعل فعله ؛ أما أن تنسى الله سبحانه وتعالى، وينصبّ كل الشكر على عمل هذا الطبيب فهذا شرك.

لو وكّلت محامياً وقد وفّقه الله وأخذ لك الحكم ممن ظلمك، ينبغي أن تشكر الله عزّ وجل على أنه جعل القاضي يقتنع، وألهم هذا المحامِي أن يرفع مذكِرةً قويّة، لولا أنّ الله أراد لما كان ما كان.

النبي عليه الصلاة والسلام يردّ كل النعم إلى ربّه:

كل النعم التي تساق إليك في الأعم الأغلب تساق على يد إنسان، فالشرك أن تراها من هذا الإنسان، والتوحيد أن تراها من الله عزّ وجل، لذلك بعد أن فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكّة، وانتهى من معركة حُنَيْن، أذكر هذه القصّة لكلمة واحدة قالها النبي عليه الصلاة والسلام، جاءه أحد صحابته وهو سيدنا سعد بن معاذ قال: يا رسول الله، إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم ـ أي هم غاضبون ـ قال: " أين أنت منهم يا سعد ؟ "، قال: " ما أنا إلا من قومي "، فقال عليه الصلاة والسلام: " اجمع لي قومك "، فجمع الأنصار، وقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم))

[من كنز العمال: عن " أبي سعيد]

طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الوقت، وفي هذا المكان كان في قمة انتصاره، الجزيرة العربيّة من أقصاها إلى أقصاها دانت له، مكّة والمدينة وجميع القبائل دانت له بالخضوع بعد معركة حنين، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام كغيره كان بإمكانه أن يُلغي وجودهم، وبإمكانه أن يهدر كرامتهم، لو قال عنهم: منافقون لانتهوا، وبإمكانه أن يهملهم، وبإمكانه أن يعاتبهم، ويذكِّرهم بفضله عليهم، لكنه لم يلغ وجودهم، ولم يهدر كرامتهم، ولم يهملهم، ولم يعاتبهم، ولم يُذكِّرهم بفضله عليه، بل جمعهم، وذكّرهم بفضلهم عليه فقال:

((يا معشر الأنصار لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك ـ هذا الحق، ذوبهم اللهمّ صلّ عليه ـ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟))

لم يقل: فهديتكم، هنا التوحيد.

يكون أحدنا ذا علم قليل فيتكلّم بكلمتين، فتدمع عين السامع، فيقول: أنا هديته، ولي فضل عليه ! أي فضل هذا ؟ النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد البشر قال:

((ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟))

هذا التوحيد.

أنا لا أقول هذا من باب التأدُّب، لا، هذه هي الحقيقة، الله عزّ وجل أوجدك، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد إذ جعلك من أم وأب وليس لقيط، دلّك عليه، هيّأ لك عملا، أعطاك إمكانات خبرة، إما علم، أو صنعة، أو مصلحة، زوّجك، أمّن لك بيتًا، فهذا كله من فضل الله على الإنسان قال:

((ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بلى، قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة))

ـ انظر إلى هذا الاسم أي مثل الخشخيشة ـ

((تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟))

قال: فبكوا حتّى أخضلوا لحاهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((فو الذي نفس محمد بيده ! لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

قلت مرّةً تعليقاً على هذه القصّة في خطبة: كان الله في عون كُتّاب السيرة أين يضعون هذه القصّة، مع حلم النبي أم مع رحمته ؟ أم مع وفائه أم مع حكمته ؟ شيء يحيّر، حكمة أم رحمة، أم حلم أم وفاء ؟ هذا هو النبي اللهمّ صلّ عليه.

ذكّرني هذا بقصّة أخرى، عندما أرسل أحد أصحابه، وهو حاطب بن أبي بلتعة، كتاباً إلى قريش قبيل فتح مكّة يقول فيه: " إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم "، وهذا الكتاب في مقياس أمم الأرض قاطبةً، وحكومات الأرض قاطبةً خيانةٌ عُظمى، ويستحق صاحبه الإعدام، فلمّا أخبر الوحي النبي عليه الصلاة والسلام بهذا أرسل النبي أحد أصحابه ليأتوا بالكتاب من امرأة كانت في منتصف الطريق في مكان اسمه الروضة، واستدعي حاطب بن أبي بلتعة ليُحقق معه، ما كان من عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلا أن قال: " يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق "، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أو ليس من أهل بدر "، أي لم يهدر له عمله، قال: " يا حاطب، ما حملك على ما صنعت ؟ " قال: " والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، ولكن أردت أن يكون لي صنيعةٌ عند قريش، لأنه ليس لي عندهم أهلٌ يحمونني))

فقال عليه الصلاة والسلام:

((صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً))

[صحيح البخاري عن حصين]

وعلّق كُتّاب السيرة على هذه الحادثة: بأن عمر نظر إلى الذنب فرآه خيانةً عُظمى، لكن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى صاحب الذنب فرآه قد وقع، وتعثّر في لحظة ضعفٍ طارئة، فأراد النبي أن يعينه على نفسه، وأن ينهضه، وأنهضه، وحَسُنَ إسلامه، وأرسله مندوباً شخصياً لبعض الملوك في المستقبل، لذلك النبي كما قال بعض الشعراء:

وأجمل منك لم ترَ قد عيني   و أكمل منك لم تلد النساءُ

خُلِقت مبرّأً من كل عيبٍ   كأنّك قد خُلقت كما تشاءُ

***

موطن الشاهد في هذه الآية أي أن المؤمن ينتقل من الكون للمكوّن، من النظام للمنظِم، من التسيير للمسيّير، من الوجود للموجد، من النعمة إلى المُنعم، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ صباحاً أول ما يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي ـ أيْ أنه استيقظ، هناك ناس ينامون ولا يستيقظون ـ وعافني في بدني، وأذن لي بذكره))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

تطبيق عملي للآية:

إذاً: الآن كتطبيقٍ لهذه الآية: أية نعمةٍ ساقها الله إليك على يد إنسان لا تنسَ المنعم، بل إن بعض المؤمنين إذا استفادوا من جهازٍ دقيق يقول: لولا أن عقل الإنسان قد مُكِّنَ من اختراعه لما اخترعه هذا الإنسان، فهذا من نعمة الله أيضاً، فالمؤمن دائماً يصل إلى الله حتى من خلال جهاز اخترعه إنسان، القرود ما اخترعوا هذا الجهاز، القضيّة قضية ذكاء، هناك حيواناتٌ عاشت آلاف السنين، وما اخترعت شيئاً، معنى هذا أن الإنسان مهيّأ ليبدع، وهذا من ثمار عقل الإنسان.

إذاً: هذا الذي يعظِم كل من اخترع أو اكتشف، الحقيقة التعظيم لله عزّ وجل، والدليل قوله تعالى حينما حدّثنا عن الدواب قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

فهذا الذي لم يكن يعلمه من نزلت عليهم هذه الآيات، الآن ظهرت وسائل المواصلات الأخرى كالطائرات وغيرها، هذه أيضاً من إلهام الله عزّ وجل، بل إن الحدس الإبداعي قفزة في المجهول، إشراقة، هكذا يقول العلماء.

إذاً: الملخّص هنا أن الإنسان عليه أن يرى المنعم، وقد ذكرت قصة النبي عليه الصلاة والسلام مع الأنصار من أجل كلمة واحدة وهي:

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله بي))

فأنت إذا عزوت الأمر كله لله فأنت على حق، وإلا وقعت في شركٍ خفي وأنت لا تدري.

قال:

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ

1 ـ كيف يستكبر العبد الضعيف عن عبادة ربّه ؟!

إن استكبروا، أي أن الإنسان أحياناً لضعف تفكيره أو لجهله يستكبر عن عبادة ربّه. أحد إخواننا الكرام كان طبيبا لامعا جداً توفّاه الله عزّ وجل، فذهبت لتشييع جنازته، فوجدت أشخاصا مهمّين جداً يقفون خارج المسجد لا يصلون، لا صلاة الجنازة ولا صلاة الظهر، فعجبت وقلت: يا رب، أهؤلاء يرون أنهم أكبر من أن يصلوا ؟ يستكبرون عن عبادة الله أم ماذا ؟ ربنا عزّ وجل يقول في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

2 ـ الملائكة طائعون غير مستكبرين:

فلو أن كل الناس كفروا الله عزّ وجل لا ينقص ملكه شيء..

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا)

عن أن يعبدوا الله..

(فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ)

وهم الملائكة..

(يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ)

أي يصلون..

(وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

وهذا تعريضٌ بالضعاف الذين يعبدون الله عزّ وجل..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)

الاستدلال على البعث وهو غيب بالأرض المحسوسة:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً

الأرض في الشتاء يابسة، الأشجار حطب، معظم الأشجار تتعرّى في الشتاء، ويتوقف النُسُغ الصاعد والنازل، فلو أمسكت غصناً وكسرته لوجدته حطبا، خشبٌ يابس لا حياة فيه، الأرض كذلك، والأشجار كذلك..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)

هنا وُصِفَت بأنّها خاشعة، السياق يقتضي ذلك، في آية أخرى وصفَت بأنها هامدة..

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)

فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أي بعد الربيع ترى المساحات الشاسعة كلُّها خضراء، فإذا سرتَ في الطرقات وجدت أنواع الزهور التي تأخذ بالألباب ؛ من كل الألوان، والأحجام، والأشكال، والتناسُقات، والتداخلات، فإذا مشى الإنسان في طريق ريفي في فصل الربيع يجد أن أنواع الأزهار لا تعد ولا تحصى على جوانب الطريق، والمساحات الخضراء ومعها أزهار صفراء، معها أزهار حمراء اللون، بعض الأزهار معروفة ـ شقائق النعمان ـ

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ)

وهذا الحطب اليابس الذي كان بالأمس حطباً يابساً، تزهر هذه الشجرة، فإذا هي ترتدي ثوباً قشيباً من الأزهار، وتعلمون جمال الغوطة في الربيع في الشام

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

هذه آية ثانية..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ)

أي أن هذا الماء جعلها تتحرّك، طبعاً تجد بذرة فيها رشيم، فهذا الرشيم فيه حياة، مع الرشيم محفظة غذاء وقشرة، هذه هي البذرة، ضع حبة فاصولياء، أو حبة عدس، أو حبة قمح على قطن وماء، بعد أيام تجد أنه قد ظهر لهذه البذرة نتوءٌ صغير هو السويق، ونتوءٌ آخر هو الجذير إلى أن تصبح هذه القمحة، أو هذه العدسة أو الفاصولياء فارغة، هذا الماء حرّك الرشيم، طبعاً الرطوبة والنور أحد أسباب نمو الرشيم، لذلك بعض أنواع النِمال إذا أرادت النملة أن تخزّن القمح تأكل الرشيم لئلا ينمو، وهناك بعض أنواع الحبوب لها زوجان من الرشيمات، تأكل الزوجين معاً لئلا تنمو، فإذا جاء الماء تحرّك هذا الرشيم، الرطوبة مع النور والدفء أعطت الرشيم حركة، وهناك في الأهرامات قمحٌ زُرِع فنبت، أي أن الرشيم يبقى حياً ستة آلاف عام أحياناً، لأن الرشيم فيه حياة..

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)

صار هناك حركة و نمو، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى)

النبات دليل على عظمة الله:

بعض أنواع نباتات الزينة الغرام الواحد فيه سبعون ألف بذرة، وكل بذرة لها رشيم، ولها محفظة غذاء، ولها جُذَير، ولها غشاء، الغذاء يكفي البذرة حتى ينشأ لها جُذَيْر ليمتص الغذاء من التربة، قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

ظاهرة النبات من أعظم الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، يقول لك: هذه البذرة تصبح تينه، هذه مشمشة، هذه دراق، أمسك البذرة أين مكتوب درّاقة ؟ أين مكتوب دراق مخملي ؟ الدرّاق أنواع، ثلاثمائة نوع من العنب، ثلاثة آلاف وخمسمائة نوع من القمح، لا توجد فاكهة أو محصول إلا وله أنواع بالمئات أو بالألوف، أمسك البذرة، هذه البذرة مثلاً إنتاجها مبكِر، مقاومة للأمراض الفلانيّة ـ شيءٌ جميل ـ إنتاجها مبكِر ومديد، ثمرتها قاسية، لونها كذا، تفّاحيّة الشكل، قطرها كذا، حامضية الطعم، نسيجها كثيف، ماؤها قليل، تسمع أحياناً من شركات البذور اثنتي عشرة أو عشرين صفة للبذرة، امسك البذرة، أين توجد هذه الصفات ؟ لا ترى شيئاً، ترى بذرة صغيرة.

الله عزّ وجل جعل البذرة كأنها مبرمجة برنامجا دقيقا جداً، هذه البذرة تعطيك إنتاجا مبكِرا أسعاره غالية، هذه تعطيك إنتاجا مديدا، هذه تعطي إنتاجا غزيرا، هذه تعطي إنتاجا من نوع معيَّن، فهذا علم قائم بذاته، فظاهرة النبات من أعظم الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، وهذه البذور تتزواج أحياناً، فتنتج بذورا هجينة، تأخذ صفات هذا النبات مع صفات هذا النبات، مع صفات هذا النبات، بعض البذور تجرى لها عملية تهجين لها ثماني مرّات، ثماني حالات زواج بين نوعين من أنواع النبات حتى ظهرت هذه البذرة..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)

بعض البذور تنتقل عبر الرياح، في بعض الغابات زُرعت من قِبَل الله مباشرةً، بذرة لها شكل حلزوني وقمع، فتنغرس بعد سطح التربة باثنين سنتيمتر، ثم تسير هذه البذور في الممر الحلزوني إلى أن تستقر في التراب، وبعض الرّعويات تُزرع بهذه الطريقة، والإنسان لا يد له فيها إطلاقاً، بعض أنواع البذور لا تنبت إلا إذا أكلتها الزرافة، وأخرجتها مع روثها عندئذٍ تنبت، فموضوع البذور عالم قائم بذاته..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى)

النتيجة الاستدلالية: إنّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى

هنا نحن أمام آيتين: آية دالّة على عظمة الله، وآية دالّة على اليوم الآخر..

(إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

النبات أيها الإخوة كما قال الله عنه:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 99)

هناك نبات يعطيك الخشب، فخشب الزان نبات، وخشب الحور نبات، هناك حوالي مئة نوع من الخشب، كلها لاستعمال صناعي، هناك نبات يعطيك أصبغة، نبات يعطيك مطّاطا، نبات يعطيك أدوية، نبات يعطيك أغذية، أحياناً الغذاء يكون بالجذر، أحياناً بالساق، أحياناً بالأوراق، أحياناً بالزهر، أحياناً بالثمار، هناك نبات مظلة، هناك نبات تزييني، هناك نبات حدودي، هناك مسابح نبات، الليف نبات، الخُلّة نبات، السواك نبات، القطن نبات، نسيج، الأدوية نبات، المطّاط نبات، الفلين نبات، الكاوتشوك نبات، هذا..

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 99)

لو حاوَل أحدنا أن يحصيها، إذا نظر ضمن بيته ففي غرفة الضيوف خشب زان، النوافذ خشب كندي، الكبريت خشب شوح طري، يجد نبات كل شيء، أربعة أخماس موجودات البيت أساسه نبات، يرتدي ثيابا من قطن، هذا من النبات، النسيج أكثره نبات، إذاً عندما قال ربنا:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 99)

هذه آية كبيرة جداً من آيات الله الدالّة على عظمته.

إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

خاتمة:

موضوع النبات، موضوع ورق النبات موضوع عظيم، وقد قرأت مرّة في مقالة أن أعظم معمل صنعة الإنسان يبدو تافهاً أمام الورقة، هذه الورقة التي فيها يخضور، وفيها طاقة شمسيّة مخزونة، وفيها يطلع النُسُغ الصاعد معه ثمانية عشر معدنا، فيحدث تفاعل مع الشمس، ومع الآزوت، ومع مادة اليخضور فيرجع نسغا نازلا يشكِّل الجذر، والساق، والأوراق، والنبات، ولا يوجد في عالم الصناعة سائل واحد يكون مرّة صاجا، ومرّة خشبا، ومرّة بلاستيكا.. إلخ، هذا غير معقول، هذا النسغ النازل يصنع الجذر من جديد، وينمّي الجذع، وينمي الأوراق، وينمي الثمار، وهو سائل واحد، ونحن نتكلّم أشياء من بديهيّات العلم، من مستوى الدارس في الإعدادية، وليس أكثر، أما لو تعمّقتم في العلم لرأيتم العجب العجاب.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

بهذه الآيات الدالّة على عظمته..

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (09-11): تفسير الآيات 40- 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس التاسع من سورة فصِّلت، ومع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النّارِ خَيْرٌ أَم مّن يَأْتِي آمِنَاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا

أيها الإخوة.

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

معنى آية:

الآيات جمع آية، وهي العلامة الدالّة على الشيء، فإذا أطلقت كلمة الآيات في القرآن الكريم فإنما تعني الآيات التي تدل على وجود الله، وعظمته، وقدرته، ووحدانيّته، وكماله.

والآيات أحياناً تأتي على أنواع ثلاثة: آياتٌ كونيّة، وآياتٌ قرآنيّة، وآياتٌ تكوينيّة، آياته الكونيّة خلقه، وآياته التكوينيّة أفعاله، وآياته القرآنيّة كلامه، خلقه وأفعاله وكلامه هذه كلها آياتٌ تدلُّ عليه..

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

معنى الإلحاد في آيات الله:

المعنى الأول:

الإلحاد في الآيات الطعن فيها، أو ردُّها، أو عدم اعتمادها دليلاً على ما تدلُّ عليه، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

والمعنى الثاني: حَرْفُهَا عن مرادها، أو تأويلها على غير ما يريد الله سبحانه وتعالى، أو الحذف منها، أو الإضافة عليها، فالكافر أحياناً إما أنه يردُّ هذا الدين رداً مباشراً، وإما أنه يخشى أن لا ينجح في هذه المحاولة فيحاول أن يفجّره من داخله، فردُّ هذه الآيات رداً مباشراً هو الطعن فيها، أو عدم قبولها، أو الاستخفاف بها، أو عدم قبول ما تدل عليه، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني تزوير هذه الآيات، وتحريفها، وتغيرها، وتأويلها.

المفاد أن الكافر إما أن يرد هذه الآيات، وإما أن يؤوّلها تأويلاً لا يرضي الله عزّ وجل، لنأت ببعض الأمثلة.

مثالٌ للإلحاد في آيات الله:

عندما قال ربنا عزّ وجل:

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: من الآية 130)

فالمقيم على الربا يؤوّل هذه الآية على غير ما يريد الله سبحانه وتعالى، يقول: أنا لا آكل الربا أضعافاً مضاعفة، أنا آكله بنسبٍ قليلة، فهذا تأويلٌ لا يرضي الله، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ(279))

(سورة البقرة: من الآية 279)

والقرآن مثاني، أي كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها، فإذا التبس الأمر في هذه الآية فالآية الثانية توضِّحها.

إذاً: الكافر إما أن يردّ هذه الآيات رداً مباشراً، وإما أن يؤوّلها تأويلاً لا يرضي الله عزّ وجل، على هو كلٍ رَفَضَ الحق، فإما رفضه بشكلٍ وقح، أو بشكلٍ فيه مداراة.

مرّةً ثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ)

الإلحاد هو الطَعْنُ في الآيات، أو عدم قبولها، أو الاستخفاف بها، أو السخرية منها، أو عدم قبول ما تدل عليه، تقول له: هذا الزلزال دليل قدرة الله عزّ وجل، ودليل أن الله يعاقب هؤلاء الذين ابتلاهم به، فيقول لك: هذه حركة القشرة الأرضيّة لا تعني أكثر من ذلك، فالإلحاد في الآيات هو الطعن فيها، أو الاستخفاف بها، أو السخرية منها، أو عدم قبول ما تدل عليه، وهذا هو الرد المباشر، أو تأويلها تأويلاً على خلاف ما هي عليه، أو تزويرها، أو اللغو فيها، ففي المرحلة الأولى كان الرد مباشراً، وفي المرحلة الثانية كان الرد غير مباشر، هؤلاء جميعاً الذين رفضوا الحق إما رفضاً مباشراً أو رفضاً غير مباشر..

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

إنْ في آياتنا الكونيّة، أو في آياتنا القرآنيّة، أو في أفعالنا التكوينيّة..

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

1 ـ لا يخفى على الله شيءٌ:

هم في علمنا، إن الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد..

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

2 ـ إذا علمتَ أن الله يعلم فلابد أن تستقيم:

إن الله سبحانه وتعالى يعلم سرّهم وجهرهم، أي أن الإنسان حينما يعلم أن الله يعلم حُلّت مشكلته مع الله، لأنه إذا أيقن أن الله يعلم فلابدّ من أن يستقيم على أمر الله، فربنا عزّ وجل يقول:

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

الإنسان لا يستطيع أن يخالف إنسانا من جنسه إذا كان أقوى منه، وإذا كانت هذه المخالفة يعلمها ويضبطها، هذا شأن الإنسان مع الإنسان فكيف شأنه مع الواحد الديّان ؟

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

الله لهم بالمرصاد..

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان))

[ورد في الأثر]

لمجرّد أن تعلم أنك تحت المراقبة، وأن الله مطلعٌ عليك، مطلعٌ على ظاهرك وعلى باطنك، على سرّك وعلانيّتك، على خلوتك وجلوتك، ولمجرّد أنك موقنٌ أن الله مطلعٌ عليك فلابدّ من أن تلتزم أمره، وأن تبتعد عما نهى عنه، وقد سُئل أحد العارفين بالله وهو الإمام الجنيد: من الولي ؟ فقال هذا الإمام الكبير:

" ليس الولي الذي يطير في الهواء، ولا الذي يجري على وجه الماء، إنما الوليُّ كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام ".

مرّةً ثانية، أيها الإخوة، وهذا من باب التأكيد والتوضيح، إذا أيقنت أن الله يعلم وسيحاسب لا يمكن ـ بحسب فطرتك، وبحسب عقلك ـ أن تعصيه، فإذا وصلت إلى اليقين القطعي أن الله يعلم، وأنه سيحاسب لاشك أنك تستقيمٌ على أمره، لن يفلح العاصي مهما كان ذكياً، لابدّ من أن يدفع ثمن معصيته باهظاً..

(إنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أفَمَن يُلْقى فِي النّار خَيْرٌ أم مَّن يَأتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

أفَمَن يُلْقى فِي النّار خَيْرٌ أم مَّن يَأتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

الظاهر أن الله سبحانه وتعالى يقول: أفمن يُلقى في النار خيرٌ أمن يدخل الجنّة أيهما أفضل ؟ فربنا سبحانه وتعالى عَدَلَ عن قوله أمن يدخل الجنّة إلى قوله:

(أفَمَن يُلْقى فِي النّار خَيْرٌ أم مَّن يَأتِي آمِناً)

المؤمن يأتي يوم القيامة آمنًا:

عبّر الله عن الجنّة بكلمةٍ أخرى، أن تأتي يوم القيامة آمناً، لأن الله سبحانه وتعالى سمّى يوم القيامة يوم الفزع الأكبر، فحينما يفزع الناس جميعاً لأنهم ما عرفوا ربهم في الدنيا، واقترفوا من السيئات ما لا يعد ولا يحصى، حينما يأتون يوم القيامة آمنين فهذه جنّةٌ لا تعدلها جنّة، وإذا خاف الناس كثيراً، واضطربوا، وكنت أنت أيها المؤمن آمناً، فهذا عطاءٌ لا يقدّر بثمن..

(يَا أيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُ مُرْضِعَةٍ عَمّا أرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

ففي يوم الفزع الأكبر المؤمن يأتي آمناً يوم القيامة، أي هل من سعادةٍ تفوق أن تكون أيها المؤمن آمناً يوم الفزع الأكبر ؟ يوم ينخلع قلب الناس خوفاً وإشفاقاً من عذابٍ أليم، ويأتي المؤمن آمناً يوم القيامة، أي هل يستوي إنسان سوف يُلقى في النار ؛ وإنسان سيأتي يوم القيامة آمناً ليدخل الجنّة ؟ كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية قال:

(إنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

: أي أنه يعلم ما يفعلون، وأما..

(أفَمَن يُلْقى فِي النّار خَيْرٌ)

إذاً: سوف يحاسبهم.

المعنيان أتيا في هذه الآية، علم الله ومحاسبته، فإذا أيقنت أن علم الله يطولك، وأن محاسبته تطولك، لا يمكن أن تعصي الله، هذا ما أكّده الإمام الغزالي حينما خاطب نفسه فقال لها: **" يا نفس، لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها لاشكّ أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ".**

إذاً: كل إنسان يعصي الله عزّ وجل فهو مدموغٌ إما بالحمق والجهل، وإما بالكفر والانحراف. ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ)

أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ

موازنة بين حالتين متضادتين:

هذا استفهام تقريري، ومعنى كونه تقريريا أي: أن من يلقى في النار لا يستوي مع من يأتي يوم القيامة آمناً، هذا معنى الاستفهام التقريري، من يلقى في النار لا يستوي أبداً مع من يأتي يوم القيامة آمناً، وهذا المعنى تؤكِّده آياتٌ كثيرة..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة: من الآية 18)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هذه الموازنة بين حالتين متضادتين، من يأتي آمناً أو من يأتي خائفاً، من يلقى في النار أو من يدخل الجنّة، من يعامل بالإكرام والإحسان ومن يعامل بالعقاب الأليم والعذاب الأبدي، أين عقلكم أيها البشر ؟ أيستوي هذا مع هذا ؟

طبعاً الإلقاء في النار سببه المعصية في الدنيا، وأن تأتي يوم القيامة آمناً سببه أن تستقيم على أمر الله في الدنيا، فالثمن في متناول اليد، أي أن هذه النتيجة المخيفة أنت السبب فيها، وهذه النتيجة المُسعدة أنت الذي اخترت هذا الطريق، فالأمر باختيارك، فإما أن تختار جنة عرضها السماوات والأرض، وأن تأتي الله آمناً يوم القيامة مكرّماً، وإما أن يعصي الإنسان ربّه فيستحق دخول النار إلى أبد الآبدين.

ثم يقول الله عزّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ

1 ـ هذه الآية تفيد الاختيارَ وتفيد التهديدَ:

هذه الآية تفيد الاختيار، وتفيد التهديد، أي أنتم مخيَّرون، فلكم أن تطيعوا الله في الدنيا فتأتون يوم القيامة آمنين، ولكم أن تعصوه في الدنيا فتلقوا في النار، فالأمر بيدكم.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أوَفِيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

الأمر بيدكم، أي أن خيرك منك وشرّك منك..

(وَكُلّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

(سورة الإسراء: من الآية 13)

موضوع التشاؤم والتفاؤل كقولك: ما لي حظ، حظّي قليل، كل هذا كلام فارغ..

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى(5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى(7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

الأمر واضح، فالعجيب أن الحياة قصيرة، ووقتها محدود، والطاعات بيد الإنسان أن يفعلها، وفي إمكانه أن يفعلها، وهي متاحة لكل البشر، والمعاصي حالات سقوط وحالات انحطاط وقذارة، فالناس حينما يقبلون على الطاعات يسعدون في الدنيا والآخرة، وحينما يقعون في السيئات يشقون في الدنيا والآخرة، أين عقل الناس ؟ هل من شهوةٍ أودعها الله في بني البشر ليس لها قناةٌ نظيفة يسلكها الإنسان ؟

لا، لكن الناس بوسوسةٍ من الشيطان يندفعون إلى المعاصي، ويجتنبون الطاعات فيستحقون عذاب جهنَّم يوم القيامة..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

هذه تفيد التهديد، افعل ما بدا لك وكل شيءٍ له حسابه..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

هذه الآية مخيفة.

والمعنى الثاني أنتم مخيَّرون، طريق الجنَّة معروفٌ لديكم، وطريق النار معروفٌ لديكم.

((حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات))

[من الجامع الصغير عن أنس]

((ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة))

[من الجامع الصغير عن ابن سعد]

عمل الجنَّة يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى كُلفة، إنه ذو كلفة، لكنه في مقدور الإنسان، وعمل النار هو سهوٌ واسترخاءٌ وإعطاء النفس ما تشتهي..

((ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة))

[من الجامع الصغير عن ابن سعد]

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

2 ـ لو ألغينا الاختيار لألغينا التكليفَ:

مرَّةٌ ثانية أيها الإخوة، لو ألغينا الاختيار الذي تؤكِّده هذه الآية لألغينا التكليف، ولألغينا الثواب، ولألغينا العقاب، ولألغينا الجنَّة والنار، ولألغينا المسؤوليّة، ولألغينا جوهر الدين، هذا ما قاله الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **<< ويحك لو ما كان قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، ولانتفى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً >>.**

أنت مخيّر، قال لك:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من الآية 17)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 148)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

حينما يشتطُّ عقل الإنسان فيعتقد أن الله قد أجبره على هذه المعاصي فقد وقع في شر عمله، وما من عقيدةٍ تشُل الإنسان وتقعده، وتوقعه في سوء الظن بالله عزّ وجل، وتجعله كتلةً هامدة كعقيدة الجَبْر، أن تعتقد أن الله أجبرك على فعل المعاصي، وأنها مقدّرةٌ عليك، ولا سبيل إلى الخلاص منها، هذه عقيدة أهل الضلال، وعقيدة المشركين..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

من جهة هي تهديد، أي افعل ما بدا لك وسوف ترى نتيجة عملك.

والمعنى الثاني أنك مخيَّر لك أن تستقيم ولك أن تنحرف، لك أن تحسن، ولك أن تسيء، لك أن تُقْبِلَ، ولك أن تُعْرِضْ، لك أن تطيع، ولك أن تعصي، لك أن تؤمن، ولك أن تكفر، لك أن توحِّد، ولك أن تُشرك، هذا باختيارك..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

طريق الجنة معروف وسبيلها واضح:

طريق الجنّة معروف ؛ طاعة الله عزّ وجل، والتقرُّب إليه بالأعمال الصالحة، وطريق النار معروف ؛ معصية الله عزّ وجل، والتقرُّب منها بالموبقات والمعاصي، والبشر على اختلاف أنواعهم، ومشاربهم، وأجناسهم، وألوانهم، وأعراقهم لا يزيدون على رجلين: رجلٍ منضبطٍ بالشرع، محسنٍ إلى الخلق، سعيدٍ في الدنيا والآخرة، ورجلٍ متفلِّتٍ من الشرع، مسيء إلى الخلق، شقي في الدنيا والآخرة. الأمور بسيطة ومضغوطة..

((الناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله))

(من الجامع الصغير عن ابن عمر)

أخطر شيء في حياتك أن تحسن الاختيار، اختر أن تكون مؤمناً، الإيمان يحتاج إلى تفكّر في خلق السماوات والأرض، يحتاج إلى معرفة أمر الله، يحتاج إلى حضور مجالس العلم، يحتاج إلى الذِكْر، يحتاج إلى الطاعة، يحتاج إلى الأعمال الصالحة، فالإيمان معرفة الله عزّ وجل وطاعته، والتقرُّب إليه.

أما أن تعطي النفس شهواتها، أما أن تعطي نفسك ما تريد عندئذٍ لابدّ من أن تقع في العدوان، ومع العدوان هناك العقاب الأليم، فتجد حياة الكافر من مصيبةٍ إلى مصيبة، ومن مطبٍ إلى مطب، ومن أزمةٍ إلى أزمة، ومن معضلةٍ إلى مُعضلة. وحياة المؤمن من إكرامٍ إلى إكرام، ومن سعادةٍ إلى سعادة..

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

ملخص الآية:

الآية صارت:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

آياتنا الكونيّة، أو التكوينيّة، أو القرآنيّة، والإلحاد نوعان: إما طعنٌ بالآيات ورفضٌ لها، وعدم قبول دلالتها، واستخفافٌ واستهزاءٌ، وإما تحايلٌ على ردّها بتأويلها، أو تزويرها، أو اللغو فيها، أو صرفها عن غير ما هي هادفة إليه، هؤلاء..

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

بعلمنا، وسوف يحاسبون، والدليل..

(أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ)

فربنا عزّ وجل بيّن لك أن الانحراف مضبوط وسوف تُحاسب عليه.

أحياناً الإنسان يخفي شيئا عن بعض الجهات الماليّة، وهذا الشيء الذي استورده أُرسلت نسخة منه إلى الماليّة، وبسذاجة يخفيه، هو مضبوط، فإذا كُشِف أمره ندم على فعله، هذا مثل بسيط من حياتنا الواقعيّة، فأعمالك مضبوطة ولابدّ من الحساب، هذان المعنيان يكفيان للاستقامة على أمر الله، وأنت مخيّر..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

وأثمن ما في الجنّة أن الإنسان يأتي يوم القيامة آمناً، ونعمة الأمن لا تعدلها نعمة على الإطلاق.

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ

1 ـ الذكر هو القرآن الكريم:

الذكر هو القرآن الكريم..

(لَمّا جَاءهُمْ وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

2 ـ معنى: عزيز:

كلمة عزيز لها عدة معان، من معانيها أن هذا الكتاب لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، شيءٌ نادر، عزيز، أي ممتنع عن أن يحاكى، عن أن يقلّد، عن أن يُؤتى بمثله، هذا المعنى الأول.
وكلمة عزيز لها عدة معاني في اللغة، أن الشيء إذا أصبح نادراً صار عزيزاً، إذا كان هذا الشيء يصعب الوصول إليه صار عزيزاً، فصار الكتاب ـ كتاب الله عزّ وجل ـ ليس كمثله كلامٌ آخر..

((فَضْلُ كَلامِ اللّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

كما أن الله واحدٌ في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله كذلك كلامه لا مثيل له، ولا يرقى إليه كلامٌ آخر..

(وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

أي أن كلام الله عزّ وجل كتابٌ ممتنعٌ عن التقليد، لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، ولا أن يحاكيه، ولا أن يقلِّده، ولا أن يعارضه.
قال:

(وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ{41} لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ

1 ـ كتاب الله لا يُنقض بمرور الأيام:

أي لا يمكن أن يأتي كتابٌ آخر ينقض ما فيه من قبل، كما أنه لا يمكن أن يأتي بعده كتابٌ آخر ينقض ما فيه، وهذه النقطة واضحة جداً، ما من كتابٍ على وجه الأرض ألّفه بشر إلا وبعد حينٍ ظهرت حقائق تناقض ما فيه، كل كتاب له عُمر، ما من كتابٍ على وجه الأرض ألّفه بشر إلا وبعد حينٍ ظهرت حقائق تناقض ما فيه، لابدّ له من تعديل، هذه حقيقة ثابتة ؛ لكن كتاب الله عزّ وجل منذ أن أنزله الله عزّ وجل وإلى الآن وإلى قيام الساعة لا يمكن أن تظهر حقيقة علميّة تناقض آياته، لماذا ؟

2 ـ العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح:

لأن الحقائق العلميّة هي استنباطاتٌ من الواقع، من خلق هذا الواقع ؟ هو الله عزّ وجل، وهذا كلامه فالمصدر واحد، فالكون كلّه من خلق الله، من قنّن قوانينه ؟ الله سبحانه وتعالى، من سنّ سُنَنَهُ ؟ الله سبحانه وتعالى، من بيّن العلاقات فيما بين مكوّناته ؟ الله سبحانه وتعالى، وهذا كلامه، لذلك يجب أن تطمئن إلى أن النقل الصحيح لا يمكن أن يتعارض مع العقل الصريح أبداً.

العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح، لأن العقل الصريح مقياسٌ أودعه الله فينا، وأن الواقع هو من خَلق الله، وأن هذا القرآن هو كلام الله، وأن الفطرة التي فُطرنا عليها هي من صنع الله عزّ وجل، لذلك هناك من يقول: إنه لابدّ من تطابق العقل والنقل والواقع والفطرة، الحق ما جاء به النقل وأكّده الواقع، وارتاحت إليه الفطرة، وأقرّه العقل، هذا الحق الذي قامت من أجله السماوات والأرض.

عندما تعتقد اعتقادًا صحيحًا حقيقيًا، حينما تؤمن بالحق أي أنك آمنت بالواقع، وآمنت بالمنطق، وآمنت بالفطرة، وآمنت بالقرآن، هذا هو الحق، فكلمة حق تعني النقل والعقل والواقع والفطرة، لا يمكن للواقع أن يظهر خطأ في القرآن، لأن الواقع من خلق الله، وقوانينه قنّنها الله عزّ وجل، وسُنَنه سنّها الله عزّ وجل، وهذه النفس لا ترتاح إلا للحق، إلا لما في القرآن وهكذا فُطرت..

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة الروم: من الآية 30)

3 ـ النفس لا ترتاح ولا تنسجم إلا بما جاء في القرآن الكريم:

طبيعة النفس هكذا، لا ترتاح إلا لما جاء في القرآن الكريم، لذلك إخواننا الكرام، المؤمن حينما يتوب إلى الله عزّ وجل ـ ولست مبالغاً في هذا القول ـ يشعر كأن جبالاً قد أُزيحت عن كاهله، لأنه وجد نفسه، ارتاحت فطرته، اطمأنّ عقله، انسجم الواقع مع العقل والفطرة مع النقل، هذا الحق، الحق الذي قامت من أجله السماوات والأرض، والذي دعا إليه الأنبياء السابقون ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام، الحق هو الله، الكون من خلقه، والقرآن كلامه، والفطرة هو الذي فطرنا عليها، والواقع هو الذي خلقه، هذا الانسجام بين الواقع والفطرة والعقل والنقل هو أجمل ما في الحق، ليس في حياة المسلم اثنيْنيّة، ولا ازدواجيّة، ولا تناقض، ولا تنافر، ولا تباعد، ولا تشتُت، ولا تمزُق، والإنسان أحياناً يتمزّق فيقول لك: شيء يحيّر، إن اقتنعت بهذا الرأي نقضت هذا الرأي، وإن اقتنعت بهذا الرأي نقضت هذا الرأي، إن أرضيت زيداً أغضبت عبيداً، وأصعب ما في الحياة هذا التمزُق، لكن أجمل ما في الدين ذاك الانسجام.

حياتك ما فيها اثنينيّة أبداً، دنياك وآخرتك واحدة، مهنتك وعبادتك واحدة، تعبد الله في مهنتك، في

حرفتك، في نصح المسلمين، وتعبده ثانية في مسجدك، إن عملت، وكسبت الرزق لأهلك فأنت في عبادة، وإن أتيت المسجد، واستمعت إلى درس العلم فأنت في عبادة، فالعبادة واحدة.

إذاً:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِالذّكْرِ لَمّا جَاءهُمْ وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

أي ممتنع عن أن يُحاكى، يمتنع عن أن يُقلّد، يمتنع عن أن يؤتى بمثله، عزيزٌ لا مثيل له، ما من كتابٍ على وجه الأرض يمكن أن ينقضه لا سابقاً ولا لاحقاً، هذا معنى:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

أكبر نعمة على الإنسان أن تعتقد اعتقاداً مع اعتقادك بهذا الشيء تطمئنّ إلى أنه لن يزول، ألا ترون أيها الإخوة أن هناك من اعتقدوا اعتقاداتٍ باطلة بعد حين تداعت كبيت العنكبوت، وتلاشت، وأيقن الناس بضلالها وانحرافها ؟ هذه مشكلة أن يعتقد الإنسان شيئا ويسعى من أجل هذه العقيدة طوال حياته، ثم يكتشف فجأةً أن هذه العقيدة باطلة ولا أصل لها، ولا تنسجم مع طبيعة النفس، ولا تحقِّق لصاحبها سعادةً ولا شيئاً من هذا القبيل.

لكن المؤمن مطمئن، هو مع الحق الذي قامت من أجله السماوات والأرض، فليست هناك مفاجأة، عندما يؤمن الإنسان بالله عزّ وجل يصير عنده انسجام، هذا الكون يتناسب مع ما ذكره الله عزّ وجل، حتى إنهم قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي.

الحق واحد، هذه الحقيقة الوحيدة في الكون ـ حقيقة الذات الإلهيّة ـ تتبدّى في الكون إبداعاً، وقدرةً، ورحمةً، وجمالاً، ولطفاً، وخبرةً، وغنًى، وتتبدّى في القرآن إعجازاً، وتتبدّى في أفعاله حكمةً ورحمةً، أفعاله كأقواله كخلقه، وأنت مخلوقٌ من مخلوقات الله عزّ وجل.

إن أروع ما في حياة المسلم هذا الانسجام في عقله، بين عقله وعاطفته، بين حاجاته وقِيَمِهِ، بين دُنياه وآخرته ؛ لكن تضاد، تنافر، تشتُّت، تمزُّق، تبعثر كل هذه الأمراض التي يعانيها الناس المؤمن معافاً منها، هذا معنى..

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ

1 ـ معنى حكيم:

حكيم يضع الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في المكان المناسب، بالقدر المناسب، مع الرجل المناسب، هذه الحكمة، ومعنى الحكمة أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل ما أراده الله وقع، وأن إرادة الله سبحانه وتعالى متعلِقة بالخير المطلق، وأن إرادة الله سبحانه وتعالى متعلِقة بالحكمة المطلقة، وأن حكمته المطلقة متعلِقة بالخير المطلق.

معنى الحكمة أن كل شيءٍ وقع على نحو ما وقع لو لم يقع على نحو ما وقع لكان هذا نقصاً في حكمة الله عزّ وجل، والشيء إذا وقع على خلاف ما وقع يعد هذا نقصاً في حكمة الله عزّ وجل.

(تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

2 ـ معنى حميد:

حميد أي يُحمد على أفعاله كلِها، لذلك المؤمن حينما يؤمن أن أفعال الله سبحانه وتعالى حميدة، أي يحمده عليها كل مخلوق، يستقبل القضاء والقدر بكل رضى.

مرّةً كان أحد الرجال يطوف حول البيت، وكان يقول: **" يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ "، كان وراءه الإمام الشافعي فقال له: " يا هذا، وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ "، فالتفت نحوه وقال: " من أنت يرحمك الله ؟ "، قال له: " أنا محمد بن إدريس "، قال: " كيف أرضى عن الله، وأنا أتمنّى رضاه ؟ "، قال: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".**

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يوقن أن أفعال الله يُحمد عليها، لكن لماذا نرى بعض الشر ؟ هذا الشر نسبي، والإنسان حينما يرى أن الدنيا هي كل شيء، ويأخذ الله منه بعض الصحّة، أو بعض المال يظن أن هذا شراً، لكن إذا أدخلنا في الحساب الآخرة، وأن الله سبحانه وتعالى إنما يسوق بعض الشدائد للعبد المؤمن المسلم من أجل أن يرقى به، ومن أجل أن يفوز بسعادة الدارين، عندئذٍ يتضح أن كل ما يفعله الله سبحانه وتعالى خيرٌ محضٌ.

ثم يقول الله عزّ وجل:

(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)

مَا يُقَالُ لَكَ إِلّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ

هذا تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، أي أن هذا شأن الرسالة..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيّ إِلا إِذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ)

(سورة الحج: من الآية 52)

أي أن النبي يتمنّى هداية الخلق، والشيطان يتمنّى إضلالهم..

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِيّ عَدُوّا شَيَاطِينَ الإِنس وَالْجِنّ)

(سورة الأنعام: من الآية 112)

فالله سبحانه وتعالى يُسَلِّي نبيَّه، ويسرّي عنه بهذه الآية..

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (10-11): تفسير الآيتان 45- 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-01-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس العاشر من سورة فصِّلت، ومع الآية الخامسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

بعد أن قال الله سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ

1 ـ اختلاف الناس في الكتاب أمرٌ قديمٌ:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن للنبي عليه الصلاة والسلام أن اختلاف الناس في الكتاب أمرٌ قديم، لست يا محمد وحدك ممن اختُلِف في الكتاب الذي جئت به، لكن اختلاف الناس على الكتب السماويّة أمرٌ قديم، وهذا شأن الناس، فالمؤمنون الصادقون ينادون من مكانٍ قريب، يفهمون كلام الله عزّ وجل، يدركون مراميه ؛ والمنحرفون الضالون الشاردون ينادون من مكانٍ بعيد، يفهمون كلام الله عزّ وجل على خلاف ما أُنْزل، إما أن يطعنوا فيه ـ كما قلت في الدرس الماضي ـ وإما أن يزوِّروا بعض حقائقه، ويؤوِّلوه تأويلاً ما أنزل الله به من سلطان.

2 ـ تسلية الله للنبي عليه الصلاة والسلام:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يسلِّي النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفِّف عنه وطأة التكذيب والاختلاف، فقال له:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

أي من قبلك..

(فَاخْتُلِفَ فِيهِ)

أيضاً.

والإنسان حينما يدرك أن معركة الحق مع الباطل قديمة قديمة، ومستمرّةٌ وأبديّة يَخِفُ عليه الأمر، فيجب أن تفهم أن كل خلافٍ بين أهل الحق والباطل فهذا الخلاف لابدّ منه، خلافٌ قديمٌ، ويكون وسيبقى، لأن الناس رجلان ؛ مؤمن وغير مؤمن، فالمؤمن يتعاطف مع الحق، ويؤيّد الحق، وينصر الحق، ويفرح بالحق، ويُسَر للحق، غير المؤمن يحقد، ويكذِّب، ويسخر، ويبحث عن المثالب، يتوهَّم المثالب، فهذا الكلام أيضاً موجّه لكل مؤمن.

إذا استقمت على أمر الله، والذين حولك هجموا عليك عندما استقمت، وندّدوا بك، وانتقصوا من استقامتك، وشوّهوا سمعتك، وطعنوا في نواياك فهذا أمر طبيعي جداً، لأن معركة الحق مع الباطل معركةٌ قديمة، ومعركةٌ مستمرّة، أهل الحق يتعاطفون مع الحق، وأهل الباطل يتعاطفون مع الباطل.

لذلك أراد ربنا عزّ وجل أن يسلِّي النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفِّف عنه وطأة التكذيب، وأن يبعد عنه الألم المُمِض الذي ألمّ بقلب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يعلم علم اليقين أنه على الحق المبين، بينما كفّار مكة يشكِّكون في هذا الكتاب، ويستهزئون به، ويشكِّكون في مصداقيّته، فلذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

أي من قبلك..

(فَاخْتُلِفَ فِيهِ)

كما اختُلِفَ في كتابك، أما هذه الآية:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

هذه الآية أو هذه الكلمات وردت مرّاتٍ عديدة في أكثر من آيةٍ في كتاب الله..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

1 ـ معنى: لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

معنى لقضي بينهم أي لعجّل الله لهم العقوبة، ولحَسَمَ الأمر.

2 ـ ما هي الكلمة التي سبقت من ربّك ؟

ما هي الكلمة التي سبقت من ربّك ؟ هنا السؤال.

إذا فهمنا هذه الآية فهماً دقيقاً ربّما فهمنا أكثر الآيات التي وردت فيها هذه الكلمات، فربنا سبحانه وتعالى خَلَقَ الخلْق جميعاً، خلق السماوات والأرض، وعرض على السماوات والأرض والجبال حمل الأمانة..

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من الآية 72)

الإنسان حمل الأمانة باختياره:

الإنسان حمل الأمانة، هذه الأمانة تؤهّله ليكون أعلى المخلوقات جميعاً، وأسعد المخلوقات جميعاً، إذا حمل الأمانة، وقام بواجب الأمانة كما ينبغي فهو أسعد المخلوقات وأرقاها قاطبةً من دون استثناء، الأمانة نفسه التي بين جنبيه، أوكل الله للإنسان تزكية نفسه، وتهذيبها، وتعريفها بربها، وحَمْلَهَا على طاعته، فمن زكّى نفسه سعد في الدنيا والآخرة، ومن أشقى نفسى ـ دسّاها ـ شقي في الدنيا والآخرة.

النقطة الدقيقة أن هذه الأمانة من لوازمها حرية الاختيار، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أن الله أجبر عباده على المعصية لبطل العقاب، لأن الإنسان مخيّر، فهذا الاختيار أثمن ما يملكه الإنسان، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 148)

أنتم في الدنيا تتمتّعون بحريّة الاختيار، وحريّة الاختيار هي التي تثمّن أعمالكم، هي التي ترقى بكم، هي التي تجعلكم تستحقون الجنّة، هي التي تجعلكم تستحقون النَعيم الأبدي، هذه الحريّة ـ حرية الاختيار ـ من لوازم حمل الأمانة.

ربنا عزّ وجل خلق الإنسان في الدنيا أعطاه مقوّمات التكليف، الكون، كل ما في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيّته وكماله، أعطاه عقلاً، جهازًا استشاريًا، قوة إدراكيّة إذا سأله يجيبه، أي سؤالٍ يُطرح على

العقل يأتيك بالجواب المُقنِع، هذا إذا كان العقل عند صاحبه قائداً للحقيقة، أما إذا استخدمه مبرّراً للخطأ، استخدمه استخداما معكوسا عندئذٍ يشقى بالعقل..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20))

(سورة المدثر)

فالعقل أيضاً من لوازم التكليف، الكون من لوازم التكليف، الفطرة من لوازم التكليف، الشرع الذي جاء به الأنبياء من لوازم التكليف، الشهوة التي أودعها الله في الإنسان من لوازم التكليف، حرية الاختيار من لوازم التكليف، القوة التي بها تحقِق اختيارك من لوازن التكليف، هذا كلّه من لوازم التكليف. فلذلك هذه الكلمة هو أنك أيها الإنسان مكلّف، ومع التكليف أنت حُر، لذلك لك أن تفعل في الدنيا ما تشاء..

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من الآية 29)

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من الآية 40)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من الآية 17)

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

فمن لوازم التكليف، من لوازم وجودك في الدنيا أنك مخيَّر، فالله عزّ وجل أعطاك الاختيار وأعطاك عمرا محدّدا، إذاً الحساب يوم القيامة، الفصل هناك، الحكم بين النـاس (من هم على حق، من هم على باطل) يوم القيامة، هذا يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم الدينونة، يوم..

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(111))

(سورة النحل)

أنت في الدنيا في امتحان:

إذاً لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقك ليسعدك، وأعطاك فرصةً هي العمر كي تتعرّف فيه إلى الله عزّ وجل، وكي تسمو بنفسك وتزكيها، لولا هذه الأمانة التي حمّلك الله إيّاها، ولولا هذا التكليف الذي كلّفك به، ولولا أنك مخيّر، ولولا أنه أعطاك عمراً محدّداً لقضي الأمر سريعاً، الكافر يُقصم، والمؤمن يُكافأ. تصوّر طالبا في مدرسة، وفي عام دراسي تسعة أشهر، وهناك امتحان بشهر حزيران، وبالطبع لا يوجد في النظام في أثناء العام الدراسي أن نرسّب طالبا، ولا أن ننجحه، نظام الداخلي في الثانويّة أن

يقضي الطالب على مقاعد الراسة تسعة أشهر يتلقّى العلوم من أساتذته ويدرس، لكن متى الامتحان ؟ في الخامس من حزيران، هذا الامتحان يكشف الطالب المجتهد من الكسول، الجاد من المهمل، الذي كان ينتبه من الذي كان يتلهّى، ولكن أن نعمل كل يوم امتحان فهذا مستحيل، نظام الله نظّمه، قانون الله قنّنه، سُنّة الله سنّها..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ)

فأنت الآن في بحبوحة، ما دمت في الدنيا ففي بحبوحة، وأنت مخيَّر، أودع الله فيك الشهوات إما أنها سُلَّم ترقى به، وإما أنها دركات تهوي بها، أعطاك العقل قوة إدراكية إما أنه يقودك إلى الحق، وإما أنك تعمله في فلسفة الانحراف، أعطاك الله الكون إما أن تنتفع منه فقط كما فعل الغربيّون، وإما أن تهتدي به كما فعل المسلمون، أعطاك الكون لتهتدي به إلى الله ولتنتفع به، أما أن تنتفع به فقط، وأن لا تفهم منه شيئاً فقط ظلمت نفسك أشد الظلم، أعطاك عقلا ليكون هو القائد لا أن يكون هو المبرِّر لعملك، أعطاك فطرة كي تكتشف فيها خطأك، أما إذا طُمِسَت بالشهوات أصبحت الفطرة عاطلة عن العمل، أعطاك شرعا كي تهتدي به لا كي تسخر منه، أعطاك اختيارا كي تختارا الحق على الباطل، إذاً هذه الكلمة تأتي كثيراً..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم لا ليعذِّبهم:

هناك معنى آخر أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني من توضيحه، ودائماً المثل يوضِّح: في النظام الداخلي للتعليم الثانوي أن كل طالب يغيب خمسة عشرَ يوماً يُفصل من الثانوية، لو أن مديرا حريصا على طلابه حرصاً بالغاً، رحيمًا بهم، حريصًا على مستقبلهم، فهل هي القضيّة قضيّة تنفيذ قرار، لو غاب ثلاثون طالبًا بقرار واحد فصلهم كلهم ؟ ليست هذه هي المهمّة، القصد أن يتعلّم هؤلاء، أن يتربّى هؤلاء، لو أن الأمر أمر تنفيذ قرار يفصل هؤلاء جميعاً، أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم، ليسعدهم لا ليعذِّبهم، لو كان القصد أن يعذِّبهم لأهلكهم فور المعاصي، ارتكب معصية قصمه، وانتهى الأمر، لو كان القصد أن الله خلقهم ليعذِّبهم، أو ليقمعهم إذا عصوا فالقضيّة صارت سهلة، إلا أن الله عزّ وجل خلق الخلق ليرحمهم، خلق الخلق ليسعدهم، خلق الخلق ليدلّهم عليه، خلق الخلق ليهديهم إليه، لذلك الإنسان يخطئ مرّة، ومرّتين، وثلاثا، وخمسا، وعشرا، ومائة، والله عزّ وجل يغفر له، ويرحمه، ويقبله.

الشيء الذي يؤكِّد هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق وحبيب الحق، ومعه صحابته وهم أحبُّ الخلق إلى الله، منعهم من العمرة عام الحُديبيّة، لماذا ؟ لأن هناك رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا يعلمونهم، فلو فتحوا مكّة، وحاربوا قريشًا لقتلوهم، والله سبحانه وتعالى يعلم فيهم الخير، فهذه الآية تؤكِّد هذا المعنى، ليس القصد أن يعذّب الله سبحانه وتعالى عباده، أو أن يقيم عليهم ميزان العدالة فقط، ربنا سبحانه وتعالى يحب أن يرحمهم، يحب أن يهديهم إلى سواء السبيل، فلذلك الآية الكريمة:

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

أي أنه خلقهم ليرحمهم، وهذه الآية أصل في العقيدة، يجب أن تعتقد أيها الأخ الكريم أن الله سبحانه وتعالى ما خلقنا إلا ليرحمنا، وما خلقنا إلا ليسعدنا، وما خلقنا إلا لينجّينا من كرب الدنيا والآخرة، لذلك تأتي المحاولات العلاجيّة من الله عزّ وجل.

إذاً: لو أن الله خلقنا ليعذّبنا فلمجرّد أن نعصي الله عزّ وجل يقصمنا وانتهى الأمر، أحياناً الإنسان يقول لك: لماذا لا يتدخّل الله عزّ وجل ؟ هو خلقنا، وأعطانا حرية الاختيار، وربنا سبحانه وتعالى يريد أن يأخذ كلٌ منا أبعاده، أن يحقِق في الدنيا نياته، أن تكون الدنيا ترجمة لما ينطوي عليه الإنسان من حبٍ للحق، أو حبٍ للباطل، فكل إنسان له وجهة، كل إنسان له سلوك في الحياة، إذاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ)

إما المعنى أنك مخيَّر، وأنت لك عمرا محدودا، والعقاب والجزاء والفصل أُخِّر ليوم القيامة، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: هذه الكلمة تعني أن الله خلق عباده ليرحمهم، لأنه خلقهم ليرحمهم لا يعجّل لهم العذاب، فالإنسان الرحيم لو ارتكب هذا الشخص التابع له غلطا يستدعي العقاب والبتر والقصم يعطيه فرصة، وفرصة، وفرصة، يذكِّره، ينبهه، يبيّن له، يتوعّده، يعده من أجل أن يعود إلى الصواب من دون أن يُسحَق، من دون أن يصاب بالأذى.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ)

لولا أن الإنسان مكلّف، لولا أنه مخيّر، لولا أن الله خلقه ليسعده س..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

هذا على حق ؛ يُكَرَّم، وهذا على باطل يُقصم، وانتهى الأمر ! لكن قد تجد خلاف ذلك، قد تجد إنسانًا كافرًا وقويًا، الله يعطيه كل أبعاده، يعطيه كل نياته، وقد تجد مؤمنًا مستضعفًا، الله عزّ وجل يمتحنه.

أنت في الدنيا في دار اختيار:

هناك مثل آخر ممكن يوضِّح هذه النقطة، وهو مثل دقيق:

لو أن صيدليًا طلب موظفًا ليعمل في صيدليته، وأراد أن يمتحنه، فوضع له مجموعة أدوية، وقال له: ضع كل نوع من هذه الأدوية في خزانته المُناسبة، طبعاً هناك خزانة للسموم، خزانة للمنشّطات، للفيتامينات.. إلخ، فصاحب الصيدليّة الآن في طور امتحان هذا الموظف، فتناول الموظف الدواء الذي هو فيتامينات ووضعه مع السموم، لماذا سمح له صاحب الصيدليّة أن يتوجّه إلى خزانة السموم، ويضع هذا الدواء في هذه الخزانة ؟ هذا الموقف موقف امتحان، لو منعه لما ظهر، لابدّ من أن يمتحنه، لابدّ من أن يُمْسِك الدواء المتعلِّق باستطباب معيّن، ويتوجّه به نحو خزانة ليست له.

فنحن الآن في طور الاختيار، نحن مخيّرون، من لوازم التخيير أن يُسمح لنا أن نفعل ما اخترناه، ولكن هذا ليس على حساب أحد، فعندما يختار إنسان أن يوقع الأذى بإنسان، الله عزّ وجل يوجّهه إلى من يستحقُّ هذا الأذى..

((الظالم عدل الله في الأرض، ينتقم به ثم ينتقم))

[من كشف الخفاء عن جابر]

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

(سورة الأنعام)

المعنى الثالث: أي أنك الآن في طور اختيار، فالمخيّر يجب أن يأخذ أبعاده، وبشكل أو بآخر ممكن أن تطيع الله إلى أمدٍ طويل، وأن لا ترى أن شيئاً تحرّك ؟ فقد تكون مستضعفًا، قد تكون خائفًا، قد تكون تعاني من مشكلات، ومع أنك في طاعة الله الله يعطيك أبعادك، وقد ورد في الأثر أنه:

((من أحبّنا أحببناه، ومن طلب منّا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا))

الإنسان ممتحَن في جميع موادّ الامتحان:

فإما أن يُعطى الإنسان الدنيا ليُمتحن بها، يُعطى المال ليُمتحن به، يُعطى القوة ليمتحن بها، يعطى العلم ليُمتحن به، فأنت في امتحانٍ مستمر..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: من الآية 2)

يجب أن تؤمن أيها الأخ الكريم أنّك ما دمت في الدنيا، ما دام القلب ينبض، وما دامت الرئتان تتحرّكان، وما دام الفم ينطق فأنت في امتحان، تُمتحن في كل شيء ؛ تمتحن بالزوجة الصالحة، هناك من يفسد الزوجة الصالحة، تُمتحن بالزوجة السيّئة، تُمتحن بالولد البار، تمتحن بالولد العاق، تمتحن بالدَخل الوفير، تمتحن بالدخل القليل، تمتحن بالصحّة، تمتحن بالمرض، تمتحن بالفراغ، تمتحن بالانشغال، هل يشغلك عملك عن طاعة الله عزّ وجل ؟ تمتحن بنعمة الأمن، تمتحن ببليّة الخوف.

فأنت ممتحن دائماً، أنت في الدنيا في طور امتحان، كيف أن صاحب الصيدليّة وضع الأدوية على الطاولة، وقال لهذا الموظف الذي يمتحنه: ضع كل دواءٍ في مكانه المناسب لأختبر خبرتك بالأدوية، فهو يراقب، وقد يُخطئ الموظّف، وينبغي أن يُكشف على حقيقته، قد يمسك بالدواء المتعلِّق بالفيتامينات يضعه مع السموم، يراقبه إلى أن يضعه في هذه الخزانة يقول له: أنت أخطأت، هنا حصل الامتحان.

إذاً: هذه الكلمة التي سبقت من الله..

خلاصة معاني: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

المعنى الأول: أن الله خلقنا ليرحمنا لا ليعذّبنا، فلهذا يعطينا فرصاً تلو الفُرَص، فرصة أولى، ثانية، ثالثة، رابعة، خامسة، وهذا شأن الرحيم، الرحيم يوعد وعيدًا، لكن لأدنى اعتذار يقول له: أعطيناك فرصة ثانية، فرصة ثالثة، فرصة رابعة، فرصة خامسة.

جيء إلى سيدنا عمر رجل سارق فقال: " والله يا أمير المؤمنين هذه أول مرّة "، **قال له: " كذبت، إن الله لا يفضح من أول مرّة "**، وظهر أنها المرّة الثامنة.

ربنا عزّ وجل يعطي فرصًا كثيرة، هذا المعنى الأول، خلقك ليرحمك لا ليعذّبك، لذلك يحلم عليك، لذلك يعطيك فرصة حتى نهاية العمر، تُب، ارجع، فكِّر، دقِق، حقِق، اتعظ، اقرأ القرآن، اقرأ السُنّة، اقرأ السيرة، شاهد المُشاهدات، استنبط من الأحداث مواعظ، دروسًا، أي أن الله عزّ وجل ما خلقك إلا ليرحمك، إذاً يعطيك العمر كله فرصة كي تتوب إليه، هذا سبب تأخير العقاب للآخرة، هناك فرصة مثل العام الدراسي، فهذا الطالب معه فرصة حتى الامتحان الأخير، يمكن كلّما شعر في نفسه بتقصير يمكن أن يتلافى تقصيره، أما أن نعمل فجأةً امتحانا مفاجئا من الشهر الثاني، فننجح ونرسب، لا ليس هذا النظام، النظام أن الامتحان في شهر حزيران، هناك فرصة، هذا المعنى.

المعنى الثاني الذي ألححت عليه: أنك في طور الابتلاء، الابتلاء من لوازمه الاختيار، والاختيار من لوازمه أن تأخذ أبعادك الكاملة لأنك مخيّر.

المعنى الثالث: أنك مكلّف، أساس وجودك أنك مخيّر..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ

1- المنقطع عن الله أَمْيَلُ للتشكيك في الحق:

دائماً المنقطع عن الله عزّ وجل أمْيَل للتشكيك في الحق، أما في علاقاته الدنيويّة فدائماً على اليقين، يطلب عقدًا، يطلب توثيقًا، يطلب دليلًا، في علاقاته الماليّة وعلاقاته الاجتماعيّة لا يقبل بالظن، بل يطلب الدليل اليقيني، أما في أمور عقيدته الخطيرة، في أخطر شيء يتعلّق فيه الإنسان فيبقى على الظن، يقول لك: لا نعرف، من مات ورجع فقال لنا ماذا حدث معه ؟ دائماً في أمور العقيدة هو أميل للظن والشك والتردُّد، مع أن هذا ليس هو الإيمان..

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: من الآية 15)

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

قلت لكم مرّةً: هناك علم اليقين، وهناك حقُّ اليقين، وهناك عين اليقين. علم اليقين هو الاستنتاج القَطْعي، وحق اليقين أن ترى بعينك هذا الاستنتاج، وعين اليقين أن تلمس بأحاسيسك هذا الاستنتاج، أنت قد تقول: لا دخّان بلا نار، عقلك حكم أن وراء هذا الجدار ناراً، والدليل وجود الدخان، والقاعدة: لا دخّان بلا نار، أما حينما التفتّ حول الجدار، ورأيت النار بأم عينك، دخلت في شيءٍ آخر هو حق اليقين، أما إذا لَمَسَت يدك النار، وشعرت بألم الحرق عندئذٍ دخلت في حالةٍ ثالثة هي عين اليقين، فأنت بين علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين.

أما الشك، والرَيْب، والتردُّد، أضعف الأشياء هو الوهم، ثم الشك، ثم الظن، ثم غلبة الظن، لكن في العقيدة لا يُقبل إلا القَطْعُ، أي مائة في المائة، هذه عقيدة ودين.

((إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

[من صحيح مسلم عن محمد بن سيرين]

((يا ابن عمر، دينك دينكَ، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

2- لماذا تتساهل في أمر دينك وتبحث وتسأل في أمور دنياك

سألني أخ كريم عن موضوع بالفقه فقلت له: هذا موضوع خلافي، بعض العلماء تشدّد، وبعضهم تساهل، فرآها فرصة رائعة جداً كي ينجو من تعذيب ضميره، قال لي: ما القول في إنسان التقى بعالمٍ متساهل، وسأله عن هذا الموضوع فأفتى له بالتساهل، فهل عليه إثم ؟ فألهمني الله جواباً على السريع، فقلت له: ما قولك لو أن لك بيتاً أردت أن تبيعه، جمعتك الصُدَف بدلاّل أعطاك له ثمناً، هل تبيعه رأساً أم تسأل دلالا ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا، وخامسًا، وتمتحن الأسعار، وتمضي في جولة في السوق، وتطلب بيتا مشابها لبيتك ؟ لماذا في أمر بيع البيت لا يكفيك دلال واحد، ولا مشترٍ واحد، بل تتقصّى الحقيقة من كل جوانبها ؟ أتكون هذه الدار أغلى عليك من الدار الآخرة ؟ لماذا في أمر الدين نقبل الظن، والتردُد، والشك، يقول لك: شيءٌ يحيّر، لا أحد يعرف شيئا، كلهم يدّعي أنهم على حق، وأنت أين موقعك من هؤلاء ؟ فالإنسان يجب أن لا ينام الليل قبل أن يعرف الحقيقة المطلقة..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

حالة الكافر حالة شك، جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت، كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟ لست أدري ؟ ولماذا لست أدري ؟ لست أدري، أي أن حياة الكافر ليس يدري، لكن حينما يرى الحقيقة الناصعة عندئذٍ يعضُّ أصابعه ندماً، كان من الممكن أن يدري، وبإمكانه أن يدري.

هناك سؤال، الإنسان وصل إلى لقمر، هل تعرفون ما معنى أنه وصل للقمر ؟ أي أن علم البشريّة منذ فجر التاريخ حتى الآن تراكم وتراكم وتراكمَ، الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والحاسوب، والعدسات، وعلم الطب، والفسيولوجيا، علم البشرية المتراكم منذ فجر التاريخ هذا العلم تراكم، وسمح للإنسان أن يصل بمركبةٍ إلى القمر.

الإنسان غاص في أعماق البحار، أي أنه صنع غوّاصات تقاوم ضغوطًا هائلة، فالغواصات العاديّة بعد مائتي متر تتحطّم، صنع غوّاصات أبحاث يمكن أن تصل إلى خليج مريانة في المحيط الهادي على عمق اثني عشر ألف متر، ليرى الأسماك، والحياة في أعماق البحار، ووصل إلى القمر، و غاص لأعماق البحار، ونقل الصورة، ونقل الصوت، فلا يغيب عنكم ما وصل للإنسان من تقدُّم علمي، أتتصوّر أن الإنسان يوم القيامة إذا وقف بين يدي الله عزّ وجل، يمكن أن يقال لهذا الإنسان: لو استعملت من عقلك واحد بالمليون مما استعملته لدنياك لعرفتني، تجد كل اختراع شيئا يعجز عنه البشر مجتمعين، فهناك إنجازات علمية كبيرة جداً، فهل من السهل أن تضرب على حرف ضربة بنصف الثانية تكون في اليابان ؟ التلكس مثلاً، هل الفاكس سهل ؟ نقل الصورة، نقل صورة ملوّنة، الهاتف

التلفزيوني سهل ؟ توجد أشياء كثيرة جداً، لو أن الإنسان استخدم واحدا بالمليون من عقله في معرفة الله لعرف الله.

الإنسان تقام عليه الحجّة، في أمور دنياه صاحٍ، واعٍ، سريع البديهة، يتفحّص، يسلك الأسلوب العلمي، يتحقّق في أمور دنياه، لماذا في أمور الآخرة تترك الأمر على عواهنه ؟ لا تتحقّق من كلام خطيب يلقي خطبة، قد يكون كلامًا خطيرًا جداً يضعك أمام مسؤولياتك، فتجده يقول: الله يعفو عنّا، وهو مقيم على مخالفاتٍ لا ترضي الله عزّ وجل.

فلذلك دائماً أقول لكم أيها الإخوة: قضيّتك مع الإيمان قضية وقت فقط، لأن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت تُكْشَف له الحقائق..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

لكن هذا الكشف لا ينفعك إطلاقاً، هذا جاء بعد فوات الأوان، جاء في الوقت غير المناسب، ولو كان الإنسان كافراً كفرعون عند الموت يؤمن كما آمن فرعون..

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

ما قيمة الإيمان عند الموت ؟ لا شيء. ما قيمة الإيمان بعد فوات الأوان ؟ لا شيء، فنحن مطالبون أن نؤمن، ونحن في مقتبل حياتنا، نحن مطالبون أن نؤمن ونحن أصحّاء..

((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[ابن أبي الدنيا]

الآن:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ

حينما تؤمن بالله تنفع نفسك:

هذه نقطة دقيقة جداً جداً، أي أنك حينما تؤمن بالله تنفع نفسك، حينما تعرف منهج الله عزّ وجل تُسعد نفسك، تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا)

إن الإنسان إذا كان عنده مركبة غالية جداً، وبلورها ثمنه ثمانون ألفًا، فأمسك بحجر وكسر البلور الأمامي، فهو يكون أذى من ؟ انتقم ممّن ؟ يكون أحمقً..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

تجد كثيرًا من الأشخاص يقولون لك: لأن فلان في الجامع لا أريد أن أذهب إلى الجامع، هذا حمق، ما علاقة فلان بالدعوة إلى الله ؟ فلان أساء لك في المسجد، دعه فأنت تبتغي مرضاة الله عزّ وجل، أشخاص كثيرون لسببٍ تافه يتركون الصلاة، فقد يقول: يا أخي واحد يصلي كذّب عليّ ! هذه الصلاة باطلة فلن أصلي، فهذا كلام حمق بحمق..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

هذه اللام سبحان الله لام الملكيّة، شيء الثمين يُمَلّك، أما على فشيء يسحق..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

جوهرة ثمنها مائة مليون يقول لك: هذه لك، هذه لام الملك..

(وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا)

تصوّر الإساءة كتلة من الباطون زنتها خمسة طن تهوي فوق إنسان..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

لام الملك مثل من معه جوهرة ثمنها مائة مليون، هذه لك، هذه ملكك..

(وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا)

ومن أساء صخرة كبيرة تهوي على إنسان..

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ

1 ـ الهّ نفى الظلم عن نفسه:

أقول لكم أيها الإخوة: الآيات التي تنفي عن الله الظلم هذه آيات في القرآن الكريم، والقرآن قطعي الثبوت، والآيات قطعيّة الدلالة، فإذا آمن الإنسان بالله من خلال الكون، وآمن بالقرآن من خلال إعجازه، وآمن بالنبي من خلال كتاب الله عزّ وجل، وهذا يجري كله بعقله، إذا جاء في كتاب الله آياتٌ تنفي عن الله الظلم فيجب أن تعتقد بها اعتقادك بوجودك، وإلا ففي الإيمان خلل.

لا تستطيع أن تُثبت عدالة الله بالدليل المادي:

أما أن تقول: الزلزال الفلاني، والفيضان الفلاني، والشعب الفلاني يموت من الجوع، والشعب الفلاني مستغل من قِبَل الشعب الفلاني، والحرب الأهليّة في المكان الفلاني، لا تستطيع أن تُثبت عدالة الله بالدليل المادي إلا إذا كان لك علمٌ كعلم الله، وهذا مستحيل، لكن الله أخبرك أنه لا يظلم مثقال ذرّة، وانتهى الأمر.

لا تسلك طريق معرفة الله من خلال الحوادث، هذه ألغام قد تنفجر، اسلك سبيل معرفة الله من خلال الكون، الكون أسلم، وهو طريق آمن، واعرف الله من خلال الكون، وصدِّقه حينما يقول لك:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

من خلال القرآن الكريم، تتوازن، أما إذا كنت تريد أن تتأمّل بما يجري في الأرض، فالله له علم نحن لا نعلمه، وله حكمة قد تخفى علينا، وله مقاصد لا نعلمها، لكن الزمن يكشفها، ربنا عزّ وجل يعالج، فقد يعالج شعوبًا بأكملها، يعالج مؤمنين مُقصِّرين..

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(القصص: الآية 5 – 6)

فالله له حكمة، وأنت لا ينبغي أن تتعرّف إلى الله من خلال أفعاله، هذه قد تلتبس عليك، اعرف الله من خلال خلقه، فهذا طريق آمن، أما إذا رأيت في الأفعال ما يوقعك في اللبس فاقرأ هذه الآيات:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

وانتهى الأمر، هذا كلام خالق الكون، هذا الكلام إذا وجدت فيه شكًا فجدِّد إيمانك بالقرآن، وإلا جدِّد إيمانك بالله عزّ وجل، أما إذا كان إيمانك بالله يقينيا، وبالقرآن يقينيا، وبالنبي يقينيا فهذا كلام الله..

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

2 ـ معنى ظلاّم:

هنا ظلاّم ليس معناها اسم مبالغة، فلو أنها اسم مبالغة لوقعنا في مشكلة، هو ليس بظلام، فهل هو ظالم إذاً ؟ لا، معنى ظلام أي ليس بذي ظلمٍ، ليست صيغة مبالغة، بل هي اسم من أسماء الله، ننفي عن الله عزّ وجل صفة الظلم فقط، ليس بذي ظلم.

لا بأس أن نعيد هذه الفقرة مرّةً ثانية لأهميّتها وخطورتها:

العقل محدود:

الإنسان أيها الإخوة أعطاه الله عقلاً، وبثّ الله آياته في الكون، فبإمكانه أن يوقن بشكلٍ قطعي بوجود الله وكماله ووحدانيّته بالعقل، وإذا قرأ القرآن بإمكانه أن يوقن من خلال عقله فقط أن هذا الكلام كلام الله، عن طريق إعجازه، وبإمكانه أن يوقن أن النبي صلّى الله عليه وسلّم هو رسول الله من خلال هذا الكتاب، هناك أدلّةٌ عقليّة، يقينيّة، قطعيّةٌ، ثابتةٌ لا مجال للشك فيها.

بالعقل يكفي كي تؤمن به وبكتابه وبنبيّه، لكن العقل يبقى جهازاً محدوداً، أنت عندك بقاليّة، تشتري ميزانًا بخمسمائة ألف، حسّاسا ودقيقا جدا، فيه ذاكرات، أحدث ما صُنِع للموازين، ومع ذلك هذا الميزان يزن حتى خمسين كيلوا، الصانع صمّمه هكذا، فمادام الوزن أقلّ من خمسين يعطيك نتائج بارعة وباهرة، أما لو سوّلت لك نفسك أن تزين به سيّارتك لكسّرت الميزان وحطّمته، وعندئذٍ لا ينبغي أن تتهم الصانع: أن يا أخي ما هذا الميزان، فهو لم يعمل ؟ أنت كلّفته ما لا يطيق، كلّفته بمهمّةٍ لم يُصمّم لها.

فعقلك إذا وجّهته لموضوعات ضمن اختصاصه يعطيك نتائج باهرة، أي أنك إذا فكّرت في الكون فالله عزّ وجل قال:

(إنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

الله أمرنا أن نفكّر في الكون، هذا من مهمّته، قال لك:

(أَفَلا يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

مهمة العقل، اقرأ وتدبّر..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون: من الآية 69)

تفكّر بالنبي الكريم، بمعجزاته، بأخباره، بأخلاقه، بما جاء به من سنةٍ نبويّةٍ محكمةٍ رائعةٍ مدهشة.. إلخ، لكن لو كلّفت العقل ليبحث في ذات الله فإنك تحطِمه، لأنه لم يصمّم ليبحث في ذات الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[من التفسير بالمأثور عن يونس بن مسيرة]

الموضوعات الغيبية أساسها التصديق بالنص الصحيح لا العقل:

تماماً كما لو أننا اشترينا ميزانا ثمنه نصف مليون ليرة حسّاس جداً، ووزنا فيه السيارة فحطّمناه، تماماً كما لو وقعت ورقة دخينة رقيقة في فرن صهر الحديد، وسألت: ما الذي حدث لها ؟ هذه من الوهج تبخّرت، فعندما توجّه عقلك لمعرفة ذات الله تعجز، والشيء الذي يعجز عنه عقلك أخبرك الله به في القرآن، وأنت له مرتاح، لو وجّهت عقلك إلى البحث في الماضي السحيق، الله قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

ما كانوا معي وقتها، لو وجّهت عقلك للبحث في المستقبل البعيد فقلت: أنا أريد دليلا قطعيا على الجنّة، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، هذه أخبارٌ قطعيّة الثبوت جاءت في كتاب الله، لكن لا يستطيع عقلك أن يثبتها بالمادّة، مستحيل، إلا بالتصديق..

أيها الأخ الكريم... يجب بادئ ذي بدء أن تفرّق بين ما ينبغي أن تعمل عقلك به وبين ما ينبغي أن تصدّقه، وأكبر غلط حينما تنقل موضوعًا من الذي ينبغي أن تصدِّقه إلى حقل العقل، فتقع في متاهات كبيرة.

أنا عندي قاعدة: هذا الموضوع إخباري انتهى الأمر، لست مكلّفاً أن تصدِّقه إلا بعد أن تؤمن بالله وكتابه ورسوله، إذا آمنت بالله وبكتابه وبرسوله الآن أنت مكلّف أن تصدِّقه، فإن لم تصدِّقه فارجع إلى إيمانك ففيه خلل، لذلك عندنا أخبار في القرآن هذه ليست خاضعة إلا للتصديق ؛ فالله عزّ وجل أخبرك عن الجن، فهل عندك دليل مادي على وجودهم ؟ لا، أخبرك عن الملائكة، أخبرك عن مستقبل العالم، أخبرك عن يوم القيامة، أخبرك عن حال أهل النار، عن حال أهل الجنّة، عن الصراط، عن الميزان، عن يوم تُنشر الصحف، هذه كلُّها موضوعات إخباريّة لا تخضع لمناقشة العقل.

والماضي السحيق ؛ كيف خلق آدم، وكيف خلق حواء، وكيف أخرجهما من الجنّة هذا موضوع إخباري لا يخضع لسيطرة العقل.

وذاته العالية العظيمة الكاملة هذا موضوع إخباري لا يخضع لسيطرة العقل..

(إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(7))

(سورة المجادلة)

كيف يعلم ؟ هذا ليس شغلك، أخبرك أنه يعلم وانتهى الأمر، فنحن يجب أن نفرّق بادئ ذي بدء بين الموضوعات العقلانيّة التي ينبغي أن يعمل بها العقل، والموضوعات الإخباريّة التي ينبغي أن يصدِّقها العقل، لكن أنت لست مكلّفًا أن تصدِّق إلا بعد أن تؤمن، فأنت اجعل همّك الأول أن تؤمن بالله بوجوده وكماله ووحدانيّته، وأن تؤمن بكتابه المُعجز، وبنبيّه المرسل.

أي موضوعٍ لا يخضع لعقلك أخبرك الله عنه، فلو قلت: يا أخي أنا عندي هذا الميزان، وعندي هذه المركبة، ونريد أن نعرف وزنها ؟ اسأل الصانع، وأساساً وزنها مكتوب عليه ألف ومائتان وثمانية وثلاثون كيلوا على لوحة مثبّتة على المركبة، انتهى الأمر، هذا وزنها، أنت تستخدم الميزان للبقاليّة ضمن خمسين كيلوا، أما هذه المركبة فتأخذ وزنها من المعمل، أما أن تحاول وزن المركبة بهذا الميزان تكسره، تحطِمه، عندئذٍ لا ينبغي أن تتهم العقل: يا أخي العقل قاصر، لا ليس قاصرا، هو يعطيك أرقى النتائج إذا أعملته في الحقل المخصّص له.

إذاً الله عزّ وجل قال:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

لو ترى بعينك مليون قصّة فيها ظلم، القرآن أثبت هذه القصص لا تعرفها، أنت تعرف منها قصّة اثنين أو ثلاثا، كل قصّة فيها خمسة فصول، فيها عشرة فصول، إذا عرفت أول فصل لا يكفي، الثاني لا يكفي، الثالث لا يكفي، الرابع، الخامس، السادس، السابع، الثامن، لو عرفت تسعة فصول لا تستطيع أن تحكم على هذه القصّة فيها عدل أم ظلم ؟ ما دام ليس لديك إمكانيّة أن يكون لك علمٌ كعلم الله، لا تستطيع إثبات عدالة الله إلا إذا كان لك علمٌ كعلمه، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(17))

(سورة الإسراء)

مرّة ـ هذه القصّة أحب أن أذكرها لأنها واضحة جداً في دلالتها ـ استوقفني إنسان، اثنان تخاصما في سوق تجاري، واحد أطلق على الثاني النار فأصاب صاحب محل تجاري بريء، مدّ رأسه ليعرف من أين إطلاق النار فجاءته رصاصة في عنقه فجعلته مشلولاً فوراً، فقال لي أحدهم: ما ذنب هذا الإنسان ؟ جاء ليفتح محلّه التجاري فإذا بهذه الرصاصة تجعله مشلولاً، قلت: الله أعلم، أما ربنا عزّ وجل..

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

بعد عشرين يوماً لي صديقٌ يسكن في أحد أحياء دمشق له جار، هذا الجار وصيٌ على أموال أولاد أخيه اليتامى، وقد أكل من أموالهم مبلغاً ضخماً يكفي ثمن بيت، واحتكموا لأحد علماء دمشق الأكارم الذي توفّاه الله قبل أعوامٍ ثلاثة، قال هذا العالم لمن اشتكى على هذا الوصي: لا تشتكوا على عمِّكم، هذا عارٌ بكم، اشكوه إلى الله عزّ وجل.

هذا الكلام تمّ في الساعة الثامنة مساءً، وفي صبيحة اليوم الثاني هو نفسه الشخص الذي فتح محلّه التجاري ومدّ رأسه، فجاءت رصاصة وجعلته مشلولاً، فإذا نظر الرجل ببساطه للأمر يجد أنه ما فعل شيئًا، جاء ليفتح محلّه التجاري، وأودت به هذه الرصاصة، وجعلته مشلولاً، لو عرفنا ماذا فعل مع

أولاد أخيه قبل يوم، وكيف أنه أصرّ على أن يأكل أموالهم بالباطل، وأنه أبى أن يسمع لنصيحة العلم لعرفنا الحقيقة.

خاتمة:

أنت لا تعرف، لو عرفت من قصة خمسة فصول فهناك خمسة آخرين، عرفت ستة بقي أربعة، سبعة بقي ثلاثة، ثمانية بقي اثنان، تسعة بقي واحد، قد يكون السر كامنا في آخر فصل، لأنك لا تعرف، فأنت عشرات الآيات، بل بضع عشرات تؤكِّد لك أن الله لا يظلم:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

خيط في النواة بين فلقتيها..

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

يوجد رأس مدبّب في نواة التمرة، لا يظلمون مقدارا:

(مِنْ قِطْمِيرٍ(13))

(سورة فاطر)

غشاء رقيق شيء لا يُذكر لا قيمة له، في هذا المستوى..

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

من لوازم إيمانك بالله أن تؤمن بعدالته المُطلقة، أما إذا رأيت شيئاً لا تعرف تفسيره أوكله لله عزّ وجل، هكذا المؤمن.

فلدينا موضوعات في العقيدة موضوعات عقلانيّة تخضع للعقل، وهناك موضوعات إخباريّة، فالشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، فإن لم تصدِّقه فجدِّد إيمانك بالله، وجدِّد إيمانك بالكتاب، وإيمانك بالرسول.

فإذا سمحت لعقلك أن ينتقد خبرًا يقينيًا جاء في كتاب الله، فمشكلتك مع نفسك، عندئذٍ جدِّد إيمانك بالله أولاً، وإيمانك بالكتاب ثانياً، وإيمانك بالنبي ثالثاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (11-11): تفسير الآيات 47- 54

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر والأخير إن شاء الله تعالى من سورة فصِّلت، ومع الآية السابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثى وَلَا تَضَعُ إِلّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنّاكَ مَا مِنّا مِن شَهِيدٍ)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ

لا أحد من المخلوقات يعلم متى الساعة:

في هذه الآيات الأخيرة من سورة فصّلت يبيّن الله سبحانه وتعالى أنه استأثر بعلم الساعة، أي أن علم الساعة ووقوعها لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والبشر لا يعلمون الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله.

الغيب ثلاثة أقسام:

والغيب أيها الإخوة قسّمه العلماء إلى أقسامٍ ثلاثة: غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، ومن أسباب إعجاز القرآن الكريم أنه أخبرنا عن غيب الماضي، وأنه أخبرنا عن غيب الحاضر، وأنه أخبرنا عن غيب المستقبل، لكن الله سبحانه وتعالى وحده يعلم الغيب، فإذا أعلمنا به النبي عليه الصلاة والسلام فهذا من إعلام الله للنبي عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب بذاته، بل بإعلام الله له، هذه حقيقة..

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران: من الآية 44)

هذه القصص التي وردت في القرآن الكريم من غيب الماضي، وكذلك ذكر القرآن الكريم..

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

(سورة الروم)

هذا غيب المستقبل، وقد وقعت هذه المعركة، بل إن في هذه الآية إعجازاً إخبارياً مستقبلاً، وكذلك في الآية إعجازٌ علمي، لأن أدنى نقطةٍ في الأرض هي غَوْر فلسطين، الغور الذي ينخفض عن سطح البحر مئات الأمتار، وقد تمّت المعركة بين الفرس والروم في هذا الغَور، ولا يعلم أحدٌ إلا منذ أمدٍ قصير أن هذه النقطة أخفض نقطة على سطح الأرض، لذلك قال تعالى:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الأَرْضِ)

ـ أي في أدنى مكان ـ

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ)

هذا من إعجاز القرآن العلمي.

وأما إعجازه الإخباري فإخباره عن قصص الأنبياء السابقين، وعن شيءٍ وقع بعيدًا عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، هذا غيب الحاضر، وعن شيءٍ سيقع في المستقبل، هذا غيب المستقبل، ولا يعلم الغيب إلا الله.

لكن الإنسان الذي يعيش في منطقةٍ ما يشهد الوقائع التي تجري أمامه، فهذا الواقع بالنسبة إليه عالَم مشهود، فالعالم عالمان ؛ عالَم مشهود، وعالم غيبي، فالذي تعيشه أنت، وتعاصره، وتراه بعينيك وبحواسِّك فهذا عالم الشهود بالنسبة إليك، أما من ابتعد عن هذا المكان فهو غيبٌ بالنسبة إليه، لكنه غيب الحاضر، الذي وقع في الماضي، ولا تعلم كيف وقع فهذا غيب الماضي، لكن غيب المستقبل لا أحد على وجه الأرض يعلمه إلا الله.

من أبرز أحداث المستقبل علم الساعة، نهاية العالم، **" متى الساعة يا رسول الله ؟ "**. قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ))

[مسلم عن عمر بن الخطاب]

أحد الأئمّة الكبار، وهو الإمام مالك رأى في المنام ملك الموت، قال: " يا ملك الموت كم بقي لي من أجلي ؟ " فأشار ملك الموت إليه بأصابعه الخمس، فلما استيقظ الإمام مالك وقع في حيرةٍ شديدة، أهي خمس سنوات، أم خمسة أشهر، أم خمسة أسابيع، أم خمسة أيام، أم خمس ساعات ؟ فلمّا توجّه إلى الإمام ابن سيرين المختصُّ بتفسير المنامات قال: **" يا إمام، يقول لك ملك الموت: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله "**.

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ)

لذلك الإنسان لا يعلم متى الساعة، فإذا أردت أن تفهم ساعة يوم القيامة، وإن أردت أن تفهم الساعة ساعة الإنسان، ولكلٍ منا ساعة فلن تستطيع ذلك، يا ترى متى ؟ **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت "**.

متى الساعة ؟ متى ينتهي أجلي ؟ في أي سن ؟ في أي يوم ؟ في بيتي أم خارج بيتي ؟ في حضرٍ أم في سفر ؟ في الليلِ أم في النهار ؟ على أي طريقةٍ أموت ؛ بمرضٍ ؟ بحادثٍ ؟ لا أحد يعلم، وما دمنا لا نعلم ينبغي أن نستعدّ لهذا الحدث الذي لابدّ منه، وما رأيت عاقلاً أعقل ممن يستعد للقاء الله تعالى، بالاستقامة على أمره، وبالأعمال الصالحة، وبالتوبة إليه، وباب التوبة مفتوحٌ للإنسان ما لم يغرغر..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: من الآية 185)

فالمؤمن العاقل يبادر من فوره إلى التوبة إلى الله.

((ابن آدم، لا تعجز، ادعني أجبك، استغفرني أغفر لك))

[ورد في الأثر]

ولا تنسوا هذا الحديث الشريف الصحيح الذي يصف فيه النبي عليه الصلاة والسلام ربه فيقول:

((إن اللّه تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر))

[مسلم]

أي يجب على الإنسان أن لا يضيع الفرصة، لأن باب التوبة مفتوح، وما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح، والصلح مع الله يسيرٌ جداً.

" إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

((لو أتيتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[مسلم]

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)

(سورة الزمر: من الآية 53)

عندما أغفل ربنا عزّ وجل عنا علم الساعة، لك أن تقول: ساعة يوم القيامة، ولك أن تقول: ساعة نهاية الحياة، هذه الساعة مغيّبةٌ عنّا، وأقرب الساعتين إلينا ساعة الموت.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27))

(سورة الفرقان)

العاقل مَن يستعد لساعة الحقيقة:

هذه الساعة الإعداد لها هو قمة العقل، قمة الذكاء، قمة التوفيق، قمة النَصر، قمة التفوُق، قمة الفلاح، قمة الفوز، قمة العقل أن تعد لهذه الساعة عُدّتها..

((الْكَيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنّى عَلَى اللّهِ))

[من سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

فأخشى ما يُخشى على الإنسان أن يستهلكه الزمن، وأن تستهلكه همومه ومتاعبه ومشاغله، من همٍّ إلى همٍّ، من إنجازٍ إلى إنجاز، من موعدٍ إلى موعد، من لقاءٍ إلى لقاء، من مشكلةٍ إلى مشكلة، من مطبٍ إلى مطب إلى أن يأتي أجله، فيذهب إلى الدار الآخرة صفر اليدين، وكل شيءٍ تَعِبَ فيه في الدنيا خلّفه في الدنيا، دقِقوا في هذا الحديث:

((أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار))

[ورد في الأثر]

المال نفسه حصّله بطريقةٍ غير مشروعة، وضيّع من أجل هذا المال دينه وآخرته، فاستحق دخول النار بهذا المال الذي كسبه، فجاء ورثته ـ أبناؤه ـ كسبوه حلالاً، وأنفقوه في الطريق المشروع، فاستحقوا دخول الجنة، فـ..

((أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار))

[ورد في الأثر]

والميّت ترفرف روحه فوق النعش فتقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حلِّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم، والتبعة علي ".

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ)

شيءٌ آخر يُردُّ إليه..

(وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا)

وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا

1 ـ انعقاد الثمرة بأمر الله عزّ وجل:

انعقاد الثمرة بأمر الله عزّ وجل، لذلك إخواننا الريفيون يلاحظون ملاحظة عجيبة، يقول لك أحدهم: في هذه السنة الموسم جيد جداً، والموسم الفلاني ضعيف، أحياناً يعطي الله عطاءً مدهشاً، ففي بعض السنوات كيس القمح في المناطق الريفية ـ في شمال سورية وفي شرقها ـ أعطى أكثر من سبعين أو ثمانين كيسًا، وصل كيس القمح إلى مائة وعشرين كيسًا، وفي بعض السنوات نحتاج جميعاً إلى مليون طن من القمح فكان إنتاجنا ثلاثة ملايين طن، وفي سنوات أربعمائة ألف، وهذا أقلّ من حاجتنا، فانعقاد الثمرة في المحاصيل، أو في الخضراوات، أو في الفواكه والثمار..

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا)

2 ـ النبات آيةٌ من آيات الله الدالّة على عظمته:

لكن انعقاد الثمرة شيء لا يصدّق، فربنا عزّ وجل جعل النبات آيةً من آياته الدالّة على عظمته، ظاهرة النبات أن هذا النبات الأخضر، وأن هذه الورقة الخضراء فيها من العجائب ما لا يُصدّق، الورقة الخضراء معملٌ، وأعظم معمل صنعه الإنسان يبدو أمامها سخيفاً، تافهاً، مبتذلاً.

الآن أعظم معمل صنعه الإنسان يبدو أمام الورقة الخضراء عملاً سخيفاً بسيطاً، لأن هذه الورقة تأخذ من التربة ما يزيد على ثمانية عشر معدناً مذابًا في الماء عن طريق الجذور، وعن طريق النسغ الصاعد، وتأخذ من الشمس طاقتها الحراريّة ـ الفوتونات ـ وتأخذ من الهواء ثاني أوكسيد الكربون، وفيها مادة اليخضور، وفيها ذرات الحديد، هذه الورقة بتفاعلاتٍ عديدةٍ عجيبة يصعب على العقل فهمُها، تصنع الورقة نسغاً آخر ينزل، هذا النُسُغ سائل موحّد يسهم في تصنيع الجذور، وتصنيع الجذع، وتصنيع الفروع، وتصنيع الأغصان، وتصنيع الأوراق، وتصنيع الثمار والأزهار، فانعقاد الثمرة في أكمامها بيد الله سبحانه وتعالى.

والشيء الذي يلفت النظر هو أن هذه البذرة فيها خصائص الثمرة، وقد تزيد الخصائص على مائة خاصّة، كلها في البذرة على شكل أوامر مُبَرْمَجَة، تقول: هذا النبات يقاوم المرض فلاني، وهذا النبات يقاوم البرد، وهذا النبات إنتاجه مبكّر، وهذا النبات إنتاجه حامضي، وهذا النبات نسيجه كثيف، وهذا

النبات ماؤه كثيف، وهذا النبات من أجل العصير، وهذا النبات من أجل المائدة، فهناك أنواع منوّعة جداً جداً في كل نبات يخلقه الله سبحانه وتعالى.

يكفي أن من أصناف القمح ما يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة نوع، يكفي أن أنواع العنب تزيد على ثلاثمائة، يكفي أن كل محصولٍ وكل نباتٍ أنواع منوّعة ترضي كل الأذواق، التفّاح مثلاً كم نوعا ؟ الدُرّاق كم نوعا ؟ القمح كم نوعا ؟ هناك نوع قاس، نوع ليّن، نوع يصلح للصناعة، نوع يصلح للخبز، فكل نوع له خصائص.

هذا العلم ؛ إنبات النبات، انعقاد الثمار في أكمامها هذا يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، هو الرزّاق، وهذه ظاهرة وعلى مستوى البلاد كلِها، يقول لك: هذه السنة المحصول الفلاني جيد جداً على مستوى كل المحافظات، وهذه السنة المحصول الفلاني ضعيف جداً، في بعض السنوات الذين ضمنوا بعض الفواكه، دفعوا ثمن الكيلو في تقديرهم عشر ليرات، بيعت هذه الفاكهة بخمس ليرات لوفرة الإنتاج، فلذلك انعقاد الثمرة تعود إلى الله سبحانه وتعالى..

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى)

وَما تَحْمِلُ مِنْ أنثى

أيّ أنثى، أي أن الشيء الذي يتوالد هو النبات والحيوان، فانعقاد الثمرات بيد الله، وحمل الأنثى للجنين بيد الله سبحانه وتعالى، يجعل امرأةً عقيماً، ويجعل امرأةً تلد الإناث، وهذا من الرجل في العلم الحديث، وتؤكِده الآية الكريمة:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

1 ـ الحوين:

أي أن الذي يحدّد نوع الجنين ليست الأنثى لكنه الرجل، على كلٍ هناك بحث في انعقاد الحمل في رحم الأنثى، وهو بحثٌ طويل، لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن هذه الحوين الذي تصنعه الغُدَد الخاصة به يجري إعداده في ثمانية عشرّ يوماً، هذا الحوين يعدُ في الغدّة الخاصّة به لفترةٍ طويلة، ولكن قبل أن ينتقل من مكان إعداده إلى مكان فاعليّته تجرى عليه عمليّةٌ بسيطة حتى يصبح فعّالاً.

هذه النُطَف ثلاثمائة مليون حوين في اللقاء الواحد، كل حوين له رأسٌ، وله عنقٌ، وله ذنبٌ، وهذا الحوين فيه معلومات لتشكيل الجنين تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، ولك أن تسميها

مورّثات، أو تسميها صبغيات، أو تسميها معلومات تسهم في تشكيل هذا الجنين، كل صفات الجنين ؛ صفات جلده، وصفات شعره، وصفات أعضائه وعضلاته، ولونه، حتى خصائصه الداخليّة ؛ خصائص دمه، وكبده، وقلبه، هذه الخصائص تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة، لو أردنا أن نكتبها في كُتُب لكانت مكتبة بأكملها لا تتسع لهذه المعلومات، كلُها في حوينٍ، كل ثلاثمائة مليون حوين لا تزيد على سنتيمتر مكعّب.

والبويضة تحتاج إلى حوين واحد، يصل إلى البويضة أقواها، وفي رأس الحوين مادّةٌ نبيلة مغلّفةٌ بغشاءٍ رقيق، إذا اصطدمت بالبويضة تمزّق الغشاء، فأسهمت هذه المادة النبيلة بالوصول إلى داخل البويضة، تذيب جدار البويضة، فيدخل هذا الحوين إلى البويضة، يُغلق الباب، وتصاب بقية هذه الحوينات بالإحباط، لقد انتقت البويضة أقوى هذه الحويْنات وانعقدت، وانعقد الحمل.

2 ـ البويضة:

تنطلق البويضة من المبيض إلى الرحم، في أثناء انطلاقها تنقسم إلى عشرة آلاف خليّة دون أن يزيد حجمها، ولو زاد حجمها لوقفت في الطريق، لأن الأنبوب دقيق جداً، فإذا وصلت إلى الرحم انغرست فيه، وهناك علومٌ والله لا يتسع لا هذا الدرس ولا مئة درسٍ لتفصيلها في علم الأجنّة فقط، شيء لا يصدّق.

كيف تغرس في جدار الرحم ؟ كيف تأتي الدماء لتغذي هذه البويضة ؟ كيف تتشكّل أعضاؤه الأساسيّة؟ كيف تطوّر هذا الحمل إلى أن يصبح طفلاً جنيناً في تسعة أشهر، كاملاً ؛ فيه دماغ، فيه جمجمة، فيه عمود فقري، فيه عضلات، فيه عظام، فيه جهاز هضم، فيه جهاز دوران، فيه جهاز تصفية، فيه غدد صمّاء، فيه بنكرياس، فيه كبد، فيه شعر، فيه جهاز تناسلي، فيه جهاز بولي، فيه جهاز هضمي، فيه جهاز دوران، كل هذا من حوينٍ واحد، فالإنسان بإمكانه أن يعرف كيف خُلِق من خلق ابنه..

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

من دون حساب..

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

(سورة القيامة)

بلى إنه على كل شيء قدير.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116))

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة الكرام، التفكّر في خلق الإنسان من أرقى العبادات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

(سورة الطارق) إذاً:

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ

أي الذين عبدتموهم من دوني، الذين أشركتموهم معي، أين هؤلاء الشركاء ؟ قالوا:

(قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ)

أعلمناك يا رب أنه ما شهدنا أحداً غيرك، ولكن كذبنا على أنفسنا، قال:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 24)

آذنّاك أي أعلمناك ما منا من شهيد..

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ)

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ

لو أنهم دعوا شركاء غير الله سبحانه وتعالى في الدنيا، وجاءوا ربّهم يوم القيامة فاستنجدوا بهؤلاء الشركاء، أين هم ؟ أين شركائي ؟

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

المؤمن يعرف الحقيقة وهو في الدنيا:

أيها الإخوة، من نعمة الله الكبرى على المؤمن أن الحقيقة التي يعرفها كل الخلق يوم القيامة، الخمسة آلاف مليون الذين يعيشون معنا الآن وهم في ضلالٍ عن هذه الحقيقة، الحقيقة التي سيعرفها الناس جميعاً يوم القيامة يعرفها المؤمن، وهو في حياته الدنيا، هذه أكبر نعمةٍ على الإنسان، لذلك قال بعض الصحابة وأظنّه عليّ بن طالب كرّم الله وجهه: **" والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً "**، وقال صحابيٌ آخر: **" والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".**

أروع شيء أن يعرف الإنسان الحقيقة في الوقت المناسب، لكن إنسانا اعتنق مبدأ غير صحيح، ثم اكتشف في آخر حياته أن هذا المبدأ هدّام، ليس له أصل في الواقع، مبدأ مُفْتَعَل، مبدأ شيطاني، أليست هذه خسارة كبيرة ؟ أليس هذا إحباطا لا يحتمل ؟

(وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

أي لابدّ من أن يلقوا هذا العذاب، ولم ينفعهم أحدٌ دعوه من دون الله عزّ وجل.

لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ

1 ـ من طبيعة الإنسان أنه يحب الخير ولا يسأم منه:

أما طبيعة الإنسان:

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ)

دائماً يطلب الخير، يريد الصحّة، يريد المال، يريد الجمال، يريد البيت، يريد الأثاث، يريد المَركبة، الدخل الكبير، العِزّ العريض، الشأن الرفيع، هذا الخير ؛ المال، والجمال، والقوة، والمَنَعَة، والأنصار، والأتباع، والأشياء الماديّة المُبْهِجَة..

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ)

لا يمل، أيّ إنسانٍ هذا ؟ قبل أن يعرف الله، فالإنسان إذا ورد معرّفة بأل فهذه أل الجنسيّة، أي أن جنس الإنسان قبل أن يعرف الله..

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ)

من طلب الخير، من البحث عن الخير في مقياسه، في نظره، في موازينه..

(وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

2 ـ من طبيعة الإنسان أنه يكره الشرّ:

لو أن هذا العطاء توقّف قليلاً، لو أنه خسر بعض صحّته، أو بعض ماله تراه عابساً، مُقَطِّباً، مُزَمْجِرَاً، يائساً، سوداوي المزاج، ضيّق القلب، فما هذا التناقض ؟

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

هذه حقيقة الإنسان، لكن المؤمن يطلب الخير، ويصبر على بلاء الله سبحانه وتعالى، يطلب الخير الحقيقي ـ خير الآخرة ـ ولا تعنيه الدنيا كثيراً، فإذا امتحنه الله بشيء تجده صابراً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ؛ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ، وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

[من مسند أحمد عن صهيب]

الكافر يطلب الدنيا، وإذا أصابته فيها مصيبة..

(فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

المؤمن يطلب خير الآخرة، فإذا ابتلاه الله في الدنيا بمصيبةٍ تراه صابراً راضياً عن الله عزّ وجل.

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ

الآن مع حالةٍ ثالثة:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ)

أصابه شبح مرضٍ عُضال، ثم أثبت التحليل أنه بريء من هذا المرض العضال، أصابه فقرٌ مدقع، ثم زال هذا الفقر، ونَعِمَ بدخلٍ كبير، أصابه همٌّ فزال ذلك الهم، أصابته مصيبة فانحسرت تلك المصيبة، قال:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا)

منّا تفضُّلاً، وتكرُّماً، ومِنْحَةً، وهبةً..

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي)

لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي

بعضهم قال: هذا ما استحقُّه، وبعضهم قال: هذا من صنعي، ومن تدبيري، ومن علمي، ومن خبرتي..

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)

1 ـ الغافل ينسب الخير لنفسه:

يعبّر بعض الناس الغافلين عن هذه الحقيقة، فيقول لك: معك قرش تساوي قرشًا، الدراهم مراهم، ليس هناك آخرة، هذه الدنيا هي كل شيء، من كان فيها غنياً فهو السعيد، ومن كان فيها فقيراً فهو الشقي، فالإنسان أحياناً القوة تُعْمِيه، ويُطْغِيه المال، وتُلْهيه الصحّة، قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنّا مِن بَعْدِ ضَرّاء مَسّتْهُ لَيَقُولَنّ هَذَا لِي)

أي هذا ما أستحقّه، تألياً على الله، أو هذا ما كان من صنعي، ومن تدبيري، ومن خبرتي، ومن سعيي، ومن كدِّي، ومن اجتهادي، فيعزو هذا الفضل الكبير الذي تفضّل الله به، والذي أكرمه به إلى سعيه، وهذا شرك..

(وَمَا أَظُنُّ السّاعَةَ قَائِمَةً)

2 ـ الغافل لا يدخل الآخرة في حسابه:

من مات ورأى ماذا بعد الموت ؟ من هنا إلى ذلك يوم الله يفرجها الله، هذا كلام الناس، فهو يدخل في حسابه كل شيء إلا الموت، مع أن الموت أخطر شيء، تجد تفكير الإنسان في العمر الفلاني يحتاج إلى دخل أكبر، إذا سأوظِّف أموالاً من الآن، يقتطع من دخله مالاً يوظِّفه في جهة ليكون له دخل بعد سن معيَّنة من دون تعب، تجده يفكر في شيخوخته، يفكر بمستقبل أولاده، يفكر في بيته، أبيع هذا البيت بثمانية ملايين، ونأخذ بيت بالضواحي بلميونين، معنا فرق مالي نشتري به سيارة، نأخذ بيتًا صغيرًا، فهو يخطِّط، لكن يا ليته يخطِّط لمستقبله الحقيقي، لآخرته.

(وَمَا أَظُنُّ السّاعَةَ قَائِمَةً)

لو لم يقل الإنسان هذا الكلام كان فعله يؤكِّد ذلك، يخطِّط دائماً، إلا لما بعد الموت، هذا خارج حسابه..

(وَمَا أَظُنُّ السّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبّي إِنّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)

وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى

من استنباطات الجاهل الغافل:

ما دام أغناني في الدنيا فهو راضٍ عني، ولولا أنه راضٍ عني ما أغناني، ما دام قد أطلعني على ملكه فهو راضٍ عني، فاستنباطات الإنسان الجاهلي الغافل سخيفةٌ جداً ؛ ما دام قد أطلعه على مُلكه فهو راضٍ عنه، ما دام قد أغناه فهو راضٍ عنه، مع أن الله أغنى قارون وهو لا يحبه، وأعطى فرعون وهو لا يحبه، لكن الذي يحبه يعطيه علماً وحكمة..

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14))

(سورة القصص)

(وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)

ضمن الدنيا والآخرة تألياً على الله، ببساطة، بسخف، بجهل، بغباء..

(فَلَنُنَبِّئَنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا)

هؤلاء الذين كفروا سوف ينبئون بما عملوا يوم القيامة ؛ أعمالهم، إساءتهم، فسادهم، انحرافهم، كذبهم، إفسادهم للناس، أعمالهم السيئة، اغتصابهم للأموال، انتهاكهم للأعراض، إفسادهم للمُجتمع، تسخير الناس لهم، بناء مجدهم على أنقاض الآخرين، بناء غناهم على فقر الآخرين، بناء أمنهم على خوف الآخرين، هؤلاء الذين كفروا ينبئون بما عملوا يوم القيامة..

(وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

أي عذاب لا يحتمل، الله سبحانه وتعالى العظيم يقول:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

(سورة البقرة)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

(سورة البقرة)

الآن هذا الإنسان نفسه ربنا عزّ وجل يحدِّثنا عن خصائصه..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ

حال الإنسان قبل الإنعام غير حاله بعده:

كان يصلي فلم يعُد يصلّي، كان يحضر مجلس علم عندما كان فقيرًا، فلما اغتنى قال لك: والله ما عندي وقت، عندنا شغل فلا مجال للحضور، قبل الزواج كان يحضر، تزوّج ألْهته الزوجة، واحتوته، وأنهته..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا)

لا ينبغي للعاقل أن تشغله الدنيا عن آخرته:

الزواج نعمة، العمل نعمة، الوظيفة نعمة إذا كانت وظيفة جيدة، العمل التجاري نعمة، العمل الصناعي نعمة، لكن الإنسان يغفل عن ربه للدنيا، لذلك قالوا: العمل المهني إذا كان في أصله مشروعاً، ومارسه الإنسان بطريقةٍ مشروعةٍ ؛ لا كذب فيه ولا احتيال، وابتغى به كفاية نفسه وخدمة المسلمين، ولم يشغله عن فريضةٍ ولا عن واجبٍ ولا عن طلب علمٍ انقلب إلى عبادة، أما إذا شغله عن واجبٍ ديني، أو عن فريضةٍ، أو عن طلب علمٍ هذا العمل الدنيوي خسارةٌ محقّقة، ولو درّ على صاحبه آلاف الملايين.

أيها الإخوة دقّقوا في هذه الكلمة: العمل الذي يستغرق كل وقتك عملٌ خاسرٌ حتماً، لأنه ألغى وجودك، ألغى رسالتك، ألغى مهمّتك في الحياة، العمل الذي يستغرق كل الوقت هذا خسارةٌ كبيرة ولو درّ عليك المال بأكبر رقم.

إخواننا الكرام... أحياناً يبحث الناس عن عمل، فيجدون عملاً يشترط صاحب العمل أن الدوام كامل حتى الساعة التاسعة، يلغي له كل الدروس، هناك إخوان صادقون لا يرضون بهذا، لا يقبل عملاً يلغي له طلبه للعلم، لا يقبل عملاً يلغي له هذه الساعات المباركة التي يكرمه الله بها، لذلك الذي يؤثر الله على الدنيا يأتيه عملٌ في المستقبل مريح، ويتيح له أن يطلب العلم، وبدخلٍ أكبر..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

قال:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

كان له دعاء رقيق ترك الدعاء، كان يجلس يقرأ القرآن بحرارة ترك القرآن، كان يصلي صلاة مُتقنة صار يصلي ترقيعا، كان يحضر مجلس علم فترك مجلس العلم، صار شخصيّة لامعة، صار رجل أعمال، صار عنده مشروع..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ

1 ـ المؤمن راض عن قضاء الله، والكافر ساخط:

أما إذا أرسل الله عزّ وجل له مشكلة تجده يعوي كالكلاب، وينهار، يصيح صياح الأعمى، هذه صفات الإنسان الغافل المُعرض ؛ لكن المؤمن أحياناً تأتيه مصيبة يرضى بها عن الله، يقبلها بقبولٍ حسن، يقول: يا رب أنا راضٍ عنك، أنا راضٍ عن قضائك وقدرك، أنا راضٍ بما قسمته لي، شتّان بين هذا وذاك.

قال لي طبيب يعمل في مستشفى، جاءه مريض مصاب بمرض عضال آلامه لا تحتمل، فهذا الرجل بعيدٌ عن الدين، فما من نبي إلا وسبّه سبابا لا يحتمل، تجد رائحة كريهة تخرج منه، الغرفة قطعة من جهنّم، إذا قرع الجرس لا يأتيه أحد اشمئزازاً منه، لحكمةٍ أرادها الله جلّ جلاله في الغرفة نفسها جاء مريضٌ آخر مصابٌ بالمرض نفسه، وبالآلام نفسها، ولكن يبدو أنه من أهل الإيمان، الطبيب الذي عالجه حدّثني من فمه قال لي: والله يا أستاذ، كلّما زاره زائر يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، هذه كلمة مأثورة له، وما سمعنا صياحه، ولا صوته، ولا تأففه، مع أنه كان يتحمّل أصعب الآلام، وكلّما جئته رأيت وجهه كالكوكب الدُرّي، أقسم لي إن له رائحة كرائحة المِسك، إذا قرع الجرس يتدافع الممرّضون لتلبية طلباته، وتوفّاه الله بأحسن حالة، مرض واحد أصاب مؤمنًا، وأصاب غير مؤمن، وهذا النجاح يجعله في أعلى عليين، والدنيا لا قيمة لها.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

الإنسان قد يكون مبتلى أحياناً، لكن بطولته ليس في أن لا يصاب بمرض، لكن بطولته إذا أصيب بمرض أن يتقبّله من الله عزّ وجل بالرضى.

ذكرت لكم من قبل أن رجلاً كان يطوف حول الكعبة ويقول: "يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ "، كان رواه الإمام الشافعي فقال له: " وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ " قال: " سبحان الله ! من أنت يرحمك الله ؟ "، قال: " أنا محمد بن إدريس "، قال: " كيف أرضى عنه وأنا أتمنّى رضاه؟ " قال: **" يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله "**. علامة إيمانك أن تستقبل قضاء الله وقدره بنفسٍ راضية، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

2 ـ الحياة دار ابتلاء:

الحياة دار ابتلاء أيها الإخوة، الله يمتحنك بالمال وبالفقر، بالصحّة والمرض، وبالقوّة والضعف، وبإقبال الدنيا وبإدبارها، دائما أنت ممتحَن، وأغلب الظن أنك ممتحنٌ في الحالتين دائماً..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

أتمتحن المركبة بالطريق النازلة ؟ لا بل بالطرق الصاعدة، الامتحان الصعب هو الذي يثبت جدارة هذه الآلة، هذا الإنسان الغافل الجاهل..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

على الإكرام يهرب، وقد سمّى النبي صلى الله عليه وسلم الإكرام بالغنى المُطغي، على الإكرام ينسى ربه، ينسى الصلاة، ينسى الصوم، يسافر لبلد غريب فيقول: هنا ليست الصلاة مناسبة، الصلاة فرض، وتجده لا يصوم، أحياناً يرتكب أكبر المعاصي لأتفه الأسباب، لئلا يقال عنه كذا وكذا..

(أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

3 ـ المؤمن كلّما زاده الله إكراماً زاده حباً لله:

أيها الإخوة والله الذي لا إله إلا هو إن المؤمن كلّما زاده الله إكراماً زاده حباً لله، وزاد تواضعاً له، وزاد طاعة له، وزاد ائتماراً بأمره، وزاد ذكراً له، وزاد خدمة للناس، المؤمن كريم الأخلاق، فإذا أكرمه الله يذوب شكراً، النبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقّت.

ومرّة ثانية أقول لكم أيها الإخوة: سهل جدا أن ينطلق الإنسان إلى الله بالمصيبة، ولكن بطولته تظهر في أن يذكر الله في الرخاء، ليس بك شيء، صحّتك تامّة، بيتك جيد، دخلك جيد، ليست لديك مشكلة في عملك، بطولتك وأنت في هذا الرخاء أن تنطلق إلى الله، تفرُّ إلى الله.

إن الإنسان لا ينتظر من الله تأديبًا، انطلق إليه قبل أن يحملك على أن تنطلق إليه، انطلق إليه طواعيةً، انطلق إليه مبادرةً، انطلق إليه حباً قبل أن يسوق الله للإنسان مصيبةً يجعله ينطلق إليه مقهوراً، وشتّان بين أن تنطلق إليه باختيارك، وبين أن تنطلق إليه مقهوراً.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون جميعاً غير هذا النموذج:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

المؤمن يزداد طاعة، والتفاتاً، وإقبالاً، وشكراً، وعملاً صالحاً، وتضحية، ومؤاثرةً كلّما زاده الله إكراماً، لذلك:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنّكُمْ)

(سورة إبراهيم: من الآية 7)

إذا كان الإنسان بحالة طيّبة، في بحبوحة، أموره ميسّرة ليس عنده مشكلة، وأراد أن تستمرّ هذه الحالة من دون أن تهتز فعليه بطاعة الله، لقول الله عزّ وجل:

(إنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بقوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بأنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: من الآية 11)

إنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بقوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بأنفُسِهِمْ

لا تغيّر كي لا يغيّر، إذا كان الإنسان متمتّعًا بصحّة، متمتّعًا ببيت، متمتّعًا بأهل، عنده سعادة، هذا التمتع بهذه السعادة لو أنه ثابر على طاعة الله، وعلى عبوديّته لله، وعلى خدمته للخلق، وعلى أعماله الصالحة أغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما به أبداً، بل إنه يزيده من فضله، فالمؤمن دائماً من حال إلى أرقى، من سعادة إلى أرقى، من توفيق إلى أكثر، دائماً في ازدياد، أي أن المؤمن خطه البياني صاعد صعودًا مستمرًا، حتى لو جاءه الموت يبقى خطّه البيانيُّ صاعداً، ما الموت إلا نقطة تحوُّل بسيطة على هذا الخط، خلع ثيابًا، وارتدى ثيابًا، وبقي خطه البياني صاعداً..

(قُلْ أرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمّ كَفَرْتُمْ بهِ مَنْ أَضَلُّ مِمّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

قُلْ أرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمّ كَفَرْتُمْ بهِ مَنْ أَضَلُّ مِمّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

إنسان يُشاقق الله عزّ وجل، عدوٌّ لدينه، عدوٌّ لشرعه، عدوٌّ لأوليائه، عدوٌّ للمؤمنين، هل يعقل هذا ؟

(مَنْ أَضَلُّ)

لا أشد ضلالاً ممن يشاقق الله:

أي من أشد الناس ضلالاً ممن يشاقق الله سبحانه وتعالى ؟! يخاصم دينه، يخاصم أولياءه، يخاصم المؤمنين، يتمنّى لهم المصائب، يفرح بمصائبهم، يتألّم لنجاحهم، هذا إنسان مع المنافقين..

(مَنْ أَضَلُّ مِمّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

المتكلِّم هو الله، والمخاطَب هم المؤمنون، والغائب من ؟ قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ)

1 ـ الإنجازات العلميّة كانت على يد الغَرْبيين لحكمة أرادها الله:

بعض المفسِّرين قالوا: لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل جعل الإنجازات العلميّة على يد الغَرْبيين، والتي تأتي متوافقةً مع آيات القرآن الكريم بشكلٍ لا يصدّق. فهذه الآيات سنريها للكفّار..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

2 ـ آيات الله في الكون لا تعد ولا تحصى:

كنت أقول دائماً: إن أبعد مجرّة اكتُشِفَت بعدها عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيّة، كنت قبل يومين في مجلس علمي مع دكاترة في الجامعة مختصين في الفلك، فأنبأني أحدهم أن أحدث مجرّة تبعد عنا الآن خمسة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيّة، والأربع سنوات ضوئيّة تحتاج إلى مسيرة بمركبة أرضيّة خمسين مليون عام ـ الأربع سنوات ـ فكيف بخمسة وعشرين ألف مليون..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

وكلّما تقدّم العلم وجد في الجسد شيئاً عجيباً ـ شيء لا يصدّق ـ مليار خليّة بالمعدة، ذكرتها اليوم في الخطبة، مليون ميكرون في الكليتين، طول الميكرونات خمسين كيلو متر، والكليتان مائة كيلو متر، يقطعها الدم في اليوم خمس أو ست مرّات، إذاً شيء لا يكاد يصدّق، مائة وثلاثون مليون عُصيّة ومخروط في الشبكيّة، ثلاثمائة ألف شعرة في رأس الإنسان، لكل شعرة بصلة، ووريد، وشريان، وعضلة، وغدّة، وعصب..

إذا أردت الآفاق فما أعظم الآيات في الآفاق، بعض العلماء قال: الكون فيه تقريباً مليون مليون مجرّة، وفي كل مجرّة مليون مليون نجم، والمسافات بين النجوم لا تصدّق..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

والشمس تتّسع مليون وثلاثمائة ألف أرض، وهناك نجوم تتسع لمليون شمس، هذه في الآفاق، اقرءوا، ادرسوا، فالآيات ناطقةٌ بوجود الله، وبعظمة الله، وكمال الله، وعلم الله، ووحدانية الله..

(وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

3 - جسمك آية:

جسمك أبسط شيء ؛ أنت ماشٍ في الطريق أطلقت وراءك سيارةٌ بوقها تحذِّرك، فانتقلت إلى الرصيف الأيمن، هل هناك في حياتك أبسط من هذه الحادثة ؟ فهناك جهاز معقّد جداً في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، صوت إلى كل أذن، والتفاضل واحد على ألف وستمائة جزء من الثانية، هذا الجهاز يحسب التفاضل، جاء الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن بواحد على ألف وستمائة جزء من الثانية، إذا كان الصوت من اليمين يعطي الدماغ أمرًا للعضلات أن اذهب إلى اليسار..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

أيها الإخوة فكِّروا في أجسامكم، شيء لا يصدّق، القلب مضخّة، تضخ كل يوم ثلاثة أمتار مكعّبة، كيف مستودعات الوقود السائل على ظهور أسطحة البنايات، فتجد من يقول: أخي أنا عندي خزان سعة اثنين طن، أي ألفي لتر، فالجسم يضخ ثمانية أطنان باليوم، يضخ الجسم بالعمر ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

الغدّة النخاميّة ملكة الغُدد، وزنها نصف غرام، تفرز اثنا عشر هرموناً، لو اختل هرمون واحد تصبح حياة الإنسان جحيماً، بعض الهرمونات تقيم توازنًا للسوائل، لو اختلّ هذا الهرمون الإنسان يجب عليه أن يجلس بجانب الصنبور يشرب طوال حياته، ويخرج هذا الماء بولاً، إذا اختل نظام السوائل في الجسم ـ شيء لا يكاد يصدّق ـ على كلٍ هذا عناوين موضوعات.

إذا لم يفكّر الإنسان بجسمه كل يوم ؛ بشعره، بعينيه، بأذنيه، بجهاز الهضم، بالمعدة، بالأمعاء، بالرئتين، بالقلب، بالشرايين، بالأوردة، بالقلب، بدسّامات القلب، كيف يعرف عظمة الله عزّ وجل ؟.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

حَتّى يَتَبَيّنَ لَهُمْ أنّهُ الْحَقّ

حتى يؤمنوا بكل خليّة، أحياناً الإنسان يعبّر عن إيمانه بالشكل التالي، يقول لك: والله كل خليّة في جسمي تنطق بوجود الله، كل خليّة تنطق بحمد الله، تنطق بعظمة الله، هذا الإيمان، المؤمن لو قُطِع إرباً إرباً لا يعصي الله، لأنه يرى عظمة الله عزّ وجل..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ)

في الكون حقيقة واحدة هي الله، كل شيء يقرّبك لها هو حق، وكل شيء يبعدك عنها فهو باطل، الشهوات تبعد، الطاعات تقرّب، لذلك أفضل مكان في الأرض المساجد لأنها تقرّب، أبعد مكان الملاهي والأسواق..

((خير البقاع المساجد، وشر البقاع الأسواق))

[كشف الخفاء عن ابن عمر]

ابحث عن شيء يقرّبك ؛ القرآن يقرّب، الكون يقرّب، الطاعة تقرّب، الصلاة تقرّب، العلم يقرّب، ابحث عن شيءٍ يقرّبك إلى الله عزّ وجل..

(ألَا إِنّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبّهِمْ)

ألَا إِنّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبّهِمْ

1 ـ كل إنسان يموت:

ساعة الموت لسنا مستوعبين لها، والله أيها الإخوة لو يكون الإنسان على غير طاعة لله، غير مصطلح مع الله، في عليه ذمم كثير، وفي عليه مشكلات ويشعر أن موته اقترب لمرض ألمّ به فجأةً، تشعر أن كل كيانه قد اهتز، شيء لا يصدّق، ويقول: سأموت.

قال لي مرّة طبيب زار امرأة فوجدها في حالة انهيار عصبي، فقالت له: سأموت، فقال لها: وأنا سأموت، كلنا سوف يموت، كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت..

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفـــجر

والعمر مهما طـــال فلابد من نزول الـــقبر

والحمد لله رب العالمين

الفهرس